تاريخ العـ
والعـ

مجلة شهرية مصورة تبحث في التاريخ العربي

السنة الثالثة - العدد الخامس والعشرون

تشرين الثاني (نوفمبر) الموافق ذو الحجة ١٤٠٠هـ



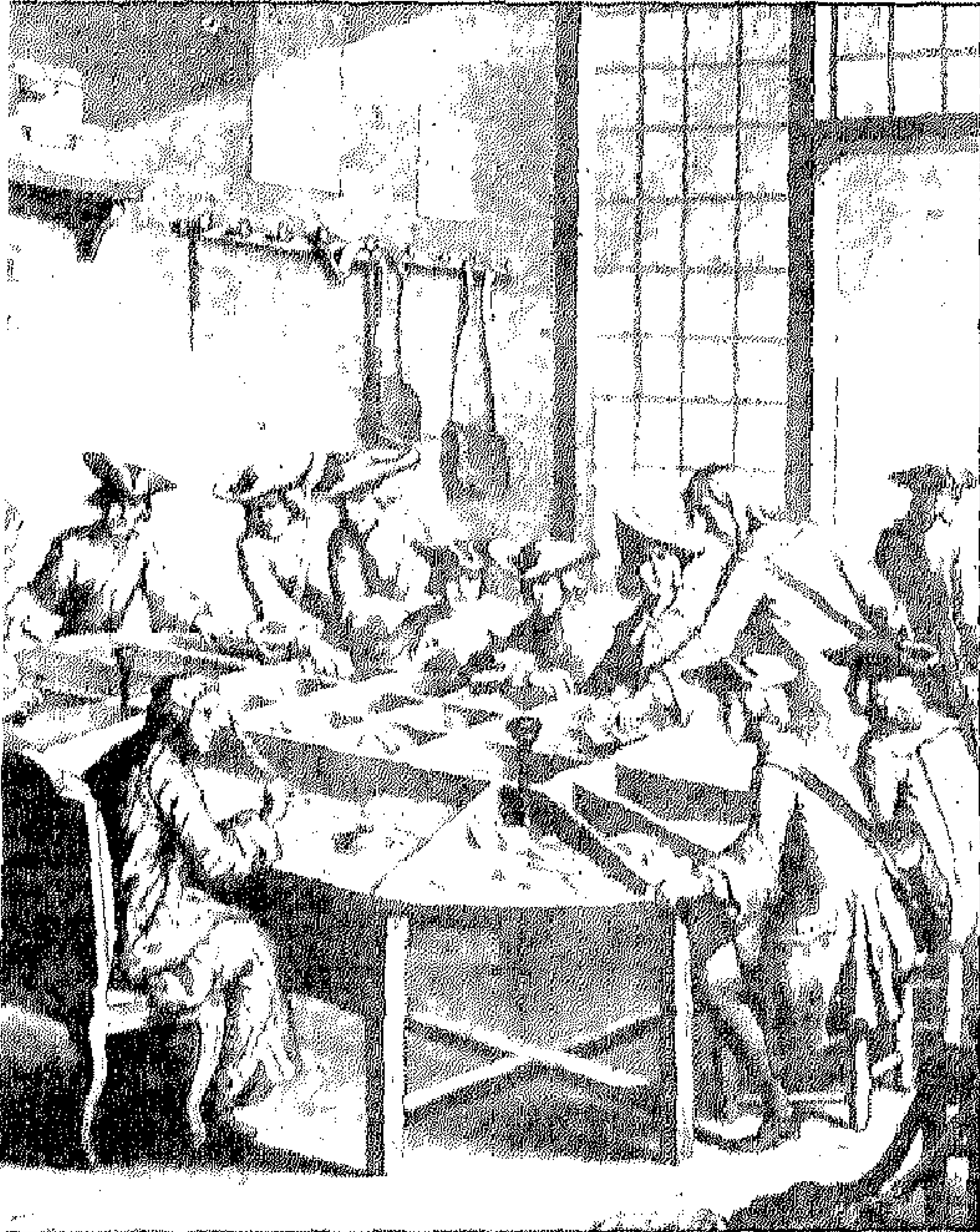
الماضي الذي سيأتي في عددنا المقبل



بسمارك والمسألة الشرقية

تاريخ نظم البريد في العالم

داخل احد مراكز البريد الباريسي عام ١٧٦٠.



تاريخ العرب والعالم

مجلة شهرية مصورة تبحث في التاريخ العربي

السنة الثالثة - العدد الخامس والعشرون - تشرين الثاني (نوفمبر) الموافق ذو الحجة ١٤٠٠هـ

تصدر عن دار النشر العربية في منتصف كل شهر

رئيس التحرير : فاروق البربير

المستشار : د. أنيس صايغ

المدير المسؤول : محمد مشموشي

الإنتاج : مطبعة المتوسط ش.م.ل. ● التوزيع : الشركة اللبنانية لتوزيع الصحف والمطبوعات

ثمن النسخة

لبنان : ٥ ل.ل.	سوريا : ٦ ل.س
العراق : ٨٠٠ فلس	ليبيا : ١ دينار
السعودية : ٨ ريال	الكويت : ٧٠٠ فلس
الاردن : ٥٠٠ فلس	أبوظبي : ٨ درهم
دبي : ٨ درهم	قطر : ٨ ريال
البحرين : ٨٠٠ فلس	عدن : ٨ شلنات
مسقط : ٨٠٠ بيزة	المغرب : ٦ درهم
فرنسا : ١٠ فرنكات	بريطانيا : جنيه استرليني
	اميركا : ٣ دولارات

الإشتراكات

(بما فيها أجور البريد الجوي)

في لبنان : للأفراد	٧٥ ل.ل.
للمؤسسات والدوائر الحكومية	٢٠٠ ل.ل.
في الوطن العربي : للأفراد	١٠٠ ل.ل.
للمؤسسات والدوائر الحكومية	٢٥٠ ل.ل.
خارج الوطن العربي : للأفراد	١٥٠ ل.ل.
للمؤسسات والدوائر الحكومية	٣٠٠ ل.ل.

تدفع قيمة الإشتراك مقدماً نقداً أو حوالة مصرفية أو بريدية .

ص.ب : ٥٩٠٥ - بيروت . لبنان . بناية أبو هليل - شقة ١١ . شارع الساادات - تلفون : ٨٠٠٧٨٣

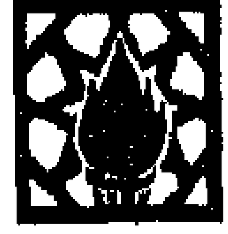
HISTORY OF THE ARABS AND THE WORLD

EDITED BY FARUK BARBIR
A MONTHLY ILLUSTRATED
MAGAZINE PUBLISHED FROM
SADATE ST. ABOU HLEIL
BLG. P.O.B. 5905
TEL. 800783
BEIRUT, LEBANON

Vol. 3. No. 25. Nov. 1980.
ANNUAL SUBSCRIPTION
$ 75 (INCLUDING $ 25 FOR
ADDITIONAL AIR MAIL CHARGES)
MAIL ALL COMMUNICATIONS,
INCLUDING SUBSCRIPTIONS TO:
«HISTORY OF THE ARABS AND THE WORLD»

تاريخ العرب والعالم

في عامها الثالث



في شهر تشرين الثاني من عام ١٩٧٨ ولدت «تاريخ العرب والعالم» وهي تحمل في صفحاتها الأولى شهادة الميلاد التالية:

«ان الوطن العربي يتعرض في الوقت الحاضر لغزوة فكرية شرسة، لا تستهدف الجيوش والحدود فقط وانما تستهدف التشكيك بتراثنا العربي ليكون هذا التشكيك والهدم مقدمة لاضعاف مقاومة الشعوب امام الغزو الفكري الجديد».

«لذلك فان امتنا مدعوة اليوم لبناء نفسها بناء حديثاً في شتى المجالات الثقافية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية، والطريق الى ذلك هو تعميق الثقة بالنفس وابراز الكيان الفكري الذي يعتمد على تراث عربي مجيد...»

«ومجلة تاريخ العرب والعالم ما هي الا خطوة متواضعة على هذا الطريق الطويل...» بهذه الكلمات القليلة، البسيطة، المعبرة، زفت «تاريخ العرب والعالم» نبأ ولادتها الى المواطن العربي اولاً، ومن ثم الى كل من تهمه قضايا التاريخ والتراث في العالم.

* * *

كل صحيفة او مجلة تحرص على نجاحها.. والنّجاح المادي للصحف الملتزمة بخط وطني ليس هدفاً في حد ذاته وانما هو وسيلة لوصول الكلمة الحرة المكتوبة الى اكبر عدد من الجماهير.

ولكي تنجح المجلة، يجب ان تكون حية ومتجددة ومقروءة.. ولكي تكون مقروءة.. يجب ان يكون اسلوبها سهلاً وبسيطاً يفهمه الطالب والعامل كما يفهمه المثقف. وهذه مهمة ليست سهلة على الاطلاق.. واحياناً تكون بعض الموضوعات جامدة.. أو يكون الاهتمام بها محصوراً في دوائر محدودة بالرغم من أهميتها.. واجب الصحافة في هذه الحالة ان تجعل من هذه المادة او تلك، مادة حية نابضة تثير اهتمام الجماهير. ولم تكن المهمة سهلة. كانت تحتاج الى مجهود كبير لتحويل بعض الابحاث الجامدة الى كلمات سهلة من خلال تقسيمها وتبويبها واعادة صياغتها أحياناً واضافة الصور الوثائقية والتاريخية الحية التي اصبحت جزءاً رئيسياً من المجلة.

وبهذا العدد، تبدأ مجلة «تاريخ العرب والعالم» سنتها الثالثة.

ماذا حققنا خلال السنتين الماضيتين؟

لعلّ الانجاز الاول الهام هو، بكل بساطة، استمرار صدور المجلة.. فلقد صدرت المجلة في اواخر عام ١٩٧٨ بينما كان عدد كبير من الصحف والمجلات يتوقف عن الصدور او يهاجر..

والاستمرار ليس سهلاً عندما تكون المجلة مستقلة وغير مرتبطة بنظام معين او بمؤسسة خاصة او بفرد يمولها.

والاستمرار ليس سهلاً عندما تحاول ان تستقطب احسن الكتاب فتصطدم بان الاتعاب الرمزية التي تدفعها للكاتب أو المؤرخ تساوي ربع ما يستطيع ان يربحه من مجلة أخرى!

والاستمرار ليس سهلاً حين ترتفع أسعار الورق والطباعة ارتفاعاً اسطورياً كل ثلاثة أشهر.

على الرغم من كل هذه العراقيل.. فلقد صمدت مجلة «تاريخ العرب والعالم» واستطاعت ان تتخطى هذه المرحلة الصعبة وان تبدأ عامها الثالث وكلها امل وثقة بالمستقبل...

طموحنا الثاني كان ولا يزال وسيبقى، ان نتحرر مادياً لنستطيع ان نقدم للمواطن العربي عملاً علمياً وصحفياً ناجحاً، يمكّننا من اداء رسالتنا على الوجه الاكمل.. وفي هذا المجال نستطيع ان نؤكد لجميع الذين آزرونا ودعمونا بأن مجلة «تاريخ العرب والعالم» قد قطعت نقطة

اللارجوع واستطاعت بعد سنتين ان تقف على قدميها.. ولكن هذا الواقع يدعونا إلى بذل الجهد لتعويض الخسائر السابقة وذلك في تطوير المجلة مادة واخراجاً وطباعة وصورة.

طموحنا الثالث كان ان تدخل المجلة الى جميع الاقطار العربية دون استثناء.. وهذا ما حصل وتحقق بالفعل بعد سنتين من عمر المجلة. كان هدفنا ولا يزال، ان نخاطب امة عربية مترامية الاطراف تمتد من المحيط الى الخليج. كنا نؤمن ولا نزال بأن رسالتنا المتواضعة، يجب ان تصل الى الجميع، الى العامل في مدينة فاس والى الطالب في مدينة المنامة.

طموحنا الرابع كان ان نزيد عدد الصفحات وبالتالي ان نضيف ابواباً جديدة وان نضاعف عدد الصفحات الملونة في الداخل. ولكن تركيزنا على البنود الثلاثة الاولى لم يمكننا من تحقيق هذه التمنيات.

كان املنا ان نصمد بوجه هذه العقبات وان نبقيّ على سعر المجلة كما هو (٤ ليرات) ولكن ارتفاع تكاليف الطباعة والورق والاعباء الادارية اضطرنا الى رفع سعر النسخة الواحدة من اربع ليرات الى خمس وهو ما دفعنا الى زيـادة قيمة الاشتراكات ايضاً بالنسبة نفسها.

* * *

الحرب الحديثة هي حرب معلومات بالدرجة الاولى.. بمعنى ان من يعرف اكثر يقترب من النصر اكثر.. وتتركز اهمية المعلومات في انها توضح الصورة امام القائد قبل ان يتخذ قراره.

لهذا فكلما كانت الصورة أوضح أمام القائد، اقترب قراره من النصر. لذا تُخصص لهذه الغاية أجهزة ضخمة ليس لها وظيفة سوى جمع المعلومات.. والرادار هو أحدها.

وقائدنا نحن هو المواطن العربي المفتقر إلى وعي أفضل لتاريخه ولذلك فتحركه في الاتجاه الصحيح يرتبط بوفرة المعلومات من جهة وتنظيم عرضها عليه من جهة أخرى.

ومهمة «تاريخ العرب والعالم» هي كمهمة الرادار.. مهمتها جمع المعلومات التاريخية الموضوعية وتحليلها ووضعها في متناول كل مواطن عربي ليتخذ القرار التاريخي السليم...

فهناك العديد من مصادر النشر والاعلام لا غاية لها سوى التشويش على التاريخ العربي والاسلامي وبالتالي على عقل المواطن العربي ومحاولة التأثير عليه وعلى قراره والتحكم بمستقبله.

* * *

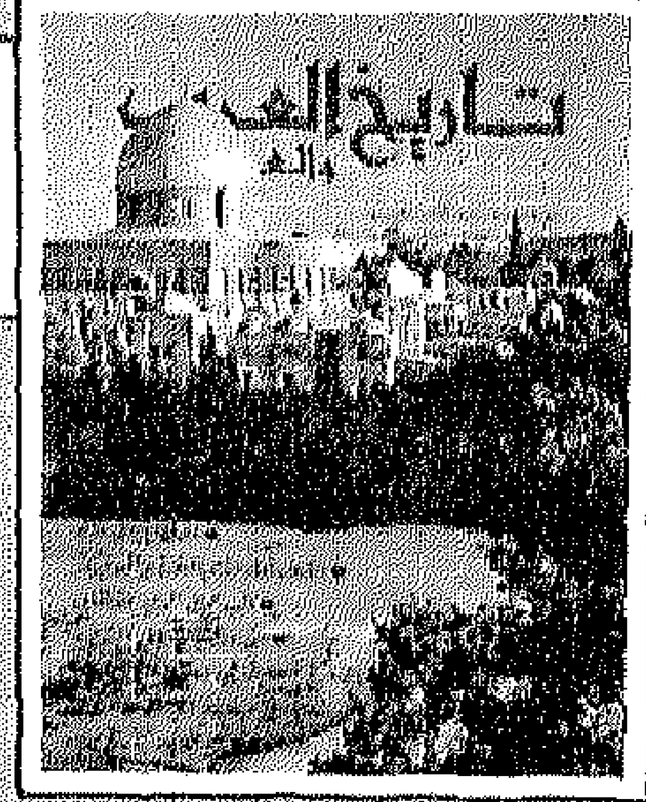
لقد اكدنا في افتتاحية السنة الثانية بأن «تاريخ العرب والعالم» قد حاولت بمنهاج علمي ونظرة موضوعية ان تمارس التزامها القومي نحو المواطن العربي من خلال تركيز جهودها الجماعية لتقديم صورة حقيقية وشاملة لتاريخ العرب مع كل ما صاحب ذلك من ايجابيات وسلبيات معاً... وذلك بهدف ان تساهم بتحديد نوعية وابعاد الأرضية الفكرية السياسية والاجتماعية والاقتصادية لتجربة انسانية جديدة.

واذا كان الواجب يقضي في بداية السنة الثالثة ان تقوم بنقد ذاتي لنرى حصيلة «تاريخ العرب والعالم» في العامين الماضيين فان نظرة دقيقة تلقى على ما نشرته ترينا بان المجلة لم تبلغ بعد في أبحاثها ودراساتها الهدف الأخير الذي تطمح إليه هي وكل قارىء عربي. فاذا كان ثمة تقصير وهنات في بعض الأحيان، فمرد ذلك إلى العراقيل الطبيعية التي تجابه أي مشروع مستقل في بداية مسيرته وشفيعنا في ذلك جهدنا الصادق الامين وسعينا الدؤوب الى الافضل في خدمة ثقافتنا العربية.

وبعد.. ان «تاريخ العرب والعالم» ستواصل التقدم خلال السنة الثالثة، بمنهاجها العلمي نفسه، ونظرتها الموضوعية، وجهدها الجماعي وثقتها التي لا تحد في شعبها العـربي. ثقتنا بالمواطن العربي لا حدود لها.. ومن هذه الثقة سنستمد قوتنا ودعمنا واستمرارنا...

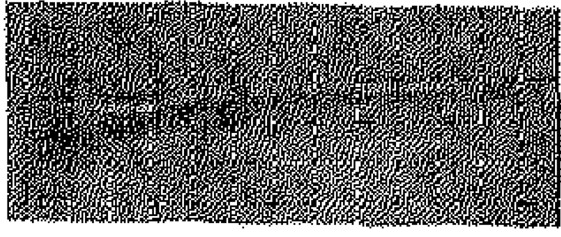
فاروق البربير

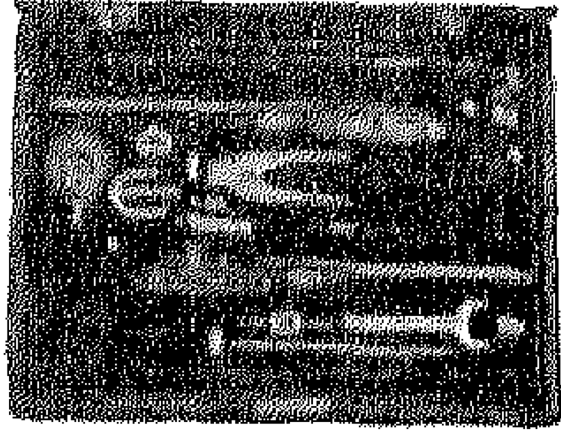
في هذا العدد



القدس
(راجع المقالتين ص ١٥ و ٣٢)

● المقالات الواردة توزّع حسب التبويب الفني للمجلة. ولا علاقة لذلك بمكانة الكاتب. مع حفظ المكانة الاجتماعية للكتاب. تراعى في الألقاب الصفات العلمية فقط.





من الطبنجة إلى البندقية
(راجع المقالة ص ٤٨)

الموضوع — الصفحة

■ الافتتاحية............ فاروق البربير ٢
■ الاقطاع الاسلامي: اصوله وتطوره - دراسة مقارنة...... د. إبراهيم علي طرخان ٥
■ القدس أمام الأمم المتحدة واليونسكو ...... السفير الدكتور حليم أبو عز الدين ١٥
■ نفح العنبر بتاريخ بربر
رسالة مخطوطة لإلياس صدقة الطرابلسي............ د. عمر عبد السلام تدمري ٢٣
■ المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام: فلسطين............
■ بناء وزخارف قبة الصخرة (دراسة تحليلية)............ د. صفوان التل ٣٢
■ جغرافيا: كوبيرنيكوس............ ٤٠
■ السد العالي في ميلاده الواحد والعشرين............ د. يوسف شبل ٤٢
■ من الطبنجة إلى البندقية............ ترجمة: ميشال حداد ٤٨
■ حقائق ام نسج خيال: كهوف لاسكو............ (شذا عدرة) ٥٥
■ رجال وأفكار: الأمير شكيب ارسلان
السيد جمال الدين الأفغاني............ تقديم: د. وجيه كوثراني ٥٨
■ التاريخ الاجتماعي للالعاب في الغرب............ ترجمة «تاريخ العرب والعالم» ٧٠
■ رسائل الماجستير والدكتوراه: امبراطوريات الصين (٣)...... طارق فتحي سلطان ٧٨
■ مراجعة كتاب: أصول الامارات العربية -
تكوين دولة قطر لروز ماري زحلان............ د. خلدون ساطع الحصري ٨٤
■ تاريخ الطوابع: السودان............ ميشال اسطفان ٨٧
■ القراء يكتبون............ ٩٢
■ رأي حر............ د. نقولا زيادة ٩٦

● المقالات والدراسات ترسل باسم رئيس التحرير على عنوان المجلة: ص. ب ٥٩٠٥ في بيروت.
● المقالات والدراسات التي تنشر لا تعبر بالضرورة عن آراء المجلة.
● المواد الواردة إلى المجلة لا ترد إذا لم تنشر.

الاقطاع الاسلامي

أصوله وتطوره - دراسة مقارنة



الحلقة الاولى

د. ابراهيم علي طرخان

تعيد مجلة «تاريخ العرب والعالم» نشر هذه المقالة التي سبق ونشرتها المجلة التاريخية المصرية، في المجلد السادس سنة ٩٥٧ وذلك نظراً لأهمية معالجة هذه الموضوعات في التاريخ الاقتصادي الاسلامي والعربي، وهو ميدان لا يزال بحاجة الى مزيد من المعالجة والتفصيل. ويكتسب في هذه المرحلة، امر استعادة المساهمات السابقة في هذا الموضوع، اهمية قصوى في محاولات اعادة قراءة التاريخ الاجتماعي العربي التي تجري في هذه الايام ولا سيما في مجال الملكية الزراعية واشكال الاستثمار التي عرفها التاريخ العربي.



أقدم ما عرف عن النظام · الاقطاعي في الاسلام، ما ورد عن النبي على أثر قيام الدولة · الاسلامية في المدينة بعد هجرته اليها، حيث أضحى رأس الحكومة الاسلامية الناشئة؛ ولا يعنينا، في هذا المقام، أن نوغل في الزمن السحيق لنرى صوراً من الاقطاعات القديمة، تقرب من هذا النظام او تبعد عنه: في العصر الفرعوني او فيما تلاه من عصور كعصر البطالمة، او بعض صور منه في العصر الروماني، كذلك في بلاد فارس

او الجزيرة العربية؛ ولا يعنينا بعد هذا، او لا يدخل في نطاق هذا البحث، ان نبحث الصور السيئة او الجانب الكريه الذي تطور اليه الاقطاع في العصر الحديث، من تمليك اراضي الدولة، لصفوة مختارة، ليس من الضروري أن تكون خير الناس، بغير ثمن، او بثمن اسمي.

والاقطاع او الاقطاعية او النظام الاقطاعي الفاظ جرى العرف والتاريخ على انها مترادفات للسوء والعهود البائدة، بل إن كل سوء ومكروه او ظلم واستبداد، إنما يوصم بالاقطاع او الاقطاعية، كما وصفت به حالة فرنسا قبيل الثورة الفرنسية اواخر القرن الثامن عشر الميلادي. على انها ظلت بهذا المعنى حتى العصور الحديثة. ولقد اوضح المؤرخون خصائص المجتمع الذي يسوده هذا النظام، وفصلوا أركانه، بأنه مجتمع جامد طبقي البنيان، وصل في تطوره الى حد التطرف من حيث اعتماد فريق منه، انحدر الى الطبقات الدنيا، على فريق آخر تسنم ذروة الرفعة، واغتصب لنفسه كل الحقوق والامتيازات كما اختص بوظائف هي من اخص وظائف الدولة في العرف الحديث. ولم يكن استعمال المؤرخين وغيرهم من بحاث العصور الغربية، هذا اللفظ والتقنين لاحداثه مجتمعة ومتفرقة، إلا بعد نهاية العصر الاقطاعي، وربما كان هذا الجانب من أبرز ما يميز الاقطاعية الغربية عن النظام الاقطاعي في الاسلام، ذلك الذي بدأ بهذا اللفظ وبقوانينه، بشكل ساذج بسيط ولهدف اصلاحي حيوي، لا يخفي وراءه السوء الذي تطور إليه فيما بعد.

ثم إن ما تفعله بعض الحكومات الحديثة من إقطاع القطائع في الأرض البور الصالحة للزراعة، لفريق من الناس، هذا بيع ولا يدخل في معنى الاقطاع التاريخي، كما ان الاقطاعات في العصر النبوي، أغلبها من أرض «الموات» المحتاجة الى إصلاح واستغلال، أما الارض المزروعة فعلاً، فقد قيدت تقييداً كبيراً رغم ان الفتوح وما ينضاف الى الدولة الاسلامية، كانت من حق القائمين وهم رجال الجيش ($\frac{٤}{٥}$ الفيء والغنائم).

وينصب البحث، بعد هذا العرض العام للصور المختلفة لمدلول الاقطاع والاقطاعية على دراسة الاقطاع النبوي وانتشاره وتطوره في الدولة الاسلامية. مبرزين خصائصه كما تنطقها الحوادث.

الاقطاع النبوي:

أضحى الرسول رأس الحكومة الاسلامية على اثر هجرته الى المدينة. وبدا له في ذلك الوقت المبكر عدة عوامل دفعته الى هذا التشريع. وأهم عامل هو العامل الديني، إذ اقتضى ما استهدفه من نشر الاسلام ودعم قواعده، ان يتألف على الاسلام من يرى تأليفه صلاحاً، والمؤلفة قلوبهم بنص القرآن من بين المستحقين للصدقة، جاء في حقهم: «إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل، فريضة من الله والله عليم حكيم»(١)، ولا ينفي لفظ الصدقة ان تكون مالاً منقولاً او عقاراً ثابتاً وقد شملت النوعين فعلاً، ومن العقار الثابت الارض؛ كما لا ينفي معنى الصدقة ان تسمى الارض الممنوحة إقطاعاً، ودلت الشواهد الكثيرة على انها منحت تحت هذا الاسم كذلك.

وأهم وثائق الاقطاع التي كتبت لهذا الفريق، فيما يبدو، وثيقة إقطاع تميم الداري وإخوته، كتبها لهم علي بن ابي طالب بأمر الرسول عام ٩ من الهجرة (٦٣٠م) وهي:

«نسخة كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي كتبه»

«لتميم الداري وإخوته في سنة تسع من الهجرة بعد منصرفه»

«من غزوة تبوك في قطعة أدم من خف أمير المؤمنين علي وبخطه»

«نسخته كهيئته»

«بسم الله الرحمن الرحيم»

«الداري وإخوته حَبْرون والمرْطوم»

«وبيت عينون وبيت ابراهيم وما فيهن»

«نطية بت بذمتهم ونفذت وسلمت ذلك لهم»

«ولأعقـابهم فمن أذاهم أذاه الله، فمن أذاهم»
«لعنه الله. شهد أبو بكر بن أبي قحافة وعمر بن»
«الخطاب وعثمان بن عفان؛ وكتب علي بن»
«أبي طالب وشهد»[٢]

جُدد الكتاب في عهد أبي بكر، ولما تم فتح فلسطين على عهد عمر بن الخطاب، اشترط الخليفة في كتاب أرسله الى عمرو بن العاص بفلسطين، ألا يسلم الداريين أقطاعهم إلا إذا جلا أهل القرى المقطعة عنها وإلا «فهي لهم وأحق بهم»[٣]. أكثر من ذلك، حدد عمر نوع الملكية وحقوق المقطعين فجعل الأقطاع وقفاً، بمعنى لا يملك المقطعون بيع رقبته، واشترط عليهم أن يكون ثلث خراجه صدقة لأبناء السبيل وثلث لعمارته والثلث الأخير للداريين[٤]. وأقر الأمويون هذا الاقطاع، بل ان الخليفة سليمان بن عبد الملك، كان إذا مر بهذه القطيعة لم يعرج عليها ويقول: «أخاف أن تصيبني دعوة النبي[٥]. ولم يتعرض لهذا الأقطاع أحد من الامراء والولاة إلا الامير سُقمان ابن أرتق[٦]، والي فلسطين من قبل السلاجقة، في القرن الخامس الهجري، إذ استفتى الفقهاء في شرعية بقائه لسلالة الداريين حتى ذلك الوقت، فمنهم من أفتى بعدم جوازه بحجة أن النبي أقطع ما لا يملك، غير أن الشيخ الغزالي، حين استفتي، طعن في الفتوى السابقة، وقال بصحة الاقطاع، مستدلاً بالحديث «زويت لي الأرض، فرأيت مشارقها ومغاربها..» وعقب قائلاً: «فوعده صدق وكتابه حق»[٧] وعلى أساس هذا الرأي ظل الاقطاع بأيدي أصحابه.

وترجع أهمية هذا الاقطاع ووثيقته حتى القرن العاشر الهجري والسادس عشر الميلادي، وممن رأى الوثيقة من المؤرخين: ابن عساكر المتوفي سنة ٥٧١هـ (١١٧٥م)، وابن فضل الله العمري المتوفي سنة ٧٤٢هـ (١٣٤١م) وأبو اليمن مجير الدين الحنبلي المتوفي سنة ٩٢٧هـ (١٥٢٠م) وظلت حتى القرن العاشر الهجري حجة للدّاريين، يستنصرون بها ولي الأمر القائم إذا تعرض لهم أحد بمكروه فيما يتعلق



بحيازتهم وتوارثهم ذلك الاقطاع. والوثيقة محفوظة في صندوق من الأبنوس وملفوفة في خرقة حرير، ومعها كتاب من الخليفة المستنجد العباسي بتأكيد حقوقهم[٨]

* * *

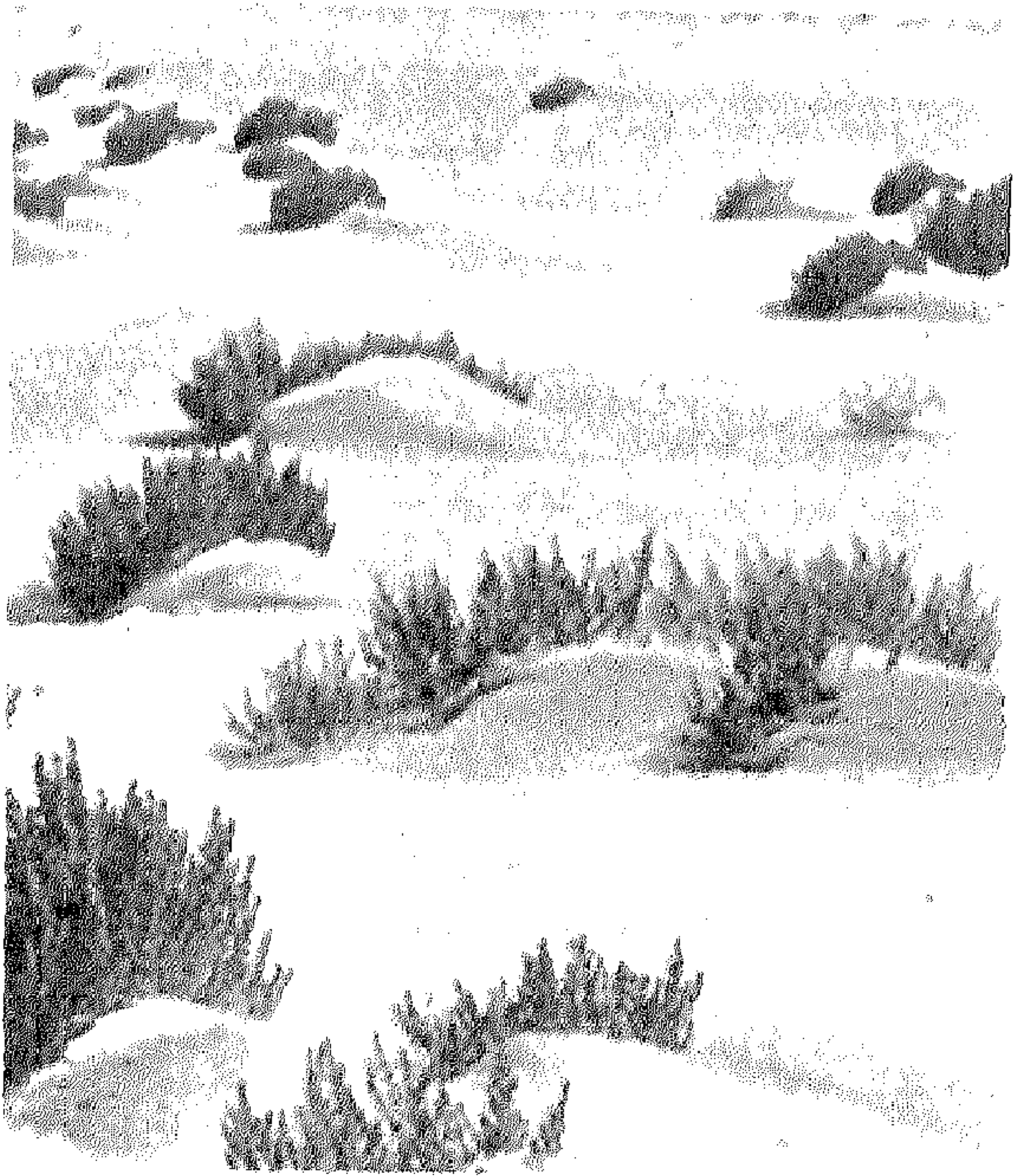
وأبو رقية تميم، يمني الأصل، سكن الشام ووفد على الرسول المدينة ومعه رهط الداريين، عام ٩هـ (٦٣٠م) والراجح أنه أسلم بمكة قبل هجرة الرسول الى يثرب، وكتابه بالاقطاع كان تجديداً لما كتب في مكة. قال للنبي، «لنا جيرة من الروم، لهم قريتان، يقال لأحدهما حبرى والأخرى بيت عنون، فإن فتح الله عليك الشام فهبهما لي» قال: «هما لك[٩]»

هذه قصة تميم واقطاع تميم. ومن الوفود التي جاءت فأسلمت فتألفها الرسول: وفد طيء، رأسهم وسيدهم زيد الخليل الذي سماه النبي زيد الخير. أقطعه الرسول قرية فَيْد، في منتصف

الطريق بين مكة والكوفة، وكتب له بذلك الاقطاع كتاباً[١٠]؛ ولما وفد حمزة بن مالك بن نمط سيد همدان قال له الرسول: نعم الحي همدان، ما أسرعها الى النصر وأصبرها على الجهد، وفيهم أبدال وأوتاد الاسلام. أسلموا جميعاً فكتب لهم النبي كتاباً أقطعهم به بعض مخاليف اليمن؛ وأقطع وائل بن حجر الحضرمي عقيق اليمامة، وغير هؤلاء كثيرون[١١]. وبايع وفد عقيل بن كعب الرسول على الاسلام فأقطعهم العقيق[١٢]، وكتب لهم كتاباً بالاقطاع[١٣]، كما أقطع الرقاد بن عمرو بن ربيعة من جعدة، ضيعة بالفلج[١٤] وكتب له كتاباً[١٥]. وممن أقطعوا تأليفاً على الاسلام، رجل من بني سليم يقال له عبد العزى، وهو راشد بن عبد ربه السليمي، كما لقبه الرسول، أقطعه موضعاً يقال له رُهاط[١٦]، وعقد له على قومه وقال عنه «إنه خير بني سليم[١٧]»...

هذه بعض أمثلة لاقطاعات الرسول، للتأليف على الاسلام وقد صلح إسلام هؤلاء المؤلفة قلوبهم، ومنهم من أسهم في الفتوح الاسلامية ومنهم من برز في العلوم الدينية. فهذا تميم الداري، قيل إنه اشترك في غزوة بدر، مما يرجح إسلامه بمكة كما ذكر سابقاً، وكان من أبرز الصحابة في القراءة ورواية الحديث، وروى له البخاري ١٨ حديثاً[١٨]. واشترك وائل بن حجر الحضرمي في الفتوح الاسلامية الكبرى، شرقاً وغرباً، على عهد الخليفة عثمان بن عفان، فأقطعه موضع زُراره وما يليه بالعراق[١٩] وهكذا. على أنه يبدو أن مبدأ الاقطاع للتأليف على الاسلام، كان موقوتاً بمدى تغلغل العقيدة في قلوب معتنقيها، حتى إذا ما امتزجت بها نفسه، ووقر الايمان في سويدائه، جاز لولي الامر استرجاع الاقطاع إذا رأى المصلحة في ذلك، ودليل ذلك أن الاقرع بن حابس التميمي – وهو من المؤلفة قلوبهم – تقدم الى ابي بكر ومعه عيينة بن حصن الفزاري، واستقطعاه أرضاً، فانبرى عمر ابن الخطاب، وقال: «إنما كان النبي يتألفكما على الاسلام، فأما الآن، فأجهدا جهدكما» وقطع الكتاب[٢٠].

أراد الرسول بمنحه الاقطاعات كذلك أن



يكافىء قوماً هم عدة الاسلام وأعلامه: في الجهاد أو الفقه أو الادارة سواء، ومثال ذلك إقطاعه فريقاً من الصحابة منهم: أبو بكر وعمر وعبد الرحمن بن عوف والزبير بن العوام وعلي ابن أبي طالب. وكان اقطاع أبي بكر والزبير من أموال بني النضير في العام الرابع من الهجرة؛ ويقول ابن عوف: «أقطعني الرسول وعمر ابن الخطاب أرض كذا وكذا..[٢١]»: والواضح أن الغرض الاول من إقطاع أمثال هؤلاء الصحابة، هو تعويضهم عما فقدوه من أموال في سبيل الدعوة، بعد هجرتهم الى المدينة. وشملت الاقطاعات فوق ذلك، بعض فقراء الأنصار، مثل أبي دجانة سماك بن خرشة الساعدي وسهل ابن حنيف[٢٢].

ومن العوامل التي دفعت الرسول الى اقطاع الاراضي بجانب عاملي الدين والعون الاجتماعي، عامل الاستثمار الاقتصادي، لاستصلاح الاراضي البور (الموات) لما في استصلاحها من رعاية لمصلحة المسلمين عامة، وفائدة حيوية للمقطع والناس بما تنتجه من خيرات وكذلك للدولة بما يقرر عليها من رسوم كثرت أو قلت. لذلك أقطع الرسول هذه الاراضي للقادر على إحيائها واستثمارها. بل جعل شرط الإحياء ضرورياً. ويتضح هذا المعنى من قوله:



«عادي الارض – أي قديمها – لله ولرسوله، ثم هي لكم من بعد، فمن أحياء شيئاً من موات الارض فله رقبتها[٢٣]». وممن أقطعوا الموات من أرض الدولة: الزبير بن العوام، فقد عين له الرسول إقطاعاً في موات البقيع بقدر ركض فرسه، فأجرى الزبير فرسه ورمى بسوطه رغبة في الزيادة. فلم يمانع الرسول وقال: «اعطوه من حيث بلغ السوط»[٢٤]. تقول أسماء بنت أبي بكر وزوج الزبير: «كنت أنقل النوى من أرض الزبير التي أقطعه اياها رسول الله، على رأسي، وهي مني على ثلثي فرسخ[٢٥]، وعلى هذا النحو كان إقطاعه لبلال بن الحارث المزني، من أرض العقيق قدر ما يطيق إحياءه[٢٦].

من هذا وغيره، كتب أبو يوسف في القرن الثاني الهجري: «ولا أرى أن يترك الامام أرضاً لا ملك لأحد فيها ولا عمارة، حتى يقطعها، فإن ذلك أعمر للبلاد وأكثر للخراج»[٢٧] ويؤكد هذه القاعدة التي استنتجها من استقراء ما وقع فعلاً بتساؤله في موضع آخر: «ما الصلاح في أرض كثيرة لا يرى عليها أثر زراعة ولا بناء لأحد. ولم تكن فيئاً لأهل القرية ولا مسرحاً ولا موضع مقبرة، ولا موضع محتطبهم ولا موضع مرعى دوابهم وأغنامهم وليست بملك أحد ولا في يد أحد.. هي إذن موات، وللامام أن يقطع ذلك من أحب ورأى وأن يؤاجره ويعمل بما يرى فيه المصلحة[٢٨].

أما صفايا الرسول وهي قطائعه الخاصة فاقتصرت على أرض الحجاز لاختصاصه بفتحه، وجاءت من حقه في خمس الخمس من الفيء والغنائم. وهذا المعنى وارد في بعض الآيات القرآنية. قال تعالى: «واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسه وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل»[٢٩]. وقوله تعالى: «ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذى القربى واليتامى وابن السبيل، كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم..[٣٠]»: وفي سورة الأنفال «يسألونك عن الأنفال، قل الأنفال لله والرسول فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم[٣١].

وحدث استصفاء الرسول لأموال بني النضير في السنة الرابعة من الهجرة حين صالحوه على أن يخرجوا من بلده ولهم ما حملت الإبل وللرسول أرضهم ونخلهم والحلقة وسائر السلاح؛ فصارت خالصة للرسول. ومن هذه الاراضي حاز النبي جزءًا لنوائبه، وقسم الباقي بين المهاجرين ولم يعط الانصار إلا اثنين فقيرين هما أبو دجانة وسهل ابن حنيف[٣٢]. أما خيبر فقد جزأها الرسول ثلاثة أجزاء، قسم جزءين منها بين المسلمين وحبس جزءاً لنفسه ونفقة أهله، وما فضل عن نفقتهم رده الى فقراء المهاجرين[٣٣]. وبعد انصراف الرسول من خيبر، أرسل الى أهل فدك يدعوهم الى الاسلام، لكنهم صالحوه على نصف الارض، فأضحى نصف فدك خالصاً للرسول، وتطور أمر فدك بعد ذلك، بين إقطاعها لآل محمد واستردادها[٣٤] ثانية ويضاف الى هذه الصفايا أرض ملكها وصية مخيريق اليهودي من الأحبار، وصى بها الرسول[٣٥]، وكذلك كان له الثلث من أرض وادي الغزى[٣٦].

اقطاع الخلفاء الراشدين:

وعلى ضوء هذه القواعد العامة، التي وضعها الرسول في إقطاعه القطائع، سار الخلفاء الراشدون من بعده، على أنهم يختلفون عن بعضهم البعض، في مدى التوسع

أو الاختصار، في تطبيقها، فكل سار وفق ما بدا له صواباً، دون الخروج على الأهداف العامة التي هدف إليها الرسول؛ مع النزول على الأوضاع الزمنية والجغرافية الاسلامية النامية.

ويعتبر أبو بكر الصديق من المقلين في الاقطاع إلى درجة المنع، فلم يعرف أنه أقطع أحداً، سوى تجديد إقطاع للزبير بن العوام، كان منحه من الرسول[٣٧]. وانصب اهتمام عمر ابن الخطاب على إقطاع أرض الموات بصفة خاصة، لما رآه في ذلك من النفع العام، حتى أنه خرج يقطع ما بقي من موات الأرض بالعقيق، وقال: «أين المسْتَقْطعون؟» فاستقطعه خوَّات ابن جبير الأنصاري[٣٨]. ولم يقف اهتمام عمر عند مجرد إقطاع الموات، بل نظم هذا الاقطاع، فاذا كان الرسول قد اشترط الإحياء وجعله أساساً لبقاء الاقطاع في يد صاحبه، فان عمر زاد وحدد مدة الأحياء بثلاث سنوات بحيث لو عجز المقطع عن استغلال إقطاعه خلال هذه المدة استرجعه منه أو استرجع القدر الذي لم يطق عمارته، وتشدد في هذا حتى أنه كان يسترجع الاقطاعات التي منحها الرسول نفسه، ما دام المقطع غير قادر على استغلاله، فلا تتعطل أرض أو تحجّر - كما يقول المصطلح.. هكذا فعل مع بلال بن الحارث المزني، إذ استرجع منه ما عجز عن زراعته[٣٩]. أما الأرض العامر المزروعة فعلاً، والتي انتقلت الى حوزة المسلمين، بالفتح، فيئاً كانت أو غنيمة، فلم ير عمر إقطاعها، مثل أرض السواد بالعراق؛ حقيقة أنه أقطع جرير بن عبد الله البجلي وقومه بأرض السواد، لبلائهم في وقعة القادسية عام ١٥هـ (٦٣٦م)؛ إلا أنّه رأى استرجاع ما أخذوه بسبب تزايد عدد السكان، قال عمر لجرير «لولا أني قاسم مسؤول، لتركتكم على ما أنتم عليه، وإني أرى الناس قد كثروا، فرُدوا ذلك» وقبل جرير فأجازه عمر[٤٠]. كما أن عمراً لم يقطع أحداً بمصر سوى ابن سندر تنفيذاً لوصية الرسول فحسب[٤١].

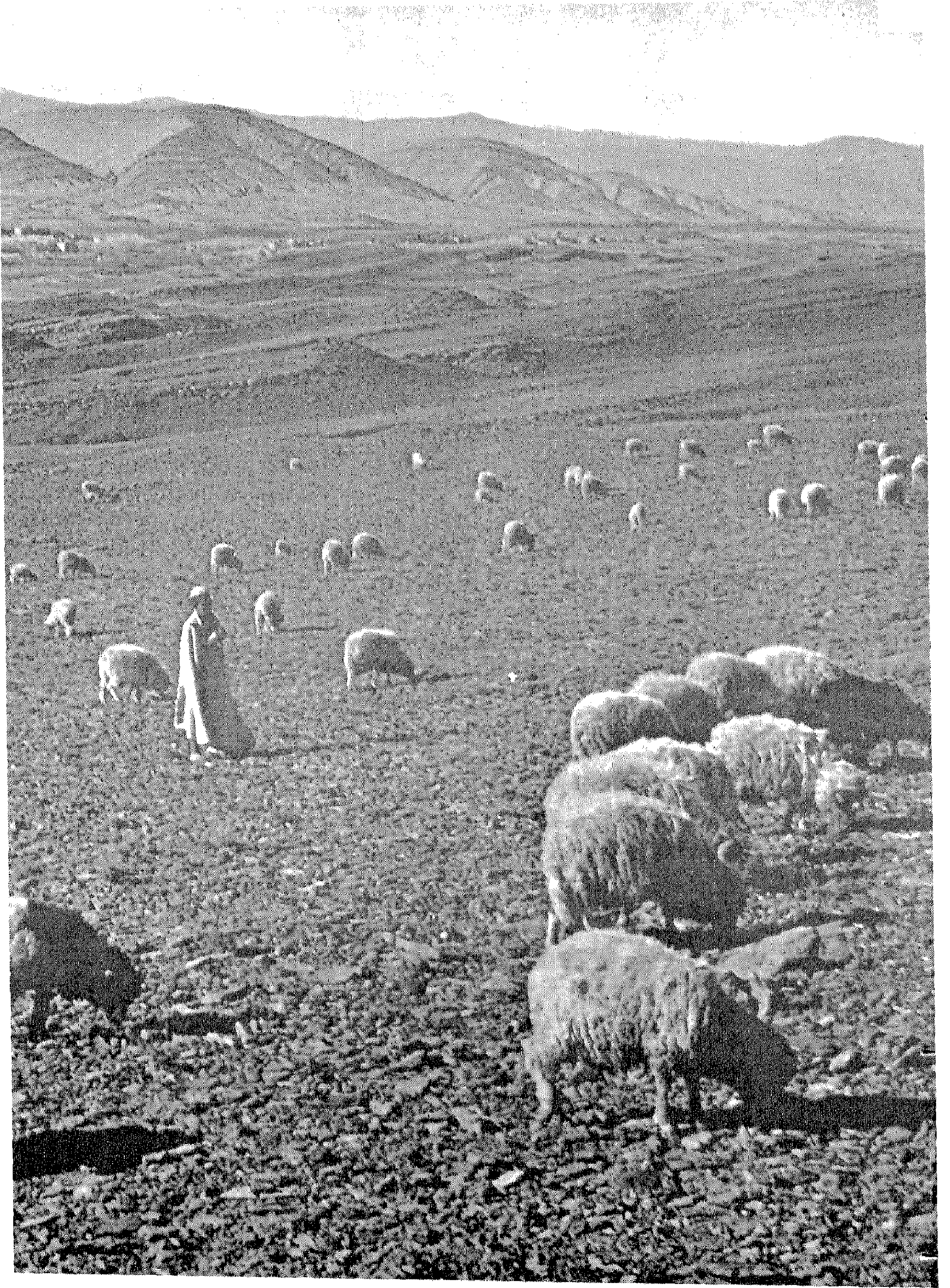
ولأن عثمان بن عفان توسع في منح الاقطاعات، مما كان من أسباب النقمة عليه، حتى لقد قال الناقمون: «إنما السواد بستان قريش»؛ نجد أن علياً بن أبي طالب يحتاط في إقطاع القطائع، ويحذّر واليه في مصر في كتاب منه: «ولا تقطعن لأحد من حاميتك وحاشيتك قطيعة...[٤٢]».

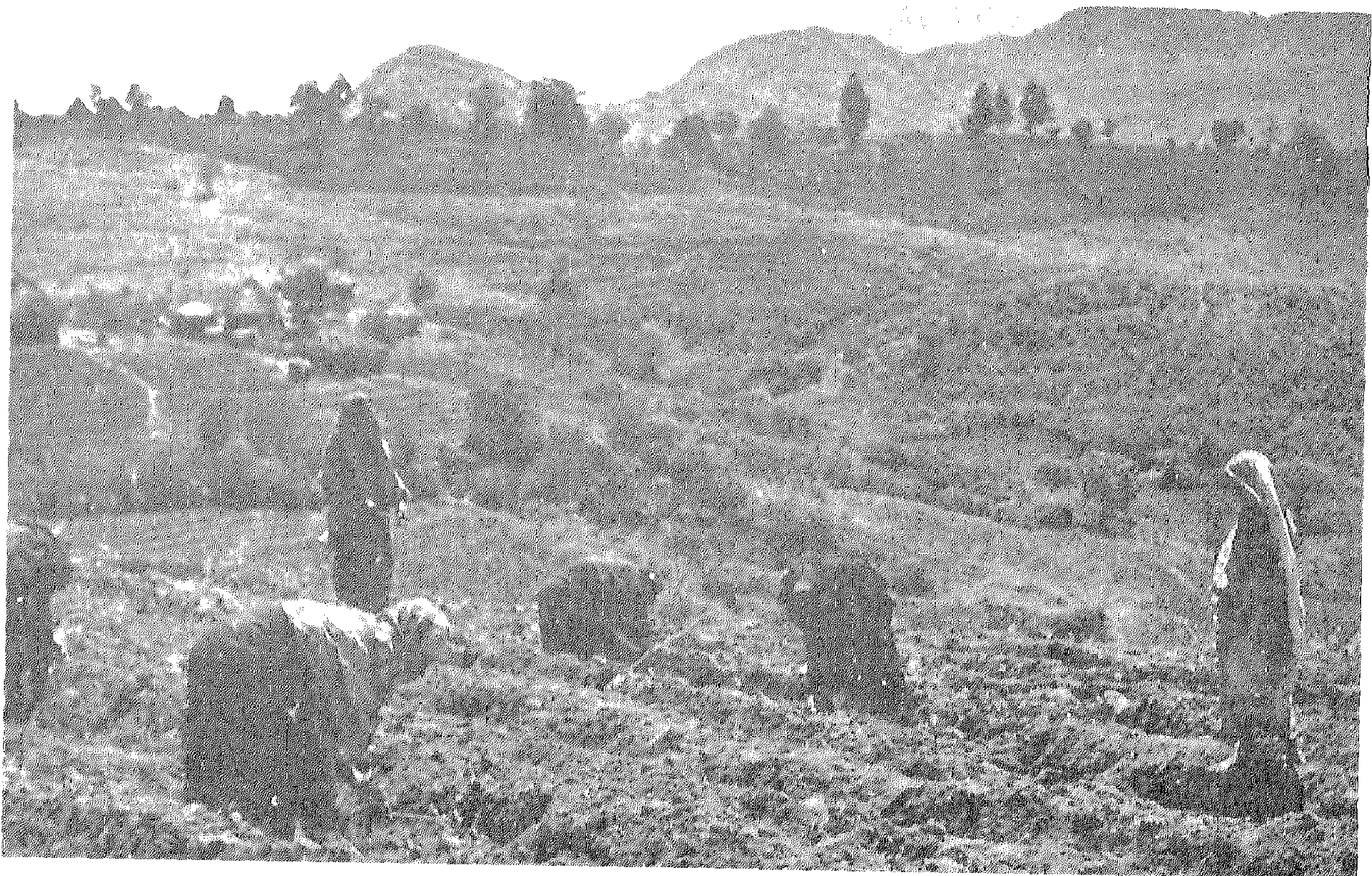
المراعي من المنافع العامة:

أما إقطاع المراعي فكان نادراً جداً، وفي نطاق ضيق، لأنها من *المنافع العامة*؛ وفي إقطاعها لشخص أو جماعة حرمان لأهل القرى وغيرهم، ولذلك نجد النبي يشير الى هذا، في وثائق إقطاعاته التي منحها: جاء في وثيقة إقطاع همدان أنه لم يعطهم أي حق في التفرد باستغلال المراعي، وعبارته «لا يأكلون علافها ويرعون فيها[٤٣]» أي أجاز لهم أن يرعوا فيها كغيرهم من المسلمين. بل إنه منع إحياء بعض أراضي الموات بالزراعة، ضماناً للصالح العام وتوفيراً لأرض الكلا، حتى يكون ذلك الجزء الذي استثناه «لنبت الكلأ ورعي الماشية». وقد حمى الرسول بالمدينة جهة البقيع ومساحتها ستة أميال مربعة، وجعلها مرعى لخيل المسلمين من المهاجرين والأنصار. ومن أقواله: «المسلمون شركاء في ثلاث: الماء والكلأ والنار» ومعنى هذا، أنه لا يجوز لأحد من الولاة أن يأخذ من أرباب المواشي عوضاً عن مراعي موات أو حمى[٤٤].

ولما جاء عمر بن الخطاب، نظم استغلال المراعي ولم يقطعها، ووضع لها القواعد الدقيقة، كما هو شأنه، وفي مصر، أرض الريف، فغدت كل قبيلة من القبائل التي استوطنت مصر بعد الفتح، تخرج للارتباع في جهة معينة: فكانت قبيلة هذيل تخرج للارتباع في ببا وبوصير، وبلى في منف وفهم في أتريب وعين شمس ومنوف وهكذا[٤٥].

ولم يعرف عن عمر بن الخطاب أنه أقطع المراعي إلّا في البصرة حين مصرها الا انه لم يعمم هذا بل أقطع رجلا واحداً هو أبو عبد الله نافع، إذ سأله أن يقطعه أرضاً قرب دجلة ليسرح فيها خيله، فكتب له عمر كتاباً إلى عامله على البصرة وهو أبو موسى الأشعري عام ١٧هـ (٦٣٨م): «إن أبا عبد الله نافع سألني أرضاً على شاطىء دجلة، يغتلي فيها خيله، فإن لم تكن من أرض





الجزية ولا يجزأ اليها ماء الجزية فأعطها إياه(٤٦). والواقع أن عمر أقطع هذا الرجل على أساس أن أرضه مجاورة لتلك البقعة، وأن أبا نافع كان أول من رعى فيها، وأنها لا تضر أحداً(٤٧). كذلك أقطع علي بن أبي طالب سويدا ابن غفلة الجعفي مرعى لدوابه(٤٨).

والواضح أن القلة برزت في إقطاع المراعي. أما إقطاع المساكن، فهذا أمر معروف منذ فجر الاسلام، ويذكر عن النبي حين قدم المدينة أنه «أقطع الناس الدور(٤٩)» وذلك للضرورة القائمة للتعمير والاستقرار، وإسكان المهاجرين والنازحين، وإقامة المدن والأمصار. وعلى هذا الأساس أقطع عمر بن الخطاب المساكن حين مصر الأمصار، فمثلاً يوم بدأ بناء البصرة عام ١٤هـ (٦٣٥م) أمر ببناء المسجد ودار الإمارة، وإقطاع الناس المنازل، وأول دار بنيت في البصرة هي دار نافع بن الحارث(٥٠). وفي بناء الفسطاط بمصر عام ٢١هـ (٦٤١م) أقطع كل واحد منطقة أو خطة لبناء داره، فكانت خطة لمسلمة بن مخلد وخطة لعقبة ابن نافع.. وغيرهما(٥١).

شروط حيازة معادن الأرض:

وهناك مورد آخر، جاء ذكره بصدد الاقطاع، وهو المعادن المستنبطة من الأرض؛ هذه لم يقطعها الرسول وإنما جعل استغلالها حقاً لمن يردها أولاً؛ مثل ملح مأرب باليمن؛ استقطع الابيّض بن جمال ابن مرثد السبأى الرسول، ملح مأرب، فاقطعه إياه، فقال الأقرع بن حابس التميمي: «يا رسول الله، إني وردت هذا الملح وهو بأرض ليس (فيها غيره) من ورده أخذه، وهو مثل الماء العد (العذب) بالأرض»؛ فاستقال الرسول الأبيّض في قطيعة الملح، فأجابه الأبيض: «قد أقلتك على أن تجعله مني صدقة» قال النبي: هو منك صدقة. وذلك على اعتبار أن القطيعة صارت له بمجرد قبول الرسول إقطاعها له أو لا. وحينئذ أصدر الرسول قراره في إقطاع المعادن: «هو مثل الماء العد من ورده أخذه»(٥٢).

وقد فعل رجل من أهل اليمن مثل ذلك فأقره الرسول (ص) اقطاعة(٥٣).

أي أن الرسول أجاز حيازة المعادن لمن يردها أولاً، لكنها لا تقطع، أما ظهور بعض المعادن في إقطاع بلال، فيما بعد، فذلك لم يكن معروفاً أو ظاهراً يوم تسلم إقطاعه من النبي. وكان إقطاعه مجرد أرض موات، من ذلك استنتج صاحب الأحكام السلطانية أن المعادن الظاهرة لا تقطع، وبالتالي إن عرف بالأرض معدن ولو لم يكن ظاهراً للعيان، فهذه لا تقطع كذلك، أما اذا لم يعرف كما في إقطاع بلال، فيجوز إقطاعه بمعنى بقاء المعدن الذي يظهر فيما بعد في الإقطاع في يد المقطع(٥٣).



الهوامش

(١) سورةالتوبة، آية ٦١.

(٢) ابن عسكر: التاريخ الكبير، ج٣ ص٣٥٤، العمري: مسالك الأبصار، ج١ ث١٧٤، القلقشندي: صبح الأعشى، ج١٣ ص١١٩ - ١١٢، المقريزي: ضوء الساري بمعرفة خبر تميم الداري (مخطوط) ورقة ١٦٥، ١٦٦، مجير الدين الحنبلي: الأنس الجليل في تاريخ القدس والخليل، ج٢ ص٤٢٩.

(٣) صبح الأعشى ج ١٣ ص١٢٠ - ١٢١، التاريخ الكبير: ج ٣ ص ٣٥٣.

(٤) ضوء الساري ورقة ١٦٨، صبح الأعشى ج ١٣ ص ١٠٤.

(٤) ضوء الساري ورقة ١٦٨، صبح الأعشى ج ١٣ ص ١٠٤.

(٥) ضوء الساري ورقة ١٦٧، البلاذري: فتوح البلدان ص ١٣٥.

(٦) الأمير قطب الدين سقمان بن أرتق بك بن أكسب التركماني، ولي فلسطين نيابة عن تتش أخي السلطان ملكشاه السلجوقي، وكان تتش قد أقطع الشام كله.. (مسالك الأبصار ج ١ ص ١٧٥، القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، صفحات: ١٣١ - ١٣٢، ١٣٧، وغيرها.،، السلوك (نشر الدكتور محمد مصطفى زيادة، ج ١ ص ٨٦، ٢٤٩، ٤٤١، أبو المحاسن النجوم الزاهرة ج ٥ ص ١٠٦، ١٤٧، ١٥٩ وغيرها.،، سيد أمير علي: مختصر تاريخ العرب (ترجمة رياض رأفت، ص ٢٧٧).

(٧) ضوء الساري ورقة ١٧٠، الشعراني: الميزان (في الفقه) ج ١ ص ٢٠٨، مختصر تذكرة الامام عبد الله القرطبي (للمؤلف السابق، ص ١٠٤).

(٢) مسالك الابصار ج ١ ص ١٧٣، ١٧٦، التاريخ الكبير ج ٣ ص ٣٥٣، الأنس الجليل ج ٢ ص ٤٢٨ - ٤٢٩.

(٩) ضوء الساري ورقة ١٦٥، طبقات ابن سعد ج ٢ ص ١٠٧، الخطط ص ٥٠ (مجموعة Memoires, Edité Pr G.Wiet).

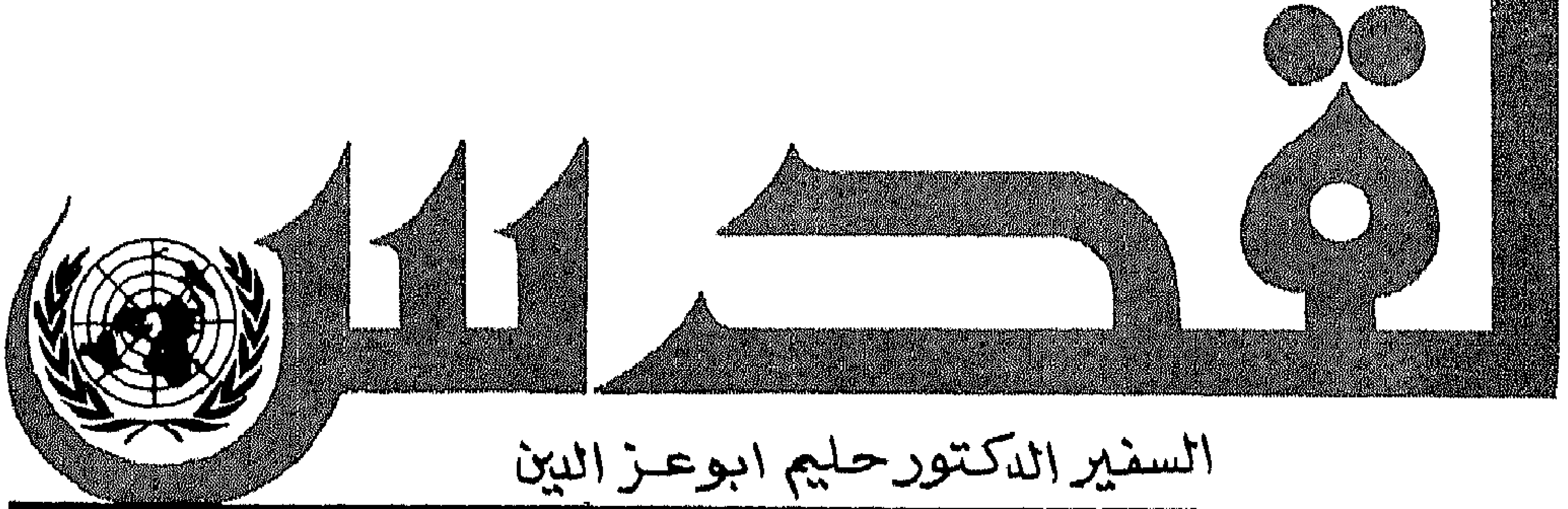
(١٠) طبقات ابن سعد ج ٢، ص ٨٦، تاريخ الطبري ج ١ ص ٧٤٦ أ، المقريزي: إمتاع الأسماع (مخطوط) ج ١ ورقة ١٦٧ سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٩٤٧ أ، المقريزي: الحلبية ج ٣ ص ٣٤٩، السهيلي: الروض الانف ج ٢ ص ٣٤٣، مراصد الاطلاع ج ٢ ص ٣٧٠، ٣٧١، معجم البلدان ج ٦ ص ٤٠٨ - ٤٠٩.

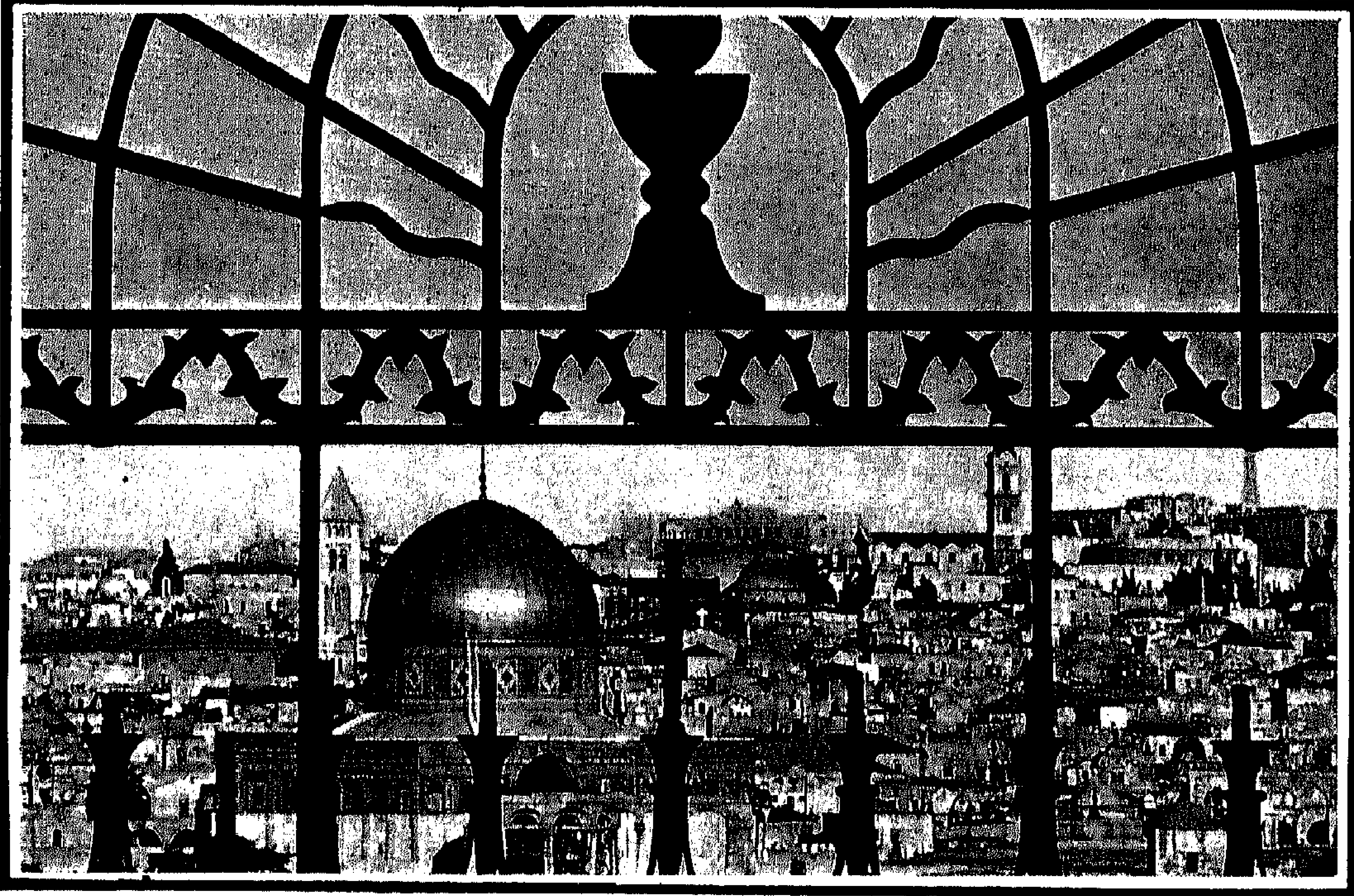
(١١) ابن سيد الناس: عيون الأثر (مخطوط) ورقة ١٧٥، ٣٦٥، وفاء الوفاج ١ ص ١٩٠، الروض الآنف ج ٢ ص ٣٤٩.

(١٢) هذا العقيق باليمامة، والمعروف أن في بلاد العرب أربعة أعقة وهي عبارة عن أودية قديمة شقها السيل.. (وفاء الوفاج ١ ص ١٩٠ - معجم البلدان ج ٦ ص ١٩٨).

(١٣) طبقات ابن سعد ج ٢ ص ٦٦.

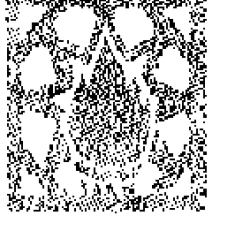
(١٤) الفلج وادي بين البصرة ومكة (معجم البلدان ج ٥ ص ٢٩٣، ابن خرداذبة ص ١٥٢ - ١٥٣.
(٥) طبقات ابن سعد ج ٢ ص ٦٧.
(١٦) رهاط قرب مكة على طريق المدينة (ياقوت ج ٤ ص ٣٤١).
(١٧) ابن كثير ج ٥ ص ٩٣.
(١٨) الجرداني: الجواهر اللؤلؤية في شرح الأربعين النووية ص ٦٩ - ٧٦ حاشية ٢، الزركلي: الأعلام ج ١ ص ١٦٦، النووي: في الأربعين ص ١٠، ضوء الساري ورقة ١٦٢، البطراوي: تحفة الأنام من فضائل الشام (مخطوط غير مرقم الصفحات)، ابن كثير: البداية والنهاية ج ٥ ص ٨٧.
(١٩) فتوح البلدان ص ٧٣، ٢٧٤، النجوم الزاهرة ج ١ ص ٣٤٦، معجم البلدان ج ٤ ص ١٨١.
(١٠) ابن حجر العسقلاني: الاصابة في تمييز الصحابة ج ١ ص ٥٨ - ٥٩، فتوح البلدان ص ٢٩٨.
(٢١) امتاع الأسماع ج ٥ ورقة ١٠٤٦.
(٢٢) فتوح البلدان ص ١٨ - ٢١، يحيي بن آدم: الخراج ج ٢ ص ٢٦ - ٢٧، ولفنسون (أبو ذؤيب): تاريخ اليهود ص ١٣٥ - ١٣٩، عيون الأثر ورقة ٢٩٨ - ٢٩٩.
(٢٣) ابن ادم: الخراج ج ٣ ص ٦١ - ٧٤، الطواري: تكملة البحر الرائق على كنز الدقائق ج ٨ ص ٣٨.
(٢٤) الماوردي: الأحكام السلطانية ص ١٨١.
(٢٥) إمتاع الأسماع ج ٥ ورقة ١٠٤٥.
(٢٦) السمهودي: وفاء الوفا ج ١ ص ١٨٨ - ١٨٩، ١٩١ - ١٩٢، النجوم الزاهرة ج ٢ ص ٢٢٣ - ٢٤٤، معجم البلدان ج ٦ ص ١٩٩.
(٢٧) الخراج ص ٣٤.
(٢٨) المصدر السابق ص ٣٦.
(٢٩) سورة الأنفال آية ٤١.
(٣٠) سورة الحشر آية ٦.
(٣١) سورة الأنفال آية ١.
(٣٢) عيون الأثر (مخطوط ورقة ١٧٦) فتوح البلدان ص ١٩ - ٢١.
(٣٣) فتوح البلدان ص ١٩ - ٢١، عيون الأثر ورقة ٢٩٥ - ٢٩٦، إمتاع الأسماع ج ٥ ورقة ٩٨٤.
(٣٤) فتوح البلدان ص ٢٩ - ٣٢، ٤٥، ٤٧، الأوائل (مخطوط) ورقة ١٤١، ابن كثير ج ٥ ص ١٨٩، وفاء الوفاج ١ ص ١٦٠ - ١٦١، ولفنسون ص ١٧٢ - ١٧٣ وغيرها...
(٣٥) ولفنسون ص ١٣١ - ١٣٢، وفاء الوفا ج ١ ص ١٥٢ - ١٥٣، ١٥٦.
(٣٦) ولفنسون ص ١٧٢.
(٣٧) خطط ص ٤٩. (Memoires; T. 33)، وفاء الوفا ج ١ ص ١٨٨.
(٣٨) يحيى بن آدم: الخراج ج ٣ ص ٥٧، فتوح البلدان ص ١٢، ١٥، ٢٦٧، وفاء الوفا ج ١ ص ١٩١، أبو يوسف: الخراج ص ٣٤، الخطط ص ٥٣ (Memoires)
(٣٩) إمتاع الأسماع ج ٥ ورقة ١٠٤٥، ابن آدم ج ص ٥٧، أبو يوسف ص ٣٥ وفاء الوفا ج ١ ص ١٩٠ - ١٩١
(٤٠) فتوح البلدان ص ٢٦٧، ابن رجب: الاستخراج ورقة ١٥، ٢٠
(٤١) ابن عبد الحكم: فتوح مصر ص ١٣٧ - ١٣٨، النجوم الزاهرة ج ١ ص ١٧١ - ١٧٨، ١٩٣، خطط ج ١ ص ١٥٦.
(٤٢) النجوم الزاهرة ج ١ ص ١٠٢، الإسلام والحضارة العربية ج ٢ ص ١٤٢.
(٤٣) الروض الأنف ج ٢ ص ٣٤٩، الأحكام السلطانية ص ١٧٦ - ١٧٨
(٤٤) الأحكام السلطانية ص ١٧٦ - ١٧٨.
(٤٥) فتوح مصر ص ١٤١ وما بعدها ج ٣ ص ٥٧.
(٤٦) فتوح البلدان ص ٣٤٥ - ٣٤٦، يحيى ابن آدم: الخراج.
(٤٧) فتوح البلدان ص ٣٤٦، الاستخراج ورقة ٦٣.
(٤٨) خطط ج ١ ص ١٥٦.
(٤٩) إمتاع الأسماع ج ٥ ورقة ١٠٤٥.
(٥٠) فتوح البلدان ص ٢٤٣.
(٥١) فتوح مصر ص ١٣٢ - ١٣٩، النجوم الزاهرة ج ١ ص ٦٤، الانتصار ج ٤ ص ٥ - ١٢.
(٥٢) إمتاع الأسماع ج ٥ ورقة ١٠٤٥، الاصابة ج ١ ص ١٤.
(٥٣) الاصابة ج ١ ص ١٤، يحيى بن آدم: الخراج ج ٣ ص ٧٦.
(٥٤) الماوردي ص ١٨٢، ١٨٧ - ١٨٧، خطط ج ١ ص ١٥٥.





أتيح لي أن أشارك، لعدة دورات، في تمثيل لبنان في اجتماعات الجمعية العامة للأمم المتحدة، وأن أرأس الوفد اللبناني لدى الدورتين السابعة عشرة والثامنة عشرة للمؤتمر العام لليونسكو، عامي ١٩٧٢ و١٩٧٤. وكان موضوعا القضية الفلسطينية، بصورة عامة، والقدس، بصورة خاصة، يتصدران جدول اعمال الدورتين.

وبمناسبة اقدام اسرائيل في ٣٠-٧-١٩٨٠ على اقرار تشريع يضم القدس اليها، خلافاً لكل قانون أو شرع او عرف، رأيت أن يطلع القارىء العربي على تطورات موضوع القدس امام الأمم المتحدة واليونسكو منذ حرب عام ١٩٦٧.


كان احتلال اسرائيل العسكري للقدس العربية، في السابع من حزيران ١٩٦٧، اكبر خسارة حلت بالعرب بعد خسارة القسم الأوفى من فلسطين عام ١٩٤٨. فقد أطبقت قوات اسرائيل على هذه المدينة، جوهرة المدائن، مقام السيد المسيح ومرتعه ومسرى النبي العربي، اولى القبلتين وثالث الحرمين، ومقر المسجد الأقصى، وجارة المهد ومسار الجلجلة ومثوى القبر المقدس.

المدينة التي حنا عليها العرب وحفظوها لأربعة عشر قرناً - خلا بعض قرنين منها استولى عليها خلالهما الفرنجة - كانت القدس خلالها مفتوحة لجميع المؤمنين، يحيطها العرب، مسلمون ومسيحيون، بافئدتهم ومحبتهم وتقديسهم، ويرنواليها العالم بالتجلة والاحترام.

دخلت القوات الاسرائيلية المدينة واحتلتها ورفعت فوقها العلم ذا النجمة السداسية، وبادرت الى التصرف بها تصرف الغزاة المستوطنين، وامعنت فيها هدماً وتغييراً. ازالت حي المغاربة لتفسح المجال لانشاء ساحة كبيرة أمام حائط المبكى، وحائط المبكى، كما قد لا يعلم الكثيرون، هو جزء لا يتجزأ من الأوقاف الاسلامية في القدس. وبهذا افتت حتى المحاكم البريطانية العليا، خلال الانتداب البريطاني على فلسطين، في الوقت الذي كان الانتداب يستهدف فيه سياسة انشاء الوطن القومي اليهودي.

وأزالت القوات الاسرائيلية الحدود بين القدس العربية وسائر القدس المحتلة، وضمتها الى أراضيها، واستصدرت قانوناً من «الكنيست» الاسرائيلي يقرر توحيد المدينة، محاولة ان تسبغ على هذا الاحتلال العسكري القسري صفة التوحيد الشرعي.

ثم عملت سلطات الاحتلال على تغيير معالم المدينة فأضافت اليها أحياء جديدة، وأنشأت فيها عمارات شاهقة شوهت معالمها التاريخية، ونقلت اليها بعض الادارات الحكومية الاسرائيلية زيادة في الامعان في تهويد المدينة. وقامت فيها بحفريات عديدة بالقرب من الحرم الشريف وكثير من المقدسات الاخرى الاسلامية والمسيحية، معرضة تلك الآثار الثمينة للخطر والضياع. ثم عمدت الى احاطة المدينة الغالية بسوار خانق من العمارات الشعبية العالية، حتى طمس افق المدينة، وتغير شكلها، وحشدت في تلك العمائر اعدادا كثيفة من المهاجرين اليهود، محاولة بذلك ان تضع العالم امام الأمر الواقع.

ولم تكتفِ بذلك، بل حاول بعضهم حرق المسجد الأقصى، كما يعلم الجميع، والصقوا هذه التهمة بمخبول، وتطاولوا على حرمة عرش السيدة العذراء.

سارع العرب لكشف هذه التصرفات غير القانونية لدى الرأي العام العالمي، وتقدموا بشكاوى حولها الى الأمم المتحدة التي قامت، منذ عام الاحتلال ١٩٦٧، بإنذار اسرائيل، وبشدة، للامتناع عن اجراء أي تغيير في وضع المدينة القانوني، او في معالمها التاريخية ومقدساتها، او في مخططها المدني.

فقد أصدرت الجمعية العمومية للأمم المتحدة في ٤ تموز ١٩٦٧ القرار رقم ٢٢٥٣ «بدعوة اسرائيل لالغاء كل الاجراءات التي اتخذتها (في القدس)، وبالطلب منها الامتناع عن القيام بأي عمل يغير وضع القدس».

وفي ١٤ تموز ١٩٦٧ اتخذت الجمعية العمومية قرارا اخرا برقم ٢٢٥٤ «يستنكر عدم قيام اسرائيل بتنفيذ قرار الجمعية العمومية رقم ٢٢٥٣ (المذكور انفا)، ويدعو اسرائيل مرة اخرى، الى الغاء جميع الاجراءات المتخذة، والى الامتناع عن القيام بأي عمل يغير معالم القدس».

وفي ١٤ كانون الأول ١٩٧٣، اتخذت الجمعية العمومية القرار رقم ٣٠٩٢ الذي تعرب فيه «عن اهتمامها العميق بنقض اسرائيل لاتفاقية جنيف الخاصة بحماية الاشخاص المدنيين في زمن الحرب، المؤرخة في ١٢ اب ١٩٤٩، وغيرها من الاتفاقات الدولية... وذلك بنهبها الآثار الثقافية والتاريخية في الأراضي المحتلة».

ونصت المادة الثانية من هذا القرار على «اعتبار كل الاجراءات المتخذة من قبل اسرائيل لتغيير المعالم الطبيعية والتركيب الديموغرافي، والنظم الأساسية، أو وضع الاراضي المحتلة، او

الحفريات الاسرائيلية في جوار المسجد الأقصى



أي جزء منها لاغياً وغير معترف به».

ودعت المادة الثامنة من القرار سائر الدول والمنظمات والوكالات الدولية «لعدم الاعتراف بأية تغييرات اجرتها اسرائيل في الأراضي المحتلة الخ...».

اما مجلس الأمن، فقد اتخذ في ٣ تموز ١٩٦٩ القرار رقم ٢٦٧ وفيه «يستنكر، بأقوى الألفاظ، كل الاجراءات المتخذة بهدف تغيير وضع مدينة القدس، واعتبرت المادة الرابعة من القرار كل الاجراءات التشريعية والادارية التي اتخذتها اسرائيل في القدس لاغية وغير ذات مفعول».

وكذلك اتخذ مجلس الأمن قرارا بالمعنى ذاته، مضيفا اليه استنكاره لعدم تجاوب اسرائيل معه وذلك تحت رقم ٢٩٨ بتاريخ ٢٥ ايلول ١٩٧١.

اما اليونسكو، وهي منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة والاعلام، فقد تناولت الموضوع من ناحيته العلمية والثقافية. فأصدر المؤتمر العام الخامس عشر لليونسكو، في خريف عام ١٩٦٨ القرار رقم ٣٣٤٣ وتضمن دعوة اسرائيل «للمحافظة بدقة على كل المواقع والمباني وسائر الممتلكات الثقافية (في الأراضي المحتلة)، وخاصة في مدينة القدس القديمة». ونصت الفقرة الثانية من نفس القرار على وجوب «امتناع اسرائيل عن القيام بأية حفريات، او نقل ملكية، او تغيير معالمها، او تغيير طابعها الثقافي والتاريخي».

لم تأبه اسرائيل لكل هذه القرارات، بل استمرت في طغيانها وفي الفتك بمعالم المدينة المقدسة، فأصدر المجلس التنفيذي في منظمة اليونسكو سلسلة من القرارات تدور كلها حول استنكار ما تقوم به اسرائيل من حفريات خطرة في المدينة المقدسة ومن تغيير لمعالمها، وتنص هذه القرارات على الاستنكار، ومن ثم ادانة اسرائيل لقيامها بهذه الاعمال غير الشرعية، وتطلب منها

التوقف الفوري عنها.

وتحقيقاً للبحث العلمي حول الموضوع، اشير الى ارقام هذه القرارات الصادرة عن المجلس التنفيذي لليونسكو:

١ - القرار رقم ٣٢٤٣ الصادر عن المجلس التنفيذي لليونسكو في دورته الخامسة عشرة بتاريخ ٢٠ تشرين الثاني ١٩٦٨.

٢ - القرار رقم ٤٤٣ الصادر بتاريخ ١٦ ايار ١٩٦٩.

٣ - القرار رقم ٤٣١ الصادر بتاريخ ٢٠ تشرين الأول ١٩٦٩.

٤ - القرار رقم ٤٣١ الصادر بتاريخ ٢١ تشرين الأول ١٩٧١.

٥ - القرار رقم ٤٤١ الصادر بتاريخ ٢٤ حزيران ١٩٧٤.

ولما بقيت كل هذه القرارات بلا جدوى، فقد عرضت الوفود العربية والمؤيدة الموضوع على المؤتمر العام لليونسكو في دورته العامة السابعة عشرة في خريف ١٩٧٢ الذي اتخذ قرارا رقم ٣٤٢٢ بتاريخ ٢٠ تشرين الثاني ١٩٧٢ يستنكر فيه استمرار اسرائيل بقيامها بالحفريات في القدس وبتغييرها معالم المدينة ويطلب منها، في الفقرة الثانية من القرار:

أ - «ان تتخذ التدابير الكفيلة بالحفاظ بدقة على كل المواقع والمباني وغيرها من الآثار الثقافية (في الأراضي المحتلة) وخاصة في مدينة القدس القديمة».

(ب) «ان تمتنع عن اجراء اي تغيير في معالم مدينة القدس».

(جـ) «ان تمتنع عن اجراء اية حفريات، أو أي نقل للملكية الثقافية، او اي تعديل في معالمها او في طابعها الثقافي والتاريخي، وعلى الأخص فيما يتعلق بالمعالم الدينية المسيحية والاسلامية».

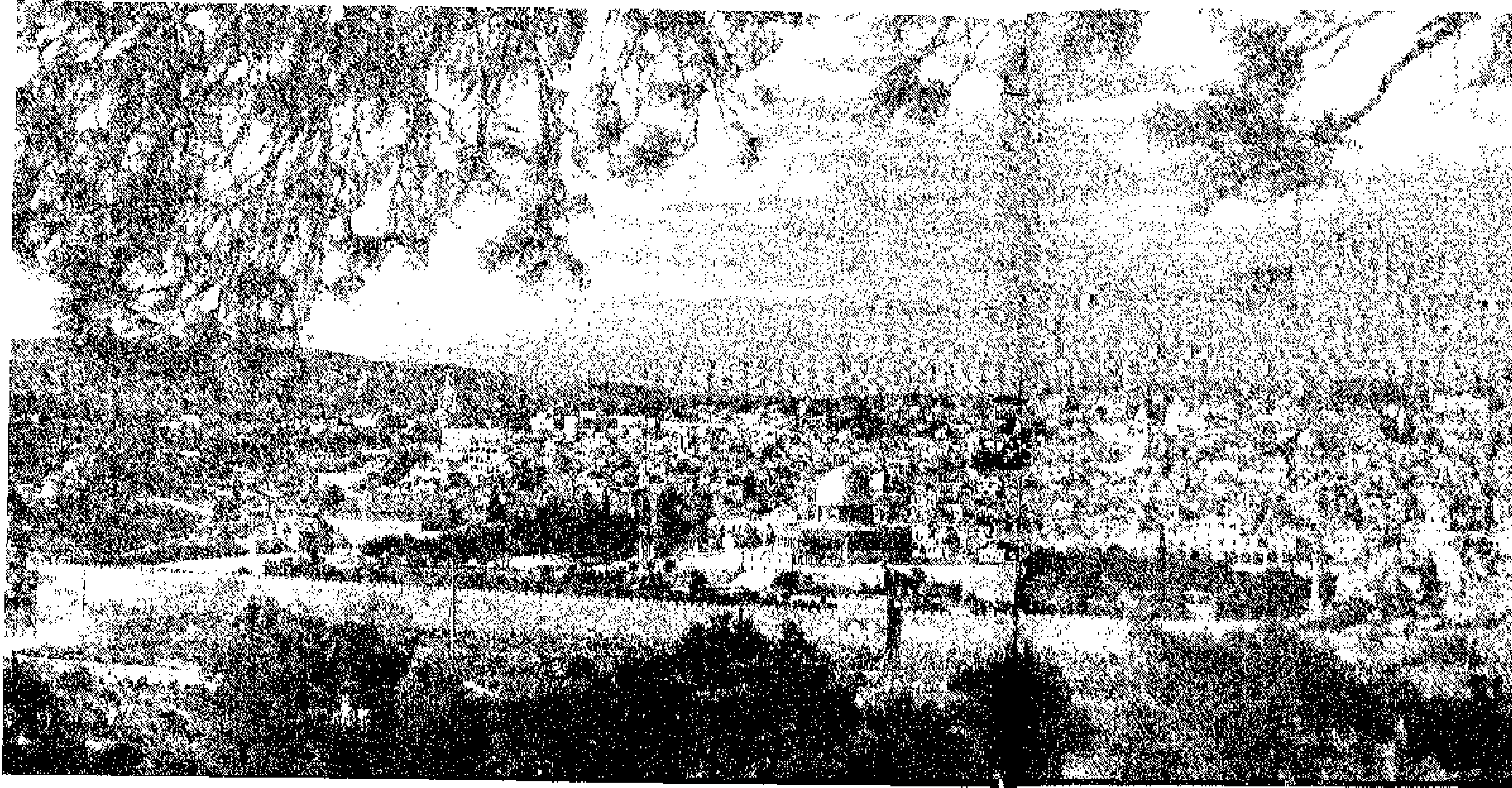
(د) «ان تحترم اسرائيل بدقة القواعد التي نص عليها الاتفاق الدولي الخاص بحماية الملكية الثقافية في حالة النزاع المسلح (لاهاي ١٩٥٤)».

ودعى القرار في فقرته الثالثة المدير العام لليونسكو لاقامة «وجود» لليونسكو في القدس من اجل التحقق من تنفيذ هذه المقررات.

استمر موقف اسرائيل المتعنت من هذه القرارات حتى تمكن المدير العام السابق لليونسكو، السيد رينه ماهو، من اقناعها بقبول «وجود» اليونسكو في القدس، وعين عام ١٩٧٤ الاستاذ ريمون لومير Raymond Lemaire، البلجيكي، والسكرتير العام للمجلس الدولي للمعالم والمواقع الأثرية ICOMOS، ممثلاً له في القدس للاشراف على تنفيذ مقررات المنظمة الدولية.

وقد قام السيد لومير بزيارة القدس في الفترة ما بين ١٦ و٢٣ نيسان ١٩٧٤، ووضع تقريرا رفعه الى المدير العالم لليونسكو الذي احتفظ به واودع المجلس التنفيذي للمنظمة نبذة مختصرة عنه.

وهذا التقرير لايتجاوب تماما والمهمة التي



كلف المدير العام بتنفيذها بواسطة ممثله في القدس، فقد اقتصر على ذكر نواح فنية بحتة تتعلق بالحفريات التي تجريها اسرائيل في القدس وما زالت مستمرة فيها، رغم قرارات اليونسكو التي تمنعها من ذلك.

على ان التقرير، رغم الهنات التي وردت فيه، دل بوضوح على امعان اسرائيل في تحدي قرارات اليونسكو، وفي استمرارها في اجراء الحفريات في القدس وفي تغيير معالم المدينة المقدسة.

وتقدمت الوفود العربية والمؤيدة بمشروع قرار الى المجلس التنفيذي يدين اسرائيل لمخالفاتها الكثيرة ولاستمرارها في تجاوز قرارات الأمم المتحدة واليونسكو في موضوع القدس، ويطلب طرح الموضوع على المؤتمر العام الثامن عشر لليونسكو. وقد فاز مشروع القرار هذا باقرار المجلس التنفيذي له باكثرية ٢٤ ضد لا شيء وامتناع ١١. وكان ذلك في ٢٤ حزيران ١٩٧٤.

وطرح الموضوع امام المؤتمر العام الثامن عشر لليونسكو بموجب قرار اعدته الوفود العربية والمؤيدة وفيه سرد تاريخي لقرارات الأمم المتحدة واليونسكو السابقة حول الموضوع، وتبيان موقف اسرائيل الرافض منها، ودعوة المؤتمر العام، بالتالي، لادانة اسرائيل، وقطع اعاناتها عنها. وقد كان لهذا المشروع ضجة كبرى في اوساط اليونسكو، وكذلك في الاوساط الخارجية، وسرت اشاعات حوله بأنه يسيّس موضوع القدس الثقافي، ويسيّس المنظمة الثقافية العالمية، كما وانه سيؤدي إلى إخراج اسرائيل من اليونسكو وبالتالي الى وقف مساهمة بعض الدول في موازنة اليونسكو واعمالها احتجاجا منها على هذا الموقف.

وقد لاقى العرب ومؤيدوهم واصدقاؤهم

الكثيرون عراقيل جمة خاصة من بعض الدول الكبرى وغيرها من الدول الغربية ولكن ذلك لم يفت في عضدهم وتمكنوا، برغم تلك الصعوبات، من طرح مشروع القرار على المؤتمر العام الذي صوت عليه، بعد مناقشات طويلة اشترك فيها بالاضافة الى اعضاء اليونسكو منظمة التحرير الفلسطينية - التي كانت قد قبلت في مطلع الدورة كعضو مراقب في اليونسكو - وعدد من المنظمات اليهودية والصهيونية.

وفي ٢٠ تشرين الثاني ١٩٧٤، فاز المشروع العربي بأكثرية ٦٤ صوتاً ضد ٢٧ صوتاً وامتناع ٢٦ وغياب ١٧ صوتاً.

واذكر فيما يلي الفقرات الثلاث العملية للقرار:

١ - «يؤكد جميع القرارات المشار اليها آنفاً ويصر على تنفيذها».

٢ - «يدين اسرائيل لموقفها المناقض للأهداف التي تتوخاها المنظمة كما وردت في ميثاقها التأسيسي، باستمرارها في تغيير معالم مدينة القدس التاريخية وفي اجراء الحفريات التي تشكل خطرا على اثارها، وذلك عقب احتلالها غير الشرعي لهذه المدينة».

٣ - «يدعو المدير العام الى عدم تقديم اي عون في ميادين التربية والعلم والثقافة لاسرائيل، وذلك الى ان تحترم بدقة القرارات المشار اليها انفاً.»

هذه القرارات، الصادرة عن الجمعية العامة للأمم المتحدة، وعن مجلس الأمن، وعن اليونسكو، لم تكن لتوقف اسرائيل عن السير في خطتها لضم القدس؛ حتى انه يمكن القول انه لم تخلُ دورة فيما بعد، من دورات الأمم المتحدة واليونسكو الا وكانت القدس على جدول اعمالها. ولن اتطرق الى ذكر مجموعة القرارات الصادرة عن تلك الدورات فكلها تدين اعمال اسرائيل وترفض الاعتراف بها.

ونصل الى العام ١٩٨٠، عندما باشرت اسرائيل اتخاذ الخطوات التشريعية الأخيرة بضم القدس نهائياً اليها. فتقدمت الدول الاسلامية بشكوى الى مجلس الأمن، وأرفقتها بمشروع قرار ناقشه المجلس واجرى عليه تعديلات طفيفة، ثم أقره في ٣٠ - ٦ - ١٩٨٠ بأكثرية ١٤ صوتاً وامتناع الولايات المتحدة الاميركية عن التصويت. وتضمن القرار رقم ٤٧٦ النقاط الست التالية:

١ - التشديد على الضرورة القصوى لأنهاء الاحتلال الاسرائيلي للأراضي العربية المحتلة منذ العام ١٩٦٧، بما في ذلك القدس.

٢ - التنديد بشدة باستمرار رفض اسرائيل التقيد بقرارات مجلس الامن والجمعية العامة.

٣ - التأكيد مجدداً ان الاجراءات الاشتراعية والادارية والأعمال التي اتخذتها اسرائيل والتي تهدف الى الغاء وضع مدينة القدس هي اجراءات غير قانونية وتشكل خرقاً فاضحاً لميثاق جنيف المتعلق بحماية المدنيين في زمن الحرب، كذلك تشكل عقبة خطيرة في طريق الوصول الى سلام عادل ودائم في الشرق الأوسط.

٤ - التشديد على اعتبار كل هذه الاجراءات باطلة ولاغية تمشياً مع قرارات مجلس الأمن.

٥ - دعوة اسرائيل بصورة معجلة الى التقيد بهذه القرارات والقرارات السابقة لمجلس الامن، والكف حالاً عن الاستمرارا في اتخاذ اجراءات تؤثر على وضع مدينة القدس المقدسة.

٦ - التشديد مجدداً، على ضوء عدم انصياع اسرائيل لهذا القرار، على النظر في سبل ووسائل يفرضها ميثاق الأمم المتحدة لضمان تنفيذ القرار تنفيذاً كاملاً.

هذا القرار، مثل غيره، لم يؤثر على اسرائيل، ولم يقنعها بوقف اعمال ضم المدينة، بل بالعكس، كان حافزاً لها للتحدي، وللاسراع في ابرام عملية الضم.

فبعد شهر بالتمام من تاريخ قرار مجلس الأمن السالف الذكر، اي في ٣٠ - ٧ - ١٩٨٠، أقر الكنيست الاسرائيلي قانون ضم القدس بأكثرية ٦٩ صوتا ضد ١٥ وامتناع ٣ نواب عن التصويت. وينص القانون الاسرائيلي على البنود التالية:

١ - ان القدس الموحدة كاملة هي عاصمة اسرائيل.

٢ – ان القدس مقر رئيس البلاد والكنيست والحكومة والمحكمة العليا.

٣ – ان الاماكن المقدسة ستُحْمَى من التدنيس ومن اي اضرار واي شيء يمكن ان يؤثر على الوصول الحر لكل الديانات الى اماكنها المقدسة، او على مشاعرها نحو هذه الأماكن.

٤ – ان الحكومة ستشرف على تطوير القدس ونموها.

لم يفاجىء هذا القرارا أحداً، فقد كانت نوايا اسرائيل تشير اليه منذ العام ١٩٦٧. ولكنه حفز العرب والمسلمين وكثيراً من سائر الدول، الى رفضه واعلان بطلانه.

وكان، بالطبع، اول صوت يعلو برفضه صوت فلسطين. فبادرت اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية، في ١-٨-١٩٨٠، لإصدار البيان التالي:

١ – «ان ما اقدم عليه العدو الصهيوني في شأن القدس يشكل انتهاكاً صارخاً للشرعية الدولية وقرارات الأمم المتحدة في شأن القدس، واعتداء صارخاً على ارادة الرأي العام العالمي. وهو يمثل حلقة جديدة في سلسلة الاعتداءات والجرائم الاسرائيلية ضد الشعب الفلسطيني وحرمة ترابه الوطني، كما تمثل عدواناً على القيم الدينية للمسلمين والمسيحيين، ويفرض عليهم مواجهة مصيرية وعقائدية وجوداً وعقيدة وممارسة.

٢ – ان صدور هذا القانون العدواني في اعقاب القرارات التي اتخذتها الأمم التحدة في شأن القدس وقضية فلسطين، والتي كان آخرها القرار رقم ١ في الجلسة الاستثنائية الطارئة رقم ٧ يمثل الاستعمار الصهيوني الاستيطاني في تناقضه الدائم مع الشرعية الدولية، واستهتاره بقيم جميع المؤمنين ومعاكسته تيار التاريخ. وان هذا التحدي الصهيوني يكشف عزلة الكيان الصهيوني على الصعيد العالمي.

٣ – ان مسؤولية هذا العدوان الصهيوني على القدس تقع في المقام الأول على كاهل الولايات المتحدة الامريكية التي تقدم الى الكيان الصهيوني الدعم المادي والعسكري والسياسي غير المشروط لتمكينه من ممارسة اعتداءاته وجرائمه واستمرار اغتصابه واحتلاله للأراضي الفلسطينية والعربية وتنفيذ مخططاته التوسعية. ولا تزال تقوم بذلك، مشاركة في هذا الكيان الصهيوني المعزول في تحديه للقرارات الدولية والاستهتار بالقيم والمثل الانسانية والقوانين الدولية.

٤ – ان القدس هي عاصمة وطننا فلسطين العربية منذ ان بناها اجدادنا اليبوسيّون الكنعانيون العرب في قلب فلسطين، وهي قبلة المؤمنين، ومن ثم فان تحرير القدس من محتلّيها الصهاينة المنكرين للمسيحية والاسلام قضية مصيرية لشعبنا وأمتنا، وهو السبيل الوحيد لتأمين حرية العبادة فيها لجميع المؤمنين.

٥ – ان اللجنة التنفيذية، وهي تقدر مواقف الدول التي استنكرت هذا العدوان على القدس، تدعو الأمم المتحدة الى تحمل مسؤوليتها حيال هذا العدوان بتطبيق العقوبات التي نص عليها ميثاقها، كما تدعو جميع دول العالم الى اتخاذ اجراءات عملية تساهم في ردع التعدي الصهيوني.

ان اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية، وهي تدرك من موقع مسؤولياتها الوطنية والقومية والدولية خطورة هذا العدوان، تعاهد شعبنا وامتنا والعالم اجمع على مواصلة الكفاح بجميع الوسائل لتحرير التراب الوطني الفلسطيني وفي مقدمته القدس الشريف».

وسارعت الدول العربية والاسلامية الى رفض القرار الاسرائيلي بضم القدس طالبة من مجموعة الدول عدم الاعتراف به. واتخذت الحكومتان العراقية والعربية السعودية قراراً مشتركاً في ٦ – ٨ – ١٩٨٠ بقطع كل العلاقات السياسية والاقتصادية مع اية دولة تستجيب لقرار الكيان الصهيوني، او تبقي على سفارتها في القدس بعد ذلك القرار. وتبنت دول عربية اخرى هذا القرار واعلنت تقيُّدها به.

وتحرّكت منظمة المؤتمر الاسلامي فبادر رئيسها الحالي رئيس حكومة الباكستان الى توجيه رسالة الى رئيس مجلس الأمن يلفت نظره فيه الى قرار المجلس رقم ٤٧٦ (السابق ذكره) الذي يشير، في حال عدم اذعان اسرائيل

لضمون القرار، الى «دراسة الطرق والوسائل العلمية وفقاً لميثاق الأمم المتحدة لضمان التنفيذ التام لقراره». واضافت الرسالة ان «اسرائيل، القوة المحتلة، وهي تتجاهل تجاهلاً تاماً عواطف وإرادة المجتمع الدولي، تنتهك انتهاكاً فاضحاً قرارات مجلس الامن المتعلقة بالوضع الخاص لمدينة القدس المقدسة، وقد ثابرت على تصميمها لتغيير وضع المدينة المقدسة، وأصدرت قانوناً يعلن مدينة القدس المقدّسة عاصمة لاسرائيل».

وطلب رئيس منظمة المؤتمر الاسلامي اجتماع مجلس الأمن «نظراً للمضاعفات الخطيرة ولجدية للعمل الاسرائيلي وما له من نتائج بالنسبة للسلام والأمن العالمين».

اجتمع مجلس الأمن وبحث الموضوع، واتخذ في ٢٠ - ٨ - ١٩٨٠ القرار رقم ٤٧٨ بأغلبية ١٤ صوتاً مقابل لا شيء وامتناع الولايات المتحدة الاميركية عن التصويت. وفيما يلي نص القرار:

«ان مجلس الأمن،

إذ يذكر بقراره رقم ٤٧٦ (١٩٨٠) بتاريخ ٣٠ حزيران، وإذ يؤكد مجدداً أن الاستيلاء على الأراضي بالقوة هو أمر غير مقبول، وإذ يعبّر عن قلقه العميق لتشريع «قانون أساسي» في البرلمان الاسرائيلي يعلن تغييراً في طابع ووضع مدينة القدس المقدسة، مع انعكاسات ذلك على السلام والأمن،

وإذ يسجل ان اسرائيل لم تلتزم بقرار مجلس الأمن رقم ٤٧٦ (١٩٨٠)، وإذ يعيد تأكيد تصميمه على دراسة طرق ووسائل عملية وفقاً لميثاق الأمم التحدة لضمان التنفيذ التام لقراره رقم ٤٧٦ (١٩٨٠) في حال عدم اذعان اسرائيل :

١ - يستهجن بأقوى الأساليب التشريع الذي وضعته اسرائيل في «قانون اساسي» حول القدس، ورفضها الاذعان لقرارات مجلس الأمن في الموضوع،

٢ - يؤكد ان تشريع «القانون الأساسي» من قبل اسرائيل يشكل خرقاً للقانون الدولي، ولا يؤثر على استمرار تطبيق اتفاقية جنيف الرابعة بتاريخ ١٢ - ٨ - ١٩٤٩ الخاصة بحماية المدنيين في وقت الحرب في الأراضي الفلسطينية والعربية الأخرى المحتلة منذ حزيران ١٩٦٧ بما فيها القدس،

٣ - يقرر ان كل الاجراءات والتدابير التشريعية والادارية المتخذة من قبل اسرائيل، القوة المحتلة، والتي غيرت او توحي بتغيير في طابع ووضع مدينة القدس المقدسة، وخاصة «القانون الأساسي» الأخير بشأن القدس، هي لاغية وباطلة، ويجب الغاؤها فوراً.

٤ - يؤكد ايضاً ان هذا العمل يشكل عائقاً خطيراً امام الوصول الى سلام شامل وعادل ودائم في الشرق الأوسط،

٥ - يقرر عدم الاعتراف بـ «القانون الأساسي» وبأعمال اسرائيل الأخرى التي تقوم بها، كنتيجة لهذا القانون، ابتغاء تغيير طابع ووضع القدس، ويدعو كل اعضاء الأمم المتحدة :

(أ) لقبول هذا القرار.

(ب) الطلب من الدول التي انشأت بعثات دبلوماسية في القدس سحب هذه البعثات من المدينة المقدسة.

٦ - يطلب من الأمين العام تقديم تقرير لمجلس الأمن عن تنفيذ هذا القرار قبل ١٥ - ١١ - ١٩٨٠.

٧ - يقرّر أن يبقي يده على هذا الوضع الخطير».

ونتيجة لهذا القرار بادرت ثلاث عشرة دولة - هي مجموع الدول التي كانت سفاراتها تقوم في القدس - الى نقلها الى تل أبيب، ولم تبق، على ما نعلم، اي سفارة اجنبية في القدس.



حي من القدس القديمة.

هذه لمحة عامة عن موقف الامم المتحدة واليونسكو من القدس منذ حرب حزيران ١٩٦٧ وحتى اعداد هذه الدراسة في تشرين الأول ١٩٨٠.

هذا الموقف يعارض، بلا شك، بل يرفض، العدوان الاسرائيلي على المدينة المقدسة.

ولكن هذا الموقف، مع سلامته القانونية، لا يعيد المدينة العزيزة الغالية، جوهرة المدائن، الى السيادة العربية، بل انه لا يشكل حتى سند تملّك للعرب.

انه قرار يضاف الى المجموعة الضخمة من القرارات التي استصدرها العرب واصدقاؤهم من الأمم المتحدة ووكالاتها العامة حول القضية الفلسطينية، التي اصبحت قضية الشرق الأوسط.

انه قرار يدعم الحق، ولكنه لا يعيد الحق.

انه قرار يلهو به التاريخ!

التاريخ الذي أنصف القوي، وحرم الضعيف.

التاريخ الذي ينقض قول شوقي امير الشعراء: «يا فاتح القدس خلِّ السيف ناحية»، وإن كان شوقي ينطلق منه الى الاعتبارات الروحية.

فبالسيف دخل اللنبي القدس عام ١٩١٧،

وبالدبابة دخل الاسرائيليون القدس، بعد نصف قرن، عام ١٩٦٧،

وبأمضى من السيف وأقوى من الدبابة، يستعيد العرب القدس.

وانهم لفاعلون. ■



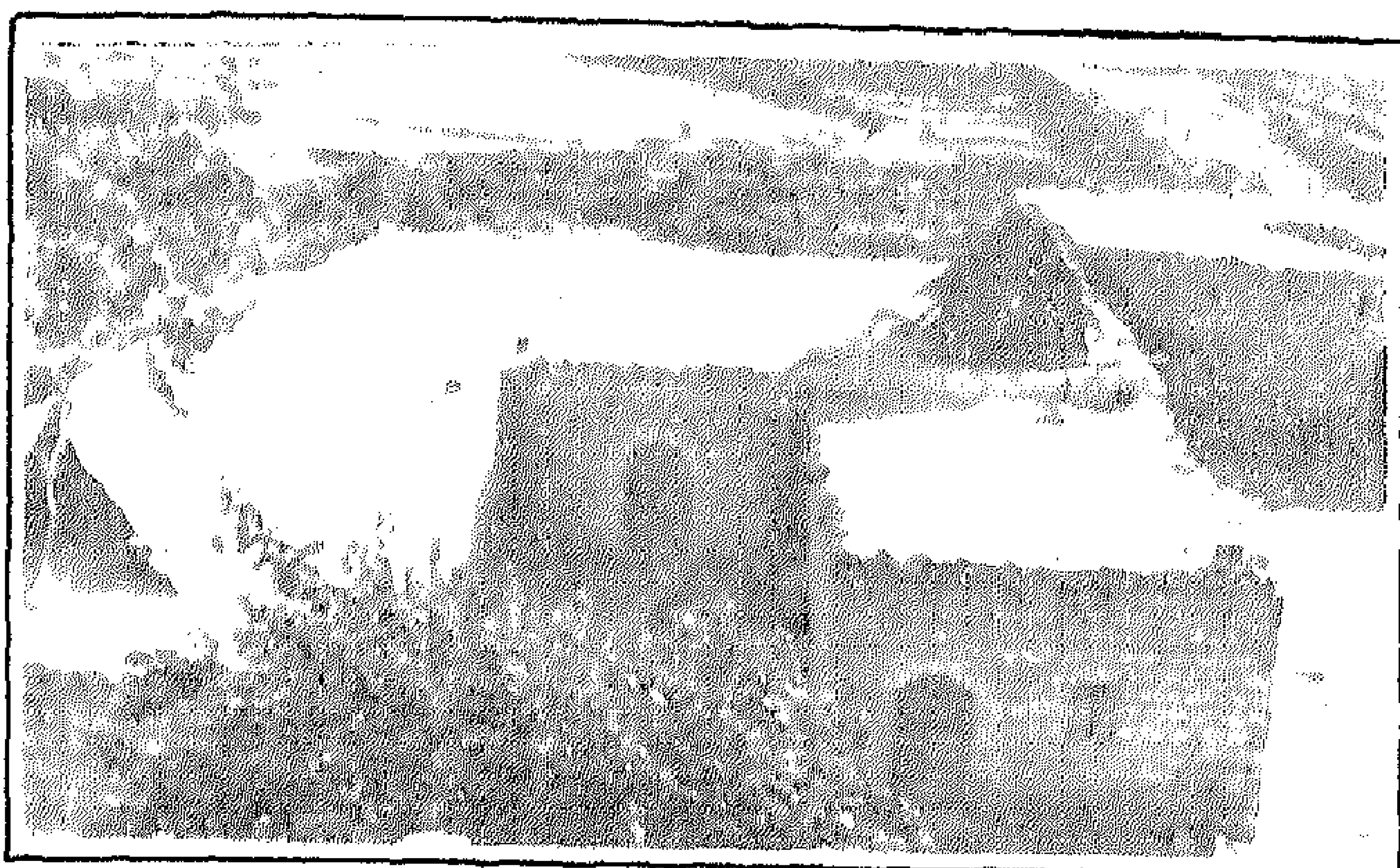
● **إذا ضمن الشرف الشبان والمستقبل، فقد ضمن كل شيء وهانت عليه خسارة الحاضر وإن كانت جسيمة.**

العقاد

نفح العنبر بتاريخ بربر

رسالة مخطوطة لإلياس صدقة الطرابلسي

د. عمر عبد السلام تدمري



مشهد من قلعة بربر في إيعال

«مصطفى بربر» حاكم طرابلس وملحقاتها، له تاريخ حافل وهام في ولايته بشكل خاص، وفي لبنان بشكل عام. وله مشاركة مؤثّرة في أحداث الثلاثينات الأولى من القرن التاسع عشر، وخاصة أثناء الحملة المصرية الى بلاد الشام، والصراع العنيف الذي كانت تشهده المنطقة بين السيطرة العثمانية والولاة والباشاوات الذين كانوا يحاولون بسط نفوذهم خارج إرادة الدولة أو عن طريقها. فهو معاصر لمحمد علي الكبير وابنه ابراهيم باشا، وأحمد باشا الجزار، والأمير بشير الشهابي، وغيرهم.

وسيرة هذا الحاكم القريبة من الأسطورة لما تميّزت به شخصيته الفذة، مبثوثة في كتب التواريخ التي تتناول بلاد الشام في تاريخها الحديث بشكل عام، ولبنان بشكل خاص. الى جانب بعض المؤلفات الخاصة التي وُضعت عن سيرته الذاتية.

وحين وضع «أغناطيوس الخوري» كتابه بعنوان «مصطفى بربر، حاكم ايالة طرابلس وجبلة ولاذقية العرب (١٧٦٧ - ١٨٣٤)»، اعتمد فيما اعتمد عليه من مصادر ومراجع على مصنّف وضعه «نوفل نوفل الطرابلسي» ينقل فيه عن مخطوطة صغيرة لإلياس صدقة الطرابلسي (١٨١٠ - ١٨٨٣) أسماها «تاريخ مصطفى بربر». فهو (أعني أغناطيوس) لم يطّلع على كرّاسة الياس صدقة، وإنما اخذ عنها بوساطة معاصره نوفل. وذكر ذلك صراحة في التعريف

* د. عمر عبد السلام تدمري: رئيس قسم الآثار، استاذ التاريخ الاسلامي في الجامعة اللبنانية، فروع طرابلس.

بمصادر كتابه، فقال: «**الياس صدقه** وضع كراساً عن بربر اسماه «تاريخ مصطفى بربر»، وقد بحثنا عنه كثيراً لنتدبره ونستند اليه في تأليفنا هذا، نظراً لمكانته من القيمة والثقة، ولكون مؤلفه هو من عصر بربر، أو شاهد عياني لما كتب وروى، وقد قيل لنا انه في حوزة العلامة عيسى المعلوف، صديقنا الكريم، فطلبنا منه فأنكره وأكدّ لنا انه عند زميله الأستاذ جرجي ينّي، صديقنا البحاثة أيضاً وصاحب مجلة المباحث في طرابلس، رحمه الله، وهذا أيضاً أنكر الكراس، وحاول إقناعنا ان الأستاذ معلوف قد احتازه بعده، ولم يعد يسمع عنه خبراً، مما انكره المعلوف ثانية... فتم في موقفنا بين الصديقين العالمين، المثل السائر «بين حانا ومانا ضاعت لحانا». أي بين ينّي ومعلوف ضاع تاريخ بربر الذي من قلم المرحوم الياس صدقة»(١).

ومنذ مدة قريبة، وقعت تحت يدي رسالة مؤرخة في سنة ١٨٤٠ تحمل عنوان «**نفح العنبر بتاريخ بربر**» وهي قسم من الكرّاس الذي وضعه الياس صدقة - على الأرجح - تتضمن سيرة بربر خلال الفترة الواقعة بين سنتي ١٧٦٧ - ١٨٠٨ أي منذ نشأته وحتى نهاية فترة حكمه الأولى لطرابلس. والمعروف ان بربر حكم طرابلس على أربع دفعات (١٨٠٠ - ١٨٠٨) و(١٨١٠ - ١٨٢٠) و(١٨٢١) و(١٨٣١ - ١٨٣٣) وكانت وفاته في قرية إيعال القريبة من طرابلس يوم الاثنين ١٨ شوال ١٢٥٠هـ / ٢٨ نيسان ١٨٣٥م.

وكراسة صدقة تعتبر أهم مصدر مكتوب في تاريخ بربر، إذ أن كاتبها كان معاصراً للأحداث، وصديقاً شخصياً لبربر، فذكر ما شاهده بنفسه، وما سمعه منه شفاهاً، وما أخذه منه عسكر جيشه. ونظراً لهذه الأهمية رأيت نشر هذا القسم كما كتبه صاحبه بالعامية المزوجة بالفصحى، وسأعمل على تصويب بعض ألفاظه وعباراته وأخطائه النحوية واللغوية دون تشويه في صياغته التي تعطينا مثالاً عن نماذج كتابات المؤرخين اللبنانيين في القرن التاسع عشر.

نفح العنبر بتاريخ بربر

[بسم الله... ... ...]

«أما بعد، فهذه مسودة رسالة «نفح العنبر بتاريخ بربر»، رسمت عباراتها بلغة سهلة الفهم، مُئرخة بالتاريخ المسيحي، وسوف أضع معه التاريخ الهجري، حسبما طلبه مني... ... ...(٢) عندما اجتمعنا معه ببيته، وقد جمعت هذه الأخبار حسبما شاهدته وسمعته منه، ومن عسكر جيشه. وبالله الاستعانة والتوفيق.

غب هذه المقدمة نرسم على ورقة الكدش ما يأتي:

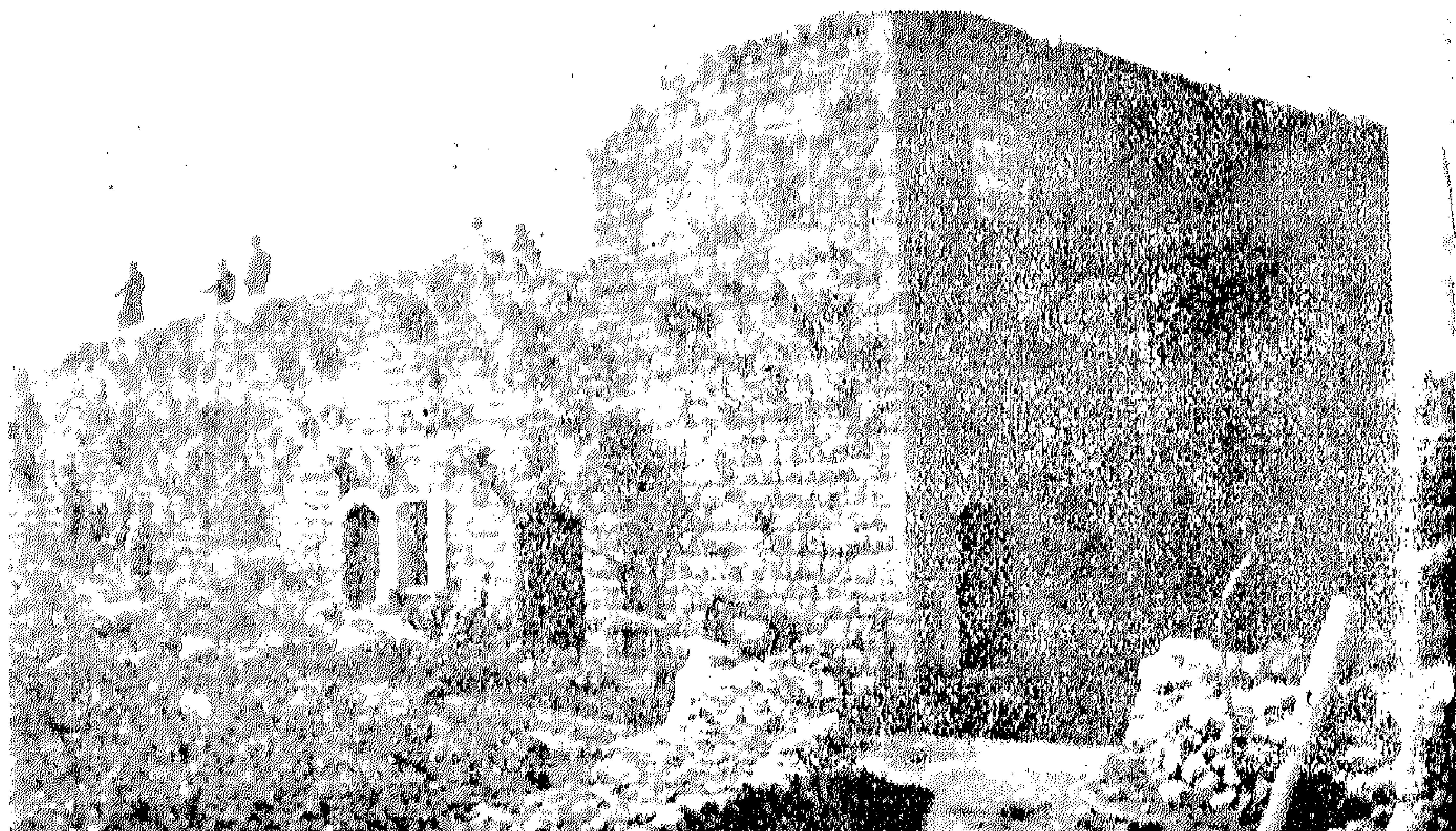
هو مصطفى آغا ابن حسن القرق، من أهالي المحميّة المحروسة(٣).

ولد سنة ١١٨٠ هجرية، التي يقابلها ١٧٦٧ مسيحية. ينتمي الى عيلة القرق من طرابلس. أما كلمة «بربر» فهي بلغة دولتنا العلية، وتعني الحلّاق، وقد يكون، والله أعلم، أحد أجداده اشتغل حلّاقاً فأطلق عليه اسم بربر، كما تُكنّى أكثر عيلات (عائلات) المحميّة، فإنهم يُنسبون الى أحد أجدادهم، والمثل بيقول: (لولا اللبايق (الألقاب) ما نعرفت الخلايق).

مات أبوه مخلّفاً مصطفى وأخاه(٤) محمد المشهور بعزرايين (عزرائيل)، وأمهما في حالة فقر شديدة، فأخدتن (فأخذتهم) أمّهم الى ضيعة «بَرْسا» بمنطقة الكورة ظاهر المحمية، وقد كَبُر ببرسا وصار يتقلّب في الخدمات الوضيعة قبل ان يعزّه الله بالولاية، فخدم عند الأمير «علي الأيوبي» بضيعة «ددّه» بالكورة، وبعدين (وبعدئذ) خدم عند الشيخ رعد صاحب الضنيّة، كما خدم براس النحاش عند الأمرا الأيوبية، وعند مشايخ بني زكريا حكام القويطع. وكانت وظيفته

أن يركض إدّام (أمام) الأمير، ويحمل مرتينته (بندقيته) على كتفه وقت يكون الأمير راكب الفرس، ورايح لأحد المحلاّت، كعادة أهل البر في بلادنا.

ولكن بعد مدة من الزمن، بعد أن خدم هؤلاء الأمرا، ملّ من هذه الشغلة المتعبة، فأراد الرجوع الى شغلته التي كان يشتغلها أيام طفره (فقره)، وصار يبيع البلاّن لفران (لأفران) طرابلس منشان (من أجل) الوَقْد وخَبْز الخبز عليها. واتفق مع أحد كالة الزيت النصارى على ضمان زيتون «البلمند»[٥]، ولكن فقرن أعجزهن (فقرهم أعجزهم)، فاتفقوا على أن يشتركوا مع «يوسف خلاط» ليمدهن (ليمدهم) بالمال، وعاهداه على إعطائه تلت الربح، فأعطاهم المال، وتمّت التضمينة، وصار بربر ينقل الزيت للمحمية ويبيعه للمصابن، ثم ياخذ التمن لشريكه خلاط، وقد ربحت التضمينة لزيتون «دير البلمند» ألفاً وثمانماية غرش (غرشاً)، واشترى حصاناً وسلاحاً، ومضى الى الأمير «يوسف شهاب» والتحق بخدمته فارساً حتى سنة ١٧٨٨ وعندما كان بخدمته صحبه في حملته. وعاد بربر في تلك السنة - ١٧٧٨ - من خدمة الأمير «يوسف شهاب» وقد تزنكل (أثرى) بماله، وتمرّس على حياة الأمرا. وحضر الى ضيعته «برسا» وابتاع هنالك بيتا



باكية برسا أو باكية بربر

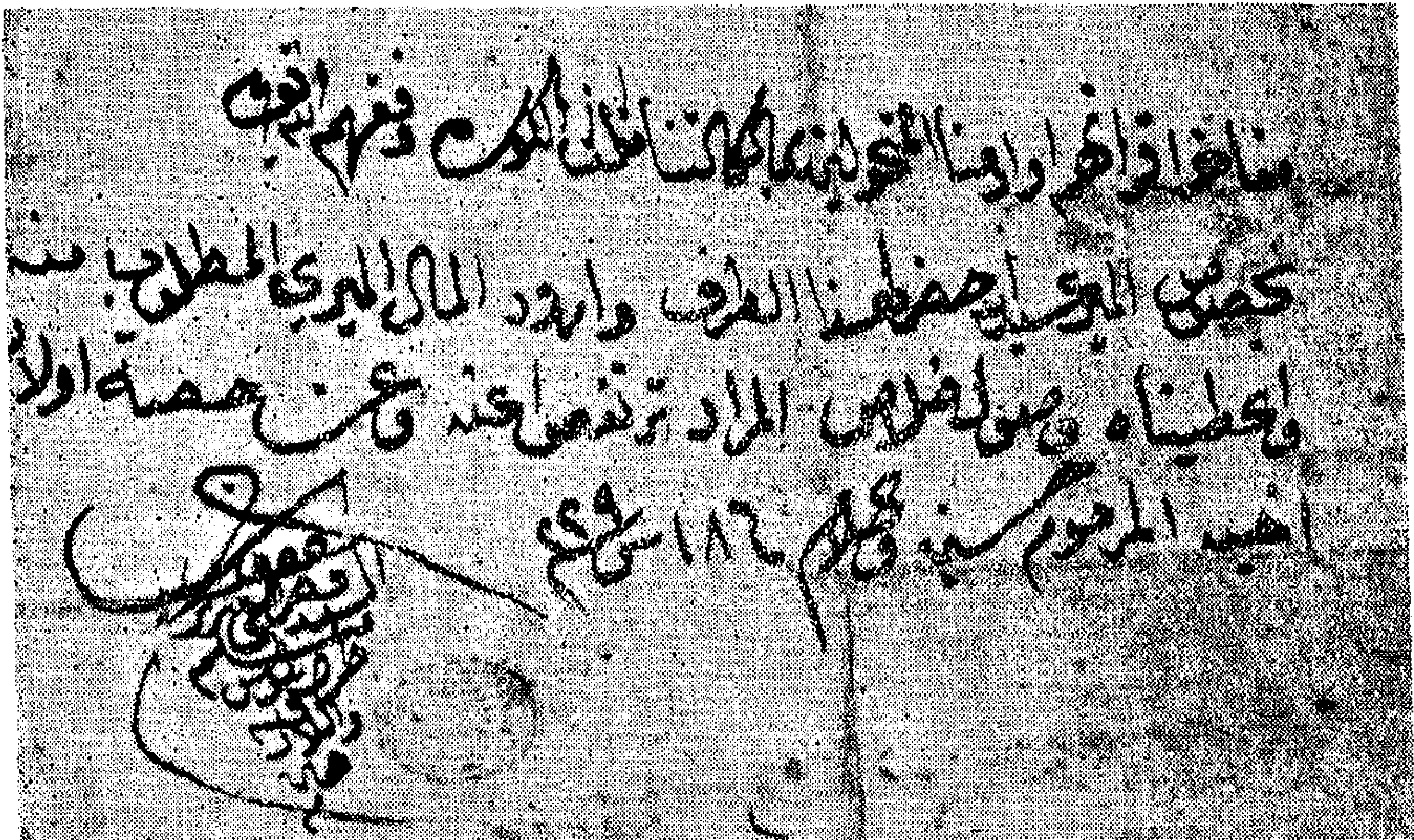
وبعض الأملاك. وعمل أبضايا (قبضاياً = فُتُوَّة) بالضيعة، فخاف منه «محمد الأسعد» قيمقام (قائمقام) طرابلس. وفي أحد (إحدى) السنوات نهب أعداء بربر موسم الحرير من أملاكه وباعوه بالسوق، فما جسر (تجرّأ) أحد على شرائه.

وحدّثني ثقة فقال: عمل اعدائه (أعداؤه) عصابة عليه لقتله، وحلفوا بالأيْمان المغلّظة لكتم الأمر، ولكن خاف احدهم ان يخرب تدبيرهم، فتسلّل من قريته «ددّه» الى «رسا» بالليل، فوصل الى دار بربر وخبط على الحيط، ولم يكلم بربر حتى لا يحنث في اليمين والعهد، وقال: يا حيط يا حيط بَدُّنْ يقتلوك الليلة احذر. فأجابه بربر بقرع على الحيط، ثلاث مرات، من جوّات البيت، وعمل الحَيْطَة وظل صاحياً، ونجا من القتل بالحيلة، وصار يعتقل المتعصبين لقتله واحد ورا واحد.

وعندما كان «بربر» عامل أبضاي ببرسا كان في طرابلس جماعة من وجـاق (فرقـة)

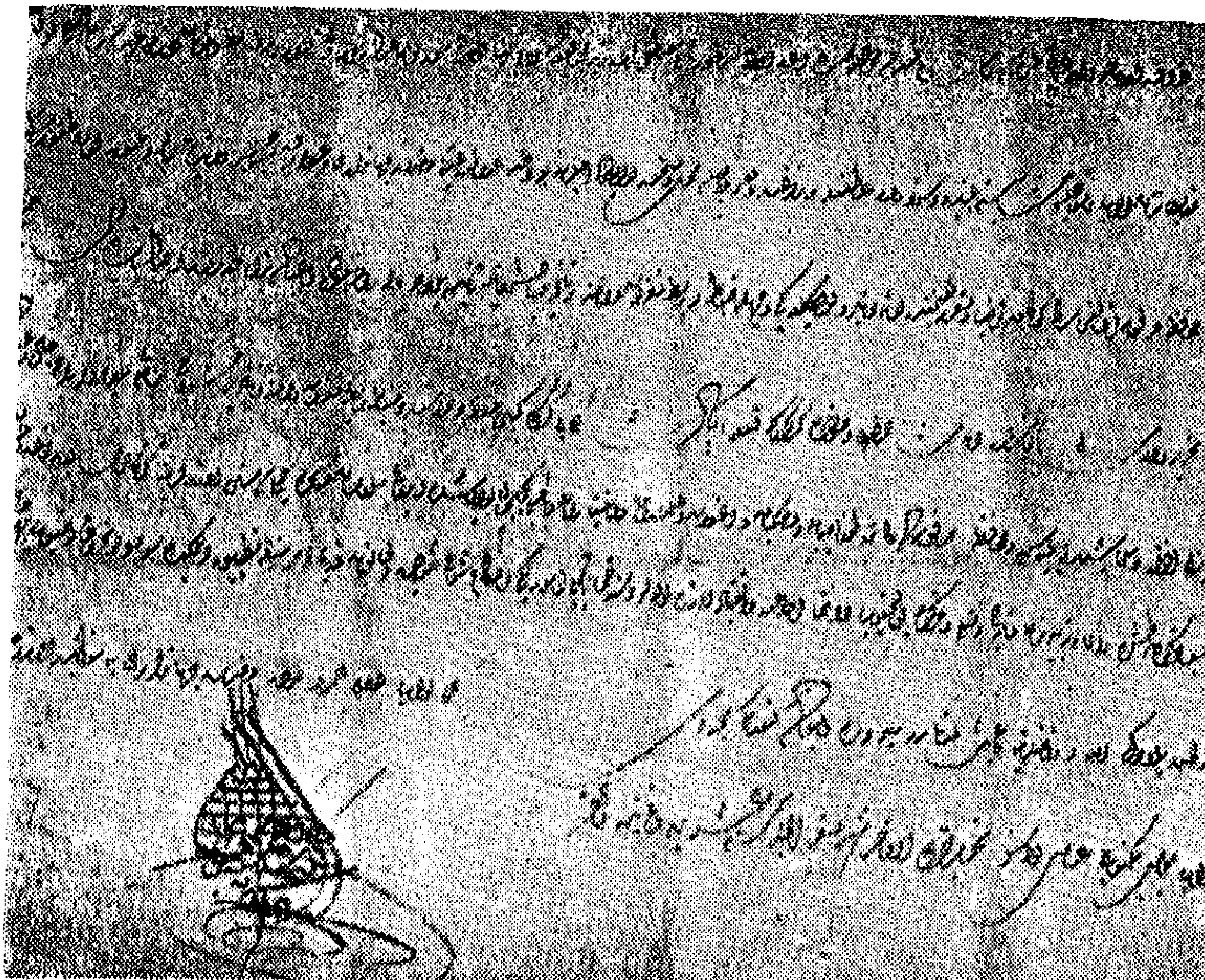
الانكشاري قد وقع بينهم خلاف خطير، وكان زعيمهم «ابراهيم آغا سلطان» فناوأه كبيرهم «مصطفى اغا الدلبة»، وأصل الشـران «ابراهيم أغـا سلطان» استقـدم فوج (فـوجاً) من الأرناؤوط، فعاثوا في طرابلس فساداً، فضجّ الناس منهم وأيّدوا «مصطفى آغا الدلبة» في حركته، ودخل بربر طرابلس في هذه المدة، والحرب عالقة بينهم، فحارب مع «مصطفى آغا الدلبة» وعمل ترسه حزمة بلّان حملها أمامه، وصار يتّقي بها ضرب السيف، وحارب حرباً شجاعة. وكان جيش الدلبة لا يتمكنون من جيش سلطان لأن جيش سلطان تترّسوا بالسراي، فنقب عليهم بربر حيط السارية من أحد البيوت المجاورة، ودخل عليهم فأنزل بهم الفتك، فأحبه الانكشارية و«مصطفى الدلبة» بعمله هذا، فصار انكشارياً من «أوتوزالتي». ورسم على ساعديه شعارهم، فأكسبه دهاؤه[٦] وحيلته وحسن عشرته حبّ الانكشارية، وصار يحضر اجتماعاتهم ويستشيرونه في الأسرار التي تهم الوجاق الانكشاري.

ولما انتظم بربر في وجاق الانكشارية بطرابلس لم يلبث ان ركب في نفر من الجند الى عكا، فانخرط في خدمة واليها «احمد باشا الجزار» وقد أثار إعجاب مولاه به لحكمته ودهائه، فأرسله



امضاء مصطفى بربر الرسمي

الى بيروت زعيماً للانكشارية فيها، وأقام بها زماناً. وعندما تـولى «عبد الله بـاشا العظم» الدمشقي طرابلس هرع بربر الى عكا طالباً من الجزار السماح له بالذهاب الى طرابلس، فزوّده بالرجال والعتاد، وأرسله على رأسهم الى طرابلس. وعندما وصل الى طرابلس اراد دخول القلعة والتولّي على طرابلس. وكانت حامية القلعة تغلق الأبواب عند المساء ويقيمون على حراستها، واتفق مع جنده على دخول القلعة، وبعث رجلاً من جنده يدعى «محمد آغا القوندقجي» لينام مع الحراس، فذهب الى القلعة، ولما حلّ الليل ونام العسكر، نهض «محمد أغا» هذا وربط حبلاً طويلاً بأحد المدافع ودندله (دلّاه) من فوق القلعة، فأخذت فرقة بربر يتسلقون الحيط حتى وصلوا الى الداخل بما فيهم بربر نفسه، وهجموا على الدزدار وقتلوه، ثم هجموا على باقي الأنفار، وكان عددهم ثلاثين، فلما خلّصوا منهم ضربوا مدفعاً[٧] لكل قتيل، على عادة أيامنا هذه [سنة ١٨٤٠]، فقوّص المدفع ثلاثين تقويصة على عدد القتلى، فارتاع الزلم (الأزلام) الموجودة



احد الفرأمانات التركية الموجهة الى بربر

(الموجودون) في البلد، ولم يعرفوا الخبر الصحيح حتى مطلع الضو، وعلموا الخبر.

وعندما تولى بربر القلعة كان المتسلم «ابراهيم سلطان» متسلماً من قِبَل «عبد الله باشا العظم»، فطرده بربر من طرابلس الى خارج الإيالة، فعلم «عبد الله باشا» فأرسل فرماناً(٨) لبربر يعزله وأنه لم يولّه، ويعينُ شخصاً مكانه. فأخذ بربر الفرمان ومسح اسم الشخص ورسم اسمه وأخفى الفرمان حتى عُزل «عبد الله باشا» عن الشام، وظهر هذا الأمر، فبعث بالهدايا الى الجزار والتهاني، فعيّنه متسلّماً عليها، ثم تصالح «عبد الله باشا العظم» مع الجزار فأعاده الى الولاية، فأرسل العظم الى مصطفى بربر فرمانين، الأول منح بربر رتبة الآغوية، والثاني تعيينه متسلماً على طرابلس، وإهداءه(٩) خلعة كرك سمور(١٠). وبعد مضي مدة من توليته على ايالة طرابلس وملحقاتها لزم اقليم الشعرة لسنة واحدة الى «شديد المصطفى شملي» وكيلاً عن «درويش اغا ابن حسن الحمزة دندشلي» بمبلغ اربعة آلاف قرش اسدية من اول سنة ١٢١٦ الى انتهائها.

وعندما صارت سنة ١٢١٧ هجرية الموافقها ١٨٠٢ مسيحية عمّر فيها بربر سبيل ماء قرب بوابة الحدادين جاء تاريخه:

وله التاريخ يعطي شربة من ماء زمزم(١١)

١٢١٧

كما ورد في أول ذي(١٢) الحجة ١٢١٧ هجرية فرمان عليشان (عالي الشأن) من اسلامبول مرسوم بالخط الهميوني من «ابراهيم» كتخدا التحرّيات الجهادية يبقيه فيه محافظاً على القلعة.

وفي سنة ١٨٠٣ سافر مصطفى آغا بربر الى عكا لتحية الجزار، وأناب عنه وكيلين في غيابه بموجب بيورلدي، فأناب الأول، وهو «الشيخ عباس شديد رعد» على المدينة، و«الحاج مصطفى اغا زهرة» على القلعة.

وفي هذه السنة غضبت الدولة العلية على «عبد الله باشا العظم» وانتزعت منه الشام وملحقاتها وإيالة طرابلس، وأحالتها الى الجزار. ثم بعد مدة رفعت الدولة العليّة غضبها عن



كتابة فوق محراب المصلّ بالقلعة الذي جدده مصطفى أغا بربر حاكم طرابلس سنة ١٢١٦هـ

العظم بسبب خلاف بين الجزار و«محمد باشا بومرق»، وحاصر الجزار بعسكره يافا مضيّقا على «بومرق»، فأصدرت الاستانة الأمر للجزار بالعدول عن الحصار، فلم يجب، فبعثت بفرمان تعلن غضبها عليه. وسار العظم بجيوشه الى طرابلس مضيقاً على بربر وحصره في القلعة، فبعث بربر يطلب النجدة من الجزار، فأرسل اليه النجدة، فلما وصلت للمينا كبسها «الكنج يوسف باشا» وأوقع فيها القتل. وأخذ العظم يشدد الحصار، فأرسل الجزار نجدة ثانية، فطلع عليها النّوّ فأغرق منها ثماني سفن حربية. ثم استرضى الجزار الدولة العليّة واتّهم العظم بأنه صار موهّبيا(١٣)، وأرسل اليه بجيش، فاضطر العظم أن يفك الحصار عن طرابلس.

وفي سنة ١٨٠٥ ورد الى بربر فرمان من الاستانة العليّة من قايد الانكشارية الأعلى «ابراهيم حلمي» باللغة التركية، يتضمن تجديد الولاية والمحافظة على القلعة وسائر شؤون الإيالة.

وفي سنة ١٨٠٦ رفع شيخ النصيرية «صقر المحفوض» راسه، وأبى دفع الميري، فسار اليه بربر بجيش من سائر المناطق بلغ ثلاثة آلاف زلمه (رجل) وشعل (أشعل) عليهم الحرب، وقطع خمسة عشر رأساً وأرسلهم الى عكا، و أدخلهم الى الطاعة، وشددّ عليهم. ورجعت العساكر لبلادها؛ فأرسل أهل صافيتا عرضحال الى «سليمان باشا» يطلبون أن يقبلهم بدين الاسلام، وأنهم يدينون بالطاعة، وسيبنون جامعاً للعبادة، وأن يردّ اليهم «صقر المحفوض» و«الشيخ دندش».

في سنة ١٢٢٢هـ - ١٨٠٧ تنازل «عبد الله باشا العظم» عن الشام ولزم داره بأمر الدولة، وعيّنت خَلَفًا له «الكنج يوسف باشا» فقبض بيد حديد على الحكم، وقطع الشاقوات واللصوصيات، وأرسل يطلب بربر، فخاف على نفسه ولم يروح (يذهب) لعنده، فغضب عليه. وذهب أعداء بربر الى الشام وحرّضوا الكنج عليه. وأراد بربر ان يتوسط بالصلح مع الكنج، فطلب ثمانماية كيس ليرفع الحصار عن طرابلس، فكتب الى «الأمير بشير» وأعلمه الأمر، فكتب

من الرسائل الموجهة إلى بربر آغا: غب وصوله يحظى بمطالع الجناب الأفخم، ذي المقام السامي الأعظم، افتخار الأماجد الكرام، ونخبة أولي الأمر والنهي في أحكام الأحكام، قدوة أرباب المعالي من ذوي الاحترام، كريم الشيم، سني الهمم، حاتمي الجود، برمكي الكرم الأجلّ الأمجد الأفخم سلطانم، السيد مصطفى آغا بربر زاده أدام الله إقباله واسعاده بالخير للدوام.

«الأمير بشير» الى والي باب الكعبة العليّة، وجرى الصلح على يديه تحت اربعماية كيس، وانتهت هذه الأزمة.

ثم إن «الكنج يوسف باشا» والي الشام خرج سنة ١٨٠٨ بجيش وفير الى بلاد صافيتا لتأديب النصيرية وقصاصهم على قتلهم الامير «مصطفى اليزيدي» وما فعلوا من الفساد بالأرض، وهجم[١٤] الجيش عليهم، فسلبت اموالهم وقتلتهم واحتّلت برج صافيتا وهدموه. ودام هذا الحال شهرين، وغُرّمت النصيرية ستمّية كيس. ثم ان الكنج نهض بشهر آب ١٨٠٨ قاصداً لطرابلس، فلما وصل الكنج الى «المنية» أرسل لبربر ان يسلّم القلعة وأن يقدّم الطاعة، وأعلمه ان معه فرماناً سلطانيا[١٥] يأمر بالانتقام منه، فردّ بربر عليه بأنه طايع لله والسلطان وليس له اعتراض على الوزير، وانه يسلّم طرابلس لمن شاء. أما القلعة فلا يستطيع تسليمها، وكان عند بربر في القلعة «احمد اغا الحجي» وأخوه[١٦]، فأرسل اليهم الكنج سراً يطلب منهم أن يقتلوا بربر، فتعهدوا له بذلك، فخرج من الشام على ذلك المرام. ثم عزم الكنج على العودة على طرابلس، فأرسل لهم مكتوبات سراً يطلب الاسراع بقتل بربر، فأظهروا «مصطفى ابو ديّة» على ما يعزمون عليه، وطلبوا منه العون. وبعد مدة وقع بينهم خلاف، فأعلم «مصطفى زهرة» بربر ما يعزمون عليه، فلما تحقق له المقال أرسل في الحال وقبض على المذكورين وقطع روس الاثنين، ووضع «مصطفى زهرة» بالسجن، ثم استقدم خمسمية نفر من الارناووط من مصر، فعيّنهم وأسكنهم بالعماير خارج القلعة. ولما علم أهل طرابلس بقدوم الكنج رحلت بعيالها وبما أمكنهم حمله الى خارج البلد وهربوا الى البال والآكام وبيروت ودمشق، فلما وصل الكنج جعل مقامه بالبداوي[١٧]. ونهب العسكر الأثاث والتحف من أهل طرابلس، وأخذ العسكر أموالاً لا تحصى، لأن اهل طرابلس وضعت أموالها وأغراضها بالخانات مؤمّلين أن الكنج لا يسمح للعسكر بأن يأخذ منها شيئاً، ثم دبت الحرب فقُتل من عسكر الوزير خلق كثير وقاتلت الارناؤوط قتالاً شديداً. وبقي الكنج محاصراً القلعة الليل والنهار، وطلب «يوسف باشا» من «سليمان باشا» لغومجية (لغّامين) ليعملوا لغومة، فعملوا لغومة، ولم تنفع اللغومة لأن اللغم الأول طلع فيه صخرة، ثم حفروا لغماً [١٨] آخر فطلع محلّه ماء، وأما الثالث فشافهم (فرآهم) بربر، فدلق على اللغم ميّة (ماء) من فوق القلعة فبطلت اللغومة وهرب اللغمجية لعكا. ثم جاء قنصل فرنساوي وتعهد بأنه يحضر طبجية (مدفعية) يهدموا القلعة، فحضر طبجي فرنساوي ومعه مدفع كبير من أرواد، وعملوا متاريس كبيرة، وصار الكنج ينقل التراب بنفسه، وعملوا تلّاً عالياً وحطوا المدفع فوقه وصاروا يضربون[١٩] علقلعة (على القلعة) فلم يؤذوها. وكان بالقلعة عند بربر طبجي شاطر بعمله، فضرب بالمدفع والبندق على المحاصرين، فهدم من المتاريس، وخرّب المدفع الكبير. ثم عملوا متاريس مرة ثانية فضربهم بربر وقتل خلقاً كثيراً[٢٠]، منهم «درويش علي داليباش» راس

عسكر الوزير، ثم عمل الوزير متاريس عظام بالقبة[٢١] ووضعوا فوقها مدافع عظام، فهدمها عليهم بربر، وقتل «درويش علي داليباش» فندم الوزير على هذه الورطة، وعلم انه لن يفتح هذه القلعة. ثم نقل المدفع الى تل الرمل[٢٢] نحو الميناً وضرب على القلعة فهدم ثلاثة[٢٣] ابراج من الخارج، ووقع الأمل في تملّكها، ثم تضايق الكنج من طول المقام فعين على طرابلس «علي باشا الأسعد» وأمره بالقيام بالحصار. وفي ذلك الوقت وقع حيط من حيطان القلعة فزداد (فازداد) الكنج بأنه سيفتح القلعة، وعاد ينصب آلات الحرب. ولما طال الأمر على بربر أرسل رسولاً بالسر الى «سليمان باشا العادل» يستجير به، فأرسل «سليمان باشا» الساري «علي داليباش» وأمره بأن يركب بميتين (بمائتين) الى طرابلس، وينهي الخلاف. وتم الاتفاق، بأن يخرج بربر بمتاعه وماله ويسير الى عكا بالبحر، وان يأمن على حياته. وخرج المحاصرون، وكانوا ألفين، بما فيهم النساء والحريم. وتسلم «علي باشا الأسعد» القلعة. ووصل بربر الى صيدا فأبقى[٢٤] أهله بها وسار الى عكا لعند سليمان باشا، فطيّب خاطره وأكرمه أيّما اكرام. ودام هذا الحصار خمسة أشهر كاملة». ●

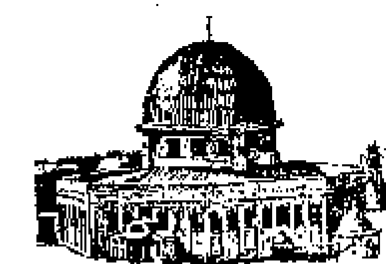
الصور من كتاب مصطفى آغا بربر للأب أغناطيوس الخوري ط٥٧.

المصادر والحواشي:

(١) مصطفى آغا بربر – اغناطيوس الخوري – ص ١٠ و١١ – بيروت ١٩٥٧.
(٢) هاء الضمير تعود الى مصطفى بربر في الأرجح.
(٣) يقصد بالمحمية: طرابلس الشام.
(٤) في الأصل «أخوه».
(٥) دير جنوبي طرابلس بناه رهبان القديس «برنردس» المعروفون بالسستر سين، وبنوه تيّمناً باسم القدّيسة «سيدة بلمنت» Abbatia Belmontis». وقد صُحّف الاسم على مر الزمن من بلمنت الى «بلمند». وكان بناؤه في ٣٠ أيار ١١٥٧.
(٦) في الأصل «دهائه».
(٧) في الأصل «مدفع».
(٨) في الأصل «فرمان».
(٩) في الأصل «إهدائه».
(١٠) نوع من الفرو.
(١١) الأبيات كاملة:

شاد لله سبيلا	حاكم الوقت المكرمْ
مخلصا لله فيه	وبحسن القصد يعلم
مصطفى اغا سي بربر	السيد الشهم المكرم
وله التاريخ يعطي	شربة من ماء زمزم

(١٢) في الأصل «ذو».
(١٣) أي صار من اتباع المذهب الوهابي الذي انتشر في الجزيرة العربية على يد الداعية محمد بن عبد الوهاب.
(١٤) في الأصل «وهجمت».
(١٥) في الأصل «فرمان سلطاني».
(١٦) في الأصل «وأخيه».
(١٧) ضاحية في الشمال من طرابلس تشتهر ببركتها ذات الأسماك الملونة والمسجد الذي يقوم عندها.
(١٨) في الأصل «لغم».
(١٩) في الأصل «يضربوا».
(٢٠) في الأصل «خلق كثير».
(٢١) محلّة بطرابلس مشرفة على القلعة من الجهة الشمالية الشرقية، وهي المحلة ذاتها التي عسكر فيها السلطان قلاوون وحاصر الصليبيين في القلعة والمدينة حتى فتحهما سنة ٦٨٨هـ / ١٢٨٩م. ولذا عرفت بقبة النصر.
(٢٢) هو منطقة التل الحالية حيث يقوم مقهى التل العالي، قرب مبنى البلدية.
(٢٣) في الأصل «ثلاث».
(٢٤) في الأصل «أبقا».

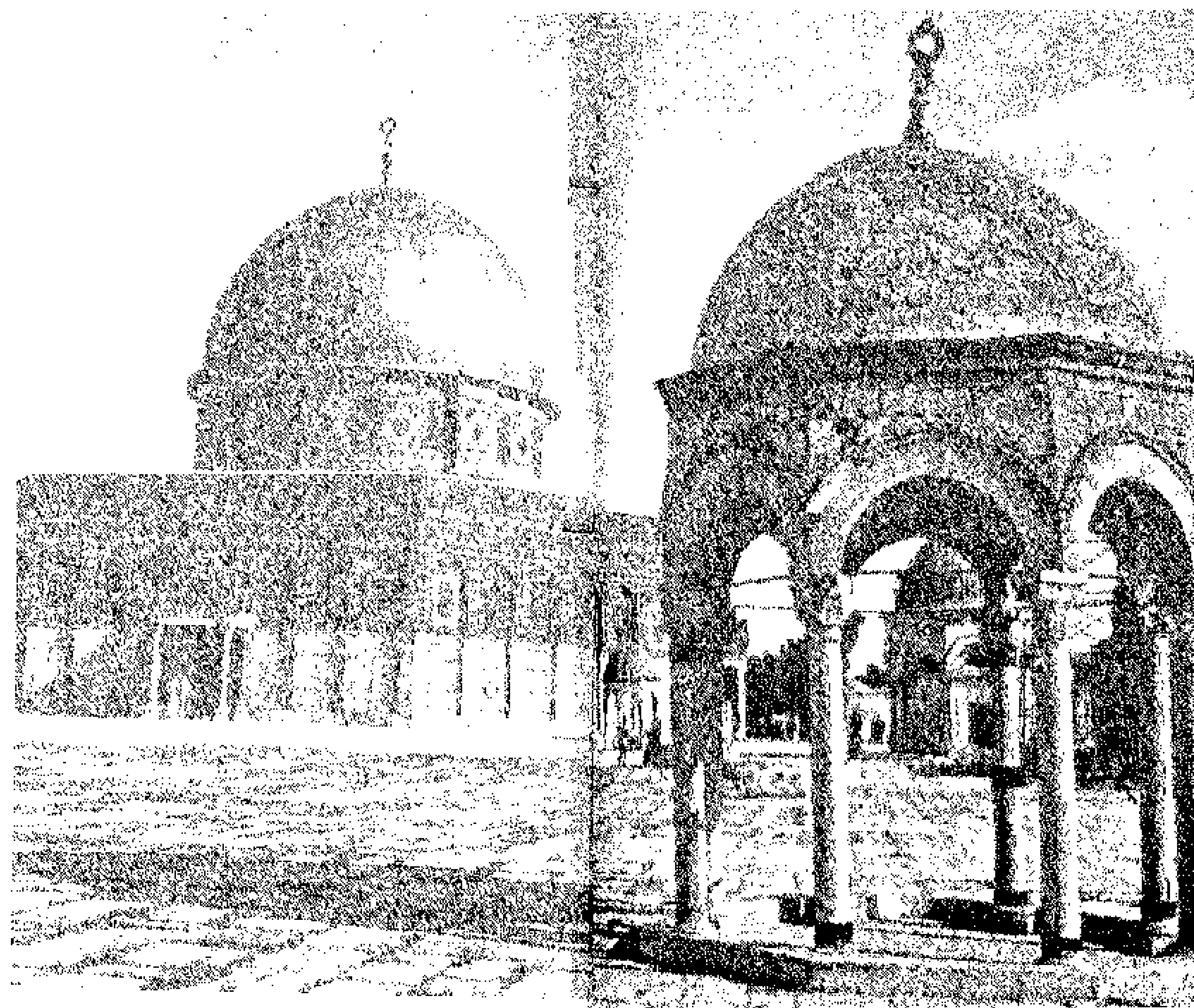


المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام «فلسطين» ١٩ - ٢٤ نيسان ١٩٨٠

تقديراً من مجلة «تاريخ العرب والعالم» للمؤتمر الثالث لتاريخ الشام الذي عقد مؤخراً في عمان ما بين ١٩-٢٤ نيسان ١٩٨٠ الموافق ٤-٩ جمادي الثانية ١٤٠٠هـ. اعد «مركز التوثيق والابحاث» في مجلة «تاريخ العرب والعالم» صورة ملخصة عن بعض البحوث التي قرئت في المؤتمر وكانت على جانب كبير من الاهمية والاثارة. على ان تنشر متتالية في المجلة والاولوية حسب اسبقية موافقة الكاتب.

وفي هذا المجال نود ان نؤكد أنها تقدر جميع البحوث المقدمة الى المؤتمر، كما انها تقدر الجهود الكبيرة التي بذلتها جامعة عمان وجميع الجهات الرمسية وغير الرسمية التي عملت في سبيل انجاح هذا المؤتمر ونتمنى ان تستمر الجهود في جميع انحاء الوطن العربي لدرس تاريخ العرب دراسة متعمقة مكثفة تضمن للعرب رؤية أوضح لتاريخهم وثقة أكبر بأن هذا التاريخ يكون ركيزة أصيلة لانطلاقهم في مجال بناء تاريخهم الحديث بناء سليما ثابت البنيان.

كما نود أن نشكر جميع الباحثين والمؤرخين الذين أبدوا موافقتهم مشكورين على نشر أبحاثهم او ملخصا عنها في مجلة «تاريخ العرب والعالم».



بناء وزخارف قبة الصخرة في القدس

دراسة تحليلية

د. صفوان التل

يمثل بناء قبة الصخرة في القدس، عددا من الاتجاهات الادبية والعلمية التي برزت في عهد استقرار الدولة الاسلامية، في العهد الاموي.. وعلى أثر أستقرار أمية في دمشق وما انبثق عن ديوان الخليفة عبد الملك بن مروان من القرارات الهامة، لدليل واضح على تكامل الشخصية العربية الاسلامية في مواجهتها لعدد كبير من القضايا بكثير من الحكمة والاتزان والابداع.

* د. صفوان التل: استاذ مساعد في كلية الآداب - قسم التاريخ - الجامعة الأردنية.

ان خصائص الفنون والاداب لا تسلك طريقها، في أي حضارة ما لم يتح لها الاستقرار السياسي والاقتصادي، وعليه كان عهد الخليفة عبد الملك ابن مروان عهدا نموذجيا من حيث الاستقرار والتكامل الاقتصادي للدولة الاسلامية قياسا بالظروف التي مرت على الدولة قبل وبعد هذا الخليفة.

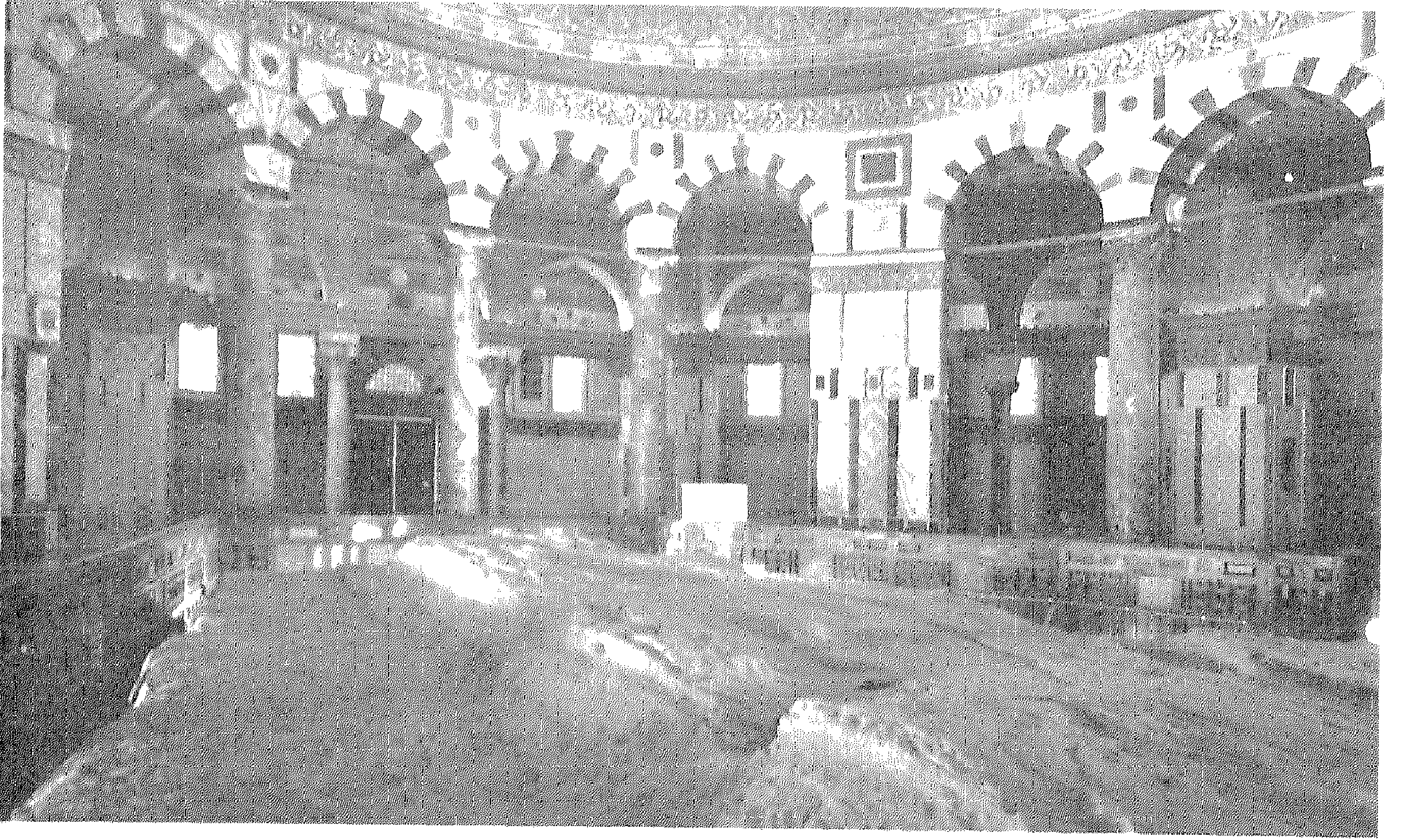
لقد ساهمت بلاد الشام بكل جدارة واصالة في استيعاب الفكر الاسلامي كما تمكنت من تنسيق الآداب والفنون الاسلامية باتجاهات عربية ذات طابع خاص مميز، ومع دخول الفكر الاسلامي الى هذه الديار ندرك دور العروبة المتصل بجذور التاريخ وما عكس عليه الاسلام من صفاء الروح وعذوبة الاخلاق ونكران الذات، وما ساهمت به الامة العربية لدفع حركة الاسلام الى آفاق الارض بالسرعة التي لم يشهد التاريخ لها مثيلا، هذا التكامل والتفاعل هو الذي سطر في تاريخ العرب والاسلام كثيرا من الصفحات المتألقة بالآداب والعلوم.

ونتيجة للاستقرار الذي شهدته الخلافة الاموية، رأى الخليفة عبد الملك ان يقام صرح مناسب وجميل فوق الصخرة المقدسة ليحفظها وليحرسها، ولكي يستقطب المسلمين حولها.

فكان المخطط الذي وضعه كل من المهندسين العربيين (رجاء بن حياة ويزيد بن سلام)، في وسط الحرم الشريف في قلب مدينة القدس ولم يكن اهتمام عبد الملك بمدينة القدس عرضيا، بل كان اهتماما موصولا بتاريخ الاسلام، ومن المنطلق الروحي للعقيدة الاسلامية، فهي موطن الديانات، وهي تقترن بمعجزة الاسلام في الاسراء، من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى الى السماء وهي قبلة الاسلام الاولى.

وعليه كان لا بد من احياء هذا التراث في قلوب المسلمين وفي عيونهم.. فكان بناء قبة الصخرة يمثل الصورة الصادقة للشخصية العربية المسلمة، بكل ابعادها الفلسفية والفنية.

تركزت الابعاد والاتجاهات الفلسفية في بناء القبة على دقة اختيار الشروط التالية:



صخرة المسجد الاقصى

(أ) مكان البناء الجغرافي العام (مثلا في مدينة القدس).

(ب) الموقع الطبوغرافي الخاص (ممثلا في ساحة الحرم الشريف).

(ج) موقع البناء المباشر (فوق الصخرة الشريفة.

أما الاتجاهات المرتكزة على الاسلوب الفني فهي ما يلي:

١ – معادلة مخطط البناء الهندسي = ثماني منتظم من الجدران، طول كل جدار ٢٠,٦٦م + (ثمانية قواعد + ١٦ عامودا) + (٤ قواعد + ١٢ عاموادا).

٢ – قبة مركزية قطرها (٢٠,٤٤م) تطل على الصخرة المشرفة، لحفظها ولأنارتها بواسطة(١٦) نافذة، موزعة حول العنق.

٣ – أربعة أبواب في الاتجاهات الاربعة الطبيعية، عرض كل بوابة (٢,٦٠م) وأرتفاعها (٤,٣٠م) ويوجد (٤٠) نافذة موزعة على الجدران الخارجية بالتساوي.

٤ – زخارف الفسيفساء الهندسية والنباتية(الأرابسك) التي توحي بالصفاء الروحي المثالي.

٥ – الكتابات الاسلامية التي تدفع الى التأمل بالقدرة الالهية والحكمة الاسلامية. ان علاقة الفنون الاسلامية بفنون سوريا قبل الاسلام، هي كعلاقة الاسلام بالعرب انفسهم، ولا شك ان اجتهادات عدد كبير من المستشرقين او علماء تاريخ الفنون حيال علاقة الفن الاسلامي بالفن المسيحي او بالبيزنطي السوري، ليس لها ما يبررها بعد أن ندرك أن العرب في سوريا قد قبلوا بالاسلام بعد ان كانوا يدينون بالنصرانية.. لقد انصاع العرب في سوريا لرغبات وتوجيهات الدولة والكنيسة البيزنطية قبل التحاقهم بالدولة الاسلامية في المدينة ثم دمشق.

وهذا الحال لا ينطبق على المسلمين الذين ينتمون الى اصول غير عربية كالفرس والترك والهنود مثلا... فقد نقلوا تأثيراتهم الحضارية السابقة الى الفنون الاسلامية عندما التحقوا بالديانة وبالدولة الاسلامية. وعليه فإن واقع الحال يستوجب اهتمامنا بالتراث العربي الذي شاع في سوريا أبان الاستعمار اليوناني والروماني والبيزنطي، باعتبارها ممارسات اجنبية على جزء من الامة العربية، يعيش في هذه

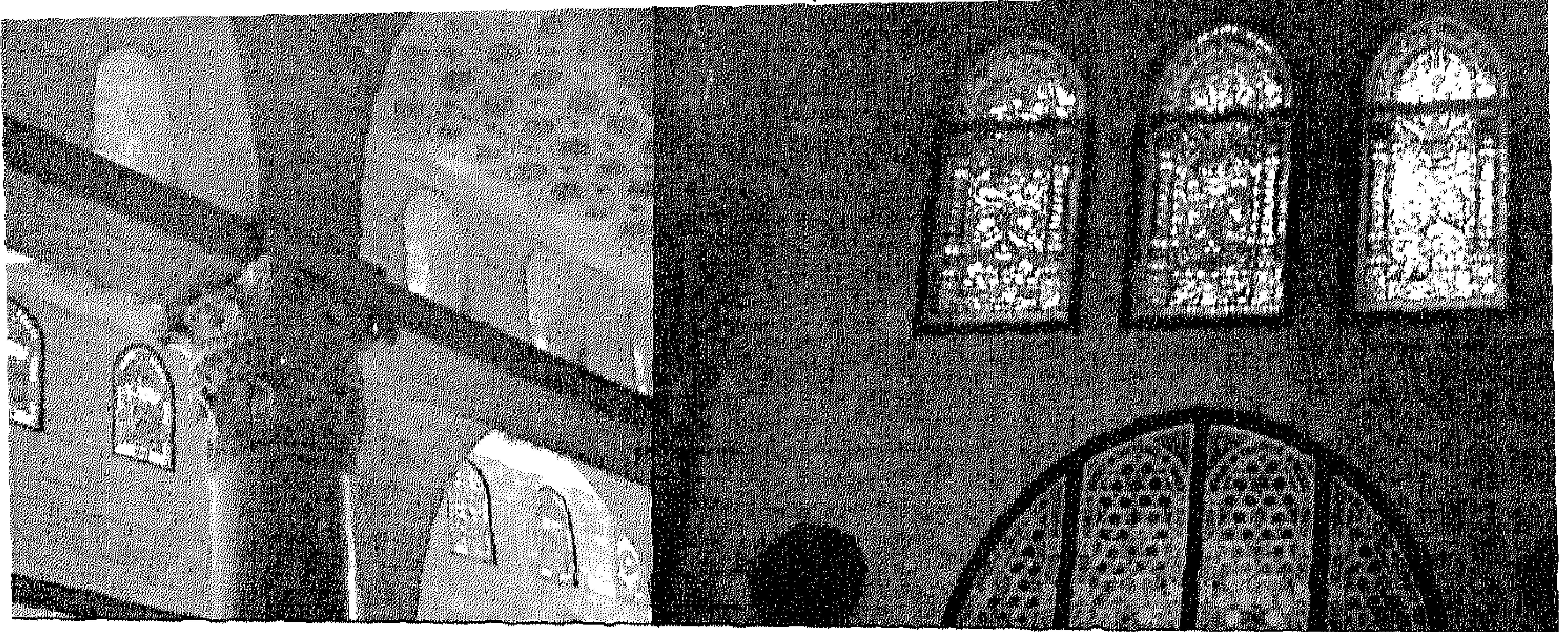
البلاد، ونتيجة لما يربط الجزيرة العربية مع بلاد الشام من علاقة تاريخية انطلقت منذ الهجرات السامية الاولى، في دفع الجنس العربي ليأخذ مواقعه على الارض العربية منذ آلاف السنين. لقد كانت الصلات والعلاقات مع اطراف هذه الارض تتناسب طرديا مع نشاط الامة العربية في تاريخ العالم القديم الاقتصادي والسياسي والديني.

لقد وضع عدد من علماء الآثار والمستشرقين علامات استفهام لا ضرورة لها حول علاقة الفن الاسلامي بالفن العربي قبل الاسلام. وهل يمكن ان نعتبر هذا جريمة في تاريخ الحضارات..؟ ولماذا يحاولون خلق هذه الحساسية التي لا مبرر لها بين الديانات المتنوعة من جهة، وبين الشعب الواحد من جهة اخرى..؟ فمهما تنوعت المعتقدات فقد تم صناعة الحضارة العربية بأيد عربية.. حتى يثبت العكس لهذا الواقع.

لقد اعتمد عدد من علماء الفن اطلاق

وبفضل نعمة الاسلام تمكنت الشخصية العربية من اثبات وجودها وتعزيز دورها الانساني... وعليه كان لا بد من تأميم النشاطات الادبية والفنية القديمة لهذا الشعب ضمن بوتقة الفنون الاسلامية وفلسفتها، ومن خلال ملاحظتنا لهذه الفنون، نلاحظ ان فيها اذابة تامة لكل الخصائص العربية التي شهدتها المنطقة عبر تاريخها وذلك بأتجاه منضبط، يساير المفاهيم الاسلامية ويواكب تعاليمها.

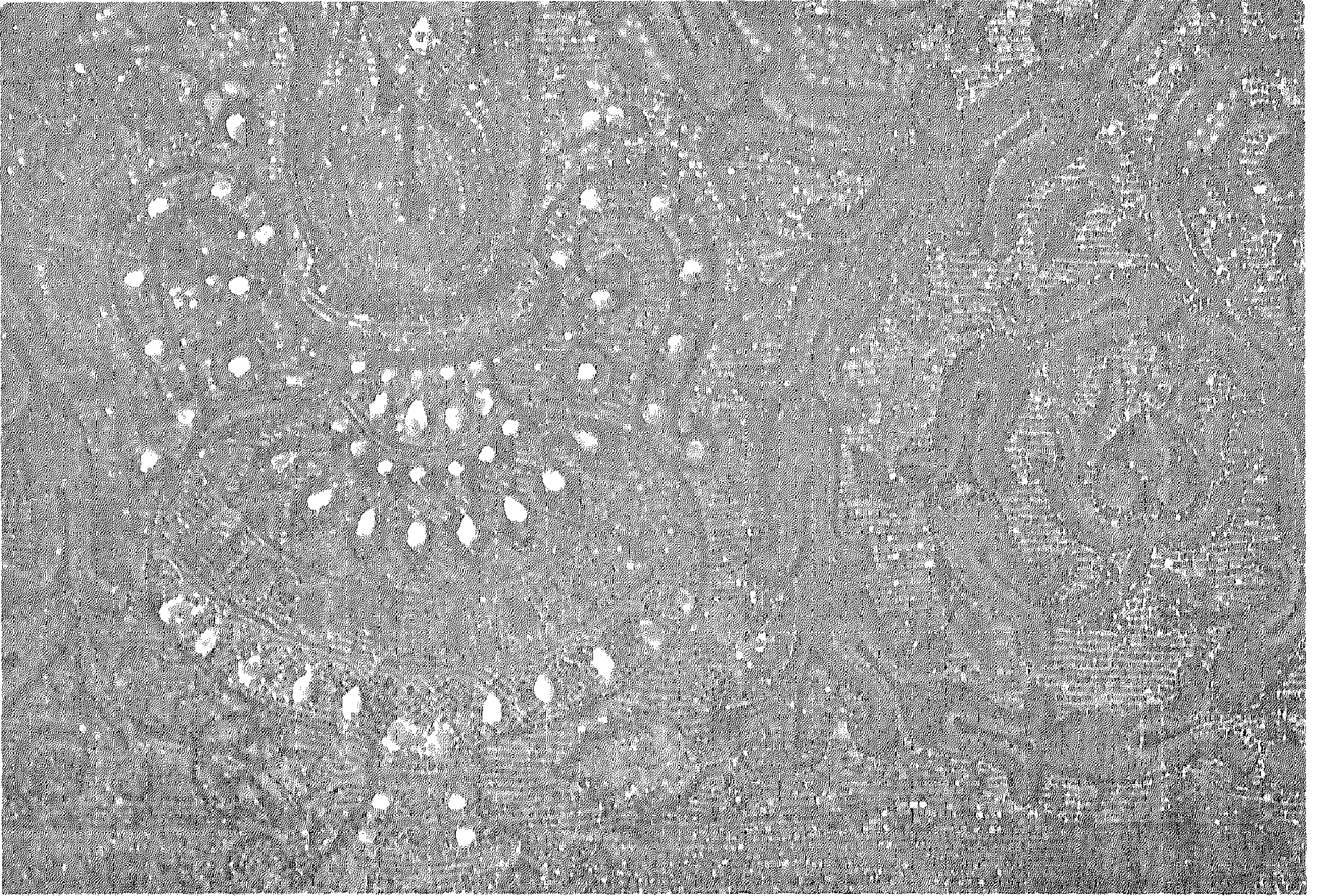
ومع بقاء بناء قبة الصخرة في مدينة القدس أول شاهد لتكامل حركة الفنون والآداب الاسلامية منذ ايام الخليفة (عبد الملك بن مروان) نجد ان هذا البناء يمثل قمة في التخطيط الهندسي المبدع وهو أول انتاج للفنون الاسلامية المبتكرة، ومهما تأملنا شكله الخارجي، وتركيبه الداخلي، وقبته، لا يمكن لنا الا ان نتذكر الشادر او السرادق الفخم القائم على الاقواس والقواعد والاعمدة التي بلغ عددها في الداخل اربعون.



الخطوط على زجاج الواجهات الملوّن.

اسم الفن(البيزنطي السوري) على الفنون في سوريا الطبيعية قبل الاسلام. واخالهم يبتعدون عن استعمال الاصطلاح (الفن العربي السوري) في العهد البيزنطي، وبعد قبول عرب سوريا بالديانة الاسلامية تكلّلت الشخصية العربية بأسلوب جديد وصل مع العرب الشاميين انفسهم الى شمال افريقيا والاندلس.

لقد تركت الزخارف في قبة الصخرة اثرا كبيرا في منهاج الفنون الاسلامية وذلك باعتبارها من اقدم الزخرفة الاسلامية على الاطلاق. ومن خلال دراسة هذه الزخارف التي اعتمدت على الفسيفساء الزجاجي الملون نجد ان القائم على هذه الزخرفة لم يكن مطلق اليد او حر التنفيذ، بل نراه مقيدا وملتزما بعدد من



نقوش من على قبة الصخرة.

التعليمات الصارمة حتى يتوافق العمل الفني مع الفلسفة والتقاليد الاسلامية.

لقد اثبت الفنان العربي في العهد البيزنطي، مقدرة فنية عظيمة بفنون الفسيفساء، ولم تكن انجازات هذا الفن العريق في مادبا وجرش وأم قيس وبيسان وشهبا والسويداء وانطاكيا وتدمر ويعلبك الا شواهد اصيلة لهذا الفن.

احتوت فنون قبة الصخرة على عدد من النماذج الفنية الاساسية في الفن والذوق الاسلامي الذي استمر على مر العصور فكان اهمها:

١ – الكتابات والخطوط المتنوعة على الواجهات الداخلية والخارجية.

٢ – الفسيفساء الزجاجي الملون والصدف على الواجهات الداخلية.

٣ – النحت على الحجر والرخام.

٤ – الاشرطة المعدنية النحاسية الصفراء، والحمراء التي فوق حلوق الجسور بين الاعمدة.

٥ – الخشب المحفور.

٦ – البلاط المزجج، والملون، والمزخرف بالكتابات والنقوش الهندسية والنباتية يغطي الواجهات الخارجية.

٧ – الزجاج الملون على النوافذ.

ومن خلال هذه النماذج المتنوعة للذوق الاسلامي نكتشف وبسهولة العناصر والمقومات الفنية الاساسية للفن الاسلامي، الكتابات تمثل الاسلوب الكوفي البسيط وتبدو على قمة الواجهات الداخلية، مكتوبة بالفسيفساء الزجاجي الملون، الذي يمثل المدرسة الاولى لاسلوب الخط العربي غير المنقوط، ولا ينفك عن الحركة والاستمرار في شريط ضيق يبلغ طوله(٢٤٠) مترا.

اما الفسيفساء التي سيطرت على زخارف بناء قبة الصخرة الداخلية فهي تمثل الاسلوب العربي الشامي الذي ساد سوريا في الفترة البيزنطية عندما كانت كنائس القرن السادس والسابع مغطاة في واجهاتها وأرضياتها بهذا النوع من الزخارف، غير أن الاسلوب الفني

لا يتفق مع الاسلوب البيزنطي المسيحي من الناحية الفلسفية، لقد كانت زخارف قبة الصخرة تمثل اسلوبا نباتيا وهندسيا متداخلا ضمن اطارات تواكب الاقواس والقواعد، وكأنها لوحات مقصوصة لكي تناسب الاسلوب المعماري من الداخل.

لقد بدأت التوزيعات الفنية عشوائية التنظيم بحيث يصعب تصور منظر كامل من خلال النظرة الى واجهة الجدار، بل نجد ان فوق كل سطح جداري عدداً من الاشكال المستقلة المتجاورة... فهذا يمثل شجرة نخيل، والثاني يمثل أوراق الاكانتوس والآخر يمثل أناء... وهكذا.... كما نجد أن المناظر جامدة ولا تحتوي على حركة فنية متكاملة... لكن الواقع يثبت أن كل شكل من هذه الاشكال يمثل الاسلوب الاسلامي الاموي، ففيه المركزية والتناظر، وفيه الجمود وكثرة الالوان والمبالغة في الشكل وفي التركيب، وفيه الحركة النباتية بإطار هندسي منتظم، وعليه فقد اكتفى الفنان الاموي بهذه النماذج مبتعدا عن تصوير أي مخلوق، وما أنسجامه مع الخضرة والنبات والثمار والازهار إلّا صفاء للروح، ومنهل للتأمل والخشوع بين يدي الله.

اما تحت الاعمدة والتيجان فقد انسجم مع الاسلوب العربي الشائع في سوريا أبان الفترة البيزنطية والرومانية، حيث بدت التيجان مطلية بماء الذهب، كما ظهر عليها ملامح تذكرنا بأسلوب جرش في نحت بعض تيجان الاعمدة في تشكيلات الوجوه والملامح البشرية، بواسطة تموجات اوراق الاكانتوس او اوراق العنب. ولكن الذي يحدد الاسلوب الاموي هو اعتماد واجهات الجدران الداخلية التي تمثل الاقواس النصف دائرية والمرتفعة لاعطاء الفرصة لرفع السقف الى اقصى مسافة ممكنة، ثم لاتاحة دخول الضوء المنبعث من نوافذ القبة الى الاقسام الداخلية من البناء... وتكامل الفن المعماري بفن الزخارف التي غلب عليها كثرة التنويع في نماذج اللفائف المتموجة والمتعاقبة خلف بعضها، وفي دقة توزيع المزهريات وانتشار الاغصان على شكل حلقات متموجة ودائرية منتظمة، كل هذا حافظ على ايقاع عربي وشرقي يمثل طرازا جديدا في اساليب الفنون الاسلامية... ثم ان هذه التموجات المنتظمة ساهمت بشكل كبير في تعبئة الفراغ الفني في اللوحات او على الواجهات المزخرفة، وهذا ما جعل هذه الميزة ايضا من ابرز خصائص الفن الاسلامي.

ومع اعتماد الاسلوب النباتي الهندسي في زخارف الفسيفساء في قبة الصخرة نجد ان الاسلوب ذاته تم استعماله في زخرفة الصفائح المعدنية لتغطية حلوق الاقواس بين الاعمدة، وهذا يبرهن على ان هذا الاسلوب الفني قد تم اقراره واعتماده على انماط مختلفة من النماذج.

ولطالما اشتهرت منطقة بلاد الشام العربية في العهد الاسلامي المبكر حتى ايامنا هذه بحسن انتاجها لهذا النوع من الصناعات التقليدية، فكان الطرق على المعادن وخاصة النحاس والفضة قد دفع كثيرا من المؤرخين في تاريخ الفنون الى اعتبار هذه الصناعة من الصناعات والفنون الشامية العربية. ان الاسلوب الذي ساهم بتحويل الاشكال الهندسية الى اشكال نباتية هو نفسه الذي وجه اسلوب الكتابة الكوفية او النسخية الى مثل هذه المهارة الفنية، لقد تمكن الفنان المسلم من تقسيم اللوحة المعدنية الى عدة اشرطة متناظرة لها مركز متوسط يختلف عن بقية الأشرطة حجماً وشكلاً، ويبدو المنظر معقداً ولكن التأمل فيه يفرز نموذجين او ثلاثة، تتكرر بهدوء ودقة، وهذا ايضاً أضاف للفن الاسلامي خصائص جديدة، وهي اسلوب التكرار للنماذج المختارة بشكل يثير الدهشة والتقدير.

لقد شهدت القبة عدة اصلاحات، نتيجة للاحداث الطبيعية التي مرت بها، فمثلا تم تجديدها عام ١٠٢٢ على يد الظاهر لاعزاز دين الله، في الفترة الفاطمية، وتم تعليق ثريا فخمة بلغ وزنها حوالي طن بمركز القبة وقد تم تغطية القبة بالرصاص غير ان هذه الثريا المعلقة قد سقطت عام (١٠٦٠).

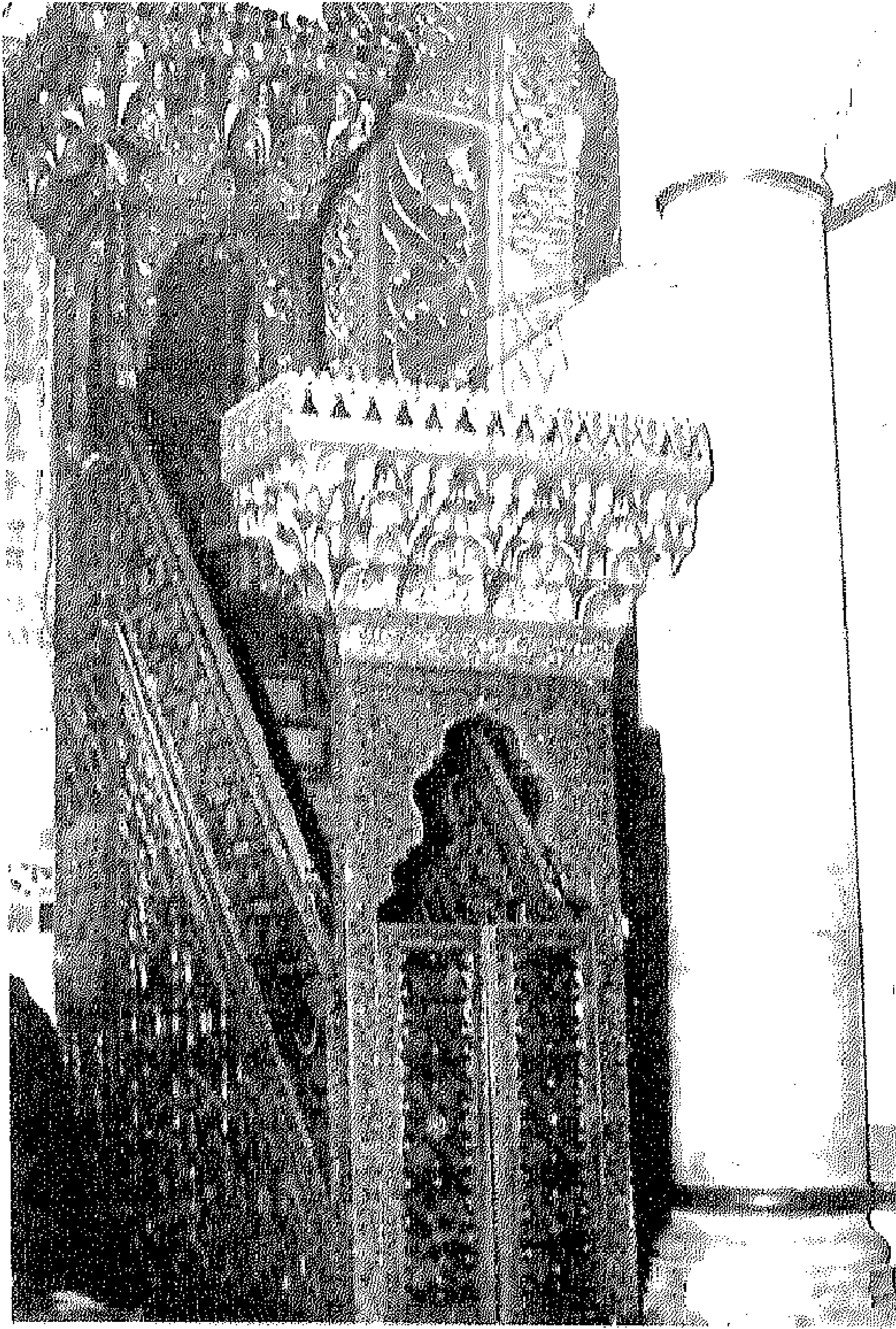
في عام(١٠٧٧) حكم السلاجقة الاتراك القدس وجميع فلسطين، وفي نهاية القرن الحادي عشر استولى الفرنجة على مدينة القدس وباحتلالهم للمدينة، سيطروا على بناء الصخرة

واسموها (Templum Domini) واقاموا مذبحا فوق الصخرة وقطعوا عدة درجات تؤدي الى المذبح في الصخرة نفسها، واصبحت الصخرة هدفا للحجاج يأخذون منها للتبرك وللتجارة وحتى على مستوى الرهبان الذين كانوا يبادلون القطعة الحجرية من الصخرة بوزنها ذهبا، وتم تغيير عدد من المعالم داخل البناء كان آخرها رفع الصليب الذهبي فوق القبة بدلا من الهلال.

وفي سنة (١١٦٧) عندما تولى نور الدين زنكي الحكم في سوريا تحولت الاحوال السياسية للمصلحة الاسلامية، وحاول الحاق مصر بدولته، وبعد ان ظهر (صلاح الدين يوسف بن ايوب) على مسرح الاحداث، استمر الحكم الايوبي يسيطر على بلاد الشام من سنة (١١٨٧) لغاية (١٢٤٧م).

ومع دخول صلاح الدين الى مدينة القدس، بعد معركة حطين نجد اهتمامه الاول في اعادة الاماكن المقدسة الى حالتها الاسلامية... وكان على رأس هذه المباني، بناء قبة الصخرة، وكان اهم اعماله في داخل القبة ان اضاف زخارف الفسيفساء على عنق القبة الداخلي. وقد سجل كتابة تذكارية هي: «بسم الله الرحمن الرحيم امر بتجديد تذهيب هذه القبة الشريفة مولانا السلطان الملك والناصر العالم العادل(صلاح الدين يوسف بن أيوب تغمده الله برحمته، وذلك في شهور سنة ست وثمانين وخمسماية (١١٨٩م)» في سنة (١٢٢٩) دخلت القوات المغولية بلاد المشرق الاسلامي تحت قيادة جنكيز خان، وظهرت في هذه الفترة دولة المماليك، وكان ذلك سنة(١٢٥٢)، وقد حقق هؤلاء انهاء السيطرة الفرنجية على فلسطين والقدس، وقام الظاهر بيبرس بهذه المهمة بشجاعة، كما تمكن من اقتلاع نفوذ المغول من فلسطين عام (١٢٦٠).

اثناء حملاته ضد المعادين اجرى السلطان بيبرس عددا من الاصلاحات في قبة الصخرة حيث رمم الفسيفساء على الواجهات الخارجية للبناء، كما جرى ترميم عليها سنة(١٢٩٤). في عهد الملك زين الدين وفي سنة (١٣١٨) في عهد السلطان محمد بن قلاوون اعيد تجديد زخارف القبة الداخلية فوق الصخرة مع الفسيفساء،


الكتابات والنقوش على المحراب

وكذلك تم تجديد طبقة الرصاص فوق القبة الخارجية، وقد كتب على زجاج بعض النوافذ.

«بسم الله الرحمن الرحيم، امر بتجديد وتذهيب هذه القبة مع القبة الفوقانية برصاصها مولانا ظل الله في ارضه القائم بسنته وفرضه». هذا وقد عثر على كتابة اخرى داخل القبة وهي: (السلطان محمد بن قلاوون تغمده الله برحمته وذلك في سنة ثماني عشرة وسبع ماية).

ان آخر اعمال المماليك الفنية في بناء قبة الصخرة وتغطية الابواب الاربعة للبناء بصفائح من النحاس المزخرف، كان ذلك ايام الاشرف قايتباي في سنة (١٤٦٧م).

اما الفترة العثمانية فقد تركت آثارها الفريدة حتى هذا اليوم، لقد تمكن العثمانيون من تقديم اجمل انجازاتهم الفنية لبناء قبة الصخرة في القدس لقد كان اكثر السلاطين العثمانيين اهتماما بمدينة القدس وقبة الصخرة بالذات هو السلطان سليمان القانوني، لقد اعاد تسوير المدينة خلال الفترة(١٥٣٧ - ١٥٤١)، وقد تمكن ايضا في سنة(١٥٤٦) من تغطية عنق القبة الخارجي بالبلاط المزجج الذي امتد ليغطي القسم العلوي

من واجهات البناء الثماني كلها. كما امتدت يد الاعمار والترميم للنوافذ والبوابات حيث ترك كتابة فوق البوابة الشمالية للقبة المسماة، ببوابة الجنة.

في القرن التاسع عشر ساهم اربعة سلاطين من بني عثمان في تجديد وترميم بناء قبة الصخرة هم على التوالي:

في سنة ١٨١٧ السلطان محمود خان، رسم الرخام الخارجي على الجدران واعمدة المحراب وذهب القبة ورمم القبة الخارجية.

في سنة ١٨٥٢ السلطان عبد المجيد، دعم القبة ورممها.

في سنة ١٨٧٤ السلطان عبد العزيز، اصلح السقف الخشبي والبلاط الارضي والجدران الداخلية السفلى والنوافذ.

في سنة ١٨٧٦ السلطان عبد الحميد الثاني، فرش السجاد في داخل البناء وعلق ثريا كرستال فخمة فوق الصخرة، وقد نقلت الى قبة المسجد الاقصى.

كما عهد السلطان عبد الحميد الثاني الى رفع الواجهات الخارجية للجدران بوضع اضافات عليها كتابة من الخزف القاشاني المزجج تحمل سورة ياسين من القرآن الكريم.

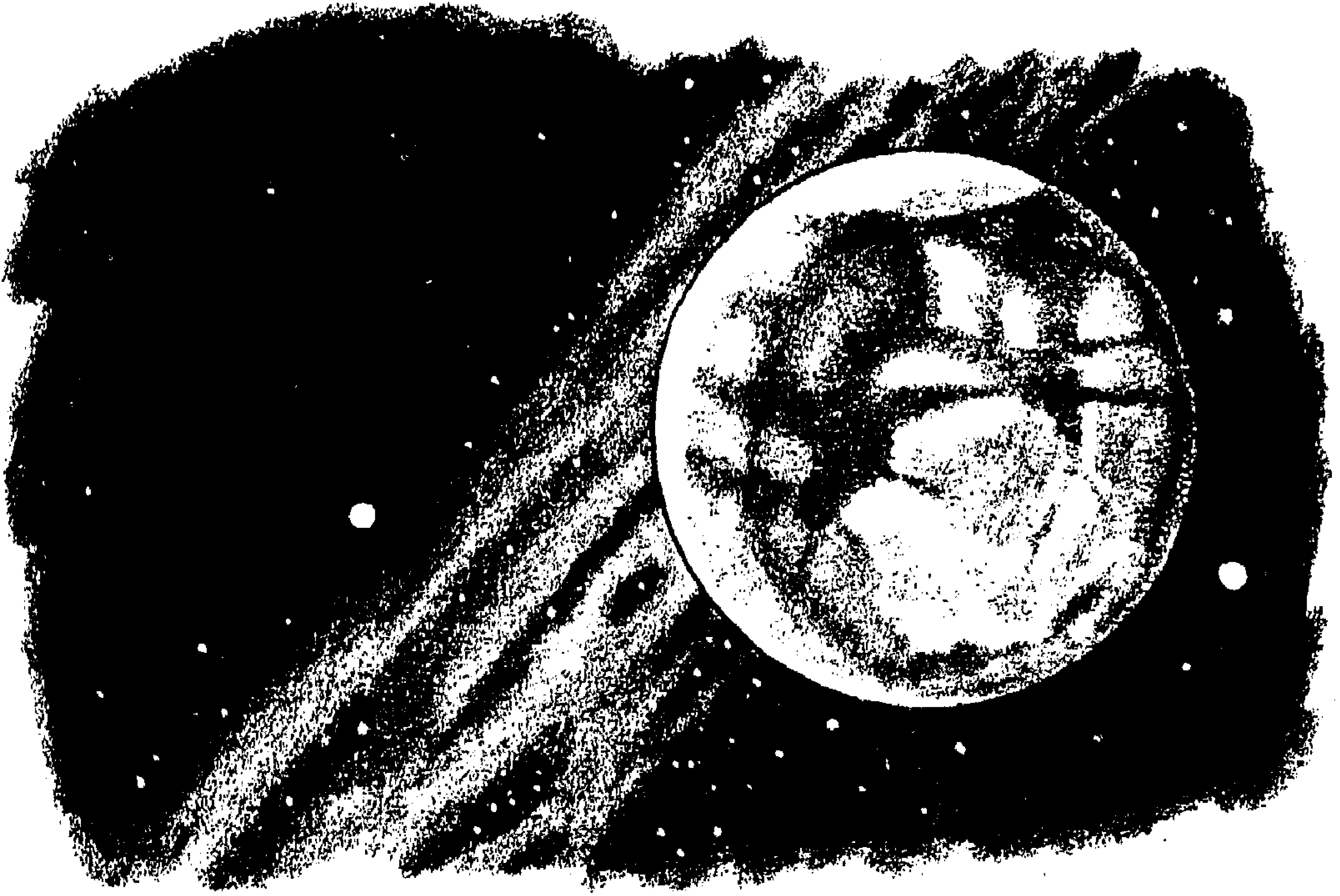
ومن خلال متابعتنا للزخارف المملوكية والعثمانية نجد ان الاسلوب الاسلامي (الشامي) قد استمر رغم تطور التاريخ، ورغم زخم الفنون في القرون الوسطى والحديثة... الا ان القاعدة استمرت مرتبطة بالنقوش الكتابية والزخارف النباتية والهندسية، وهذا ملموس في كتابة القبة التي زخرفها صلاح الدين الايوبي الذي تمثل الخط المذهب فوق قاعدة سوداء او في بلاط الرخام والقاشاني الذي يمثل اسلوبا في نسخ الخط العربي باللون الابيض فوق ارضية زرقاء، واصبحت واجهات قبة الصخرة الخارجية تمثل صورة بديعة لتناسب الالوان التي تعكس الازرق الغامق والابيض او الرمادي والاخضر والاصفر، وبدت المدرسة الفنية القديمة(الاموية) في اسلوب تقليدي منظور من حيث الاطارات والواجهات بشكل هندسي اكثر اتقانا ودقة وبدت الفنون العثمانية في الواجهات الاكثر اتساعا تمثل اسلوب السجاد العثماني من حيث عناصره الفنية وتشكيلاته. وقد بدا في بعض الواجهات اسلوب جديد يمثل ازهار الاقحوان، وهي منتشرة جدا على الاغصان الخاوية من الاوراق... وان التشكيل الهندسي يخالف الاسلوب الاموي ولكن الفلسفة الفنية في العصرين الاموي والعثماني تمثل استمرارها والمحافظة عليها.

ان اسلوب العمارة في بناء قبة الصخرة واسلوب الزخارف فيها يعكس الاهتمام المتوارث في حضارة الامة العربية في بلاد الشام ابان عهود سوريا قبل الاسلام وبعده، ولا مجال لاستعراض العناصر الفنية البيزنطية او الرومانية للمشابهة والتمثيل فالامة التي اقامت روح حضارات عدة على ارضها ابان النفوذ الروماني الوثني ثم الروماني البيزنطي، هي نفسها التي قدمت امكاناتها الفنية للصروح الاسلامية... لقد كان الاسلام حريصا جدا على ان تكون فنونه ذات طابع خاص مميز في كافة ارجاء العالم الاسلامي... لقد كان الاسلوب الفني والفلسفة الفنية يمثلان وحدة واحدة في بلاد الشام، غير ان بعض العناصر الفنية قد تأثرت بالاسلوب المحلي في الاقاليم الاسلامية المتعددة، فبدت محورة حينا وصادقة حينا آخر تنسجم مع التقاليد الموروثة في تلك الاقاليم، لقد لاحظنا ان الطابع العربي الشامي المميز للعناصر الفنية الاسلامية قد نشأ في اطار هندسي ثابت امتاز بالجمود في العهد الاموي وانتقل الى الحركة البطيئة في القرون الوسطى، واخذ يشابه حركة الطبيعة في العصور الحديثة، ان افضل مثال لما ذكرنا يتضح في العناصر الفنية الفسيفسائية الموجودة داخل بناء القبة ايام الامويين، ثم الانتقال الى اسلوب الزخارف على القبة الخشبية فوق الصخرة، تماما ابان الفترة الايوبية والمملوكية، وننتقل اخيرا الى اسلوب الخزف المزجج الذي يمثل اسلوب الزخارف الهندسية والنباتية والكتابية فهي معروضة على واجهات الجدران الخارجية منذ ايام سليمان القانوني في القرن السادس عشر الميلادي، واستمر تجديدها حتى ايام السلطان(عبد الحميد الثاني) في القرن التاسع عشر. ■



جغرافيا

في العدد السابق، رافقنا ماجيلان في الدورة الأولى حول الأرض، وهي المرحلة التي مهدت لتثبيت النظريات، المحرمة، التي قالت باستدارة الأرض. احد اهم آباء هذه النظرية نيكولاس كوبيرنيكوس، العالم البولوني الفذ، وهذه قصته:



كوبيرنيكوس

قال أن الأرض تدور حول الشمس

ولم يجرؤ على نشر اكتشافه إلّا عند موته



ساهمت رحلات كولومبوس وماجيلان الكبرى في تغيير خريطة الأرض. لقد اكتشف البشر، مذهولين، ان ثمة بلاداً لم يرد ذكرها في السابق، ولا حتى في التوراة.

في تلك الفترة، ظهرت نظريات استنبطها نيكولاس كوبيرنيكوس (١٤٧٣ - ١٥٤٣) الذي ولد في احدى المدن البولونية، ولبس ثوب الرهبنة بعد ان أتمّ دراسته. وقد تستغرب كيف ان راهبا يخرج بنظرية تناقض ما كان الاكليروس في ذلك الزمن يعلمه للمؤمنين.

الواقع ان العلوم في اوروبا في تلك الحقبة، كانت حكراً للكهنة والرهبان. فقد كان على رجل الدين ان يكون قادرا على القراءة حتى يقدم الطقوس الدينية ويقرأ الكتب المقدسة. كما ان الرهبان هم الذين كانوا ينسخون هذه الكتب المقدسة، قبل اختراع الطباعة. وكان عليهم إذن أن يتقنوا القراءة والكتابة. وهذا يفسر ظاهرة اهتمام رجال الدين بادارة شؤون الدولة. فقد كانوا قلة متعلمة بين كثرة امية. وكان على من يرغب في العلم ان يلبس رداء الاكليروس.

كان كوبيرنيكوس ابن خباز، وقد تربى على عمه الأسقف الكاثوليكي، الذي ارسله الى ايطاليا ليتابع دروسه. وقد استوعب الفتى بسرعة جميع علوم اللاهوت والدين. لكنه تعلم ايضاً الطب والتقنية، فأصبح فيما بعد طبيبا ومهندسا ماهراً.

وكان نيكولاس بولونيا وطنيا متحمسا. ورغم انتمائه للاكليروس فقد حمل السلاح لمحاربة الألمان. ولما كان مهندسا، فقد عمل في تقوية القلاع، وقاد الجند في معارك عديدة. وكان الشاب العبقري يصرف بعض وقته في ممارسته الكهنوت، ووقتا اكبر في معالجة الفقراء مجانا. لكن أمسياته ولياليه كانت حرة، وكان ينفقها في ممارسة العلم الذي أثار حماسته اكثر من اي شيء آخر: الفلك.

ولم يكن عمل الفلكي آنذاك يشبه في وجه من الوجوه عمل الفلكي اليوم. فلدى العلماء في عصرنا الحالي مراصد ومناظير قوية تسهل عليهم مراقبة الأفلاك والكواكب. وفي امكانهم ان يصوروا اي قطاع من السماء، ليراقبوا النجوم التي يطالها المنظار، وتلك التي لا يطالها.

اما في ايام كوبيرنيكوس، فلم يكن لدى العلماء من ادوات الرصد الا العيون.

وخلال سنوات، لم يدع كوبيرنيكوس ليلة واحدة تمضي، دون ان يصعد السلم المؤدية الى برج كاتدرائية مدينة فراونبورغ، أكان ذلك في حرارة أيام الصيف، او في صقيع ليالي الشتاء. وقد ادى جلده واصراره على الرصد اليومي للسماء، الى اكتشاف الكثير من حقائق الفلك التي لم تكن معروفة من قبل، واهمها ان الأرض ليست مركز الكون كما كان يظن. فالقمر يدور حول الأرض. هذا صحيح لكن الأرض تدور حول الشمس. وهكذا عطارد والزهرة والمريخ والكواكب السيارة الأخرى.

اما دوران النجوم حول الأرض فهو ناجم عن دوران الأرض نفسها حول نفسها. وهذا الدوران يؤدي الى خداع بصري يوهم الراصدين بأن النجوم الثابتة تدور حول الأرض.

عندما اكتشف كوبيرنيكوس ذلك، كان في الأربعين من عمره، لكنه احتفظ بالسر العظيم طوال حياته تقريبا، خوفاً من ان يلاحق. ولم يخبر عنه سوى بعض من اخلص اصدقائه. وهؤلاء هم الذين دفعوه الى نشر اكتشافاته في العام ١٥٤٣. ويقال انه لم ير نسخة من كتابه هذا، الا وهو على فراش الموت. وكان الكتاب مكتوبا بلغة معقدة عمداء لتضليل الأوساط الرجعية التي كان يمكن ان ترى فيه مساسا بالمفاهيم السابقة.

وهذا الأمر مكن الكتاب من الانتشار رويدا رويدا في كل اوروبا واستطاع العلماء بذلك ان يدرسوه على مهل.

وبعد سنوات على موت كوبيرنيكوس، استطاعت بعض الاوساط الرجعية في اوروبا، ان تفهم خطورة التعاليم الجديدة، ورأوا فيها خطرا يهدد مركزهم الاجتماعي الذي كانوا يعتمدون في تثبيته، على الأمية والجهل. وهكذا صدر تحريم بنشر وقراءة كتابات كوبيرنيكوس. لكن شعاع علمه كان قد خرق الحصار والى الأبد.

■

السد العالي في ميلاده ٢١

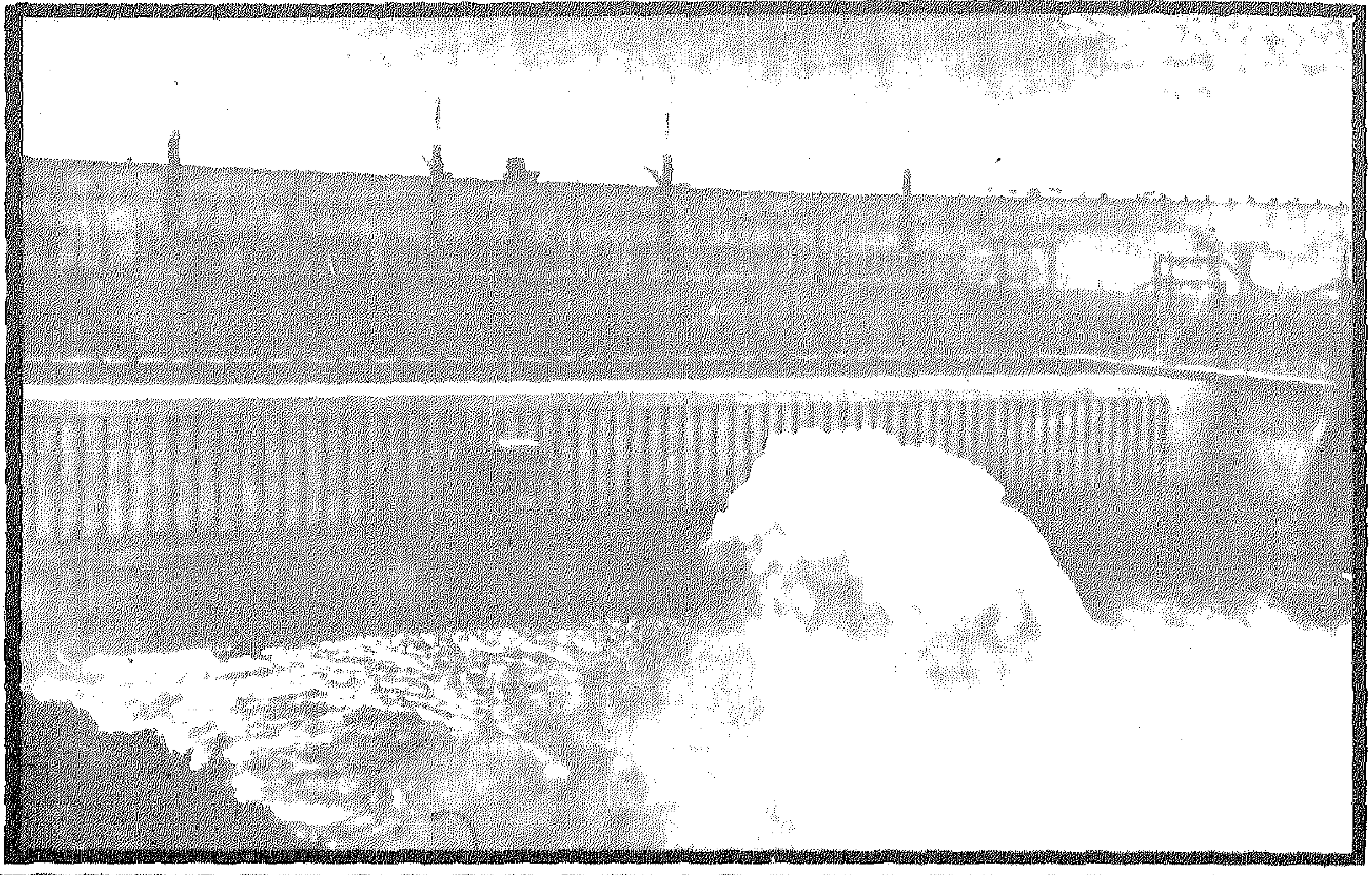
د. يوسف شبل

في نهاية عام ١٩٨٠ يكون «السدّ العالي» في محافظة اسوان قد مضى على بدء العمل فيه واحد وعشرون عاماً، وعشرة اعوام على الاستفادة من مزاياه الكاملة للاقتصاد المصري. ولا نعرف حتى كتابة هذه السطور مشروعاً مائياً أو صناعياً او زراعياً أو انمائياً، بكل ما في هذه الكلمة من معنى، اثار مثل الضجة السياسية والاقتصادية التي اثارها مشروع بناء السدّ العالي. فقد أدى قرار بنائه الى سلسلة من الأحداث السياسية والاقتصادية الخطيرة التي اثرت على مستقبل مصر ومستقبل الوطن العربي بأسره. ويأتي في طليعة هذه الأحداث تأميم قناة السويس في ٢٦ تموز (يوليو) من عام ١٩٥٦، وحرب السويس التي نشبت في اوكتوبر من عام ١٩٥٦ بعد العدوان الثلاثي على الأراضي المصرية والذي شاركت فيه بريطانيا وفرنسا واسرائيل، بالاضافة الى حدوث عدد كبير من التطورات التي ترتبط مباشرة او غير مباشرة ببناء السدّ العالي.

ومن حق القارىء العربي، بعد هدوء الضجة حول السدّ العالي، ان يطلع على تاريخ هذا المشروع الكبير وعلى آثاره الاقتصادية التي نشب حولها جدل كبير بين مؤيدي المشروع ومعارضيه، وبعد ان اصبح السدّ العالي حقيقة قائمة واحتل جزءاً كبيراً من تاريخ مصر الاقتصادي والسياسي.

---

* د. يوسف شبل: مستشار اقتصادي لدى وزارة المالية في السعودية واستاذ اقتصاد في الجامعة الاميركية - بيروت سابقاً، ويشغل حالياً منصب خبير الاقتصاديين في دار الهندسة والتصميم في بيروت.





من البديهيات التي يعرفها كل عربي ان نهر النيل هو عصب الحياة في مصر. فمن اصل مساحة قدرها مليون كيلومتر مربع وهي مساحة مصر لا يوجد اكثر من ٢,٥٪ من هذه المساحة صالح للزراعة نظراً لانعدام وجود مياه امطار كافية مما أدى الى اعتماد مصر الكليّ على نهر النيل كمصدر وحيد للريّ. وتمتد الأراضي الزراعية في مصر حول شريط ضيق على امتداد مجرى نهر النيل حتى مشارف الدلتا شمال القاهرة حيث يتشعب نهر النيل الى فرعين قبل ان يصب في البحر الأبيض المتوسط بالقرب من مدينة دمياط.

كانت مساحة الأراضي الزراعية قبل بناء السدّ العالي في حدود ٦ ملايين فدان (الفدان يساوي حوالي خمسة دونمات) وكان يزرع معظمها قطناً وارزاً وبعض المنتوجات الزراعية الأخرى مثل القنّب وقصب السكر والبرسيم وغيرها.

ونظراً لتذبذب منسوب المياه السنوي بين عام واخر، فقد بدأ خبراء الريّ في مصر، وهي التي كانت تضم منذ مطلع القرن عددا كبيرا من الخبراء المشهود لهم في هذا المضمار، في محاولة إيجاد طريقة للحصول على أكبر منسوب ممكن من المياه، خصوصاًوان جزءاًكبيراً يذهب هدراً الى البحر الأبيض المتوسط. وكان هؤلاء الخبراء يريدون تحقيق معدل سنوي اعلى لمنسوب المياه من ناحية وخفض التذبذب في منسوب المياه الذي يصل مصر من خلال نهر النيل من ناحية اخرى الأمر الذي يؤدي الى زيادة الانتاجية الزراعية لكل فدان من الأرض والى توسيع رقعة الأراضي الزراعية ككل. وهذا ما يشار اليه عادة باسم التوسع الرأسي للانتاج (زيادة الانتاجية في الرقعة الزراعية الموجودة) والتوسع الأفقي للانتاج (زيادة رقعة الأراضي الزراعية).

وتملك مصر منذ عهد محمد علي نظاما متطورا للريّ. «فالقناطر الخيرية» الموجودة شمال القاهرة تشهد على ذلك و«سدّ اسوان» القديم وهو غير السد العالي، الذي تم بناؤه في عام ١٩٠٥ والذي تحول هدفه من الريّ الى توليد الطاقة الكهربائية ايضا شاهد على هذا التطور. وكان نظام الريّ في مصر، حتى بناء «السد العالي» يعتمد على ما يسمى «ري الحياض» و«الري المستديم». ويعني التعبير الأول ريّ الأراضي الزراعية من مياه الفيضان

«... هذا هو السد العالي الذي دارت من حوله الحروب» وحارب من اجله الأبطال، هذا هو السدالعالي الذي شهد كل هذا الكفاح واستحق كل هذا الكفاح بسبب معناه كرمز لتصميم الأمة العربية كلها على ان تسير في بناء وطنها الكبير.. المتحرر.

ان السد العالي مثل لجميع الدول.. بل حافز مستمر لكل الأمم في افريقيا وآسيا.. يذكرّها دائماً ان الشعوب الصغيرة مهما تضاءل ما تملكه من معدات الدمار الذري.. تستطيع ان تقوم دائماً بأعظم الأعمال الانشائية. وتستطيع لو اقتضى الأمر ان تحفر طريقها بأظافرها.. ودمائها.. وسط الصخور.

كنت واثقاً اننا سننتصر على الدول العظمى...

جمال عبد الناصر

عندما يرتفع نهر النيل الى اعلى منسوب له وذلك في شهر يونيو (حزيران) في كل عام بحيث يُغرق الأراضي الزراعية المجاورة له بالمياه. اما نظام الريّ المستديم فيشير الى توفير المياه على مدار السنة للمنتجات الزراعية بواسطة المضخات والأقنية ومواسير المياه حسب مقنّنات مائية تحددها وزارة الري ووزارة الزراعة في مصر.

انطلاقا من هذه الحقائق كانت تراود خبراء الري فكرة انشاء سد كبير قرب مدينة اسوان في جنوب مصر لتخزين المياه خلفه وتوليد طاقة كهربائية وايصالها لمختلف انحاء القطر المصري. وبعد قيام ثورة يوليو عام ١٩٥٢ بدأ التفكير مجددا في اقامة السدّ العالي كأحد الوسائل لتطوير القطاع الزراعي وقطاع الكهرباء. وتشكلت لجنة خاصة من مجلس الثورة برئاسة المرحوم قائد الجناح جمال سالم لمتابعة الموضوع وتحديد ملامح المشروع.

وفي مطلع عام ١٩٥٦ تقدمت الحكومة المصرية بطلب رسمي الى «البنك الدولي للانشاء والتعمير» في واشنطن للحصول على قرض لتمويل جزء من المشروع. وقد أبدت الحكومة الامريكية في عهد الرئيس «دوايت ايزنهاور» استعدادها للمشاركة في التمويل عن طريق تقديم مساعدة مالية تساعد مصر على بناء السد. غير انه في الوقت الذي كان يسير فيه مشروع السد العالي نحو الاكتمال كانت قد بدأت تظهر تطورات سياسية بين الحكومة المصرية والحكومة الامريكية بسبب رفض الأخيرة بيع مصر حاجتها من الأسلحة الدفاعية أدّت في نهاية الأمر الى سحب المعونة الامريكية في حزيران (يونيو) من عام ١٩٥٦ وتبعها البنك الدولي بسحب عرضه ايضا لتمويل المشروع جزئيا. وتتابعت التطورات بسرعة كما يعرفها القارىء العربي.

وبعد انتهاء حرب السويس تأخر تنفيذ المشروع حتى عام ١٩٦٠ عندما حصلت مصر على مساعدة سوفياتية لبنائه وم تعديل التصميم الهندسي للمشروع طبقاً لذلك.

مواصفات السدّ العالي ومزاياه الاقتصادية

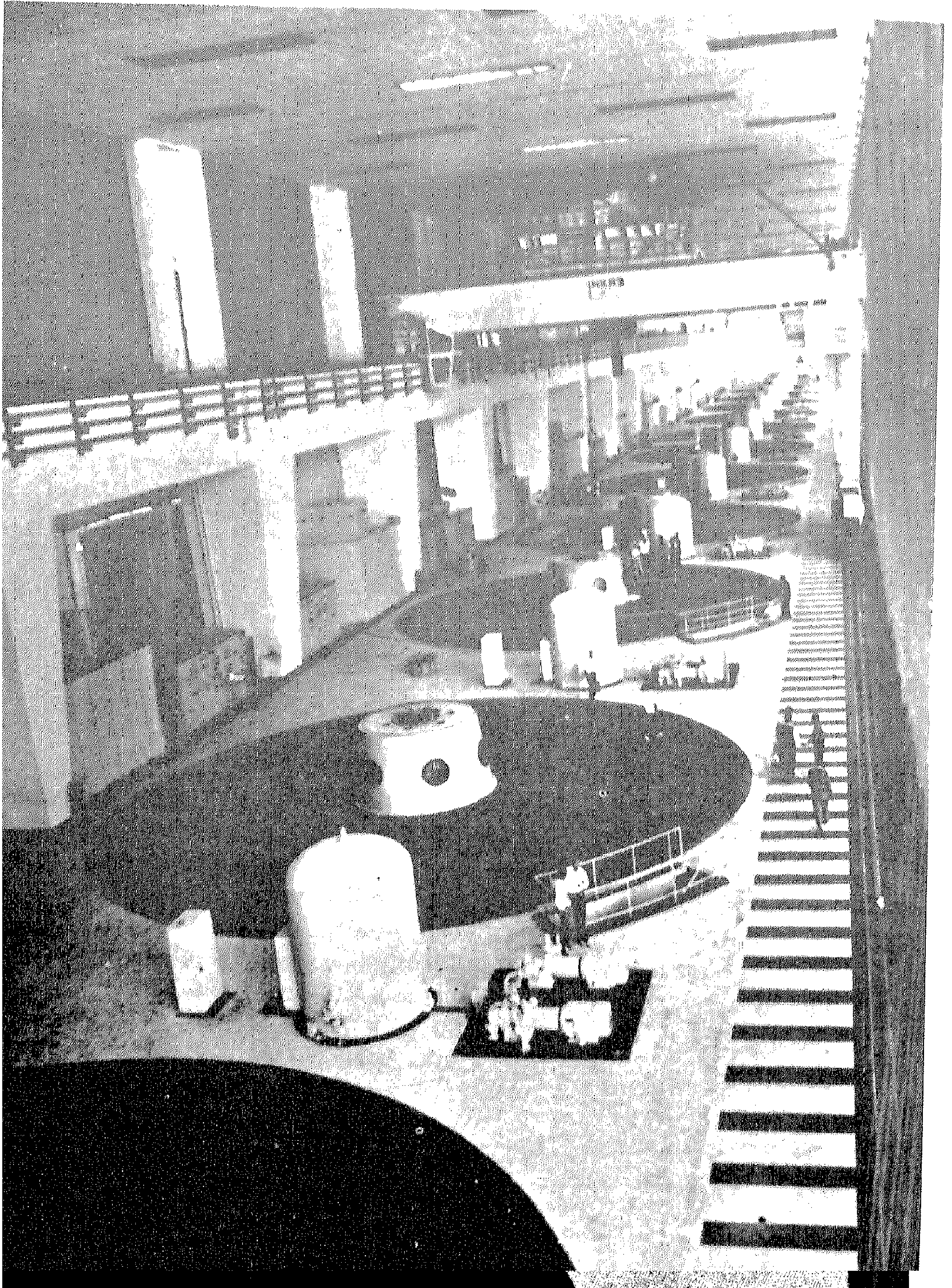
تبلغ طاقة التخزين في السدّ العالي ١٥٧ مليار متر مكعب من مياه نهر النيل وحسب التصميم الهندسي للمشروع فقد قسمت هذه السعة الى ثلاثة اقسام رئيسية:

(أ) التخزين «الميت» ويبلغ ٣٠ مليار متر مكعب وهو مخصص رسوب الطمي في قعر الخزان. والمعروف ان الطمي الذي يحمله نهر النيل من منبعه ويلقي به على الأراضي الزراعية يشكل غذاء رئيسياً للتربة.

(ب) التخزين «الحي» وسعته ٩٠ مليار متر مكعب وهو المخصص لاحتياجات الرقعة الزراعية في مصر سنويا من المياه.

(جـ) التخزين الخاص بالسيطرة على الفيضانات عندما يرتفع منسوب المياه في نهر النيل الى اقصى حدوده وذلك في شهر حزيران من كل عام. وسعة هذا الجزء ٣٧ مليار متر مكعب.

والجدير بالذكر ان ارتفاع السد يبلغ



الآلات الرئيسية للمشروع

١١١متراً وهنالك أنفاق مكشوفة لكي تخرج المياه من خلفه لأغراض الري. كما ان هنالك ١٢ مولداً كهربائياً طاقة كل منها ١٧٥,٠٠٠ كيلو وات، وبذلك يكون مجمل الطاقة الكهربائية التي يولدها السد على افتراض تشغيل جميع المولدات في حدود ٢١٠٠ ميغاوات.

ملخص المزايا الرئيسية للمشروع.

(أ) زيادة رقعة الأراضي الزراعية بمساحة قدرها ١,٢ مليون فدان اي من ٦,٢ مليون فدان الى ٧,٤ مليون فدان.

(ب) تحويل نظام الري بأسره الى «النظام المستديم» بعد ان كان حوالي ٨٢٥ الف فدان من الأراضي الزراعية يروى بطريقة «الحياض» اي مياه الفيضان وبالتالي زيادة زراعة وانتاج المحاصيل الزراعية.

(جـ) خلق طاقة كهربائية في حدود ٢١٠٠ ميغاوات، الأمر الذي يؤدي لدفع القطاع الصناعي الى الأمام عن طريق توفير طاقة رخيصة وانارة مصر بأكملها.

(د) ضمان زراعة مليون فدان من الأرز سنويا بقطع النظر عن منسوب المياه لنهر النيل.

(هـ) تدعيم اقتصاديات كهربة سد أسوان القديم والواقع على بعد ٦,٥ كيلو متر الى الشمال من موقع السد العالي.

(و) ايجاد ثروة سمكية في البحيرة الصناعية التي ستنشأ خلف السد على امتداد مساحة ٢٥٠ كيلو متر مربع.

(ز) تخفيف أخطار الفيضان على الجسور المقامة على نهر النيل.

كلفة المشروع وتمويله:

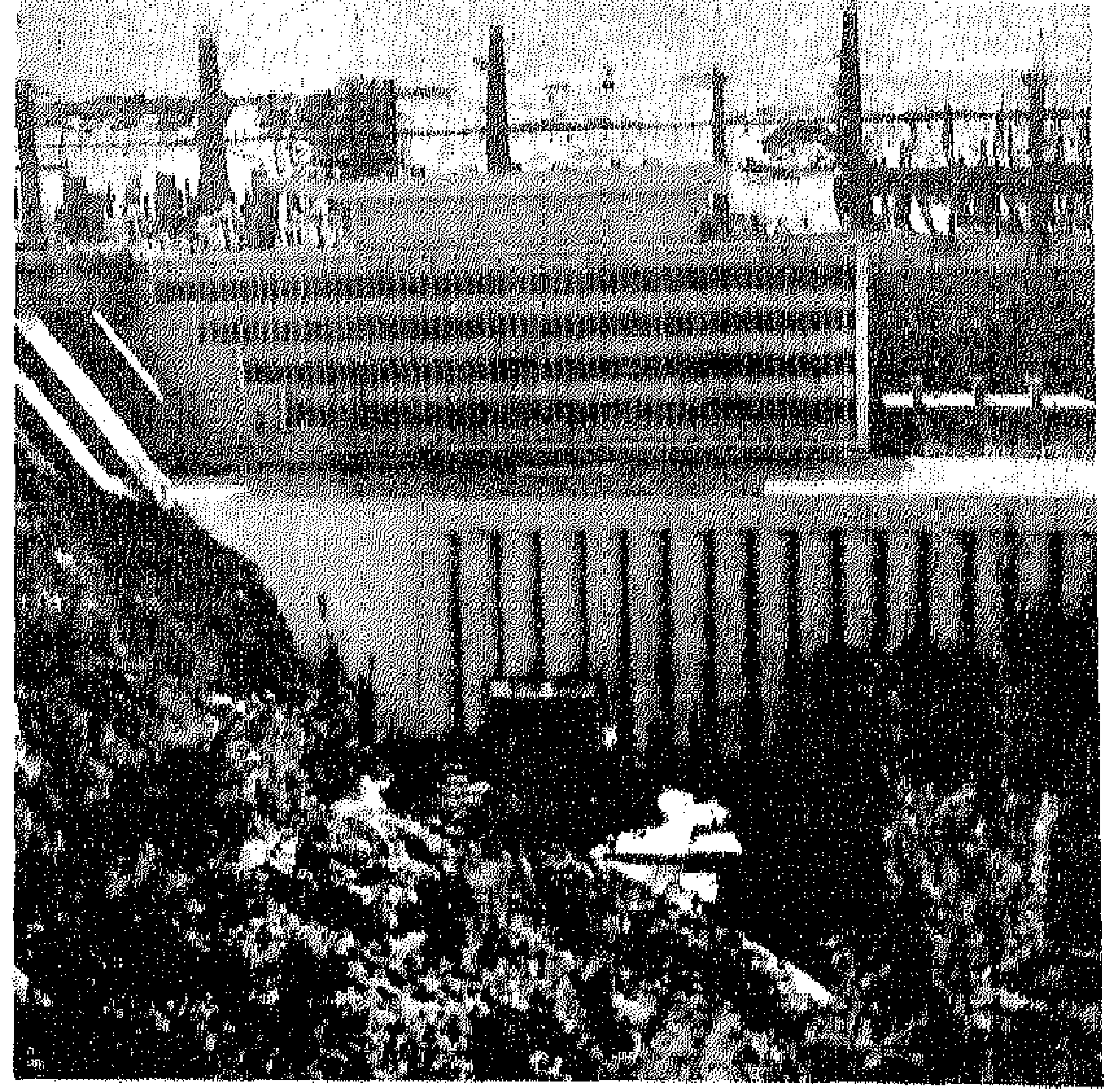
لقد أدى التأخير في تنفيذ المشروع إلى زيادة كلفته عما كان مقدراً سابقاً. وقد بلغت كلفة المشروع الفعلية حوالي ٥٦٠ مليون جنيه مصري، اي ما يساوي ٧٠٠ مليون دولار توزعت على فترة عشرة أعوام ومن اصل مبلغ الـ ٥٦٠ مليون جنيه، بلغت كلفة السد بكافة مرافقه ٣٢٠ مليون جنيه في حين ان الـ ٢٤٠ مليون الباقية هي لمشاريع تتعلق بالسد حتى تمكّنه من تحقيق المزايا الكاملة للاقتصاد المصري وفي طليعتها استصلاح الأراضي وتركيب مضخات مائية جديدة وغيرها.

وقد حصلت الحكومة المصرية على قرض من الاتحاد السوفياتي بشروط سهلة نسبيا. حين قدم الأخير قرضاً بقيمة ٩٠٠ مليون روبل، أي ما يوازي ٧٨ مليون جنيه مصري، لتغطية جزء من كلفة المشروع بفائدة قدرها ٢,٥٪ سنوياً.

وبذلك تكون مصر قد غطت من مواردها حوالي ٧٥٪ من كلفة بناء السد العالي بينما غطى الاتحاد السوفياتي الـ ٢٥٪ الباقية.

اما كلفة المشروع الاجمالية وهي ٥٦٠ مليون جنيه مصري فانها قد توزعت على النحو التالي:

(أ) دراسات أولية حول المشروع	٨	مليون جنيه
(ب) بناء البنية التحتية المحيطة بالمشروع	١٣	مليون جنيه
(جـ) بناء جسم السد نفسه وأقنية التحويل	١١٨	مليون جنيه
(د) المحطة الكهربائية وخطوط التحويل للقاهرة	١٢٠	مليون جنيه
(هـ) تعويضات للحكومة السودانية ولأهل النوبة بسبب اغراق منطقة حلفا.	٣٠	مليون جنيه
(و) فوائد على القروض السوفياتية	٢٥	مليون جنيه
(ز) حصة مصر من كلفة انقاذ معبد ابوسنبل	٦	مليون جنيه
كلفة السد	٣٢٠	مليون جنيه
يضاف الى ذلك عناصر الكلفة التالية:		
- تحويل ري الحياض الى ري مستديم لمساحة ٨٥٠,٠٠٠ فدان	٧٥	مليون جنيه
- استصلاح ٦٥٠,٠٠٠ فدان من الأراضي الزراعية	١٥٠	مليون جنيه
- تركيب محطات حديثة لضخ المياه	١٥٠	مليون جنيه
	٢٤٠	مليون جنيه
كلفة المشروع وتوابعه	٥٦٠	**مليون جنيه**


محطة الكهرباء

اما مزايا المشروع الرئيسية فيمكن تلخيصها بالتالي:

ان حجم المياه المختزنة خلف السد العالي والمقدرة بـ ١٥٧ مليار متر مكعب ليست كلها مكسباً بل هنالك فواقد مائية من هذا المخزون لا يستهان بها.

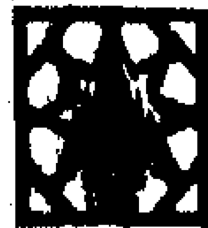
فجزء من هذه المياه يتبخر بسبب حرارة الجو في محافظة اسوان والتي تصل الى حوالي ٥٠ درجة سنتغراد في فصل الصيف. وقد أمكن لخبراء السد بواسطة اجهزة رصد متقدمة تحديد فواقد التبخر حيث قدرت بـ ١٠,٧ مليار متر مكعب اي ما يوازي ٧٪ من مجموع المياه المتواجدة خلف السد.

وبالاضافة الى التبخر هنالك خسائر التسرب «Seepage» ونعني بذلك تسرب المياه من قعر بحيرة السد الى الأراضي الرملية المجاورة. وقد قدّر خبراء السد هذه الخسارة بـ ٢ مليار متر مكعب فقط في حين أن بعض الخبراء خارج أجهزة الدولة قدروا هذه الخسارة بـ ٩ مليار متر مكعب. غير انه بعد اكتمال بناء السد العالي أمكن التأكد من حجم هذه الظاهرة. ففي عام ١٩٧٤ مثلا بلغت جملة فواقد المياه ١٤,٣ مليار متر مكعب منها ٤,٨ مليار متر تسربت الى الأراضي المجاورة و٩,٥ مليار تبخرت في الجو.

اما فيما يتعلق بخسارة الطمي الذي كان يحمله نهر النيل في موسم الفيضان والذي كان يستقر على الرقعة الزراعية والذي يعتبر غذاءاً اساسيا للتربة في مصر، فان الدراسات قدرت هذه الخسارة بـ ٤ مليون طن سنويا من أصل ١٦ مليون طن تترسب على الأراضي المصرية، واتضح ان انخفاض نسبة الطمي يحدث خلال أشهر الفيضان اي بين شهري تموز وتشرين الأول من كل عام في حين ان الأشهر الأخرى لا تتأثر كثيرا. على أية حال لا بد من اضافة عنصر كلفة للمشروع يتمثل باستعمال الأسمدة الكيماوية لتعويض خسارة الطمي.

هنالك آثار جانبية اخرى للمشروع مثل زيادة ملوحة الأرض وانتشار البلهارسيا وغيرها التي لا تزال موضع دراسة دقيقة لايجاد الحلول لها.

وخلاصة القول فان مشروع السد العالي هو مشروع حيوي للاقتصاد المصري وحقق مزايا لا جدال فيها. غير ان الضجة التي أحاطت بظروف بنائه اعطت انطباعا خاطئا لدى البعض بأنه قادر على حل جميع مشاكل مصر الرئيسية والتي تتمثل بكثافة سكانية كبيرة ورقعة زراعية محدودة. وبالطبع فان أكثر المتفائلين بمشروع السد العالي لا يؤيد هذا الرأي. وعليه يجب تقويم هذا المشروع الكبير ضمن اطاره الصحيح. ■



● لماذا نخاف الموت اذا كنا على حق. خير للمرء ان يموت في سبيل فكرته من ان يعمر طويلاً، خائناً، جباناً عن نصرته.

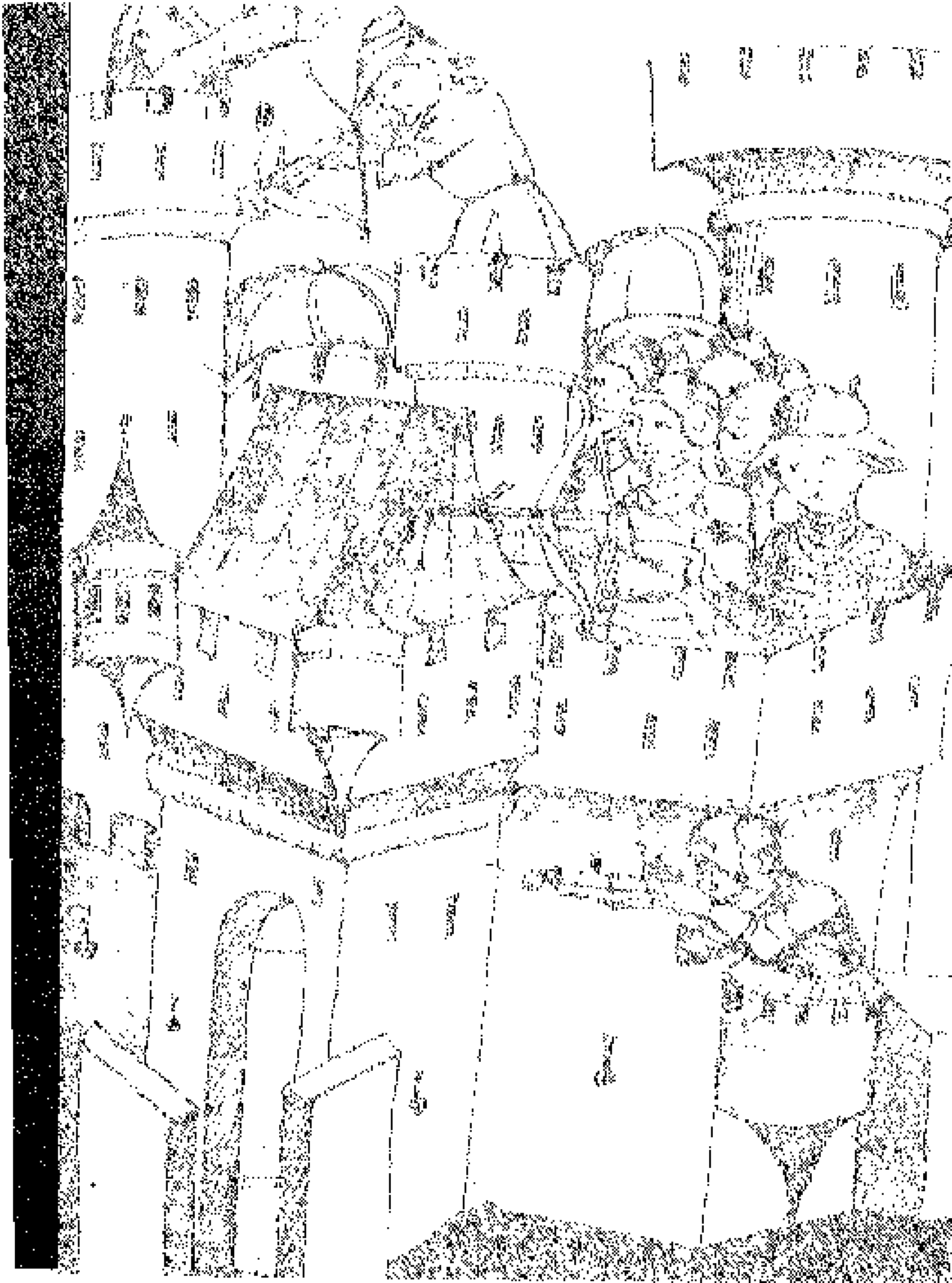
ج. مازيني



الى البندقية

اعداد: تشارلز شيفيكس ترانش
ترجمة: ميشال حداد

قصة تطور أسلحة القتال النارية الفردية في الجيوش الأوروبية



بعد الانتصار الكبير الذي سجّله القوس الانكليزي في معارك كثيرة سجّلها التاريخ وكان آخرها في «فلودن» قامت تجارب في بلاد متعددة لايجاد سلاح افضل واقوى، وقد مرّت «البندقية» بمراحل حتى توصلت بعد ثلاثة قرون للتغلب على القوس الطويل، وصارت سلاح الجيوش المفضل وهذه حكايتها الطويلة.



كان القوس الطويل السلاح الشخصي الأشد فتكاً الذي عرفه الانسان حتى منتصف القرن التاسع عشر، وكان آخر انتصار كبير له في «فلودن» في سنة ١٥١٣. وقد حاول الانسان عبثاً، منذ ذلك الحين ولأكثر من ثلاثمائة عام، انتاج سلاح ناري دقيق وبعيد المدى وسريع الرماية كالسلاح الذي تغلّب على الفرنسيين والاسكتلنديين معركة بعد أخرى.

وليس من السهل الآن الحديث على نحو صحيح عن مدى دقة القوس الطويل في القرون الوسطى. ولكن رماة السهام من الانكليز استعملوا اسلحة مماثلة في القرن التاسع عشر: قوساً صنع من عصا شجرة الطقسوس الجبلية (وهي شجرة دائمة الخضرة من الفصيلة الصنوبرية) وسهماً خشبياً. وتمكن الرامي هـ.أ. فورد، الذي كان يتمتع بقوة بدنية خارقة وذكاء حاد، من تسديد تسعة وستين سهماً من اصل اثنين وسبعين ضمن دائرة يبلغ قطرها ثمانية وعشرين «انشاً» وذلك من مسافة مائة ياردة، وكان يرمي السهام جميعها داخل الدائرة من مسافات اقصر. كما كان يسدد من مسافة مائة ياردة ثلاثة اسهم متعاقبة الى النقطة المذهبة البالغ قطرها تسعة انشات وثلاثة اخماس الانش. وأغلب الظن أن الرامي في القرون الوسطى كان يرمي السهام بطريقة محكمة، ولكن ليس هناك من سبب للافتراض بأن رميه كان اكثر دقة.

ومنذ ذلك الوقت اخذ الرامي يستعمل قوساً أقوى، ويلويه الى الأذن (وليس الى الذقن كما كان يفعل فورد)، وبذلك اصبح مداه أطول وفعاليته أشد، اذ كان أقصى مدى لتأثيره على جماعات من المحاربين أو على فرقة محتشدة من سلاح الفرسان هو ٢٧٠ الى ٣٠٠ ياردة، وعلى رجل واحد من ١٨٠ الى ٢٠٠ ياردة.

وكان القوس الطويل يعتبر سلاحاً للابادة الجماعية اكثر مما كان سلاح قنص دقيق، اذ انه كان بامكان جماعة من رماة السهام ان تمطر منطقة ما بسهامها فتقتل جميع الخيول

الصور من: History today 73 و Firearms by Frederick Wilkinson

والرجال فيها، الا اذا كان البعض منهم مسلحاً بدروع من صفائح متينة.

قبل ذلك التاريخ كانت قربينة القرن الخامس عشر التي تطلق النار من على سناد، تخطيء في معظم الأحيان رجلاً على بعد ثمانين ياردة. وكانت أقصى مسافة لمباريات الرماية بين الخبراء السويسريين والألمان مائة ياردة. وكان حشو هذا السلاح واطلاق النار منه يحتاجان الى دقيقة من الوقت تقريباً وهناك سجلات لا تعد ولا تحصى عن مباريات جرت حتى نهاية القرن الثامن عشر بين رماة البندقية القديمة (المسكيت) ورماة القوس الطويل كان النصر فيها دائما حليف القوس الطويل.

وبعد سنوات قليلة من معركة واترلو، أوصى ضابط ذو خبرة وتجربة بأن يتسلح المشاة البريطانيون بالقوس الطويل.

المسكيت والقوس الطويل

السؤال الذي يطرح الآن: لماذا اخذت المسكيت مكان القوس الطويل؟ والجواب على ذلك: ان رمي القوس على نحو صحيح يحتاج الى سنوات من التمرين وتنمية عضلات خاصة، بينما يحتاج «المسكيتي» (الجندي المسلح بمسكيت) الى عدة ايام فقط لاستعمالها.

ففي عام ١٥٩٠ كتب السير روجر وليامس يقول: «لا يمكنك ان تجد من بين خمسة الاف من رماة السهام الف رامٍ جيدٍ، واعني ان يرمي رميات قوية».

وقد حاول تودور برليامنتس تشجيع الرجال على التدرب على الرمي بواسطة القوس وذلك بهدف ان يتمكنوا من الرمي بقوة مثلما كان يفعل اجدادهم. ولكنه فشل وفشلوا هم. والسنوات العديدة من السلام اضعفت الحافز نحو الممارسة. فلم يكن بين الستة آلاف جندي الذين احتشدوا في «تلبوري» لصدّ الآرمادا، واحد منهم متمرسٌ برمي السهام. وقد كان آخر ظهور لحرب القوس في غرب اوروبا، في جبال مونتروز في عام ١٦٤٤ - ١٦٤٥.

وفي القرن السادس عشر كانت بندقية الفتيل هي السائدة. والفتيل، كان عبارة عن لفة من الحبال يشد الى جهاز يشبه زند البندقية وينخفض الى فتحتها بواسطة رافعة تقوم مقام المقداح الحديث. وكان البارود يوضع في قرن مجوّف ذي فوهة تحتوي على الحشوة المناسبة.

وكانت اعادة الحشو عملية تتوالى بانتظام، وبالشكل التالي: أولاً، يجب ازاحة الفتيل المشتعل من الجهاز الذي يشبه زند البندقية (السربنتين) وان يتم ذلك باليد اليسرى بعيداً عن القرن المجوف المخزون بالبارود. وكان يجب وضع عقب البندقية ارضاً، كما يمسك باسطوانة البندقية باليد اليسرى. وباليد اليمنى يجري تفريغ قارورة البارود، بينما تسد فتحة البندقية بالسبابة. بعد ذلك كانت تتم تعبئة الفوهة بالبارود لينزل بعناية في الاسطوانة. ثم يدكّ بورق مقوّى لتثبيت البارود في موضعه، ثم تكبس رصاصة أو كرة.

بعد هذه العملية يتحول رامي القربينة الى وضع المستعدّ لاطلاق النار.

لوحة مائية من رسم كلوكنتون (١٥٠٥). **تمثل بندقية الامبراطور مكسميليان.**



الاسطوانة المحلزنة

وفي بداية القرن السادس عشر جرى تسجيل بعض الاختراعات الفنية. ومن الأمثلة على ذلك فان كرة من الرصاص نادراً ما تكون متناسقة في اجزائها المركبة: ان جزءاً منها سيكون اثقل من الآخر، الأمر الذي يجعلها تنحرف وتتذبذب في الهواء بعد اطلاقها، ويجعلها بالتالي تخطىء هدفها وتقصر عن مداها. ولكن بعد تجارب عديدة تأكد للخبراء أنه يمكن التخلص من هذا الانحراف والتذبذب باطلاق النار من «سبطانة» او اسطوانة محلزنة تجعل القذيفة تدور بسرعة في مسارها. وبدا أن تأثير الحلزنة واضح وجلي: فقد حسّن كثيراً من فعالية «بندقية اليد».

ولكن البندقية لم تجد شعبية لها في ذلك الوقت. فخوفاً من ان يتسرب الغاز كان على قطر الكرة ان ينطبق على مقاييس الأخاديد وليس على مقاييس السدود في الحلزنة. ولذلك، كانت الكرة تطرق بمطرقة الى داخل الاسطوانة. وهكذا ظلت البندقية اختراعاً تكنيكيا حصر استعماله بفئة الرياضيين الالمان والسويسريين الاغنياء الذين كان لديهم خدمهم الخاص للعمل في حشو بنادقهم.

في هذا الوقت كان التحسين الذي طرأ على البارود اكثر وضوحاً وتأثيراً. ذلك ان مزج أجزاء الكبريت والفحم والملح الصخري وهي جافة، يجعلها سهلة التفكك عند تحريكها في الماسورة او في القرن المجوف. اما اذا مزجت بعد ترطيبها بالماء، فان هذا المزيج يصبح اكثر تماسكا.

الفتيل وبندقيته

والعيب الكبير في بندقية الفتيل كان الفتيل ذاته، الذي كانت تتأخر بسببه عملية اعادة الحشو بالاضافة الى خطره. ولذا فان اي اختراع من اجل التخلص من الفتيل اعتبر خطوة الى الأمام.

ففي عام ١٥١٥ ظهر في تورمبورغ زند البندقية الدولابي. وبسبب غلائه الفاحش كان استعماله، كسلاح رياضي، مقتصراً على الأغنياء، وكسلاح حربي، على الفرسان فقط. في المقابل ظلت بندقية الفتيل سلاح المشاة البريطانيين الى عهد غليون دورانج.

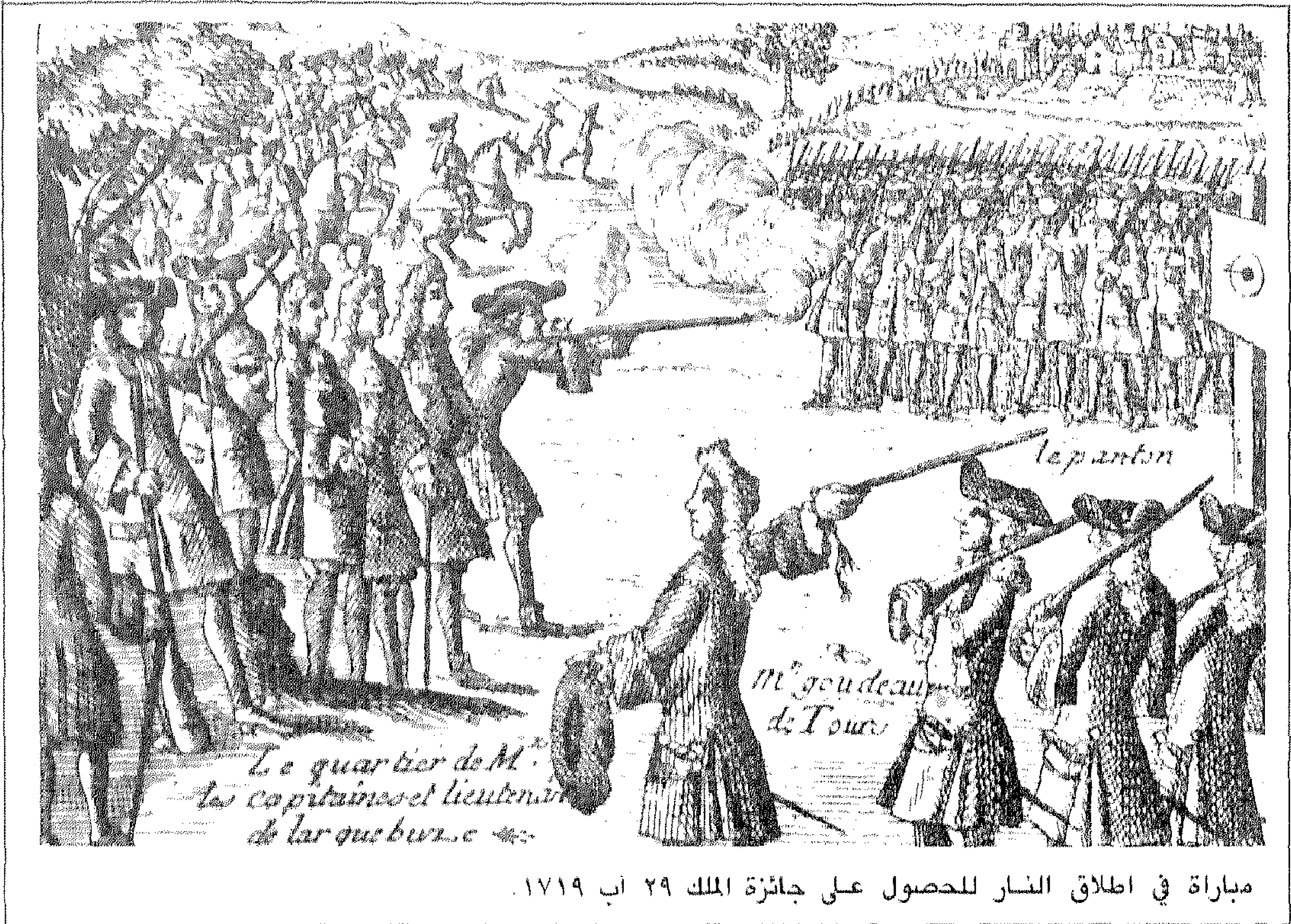
وعلى الرغم من التحسين الكبير الذي طرأ على بندقية الفتيل بفضل زند البندقيةالدولابي، فقد كانت لهذا الزند سيئاته. فبالاضافة الى غلائه كانت آليّته المعقدة تحتاج الى خدمات صانعي الاسلحة المهرة. وكان بطيئاً مما يجعل اصابة هدف متحرك عملية صعبة للغاية.

وفي نهاية القرن السادس عشر ظهر اختراع «سنابهونس» (snaphaunce) الذي تطور في ما بعد الى الزّند المصوّن، اي الى زند ذي صوانة. واصبح استعماله الحربي رائجاً في الربع الأخير من القرن السابع عشر. واستمر حوالي ١٥٠ عاماً.

وفي غضون ذلك ظهر اختراع بسيط جعل استخدام البندقية عمليا لأول مرة. إذ أمكن صنع رصاصة بمقاييس السدود في الحلزنة. وبتغليف هذه الرصاصة بقطعة من جلد مشحّم او غلاف مزيّت أصبحت تتلاءم والأخاديد بما يحول دون الغاز والتسرب. فتأخذ الرصاصة في الدوران السريع. إن بندقية كهذه ذات قطر داخلي يساوي حوالي ٠,٧٥ إنشا جرى استعمالها بشكل عام في اوروبا الوسطى.

وبالرغم من حسنات هذه البنادق على صعيد المدى والدقة كسلاح حربي، فان ماسورة بندقية «المسكيت» الداخلية تبقى افضل. وكان المثال النموذجي لها «المسكيت البرجي» (تاور مسكيت) الذي استعمله المشاة البريطانيون من ايام وليم الثالث الى الأربعينات من القرن التاسع عشر، والذي يستعمله كذلك صيادون في اماكن عديدة من العالم حتى يومنا الحاضر.

وقد كان هذا النموذج معروفاً لدى مستخدميه باسم «براون بس» ولدى اعدائه باسم «لا بس برون» أو «دي بروني ليزل». ويبلغ وزن هذه البندقية ١٠ باوند وقطر ماسورتها الداخلي ٠,٧٥ انش، وقطر رصاصتها ٠,٧١ انش ووزن الكرة حوالي أونصة واحدة. ولأن قطر الرصاصة اصغر من قطر الماسورة الداخلي، فان هذا كان يعني ان «المسكيت البرجي» لم يكن دقيقاً جداً.



مباراة في اطلاق النار للحصول على جائزة الملك ٢٩ آب ١٧١٩.

في القرن الثامن عشر انشأ الحكم في المانيا فيلقاً متخصصاً بالرماية سمي بـ «الياغرز» (اي القناصة) وكان افراد الفيلق، نظرياً، الصيادون ومراقبو الاحراج، الذين اخذوا يتدربون على تكتيك المشاة الخفيف.

البندقية في أميركا

وبعد ذلك كان صانعو الاسلحة من الالمان والسويسريين اول من ادخل البنادق الى اميركا حيث طرأ عليها تغيير مهم. ولم تكن البندقية الألمانية كما يرغب لها أن تكون، فهي تزن عشرين باوندا وتحتاج الى كميات كبيرة من البارود والرصاص الثقيل.

تطورت البندقية في بنسلفانيا وسميت ببندقية كنتوكي، وهي مزودة بزند مصوّن بسيط ذي قدرة على الاحتمال ومن السهل أصلاحه وقطر ماسورتها الداخلي اقل من خمسة اعشار الانش، كما أن نسبة حشوة البارود فيها قليلة. وبذلك اصبح وزنها مع رصاصها وبارودها نصف وزن نظيرتها الاوروبية مع ان طول ماسورتها كان بين ٤٢ و٣٨ إنشا، الأمر الذي جعل مسارها دقيقا ومضبوطا. واصبح الرماة واثقينْ من اصابة أهدافهم من مسافة ثلاثمائة ياردة.

ولم تكن بندقية كنتوكي افضل في جميع الظروف من البندقية الالمانية وبندقية «المسكيت» القديمة الخاصة بجند المشاة. ولكنها كانت افضل في الظروف التي سادت في حرب الاستقلال الاميركي. لقد فات السلطات العسكرية البريطانية فهم هذه الحقائق.

وكانت لدى البريطانيين في ذلك الحين بندقية «فيرغوسون» التي تعتبر جامعة لخصائص البندقية الالمانية وكنتوكي، ومجهزة بحربة.

وبندقية باتريك فيرغوسون دقيقة جدا، ورميها سريع بالنسبة للمستوى آنذاك: وفي استعراض جرى في وولويش، ذات يوم ممطر وعاصف، تمكن النقيب فيرغوسون من اصابة نقطة الهدف الرئيسية من بعد مائة ياردة، وكان بامكانه اطلاق تسع طلقات في الدقيقة الواحدة.

وهكذا، ظهر في النهاية السلاح الذي يضاهي، في المدى والدقة ومعدل سرعة اطلاق النار، القوس الطويل.

لكن مائة بندقية فقط من نوع فيرغوسون صنعت للجيش البريطاني وكان السبب في ذلك ان هذه البندقية لم تأخذ في الاعتبار قياس الخرطوشة المعترف بها.

والحرب الاميركية برهنت بكل تأكيد على القيمة العسكرية للبندقية. ومن المألوف في التاريخ العسكري ان تتعلم الامم من هزائمها اكثر من انتصاراتها.

بندقية باكر

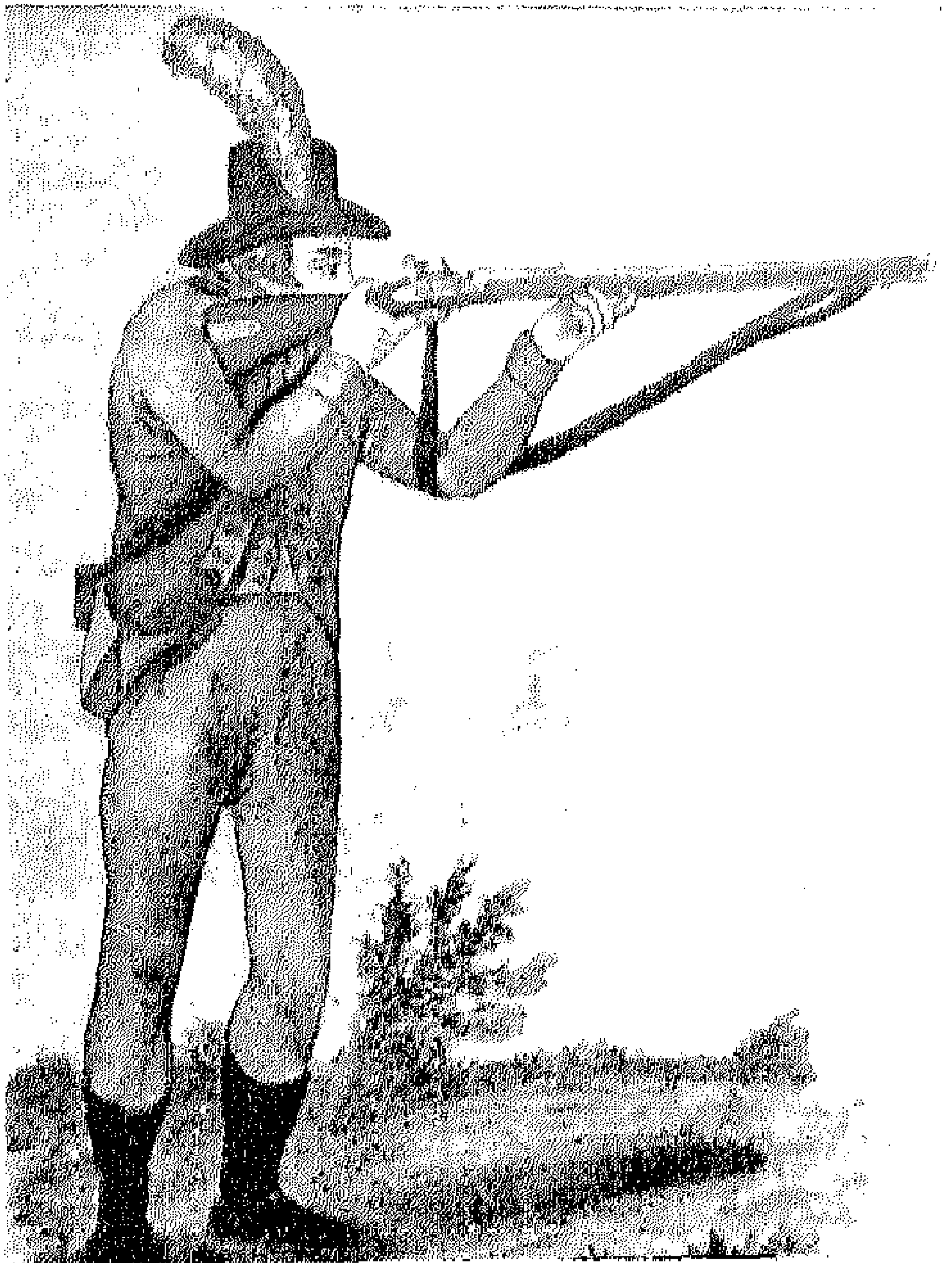
وفي عام ١٨٠٠ تأسس فيلق من الرماة المتمرسين والمسلحين ببنادق طورها صانع الاسلحة إزيكيل باكر من «هوايت تشابل». يبلغ قطر الماسورة الداخلي لهذه البندقية ٠,٦١٥ انش ولها سبعة أخاديد. وكانت النقطة موضع الجدال هي عدد الدورات في داخل الماسورة. وعرفت بندقية باكر بعدم دقتها، إذ كانت الرصاصة تحيد عن هدفها بعد ان تقطع مئتي ياردة. وعلى هذا الأساس، كانت بندقية كنتوكي ما تزال اكثر دقة من بندقية باكر.

في هذا الوقت كانت المعوّقات في الزند المصون تخلق حافزاً لدى الكاهن والصياد والكيمائي الكسندر فورسيزي من مدينة «ابردين» للتطلع الى فلمينات الزئبق. فهذا المركب المتفجر المشتق من الحامض الفلميني كان يمكن تفجيره بنفخة قوية، وينتج عن ذلك شرارة حادة. وبعد عدة تجارب استطاع الكاهن ان يحول زند بندقيته المصون الى اول زند يعمل بالقدح، فكان النجاح حليفه.

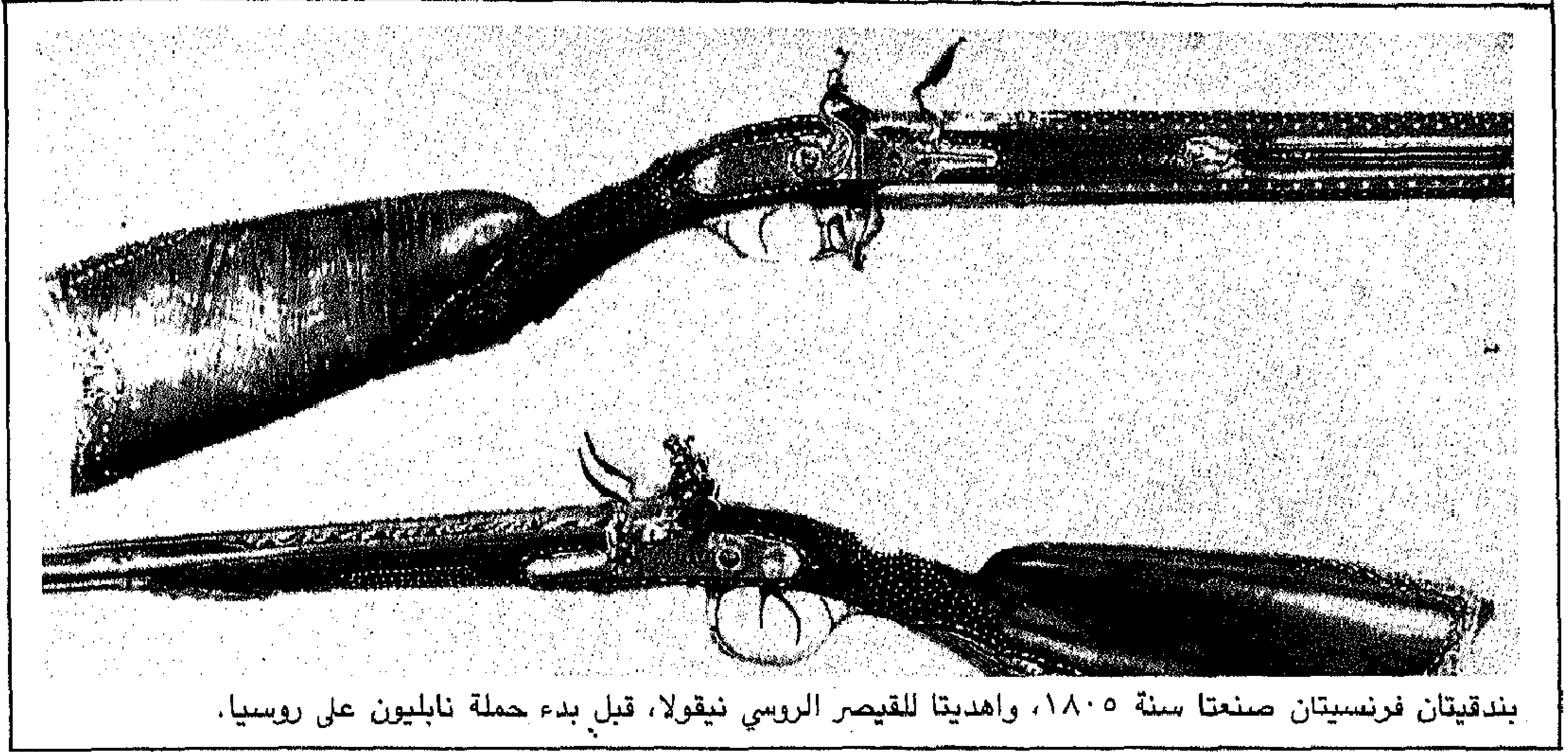
وفي عام ١٨٠٦ وضع اختراعه الذي لا يقدر بثمن في ايدي «مكتب الحرب» (وزارة الحربية البريطانية) ضد نابليون. ولكن البيروقراطية اللامبالية وكذلك التحيز السياسي أحبطا همته.

ولم ينج اختراعه من الانتقادات اللاذعة. فقد انتقد مراسل «ذي جنتلمانز ماغازين» الزند الذي يعمل بين العواصف والامطار، قائلاً: «اذا استخدمت الجيوش هذا الجهاز الجديد فان الحرب ستكون في القريب العاجل رهيبة بحيث تتجاوز كل حدود الخيال، ولن تنذر حروب المستقبل في غضون سنوات قليلة بتدمير الجيوش فقط وانما أيضاً المدنية ذاتها. ولهذا،





راميان في مطلع القرن التاسع عشر، من كتاب ازيكيل بيكر «حول استخدام البندقية»، عام ١٨٠٠.



بندقيتان فرنسيتان صنعتا سنة ١٨٠٥، واهديتا للقيصر الروسي نيقولا، قبل بدء حملة نابليون على روسيا.

يؤمل من ذوي الضمائر الحية، ان يبذلوا جهودهم من أجل الحد من خطر هذا الاختراع الجديد».

ومن جهة اخرى، رأت السلطات العسكرية ان افضل وسيلة لمحاربة اختراع الكاهن هي في اتخاذ موقف الاهمال واللامبالاة تجاهه، فلربما أدى ذلك الى نسيانه. ولكن هذا القرار لم يصمد أمام الرغبة العارمة بين الرياضيين.

... وعند انتهاء الحروب النابوليونية تبنى الجيش البريطاني كبسولة القدح.

وبعد هذا الاختراع الكبير طرأ تحسن هائل على رصاصة البندقية. فتغليف الرصاصة برقعة مشحّمة لم يكن الحل الصحيح، ولكنه كان حلاً لا بأس به بالنسبة للكرة المستديرة التي لا تحتاج الى دوران سريع. اما بالنسبة للرصاصة المسنّنة، فان عليها ان تدور بسرعة وبدقة على محورها، والا تذبذبت وانقلبت في الهواء. والرصاصة لا يمكنها ان تدور بانتظام الا اذا كانت تنطبق عليها مقاييس اخاديد ماسورة البندقية. وبعد تجارب عديدة توصل النقيب «مينيي» في الجيش الفرنسي الى معالجة هذا اللغز في عام ١٨٤٨، اذ صنع رصاصة مسنّنة ذات قاعدة مجوّفة باستطاعة الرامي ان يدفعها بسهولة الى داخل الماسورة لتنطبق على السدود في الحلزنة. وعندما تنفجر الحشوة في فجوة القاعدة تتمدد القاعدة بحيث تنطبق على الاخاديد.

وقد جرى اعتماد رصاصة «مينيي» لجميع البنادق وما زالت تستخدم حتى وقتنا الحاضر دون ان يطرأ عليها أي تعديل.

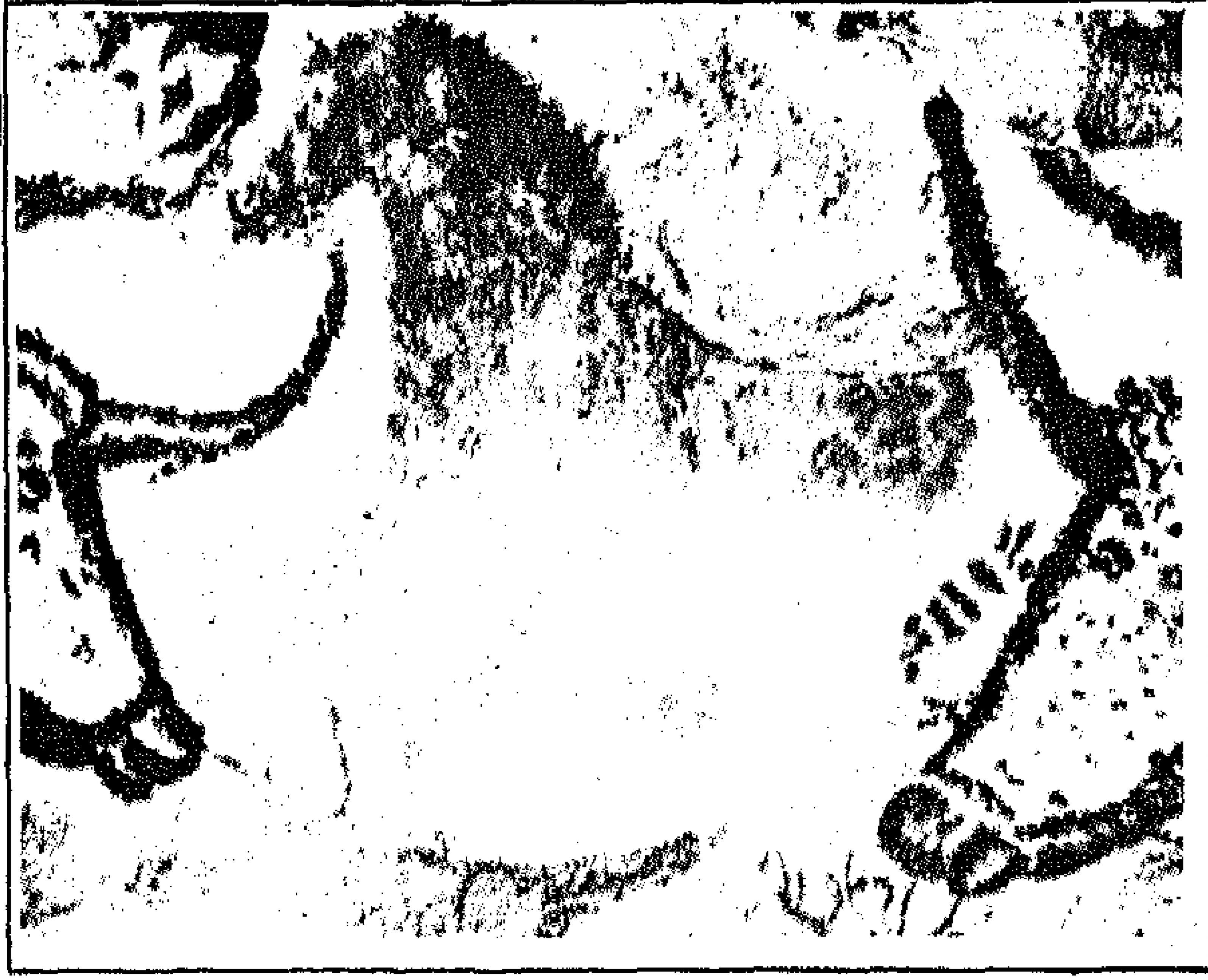
وفي الثلاثينات من القرن التاسع عشر تبنت جميع الجيوش الاوروبية بنادق تملأ من الفوهة كسلاح رئيسي لجند المشاة. وقد قرّ رأي السلطات العسكرية البريطانية على استخدام بندقية النقيب «مينيي» ورصاصته. وهذه البندقية، التي تعرف بـ «إينفيلد»، دخلت حرب القرم، وكانت تطال كتائب المشاة حتى مسافة مئتي ياردة.

وأخيراً، وبعد حوالي ٣٥٠ عاماً، تسلح الجيش البريطاني بسلاح أفضل من القوس الطويل. ■



● ان الرجل الحر هو الذي ينبغي ان يكسب الحرية للعبيد، وان الرجل العاقل هو الذي ينبغي ان يفكر للمجانين، وان الرجل السعيد هو الذي ينبغي ان يعمل من اجل التعساء.





كهوف لاسكو

لوحات اكتشفها كلب

ترجمة: شذا عدرة

كان روبوت، وهو كلب صغير، بطل احد اهم الاكتشافات التي تدل على حياة الانسان الاول. فبينما كان يسير برفقة اربعة صبية في هضبة حرجية، متلمساً طريقه بين الاشجار؛ اختفى فجأة داخل احدى الحفر. فألقى الصبية – وهم من مونتينياك (Montignac) قرية صغيرة على نهر فيزير (Vezere) في فرنسا – حجراً في الحفرة ونادوا على الكلب ولكن دون جدوى.

وسّع احد الصبية الحفرة وزحف داخلها، فوجد نفسه قد اصبح داخل كهف وفوق كومة من الحصى؛ اما الآخرون فقد تبعوه على ضوء مشعل كهربائي مستنفذ الطاقة مسلطين نوره الضئيل على جدران الكهف. وفجأة صرخ احدهم قائلاً: «انظروا!» مشيراً بيده إلى الجدران، حيث تبين لهم من خلال النور الضئيل رسوم عديدة لأحصنة وابقار وثيران ودببة، رُسمت بألوان الاسود والاحمر والاصفر، وقد غطت جميعها جدران الكهف وكانت ذات جمال اخاذ.

أصبح هذا الكهف الذي تمَّ اكتشافه بفضل روبوت ورفاقه، في يوم من شهر ايلول (سبتمبر) عام ١٩٤٠، اكثرَ كهوف العالم شهرة، وهو لم يكن سوى «كهف لاسكو» الذي قام برسم لوحاته الجميلة رجال من العصر الحجري اي من حوالي خمسة عشر الف سنة.

اعتاد سكان ذلك الكهف على استعمال احجار الصوان في نقش صور الحيوانات التي كانوا يصطادونها. وهم قد حفروا في الارض فوجدوا الحديد الذي استخرجوا منه الوان الاحمر والاصفر والبرتقالي، ووجدوا المنغنيز فاستخلصوا منه اللونين البني الداكن والاسود. ومن ثمَّ كانت تلك الالوان المستخرجة تسحق لتصبح مسحوقاً ناعماً تخلط بعدها بشحم الحيوانات او الماء. كما ان خصلات من الشعر او قطع من الطحلب، او الجلد كانت تقوم مقام فرشاة الرسم.

* شذا عدرة: ماجستير في التاريخ الحديث



سكن الرجال الذين قاموا بهذا العمل في كهف لاسكو وفي غيره من الكهوف التي تقع في مقاطعة دوردون في فرنسا، على الرغم من ان العصر الجليدي في تلك الفترة كان قد انحسر عن القارة الاوروبية إلّا انه كان قد تركها تعاني مناخاً قاسياً شديد البرودة. ولكي يعتاشوا قاموا باصطياد الحيوانات البرية كالماموث (الأفيال الضخمة جداً) ووحيد القرن الصوفي ودب الكهف، وجميع تلك الحيوانات قد انقرضت ولم يعد لها وجود في وقتنا الحاضر.

صنع اولئك السكان ادواتهم واسلحتهم من احجار الصوان واشعلوا النار على مدخل الكهف حيث كانوا يطهون طعامهم؛ وصنعوا من اغصان الاشجار والاعشاب الجافة سرائر لهم؛ والتحفوا عند النوم بجلود الحيوانات التي صنعوا منها ايضاً ألبسة يرتدونها خلال النهار. ومن المعتقد ان تلك اللوحات التي رسمها فنانو وصيادو العصر الحجري على جدران كهوفهم، كان لها مدلول آخر غير المدلول التزييني. فمن الممكن انهم كانوا يعتقدون بأنهم إذا صوروا شكل ايِّ حيوان مُصطاد، قد يتحقق لهم هذا الامر في الواقع. ومما يدعم زعم هذه الفكرة بأن الرماح والسهام وجروح الحيوانات كانت تبدو واضحة في الرسوم؛ إلى جانب صعوبة (ندرة) ظهور رسم لاي انسان في لوحات الكهف العصر الحجري الاوروبي. ونفس هذه الفكرة من الممكن ان تطبق على صور الحيوانات الحبالى، من اجل ان يستحثوا الخير والخصب.

وان المرء ليتساءل هل حقق رجال ذلك العصر الحجري، نجاحاً في مضمار الصيد؟ كالنجاح الذي حققوه في ميدان الرسم؟ فلوحاتهم اتصفت جميعها بالحيوية والحركة، وتميز قسم كبير منها بالنظرة التجريدية والابداع والبراعة الفنية التي فاقت الكثير من اعمال الانسان المتحضر الفنية.

وقد افتتحت بعد الحرب العالمية الثانية ابواب كهف لاسكو امام عامة الناس، فأصيب من جرّاء ذلك بنتائج مشؤومة. فهو لم يعد محمياً من رطوبة الهواء التي زادت من انفاس الزائرين الذين كانوا يرتادونه بشكل دائم. فألوان رسومه الحية والفنية اخذت تبهت وتفقد رونقها بعد ان ابتدأ العفن يغطيها.

لذا من اجل الحدّ من هذا التلف التدريجي للوحات كهف لاسكو كان لا بدَّ من اغلاقه امام العامة وضبط الهواء فيه علمياً. ولكن ما زلنا نستطيع من خلال الصور الفوتوغرافية والنماذج المجسمة، ان نكوِّن فكرة حية وشاملة عن فناني العصر الحجري قبل أن يصبح المناخ اكثر دفئاً وقبل ان ينطلق رجال الكهوف من أوكارهم إلى حياة العراء، تاركين وراءهم صالتهم الفنية تحت سطح الارض لتُكتشف بعد خمسة عشر الف سنة على ايدي اربعة صبية وكلبهم الصغير روبوت.

■

المصدر:

The World's Greatest Wonders.
A Hamlyn Children's Book
J'ohn Sanders
Encyclopedia of the World in Colour
Printed in Great Britan.

رجال وافكار

جمال الدين

حكيم الشرق



تتجدد في هذه الأيام قراءة سير الشخصيات التي عرفتها المرحلة المسماة «بمرحلة النهضة» في التاريخ العربي المعاصر واعادة القراءة هذه تتجاذبها تيارات ايديولوجية وسياسية حالية هي بدورها حصيلة مكونات الفكر السياسي الذي نشأ مع عملية التعرُّف على أوروبا في اواخر القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين. لهذا يصبح تحديد الموقع الاجتماعي - الثقافي الذي تجري من خلاله صياغة الموقف السياسي من أوروبا هو مدخل أي قراءة جدّية لسير تلك الشخصيات التي تركت بصماتها في الفكر السياسي العربي الذي تتكرر اشكالاته حتى الآن. والسيد جمال الدين الأفغاني الذي يتكرر اسمه كمؤسس لاتجاه فكري سياسي اسلامي هو في الواقع رائد لاتجاه لم يُسْتكمل في الفكر الذي أنتج بعده.

ففي حين وقع الفكر العربي بشقيه الليبرالي - العلماني والاسلامي - الاصلاحي في فخ مهادنة الغرب والالتحاق به، باعتبار هذا الأمر مدنية، وعلماً، وديمقراطية... لم يغب عن جمال الدين الأفغاني أن الوجه الغالب للغرب في علاقته بالخارج هو وجه الاستعمار والتوسع والقهر، وأن أي مهادنة له يعني الاستسلام لهذا الجانب، أي الوقوع تحت الاحتلال. لذلك دعا إلى المقاومة، ووحدة الشعوب الاسلامية واستنهاض الاسلام للوقوف في وجه المخاطر التي تتهدد الشرق الاسلامي كافة.. ولم تقف دعوته للمقاومة عند حدود التنبيه للخطر الثقافي، بل تنبّه الى خطر الاستثمارات الأجنبية على ثروات البلاد الوطنية (فتوى الشيرازي ضد امتياز شركة التنباك في ايران بتحريض من جمال الدين).

هذا في وقت كان الاصلاحيون ينظرون باعجاب الى مدنية الغرب، ويفصلون بين ما هو اقتصادي وسياسي. ويعتبرون الاستثمارات الأجنبية ثروة للشرق.

كذلك ربط جمال الدين نضاله ضد المستعمر بنضاله ضد الاستبداد الداخلي، وقهر الشعب من الداخل (التحريض لاغتيال الشاه: خذها من جمال الدين)... والخلاصة ان استعادة سيرة جمال الدين من هذا الموقع، وبقلم الأمير شكيب أرسلان الذي احتفظ من جمال الدين بهذه الصفة النضالية، هي من قبيل اعادة قراءة لوثيقة مهمة وغنية من التاريخ العربي المعاصر.

د. وجيه كوثراني

المرجع - حاضر العالم الاسلامي، تاليف لوثروب ستودارد ترجمة عجاج نويهض يضم نصوصاً عن أحوال الأمم للأمير شكيب ارسلان - القاهرة ١٣٥٢هـ -

الأمير شكيب ارسلان

الأفغاني

فيلسوف الاسلام، وعلم الأعلام، وكوكب الاصلاح، الذي أطلعه الله في أفق المشرق بعد أن اشتد به الظلام، حجة الشرق الناهضة، وآية الحق الباهرة، الذي قال عنه ارنست رنان، الفيلسوف الفرنسي المشهور بعد أن عرفه: «كنت أتمثل أمامي عندما كنت أخاطبه ابن سينا، أو ابن رشد، أو واحداً من أساطين الحكمة الشرقيين». قد بلغ من شهرته، واللهجة بذكره، والضراوة بعبقريته ولا سيما بمصر والشام، وسائر البلاد العربية، أن ترجمة حاله تكاد تكون أحدوثة الجميع، فلا حاجة إلى الاطالة بجميع تفاصيلها، ولا الى الاحاطة بغررها وحجولها، قصارى ما في الأمر ان هناك حوادث لم تكتب الى اليوم، وأن الروايات تضاربت في أمرين أحدهما، هل هو أفغاني مولود في أفغانستان، أم فيلسوف مولود في همذان كما زعم بعضهم، والثاني، هل هو فيلسوف الهي أم مسلم، أم فيلسوف مادي معطل. وعلى الأمر الأول نقول: ان كل من عرفوا السيد جمال الدين علموا منه أنه من افغانستان، وانه من سادات كنر الحسينية المشهورين في تلك الديار، ووالده السيد صفتر وكان مولده في اسد آباد بقرب كنر سنة ١٢٥٤ هجرية وفق ١٨٣٨ ميلادية وكذلك عرّف به كبير تلاميذه، الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده، مفتي الديار المصرية، في صدر رسالة الدهريين تأليف السيد جمال الدين؛ وقد لقيت في المدينة المنورة قبل الحرب العامة بأشهر السيد حسيناً أحد ولاة افغانستان، ومن سادات كنر المشار إليهم، ومن أفاضلهم، وعلمت منه ان السيد جمال الدين رحمه الله هو منهم، كما اني سمعت ذلك من جميع رجال الدولة الأفغانية وسفرائها، الذين جمعتنا بهم التقادير في اوربا بعد تأسيس سفاراتهم بها، فلا أعلم كيف تتفق كل هذه الروايات من أهل تلك الديار، على كون المترجم له أفغاني الدار علوياً حسنياً، من أسرة نسبتهم كالشمس، ومقامهم في بلاد الأفغان أشهر من أن ينوه به، ويكون في الحقيقة من همذان ومولوداً بها؟ ونقول على الثاني: ان الأستاذ الشيخ محمد عبده تعرض إلى ادحاض هذه التهمة أكثر من مرة وعرب من الفارسية وبمساعدة عارف افندي ابي تراب الأفغاني رسالة «النيتشريين» أي الطبيعيين التي يرد فيها السيد جمال الدين على الملحدة والمعطلة، ويقيم العقيدة الالهية على أساطين المنطق، والحكمة العقلية، ويثبت صحة الوحي، وينتهي إلى ايضاح البراهين المحمدية، كل ذلك بملكة قل أن تتاح قوتها لفيلسوف غيره، ولكن بعض الناس - ولا سيما العلماء الحشوية - أبوْا أن يروا في الفلاسفة إلا ملحدين ومعطلين، ومن هذا جاء قولهم العامي: من تمنطق تزندق. وبمثل هذه المبادىء السخيفة والكلمات المحزنة، أضلوا العوام، ووضعوا عقائدهم في خصومة دائمة مع الحقائق العلمية، وجنوا على الاسلام جناية كبرى ظهر أثرها في الانحطاط السياسي والاجتماعي، الذي نراه عليه الآن. وإذا قام مصلح أو مجدد يتكلم باسم الحكمة والعلوم العالية، ويحث على النظر، وينهى عن التقليد، ويبين مضار الجمود، كان أول ما يتسرعون إليه رميه بالزندقة، واتهامه بوهن العقيدة. وقد يصادف ذلك هوى في أفئدة من يميلون إلى التعطيل فعلاً، فيلقفون ما يسمعونه من هذا القبيل بدون تثبت، ويسارعون إلى اذاعته بين الناس، لأن من أحب شيئاً أحب أن يرى كبار الرجال شركاء له فيه، ولهذا صدر الأستاذ الشيخ محمد عبده رسالة الدهريين، التي

---

* شكيب ارسلان: (١٨٦٩-١٩٤٦) اديب ومؤرخ لبناني، عضو في الجمعية الآسيوية والمجمع العلمي في دمشق.

أسلفنا ذكرها، بمقدمة في ترجمة حال السيد جمال الدين قال فيها تقريباً ما يأتي: «يحملنا على ذكر شيء من سيرة هذا الرجل ما نراه من اختلاف آراء الناس في أمره، وتضارب أقوالهم في حقيقة حاله، حتى كأنه قوة روحية قامت في كل ذهن بما يلائمه، أو حقيقة كلية نزلت في كل عقل بشكل يشاكله، والرجل على صفاء جوهره، وزكاء مخبره لم يتناوله وضع الوضاعين، ولا حزر الخرّاصين الخ». ثم شرع بترجمته على الوجه الصحيح، الذي هو أدرى به من كل مترجم غيره، بمكانه من خلطة السيد الاستاذ، وما له به من تمام الخبرة، ومعه من طول العشرة. فذكر نسبه، وحسبه، ومولده، ومنشأه، ورحلته، ومذهبه في السياسة، ومذهبه في الفقه، وقال في هذا: «انه حنفي مع ميل إلى مشرب السادة الصوفية، رضي الله عنهم». وذكر عن مذهبه السياسي أنه كان جلّ اجتهاده، في أن يرى إحدى الدول الاسلامية، في صف كبريات الدول الأوروبية. وأطال في وصف مواهبه العقلية، وقدرته العلمية، إلى ان قال: «وبالجملة فلو قلنا ان ما أوتيه من الذكاء، هو أقصى ما قدّر لغير الأنبياء، لكنا غير مبالغين». ووصف شمائله الباهرة، وأخلاقه العظيمة، وهممه العالية، وشجاعته التي لا تعرف للموت معنى، وعدم مبالاته بالدنيا، وانتهى إلى قوله فيما أتذكر: «وهو حليم يسع حلمه ما شاء الله أن يسع، الى أن يدنو أحد ليمس دينه، أو شرفه، فينقلب الى غضب، تنقض منه الشهب، فبينما هو حليم أواب، اذا هو أسد وثاب». قلت وسترى عاقبة غضبه عندما أهانه الشاه ناصر الدين ملك العجم، والصورة الفجيعة التي انتهى بها ذلك الخلاف، مما سنرويه لك في آخر هذه الترجمة. وقد اتفق أرباب النظر في هذا العصر، على أن قدوم السيد جمال الدين الأفغاني الى مصر كان مبدأ الحركة الفكرية، التي بدأت في البلاد العربية وسائر الشرق الأدنى، ولم تزل تنمو إلى الآن، رامية الى تحقق الشرق بالمعارف التي ساد بها الغرب، ورفع سيطرة هذا عن ذاك، واعادة الشرق سيرته الأولى من الرقي. ولم يقرأ السيد جمال الدين على أحد بالأزهر، ولكنه كانت له حلقة خاصة في منزله انتظم فيها عدد من أدباء القطر، يستفيضون بحر حكمته ويستمطرون صوب صوابه، اشتهر منهم الشيخ محمد عبده، والشيخ عبد الكريم سلمان، وابراهيم افندي اللقاني، والسيد وفا القوني، وسعد باشا زغلول، الذي قيل لي انه أدرك أخريات أيام السيد بمصر، ولازمه قلة من أدباء الشام، النازلين بمصر مثل أديب اسحاق، وسليم النقاش، وسعيد البستاني، وغيرهم واندفع مريدوه وحملة علمه، يكتبون ويخطبون وينثرون على الملأ ماالتقطوه من فوائده، وانتظموه من فرائده، وكان ذلك لساناً عالياً لا عهد للناس بأمثاله، وأسلوباً راقياً انقطعت منذ قرون عديدة نسبة رجاله، فأحدث في الأمة حركة أفكار لم تكن من قبله، ونفخ فيها روحاً سرية ظهر عليها طابع عرفانه وفضله، فنشطت همم واستجدت عزائم، وهبت قوى وفاضت قرائح.

وقال الشيخ محمد عبده في وصف تلك الحركة ما يأتي تقريباً: - لأن نص كلامه ليس بيدي الآن - فاستنارت الألباب، واستضاءت البصائر، وانحلت عقل الأوهام عن قوائم العقول. إلى أن قال أنه لم يكن بمصر للكتابة قبل جمال الدين شأن يذكر، ولم يكن يعرف من الكتاب سوى عبد الله باشا فكري، وخيري باشا، وفلان على ضعف فيه؛ وفلان على اختصاص فيه، وبقية من بقيفإماساجعون في المراسلات الخاصة، وإما مؤلفون في بعض الكتب الأدبية الخ، ولم تكن الثورة التي أحدثها السيد جمال الدين في السياسة بأقل منها في المعارف، ولعمري هاتان توأمان، فقلما انتشر العلم في مكان الا هتف بالحرية. وأول أثر ظهر لجمال الدين في ميدان السياسة، هو الحركة التي هبت في أواخر أيام الخديوي اسماعيل باشا وآلت الى خلعه من الخديوية، وكان للسيد اليد الطولى فيها ولما جلس توفيق باشا على كرسي مصر شكر لجمال الدين مساعيه، لكن لم يطل الأمر حتى دبت عقارب السعاية في حقه، وجاء من دس الى الخدوي الجديد أن السيد لن يقف عند هذا الحد، وقد تحدثه نفسه بثورة ثانية، وباقامة حكم جمهوري وما أشبه ذلك، مما لا يعي تنميقه السعاة والمتملقون، فصدر الأمر فجأة بنفي جمال الدين وأخرج الى



سعد زغلول

السويس، ومنها ذهب الى الهند، ولم يدخل بعدها مصر. وجرت الحركة العرابية في غيابه، واحتل الانكليز مصر. ومما لا مراء فيه أن المبدأ الوطني، الذي رأس تلك الحركة كان من زرعه هو، وإن كان هب على ذلك الزرع، من سموم الجهل ونقصان التربية السياسية، ولفحه من الدسائس الأجنبية ما صوح نضرته، وأذهب ثمرته، شأن تلك الدسائس على كل نهضة تحديث في الشرق أو حركة اصلاح تشفق من ورائها الدول أن تتمزق حجب الغباوة التي هي أصدق عوامل الاستعمار إلا أن ذلك الزرع لم تذهب بذرته من الأرض، وعاد فأخرج شطأه، وما زال ينمو حتى استوى على سوقه، يعجب جمال الدين لو عاش الى اليوم، ويغتاظ به الذين لا يبرحون مماطلين في الجلاء عن مصر..

تنقله بين بلاد اوروبا.. وايران:

وفي سنة ١٨٨٥ ذهب جمال الدين الى اوروبا، وأول مدينة صعد اليها لندرة ثم تحول منها الى باريز حيث وافاه الشيخ محمد عبده أكبر تلاميذه، وأكمل وعاة علومه، فأصدرا فيها «العروة الوثقى» التي بلغت من إيقاظ الشرق وهز أعصاب العالم الاسلامي، ما لم تبلغه صحيفة سيارة قبلها، ولا بعدها، ولكن لم يسعفهما الوقت أن يصدرا منها إلا بضعة عشر عدداً، فعاد الشيخ محمد عبده الى بيروت حيث كان منفاه على أثر الحادثة العرابية، وبقي جمال الدين في أوروبا يجول في مدنها ويثافن أهل العلم فيها الى أن تلاقى بالشاه ناصر الدين صاحب فارس بلغني أنهما تصادفا في منيخ عاصمة بافاريه، فدعاه الشاه أن يكون بمعيته لما شاهده من وفرة علمه وفضله، وتقدم اليه في الذهاب معه الى طهران؛ فلبى السيد دعوته، وأكرم الشاه نزله في عاصمة فارس، وما زال في علياء عنده، حتى نفس عليه الحساد منزلته هذه لدى الشاه، ولما كان السيد جمال الدين لا يكتم فكره، ولا يحتاط من قوة نفسه، أن يجهر بكل ما يجيش به صدره. وكان بعد ذا وذا يجد في ادارة أحكام العجم، مالا يطيق عليه صبراً أقل منه بكثير، في الهمة، وإباء الضيم، وصحة الوجدان فما ظنك برجل نظيره. لم يصعب على أولئك المفسدين، أن يحكموا الوشاية، ويوقعوا العداوة بينه وبين الشاه حتى انتهى الأمر باعتقاله وحبسه، ثم باخراجه مهاناً من فارس الى بغداد، حيث خاطب المجتهد الكبير، ميرزا محمد حسن

الشيرازي رأس الشيعة في وقته بكتاب شهير، عدد فيه مساوىء الشاه، واستيلاء العته على عقله، وشرح فيه مضرة امتياز شركة التنباك، الذي يقضي باستئثار الأجانب بأهم محصول بلاد العجم، فكان هذا النداء، من أعظم أسباب الفتوى التي أفتاها ذلك الامام ببطلان هذا الامتياز، واضطرت الحكومة الفارسية خوف انتقاض العامة الى الغائه. ولكن السيد جمال الدين لم يشف غليله بهذه الحركة وحدها، وأخذ يعاكس الشاه وحكومته بكل وسيلة وكان كلما تذكر اهانة الشاه له، وبين جنبيه تلك النفس العظيمة، التي لو قلنا أن أنفس الملوك في جنبها تعد أنفس سوقة، لكنا غير مغالين هاج به هائج الانتقام، ونقصد الأخذ بالثأر، لا سيما أنه كان رأى بعينه في ايران، من آثار الاستبداد والظلم وفجائع العسف والغشم وذهاب مصالح الأمة العامة في سبيل اهواء افراد، وشهوات آحاد، ما مكن في خلده فكرة العمل لقلع الشاه من مركزه. وصادف بعد ذلك أنه ذهب الى لندرة مرة ثانية، فحرر في مجلة سماها «ضياء الخافقين» مقالات على أحوال فارس تقيم وتقعد، وكان السلطان عبد الحميد قد دعا السيد جمال الدين الى الاستانة وذلك في سنة ١٨٩٢ فجاءها وكانت هذه المرة الثانية لدخوله هذه العاصمة. إذ كان قد عرف الأستانة مرة قبلها في زمن السلطان عبدالعزيز هذا ولما كانت سبقت لمحرر هذه السطور معه مراسلات بواسطة أستاذنا المرحوم الشيخ محمد عبده كان أول من سألت عنهم عند سفري الأول الى أوروبا سنة ١٨٩٢ المذكورة، هو المرحوم السيد جمال الدين فقيل لي انه قصد الاستانة وأظهر لي التخوف على مصيره في الاستانة هنري روشفور، الكاتب الفرنسي الشهير، الذي عرفته وهو منفي بلندرة. وكان روشفور يحب السيد جمال الدين ويحترمه، وقد وصفه في كتابه «ما جريات حياتي» بقوله هكذا على أسلوبه الخاص به في الكتابة:

«السيد جمال الدين الأفغاني من سلالة النبي، والمعدود هو أيضاً أنه أشبه بنبي» ثم قال:

«انني شعرت نحو هذا الرجل بعاطفة الحب التي أجدها تربطني بكل داع الى ثورة أو مقاوم لسلطة».

اقامته في الاستانة ووفاته:

ولما ورد السيد جمال الدين الاستانة أنزله السلطان منزلاً كريماً، في دار ضيافة خصه بها في نشان طاش، وأجرى عليه الأرزاق الوافرة، وكان يدخل على السلطان ويصلي صلاة الجمعة معه. ومضت مدة وجمال الدين حظيّ عند أمير المؤمنين، لا خوف عليه ولا هو يحزن وكان الجو لم يسفر بينه وبين السيد أبي الهدى الصيادي فنسأ ذلك أجل القصص بحقه الى السلطان، وإنما كانت تلك فترة لا يعبأ بها، إذ ما عتم الأستاذ الصيادي أن وجه حملاته عند مولاه؛ واندفع يتهم جمال الدين بالكفر والزندقة، كما هو ديدن هؤلاء في شأن كل من أرادوا تنقصه من الحكماء. وقد اطلعت على نشرة من جانب السيد أبي الهدى تتناول ثلاثة من أعدائه وهم السيد فضل العلوي الحضرمي أمير ظفار، والشيخ ظافر المدني الطرابلسي شيخ الطريقة الشاذلية، والسيد جمال الدين الأفغاني، وثلاثتهم كانوا من المقربين الى السلطان، وكان لكل منهم نصيب وافر من الشتم والوقيعة في هذه النشرة، وحصة السيد جمال الدين كانت تهمة الالحاد وفساد الاعتقاد. ومن جملة الشواهد على ذلك كونه قال مرة: «أنا أطوف بأشجار البندلر طواف الحجيج بالكعبة». والبندلر هي السدود بالتركية وذلك أنه يوجد محل نزهة بظاهر الاستانة قد سد السلاطين العظام فيه أودية بحيث تكونت منها بحيرات لسقيا العاصمة، وقد أحاطت بتلك البرك غابات ملتفة بديعة، فغاية ما يقال ان جمال الدين عبر عن نزاهة ذلك المكان بعبارة شعرية، فاستخرج منها أبو الهدى الحاداً وكفراً. وكان جواسيس السلطان يحصون عليه جميع حركاته وسكناته، ليقدموا ذلك الى السلطان، فما يروى أنه كان هو وعبد الله نديم الكاتب المصري المشهور في متنزه «الكاغد خانه» فصادفا الجناب الخديوي عباس حلمي، وسلم بعضهم على بعض، وتحادثوا نحو ربع ساعة تحت شجرة هناك. فيقال ان السيد أبا الهدى قدم تقريراً للسلطان



اسطمبول

بأن جمال الدين وعبد الله نديم تواعدا مع الخديوي على الاجتماع في الكاغد خانه. وهناك عند الاجتماع بايعاه تحت الشجرة. لكن السلطان بحسب قول جمال الدين لم يحفل بهذه الوشاية. ولكن هذا الخلاف مع أبي الهدى لم يزعزع مكانة جمال الدين من السلطان وربما زاده لديه زلفى، وإنما أدى إلى وحشة الخليفة منه، استمراره في مجالسه التي كانت تتناتبها الناس دائماً على القدح في شاه العجم مما حمل سفير ايران على رفع الشكوى الى السلطان، فاستدعى السلطان اليه السيد جمال الدين وقال له: «إن سفير العجم ترجاني ان أتكلم معك في الكف عن الوقيعة في الشاه وأنا بناء على أملي فيك وعدته بأنك تكف عنه» وقد روى لي السيد رحمه الله هذه القصة عندما رجعت من أوروبا الى الاستانة في أواخر سنة ١٨٩٢. فقال لي هكذا بالحرف: «فقلت للسلطان ما كنت ناويا أن أترك شاه العجم حتى أنزله في قبره، ولكن بعد أن أمر أمير المؤمنين بالكف عنه، فلا بد من طاعته». بمثل هذا كان المترجم يخاطب الملوك ولا يبالي عن موقع مثل هذا الكلام منهم، مع ان أشدهم حذراً ووسواساً كان السلطان عبد الحميد، فلا عجب ان وقع في نفسه شيء منه. ولكن ليت السيد كف بالفعل عن أذى الشاه، إذ لم يلبث ان عاوده الغضب الذي هو العيب الذي عوذ الله به حسناته العديدة، والذي جرّ عليه كثيراً من المصائب، حتى قال الشيخ محمد عبده في وصفه: «وكثيراً ما هدمت الحدة ما رفعته الفطنة». ففي أحد الأيام قدم على جمال الدين رجل من العجم، بابيّ المذهب، اسمه رضا آقاخان، صادف انه وجد مع جمال الدين في حبس واحد في قزوين عندما اعتقله الشاه، فحصلت بينهما صحبة أكيدة ثم تفارقا عندما أخرج جمال الدين من

الحبس ونفي الى بغداد ثم أخلي سبيل رضا آقا هذا، ولما بلغه مجيىء السيد الى الاستانة جاء يزوره فيها، فسر به السيد كثيراً، وكان دائماً يحادثه ويتكلمان عن شقاء الأمة الايرانية بسوء ارادة سلطانها ناصر الدين. فقال رضا آقاخان يوماً انه هو حاضر أن يفدي نفسه لتخليص أمته فقال له جمال الدين: «ان كان كذلك فاذهب وافعل» فذهب رضا آقاخان، وبعد أشهر بينما ناصر الدين شاه في جامع عبد العظيم في طهران إذ دنا منه هذا الرجل وقتله غيلة وقال لـه: «بدى از جمال الدين» أي خذها من يد جمال الدين ووردت الأخبار الى الاستانة وحدث بها الناس كما لا يخفى، فأبدى السيد جمال الدين مزيد سروره بهذا الخبـر وشرع يقـول: «قد تحقق الآن أن الأمة الفارسية لم تمت وانها أمة لم تنقطع منها الآمال، لأن الأمة التي يقوم من أبنائها من يأخذ بثارها ويفتك بالطاغي الذي على رأسها، لا تكون قد فقدت جراثيم الحياة». وكلاماً من هذا القبيل كان يردده. ثم لما ورده عدد من مجلة «الايلوستراسيون» التصويرية الفرنسية، وفيها صورة القاتل رضا آقاخان مصلوباً معلقاً، والناس ينظرون من حوله هتف: «علو في الحياة وفي الممات. وقال: انظروا كيف علقوه عالياً حتى يكون ذلك رمزاً الى أنهم كلهم كانوا من دونه». وكان الجواسيس ينقلون الى السلطان كل كلمة يفوه بها السيد، فلم يشك عبد الحميد في كون قتل الشاه كان بسبب جمال الدين، وانه ما زال وراء الشاه حتى «أنزله في قبره» كما قال. ومن الغريب ان الشاه بعد أن خلى سراح جمال الدين، وذهب هذا الى أوروبا بلغ الشاه ان المتـرجم كان يسعى في تـدبير مكيدة مع بعض الايـرانيين، لخلـع الشاه او لقتله، فندم جداً على افلاته، ويقال انه هو الذي بعث الى السلطـان عبد الحميـد يرجـو منـه استقـدام جمال الـدين اليـه، ووضعـه تحت المراقبة أماناً من شر غوائله، فاستقدمه السلطان بكتاب من قلم أبي الهدى. ولما ورد الاستانة أمر بالمبالغة في برّه واكرامه، ليلهيه عن عداوة شاه العجم، فكان مع ذلك ما كان، ولا يمنع حذر من قدر. فلما تحقق السلطان كيفية قتل الشاه غضب غضباً شـديداً. وأمـر بتشديـد المراقبة على المترجم ومنع أي أحد من الاختلاط به الا بارادة سلطانية، فأصبح السيد في قصره محبوساً. وكانت الحكومة الايرانية شرعت في تحقيق حادثة القتل فثبت لديها اغراء جمـال الدين لرضـا آقاخـان بالاشتـراك مع شخص فارسي آخر اسمه رضا آقاخان أيضاً، وشخص بغدادي اسمه الشيخ ابراهيم. فطلبت الدولة الايـرانية من البـاب العـالي تسليمهـا هؤلاء الثلاثة، فالسلطان عبد الحميد ابى تسليم جمال الـدين، ولكن الشخصين الآخـرين بلغني انه جـرى تسليمهمـا وقتـلا في ايـران بحجـة اشتراكهما بالمؤامرة. ثم ان التضييق بلغ حده عـلى المترجم حتى أرسـل الى فيس مـوريس مستشار سفارة انكلترة يلتمس منه ايصاله الى باخرة يخرج بها من الاستـانة، فحضر فيس موريس اليه وتعهد له بما طلب، وإذ ذاك بلغ السلطـان الخبر، فـأرسل اليـه أحد حجـابه يستعطف خاطره باسم الاسلام أن لا يـرضى بمس كرامة الخليفة الى هذا الحد، ولا يلتمس حماية أجنبية. فثارت في أنفه حمية الاسلام، وبعـد أن كان زمّ حقـائبه للسفـر قال لفيس موريس انه عدل عن السفر، ومهما كان فليكن. ولكن المراقبة عليه كانت لم تزل باقية، وكل من أراد أن يشاهده فلا بد له من اذن خاص. وبعد أشهر من هذه الحادثة ظهر في حنكه مـرض السرطان واشتد عليه، فصدرت الارادة السنية باجراء عملية جراحية يتولاها قمبورزاده اسكندر باشا، كبير جراحي القصر السلطاني، وكان هذا مقرباً جداً الى الحضرة السلطانية، فأجرى له العملية فلم تنجح، وما لبث الا أياماً قلائل حتى فاضت روحه رحمه الله وعفا عنه. وهنا تقوّل الناس أشكالاً وألواناً في قضية هذا السرطان وهذه العملية الجـراحية، لقـرب عهد المـرض بحادثة قتل الشاه، وما كان معروفاً من وساوس عبد الحميد. فقيـل ان العملية الجـراحية لم تعمل على الوجه اللازم لها عمداً، وقيل لم تلحق بالتطهيرات الـواجبة فنـا: بحيث انتهت بموت المـريض. وحدثني صـديقي الكـونـت لاون أوستروروغ، المستشرق العلامة، مترجم كتاب الأحكام السلطانية للماوردي، وحديثه هذا كان لي في هذه الأيام الأخيرة في لوزان (شهر يناير

السلطان عبد الحميد



سنة ١٩٢٣)، أن المترجم كان صديقه فدعاه اليه بعد اجراء العملية الجراحية وقال له، ان السلطان أبى ان يتولى العملية الا جراحه الخاص، وانه هو رأى حاله ازدادت شدة بعد العملية، فيرجو منه ان يرسل اليه جراحاً فرنساوياً، مستقل الفكر، طاهر الذمة، لينظر في عقب العملية. فأرسل اليه الدكتور لاردي، وهو رجل لا يزال حيا واقامته بجنيف من سويسرة، فوجد ان العملية لم تجر على وجهها، ولم تعقبها التطهيرات اللازمة، وان المريض قد أشفى بسبب ذلك، وعاد الى أستروروغ، وأنبأه بهذا الأمر المحزن، وما مضت أيام حتى فارق جمال الدين الحياة. وقال لي واحد ممن كانوا في خدمة عبد الحميد وقد رويت له هذه القصة: أن قمبور زاده اسكندر باشا كان أطهر وأشرف من ان يرتكب مثل تلك الدناءة، ولكن كان رجل عراقي اسمه جارح طبيب اسنان يتردد كثيراً على جمال الدين ويعاين له أسنانه. وكانت نظارة الضابطة قد استمالت جارح هذا بالدراهم وجعلته جاسوساً على المترجم، فصار له عدواً في ثياب صديق. قال لي صاحب هذه الرواية: فأردت مرة أن أمنع جارحاً من الاختلاط بجمال الدين فأشار الي ناظر الضابطة اشارة خفية بأن أتركه، وفهمت من الاشارة انه يذهب الى هناك ويطبب أسنان السيد بعلم من النظارة والسيد لا يعلم بشيء من ذلك، ويستخلص جارحاً ويثق به. قال فلا اعلم ماذا فعل جارح بواسطة طبه وثقة جمال الدين به؛ قصارى ما أعلم انه لم تمض عدة أشهر على حادثة الشاه، حتى ظهر السرطان في فك السيد من الداخل، وأجريت له عملية جراحية فلم تنجح، وجارح هذا ملازم للمريض. وبعد موته كنا نراه دائماً حزيناً، كئيباً، كاسف البال، واجم الوجه، خزيان، مما جعلنا نشتبه ان يكون ذا يد في افساد الجرح بعد العملية، أو في توليد المرض نفسه من قبل بوسيلة من الوسائل، فلما مات السيد أخذ يعذبه وجدانه على خيانته هذا الرجل العظيم، الذي كان وثق به. قال ولا أجزم

بكونه هكذا فعل، ولكنني أجزم بأنه كان جاسوساً على السيد والله من وراء العلم. وكانت وفاته رحمه الله في ٩ آذار سنة ١٨٩٧ وصلى عليه في جامع التشويقية في نشان طاش، ودفن في مقبرة على مقربة منه. ولي في جريدة الاهرام يومئذ مقالة بين يدي فقده ليست في يدي الآن لمراجعة تاريخها.

ذكرياتي معه:

واذكر اني لما عدت من أوروبا الى الاستانة سنة ١٨٩٢، ذهبت اليه في نهار وصولي، فاستقبلني براً وترحيباً ولزمته تلك المدة الى ان اضطررت الى السفر الى وطني سورية، ففارقته آسفاً وأنا أمني نفسي بالعودة الى الاستانة، لمشاهدته والاستفادة منه. وسألني مرة عما شاهدته في أوروبا وأي نتيجة استخلصتها من حال أولئك القوم، لأنه كان فيلسوفاً تاما لا يرى الجزئيات الا من خلال الكليات، فلما اردت أن أبدي له ما يعن لي في هذا الباب، وكنت يومئذ في أول شبابي لم أجاوز الثانية والعشرين من العمر، غلبتني مهابة حكمته وخشيت ان لا أصيب المحز، فتحوطت لكلامي بشيء من انكار النفس واستكبار أنْ يكون مثلي ممن يجوز أن يتكلم بحضرة مثله، فما رأيته الا نهض وأمسك بيديّ وهتف قائلاً: «أنا أهنىء أرض الاسلام التي أنبتتك». فسمع الناس هذه الجملة وما زالوا يتناقلونها، وما اخاله قصد بها الا الجذب بضبعيّ الى الأمام، وجبر ما نقص من قوتي المعنوية. وحكيت له مرة أن احدى جرائد امريكا بحثت في موضوع اكتشاف تلك القارة، فقالت يروى ان العرب خاضوا الاوقيانوس الاطلانتيكي ناشدين البر الذي وراءه، وسالت هل عند مؤلفي العرب شيء من هذا الخبر، فعربت ذلك جريدة النشرة الاسبوعية في بيروت، وألقت السؤال نفسه على علماء العرب وكنت في باريز، فلما اطلعت على القضية لبيت ذلك النداء وراجعت في المكتبة الوطنية كتب الشريف الادريسي الجغرافي العربي الشهير، ونقلت من كتابه نزهة المشتاق الى اختراق الآفاق، خبر الاخوة المغرورين، الذين ركبوا سفينة من لشبونة وجعلوا فيها كل ما يلزمهم من الزاد والماء، وخاضوا بها بحر الظلمات الى الغرب حتى وصلوا بعد مسيرة شهر الى جزيرة خالية لم يجدوا بها الا الوحوش، فركبوا البحر متجهين الى الجنوب، وبعد نحو شهر أيضاً نزلوا بجزيرة فيها أناسي وملك يحكم عليهم، فقفلوا من عنده متجهين شرقاً، حتى نفذوا بعد مدة الى مرسى اسفي بالمغرب الأقصى. فلما أكملت له الرواية و أني حررتها جواباً على النشرة الأسبوعية، وقد أثرتها عنها جميع الجرائد، التفت الي قائلاً: «لا أريد أن أسّر المسلمين بكلمة. هؤلاء قوم كلما قال لهم الانسان: كونوا بني آدم. أجابوه: إن آباءنا من الربعة، لا ينفي ما هم عليه اليوم من الخمول والضعة. قال: إن الانسان إذا بنى قصراً مستوفياً جميع شروط البهاء والنيقة، ولم يفته فيه شيء من الرفاهة والفراهة، فهو يفكر حينئذ بأن يأتي الى قصره بالرياش الفلاني النادر من القطر الفلاني، ويكمل زينة قصره بالآنية الفلانية التي لا يملكها الا القليلون، وأن يجعل في حديقة القصر هذه الزهرة البديعة وتلك الريحانة العجيبة. فأما وهو قصر متداع الى السقوط، والجص نازل الى الأرض، والسقوف قد هوت من كل جانب، وهو لا يقدر على ترميمها، فهل يخطر بباله أن يأتي لاكمال زينة قصره بهذه الآنية، وتلك الزهرة، وهاتيك الديباجة، كلا، لعمري ان من أعوزته الضروريات، لا حاجة به الى الكماليات». قال لي: «وأنا لا اقول لك ان الشرقيين قد أصبحوا بهذه المثابة، وهي كلما أرادوا الاعتذار عما هم فيه من الخمول الحاضر، قالوا: أفلا ترون كيف كان آباؤنا؟ نعم قد كان آباؤكم رجالا، ولكنكم أنتم أولاء كما أنتم. فلا يليق بكم أن تتذكروا مفاخر آبائكم الا أن تفعلوا فعلهم». وكأنه ينظر بهذا الى قول القائل:

نبني كما كانت أوائلنا
تبني ونفعل مثلما فعلوا

وكان من شدة ما يجد من الألم لحال الاسلام، تخطر له خواطر نادرة في هذا الموضوع، فقال لي احدى المرار: «قد فسدت اخلاق المسلمين الى حد ان لا أمل بأن يصلحوا، الا بأن ينشأوا خلقاً جديداً، وجيلاً

مستأنفاً، فحبذا لو لم يبق منهم، الا كل من هو دون الثانية عشرة من العمر، فعند ذلك يتلقون تربية جديدة تسير بهم في طريق السلامة». وقال لي نوبة اخرى: «لم يبق في الاسلام أخلاق، فهذا محمود سامي (البارودي الشاعر الكبير، رئيس النظار أثناء حرب عرابي) عاهدني ثم نكث معي، وهو أفضل من عرفت من المسلمين». وقال لي أيضاً: «ان المسلمين قد سقطت هممهم، ونامت عزائمهم، وماتت خواطرهم، وقام شيء واحد فيهم وهو شهواتهم». وكان يندد هذا التنديد كله لما كان فيه من الوجد لاسترداد الاسلام مجده القديم، ولما كان يراه من غفلة المسلمين عن الأخذ بأسباب الرقي ومن السبات العميق الذي أمعنوا فيه، على حين صاح صائح الجد بسائر الأمم هيا على الفلاح. ومن قرأ مجموعة العروة الوثقى التي كانت ترجمان أفكاره، بقلم تلميذه الشيخ محمد عبده رأى انه أنبأ منذ أربعين سنة بما سيؤول اليه حال الاسلام، وما ستكون معه سياسة الدول المستعمرة، مما تحقق كله فيما بعد، حتى كأنه كان ينظر الى الحوادث المستقبلة في مرآة. وكان في أطوار حياته، فيلسوفاً كاملاً، عالماً عاملاً، فلا يقول ما لا يفعل ولا يكتفي من الحكمة بالنظر دون العمل، كما هو شأن كثير من العلماء الحفاظين الذين قلوبهم في واد وألسنتهم في واد. فكان يفطم نفسه عن الشهوات، ولا يرى من اللذات الا اللذة العقلية العالية. وقد حاول السلطان عبد الحميد أن يعلق قلبه بالمال والبنين، ويشغله بزينة الدنيا وراوده على الزواج، فأبى وأعرض، وقال له: قضيت حياتي مثل الطير على الغصن، فلا أريد في آخر أيامي ان أتعلق بعائلة. وكنت سامراً مرة عنده وعنّ هذا الموضوع، فقال له أحد الدمشقيين: يا مولاي لماذا لا تتأهلون ويكون لكم الذرية الصالحة؟ فلم يعجبه قوله، ولما انصرف الرجل أقبل عليّ السيد وقال «لم تدخل روح الفلسفة في هذه الأمة». وليس مراده بذلك التزهيد في الزواج، وانما تقرير حقيقة وهي أن الفلسفة لا تبالي بالنسل والذرية، وان الفلاسفة قلوبهم في شغل شاغل عن ذلك، وكان ينظر الى المال نظره الى التراب فلا يدّخره، ولا يعرف معنى تثميره، ولا يتناول منه الا ما هو ضروري للحياة. ولما كان في الاستانة، كان عنده قهرمان هو الذي بيده الحساب والقبض والصرف، أما هو فلا يدري من ذلك شيئاً، وحاول السلطان أن يعطيه رتبة علمية كرتبة قاضي عسكر مثلاً، فأبى أن يقبل الرتبة، وأن يلبس كسوتها المزركشة بالقصب، وكذلك رفض قبول الوسام مهما كان عالياً، فسألته عن ذلك فقال: آكون كالبغل يحمل على صدره الجلاجل؟ وبالجملة فلم يكن يؤخذ لا رغبة ولا رهبة، أما الرغبة فقد كان راغباً عن الدنيا بحذافيرها عيوفاً عن زينتها معرضاً عن زخرفها كما مرّ بك. واما الرهبة فلم يكن يعرف الخوف الى قلبه سبيلاً، وفيما سردنا لك من قصصه ما فيه مقنع. وعرض حديث أجريت فيه ذكر الشيخ محمد عبده فقلت، انه من الأفراد بمصر، فأجابني: «لا يوجد مثله بمصر». وكان هذا قبل أن صار الأستاذ في منصب افتاء الديار المصرية، ونال تلك الشهرة العظمى.

تحرينا في ترجمة حال هذا الحكيم الكبير، هذه الدقائق لأنه مما لا مشاحة فيه، أنه هو الموقظ الأعظم للشرق، وان طريقته ستزداد انتشاراً، ومبادئه ستطبق في يوم من الأيام بالشرق بأجمعه، فيسأل الخلف عن أحوال حياته، ويستقصون عن خواطره، ويجدون في جمع آثاره، كما نرى الاوروبيين اليوم يحرصون جد الحرص، على اكتشاف أقل شيء يعزى الى عظيم من عظمائهم، سواء من خبر أو أثر. ومن غريب ضرائب البشر أنهم لا يحرصون على آثار عظمائهم في حياتهم معشار ما يحرصون عليها بعد ذهابهم، وكنت أسأل مرة مارسل كاشين، وجان لونفه، وجماعة من رؤساء الاشتراكيين الفرنسيس، عن جوريس نابغة السوسياليست في هذا العصر، فبعد ان حدثوني عنه ساعة قالوا لي: «لم نكن نقدره قدره في حياته كما نقدره قدره اليوم» وأظن الحال كذلك مع رنان، ومع فيكتور هوغو، ومع سبنسر، ومع بسمارك، وجميع الأعاظم. فان أقدارهم تزداد بالوفاة، والولع بآثارهم يتضاعف مع تقادم العهد. وهكذا شأننا مع جمال الدين ومحمد عبده، وغيرهما من كبار المصلحين، كلما تقادم عليهم العهد، حرص

الناس من آثارهم على اللفظة الشاردة، والكلمة الفاردة، ليكتبوها عنهم بماء الذهب. ولجمال الدين تاريخ للأفغان، ومقالات متفرقة كان عندي منها مجموعة، سطا عليها لص علم، وآخر ما نشر له، رسالة الدهريين التي سبق ذكرها. وبالجملة فلم يكن يحفل بوفرة التصانيف، وانما كان مؤلف أمم ومصنف ممالك.

ترجمة دائرة المعارف الاسلامية:

وممن ترجم السيد جمال الدين، العلامة غولد سيهر المستشرق المجري المشهور، شيخ المستشرقين في العلوم الشرقية، وصاحب التصانيف العديدة. فقد رأينا له في دائرة المعارف الاسلامية، المحررة باللغة الفرنسوية ترجمة خاصة بالمرحوم السيد جمال الدين، جاء فيها ما ترجمته:

«السيد محمد بن صفتر، من أعاظم رجال الاسلام في القرن التاسع عشر، كان بحسب رأي براون فيلسوفاً، كاتباً، خطيباً، صحفياً. وقبل كل شيء، كان رجلاً سياسياً يرى فيه مريدوه وطنياً كبيراً، وأعداؤه مهيجاً خطيراً. وقد كان له تأثير عظيم في حركات الحرية، والمنازع الشوروية، التي جدت في العشرات الأخيرة من هذه السنين، في الحكومات الاسلامية وكانت حركته ترمي الى تحرير هذه الممالك من السيطرة الاوروبية، وانقاذها من الاستغلال الاجنبي، والى ترقية شؤونها الداخلية بتأسيس ادارات حرة. وكذلك كان يفكر في جمع هذه الحكومات بأجمعها ومن جملتها ايران الشيعية، حول الخلافة الاسلامية. لتتمكن بذلك الاتحاد من منع التدخل الاوروبي في أمورها. فجمال الدين بقلمه ولسانه، كان أصدق ممثل لفكرة الجامعة الاسلامية. وأسرته الشريفة تنتمي الى الحسين بن علي بن أبي طالب بواسطة المحدث الشهير الترمذي، فهو من أجل ذلك يلقب بالسيد».

ثم يقول انه بعد اكمال تحصيله بكابل، ذهب الى الهند، ثم حج البيت سنة ١٢٧٣، أو ١٨٥٧ وبعد اوبته من الحج، دخل في خدمة دوست محمد خان أمير الأفغان، ورافقه في حصار هراة، ولما توفي دوست محمد خان، دخل



الشيخ
محمد عبده

في خدمة محمد أعظم الذي استوزره الى أن كان سقوطه واستيلاء شير علي خان على المملكة. فرحل السيد جمال الدين الى الهند (١٨٦٩) ومنها قدم القاهرة حيث أقام أربعين يوماً، ومنها قصد الاستانة، فأقبل عليه وزراؤها وعلماؤها، وأجلّوا قدره، وعرفوا فضله وعينته الدولة عضواً بمجلس المعارف وصار يلقي بعض الدروس في أياصوفيا والسلطان أحمد، ودعي مرة الى القاء خطبة في دار الفنون على فوائد الصناعة، فذكر النبوة من جملة الوظائف الاجتماعية(١) فأدى ذلك الى أن حسن افندي فهمي شيخ الاسلام رماه بالزندقة، واضطر الى مغادرة الاستانة قاصداً مصر. فأجرت الحكومة المصرية عليه معاشاً شهرياً ١٢ ألف غرش بدون أن تكلفه إلقاء درس خاص، وإنما كان يقرأ على حلقة من الطلاب في منزله، واجتمع حوله كثير من العطاش الى مناهل العلوم العالية الخ.

وذكر غولد سيهر سائر ما يعرف من أحواله مما حرره الشيخ محمد عبده، في صدر رسالة الرد على الدهريين، وما هو بمعنى ترجمتنا له في هذا الكتاب، الا أنه يقول انه لما نفي من مصر الى الهند جعلوا اقامته بحيدر أباد الدكان، وهناك كتب رده على الدهريين، وأنه قد زعم ويلفريد سكافن بلونت وهو مما لم يذكره غيره من مترجميه، أن جمال الدين ذهب من الهند الى أمريكا، وانه منها جاء الى لندرة سنة ١٨٨٣.

وذكر غولد سيهر مناقشة جمال الدين مع رنان، في أمر قابلية الاسلام للعلم، فقال ما يأتي بالحرف:

«وقد فتحت له أشهر الجرائد وأعظمها نفوذاً أبواب المراسلة، فنشر فيها مقالات ممتعة، عظيمة القيمة على السياسة الشرقية، التي كانت تتنازعها انكلترة والروسية، وعلى أحوال تركيا ومصر، وعلى معنى حركة المهدي السوداني. وفي ذلك الوقت جرت بينه وبين ارنست رنان، المناظرة التي أساسها محاضرة ألقاها رنان في السوربون على الاسلام والعلم. فجمال الدين أراد تفنيد مزاعم رنان بعدم قابلية الاسلام للتوليد العلمي، وذلك في مقالة بجريدة «الدبا» ترجمت أيضاً الى الألمانية. ثم بعد ذلك بقليل، ترجمت محاضرة رنان، مصحوبة برد من قلم حسن افندي عاصم الخ».

ثم ذكر غولد سيهر العروة الوثقى، وكيف شددت الحكومة الانكليزية بمنعها من أول عدد صدر منها من الدخول الى مصر والهند. وقال انه سنة ١٨٨٥، بالرغم مما اشتهر به المترجم من عداوة انكلترة، داخله الانكليز باشارة المستر بلونت في أمر ايجاد حل لمسألة المهدي السوداني، ولكن لم يقترن بشيء من ذلك بالعمل. ثم زعم أن الشاه ناصر الدين دعاه بالبرق سنة ١٨٨٦ الى حاضرة ملكه طهران، وأكرم مثواه وبالغ في الاحتفاء به، ولكن خشية الرقباء حملت جمال الدين على الاستئذان من الشاه والذهاب الى الروسية، حيث أقام مدة وصارت له علاقات كثيرة، وان لقاءه للشاه في منيخ كان في المرة الثانية ودعاه هذا الى الرجوع الى طهران، وذلك سنة مجيىء الشاه الى معرض باريز (١٨٨٩) وذكر غولد سيهر ان سبب الفتنة بين جمال الدين والشاه كان الصدر الأعظم ميرزا علي أصغر خان الملقب بأمين السلطان، نفاسة على جمال الدين بالمكانة التي أحرزها في ايران، وان جمال الدين التجأ الى مقام عبد العظيم الذي هو اشبه بحرم من دخله فهو آمن، وأقام به سبعة أشهر والناس تتردد عليه، الى أن أرسل الشاه كتيبة ٥٠٠ فارس، اخترقوا حرمة الحرم وأخذوا السيد منه عنوة، وساقوه مكبلاً بالحديد الى خانقين[٢].

ثم استوفى بقية خبره، وكيفية معاكساته لحكومة الشاه، ثم مجيئه الى الاستانة، وموته فيها على الوجه الذي حررناه. ■

الهوامش

(١) حقيقة هذه القصة أن السيد يومئذ شبه الاجتماع الانساني بجسم أعضاؤه الصناعات المختلفة، فشبه الصنعة الفلانية باليد، والفلانية بالرجل، وهذه بالعين، وتلك بالأذن؛ ثم قال وأما الرأس المدبر لهذا الجسم، فهو اما النبوة او الحكمة، والفرق بينهما أن النبوة وحي إلهي معصوم من الخطأ، وان الحكمة وضع بشري قد يخطىء وقد يصيب. وكان حسن فهمي افندي شيخ الاسلام يومئذ، ناقماً على الأفغاني قرارا سابقاً في مجلس المعارف ينال من رزقه، فانتهز فرصة هذا الخطاب ليقول، ان الأفغاني جعل النبوة من جملة الصناعات.

(٢) على حدود العراق.



● السياسة لغز يقضي الشعب وقته في محاولة حلّه، فاذا استطاع ان يصل إلى حلّ اللغز فالويل للسّاسة.

لتزاروس

● ان الاستقلال هو ترك الخوف من الموت، لأن الأمة التي تجيز لنفسها ان تتاثر من الخوف من الموت لن تنال استقلالها، وهي لو نالته لما استطاعت القيام عليه والاحتفاظ به.

غاندي

التاريخ الاجتماعي للألعاب في الغرب

جاك لوفرون
ترجمة :(تاريخ العرب والعالم)



● في إطار الاهتمام المتجدد بالتاريخ الاجتماعي للحياة في دول القارة الأوروبية منذ بداية نهضتها في القرون الوسطى، يواصل المؤرخون الغربيون التعمق في دراساتهم وأبحاثهم حول جوانب هذا الموضوع كافة، مؤكدين بذلك أن التاريخ كلٌ لا يتجزأ وإن العادات والتقاليد والحياة اليومية من العناصر التي لا تقل أهمية عن الأحداث السياسية والاقتصادية والفكرية في صنع التاريخ البشري.

من هذا المنطلق كتب الباحث الفرنسي جاك لوفرون دراسة حول تاريخ الألعاب في الغرب منذ القرون الوسطى (راجع مجلة «ايستوريا»، عدد ٣٨٦، كانون الثاني - يناير - ١٩٧٩، من ص ١١٢ - ١٢٢) مشيراً الى أن مصادر هذا الموضوع عديدة ومنها الأغاني والقصص.

ويبقى على مؤرخينا في الوطن العربي دراسة ما وصل الينا من هذه الألعاب وما ابتكرناه وطورناه منها .

لعبة النرد:

كانت لعبة النرد في القرون الوسطى من اكثر الألعاب شعبية داخل القصور وفي بيوت الفقراء ومتوسطي الحال على السواء. وإذا كان من الصعب تحديد نشوء هذه اللعبة في دقة، فمن المؤكد أنها كانت معروفة على الأقل قبل العام ١٢٦٨م. وذلك ما نستنتجه من كتاب ايتيان بوالو «كتاب المهن» حيث أفرد مكانا محددا لصانعي النرد.

وكان لهذه المهنة قوانين صارمة، منها الالتزام بعدم صنع نرد مزور.

انتشرت هذه اللعبة في كل مكان: في الحوانيت حيث كان من النادر أن لا يخسر أحد اللاعبين معطفه أو حتى قميصه ليغطي خسارته في اللعب، وفي القصور ودور الأغنياء حيث اتخذت هذه المراهنة طابعاً أكثر بذخا.

أورد المؤرخ الفرنسي جوانفيل (حوالي ١٢٢٤ - ١٣١٧) في مذكراته أنه في العام ١٢٤٨ رافق الملك لويس التاسع الى مصر. وفي الباخرة التي أقلتهما كان شقيقا الملك، شارل دانجو والفونس دو بواتييه، يلعبان النرد في حماسة كبيرة الى درجة أنهما لم ينتبها الى وصول لويس التاسع الذي ثارت ثائرته فأخذ النرد والطاولة ورماهما من فوق سطح الباخرة. صحيح أن الملك «فش خلقه»، الا أن الصحيح أيضا أن شقيقيه لم ينزعجا تماما من هذا التصرف إذ هما عاودا اللعب بالنرد البديل الذي كان في حوزتهما، فور خروج الملك.

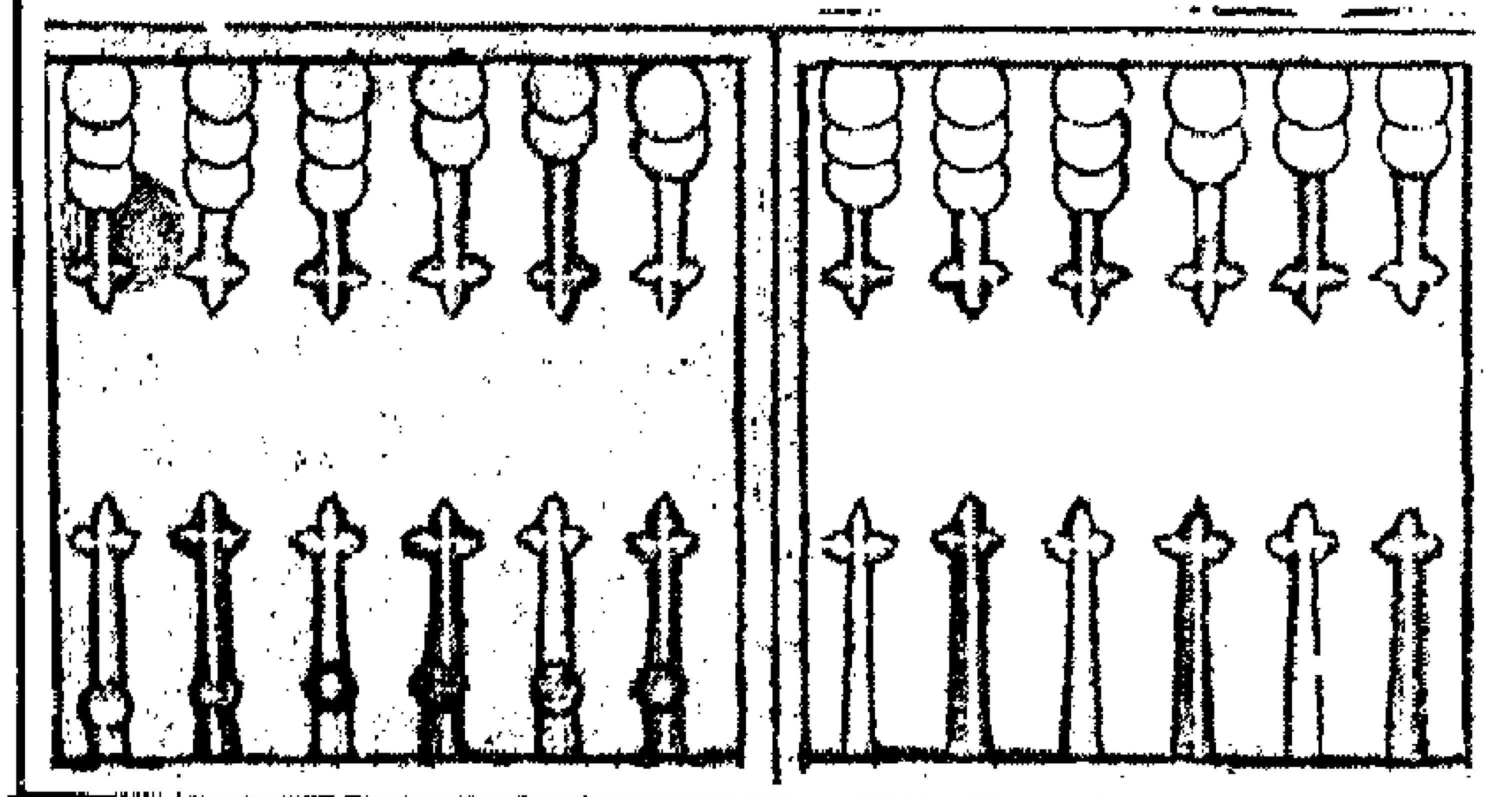
والمعروف أن لويس التاسع هو الذي أصدر المراسيم المتعلقة بتحريم لعبة النرد لأنها تعتمد على الحظ: ففي العام ١٢٥٤ وبعدما فشلت محاولاته في تقييد ممارسة هذه اللعبة، أصدر قرارا منع بموجبه تداول النرد في أي شكل كان. طبعا لم ينفذ هذا القرار كما يجب بل على العكس، انتشرت هذه اللعبة على نطاق أوسع فأوسع ولم تنفع كل القرارات اللاحقة «للملك القديس» في الحد من اتساع دائرة اللاعبين بها. ويروي الشاعر جان بوديل، في أواخر القرن الثالث عشر، بأسلوبه المرح قصة المغامرات الناجحة لثلاثة غشاشين وقعوا في النهاية تحت رحمة غشاش أبرع منهم.

طاولة اللعب:

هذه اللعبة هي أكثر صعوبة من لعبة النرد. كانت منتشرة خصوصا بين الامراء الذين كانوا يتباهون بنوع الاحجار المستعملة وبزخرفة طاولة اللعب نفسها. وحتى اليوم توجد في متحفي «انجي» و«كلوني» الفرنسيين احجار رائعة الشكل والتصميم تدل على الاهتمام الكبير الذي أولاه الأغنياء لهذه اللعبة.

واشتق من هذه اللعبة نوعان آخران

تاريخ العرب والعالم – ٧٠



النرد أو لعبة الطاولة – المكتبة الوطنية، باريس

يعرفان حاليا بـ (back-gammon) و (jacquet) وهما لا يختلفان كثيرا عن اللعبة الأصلية.

الشطرنج:

يتفق المؤرخون على أن لعبة الشطرنج نشأت في الشرق وعرفها الفرنسيون القدامى منذ القرن التاسع وذلك على أثر الهدايا التي أرسلها هارون الرشيد الى شارلمان والتي كانت بينها هذه اللعبة. ولم تنتشر على نطاق واسع الا في أواخر القرن الحادي عشر، وأصبحت في القرن الثاني عشر اللعبة المفضلة للنبلاء.

كشف جوانفيل في مذكراته عن أن «شيخ الجبل»، رئيس قبيلة «الحشاشين»، أرسل الى لويس التاسع لدى وصوله الى الاراضي المقدسة



لعبة الشطرنج – لوحة مصغرة من القرن الخامس عشر

في فلسطين، لعبة شطرنج أحجارها من الكريستال المرصع بالذهب. ولكن يبدو أن «لويس القديس» لم ترق له هذه اللعبة أيضا فمنعها، كما منع في السابق لعبة النرد، بقراره الصادر في العام ١٢٥٤. ولم تردع كل قرارات لويس التاسع الكهنة عن ممارسة اللعبة، فهي لاقت رواجا كبيراً داخل الأديرة على رغم رفض السلطات الدينية لها. وفي القرن الثامن عشر عرف الشطرنج رواجا كبيراً بسبب مؤاتاته لجو عصر النهضة الغربية يومها: فكان جان جاك روسو ينسجم كثيراً بهذه اللعبة مع ديدرو ودالامبير. وفيما بعد كان روبيسبيير وبونابرت من المبدعين في الشطرنج.

ومن الطريف أن السلطات البريطانية استخدمت تقسيمات رقعة الشطرنج من أجل تقديم الحسابات العامة. ولا عجب بالتالي أن يحمل وزير المالية البريطاني حتى اليوم لقب Chancelier de l'Echiquier أي حرفيا «مستشار رقعة الشطرنج».

ألعاب الصغار:

من هذه الألعاب التي لا تتطلب أية أدوات خاصة بها، نذكر: – لعبة Jeu des Combles ومفادها أن على كل شخص البحث عن أقصى حد لشيء ما ، ومن يجد الجواب الأفضل يربح.

– لعبة «القديس كوم»: يختار شخص ليمثل دور القديس الذي عليه أن يحافظ على هدوئه ورصانته أمام شتى أنواع الحركات الضاحكة والغمز، والا، يفقد ويأخذ مكانه من نجح في إضحاكه.

– لعبة «الملك الذي لا يكذب» على الملك (أو الملكة) أن يدافع عن لقبه هذا من خلال الأجابة بصدق وبصراحة تامة عن كل الأسئلة التي تطرح عليه، حتى المحرجة منها.

– الدمية: عرف أولاد الفرنسيين القدامى الدمية قبل أكثر من ٢٠٠٠ عام ق. م ويمكن التعرف بدقة على «موضة العصر» على مر الأزمنة من خلال ثياب الدمى. وهنا تبرز آفاق



مسرح العرائس والعاب اخرى للأطفال

واسعة جدا للباحثين والمؤرخين في مجال الحياة الاجتماعية للشعوب، إذ إن صور وأشكال هذه الدمى كانت إما محفورة على الحجر والخشب أو مرسومة ومطرزة على أنواع مختلفة من الورق والقماش.

وإذا كانت دمى أطفال الأمراء والنبلاء مكسوة بأبهى الثياب فان دمى ابناء الفئات الفقيرة كانت بالطبع على شاكلتهم من حيث الثياب غير الفاخرة.

– لعبة «حَجَر الرجل» (أو «إيكس») وهي لعبة للأولاد الذين عليّهم أن يقفزوا على رجل واحدة يدفعون بها حجراً لادخاله ضمن خانات مرسومة على الأرض. واستناداً الى بعض الوثائق فان هذه اللعبة لم تكن سهلة كما هي اليوم.

... وللكبار الأشداء:

– لعبة «المصُوبة» Quintaine. وهي لعبة يبدو أنها لم تعد متداولة في ايامنا. وهذه اللعبة عبارة عن دمية مشدودة الى عمود ومزودة بعصا. وكانت تستعمل للتدرب على التصويب كما كانت أيضا النصب الاخرى المخصصة للقوس والنشاب.



لعبة المصوبة – لوحة مصغرة من الأرشيف الفرنسي



لعبة «السول» أو «الشول»

تعود أصول اللعبة الى عهد الرومان، في مناسبة حفلة تدريع الفرسان: كان على الفارس الجديد أن يثقب برمحه الخشبي الطويل نصباً نصفياً يدور حول نفسه ومصنوعاً من شجر السوحر ومثبتا فوق عمود. فاذا اخطأ الفارس الاصابة في المكان الصحيح، يدور النصب دورة كاملة في اتجاهه ويلطمه بالسلسلة الحديدية المعلقة بأحد طرفيه. وكان توفير «المصوبة» يعتبر في بعض المناطق الريفية من واجبات الفلاح، عندما يهجر حياة العزوبية، تجاه سيد القصر أو الاقطاعي.

– وهناك لعبة غير معروفة تماما حاليا مع العلم أنمنهاظهرت كرة القدم والركبي. وكانت هذه اللعبة التي تسمى Choule أو Soule عبارة عن كرة ضخمة من القماش أو الجلد أو حتى الخشب، وتتنافس للحصول عليها عدة مجموعات يتراوح عدد كل منها بين العشرين والمئتين كانت كل الأساليب مسموحاً بها في هذه اللعبة التي كانت تجري عادة بين قرية واخرى وتدوم طيلة النهار. ولا عجب بالتالي أن تقع إصابات عديدة بين اللاعبين بسبب خشونتهم وفظاظتهم أحيانا كثيرة.

نشأت هذه اللعبة الشعبية في فرنسا في القرن الثالث عشر واستمرت في بعض الأرياف حتى أواسط القرن التاسع عشر.

– إلى جانب هذه اللعبة القاسية كان سكان المدن يلعبون لعبة اهدأ منها وهي «لعبة الكرة»، على رغم أن مبادئها كانت هي نفسها تقريباً. وانتشرت هذه اللعبة في المدن الفرنسية الرئيسية الى حد أن شارل الخامس منع في العام ١٣٦٩ م. ممارستها في شوارع العاصمة. وكان لقرار شارل الخامس أثره الايجابي، إذ أن محبذي هذه اللعبة اضطروا بالتالي الى تخصيص أماكن مغلقة عرفت فيما بعد بـ «الملاعب».

لعبة «الراحية»

كانت لعبة «الراحية» Paume (وهي نوع من التنس) التي ما زالت على رواجها اليوم بعد تطوير مبادئها، منتشرة خصوصا في صفوف النبلاء وافراد البورجوازية.

من الصعب للغاية تحديد فترة نشوءهذه اللعبة، إذ أن المبدأ الذي قامت عليه – وهو أن يتقاذف اللاعبون الكرة – كان معروفا منذ هوميروس الذي أشار إلى أن الإلهة «نوزيكايا» كانت تمارس هذه الرياضة مع خادماتها.

ومارس الرومان القدماء أيضا هذه اللعبة. ويبدو أنهم هم الذين اوصلوها الى الفرنسيين.

وسميت بالراحية لأنها كانت تلعب في

باديء الأمر بالأيدي فقط. ولم يستعمل المضرب إلا ابتداء من القرن الرابع عشر. من يومها أخذت هذه اللعبة تنتشر على حساب العاب اخرى. ففي العام ١٥٩٦ ذكر سائح ايطالي أنه استطاع احصاء ٢٥٠ لعبة من العاب الراحية في باريس وحدها.

كان هناك نوعان من الراحية: الطويلة التي تلعب في مكان مكشوف غير مسيج، والقصيرة التي تمارس ضمن ملاعب مستطيلة مقفلة.

وذكر المؤرخون في العام ١٣٥٥ م. أن الملك حنا الثاني الملقب بـ «الملك الطيب» كان يهوى كثيراً لعبة «الراحية». كما أن شارل الخامس شيد في قصر اللوفر ملعباً خاصاً بها. ويضيف هؤلاء أن هذه اللعبة كانت أحد اسباب وفاة الملك شارل الثامن الذي اصطدم جبينه بأحد العواميد بينما كان مسرعاً للقاء اصدقائه في الملعب، وهذا سبب له نزيفاً حاداً في المخ. لكن الحادث لم يمنع الملك والامراء بعده من الاستمتاع بهذه الرياضة المسلية والمرفهة عنهم في ضجرهم.

وهناك دلائل على أن الطلاب كانوا هم أيضا من هواة هذه اللعبة. ويورد الباحثون في هذا الصدد أن ادارة مدرسة «نوارموتييه» القريبة من السوربون اصدرت في العام ١٣٩٠ قراراً تشترط فيهم على طلابها الراغبين بممارسة لعبة الراحية أن يستأذنوا أولاً اساتذتهم وأن يلتزموا ثانياً التخفيف من ضجيجهم وصخبهم اثناء اللعب لئلا يزعجوا زملاءهم المجتهدين الذين يراجعون دروسهم.

في القرن السادس عشر عرفت «الراحية» رواجاً لا مثيل له، مما دفع بعض المستثمرين الى تخصيص أماكن عامة للعب وتأجيرها. وهذا ما أثار في حينه ردود فعل واسعة بسبب الاستغلال التجاري غير المعهود لهذه الرياضة. ووصف المؤرخ الفرنسي «ليتوال» (١٥٤٦ - ١٦١١) هذه العملية «بالفضيحة» واستنكرها في شدة.

في القرن السابع خف اهتمام الناس بهذه اللعبة على رغم تشجيع هنري الرابع ولويس الثالث عشر لها. وجاء لويس الرابع عشر ليطلق رصاصة الرحمة على «الراحية» مفضلاً عليها لعبة البيليياردو.

لعبة الراحية، لوحة من العام ١٦١٢



ولكن لم تذهب الأماكن العامة المخصصة للعبة الراحية هباء، فهي تحولت الى مسارح للكبار والصغار على السواء. فهل من المبالغة القول أن هذه اللعبة لها فضل كبير على نشأة المسرح الفرنسي؟

ورق اللعب:

نشأت هذه اللعبة في الشرق الأقصى (الهند والصين)، ووصلت إلى اوروبا في القرون الوسطى (مدينة فارتسبورغ الالمانية) منذ العام ١٣٢٩ م. ثم انتشرت في ايطاليا واسبانيا ففرنسا. وفي العام ١٣٩٢ نقرأ في احدى فواتير الملك شارل السادس أنه دفع الى الرسام شارل غرينيوني مبلغاً من المال لقاء رسمه لثلاثة مجموعات أوراق لعب. من هنا نستنتج أن ورق اللعب كان باهظ الثمن. ولم تصبح هذه التسلية في متناول عدد أكبر من الناس الا عندما اخترعت الطباعة التي ساعدت على انتاج ورق اللعب بكميات تجارية.



جلسة من جلسات لعب الورق.

منذ القرن الخامس عشر عرف الفرنسيون لعبة رديفة لها: «التاروت» وهي عبارة عن ورق لعب أطول من الورق العادي ويحمل صوراً مختلفة وعدده لا يقل عن ٧٨ ورقة. وتفنن اللاعبون أيضا في استنباط أنواع جديدة لورق اللعب لا مجال هنا لتعدادها.

ولتلبية الرغبة المتزايدة في ممارسة هذه اللعبة فتحت المقاهي الخاصة حيث كان يمضي العاطلون عن العمل الساعات الطوال بعضهم في مقارعة البعض الآخر بورق اللعب. وكالعادة أصدر الملك هنري الثالث في العام ١٥٧٧ قراراً بمنع تداول ورق اللعب إلا ان همسات خدم الملك التي كشفت عن عدم التزامه هو بالقرار الذي اصدره، شجع الناس على تجاهل قرار المنع.

البيليياردو:

عرف البيليياردو منذ القرن السادس عشر، لكن رواجه لم يبرز الا بعد تشجيع الملك لويس الرابع عشر له. فخصصت للبيليياردو قاعات مغلقة في قصر فرساي. وكان الملك يرتادها كل يوم بين السابعة والثامنة مساء. أما حفيده الاصغر، لويس الخامس عشر، فيبدو أنه لم يتحمس له كثيراً، على عكس لويس السادس عشر الذي كان يهوى هذه اللعبة رغم ضعف بصره.

ومن الطريف أن النبلاء الفرنسيين لم تجتاحهم غيرة اقتناء البيليياردو، بغض النظر عن حبهم للعبة أم لا ، الا في عهد لويس السادس عشر إذ ان عهد هذا الملك الأخير كان في الواقع صورة كاريكاتورية عن عهد «الملك الشمس».

ومن يومها فقدت هذه اللعبة الارستوقراطية طابعها البورجوازي وانتشر البيليياردو في المقاهي الكبرى والأماكن العامة الى درجة أنه أصبح لهواة هذه اللعبة أكاديمياتهم الخاصة التي ما زالت موجودة في فرنسا حتى يومنا هذا.

العاب الكبار للصغار والعاب النساء للرجال:

كثيرة هي الألعاب التي تبرز ثم تختفي، أو تلك التي تخف شعبيتها بين الحين والآخر حسب حاجات العصر ومتطلباته، وكانت بعض الألعاب الخاصة بالكبار في فترة تاريخية معينة

لعبة المطرقة



لعبة الشيطان



تصبح في فترة اخرى من اختصاص الصغار، والأمر صحيح أيضا بالنسبة الى الألعاب التي كانت خاصة بالنساء فاصبحت من نصيب الرجال، وهكذا من غير أي حرج للجيلين أو للجنسين.

نذكر من هذه الألعاب لعبة النرد ولعبة الطاولة أيضا التي كانت في السابق من أكثر الهوايات شعبية عند النساء، ولعبتي الاستغماية والحطة – نطة اللتين كانتا في الأصل للشباب قبل أن يحتكرها الأولاد. وهناك لعبة طريفة جداً يبدو أنها اختفت اليوم وهي «لعبة الشيطان» (ديابولو): فهي عبارة عن قضيبين موصولين بحبل توضع فوقه بكرة. وعلى اللاعب أن يرفع البكرة بالحبل ويقذف بها في الجو ثم يلتقطها من جديد بواسطة الحبل. راجت هذه اللعبة الصعبة نوعا ما في القرن الثامن عشر ثم دخلت التاريخ المنسي.

وفي الوقت نفسه أيضا انتشرت «لعبة المطرقة» التي ما تندثر الا لتحيا من جديد في لعبتي الكروكي (لعبة بالكرات الخشبية) والغولف.

أما لعبتا الهيلاهوب واليويو فانهما تبرزان ثم تختفيان لأسباب متفرقة. المهم أن الانسان يبتكر دوما التسليات والألعاب التي تخفف من ضجره وتسد أوقات فراغه.

واليوم تفرخ الألعاب الجديدة بمعدلات قياسية ولا حدود لها الا حدود خيال الانسان. إذ من كان يتصور في القرن الثامن عشر أن تتحول لعبة «القنديل السحري» البدائية والبسيطة جداً الى «لعبة القرن العشرين»: السينما.. ■



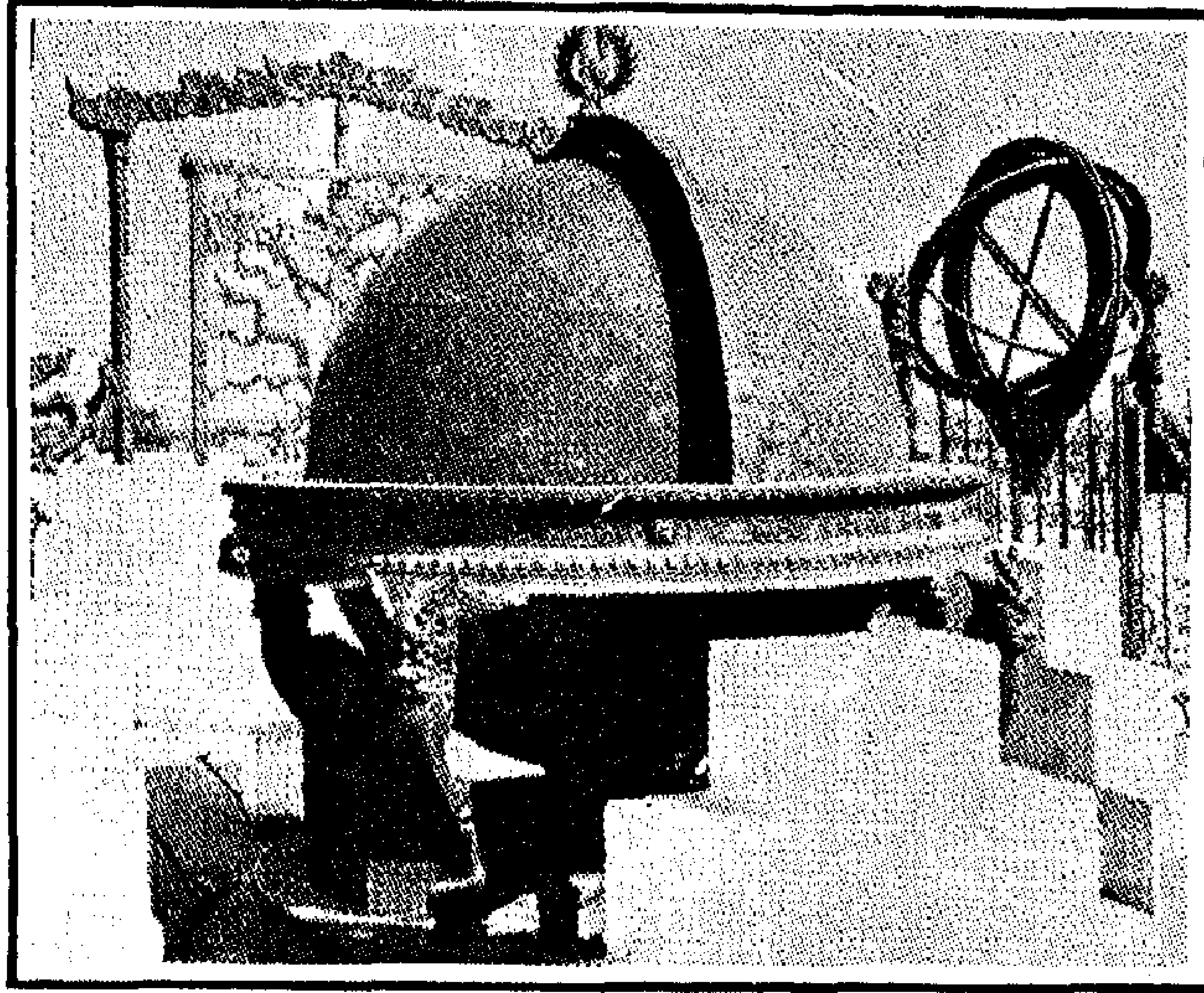
- الوقوف من المازق في منتصف الطريق، هو اكثر الأشياء تضييعاً للوقت. — نيوباير

- ان العبد الحقيقي هو ذلك الذي لا يستطيع ان يصرح بآرائه — اوريبيدس



رسائل الماجستير والدكتوراه

اقدم مرصد فلكي في العالم، بني في عصر كوبله خان في القرن الثالث عشر الميلادي



امبراطوريات الصين

الحلقة الثالثة

طارق فتحي سلطان

في الحلقة الثالثة والأخيرة من دراسة وتحليل تطور وتسلسل حكم الأسر لمقاطعات الصين، سنعرض الفترة الأخيرة التي تمتد من القرن الثاني عشر حتى الرابع عشر الميلادي مرافقين نشوء قوى حاكمة وتراجع اخرى مُخلية مكانها للأقوى والأفضل. وهي دراسة شاملة وموضوعية، علمية ودقيقة الأسانيد، يمكن أن تعد مرجعاً في التأريخ للصين وامبراطورياته منذ ظهور الاسلام.

٧ - امبراطورية سونغ الجنوبية: (Southern Sung) (١١٢٧-١٢٧٩م)

بعد ان قضت دولة الكين (Chin) على سلالة سونغ الشمالية فر (Kao Tsung) الى نانكين(Nanking)[١]، واعلن نفسه امبراطورا واسس امبراطورية سونغ الجنوبيه[١]. وقد خاضت هذه الامبراطورية حروبا طويلة مع الكين، انتهت بعقد صلح بينهما[٢]. وخضعت

● (امبراطوريات الصين) رسالة ماجستير اعدت في كلية الاداب قسم التاريخ في جامعة الموصل.

لهذه الامبراطورية المناطق الواقعة جنوب نهر اليانغستي، وقد وسعت اسرة سونغ الجنوبية علاقتها مع اقطار جنوبي شرقي اسيا، خصوصا بعد ان فقدت سيطرتها على طرق غربي اسيا، فاستوطن عدد كبير من التجار المسلمين واليهود في بعض مدن الصين[٤]، وعوضت امبراطورية سونغ الجنوبية عن فقدان سيطرتها على طرق غربي اسيا التجارية، بتوسيع وتنشيط اسطولها التجاري، وقد بنت لها اول اسطول بحري في هذه الفترة فبين سنتي ١١٣٠ - ١٢٣٧ م ارتفع العدد من ١١ اسطول الى ٢٠ اسطول وارتفع كذلك عدد طاقمها من ٣,٠٠٠ الى ٥٢,٠٠٠ رجل[٥].

اما عن علاقة سونغ الجنوبية مع المغول، ففي البداية كانت العلاقة بينهما حسنة، حيث ساعدت اسرة سونغ المغول في القضاء على دولة الكين (Chin)، مقابل حصول اسرة السونغ الجنوبية على المقاطعات الواقعة جنوب النهر الاصفر، وتم الاتفاق وسقطت اسرة كين سنة ١٢٣٤م، الا ان المغول نكثوا بوعدهم لذلك لم يقنع الامبراطور السونغي بما منح له، بل صمم على استعادة لويانغ (Lo-Yang)، الا ان المغول قاموا بكسر السدود المائية لتدمير جيش سونغ الجنوبية[٦]، وعقد المغول مجلسا في القوريلتاي في سنة ١٢٣٥م، بعدما احتل جيش السونغ مدينتي كاي فونج ولو يانج، لدراسة هذه الاعتداءات، فتوجهت ثلاثة جيوش الى الصين، احتل الاول منها تشينج تو ١٢٣٦م، واحتل الثاني مدينة سيانج يانج ١٢٣٦م، اما الجيش الثالث فتوجه الى هوانج تشو الواقعة على نهر اليانغستي، الا انها صمدت لهم، ثم قامت سلالة سونغ باستعادة سيانج يانج في سنة ١٢٣٩م، واستمرت الحرب بين المغول وامبراطورية السونغ قرابة ٤٠ سنة انتهت بانتصار المغول سنة ١٢٧٩ على اسرة سونغ الجنوبية[٧]. ومن الطبيعي ان هذه الحروب استنزفت الكثير من الاموال والانفس طوال هذه الفترة وما تعرض له اقتصاد الصين، جراء تسخير هذا الاقتصاد للمجهود الحربي ضد المغول، وسحب الكثير من الايدي العاملة في الانتاج الزراعي وغيره، للدفاع عن الامبراطورية.[٨]

٨ - المغول: يوان (Yuan). ١٢٣٤-١٣٦٨م

يطلق على المغول باللغة الصينية منغ كو (Meng-Ku)[٩]، والمغول من سكان منغوليا، حيث عاشوا عيشة حروب ومنازعات، كانت تحدث بين القبائل المتواجدة في منغوليا، حيث كانت تقوم الامارات وتسقط بفعل التحالفات التي كانت تقام بين بعض القبائل، ضد البعض الآخر، الى ان تمكن جنكيز خان من توحيد منغوليا برمتها، عند ذلك قام بمهاجمة هسيا - هسي (Hsia-Hsi) في سنة ١٢٠٩م، ثم توجه لضرب الكتان في حرب استمرت ٢٥ سنة، وبعدها اتجه نحو امارة القراخطاي في سنة ١٢١٨م[١٠]. ثم اندفع المغول لحرب سلالة الكين، واحتلوا عاصمتها بكين، فاضطرت سلالة كين الى نقل عاصمتها الى (Kai-Feng)، بعد ذلك جرى التحالف بين المغول وامبراطورية السونغ الجنوبية من اجل القضاء على الكين، فامدت امبراطورية السونغ الجنوبية المغول بـ ٢٠,٠٠٠ جندي، حيث تمكنوا من اسقاط هذه السلالة[١١]، بعد ذلك جرى التصادم بين المغول وامبراطورية السونغ الجنوبية في عهد الامبراطور المغولي اقطاي، حيث جنى ثمار هذا النصر خليفته الامبراطور قوبلاي، وبذلك تمت السيطرة المغولية على الصين. فقد اتخذ المغول الصين قاعدة لانطلاقهم الى اليابان واقطار جنوبي شرقي اسيا[١٢]، وقد حملت هذه السلالة المغولية في الصين اسم يوان (Yuan) سنة ١٢٧١م[١٣].

وعندما اتموا سيطرتهم على الصين، واجه المغول مشكلة ادارة البلاد، سيما وقد تجاوز عدد سكانها الستين مليون نسمة، وقد سيطر المغول في هذه الامبراطورية، على المراكز العسكرية وبقية المراكز الحساسة في الامبراطورية، واستعانوا بالكثير من الاجانب سواء اكانوا مسلمين ام اتراك او يغوريين في الادارة، فجرى تعيينهم في معظم الوظائف

الكتابية، ونظرا لأن المغول يجهلون اللغة الصينية، بعكس الاويغور الذين كانوا يجيدون اللغتين المغولية والصينية، وكانت أوامر الحكومة الرسمية تصدر باللغتين المغولية والصينية، كما منع المغول الصينيين من تعلم اللغة المغولية، او اية لغة اخرى، ومعنى هذا عدم السماح لهم، باشغال مراكز ادارية في هذه الامبراطورية(١٤).

وقد لاقى الشعب الصيني الامرين من الحكم المغولي، فقد عمل المغول على تمزيق وحدة الشعب الصيني متبعين سياسة فرق تسد، فجرى تقسيم الصين الى اربع طبقات هم ١ - المغول ٢ - الـ (Semus) (ذوي العيون الملونة) ويضمنهم سكان الاقاليم الغربية واقليم هسيا، ٣ - الهان ومعهم الخطاي، والـ (Nuchen) والكوريين في شمال الصين ٤ - سكان الاقاليم الجنوبية من مختلف القوميات(١٥)، وقد طبق المغول احكام الياسا على الشعب الصيني(١٦).

وكان المغول في قمة السلم الطبقي، حيث تميزوا هم والـ (Semus) باستثناءات قانونية، فإذا ارتكب شخص من هذه الطبقات جريمة، يحاكم في محكمة خاصة، واذا ضرب مغولي شخصا من الهان او من الجنوبيين، فإنه لا يعاقب، وإذا قتل مغولي شخصا من الهان او من الجنوبيين، فإن العقوبة تكون غرامة بسيطة(١٧).

وانتشر الجيش المغولي في مختلف اقسام الصين، وازدادت الضرائب حتى تجاوزت اكثر من ٢٠ ضعفا(١٨). واستغلت الاراضي الزراعية الصينية، حيث اجبروا الفلاحين على العمل بها، كما ارتفعت ايجارات الارض التي كان يدفعها الفلاحين، فعلى سبيل المثال بلغ ايجار كل (Mou) من الارض من ٣٠ - ١٠٠ (catties) من الحنطة. بالاضافة الى ضرائب متنوعة اخرى، يضاف الى ذلك طرد الكثير من الفلاحين من اراضيهم(١٩). وحتى الخيول التي كانت لدى الصينيين خضعت لمصادرة المغول، فقد فقد الفلاحون ٧٠٠,٠٠٠ حصان، كما قام المغول باقراض الفلاحين الصينين النقود بفوائد عالية قد تبلغ اكثر من ١٠٠٪، والتي يعجز الفلاحون عن تسديدها، لذلك كانوا يقعون هم او ممتلكاتهم تحت رحمة المغول. وحتى اصحاب المهن خضعوا ايضا لخدمة المغول، حيث اصبحوا كصناع حكوميين(٢٠).

لذلك نجد ان المقاومة تشتد ضد الوجود المغولي في الصين، جراء الاضطهادات التي تعرض لها الصينيون من المغول، في محاولة للتخلص منهم، واخذت الثورات تندلع ضد الوجود المغولي في مناطق متعددة من الصين.

وقد نشبت الثورة داخل الجيش المغولي نفسه، اذ اعلن ثيان قائد الجيوش في منشوريا ومنغوليا وشمال كوريا، وكايدو وحاكم التركستان، الثورة ضد قويلاي خان، الا ان قويلاي خان اسرع لضربهما وقضى على التمرد(٢١). ولم يذكر ماركوبولو، سنة وقوع الحدث الا انه يرجح انه حدث في أوائل سني قدوم ماركوبولو الى الصين.

كما انطلقت ثورة اخرى في الصين نفسها، وفي عاصمة المغول بكين، اذ استغل الثوار غياب قويلاي عن بكين، معلنين بدء الثورة، وكان يقيم نيابة عن الخان شخص آخر اسمه احمد(اتشمسك)، فاتفق (Chen-Ku)، الذي كان قائدا على ٦,٠٠٠ رجل و (Van-Ku)، الذي كان قائدا على ١٠,٠٠٠ شخص من المدنيين - حيث استاء الاول من اعتداء احمد على زوجته وابنته، وكانت اشارة الثورة هي اشعال النار، والبدء بقتل كل ذي لحية، وقد تحايل (Chen-Ku) و (Van-Ku) لدخول القصر ليلا. وتم ارسال رسول الى احمد يخبره بقدوم ابن قويلاي في هذه الساعة المتأخرة من الليل، الا ان أمر الثورة قد انكشف، وفشلت الثورة وقتل احمد فيها، وقد قتل المغول كل من وجد خارج بيته من الصينين، ولما عاد الامبراطور قويلاي خان، تحرى عن اسباب الثورة، فانصبت اسبابها على احمد وابنائه، وقد عوقب كل من له يد في ظلم الناس من ابناء احمد. ويشير ماركوبولو الى ان احمد قد ظلم الناس وكان يفعل كل شيء بارادته من دون استشارة الخان، وحتى اذا استثاره يكون رأيه هو الارجح(٢٢). وكان احمد يغتصب النساء حسب ما ذكره ماركوبولو، ولربما اعتقد

ماركوبولو بأن زواجه من اربع نساء، وهو ما يجيزه الشرع الاسلامي، مدعاة ان ينظر اليه بتعجب سيما وانه شخص مسيحي، وقد كانت للمكانة التي تمتع بها اتشمك (احمد) لدى قوبلاي جعلت ماركوبولو ينظر اليه بشيء من الحسد.

لقد استعانت الادارة المغولية في الصين بـ ١٢ وزيرا من الصينيين من مجموع ٣٤ وزيرا ويقيمون في بكين ويختارون هم بقية الموظفين الاداريين من الصينين[٢٣]. الا ان هذه الادارة المغولية لم تستطع ان تحل مشاكل المواطنين نتيجة لاسباب متعددة منها جهل المغول اللغة الصينية، وعدم تفهمهم لمشاكل الناس نتيجة لعدم معايشتهم لها. بالاضافة الى تردي اوضاع الناس بصورة عامة ففي احصاء عام ١٣٢٩م تبين ان ٧,٦٠٠,٠٠٠ شخص في الامبراطورية يعانون من الجوع، وهذه هي الاحصاءات الرسمية، اذ يرجح ان تكون الارقام الصحيحة هي اكثر من هذا الرقم بكثير[٢٤].

وهكذا كانت الثورات تنطلق في اماكن متعددة من البلاد، وكان يقود هذه الثورات ناس من طبقات فقيرة منهم بائعو الملابس، صيادو السمك، الفلاحون، مهربو الملح، ابناء الجنود، وكان هؤلاء الثوار يهاجمون المغول. بل يهاجمون الاغنياء بسبب ما يعانونه من الجوع والحرمان[٢٥].

ونتيجة لهذه الاوضاع لم تعد الجيوش المغولية قادرة على مواجهة الثوار والقضاء عليهم، لكثرة الثورات واتخاذها اسلوب حرب العصابات وانتشارها في بلاد الصين.

كما لعبت العوامل الطبيعية دورها، ففي سنة ١٣٥١م انكسرت السدود على طول النهر الاصفر مع ما يعنيه هذا العمل من تدمير المحاصيل الزراعية، وقد قام المغول بدفع اكثر من ١٥٠,٠٠٠ رجل من اجل اصلاح السدود، ثم اندلعت الثورات الصينية في هونان و (Kiangsu) و (Shantung)، وكان لاعمال السخرة دور واضح في هذه الثورات، وكان لبعضها اهداف دينية او اهداف سياسية كإعادة اسرة سونغ الى الحكم[٢٦]. وكان



من كتاب صيني للاعشاب، يشرح عن نبتتين تفيدان أمراض الصدر.

لضعف الاباطرة المغول المتأخرين وانغماسهم بالملذات وعزوفهم عن ادارة الامبراطورية، اثر في تأجج الثورات واستمرارها[٢٧].

فانطلقت المقاومة من الجنوب فالتحق (Kuo) مع رجل راهب اسمه (Chu-Yuan Chang)، والذين استطاعوا جمع الناس الساخطين ضد الوجود المغولي في الصين، وقادوا الثورة، وفي سنة ١٣٥٥م توفي (Kuo) وحل (Chu) محله في قيادة الثوار[٢٨]. وقد احتلوا المناطق تباعا، ابتداء من نانكين التي سقطت سنة ١٣٥٦م. وكانتون ١٣٦٧م، وبكين ١٣٦٨م، ثم اتخذت هذه الثورة نانكين عاصمة

لها[٢٩]. وقد قتل جميع المغول الذين بقوا في المدن الصينية، واستطاعت الدولة الجديدة طرد المغول من الاجزاء الشمالية للصين، كما عمل الامبراطور (Chu Yuan-Chang)، على طمس المعالم المغولية، والعودة الى كل ما هو صيني، وربط الصين بماضيها القومي، وجرى الاهتمام بالديانة البوذية والكنفوشية[٣٠]، الا ان الاستقرار لم يكن شاملا حتى مجيء الامبراطور (Yung-Lo) ١٤٠٣ - ١٤٢٤م الذي قام بنقل العاصمة الى بكين[٣١]، واعاد الهدوء الى البلاد.

وقد اتخذت هذه الدولة لنفسها اسم سلالة منغ (Ming)، وقامت بتوجيه ضربة للوجود المغولي في منغوليا سنة ١٤٠٣م، حيث دمرت عاصمة المغول قراقورم، واصبحت منغوليا بعد هذا جزءا من اراضي الصين[٣٢]، كما مدت الصين نفوذها الى المناطق الجنوبية ومنها مقاطعة يونان[٣٣].

الهوامش

(١) نانكين هي (Shang Chin) في اقليم هونان، ثم نقلت العاصمة بعد ذلك الى Linan (Hang chow)، A.O.H.C.: P.146

(٢) A.O.H.C.: P.146.

(٣) Ibid: P.145-150; راجع كذلك امبراطورية الـ (Chin).

(٤) Bohot, Jean: Chinese and Japanese ART New York 1967 P.104.

(٥) زيادة: المصدر السابق ص.١٢٨؛ Simkin: op.cit P.90

(٦) A.O.H.C.: P.152-153.

(٧) العريني: المصدر السابق ص.١٦٥.

(٨) Files, Teobaldo: Chino and Africa in the Middle Age London 1972,p.26.

(٩) Eberhard: op.cit.p.238.

(١٠) بروي: المصدر السابق مجلد ٣ ص.٢٥٩ - ٢٦١.

(١١) A.O.H.C.: p.152-153.

(١٢) بروى: المصدر السابق مجلد ٣ ص.٢٥٩ - ٢٦١.

(١٣) A.O.H.C.: p.154.

(١٤) Eberhard: op.cit.p.238-239.

(١٥) A.O.H.C.: p.157.

(١٦) Eberhard: op.cit.p.247.

(١٧) A.O.H.C.: p.158.

(١٨) A.O.H.C.: p.158.

(١٩) Ibid: p.157.

(٢٠) Ibid: p.156-157.

(٢١) ماركوبولو: المصدر السابق ص.١٢٩ - ١٣٢.

(٢٢) ماركوبولو: المصدر السابق ص.١٤٧ - ١٥٠.

(٢٣) بروى: المصدر السابق ص.٢٧٧.

(٢٤) Eberhard: op.cit.p.246.

(٢٥) Ibid: p.246.

(٢٦) Ibid: p.247.

(٢٧) Simkin: op.cit.p.141.

(٢٨) Eberhard: op.cit.p.247-248. وقد اطلق على هذه الجماعة التي قادت الثورة اسم جمعية الـ (Red Turbans) السرية A.O.H.C.: p.159.

(٢٩) Simkin: op.cit.p.141.

(٣٠) بروى: المصدر السابق مجلد ٣ ص.٢٨٨. Eberhard: op.cit.p.250.

(٣١) Simkin: op.cit. p.141.

(٣٢) Needham: op.cit.Vol. 1p.143.

(٣٣) Fitzeraled: op.cit.p.90-91.

مواعيد رحلات طيران الشرق الاوسط إلى

الخليج

الكويت : يوميًا ماعدا السبت الإقلاع الساعة ١٨،٣٠

الظهران : يوميًا ماعدا الثلاثاء الإقلاع الساعة ١٨،٢٠

*البحرين : يوميًا الإقلاع الساعة ١٧،٥٥

*الدوحة : يوميًا الإقلاع الساعة ١٧،٥٥

*دبي : يوميًا الإقلاع الساعة ١٨،١٠

*ابوظبي : يوميًا الإقلاع الساعة ١٧،٤٠

*مسقط : أيام الاثنين - الاربعاء والجمعة الإقلاع الساعة ١٨،١٠

*رأس الخيمة : يومي الثلاثاء والسبت الإقلاع الساعة ١٨،١٠

للاستعلامات والحجز راجعوا وكيلكم للسفر المعتمد لدى «ايانا» أو مكاتب الشركة :

مركز جفينور ت : ٣٦٨٠٠٠ صيدا ت : ٧٢١٤٦٠

مكتب المبيعات في الادارة العامة ت : ٣١٦٣١٦ طرابلس ت : ٦٢٧٢٧٥

أوتيل الكسندر ت : ٣٣٩٩٣٠ بحمدون ت : ٥٦٠٥٠٥

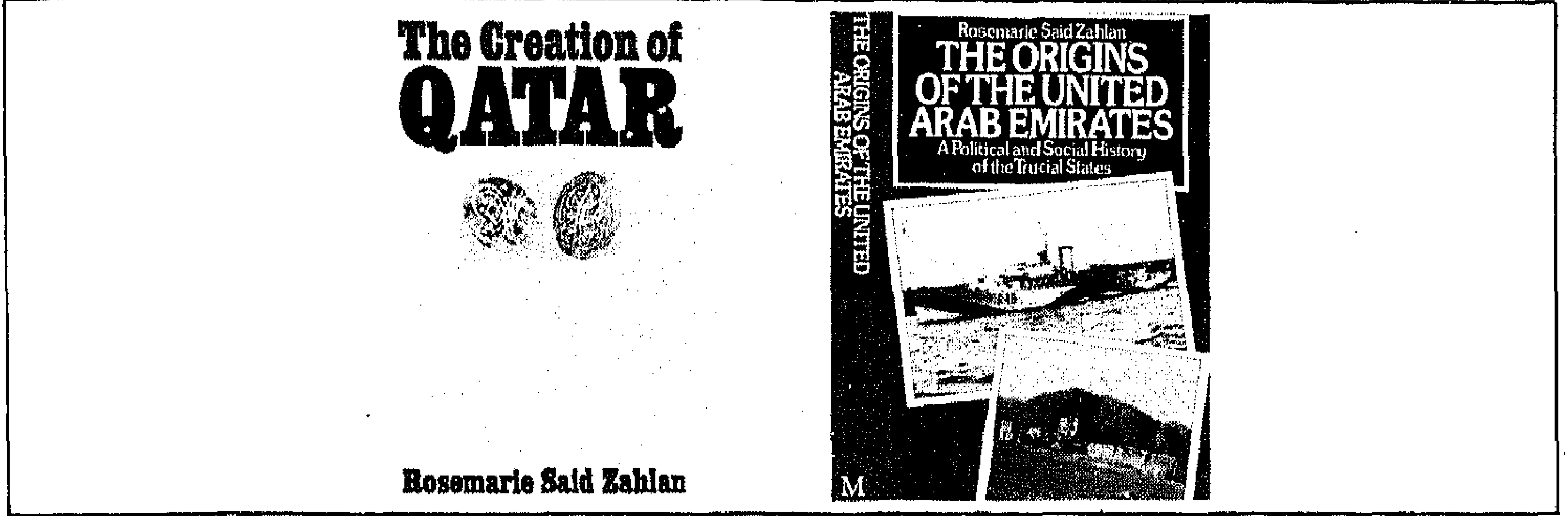
مكاتب الحجز تفتح ليلًا نهارًا ت : ٢٧٤٣٣٠ / ٢٩٢٢٢٠



*بالاشتراك مع طيران الخليج



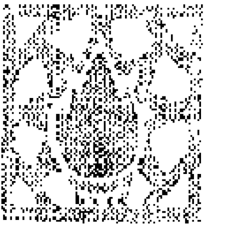
كتب وردتنا



أصول الإمارات العربية المتحدة — تكوين دولة قطر

روزماري سعيد زحلان

مراجعة: د. خلدون ساطع الحصري



تقدم الدكتورة روزماري سعيد زحلان في هذين الكتابين التاريخ الحديث لدولة قطر ومشيخات الخليج المتصالح السبعة التي تكون اليوم دولة الامارات العربية المتحدة. وهذان الكتابان، وأقولها بدون أي تردد أو تحفظ، هما افضل ما قرأت حول الموضوع. وارجو ان تجرى ترجمتهما الى العربية ليستفيد منهما الذين لا يجيدون اللغة الانكليزية.

إن أكثر ما هو منشور عن منطقة الخليج يركز اهتمامه الرئيسي على علاقات الدول الأجنبية بالمنطقة، مهملاً دراسة التطورات في داخل المجتمعات الخليجية. كما أن اكثر ما نشر مكتوب من وجهة النظر الأوروبية، بصورة عامة، ومن وجهة النظر البريطانية، بصورة خاصة. كذلك، أكثر ما نشر لم يستخدم الوثائق البريطانية المتعلقة بالخليج، فان هذه الوثائق لم تكن مفتوحة للباحثين. اما كتابا الدكتورة زحلان فخاليان من هذه العيوب.

ويثير ما كتبته الدكتورة زحلان، ككل الكتابات التاريخية الجيدة، عددا من الأسئلة والملاحظات والخواطر، قد لا يكون لبعضها صلة مباشرة بمنطقة الخليج، او حتى بالفترة الزمنية التي كتبت عنها. واريد ان اسجل هنا بعضها:

ما هي خصائص الاستعمار البريطاني الذي عرفته منطقة الخليج لمدة قرن ونصف؟ ما هي اوجه الاختلاف بينه وبين الاستعمار البريطاني في مناطق أخرى من العالم العربي؟

لربما كان الاستعمار البريطاني في الخليج أسوأ الاستعمارات البريطانية التي ابتلى بها العالم العربي. وذلك لأنه كان من بعض الأوجه «اقوى من اللازم»، ومن بعض الأوجه الأخرى «أضعف من اللازم»، لأنه «تدخل اكثر من

اللازم»، و«لم يتدخل بقدر ما هو لازم» في شؤون المنطقة.

وفي الخطاب الشهير الذي القاه اللورد كورزن عام ١٩٠٢ على شيوخ الشاطىء المتصالح ذكّرهم بأن علاقات بريطانيا بهم تستند الى الاتفاقات والمعاهدات المعقودة معهم والتي وفقاً لها «تصبح الحكومة البريطانية الحاكم الأعلى عليكم والحامية لكم، ولا تكون لكم علاقات مع أية دولة اخرى. كل امارة من الامارات المعروفة بامارات الشاطىء المتصالح قد ألزمت نفسها، كما تعلمون، بأن لا تعقد اي اتفاق وأن لا تقيم اية صلات مع دولة اخرى، وان لا تقبل فيها ممثلاً لأية حكومة اخرى، وان لا تتنازل عن أي جزء من اراضيها. هذه الاتفاقيات ملزمة لكل فرد منكم».

وبهذا الالزام قطعت بريطانيا كل صلات مشيخات الخليج بالعالم الخارجي وبالقوى الخارجية. وهكذا، لم يمنح أي «أجنبي» في فترة ما بين الحربين العالميتين «فيزا»، تأشيرة، لزيارة الشاطىء المتصالح. (وتظهر الوثائق البريطانية التي تفحصتها من مدة في لندن كيف ان السلطات البريطانية ضغطت على امير الكويت ليلغي دعوة كان قد وجهها الى فيصل الأول ملك العراق لزيارة الكويت).

ان عزل مشيخات الخليج عزلاً شبه تام عن العالم الخارجي وتياراته كان عاملاً فعالاً في منع تطويرها وتوحدها. فالوجود الاستعماري البريطاني في الخليج كان يحول، مثلاً، بين السعودية وبين توحيد مشيخات وامارات الخليج، او معظمها، كما اخضعت امارة حائل وعسير لسلطتها المركزية. وكان هذا ممكناً.

وأضرار الاستعمار البريطاني بالنسبة لقضية التوحيد لم تقف عند هذا الحد. وتقول الدكتورة زحلان حول ذلك «وطيلة القرن التاسع عشر، وبسبب المعاهدات المتعاقبة، قوّت بريطانيا الهوية المنفصلة للمشيخات وساعدت حكامها على ان يرسخوا انفسهم بصورة اقوى». كذلك كانت بريطانيا تستطيع ان تعاون احد الحكام المحليين الأقوياء على توحيد المشيخات او بعضها على الأقل، وكان هذا ممكنا على الأرجح خلال الفترة الطويلة لحكم الشيخ زايد الأول، حاكم ابو ظبي القوي، وقد كانت ٤٦ عاماً، امتدت من ١٨٥٥ الى ١٩٠٩.

وهنا انتقل من الاستعمار البريطاني «الأقوى من اللازم»، الى الاستعمار البريطاني «الأضعف من اللازم». ما الذي كانت تريده الامبراطورية البريطانية من تواجدها على الشاطىء المتصالح؟ شيء واحد فقط: حماية خطوط مواصلاتها الى الهند. ولذلك كانت قد حصرت اهتمامها بالشاطىء دون الداخل. وعلى هذا كانت المعاهدة التي عقدتها مع مشيخات الخليج في ١٨٥٣ تمنع هذه المشيخات من التقاتل في البحر. اما ما كان يحدث في الداخل، في اليابسة، فلم تكن تتدخل فيه. وهكذا نرى المقيم البريطاني يكتب في عام ١٩٢٤ عندما كان القتال بين عجمان والشارقة على وشك الوقوع: «نحن لا نريد التورط في نزاعاتهم الداخلية. في الواقع قد يكون من الحظ الحسن (لنا) ان وراء هذه الموانىء (على الشاطىء)، الداخل الذي خلف الشاطىء، وفيه يستطيع هؤلاء ان يصرفوا ما لديهم من حيوية زائدة في العادة العربية السحيقة القدم: الغزو والغزو المضاد، بدون ان يكون لهذا تأثير علينا».

ومن البديهي ان غزو القبائل بعضها لبعض، في العراق مثلاً، لم يكن ممكنا «بدون تأثير» على بريطانيا ومصالحها. ومن هنا كان على بريطانيا ان تتدخل في العراق لايقاف الاقتتال القبائلي (وقد تدخلت فعلاً)، بينما كانت تقف مما يجري في الخليج موقف المتفرج.

إن عدم التدخل البريطاني في «الشؤون الداخلية» لمشيخات الخليج ادى إلى إبقاء أوضاعها على ما كانت عليه، بدون أي تطوير او تحسين، مثل فتح المدارس وشق الطرق وما إلى ذلك. (ولربما كان علينا ان نسجل هنا على الهامش بأن الاستعمار عندما يقوم ببعض الاصلاحات أحياناً، فهذه لا تكون من أجل «سواد عيون» المستعمَر، ولكن لمصلحته هو بالدرجة الاولى. فالمدارس المفتوحة تزود الاستعمار بالكوارد الضرورية من الموظفين لادارة المستعمرة، والطرق تشق لتحقيق اهداف المستعمر العسكرية والاقتصادية). في الخليج كان الأمر مختلفاً. وعلى هذا، في قطر - على

سبيل المثال – بنى الشيخ عبد الله بن قاسم اول مستشفى في عام ١٩٤٣ فقط. والمبادرة هنا كانت شخصية من قبل الحاكم القطري، وليست مبادرة بريطانية. ويمكننا القول بأنه ربما لم يكن للاستعمار البريطاني في الشاطىء المتصالح اي دور ايجابي، باستثناء مكافحته للرق ولتجارة الرقيق.

كذلك أدى انعزال مشيخات الخليج عن العالم الخارجي، وانطوائها على نفسها، الى ابقاء مجتمعاتهم بدوية صرفة، سواء في تركيبها، او في انماط الحياة والعلاقات السائدة فيها. وتلاحظ الدكتورة زحلان ان من اكثر معالم هذه الحياة البدوية ضرراً بمشيخات الخليج كان انعدام نظام ثابت لانتقال الحكم بالوراثة من الحاكم الى اكبر ابنائه سناً، ثم الى اكبر ابناء ذلك الابن الأكبر، وهكذا بالتعاقب. وهو ما يدعى بالانكليزية law of primogeniture. ان فقدان مثل هذا الاجراء الثابت لتوارث الحكم كان يؤدي الى نشوب صراعات عنيفة على الحكم والسلطة لدى وفاة او اغتيال حاكم احدى المشيخات، مما كان يؤثر تأثيراً سلبياً جداً على الحياة الاجتماعية والاقتصادية لسكان المشيخة. ولم تكن فترات عدم الاستقرار المصاحبة لهذه الصراعات قصيرة دائماً. ففي ام القوين، مثلاً، عقب وفاة الشيخ راشد بن احمد في ١٩٢٢، صراع دموي دام سبعة اعوام. وفي ابو ظبي أدت وفاة الشيخ زايد بن خليفة في ١٩٠٩ الى نشوب صراع دام ١٦ عاماً، تعاقب على الحكم خلالها اربعة شيوخ.

ولنلاحظ ان الخلافة في التاريخ العربي لم تتخذ لها نظام توارث يعقب بموجبه الابن الأكبر الأب اوتوماتيكياً. لقداتبعت الخلافة، في الواقع، العرف البدوي القديم السابق للاسلام، وفيه لا يتولى الابن الأكبر للشيخ المشيخة عندما تشغر، ولكن يختار لها، من بين بيت الشيخ المتوفي، من هو اكبرهم سناً واحصفهم رأياً وأكثرهم كرماً وشجاعة. ومثل هذا النظام للخلافة كانت له في الدولة العربية نتائج سيئة شبيهة الى حد كبير بما كان يحدث في مشيخات الخليج. ومن هنا كان الشهرستاني مصيباً عندما كتب في «الملل والنحل»: «واعظم خلاف بين الأمة خلاف الامامة (اي الخلافة)، اذا ما سل في الاسلام على قاعدة دينية مثل ما سل على الامامة (الخلافة) في كل زمان.»

ان دراسة وتحليل المحاولات الجارية في الخليج لاقامة دول عصرية في مجتمعات قبلية امر هام للغاية بالنسبة لفهم الدول والكيانات السياسية العربية القائمة الآن. ان تجربتي قطر ودولة الامارات العربية المتحدة، مثلاً، تلقي الكثير من الضوء على تجارب الدول العربية الأقدم عهداً، لأن هذه الدول أيضاً قامت في مجتمعات بدوية في الأساس، مع بعض التفاوت في درجة البداوة بين الواحدة والأخرى.

وعلى هذا بامكاننا القول ان الخليج الآن يمكن تشبيهه بمختبر يستطيع فيه عالم السياسة او الاجتماع او الانثربولوجيا دراسة المادة الخام التي صنعت منها الكيانات السياسية العربية القائمة وفهم هشاشتها ونقاط الضعف التي تعاني منها. ■



بسمارك

لأسباب فنية نعتذر عن ارجاء موضوع بسمارك، الذي أعلنا عنه لهذه العدد، إلى العدد المقبل، وسيكون بسمارك عنواناً لأكثر من دراسة في إحاطة وافية بشخصه ودوره السياسي، وأثر ذلك على العالم.

تاريخ الطوابع

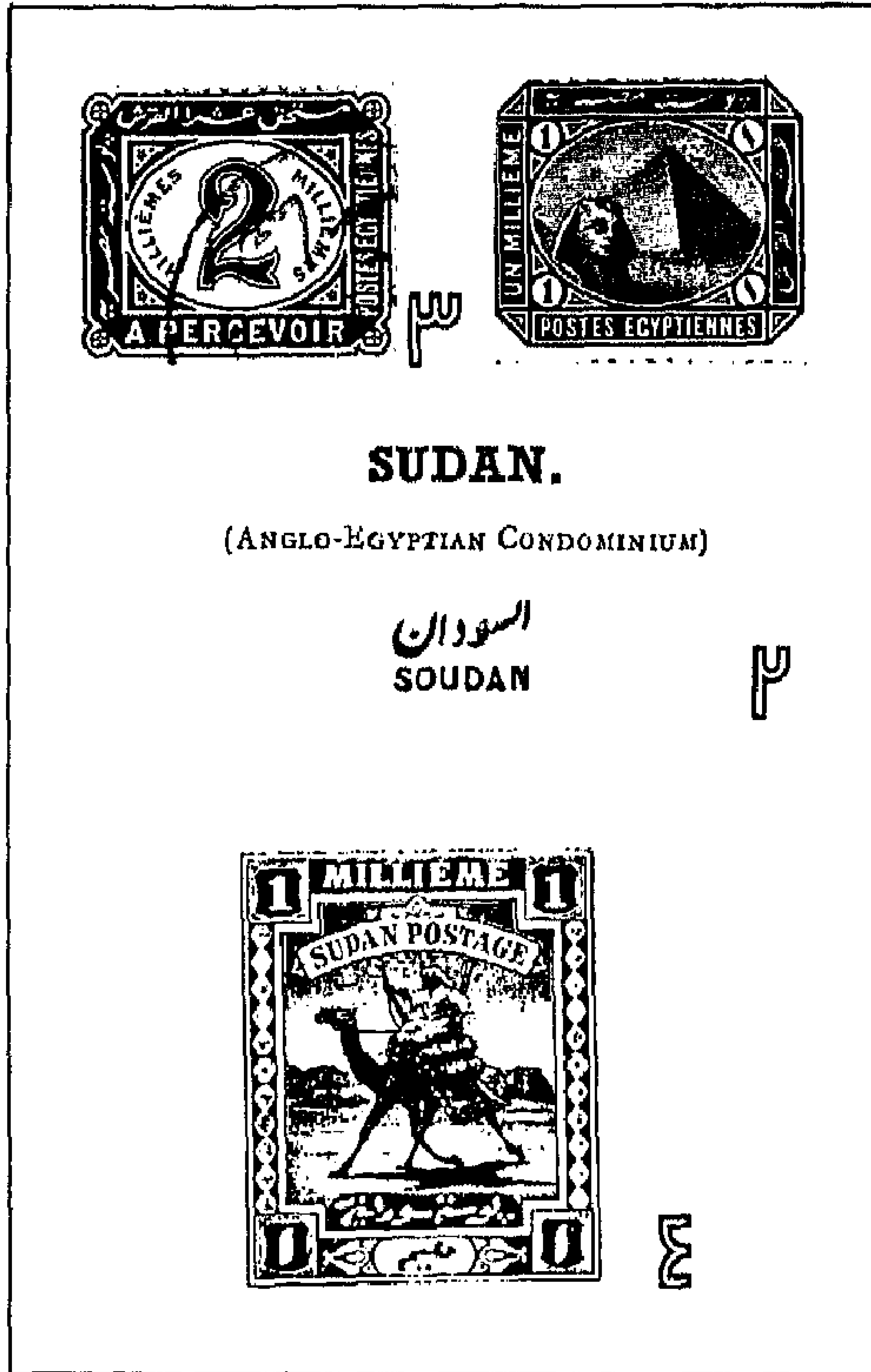
ميشال اسطفان

تاريخ طوابع السودان

من المعتقَد أن الطوابع المصرية استُعملت في السودان منذ سنة ١٨٦٧، إذ هناك دلائل تشير إلى ذلك من الطوابع المصرية المستعملة التي يرجع تاريخ إصدارها لسنة ١٨٧٢، ذلك قبل ظهور الطوابع المصرية إصدارات أبوالهول والأهرام لسنة ١٨٨٤ و١٨٨٨ و١٨٩٣ موشحة «السودان». (صورة١).

ففي أول آذار/مارس سنة ١٨٩٧ صدرت مجموعة مؤلفة من تسعة طوابع مصرية من فئة مليم واحد إلى عشرة قروش موشحة بكلمة «السودان» بالعربية والافرنجية (صورة ٢)، مع مجموعة موشحة «السودان»، للأجور المستحقة (صورة ٣) فئة ٢و٤ مليمات وقرش واحد وقرشان، وقد حدث خطأ بالمجموعة العادية بفئة المليم الواحد والخمسة مليمات، إذ ظهر التوشيح مقلوباً وأصبح قيمة كل منهما اليوم ٢٠٠ جنيه استرليني ويزيد، ووجد أيضاً طابع الخمسة قروش بتوشيح مكرر وأصبح نادراً جداً.

اما المجموعة الثانية فكانت خاصة بالسودان وهي تمثل صورة ساعي بريد عربي حاملاً بندقية ويمتطي جملا، وهذه المجموعة مؤلفة من ثمانية طوابع من مليم واحد إلى عشرة قروش (صورة٤)، وتميز بعلامة مائية في وسط كل طابع تمثل صورة زهرة. ولكي لا نشوش على القارىء التفاصيل العديدة التي تميزت بها إصدارات السودان المتشابهة ظاهرياً والمكررة سنة بعد اخرى، فضّلنا أن نضعها في اسلوب جديد يسهل معرفتها جميعا.



فللسودان مجموعات للبريد العادي والتذكاري والجوي وللبريد الحكومي ولبريد الجيش وللاجور المستحقة، وهناك كذلك فئات إفرادية صدرت موشحة بفئات اخرى لحاجة البريد لها بسبب شحتها.

فلنبدأ بالمجموعات العادية التي تحمل صورة الجَمَل والعربي ساعي البريد الذي يحمل بندقية.

فبعد المجموعة الاولى من هذا النوع، والتي علامتها المائية زهرة في الوسط صدرت:

مجموعة رقم٤: سنة ١٩٠٢/١٩٢١ - مجموعة الجمل (صورة٤)، مؤلفة من ١١ طابعاً من مليم واحد إلى عشرة قروش بعلامة مائية هلال كبير بداخله نجمة مخمّسة.

مجموعة رقم٥: وفي سنة ١٩٢١/١٩٢٣ - مجموعة الجمل (صورة٤)، مؤلفة من ٧ طوابع حجم صغير من مليم واحد إلى ١٥ مليماً وبالعلامة المائية: الهلال.

مجموعة رقم٦: وفي سنة ١٩٢٧/١٩٤٠ - مجموعة الجمل(صورة٤)، مؤلفة من ١٥ طابعاً من مليم واحد الى ١٥ مليما حجم صغير و من قرشين إلى ٢٠ قرشا وبعلامة مائية «S.G.».

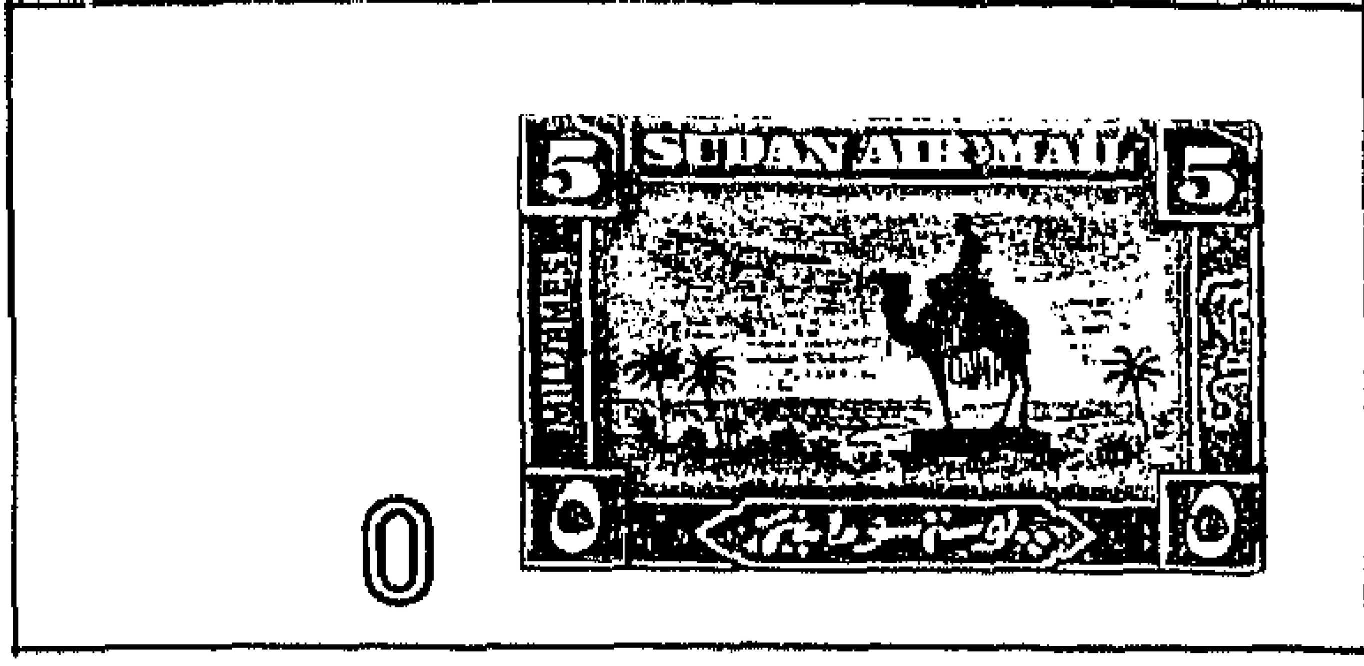
المجموعة رقم٧: وفي سنة ١٩٤١ آذار/مارس وآب/اغسطس - مجموعة تحمل صورة النخيل مؤلفة من ١٥ طابعاً من فئة مليم واحد الى ١٥ مليماً حجم صغير وقرشان الى ٢٠ قرشا حجم كبير قيمتها اليوم حوالي ٥٠ جنيها استرلينيا.

مجموعة رقم٨: وفي سنة ١٩٤٨ - أول كانون الثاني/يناير - مجموعة الجمل، ولكن تحمل أسم «بريد السودان» بدلاً من «بوستة سودانية»، مؤلفة من ١٦ طابعاً من مليم واحد الى ١٥ مليما حجم صغير وقرشان الى ٥٠ قرشا حجم كبير بعلامة مائية «S.G.».

مجموعة رقم٩: وفي سنة ١٩٥١ - أول أيلول/سبتمبر - مجموعة مختلفة المناظر من حيوانات وعمال ومؤسسات صناعية، مؤلفة من ١٧ طابعاً من مليم واحد إلى ١٥ مليماً حجم صغير ومن قرشين إلى ٥٠ قرشا حجم كبير وبعلامة مائية «S.G.».

وفي سنة١٩٠٣ أيلول/سبتمبر - طابع الجمل فئة الخمسة قروش من إصدار ١٨٩٨ موشحا بفئة ٥ مليمات وحدث أن توشح مقلوبا وبكمية محدودة جداً وقد أصبحت قيمته اليوم ١٨٠ جنيها استرلينيا.

وفي سنة ١٩٤٠/١٩٤١ - ٢٥ شباط/فبراير - طابع الجمل فئة ١٠ مليمات موشحا بفئة ٥ مليمات وطابع آخر فئة ٥ مليمات موشحا ½٤ قرشا وطابع ثالث فئة ٨ قروش موشحا أيضاً ½٤ قرشا. قيمتهم



اليوم تزيد على ١٢ جنيهاً استرلينيا.

أما للبريد الجوي فقد صدر:

في سنة ١٩٣١ - ١٥ شباط/فبراير وأول آذار/مارس مجموعة الجمل (صورة٤)، موشحة بكلمة «AIR MAIL» أي بريد جوي، فئة ٥ و١٠ مليمات حجم صغير وقرشان حجم كبير.

وفي سنة ١٩٣١ - أول ايلول/سبتمبر - مجموعة تمثال الجنرال غوردن (صورة٥) مؤلفة من ١٢ طابعا تخريم ١٤ × ١٤، وفي سنة ١٩٣٧ مجموعة من الصورة ذاتها مؤلفة من ٨ طوابع فقط، تخريم ½١١ في ½١٢.

وإيضاحا لمقاس التخريم فانه يعتبر ضمن قياس من سنتمترين فقط، أي عدد الأسنان يجب ان يطابق ضمن ٢ سنتمتر.

وفي سنة ١٩٣٢ - ١٨ تموز/يوليو - طابع واحد فئة قرشان (صورة٤)، موشحا «AIR MAIL» في الوسط و ½ ٢بالافرنجي في الزاويتين العليا، و½٢ بالعربي في الزاويتين السفلى.

وفي سنة ١٩٣٥ - مجموعة مؤلفة من ٦ طوابع موشحة بفئات، ١٥ مليم على ١٠م و½٢ قرش على ٣م و½٢ق على ٥م و٣ق على ½ ٤ و½٧ على ½ ٤ق و١٠ق على ½ ٤ق وقد حدث أخطاء عدة في التوشيح منها المقلوب ومنها المكرر؛ نذكر أهمها وهو أول طابع بتوشيح مكرر قيمته اليوم ٥٠٠ جنيه استرليني، وكذلك الثالث بتوشيح مكرر قيمته أيضاً ٥٠٠ جنيه استرليني.

وفي سنة ١٩٣٨ - أول تموز/يوليو مجموعة من ٤ طوابع موشحة بفئات مختلفة عن الاصلية، ٥م/ ½ ٢ق و٣ق/ ½ ٣ق و٣ق/ ½ ٧ق و٥ق/ ١٠ق، وهناك الثلاث فئات الأخيرة صدرت بتخريم مختلف عن الأول وهو

١١½ × ١٢ ½ بدلاً من ١٤ × ١٤ أصبحت قيمتها اليوم ٨٢٥ جنيهاً استرلينيا.

وفي سنة ١٩٥٠ - أول تموز/يوليو مجموعة مؤلفة من ٨ طوابع تحمل صوراً مختلفة (صورة٦)، من فئة قرشين إلى ٢٠ قرشاً.



أما الطوابع التذكارية فقد صدرت هكذا:

ففي سنة ١٩٣٥ - أول كانون الثاني/يناير، صدرت مجموعة تذكارية لمناسبة الذكرى الخمسين لوفاة الجنرال غوردن مؤلَّفة من ٩ طوابع، ٤ منها تحمل صورة الجنرال وثلاث لكلية غوردن في الخرطوم والاثنتان الاخيرتان تحملان صورة لخدمة العلم مع صورة الجنرال في الزاوية اليمنى العليا، وقيمة هذه المجموعة اليوم تساوي ٨٠ جنيها استرلينيا.

وفي سنة ١٩٤٨ تشرين الاول/اكتوبر، صدر طابع بفئة قرشين صورة الجمل لمناسبة العيد الخمسيني لأول طابع سوداني.

وفي سنة ١٩٤٨ - كانون الاول/ديسمبر صدر طابعان فئة ١٠ مليمات وخمسة قروش صورة الجمل لمناسبة افتتاح الجمعية التشريعية.

وقد صدر للاجور المستحقة ٣ مجموعات بعد الأولى الموشحة وهي:

سنة ١٩٠١ اول كانون الثاني/يناير مؤلفة من ٢، ٤، ١٠، ٢٠ مليما صورة باخرة حربية نهرية، ولكن بعلامة مائية الهلال.

وفي سنة ١٩٢٧/١٩٣٠ مجموعة مؤلفة من ٢، ٤، و١٠ مليمات صورة الباخرة النهرية ذاتها ولكن العلامة المائية «S.G.».

وفي سنة ١٩٤٨ - أول كانون الثاني/يناير، مجموعة من ٢، ٤، ١٠و٢٠ مليما صورة الباخرة النهرية ذاتها ولكن باسم «بريد السودان» بدلاً من «بوستة سودانية» والعلامة المائية «S.G.».

وللبريد الحكومي مجموعات عدة نذكرها كالآتي:

ففي سنة ١٩٠٠ - ٨ شباط/فبراير، طابع واحد فئة ٥ مليم صورة الهرم وأبو الهول الموشح «السودان» باللغتين، إصدار المجموعة الأولى، مخرما في الوسط بحرفي «S.G.» أي حكومة سودانية، قيمته اليوم حوالي ٣٠ جنيهاً استرلينيا.

وفي سنة ١٩٠١ - كانون الثاني/يناير - طابع واحد فئة مليم واحد(صورة٤)، إصدار المجموعة الثانية مخرما في الوسط بحرفي «S.G.»، قيمته اليوم ٢٢ جنيهاً استرلينيا.

وفي سنة ١٩٠٢ - طابع واحد فئة مليم واحد (صورة٤)، إصدار المجموعة الثانية ولكن موشحا «O.S.G.S.» أي (ON SUDAN GOVERNMENT SERVICE) ما معناه لخدمة الحكومة السودانية. وفي هذا الاصدار حدثت أخطاء كثيرة منها التوشيح المقلوب أو المكرر وغير ذلك قيمتها اليوم تتراوح بين ٥٠ و١٦٠٠ جنيه استرليني.

وفي سنة ١٩٠٣/١٩١٢ - طابع الجمل أيضا فئة ١٠ قروش موشحا «O.S.G.S» بعلامة مائية «الزهرة» مع مجموعة كاملة من ١، ٣، ٥ مليم وقرش واحد وقرشان و٥ و١٠ قروش صورة الجمل أيضا موشحة «O.S.G.S» وبالعلامة المائية الهلال.

وفي سنة ١٩٣٦ الى ١٩٤٦ - مجموعة موشحة «S.G.» صورة الجمل مؤلفة من ١٥ طابعا من مليم واحد إلى ٢٠ قرشا.

وفي سنة ١٩٤٨ - أول كانون الثاني/يناير مجموعة رقم ٨ موشحة بحرفي «S.G.» صغيرين لفئة مليم واحد إلى ١٥ مليما وبحرفين كبيرين للباقي.

وفي سنة ١٩٥١ - أول أيلول/سبتمبر، مجموعة رقم٩ موشحة بالطريقة ذاتها ظهر منها طابع فئة قرش واحد بتوشيح مقلوب قيمته اليوم ٣٥٠ جنيها استرلينيا، وطابع فئة ٢٠ قرشا مقلوبا أيضا قيمته اليوم ٢٧٥ جنيها استرلينيا.

وفي سنة ١٩٦٢ – ثلاثة طوابع فئة ٠٠٥، ١٠، و١٥ مليماً من المجموعة رقم٩ أيضاً موشحة بحرفي «S.G.» حرف رفيع يختلف عن الأول.

الآن جاء دور الطوابع الخاصة بالبريد العسكري:

ففي سنة ١٩٠٥ – كانون الثاني/يناير، طابع الجمل فئة مليم واحد علامة مائية الهلال، موشحا «ARMY OFFICIAL» أي رسمي عسكري، توشيحا عموديا بأحرف سميكة ومرة اخرى بأحرف أصغر. والطابع ذاته ظهر بتوشيح أفقي مرة بالأحرف السميكة واخرى بالصغيرة. قيمتها اليوم ١٦٠ و١١٠٠ جنيه استرليني. ومرة رابعة ظهر الطابع بتوشيح عمودي ولكن مقلوبا وبالأحرف السميكة والصغيرة أيضا، قيمتها اليوم ١٦ و٢٢٥ جنيها استرلينيا.

وفي السنة ذاتها تشرين الثاني/نوفمبر، طابع الجمل فئة مليم واحد ولكن بعلامة الزهرة المائية موشحا «ARMY OFFICIAL» بالأحرف السميكة والصغيرة إيضا، قيمتها اليوم ٦٠ و٧٥٠ جنيها استرلينيا.

وفي سنة ١٩٠٦/١٩١١ كانون الثاني/يناير مجموعة من ٩ طوابع موشحة «ARMY SERVICE» أفقيا، من مليم واحد إلى ١٠ قروش قيمتها اليوم حوالي ٤٠٠ جنيه استرليني، وظهر بها أخطاء عدة منها المقلوب والمكرر او جزء من التوشيح غير موجود أو مغلوط قيمتها تتراوح بين ١٣٠ و٢٥٠٠ جنيه استرليني، والمجموعة من مليم واحد إلى قرش واحد توشحت أيضا «SPECIMEN» أي نموذج قيمتها اليوم ٣٠٠ جنيه استرليني.

وأخيرا وبنفس التاريخ ثلاثة طوابع فئة قرشين وخمسة قروش و١٠ قروش بعلامة مائية الزهرة، موشحة بالتوشيح ذاته قيمتها اليوم ٨٠ جنيها استرلينيا. وتوشحت «SPECIMEN»، وقيمة الثلاث طوابع اليوم ٢٧٥ جنيها استرلينيا.

وهناك مجموعات منذ سنة ١٩١٢ مخرمة «S.G.» أو «A.S.» لا يسجلها القاموس الانكليزي «Gibbons» إنما هي موجودة ومذكورة في الكتالوج الافرنسي «YVERT» وتفاصيلها كالآتي:

سنة ١٩١٢/١٩٢٢ – تسعة طوابع من المجموعة العادية رقم٤، من مليم واحد إلى ١٠ قروش ما عدا طابعان فئة الأربعة مليمات مخرمة «A.S.» وتسعة اخرى من الفئات ذاتها مخرمة «S.G.».

سنة ١٩٢٢/١٩٢٥ – ثلاثة طوابع من المجموعة العادية رقم٥ فئة ١٠،٥،٢ مليمات مخرمة «A.S.» وأربعة طوابع اخرى من المجموعة ذاتها فئة ٥،٤،٣ و١٠ مليمات مخرمة «S.G.».

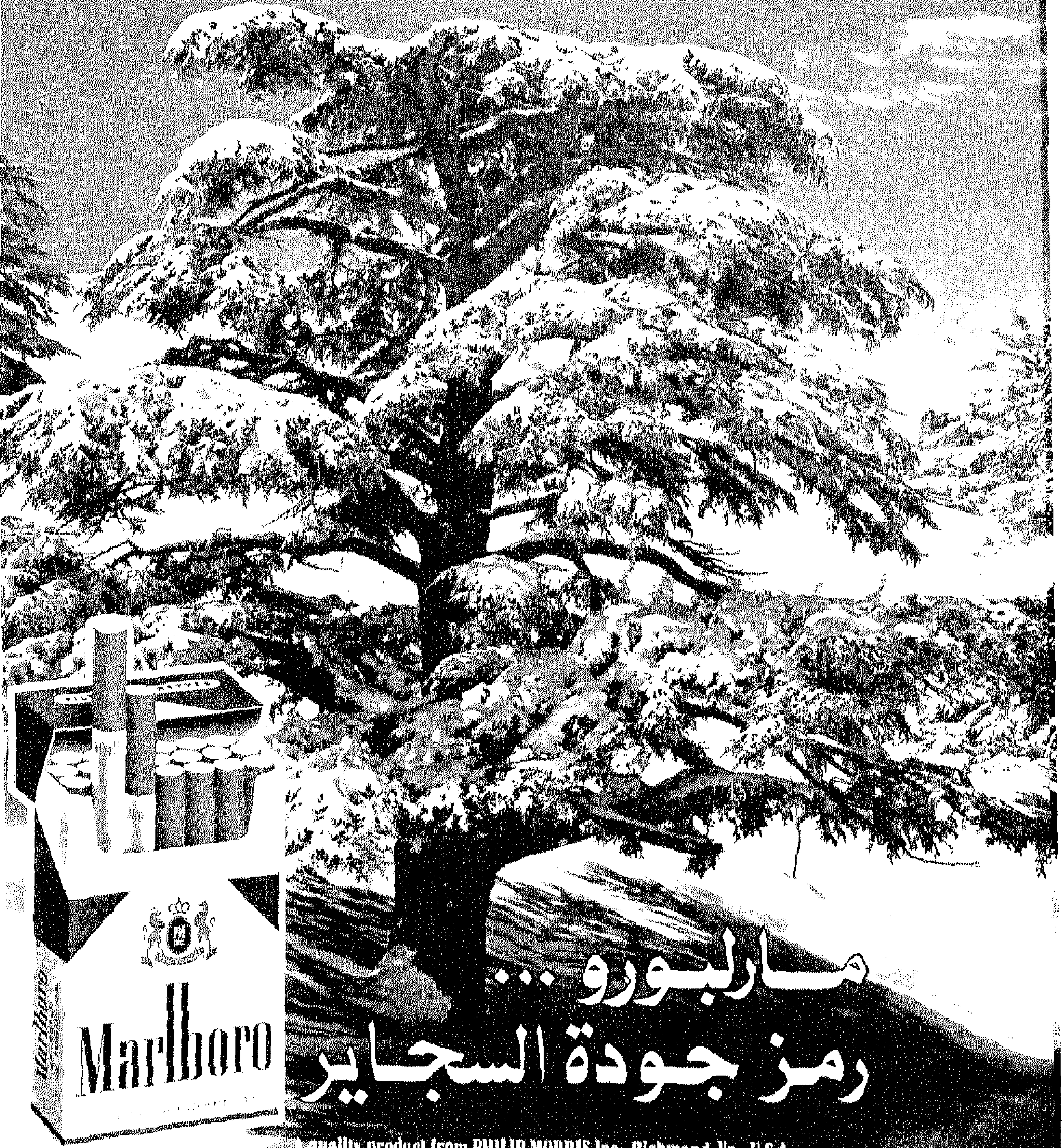
سنة ١٩٢٧/١٩٢٨ – سبعة طوابع من المجموعة العادية رقم٦ فئة ٥،٤،٣ و١٠ مليمات و٥،٢، و١٠ قروش مخرمة «S.G.».

وفي سنة ١٩٥٤ – ٩ كانون الثاني/يناير، صدرت أول مجموعة من ثلاثة طوابع صورة الجمل لذكرى الحكم الذاتي، وبالخطأ صدر عدد من المجموعات تحمل سنة ١٩٥٣ بدلاً من ١٩٥٤، قيمتها اليوم ١٢ جنيها استرلينيا.

وفي أول كانون الثاني/يناير سنة ١٩٥٦ حصلت السودان على استقلالها وأصبحت جمهورية مستقلة بعد أن كانت تحت الحكم المشترك الانكليزي المصري، بموجب اتفاقية ١٩ كانون الثاني/يناير سنة ١٨٩٩.

وفي سنة ١٩٥٦ – ١٥ ايلول/سبتمبر، صدرت أول مجموعة تذكارية لمناسبة الاستقلال مؤلفة من ثلاثة طوابع فئة ١٥ مليما، ٣و٥ قروش، صورة خريطة السودان بجناحين.

ثم درجت الاصدارات العادية والتذكارية للمناسبات العديدة أسوة بباقي البلاد العربية، منها الاصدارات الوطنية، ومنها المجموعات المقررة من قِبَل جامعة الدول العربية وجمعية الأمم المتحدة، نذكر منها الذكرى الخامسة لوفاة الإمام الصدّيق المهدي والسياسي مبارك زروق ومحمد نور الدين وعبد الله الفاضل المهدي وأحمد يوسف هاشم ومحمد أحمد المرضي والامبراطور هيلاسيلاسي والزعيم الراحل جمال عبد الناصر. ■



الأرز، رمز لبنان
Marlboro
مارلبورو ...
رمز جودة السجاير
A quality product from PHILIP MORRIS Inc., Richmond, Va., U.S.A.

الى القراء الأعزاء.

لم تزل مجلة «تاريخ العرب والعالم» تفتح صفحاتها لكل قارىء ولكل طالب دراسات تاريخية، يريد اطلاعنا، جميعاً، على موضوع تاريخي مهم او يكشف عن حقائق لم يعطها الباحثون حقّها بعد، أو ان يعرّفنا على مدينة او حي من وطننا العربي الكبير، بمقالة علمية او بصورة فنية، ونحن دائماً بشوق لمعلومات جديدة يضيفها قراؤنا.

وكنّا - خلال السنتين الماضيتين - قد أفرزنا لكل جانب من رسائل القرّاء باباً خاصاً، ورصدنا للمجلين منهم جوائز.. وقد رأينا ان نتاج القرّاء يصب عموماً في منحى واحد، فلذلك وتوفيراً للمساحة، سنضم - ابتداء من مطلع السنة الثالثة - ما نختاره من جيد الرسائل في باب «القراء يكتبون»، آملين ان يرضي القرّاء الأعزاء، بغناه وتنوعه. أما الجوائز فستزداد وترصد لمسابقة كبرى تهم الجميع.

... أريحا... أقدم مدينة على سطح الأرض

مهد التاريخ:

دلت الحفريات الاثرية (١٩١١ - ١٩٣٠ - ١٩٥١م) انّ هذه المدينة ترجع بأصولها إلى ما قبل التاريخ المدوّن، اي ما قبل الكنعانيين إلى سنة ٧٨٠٠ق.م. والدكتور عوني الدجاني وزير الآثار العامة الاردني يؤكد هذه الحقيقة فيقول: «إنّ مدينة آريحا هي اقدم مدن العالم على الاطلاق، كما بينها علم الآثار حتى اليوم، وهي اقدم من مدينة دمشق بخمسة آلاف سنة، وقد كانت آريحا مأهولة بالسكان قبل ايام ابي الانبياء ابراهيم الخليل (عليه السلام) بحوالي ستة آلاف سنة وقد ثبت بأدلّة تاريخيّة اثرية انَّ تدجين الحيوان ومعرفة الفلاحة والزراعة الاولى نشأت في هذه البقعة من الارض بالذات».

كيف دخلها اليهود اول مرّة؟

فكّر سيدنا يعقوب (المعروف باسم اسرائيل) بالنزوح مع قومه الاسرائيليين عن ارض الكنانة (مصر) لما لاقاه وقومه من قساوة المصريين، وكان ذلك على عهد سيدنا موسى، (عليه السلام)، الذي تربّى في بلاط رعمسيس الثاني، (فهو مصري المولد اسرائيلي الوجدان) قتل يوماً احد المصريين وقد رآه يعذّب واحداً من الاسرائيليين، وخشي انتقام المصريين له منه فهرب إلى صحراء التيه حيث تزوج هناك بابنة النبي شعيب (عليه السلام) واتجه بقومه إلى سيناء حيث عانوا جوعاً وعطشاً فأكرمهم الله بالمنّ والسلوى والماء الفرات لكنّ قومه كفروا جميعاً واستمروا في ضلالهم يعمهون. حاول موسى عبور فلسطين من ناحية سيناء لكنه لاقى مقاومة شديدة من اهلها ولم يفلح فاتجه إليها من جهة شرق الاردن حيث وافته المنيّة هناك، قرب مادبا.

خلفه القائد اليهودي السّفّاح، يوشع بن نون، احد الذين دخلوا فلسطين كجواسيس عام ١١٨٦ق.م. مع جنده (٤٠ الفاً) حيث ارتكبوا مجزرة بشعة قتلوا فيها ملك المدينة ومثّلوا بالاهل جميعاً، كما ورد في سفر يوشع والإصحاح السادس (١٧ - ٢٥): [صعد الشعب إلى آريحا، واهلكوا كل من بالمدينة من رجل وامرأة وطفل وشيخ حتى البقر والغنم والحمير بحدِّ السّيف واحرقوا المدينة بالنار مع كلّ ما بها. إنّما الفضة والذهب وآنية النحاس والحديد اجعلاها في خزنة الربّ].

آريحا الاسم والموقع والعهد الذهبي..

يقال انّ (آريحا) سميت كذلك نسبة للحفيد الرابع لسيّدنا نوح عليه السّلام، قال الحموي في معجم البلدان (سُمّيت باسم آريحا آرفخشد بن سام بن نوح، عليه السلام) ولم يتغيّر اسمها حتى اليوم، كما هو الحال مع اغلب اسماء المدن!

ونجد هناك مدناً وقرى اخرى ببلاد الشام اطلق عليها هذا الاسم فهناك، آريحا السورية، عروس مصايف الشمال السوري (جنوب ادلب ١٢ك.م) وقرية آريحا في سهل البقاع (٢ك.م) شمال بعلبك بلبنان. وغيرها مما لم نذكر هنا.

تلفظ آريحا اليوم (ريحا) وهي كلمة سريانية بمعنى (الرائحة والاريج) تقع على مسافة ٣٨ك.م شمال شرقي القدس، ٨ك.م غربي نهر الاردن، ونحو ذلك شمال غربي البحر الميت. طمع الطامعون، وتعاقب على آريحا الحضارات المختلفة، ومن اشهر ملوكها القدماء الامبراطور الروماني هيرودوس الذي ابتاعها من الامبراطورة كليوباترة وهذه كانت قد تلقّت (آريحا) هدية فاخرة من الاخير عام ٣٥ق.م لخصبها وجودة ثمرها. فاشتراها هيرودوس الكبير الذي اعجب بالمدينة لموقعها، وبنى مدينة جديدة، جنوب المدينة القديمة، اقام فيها الحدائق والمسارح والقصور، وميادين السباق، جاعلاً منها مشتى عالمياً رائعاً. لكن آريحا الرومانية هذه لم تعمر طويلاً فقد دمرتها الحروب بين الفرس والرومان.

* * *

دخلت آريحا في حكم العرب والمسلمين في القرن السابع الميلادي، وكانت تابعة لمحافظة الرملة ضمن فلسطين. وكانت آريحا مدينة الغور، واهلها من قوم قيس وبها جماعة من قريش.

عام ١٩١٠ صارت آريحا ناحية بدلاً من قرية، وحاكمها مدير يتبع متصرف القدس. هذا على عهد العثمانيين.

وفي ٢١ شباط ١٩١٨ سقطت آريحا بيد الانتداب البريطاني البغيض.

في ١٤ ايّار ١٩٤٨ تولّاها الجنرال اللنبي قائد القوات الدولية وقتذاك وعلى اثر النكبة الفلسطينية نزلها العائدون الفلسطينيون فعمّروها واعادوا لها عزتها ومجدها.

في الاول من ديسمبر عام ١٩٤٨ عقد مؤتمر آريحا لضمّ الضفتين، وبويع الملك عبد الله بن الحسين ملكاً على الضفتين الغربية المتبقية من فلسطين على اثر الاحتلال الصهيوني وابتلاع فلسطين والشرقية من الاردن، تحت اسم المملكة الاردنية الهاشمية.

كانت آريحا آخر المدن التي امتدّ لها اخطبوط الاحتلال الاسرائيلي في حزيران عام ١٩٦٧ م ومنذ احتلاله لها وهو يقيم حولها المستوطنات العسكرية والزراعية، وبلغ عدد المستعمرات التي انشأها حتى اليوم سبع مستوطنات ويعدّ لإقامة ست مستوطنات أخرى.

– الا ردّ الله غربة آريحا وفلسطين وكل ديار العرب والمسلمين.

آثار آريحا: عين السلطان – دير قرنطل – بيت جبر الفوقا والتحتا.

خربة المفْجَرْ ٢,٥ك.م من آريحا وبها قصر هشام بن عبد الملك الاموي، يقال انّه تعرض لزلزال شديد قبل إتمام بنائه بأربع سنوات، لاحتوائه على اصنام وهياكل بشرية وحيوانيّة، فلم يتمكن الخليفة الاموي من سكناه .

دير القديس يوحنا المعمدان – قصر حجلة او دير حجلة – خربة المغيفر – العوجا وخربها الفوقا والتحتا.

افاض المؤرخون والرحالة العرب المسلمون والاجانب بخيرات آريحا وكثرة زرعها من نخيل حتى دعوها في يوم ما بمدينة النخيل.

ومن هؤلاء العرب المسلمين، ياقوت والمقدسي والبكري والقزويني وابو الفداء، ومن الاجانب، س. ف. فولني الفرنسي في رحلته للشام ١٧٠٣ – ١٧٨٥ م والرحالة الإنجليزي ايليو واربرش عام ١٨٤٣ والفرنسيان جاسان وسافنياك قبل الحرب العالمية الاولى.

عبد الغني محمود
عمّان – الاردن.

الدرعية «التاريخ والمجد»

الدرعية صدى تاريخ، ومنطلق مبدأ، ورمز حضارة ومثل امة .. الدرعية اسم منسوب للدروع من بني حنيفة سكنوا هذه المنطقة حقبة من الزمن فبقيت النسبة وباد المنسوب إليه، وهي منقولة من مدينة في القطيف تنسب ايضاً للدروع، فهاجر منهم رهط يرأسه «مانع المريدي» الجد الثالث عشر للملك عبد العزيز من القطيف ووفدوا على ابن عمهم في وادي صنيفة فأكرم مثواهم وانزلهم من جانب ملكه في قرار ومعين، اعطاهم «المليبيد» و«غصيبة» وما بينهما فسموه الدرعية انطلاقاً من احد التعليليين السابقين وكان ذلك حوالي سنة ٨٥٠ هـ. وسع آل المريدي نفوذهم على الجزء الاكبر والاهم من هذا الوادي عبر ما يقارب ثلاثة قرون ليكون الزمن ١١٣٩ هـ والحاكم «محمد بن سعود بن محمد بن مقرن» والمدينة هي الدرعية.

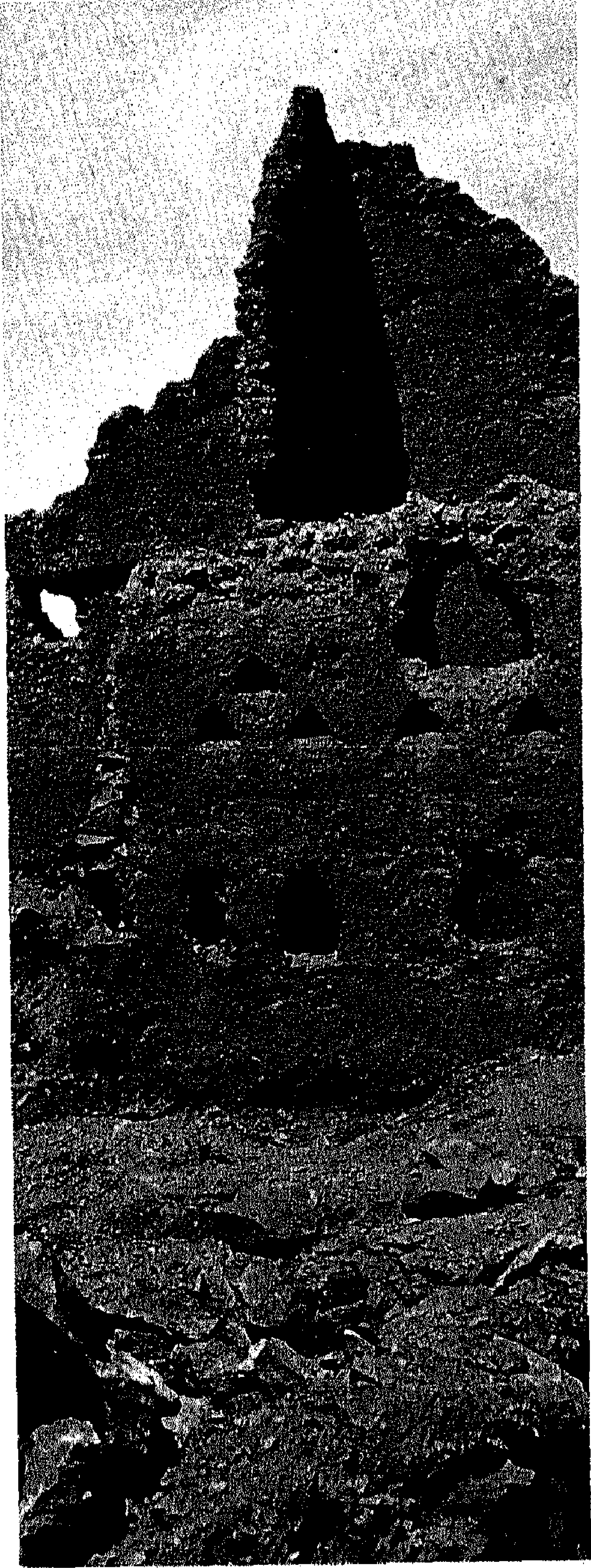
الدرعية ودعوة ابن عبد الوهاب:

قدم محمد بن عبد الوهاب إلى الدرعية لنشر دعوته، فتحمل اهل الدرعية هذه الدعوة وجاهدوا في سبيلها، وبدأت تنتشر الدعوة من الدرعية إلى المناطق المجاورة، وانتشرت الحركة الوهابية في انحاء الجزيرة العربية وامتدت إلى اطراف العراق وبلاد الشام، وكانت تدعو إلى التمسك بمبادىء الدين الاسلامي الحنيف إلى التحرر والاستقلال عن العثمانيين.

معارك الدرعية التاريخية:

اخذت الاستانة توجس من محمد بن عبد الوهاب ومن حركته، وقررت ان تضرب عصفورين بحجر، عن طريق تكليف محمد علي والي مصر بضرب الدرعية.

— ارسل محمد علي جيشاً بقيادة ابنه طومسون، فلقيهم النجديون في وادي الصفراء



أحد أبراج حي الطريق

بين ينبع والمدينة فهزمهم النجديون وقضوا عليهم.

– قاد محمد علي الحملة الثانية بنفسه فدخل الحجاز وابعد النجديين بعد عدة حروب جرت بينهم وبين ابنه طومسون في الحملة الثانية.

– ارسل محمد علي حملة ثالثة بقيادة ابنه ابراهيم فهزم النجديين على منهل «ماوية» وسار نحو الدرعية ماراً بالاماكن التالية: الرس، القصيم، شقراء، العارض، ضرمى، ثم الدرعية.

لقد حاربته الدرعية في عدة معارك اشهرها: موقعة الحريقة، موقعة السليماني، موقعة ناظرة، موقعة التليدة، موقعة كتلة، موقعة خيس نصر الله، موقعة فليقل. لقد ابلى اهل الدرعية بلاء الابطال وسقطت الدرعية، وتوالت الحملات ودمرت الدرعية واهلها ابيدوا وشردوا.

معالم الدرعية الباقية:

– زاوية لا تزال قائمة من قصر سعود بن عبد العزيز اسمها سلوى.

– قصر سعد بن سعود وبيت المال وحصن الدريشة ومسجد الطريف وقصر عمر بن سعود.

– ثلاثة اسوار خلف الدرعية لا تزال تشهد على عظمة وقوة البناء.

– سوق الدرعية على ضفتي الوادي وتتوزعه الاسواق الفرعية بمختلف الاجناس والسلع.

هذه هي الدرعية رمز تاريخ وقاعدة عقيدة وركيزة حضارة ومنطلق امة.

يوسف حسن ابو حجر
– سورية – دمشق

ماري - تل الحريري

منذ القرن الثلاثين ظهر في سورية الشعب السامي الأقدم / العموريون / الذي توزعت جموعه بالتدريج أولاً في وادي الفرات حيث قامت مدينة ماري (تل الحريري) وكان اكتشافها مفاجأة تاريخية أثرية عام ١٩٥٥ /م/ بعد غياب أربعين قرناً في عالم النسيان، فقد كشفت التنقيبات عن عشرين ألف لوح سماري وهو عدد لم تقدمه أي مدينة غير نينوى، وتمثل وثائق ومحفوظات (زمري ليم) آخر ملوك المدينة (١٧٣٠ – ١٧٠٠ق.م) وفي الألواح وثائق اقتصادية ورسائل ملكية وتقارير إدارية بددت الكثير من ظلمات تلك العصور.

أما القصر الذي وجدت فيه فهو أكبر قصور الشرق الأدنى القديم (٢٠٠ × ١٢٠٠) وفيه ٣٠٠ غرفة بألواح جدارية متقنة الإطارات والرسوم للرجال والآلهة وبعضها ملوّن بأزهى الألوان، وفي القصر تسهيلات للاستحمام وتصريف المياه وروعة البناء تجعلنا نصدق ما يقوله أحد الألواح فيه من أنه كان أحد مراكز الفرجة والمتعة في العالم.

وتكشف أجنحته وصالاته ووثائقه انه كان المركز السياسي والإداري لمملكة واسعة تمتد حتى أواسط سورية. وكانت ماري عقدة التجارة الهامة بين أقطار الحضارات القديمة كلها وهذا ما يفسر غناها الواسع وقدرتها على الدفاع عن نفسها وعلى توسيع المملكة التابعة لها ويفسر بالمقابل حقد الشعوب المجاورة وطمعها فيها حتى إذا ظفرت بها أيام حمورابي احرقتها ودمرتها التدمير النهائي على أنها بين هذا وذاك وخلال الألف الثالثة والثانية ق.م. سجلت واحدة من أقدم وأهم الحضارات التي عرفتها سورية القديمة.

وليد إبراهيم الأسود.
سورية – دمشق

المراجع:

– تاريخ سورية القديم – الدكتور هشام الصفدي.
– منشورات مديرية الآثار والمتاحف بدمشق.

رأي حر



د. نقولا زيادة

طلب مني صديقي الاستاذ فاروق البربير صاحب «تاريخ العرب والعالم» كلمة لتنشر في رأي حر. وكان طلبه عزيزاً علي. وأردت أن ألبيه، وتأخرت. فعتب وحسب الأمر تمنعاً وتدللاً. والواقع ان ما أنفقته من الجهد والوقت في سبيل كلمة للرأي الحر (أو لرأي حر)، كان يكفي لاعداد ثلاث مقالات لمجلته.

ولكن لماذا هذا التأخر.

الرأي متيسر، فانني أحسب ان كل شخص يمكنه أن يكون له رأي في قضية من القضايا - من الماضي، من الحاضر، نحو المستقبل؛ في المجتمع، في السياسة، في الاقتصاد، في الأدب، في الفنون التشكيلية وغيرها.

فالرأي ليس مشكلة.

المشكلة هي في الصفة التي ألزم بها صاحبي طلبه - حر.

هل باستطاعتي، أنا الرجل العادي في مجتمعنا العربي، أن يكون لي رأي حر؟ ما هي الأمور التي تمنعني، ولا أقول قد تمنعني؟

الماضي كله يمنعني من إبداء الرأي الحر، والحاضر يجثم علي بحيث لا أستطيع أن أبدي رأياً حرّاً. المجتمع مستعد أن يحاسبني. ولست أخشى الحساب، فذلك أمر أرحب به لأتعلم من الحساب والنقد. لكن الذي أخشاه طريقة الحساب، وطريقة المناقشة، وأسلوب الجدل.

نعم يا أخي القارىء.

وإذن فما العمل؟ لا بد من تلبية طلب الصديق، ولا بد من الكتابة عن رأي حر.

إذن فلأكتب عن شيء تعود آثاره علي وحدي. صحيح؛ لكن حتى هذا فيه محاذير. فمن الذي يضمن لي أن لا يسيء البعض تفسير ما أقوله عن نفسه، ويحسب انه هو المقصود، وعندها يأتي لمحاسبتي بأسلوبه وطريقته؟

فاذا كان لا بد من إبداء **رأي حر، وعن نفسي أنا**، فلا يجوز أن يتعلق باللباس، أو تربية الأولاد، أو نقد كتاب أنا واضعه.

وإذن، وإذن؟

وبعد إعمال الفكرة رأيت ان أكتب عن الكِيْلُوس والكِيمُوس.

والكِيْلوس، يا أخي القارىء، هو الطعام الذي آكله أنا، والذي تطحنه معدتي، فيصبح كالعجين، وذلك قبل أن ينتقل من معدتي إلى أمعائي.

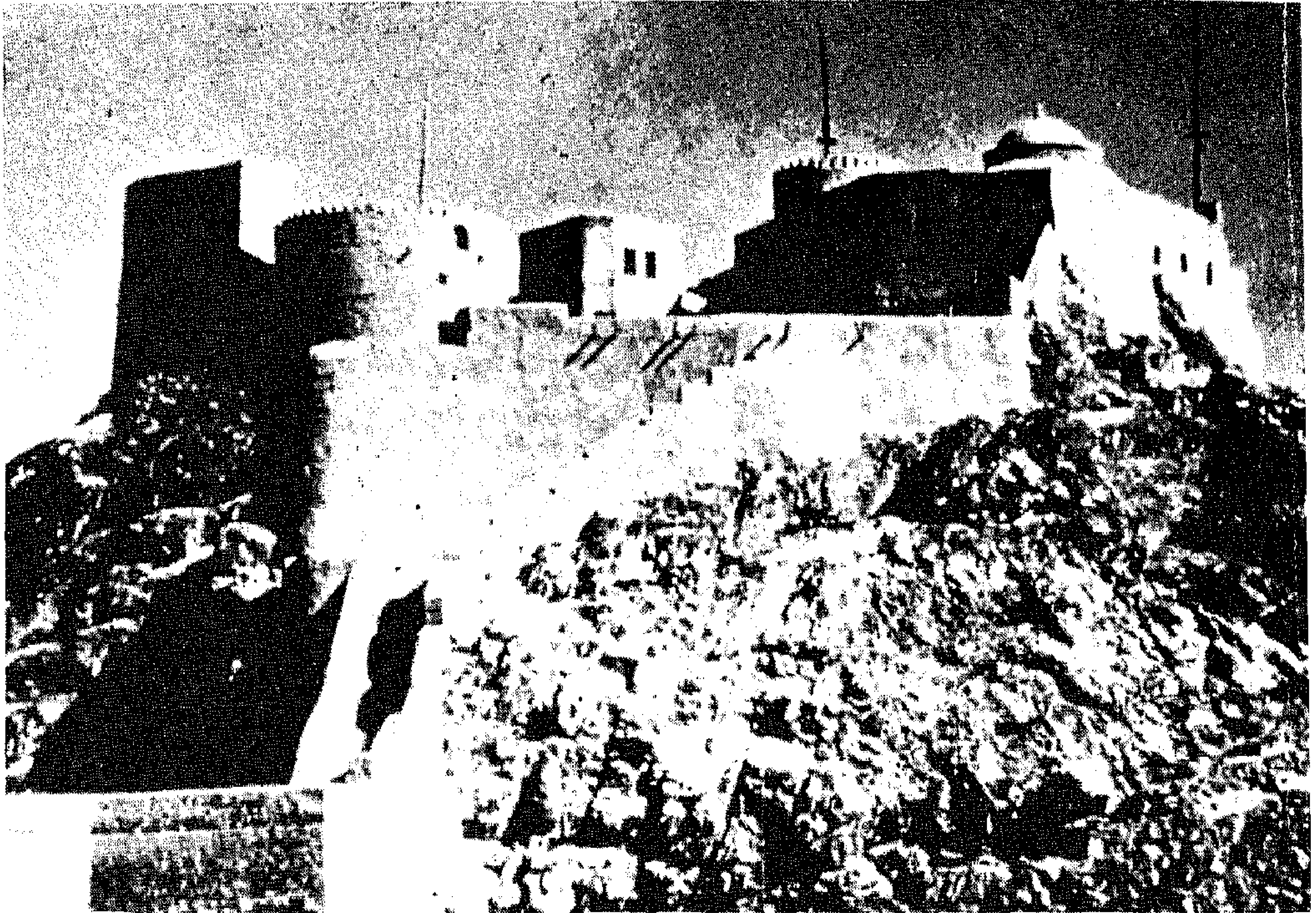
والكِيمـوس هو خلاصة الغذاء التي تمتصها أمعائي من الكيلوس القادم من معدتي. فمتى امتصت أمعائي حاجتها؛ خرج الباقي في طريقه.

لما وصلت إلى هذا الحد شعرت بالراحة. لقد أبديت رأياً، وكنت في إبدائه حرّاً. فهذا يا فاروق رأي حرّ.

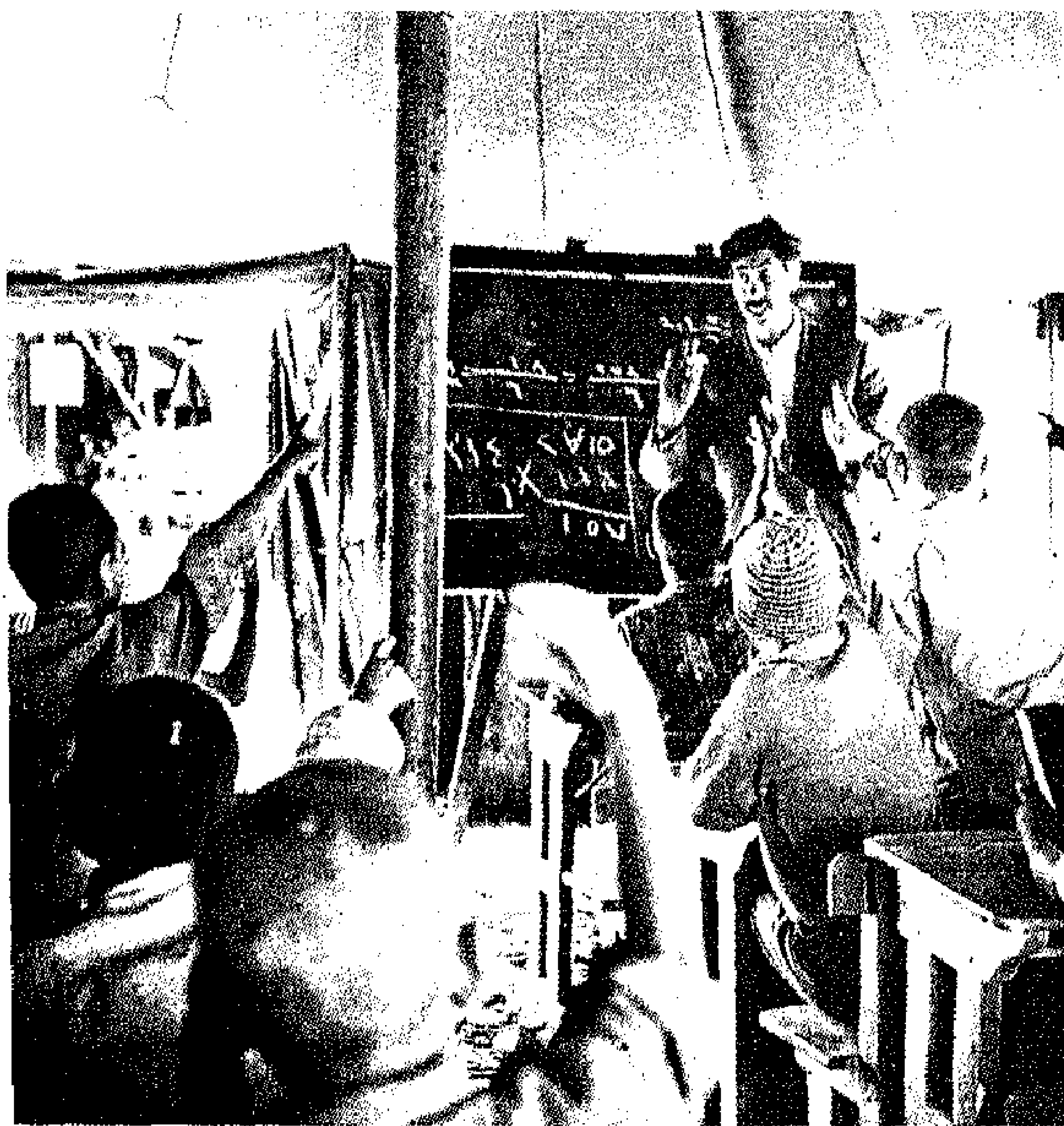
ولكن أيحق لي أن أكون حرّاً إلى هذا الحد؟

هذا السؤال أتركه إلى من يكتب بعدي ■

في العدد المقبل

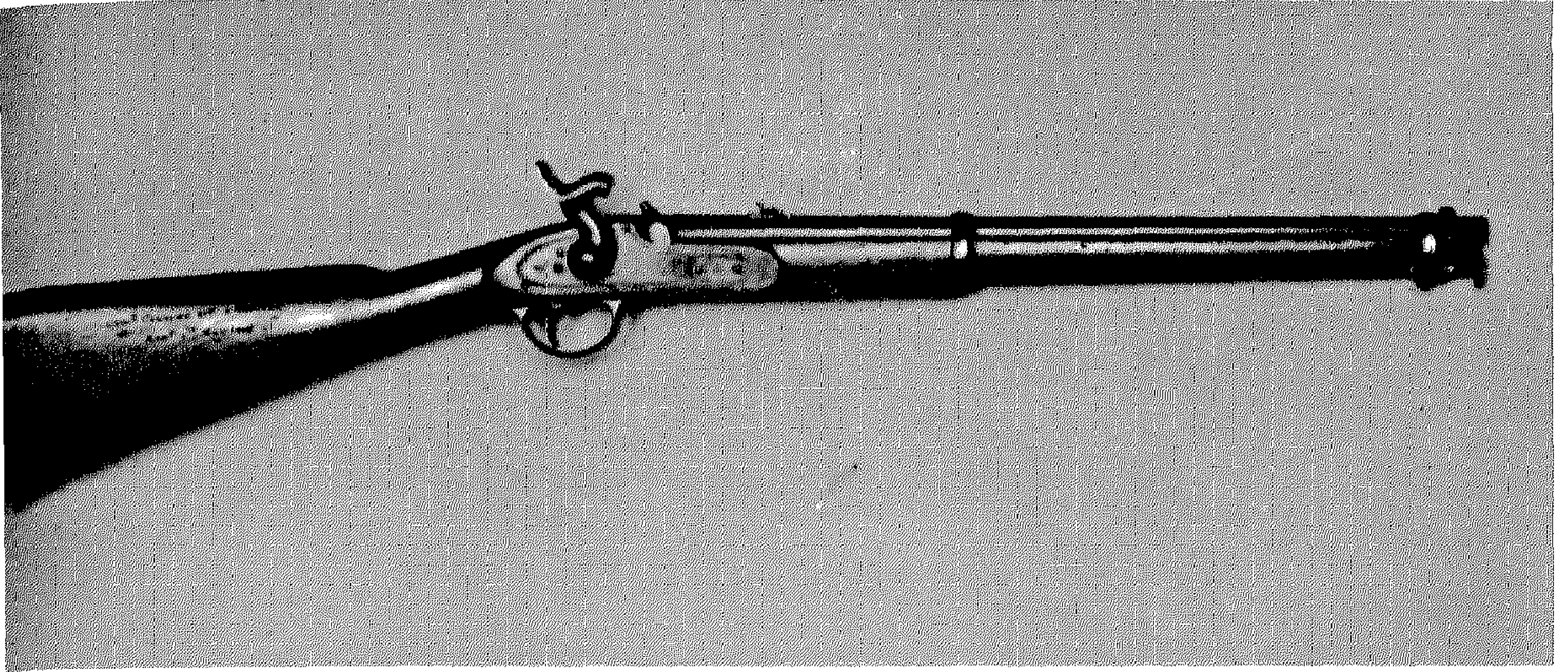


تحرير عمان من البرتغاليين قلعة الميراني بناها البرتغاليون وكانت آخر موقع دافعوا عنه.



تاريخ انتشار اللغة العربية في افريقيا السوداء

● بندقية الرماة لسنة ١٨٥٦، قياس ٠,٥٧٧ انش ذات الخمسة أخاديد.



● صندوقة تحتوي على مسدسي مبارزة مع عدتهما. صنع بارتولوموز كتشنروتر ١٨٥٠م.

تاريخ العرب والعالم

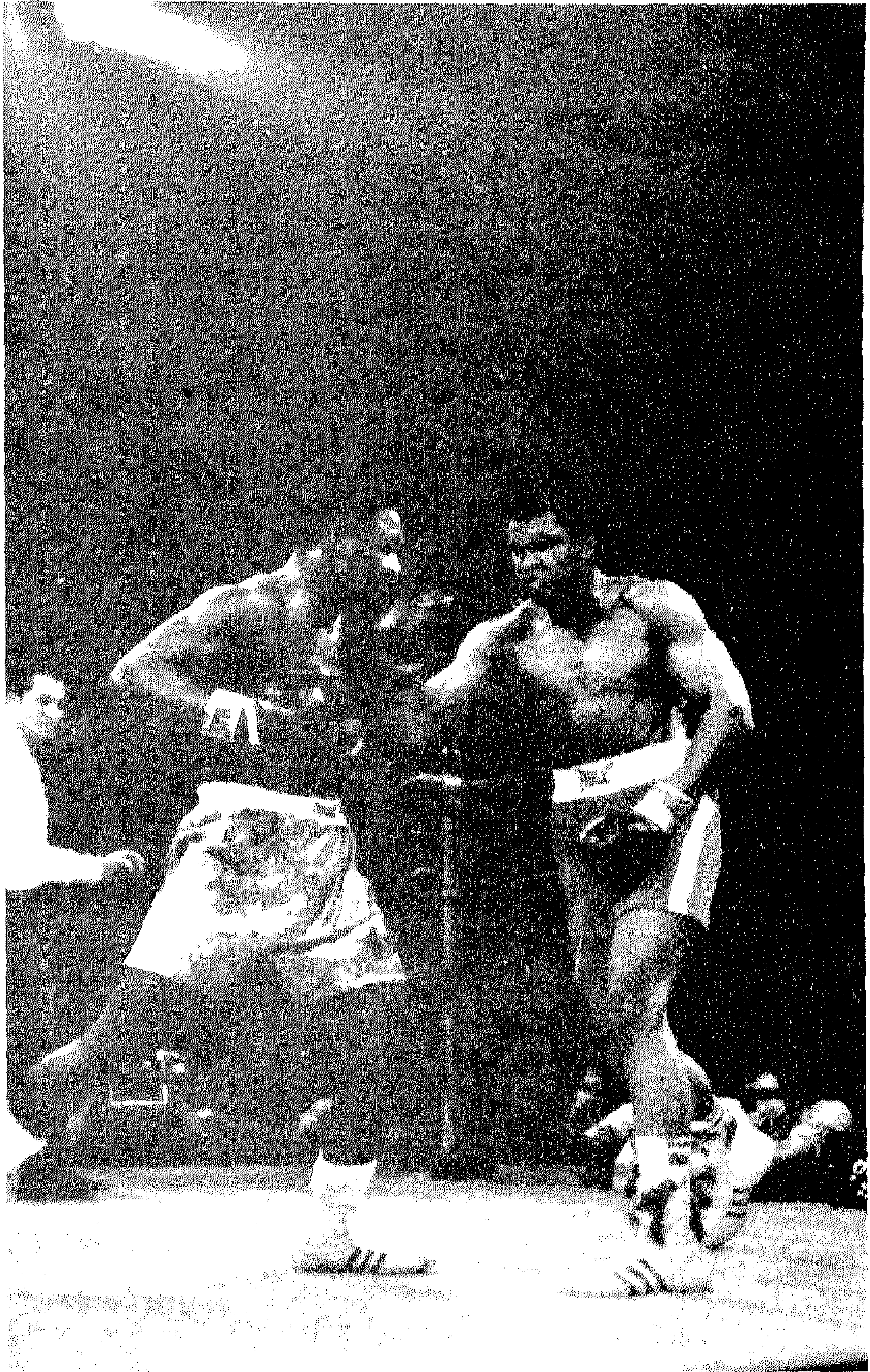
مجلة شهرية مصوّرة تبحث في التاريخ العربي

السنة الثالثة - العدد السادس والعشرون - كانون الأول (ديسمبر) ١٩٨٠ - الموافق محرم - صفر ١٤٠١هـ.



- لبنان التجربة الديموقراطية
- نجيب عازوري من خلال زمانه ومكانه
- بسمارك والمسألة الشرقية
- تاريخ انتشار اللغة العربية في افريقيا
- تاريخ نظم البريد في العالم
- تحرير عُمان من البرتغاليين
- قلعة حزم

الماضي الذي سيأتي في عددنا المقبل



مباراة محمد على
كلاي فريزر

عصر محمد علي في الملاكمة (١٩٦١ - ١٩٨٠)

تاريخ العرب والعالم

مجلة شهرية مصورة تبحث في التاريخ العربي

السنة الثالثة - العدد السادس والعشرون - كانون الأول (ديسمبر) ١٩٨٠ - الموافق محرم - صفر ١٤٠١ هـ.

تصدر عن دار النشر العربية في منتصف كل شهر

رئيس التحرير : فاروق البربير

المستشار : د. أنيس صايغ   المدير المسؤول : محمد مشموشي

الإنتاج : مطبعة المتوسط ش.م.ل. ● التوزيع : الشركة اللبنانية لتوزيع الصحف والمطبوعات

ثمن النسخة

لبنان : ٥ ل.ل.	سوريا : ٦ ل.س
العراق : ٨٠٠ فلس	ليبيا : ١ دينار
السعودية : ٨ ريال	الكويت : ٧٠٠ فلس
الاردن : ٥٠٠ فلس	أبوظبي : ٨ درهم
دبي : ٨ درهم	قطر : ٨ ريال
البحرين : ٨٠٠ فلس	عدن : ٨ شلنات
مسقط : ٨٠٠ بيزة	المغرب : ٦ درهم
فرنسا : ١٠ فرنكات	بريطانيا : جنيه استرليني
	اميركا : ٣ دولارات

الإشتراكات

(بما فيها أجور البريد الجوي)

في لبنان : للأفراد	٧٥ ل.ل.
للمؤسسات والدوائر الحكومية	٢٠٠ ل.ل.
في الوطن العربي : للأفراد	١٠٠ ل.ل.
للمؤسسات والدوائر الحكومية	٢٥٠ ل.ل.
خارج الوطن العربي : للأفراد	١٥٠ ل.ل.
للمؤسسات والدوائر الحكومية	٣٠٠ ل.ل.

تدفع قيمة الإشتراك مقدماً نقداً أو حوالة مصرفية أو بريدية.

ص.ب : ٥٩٠٥ - بيروت، لبنان • بناية أبو هليل - شقة ١١ • شارع السادات - تلفون : ٨٠٠٧٨٣

HISTORY OF THE ARABS AND THE WORLD

EDITED BY FARUK BARBIR
A MONTHLY ILLUSTRATED
PERIODICAL PUBLISHED FROM
SADATE ST. ABOU HLEIL
BLG. P.O.B. 5905
TEL. 800783
BEIRUT, LEBANON

Vol. 3. No. 26 Dec. 1980.
ANNUAL SUBSCRIPTION
$ 75 (INCLUDING $ 25 FOR
ADDITIONAL AIR MAIL CHARGES)
MAIL ALL COMMUNICATIONS,
INCLUDING SUBSCRIPTIONS TO:
«HISTORY OF THE ARABS AND THE WORLD»

في هذا العدد



بسمارك
(راجع المقالة ص ٢٢)

● المقالات الواردة توزّع حسب التبويب الفني للمجلة. ولا علاقة لذلك بمكانة الكاتب. مع حفظ المكانة الاجتماعية للكتاب. تراعى في الألقاب الصفات العلمية فقط.


عُمان، قلعة حزم
(راجع المقالة ص ٦٢)

الموضوع — الصفحة

■ لبنان التجربة الديمقراطية (الحلقة الأولى) .... الرئيس د. سليم الحص ٣
■ نجيب عازوري من خلال زمانه ومكانه (الحلقة الأولى) .... د. زاهية قدورة ١١
■ بسمارك والمسألة الشرقية د. مروان بحيري ٢٢
نظرة نقدية .... ترجمة: وليد حمارنة •
■ وثائق من التاريخ: المانيا «مجلة الباحث» ١٩١١ .... جرجي يني ٢٩
■ بسمارك موحد المانيا .... د. محمد أمين فرشوخ ٣٥
■ كتاب د. إحسان عباس:
من الذي سرق النار .... تقديم: د. وداد القاضي ٤١
■ الاقطاع الاسلامي:
اصوله وتطوره - دراسة مقارنة (الحلقة الثانية) .... د. ابراهيم علي طرخان ٤٨
■ حقائق ام نسج خيال: سورتسي... مولد جزيرة جديدة .... شذا عدرة ٥٩
■ الإمام ناصر بن مرشد اليعربي
وتحرير عمان من البرتغاليين .... أحمد يوسف عبيدلي ٦٢
■ تاريخ انتشار اللغة العربية
في افريقيا السوداء (الحلقة الأولى) .... عمار هلال ٦٧
■ تاريخ نظم البريد في العالم .... قسم «التوثيق والأبحاث» ٧٧
■ كتب وردتنا: بحوث في مؤخرة القوات المسلحة .. ٨٧
للعميد الركن محمد خالد شيخ القصّابين .... عرض: هاني خليل ٨٧
■ تاريخ الطوابع: الخليج العربي .... ميشال اسطفان ٩٣

● المقالات والدراسات تُرسَل باسم رئيس التحرير على عنوان المجلة: ص.ب ٥٩٠٥ في بيروت.
● المقالات والدراسات التي تُنشَر لا تعبّر بالضرورة عن آراء المجلة.
● المواد الواردة إلى المجلة لا تُرَدّ إذا لم تُنشَر.

لبنان التجربة الديمقراطية

محاضرة ألقيت في المركز الثقافي الاسلامي في بيروت بتاريخ ٢٠/١١/١٩٨٠.

الرئيس الدكتور سليم الحص

(الحلقة الأولى)

نظرة في التجربة:



عاش لبنان حقبة من الزمن تربو على الثلاثين سنة من عهد الاستقلال كان ابانها يرفل في حياة من الحرية والانفتاح طبعت وجهه بطابع حضاري متميز في هذه المنطقة من العالم. فقد اعتمد منذ البداية نظاماً يرتكز على الممارسة الديمقراطية البرلمانية في اطار دستوري واضح المعالم. فخاض تجربته الغنيّة التي تخللها انتخابات نيابية دورية. وتعاقب على الحكم خلالها ستة رؤساء للجمهورية انتخبتهم المجالس النيابية. وقامت خلالها الحكومة تلو الحكومة لتشارك رؤساء الجمهورية في تولي السلطة الاجرائية وتؤدي الحساب عن أعمالها أمام الشعب وأمام ممثليه تحت قبة المجلس النيابي، فكان منها حتى اليوم ٥٢ وزارة.

وشهد النظام، فيما تشهد الأنظمة الديمقراطية البرلمانية أينما كانت، حكماً ومعارضة في صراع دائم على ساحة الحوار الطليق المفتوح، يحتدم حيناً ويفتر أحياناً، ولكنه يبقى من حيث المبدأ على الأقل ملتزماً حدود التعامل السياسي الطبيعي الرصين. وواكب تطور النظام السياسي هذا، نظام اقتصادي تمحور على حرية النشاط الفردي والمبادرة الخاصة في اطار من الانعتاق والانفتاح خلا، أو كاد، من أية قيود تكبّل أو تعوق حركة التجارة والانتاج والاستثمار والمال. كذلك رافق سير ذاك النظام نمو نشاط اعلامي واسع فاعل، لحمته وسداه صحافة حرة ذات كلمة مدوية، لا قيد عليها ولا رقيب.

فلا غرو إذا اكتسب لبنان خلال تلك الحقبة صورة المعقل للحريات: حرية الفكر والمعتقد وحرية التعبير وحرية العمل، وفاز بصفة الملاذ لكل مكبوت أو مضطهد أو طريد أو مشرد.

الرئيس الدكتور سليم الحص

مولود عام ١٩٢٩ في بيروت

الدرجات العلمية: ب.ب.ع. ١٩٥٢ الجامعة الأميركية في بيروت

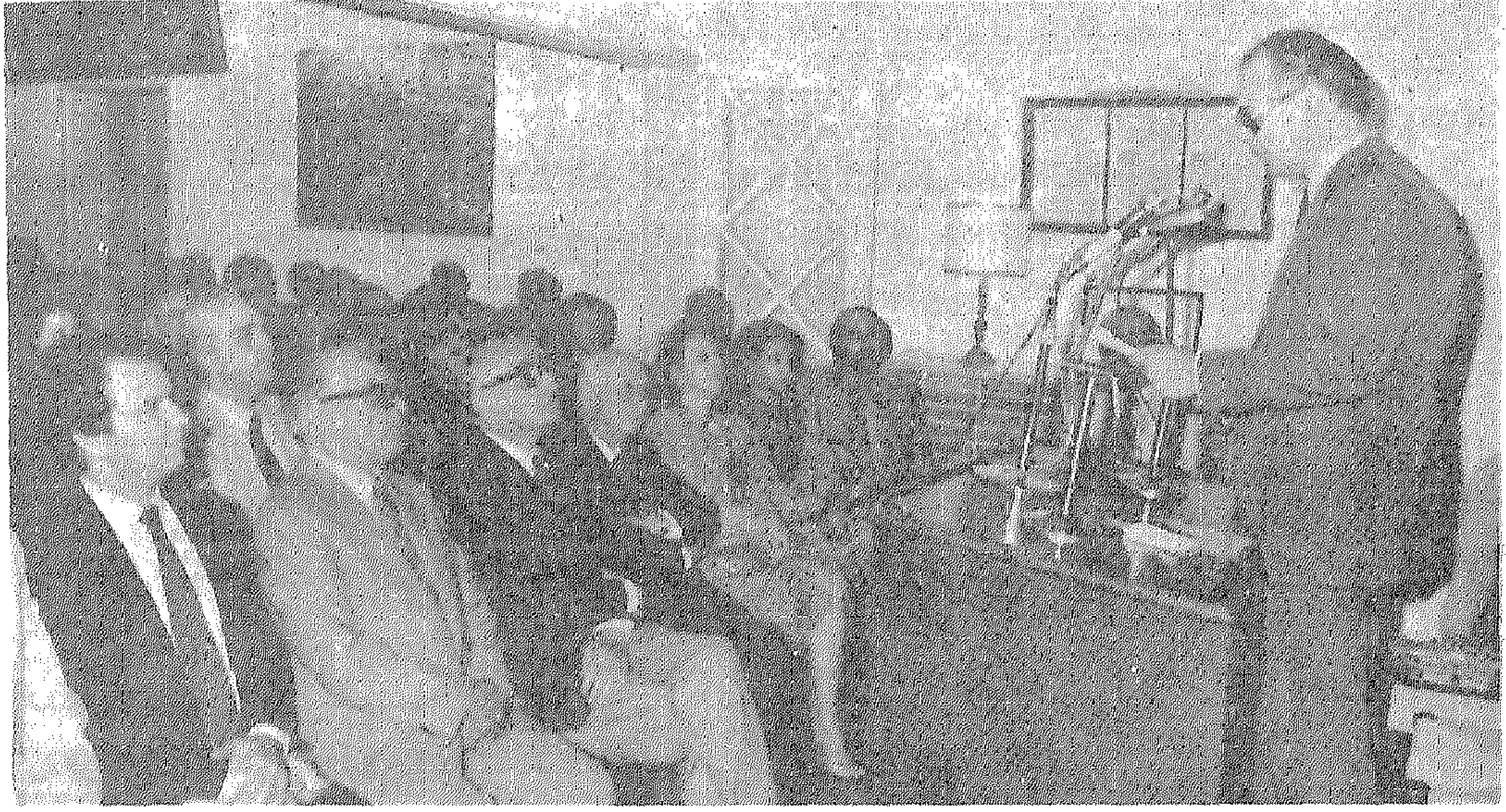
م.ع. ١٩٥٧ الجامعة الأميركية في بيروت

دكتوراه في الاقتصاد والتجارة ١٩٦١ جامعة انديانا في الولايات المتحدة الأميركية

الأعمال والمناصب التي شغلها:

- **أستاذ في الجامعة الأميركية في بيروت ١٩٥٥-١٩٦٧**
- **خبير مالي في الصندوق الكويتي للتنمية الاقتصادية العربية ١٩٦٤-١٩٦٦**
- **رئيس لجنة الرقابة على المصارف لدى مصرف لبنان المركزي ١٩٦٧-١٩٧٣**
- **رئيس مجلس الادارة المدير العام للمصرف الوطني للانماء الصناعي والسياحي ١٩٧٣-١٩٧٦**
- **رئيس وزراء لبنان من ٩ كانون الأول ١٩٧٦ حتى ٢٥ تشرين الأول ١٩٨٠**

نشر له دراسات عدة في الاقتصاد اللبناني.



الرئيس الحص وجانب من الحضور اثناء إلقاء المحاضرة.

الممارسة في الميزان:

إلا أن هذه الصورة المشرقة لم تكن كلها اشراقاً، وقد اعترضت مسار النظام عثرات وانتكاسات. لم تكن الانتخابات النيابية كلها نزيهة عادلة. فهناك انتخابات ٢٥ أيار ١٩٤٧ وما خالطها من شوائب وما أثير حولها من مآخذ. وهناك انتخابات عام ١٩٥٧ التي تمخضت عن نتائج كان من شأنها تعزيز أسباب التأزم الذي أفضى إلى احداث العام ١٩٥٨. ولكم اعتورت عمليات الانتخاب في غير دورة انتخابية شوائب في هذه المنطقة أو تلك من جراء ممارسات شاذة.

وقد تخللت التجربة أزمات وانتكاسات كثيرة، بعضها لم يكن يخلو من الشدة وبعضها بلغ في حدته مبلغ العنف. منها الأزمة التي انتهت باستقالة رئيس الجمهورية الشيخ بشارة الخوري عام ١٩٥٢، ومنها احداث العام ١٩٥٨ الدامية، وأزمة العام ١٩٦٩ التي سجلت أطول أزمة وزارية منذ الاستقلال، وأزمة ١٩٧٣ التي أعقبت غدر اسرائيل بثلاثة من زعماء المقاومة الفلسطينية في بيروت، ثم المحنة الكبرى التي انطلقت شرارتها مع تفجر الأحداث الدامية عام ١٩٧٥ والتي ما زلنا نقاسي من ذيولها ومضاعفاتها وتعقيداتها.

إلى كل ذلك لم يكن ذلك الظاهر المشرق ينم عن الحقيقة الكاملة. فالحال لم تكن كلها صحة وكلها عافية. فتجربة اللبناني مع الحرية والازدهار كانت إلى حد ما تجربة متعثرة. أما الحرية فكثيراً ما كان اللبناني يخطىء ممارستها، أو يسيء، في شتّى المجالات: في السياسة والاقتصاد والصحافة وغيرها. والازدهار، تحت أديمه الأخاذ، كان يخفي مكامن وهنه: فوارق اجتماعية، مناطق محرومة، حزام بؤس حول العاصمة، نزوح من الريف إلى المدن، هجرة أدمغة إلى الخارج، وما إلى ذلك.

إذا كان لنا أن نحكم على التجربة من نتائجها، فالنتائج تشمل كل ما أسلفنا ذكره من عثرات وسلبيات، ولكن ذروة تلك النتائج وأعمقها أثراً هي ما نشهد اليوم من أزمة مستحكمة باتت تنعكس تمزقاً في هذا المجتمع وتصدعاً في صفوف هذا الشعب ومخاطر تتهدد وحدة هذا الوطن ومخاوف تقض مضجع المواطن على أمنه وسلامته ومصيره ومعاناة انسانية حادة تلف حياة الكثرة من ابناء هذا البلد وأخيراً لا آخراً تعطل مسالك الممارسة الديمقراطية نفسها إلى حد بعيد.

إذا كانت التجربة الديمقراطية تقاس بنتائجها، ولا تعرف من الناحية العملية مقياساً أصدق انباءاً، فيمكننا القول أن التجربة الديمقراطية في لبنان كانت فاشلة. ما كنا لنسمح لأنفسنا بالحديث عن فشل التجربة لو لم تكن المحنة الحالية بما ترتب عليها من آثار عميقة حدت بالمواطن إلى مراجعة الضمير واعادة التفكير في ما كان يفترض أنه من المسلمات أو البديهيات أو المعطيات. أما عثرات الماضي فما كانت لتبرز أكثر من الكلام عن هنات أو ثغرات في النظام يمكن أن تكون قد تسببت في تعثر مساره.

لولا الأزمة الراهنة بعمق ابعادها لقلنا عن عثرات الماضي أنها دلائل عافية في مرحلة مخاض سياسي لا بد أن يجتازها شعب فتي وهو يخطو خطواته الاولى على طريق الانعتاق والاكتمال والنمو بعد تحرره من ربقة الانتداب ونير الاحتلال، ولقلنا مع من كان يقول قبل اندلاع الأزمة أن ايجابيات النظام المعتمد للممارسة السياسية على هناته كانت ترجح على سلبياته. ولكن أزمة ماحقة كالتي عصفت بنا منذ العام ١٩٧٥ لا تترك مجالاً للحكم بغير الفشل على نظام عجز عن استباقها أو تداركها ثم عجز بعد انفجارها عن احتوائها في اطار اللعبة الديمقراطية التي يقوم عليها.

هذا الحكم الفج على التجربة قد يصدم كل من كان يباهي بما تميز به لبنان من حرية وانعتاق وديمقراطية وانفتاح. ولكن الحقيقة التي لا مراء فيها هي هذا الواقع المرير الذي نعيش اليوم والذي تـوّج سنوات طويلة من الممارسة السياسية طبقاً لنظام معين.

لو كانت التجربة ناجحة، أما كان من المفروض أن تؤدي اللعبة الديمقراطية دور صمام الأمان الذي يحول دون وقوع الانفجار فالانهيار؟ أما كان من المفروض أن تتيح الممارسة الديمقراطية تفاعلاً متواصلاً بين الآراء والمواقف والمصالح بحيث تنهي الخلافات على مسرح الحوار الديمقراطي وفي اطار المؤسسات الدستورية قبل أن تتحول إلى نزاع سافر على مستوى القواعد الشعبية كان من مفاعيله تقويض دعائم الأمن والسلام والاستقرار في المجتمع واحداث شروخ بين فئات الشعب تهدد وحدة الوطن؟ أما كان من الطبيعي أن يضمن العمل بالنظام الديمقراطي احتواء الخلافات والانقسامات بحيث لا تخرج عن دائرة المعالجة الهادئة ضمن الاصول الديمقراطية من خلال الحوار الايجابي البناء؟ أو ليس خروج النزاع إلى ساحة الاحتكام إلى منطق العنف والبطش والسلاح دليلاً ساطعاً على عجز التجربة الديمقراطية كما مورست عن التجاوب مع تطورات الوضع ومستجداته والاستجابة إلى مقتضياته؟ فبقدر ما نعتبر أن التجربة الديمقراطية وسيلة لصون القيم الوطنية والأخلاقية والاجتماعية والانسانية التي نؤمن بها، بذلك القدر، أمام مشهد أسمى القيم تبدد وتنتهك وتداس حولنا وتحت أبصارنا، فاننا نسوّغ لأنفسنا القول بفشل التجربة الديمقراطية كما مورست في لبنان.

أي ديمقراطية هي تلك التي آلت إلى الحال الذي نتخبط فيه اليوم: في ظل سطوة السلاح والمسلحين، وطغيان لغة العنف على كل ما عداها، أين حرية التفكير والمعتقد والتعبير التي تترادف مع جوهر أي نظام ديمقراطي وأي ممارسة ديمقراطية؟ لسان المواطن معقود وقلم الصحافي مقيّد وصوت الحر مخنوق ورأي الأعزل مكبوت. وإذا كان ظاهر الأمر غير هذا، كما قد يتراءى لبعض غلاة المكابرين، فعليهم بقافلة شهداء السياسة والصحافة ينطقون بالحقيقة، وعليهم برصد ما حل بالشرعية ومؤسساتها بعد أن فرضت التطورات انحسار ظلها وانكفاء سلطانها أمام مد التحدي للشرعية وسطوة القوى غير الشرعية. في كل مكان مشاهد نابية وأصوات نشاز: قوات لا نظامية تحل محل القوات النظامية، صحف غير مجازة تزاحم الصحف المجازة، اذاعات غير شرعية تضارب الاذاعة الرسمية.

أسباب التعثر:

كيف نفسر فشل التجربة الديمقراطية في لبنان؟ هل نقول أن لبنان لم يكن مهيأً للممارسة الديمقراطية الصحيحة؟ أم هل نقول أن النظام الديمقراطي الذي فُصّل للبنان كان لزمن معين،



من اليمين:
بترو طراد، عبد الله اليافي، رياض الصلح، الشيخ بشارة، شكري القوتلي، حبيب ابو شهلا، هنري فرعون.

بُلي ولم يجدد، وكبر الجسم اللبناني عليه مع الزمن فتمزق؟ أم هل نقول أن شروط اللعبة الديمقراطية التي تبناها لبنان قد تعطلت قسراً بتدخل عوامل خارجية لم تكن في الحسبان عندما وضعت تلك الشروط؟

لعل الحقيقة هي كل ذلك في آن.

إلى حد ما لم يكن لبنان بالفعل مهيأ للديمقراطية الصحيحة. كيف تكون ممارسة ديمقراطية في مناخ غير ديمقراطي. ولكي نكون أكثر دقة نقول: كيف يمكن تحقيق ممارسة سياسية ديمقراطية كالحرية لا تتجزأ. فعند مباشرة الممارسة الديمقراطية مع انبلاج عهد الاستقلال كان الوضع الاجتماعي مثقلاً في عدد من المناطق بقدر لا يستهان به من الجهل وهيمنة الروح العشائرية وتدني مستوى دخل الفرد. فلا غرابة في ظل مثل هذه الأجواء أن الشعب لم يحسن في بعض المناطق اختيار ممثليه، أو إنه لم يستطع عملياً ممارسة حقه في اختيار ممثليه بحرية تامة فسار في ركاب زعامات تقليدية موروثة دون سؤال، أو أذعن لضغوط مَنْ بدا له أنه كان يتحكم بمفاتيح الحول والقوة من خلال علاقته بالسلطة، أو انساق دون ارادة وراء من كان يتراءى له أنه من أولياء نعمته. أو اضطر إلى التدليل على صوته بين المرشحين ليعطيه لأعلى العارضين ثمناً. ومع بعض التحسن الذي طرأ على الأحوال في مختلف المناطق منذ الاستقلال، فان المناطق التي كانت ترزح تحت كابوس الجهل والعشائرية والبؤس لم تبرأ تماماً من أمراضها الاجتماعية والاقتصادية. وبقيت الممارسة الديمقراطية محدودة الاطار فيها ومقيدة إلى حد بعيد بالولاءات الشخصية. فلا عجب والحال هذه، وبعد سبع وثلاثين سنة من الاستقلال أن يكون بين أكثر نجوم السياسة تألقا اليوم اولئك الذين كانوا من نجومها يوم الاستقلال، أو هم ابناء اولئك أو من ذويهم.

من المسلّم به أن الديمقراطية نظام لممارسة لا تنطوي فقط على مفهوم سياسي وإنما



ترو طراد في الوسط مع الشيخ بشارة الخوري محاطين بالزعين عبد الحميد كرامي والجنرال سبيرس ومن اليسار حبيب أبو شهلا وناظم عكاري. (الصور من: اصحاب الفخامة رؤساء لبنان، وليد عوض - الأهلية للنشر ٧٧).

أيضاً على مفاهيم اجتماعية واقتصادية، فلا حرية سياسية وهي جوهر الديمقراطية. من غير حرية اجتماعية واقتصادية. وهذه الحرية تفترض حداً محسوساً من الوعي والعدالة والمساواة وتكافؤ الفرص.

وربما أيضاً لم يكن القالب الذي صيغ للبنان هو الأصلح له. فقد بني كما يبدو لنا على قواعد انعكس فيها التمايز الطائفي والعشائري والاقليمي وانطمست فيها مسالك التطور التلقائي المنتظم وطغت عليها معالم التيبّس. فاذا بالأحاسيس الطائفية تزداد حدة مع الزمن والفجوات الطبقية تزداد عمقاً والفوارق الاقتصادية تزداد اتساعا والعوامل العشائرية والاقليمية تزداد سطوة.

وربما كان ثوب الديمقراطية الذي فصل للبنان صنع بالفعل لمرحلة الاستقلال، ومع الزمن بُلي ولم يجدد، وكبر الجسم اللبناني عليه فتمزق. فالنظام ليس صنماً للعبادة حتى يحاط بحرص متزمّت على حمايته من أي تغيير أو تطوير. والنظام في نهاية التحليل ليس هدفاً في حد ذاته وإنما وسيلة لأهداف أسمى تتلازم مع رفاه الشعب ومصالحه ولا يبقى إلا بمرضاته، فمن الطبيعي أن يتغير النظام ويتطور مع تبدل المعطيات والحاجات والتطلعات. مَنْ يدري، ربما لم يكن ذلك الثوب هو الأصلح للزمن الذي أعتمد فيه حتى من منظار الذين اعتمدوه، ولكن الصدارة في سلم أولويات الاعتبارات الوطنية لم تكن له وإنما كان مطلب الاستقلال مقدماً عليه. فولد ذلك النظام آنذاك لا نتيجة لمواجهة مسألة الديمقراطية وإنما نتيجة القفز فوقها. ويمكن أن يستشف ذلك من بيان الوزارة الاولى في عهد الاستقلال عندما ندّد بالطائفية ودعا إلى العمل على الغائها في أسرع ما يمكن.

وأخيراً، ربما كانت شروط اللعبة قد عطلتها عوامل طارئة لم تكن مرتقبة عندما صيغت تلك الشروط. فكما الأعصار يغرق سفينة، وكما الزلزال يدفن مدينة، فقد هبت على

الواقع اللبناني عواطف زعزعت أركانه. أما مصدر تلك العواصف فأزمة الشرق الأوسط بكل أبعادها ومنعكساتها وتطوراتها وذيولها. وتتداخل في أزمة الشرق الأوسط قضايا تتعدى حجم لبنان وحدود امكاناته وحيّز تحكمه بقدره. وفي مقدمها قضية فلسطين وقضية النفط. وشأن لبنان في هذا كشأن كثير من البلدان الاخرى في محيطه. وقد قضت التطورات التي شهدتها منطقة الشرق الأوسط منذ حرب ١٩٦٧ بالقاء العبء الأكبر من اعباء قضية المنطقة على كاهل لبنان، مما لم يكن النظام اللبناني معدأ لهضمه. قد يكون هذا صحيحا، مع ذلك فاننا إذ نرى فيه بعض المعذرة فإننا في الوقت ذاته نرى فيه دليلاً آخر على عجز النظام عن التجاوب مع مقتضيات التغير الذي أصاب الواقع في لبنان ومحيطه. نحن نعلم أن الشعب، أي شعب، إذا تعرض لحرب خارجية وقف في وجه المخاطر وقفة رجل واحد. فما بال اللبنانيين يتفرقون شيعا وأفرقاء عندما يتعرضون للخطر من جراء أزمة الشرق الأوسط وتطوراتها؟ لماذا لم يقفوا وقفة رجل واحد في مواجهة الخطر الداهم؟ أليس هذا دليلاً على عجز النظام عن احتواء المستجدات في اطار الممارسة الديمقراطية بشكل يحفظ للشعب وحدته وبالتالي صلابة جبهته في الصمود والمواجهة؟ بالطبع لم يكن بالامكان عزل لبنان كلياً عن تطورات أزمة الشرق الأوسط ومضاعفاتها. فلبنان جزء من هذه المنطقة وقضية المنطقة قضيته كما هي قضية كل بلد من بلدان المنطقة. ولكن الواقع أن التناقضات والانقسامات الداخلية في لبنان، والتي لم تؤمن اللعبة الديمقراطية المعالجة الناجعة لها، هي التي عبرت من خلالها عوامل التفجير من الخارج وأتاحت لأيدي الشر والتآمر تحويل لبنان إلى ساحة اقتتال بين ابناء الوطن الواحد.

من أهم أسباب تعثر النظام الديمقراطي، كما هو مطبق في لبنان، الطائفية ومن أهم المشاكل التي أفرزها مسألة المشاركة في الحكم. قد لا تكون الطائفية السياسية هي السبب الوحيد لتعثر التجربة الديمقراطية، وقد يكون من أسبابه الاخرى، كما أسلفنا، ضعف أسباب الديمقراطية الاجتماعية والديمقراطية الاقتصادية. ولكن في حديثنا عن التجربة الديمقراطية في السياسة تبقى الطائفية السياسية هي المظهر المرشح للتحليل والتشريح. ومن المحتم أن تكون معالجتها هي الأكثر تعقيداً لحساسيتها وابعادها السياسية وموقعها البارز بين المتغيرات في أي معادلة للحل الشامل للقضية اللبنانية.

ولا شك أن للطائفية السياسية افرازات سلبية لا تحصى، ولكن ربما كان أبرزها مسألة المشاركة في الحكم.

الطائفية السياسية:

لا نغالي إذا قلنا أن موطن الداء في النظام اللبناني هو الطائفية السياسية، تلك الظاهرة التي تحدرت من صيغة ١٩٤٣ واقترنت بها. وتتجسد الطائفية السياسية في عهد غير مكتوب بتوزيع الرئاسات الثلاث على الطوائف الثلاث الكبرى، إذ وقفت رئاسة الجمهورية على الطائفة المارونية، ورئاسة المجلس النيابي على الطائفة الشيعية ورئاسة الوزراء على الطائفة السنية، وكذلك في قاعدة طائفية نص عليها قانون الانتخاب منذ ما قبل الاستقلال وقضت بمراعاة نسبة ٦ إلى ٥ في التمثيل النيابي بين الطوائف المسيحية والطوائف الاسلامية.

مع أن الطائفية السياسية، بمظاهرها الآنفة الذكر، تحدرت، كما يمكن القول، من صيغة ١٩٤٣ (الميثاق الوطني)، إلا أنها لم تكن من صلبها حسبما يتراءى لنا. وبعض اللبس، أو بالأحرى الكثير من اللبس، الذي أحاط بتطبيق الميثاق الوطني ناجم عن الغموض في تعريف مفهوم الميثاق الوطني أو في الاختلاف على تعريف مفهومه. ومرد ذلك إلى حد بعيد، يعود بلا ريب إلى أن ذلك الميثاق لم يكن مكتوباً، وإنما كان تسوية اتخذت شكل التفاهم أو التراضي أو التسليم بواقع بين قادة تلك المرحلة الذين التقوا على مطلب مرحلي هو انجاز استقلال لبنان. كان هذا المطلب حيوياً وخطيراً في حينه بحيث نظر إليه بطبيعة الحال على أنه هدف مقدم على كل ما عداه من أهداف أبعد تتعلق ببناء الدولة والوطن والمواطن. وقد قيل أن اللبنانيين حققوا عام ١٩٤٣ استقلال الدولة

ولم يوفقوا منذ ذلك الحين في بناء دولة الاستقلال.

إن صيغة ١٩٤٣ في أضيق مفهوم عرفت به كانت مترادفة مع سلبيتين توافق عليهما رجال ذلك العهد هما: تخلي المسلمين عن المطالبة بالانضمام إلى سوريا وتخلي المسيحيين عن الحماية الغربية. وكانت محطة السلبيتين في ميثاق ١٩٤٣ في مفهومه البسيط ايجابية تتمثل في الالتزام بلبنان وطناً عربياً سيداً مستقلاً حراً، كما جاء في البيان الوزاري لأول حكومة في عهد الاستقلال برئاسة المغفور له رياض الصلح.

مع الزمن حمّل الميثاق الوطني أكثر مما انطوى عليه المضمون البسيط الذي كثيراً ما ترادف معه في الأذهان، فعزيت إليه اصول الطائفية السياسية كما عرفت ومورست منذ الاستقلال، أي بأوجهها الآنفة الذكر من توزيع محدد للرئاسات الثلاث ولقاعد التمثيل النيابي وبين الوظائف. فهل كانت الطائفية السياسية بمظاهرها هذه، من صلب ميثاق ١٩٤٣ ومترادفة معه أم إنها كانت مظاهر عرضية مرحلية كان الميثاق في الواقع منها براءاً. إن مناقشة هذه المسألة لا بد أن تجرنا إلى جدلية لا طائل منها. حسبنا هنا ابداء ملاحظتين في هذا الشأن:

أولاً، إذا كان لنا في البيان الوزاري لأول حكومة في عهد الاستقلال قرينة على مكنون الميثاق الوطني، فان ما جاء فيه ينم عن رفض رجال الاستقلال، صانعي الميثاق، للطائفية مبدئياً. وما كان تسليمهم بها إلا بصورة موقتة. وهذا ما ورد حرفياً في البيان حول هذا الموضوع:

«ومن اسس الاصلاح التي تقتضيها مصلحة لبنان العليا معالجة الطائفية والقضاء على مساوئها. فان هذه القاعدة تقيد التقدم الوطني من جهة وسمعة لبنان من جهة اخرى، فضلاً عن انها تسمم روح العلاقات بين الجماعات الروحية المتعددة التي يتألف منها الشعب اللبناني. وقد شهدنا كيف أن الطائفية كانت في معظم الأحيان أداة لكفالة المنافع الخاصة كما كانت اداة لايهان الحياة الوطنية في لبنان ايهاناً يستفيد منه الأغيار ونحن واثقون إنه متى غمر الشعب الشعور الوطني الذي يترعرع في ظل الاستقلال ونظام الحكم الشعبي يقبل بطمأنينة على الغاء النظام الطائفي المضعف للوطن».

«إن الساعة التي يمكن فيها الغاء الطائفية هي ساعة يقظة وطنية شاملة مباركة في تاريخ لبنان. وسنسعى لكي تكون هذه الساعة قريبة باذن الله. ومن الطبيعي أن تحقيق ذلك يحتاج إلى تمهيد واعداد في مختلف النواحي، وسنعمل جميعاً بالتعاون، تمهيداً أو اعداداً حتى لا تبقى نفس إلا وتطمئن كل الاطمئنان إلى تحقيق هذا الاصلاح القومي الخطير».

ثم إن المادة ٩٥ من الدستور اللبناني تثبت الصفة الموقتة للالتزام الطائفي بصراحة ووضوحكليين إذ نصت على ما يلي:

«بصورة موقتة والتماساً للعدل والوفاق تمثل الطوائف بصورة عادلة في الوظائف العامة وبتشكيل الوزارة دون أن يؤول ذلك إلى الأضرار بمصلحة الدولة».

ثانياً، مهما كانت النظرية التي قد يؤخذ بها بالنسبة لارتباط أو عدم ارتباط الممارسة الطائفية بميثاق ١٩٤٣، فمما لا جدال فيه أن الطائفية، وبصورة خاصة الطائفية السياسية، أصبحت مع الزمن بعد الاستقلال مكمن الداء في لبنان الدولة ولبنان الوطن. فلو فرضنا جدلاً إنها كانت من صلب صيغة ١٩٤٣ فقد أصبح لزاماً تعديل تلك الصيغة لتحريرها من تلك الشائبة، وإن لم تكن من صلب صيغة ١٩٤٣ فلا بد على أي حال من التخلي عن تلك الممارسة ضناً بمصلحة، إن لم نقل بمقومات، لبنان الدولة ولبنان الوطن.

لا تنقصنا الحجج فيما لو انبرينا للتنديد بالطائفية في لبنان وتفنيد مساوئها، وخصوصاً من حيث انعكاساتها السلبية على الصعد الوطنية والسياسة والاجتماعية والادارية والانمائية. ولا اعتقد إن في لبنان مَنْ يتغنى بمحاسن الطائفية كمبدأ أو يشيد بفضائلها. حتى ولا غلاة الطائفيين في لبنان، فان دفاعهم عن الطائفية لم يكن يوماً تمجيداً لمبدأ التمييز الطائفي في السياسة أو الادارة أو الاقتصاد

أو في خلاف ذلك من المجالات. وإنما كان دفاعاً عن نظام أو ممارسة بناء على ما يفرضه واقع طائفي موروث أو ما تمليه مخاوف أو هواجس أو حساسيات طائفية تتصل بالمستقبل والمصير. إذن لا حاجة بنا إلى الاسترسال في شجب الطائفية وانعكاساتها من حيث المبدأ.

يهمنا على أي حال التركيز على حقيقة هامة تتعلق بالواقع اللبناني، وهي أن نظام لبنان وكيانه توءمان. وليس هذا مجرد شعار نطرحه. فنظام لبنان هو الذي أعطى لبنان ذلك الوجه المميز، وحباه امكانية الاضطلاع بدور فاعل ورسالة خلاقة ضمن الاسرة العربية وفي العالم. وعطاء لبنان أو ما يمنّى به من عطاء، هو عمليا ما يميز كيان لبنان ويحصن مقوماته. فمن الصعب تصور لبنان في غير نظامه. والمقصود هنا النظام السياسي البرلماني الديمقراطي الحر في جوهره المنزّه عن الشوائب التي شوهت صورته وأداءه، والنظام الاقتصادي الذي يتلازم معه والذي يرتكز على حرية النشاط الفردي، ولا يصح النظر إلى النظامين السياسي والاقتصادي إلّا على إنهما صنوان متلازمان.

السؤال المركزي هو : كيف يستقيم النظام الديمقراطي في لبنان مع التشبث بالمقاييس الطائفية أو بأسس التمييز الطائفي. كيف يكون النظام ديمقراطيا إذا ظلت أصوات المطالبة بالمساواة والعدالة وتكافؤ الفرص تسمع من هنا ومن هناك. وكيف تكون مساواة وعدالة وتكافؤ فرص في ظل نظام يقضي بتقاسم المقاعد والمراكز على أسس كثيراً ما تكون بعيدة عن المبادىء الديمقراطية، ويقف مناصب معينة على ابناء طوائف معينة بما ينطوي عليه ذلك احيانا كثيرة من تفريط في مراعاة الكفاءة والاستحقاق في الاختيار وسد الطريق أمام ابناء طوائف اخرى مع ما يستثيره ذلك من أحاسيس الحيف والكبت والحرمان. ما أصدق العبارة التي وردت في البيان الوزاري لحكومة رياض الصلح الاولى في عهد الاستقلال التي ذهبت إلى أن في الطائفية ايهانا للحياة الوطنية، ففيها بالفعل ايهان للنظام الذي يقترن بكيان لبنان، ومن ثم ايهان لكيان الوطن بالذات.

الطائفية منعت حكم الأكثرية، وقد حالت دون اجراء احصاء سكاني منذ العام ١٩٣٢ لئلا يظهر هذا الاحصاء تكوينا طائفيا للسكان لا يأتلف مع المعادلة المعتمدة في توزع مقاعد التمثيل الطائفي في المجلس النيابي وفي الوزارات، وفي تقاسم المناصب الرئيسية في الادارة والقضاء والجيش، وربما أيضا لئلا يؤثر ذلك على الهوية الطائفية للرئاسات الثلاث. ومحصلة هذا التفكير كانت نظاما لا يأخذ بحكم الأكثرية، نظاما مبنيا على القبول لا بل التمسك بالممارسة الديمقراطية شكلاً ورفض حكم الأكثرية أساسا. كيف تكون ديمقراطية على غير قاعدة حكم الأكثرية؟

■



● لو مات جمل ضياعاً على شط الفرات لخشيت أن يسألني الله عنه.

عمر بن الخطاب

● في وسعي أن أفهم رجلاً يصوب نظره دائماً إلى الأرض ويكون ملحداً. بيد أني لا أستطيع أن أفهم رجلاً يرفع نظره إلى السماء وينكر وجود الله.



نجيب عازوري من خلال زمانه ومكانه

الوضع العربي العام في عصر نجيب عازوري

د. زاهية قدورة

(الحلقة الأولى)

نجيب العازوري ابن زمانه ومكانه. فعازور القرية التي ولد فيها نجيب العازوري قرية من قرى جنوب لبنان التابعة سياسيا لولاية القدس من السلطنة العثمانية التي كانت قد دخلت البلاد العربية في حظيرتها[1]، ما عدا المغرب الأقصى من جهة وحضر موت مع قلب الجزيرة العربية من جهة أخرى. وبعد أن تمت السيطرة العثمانية على البلاد العربية أخذت السلطنة تعمل على ترسيخ أقدامها.

ولم تجابه الدولة التركية معارك تذكر بعد معركتها الأولى مع المماليك في مرج دابق سنة ١٥١٦ إلّا أن بلاد اليمن اتعبت الدولة العثمانية لأسباب منها أن الجيش العثماني دخل في حرب مباشر مع أهل البلاد وافتتح اليمن عنوة. ومن جهة أخرى بحكم عقيدتهم الزيدية لم يعترف اليمنيون بخلافة آل عثمان اذ كانوا يعتقدون أنهم كقريشيين يجب أن تكون الخلافة حكما لأبناء الامام زيد.

• وكذلك لبنان أتعب الدولة العثمانية عندما حصلت الفتنة الطائفية عام ١٨٦٠، وكان للقناصل الأجانب دور أساسي فيها وفتحت المجال لمزيد من تدخلهم تدخلا سافرا، ذلك التدخل الذي لم يكن بداية عهد البلاد العربية مع أوروبا، بل كانت تلك العلاقات قديمة، لكنها لم تظهر كعلاقات لها خصوصيتها وشخصيتها

د. زاهية قدورة:

من مواليد بيروت، حازت دكتوراه في التاريخ من جامعة القاهرة سنة ١٩٥١. أستاذة في الجامعة اللبنانية، رئيسة قسم التاريخ ثم عميدة لكلية الآداب فيها سنة ١٩٧١، لها نشاطات علمية واجتماعية عديدة، وساهمت في مؤتمرات وندوات عربية ودولية، تاريخية، تربوية، ونسائية. من مطبوعاتها:

عائشة أم المؤمنين، الشعوبية وأثرها السياسي والاجتماعي، تاريخ العرب الحديث.

الا بعد ان انطلقت الدولة العربية في فتوحاتها الى بلاد الشام واصطدمت بالدولة البيزنطية، وكان هذا الصدام بداية العلاقة مع المغرب، وكان عسكريا في منحاه ثم تحول في أحد مجالاته الى علاقات حضارية، أنارت دروب أوروبا في القرون الوسطى. عقبت هذه العلاقات، علاقات ذات اتجاهات متعددة، عبر الحروب الصليبية، أو حروب «الفرنجة» ذات المظهر الديني الواضح، المتضمن الحقائق السياسية والاقتصادية، ومن خلال النفوذ الاقتصادي لدول غرب أوروبا الذي أخذ شكل قرصنة وهجمات وعلاقات تجارية. أخذ النفوذ السياسي لهذه الدول يتسرب إلى البلاد العربية إلى أن جاء سافرا ومعلنا مع غزوة نابليون لمصر عام ١٧٩٨.

وكانت العلاقة بين البلاد العربية وأوروبا قد استمرت من خلال الدولة العثمانية التي بلغت أوج مجدها، وذروة توسعها في عهد السلطان سليمان القانوني – في القرن السادس عشر ميلادي – وأوشك العثمانيون ان يُنْصِبُوا أنفسهم أسيادا على أوروبا[٢]، واحتلوا الدول البلقانية وأصبحت أوروبا الشرقية بمختلف شعوبها وقومياتها ضمن حظيرة الدولة العثمانية، ووصلت الى أسوار فيينا[٣] أكثر من مرة وحاصرتها عام ١٥٢٩ وعام ١٦٨٣.

ولأسباب داخلية وخارجية بدأت الدولة العثمانية تضعف في أواخر القرن السادس عشر، على أثر وفاة سليمان القانوني. ولكن آثار هذا الضعف لم تظهر إلا في منتصف القرن السابع عشر ووضحت في منتصف القرن الثامن عشر، نظرا لتكتل الدول الأوروبية ضد الامبراطورية العثمانية، وللحروب الروسية خاصة. كما أن الأحوال الداخلية كانت قد تقهقرت، إذ بعد أن كان نهج العثمانيين الأوائل المحافظة على البلاد وتطويرها وحماية شواطئها ونشر العدالة بين المواطنين حينا من الدهر، استمر حوالي قرنين من الزمن، ظهر سلاطين غير اكفاء اتبعوا أساليب غير صحيحة في حكم البلاد اتسمت بالاستبداد والسيطرة، واهمال مؤسسات الدولة وعدم تطويرها. وبعد أن كانت الدولة تستفيد من النهضة الأوروبية وتواكب التطور



محمد الفاتح

في عهد محمد الفاتح[٤] وتهتم بالمدنية الغربية عادت تنام على أمجادها الطويلة وتتوقف عن الأخذ من أوروبا التي كانت قد دخلت عصر النهضة، ففقدت الدولة نشاطها كما فقدت مهارتها السياسية. ولم يعد باستطاعتها مواكبة حركة التطور وأصبحت في حالة تقهقر وانكفاء ذاتي.

ومنذ اللحظة التي بدأ الضعف في الدولة العثمانية بدأ مصير الشرق الأوسط يتكون بسبب تحرّك الدول الكبرى التي كانت كلها تتنافس على اقتسام تركة «رجل أوروبا المريض» هذا اللقب الذي أطلقه على الامبراطورية العثمانية، قيصر روسيا، ثم تمسكت به أوروبا فيما بعد.

وكانت روسيا حريصة أشد الحرص على الحصول على مخرج إلى البحر المتوسط، أو الأوقيانوس الهندي. وقد خشيت الدول الأوروبية توسع روسيا، وفقدان الامتيازات التي إكتسبتها في معاهدات متعددة، مكنتها من السيطرة على الشؤون الاقتصادية في الدولة العثمانية. وكان هذا التنافس على اقتسام التركة وعلى خلق مراكز قوى[٥] في المنطقة من الأسباب التي أبقت الوضع القائم مدة من الزمن وساعد الدولة العثمانية على البقاء، كما ساعد على قيام حرب القرم، وكانت القرم منطقة اسلامية في

معظمها - من عام ١٨٥٤ - ١٨٥٦، تلك الحرب التي خاضتها بريطانيا وحلفاؤها ضد روسيا، بغية وضع حد لتلك الطموحات، وانكار إدعاء حمايتها للمواطنين المسيحيين لدى الباب العالي، وكبح تقدمها في البحر الأسود، والمضايق الضيقة(٦).

انتهت حرب القرم بمعاهدة باريس في ٣٠ آذار عام ١٨٥٦، بحضور ممثلي فرنسا وبريطانيا وتركيا وسردينيا والنمسا وبروسيا، وكان من أهم نتائج هذه الحرب أنه كانت لها علاقة بمصير أكثر من شعب في أوروبا الحديثة(٧) وان كانت القرم ميدانا للمعارك في الحرب، وقد أجبر السلطان على التخلي عنها، فكانت أول مقاطعة اسلامية تنسلخ عن الامبراطورية العثمانية.

كما ان حرب القرم تحتل مرحلة تطور بالنسبة للمسألة الشرقية ولاستقلال الدول البلقانية، واستبعاد روسيا عن القسطنطينية، وادعاءاتها لحماية المسيحيين، إذ حلّ حق حماية الاوروبيين للمسيحيين في السلطنة العثمانية محل حق حماية روسيا لهم، ووضع تركيا تحت النفوذ والتشاور الأوروبي ورفض حق التدخل أفراديا وجماعياً في أمور الامبراطورية العثمانية الداخلية(٨). هذا وإن كانت أسباب ونتائج حرب القرم متعددة، ومختلفة، لكن الدول الأوروبية، تظاهرت برغبتها في الدفاع عن استقلال ووحدة أراضي الدولة العثمانية.

ولم تكن معاهدة باريس، في ٣٠ آذار ١٨٥٦، الخطوة الوحيدة التي اتخذتها الدول الأوروبية، إذ بينما كانت تلك الدول تتفاوض حول المعاهدة، عقد مؤتمر في السفارة البريطانية في اسطنبول، بين الوزراء الأتراك وممثلي الدول انتهى «بصك للحريات» وقد ألحق بمعاهدة باريس، وعهد الى تركيا بتحقيق وعودها(٩).

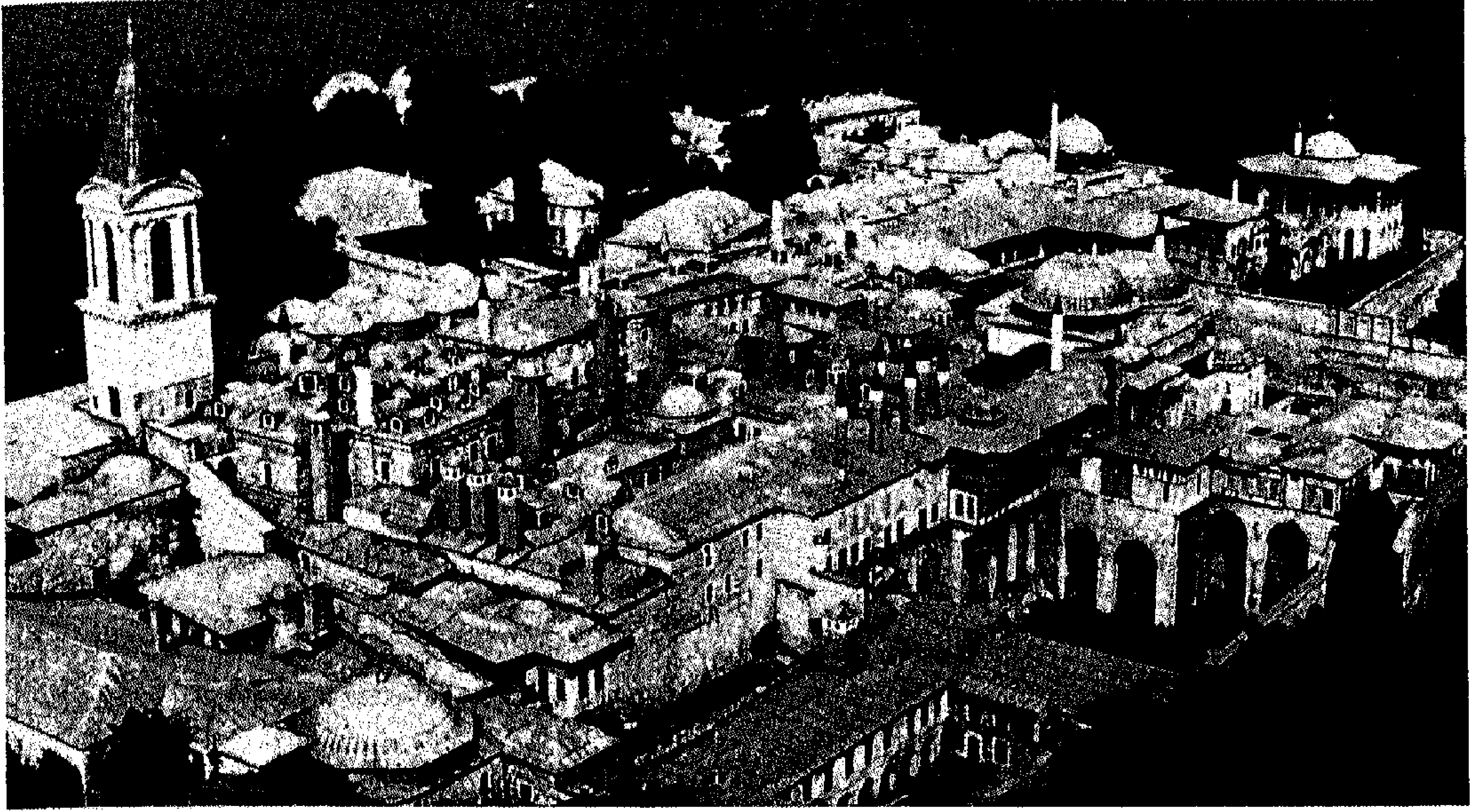
الروح القومية

كانت الثورة الفرنسية، ١٧٨٩، قد مهدت الطريق لحرية الفكر، وللفكرة القومية، واستجاب الناس لها في الامبراطورية العثمانية، وباستجابتهم تلك بدأت موازين القوى تتخلخل، وأسرع الى الظهور التيار القومي والقتال في سبيله، وأخذ الفكر الاصلاحي طريقه الى الوجود في أوروبا وفي العالم الاسلامي.

وقد سرت روح جديدة في بلاد البلقان في منتصف القرن ١٩، وحدثت تحركات بدت هادئة، إنما كانت تنطوي في أبعادها على مستقبل شعوب لم تتكون بعد(١٠). وكانت هذه البلاد قد تأثرت بعدة عوامل وأحداث انعكست عليها، منها، حرب القرم، والاصلاحات التي سارع عبد المجيد بايجادها في اسطمبول عندما كانت معاهدة باريس تتقرر في ١٨ كانون الثاني ١٨٥٦، ثم تحرك الولايات، والدعاية التي كان يبثها عملاء روسيا، والذكريات السعيدة والمثمرة للحكم النابليوني الأرياني (Illyrians)(١١).

كان من نتيجة ذلك كله أن سرت فكرة القومية لدى سائر الأمم البلقانية، التي ثارت عام ١٨٧٥، ونالت استقلالها تباعا فتكونت خمس دول بلقانية مستقلة على أساس قومي هو اللغة والتاريخ وكانت أول ولادة لهذه الشعوب ولادة المملكة الرومانية عام ١٨٧٨(١٢)، وهو العام الذي دعت فيه الدول الموقعة على معاهدة باريس عام ١٨٥٦، الى مؤتمر برلين، لاعادة النظر في شروط معاهدة سان ستيفانو التي فرضتها روسيا على الامبراطورية العثمانية عام ١٨٧٨، وبها تقرر مصير الدولة العثمانية لعدة سنين لاحقة.

نعود إلى الوضع الداخلي في الدولة العثمانية، فنرى أنه كان لهذه الأحداث وللنهضة الأوروبية عامة تأثير على وضع الامبراطورية العثمانية، فبادرت الحكومة التركية باجراء اصلاحات في أواسط القرن ١٨ إلا أن عراقيل عديدة واجهتها، فلم تستطع التغلب عليها، فتعثرت هذه المحاولة ولم تثمر إلا في أواسط القرن التاسع عشر، وقد اتخذت الاصلاحات عامة، اتجاها جديداً، وهو الاقتباس من الأسس الغربية «واستلهامها»(١٣). وكان ثقل السياسة الخارجية قد دفعها الى هذا الاصلاح، إذ أن حرب القرم والحروب والأطماع الروسية المتطلعة دائما نحو البحر الأسود والمضايق الدافئة وإنكار الدول الأوروبية لهذه



اسطمبول

المزاعم، خلق مناخا من التنافس بين هذه الدول وروسيا.

كذلك أدّت الحركات القومية في البلقان، إلى سلخ بعض الولايات الأوروبية عن نفوذ الدولة العثمانية، كما أدت الغزوات الاستعمارية إلى اقتطاع ولايات شمالي أفريقيا، إذ لم يبق ضمن الامبراطورية العثمانية سوى بعض الولايات في الشرق العربي وكل ذلك دفع بعض رجال الامبراطورية الى التفكير في أحوال أمتهم وكانت جماعة من الشباب الأتراك الذين ترك بعضهم أوطانهم وعاش في أوروبا، وبعضهم تعلّم فيها يطالبون بالحاح باصلاح أحوال البلاد.

«الاصلاحات» العثمانية

بدأت الاصلاحات أول ما بدأت عسكرية زمن مصطفى الثالث (١٧٥٧ - ١٧٧٤)(١٤) واستمرت ببطء زمن عبد الحميد الأول (١٧٧٤ - ١٧٨٩) ثم ظهر أثرها في عهد سليم الثالث (١٧٨٩ - ١٨٠٧) الذي كان مستنير الفكر، متحمساً للأصلاح. وكان هذا السلطان مهتماً باعادة تنظيم الجيش على أسس حديثة، فأرسل بعثة عسكرية تعليمية إلى أوروبا كما انشأ سفارات دائمة للباب العالي في عواصم أوروبا الكبرى كلندن، وباريس وفيينا(١٥) لكن نكسة قوية حصلت في نهاية حكم السلطان المذكور، نتيجة لمعارضة الانكشارية الذين ثاروا وقتلوا رجال الاصلاح والسلطان أيضا. ولم تستأنف حركة اصلاح الجيش إلّا في عهد السلطان محمود الثاني (١٨٠٨ - ١٨٣٩) وقد كان الدافع لهذا الاصلاح، الذي انصب على تحطيم الانكشارية انتصار جيش الخديوي محمد علي باشا الكبير والي مصر على الجيش التركي، وإرغامه على الانسحاب من مناطق كبيرة في فلسطين، وسوريا والحجاز، وذلك بفضل تنظيم جيش الخديوي المدرب وأسلحته الحديثة(١٦)، فضرب السلطان محمود الثاني ضربات متعددة وقضى على الانكشارية عام ١٨٢٦م وأنشأ قوة نظامية، وبذلك سهل الطريق أمام الاصلاحات العسكرية التي كانت أولى اهتمامات السلاطين.

وفي أواسط القرن التاسع عشر جرت حركة اصلاح عامة، تناولت الأمور الادارية والقضائية والمالية والسياسية، وقد عرفت المرحلة الأولى منها بـ «عهد التنظيمات» لأنها تناولت تنظيم الدولة على أسس جديدة في

مختلف الميادين، امتدت زمن السلطان عبد المجيد (١٨٣٩ - ١٨٦١) الذي أعلن مبدأ المساواة والحرية لجميع المواطنين بصرف النظر عن اختلاف الأديان والمذاهب أو الطبقة وفي عهد عبد العزيز (١٨٦١ - ١٨٧٦) الذي عين مدحت باشا صدرا أعظم عام ١٨٧٢، فقام بحركة ثورية ضد عبد العزيز ومراد الخامس، وتمكن من إيصال عبد الحميد الثاني الى السلطنة عام ١٨٧٦.



السلطان محمود الثاني.

وبعبد الحميد الثاني ١٨٧٦ - ١٩٠٩ تبدأ المرحلة الثانية من مراحل الاصلاح العام، وقد عرفت باسم «المشروطية» لأنها حاولت أن تجعل صلاحيات السلطان مشروطة بالقيود المقررة في «القانون الأساسي» الذي أعلن في بداية عهد السلطان عبد الحميد الثاني عام ١٨٧٦ بجعل الحكم دستوريا. لكن عبد الحميد بعد أن ثبتت أقدامه في السلطة أقال مدحت باشا وألغى الدستور قبل مضي سنتين على نشره، وأوقف الاصلاحات ولم يُعَد العمل بالدستور إلا بعد اندلاع ثورة عسكرية عارمة سنة ١٩٠٨، عرفت باسم «انقلاب المشروطية»، فأعلن الدستور في الرابع والعشرين من تموز عام ١٩٠٨، وتعهد عبد الحميد باجراء انتخابات نيابية واعادة الحياة الدستورية الى البلاد(١٧).

كان وراء «الانقلاب» المذكور، جمعية الاتحاد والترقي التي أسسها حزب «تركيا الفتاة» السري في سالونيك(١٨)، والتي كانت مؤلفة في البدء من صغار الضباط والموظفين الأتراك، الناقمين على الحكم الحميدي، والتي انضم اليها عدد من الضباط والمدنيين العرب. على أمل أن تكون أهدافهم وأهداف الاتحاديين مشتركة تتضمن تحقيق المصالح والأماني العربي. لم يكن عبد الحميد صادقا ومخلصا بوعوده للاتحاديين، فقام بمحاولة انقلابية مضادة، في نيسان من العام نفسه (١٩٠٩م) لكنها فشلت، فأكره الاتحاديون عبد الحميد على التنازل وتولية محمد رشاد، فسيطر الاتحاديون على مقاليد الدولة فترة من الزمن ثم تسلم الحكم حزب «الحرية والائتلاف» حتى نهاية الحرب العالمية الثانية.

إن تحالف أعضاء جمعية (الاتحاد والترقي) مع القوى العربية الوطنية لم يدم، بل كان مرحليا، إذ بدأت الخلافات الأساسية تظهر بين الطرفين عندما تحققت الغاية التي جمعتهمافي البدء، وهي خلع عبد الحميد في عام ١٩٠٩. لقد كان هدف جماعة «تركيا الفتاة» قيام حكومة دستورية مركزية قوية تؤمن الحرية والمساواة لجميع مواطني الدولة العثمانية مع المحافظة على وحدة الامبراطورية وتقويتها ضد الأطماع والضغوط الخارجية. وكانت الحرية والمساواة في نظرهم تعني الحرية والمساواة في الشعور الوطني العثماني بصرف النظر عن العنصر والطائفة أو الدين، على أن تكون السيطرة في الحكومة المركزية للعنصر الاسلامي التركي، وتقوية الحكم الاداري الذاتي في الولايات بينما كان العرب ينظرون الى هذه المساواة على أنها مساواة بين العرب والأتراك مع تقوية اللامركزية الادارية في الولايات العربية.



السلطان
عبد الحميد

كان نتيجة لهذا التفاوت في الأهداف بين الأتـراك أنفسـهم، وبين العـرب والأتـراك، أن انفصل «القوميون العثمانيون» المتشددون الذين كانوا يعملون من أجل مركزية قوية، عن الأتراك المتحـررين، «الليبراليـين» وقـد وجـد العـرب أنفسهم أميل الى «الليبراليين الأتراك» منهم الى «القوميين العثمانيين» الذين تطرفـوا فيما بعـد بارائهم، فانقلبت من قومية عثمانية الى قومية تركية، كانت سياستها تعزيز العنصر التركي، وتتريك جماعات العناصر الأخرى أو لفرض على جميـع أبناء الامبـراطوريـة «شعـوراً قـوميـاً واحداً»[١٩] واستعمال اللغة التركية في المدارس وفي الـدوائر الحكـومية واستبعـاد العرب عن المراكز الكبيرة. رأينا كيف أن سياسة التتريك هـذه، «العثمنة» دفعت العنـاصر الموجـودة في الامبراطورية العثمانيـة إلى التفكير في تـأكيد شخصيتهم وهـويتهم، وخاصـة العرب الـذين فكروا في تعزيـز عروبتهم فـأخذوا يؤسسـون الجمعيـات والأحزاب العلنيـة والسريـة، التي كانت في البدء تدعو الى اللامركزية الادارية، ثم أصبحت في أول الحرب العالمية الأولى تدعو الى الانفصال الناجز عن الدولة العثمانية، وان ظل البعض يؤمن بضـرورة المحافظـة على وحـدة الامبراطورية العثمانية بأي ثمن كـان وهذا مما مهد الطريق أمام رجـال العرب الأحـرار للأشتراك في ثورة الشريف حسين فيما بعـد. وقد كان للبنانيين مسلمين ومسيحيين دور في التحرك العربي واشتركوا مع اخوانهم العرب بتأسيس الجمعيات والأحزاب بعد ثورة ١٩٠٨ كالجمعية «القحطانية» التي تأسست عام ١٩٠٩، من بعض الضبـاط في الجيش وغيرهم، وفي طليعتهم عزيز علي المصري، وجمعية «الفتاة» التي أسسها طلاب سـوريون في بـاريس عام ١٩١١، وجمعية «العهد» التي أسسها عزيز علي المصري عام ١٩١٤، وتألفت من ضباط عرب معظمهم من العراقيين.

وكـان هـدف هـذه الجمعيـات كلهـا الاستقلال، في اطار عروبة تربط جميع أبنـاء العرب.

كانت فكرة القومية العربية هي الفكرة الشاملة التي كان بامكانها توحيد العـرب كل العرب على مختلف عقائدهم ومـذاهبهم، ولكن أخذت أفكار أو نزعات أقليمية تظهر، أخذ بعض المسيحيـين اللبنانيـين في لبنان، وفي القـاهرة ونيويورك وبـاريس يتبنونهـا[٢٠]، منها أفكـار لبنانية، انفصالية، وأفكـار تؤمن بـ «سوريـا» دولة سورية علمانية ديمقراطية لامركزية، تكون حدودها من طوروس حتى سيناء، على أن تكون بحماية فرنسا التي كانت تدعي ان لها حقوقا تـاريخيـة مكتسبـة في سـوريـا - لبنـان وسوريا - وكانت فرنسـا تبث دعايتهـا عبر مؤسساتها العلمية في سوريا، وعبر صحافتها وخطب سياسييها. وقد تأثر المسيحيون اللبنانيون عموما بأفكار الغرب أكثر من غيرهم وبخاصة فرنسا نتيجة لاقبالهم عـلى المدارس الأجنبيـة والتبشيرية وللاتصالات بالقناصل الأجانب.

لم تكن هذه النزعات والأفكار قد تبلورت بعد ولم تكن قد وجدت الخطوط الفاصلة التي عملت لها الداوائر الاستعمارية إلا أن روابط العروبة المتأصلة في تلك الافكار والنزعات كانت القـاسم المشترك المـوحد فيمـا بينها، إذ أن أنصار القومية السورية، أو النزعـة اللبنانيـة الانفصالية، كانوا متحمسين، وفخورين بـاللغة العربية، بلغتهم الأم، وبتراثهم العربي، وبالأرض المشتركة فيما بينهم، لذلك يستحيل انفصالهم عن العروبة بينما جماعة «القوميـة العربيـة» كانت تضم ضمن إطارها كل الفروع والروافد..

وأول تحرك عربي جماعي واضح كان له دور في حركة القومية العربي كان من خـلال جمعيتين، احداهما جمعية «العربية الفتاة»، التي تأسست عام ١٩١١ في باريس، أسسها بعض الشباب العرب[٢١] بعـدما أنهـوا تعلّمهم في اسطنبول، وقصدوا بـاريس لمتابعـة دراستهم

العليا، ثم انضم اليهم جماعة من الوطنيين العرب وأصبح عددهم حتى آخر الحرب العالمية الأولى ٦٠ عضوا من أبناء سورية الطبيعية، وكان الأعضاء في معظمهم مسلمين وقلة من المسيحيين، وأبرز هؤلاء المسيحيين رفيق رزق الله سلوم [٢٢]. وكانت هذه الجمعية بالنسبة للعرب على غرار الجمعية التركية «تركيا الفتاة». وقد قامت «جمعية العربية الفتاة» على أساس قومي بهدف تحرير الأمة العربية «خطوة فخطوة بكل الوسائل الشرعية وغير الشرعية» [٢٣] وقد بدأت كما بدأ غيرها من الجمعيات، تعمل للاستقلال الذاتي ضمن إطار الامبراطورية العثمانية، ثم تطورت أهدافها، نتيجة لسياسة تركيا الفتاة «التركية» في بدء الحرب العالمية الأولى وخلالها، وقد تميزت هذه الجمعية بحسن تنظيمها وسريتها وصرامتها في قبول أعضائها، وكانت قوية موحدة متماسكة [٢٤].

أما الجمعية الثانية فكانت جمعية «العهد» التي أسسها عزيز علي المصري في اسطنبول عام ١٩١٣، مع بعض الضباط العرب في الجيش ومعظمهم من السوريين والعراقيين، كان هدفها استقلال الأقطار العربية ضمن الامبراطورية العثمانية، وكان لها فرعان في بغداد والموصل.

وحزب آخر لعب دوراً في حركة إنماء القومية العربية، هو حزب «اللامركزية الادارية العثمانية» الذي أسسه في القاهرة عدد من المثقفين السوريين، هدفه، منح كل ولاية من ولايات الامبراطورية قسطا كبيرا من الاستقلال الاداري، يمكنها من تحقيق الاصلاح ومكافحة أي غزو أجنبي عند الحاجة، إذ أن هؤلاء المثقفين العرب كانوا متخوفين من أن تحذو فرنسا، حذو ايطاليا في طرابلس الغرب، وتشن هجوما على البلاد السورية. وقد حدّد الحزب هدفه ببيان أذاعه في أواخر كانون الأول عام ١٩١٢، جاء فيه:

«إن أفضل أشكال الحكومات هو الدستوري. وأفضل أشكال الحكم الدستوري هو اللامركزي، خصوصا في الممالك التي تعددت فيها الفروق والمذاهب واللغات، واختلفت العوائد والتقاليد والأخلاق فكان من المتعذر أن تساس بقانون واحد لم تراع فيه تلك الأحوال، ولم ينظر معه في الحاجة والزمان والمكان» [٢٥].

وقد أنشأ هذا الحزب فروعا في مدن الشام وغيرها وكانت له اتصالات سياسية بالجمعيات العربية السياسية المختلفة، وكان من أثره المباشر إنشاء «لجنة الاصلاح» في كانون الأول، أيضا ١٩١٢. انشأها أعيان بيروت ونوابها، تألفت من ٨٦ عضوا اثنين وأربعين من المسلمين، واثنين وأربعين من المسيحيين ويهوديين [٢٦] وكانت مطالبها، ممارسة الحكم الذاتي على أساس اللامركزية الادارية، وكان للقناصل الأجانب دور بارز في الدسائس التي كانت تحاك مع بعض رؤساء الجمعيات والأحزاب. وقد كتب والي بيروت أدهم بك، الى حكومته بهذا الصدد «تجتاح البلاد تيارات عديدة وطنية وأجنبية ويساور الوضع هنا خطر محيق، ففريق من الأهلين يرتمي في أحضان فرنسا، وفريق يعتصم ببريطانيا. وما لم تتخذ الدولة العلية اجراءات اصلاحية هامة في وقت قريب أفلتت البلاد من أيدينا ولا ريب» [٢٧] ومن بنود المطالب الاصلاحية التي تقدمت بها الجمعية العمومية، لجمعية بيروت الاصلاحية «تعيين مستشارين أجانب لدوائر الدرك والمالية والبريد والجمرك في مركز كل ولاية على أن يجيدوا احدى اللغات الثلاث: العربية أو التركية أو الفرنسية» [٢٨].

وجاء في عريضة سرية وقعها خمسة أعضاء من أصل اثني عشر عضوا مسيحيا، أرسلت الى القنصل الفرنسي الذي أرسلها الى باريس ما يلي:

«إن السبب الوحيد لدخولهم اللجنة كان التأكد من تعيين مستشارين أجانب في سوريا» [٢٩] وقد انتقدت مجلة المنار بشدة الحقوق التي منحتها اللائحة الاصلاحية للمستشارين الأجانب [٣٠].

وكان من نتيجة هذا الوعي العربي، ان حاولت الحكومة التركية دفع عجلة الاصلاح الاداري، فتألفت جمعيات اصلاحية في مختلف البلاد لكن الحكومة التركية، حاولت خنقها في المهد، مما أثار استياءً كبيرا وضغطا شعبيا في الولايات.

المؤتمر العربي في باريس

إن مقاومة الحكومة الاتحادية لحركة الاصلاح لم تستطع الحيلولة دون متابعة مسارها الذي انتشر داخل البلاد وخارجها، ولاسيما في باريس بين الجالية العربية التي كانت موجودة فيها. وقد فكر خمسة[٣١] من الشباب المتنور الذين كانوا يتابعون دراستهم فيها وكان هؤلاء أعضاء في «الجمعية العربية الفتاة» السرية، بعقد مؤتمر في باريس من ١٨ – ٢٣ حزيران ١٩١٣، فاتصلوا ببعض رجالات العرب، المقيمين في باريس، الذين وافقوا على الفكرة، وتألفت لجنة تحضيرية منهم اتصلت بحزب اللامركزية الادارية في القاهرة في ١١ آذار ١٩١٣ وطلبت من أعضائه ترؤس المؤتمر ووضعه تحت رعايته. وكانت ورقة عمل المؤتمر تعنى في البدء بمعالجة الأمور المتعلقة بسوريا، فأطلق عليه اسم المؤتمر السوري، ثم توسعت الفكرة فأصبح اهتمامه معالجة القضايا العربية كلها، فاطلق على المؤتمر اسم المؤتمر العربي.

وقد عقد هذا المؤتمر في باريس من ١٨ – ٢٣ حزيران عام ١٩١٣، وأشرك فيه ممثلون عن الجمعيات العربية القومية التي كانت موجودة في المدن العربية، وفي المهاجر – أوروبا وأمريكا – وكان المؤتمر العربي الأول يمثل البلاد العربية كافة تمثيلا شاملا بالرغم من أن معظم المؤتمرين كانوا من بلاد الشام[٣٢] والعراق، حيث أن الفكرة الاقليمية ودعواتها المشبوهة لم تكن قد وجدت بعد، اذ أنها من صنع الاستعمار الأوروبي بعد الحرب العالمية الأولى. ويتجلى التجاوب العربي الشامل في رغبة المصريين الذين حضروا المؤتمر المذكور، الاشتراك بالمناقشات بالرغم من أنه كان لمصر حكم ذاتي، وان كانت رسميا بلادا عربية عثمانية، وان اشراكهم في مناقشات المؤتمر قد يثير شكوك الحكومة الاتحادية. فقد سأل الدكتور سيد كامل، (هل للمصري أن يشترك في المناقشات؟) فأجابه عبد الحميد الزهراوي رئيس المؤتمر بهذا الجواب اللبق:


عبد الحميد الزهراوي

«نحن نحترم اخواننا المصريين ونحترم اراءهم. وبهذه المناسبة اعتذر لأني لم أجد فرصة قبل الآن لتحية الأمة المصرية. والآن نحيي أخواننا المصريين، ونبدي حرمتنا لآرائهم، ونعرف أن مصر عربية عثمانية، ولكن بما أن لها إدارة خاصة لا ينفذ فيها رأي العثمانيين، وكذلك البلاد العثمانية ادارة لا ينفذ فيها رأي المصريين، لذلك أرجو أن يكون هذا عذرا لبقاء مناقشة الشؤون العثمانية الداخلية منحصرة فيمن لارائهم حق التأثير في أحوالهم»[٣٣].

وقد أذاعت لجنة المؤتمر في باريس[٣٤]، بيانا إلى الناطقين بالضاد، في البلاد العثمانية، وفي المهاجر، تدعوهم الى عقد مؤتمر عربي في باريس يدعي اليه ممثلون عن الأمة العربية «المنتشرة في أقطار الأرض» الى تحقيق التضامن الاجتماعي والسياسي لهذه الأمة، ثم دعا البيان أبناء الأمة العربية كافة بخاصة زعماء الجمعيات والهيئات الى الاشتراك شخصيا بهذا المؤتمر أو دعمه بارسال برقيات التشجيع والمساندة، ليخرج المؤتمر من مركز القوة والاجماع العربي[٣٥].

وقد أوضحت لجنة المؤتمر هدفها في البيان المذكور «... ونصارح الدولة العثمانية بأن اللامركزية قاعدة حياتنا... وأن العرب شركاء في هذه المملكة، شركاء في الادارة، شركاء في السياسة، وأما في داخلية بلادهم فهم شركاء أنفسهم».

ولخصت ورقة العمل، وأرسلها عبد الغني العريسي مع أحد أعضاء لجنة المؤتمر، ندرة المطران الى وزير خارجية فرنسا حينذاك السيد بيشون مع ذكر الأسباب التي دعت لعقد المؤتمر في باريس. وقد ذكرت المواضيع المطروحة للمعالجة:

١ - «... المصالح السياسية والاقتصادية، الواجب الحفاظ عليها في سوريا لمصلحة السوريين.

٢ - «... حقوق السوريين في الامبراطورية العثمانية.

٣ - «... وجوب الحصول على الاصلاحات اللامركزية.

٤ - «... قضية هجرة السوريين الى الخارج وهجرة الاخوان في الرومللي الى سوريا...»[٣٦].

ويلاحظ من ورقة عمل المؤتمر، ومن الخطب ومن المطالب التي تقدم بها القوميون العرب، أنهم كانوا يطالبون بحقوق العرب ضمن الدولة العثمانية وأنهم لم يهدفوا في البدء الى الانفصال عن الدولة العثمانية إلا بعد أن دخلت تركيا الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤، الى جانب المانيا.

كانت ردود الفعل بالنسبة للمؤتمر، متفاوتة على الصعيدين الشعبي والحكومي، إذ أن الحكومة التركية أدركت مخاطر هذا المؤتمر، وما قد يجر من تكتل وتنظيم المعارضة العربية، فحاولت محاربة المؤتمر بأكثر من وسيلة، منها حمل الحكومة الفرنسية على منع انعقاد المؤتمر في فرنسا، لكنها فشلت، ثم أثارت بعض رجالات العرب الموالين لها، وحملتهم على معارضة انعقاد المؤتمر في بلد أجنبي، والتشكيك في بعض الشخصيات القائمة على المؤتمر، كما ان بعض الشخصيات أو الزعامات العربية الوطنية عارضت المؤتمر، وكان في طليعهم الأمير شكيب أرسلان، وقد فعلت ذلك تخوفا من هيمنة فرنسا وتدخلها فيما بعد. فقال بذلك: «ويقال أن مختار بيهم والزهراوي، وسلام، وطيارة، لحظوا أن مراد رفاقهم المسيحيين لم يكن استقلال سوريا ولكن فصلها عن تركيا ووضعها تحت حماية فرنسا[٣٧]. كما أن رأيه أن لفرنسا مطامع شخصية في سورية ولبنان، وان انشغال الدولة التركية بحروب البلقان قد أفقدها كثيراً من قوتها وهيبتها مما يلحق الضرر في الترك والمسلمين كافة في الدولة العثمانية.

أما فرنسا، فقد كانت تهدف إلى تحقيق مصالحها أولا وأخرا وهي محاربة الدولة التركية من الداخل باثارة العرب عليها، انتقاما منها لتعاونها مع عدوتها التقليدية المانيا، كما كانت تخطط لنيل حصتها من «تركة الرجل المريض» وقد صرحت انها لا تستطيع منع المؤتمر لأن ذلك «سيلحق أضرارا بالغة بالنفوذ الفرنسي في سوريا..»[٣٨].

عقد المؤتمر يوم الأربعاء في ١٨ حزيران عام ١٩١٣، في قاعة الجمعية الجغرافية بشارع سان جيرمن في باريس، وقد استمر ستة أيام، عقد خلالها أربع جلسات[٣٩]، وانتخب عبد الحميد الزهراوي رئيسا، وشكري غانم نائب الرئيس وأربعة وكلاء، وأربعة كتاب العربية، وكاتب الفرنسية[٤٠]. وكانت عضوية المؤتمر تكاد تكون مناصفة بين المسلمين والمسيحيين[٤١] وقد خصص ندرة المطران في المؤتمر كلمة شكر وتقدير للحكومة الفرنسية لحسن استقبالها وكريم ضيافتها.

وقد تضمنت المناقشات في جلسات المؤتمر المواضيع المذكورة في ورقة العمل، وأفكاراً متعددة، وكان الزهراوي أول الخطباء، فأشاد بالحرية السائدة بالغرب، وتمنى على الشرق الاقتداء به، ثم ذكر موضوع استئثار الأتراك بشؤون الحكم، والرغبة في الاصلاح مع التمسك بالرابطة العثمانية، وكذلك فكرة تعزيز اللغة العربية، وجعلها رسمية في البلاد العربية بمادة قانونية تذكر في القانون الأساسي لا قانون حكومة موقت[٤٢].

وشدد ندرة المطران على الوحدة القومية التي تجمع بين المسلمين والمسيحيين في أمة واحدة، وعلى ضرورة ارتباط العرب بالدولة العثمانية.

إن هذا الاجماع على بعض المفاهيم الأساسية لم يمنع من وجود اختلافات جوهرية في الآراء، وأبرزها، موضوع المستشارين الأجانب[٤٣] الذي أثار مناقشات حادة ضمن

المؤتمر وخارجه، كما كانت خطب بعض الأعضاء تتضمن ثناء على فرنسا وتبرئة اوروبا من اخطائها نحو الامبراطورية والتأكيد على ان الخطر الحقيقي يكمن في الداخل ، في «انحطاطنا نحن»(٤٤). ويظهر هذا الاختلاف بوضوح زيارة أحمد مختار بيهم موفدا من قبل المسؤولين في المؤتمر الى وزارة الخارجية الفرنسية، ليؤكد أن العرب شديدو الارتباط بعثمانيتهم ولا يرضون لهيمنة الفرنسيين عليهم بالرغم من تقديرهم للفرنسيين، وقد ظهر ذلك من الرسائل التي كتبها وزير خارجية فرنسا الى قناصل فرنسا يقول:

«إن الحركة الاصلاحية العربية قد انقلبت علينا ولذلك يجب عليكم أن تتظاهروا بمساعدتها لكي تكسبوا قلوب الأهلين على أن تسعوا – في الخفاء – للقضاء عليها»(٤٥).

وإذا أردنا أن نقيم نتائج المؤتمر العربي المنعقد في باريس نستطيع أن نعتبره في رأيي، مؤتمرا ناجحا بالرغم من المناقشات والاختلافات التي دارت حول بعض النقاط الأساسية. فقد اتخذ المؤتمر القرارات بالاجماع(٤٦)، وكانت وحدة الصف وإن لم تكن وحدة الهدف واضحة. فانعقاد المؤتمر ومناقشاته، وقراراته تمثل مرحلة تاريخية من مراحل نمو فكرة العروبة، وتطور الفكر العربي السياسي ونضج مفهوم الأمة(٤٧) والقومية العربية(٤٨) وباستبعاد المؤتمر عن الأهداف الطائفية، وان العرب كلهم أبناء أمة عربية واحدة(٤٩)، بالرغم من اختلاف طوائفهم، وهذا ما صرح به رئيس المؤتمر، عبد الحميد الزهراوي(٥٠).

إن انعقاد المؤتمر في باريس وإن لم يكن قد خرج بالنتيجة المرجوة، لكنه أثار الوعي العربي العام في داخل الامبراطورية العثمانية، ونقل القضية العربية الى المجال الدولي.

أبدت حكومة تركيا الفتاة بادىء الأمر استعدادا للتعاون مع المؤتمرين بشؤون مصالحهم، ثم جرت اتصالات غير مباشرة بين الطرفين في اسطنبول، واتفق على بعض التعديلات التي على أساسها وافق المؤتمرون على مفاوضة مندوب الاتحاد والترقي(٥١) الذي حضر إلى باريس، وتوصل الطرفان الى عقد اتفاق في تموز ١٩١٣. على أثر هذا الاتفاق سافر وفد من المؤتمرين الى الأستانة حيث جرى الاتفاق النهائي على البنود الاصلاحية، وقع عليها وزير الداخلية التركي ومندوب عن الشبيبة العربية عبد الكريم الخليل، بقي الاتفاق سراً إلى أن أعلن في ١٨آب ١٩١٣، بمرسوم سلطاني، فتبين حينذاك أن تعديلات أساسية أجريت، أو أحيطت بالغموض، فأحدث هذا خيبة أمل عند الوطنيين العرب، وبدأت تتكون لديهم فكرة استقلال العرب، «وأن سبيلهم إلى ذلك لا يتم إلا بالقوة»(٥٢) وهذا ما كان ينادى به من قبل نجيب عازوري لذلك لم يكن متحمسا، في رأي(٥٣) (E.gung) للمؤتمر. ■

الهوامش

(١) دخل العثمانيون دمشق عام ١٥١٦ على أثر معركة مرج دابق – قرب حلب، ودخلوا القاهرة عام ١٥١٧ بعد معركة الريدانية – عند مشارف القاهرة، وانتزعوا بغداد من الصفويين عام ١٥٤٣، والبصرة عام ١٥٣٩ التي أصبحت ولاية عثمانية عام ١٥٤٦ وهكذا...

(٢) البرت حوراني: الفكر العربي في عصر النهضة، ص٥٧.

(٣) (Jhon Marriott, the eastern question, p.90, 122-123.

(٤) البرت حوراني: الفكر العربي في عصر النهضة، ص٥٩ – ٦٠.

(٥) (Jhon Marriott: the eastern question 225-249)

(٦) (Jhon Marriott: the Eastern question p.285, Richard Hilton: the Thirteeth Power p.13-14).

(٧) (Jhon Marriott: the Eastern question, p.284).

(٨) (Jhon A.R. Marriott, the Eastern question, 249, 284, 309, 310)

(٩) (Ibid, p.310-313) (- Ibid, p.285.)

(١٠) والأريانيون هم الأسم القديم للالبانيين الجبليين.

(١١) (Ibid. p.48,413)

(١٢) (Jhon Mariott, the Eastern question, p.285).

(١٣) ساطع الحصرى، الدولة العربية والدولة العثمانية، ص٦١.
(١٤) للتفصيل عن الاصلاحات، راجع ساطع الحصري، البلاد العربية والدولة العثمانية، ٦١ – ٦٣، ثم ص٧٥ وما بعدها.
(Jhon Mariott, the Eastern question, p.310-311).
(١٥) سليم الصويص: أتاتورك ص١٧.
(١٦) المصدر نفسه: ص٢٠، ٢١.
(١٧) ساطع الحصري، البلاد العربية والدولة العثمانية، ص٩٤ – ٩٥.
(١٨) جورج انطونيوس، يقظة العرب، ص١٧٥.
(١٩) البرت حوراني، الفكر العربي في عصر النهضة، ص٣٣٦.
(٢٠) البرت حوراني، الفكر العربي في عصر النهضة، ص٣٤٠ – ٣٤١.
(٢١) هم: رستم حيدر، أحمد قدري، عوني عبد الهادي.
(٢٢) أحمد قدري مذكراتي.. ص١٢، وسليمان موسى، الحركة العربية، ص٣٢.
(٢٣) من رسالة عبد الغني العريسي، بتاريخ ٢ كانون الثاني ١٩١٣، الموجود في باريس الى محي الدين الخطيب، (أوراق محب الدين الخطيب – القاهرة).
(٢٤) جورج انطونيوس، يقظة العرب، ص١٧٨ – ١٨٨.
(٢٥) الشيخ رشيد رضا، المنار – مجلد ١٦، ج٢، فبراير ١٩١٣، ص٢٢٦ (من نص البيان).
(٢٦) رشيد الخالدي، القومية العربية في سوريا سنوات التكوين ١٩٠٨ – ١٩١٤ «الفكر العربي» السنة الأولى عدد ٢، ص٤٧، معهد الانماء العربي، بيروت ١٩٧٨.
(٢٧) عادل اسماعيل، السياسة الدولية في الشرق العربي، الجزء الرابع، بيروت ١٩٧٤.
(٢٨) مجلة المنار، مجلد ١٦، ج٤، ص٢٧٥، (لائحة الاصلاح لولاية بيروت).
(٢٩) رشيد الخالدي، القومية العربية في سوريا سنوات التكوين ١٩٠٨ – ١٩١٤.
الفكر العربي، السنة الأولى، عدد٢، ص٤٨، الانماء العربي، بيروت ١٩٧٨.
(٣٠) المجلد ١٦، ج٤، ص٢٨٠.
(٣١) المؤتمر العربي الأول، ص٤و٥. (وهم عبد الغني العريسي من بيروت، عوني عبد الهادي من نابلس، أحمد المحمصاني من بيروت، جميل مردم بك من دمشق، وتوفيق فائد من بيروت.
(٣٢) تعني لبنان، وسوريا، وفلسطين والأردن.
(٣٣) مصطفى الشهابي، القومية العربية، ص٩٦ – ٩٧.
(٣٤) المؤتمر العربي الأول، ص٤ – ٥.
(٣٥) المصدر نفسه، ص١٠ – ١١.
(٣٦) راجع وثائق وزارة الخارجية الفرنسية (1er Juin 1913).
(٣٧) الأمير شكيب أرسلان، سيرة ذاتية، ص١٠٩.
(٣٨) من وثائق وزارة الخارجية الفرنسية، (12 Juin, 1913).
(٣٩) جورج انطونيوس، ص١٩١ – ١٩٢.
(٤٠) المؤتمر العربي، الأول، ص٢٥ – ٢٦ – ٢٧.
(٤١) جورج انطونيوس: يقظة العرب، ص١٩١ – ١٩٢.
(٤٢) المؤتمر العربي الأول، ص٤٢ – ٤٩.
(٤) كانت «لجنة الاصلاح» في بيروت قد تبينت هذا الرأي، قد تبنى هذا الرأي ممثلو الاصلاح، وفي مقدمتهم شارل دباس وخليل زينة.
(٤٤) المؤتمر العربي الأول، ص٣٨.
(٤٥) ساطع المصري، نشوء الفكرة القومية في البلاد العربية، ص٢٠٢.
(٤٦) المؤتمر العربي الأول، ص١١٣ – ١١٩.
(٤٧) خطاب عبد الغني العريسي، المؤتمر العربي الأول، ص٤٣.
(٤٨) كلمة ندرة المطران، المؤتمر العربي الأول، ص٥٨ – ٥٩.
(٤٩) ساطع الحصري، نشوء فكرة القومية في البلاد العربية، ص١٩٣ ومصطفى الشهابي، القومية العربية ص٩٨.
(٥٠) (Le temps, No.18969, 10 Juin, 1913)
(٥١) مجلة المنار، م١٦، ج٨، ص٦٣٥ – ٦٣٦.
(٥٢) البرت حوراني، الفكر العربي في عصر النهضة، ص٣٢٩.
(٥٣) (La Révolte Arabe, i.117)



القيصر ويليام الأول

بسمارك والمسألة الشرقية

نظرة نقدية

د. مروان بحيري
ترجمة: وليد حمارنة

د. مروان بحيري: خريج جامعة برنستون - أستاذ التاريخ المعاصر في الجامعة الأميركية في بيروت.

بسمارك

هناك اتفاق عام بأن الأمير بسمارك كان الشخصية السياسية المهيمنة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر. وكشاهد على هذا يُؤَكِّدُ على دوره كالمهندس الأساسي للوحدة الالمانية ولشبكة من التحالفات جعلت من برلين مركز الجاذبية الأوروبي. ونستطيع هنا الاستشهاد بما قاله أحد المصادر الغربية وهو المؤرخ ج. كريج (G. Craig) في كتاب «**من بسمارك إلى أديناور: جوانب فن الحكم في إلمانيا**» (ص: ١٥) «اعتبره الكثيرون نوعاً من الظاهرة التاريخية التي لن تتكرر ونموذجاً يقاس عليه كل رجل دولة».

كذلك يمكن استشفاف تقييم مشابه لمكانة المستشار الحديدي في العالم العربي قبل الحرب العالمية الأولى وذلك في الأيام الأولى من نشر الكتب والجرائد. ونذكر على سبيل المثال جريدة «طرابلس»(١٨٩٣) لمحمد كامل البحيري، ومجلة جرجي زيدان القاهرية«الهلال»(١٨٩٨) ومقالات مختلفة للأخوين، بني في مجلتهم الطرابلسية «المباحث» في الفترة ما بين عامي (١٩٠٨ و ١٩١٤). ويبدو أن هناك العشرات من الأمثلة الأخرى.

وبينما يبدو ما قيل سابقا صحيح بالنسبة لمعالجته قضايا قلب القارة الأوروبية، فإن من الممكن إبداء بعض الشكوك حول ما يتعلق

بقضايا أطراف القارة وبقية العالم. ولذلك فإن دوره في المسألة الشرقية (وهي بالنسبة لنا في هذه الدراسة تتكون من البلقان وتركيا والمقاطعات العربية في الامبراطورية العثمانية) هو موضوع خلاف، وهناك العديد من التساؤلات حول ما إذا كان بسمارك قد بذل فيها نفس الطاقة وكانت له فيها نفس البراعة والرؤيا التي كانت له في معالجة مشاكل قلب القارة الأوروبية. هذا إذن هو أحد تناقضات بسمارك: النجاح في المجال الأوروبي والسقوط في المجال العالمي وخاصة فيما يتعلق بالمسألة الشرقية، أو بكلمات أخرى، التفرقة الخاطئة التي عمل بها كرجل دولة واستراتيجي بين قلب القارة الأوروبية وأطرافها. وهذه المقولة هي المقولة الأساسية في مقالنا هذا.

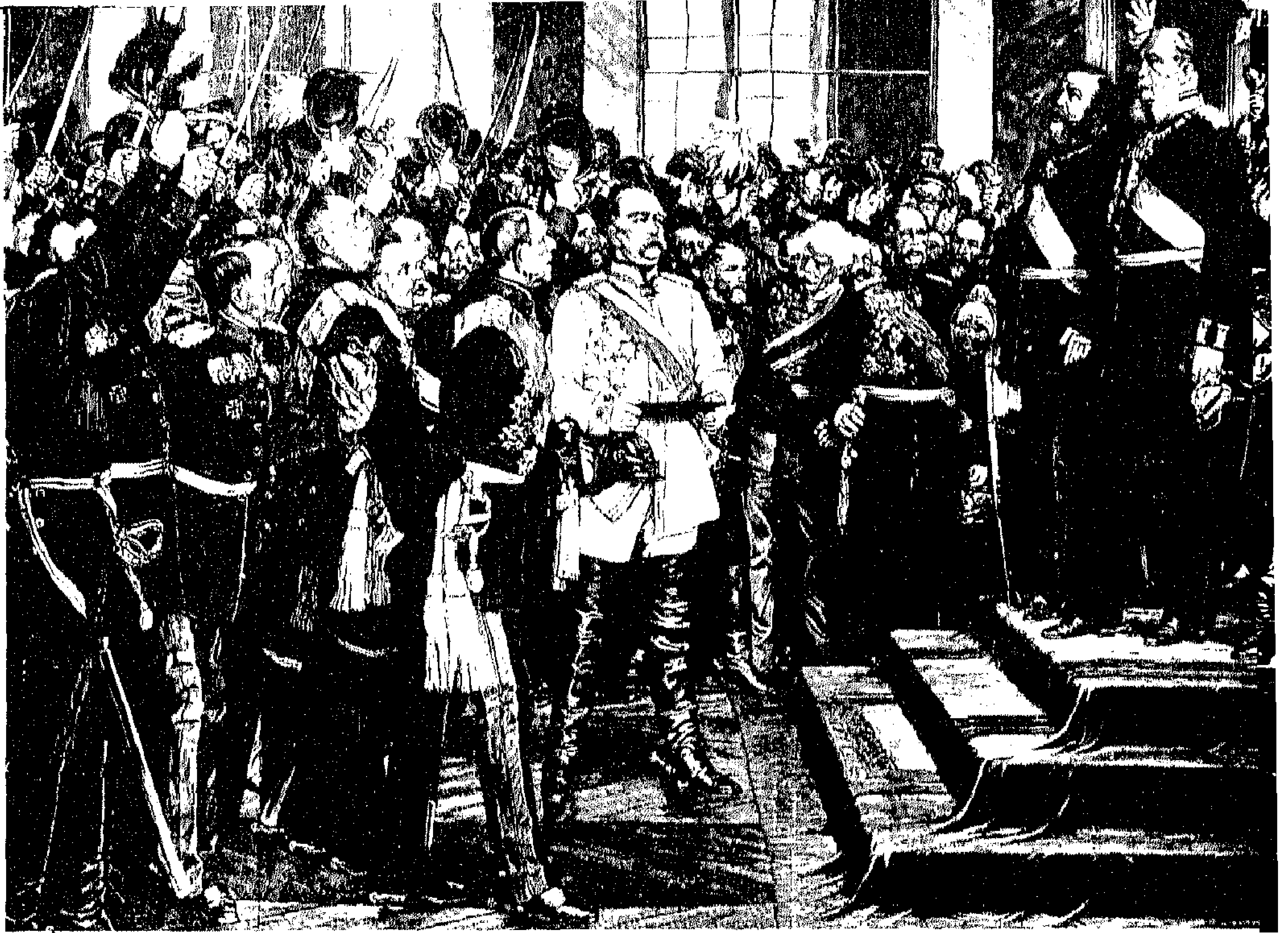
١ - النظام البسماركي بعد عام ١٨٧١:

بعد أن استطاع المستشار بسمارك إلحاق الهزيمة بمنافسته الأساسيتين النمسا وفرنسا وتحقيق حلمه بتوحيد الدويلات الألمانية المتناثرة تحت عرش بروسيا أضحت رؤيته لألمانيا الجديدة التي عمل لتحقيقها، وكما قال هو«كقوة مكتفية ومشبعة» أي أنه لم يعد من الضروري القيام بحملات أخرى بعد عام ١٨٧١، فالمهم الأشد أهمية كانت توطيد موقع الهيمنة الجديد لألمانيا في أوروبا وذلك بغرض السلام وردع الآخرين عن القيام بأية أعمال قد تُضعف سيطرة إلمانيا القوية على موازين القوى في القارة. وكان هذا يعني عمليا الاحتفاظ بالتفوق العسكري الالماني الكبير الذي استطاعت بروسيا تحقيقه وتوسيعه ليشمل كافة عناصر القوة الحربية الالمانية. وثانيا: الاحتفاظ بموقع المبادرة الدبلوماسي وذلك بجذب أكبر عدد ممكن من الدول الأوروبية في مدار نفوذها. ثالثا: تأمين بقاء فرنسا معزولة فعليا - وربما كان هذا حجر الأساس في صرح الاستراتيجية البسماركية. ورابعا: تأمين عدم إعطاء مبرر أو سبب لبريطانيا كي تعيد النظر في حيادها (كي لا نقول بعدها وانعزالها) تجاه مشاكل القارة. وبالنسبة للنقط الأخيرة فقد عنى هذا في الواقع إعطاء بريطانيا الحرية الكاملة في عالم المستعمرات في أواخر القرن التاسع عشر أو بكلمات أخرى، كان بسمارك مستعداً بمقابل الاحتفاظ بالوقع الراهن في أوروبا تحت هيمنة الامبراطورية الالمانية أن يُسلم بوضع راهن آخر في المجال العالمي تحت هيمنة بريطانيا.

أما عصبة الأباطرة الثلاثة التي أَقْنَعَتْ كل من المتنافستين الشديدتين النمسا وروسيا بالانضمام إلى إلمانيا فيها، عبر خطوات متناسقة هدفت إلى إعانة كل واحدة للأخرى في شؤون الأمن والعمل المشترك في ما يخص التهديد بالعدوان فقد كانت دلالة واضحة على مبدأ بسمارك الثاني. وبالرغم من أن دوائر مؤثرة عديدة كانت تعارض ما بدا لها نظاماً متناقضاً إذ أنها لم تستطع رؤية إلمانيا قادرة على تحقيق تحالف مع قوتين متنافرتين كالنمسا وروسيا في نفس الوقت. إلا أن هناك كل ما يوحي بأن مقولة التناقض لم تكن مؤثرة في السياسة بالنسبة لبسمارك كذلك لم يكن المصطلح هذا ذو معنى في لغته الدبلوماسية. وعلى أية حال فطالما بقيت إلمانيا مركز الاتفاق الثلاثي هذا - أي الثالث الذي لا مفر منه - فإن هذا كفيل بكبح كلٍّ من النمسا وروسيا.

أما بالنسبة للمبدأ الأول أي التفوق العسكري التام فقد كانت خطته أي خطة بسمارك والاستراتيجي مولتكه الحفاظ على مستوى الجيش الالماني عدديا بما يساوي ١٪ من مجموع السكان أي حوالي ٤٠٠ ألف رجل، وتأمين عدم هبوط نوعية الضباط وكفاءة الأركان العامة. ولم يبد بسمارك اهتماما كبيراً بالقوة البحرية وذلك بسبب أصوله الزراعية اليونكرية(١) وكذلك لأنه لم يكن يود استفزاز بريطانيا في مجالي القوة البحرية والمستعمرات الحساسين بالنسبة لها.

(١) اليونكر (Junker) مصطلح إلماني يعني الاستقراطي الزراعي الريفي في المناطق الوسطى والجنوبية من إلمانيا.



ويليام الأول يعلن انشاء الامبراطورية الألمانية من قصر فرساي – فرنسا – في ١٨ كانون الثاني ١٨٧١

(٢) – الحرب الروسية التركية عام ١٨٧٨ وتدخل بسمارك الدبلوماسي.

كان النظام البسماركي، نظرياً على الأقل، قد خُطط للحفاظ على السلم عبر التنظيم الفعال للمشاكل الدولية وخاصةً في القارة الأوروبية في أعقاب حروب التوحيد الالماني والايطالي التي تكللت بالنجاح. ولكن هذه السياسة لم تنجح في منع حدوث أزمة بين روسيا وتركيا في شرق أوروبا والبلقان الهائج مما هدد بالنمو كي يصبح حريقا أوروبياً عاما. فقد فشلت توقعات عصبة الاباطرة الثلاثة في التحقق وبدا واضحاً أن العصبة قد انهارت. ولم يشك أحد بنتائج الحرب، فقد توقع أكثر المراقبين انتصاراً روسياً سريعاً. ولكن روسيا تغلبت على تركيا بعد حملة طويلة وصعبة ومكلفة أكثر مما كان متوقعاً. فقد قاتلت الوحدات السورية والفلسطينية في الجيش العثماني ببسالة وخاصة في يليفنا، وبذلك خُلصت الامبراطورية التركية من الانهيار السابق لأوانه. وقد قام السلطان عبد الحميد بتذكير تيودور هرتزل بهذه الحقيقة المهمة عندما كان الأخير يحاول الحصول على ترخيص من القسطنطينية لاقتراحه بإنشاء دولة صهيونية في فلسطين.

وقد مثل الانتصار الروسي اللاحق ومعاهدة سان ستيفانو القاسية التي فرضتها روسيا على السلطان، بالنسبة للجميع، نصراً واضحاً لطموحات القياصرة الروس القديمة. فقد خُلقت بلغاريا الكبرى على حساب مقاطعات تركية في البلقان تحت الرعاية الروسية مما زاد في الهيمنة الروسية القوية آنذاك في شرق أوروبا والبلقان. زيادة على ذلك أُجْبِرَتْ تركيا على التخلي عن مساحات في آسيا خاصةً منطقة باطوم الاستراتيجية والغنية وبذلك أصبحت روسيا أقرب إلى مواقع بريطانيا الاستعمارية في آسيا والمتمركزة في الهند وأفغانستان. كل هذه

...ولم يكن للرجل ميل في سياسته إلى الشرق واهله وكان يقول «ان المسألة الشرقية كلها لا تساوي عندي عظمة من عظام عسكري واحد» وكان لا يرغب في محالفة الدولة العلية ابدا واختلف مع الامبراطور الحالي على ذلك كثيرا. ويروي ان دولة رياض باشا لما سافر الى اوروبا عقب الثورة العرابية رغب في مقابلة البرنس بسمارك ودعته شدة الرغبة الى الالحاح فضرب له البرنس موعدا ودخل عليه بلباس الصيد ولم يزد على على أن قال له «ها انا بسمارك فان كنت تريد رؤيتي فقد رأيتني» ثم تركه وانصرف.

الهلال ١٥ آب ١٨٩٨ ص٩١٢


البرنس بسمارك ٩٠٥

الهلال

الجزء الرابع والعشرون — السنة السادسة

باب مشاهير الحوادث وعظماء الرجال

البرنس بسمارك

رجل المانيا السياسي الشهير

الغلاف الداخلي
لعدد ١٥ آب ١٨٩٨
من مجلة الهلال المصرية.

أرسلت بريطانيا أسطولها على وجه السرعة إلى مضيق الدردنيل لحماية القسطنطينية بينما كان السياسيون في فيينا يتحدثون بصراحة عن إمكانية دخولهم في صراع مع سانت بطرسبورج. وبينما كانت أوروبا تقترب من الحرب، تدخل بسمارك كوسيط. كان بسمارك يؤمن بأن حرباً عامة في القارة ستخلق مضاعفات خطيرة على الدولة الألمانية الموحدة حديثاً، فالشعور الانفصالي في ألمانيا لم يكن قد زال نهائياً بعد. ولذلك تدخل المستشار الحديدي في الأزمة مقترحاً مؤتمراً دولياً في برلين يهدف إلى حل أكبرعدد ممكن من المشاكل وإيجاد نوع من الانفراج بين القوى المتصارعة.

أما دوره في هذا المجال – وكما قال هو – فسيكون دور الوسيط الأمين (السمسار المستقيم) والذي ستبقى يداه نظيفتان أي أنه لن يحقق مكاسب من وراء هذا المؤتمر. وكما ذكرت مجلة (الهلال) المصرية في الاطار أعلاه، فقد كان معروفاً أن بسمارك لم يعر أية أهمية للبلقان، وكان يُصر على أن المسألة الشرقية لم تكن تستحق بأن تستأثر من وقته شيئاً. لكنها هذه المرة كانت تهدد بإشعال نار حرب لم تكن من اختياره قط ولذلك لم يستطع

الأرباح الروسية أغضبت النمسا ذلك لأنها رأت (كبريطانيا العظمى) أن الاختفاء الفعلي للمقاطعات التركية في أوروبا قد جعل روسيا قريبة جداً وبشكل خطر من العاصمة التركية. وبذلك فقد خرقت موازين القوى في تلك المنطقة بقوة.

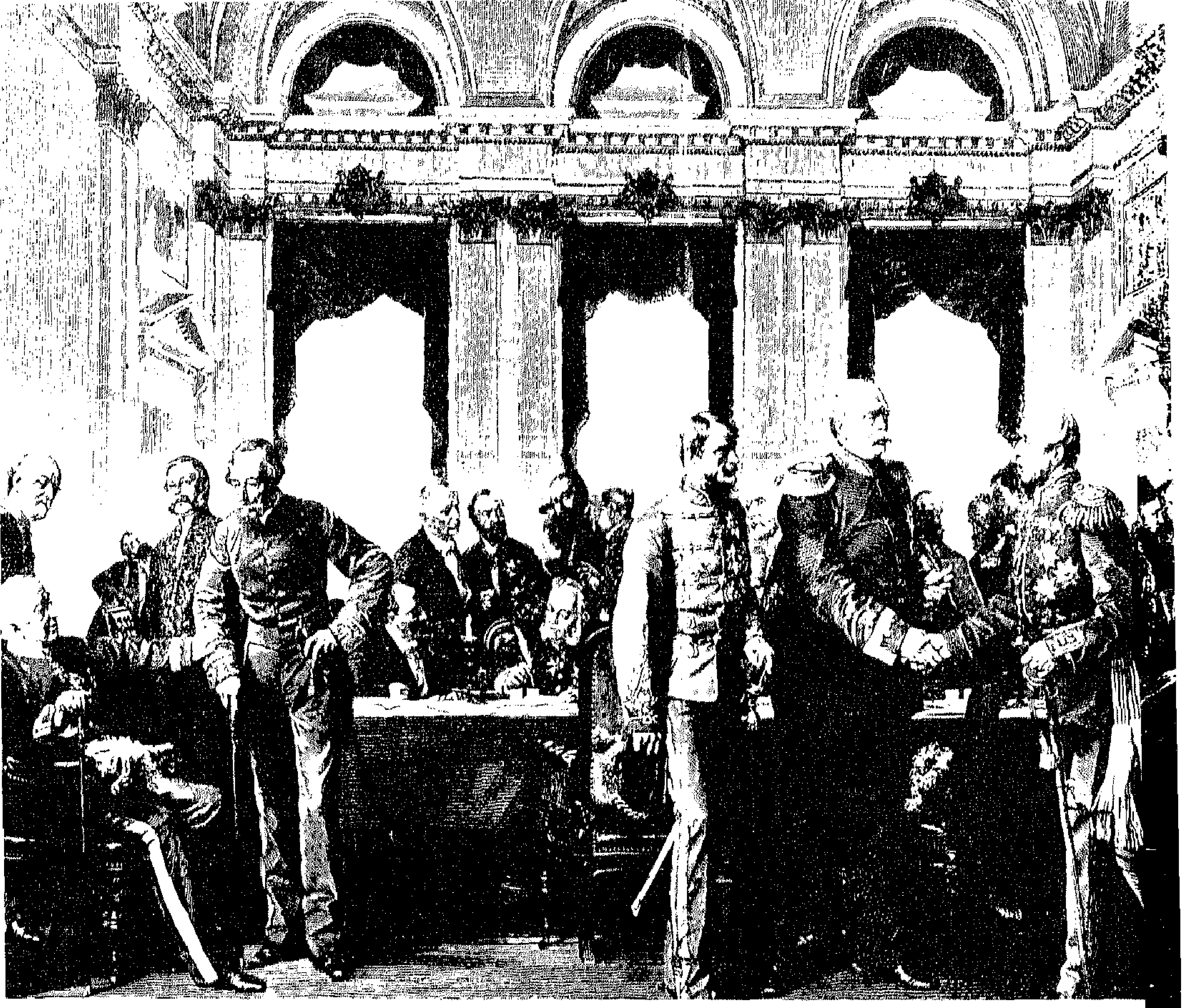
سوى لعب الدور الحاسم الذي دعته إليه الظروف.

(٣) - مؤتمر برلين: الاتفاقات العلنية واتفاقات ما وراء الكواليس.

لنستشهد هنا بكلمات المؤرخ تيلور (A.J.P.Taylor) صاحب الكتاب الذي يبقي أكثر السير السياسية الثاقبة للمستشار الحديدي

الكبار نكهة أسلوبه الملوكي الخشن الذي كان يعامل به سياسي المانيا في أمسيات الجعة... كان يتجاهل البروتوكول ويرى وهو يلتهم الأربيان (القريدس) بيد والكرز باليد الأخرى» (ص ١٧٧).

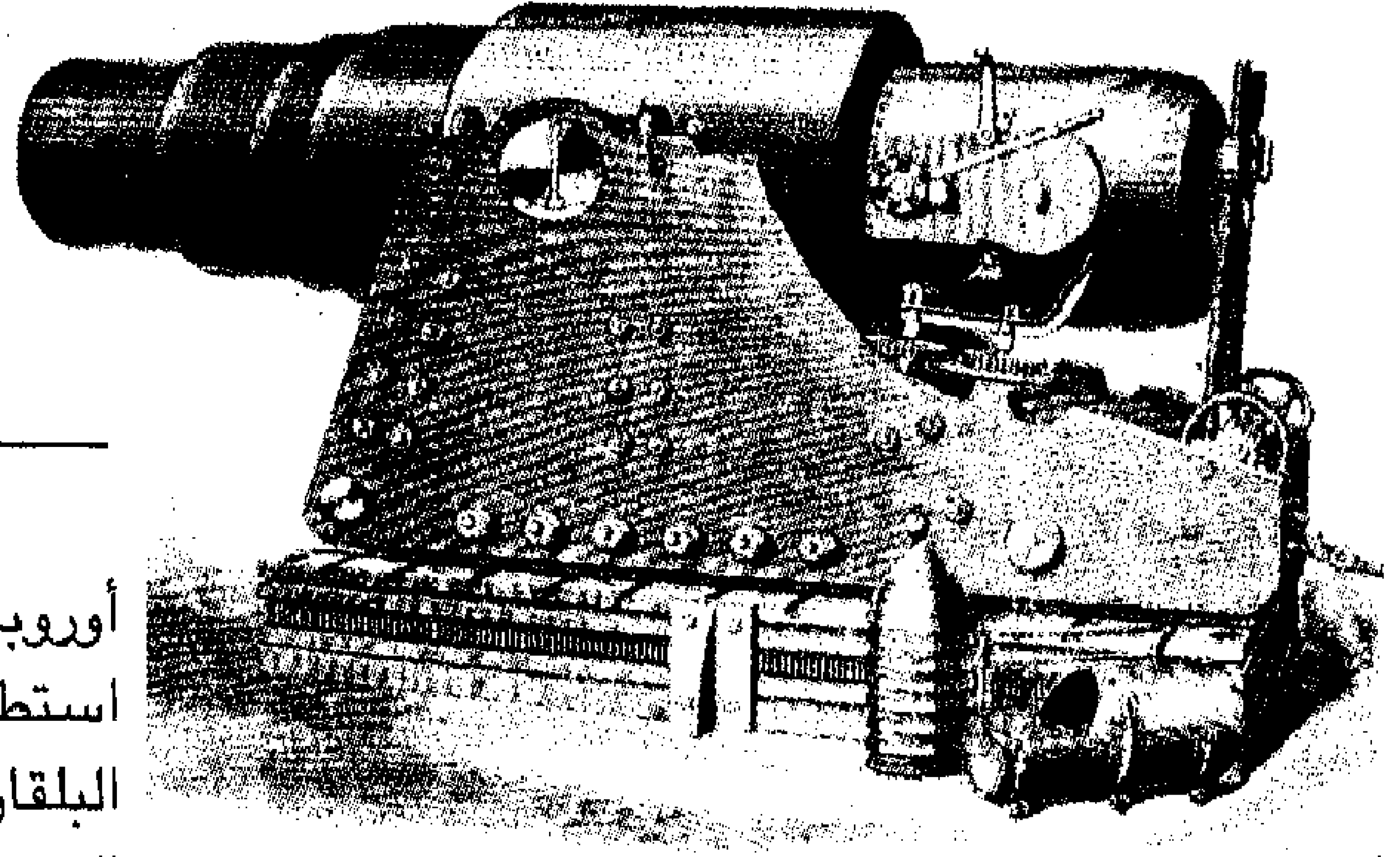
لكن بالاضافة إلى التسلية المتوفرة، قام المؤتمر بالأعمال الجادة أيضا، فقد كانت هناك مشاكل سببها تنافس المصالح والشكوك



بسمارك مجتمعاً بسياسيي اوروبا في مؤتمر برلين سنة ١٨٧٨

بعنوان: **بسمارك الرجل ورجل الدولة** إذ يقول: «كان المؤتمر (مؤتمر برلين) نموذجاً لشخصية بسمارك، فقد كان الاجتماع الدولي الوحيد الذي ترأسه ولم يسبق لأحد أن ترأس مؤتمراً بهذه الطريقة. فقد أذاق حكام أوروبا

المتبادلة. ويمكننا القول أن إرادة بسمارك الهائلة المدعمة بنفوذه قد منعت المؤتمر من الانهيار. وفي تموز ١٨٧٨ كان المؤتمر قد توصل إلى البنود العامة للاتفاق، فقد أعطيت الامبراطورية العثمانية - أو ما تبقى منها -



مدفع عيار ١٠٠٠ باوند رمز القوة العسكرية الألمانية (اواخر القرن التاسع عشر).

الضمان الاعتيادي بوحدة أراضيها الاقليمية. أما الصرب ومونتنيغرو ورومانيا فقد أعطيت وضع الدول المستقلة الشرعي، بينما أعطيت الوعود بتوسع إقليمي لا حق لليونان. وخُفضت مساحة بلغاريا الكبرى التي خلقها مؤتمر سان ستيفانو بحوالي الثلثين. وسمح لروسيا بالاحتفاظ بمناطق قارس وأرضخان وباطوم التركية. كذلك منحت النمسا حق احتلال وإدارة المقاطعتين التركيتين البوسنة والهرسك

أما بريطانيا، حامية السلطان المزعومة فقد اقتنصت جزيرة قبرص من الدولة العثمانية (وذلك لتوفير حماية أفضل لملكة السلطان في المستقبل كما كان الادعاء). لكنها بالمقابل وعدت فرنسا بأنها أي إنكلترا، لن تعارض احتلال فرنسا لتونس. وربما كانت هناك اتفاقات أخرى من وراء الكواليس بين فرنسا وبريطانيا فيما يخص مستقبل سوريا ومصر. أما إيطاليا بدورها فقد لمحت إلى مطالبها في البانيا وطرابلس الغرب، بينما خرج بسمارك الوسيط الأمين خالي الوفاض من المؤتمر، إلا أنه كان قد عقد صداقة وثيقة مع دزارئيلي رئيس وزراء بريطانيا في المؤتمر وأيّد احتلال بريطانيا لجزيرة قبرص على أساس أن هذا عملاً شعبياً وتقدمياً. وقد نقل عن دزرائيلي أنه علق برأيه المميز على موقف بسمارك هذا بالقول: إن نظرة بسمارك للتقدم تشتمل بوضوح على أخذ شيء ما من شخص آخر.

(٤) - بسمارك والمسألة الشرقية: تقييم أولي.

نجح مؤتمر برلين من جهة في تفادي حرب أوروبية بين روسيا والنمسا وإنجلترا. وربما استطاع المؤتمر إيجاد توازن متقلقل في شؤون البلقان. هذه هي إنجازات المؤتمر على المدى القريب.

ومن ناحية أخرى، وعلى المدى البعيد فقد دشن المؤتمر بقيادة بسمارك الفعالة التزاحم الكولونيالي (الاستعماري) على المستعمرات ودبلوماسية الامبريالية الحديثة. فقد تلا احتلال بريطانيا لقبرص احتلال فرنسا لتونس واحتلال بريطانيا لمصر. وقد شجع بسمارك وتبنى خطوة بريطانيا الأخيرة بحرارة.

ويمكننا القول بأنه إذا كان افتراض بسمارك الرئيسي الابقاء على عزلة فرنسا فان إخراجاته في برلين عام ١٨٧٨ تبدو وكأنها قد بذرت بذور الحلف الودي الفرنسي البريطاني اللاحق بتوفير فرصة ذهبية للمتنافسين الكولونياليين لعقد اتفاقات وتنسيق الخطوات اللاحقة في المجال الاستعماري.

أما بالنسبة للبلقان، فإن استخفاف وتجاهل بسمارك التامين للطموحات القومية فيه لم يساعد على تخفيف العداء الشديد الذي اجتاح صدور الناس خاصة في الصرب والذي لعب دوراً في إشعال نار الحرب العالمية الأولى.

وأخيراً بالنسبة لبسمارك كانت المسألة الشرقية لا تستحق عظام جندي إلماني واحد. لكن الفوضى التي صنعها هو والاوروبيون الآخرون من المسألة الشرقية والتنافس الاستعماري كانت من الأسباب التي ساهمت في اندلاع الحرب العالمية الأولى والتي أزهقت أرواح عديد بل العديد من الجنود الالمان.

■



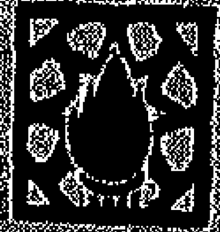
جرجي ينّي

المباحث　　الحياة في السيارات

المباحث

الجزء الثاني من السنة الثالثة

اول شباط (ففريه) سنة ١٩١١ الموافق اول صفر سنة ١٣٢٩



كان جرجي ينّي أحد اعلام حركة النهضة في القرن التاسع عشر في طرابلس الشام. وقد نشر كتابه الرئيسي "تاريخ سورية" عام ١٨٨١ والذي كان له تاثير عظيم في كتابة التاريخ في تلك المرحلة. ونشر كذلك مقالات عديدة في المقتطف القاهرية. وبُعَيد انقلاب حزب تركيا الفتاة عام ١٩٠٨ اصدر في طرابلس بالتعاون مع أخيه صموئيل مجلة المباحث. وننشر فيما يلي صورة عن الأصل لمقال نشر في عدد الأول من شباط عام ١٩١١ من هذه المجلة.

المانيا

يعجب الناس لهذا العهد من المانيا ويستعظمون قوتها وحولها وسرعة ارتقائها الى المكانة العظمى بين دول الارض ويتساءلون عن مصدر هذه العظمة وتتشوف نفوسهم لاستطلاع سر هذا النجاح الباهر ولذلك رأينا ان نطرف قراءنا الالباء بما يكشف لهم الامر

فابناء هذه الامة يجمعهم عَلَى الاكثر اصل واحد هو الجرماني الا انهم لايدينون كلهم لحكومة واحدة وانما درجوا منذ القديم عَلَى التفرق في حكوماتهم

وان جمعتهم اللغة الواحدة وتسربت اليهم العادات والمناهج المتماثلة

فهم لهذا العهد — ومنذ بضع عشرات من السنين — عبارة عن امة تسكن اقطاراً متلاحمة الاجزاء كل قطر منها قائم بذاته يحكم في ذويه بحسب ما سن لهم من الشرائع والاحكام . ومن ثم تضافرت هذه الاقطار فتضامت الى اكبرها فلم تندغم بها ولكنها شاركت في اظهارها بمظهر العظمة للنيابة عن الجميع

فاكبر حكوماتها هي دولة بروسيا والمنضمات اليها يبلغ عددهن احدى وعشرين حكومةً بين مملكة وامارة على اختلاف القابها — وانضامهن كان بحلفة اتحادٍ يبقي لكل منهن شأنها المخصوص وعملها الداخلي لاتمتد اليه يد الحليف السائد

وسؤدد بروسيا بداءة سنة ١٨٦٦ حين غلبت النمسا في الحرب فاستطالت وضمت اليها بلاد هانوفر وهس كسل وناسو . وكانت حكومة النمسا حتى يومئذٍ ذات حول وطول ومداخلة في شؤون المانيا فلما غلبتها بروسيا اضطرت ان تتخلى لها عن حقها في المداخلة فنشاء عقيب هذا التخلي تألب الاقطار الالمانية الواقعة الى شمالي نهر الراين ومن جملتها مملكة ساكسونيا وعقدت حلفة جعلت زعامتها لبروسيا وبقيت الاقطار الجنوبية واهمها باقاريا وورتمبرج وبادن ممتعة باستقلالها الوهمي الا انها لم يطل عليها الامد حتى رأت من ضعفها وانفرادها بذاتها انها بين امرين اما الاتحاد مع بروسيا اتحاداً يسلبها شيئاً من استقلالها او الخضوع المطلق لفرنسا . ومن الغريب ان اهل تلك الديار كانوا يفضلون محالفة الفرنساويين على البروسيانيين ذلك كان حالهم يومئذٍ لانهم كانوا يكرهون ابناء جلدتهم البروسيان كل الكراهة وينفرون منهم . وهذا منتهى العجب . على ان اولئك الالمان الدارهين لاخوانهم مالبثوا ان اراهم بزمارك داهية سياستهم ان الامبراطور نابليون الثالث يضمر لهم شرًا . اذ نشر بين ظهرانيهم اوراقاً سياسية اثبتت ان ذلك الامبراطور لزم الحياد اثناء الحرب بين بروسيا والنمسا على امل ان يحتز من جنوبي المانيا بقاعاً تكون ثمناً لحياده فلما انتشرت هذه الاوراق السياسية قامت لها تلك الاقطار الجنوبية وقعدت وعظم عليها الانحياز للسياسة النابوليونية فعادت الى بروسيا والقت بنفسها بين يديها

وجاءت الحرب الفرنساوية الالمانية مزبدةً في احكام الصلة لان وحدة المصلحة

مهدت العقبات فضمت المتخالفين وكأنها اضرمت شعلة الوطنية في قلوب الالمان فظهرت بمظهرها الهائل

وكان اليوم ١٨ من كانون الثاني عام ١٨٧١ مظهراً للحافة الجديدة ٠ يومئذٍ كان ملك بروسيا كليوم الاول في فرسايل يحف به انصاره واعوانه من ملوك المانيا وامرائها المتجردين معهُ للحرب ٠ فنادوا به امبراطوراً لالمانيا ٠ واظهروا بهذه المناداة اتحادهم على احياء مجد امتهم بتجديد امبراطوريتها ٠ عَلَى ان من اظهر الادلة عَلَى اتحادهم ان بعض امراء بافاريا سيما من آل وتلسباخ كانوا يحلمون بالامبراطورية عائدةً اليهم فلما عادت ولكن الى غير نصابها منهم ارتضوا برجوعها ولئن لم يرضهم خروجها من يدهم

ويالله من الاتحاد فان الالمان باجتماع كلمتهم وتآلب قواهم وما هي بالشيء القليل ظهروا للناس مظهراً فخماً ٠ يكفي في الدلالة عَلَى ذلك ان المكانة التي كانت لهم قبل اربعين عاماً صارت الان تكاد لاتذكر بالنسبة لما بلغت في حالتها الحاضرة فقد كانت التجارة ضعيفةً والصناعة في حكم العدم والحالة الاقتصادية من جراء ذلك واهنة القوى ٠ وبالاجمال لم يكن لالمانيا اي لحكوماتها المتفرقة من عزة الا يجسدها فلما اراد الله لها خيراً بوحدتها جمع شتات قواها فاندفعت بما فيها من الجهد نحو التجارة والصناعة فما لبثت ان نالت بهما المكانة العليا وكادت تحرز السبق عَلَى الذين تقدموها ٠ وتحسين حالتها الاقتصادية الى هذا الحد العجيب مكنها من البقاء عَلَى اطراد زيادة قواها في البر والبحر فصارت صاحبة الحول والطول في مضمار السياسة

فليس عجيباً بعد هذا التغيير والانقلاب الى العزة في كل شيء ان يجد كل واحدٍ من الالمان في نفسهِ ارتياحاً الى الوحدة فيزداد تمسكاً ويغدو راضياً مسروراً لايخطر لهُ العداء القديم ببال بل يبذل النفس والنفيس في الذود عن حياض دولته الكبرى القائمة عَلَى حفظ الجامعة الوطنية — ذاكراً ان امتهُ التي يرى دولتها الان ان بمظهر العظمة والمجد كانت قبيل وحدتها اي في سنة ١٨٦٠ حكومات شتى لاترتيب فيها ولا مبداء يجمعها ولا امل بالرقي يخامرها فيحييها ولكنها كلها كانت واقفةً وقفة الخائف الحاذر اما من النمسا او من فرنسا اما اليوم فقد صارت بفضل الاتحاد والوئام وكلها جسم واحد اذا مست الطوارئ طرفاً من اعضائه اهتز لمسيسه كل الجسم فظهر بقوته الهائلة مدافعاً عن نفسهِ واصبحت النمسا التي كانت تربع مجاوريها

من الالمان وهي الخليفة الطائعة لاعداء دولتهم وظهرت فرنسا العظيمة ساكنة الجأش بعد الحراك تخشى ان تسيء اليهم فينهضون كرجل واحد لمناوأتها . بل اعظم من هذا ان بريطانيا العظمى التي تدل بضخامة ملكها وعزة بوارجها واقتدارها على جمع قوة بحرية لاتجارى هذه الدولة صارت توجس من الالمان ان يناظروها بحراً لان اسطولهم آخذ بالارتقاء السريع بحيث لم يجد الانكليز من سبيل لحفظ مقامهم البحري الا بالاندفاع لزيادة بوارجهم وتعظيم قواها بحيث ينفقون عليها في كل سنة خمسين مليوناً من الجنيهات

على ان اتحاد الالمان لايستفاد منه انهم وحدوا حكومتهم ومناهجهم فاصبحت الاحدى وعشرين حكومة مندغمة ببروسيا بل تجد تلك الحكومات تعترف لبروسيا بالزعامة ولكنها تحكم اقطارها في زمن السلم بما اشترعت لها من السنن . فهي حكومات متحدة مستقلة في شؤونها الداخلية . فتجدن مثلاً ملك بافاريا ملكاً مستقلاً ناهضاً بجميع شؤون الاريكة حتى قيادة الجند في زمن السلم

اما الشؤون السياسية الخارجية فلا علاقة للحكومات الصغرى بها توّاً لانها من خصائص وزارة الدولة الامبراطورية والندوة العليا التي يطلقون عليها بلغتهم اسم Bundesrat وثمت سنن متفق عليها بين الامبراطور والحلفاء تعين الحقوق والواجبات

ولقد سبق فذكرنا في الجزء السابع من السنة الثانية من المباحث نبذة عن الحكومات الالمانية فلسنا الان لنعيد ما جاء فيها ولكننا نقول ان الندوة العليا عبارة عن مجلس الاعيان لان اعضاءها يمثلون حكوماتهم . وسبعة عشر او ثمانية عشر منهم ينوبون عن حكومة بروسيا وهم ينالون مناصبهم بامر الامبراطور فيكونون عاملين لاتمام رغائبه . ومثلهم تجد نواب الحكومات الشمالية كلهم يجرون على رضا البروسيان ويجارونهم في مناهجهم . فينال الامبراطور من جراء ذلك كلما يرغب فيه من الندوة

واما مجلس الامة ويقال له عندهم الريشستاغ Reichstag فينتخب ذكورها الراشدين وعدد اعضائه ٣٩٧ رجلاً ينقسمون الى احزاب سياسية شتى الا ان الاحزاب لاتتخذ لها وسماً دينيا او وطنياً . فتجد ثمت البافاري الكاثوليكي الى جانب البروسياني البروتستانتي — وكلاهما من الاشتراكيين . ولنواب هذا المجلس راتب معين . غير ان نفقات الانتخاب باهظة قد تذهب بفائدة الراتب ضياعاً فيضطر الحزب الى ادائها من صندوقه .

وللامبراطور حق تعيين رئس وزرائه الذي يطلقون عليه اسم المستشار الامبراطوري ولذلك لايجدن هؤلاء الوزراء يهتمون كثيراً باحراز اكثرية الاصوات في مجلس الامة عَلَى غير عادة وزراء سائر الدول الدستورية . وكم من مرةٍ تقدم المستشار او غيره من الوزراء الى المجلس بلائحةٍ لم تصادف من الاكثرية قبولاً الا ان رفضها لم يزعزع مركز الوزير ولا اثر في بقائهِ بمنصبهِ . بل انه يندفع الوزير الاكبر لمفاوضة الامبراطور في فض المجلس . واذا صدر الامر بفضه عاد حق الفصل لاحد عشر مليوناً من المنتخبين الذين يختارون نوابهم من محازبي الحكومة او من مخالفيها وكل لائحة اقرّ عليها مجلس النواب رفعت الى الندوة العليا فان اقرتها ايضاً لايبقى للامبراطور الا التصديق عليها

عَلَى ان تمتع الامبراطور بالنفوذ المطلق في ادارة الحكومة مستفاد من حقه في تعيين الوزير واعضاء الندوة العليا . وفضلاً عن هذا فان للحكومة البروسيانية معتمدين لدى الملوك والامراء الذين تتألف منهم الخلافة الالمانية . ومن اخص واجبات هؤلاء المعتمدين ان يقفوا من الحكومات التي يقيمون عندها عَلَى ما تأمر به نوابها في الندوة العليا وما تريدهم ان يعضدوا من اللوائح والاراء وان يسعوا عند اللزوم بحمل تلك الحكومات عَلَى جعل مذاهبها ملائمة لما تريد الحكومة القيصرية وهذا يدل عَلَى ان اعضاء الندوة لايعملون فيها بارائهم الذاتية بل بما يؤمرون به من حكوماتهم بحيث يكونون آلاتٍ صماء تديرها الحكومات عَلَى ما يوافق اهواءها ولا عجب والحالة ما ذكر ان تكون الندوة الالمانية غرقى في بحار الاريستوكراتية اي مبادئ الاعيان كما ان مجلس الرشستاغ عندهم متناهٍ في المذهب العامي

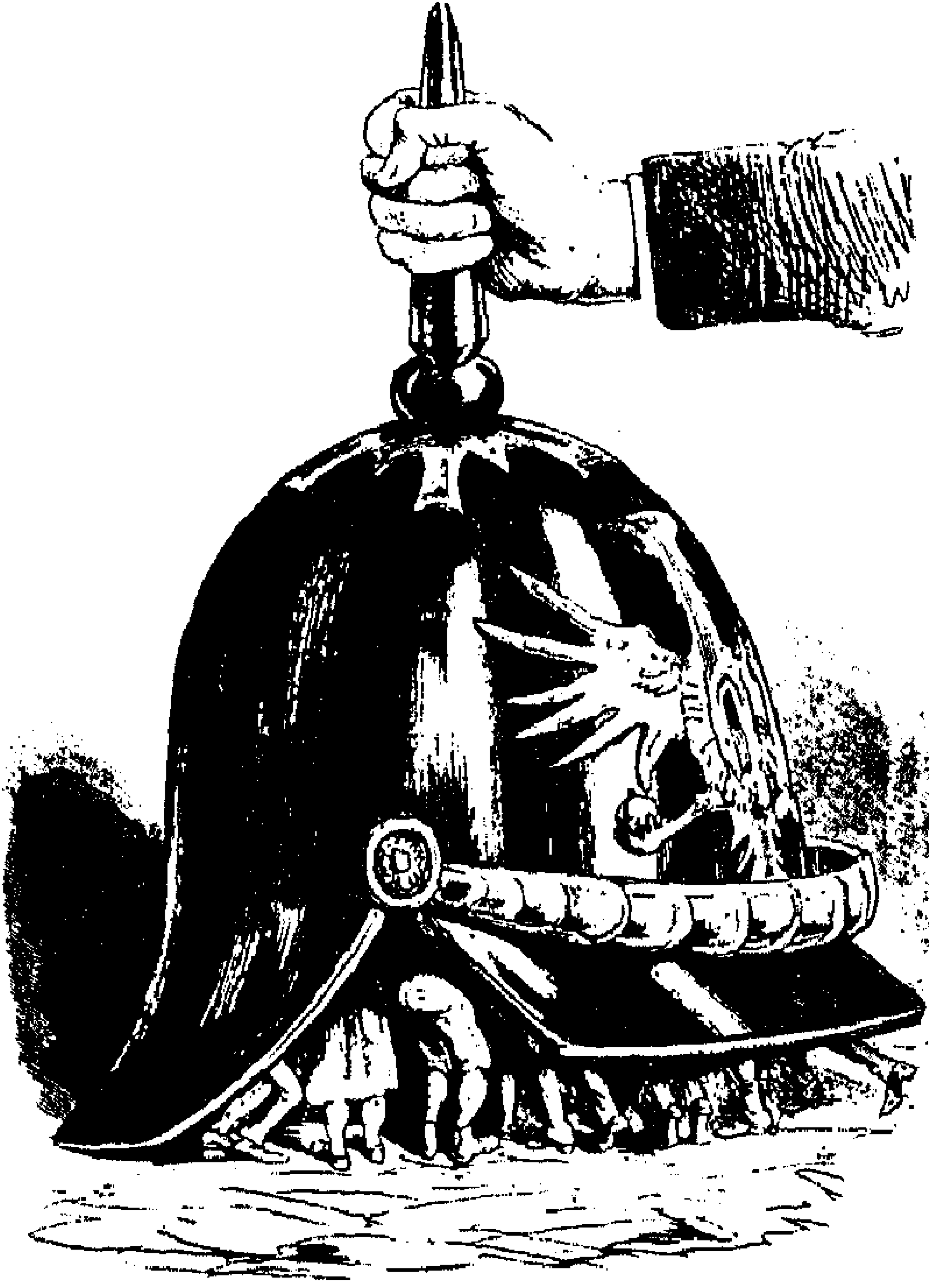
ومن حق الامبراطور ان يشهر الحرب بموافقة الندوة العليا ولولا المال والحاجة اليه في الحرب شديدة ربما لم يكن للامة من رأي فيه . غيران الحاجة تدفع بالحكومة الى طلب تقرير النفقات . فيغدو المجلس النيابي وله في ذلك يد طائلة وقول مسموع

قلنا ان هذه الحكومات ممتعة بالاستقلال الداخلي ولكل منها مجلس نيابي يقال له عندهم لندستاغ . ومن غرائب ما يقال ان مجلس الرشستاغ اكثر ميلاً للاراء الحرة من المجالس الصغرى اللندستاغ

فقصارى القول أن المانيا العظيمة اليوم لم تكن قبل وحدتها شيئاً مذكوراً ولكنها لما اتحدت اجزاءوها واطرح اهلها اسباب الخلاف والجفاء وصاروا كالبنيان المرصوص يشد بعضهُ بعضاً ساروا الى العزة والمكانة فسنموا ذراها · فهل نذكر نحن العثمانيين ذلك ونتحداهم في ما نهجوا لنبلغ مبلغنا من العلياء او نبقى على حال تفرقنا وتنافرنا فيبقى ضعفنا وفقرنا الى ما شاء الله ؟



بسمارك



موحّد المانيا

د. محمد أمين فرشوخ

كانت الروح القومية الالمانية تعج في صدور الأحرار من أبناء المقاطعات والامراء وقد وقفت ظروف داخلية وخارجية في سبيل لحمة الأرض المقسمة قسراً وفي سبيل اتحاد شعوبها المتحررة من تاريخ وثقافة وتطلعات واحدة، وقد مثل بسمارك الدور الرائد في عملية الاتحاد هذا، واستطاع عبر صراعات سياسية وحربية أن يحقق حلم الالمان جميعاً وبجعلهم امة أقوى وأفعل في أوروبا، بل وفي العالم كله، وجعل عمله مثالاً يحتذى لرواد الوحدة، ونموذجاً للقيادي الداهية محقق أمنية شعبه في نيل حقه وتأكيد دوره في عالم لم يعد فيه مجال لضعيف أو منفرد أو انطوائي.

ما قبل الوحدة



في ٢ تشرين الثاني عام ١٨١٤ عقد أول اجتماع في فيينا لتسوية أوضاع اوروبا، فالتأم ثلاثماية سياسي اوروبي بينهم، عدا المستشارين، «مترنيخ» عن النمسا «تاليران» عن فرنسا «نسالرود» عن روسيا «كاسلري» عن انكلترا «هردانبورغ وهمبولد» عن بروسيا، وكان القاسم المشترك لقراراتهم استعادة السيطرة الفعلية على شعوبهم والقضاء على الافكار التحرّرية التي بدأت تذر قرنها بين جنباتها، وكان همّ «تاليران» من بينهم عودة النظام الملكي الى فرنسا، وقد استطاع تأمين ذلك بدهائه، لكن المجتمعين اشترطوا عليه أن يتقيد ملك فرنسا بقوانين وأنظمة خوفاً من انتفاضة «نابوليونية» جديدة تهددهم وحكمهم. أما ما خصّ المانيا من نتائج فقد اقتُرح لها مجلس يسمى «الديت» وهو مجمع يضم ممثلين عن الامارات الالمانية عقدت رئاسته دائماً لمندوب النمسا

د. محمد أمين فرشوخ. دكتوراه دولة في الآداب.

كـان الـوطنيـون الألمـان يتململون من تشـرذمهم ينتظرون فرصة مؤاتية ليتحدوا، وأتتهم حين تجندوا لصد نابليـون سنة ١٨١٣، لكن آمـالهم بالاستقـلال لم ترَ النـور، فقد قضت المعـاهدات التي وقعت سنـة ١٨١٥ بتجزئـة المانيا، وتساوى عندها الحكم القديم والجديد، وبقيت الروح القوميـة متحفّزة تنتظـر اللحظة الحاسمة، وربمـا الرجـل المناسب، اذ لم يكن فريدريك غليوم الثالث في بروسيا عند حسن ظن التحرّريين الوطنيين، ولم يجـر الاّ اصلاحـات محـدودة، وكـذلـك في النمسـا، حيث كـان الامبراطور فرنسوا الأول يعتمد على مستشاره الداهية مترنيخ لمكافحة الأفكار التحررية، ناهيك عن ميـل اقلية تضمهـا البلاد – جـرمـان، سلافيين، ايطاليين، رومـان – الى الانفصال، وهكذا بقيت المانيا مقسّمة الى تسع وثلاثـين امارة تضم اربع مدن حرّة هي برام، لوبـك، همبورغ وفرنكفورت، ولم يكن الديت الاّ وسيلة لاستمرار السيطرة النمسوية، وهـذه كلها من نتائج مؤتمر فيينا لمحاربة انتشار الروح القومية والاتحاد الوطني الحرّ.

كـانت النمسا هي المعـارضة الـدائمـة للوحدة الألمانية، تريد ابقاءها ممزّقة الشمل بل تعدّت المانيا، لينادي مستشارها ضد كل وحدة أو حركة تحررية في اوروبا، وهكذا بقي الاتحاد الالماني صورياً، ولم تتـحقق محاولة ١٨٤٨ أيضاً بسبب خوف النمسا والبلاد الاوروبية من قيام دولة قوية متحدة في وسط اوروبا تهـدد تيجانها ومصالحها.

لكن محاولات الوطنيين البروسيين لم تكلّ، فقد استطاعوا جمع شمل سبع عشـرة امارة المانية في اتحاد جمركي سنة ١٨٣٨، في محاولة عملية على طريق الوحدة الكلية، وقويت بالتالي زعامة بروسيا فسهّلت اتخاذ باقي الاقطاعات الالمانية هذه الخطوة الابتدائية الجيدة، وكان الاتحـاد الاقتصادي تـوطئة لاتحـاد سيـاسي شامل، وتكريساً لقيادة بروسيا، وجاء تأكيد هذه الأمنية الوطنيـة بارتقـاء وليم الأول اخ الملك المتـوفي فريـدريك وليم الـرابع سنـة ١٨٦١، المتحمس للوحدة وصاحب التطلعات المستقبلية، وكان قوي الشكيمة، رأى أن القوة هي أفضل ما يؤدي لتحقيق مطمحه بل مطمح الألمان كلهم، لكنه لم يكن على وفاق تام مع سياسيّي بلده، ولبُعد نظره، وجد ضالته في شخصية تستطيع تجاوز العقبات، وتحقيق الوحدة، وجدها في سفير بـروسيا لـدى فـرنسـا «اوتـوفـون بسمـارك» فاستدعاه وعهد اليه برئاسة الوزارة.

بسمارك

لوالدين من النبـلاء، ولد سنـة ١٨١٥ «اوتو» وتدرّج في حياة ريفية ومدنية مستقلّـة اكثر الاحيان، وارثاً قسوة امـة ومزاج ابيـه الهـادىء السـاخـر، فكـان الاب راضيـاً عن تحصيل وحياة ابنائه بينما الأم الآمرة الناهية في البيت والاملاك – تقول له: «انظر الى من حولك واسمع ما يقال عن التربية المتينة تجد انه يعوزك امـور كثيرة قبـل ان تستطيع تـدعي انك رجـل مثقف» واندفـع اوتـوفـون بسمارك، الطموح جداً، اريستقراطي النـزعة، حاد الطباع احياناً، الى المطالعة واتقان المسايفة والسباحة، الى جانب الدراسة.. الى حين، اذْ في العشرين من عمره فضّل ان يمارس القانون في محكمة بلدية برلين هرباً ممن يدفعونه للدراسة العسكـرية، فقـد جانبهـا مع شغفـه ببزتهـا وأوسمتها ولم ينخرط في هذا السلك لاعتقاده ان «ذلك لما لا انتظره من ارتقاء في الجيش» فقد كان طموحه ابعد من ذلك بكثير. لم يكتف بثقافة المدارس والوظائف العامة الصغيرة – على حد تعبيره – فراح يسيح في البلاد ويتردد على اصدقاء كثر، وكان له جولات مع النساء فخطب مرات، ثم رجع لاملاكه يديرها كـ«سيد» دون أن يترك رغبته بالاستزادة من معرفة الناس، فكان يتصل مباشرة بخدمه وفلاحيه واهالي منطقته واذ اتت فرصة تشكيل اول «برلمان» بروسي في خطوة لتوحيد ولايات بـروسية الثمـاني حتى اندفع يقوّي مركزه في محيطه لينـال في سنة ١٨٤٧ مقعـداً في «اللندتـاغ».. ودخـل عـالم السياسة.

«طُموح وذكاء سياسي، وإيمان أن الأمور قد تسير من سيء الى أسوأ قبل ان تتحسّن»، وكان تردّده على البلاط الملكي وجرأته في تحديد خطه ولو كان في مواجهة اكثرية انداده، يقوي


بسمارك الطالب سنة ١٨٢٦


... والسفير سنة ١٨٥٥.


والقائد سنة ١٨٧٧.

شوكته فانتدب منذ ١٨٥١ سفيراً في فرانكفورت ثم في بطرسبورغ ثم في باريس. فأمضى حياته منذ سن السابعة والثلاثين حتى الثامنة والأربعين وهو يؤسس ويمتّن علاقاته المحلية والدولية، مكتسباً الحزم أقوى ووضوح الصورة السياسية أفضل، وكان ديدبانه النفور من النمسا فهو لا يرى علاقتها ببروسية اكثر من «حلم شباب وتأثير المدارس» كان سفيراً مميزاً لا يسلك كغيره، حاضر الذهن يُحسّ المسؤولية فيبادر لخطط ومواقف تجلب الاعجاب، حتى انه كان يسدي النصيحة لمليكه، فيقبلها. كان يقول: «ما كان المالك القدير ليُدير أرضه بغير مساعد ذكي..» ولطموحه ورغبته بالسلطة - اذ كان ينفر ان يقوده احد الا الملك - كان يؤمن برضاه، ورضاه كان الطريق الافضل للوصول. وبعد ان اغرم ببلاط فرنسا وعُينّ سفيراً فيها سنة ١٨٦٢ بعد نقاشه المتصلب مع الملك الجديد كاد ان يشعر بالخيبة، اذ كان يتمنى ان يتسلم وزارة الخارجية التي يعتقد نفسه اصلح من يملك زمامها في ذلك الوقت العصيب، فحينها كان وليم الاول ابن الثلاث والستين سنة يصطدم بحلمه الذي يأبى عليه اعضاء مجلسه أن يتحقق: ثلاثون سنة وهو ينتظر ان يصل الى السلطة كي يطبق قانوناً جديداً للجيش في عدد وخدمته واعتدته، يجعله الاقوى في اوروبا، لكن موافقة اعضاء المجلس كانت تعوزه، وقد منعوها عنه لكلفة الخطة المالية الباهظة، فحنق الملك وكتب وثيقة تنازل لولي عهده، وهذا الأخير رفضها خوف الصدام مع الاقوياء في المجلس وأتى ذكر بسمارك فاستدعي، وقابل الملك... وتسلّم - في هذه المرحلة الصعبة - رئاسة الوزارة، بل تسلم السلطة الفعلية ليحقق أمله وأمل مليكه: وحدة المانيا بزعامة بروسيا.

مراحل الوحدة

(أ) **الاستعداد**: بسمارك، المفتون بمستقبل المانيا، آمن بسياسة مليكه في اعتماد القوة، والقوة تتجسّد أولاً بجيش وتحصينات منيعة وايضاً بمحالفات داخلية لتنظيم سياسة البلاط في جمع شمل شتات الآراء المتباينة، فالاستعداد للزعامة تلزمه تقوية الجبهة الداخلية على كل الاصعدة. فأكثر بسمارك من الاجتماعات وألّب الصحف ضد المناهضين في الوقت الذي كان يقيم فيه القلاع ويشيد الحصون على حدود البلاد، ناهيك عن مدّه للخطوط الحديدية واعتماده احدث طرق الاتصالات والتجهيز العسكري، وقد اضطر الى استخدام الشدة - وهو المعروف بقسوته وعناده - والضغط على اعضاء البرلمان لاعتماد التجنيد الاجباري ورصد ما يلزمه من اموال، وهكذا في وقت قصير كانت بروسيا على اتم الاستعداد لاعلان موقفها، بل لاعتماد تحرّك عملي في سبيل تحقيق مطمحها الكبير.



بسمارك «حدّاد» الامبراطورية الألمانية

(ب) ضم دوقيتي «هولشتين» و«شلزفيك»: كتب بسمارك مرة: «ان منهاجي الراهن في السياسة الخارجية هو كمنهاجي في غابر الازمان حين كنت اذهب الى صيد الدجاج البرّي، وحين كنت لا اتقدّم خطوة قبل ان اختبر التراب الذي امشي عليه فأعرف قدرته على حملي»، وهو ما دفعه لأن يعلن في جلسة برلمانية في اواسط سنة ١٨٦٣ اقتراحاً بضم الدوقيتين الألمانيتين اللتين تسيطر عليهما الدانمرك بموجب مقررات مؤتمر فيينا، واتماماً لتحضير الامر أخبر وزير خارجية النمسا الكونت رشبرغ انه سيقوم بانقاذهما، وهو امر تقرّه عليه النمسا لما له من صدى شعبي وتابع بسمارك انه سينقذهما في سبيل الدولتين، وبهذا «اقنع» اوروبا – لمرحلة – بالوقوف على الحياد، بل انتظار «مبارزة» النمسا وبروسيا في هذا العمل، وهكذا حشدت النمسا كتائبها الى جانب الجيش البروسي. وفي اواسط ١٨٦٤كانت الولايتان قد انتزعتا.. لكن ستنضمان الى من؟

(جـ) الصدام مع النمسا: كانت النمسا ترغب ان تجعل من تينك الدوقيتين المحتلتين دولة من دول الجامعة الالمانية كي لا تغدوا من أملاك بروسيا، وفي بروسيا كان الصراع لم يزل قائماً حول: أتسود القوة أم الحق، معضلة لم تجد حلاً بعد، ويقوي بسمارك الذي ينال لقب كونت ويُنعَم عليه بوسام النسر الاسود، فيزداد تعالياً وسطوة، بل تأكيداً على مطمحه: «ان اقصى آمالي هو ان أجعل الالمان امة واحدة» ويصمم على منازلة النمسا، نابليون الثالث كان لا يزال منتظراً «المعركة» اعتقاداً منه انها تنهك قوى الدولتين، فوعد عندها بسمارك ايطالياً بمنحها مقاطعة البندقية وتهيأت الساحة، فتحدّى النمسا واتهمها بعدم التقيد بأحكام الاتفاقية في تسيير امور الدوقيتين.. فشهر الحرب في شهر حزيران ١٨٦٦ متحدياً البرلمان، وطغت العاطفة على العقل. لكن بسمارك اوقف قائده الكبير فون مولتكه عن متابعة الزحف حتى فيينا بعد انتصاره في «سادورا»، وفي اوج هذا الانتصار استطاع ان يملي على النمساويين شروط معاهدة صلح اهمها بعد اخراج النمسا من المانيا ضم الدوقيتين الى بروسيا واقامة الحلف الشمالي بزعامتها.

(د) الحرب ضد فرنسا: ولم يبق سوى فرنسا، معارضةً دولةً المانيةً قويةً ومتحدةً، وكان بسمارك يرغب في حربها لارغامها على الرضوخ، وفي الجهة الاخرى كان نابليون قلقاً من ازدياد قوة بروسيا بعد انتصارها على النمسا. لكن متى الشرارة؟

يبدأ نابليون الثالث بمفاوضة فلورنسة وفيينا جدياً مؤلباً اياهما ضد بروسيا لتؤازراه في حربه، وبسمارك يثير الصحف في بلاده لتظهر اكثر سلاطة واقوى وعيداً، وحدث سنة ١٨٧٠ ان شغر عرش اسبانيا فترشح له قريب الملك وليم الاول «ليوبولد» وطبعاً عارضت فرنسا فاضطر وليم الاول الى الضغط على نسيبه لسحب ترشيحه، اذعاناً لطلبها، ولم تكتف فرنسا بذلك، بل طلبت من سفيرها مقابلته ليأخذ وعداً بعدم ترشيح احد من اسرة «هوهنزلورّن» لهذا العرش، وبلغ الامر بسمارك والملك وليم في «إمس» فثار ورغب بتقديم



معركة «سيدان» أيلول ١٨٧٠.

استقالته لاعتباره ان ارتداد الملك ووعده اقرارٌ بضعف بروسيا، واذ تصله برقية من مليكه فيعدّل نصّها ليظهر ان الحكومة الفرنسية اهانت الملك وليم في طلبها الآنف الذكر، فيلهب الشعب البروسي وايضاً يظهر للشعب الفرنسي ان وليم الاول اهانهم برفضه استقبال سفيرهم. وارسل النص للصحف. اعلن بسمارك التعبئة العامة، فما كان من نابليون الثالث الّا ان شهر الحرب في ٢٩ تموز سنة ١٨٧٠.

وتغلب جيش بروسيا / ٥٠٠,٠٠٠ جندي على جيش فرنسا / ٢٥٠,٠٠٠ جندي واندفع البروسيون يحاصرون «ميتز» فتقدم نابليون شخصياً لفك الحصار عنها فأسر في سهول «سيدان» في ٢ ايلول، ولم يكتف البروسيون بأسره بل تقدّموا لمحاصرة باريس، فألقى عندها الفرنسيون السلاح وطلبوا الهدنة.

اقتطع بسمارك من فرنسا بموجب معاهدة فرنكفورت الالزاس واللورين وطلب خمسة مليارات فرنك ولم يترك باريس حتى استوفى آخر فرنك.

نماذج من كتابة بسمارك،
وهو في عمر ٣٠، ٤٥، و ٨٠ سنة.

(هـ) **الوحدة**: قال احد مساعدي بسمارك في يوم «سيدان» «من ارض الريخ (الالزاس واللورين) ولد الرّيخ (الامبراطورية الالمانية)»، وحقاً كان، فقد تقدم بسمارك هادئاً ليضم الولايات الالمانية الى الحليف القوي «بروسيا» بالاقناع خلافاً لرأي ولي العهد المنادي بقوة الامر الواقع والملك الذي فضّل الانتظار بعد. كان وليم الاول زاهداً بالتاج لكن سياسة بسمارك وخططه سهلت جمع آراء اعضاء البرلمان وايضاً تنازُل الامراء عن سيادتهم، بعضه كان مهزأة وبعضه كان صدقاً، لكن الاجتماع تم في ١٨ كانون الثاني ١٨٧١ في قاعة المرايا في قصر فرسايل ونودي بوليم الاول امبراطوراً، وكانت صلاة الشكر والولايات الالمانية «امبراطورية».

الامبراطورية الالمانية:

لقد حقق بسمارك الحلم الكبير، «اختفت» المانيا القديمة المشرذمة والمتحدة صورياً، اخلت محلها لامبراطورية متّحدة قوية، كما ارادها بانيها بسمارك تماماً. ولم يتركها، بل تابع واضعاً دستورها، مُخولاً الامبراطور سلطات مطلقة، يعاونه مجلسان: المجلس الاتحادي ويضم ممثلي حكام الولايات والبرلمان «الريشتاغ» الذي ينتخب الشعب اعضاءه. لقد قوّى بسمارك هذا الشتات الذي يدين بثقافة واحدة ولغة واحدة فجعله امة متراصّة تمكنت من لعب دور خطير في سير السياسة الاوروبية بل العالمية.

نهاية «الباني»

«لست الآن سوى كتلة من الاعصاب»، قالها بسمارك لأحد زواره سنة ١٨٩٣، وعاد المتقاعد الى الطبيعة التي عشقها دوماً، يجول بين معالمها مسترجعاً ذكرياته، لكنه لم يزل قاسياً، قال: لا أريد ان اسجن بعد مماتي في مكان مقفل، ذروا رمادي في الغابة، مع الريح، مع العاصفة، تحت الشمس، كما كان يُفعل بأموات ابطال الجرمانيين القدماء، وهو عندما كان يتنزه بين الاشجار كان يحيي فيها - «أجداده» - اصدقاءه الى الابد.



بسمارك في آخر ايامه، يتنزه في الغابة مع كلبيه

٢٩ تموز ١٨٩٨، لاحت سحابة الموت حول البطل العتيد، وقاوم لكن ابن الثلاث والثمانين عاماً ما كان ليستطيع منع النهاية المحتومة، كان يبتسم حين يفيق للحظات حين يستمع الى زمجرة العواصف في الخارج واصداء صخب الموج في الشمال: انها صورة لحياته الصاخبة القاسية. ولا يُعرف لما ردّد قبل وفاته بلحظات: «لكن المانيا.. مسكينة المانيا!» ترى ماذا كان يبصر من المستقبل قبيل اغفاءته الأبدية بلحظات، هل ابصر المانيا ١٩١٨ او المانيا ١٩٤٥، الله وحده يعلم. ■



الدكتور إحسان عبّاس

مَن الذي سَرق النار

جمعتها وقدمت لها د. وداد القاضي

الدكتور احسان عبّاس

مَن الذي سرق النار

خطرات في النقد والأدب

جمعتها وقدمت لها

الدكتورة وداد القاضي

صدر مؤخراً عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر في بيروت (تشرين الأول ١٩٨٠) كتاب جديد بعنوان «من الذي سرق النار»، وهو يحتوي على المقالات والابحاث النقدية التي نشرها الناقد الكبير المعروف الدكتور احسان عباس، الاستاذ بالجامعة الاميركية في بيروت، في مجلات عربية متفرقة بين سنتي ١٩٥٠ و ١٩٨٠. وقد قامت تلميذة الدكتور عباس، الدكتورة وداد القاضي، الاستاذة بالجامعة الاميركية في بيروت أيضاً، بجمع هذه المقالات والابحاث وتحريرها والاشراف على طباعتها، كما كتبت لها مقدمة نقدية تقييمية ننشر هنا القسم الأول - وهو الاكبر - منها.



دَرَجت العادة أن يكتب الأساتذة الكبار مقدّمات لكتب تلامذتهم، تعريفا وابتهاجا واستشرافا للمزيد؛ ولهذا أجد في نفسي بعض الحرج وأنا أقدّم مجموعة من كتابات أستاذي الكبير الدكتور إحسان عباس، الذي غمرني عبر السنين بفضله العميم وعلمه الجمّ وتوجيهه المستمر. غير أنه لشرف كبير لي حقا أن أقدّم هذه المجموعة من مقالاته في النقد الأدبي، كانت موزعة في المجلات الأدبية العربية المختلفة، وبعض هذه المجلات يعسر الحصول عليها، وبعضها لا يوجد إلا في أرشيفات المكتبات الجامعية، وكلها مما شارك به الدكتور عباس في بناء صرح النقد العربي الحديث الجادّ، فكان بذلك - منذ الخمسينات - مؤسساً لمدرسة في النقد ما يزال أثرها واضحا حتى اليوم.

د. وداد القاضي. استاذة الأدب العربي في الجامعة الأميركية في بيروت.


د. إحسان عباس.

وقد رأيت أن أتحدث هنا عن بعض الخواطر التي عنّت لي عن إحسان عباس الناقد، وإن كان هذا أمراً غير سهل، لأن ما أسهم به يكاد يعزّ على الحصر: بين كتاب وبحث ومقالة ومراجعة، عالج فيها النثر والشعر، والأدبين القديم والحديث، في مدة تنيف على ربع قرن (١٩٥٠ - ١٩٨٠) وهي فترة من أشدّ الأوقات حرجاً في تاريخ الأدب العربي الحديث، ولم يكن إسهامه قاصراً على ما نشره من البحوث والمقالات المكتوبة، بل تعدّى ذلك إلى المشاركات الشفوية في غير ملتقى أدبي، ومهرجان شعري، وندوة نقدية، وشمل أيضاً ما بثّه في نفوس طلابه الجامعيين، سنةً بعد سنة، من توجيه نقدي، وممارسةٍ للنقد، وتمرُّس به: ولئن كان الدكتور عباس لم يصرّح يوماً بحدود فكره النقدي وطرائق منهجه في النقد، مؤثراً في أكثر الأحايين أن يباشر النصّ الأدبي ناقداً دون أن يطرح نظرية ما، فإنه لَدَيْنٌ على من تتلمذ عليه، أن يحاول تبين الخطوط العريضة لهذا الفكر وذلك المنهج، وتلك محاولة لا بدّ أن تتمّ بأناةٍ وحذر، لعلها أن تكون فاتحة محاولات أخرى في هذا المضمار، في دراسة فكر نقدي نفّاذ عميق هادىء متواضع في آن معاً.

* * *

ولا ريب في أن إحسان عباس الناقد يدرك أبعاد حقل النقد الأدبي إدراكاً دقيقاً، وقد وصف النقد مرة بأنه «فعالية بَينيّة وَسَطية»، يعني بذلك أنه يحتلّ مكانةً وُسْطَى بين العديد من المتقابلات: بين الفن والعلم، وبين الفكر والأدب، وبين النصّ الأدبي والجمهور، إلى غير ذلك من متقابلات. من هنا كان على الناقد - من وجهة نظره - أن يكون قادراً على الجمع بين الموضوعي والذاتي، فيكتب بلغة «موضوعية» أقرب إلى لغة العلم والفكر منها إلى لغة الفن الصِّرف، لا لأن هذا الأمر متعلّق بصلب حقل النقد وحسب، وإنما لأن المهمة الأولى للناقد هي أن «يوصل» العمل الأدبي الفني إلى الجمهور، إذ قد يستغلق هذا العمل - كله أو بعضه - على الجمهور، فإذا كشف الناقد عن مواطن الجمال أو القبح فيه، وبين أماكن القوة أو الضعف لديه، وتغلغل في أعماقه مستنبطاً أبعاداً لم تكن مرئية ظاهرة منه، بات أشدّ وضوحاً وبات الجمهور أكثر قدرة على تذوّقه وتقديره والاستمتاع به.

ومن أجل أن يكون الناقد موصلاً أميناً موحياً، لا بد له أن يتعرض بالنقد للأعمال الأدبية التي يرى نفسه متفاعلاً معها تفاعلاً كلياً، منسجماً مع ما تطرحه من عاطفة وفكر وتصوير انسجاماً تاماً، مقتنعاً بأنه قادر على اتخاذ موقف فني فكري منها ابتداءً. وإذ يتخذ الناقد قراراً نابعاً من نفسه بأن ينقد قصيدة أو ديوان شعر أو مسرحية، أو غير ذلك، يكون قد غادر دائرة الموضوعية إلى دائرة الذاتية، وذلك أمر لا مفرّ له منه إذا شاء أن يكون نقده أصيلاً معبراً عن رأيه الفني الصريح الخالص.

والناظر فيما قدمه إحسان عباس من دراسات نقدية متعدّدة، يرى أنه كان أميناً لتصوره النظري للنقد الأدبي في مجال التطبيق، وكل دراساته النقدية مكتوب بأسلوب واضح، لا إبهام فيه ولا مداورة، وكلها يظهر فيها البعد عن المستغلق من التعبير، والطلب المتعمد لما لا بد أنه واصل إلى نفس القارىء وفهمه، من دون الوقوع في المبتذل المتداول. وإذا كان قد التزم دائماً حدود الموضوعية في الشكل النقدي، فإنه كان - في المضمون - أميناً للذاتية المطلوبة في العمل النقدي نفسه، وكل كتاباته في هذا المجال نابعة من اقتناع تام بأن العمل الأدبي الذي يخضعه للنقد يستحق النقد من وجهة نظره هو، إذ يجد نفسه يتفاعل معه فنياً

بشدة. ولم يخرج عن هذه القاعدة الدقيقة إلا في عمل واحد أو عملين من أعماله النقدية، وذلك حين كان يقوم بالعملية النقدية لا لداعٍ داخلي ذاتي فني صرف، وإنما لداعٍ خارجي – هو ذاتي أيضاً بشكلٍ من الأشكال – ينبع من «الواجب» الذي يحسّ به مواطناً فلسطينياً عليه إبراز ما في تراث هذا الوطن المغصوب من أدب فني.

ترى ما هي الأعمال الأدبية التي تجذب الدكتور عباس للكتابة فيها بدافع داخلي؟ ليس هذا بأمر يسهل التحقق منه، غير أن العثور على بعض «المفاتيح» عنه ليس أمراً مستعصياً، إذ إنه يرد في كتاباته بين الحين والحين ما يدل عليه. وفي هذا الصدد أجدني مستطيعة أن أشير إلى ثلاث قواعد كبرى تشدّه إلى العمل الأدبي، وهي: البعد الفلسفي، والبنية المزدوجة التركيب، والبساطة. فالقاعدة الأولى تعنى بالمضمون، والثانية بالشكل، والثالثة بالاثنين معاً.

لقد نصّ هو صراحةً في مقالة له عن ديوان «وحدي مع الأيام» لفدوى طوقان سنة ١٩٥٤ على تطلّبه للبعد الفلسفي في الشعر – والأدب بعامة – حين قال: «بل لعلّ الشعر الذي لا ينطوي على فلسفة عميقة ليس من الألوان المحبَّبة إليّ»، وهو يعني بهذا أن الأدب الذي يستهويه هو الذي يقف فيه الأديب موقف المفكر من مشكلات الانسان عامة، وينقل هذه المشكلات – أو إحداها – بصور ومجازات فنية مميّزة للأدب عن الفلسفة، فيكون الأديب بذلك جامعاً للفلسفة وللفن معاً. لهذا كان الشاعر أو الأديب الحقّ – في نظره – «قريناً للفيلسوف»، لا يحرز عظمةً واضحةً إلا إذا كان عميق الإدراك لمشكلات الكون والإنسان، وعلى هذا الأساس فسر عَظَمة بعض كبار الأدباء العالميين من أمثال جوته وشو وطاغور وريلكه والمتنبي والمعري، وقال إنه مهما نعدّ من عناصر عظمتهم «فإننا لا ننسى أيضاً أن كل واحد من هؤلاء مفكّر على طريقته الخاصة، وأن له موقفاً محدداً من الإنسان ومشكلاته»؛ وأضاف: «بل لعلنا – لا شعوريا – نحكم لكل واحد من هؤلاء بالتقدم لأنه هو ذلك المفكّر المتعمّق. ثم يضيف قائلاً: «إن شرط البقاء لأي أديب مرهون به مفكراً، وإلا فلماذا خلد المتنبي وسقط مئات من الشعراء المعاصرين له الذين «أَسَفُّوا مثلَ إسفافه في المبالغات الكلامية، وفي التحيُّل على الرزق العابر، وفي المدح المصطنع، وفي تبرير النقائص»؟.

ويقودنا هذا التطلُّب للفكر العميق في الأدب الجيد إلى القاعدة الثانية التي يراها ضرورية فيه، وتلك هي أن تكون بنية العمل الأدبي قائمة على ازدواجية ما من أي نوع، ينعكس من خلالها الصراع الدائر في نفس الإنسان أبداً، إذ الانسان – في رأيه – يتنازعه منذ الأزل وإلى ما شاء الله أمران: «الخوف من الموت والحنين إلى الماضي الذهبي السعيد»، وما دام العمل الأدبي الجيد يصوّر موقف الأديب من مشكلات الإنسان والكون، فإنه لا مفرّ من أن يلحظ هذا الصراع كامناً في مختلف صور الوجود الانساني وأن يتخذ موقفاً شعورياً فكرياً منه، دون أن يجد بالضرورة حلّاً له،واشكال هذا الصراع متعددة لا يحيط بها حصر، إذ قد تكون صراعاً بين القوة والضعف، والثورة والاستسلام، والحياة والموت، والمستقبل والماضي، والتقدم والتراجع، والرجاء والخوف، والواقع والحلم، إلى كثير غير ذلك، وكلها – فيما أقدر – مما عناه الدكتور عباس عندما حدد شَكْلي الصراع الكبيرين بالخوف من الموت والحنين إلى الماضي السعيد.

والناظر في هذه القاعدة في إحدى مقالاته المبكّرة، لا يسعه إلا أن يلحظ فيها مسحة رومنطيقية كانت طاغيةً على فكره النقدي في الخمسينات وفي أوائل الستينات. غير أنه لا يسعه – أيضاً – إلا أن يرى فيها تعمقاً «وجودياً» عاماً في فهم الإنسان من ناحية، وأنه – من ناحية أخرى – قد أظهر منذ أوائل كتاباته النقدية تحيّزاً فكرياً إلى الجانب الإيجابي في الوجود الانساني، إذ نراه في أول كتبه النقدية – كتاب «فن الشعر» – سنة ١٩٥٣ يحلل بالتفصيل قصيدةً لذي الرُّمّة – الشاعر الأموي – يظهر فيها الشاعر الصراع الأبدي بين الحياة والموت، فينتصر للحياة من دون الموت؛ ونراه في سنة ١٩٥٦

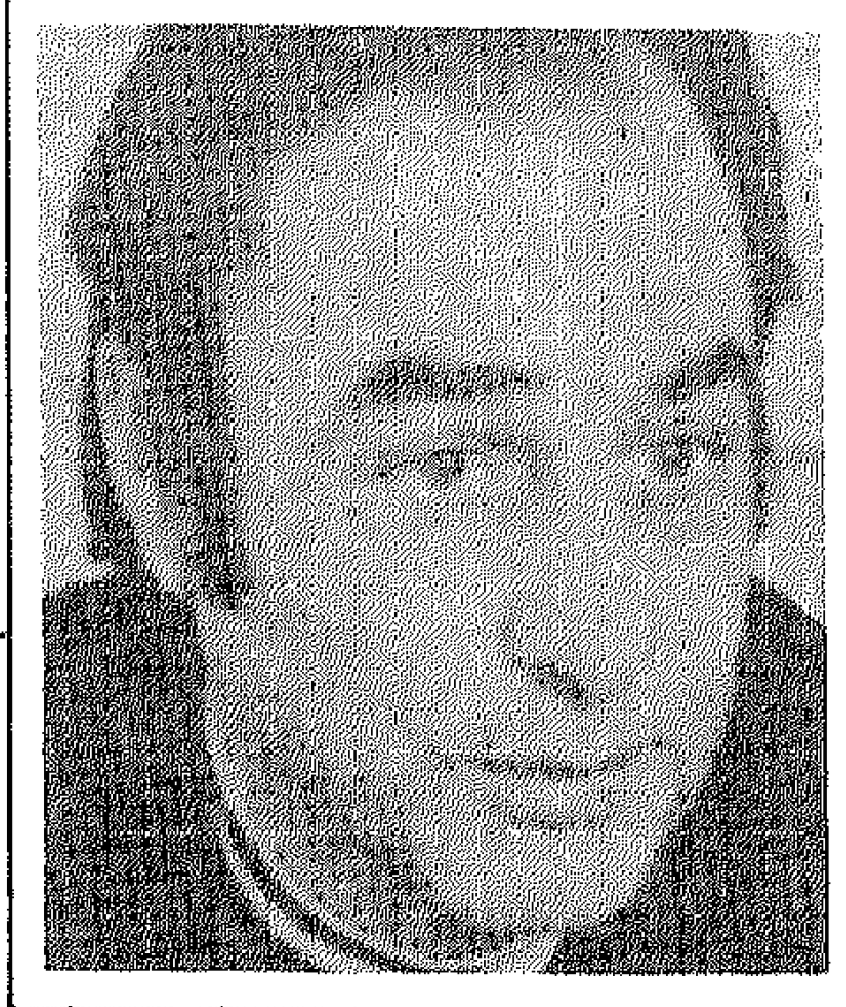
يأخذ على الشاعر عبد الوهاب البياتي في ديوانه «أباريق مهشّمة» - (في كتابه «عبد الوهاب البياتي والشعر العراقي الحديث») - أن البياتي يميل في قصائده هناك إلى إبراز «الضياع» في شخصياته (مثل الملاّح التائه) وذلك أمر قد قاده - أي البياتي - إلى التعاطف التام تقريباً مع شخصية سيزيف الأسطورية - ممثلةً لضياع الجهد الإنساني - من دون التعاطف مع شخصية بروميثيوس الاسطورية - ممثلة للإصرار على استمرار الجهد الإنساني - النار - بغض النظر عن النتائج الوقتية، إذ لا بدّ أن يؤتي هذا الإصرار ثماره اليانعة في المستقبل.

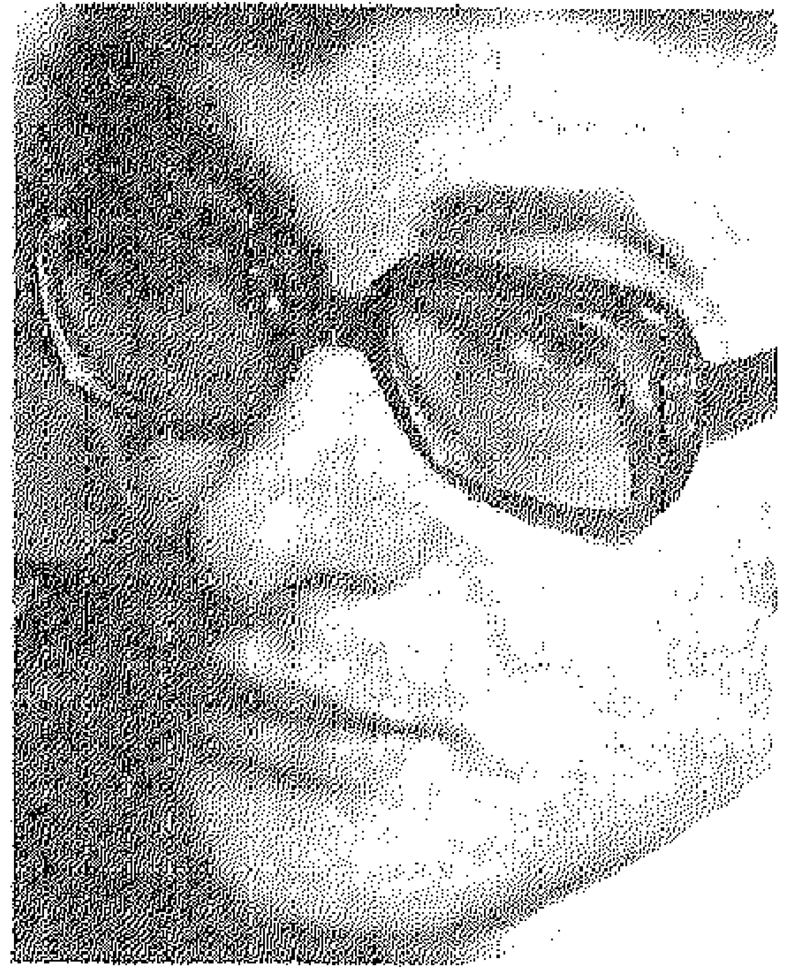
ولقد كانت هزيمة سنة ١٩٦٧ الحادثة الأهمّ في توضيح موقف الدكتور عباس في هذا الموضوع، فخفتت في كتاباته النقدية النزعة الرومنطيقية وقوي نَفَسُ الانتصار لمنطق القدرة الإيجابية الكامنة في نفس الإنسان، حتى ليستطيع الإنسان أن يتغلّب على كل ما يهدّده من المصائب والمشكلات؛ ولعل ذلك عائد إلى أنه لم ير فيها سوى هزيمة مقرونة بمظاهرات ٩ و ١٠ حزيران ١٩٦٧، معتبراً أنه حتى الهزيمة تحوي في ثناياها إمكانات الأمل والبناء والإيجابية. ومن هنا اعتبر في مقاله «الاتجاهات الفلسفية في الأدب العربي الحديث» الثورة ملمحاً مميزاً للأدباء الذين خلّدهم الزمن، مثل أبي حيان التوحيدي وأبي العلاء المعري، وانتقد حليم بركات على تصويره تخاذل بطله وضَيَاعه في قصته «عودة الطائر إلى البحر»، ولم يستطع أن يتعاطف مع البياتي في حملته المسعورة على الأمة العربية كلها - بعد الهزيمة - في قصيدته «عيون الكلاب الميتة»، فيما لَمَحَ بصيصاً جميلاً بنّاءً من النور في شعر شعراء الأرض المحتلة في تقويمهم للتراث العربي - سلباً أو إيجاباً -، كما أنه - في مقالة لاحقة عن «لحظة الإبداع عند الشابي» - أبدى تقديراً خاصاً لأبي القاسم الشابي لما ظهر في شعره منذ سنة ١٩٢٣ من تجلُّد وقدرة على الصمود القوي في وجه الألم والمرض وإرهاصات الموت القريب.



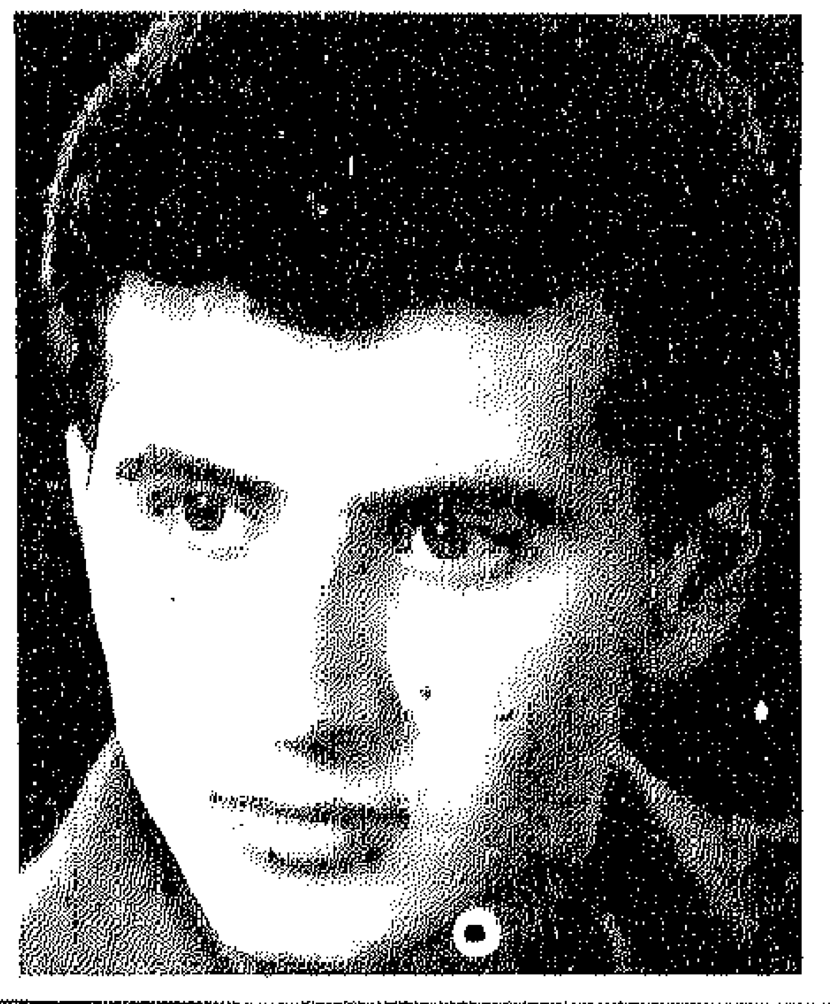
فدوى طوقان.

كمال ناصر.





محمود درويش.

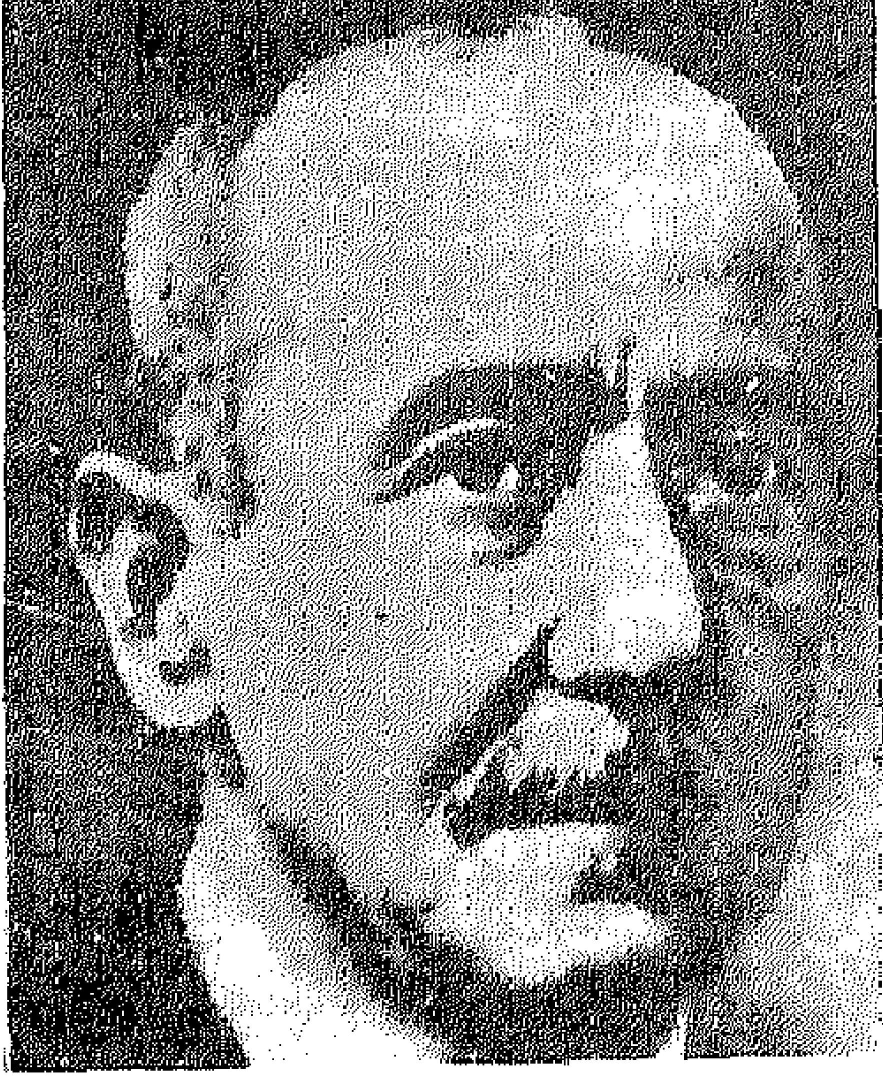


سميح القاسم.

وعندما يحاول الدارس تطلب القاعدة الثالثة التي يراها هذا الناقد مرجوة في الأدب الجيد، فإنه سوف يراها مذكورة في أماكن عدة من كتاباته النقدية، وتلك هي قاعدة البساطة: وقد عبّر عن تفاعله الإيجابي مع مظاهرها في عدد من الأعمال الأدبية التي تعرّض لنقدها، فأشار إلى أنها ميزة ظاهرة في بعض أشعار

فدوى طوقان وإبراهيم طوقان وكمال ناصر وعبد الوهاب البياتي، ورأى أن قيام بعض شعراء الأرض المحتلة وأدبائها – مثل محمود درويش وسميح القاسم وإميل حبيبي –، وكذلك نازك الملائكة وبدر شاكر السياب، باستعمال التعابير الدارجة والأغاني الشعبية في أدبهم، أعطى هذا الأدب – رغم انبثاقه من البساطة – زخماً فنياً قوياً رفعه إلى مرتبة عالية في التعبير، ويزيد فيؤكد: إن استعمال هذه التعابير والأغاني لم يكن ليكون له هذا الأثر الفني النفاذ هنالك لو لم يأت ليخدم غاية فنية داخلية مطلوبة في قلب الأعمال الأدبية لهؤلاء الأدباء جميعهم، ولولا ذلك كله لما كان لتلك التعبيرات والأغاني أي قيمة في حد ذاتها، ذلك أن البساطة في نظره لا تعني التبسيط، وإنما تعني البعد عن الغموض والافتعال، والعمل الفني – في نظره – لا يكون عملاً جيداً ما لم تنحلّ كل المؤثرات الفاعلة في تكوينه انحلالاً تاماً في نفس صاحبه قبل أن يضعه في شكله النهائي، فإذا لم تنحل هذه المؤثرات ظل العمل الفني مفتعل التركيب غامضَ الدلالة، فإذا انحلّ أصبح بسيطاً واضحاً عميقاً معاً. وقد درس في كتابه «فن الشعر» قصيدة شوقي المشهورة في أبي الهول، فأظهر أن الشاعر افتعل تلك القصيدة، والشاهد على ذلك إنه جعل من أبي الهول فيها رمزاً لأمور متناقضة، ومن ثَمَّ فقدت القصيدة البساطة – والعمق – المطلوبين في العمل الفني الجيد.

ومن المسائل المرتبطة بقضية البساطة مسألة الشكل في الشعر الحديث، وتلك مسألة كان لا بد له من أن يتعرض لها، نظراً للمحاولات التجديدية المتعددة التي أخذت بالظهور في شكل الشعر العربي الحديث منذ أواخر الأربعينات على يدي نازك الملائكة وبدر شاكر السياب وعبد الوهاب البياتي وغيرهم من بعد، تلك المحاولات التي تَحَدَّتْ عَرُوض الخليل، فرفضت التقفية معتبرة إياها قيداً يجرّ الشاعر إلى الافتعال اللفظي، ورفضت أيضاً التسوية بين شطري البيت، مفضلة – كما قالت نازك – أن يُترك التعبير حراً ينتهي بموسيقاه حيث يشاء، لا حيث يريد له الشاعر – اضطراراً – أن ينتهي. وقد أبدى الدكتور عباس تعاطفاً شديداً مع محاولات التجديد الأولى هذه، ورأى أن نازك بالذات – بتجديدها – «أسلمت القصيدة العربية إلى مرونةٍ لم تعرفها من قبل، وخاصة حين أخضعت القافية لبعض الارسال والتصرُّف، فأضحى الوقوف على المعنى لا على الرنة الموسيقية الأخيرة هو الذي يتطلبه الشعر الجديد». غير أنه لم يغفل عن مخاطر التجديد، ولا عما يمكن أن ينتج عنه من أنواع سوء الاستعمال، وقد أشار في مقال له نشر سنة ١٩٥٢ إلى أن النزوع إلى التجديد قد يخرج عن حيّز الحاجة الفنية لدى الشاعر ليصبح إغراقاً في عبادة الشكل، وذلك عندما يقود تطلُّب الشاعر له إلى التحكّم في الانفعال بالانتقاء الموسيقي، كما أن هذا النزوع قد يخدع البعض ممن يظنون في أنفسهم طاقة شعرية أوّلية، فيعنون في شعرهم بالشكل المجدد وحده، معتقدين أن الشكل يصنع الشعر، وليس الأمر كذلك أبداً. ولذلك ميّز التجديد في شعر نازك وحذّر من انخداع البعض به في شعرها، مؤكداً أن التجديد في الشكل فيه لم يكن السبب قط في تميزها؛ قال: «إن التجديد في شعر نازك ليس مقصوراً على الشكل؛ وإجادتها في مذهبها ليست قائمةً على حدود التخلّص من التقفية والمساواة بين شطري البيت: هذه حقيقة لا بد أن يفهمها من يقلدون هذا الاتجاه وهم لا يتمتعون بما وُهِبَتْهُ الشاعرةُ من قدرةٍ فنيةٍ فَذّة، وإرهاف عجيب، وتعمُّق لجوانب النفس، واستشعارٍ لخطرات الحلم، وإيمانٍ بحرية الفن وطلاقته».


أحمد شوقي.

وقد برهن الواقع فعلاً أنه كان على حق في توجُّساته من «سوء التصرّف» لدى فتح باب التجديد على مصراعيه، وشهد الشعرُ العربي الحديث منذ الستّينات عدداً كبيراً من الشعراء المغرقين في عبادة الشكل إلى درجة نفي أبسط العلاقات المعنوية بين الكلمات، كما شهد عدداً أكبر من مُدّعي الشعر الذين لا تزيد بضاعتهم الفنية عن القدرة على تحطيم الشكل القديم من دون الإتيان بأي بديل فني حقيقي يتجاوز اللعب بالأشكال، وبين هؤلاء عدد لا بأس به اتخذ من تحطيم الشكل القديم جوازاً إلى تحطيم التراث العربي كله.

* * *

حاولت فيما سبق أن ألقي الضوء على بعض القواعد العامة في فكر إحسان عباس النقدي من الناحية النظرية كما استنتجتها من كتاباته النقدية ومحاضراته الخاصة والعامة. ولا بد لي - استكمالاً للبحث - من أن أحاول استكشاف بعض المعالم العامة لطريقته النقدية في مجال التطبيق.

ولعل أفضل مدخل لهذا الموضوع هو النظر فيما كتبه سنة ١٩٦٦ في مقال له بعنوان «أبو ذَرّ في وجه الأزمات الثلاث»، قال:

«ولكن الشاعر الحديث ليس خطيباً؛ إنه يفزع - وهو ممتلىء الفم بالماء - إلى ريشته، ويغمسها في دم القلب ليكتب بها حقيقة ما يحس، وحقيقة ما يحسه شيء متعاقد متشابك متفاعل، يجمع عالماً من المفارقات والمتناقضات التي يريد أن يستخلص منها صورة منسجمة. فليس المطلوب منه صراحة الشمس السافرة في وقت الهاجرة. العلاقة بين الشمس والقصيدة ليست علاقة توهُّج محرق، وإنما هي علاقة تألُّق: كلتاهما تتألف من خيوطٍ وألوان، تُسَمَّى في حال الشمس ألوان الطَّيْف، وكلتاهما ضوءٌ مشرق نافع، قد تغشيه السحب دون أن تبطل حقيقته - إن القصيدة الحديثة أقرب إلى الطيف الذي انحلّ إلى ألوانه السبعة منها إلى اللون الواحد الناجم من تآلف الألوان جميعاً، بل ان من سر القصيدة الحديثة أنها تنحَل إلى الألوان المختلفة وتجتمع ألوانُها متآلفة في آنٍ معاً».

ويبدو هذا القول وصفاً للشاعر الحديث وللقصيدة الحديثة، ولكنه - في حقيقة الأمر - في صلب المنهج النقدي - إذ يتحدث عن الأديب الجيد والقطعة الأدبية الجيدة بغض النظر عن الزمن الذي كتبت فيه، كما إنه يلخص - وهذا هو الأهمّ في نظري - دور الناقد التطبيقي، كما يتصوره واجباً عليه هو نفسه ناقداً، فإن في أساس عملية النقد التطبيقي بالنسبة للدكتور عباس غوص الناقد في «العالم» الذي يخلقه الأديب في قطعته الأدبية، واكتشاف عناصره و «ألوانه» ثم تحليل هذه العناصر، ثم مزجها مرة ثانية، ثم تفسير ما يريد الأديب أن يقوله بها، في صورة «منسجمة»، تتفق والانسجام الذي أوحى به الأديب في عمله، وتستكشف الوحدة الكامنة في هذا العمل، خَلْفَ مختلف مظاهر التنوع فيه. إذ ذاك وحسب يستطيع أن يبدأ بنقد العمل الأدبي، ويكون عمله هو صورة أخرى من هذا العمل.

وينطلق الناقد وهو ينظر في العمل الأدبي الذي بين يديه من نقطة انطلاق رئيسية هي الإنسان أو المشكلة الإنسانية التي يطرحها هذا العمل. وأدوات الناقد لاكتشاف أبعاد هذه المشكلة متعددة، تتجاوز الموهبة والمراس والاطلاع والإيمان بالفن، إلى التعمق في مختلف العلوم التي تمسّ الانسان بمختلف الأشكال، وأهمّ هذه العلوم اثنان: علم النفس وعلم الأنثروبولوجيا الحضارية، إذ بالأول منهما يستطيع الناقد أن يفهم دقائق النفس البشرية بنوازعها التي لا تكاد تُحصى، وبباطنها فضلاً عن ظاهرها، ويستطيع أن يرى - بحق - أن القصيدة كالحلم في نظر علماء النفس: بناء ذو وجهين، ومهمة الناقد - كما يقول عباس في كتابه «فن الشعر»: «أن يحوّل انتباهنا عن السطح الظاهري ويتخلّل الأعماق إلى ما وراءه»، ويضيف قائلاً: «ولا بأس أن يستكشف أموراً لم تخطر للشاعر على بال». أما علم الأنثروبولوجيا الحضارية، فإنه يثقف الناقد في التجربة الإنسانية العامة الكبيرة عبر العصور، منذ أن وعي الإنسان ذاته فرداً مميزاً بين

المخلوقات، ويؤصّل في نفسه معرفة المعالم الكبرى في هذه التجربة، فيفهم ما يقوله فرويد عن عقدة أوديب، وما يقوله يونج عن نظرية التقدم والتراجع، وما يطيل الحديث فيه فريزر عن طقوس الخصب وأسطورة أدونيس وقتل الملك الإله عند البدائيين، وغير ذلك كثير.

هذان العلمان يصلان بالناقد إلى تقرير أمر أساسي وهو أن اللغة الأدبية - وخاصة لغة الشعر - هي لغة رمزية، تنساب فيها «التجارب الداخلية والمشاعر والأفكار» - فرديةً كانت أو جماعية - وتبدو في الظاهر كأنها تجارب حسية أو أحداث من أحداث العالم الخارجي»، ولكنها مختلفة عن اللغة التي نستعملها في العلوم أو في لغة التخاطب، ولا نستطيع أن نفهمها إلا إذا تعمقنا ما تحت القشرة الظاهرية وتفرسنا في حقيقة التجارب الإنسانية التي جرى التعبير عنها. فالمعاني الهامة هي المعاني المختبئة، وبالكشف عنها تظهر القيمة الحقيقية للأدب؛ ويقول أيضا: «ومهمة النقد أن يقرأ اللغة الرمزية... بعد أن يستعين بدراسة الأساطير والشعائر والحكايات الشعبية» والأحلام والمعجزات وغيرها.

كيف يشرع الناقد في النقد بعد أن يكون دخل عالم القصيدة متزوداً بنتائج العلوم التي تعنى بالإنسان، وبما لديه من خبرة وممارسة وموهبة؟ إنه إذا أراد أن يحتذي طريقة عباس في النقد - فيما أتصور - يحاول أن يدخل إلى عالم العمل الأدبي الذي بين يديه، ويستوعبه استيعابا كاملا، ثم يشرع في دراسة مختلف أشكال اللغة الرمزية فيه، من صور ورموز وأساطير وغير ذلك، ويحلّل هذه الأشكال المختلفة، كلًا على حدة أولَ الأمر، ثم مجموعةً معا فيما بعد، مفسراً كل شكل منها، ومحاولاً ربط تفسيراته لها مجتمعةً؛ فإن استطاع أن يكون من هذه التفسيرات وحدة متكاملة منسجمة، فإنه يكون قد أفلح في ترجمة العمل الأدبي، ولا يبقى عليه سوى أن يضعه بلغة الفكر ويقدمه لجمهور القراء؛ وإذا لم يستطع أن يكوّن من هذه التفسيرات وحدة متكاملة منسجمة، فإما أن يكون قد أخطأ في بعض تفسيراته، وفي تلك الحال عليه إعادة النظر فيها، أو يكون في العمل الأدبي نفسه خَلَلٌ ما، وليس بالإمكان خلق الانسجام في تفسيره بعد إذ لم يكن هو نفسه منسجما في ذاته.

تلك عملية تبدو سهلة إذ يصفها الدارس بهذه البساطة، غير انها معقّدة للغاية، تستغرق من جهد الناقد أكثر بكثير مما تستغرقه أعمال فكرية أخرى، قد تبدو للوهلة الأولى أشد صعوبة، ولعل ذلك راجع إلى أن النقد الجادّ المسؤول هو عمل فني فضلاً عن أنه عمل فكري، كما يراه عباس، وإخراجه إلى النور لا يخلو من العسر والمعاناة. ولقد طبق هذه الطريقة في النقد في كتاباته في الأدب القديم وفي الأدب الحديث - وفي محاضراته أيضا، والمجموعة التي يجدها القارىء بين يديه في هذا الكتاب خَيْرُ دليل على ما أقول. ■



الصحافة

● «إن نابليون مدين للصحافة بجيش مؤلف من ٣٠٠ ألف جندي».

مترنيخ

● «المال، المركز، الشهرة... كلها لا شيء أمام الصحافة التي هي كل شيء».

ر.كريميو

● «الصحافة تؤدي إلى كل شيء بشرط واحد هو أن نعرف كيف الخروج منه».

جول جانين

● ««عظيمة هي الصحافة، كل ناشر قادر على أن يكون حاكم العالم».

كارليل

الاقطاع الاسلامي

أصوله وتطوره - دراسة مقارنة

د. ابراهيم علي طرخان الحلقة الثانية

تلك هي أصول الاقطاع في الاسلام، ويلاحظ أن الفكرة نبتت لأول مرة في الدولة الاسلامية، خلال العشرة سنين الأولى من القرن الأول الهجري وأوائل القرن السابع الميلادي، وأنها لم تعد مجرد إجراء فرعي تنظيمي، لجأ إليه ولي الأمر، من بين ما لجأ إليه من نظم وتشريعات، كي يمنح بعضاً من الرعايا مساحات معينة من الأرض،

وبعد أن استعرض في الحلقة الأولى مفهوم وممارسة الاقطاع النبوي والخلفاء الراشدين للأراضي والمراعي والمعادن، تختم الحلقة الثانية هذا البحث المهم عارضة لمقابلة بين الاقطاع الغربي والاقطاع الاسلامي ثم التحولات التي أصابت هذا الأخير حتى العصر العثماني.

إن ملكاً وان استغلالا، لأسباب ماثلة لديه، وهو في حل من أن يمنح أو لا يمنح، بل اعتبرت من الصدقة لفريق من المقطعين، وربما كان هذا المعنى هو الذي دفع المقريزي فيما بعد لأن يقول: «وإنما القطائع على وجه النقل من خمس ما أفاء الله»(١). وهذا ما جعل للاقطاع الاسلامي صفة المنحة الشخصية، التي ظلت بارزة في الدولة الاسلامية خلال العصور اللاحقة، حتى في أقصى مراحل تطور الاقطاع الاسلامي ونضجه.



الاقطاع الغربي

ولما كنا بصدد دراسة الأصول الأولى للإقطاع الإسلامي، فلا مندوحة لنا من التعرض لأصول الاقطاع الغربي، وهذه يمكن أن يقال إنها تتفق مع أصول الاقطاع في الاسلام، من حيث دلالة الاقطاع اللفظية على مساحة معينة من الأرض يمنحها ولي الأمر لبعض رعاياه، مع اختلاف الدوافع والنتائج التي ترتبت على المنح في كل من الشرق الاسلامي والغرب المسيحي مع وجود التشابه الكثير في التفصيلات الفرعية لكل من النظامين. وأقدم أصول عرفت للاقطاع الغربي، هي الأحداث التي وقعت خلال العصر الميروفنجي في القرن السادس الميلادي بصفة خاصة، حين نشب نزاع حاد وحشي بين أبناء وأحفاد كلوفس (Clovis) نظراً لما جروا عليه من تقسيم الملك كارث خاص عقب وفاة كل ملك، ثم بين هؤلاء الملوك من الفرنجة وكبار الأرستقراطيين في القرن السابع الميلادي. نسلت هذه الأحداث الخطيرة، اختلالا في الأمن واضطرابا شاملا في المناطق الواقعة بين نهري الرين واللوار، قلب إمبراطورية الفرنجة ومسقط رأس الاقطاع الغربي، وزاد الأمر سوءا أن عجزت الحكومة إبانئذ عن حماية الأمن أو تأمين حياة رعاياها، مما أتاح الفرصة إلى ظهور ونمو فريق من الرعايا الأثرياء الأقوياء لجأ إليهم جيرانهم من مفتقدي الأمن وطلاب الدعة، فوجدوهم أجدى من الحكومة وأقرب منالا منها في تحقيق رغبتهم الحيوية. وفي نظير هذه الحماية، كان لابد من لقاء لها، أخذ هذا اللقاء صورة خدمات يقدمها أولئك اللاجئون، وكيفما كانت أهداف هذه القلة من الجيران الأقوياء، سواء أكانت للافادة من الفوضى السياسية الكائنة في تنمية قواتهم أو ثرواتهم، أو للقيام

لوحة تمثل أحد الذين اقطعوا أرضاً يقدّم فروض الولاء للملك.



بدور سياسي، فقد احتاجوا فعلا إلى خدمات آخرين يرتبطون بهم شخصيا، ولم تكن هذه الخدمات المطلوبة سوى الأعمال العسكرية.

تطور فريق من الناس إذن إلى نوعين من تلقاء أنفسهم تحت الأحوال السائدة: سادة وأتباع، ويعتبر هذا التطور أقدم أصول للاقطاع الغربي ومن هنا جاءت كلمة «تابع» عن الأصل الكلتي (Cwas) بمعنى خادم أو ولد صغير، وصارت في اللاتينية (Vassus). أما أصول الأرض الاقطاعية التي توزع على أولئك الأتباع أو على الفلاحين، فترجع كذلك إلى هذا العصر الميروفنجي، وجاءت عن طريق تأجير الأراضي إليهم، وربما كان الأصل الأقدم راجعاً إلى عصر الرومان، في كيفية زراعة الأبعاديات الكبيرة في فلسطين مثلا وتسمى (Latifundia) أو المستعمرات الزراعية (Colonate)(٢)؛ بل إن الميروفنجيين منحوا قطعا من الأراضي على سبيل الهبة أو الرزقة (Beneficium) فأضحى الممنوح مديناً لكرم المانح وسخائه. وفي الحالات

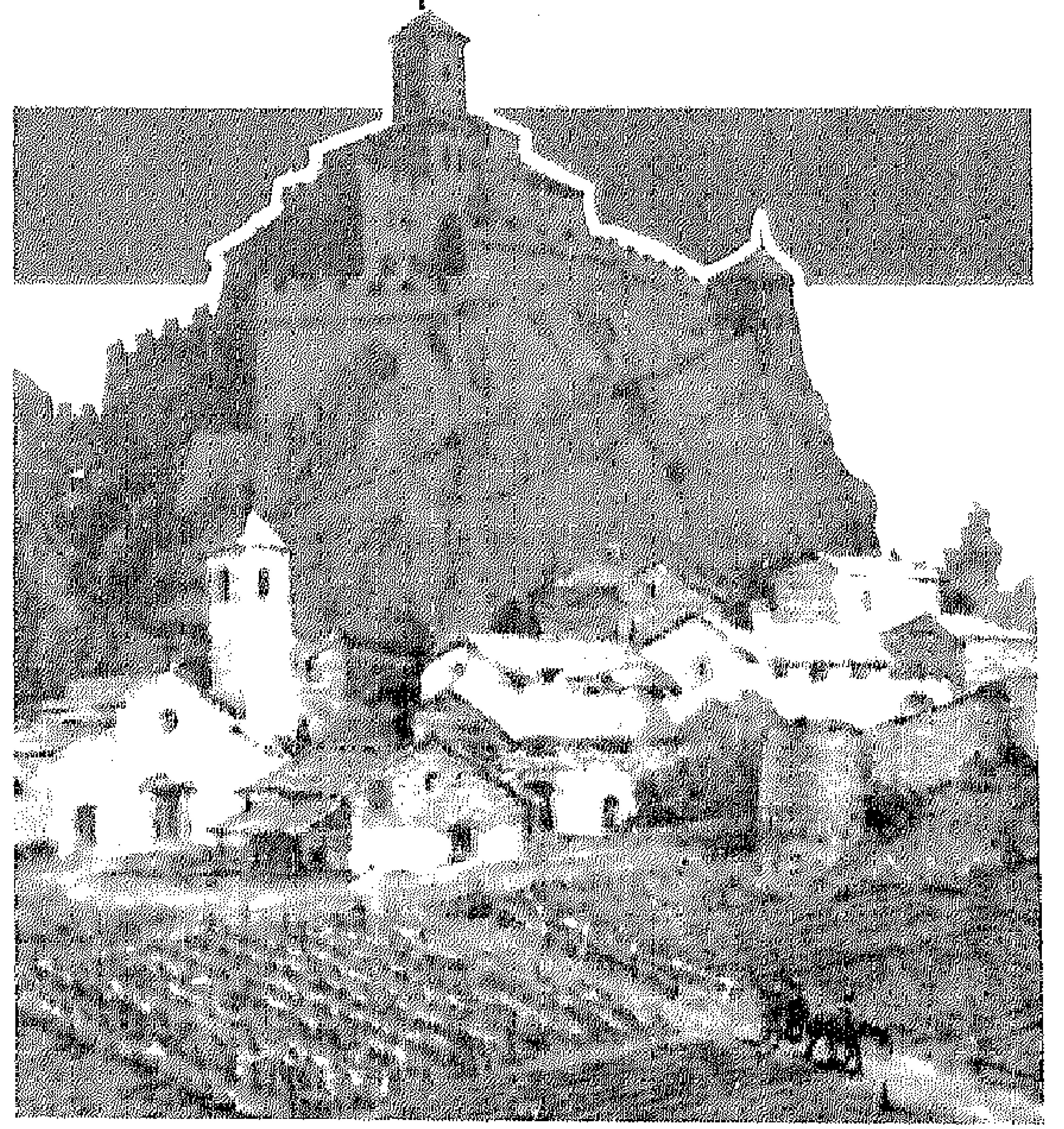


القصوى ربما اعتبر التابع أو الممنوح الحر عبداً لحاميه أو مانحه القوي. غير أن الأمثلة على هذه الحالات سواء في الحماية أو المنح لم تكن من الكثرة في العصر الميروفنجي بحيث نقول إنها كانت منتشرة وشائعة قبل منتصف القرن الثامن الميلادي، كما أن ارتباط المنحة، بالتبعية التي تؤدي معنى القيام بخدمات معينة واضحة المعالم كان نادراً في تلك الفترة، ووضح هذا في العصر الكارولنجي خلفاء الميروفنجيين، حين احتاج بيبين الثاني (Pepin II) وشارل مارتل (Charles Martel) إلى مزيد من القوة الحربية فأكثرا من الأتباع ومنح الضياع، حتى يستطيع التابع تجهيز نفسه حربياً ولا سيما وأن الفارس في ذلك الزمن كان العامل الحاسم في الحروب، ومنحت تلك الضياع في أغلب الأحيان تمليكاً لا استغلالا، والملاحظ أن بعض هذه المنح كان من الأملاك الشخصية أو الميراث الشخصي لبيبن أو شارل، والبعض الآخر من الضياع الملكية (Fisci) أي الأملاك الخاصة بالملك بوصفه ملكا. وسار شارلمان على هذا النحو فكثر أتباع الأتباع (Subvassals)، بل صارت التبعية شرفاً؛ ولم يأت آخر القرن التاسع حتى غدت هذه الطريقة عامة. وخلال فترات الاضطراب التي اقترنت بالغزو الخارجي من جانب النورمان أو الصقالبة (Slavs) أو العرب أو المجريين بدت الحاجة ماسة دون صغار الملاك إلى التماس الأمن، ولما تعارضت هذه الحاجة مع حرصهم على الابقاء على منزلتهم الاجتماعية كرجال أحرار، لم يكن أمامهم سوى حل واحد بسيط هو دخولهم ضمن طبقة المحاربين المتازين (Qualified Warriors) التابعين لكبار السادة، بمعنى آخر ألجأوا أملاكهم إلى أولئك السادة ثم استردوها منهم ثانياً كاقطاع، وعرفت هذه العملية بالإلجاء (Feudalistion)(٣).

وفيما يتعلق بالمراعي في الاقطاع الغربي، فان استغلالها يتفق من بعض الوجوه مع استغلال المراعي في فجر الاسلام. إذ اعتبرها الاقطاع الغربي ملكاً عاماً (Common) لأهل القرى، فالمجتمع القروي في تلك العصور هو أكبر أركان الحياة كلها(٤). وهذا هو وجه

وبقيت أصول الاقطاع الاسلامي الأساس الأول الذي يركن إليه ولاة الأمور في المنح الاقطاعية التي أخذت بعد ذلك تنتشر منذ العهد الأموي فصاعدا، فظلت فكرة الاستثمار الاقتصادي مثلا، في إحياء الموات وتعمير الأراضي، وفكرة مكافأة العاملين في الاسلام ولا سيما رجال الجيش وهكذا.

إلا أن انتشار الاقطاع وتطوره فيما بعد، لم يستند إلى تلك الأصول فحسب، بل طرأت أوضاع جديدة على الدولة الاسلامية، ساعدت على هذا الانتشار، وأول هذه الأوضاع: تحول الخلافة إلى ملك منذ عهد معاوية بن أبي سفيان (١٠ - ٦٠هـ - ٦٦٠ = ٦٨٠م) ولقد استلزم هذا التحول الخطير استكثار الأنصار، وتكوين عصبة قوية لحماية ووقاية هذا النظام الجديد ومن ناحية أخرى لإقناع الرعية بما آل إليه أمر الحكم في البلاد، ولبلوغ هذا الهدف استأدى معاوية ومن جاء بعده، فيما استأدوا من وسائل وسبل، ظاهرة الاقطاع، للتمكين لأنفسهم وأسرهم؛ ودليل هذا المعنى واضح في الاقطاع الكبير الذي منحه معاوية للحسن بن علي، وذلك أثر تنازله عن الخلافة في ربيع الأول سنة ٤١هـ (٦٦١م)(٦)، ووضح أن معاوية إنما أراد بذلك، ألا يكون الحسن بن علي مركزاً تحاك حوله الدسائس، ودعامة للتهديد والمساومة، وفي هذا المعنى قضى معاوية لأسامة ابن زيد مولى رسول الله بأحقيته في إقطاعه الذي منحه من النبي وذلك حين تعرض له عمرو بن عثمان بن عفان وظن أنه يستطيع الاستيلاء عليه بحكم قرابته من الخليفة، ومن أقواله لأسامة: «كأنك تنكرني!» فأجابه أسامة؛ مدلا بولائه للرسول: «ما يسرني نسبك بولائي»؛ ولما اشتد الجدل، انقسم الحاضرون من هاشميين وأمويين إلى فريقين، فحسم معاوية الخلاف، وقطع الطريق على فتنة تكاد تعصف بعرشه، وقال: «لا تعجلوا، أنا كنت شاهداً إذ أقطعها رسول الله أسامة»؛ فأقبل الأمويون على معاوية بعد انصراف الهاشميين يلومونه، فكان جوابه: «أكيس ما يقال في هذا الصدد: «دعوني فوالله



القلعة والمزارع حولها بحراسة الجنود.

الاتفاق، أما وجه الخلاف فانها تابعة للسيد في الاقطاع الغربي. ويتولى هو تنظيم استغلالها بين المزارعين التابعين له؛ ورغم أن مؤرخي الاقطاع في العصور الوسطى الغربية، قد فرقوا بين نوعين من المراعي: مراعي فقيرة وأطلقوا عليها كلمة (Pasture) وأخرى غنية بالحشائش والكلأ وعرفوها باسم (Meadows)؛ إلا أن استغلال النوعين يختلف من حيث إن كليهما يعتبر ملكاً للمنتفعين فبينما قام استغلال النوع الأول على أساس ارسال عدد معين من الماشية لكل زارع، قام إستغلال النوع الأخير على أساس تخصيص مساحات معينة أو حصص معينة لكل اسرة، تختلف سعة أو ضيقاً بحسب عدد أفراد الاسرة، أي ان المساحة تتناسب تناسباً طردياً مع عدد الاسرة، لأن العبرة في تلك العصور بالعدد وعموماً، اعتبر الاقطاع الغربي المراعي، اشتراكية قروية(٥)؛ وبمعنى آخر، تتفق تفاصيل الاستغلال للمراعي في المجتمع الاقطاعي الغربي مع نظائرها في الاسلام، أما إقطاع المراعي في الاسلام واستغلالها لحساب السيد الاقطاعي، فهذا ما حدث في عصر المماليك فيما بعد.

ما ذكرت عيونهم تحت المغافر بصفين، إلا لبس على عقلي، وأن الحرب أولها نجوى وأوسطها شكوى وآخرها بلوى»(٧) تلك نظرة في استئداء الاقطاع خشية وقوع الفتنة وحدوث الفرقة، ولما يزال بعض المسلمين إن لم يكن أكثرهم، موتوراً من الوضع الجديد وطريقة حدوثه. بمعنى آخر جدّ عامل سياسي أثر في انتشار الاقطاع.

ويتلخص الوضع الثاني في اتساع رقعة الدولة الاسلامية، اتساعاً يمكن أن يوصف بأنه وصل إلى درجة التشبع، فأتاحت هذه السعة للخليفة أن يمنح ويكافىء في غير ضيق، بل حتمت عليه أن يتوسع في استخدام حقه في إقطاع القطائع؛ من ذلك ما استلزمته المحافظة على هذا الملك العريض من إقامة المعاقل والحصون التي عرفت في المصطلح «بالمسالح» ولا سيما على حدود الدولة وشحنها بالجند المرابطين والمثاغرين، ليكونوا على أهبة الدفاع، فمثلا عند بناء أبي جعفر المنصور لمدينة ملطية بأطراف آسيا الصغرى عام ١٤٠هـ (٧٥٧م)، أقطع الجند المزارع حولها، وكانوا نحواً من أربعة آلاف مقاتل، وهذا فضلا عن الرواتب وتزويدهم بالسلاح(٨). كذلك أقطع الفاطميون، العربان، فيمن أقطعوا بأطراف الشرقية، وأطلقوا على إقطاعاتهم «الاعتداد» بل إنهم أرصدوا للأسطول إقطاعات سموها «أبواب الغزاة».

ثم إن عملية التوسع نفسها وما تخللها من عمليات حربية، أدت بطبيعة الحال إلى اختلال الأمن وفقدان الطمأنينة، سواء في حدود الدولة من العدو الجاثم المترقب على الأبواب، أو داخل حدود الدولة نفسها من الصعاليك وقطاع الطرق، الذين يهتبلون تلك الفرص السوانح، فيغيرون على الوادعين والهادئين من ذوي اليسار وهم «التُّنَّاء» في المصطلح؛ في غمار هذه الأحداث برزت فكرة جديدة، جاءت وليدة الوضع الراهن، وظهرت تلقائياً، تلك هي فكرة «الالجاء» ومعناها أن يلجىء أهل القرية قريتهم بأراضيها إلى السيد القوي، قائداً كان أو أميراً، ثم يستردونها منه إقطاعاً، فيصبحون مزارعين له، وفي نظير ذلك يتولى هذا السيد الدفاع عنهم ضد عدوان قطاع الطرق أو غيرهم من الطامعين في أملاكهم أو من ظلم عمال الخليفة، الخلاصة: جاء الالجاء، وهو إحدى صور الاقطاع، وسيلة «للتعزز والحقارة» على قول البلاذري(٩). وأوضح الأمثلة على ذلك، ما حدث في عهد الخليفة الوليد بن عبد الملك (٨٦ – ٩٦ = ٧٠٥ – ٧٥١م)، حين أقطع أخاه مسلمة بن عبد الملك أرض البطائح من أملاك كسرى، بجوار دجلة، فألجأ إليه جيرانه ضياعاً كثيرة للتعزز به، كذلك ألجأ أهل زنجان ضياعهم للقاسم بن الرشيد عند ولايته لجرجان وطبرستان، قصد التعزز به ودفعا لمكروه الصعاليك وظلم العمال وهكذا(١٠).

وثمة عامل ثالث في انتشار الاقطاع الاسلامي، وهو أن الثراء المفرط الذي صار للخلفاء، نتيجة الفتح وتكدس الغنائم، مكن لهم أن يبسطوا أيديهم كل البسط في الهبات الاقطاعية، على سبيل الجائزة أو المكافأة للأبناء والأقارب والموالي والغلمان والجواري وكذلك القيان والشعراء، والادلة على ذلك كثيرة، منها إقطاع المنصور لمولاه أبي الخصيب مرزوق، وإقطاع المقتدر للقهرمانة زَيْدان عدة ضياع(١١) وهكذا. يضاف إلى هذا ما أدى إليه انغماس بعض اولياء الأمور في الشهوات واللهو، وكثرة الصلات التي أغدقوها، من كثرة نفقاتهم وإسرافهم، مما حدا بهم إلى الطمع في الحصول على إقطاعات لأنفسهم بشتى الوسائل؛ وأبرز الدلائل على هذا ما فعله يزيد بن عبد الملك الملقب بالناقص، حين أمر عمر بن هبيرة ليسير على القطائع فيأخذ «فضولها لأمير المؤمنين»(١٢)، وما فعله بنو بويه ولاسيما بختيار ابن معز الدولة، إذ نفى كبار رجال الجيش من الديلم طمعاً في إقطاعاتهم(١٣).

هذا وشخصية ولاة الأمر أنفسهم، كانت كذلك من أكبر العوامل في انتشار الاقطاع، وذلك في حالتي القوة والضعف، إذ عمل القوي منح على استئداء الاقطاع لتدعيم سلطانه وتثبيت قواعد ملكه، كخلفاء الدولة الأموية وخلفاء العصر العباسي الأول وأوائل الفاطميين؛ على حين اضطر الضعيف فيهم إلى إشباع رغبات المتسلطين من الأعوان على اختلاف أجناسهم ومناصبهم، بل لم يستطيعوا أن



يعملوا غير هذا، فحاز أولئك الأعوان الاقطاعات الواسعة، وتصرفوا هم في المنح الاقطاعية لأنصارهم، أمثال ابن الفرات وأبي العباس وزيري المقتدر العباسي إذ حازا الاقطاعات الكبيرة فضلا عن الرواتب، وكذلك الوزير مُفلح الأسود – وزير المقتدر – ، فقد «عظم أمره حتى أقطع الاقطاعات وملك الضياع الجليلة» على قول ابن مسكوية[١٤]. ويعتبر عهد المقتدر بارزا لأنه عمم إقطاع الولايات لكبار قواده، نظير قدر معين من المال يدفع لخزانة الخلافة عرف باسم مال المقاطعة أو الجزية على أن يقوموا بجميع نفقات الادارة المحلية، ومع التسليم بأن إقطاع الولايات حدث في العصر العباسي الأول، غير أن قوة الخلفاء أمثال المعتصم والواثق، قد حدّت من نفوذ الأتراك المقاطعين رغم تمكنهم من السلطة، والمهم فيما عمله المقتدر أنه عمم إقطاع الولايات بعد أن كان قاصراً على نفر محدود من كبار القادة، وزاد الأمر أن صارت هذه الولايات تؤخذ قسراً وتورث، ووضح هذا على مقياس أكبر، في عهد بني بويه؛ حتى أضحت الخلافة العباسية قرب نهايتها – في كثير من الوجوه – كما كانت أسرة هيو كابي (Hugh Capet) في بدايتها: أسرة إقطاعية وسط خضم من الولايات الاقطاعية. فلم يعد للخلافة سوى بغداد وبعض ضواحيها، وبلغ استبداد بني بويه أقصاه حين قصروا مهمة وزير الخليفة على النظر في «إقطاعاته ومقتات داره»[١٥].

ولم يكتف الولاة المقاطعون بحيازة ولاياتهم وتوارثها، بل أقطعوا فيها بدورهم لشيعتهم وأعوانهم، ووضح هذا منذ القرن الرابع الهجري، فمثلا أقطع محمد الأخشيد قواد جيشه ورجال حاشيته ومتصرفي الأعمال، ومن هؤلاء الأمير أبو شجاع فاتك الرومي المتوفي سنة ٣٥٠هـ (م) إذ كان له إقطاع كبير بالفيوم، وقد أقام فيه حين «أنف من عظمة خشداشة كافور»[١٦] كذلك اختلفت إقطاعات بني بويه لأتباعهم، فكانت عبرة إقطاعات أتباع فخر الدولة تتراوح بين ٢٠، ٣٠ ألف درهم لوجوه الديلم في منطقة الري وأعمال الجبل، على حين تراوحت هذه العبرة لجنود الديلم الخوذستانية بين ٢٠٠ و٣٠٠ ألف درهم. وهكذا[١٧]... بمعنى آخر: وجدت الاقطاعات الفرعية في الاسلام، ووجد السيد الأوسط (Medius lord) والسيد الأعلى (Over lord) والتابع أو المزارع (Tenant Vassal) وتابع التابع (Subtenant) أو (Subvassal) ولهذا نظائره في الغرب الاقطاعي، واستنصر الأتباع

بأتباعهم ضد السيد الأعلى، وساد الولاء من جانب أتباع الأتباع للسيد المباشر، كما ساد نظيره في الغرب باستثناء ما وقع في إنجلترا الاقطاعية على عهد وليام الفاتح، إذ اقتضى التنظيم القوي للاقطاع، أن يكون التابع الفرعيْ أو المُقْطع الأدنى في منزلة سيده المباشر[18].

الاقطاع الحربي

هكذا كان انتشار الاقطاع في الاسلام على اختلاف أنواعه وطرق حيازته وتباين حائزيه: من رجال الجيش إلى كبار الأعوان والأقارب إلى المقربين من الموالي والجواري وغيرهم، حتى كان أواخر القرن الخامس الهجري والحادي عشر الميلادي، حين حدث تطور خطير في المنح الاقطاعية إذ صارت حربية عامة، وغدت الطريق الوحيد للحصول على القوة الحربية الأساسية في الدولة؛ وربما التمس لهذا التطور الخطير أساس في فجر الاسلام، في توزيع الغنائم بين الغانمين ولو أن عمر بن الخطاب لم يقطع أرض السواد لتزايد القوة الحربية وخشية النزاع، ولكن بعد أن استطاب نفوس الغانمين[19]؛ ويرى الماوردي أن رجال الجيش «أخص الناس بجواز الاقطاع لأن لهم أرزاقاً مقدرة تصرف لهم مصرف الاستحقاق لأنها تعويض عما أرصدوا نفوسهم له من حماية البيضة والذب عن الحريم[20].

على أن السبب المباشر في تعميم الاقطاع الحربي، هو ازدياد ضعف الخلافة العباسية، وسوء تصرف بني بويه في الاقطاعات، وما نجم عن هذا من بوارها، وضعف القوة الحربية في نفس الوقت، إذ لم يكن لها من هم سوى الحصول على الاقطاعات. من ذلك مثلا طالب الجند زيادة أرزاقهم من معز الدولة البويهي عام ٣٢٠هـ (٩٣٢م) فأمر بضرب المكوس وإقطاع جميع القرى والضياع لهم[21]. لكنهم أهملوا استغلالها فخربت، وانحط خراجها، وأسوأ من هذا أنهم كانوا يتركونها بعد ذلك، فيعوضهم السلطان البويهي بأحسن منها من حيث يختارون[22]، والنتيجة الطبيعية هي زيادة مساحات الأراضي المهملة وتناقص انتاجها؛ وذلك بجانب السوء الذي كان يلحق أهالي الاقطاعات من ظلم وحيف ومصادرات، اشتد الاضطراب وزاد الخلل على عهد بختيار بن معز الدولة، حين اتفقت كلمة الاتباع من الترك وغلمان القصر على ألا يعارض كل منهم صاحبه في «طلب الحظ لنفسه» مما أجبر السلطان على أن يضمن هم جميع ما التمسوه[23]؛ كما أن العلاء بن الحسن أحد وزراء صمصام الدولة يوم عاد الى الوزارة عام ٣٨٢هـ (٩٩٢م) كان قلبه مفعماً بالغيظ والحقد بسبب ما لحقه وأهله على يد السلطان، «فأهلك دولته بأقطاع الاقطاعات وإيجاب الزيادات[24]...» وهكذا، كان تصرف بني بويه في الاقطاعات .

نخرج من هذا الاستقراء الموجز لأحداث الاقطاع الحربي في ذلك العهد، بثلاث حقائق كبرى: أولاها: أن سلاطين بني بويه توسعوا فعلا في الاقطاعات الحربية أكثر من ذي قبل لكنهم لم يعمموه، إلا أن الحصول عليها من جانب الأتباع العسكريين غدا المطمع الأساسي دون نظر إلى استيفاء ما يقابلها من التزامات، وثانيها الحقائق أن أولئك السلاطين توسلوا بالمنح الاقطاعية لاسترضاء الأنصار خشية خروجهم وفتنهم كهدف أساسي؛ وخلاصة الحقيقة الأخيرة، وهي نتيجة منطقية للحقيقتين السابقتين، انتشار الفوضى وانحطاط عمارة الاقطاعات واختلال الميزان المالي بجانب انحطاط وفساد القوى الحربية نفسها.

لذلك بات إصلاح الحال مالياً وحربياً الهدف الأول لسلاطين السلاجقة الذين تولوا الحكم بعد البويهيين، والواقع أن السلاجقة خبروا الاقطاع الحربي وهم في خدمة بني بويه[25] كما خبروا نتائج سياستهم ونواحي النقص في هذا الصدد، فرأوا أن يعمموا هذا النظام بحيث يحل محل العطاء للجند عامة؛ وكان عهد السلطان ملكشاه السلجوقي (٤٦٥ - ٤٨٥هـ = ١٠٧٢ - ١٠٩٢م) ووزيره نظام الملك، مفرق الطرق في تعميم هذا النظام في دولة إسلامية عريضة تمتد من جنوب فارس إلى قلب آسيا الصغرى. يقول أحمد بن علي المقريزي: «واعلم أنه كانت عادة الخلفاء من بني أمية وبني العباس والفاطميين من لدن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، أن يجني أموال الخراج ثم تفرق في الأمراء أو

العمال أو الأجناد، وعلى قدرتهم وبحسب مقاديرهم، وكان يقال لذلك في صدر الاسلام: العطاء، وما زال الأمر على ذلك إلى أن كانت دولة العجم، فغير هذا الرسم، وفرقت الأراضي إقطاعات على الجند، وأول من عرف أنه فرق الاقطاعات: الملك أبو علي الحسن بن علي بن العباس «وهو نظام الملك»، وزير البرشلان (ألب أرسلان) ابن داود بن ميكال بن سلجوق، ثم وزر أبو علي لابنه ملكشاه... وذلك أن مملكته اتسعت فرأى أن يسلم الى كل مقطع قرية أو أكثر أو أقل، على قدر طاقته لأنه رأى أن في تسليم الأراضي الى المقطعين، فيه عمارتها، لاعتناء مقطعها بأمرها، بخلاف ما إذا شمل جميع أعمال المملكة ديوان واحد، فان الخرق يتسع ويدخل الخلل في البلاد. فعل نظام الملك ذلك وعمرت البلاد وكثرت الغلات، واقتدى بفعله من جاء بعده من الملوك من أعوام بضع وثمانين (وأربعمائة) إلى يومنا هذا[٢٦] (عصر المماليك).

هذا هو الحد الفاصل في الاقطاع الحربي في الاسلام. بعد أن أضحى النظام المعمول به. وأهم ما استرعى نظر نظام الملك، اختلال الحالة المالية والحربية، ولكي يجعل من الاقطاع الحربي نظاماً يكفل ولاء الجنود وخضوعهم وإخلادهم للعمل دون إتاحة الفرصة لمقطع «أن يكون قوة مناوئة في إقطاعه»، كان لابد له من تشريع آخر يقي هذا النظام ليؤدي الغرض منه. وجاء هذا التشريع الوقائي في تدبير حازم قوي، خلاصته بعثرة الاقطاع الواحد في أماكن متباعدة حتى لا يقوي المقطع بتركيز إقطاعه في مكان واحد من تكوين عصبية قوية تهدد كيان الدولة. يقول مؤرخ السلاجقة: «وربما قرر لواحد من الجند ألف دينار في السنة، فوجه نصفه على بلد من الروم، ونصفه على وجه في أقصى خراسان، وصاحب القرار راض»[٢٧].

ويتضح من هذا أن الأهداف ألتي قصد إليها نظام الملك من تعميم الاقطاع الحربي في الدولة السلجوقية، تلخص في ثلاثة:

١ – توفير المال اللازم بتعمير البلاد بعد خرابها على يد البويهيين.

٢ – توفير القوى الحربية المنظمة.

٣ – إيجاد شيء من اللامركزية لضبط أمور الدولة المترامية الأطراف مع التمكين للأسرة الحاكمة.

وتشبه هذه الظاهرة ما حدث في أوروبا المعاصرة يومئذ، إذ أن الفترة التي عمم فيها هذا النظام في الاسلام، تقابل عصر الفتح النورماني لانجلترا عام ١٠٦٦، حيث نظم وليام الفاتح الاقطاع الحربي بها، ولم يدخله، نظراً لوجود شبه كبير بين نظم المجتمع الانجلوسكسوني، والنظم الاقطاعية الفرنسية في القرن الحادي عشر الميلادي.

وقد .وفى وليام الفاتح نظامه على النحو الذي وقى به نظام الملك تشريعه لنفس الأهداف، فبعثر إقطاعات أتباعه، وأخذ عليهم من العهود والمواثيق ما جعل الاقطاع الانجليزي يختلف عن نظائره في بقية أوروبا ويقترب في كثير من التفاصيل من الاقطاع الحربي الاسلامي مع أن الاقطاع الانجليزي منقول من نورمانديا الفرنسية[٢٨].

على أن الاقطاع الحربي الاسلامي، لم يصبح عاماً بجميع الدول الاسلامية في القرن الحادي عشر الميلادي، فلم تعممه الدولة الفاطمية في بلادها مع ما هو معروف عنها من كثرة الاقطاعات لجنودها وأمرائها[٢٩]، كما اختلفت طرق الانفاق على الجنود بالأندلس، فجرت أولا على إقطاع الأرض، ثم تغيرت إلى العطاء والرواتب ثم عادت الى الاقطاع وهكذا بحسب ما كان يرى ولي الأمر وجاء هذا التطور الأخير على أثر فتح الملثمين لبلاد الأندلس تحت قيادة زعيمهم يوسف بن تاشفين المتوفي سنة ٤٤٨هـ (١٠٥٦م)[٣٠] وفي مراكش على عهد بني مريرة المعاصرين للأيوبيين والمماليك، عرف الاقطاع الحربي كذلك.

أما الدول التي قامت في أحضان السلاجقة وعلى أنقاضهم وهي الدولة الزنكية ثم الأيوبية فالمملوكية، فانتقل النظام الاقطاعي الحربي إليها كاملا، وكان أبو المحاسن دقيقاً في تعبيره عن هذا المعنى بقوله: «وأنشأ بنو سلجوق بني أرتق وآق سنقر جد بني زنكي، ثم أنشأ بنو زنكي، أعني الملك العادل نور الدين محمود الشهيد، بني أيوب سلاطين مصر وغيرها، ثم أنشأ بنو أيوب المماليك ودولة



الترك... فانظر إلى أمر الدنيا وكيف كل طائفة نعمة طائفة ونشؤها الى يومنا هذا...»[٣١].

ومما دعم هذا النظام وقواه، بقاء السلاجقة في حالة حرب طيلة أيامهم ضد البيزنطيين ومنافسيهم ثم بروز الخطر الصليبي أواخر القرن الحادي عشر الميلادي، وظهور الخطر المغولي وامتداده منذ بداية القرن الثالث عشر الميلادي.

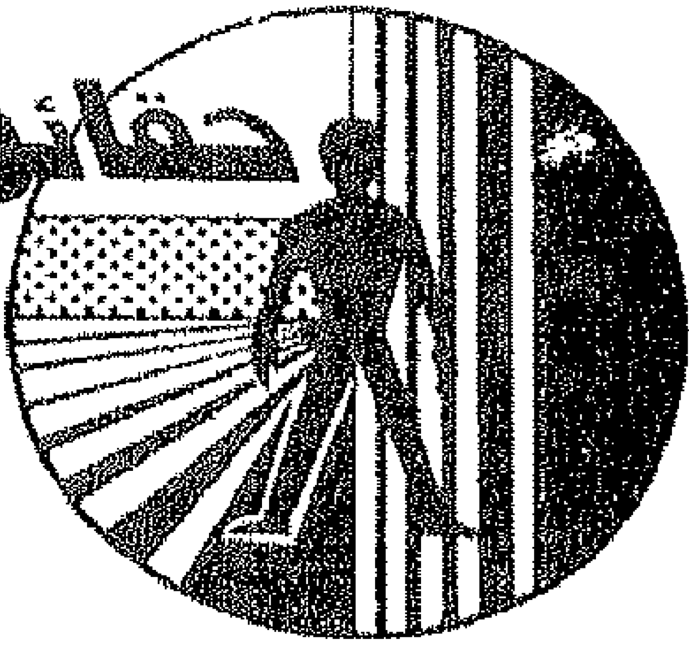
ولأول مرة في تاريخ مصر توزع أراضيها اقطاعات بين السلطان وجنوده، منذ العهد الأيوبي، يقول المقريزي: «وأما منذ كانت أيام صلاح الدين يوسف بن أيوب إلى يومنا هذا، فان أراضي مصر كلها صارت تقطع للسلطان وأمرائه وأجناده...[٣٢]».

والأمثلة على التوزيع الاقطاعي الحربي كثيرة. منها إقطاع ملكشاه السلجوقي منطقة الرها للأمير بوزان التركماني، وبلغت عبرة إقطاع الأمير أحمد يلل الكردي في المراغة بأذربيجان ٤٠٠,٠٠٠ دينار في السنة[٣٣]. ومن كبار أمراء الاقطاع وأعيان دولة ملكشاه: آق سنقر الملقب بقسيم الدولة، وهو أبو عماد الدين زنكي، فقد شمل اقطاعه قلعة حلب وأعمالها وحماة ومنبج واللاذقية ولواحقها[٣٤] كما أن ابنه زنكي كان أقوى الاقطاعيين في عصره، إذ

شملت دولته الاقطاعية ما بين حلب والموصل[٣٥] وصار هو يقطع أتباعه ولا سيما وأن الجهاد ضد الصليبيين كان على أشده في تلك الفترة، فاحتاج إلى تدبير القوة الحربية اللازمة، واستعان بكل قوة تخدم أهدافه، فلما وفد عليه نجم الدين أيوب وأسد الدين شيركوه ١١٣٨م أقطعهما، فأخذ نجم الدين شهرزور وهي السليمانية الحالية (شمال العراق) وأخذ أسد الدين بالموزر[٣٦]. وهكذا سار خلفاء زنكي. فأقطع نور الدين رجال جيشه ومن بعده الأيوبيون الذين وزعوا مصر كلها بين السلطان وجنوده. ■

الهوامش

(١) خطط ج١ ص١٥٦.
(٢) (Lot (f): the end of the ancient world &the beginning of the Middle Ages (lond, 1931); pp.107-114)
(٣) (Canshoff; Feudalism; pp.16-23 Orton (C.W): Outlines of Med. Hist. (camb., 1924); p.112; C.M.H.
(٤) كوبلاند: الاقطاع والعصور الوسطى بغرب أوروبا (ترجمة الدكتور محمد مصطفى زيادة) ص٥ – ٧.
(٥) (C.M.H. Vol.III; pp.473-475)
(٦) التنبيه والاشراف ص٣٦٠.
(٧) مروج الذهب ج٢ ص٥٥.
(٨) فتوح البلدان ص١٩١.
(٩) فتوح البلدان ص٣٢٤ – ٣٢٥.
(١٠) فتوح البلدان ٣٠٦ – ٣٠٩، ٣١٩، ٣٢٤ – ٣٢٥.
(١١) فتوح البلدان ص٣٥٦، تاريخ الوزراء ص٣١.
(١٢) فتوح البلدان ص٣٥٩ – ٣٦٠.
(١٣) تجارب الأمم ج٦ ص٢٢٥ – ٢٢٧، تاريخ ابن خلدون ج٤ ص٤٢٥.
(١٤) تجارب الأمم ج٥ ص٧٨.
(١٥) تاريخ ابن خلدون ج٤ ص٤٢٥، (Dutaillis; Feudal monarchy in france & England. p.4000; Orton (p.):
(١٦) النجوم الزاهرة: ج٣ ص٢٥٥، ٣٢٩ – ٣٣٠، ج٤ ص٤ – ٥.
(١٧) ذيل تجارب الأمم ص١٦٤ – ١٧٠، تاريخ ابن خلدون ج٤ ص٤٥٥.
(١٨) .(C.M.H. Vol.III, p.463; Stephenson (c.): Med. Hist.; pp.238-239
(١٩) أنظر ماسبق ص١٢.
(٢٠) الأحكام السلطانية ص١٨٦.
(٢١) تجارب الأمم ج٦ ص٩٧.
(٢٢) تاريخ ابن خلدون ج٤ ص٤٢٥.
(٢٣) تجارب الأمم ج٦ ص٢٢٥ – ٢٢٧.
(٢٤) ذيل تجارب الأمم ص٢٤٧.
(٢٥) النجوم الزاهرة ج٥ ص٢٧٩.
(٢٦) خطط ج١ ص١٥٣ – ١٥٤.
(٢٧) الأصفهاني (الفتح بن علي): دولة آل سلجوق ص٥٥ – ٥٦.
(٢٨) Dutaillis: P.P.37- 51- 61 steuton PP. 7-10 Stubles P.P.109.
(٢٩) خطط ج١ ص١٣٨، ج٢ ص٣٤٠، كرد علي: الاسلام والحضارة العربية ج٢ ص٢٨٥ – ٢٨٦.
(٣٠) المعجب ص٣٢ – ٤٠ ومابعدها. (Dozy: hist. des Mus. p.322 et sues).
(٣١) كرد علي: الاسلام والحضارة العربية ج٢ ص٢٧٣.
(٣٢) النجوم الزاهرة ج٥ ص٢٧٩.
(٣٣) خطط ج١ ص١٣٩ – ١٤٠.
(٣٤) الروضتين ص٢٥ – ٢٦، النجوم الزاهرة ج٣ ص٨٤ وهامشه ٣ج٥ ص١٢٤ – ١٢٥، ١٢٨، ١٣٠، ١٥٥، ١٦٣،
(٣٥) الروضتين ص٢٧ النجوم الزاهرة ج٥ ص١٢٥، ١٤١، وغيرها.
(٣٦) الروضتين ص٢٦ – ٢٩.
(٣٧) شفاء القلوب ورقة ٤، ابن شداد ص٢٦٠، النجوم الزاهرة ج٥ ص٢٧٧ وغيرها، الروضتين ص٩٥ – ٩٦ وغيرهما.



سورتسي..
مَولِدُ جزيرةٍ جديدة

ترجمة: شذا عدرة
ماجستير في التاريخ الحديث



تقع أشد جزر العالم غرابة جنوبي غربي ساحل ايسلندا، فقد صرّح من شاهد مولدها، بأن ذلك كان أشبه بعملية الهبوط على القمر. وهي عرفت بجزيرة «سورتسي» – (Surtsey) نسبة إلى بركان «سورتو» – (Surtur) مارد إيسلندا الناري الأسطوري الذي تفجر في عرض البحر فتولدت عنه «الجزيرة الأعجوبة».

في الصباح الباكر لأحد أيام شهر تشرين الثاني (نوفمبر) المظلمة من عام ١٩٦٣م، وبينما كان طاقم «إيليفور الثاني» (Isleifur II) أحد مراكب الصيد قد انتهى لتوه من رمي الشباك إلى الغرب من «غيرفريغلاسكر» (Geirfriglasker) القائمة في أقصى جنوب جزر «فستمان» (Vestmann)، ابتداء قاربهم يهتز بعنف ويترنح فوق موجة عاتية، فنظروا بدهشة



صيادو مركب ايليفور الثاني يراقبون بدهشة واستغراب انفجار المحيط البركاني الذي أعطى الحياة لسورتسي.

إلى الجنوب حيث مصدر الاهتزاز، فشاهدوا طبقة كثيفة من الدخان تتصاعد من البحر. وما كان الذي يشاهدونه سوى آلام المخاض التي سبقت ولادة أكثر جزر «فستمان» (Vest-mann) حداثة.

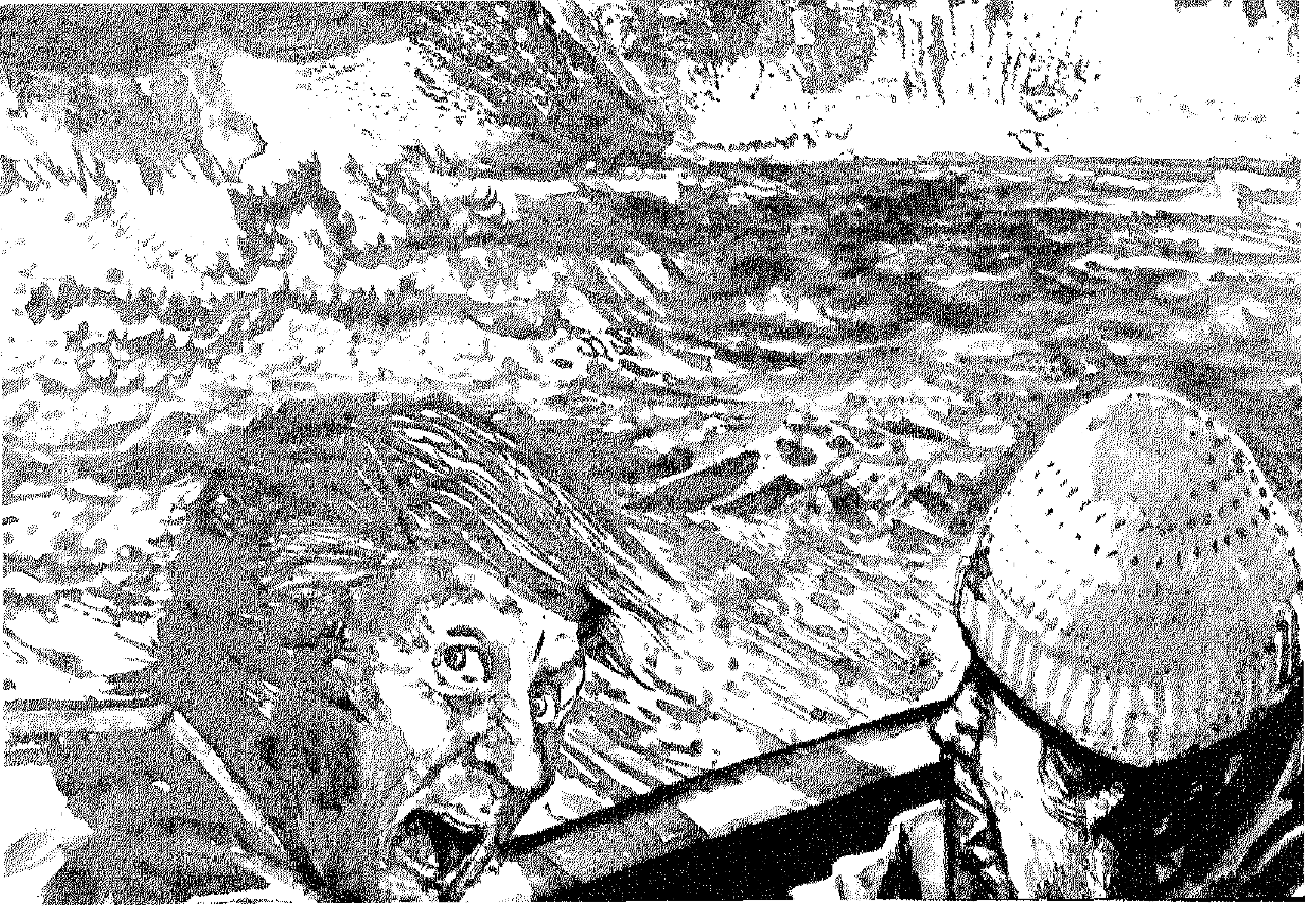
كان الانفجار في بدايته مليء بأعمدة الدخان والأبخرة والرماد وقطع الصخور وقد بلغ ارتفاعها في الهواء مئات الأمتار، ولكن بعد مرور ثماني وأربعين ساعة ابتدأت تظهر على سطح البحر سلسلة تلال مشيرة بذلك إلى ولادة «سورتسي» (Surtsey) الجزيرة الجديدة.

قذف البركان في بداية مراحل انفجاره الكثير من الحجارة والحمم والقطع الزجاجية البركانية التي ما لبثت أن تجمعت جميعها مؤلفة بذلك فوهته التي كانت معرضة للانجراف بفعل مياه الأمواج العاتية. فبدا للوهلة الأولى بأنه لن تكتب الحياة الطويلة لتلك الجزيرة.

ولكن ظهرت بعد مضي ثلاثة أشهر، وعلى مسافة قريبة من الفوهة الأم، فوهة أخرى كانت تتدفق منها سيول الحمم لتغطي أكداس الحمم السابقة وتشق فيها القنوات. ومن ثم ما لبثت طبقات الحمم الرخوة أن أخذت في التماسك والتراص لتدخل مرحلة التجمد ولتؤلف حصناً مكيناً في وجه أمواج البحر العاتية، «فسورتسي» (Surtsey) على ما يبدو، قد جاءت لتبقى.

خفّت في عام ١٩٦٧م. حدة انفجارات الجزيرة الجديدة، التي ما لبث تكوينها الطبيعي أن استقر بصورة فجائية. وقد أصبح لدى العلماء الذين كانوا قد نجحوا حتى ذلك الوقت بإثارة فضول الغرباء بزيارة ذلك المكان ومشاهدة الرماد الأسود يغطي الشواطىء، أصبح لديهم الآن مختبر طبيعي لدراسة كيفية تطور مراحل الحياة.

حملت تيارات البحر المائيةمن إيسلندا — الأرض الأم — خلال العشر سنوات التي تلت الانفجار، الكثير من البذور إلى «سوربسي» (Surtsey) ، كما حُمل بعضها في حقائب «حوريات البحر» من أكياس بيض لأنواع معينة



من الأسماك وطيور الفلمار وطيور القطب الشمالي وأنواع أخرى من الطيور التي حطت رحالها جميعاً هناك وهي تحمل البذور في أرجلها.

وقد نقلت الريح معها أيضاً إلى هناك بذور عشب الطحلب من طبقات الطمي الكثيفة في إيسلندا، بالاضافة إلى أن فيضانات الجداول والينابيع التي تصب في البحر كانت تحمل معها الطبقات العليا من التربة المشبعة بالماء والمشتملة على العشب وجذوره إلى جانب الديدان ويرانق الحشرات.

وجدت جميع تلك العناصر التي تحمل الحياة بداخلها ملجأ لها في «سورتسي» (Surt-Sey) لكي تنمو وتتكاثر. فابتدأت الأعشاب والطحالب ومظاهر الحياة الأولى تنمو بقوة فوق الرماد الأسود. وقد كان يسجل كل مظهر جديد من مظاهر النمو، ومن ثم يعين موقعه على خرائط بواسطة علماء ارتدوا لهذه الغاية ثياباً خاصة واقية لهم من أي وباء خارجي.

من المتوقع أن تصبح «سورتسي» (Surt-Sey) يوماً ما خضراء مزدهرة كأي مكان آخر على وجه البسيطة، ولكن لا يعلم أحد كم من الوقت سيستغرق هذا الأمر؟ فلربما مئات أو آلاف السنين!! وربما في ذلك الوقت سيدمرها نشاط بركاني آخر كالذي أحياها من قبل. وذلك لأن أرض إيسلندا تشكل نقطة عالية من سلسلة جبال تمتد على طول المحيط الاطلنطي من الشمال إلى الجنوب، ويعتقد بأن القوى البركانية هناك تقوم بتمزيق تلك السلسلة تدريجيا وتفصلها عن بعضها البعض.

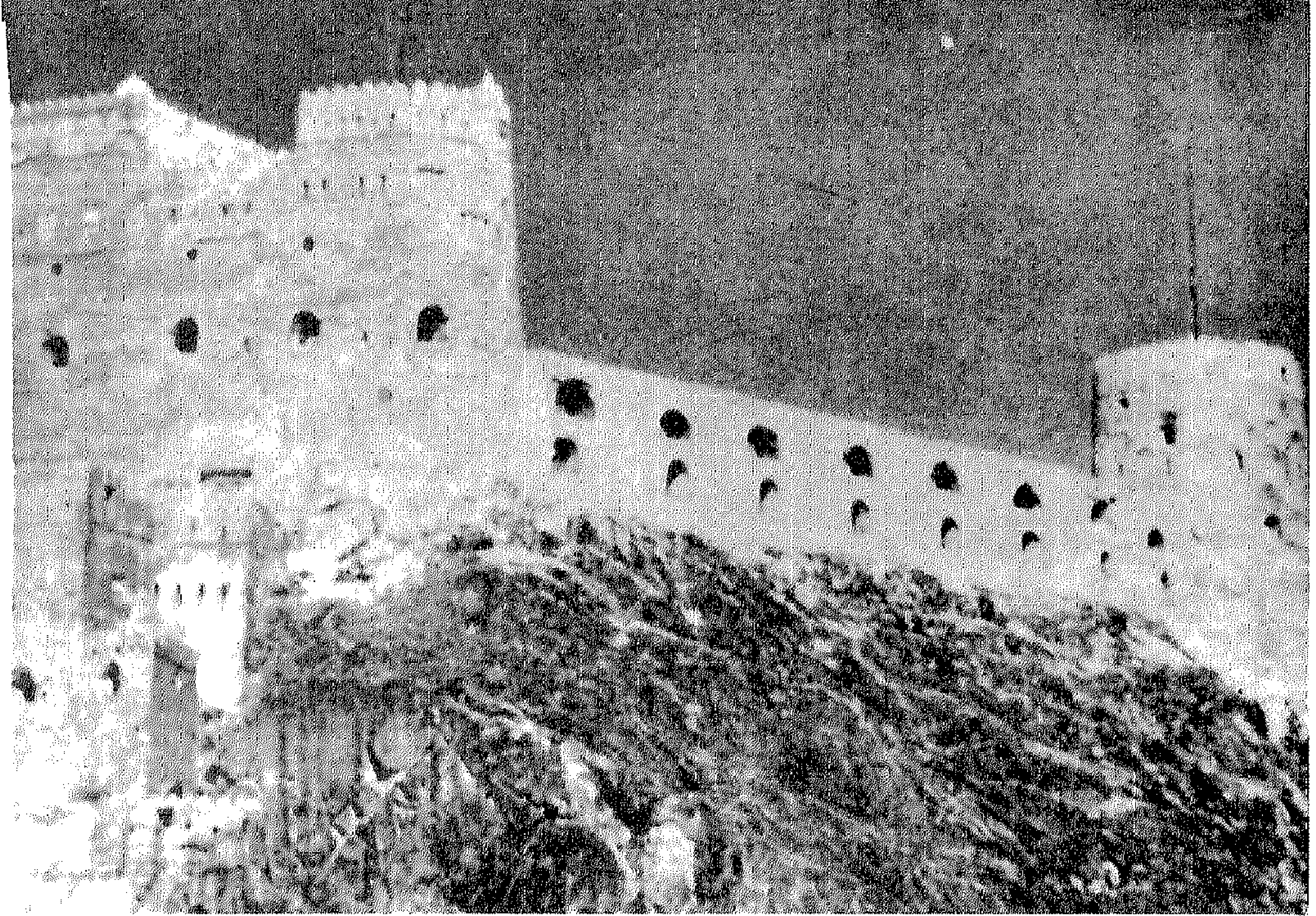
ولكن في مطلق الأحوال، فلقد أعطتنا الجزيرة الجديدة إثبات آخر عن مدى فعالية القوى الخفية تحت سطح الأرض وعن مدى قوة تأثيرها على سطح كوكبنا. كما أنها قد أعطتنا دروساً قيمة عن كيفية تجمع العناصر الحية لكي تنشىء فيما بينها مجتمعات جديدة.

وأخيراً، فلقد أثبتت «سورتسي» (Surt-Sey) بأن الحياة هي أقوى بكثير من أن تقمع.

المرجع: (John Sanders) (The world' s Greatest wonders). P.P. 24—27 — ■

الإمام ناصر بن مرشد اليعربي وتحرير عُمان من البرتغاليين

أحمد يوسف عبيلي



قلعة الميراني، بناها البرتغاليون وهي آخر موقع دافعوا عنه.

لعمان طبيعة جغرافية، فهي عبارة عن منطقة تحيط بها الصحاري الواسعة المقفرة من ثلاث جهات، ويحدها البحر من الجهة الرابعة. وتمتد في البلاد سلسلة جبال الحجر الشديدة الوعورة. ولقد أدى هذا الوضع الجغرافي الى أن ينظر العمانيون الى البحر كمورد رزق، فاستغلوا موقع بلادهم على الحدود الشرقية لينشطوا كملاحين فوق أرجاء المحيط الهندي الفسيح. ولقد كانوا المبرزين في هذا المجال غير أن الوضع قد أدى الى انعزالهم النسبي عن بقية ارجاء الوطن العربي. ولقد وجد المذهب الاباضي ملجأه في عمان وشاركهم في هذا المذهب بعض العرب من أهالي المغرب. وحينما قدم البريطانيون وسيطروا على عمان حاولوا ان يجعلوا من عزل عمان منهجاً ثابتاً لهم.

ولقد أدت هذه العزلة النسبية الى عدم تمكن المواطن العربي وفي احيان كثيرة المثقف العربي من الاطلاع وبشيء من التفصيل على مسار التاريخ العماني. وسنروي هنا باختصار سيرة أحد الأبطال العمانيين الذين ساهموا بتحرير عمان من السيطرة البرتغالية، فاحتل موقعاً نضالياً قومياً جنباً إلى جنب مع كل ابطال الامة العربية. تلك هي سيرة الإمام ناصر بن مرشد اليعربي.

عمان قبل مجيء الامام ناصر بن مرشد:



لا يزال تاريخ عمان في الفترة التي سبقت مجيء البرتغاليين غير واضح. ففي هذه الفترة وقعت البلاد ولمدة قرون تحت حكم الملوك النبهانيين، وهم الحكام الذين سقطت عمان في عهدهم تحت السيطرة البرتغالية. والملاحظ أن المراجع حول هذه الحقبة قليلة.

كان الامام الأول الذي انتخب في عمان هو الإمام الجلندي بن مسعود. كان الإمام هو الزعيم الروحي والحاكم الزمني الذي ينتخبه من يطلق عليهم «الشراة»، أي الذين اشتروا آخرتهم بدنياهم. ولم يكن الحكم وراثياً، وكان بالامكان اسقاط الحاكم[1]، إذا ما ارتأى الناس وبالذات المبرزون من رجال الدين ذلك. ومرت عهود لم يقم فيه حكم الائمة في عمان، واستطاع النبهانيون أن يسيطروا على السلطة ويعلنوها ملكية. وفي السنوات الأخيرة من حكمهم تدهورت الاوضاع وسقطت بعض أجزاء عمان الساحلية تحت السيطرة البرتغالية في بداية القرن السادس عشر.

ولقد وصل التدهور في عمان حداً فظيعاً، وبالذات حين وقعت البلد في مهاوي التفكك السياسي وانعدام الوحدة. وتصف الكاتبة عايشة السيار في كتابها عن اليعاربة هذه الحال قبل مجيء ناصر بن مرشد في عام ١٦٢٤ على النحو التالي ونقلاً عن قدامى المؤرخين العمانيين القدامى:

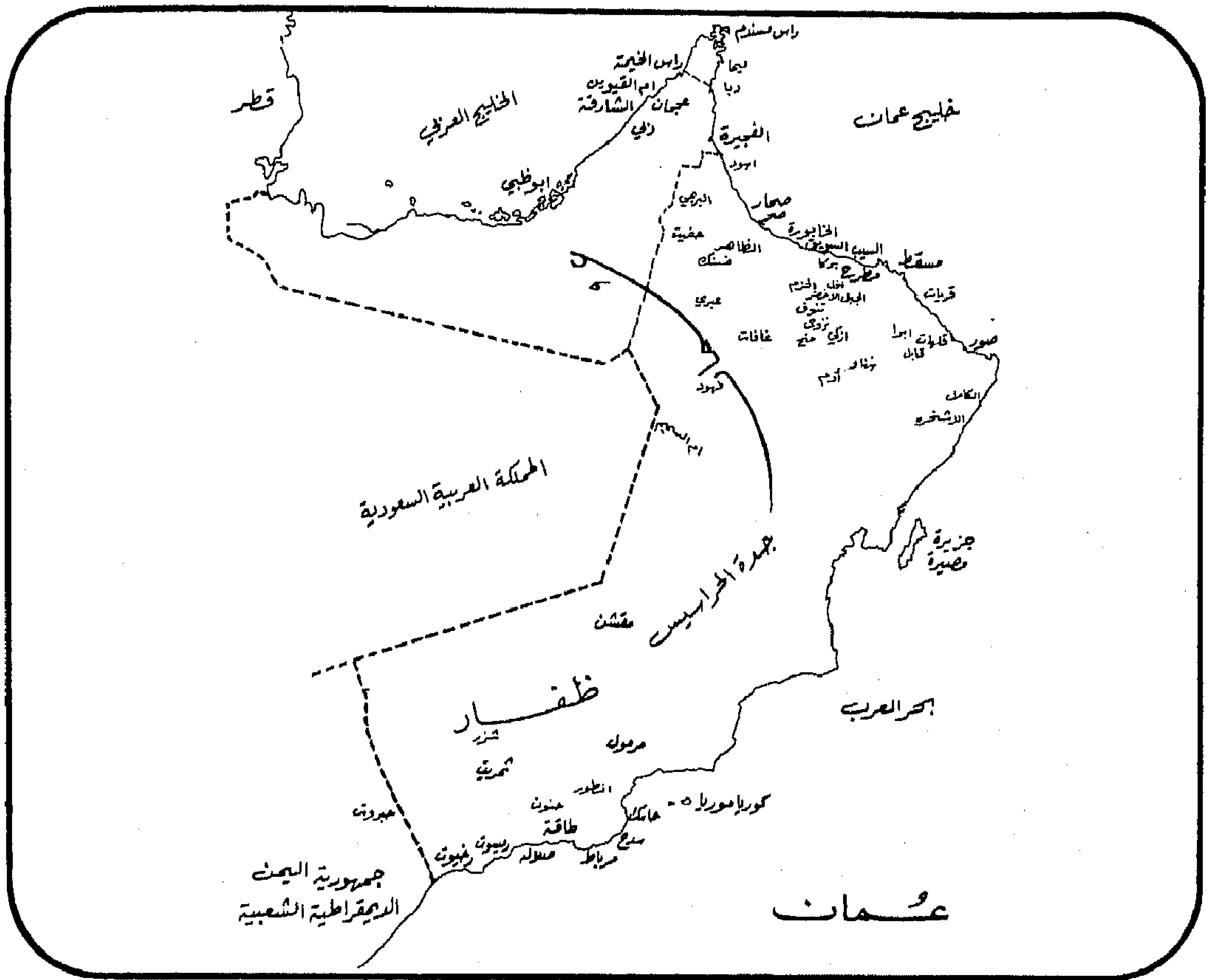
«كانت عمان عند توليته مقسمة الى مدن ومناطق على كل منها ملك أو حاكم، فالرستاق يحكمها مالك بن أبي العرب اليعربي. والنخل يحكمها سلطان بن أبي العرب وسمائل مانع بن سنان العميري وسمد الشان علي بن قطان الهلالي، اما عبري فيحكمها محمد بن حفير بن جبر، اما منطقة أزكى، فقد كانت تحت سيادة أهل الفكر، ومنح تحت سيطرة الجبابرة وبهلي وبلادست كانتا خاضعتين لسيف بن محمد الهنائي، والجابي وحصون تام كانت تحت نفوذ بني هلال، وبات ومقنيات كانتا خاضعتين لسيف بن محمد... ومنطقة جلفار كانت تحت تصرف شخص فارسي يدعى ناصر الدين، أما صحار ومسقط وقريات وصور فقد كانت تحت السيطرة البرتغالية»[2].

■ لقد كانت سيطرة البرتغاليين على الخليج شاملة. ولكنها بدأت في الضعف والتهاوي وبالذات منذ بداية القرن السابع عشر وذلك بسبب نضالات ابناء المنطقة وبسبب عوامل ضعف داخلية تعود الى البرتغال نفسها، وايضاً بسبب قدوم قوى أوروبية جديدة تمثلت في البريطانيين والهولنديين الذين أخذوا بانتزاع المستعمرات من تحت السيطرة البرتغالية. ولقد شكل العرب والفرس قوة مشتركة لمقاتلة البرتغاليين. وبحلول أعوام ١٦٢٠ - ١٦٢٢ كانت مهمة تحرير المنطقة بضفتيها العربية والفارسية قد انجزت باستثناء منطقة عمان، فبقي على ابنائها أن يخوضوا النضال ضد البرتغاليين منفردين وخاصة بعد أن كان الفرس قد حققوا اهدافهم وبعد أن بدأ التردد في أوساط الاستعماريين الانجليز في وقوفهم ضد البرتغاليين. بيد أن المصدر الأساسي لضعف العمانيين بقي في انعدام الوحدة الوطنية في أوساطهم، وهذا ما بقي متوجباً عليهم أن ينجزوه.

انتخاب ناصر بن مرشد إماماً:

في العام ١٦٢٤ تم انتخاب ناصر بن مرشد اليعربي كامام لعمان. وانحصرت سيطرته الفعلية حين انتخابه على قسم من منطقة الرستاق، ومن هذا الجزء انطلق واستولى على بقية ضواحي المدينة ثم تقدم الى منطقة نخل فأسقطها، ولقد تم كل ذلك بمساعدة قبائل اليحمد. ولقد أدت هذه الانتصارات الى تدعيم مركز الامام في الرستاق ونخل، حيث اتخذهما قاعدة للاستقرار وتجميع الانصار، كما أن سكان المناطق المجاورة بدأوا يحولون انظارهم الى الإمام سواء بباعث الرهبة من قوته المتنامية أو بباعث الرغبة في الالتجاء الى حمايته.

لقد اعتمدت عمان خلال الاف السنين



على دورها الملاحي للتنقل بين الهند والصين وجزائر اندونيسيا من جهة، وبين بقية المنطقة العربية ومنها إلى بقية مناطق العالم من جهة أخرى. لذلك فأنها أصيبت بضربة كبيرة حين أستولى البرتغاليون على موانئها. وكان تأثير انهيار الدور العماني شاملاً لكل المناطق والطبقات والفئات المختلفة. ولقد كان للرغبة في استعادة هذا الدور تأثير اجتماعي بالغ لخلق الأرضية للنضال ضد البرتغاليين.

في ظل هذه الأجواء جميعاً أسقط الامام سمائل ونزوي، وفتح منح وسمد الشأن وأبرا ثم أسقط الظاهرة وعبري وحصن بات وفتح منطقة الجو وليو. وبذلك تغلب العرب على المشكلة التي مكنت البرتغاليين من الاحتفاظ بحامياتهم وهي مشكلة التفكك السياسي، فلقد «سلك ناصر بن مرشد سياسة نضالية نشطة، خططت لتوحيد كل العمانيين، حيث صرف السنوات الأولى من حكمه في حملات الداخل لتحقيق هذه الوحدة. وتكللت جهوده، بعد بضع سنوات، بالقضاء على معارضيه من القبائل النزارية»(٣). وفي عمان كان الانقسام الى قبائل نزارية وقحطانية ذا تأثير بالغ سحب نفسه الى القرن الحالي.

لقد غدا من الضروري لانجاز مهمة توحيد القبائل العمانية والمناطق المختلفة في عمان، تحقيق حد كبير من التعبئة في صفوف الناس، وكان العامل الديني هو الذي يؤجج عواطف الناس ويعبئهم ويوحدهم. وهكذا جاء قيام الاسرة اليعربية ومواجهة البرتغاليين مرتبطاً أشد الارتباط بأحياء الامامة واختيار

الامام ناصر بما يملكه من قدرات سياسية وعسكرية وصفات شخصية مثل النزاهة والشجاعة والحسم. بل أن المؤرخين العمانيين قد نسبوا له القدرات والكرامات الفائقة.

قتال البرتغاليين:

يشير ابو التاريخ العماني، المؤرخ الضرير، عبد الله السالمي، أنه حين قصدت



الفونسو البوكيرك، القائد البرتغالي الذي فتح الخليج في بداية القرن السادس عشر.

حملة الإمام لوى صار البرتغاليون يساعدون المحاصرين، مما جعل قائد الحملة يقاتل صحار أولاً ويعود بعد ذلك لاسقاط لوى[٤]. وكان ذلك هو الاحتكاك الأول.

لقد حدث أول تصادم مباشر بين الجانبين حينما قام القائد العماني الشيخ مسعود وقائد قوات الإمام، بالاشتباك مع البرتغاليين في مكان يعرف بطوي الرولة. ولقد استبسلت قوات الإمام استبسالاً عظيماً واستطاعت أن تلحق بالبرتغاليين هزيمة قاسية، وهدمت عدداً كبيراً من الأبراج والمباني التي كان البرتغاليون يتحصنون فيها بالاضافة إلى قتل عدد كبير منهم، إلا أن ذلك لم يؤد الى سقوط مسقط في يد العرب. ولكن المعركة انتهت بعقد معاهدة صلح كانت شروطها في صالح العمانيين ومن هذه الشروط أن يتنازل البرتغاليون عن كل الأراضي والمباني التابعة لهم في صحار ويعامل البرتغاليون العمانيين معاملة حسنة في مسقط ومطرح، وأن يدفع البرتغاليون جزية سنوية للإمام. ولم يغادر الشيخ مسعود موقعه حتى جمع الضريبة منهم[٥]. ولقد وضع هذا الصلح الأساس الحقيقي للقضاء على مجمل الوجود البرتغالي في عمان. ولقد أصبح البرتغاليون في موقف الدفاع بعد أن ظلوا لعشرات السنين في موقف الهجوم. كما أن اصرار العمانيين على أخذ الجزية كان بمثابة تأكيد للسيادة العمانية وجعل البرتغاليين في موقع التابع. وبالطبع كان لهذا النصر العظيم أثره الكبير في نفوس العمانيين حيث شجعهم على مواصلة مسيرتهم لتحرير أراضيهم وتخليصها من الاعداء.

بعد هذا الانتصار توجه العرب إلى رأس الخيمة وهي التي كانت تعرف بجلفار ويطلق على عموم منطقة الساحل هناك اسم الصير، وكانت تتواجد فيها قوات برتغالية وفارسية. وهذه الأخيرة كانت جزءاً من القوات المشتركة العربية - الفارسية التي كونت لمقاتلة البرتغاليين. وتم اسقاط الحصن الفارسي أولاً رغم المساعدة البرتغالية له. وبعد ذلك اسقط الحصن البرتغالي.

وبعد ذلك اعطى الامام توجيهاته لمهاجمة صحار، وأمر قواته أن يكون تركيز اهتمامها في البدء على بناء حصن صحار قبل الهجوم. ولقد عبر ذلك عن تفكير عسكري ثاقب. ولقد استمر بناء الحصن وسط المعارك بل واستشهد اثناء القتال والبناء، قائد عماني بارز، هو راشد بن عباد إلا أن الحصن أكتمل ورابطت فيه قوات الامام. وانطلق العمانيون مرة أخرى لمهاجمة مسقط ونجحوا في عقد معاهدة أخرى يلتزم فيها البرتغاليون مجدداً بدفع الجزية السنوية وتسليم المناطق المحصنة التي يحتلونها في مطرح وضمان حرية التجارة في المناطق التي يسيطرون عليها وعدم التعرض لتجارة العمانيين. وبعد ذلك سقطت صور وقريات.

وفاة الإمام وتحرير مسقط:

في هذه الأثناء وتحديداً في ١٦٤٩م يموت هذا الزعيم الوطني البارز وقد «استولى على جميع عمان إلا مسكد (مسقط) فقد كان فيها (البرتغاليون) وقد... صالحوا مرتين وما زالوا ينكثون ثم نصب لهم الامام الحرب حتى وهنوا وضعفوا ووهي سلطانهم وتفرق أعوانهم وكاد الموت والقتل يأتي على أثرهم»(٦).

عبر هذا العمل الجليل، والكفاح الدائب الذي خاضه الامام من أجل توحيد عمان وتكتيلها لصب الجهود في المعركة توفرت الامكانية الفعلية للاجهاز على البقية الباقية من النفوذ البرتغالي. وتم إنتخاب الامام سيف بن سلطان اليعربي في عام ١٦٤٩ كإمام لعمان ولقد أخذ على عاتقه مهمة تحرير مسقط، ولم تمض سنة واحدة حتى كانت الجيوش العمانية تدخل مسقط وتنهي الوجود البرتغالي وذلك في عام ١٦٥٠.

■

المراجع

(١) بزواق، عبد الرحمن واخرون. **عمان في المحافل الدولية**. دمشق: دار اليقظة العربية.

(٢) السالمي، الشيخ نور الدين عبد الله بن حميد السالمي. **تحفة الاعيان بسيرة أهل عمان**. القاهرة: مطابع دار الكتاب العربي بمصر، ١٩٦١م.

(٣) السيار، عائشة علي. **دولة اليعاربة في عمان وشرق افريقيا**. بيروت، دار القدس، ١٩٧٥.

(٤) العابد، صالح محمد. **دور القواسم في الخليج العربي ١٧٤٧-١٨٢٠**. بغداد - مطبعة العاني، ١٩٧٦م.

الهوامش

(١) عبد الرحمن بزواق وأخرون، **عمان في المحافل الدولية**، دمشق،: دار اليقظة العربية، ص ٩٧ وما بعد.

(٢) عائشة السيار، **دولة اليعاربة في عمان وشرق افريقيا**. بيروت، دار القدس، ١٩٧٥. ص ٤٧ - ٤٨.

(٣) صالح العابد، **دور القواسم في الخليج العربي ١٧٤٧-١٨٢٠**، بغداد، مطبعة العاني، ١٩٧٦، ص ٣٩.

(٤) الشيخ عبد الله السالمي، **تحفة الاعيان بسيرة أهل عمان**. القاهرة: مطابع دار الكتاب العربي بمصر، ١٩٦١، ص ٣.

(٥) السيار، ص ٥٤ - ٦١.

(٦) السالمي، ص ١٥.



● **لا تضعوا الحكمة في غير أهلها فتظلموها، ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم.**

الامام علي

، يقتحم الانسان ضجيج المجتمع ليغرق فيه أحزانه الصامتة.

طاغور

● **يستطيع كل حاكم أن يقيم لنفسه عرشاً من السيوف والحراب ولكنه لا يستطيع أن يجلس عليه.**

القس أنج

انتشار اللغة العربيّة في افريقيا السوداء

الحلقة الأولى

بقلم: عمار هلال





لقد وقع إختياري على دراسة هذا الموضوع والإهتمام به، بالنظر للواقع التاريخي الذي مرت به اللغة العربية في غرب إفريقيا السوداء منذ الإحتلال الفرنسي لهذا الجزء من القارة.

وفي هذا المقال نحاول أن نكشف العلاقة التي تربط إفريقيا الزنجية بالحضارة العربية الإسلامية عامة، ومدى إرتباط الأولى بالثانية ثقافةً وفكراً ولغةً خاصةً.

وعموماً فهذا المقال يطرح عدة أسئلة تتعلق بوضعية اللغة العربية في غرب إفريقيا ويحاول الإجابة عنها قدر الإمكان، منها: ما هو سبب إضمحلال اللغة العربية في غرب إفريقيا السوداء؟

علماً أن اللغة العربية قد سادت الجزء الغربي من القارة الإفريقية منذ القرن العاشر الميلادي على الأقل.

لماذا لم يكتب للغة العربية في غرب إفريقيا الصمود الكلي أمام التيارات المناوئة لها، كما هو الشأن بالنسبة لأقطار الشمال الإفريقي مثلاً؟ وهل إضمحلت العربية إضمحلالاً طبيعياً، أم هناك من ساعد على إندثارها في القارة السوداء؟ وما هو الدور الذي لعبته الإدارة الفرنسية في ذلك؟

لقد مرت اللغة العربية تقريباً بنفس المراحل التي مر بها الإسلام في إفريقيا السوداء، وانتشرت بإنتشاره وتوطدت أركانها في

القارة بقدمه وأضحت في وقت ما لغة الجماهير يتعامل بها الناس في الأسواق والأماكن العمومية وغيرها، كما كانت ولا تزال في بعض أقطار إفريقيا السوداء لغة التعليم - والإدارة - والسياسة.

وخلال العهد الفرنسي في إفريقيا الغربية نافست اللغة الفرنسية الدخيلة عليها ولكن تفوقت العربية عليها بعدد تلاميذها ومدارسها، وذلك رغم ما بذله الاحتلال الفرنسي لاحباطها وعرقلة مسيرتها الطبيعية.

ولكن لسوء الحظ لم يستمر هذا التحدي الثقافي العربي للإحتلال الفرنسي أمداً طويلاً، ولم تستطع اللغة العربية أن تصمد أمام منافس قوي عنيد مدعم ومهيأ لخوض المعركة منذ زمن بعيد. ولقد ترتب عن إبعاد الثقافة العربية عامة، واللغة العربية خاصة من مجال عملها طردنا نحن العرب ثقافياً وحضارياً ودينيا وفكريا من القارة السمراء، وذلك لإحلال ثقافة وحضارة الغرب محل ثقافتنا وحضارتنا في القارة.

ولقد بدأ هذا «الطرد» منذ سنة ١٩١١ للميلاد، وهو مستمر إلى يومنا هذا يزداد شدة، ووطأة تماشياً مع تطور وتقدم الحضارة العربية الحديثة، ومع أهداف الامبريالية العالمية والصهيونية.

وكل هذا يتم أمام «أعين لا تبصر» وأمام «عقول لا تفقه».

مكانة اللغة العربية في إفريقيا السوداء:

يجمع المؤرخون الغربيون[١] منهم والعرب[٢] على السواء أن الإسلام هو الذي فتح باب التاريخ لإفريقيا السوداء. أما قبل الفتح الإسلامي، فتاريخ إفريقيا السوداء لم يبتعد قط عن ضفاف البحر الأبيض المتوسط، والأحداث التي تعرضت لها القارة لم يصل صداها إلى العالم الخارجي إلا بعد الفتح الإسلامي.

ولا يكاد يكون هناك لتاريخ إفريقيا السوداء من مصادر معروفة غير المصادر العربية. فكتابات عبد الله البكري، والإدريسي، وإبن حوقل، وإبن بطوطة، وإبن خلدون، والعمري، والحسن الوزان، والمسعودي، وغيرهم ظلت إلى وقت قريب تحتل الصدارة وحدها في هذا المجال. وما زالت تحافظ على قيمتها التاريخية حتى وقتنا الراهن. وقد ساهم هؤلاء الرحالة العرب باعطاء معلومات غزيرة عن تاريخ إفريقيا السوداء، إبتداء من القرن الحادي عشر الميلادي.

لقد سادت اللغة العربية إفريقيا السوداء قبل الفترة الإستعمارية بقرون كثيرة. وألف الكثير من الأفارقة الزنوج في شتى ميادين الثقافة والعلوم بهذه اللغة[٣]، وقد أثنى بعض المؤلفين الغربيين على إنتاج الأفارقة باللغة العربية.

ومن هؤلاء العلماء الغربيين الذين أثنوا على إنتاج الأفارقة الزنوج بالعربية السيد أ. شاربونو (A. CHARBONNEAU)، الذي نشر مقالاً[٤] عن الثقافة العربية في السودان إستناداً إلى كتاب - تكملة الدباج - لأحمد بابا التمبوكتي.

وقد أبدى المؤلف دهشته وإعجابه الشديدين بالثقافة العربية في السودان الغربي. ويذكر السيد شاربونو في دراسته هذه ما يقرب من ١٧ عالماً عاشوا بين القرنين الثالث عشر والسادس عشر الميلاديين. وقد تعلم هؤلاء العلماء كلهم إما في مكة أو في المدينة أو في القاهرة وينوه المؤلف بالمستوى الثقافي العالي الذي كان به هؤلاء العلماء الزنوج مشيراً إلى الخدمات الثقافية التي قدمها هؤلاء للحضارة العربية في المنطقة. وفي آخر مقال شاربونو نماذج مخطوطة عن مؤلفاتهم. وهي في أحسن الروعة الأدبية والدقة اللغوية والذوق الفني.

والحق أن اللغة العربية قد إحتلت مكانة مرموقةً بين الزنوج الأفارقة منذ القرن الثالث عشر الميلادي كما أشرنا سابقاً. وتنافس المثقفون الأفارقة لاكتساب مختلف المعارف بهذه اللغة[٥].

يشير إلى ذلك السيدان بيفار وإسكيت[٦]. (BIVAR et ESKETT) اللذان درسا الأدب العربي في نيجيريا وذلك حتى سنة ١٨٠٤.

وذكر المؤلفان عدة أفارقة إستهدوا بانتاجهم الأدبي وذلك مثل البلبعي[٧] ودان مرينا ودان مسانيح وجبريل دغاديس وغيرهم من السودانيين الذين اشتهروا في ميدان الأدب العربي خلال القرن التاسع عشر الميلادي.

ولعل الشيء الذي يثبت المكانة المرموقة التي تتمتع بها اللغة العربية في غرب إفريقيا السوداء، هو أن هناك عدداً هائلاً من الموظفين الزنوج في الإدارة الفرنسية إبان الإحتلال الفرنسي لجزء القارة، والذين تثقفوا ثقافةً فرنسية بحتة عادوا إلى الكتاتيب القرآنية قصد إعادة تربيتهم الدينية الإسلامية.

ويعلق على هذه الظاهرة أحد الكتاب الفرنسيين قائلاً وبالحرف الواحد ما يلي[٨]: «... إننا مهما بحثنا في أوساط المجتمعات في إفريقيا الغربية لا نجد عندها أدنى رغبة في التوجه إلى الثقافة الغربية. ويتضح العكس عندما يتعلق الأمر بالثقافة الإسلامية».

ولقد لعب الطلاب الأفارقة الذين التحقوا بالجامعات العربية في المشرق العربي دوراً هاماً في نشر اللغة العربية بين الجماهير الإفريقية. وقد خصص لهؤلاء في مصر نظراً لأعدادهم الهائلة، بجامعة الأزهر رواق كان يعرف برواق التكرور[٩].

في مدينة سيغو (نيجيريا) أنشأ أحد الشبان النيجيريتين المتخرجين من الأزهر مدرسة عربيةً، كان يلتحق بها حوالي ١٣٠ تلميذاً. وبعد بضع سنوات دهش الفرنسيون عندما سمعوا بعض الشباب يتكلمون اللغة العربية في إحدى طرقات حي ماجندي بسيغو[١٠]

إن جل الباحثين العرب منهم والأوروبيين يتفقون على الرغبة الشديدة التي تحرك الأفارقة الزنوج لتعلّم اللغة العربية، وبالتالي على انتماء الأفارقة إلى حضارة العربية التي عرفوها منذ أزمنة غابرة.

ألا تستحق هذه الرغبة شيئاً من التشجيعات المادية والأدبية من طرف الأسرة الكبيرة العربية؟..

وقد لعبت القبائل الإفريقية دوراً هاماً في ميدان نشر اللغة العربية في غرب إفريقيا، وخاصة منها قبائل الفلان في غينيا وفي فوته جالون. ذلك ما يشير إليه المؤرخ الفرنسي أرنو (Arnaud)، مؤكداً على أنه في سنة ١٩١٢م. كان يوجد حوالي ٢٠ والياً أو مرابطاً بعضهم كانت في حوزته ما يقرب من ٤٠٠ كتاب من أمهات الكتب العربية.

بينما يشير الكاتب الفرنسي فانسا مونتوي[١١] (V. Monteuil) إلى أن عدد الأشخاص الذين يعرفون القراءة والكتابة بالعربية كثيرون في منطقة فوتاجالون بالسنغال. وقد أثبتت الأبحاث أنه في كل قرية من قرى السنغال يوجد حوالي ٢٥ شخصاً يعرفون القراءة والكتابة بالعربية من قبائل التكرور ومثلهم عند قبائل الوولوف، الذين يكتبون لغتهم المحلية بالحروف الأبجدية العربية.

ومما يدل على إنتشار اللغة العربية في إفريقيا الغربية، هو أن عدد المدارس العربية في نيجيريا مثلاً قدر بما يقرب من ٢٥.٠٠٠ مدرسة في سنة ١٩٠٠م. يلتحق بها ما يقرب من ٥٠.٠٠٠ تلميذ.

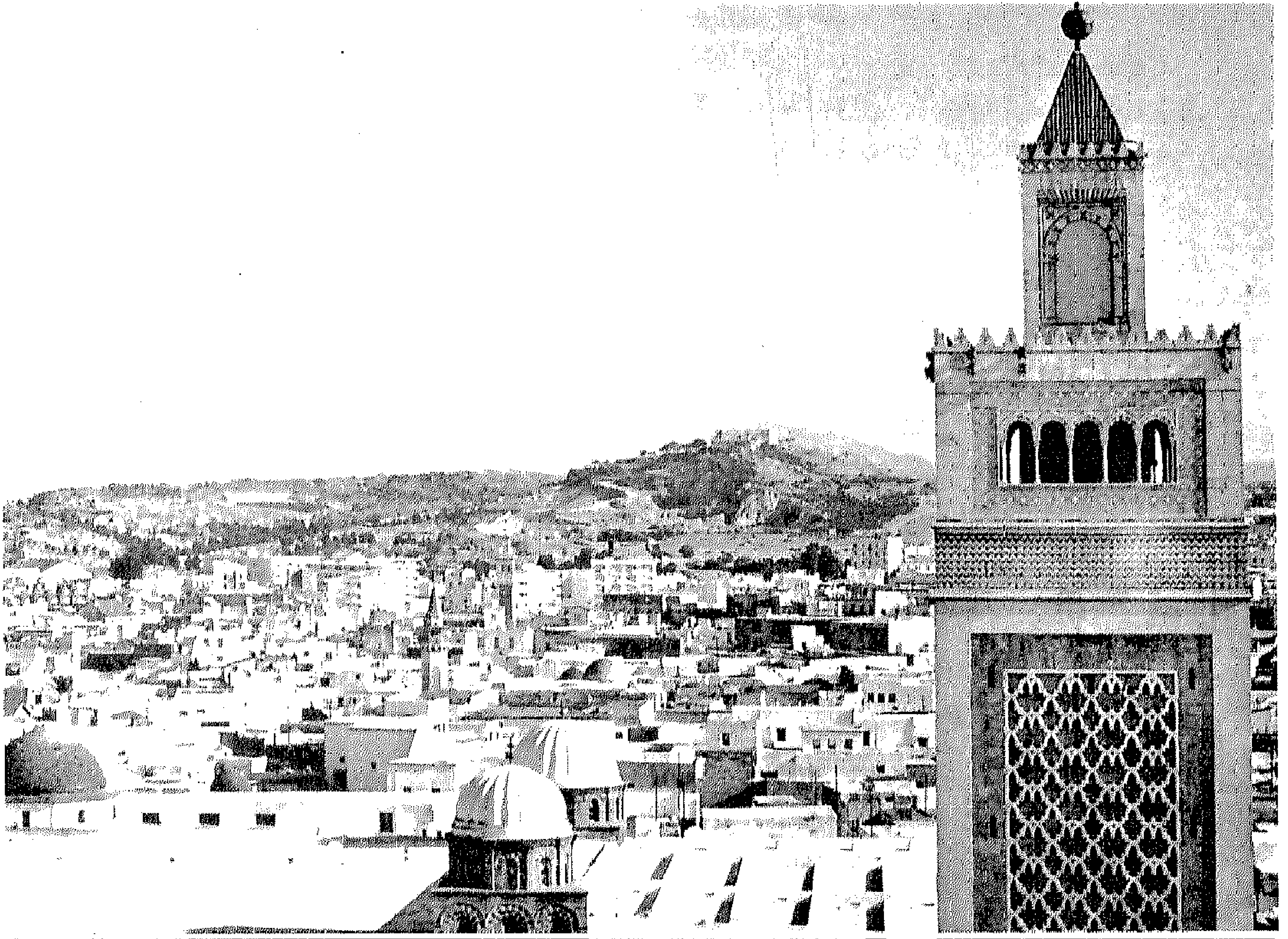
أما عن عدد تلاميذ اللغة العربية في كامل إفريقيا الغربية فقد قدر عددهم في بداية الخمسينات من هذا القرن بما يناهز ٩٤.٠٠٠ من الأطفال، منهم حوالي ثلاث ماية يواصلون تعليمهم العالي خارج البلاد.

وبدون شك فهؤلاء التلاميذ يمثلون عاملاً هاماً من عوامل التقدم الإجتماعي ونشر التعريب في المنطقة.

والحق أن القبائل الإفريقية تهتم إهتماماً بالغاً بتعليم أطفالها الصغار اللغة العربية وذلك في سن مبكرة. ويتولى الأباء هذه المهمة قبل التحاق الأطفال الصغار بالمدرسة العربية.

وعند قبائل الموريطانيين (les Manres) خاصة تتولى الأم تعليم أطفالها الصغار قبل أن يلتحق هؤلاء بالكتاب. فتعلمهم كيف يحسبون الأشياء، وكيف يهجئون الكلمات. وفي سن الخامسة يلتحق الأطفال بالكتاتيب القرآنية بدون إستثناء.

وفي هذه المرحلة يبدأ الأطفال بتعلم الكتابة والقراءة وكيفية النطق وحفظ القرآن. أما في المرحلة الثانية فيلتحقون بالمدرسة العربية، حيث يتلقون تعليماً أرقى من المرحلة الأولى.


جامع الزيتونة

والبنات عادة ما ينتهي تعليمهن في سن العاشرة. وأحياناً يستمر هذا التعليم الديني والقرآني داخل الخيمة. أما الأطفال فيزاولون تعليمهم عادة حتى سن الرابعة عشرة من أعمارهم(١٢).

ويعطي الأفارقة الزنوج أهمية بالغة لحفظ القرآن. ويعاقبون أولادهم أشد العقوبات إذا قصروا في حفظه. يحدثنا عن ذلك الرحالة المغربي ابن بطوطة قائلاً ما يلي(١٣): «... ولقد دخلت على القاضي (يقصد أحد قضاة السودان الغربي) يوم العيد وأولاده مقيدون فقلت له: ألا تسرحهم؟ فقال: لا أفعل حتى يحفظوا القرآن... ومررت يوماً بشاب منهم (يقصد أهل السودان الغربي) حسن الصورة عليه ثياب فاخرة وفي رجليه قيد ثقيل فقلت لمن كان معي: ما فعل هذا؟ قتل؟ ففهم عني الشاب وضحك. وقيل لي: إنما قيد حتى يحفظ القرآن»...

والجدير بالذكر أن الأفارقة الزنوج لا يتعلمون اللغة العربية من الجانب الديني فحسب، بل كذلك يتعلمونها ليندمجوا بواسطتها في نوع من الثقافة والحضارة الراقيتين. ورغم وجود بعض المدارس العربية التي تعطي تعليماً عربياً عصرياً نوعاً ما، مثل مدرسة تمبوكتو وسيغو وغيرهما ببلادهم الأصلية، فالطلاب الأفارقة يطمحون إلى تعليم عربي أرقى بعيداً عن ديارهم في المعاهد الكلاسيكية العربية مثل معهد بوتيليميت بموريتانيا الذي كان يضم في بداية الخمسينات من هذا القرن حوالي ٣٠٠ طالب افريقي قدموا إليه من جميع نواحي إفريقيا الغربية.

أما جامعة الزيتونة بتونس فقد كان يلتحق بها حوالي ٥٥ طالبا قدموا إليها من مالي فقط. ويلتحق بجامعة الأزهر آنيا حوالي ٨٥٩ طالباً من السودان الغربي، و ٦٤ طالبا من التشاد، و ١٤٦ طالبا سنغاليا. وهذا الميل إلى تعلّم اللغة العربية ودراستها لا يقتصر على الأفارقة المسلمين، بل يتعدى ذلك ليضم الفئات الأخرى الأفريقية التي لا تدين بالإسلام(١٤).

أليست هذه الأرقام دليلاً قاطعاً على مدى

تعلق الأفارقة باللغة العربية وتعلمها باعتبارها عاملاً حضارياً لا يتجزأ عن الحضارة العربية التي ينتمون إليها؟.

دور اللغة العربية الحضاري:

لقد مثلت الكتابة العربية لمدة عدة قرون عاملاً حضاريا مشتركا للثقافات المحلية في غرب إفريقيا السوداء. واستعملتها هذه الأخيرة لكتابة لهجاتها المحلية. والمؤكد هو أنه لولا وجود اللغة العربية لبقيت هذه اللهجات مثل السواحلية والحوصية والفلانية وغيرها لهجات شفوية لا كتابة لها.

وقد ساهمت اللغة العربية في إثراء هذه اللهجات المحلية الإفريقية بنسبة ٥٠٪ من المفردات. ومن ثم فقد كانت مساهمة التعريب كبيرة في نشر الحضارة العربية في غرب إفريقيا، وذلك رغم بعض العراقيل التي اعترضت طريقه ورغم النقائص التي إتسم بها[١٥].

ويكمن الدور الثقافي والحضاري للغة العربية في الكتاتيب القرآنية بالدرجة الأولى. إن لهذه الكتاتيب في غرب إفريقيا السوداء آفاقاً واسعة من حيث أهميتها الثقافية والحضارية، وذلك على عكس ما يذهب إليه بعض المؤلفين الغربيين[١٦]. وتكمن هذه الأهمية خاصة في الحفاظ عن التراث الحضاري والثقافي العربي في المنطقة، فضلاً على أنها تشكل أرضية خصبة للدخول في عالم الحضارة العربية بالنسبة للأفارقة الزنوج[١٧].

والمعترف به تاريخيا، أن إفريقيا السوداء بقيت بدون كتابة حتى مجيء العرب إلى جنوب صحرائها. ونقل العرب معهم حضارتهم إلى القارة فساد الإسلام جزأ هاما من البلاد وانتشرت كتابة العربية، والشريعة الإسلامية في القارة. كما أن العرب نقلوا إلى المنطقة بعض الفنيّات ونباتات الأدوية وربطوا إفريقيا السوداء ثقافياً وحضارياً وسياسيا ببقية العالم التي كانت منعزلة عنه سابقاً تماما.

ووجود الامبراطوريات الإفريقية القديمة مثل مالي، وشنغاي، وكنم - بورنو، وحتى المتواضعة منها مثل سلطنات الشرق الإفريقي وغيرها لمدين بالكثير إلى الحضارة العربية، وإلى التنظيم العربي، وإلى اللغة العربية، وللإطارات المسلمة[١٨]، التي ساعدتها على النمو والتطور.

ولعل مما يدل على تأثر الأفارقة الزنوج بالعربية هو أن بعض طلابها قد تيقنوا أخيراً أن الأسماء التي يسمون بها، وكان بعضها يدل على صنم أو تمثال أو غيره، وقد اعطاها لهم أباؤهم تأثراً بنزعة وثنية أو قبلية بائدة أو غيرها، أنها لا تليق بهم، ولا بمقامهم، ولا تتماشى مع ثقافتهم العربية، ومن ثم سعى بعضهم إلى تغيير إسمائهم الى اسماء عربية.

ويشير إلى ذلك السيد مارسيل كارديير في أن أحد الطلاب السنغاليين قد كتب إلى رئيس الدائرة التي ولد فيها من القاهرة حيث كان يدرس هناك، قصد تبديل إسمه الذي إشمأز منه وتعويضه باسم عربي[١٩].

وقد شهدت اللغة العربية إنتشاراً كبيراً في السنغال خاصة بين سنتي ١٩٠٩ - ١٩١٢ الميلاديتين. وقد تعتبر هذه الفترة من أزهى عصور اللغة العربية في البلاد. بحيث تشير الوثائق الرسمية[٢٠] للإدارة الفرنسية إلى أن المدارس العربية بلغت أوجاً كبيراً من الإنتشار في البلاد، وتتوزع هذه الأخيرة عبر ١٨ دائرة أهمها، دكار، لوفا، باؤول، ريفيسلو، سان لويس، وكايور. وقد قدرت الإحصائيات الرسمية الفرنسية عدد تلاميذ المدارس العربية خلال سنة ١٩١٢م. بما يقرب من ١١.١١٥ تلميذا يشرف على تعليمهم حوالي ١.٣٨٥ معلماً. ولا يلتحق من بين هؤلاء التلاميذ بالمدارس الفرنسية إلا عدد ضئيل جدًا يتمثل فيما يقرب من ٦٣٣ تلميذا فقط[٢١].

أليست هذه الأرقام دليلًا قاطعاً على تفوق اللغة العربية على منافستها اللغة الفرنسية في السنغال من جهة وعلى مدى تمسك السنغاليين بالعربية من جهة أخرى.

تلي ملحقات غينية وساحل العاج

إدارة التعليم العمومي
الفنون الجميلة
مديرية التعليم الابتدائي / المكتب الثالث

ملحق رقم 02

وضعية التعليم الابتدائي في المستعمرة الفرنسية
بساحل العاج في نهاية السنة الدراسية 1906/1907 (1)

اسم البلديات او المواقع التي تقع بها المدارس	المدارس الحكومية: عدد المدارس – ذكور	اناث	مختلطة	عدد الاساتذة – معلمون	معلمات	المجموع	عدد التلاميذ – ذكور	اناث	المدارس الحرة: عدد المدارس – ذكور	اناث	مختلطة	عدد الاساتذة – معلمون	معلمات	المجموع	عدد التلاميذ – ذكور	اناث	المجموع: عدد المدارس – ذكور	اناث	مختلطة	المجموع	عدد الاساتذة – معلمون	معلمات	المجموع	عدد التلاميذ – ذكور	اناث
ايدجان	1	-	-	1	1	2	25	-									1	-	-	1	1	1	2	25	-
ابراسو	1	=	-	2	-	2	62	-									1	-	-	1	2	-	2	62	-
لاسو الكبير	1	-	-	1	-	1	48										1	-	-	1	1	-	1	48	-
...ابو	1	-	-	1	-	1	16	-									1	-	-	1	1	-	1	16	-
بندوكو	1	-	=	1	-	1	32	-									1	-	-	1	1	-	1	32	-
كوروجوقو	1	=	-	1	-	1	22	-									1	-	-	1	1	-	1	22	-
أوديني	1	=	-	1	-	1	40										1	=	=	1	1	-	1	40	-
ساساندرا	1	-	-	1	-	1	30	=									1	=	=	1	1	-	1	30	-
مبوعياكرو	1	-	-	1	-	1	10	-									1	-	-	1	1	-	1	10	-
...وى	1	-	=	1	-	1	15	=									1	-	-	1	1	-	1	15	-
بسواسى	1	-	-	1	-	1	15	-									1	-	-	1	1	-	1	15	-
ينقل	11	-	-	12	-	13	315	-									11	=	-	11	12	1	13	315	-

(1) ARCHIVES : S.O.M. Paris - Dossier SENEGAL N°IO

ملحق رقم 01

غينيـــا (تـــابع)

اسم البلديـــات او المواقع التي تقع بها المدارس	المدارس الحكومية: عدد المدارس: ذكور	اناث	مختلطة	عدد الاساتذة: معلمون	معلمات	المجموع	عدد التلاميذ: ذكور	اناث	المدارس الحرة: عدد المدارس: ذكور	اناث	مختلطة	عدد الاساتذة: معلمون	معلمات	المجموع	عدد التلاميذ: ذكور	اناث	المجموع: عدد المدارس: ذكور	اناث	مختلطة	المجموع	عدد الاساتذة: معلمون	معلمات	المجموع	عدد التلاميذ: ذكور	اناث
العدد المنقول	13	3	1	15	6	21	912	117	3	1	-	4	1	5	77	45	16	4	1	21	19	7	26	990	62
كورانسا	1	1	-	1	1	2	72	44										1	-	2	1	1	2	72	44
كنكـــن		-	1	1	-	1	112	21										-	1	1	1	-	1	112	21
بيـــلا	1	-	-	1	-	1	25	-									1	-	-	1	1	=	1	25	-
سمبـــايارا	1	-	-	1	-	1	25	-									1	-	=	1	1	-	1	25	=
كيسى دانقسو	1	-	=	1	-	1	15	-									1	=	-	1	1	-	1	15	-
بـــروادو	-	-	-	-	-	-	-	-	1	-	-	1	=	1			1	-	-	1	1	-	1	5	-
فـــرتاح	1	1	-	1	-	1	45	-			-						1	-	-	1	1	-	1	45	-
ملاحظـــة :	هناك 15 مدرسا ومعرنة فى مدارس غينيا الفرنسية من الاهالى ، زيادة على 34 معلما الذين احصو فى هذه الوثيقة																								
المجمـــوع	18	4	2	21	7	28	1206	182	4	1	-	5	1	6	82	45	22	5	2	29	26	8	34	1288	27

وزارة التعليم العمومي والفنون الجميلة

مديرية التعليم الابتدائي / المكتب الثالث

ملحق رقم 1

وضعية التعليم الابتدائي في المستعمرة الفرنسية بغينيا في نهاية السنة الدراسية : 1907/1906 (1)

اسم البلديات او المواقع التي تقع بها المدارس	المدارس الحكومية								المدارس الحرة								المجموع								
	عدد المدارس			عدد الاساتذة			عدد التلاميذ		عدد المدارس			عدد الاساتذة			عدد التلاميذ		عدد المدارس				عدد الاساتذة			عدد التلاميذ	
	ذكور	اناث	مختلطة	معلمون	معلمات	المجموع	ذكور	اناث	ذكور	اناث	مختلطة	معلمون	معلمات	المجموع	ذكور	اناث	ذكور	اناث	مختلطة	المجموع	معلمون	معلمات	المجموع	ذكور	اناث
كوناكري	13	1	1	5	4	9	215	61	1	1	=	1	1	2	25	45	4	2	1	7	6	5	11	240	186
بوكي	1	1	=	1	1	2	122	34	1	=	=	1	=	1	10	=	2	1	=	3	2	1	3	132	34
فاريكاريا	1	=	=	1	=	1	40	=	=	=	=	=	=	=	=	=	1	-	=	1	1	4	1	40	=
كريديا	1	1	=	1	1	2	101	22	=	=	=	=	=	=	=	=	1	1	=	2	1	1	2	111	22
بوفا	=	=	=	=	=	=	=	=	1	=	=	2	=	2	42	=	1	=	=	1	2	=	2	42	=
فوتوبا	1	=	-	1	=	1	50	=	=	=	=	=	=	=	=	=	1	=	=	1	1	=	1	50	=
اميو	1	=	-	1	=	1	60	=	=	=	=	=	=	=	=	=	1	=	=	1	1	=	1	60	=
ديتيم	1	=	=	1	=	1	70	=	=	=	=	=	=	=	=	=	1	=	=	1	1	=	1	70	=
لابي	1	=	-	1	=	1	78	=		-	=	=	-	=	=	=	1	=	=	1	1	=	1	78	
يون كام كرن	1	=	=	1	=	1	12	=	=	=	=	=	=	=	=	=	1	=	=	1	1	=	1	12	=
بانقانران	1	=	=	1	=	1	66	=	=	=	=	=	=	=	=	=	1	=	=	1	1	=	1	66	=
لقسيري	1	=	=	1	=	1	88	=	=	=	=	=	=	=	=	=	1	=	=	1	1	1	1	88	=
ينقل	13	3	1	15	6	21	912	117	3	1	=	4	1	5	77	45	16	4	1	21	19	7	26	990	162

(1) ARCHIVES : S.O.M. Paris - Dossier SENEGAL N°IO

ملحق رقم 02 مكرر (2)

ســـاحل العلج (تـــابع)

اسم البلديـــات او المواقع التـى تقع بها المدارس	المدارس الحكوميـــة								المدارس الحرة								المحموع							
	عدد المدارس			عدد الاساتذة			عدد التلاميذ		عدد المدارس			عدد الاساتذة			عدد التلاميذ		عدد المدارس				عدد الاساتذة			عدد التلا
	ذكور	اناث	مختلطة	معلمون	معلمات	المجموع	ذكور	اناث	ذكور	اناث	مختلطة	معلمون	معلمات	المجموع	ذكور	اناث	ذكور	اناث	مختلطة	المجموع	معلمون	معلمات	المجموع	ذكور
العدد المنقول	24	-	-	25	1	26	471	-	-	-	-	-	-	-	-	-	24	-	-	24	25	1	26	471
قيديكو	1	-	-	1	-	1	17	-	4	-	-	-	-	-	-	-	1	-	-	1	1	-	1	17
اسيـا	1	-	-	1	-	1	8	-	-	-	-	-	-	-	-	-	1	-	-	1	1	-	1	8
سويري	1	-	-	1	-	1	17	-	-	-	-	-	-	-	-	-	1	-	-	1	1	-	1	17
دابـون	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	4	-	4	120	-	4	-	-	4	4	-	4	120
جاكفين	-	-	-	-	-	-	-	-	1	-	-	1	-	1	62	-	1	-	-	1	1	-	1	62
بسونوا	-	-	-	-	-	-	-	-	1	-	-	1	-	1	9	-	1	-	-	1	1	-	1	9
منسني	-	-	-	-	-	-	-	-	1	-	-	1	-	1	20	-	1	-	-	1	+	-	1	20
باسوم	-	-	-	-	-	-	-	-	1	-	-	1	-	1	25	-	1	-	-	1	1	-	1	25
المجموع	27	-	-	28	1	29	519	-	8	-	-	8	-	8	296	-	95	-	-	35	36	1	37	749

الهوامش:

(١) R. Mauny: les siecles obscurs de l'Afrique
— A. Gouilly: L'Islam en A.o.F.
— V. Monteuil: L'Islam noir.

(٢) العمري سويلم: الافريقيون والعرب
- حسن إبراهيم حسن: الإسلام في القارة الإفريقية
- نعيم قداح: حضارة الإسلام وحضارة أوروبا في إفريقيا الغربية.

(٣) Annuaire de la Société Archéo logique de la Province de Constantine Années 1853-1853 P. 1 á 48.

(٤) Annuaire de la S[t]é Archéo Ch[o]: op., cité, même PP.

(٥) Nigeria Magasime n° 68 12/1961 P. 83 et Suite.

(٦) Nigeria Magasime: op., cité., même PP.

(٧) البلبعي: وهو أصلاً جزائري هاجر إلى نيجيريا مع عائلته وهو طفل صغير واستقر بها إلى أن وافته المنية.

(٨) Marcel Cardaire: L'Islam et le Territoir Atricain — Paris — 1954 P. 11.5.

(٩) د. عبد القادر زبادية: مملكة سنغاي في عهد الأساقيين الجزائر ١٩٧١ ص ١٤٦

(١٠) M. Cardaire: op., cité même P.

(١١) Vincent Monteuil: L'Islam noir Paris 1964 PP.222.223.

(١٢) V. Monteuil: op., cité.,

(١٣) رحلة ابن بطوطة: بيروت ١٩٦٤ – ط/الحديثة ص ٦٩٠.

(١٤) V. Monteuil: L'Islam noir en marche, le Monde, 14-15-Juin 1960.

(١٥) V. Montenil: op., cité.

(١٦) Cf G. Hardy: L'Enseignement au Senégal P.18, A. Gonilly: L'Islam en A.o.F. PP. 221-223.
L. Sonollet: L'enseignement en A. o. F. Paris 1913 P.7510.

(١٧) Afrique et Asie: n[0] 4 1953 P.6

(١٨) V. Monteuil: op., cité, P. 222.

(١٩) M. Cardaire: op., cité P. 116.

(٢٠) Archives: S.o.II. Paris-dossier Senégal No.1

(*) أنظر صورة الوثيقة والتعليق عليها في آخر المقال.

(٢١) Ar Chives: S.O.R. — Paris — dossier Senegal n° 10.

(*) أنظر صورة الوثيقة والتعليق عليها في آخر المقال.



- **من اعترف بجهله فقد انكشف مرة، أما من لم يعترف فقد انكشف مرات.**

- **إن الذي ينتصر على غيره قوي، والذي ينتصر على نفسه أقوى.**

- **إننا لا نرى الأشياء على حقيقتها من حيث هي، بل كثيراً ما نكتفي بقراءة ما عليها من إشارة أو عنوان.**

تاريخ نظم البريد في العالم

ترجمة
قسم التوثيق والأبحاث



فرانسوا دو رشوار يتلقى رسالة والصورة لوحة لجان فوكيه من القرن الخامس عشر مأخوذة من «تاريخ الرومان»



منذ فجر التاريخ كانت عملية ايصال الأوامر إلى الرعايا الشغل الشاغل للملوك والحكام. وقبل الرسائل الخاصة، كانت عملية إيصال الأوامر الرسمية قد ظهرت وظهرت معها طريقة إيصالها إلى اماكن ارسالها مهما كانت طريقة الكتابة سواء كان ذلك على اللوحات أو على الخشب أو على الورق.

وإذا اعتمدنا على المؤرخ اليوناني «ديودور» وهو من صقلية الذي كتب في القرن الأول قبل الميلاد، نجد ان ملوك الاسرة المصرية الثالثة عشرة (التي حكمت لعشرين قرناً قبل المسيح) اقامت نظاماً بريدياً ورد ذكره حتى في التوراة.

يقول «هيرودوت» ان سيروس الكبير ملك الفرس اقام محطات تسمح له بالاتصال برعاياه



ساع ينقل الرسائل سيراً على قدميه.

بكل سهولة وذلك قبل ذهابه للحرب حوالي العام ٥٠٠ قبل المسيح. وفي اليونان كانت المدن متصلة بعضها ببعض بواسطة محطات اتصال وهؤلاء الجدود البعيدون الذين اقاموها يعتبرون نماذج لسعادة البريد اليوم.

في هذا الوقت يدعي البعض أن الفرس كانوا يستعملون الحمام لايصال اخبارهم. وفي الحرب العالمية الأولى حلت الحمائم بكثرة محل هاتف المعركة.

وتجدر العودة إلى تاريخ روما للاحظة وجود نظام بريدي حقيقي ولكنه كان مخصصا في اغلب الاحيان للمراسلات الرسمية. وهذا النظام البريدي الروماني المنتشر في كل انحاء الامبراطورية لم يكن مقصوراً على وصل المدن وتقوية التجارة والسماح للجنود بالانتقال فقط بل إنه كان يستعمل أيضا لنقل اوامر وتعليمات الحاكم وإلى أقصى الاماكن. ويعتبر «اوغست»، وهو الباني الحقيقي لعظمة روما، أول من أنشأ نظاما بريديا.

فلقد انشأ في القرن الأول من التاريخ ما يوصف بأنه (الاتصال الشعبي) وهو نظام شديد التعقيد ووضعه تحت امرة أحد كبار الموظفين. وكانت ادارة هذا النظام مسؤولة أولاً عن عملية نقل رسائل الامبراطور إلى ممثليه وضباطه وعليها بعد ذلك تأمين عملية انتقال الموظفين والسهر على تأمين المواد لفرق الجيش.

وهذه العملية ذات الأهمية البالغة بنظر الامبراطور كان يلزمها عدد كبير من الموظفين. ولأن مبعوثيه يسافرون بسرعة، فقد كانت تلزمهم محطات تنتظر فيها الجياد. وتدعى هذه المحطات (Mutationes) وهي كلمة لاتينية تعني «عملية التغيير». وتقع كل محطة على بعد ستة أو عشرة أميال رومانية (حوالي ثمانية إلى عشرة كلم) عن الأخرى وذلك حسب مصاعب الطريق.

والواقع ان بعض المناطق الفرنسية مثل «مويزون» في «المارن» أو «موديزون» في «الهيروست» تدفع للذكرى في هذا المجال. فنتيجة للحفريات هناك وجدت بعض هذه المحطات التي تميزت بوجود هياكل عظمية لبعض الجياد. ولبعض هذه المحطات الحق به أمكنة للحدادة من أجل حدوات الجياد وأخرى خاصة بمخازن الحبوب. وبالقرب من هذه المحطات كانت توجد منازل تستعمل كفندق وكمكتب بريدي. وكان وجهاء القوم يتولون ادارتها ويعينون لمدة خمسة اعوام. وكانت افضلية الاستقبال تعطى لمبعوثي الامبراطور وبعدهم يأتي استقبال المسافرين العاديين.

كان الساعي النشيط يقطع مسافة ٧٥ كلم يوميا. أي انه كانت تلزمه أربعة ايام ونصف للانتقال من لوتس (باريس) إلى كوندات (رين). ولكن عندما يكون الأمر ذا اهمية كبرى فإنه كان يقطع مسافة ١٤٠ كلم يومياً. وكان المفتشون يتأكدون من حسن سير العمل ويسهرون على توفير كل وسائل العمل للحدادين مثلاً وبشكل جيد.



حتى القرن السابع عشر استخدم اغنياء القوم سعاة. وكان ملك فرنسا يستخدم حوالي المئة والسيد كان يستخدم اثنين أو ثلاثة. وفي العصور الوسطى كان اجرهم اليومي يوازي الخمسة فرنكات للساعي الذي يسير على قدميه وثمانية عشر فرنكاً للساعي الذي يمتطي حصاناً وذلك عن كل ٥٥ كلم.

واغلب الاحيان كان يقام مركز عسكري بالقرب من المحطة لان السعاة كانوا ينقلون، بالاضافة إلى رسائل الملك، اشياء اخرى. وخاصة اموال الدولة واحتمال تعرض هؤلاء لهجمات اللصوص كان وراء اقامة المركز العسكري.

العصور الوسطى:

كان السعاة المكلفون بالتجول في كل أراضي الامبراطورية لا يكتفون بتأدية واجباتهم الرسمية فقط بل كانوا يحملون طوعاً الاخبار التي يحصلون عليها قبل واثناء رحلاتهم.

مبدئياً لم يكن لهم الحق إلا بنقل الرسائل الملكية. ولكنهم كانوا ينقلون الرسائل التي يكتبها الجنود أو يكتبها أحد لهم والموجهة لعائلاتهم. وكان المفتشون يغضون النظر عن هذه المخالفات. وهكذا ساعدت عملية «الاتصال الشعبي» التي اسسها «اوغست» على نقل الاخبار ودامت حوالي ثلاثة قرون. وشيئاً فشيئاً ونتيجة لعمليات الانفصال عن الامبراطورية وللهجمات «الجرمانية» الأولى بدأ هذا النظام يتدهور. وقد توقف نهائياً واندثر في القرن الخامس.

أما شارلمان فأعاد احياء الطريقة الرومانية نوعاً ما. وكان يسهر شخصياً على أن يصل رعاياه وكذلك رسائله وقوانينه إلى كل انحاء مملكته من الشرق إلى الغرب، لذلك جدد الطريقة الرومانية واضاف عليها واقام طرقاً طويلة للاتصالات بين كل من المانيا وايطاليا والغال:

كان السعاة ينقلون اوامر الامبراطور

ويبلغونها للكونتات وهم ممثلوه. ولكن التفكك في السلطة وولادة الاقطاعية وضعا حداً لكل عملية منتظمة. وبقيت عملية نقل رسائل الملك الرسمية واوامره متروكة للمبادرة الشخصية وذلك لقرون طويلة حتى حكم لويس الحادي عشر. وكان الملك له سعاته الخاصون كذلك الكنيسة والجامعة والاقطاعيون. ولم يكن الملك يجد صعوبة في ارسال طلباته كون السلطات الملكية كانت محدودة.

رجال الدين:

كانت الاخبار التي يحملها السعاة تنتقل بسرعة من قرية إلى أخرى وقد يفاجأ المرء لسرعة وصول اوامر السلطة إلى رعاياها في كل انحاء المملكة ولعل هذا المثل قاطع في دلالته: توفي الملك لويس الثامن في قصر «مونبسبيه» في الثامن من تشرين الثاني عام ١٢٢٦. وتقع «مونبسبيه» على بعد ٣٠ كلم من كليرمون فيرا في الاوفرن. وقد ترك ولداً في الثانية عشرة (الملك سان لويس في ما بعد) واورث الحكم إلى ارملته «بلانش دي كاستيل». وقد طلب قبل وفاته ان تقوم الملكة بتتويج ابنها في «رين» في أقرب فرصة.

وفي أقل من ثلاثة اسابيع احضرت جثة الملك لويس الثامن إلى باريس واقيمت مراسم الدفن الرسمية في كنيسة «نوتردام» و «سان دوني». واستدعي كل بارونات المملكة إلى رين في السابع والعشرين من الشهر نفسه. وجاء الجميع بملابس مهيبة في الخامس والعشرين وبعضهم عرج على «سواسون» حيث كرس الوريث فارساً.

هذا المثل يشير إلى انه رغم وضعية طرق المواصلات فان التنقل كان يسير بسرعة منذ القرن الثالث عشر.

وقد ساهمت الكنيسة في ذلك إلى حد كبير. فلم يعد رجال الدين يلتزمون معابدهم. إذا كان من الضروري اقامة الاتصالات مع معابد اخرى عند حصول حدث مهم: وفاة قسيس أو أحد المبشرين أو انتخاب خلف له. واتسعت الاتصالات بين رؤساء المعابد

واستفاد التاريخ من ذلك. واصبح رجل الدين المنقول من معبد إلى آخر ينقل معه الاخبار. وهكذا توسعت شيئاً فشيئاً صفحات تاريخ المناطق.

الجامعة تنظم بريدها:

وكان هناك التجار أيضاً والحجاج... والشعراء. ولأن الطرقات لم تكن آمنة بسبب اللصوص الذين غالباً ما يهاجمون المسافر الوحيد فإن التجار كانوا يشكلون مجموعات تتوجه لزيارة المعارض من مدينة إلى أخرى. ويسهرون على البضائع وينقلون برضا تام رسائل زملائهم والاجوبة عليها. وفي المساء كانوا يتبادلون وينقلون ما يكونون قد سمعوه. وكان أصحاب المهن يتناقلون المراسلات وأحيانا الرسائل المصرفية. وهذه الطريقة القديمة ما زالت متبعة حتى اليوم.

وهكذا نرى ان طرق فرنسا لم تعد صحراوية وكان يستعملها الحجاج وكل مسيحي عليه القيام برحلة ولو مرة واحدة في حياته.

وطريقة اخرى لنقل الاخبار. لم يكن الحجاج أو المجندون في الحملات الصليبية يرسلون أي خبر. كان الذهاب إلى الحرب يدوم أحيانا ثلاث أو أربع سنوات. وكانت المرأة تبقى دون أخبار من زوجها طوال ذلك الوقت. قد يخبرونها بوفاته فكانت تتزوج على الفور لأن المرأة لا تستطيع البقاء بدون رجل ولو لبرهة. والزوج الاسير من الاعداء يعود بعد سنوات طويلة فلا يتعرف عليه أحد غير كلبه.

قصص كهذه دخلت عالم الاغنية. وكانت هذه الأغاني تروى على نزلاء القصور والفنادق لتسليتهم. وكان بعض هؤلاء النزلاء يضخم الأخبار.

كان الملك يحتفظ بسعاته لارسال رسائله إلى ممثليه. أما الكنيسة والتجار فكانت رسائلهم المتبادلة محدودة. أما شرف اقامة خدمة بريدية منظمة في العصور الوسطى فيعود لجامعة باريس.

ولانها تملك تماثيل منذ بداية القرن الثالث عشر وكانت فخورة بالاساتذة الذين



ساعي العلب البريدية عام ١٨٥٣. ١.٨ه يمر يومياً على العلب في باريس وفي التجمعات السكنية الكبيرة. وفي بعض المقاطعات يوزع البريد مرة في الاسبوع.

يقومون بالتدريس في كلياتها فقد اتجه مئات من الطلاب ناحية جامعة باريس. كانوا يأتون من فرنسا وأيضاً من انكلترا والمانيا واسبانيا.

كانت الدروس تستغرق وقتاً طويلاً وكانت جعبة الطلاب تخوي في مدة قليلة. بالنسبة للطلاب الذين تسكن عائلاتهم في «جزيرة فرنسا» أو في الضواحي القريبة كانوا يستطيعون تدبير امورهم ثم الذهاب لتمضية العطلة المدرسية في منازلهم. ولكن ذلك لم يكن مستطاعا بالنسبة للذين اتوا من اماكن بعيدة وعليهم تمضية عامين أو ثلاثة اعوام في باريس. كيف العمل؟.

تنبه المسؤولون في الجامعة لهذا الامر وحصلوا من الملك ومن البابا على الاذن باقامة نظام بريدي يسمح للطلاب بمراسلة ذويهم وبطلب المعونات المالية... وهذا النظام الذي انشىء حوالي العام ١٢٣٠ وضع تحت امرة عمداء الجامعة وكان هؤلاء اشخاصا مرموقين ملحقين بالجامعة ويستفيدون من امتيازاتها.

كان العمداء يوجهون السعاة. وكان هؤلاء ينقسمون إلى فئتين: فئة السعاة الكبار الذين كانوا ينقلون الطرود الكبيرة بتواريخ محددة ويعودون بالمال والرسائل. وفئة صغار السعاة الذين كان عليهم تأمين الاتصال بالمناطق القريبة وكانت مهمتهم الرئيسية نقل الحقائب ومرافقة الطلاب.

وهذه الميزة التي انفردت بها جامعة باريس امتدت إلى كل جامعات المملكة وعاشت حتى عام ١٧١٩.

لويس الحادي عشر:

هذا النظام البريدي وهذا الانتشار للاخبار كان يشكل عاملاً سيئاً وغير كاف ولا يمكن الاستمرار به. وتغير هذا النظام كليا بعد حرب المئة عام واستعادت الدولة سلطاتها عليه. وقد قرر لويس الحادي عشر النهوض باقتصاد فرنسا ورأى ان التجارة والصناعة لا يمكنهما ان يزدهرا إذا لم يكن هناك نظام بريدي بشكل منتظم. وهكذا صدر الأمر الملكي بانشاء «البريد الملكي» في التاسع من تموز عام ١٤٦٤.

كان الهدف مزدوجا: نقل الرسائل واخبار الملك عن كل ما يجري في مملكته. «نريد معرفة اخبار كل المناطق والاعلام عندما نريد باخبارنا». وذلك واضح تمام الوضوح. وهكذا انشئت على الطرق الرئيسية اماكن بريدية بين

الواحد والآخر ١٦ كلم. كانت توجد فيها احصنة «جاهزة وسريعة» مخصصة لناقلي أمر ملكي. وإذا مرَّ أحد الاجانب يجب ان يختم جواز سفره. وكان رؤساء هذه الاماكن البريدية أشخاصاً ذوي أهمية يعينهم الملك ويكونون بتصرف رئيس مكاتب البريد في فرنسا. وكانوا يتقاضون مرتباً مقطوعاً يبلغ «عشرة قروش» (نصف ليرة) لكل ١٦ كلم مقطوعة. وكانت المكاتب على مفترقات الطرق إذا كان ذلك ممكناً.

استقبال الرسائل الخاصة:

وطالت مدة تنظيم المحطات لانه كان يجب اصلاح الطرق أولاً. «وشيئاً فشيئاً» اصلحت جميعها. وبعد ان كانت مخصصة لاستقبال البريد الرسمي انتهت بالتعامل مع الرسائل الخاصة. يومها وجدت إدارة البريد ولم تتوقف عن التطور إلا في نهاية «النظام القديم».

واصبح مطلوباً تنظيم ادارة بريدية في كل ناحية من انحاء المملكة لان الرسائل الخاصة بدأت تتكاثر.

ورغم ذلك كانت الانباء تنتشر بسرعة قصوى. فانباء مجزرة سانت باتيليمي (٢٤ آب ١٥٥٢) وصلت إلى «مو» مساء اليوم الدامي نفسه. وانتشر الخبر في «الوتسون» في اليوم الثاني مما ساعد حكام المناطق على عدم انتظار رسل الملك لاتخاذ الاحتياطات للدفاع عن المهددين.

ولكن عملية نقل الرسائل الخاصة بقيت خاضعة لامزجة رؤساء اقسام البريد، ولكن هنري الثالث الذي كان دائماً بحاجة للمال وجد في عملية نقل الرسائل الخاصة مورداً مهماً لخزينته.

وهكذا اصبح الملكيون ينقلون الكتب القانونية التي ترسل لرجال القانون ثم بدأوا بنقل الرسائل الخاصة مقابل رسم. وتلقى «الساعي الملكي» أجراً بالسهر على حسن سير العمل. ويعود ذلك إلى عام ١٥٧٦.

وقد قام بعد ذلك هنري الرابع ولويس الثالث عشر بتحسين الوسائل القانونية، فالأول اهتم بتحسين الطرقات (مما ساعد عمليات التهريب) وهنري الرابع انشأ مركز مراقبة البريد ووضع على رأسه أحد تابعيه المخلصين

وبالاضافة إلى مكتب باريس فتحت مكاتب في المدن الكبرى. بوردو، ليون، تولوز ومارسيليا. وكان على سعاة الملك الذين لقبوا باسم راكبي الأحصنة الملكيين، الذهاب والاياب في أوقات محددة. ولكن يجب تقدير ظروف الطريق.

عام ١٦٢٦ وضع نظام التوقيت. وقد منع على موظفي البريد قبول الاكراميات واستغلال المكاتب لارسال الذهب والأحجار الكريمة؟ كما لم يعد مسموحاً ارسال النقود إلا بحدود مائة ليرة.

واهتم «ريشيليو» بمحتويات الرسائل المرسلة بالبريد. واوجد بذلك أول نظام مراقبة «المجلس الأسود» الذي دام حتى قيام الثورة مما جعل مركز كبير مفتشي البريد يتحول إلى مركز سياسي. وفي القرن الثالث عشر أسند في اغلب الأحيان إلى الوزير الأول.

ووجدت أيضاً الخدمات الخاصة لأن الدولة لا تملك وسائل النقل. وفي ١٦٨٠ أصبح الناقل الرئيسي للبريد صاحب الامتياز الخاص بذلك ولكنه لم يستطع تطبيقه. ولزيادة الواردات قرر اضافة أشياء المسافرين وحاجاتهم إلى عملية نقل الرسائل.

من باريس إلى تولوز:

«الجري كالبريد»!

انتشرت هذه العبارة للتدليل على الخدمة السريعة. وبالفعل كانت العربات الخفيفة ذات العجلتين تسير بسرعة. كانت هذه العربات عالية وتستفيد من ارتفاع بلاط الطرق. أي انها تسير في الوسط العالي للشارع. كانت تسير ليلاً نهاراً ولا تتوقف إلا لتبديل احصنتها والسماح لركابها بتناول الطعام.

كانت هذه العربات تقطع المسافة في وقت اقل مما تستغرقه العربات الملكية الثقيلة بمرة أو مرتين. وإذا اعتمدنا دليل المسافر الفرنسي الصادر عام ١٧٧٠ فإن العربات البريدية



داخل أحد مكاتب البريد المصغر الذي اقامه «شاموسيه» عام ١٧٦٠ وتمثل عملية فرز الرسائل في علب مختلفة واسطة السعاة وباشراف رئيسهم.

الملكية كانت تلزمها ثمانية أيام وخمس عشرة محطة للذهاب من باريس إلى تولوز (من الأربعاء صباحاً إلى الخميس من الاسبوع التالي)، بينما كانت رحلة العربات الخاصة تستغرق أربعة أيام فقط. وقد أظهر الدوق سان - سيمون اعجابه بوسيلة النقل هذه عندما استعملها للذهاب إلى اسبانيا كسفير عام ١٧٢١. وفي القرن الثاني عشر اخترع «كرسي البريد» ذو الأربعة مقاعد والذي يسير بطيئاً... ويكلف غالياً.

ولم يكن يكفي تنظيم عملية ارسال البريد إلى المناطق. ففي مدينة كبرى كباريس يجب الاهتمام بعملية نقل الرسائل إلى داخل المدينة. وهكذا انشىء عام ١٦٥٣ «البريد المصغر».

كان ساعي المناطق يسلم الرسالة إلى أحد المكاتب الداخلية الذي يقوم بتسليمها لصاحبها



ساعي بريد من القرن الثامن عشر ينادي مواطناً لتسليمه رسالته.

مقابل رسم. ويعطي للمرسل ايصال دفع يمكن اعتباره اساس الطابع البريدي. ولكن العملية لم تنجح واختفى «البريد المصغر» من الوجود.

العلب البريدية:

لتبادل الرسائل استعملت وسيلة بسيطة جداً. ففي زوايا الطرق كان صغار القرويين يقومون بأعمال مختلفة. وبمجرد إشارة كانوا يركضون لنقل الرسائل مقابل مبلغ بسيط يدفعه المرسل ومبلغ آخر يدفعه المرسل إليه: فائدة مزدوجة.

وكانت الطريقة ملكية نوعا ما. ففي عام ١٧٥٩ كلف الملك لويس الخامس عشر السيد شاموسيه باعادة تنظيم «البريد المصغّر». واقيمت علب بريدية في الساحات وكلف موظفون بادارتها. وكان ذلك سببا لقطع معيشة القرويين الصغار ولاغضابهم. فقاموا بوضع مواد ذات رائحة كريهة داخل هذه العلب. وقام شاموسيه بتوظيفهم في جهازه. وهكذا رضي الجميع وسادت عملية العلب البريدية برضا الجميع.

وفي بداية عهد لويس السادس عشر، قام «تورغو» بانقلاب جذري وذلك بدمج مكاتب البريد المتنقلة ومكاتب الخدمات البريدية في مؤسسة حكومية. وتحسنت طرق إيصال الرسائل. وعشية الثورة لم يعد يلزم للرسالة أكثر من ٢٤ ساعة من باريس حتى أورليانز أو «رين» أو إلى «روان».

ولكن نقل الأخبار مع راكبي الاحصنة كان يتم بسرعة اكبر. ونقدم هنا مثلاً أخيراً وثابتا: سقط الباستيل في الرابع عشر من تموز ١٧٨٩. وفي السادس عشر منه، أي بعد أقل من ٤٨ ساعة على هذا الحدث، كتب قسيس احدى الكنائس الصغيرة في منطقة «سومور» وتبعد ٣٠٠ كلم عن باريس في سجله ما يلي:

«١٤ تموز، يوم تاريخي في فرنسا وقد تكون باريس بأكملها قد دمرت. ولكن الاحتياطات الحكيمة التي اتخذها الفرنسيون اجهضت كل المؤمرات وذلك باستيلائهم على مخابىء الأسلحة والانفاليد والباستيل».

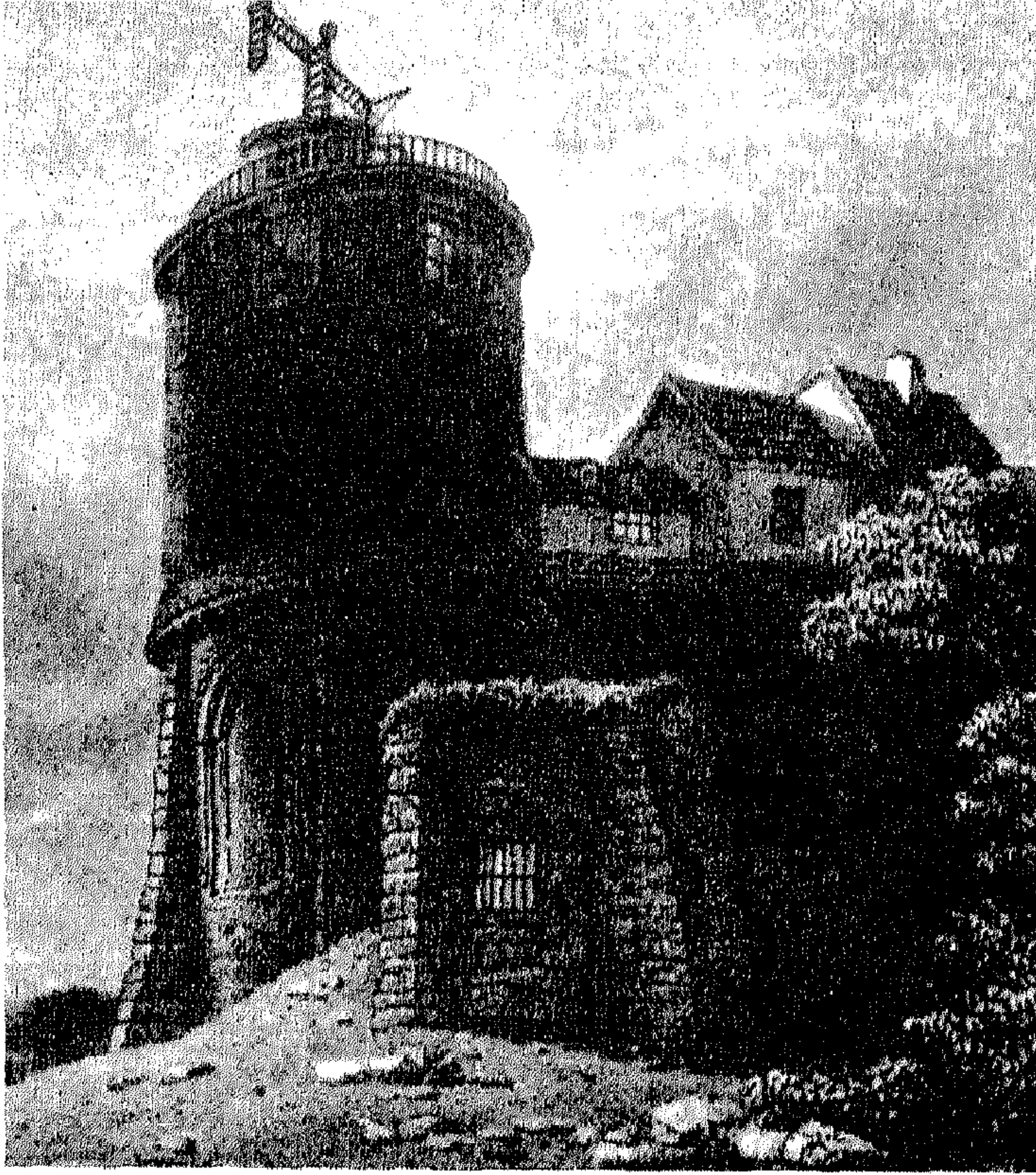
وهكذا نرى ان هذا الحدث التاريخي عرف في قرية تبعد ٧٥ مركزاً عن العاصمة في أقل من ٤٨ ساعة. وهذه السرعة في نقل الاخبار تفسر أسباب «الخوف الكبير». وهي ضجة انتشرت في فرنسا كلها تعلن أن فرقاً اجنبية تستعد لمهاجمة البلاد لاعادة الاوضاع إلى نصابها.

تلغراف شابيه:

في بداية أيلول عام ١٧٩٢ لم يفاجأ سكان قرية «بيلفيل» عندما شاهدوا عمالاً كثيرين يدخلون قصر «مانيلمونتان» ويبدأون بتركيب آلة غريبة على قمته المرتفعة فوق تلة باريسية ترتفع ١٢٨ مترا.

هؤلاء القرويون كانوا يجهلون انه منذ ستة أشهر، في الثاني والعشرين من آذار، أجازت الجمعية القانونية لمهندس وفيزيائي يدعى «كلود شابيه» باجراء التجارب على اختراعه الجديد «تاشيغراف» والذي سمي في ما بعد التلغراف.

ماذا يقدم هذا الاختراع من جديد؟



تلغراف شابيه. قطعة طولها أربعة أمتار مقامة على قمة أحد الابراج تدور فوق عامود. وفي نهاية كل واحدة من زواياها قطعة طولها متر تستطيع الاتجاه كيفما يراد لها وحسب اصطلاحات محددة سلفاً. وقد استعمل للمرة الأولى في ١٢ تموز ١٧٩٣.

الفكرة ليست جديدة. فبعض شعوب ما قبل التاريخ فكرت بارسال أنبائها بواسطة الاشارات واختراع «كلود شابيه» هو انه استفاد من عملية التقدم في حقل العلوم الفلكية لتحقيق فكرته، بفضل ذراع متحركة مقامة فوق برج تستطيع إرسال ثمان وتسعين اشارة يتم دمجها لتؤلف جملاً كافية للحاجات العادية. وهذا ما كان يريد «شابيه» اختباره. ولكن دهشة سكان «بيلفيل» كبرت وانقلبت إلى حذر عندما شاهدوا هذه الذراع تتحرك. فلقد اعتقدوا انها رسائل موجهة إلى العائلة الملكية السجينة في المعبد. وكمواطنين مخلصين انقضوا على هذه الآلة ودمروها ولم يستطع «كلود شابيه» النجاة إلا بفضل هروبه.

واعاد المهندس تجربته في تموز ١٧٩٣ مسلحاً هذه المرة بكل الاجازات القانونية اللازمة. فاقام نقطة اتصال في «ايكوان» على بعد ١٣ كلم ونقطة اخرى في سان - مارتين دي تيرتر على بعد عشرة كلم. وكانت النتائج رائعة.

نال «شابيه» من الجمعية العمومية لقب مهندس تلغراف. وحصل على المعونات اللازمة لاقامة أول خط تلغرافي بين ليل وباريس. وافتتح هذا الخط في عام ١٧٩٤ وأول تلغراف ارسل إلى الجمعية العمومية ابلغها باستعادة مقاطعة «كوندي سورليسكو» من النمساويين الذين طردوا منها.

وقد اقيم مكتب تلغراف باريس - ليل فوق تلة «مونمارتر». وشارع «التلغراف» في باريس يذكرنا بذلك.

وشيئاً فشيئاً انتشرت الخطوط التلغرافية الشبيهة بتلك التي اخترعها «شابيه» في كل انحاء فرنسا. ولم يعد يلزم سوى ساعات لارسال الاخبار بين باريس ومارسيليا وتولوز وبوردو.

وبدأت حقبة جديدة في تاريخ نقل الأخبار.

■

المرجع:

Historia No. 386. 1979.

مواعيد رحلات طيران الشرق الاوسط إلى

الخليج

الكويت : يوميًا ماعدا السبت الإقلاع الساعة ١٨،٣٠

الظهران : يوميًا ماعدا الثلاثاء الإقلاع الساعة ١٨،٢٠

* البحرين : يوميًا الإقلاع الساعة ١٧،٥٥

* الدوحة : يوميًا الإقلاع الساعة ١٧،٥٥

* دبي : يوميًا الإقلاع الساعة ١٨،١٠

* ابوظبي : يوميًا الإقلاع الساعة ١٧،٤٠

* مسقط : أيام الاثنين ـ الاربعاء والجمعة الإقلاع الساعة ١٨،١٠

* رأس الخيمة : يومي الثلاثاء والسبت الإقلاع الساعة ١٨،١٠

للاستعلامات والحجز راجعوا وكيلكم للسفر المعتمد لدى «اياتا» أو مكاتب الشركة :

مركز جفينور ت : ٣٦٨٠٠٠ صيدا ت : ٧٢١٤٦٠

مكتب المبيعات في الادارة العامة ت : ٣١٦٣١٦ طرابلس ت : ٦٢٧٢٧٥

أوتيل الكسندر ت : ٣٣٩٩٣٠ بحمدون ت : ٥٦٠٥٠٥

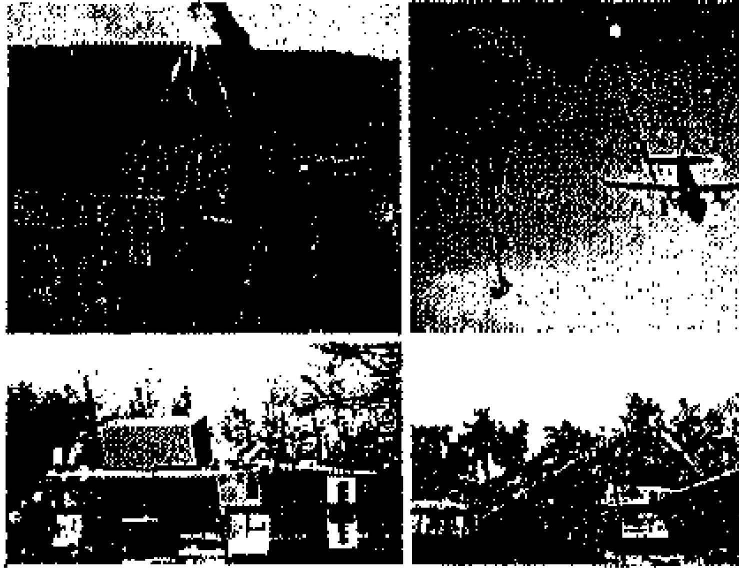
مكاتب الحجز تفتح ليلاً نهارًا ت : ٢٧٤٣٣٠ / ٢٩٢٢٢٠



* بالإشتراك مع طيران الخليج



بحوث في مؤخّرة القوات المسلّحة "كتاب عسكري جديد"



للعميد الركن محمد خالد شيخ القصّابين

عرض هاني خليل

قبل كلّ شيء لابدّ هنا من التنويه إلى أن أهميّة هذه البحوث التي تناولت صنفا مهمّا جدّا من صنوف التأمين القتالي-العسكري في حالتي السلم والحرب تنبع من:

أولاً: الحاجة العسكرية القطرية والعربية إليها.

ثانياً: من كونها كتبت بقلم ضابط إداري لامع له من الخبرة والمعرفة العسكرية عموما، والادارية خصوصاً الباع الكبير، بالإضافة إلى دراساته القيّمة التي طالعناها له في مجلّات عسكرية معروفة (كالفكر العسكري) و(المهندس الطليعي) وغيرهما..

ثالثاً: لأنهّا، وكما كتب السيد العماد مصطفى طلاس في تقديمه للكتاب تعبّر عن بداية تحول نوعي في مفاهيم ومعلومات ومعارف الضابط العربي عامة (والسوري خاصّة)، هذا التحوّل الذي يعني ولوج الضابط إلى ميدان البحث العلمي العسكري ممّا يخدم جدلية التفاعل بين العلوم العسكرية والمدنية.



في المقدّمة يفرّق المؤلفّ بين مفهوم الشؤون الادارية العسكرية الذي ارتبط منذ ظهوره بالجيش وبين مفهوم مؤخرة القوّات المسلّحة الحديث العهد، والذي يقوم على أساس ردم الهوّة بين الاقتصادين المدني والعسكري، لا بل أكثر من هذا على تسخير الاقتصاد المدني السلمي للأهداف الحربية العسكرية، وهو أمر يجب ألّا يتمّ في فترات الحرب فقط بل وفي فترات السلم، وهو ما يعني بتعبير آخر ضرورة تنسيق علاقات العمل والانتاج بين المؤسسات العسكرية والمدنية على أسس علمية اقتصادية تأخذ باعتبارها في كلّ مرّة كافة الشروط والظروف الذاتية والموضوعية لتطوّر المجتمع المدروس. وهو لهنا يضعنا كعسكريين ومدنيّين أمام موضوع شيّق جدّاً، إذ يزيل عمليا الفاصل بين الجهد الذي يجب أن يبذل من أجل بناء القدرة العسكرية الدفاعية للجيش، وبالتالي نجاح أعماله القتالية وبين تطوير الاقتصاد الوطني ليكون في خدمة الدفاع عن الوطن والقضية باعتبار أنّه لا نصر يمكن أن يتحقق بدون وجود قاعدة مادّية وإمكانات تنظيمية وعلاقات ميدانية

صحيحة بين مؤخرة الجيش كتشكيل عسكري والهيكل الاداري للدولة كلّها.

• * في الفصل الأول يستعرض المؤلّف تاريخ تطوّر المؤخّرات حتى نهاية الحرب العالمية الأولى، حيث يعرج هنا بموضوعية وتحليل علمي مدروس على الضرورات السياسية والاجتماعية والادارية - العمليّاتية التي حتمت إعادة النظر في مشكلات الشؤون الادارية العامة كالإمداد والنقل وتأمين المهام المختلفة للجيش، وهذا هو بالضبط ما يفسر الانتقال من نظام الامداد التسويقي إلى نظام مستودعات التخزين ثمّ الامداد المركزي للقوّات حسب مستويات التشكيلات.. وأخيرا الانتقال إلى أسلوب الوحدات الادارية في داخل التشكيلات المقاتلة بما فيها مؤخّرة الجبهة العملياتية نفسها، ممّا دفع بدوره إلى ظهور نظام التأمين الاداري للجيش والقوّات المسلّحة، بحيث وضعت الخطوط العريضة لقيادة أعمال المؤخّرات وتنسيق كافة أنواع الامدادات وأعمال الطبابة والصيانة وغيرها.

يقول مؤلف الكتاب العميد محمد خالد شيخ القصّابين في معرض هذا أنّ اتساع احتياجات القوّات الذي جرى في كافة الجيوش المتحاربة أجبر قيادات الجيوش على تغيير التأمين الاداري، وإلى زيادة إعداد قطعات المؤخّرة ومؤسساتها ووحداتها، وإلى تحسين تجهيزها الفنّي والطبّي، كما أنّ ظهور اختصاصات جديدة للمؤخرة تطلّب بدوره إيجاد عناصر مؤخّرة جديدة (ص/١٩/).

* وفي الفصل الثاني يحدّثنا المؤلّف عن صورة وحالة المؤخّرات حتى نهاية الحرب العالمية الثانية، حيث يؤكّد على الطبيعة المتميّزة هنا لهذه الصورة نظراً لحجم المتغيّرات العسكرية والاجتماعية والسياسية التي حدثت. فطبيعة عمل المؤخرة تميزت حقّا:

١ - باستخدام وسائط صراع جديدة أدّت إلى زيادة في معدّلات استهلاك الوسائط المادّية..

٢ - الديناميكية العالية والمناورة الرفيعة المستوى بالقوى والوسائط.

٣ - بضرورة محافظة المؤخّرات على جاهزيتها القتالية، لأنّ الأعمال القتالية قد تنشب بشكل مفاجيء وهو ما يحدث عادة.

٤ - تزايد أهمية العامل الاقتصادي، بحيث أصبح هو العنصر الحاسم في فترات ما بعد الحرب، وباعتبار المؤخّرة هي أداة تنظيم واستثمار هذا العامل، فهي اذن ذات دور حاسم في المعركة.

٥ - تغيّرت مسافات وأبعاد وحجوم ومهام عمل المؤخّرة تغيّرا ملحوظاً.

ويستعرض الكاتب هنا بموضوعية وعلمية أوضاع مؤخرات كلّ من الجيوش الألمانية والفرنسية والانكليزية والأمريكية والروسية التي اشتركت في الحرب العالمية الثانية، حيث يتعرّض باقتضاب لبنيتها التنظيمية وديناميكية عملها العسكري وكيفية تنفيذها للمهام التي أسندت لها، وسبب فشلها أو نجاحها.

إلّا أنّه يؤكد أن التنظيم الاداري السوفياتي كان هو الأفضل في الفترة اللاحقة للحرب بعد أن كان التنظيم الألماني هو الأفضل في فترة بداية الحرب.

يقول المؤلّف في (ص٢٩) أنّ البنية التي أخذتها عناصر المؤخّرة السوفياتية في الحرب العالمية الثانية سهّلت عملية إقامة صلات متينة باقتصاديات البلاد والاستخدام الصحيح للموارد المادّية المحلّية وتنفيذ مهام التأمين الاداري التي كانت معقّدة من كافة الوجوه.

بعد هذا ينتقل الكاتب إلى دراسة تطوّر المؤخرة حتى الوقت الراهن، فيرى أنّ نزعات تطوير مؤخرة القوات المسلّحة كانت تهدف الى تطوير البحث والكشف عن أشكال تنظيمية جديدة في بناء المؤخّرة وطرائق عملها في العمليّات، وإلى الادخال الواسع لوسائط مكننة العمل وادخال العقول الألكترونية في أنظمة قيادتها، أي إدخال أنظمة الأدمغة، وهذا بدوره قد أفرز نتيجة للمتغيّرات الضخمة التي طرأت على البنى الاجتماعية والاقتصادية ضرورة تشكيل مؤخّرة تؤمّن كافة المهام الملقاة على عاتقها فظهر بذلك مصطلح المؤخّرة الحديثة التي تتألّف كما يرى المؤلّف من قطعات طرق سكك حديدية، قطعات نقل بالعربات، قطعات تمديد أنابيب النفط والماء، قطعات نقل قتالي

ووحدات مختلفة هي قواعد أساطيل وسفن تأمين قواعد متحرّكة للغوّاصات وهي ترسانات وقواعد ومستودعات ممتلئة بالوسائط المادية، وهي مؤسسات فنيّة وطبّية ومؤسسات هندسية ومطارية، فنّية وقطعات ومؤسسات أخرى كثيرة غيرها. ولكن ما هو مستقبل المؤخّرة؟ ذلك هو التساؤل الذي يرى المؤلف أنه يستحوذ على اهتمام المفكّرين العسكريّين في الشرق والغرب.

* في الفصل الخاص بمعالم نظرية مؤخرة القوات المسلّحة يؤكد المؤلف مجدّداً وبصورة حاسمة على العلاقة المتينة بين التنظيم العسكري والتنظيم الاقتصادي في الدولة، وحيث يرى في محصّلة الأمر أنّ بناء المؤخرة وتحديد أنشطتها هو موضوع مؤخّرة القوّات المسلّحة التي ليست سوى مجموعة من المعارف حول مبادىء وقوانين ووظيفة أنظمة التأمين الاداري للقوات المسلّحة.

وتتضمّن نظريّة مؤخرة القوّات المسلّحة في ذاتها:

أولاً: بناء مؤخرّة القوّات المسلّحة.

ثانياً: فعاليات وأنشطة المؤخّرة في تأمين القوات والقوى البحرية والجوّية.

هنا في تحديد معالم النظرية كما يرغب الكاتب - وهو ضابط سوري معروف في الشؤون الادارية - تظهر معارفه وتوجّهاته وأفكاره مترابطة وسليمة، حيث يشرح العلاقة الهامّة بين فترتي الحرب والسلم، وضرورة الأخذ بنظرية التنبؤ لوضع كافة حسابات الامداد والتأمين في الحالات المختلفة، وهو أمر يعني بعبارة أخرى: أنّ نظام عمل المؤخّرات وتنظيمها وتوزيعها هو علم كامل يعتمد على نتائج وقوانين العلوم الأخرى وفي مقدّمتها علم الاجتماع والاقتصاد والسياسي والنفس والديموغرافيا والرياضيات والعلوم والسيبرنتيك والكيمياء والفيزياء والطب البشري والبيطري وغيرها.

ومن المهم هنا عدم الفصل بين نظرية المؤخّرة ونظرية الاقتصاد الحربي، ولكن على أساس أنّ العلم العسكري هو قاعدتها ومادتها الرئيسية ومنه تستمدّ حيويتها وديناميكيتها ومع الاحتفاظ بتماس مباشر بينها وبين نظريات الدفاع المدني من جهة وبين مختلف الأنظمة الفنّية والخاصّة من جهة أخرى.

وهنا بالضبط يؤكّد المؤلّف على العلاقة الجدلية بين عمل المؤخّرة والتنظيم العسكري كلّه، فهي إذ تستفيد من العلوم العسكرية، تقدّم لها فيما بعد نتائجها فتغنيها.

ويختتم المؤلف فصله الرابع بتعداد المبادىء الرئيسية لنظرية تنظيم التأمين الاداري لمؤخرة القوّات المسلّحة فيراها ستّة مبادىء. انظر (ص٤٤) - حيث ينتقل في الفصل الخامس الى تقديم الشروحات العلمية - العسكرية لهذه المبادىء.

* وفي الفصل السادس يؤكد المؤلّف على حقيقة هامة جدّا، إذ يرى أنّ المضمون المادّي الفنّي لمؤخرة القوّات المسلّحة ذو علاقة مباشرة بالجانب الاجتماعي والاقتصادي.

وإذن هناك علاقة هامة بين شكل الحكم وعلاقات الانتاج من جهة وبين بنية ونظام عمل المؤخّرات وعلاقتها بصنوف القوّات من جهة ثانية.

إنّ أفضل ما يحتوي هذا الفصل يتلخّص في دراسة المؤلّف لجانبين جدليين في خصائص بنية وعمل مؤخرة القوّات المسلّحة وهي:

الجانب المادّي والجانب الاجتماعي، حيث يشرح علاقة هذين الجانبين ببعضهما البعض، فالاشتراك في تحقيق الانتاج الحربي يشكل انتاجا ماديا، فتقوم مؤخرة القوات المسلّحة بتنظيم العلاقات البضائعية المالية مع المجتمع.

وهذا يعني كما يرى المؤلّف (في ص٥٥) أنّ على مؤخّرة القوات المسلّحة في كافة مستوياتها تركيز جهودها في الاستخدام العقلاني والفعّال للقوى البشرية والموارد المادّية والمالية المتاحة، بحيث تنفّذ المهام بأقصى فعالية وبأقلّ النفقات.

* ويعتبر الفصل السابع فصلا هامّا جدّا، نظرا لأنّه يعالج مسألة في غاية الدقة والخطورة وهي مسألة التحليل العسكري - الاقتصادي الذي تراوحت المواقف منه بين ثلاثة:

الأول: يرى أن يكون لهذا التحليل قوانينه ومبادئه التي تجعل منه علما مستقلاً.

الثاني: يرى أن يكون هذا التحليل سائدا في فترات الحرب فقط.

الثالث: يرى أن يكون امتدادا لعلم الاقتصاد.

ومهما اختلفت هذه المواقف وتباينت، فانّ التحليل العسكري - الاقتصادي كما يرى المؤلّف هو تعديل خاص للنظرية العامة للتحليل الاقتصادي، بسبب الحاجة إلى قيادة الصرح العسكري - الاقتصادي في كافة المستويات، فهو يؤمّن لنا المعلومات اللازمة لاعداد السياسة العسكرية والاقتصادية بصورة علمية، والتوجيهات الصحيحة لأفضل أنواع استخدام الوسائط الدفاعية والبحث عن الاحتياطات في الاقتصاد الحربي، وهو يعطي مادّة لنظريات الاقتصاد الحربي التي كانت وستبقى حقلا خاصّا من حقول المعرفة العلمية.

ويرى العميد الركن مؤلفّ الكتاب أنّ التحليل العسكري - الاقتصادي يؤمّن للعمل العسكري ولنظريّات الاقتصاد الحربي الموارد الاقتصادية المعمّمة والمطابقة مطابقة مثالية للموارد المادية والبشرية اللازمة لمعرفة أكثر عمقا لقوانين الصراع المسلّح ولتقدير المتطلّبات المادّية للحرب والتنبؤ بها عند صياغة العلم العسكري لتنفيذ الأعمال القتالية الحديثة وكذلك حسابات الامكانات الحقيقية التي تسدّ الحاجات المثالية في الظروف التاريخية الاجتماعية الاقتصادية الحقيقية القصوى أو الدنيا.

وعندما يسقط المؤلّف هذه المعلومات والمعارف على الموقف العربي - الاسرائيلي ينبّه إلى أنّه فيما لو وقعت حرب خامسة بيننا وبين اسرائيل فانّ التحليل العسكري - الاقتصادي يجب أن يشمل كلّا من:

١ - الاقتصاد الوطني للدول العربية.

٢ - الاقتصاد الوطني للعدو الاسرائيلي.

٣ - تأمين مقابلة نتائج التحليل.

ويقدّم المؤلّف عرضا شيّقا لمسألة تصنيف أنواع التحليل العسكري - الاقتصادي التي يلخّصها في أربعة: (عمليّاتي - جاري - مستقبلي - ونظري)، بحيث تجمع بينها جميعها طرائق ومناهج اقتصادية ورياضية أو بحثية أو احصائية.

* أما الفصل الثامن من الكتاب فيتضمّن شرحا مفصّلا تاريخيّا وحضاريّا للضرورة الموضوعية للدفاع المدني ولأهميّة تنسيق العمل بين وحداته .ووحدات القوّات المسلّحة، وبالتالي للفاعلية التي يمكن بها ترميم الاقتصاد المخرّب في زمن الحرب واستعادته وتطويره ووضعه مجدّدا في خدمة القدرة الدفاعية عن البلاد.

وقد لجأ الكاتب في هذا الفصل إلى وضع خبرة الاتحاد السوفياتي بين يدي القارئ، ولكنّه لم يقدّم خبرات أخرى - وخاصّة عربية - وهي مسألة كانت تحتاج الى مثل هذا الطرح.

* ويتميز الفصل التاسع عن غيره بأهمّيته العسكرية التكتيكية - العمليّاتية البحتة، إذ أنّه سيتناول حالة هامةّ جدّاً هي القيام بخرق دفاع العدو القوي، حيث يشرح بالتفصيل كيفية تحضير المؤخرة لتنفيذ هذه العملية ومهامها أثناء الخرق والعوامل التي تحدّد قوام مؤخرّة الجيش وهي عوامل يلخّصها بـ:

- إمكانات الدولة من الناحية الاقتصادية..

- القوام القتالي للجيش..

- شروط خوض العملية القتالية..

- شروط مسرح الأعمال الحربية وخاصة الجغرافية في نطاق الجيش.

وينتقل بعد هذا إلى شرح طريقة وبنية التأمين المادي والطبي والفني والتمويني - الامدادي للوحدات المحاربة في حالة الهجوم والخرق، وتدابير حماية وحدات المؤخرة والدفاع عنها باعتبارها مستهدفة من قبل العدو.

* ويتابع المؤلّف في الفصل العاشر ما بدأه في الفصل التاسع، حيث يتحدّث عن التأمين الاداري في الهجوم الصحراوي، ثمّ الدفاع المعادي والممكن ضمن نظرية مؤخرة القوّات المسلّحة باعتبار الخصائص الصعبة للعمل في الظروف الصحراوية وتعدّد الاتّجاهات، وبالتالي ضرورة تشكيل مؤخرات لكلّ اتجّاه

بالاضافة الى ضرورة تنسيق عمل المؤخرة، خاصّة فيما يتعلق بالامداد بالوقود والمياه.

وهو يدفع هنا بالمسؤولين الى ضرورة تقديم الدراسات لمعرفة مخزونات الأرض من المياه وخاصة في المناطق الصحراوية وتوزيع خرائط منابع مصادر المياه على كافة التشكيلات لتكون على معرفة تامّة بها.. ولكن ماذا عن دور الشؤون الادارية في مجال الجاهزية القتالية، هذا بالضبط التساؤل الذي يجيب عليه العميد الركن مؤلّف الكتاب في الفصل الحادي عشر، إذ يرى أنّ المهمّة الرئيسية التي يؤديها الاداريّون مع غيرهم من أفراد القوّات المسلّحة هامة جداً، كما أن تسود اليوم في علم المؤخّرة قاعدة رئيسية تقول أن زيادة احتياطات الوسائط المادّية وتنسّقها وحراستها بصورة جيّدة تعتبر الأساس الذي تقوم عليه الجاهزية القتالية للقوات واستغلاليتها وحيويتها من الناحية الادارية.

ولهذا يرى المؤلّف أنّه لابدّ من أن يتحلى ضبّاط الشؤون الادارية بمعرفة اقتصادية وعلمية وسياسية جيّدة بالاضافة الى المعرفة العسكرية الخاصّة بكيفية المحافظة على الجاهزية القتالية للقوّات.. ويختم المؤلّف اجابته على هذا التساؤل فيقول (ص٩٨) أنّ الاقتصاد في النفقات وفي استهلاك الوسائط المعادية في القطعات والعمل على تنفيذ المهام المسندة في حينها من قبل قطعات ووحدات المؤخرة وبثّ روح الانضباط والطاعة في صفوف العاملين في المؤخرة يرفع مستوى الجاهزية القتالية للقطعات، ومن هنا تظهر أهميّة الشؤون الادارية والدور الذي تلعبه في الجاهزية القتالية في السلم والحرب على حدّ سواء.

ضمن هذه الأسطر والأفكار، تتجلى الأهمّية العسكرية والعلمية لكتاب «بحوث في مؤخرة القوّات المسلّحة» الذي سدّ فراغا كبيراً في مكتبتنا الوطنية العسكرية.

■





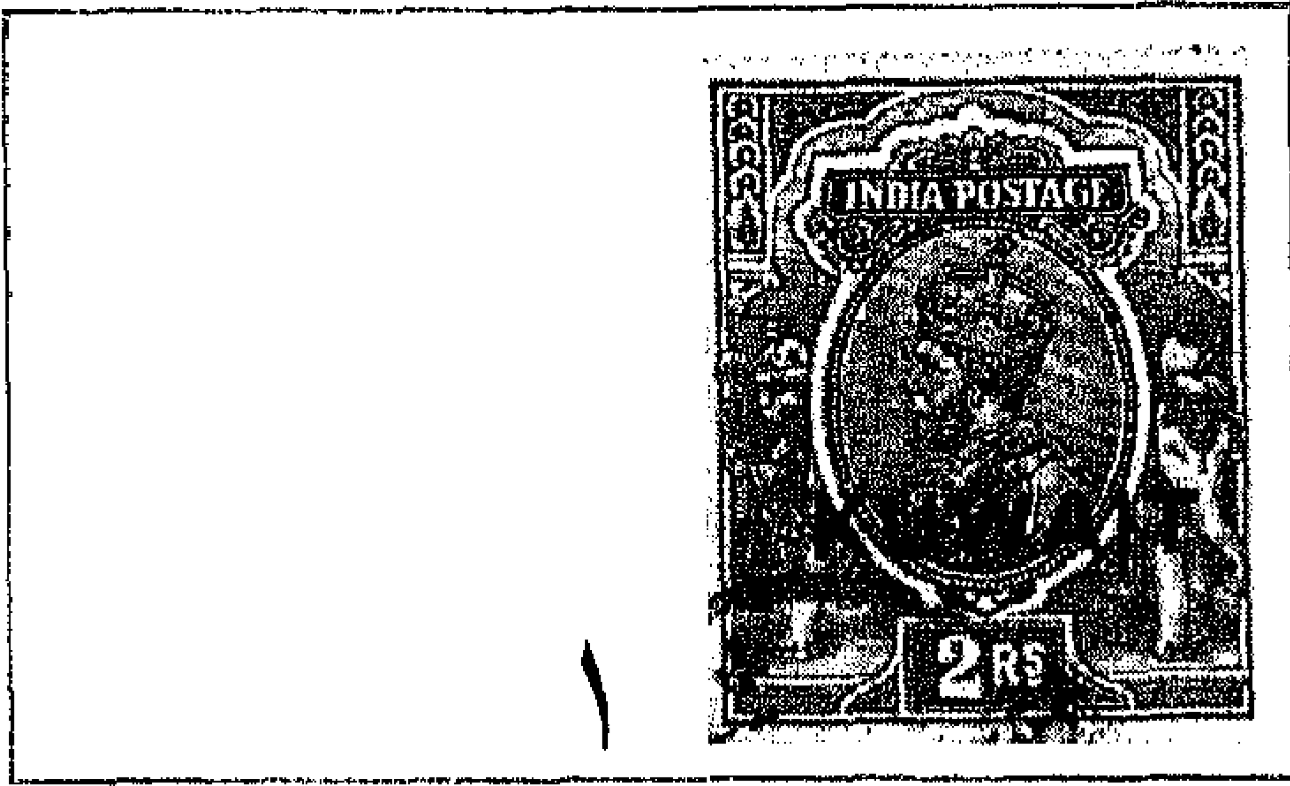
تاريخ طوابع الخليج العربي

ميشال اسطفان

إن المكاتب البريدية في امارات الخليج العربي، بالوقت الذي كانت تلك الأمارات مستقلة داخليا، كانت تحت إدارة البريد الهندي أولا، ثم تحولت الى ادارة البريد البريطاني. وكانت تستعمل الطوابع الهندية للبريد العادي والحكومي بدون توشيح إلى أن صدرت لكل امارة مجموعات هندية موشحة باسم الامارة وبعملتها المحلية الهندية، ما عدا امارة دبي وأبو ظبي ومسقط وعُمان وأم سعيد وجزيرة داس التي استعملت تلك الطوابع أيضا، موشحة بالعملة المحلية الهندية، انما بدون ذكر إسم البلد.

ولنبدأ بالحديث عن طوابع الكويت:

إفتتح بريد الكويت أعماله في شهر كانون الثاني/يناير سنة ١٩١٥ بادارة البريد الهندي في بادىء الأمر، وكان يستعمل الطوابع الهندية كما ذكرنا، إلى أن صدرت أول مجموعة في أول نيسان/أبريل سنة ١٩٢٣، مؤلفة من ١٥ طابعا من ١/٢ آنة الى ١٠ روبيات موشحة (Kuwait) على طوابع الملك جورج الخامس الصادرة للبريد الهندي (صورة ١) قيمتها اليوم ١٤٠ جنيها استرلينيا. وقد ظهر طابع فئة ١/٢ آنة بتوشيح مكرر وظهر أيضا زوج عمودي من طابعين من الفئة ذاتها، أحدهما موشح والآخر بدون توشيح وهذه الأخطاء أصبحت نادرة جدا. وظهر طابع فئة ٣ آنة باللون البني المحمر



١

بتوشيح مقلوب، قيمته اليوم ٢٥ جنيها استرلينيا. وصدر بالتاريخ ذاته، مجموعة للبريد الحكومي من ١٤ طابعا من ١/٢ آنة الى ١٥ روبية موشحة بسطرين [Kuwait Service] على طوابع الملك جورج الخامس للبريد الهندي كذلك، قيمتها اليوم ٧٠ جنيها استرلينيا.

وهناك مجموعة للبريد العادي وأخرى للبريد الحكومي كانت قد جهزت لبريد الكويت من الطوابع الهندية موشحة [Koweit] بدلاً من [Kuwait] وكانت محفوظة لدى وكالة المعتمد البريطاني، ولكنها لم تصدر رسميا بل تسرَّب منها عدد من المجموعات الى السوق التجارية، وتساوي المجموعة اليوم نحو من ٧٠٠٠ جنيه استرليني. ويجدر بالذكر هنا، أن الختم الذي كان مستعملا في الكويت لغاية سنة ١٩٢٠، كان هكذا Koweit .

وفي سنة ١٩٢٩، صدرت مجموعة مؤلفة من ٢٠ طابعا: من ١/٢ آنة الى ١٥ روبية موشحة]Kuwait[على طوابع الملك جورج

الخامس للبريد الهندي بأحرف أكبر وأنحف من الأولى، قيمتها اليوم ٣٥٠ جنيها استرلينيا. وفي التاريخ نفسه صدرت مجموعة للبريد الحكومي مؤلفة من ١٠ طوابع من آنة واحدة إلى ١٥ روبية، موشحة بالتوشيح ذاته من المجموعة الحكومية الأولى لكن ترتيب الحروف في كلمات التوشيح، متباعدة عن بعضها أكثر من الطبعة الأولى، وأصبحت قيمة هذه المجموعة ٦٥ جنيها استرلينيا.

وفي شباط/فبراير سنة ١٩٣٣ صدرت مجموعة للبريد الجوي مؤلفة من ٤ طوابع فئة ٢، ٣، ٤، و٦ آنات موشحة «الكويت» وبالافرنجي أيضا، على طوابع هندية للبريد الجوي (صورة ٢). قيمتها اليوم ١٠٠ جنيه استرليني ويزيد، وحدث ان ظهر طابع فئة ٣ آنة بطباعة مكررة وأصبحت قيمته عالية جداً.

وفي سنة ١٩٣٩ - ظهرت مجموعة موشحة على طوابع الملك جورج السادس للبريد الهندي (صورة نموذج منها ٣)، مؤلفة من ١٣ طابعا فئة ١/٢ آنة الى ١٥ روبية، قيمتها اليوم ٥٥ جنيها استرلينيا، وهناك طوابع فئة ١٠ روبيات ظهر بتوشيح مكرر قيمته اليوم ١٠٠ جنيه استرليني.

وأخيراً صدرت مجموعة سنة ١٩٤٥ للملك جورج السادس للبريد الهندي (صورة نموذج منها ٤)، مؤلفة من ١٣ طابعا من فئة ٣ الى فئة ١٤ آنة قيمتها اليوم ١٠ جنيهات استرلينية.

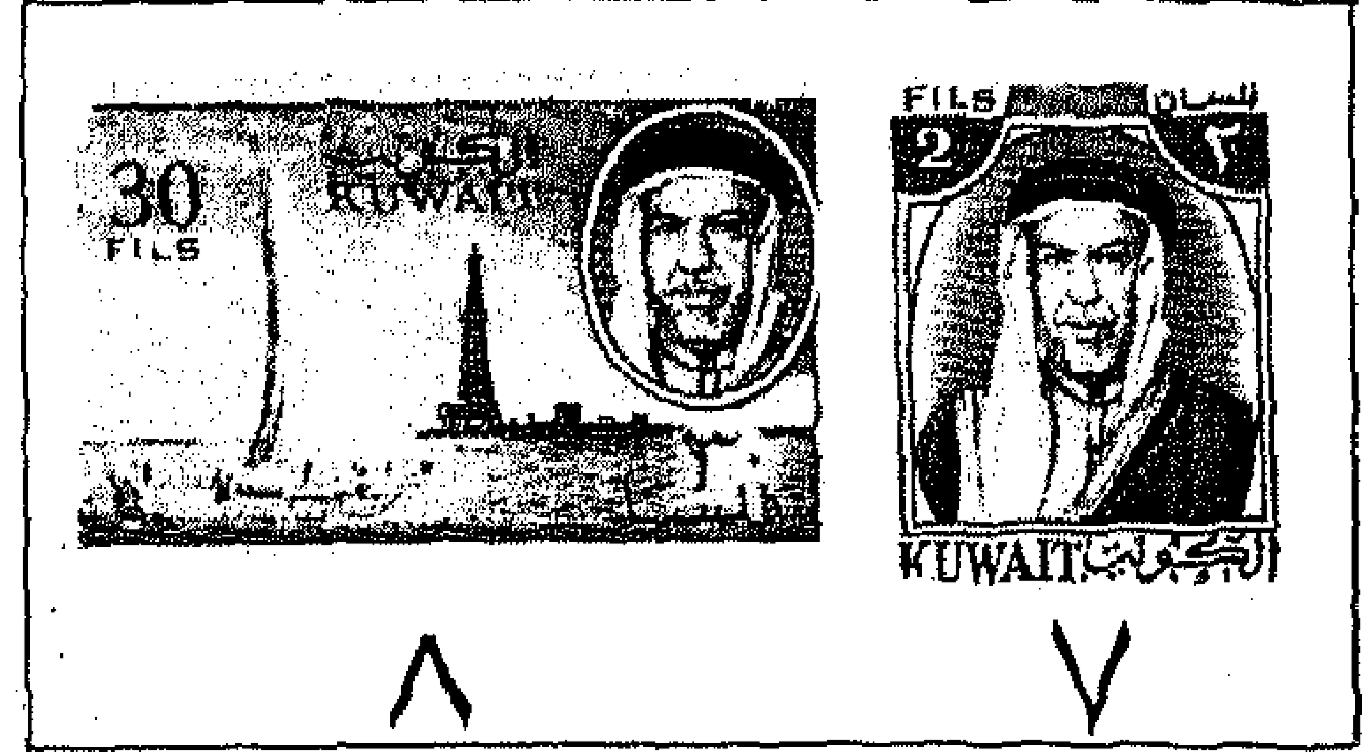
وبتاريخ أول نيسان/أبريل سنة ١٩٤٨ ولغاية ٣١ كانون الثاني سنة ١٩٥٩ انتقلت إدارة البريد الكويتي إلى الادارة البريدية البريطانية وأصبحت الطوابع المستعملة في الكويت توشح على المجموعات الانكليزية وتُسعَّر بالعملة المحلية الهندية كالسابق.

وفي أول نيسان/أبريل سنة ١٩٤٨ صدرت مجموعة الملك جورج السادس الانكليزية (صورة ٥) المؤلفة من ١١ طابعا موشحة من ١/٢ آنة إلى ١٠ روبيات، قيمتها اليوم ١٥ جنيها استرلينيا، وظهر طابع من فئة ٣ آنات بتوشيح مكرر، مرة بتوشيح ظاهر كالعادة ومرة أخرى بتوشيح مضغوط فقط وليس ظاهراً، قيمته اليوم ١٠٠٠جنيه استرليني.



وبمناسبة اليوبيل الفضي للزواج الملكي (الملك جورج السادس) سنة ١٩٤٨ أصدر البريد البريطاني طابعين لكل مستعمرة ومحمية بريطانية، ومن جملتها امارة الكويت التي صدرت لها مجموعة من طابعين فئة ٢ ١/٢ آنة و١٥ روبية موشحة على المجموعة البريطانية للمناسبة المذكورة فئة ٢١/٢ بنس وجنيه استرليني واحد. قيمة هذه المجموعة الكويتية اليوم ٢٥ جنيها استرلينيا، (صورة ٦).

وفي السنة ذاتها صدرت مجموعة من ٤ طوابع ٢١/٢، ٣، ٦، آنة وروبية واحدة لمناسبة الألعاب الأولمبية العالمية، موشحة على المجموعة الصادرة للمناسبة ذاتها في بريطانيا.



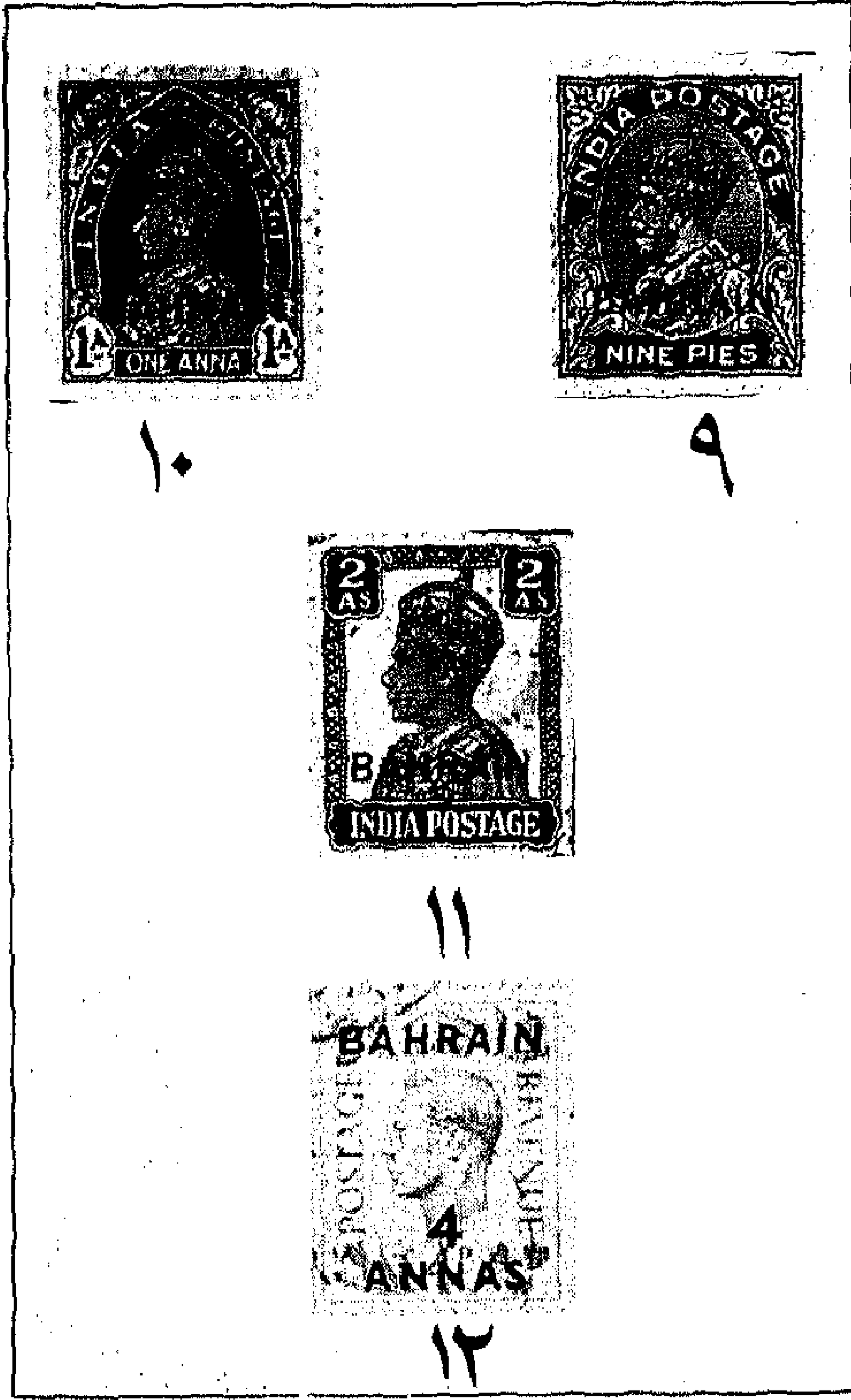
وفي ١٠ تشـرين الأول/اكتوبـر سنـة ١٩٤٩، صدرت مجموعة من ٤ طوابع لمناسبة الذكرى ٧٥ لتأسيس اتحاد البـريد العـالمي، موشحة على المجموعة الخاصة بالمناسبة والتي أصدرتها بريطانيا.

ودرجت الحال على هذا المنوال لغاية ٣١ كانون الثاني/يناير سنة ١٩٥٩، تاريخ إقفال الـوكالـة البريطـانية للبـريد، في عهـد الملكة اليزابيت الحالية فتسلمت الحكومـة الكويتيـة مسؤولياتها وأصدرت أول مجموعة تحمل صورة الشيخ عبد الله السالم الصباح وكانت لا تزال بالعملة الهندية النيابيزة الجديدة، تلتهـا سنة ١٩٦٠ مجموعة من الطوابع للذكرى العاشرة لحكم الشيخ الصباح.

وفي سنة ١٩٦١، صدرت مجموعة موسعة من ١٨ طابعا مبتدأة بستة طوابع تحمل صورة الشيخ الصباح و١٢ طابعا تحمـل صورا عن مختلف مرافق البلاد الاقتصادية (صورة ٧ و٨) وبـالعملة المحليـة الجديـدة بالفلس والـدينار الكويتي. ثم تبعتها المجموعات العادية وللبريد الحكومي والجوي وللأجور المستحقة، والتذكارية للمناسبات الوطنية والعالمية المختلفة أسوة بباقي البلاد العربية.

تاريخ طوابع البحرين:

إفتتح مكتب بريد البحرين أعماله في أول آب/أغسطس سنة ١٨٨٤ بادارة البريد الهندي وكان يستعمل الطوابع الهندية للبريد العادي والحكومي بدون أدنى توشيح في بادىء الأمر، ثم أصبح يوشح تلك الطوابع الهندية بكلمـة [Bahrain] واصـدر أول مجمـوعـة في ١٠ آب/أغسطس سنة ١٩٣٣، موشحـة «بحرين»



بالإفرنجي على مجموعة الملك جـورج الخامس (صورة ٩)، من فئة ٣ بيـزة الى ٥ روبيات، قيمتها اليوم ٥٧ جنيها استرلينيا.

وفي سنة ١٩٣٤ صدرت مجموعة صغيرة من ١/٢ آنة الى ٤ آنات موشحة على طوابع الملك جورج الخامس أيضا، وقيمتها اليوم ١٠ جنيهات استرلينية.

وفي سنة ١٩٣٨ صدرت مجموعة موشحة «بحرين» بالافرنجي على طـوابع الملـك جورج السادس (صورة ١٠)،من فئة٣ بيزة إلى٢٥روبية أصبح قيمتها اليوم ١٢٠ جنيها استرلينيا.

وفي سنة ١٩٤٢ صدرت مجموعة موشحة «بحرين» بالافرنجي على طـوابع الملـك جورج السادس (صورة ١١) من فئة ٣ باي إلى ١٢ آنة.

وفي أول نيسـان/أبـريـل سنـة ١٩٤٨ انتقلت أعمـال البريـد الى الادارة البريـديـة البـريطانيـة وأصدرت أول مجمـوعة مـوشحة «بحرين» بالافـرنجي وبالعملـة الهنديـة الآنة والـروبية عـلى طوابـع الملك جـورج السادس

الانكليزية (صورة ١٢) وكانت ١١ طابعا من فئة ١/٢ آنة الى ١٠ روبيات، قيمتها اليوم ٤٠ جنيها استرلينيا.

وكما كانت الحال مع الكويت بخصوص الطوابع التذكارية المرتبطة بالمناسبات الانكليزية، فقد صدرت ثلاث مجموعات تذكارية ما بين ٢٦ نيسان/أبريل ١٩٤٨ و١٠ تشرين الأول/أكتوبر سنة ١٩٤٩ لمناسبة اليوبيل الفضي لزواج الملك، والثانية لمناسبة الألعاب الأولمبية العالمية والأخيرة لمناسبة الذكرى ٧٥ لاتحاد البريد العالمي، ويجدر الذكر أن مجموعة اليوبيل الفضي أصبح قيمتها ٣٠ جنيها استرلينيا، والأهم هو طابع فئة ٢ ١/٢ آنة للالعاب الأولمبية ظهر بتوشيح مكرر قيمته اليوم ١٠٠ جنيه استرليني، ولم يشاهد سوى طابع واحد مستعملا في بريد المُحَرق بتاريخ ٢٣ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٤٨ قيمته اليوم ٢٠٠ جنيه استرليني. أما آخر مجموعة للملك جورج السادس الموشحة للبحرين، فقد صدرت في سنة ١٩٥٠ مؤلفة من ٩ طوابع: ١/٢ آنة الى ١٠ روبيات، وقد حدثت أخطاء بفئة ٢ روبية من تباعُد مختلف بين حروف التوشيح أو عدم انتظامها مما جعلها نادرة جداً.

وفي سنة ١٩٥٢ صدرت مجموعة عادية موشحة على طوابع الملكة اليزابيت من فئة ١/٢ آنة الى روبية واحدة، وهنا أيضا حدث بفئة ١/٢ آنة أنَّ الكُسر ١/٢ لم يظهر بالطباعة على بعض منها مما جعل سعرها اليوم ٤٠ جنيها استرلينيا.

وسنُتبع الحديث عن بقية طوابع البحرين وما يتبعها في العدد اللاحق. ■



في العدد المقبل



المدنية الفينيقية

.. من مقابر جبيل



المقاومة السرّية أروع مغامرات التجسّس في جبل طارق



تاريخ العرب والعالم

مجلة شهرية مصوّرة تبحث في التاريخ العربي
السنة الثالثة - العدد السابع والعشرون - كانون الثاني (يناير) ١٩٨١ - الموافق ربيع الأول ١٤٠١هـ

- نجيب عازوري والقومية العربية
- المدنية الفينيقية
- الموقف اللبناني والدولي من المؤتمر السوري العام ١٩٢٠م



- النقود العربية
- عصر محمد علي في الملاكمة
- تجسّس : الطوربيدات البشرية في جبل طارق



معركة عين جالوت: قلعة المسيلحة - البترون - لبنان

تاريخ العرب والعالم

مجلة شهرية مصورة تبحث في التاريخ العربي

السنة الثالثة ـ العدد السابع والعشرون ـ كانون الثاني (يناير) ١٩٨١ ـ الموافق ربيع الأول ١٤٠١هـ

تصدر عن دار النشر العربية في منتصف كل شهر

رئيس التحرير : فاروق البربير

المستشار : د. أنيس صايغ

المدير المسؤول : محمد مشموشي

الإنتاج : مطبعة المتوسط ش.م.ل. ● التوزيع : الشركة اللبنانية لتوزيع الصحف والمطبوعات

ثمن النسخة

لبنان : ٥ ل.ل.	سوريا : ٦ ل.س
العراق : ٨٠٠ فلس	ليبيا : ١ دينار
السعودية : ٨ ريال	الكويت : ٧٠٠ فلس
الاردن : ٥٠٠ فلس	أبوظبي : ٨ درهم
دبي : ٨ درهم	قطر : ٨ ريال
البحرين : ٨٠٠ فلس	عدن : ٨ شلنات
مسقط : ٨٠٠ بيزة	المغرب : ٦ درهم
فرنسا : ١٠ فرنكات	بريطانيا : جنيه استرليني
	أميركا : ٣ دولارات

الإشتراكات

(بما فيها أجور البريد الجوي)

في لبنان : للأفراد	٧٥ ل.ل.
للمؤسسات والدوائر الحكومية	٢٠٠ ل.ل.
في الوطن العربي : للأفراد	١٠٠ ل.ل.
للمؤسسات والدوائر الحكومية	٢٥٠ ل.ل.
خارج الوطن العربي : للأفراد	١٥٠ ل.ل.
للمؤسسات والدوائر الحكومية	٣٠٠ ل.ل.

تدفع قيمة الإشتراك مقدماً نقداً أو حوالة مصرفية أو بريدية .

ص.ب : ٥٩٠٥ ـ بيروت، لبنان • بناية أبو هليل ـ شقة ١١ • شارع السادات ـ تلفون : ٨٠٠٧٨٣

HISTORY OF THE ARABS AND THE WORLD

EDITED BY FARUK BARBIR
A MONTHLY ILLUSTRATED
PERIODICAL PUBLISHED FROM
SADATE ST. ABOU HLEIL
BLG. P.O.B. 5905
TEL. 800783
BEIRUT, LEBANON

Vol. 3. No. 27. jan 1981.
ANNUAL SUBSCRIPTION
$ 75 (INCLUDING $ 25 FOR
ADDITIONAL AIR MAIL CHARGES)
MAIL ALL COMMUNICATIONS,
INCLUDING SUBSCRIPTIONS TO:
«HISTORY OF THE ARABS AND THE WORLD»

في هذا العدد



النقود العربية..
(راجع المقالة ص ٤٤).

■ المقالات الواردة توزع حسب التبويب الفني للمجلة. ولا علاقة لذلك بمكانة الكاتب. مع حفظ المكانة الإجتماعية للكتاب. تراعى في الألقاب الصفات العلمية فقط ■



عصر محمد علي كلاي
(راجع المقالة ص ٤٨).

الموضوع — الصفحة

■ بعض من ملامح مرحلة الأصول في التاريخ العربي الاسلامي .... د. نبيه عاقل ٣

■ نجيب عازوري والقومية العربية (الحلقة الثانية .... د. زاهية قدورة ١١

■ لبنان التجربة الديمقراطية (الحلقة الثانية) .... الرئيس د. سليم الحص ١٩

■ المدنية الفينيقية .... د. نقولا زيادة ٢٧

■ الموقف اللبناني والدولي من المؤتمر السوري العام ١٩٢٠ .... حسان حلاق ٣١

■ إبحار إلى الفردوس .... شذا عدره ٤١

■ النقود العربية سكها عبدالملك بعد «حادثة دبلوماسية» .... فكتور سحاب ٤٤

■ عصر محمد علي في الملاكمة ١٩٦١-١٩٨٠ .... د. يوسف شبل ٤٨

■ تاريخ انتشار اللغة العربية في أفريقيا السوداء (الحلقة الثانية) .... عمار هلال ٥٨

■ «من مغامرات التجسس في الحرب العالمية الثانية» الطوربيدات البشرية في جبل طارق .... ترجمة: «تاريخ العرب والعالم» ٦٨

■ رجال وأفكار: كرومويل ٧٥

■ تاريخ الطوابع: الخليج العربي .... ميشال إسطفان ٧٧

■ رسائل الماجستير والدكتوراه: دولة بني حماد في الجزائر وابن حزم الأندلسي مؤرخاً .... د. عبدالحليم عويس ٨٢

■ القراء يكتبون: النظام القضائي في الأندلس قلعة الشقيف/دمشق ٨٨

● المقالات والدراسات ترسل باسم رئيس التحرير على عنوان المجلة: ص.ب ٥٩٠٥ في بيروت.

● المقالات والدراسات التي تنشر لا تعبر بالضرورة عن آراء المجلة.

● المواد الواردة إلى المجلة لا ترد إذا لم تنشر.

د. نبيه عاقل

بعض من ملامح مرحلة الأصول في التاريخ العربي الإسلامي

د. نبيه العاقل: عميد كلية الآداب في الجامعة السورية، دمشق



مرحلة الأصول، موضوع هذا البحث، هي المرحلة التي تمتد بين ما اصطلح على تسميته بالعصر الجاهلي ونهاية العصر الأموي. وقد أسميناها مرحلة الأصول لأنها المرحلة التي تكونت منها ملامح الشخصية العربية التي أقامت الدولة وحققت المنجزات الحضارية الرائعة على أرض صلبة من إرث الماضي ومنجزات الحاضر الذي توجته معجزة الإسلام التي هي التعبير الحي عن أصالة هذه الأمة وقدرتها على العطاء. وهي مرحلة الأصول أيضا لأنها كانت الأساس المتين والمتطور لما اتصل من مساهمة الأمة العربية في إغناء الحضارة الإنسانية ودفع مسيرتها إلى الإمام. ففيها أرسيت الملامح الأساسية للشخصية الحضارية العربية وتبلورت مقومات هذه الشخصية وتحدد مسارها. وهي أيضا مرحلة متصلة متكاملة، كان الإنسان العربي في بداياتها الجاهلية يعيش مأساة عصره الفكرية ويتطلع إلى هتك ستر الظلام لينطلق إلى الآفاق الفسيحة التي تحرره من ربقة التخلف. وجاء الإسلام ليرسم الطريق ويقدم الحافز ويوجه المسيرة ويحدد الأطر التي ستنتظم حياة الجماعة والمجتمع. وكانت بدايات التطبيق في عصر الرسول الكريم، وجاء الخلفاء الراشدون ليتابعوا المسيرة على هديه وليسلكوا الدرب نفسه، ولكن غير غافلين عما فرضته الظروف التي نجمت بعد عصر الفتوح واتساع رقعة دولة الإسلام وإنضواء قوميات وشعوب عديدة تحت ظلالها. وحين آل الأمر إلى بني أمية، وانتقلت حاضرة الخلافة إلى الشام، وتوقفت الموجة الأولى من الفتوح إلى حين، واستقرت ملامح الحكم وأخذت الدولة سمتها العربية فتعربت جميع أجهزتها وأرسيت قواعد النظام الإداري وتوضحت ملامح النظام الإجتماعي والإقتصادي من خلال الممارسة والتطبيق، إذ ذاك تكاملت أبعاد وملامح شخصية الجبار العربي الذي انطلق من الجزيرة تلفه رمالها وتحرقه شمسها، ويدفعه كل ما في العقيدة والمثل التي بشرّ بها محمد بن عبد الله وأقام دولته على أساسه من خير وقدرة على إرساء قواعد المجتمع الفاضل القوي الخلاق. وإذ ذاك تكاملت أيضا هذه المرحلة من حياة أمتنا التي أسميناها مرحلة الأصول وغدت الأرض الصلبة التي انطلقت منها وثبة أمتنا في مختلف ميادين الحياة والحضارة والفكر، والإطار الذي انتظم مسيرة تاريخنا في مختلف مراحله.

وطبيعي بعد هذا وعلى أساس منه، أن ننظر إلى هذه المرحلة نظرة فحص وتدقيق لنستجلي بعض ملامحها ونبرز شيئاً من خصائصها التي رسمت أحداث ماضينا بميسمها، واثرت على مسيرته، وبالتالي كانت الخلفية للكثير من مظاهر حاضرنا وماضينا القريب.

وأول ما يجب أن نتحدث عنه في مرحلة الأصول هذه البيئة الجغرافية التي عاش الإنسان العربي في ظلها. فالحضارة، كما هو معروف، هي نتاج لتفاعل الإنسان والبيئة بمظاهرها ومؤثراتها المختلفة. وليس يهمنا في هذه المقدمة أن نتحدث عن أثر البيئة في الإنسان، أو أثر الإنسان في البيئة على وجهه المطلق، ولكن لابد من القول ان تاريخ أمة من الأمم لا يفهم دون فهم بيئتها الطبيعية. والجزيرة العربية في غالبيتها صحراء ليس فيها ما يساعد على حياة الإستقرار، الأمر الذي أدى إلى قلة التمازج البشري بين سكانها، من جهة، أو بين سكانها والعناصر الأجنبية من جهة أخرى.

وقلب الجزيرة صحراء واسعة، الأمر الذي أدى إلى إنتشار الإقتصاد البدوي الذي يعتمد المرعى والقطيع والماء القليل، وما يؤدي إليه كل ذلك من صراع وكفاح مستمر من أجل البقاء. وهذا الصراع من أجل البقاء لوّن حياة العرب في الجاهلية بلونه الأحمر الدامي، فكانت أيام العرب التي لا نشك بأنها تعبر عن واقع إقتصادي واجتماعي مرتبطين إرتباطا وثيقا بالواقع الجغرافي. يضاف إلى هذا أن البيئة الصحراوية تتسم بميسم التكرار وقلة التبدل، الأمر الذي ينجم عنه تمسك شديد بالتقاليد والعادات، ومحافظة على ما هو مألوف، وكل ذلك يؤدي في النهاية إلى شيوع الأعراف والعادات كقوانين ثابتة تتحكم في الحياة.

ولكن موقع الجزيرة العربية الجغرافي بين دول العالم القديم وإحاطة البحر بها من ثلاث جهات أديا إلى ظهور التجارة كعامل هام في

نموذج من الكتابة القرآنية غير المعجمة

الحياة ونشأة الدول من جهة، وإلى دخول الجزيرة في لعبة السياسة الدولية آنذاك. وليس يهمنا هنا أن ندخل في تفاصيل الحديث عن الدول التجارية التي قامت في جنوب الجزيرة وغربها وشمالها وبعض من شرقها، ولكن لابد لنا أن نذكر بازدهار مكة كموقع هام على الطريق التجاري المار بغرب الجزيرة، وتطلع أنظار الدول العظمى آنذاك (فارس وبيزنطة) إليها. كما لابد أن ننوه بأن مكة استطاعت في مرحلة إزدهارها هذه أن تظل بعيدة عن اللعبة السياسية الدولية وأن تقيم في أغلب الأحيان التوازن في علاقاتها مع القوى العظمى، ولكنها كانت في أحيان قليلة تجر إلى مجابهة مع إحداها (حرب النجار) بسبب من مطامع تتهددها بشكل لا يمكن السكوت عليه. وهكذا تأثرت حضارة عرب الجزيرة المستقرين بحركة التجارة الدولية، واتصلوا بشعوب الأمم المجاورة وابتعدوا عن البداوة واتصلوا بالمنجزات المادية والروحية والفكرية لحضارات هذه الأمم. وإذا كان هذا الموقع الجغرافي بالنسبة لبعض عرب الجزيرة نعمة لأنه جعلهم ينعمون بخيرات التجارة، فإنه كان نقمة بالنسبة لغالبيتهم. فسعة الرقعة الصحراوية في وسط الجزيرة، وصعوبة المواصلات، وشيوع حياة البداوة، عللت نشوء دولة عربية واحدة

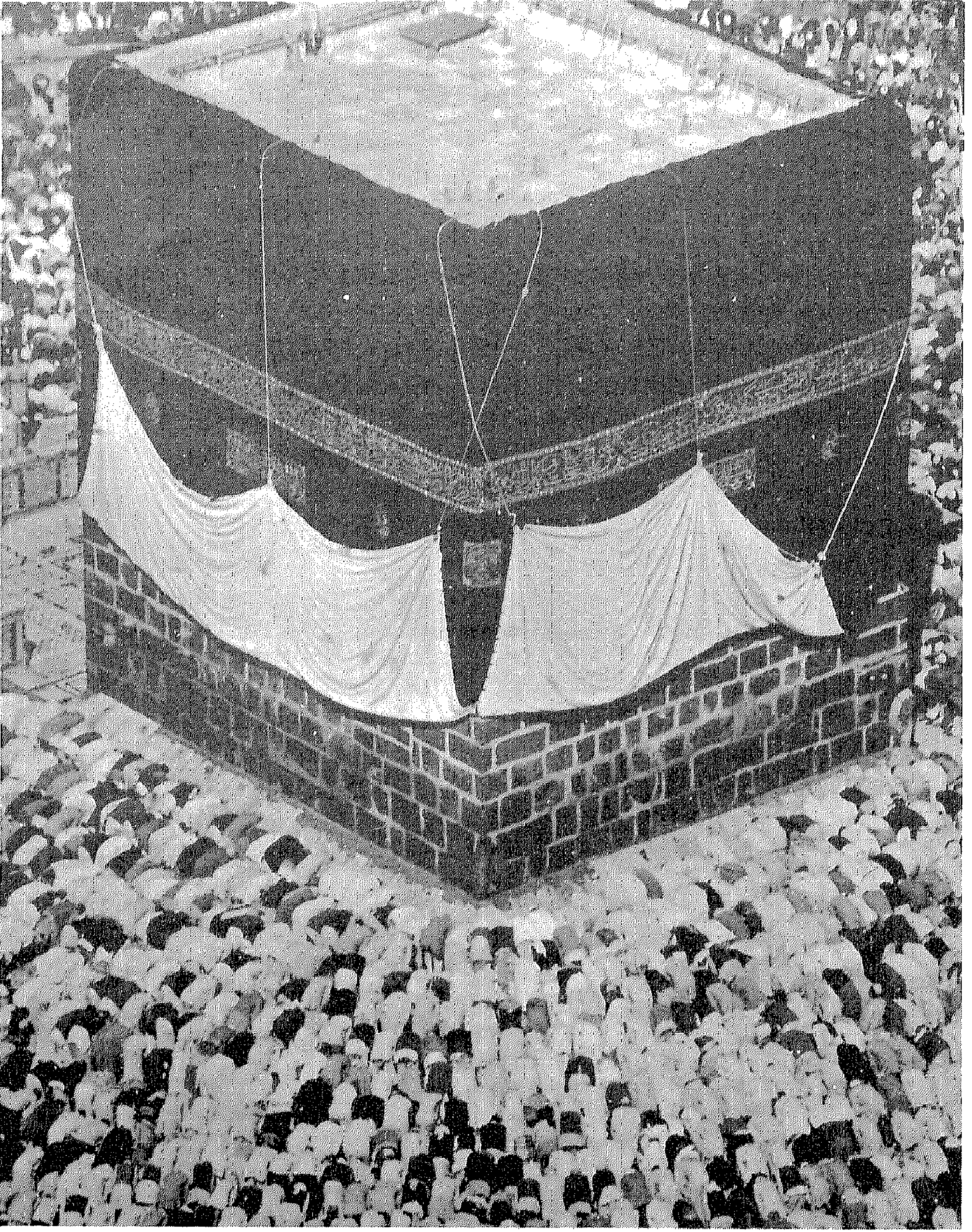
قادرة على إقامة تنظيم سياسي يستطيع أن يلم شعث العرب ويوحد كلمتهم. وذلك لأن أهم مقومات الدولة هو الولاء للأرض، لا يمكن تحقيقه بسبب الترحل والانتجاع الذي تفرضه البداوة، ولأن وحدة الهدف والنزوع إلى التعاون يمنعه الصراع من أجل البقاء في مجتمع يقل مخزونه الغذائي عن حاجة الأفواه الآكلة. هذا فضلاً عما تفرضه البداوة من عصبية قبلية تمنع ذوبان الفرد في الجماعة. وهكذا عاشت الجزيرة في هذه المرحلة من تاريخها فوضى سياسية لم يكن لها يد في صنعها، ونجم عنها فوضى اقتصادية واجتماعية وفكرية. وقد تمثلت هذه الفوضى أكثر ما تمثلت، وبأبشع صورة، في الموقف الديني، فنمت وثنية بدائية تعبد فيها الأحجار وتقدس الأصنام والأزلام، إلى بذور توحيد صافية كالحنيفية، إلى نصرانية ويهودية ومجوسية وسواها. على أنه من المهم أن نلاحظ أن الوثنية العربية تطورت مع الزمن حتى غدت نوعاً فريداً من الوثنية ارتبط بالتوحيد على نحو ليس هنا مجال شرحه (وما نعبدهم إلا ليقربونا من الله زلفى). وفي هذا دليل واضح على تطور النظرة العربية وارتقائها عن حدود المحسوس إلى المجرد، الأمر الذي ساعد على فهم دعوة محمد وتقبلها من قبل الكثيرين، حتى أنه يمكننا القول أن معارضة قريش لمحمد، لم تكن لإيمانها بوثنيتها، بل لوعيها التام لما سيؤدي إليه إنتصار الدين الجديد من قلب للقيم والموازين في المجتمع الذي يتبّوأون فيه مكان الصدارة، وما سينجم عن هذا التغيير من انتقال السيادة في المجتمع الجديد إلى سواهم من رجال هذا الدين.

على أن هذا الوعي الديني لم يكن عاماً، وربما كان في الحجاز أقوى منه في بقية أنحاء الجزيرة بسبب ما كان للحجاز من صلات تجارية وحضارية مع دول وحضارات العالم القديم من جهة، ولأنه يضم الكعبة محج العرب وملتقىٰ أسواق تجاراتهم. وترافق هذا الوعي الديني بوعي سياسي، بل ربما كان سابقاً له، فقد ظهر في بعض أنحاء الجزيرة ميل إلى التكتل والإتحاد، وقامت في وسط الجزيرة مملكة تضم شمل عدد من القبائل يرأسها رئيس واحد، هي مملكة كندة. ولكن لم يتح لهذه الظاهرة الصحية أن تدوم، وما لبثت مملكة كندة أن تصدعت لنفس الأسباب التي دعت إلى قيامها. ولكنها كانت نواة صالحة ظلت العيون تتطلع إليها وإلى ما حققته في وحدتها.

أما في المجال الإجتماعي، فلم تكن الحال بأفضل، وإذا خرجنا خارج حدود النظام القبلي، لوجدنا طبقية اجتماعية مبنية على أساس من الثورة والجاه تتمثل بأوضح شكل في المجتمع الملكي، وفي مجتمع الطائف بشكل أقل وضوحاً.

وظهر الإسلام بعد ذلك في بيئة مكة الحضرية، وكان واضحاً منذ بداية دعوة الرسول أن تعاليم هذا الدين تعاليم حضرية تشجب البداوة وتسعى لإرساء قواعد مجتمع مستقر هادف لا مكان فيه للعصبية القبلية أو لبعض تقاليدها وأعرافها التي لا تنسجم مع فكرة الدولة التي يسودها القانون. وبمعنى آخر كان الهدف الأول للإسلام كدين أن يحل فكرة الدولة والقانون محل فكرة القبيلة والعرف، وأن يقيم الدولة التي يأخذ فيها الله بزمام السلطة ويجعل الشريعة القانون الذي ينظم حياة الناس لأنها القانون الإلهي. ولم تكن الدولة في نظر الرسول والإسلام هي الرقعة من الأرض التي يقوم عليها سلطان المؤسسة السياسية الإسلامية، بل هي الهيئة الإجتماعية التي أطلق عليها اسم «الأمة» والتي تتألف من جميع الناس الذين تربطهم عقيدة الإسلام برباط فكري موحد وبذاك يتميزون عن سواهم ممن لا يدينون بالإسلام. وهكذا تكون «الأمة» جسداً سياسيا واجتماعيا وعقائديا يتلازم فيه الجانب السياسي والجانب الديني تلازماً كلياً بحيث لا يميز بين مؤسسة دينية ومؤسسة سياسية، بل تتكامل المؤسستان، لأن المؤسسة السياسية نشأت في الأساس كمكمّل ومدعمٍ ومحقق لأهداف المؤسسة الدينية. فالدين والدولة كل متكامل، ولكن الدين هو الذي يعطي «الأمة» وحدتها ومقوم وجودها.

وليس هنا مكان شرح وتفصيل تعاليم الإسلام، ولكن لابد من الإشارة إلى أن أهم ما هدف إليه الدين الجديد على الصعيد العملي هو توحيد الجزيرة سياسيا ودينياً وإزالة عوامل الفرقة والإنقسام وإشاعة كل ما من شأنه



إضعاف التيار القبلي الذي أدى في الماضي إلى الضعف والتفكك، وإقامة الدولة المركزية القادرة على توجيه الطاقة العربية في اتجاه موحد قادر على تخليص مجتمع الجزيرة من أمراضه، ورص صفوفه ليخرج من مواقعه المغلقة إلى آفاق العالم الرحبة، يحمل رسالة هذه الأمة ويبني مجدها. وطبيعي أن يؤدي هذا الإتجاه إلى صدام شديد بين القبلية وفكرة الحكم المركزي، هذا الصدام الذي تجلى بأحسن صورة في حروب الردة بعد وفاة الرسول الكريم، وكان النصر فيه لفكرة الدولة ولابد من القول أن الكثير من الولاء الذي لقيه الرسول بعد فتح مكة وعام الوفود كان ولاءً لشخصه، ولن تلبث النعرات القبلية أن تطل برأسها بعد إنتقاله إلى جوار ربه، إذ تفجرت النزعات المكبوتة، وفتح باب الصراع بين التيارين القبلي والإسلامي على مصراعيه، في حروب الردة التي انقسمت فيها القبائل العربية إلى قبائل مسلمة ترى في دفع الزكاة إهانة لها وهي تقبل

أن تستمر على إسلامها ولكن دون أن تدفع هذه الضريبة لقريش، وقبائل رفضت الإسلام كلية واعتبرت نفسها في حل من ولاء محضته محمد ابن عبد الله شخصياً وزال بزواله.. ومن هذه الفئة بعض قبائل شمالي الحجاز التي كانت تربطها بالرسول معاهدات اعتبرتها باطلة بعد وفاته، ولم تر مبدأ للخضوع لأبي بكر الذي خلفه في زعامة الجماعة الإسلامية، وتمثل موقفها هذا في قول الشاعر:

أطعنا رسول الله ما كان بيننا

فيا لعباد الله ما لأبي بكر

أيورثها بكراً إذا مات بعده

وتلك لعمر الله قاصمة الظهر.

وهكذا انقسمت قبائل العرب بعد وفاة الرسول، وزاد انقسامها حدة نوازعها العصبية التي ما زالت أصيلة في نفوس الكثيرين من أفرادها من جهة، وعدم خضوع بعضها أساساً للرسول دينيا أو سياسياً (كبعض قبائل اليمامة) من جهة أخرى. وهكذا كانت الردة سلسلة من الحروب السياسية والدينية والقبلية، تهدف إلى إخضاع القبائل التي شقت عصا الطاعة وخرجت عن الجماعة، ورفضت فكرة مركزية الحكم. لاعادتها إلى حظيرة الدولة، وكانت محنة حقيقية خرجت منها دولة المدينة منتصرة موحدة الصف بعد الإنقسامات التي خلفتها معركة انتخاب الخليفة الأول أبي بكر الصديق.

وكانت النتيجة الهامة التي أعقبت نصر أبي بكر والمدينة في معارك الردة، قيام عصر الفتوح الذي حمل العرب كدعاة حضارة وفكر، وحملة لواء عتق وتحرير إلى أطراف الجزيرة وخارجها، فارتفعت راية الإسلام والعروبة خفاقة في أرجاء الأرض.

ولست أريد أن يمر الحديث عن حركة الفتوح دون أن أناقش موضوع العامل الإقتصادي وأثره في خلق حافز دفع العرب إلى الإستبسال بالقتال للخروج مما هم فيه من فقر ومسغبة فبعض الباحثين الغربيين المحدثين يرون في الفتوح العربية في عهد الراشدين استعماراً إقتصاديا مبكراً هدف أول ما هدف إلى إيجاد ما يسد الأفواه العربية الجائعة على حساب ما تنتجه أرض الغير من غلات وميزات، ويستشهدون على ذلك ببعض الأخبار والأحاديث التي يجدونها في بعض المصادر. ولست أريد في هذه العجالة أن أناقش تفاصيل هذا الأمر، وأن أرد على جميع ما استشهدوا به، وأن أرده إلى حجمه الحقيقي والمعاني الصحيحة التي ينطوي عليها، لا ما أراد أصحاب هذه النظرة استشفافه من هذه الأخبار والإشارات، ولكن لابد من الاعتراف بأمرين ووضعهما في نفس المكانة والأهمية. أولهما: إني لا أستبعد العامل الإقتصادي من حوافز الفتح، ولكني لا أحله المحل الأول. وثانيهما: هو أن الأرض المفتوحة ولا سيما في عهد الراشدين لم تكن أرضا أجنبية، بل أرضا عربية حررت من ربقة الإستعمارين الفارسي والبيزنطي اللذين جثما على صدر هذه الأرض ردحا طويلاً من الزمن، وحاول عربها منذ الجاهلية التحرر منه، وليس أدل على صحة ما ندعيه ما كان من أمر ذي قار بين عرب العراق وحكامه الفرس، والصداقة المستمرة بين المناذرة والغساسنة والسلطتين الفارسية والبيزنطية في العراق والشام.

ويمكننا في هذه المرحلة من حديثنا أن نقرر أنه بانتهاء حروب الردة وخروج العرب المسلمين فاتحين توقفت مرحلة الصراع السافر والعداء الشديد بين القبلية والحكم المركزي إلى حين وتوحدت الجهود لدعم الدولة في كفاحها للبقاء والنماء. وقد أدى تدفق الشعوب المغلوبة على حاضرة الدولة وتمازج عرب الجزيرة بهم داخل الجزيرة وفي الأمصار المفتوحة إلى بداية عصر جديد اتسم بصراعات دينية وقومية من جهة، وبتزاوج حضاري أعطى ثماراً يانعة من جهة أخرى.

وتنتهي هذه الفترة من فترات مرحلة الأصول التي نحن بصدد الحديث عنها بحادث ضخم غيرّ وجه التاريخ السياسي لخلافة الراشدين، وانحرف بمسيرة التاريخ العربي عن الطريق الذي كانت تسلكه، وهو الفتنة الأولى التي جرت زمن الخليفة عثمان والتي انتهت بمقتله وقيام حكم بني أمية. وقد ترتب على هذه الفتنة نتائج ضخمة، وكانت هي في حد ذاتها من فعل عوامل متعددة، فالفتنة الأولى عند المؤرخين

الجامع الأموي، دمشق.



التقليديين ثورة على عثمان الخليفة المترف المستتر بأمور الدين المحب للملاذ والحياة اللينة، المقرّب لأهله وأقربائه، الضعيف الشخصية الذي أوكل الأمور لأشخاص مغموض عليهم في دينهم ودنياهم، المتصرف بأموال بيت المسلمين على غير ما أوجبه الشرع. وعندي أن هذه الأسباب ما هي إلا مظاهر لما طرأ على المجتمع العربي من تغيرات بعد عصر الفتوح ورثها عثمان عمن سلفه، ولكن لم يستطع، أو لم يفعل شيئاً لتغييرها أو لتوجيهها الوجهة التي تجنب «الأمة» الوليدة ما مرت به من محن وأزمات نتيجة لتفجر هذه الأزمة. فقد ورث عثمان عمن سلفه من الخلفاء مشكلة الإتجاهات القبلية المتصارعة، كما ورث صراع هذا الإتجاه بشكل عام مع الإتجاه الإسلامي، وورث الآثار التي ترتبت على قيام عملية الفتوح وما أحدثه إنتقال مركز الثقل السياسي للدولة من المدينة إلى الأمصار، وهجرة القبائل للسكنى في هذه الأمصار المفتوحة، ونشوء عصبية جديدة هي عصبية الأمصار نتيجة إنتقال الوحدات القبلية إلى أماكن سكناها الجديدة. وقد زاد في تفجر الأزمة أنه في خلافة عثمان سكنت حركة الفتوح وقل مردود الغنائم على المقاتلين، فتفكروا في أمور الدولة، واعتبروا أنه ما في بيت المال ليس من حق الدولة ولكن من حقهم، وأن الدولة اغتصبت ما أوجبه الله لهم.

وقد تبدت عصبية الأمصار في غضب سكان هذه الأمصار من سلطة المدينة ورجالاتها، وتفردهم بشؤون السلطتين السياسية والإقتصادية. ولعل في الأصول والأعراف القبلية تفسيراً لهذه العصبية الجديدة. ففي الماضي كان اقتصاد القبيلة يعتمد على مرعاها وحماها، وحل المصر، بعد الفتح، محل الحمى والمرعى، فكان طبيعياً أن ترى أن لها الحق الأكمل في التصرف بهذا المصر وخيراته الذي حل محل الحمى والمرعى الذي كان لها قبل انتقالها إلى دار الهجرة. ولعل أفصح تعبير عن هذين الموقفين، موقف حكام المدينة زمن عثمان، وسكان الأمصار المفتوحة من القبائل، هذا الحوار بين سعيد بن العاص والي الكوفة الذي قال: «هذا السواد بستان قريش» فعلت صيحة رجال القبائل مجلجلة: ويحك، أتجعل ما أفاء الله علينا بظلال سيوفنا ومراكز رماحنا بستاناً لك ولقومك.».

وهكذا يظهر لنا أثر الجانب الإقتصادي جليا في موضوع الفتنة، لا سيما إذا أخذنا بعين الإعتبار ما تضمنته دعوة الإسلام من حض على مكافحة الاستغلال، وحث على التعاون والتكافل، وما جرى زمن أبي بكر من تسوية في قسمة الغنائم، وما فاض بين أيدي المقاتلة. ولكن عثمان الذي سار على نهج عمر، شاء له سوء حظه أن تتوقف الفتوح في عهده، فيقل وارد المقاتلة من

الغنائم فتهيج أشجانهم، لتجد خليفة ضعيفاً كثرت المطاعن فيه، ولا يملك ما كان يملكه عمر من سلطان وجبروت.

هذا فضلاً عن الثراء الفاحش الذي أصابه بعض رجالات قريش نتيجة لخبرتهم التجارية والمالية الموروثة عن ماضيهم قبل الإسلام، وما أتاحته لهم خلافة عثمان من فرصة للانسياح في الأرض واستغلال خيرات البلاد بما منح لهم من امتيازات لم تمنح لسواهم من رجالات القبائل. وهكذا يمكن القول أن الثورة على عثمان تمثل في الكثير من جوانبها ثورة القبائل على مسلسل التسلط القرشي الذي بدأ قبل الإسلام وخبا زمن الرسول وأبي بكر وعمر، ثم عاد ليطل برأسه بشكل حاد زمن عثمان الذي لم يستطع أن يوقفه ودفع حياته ثمناً له. ولم يؤد مقتل عثمان إلى انتصار التيار القبلي إذ جاء انتخاب علي تعبيراً عن سيادة التيار الإسلامي من جهة، وسيادة قريش من جهة أخرى. وجاءت خلافة ابن أبي طالب في ظروف صعبة، فهو مرشح القبائل القائدة لهذا المنصب، وهو في الوقت نفسه قرشي لا ترضى عن خلافته فئة رجال المال والأعمال والنفوذ من بني أمية وسواهم من بطون قريش التي هي قبيلته والتي يفترض أن تمنحه الدعم والتأييد. وهكذا أمضى علي خلافته لا يكاد يطفىء نار أزمة حتى تندلع نيران أزمة جديدة. ويلاحظ المرء أن أهم قضية واجهته تتلخص في أنه وهو ممثل التيار الإسلامي والمدافع عنه دفاع المستميت، كان عليه أن يحارب التيار القبلي بالأوجه الجديدة التي برزت له والتي رغم تعارضها وافتراقها لا يمكن تصنيفهاإلا في زمرة واحدة هي الزمرة القبلية. فخروج معاوية ومن معه من بني أمية للمطالبة بدم عثمان، مظهر من مظاهر القبلية، لأن واجب الأخذ بثأر عثمان يقع على عاتق الدولة وليس على عاتق أقربائه، وخروج أقربائه مظهر من مظاهر القبلية. وكذلك حركة الخوارج التي كانت الشوكة الثانية الممضّة في جنب الخليفة الجديد هي من أوضح مظاهر التيار القبلي، إذ أن عامة الخوارج كانوا من رجال القبائل الذين استقروا في الكوفة والبصرة بعد الفتح وساءهم، على ما يدعون، موقف علي من التحكيم، فخرجوا من جيشه ورفعوا لواء العصيان وظلوا كذلك حتى قتلوه. وثالث مظاهر هذه القبلية القاتلة التي واجهها علي ابن أبي طالب وشغلت خلافته بأقسى الأزمات هي عصبية الأقاليم التي تمثلت في الصراع بين الشام والعراق: العراق بقبائله العديدة الناقمة على بني أمية وزعيمهم في الشام معاوية، والشام التي توحدت بمن نزلها من قبائل قيس وسواها في ظل زعامة البيت الأموي وأخذت تعمل جاهدة لنقل مركز السلطة إليها وحرمان العراق منه، وكان لها النصر في النهاية. في هذه البيئة التي استفحلت فيها القبلية بأشكالها ومظاهرها المتناقضة التي عددنا بعضها، أراد علي بن أبي طالب أن يرفع لواء التيار الإسلامي، فكانت النتيجة سلسلة طويلة من الأزمات والحروب والمحن، ودفع الخليفة الراشدي الرابع والأخير حياته ثمناً لما آمن به من مبادىء.

ولعل أهم ما نجم عن هذا المخاض الطويل من الأحداث الذي بدأ بالخلاف الذي وقع في إجتماع السقيفة وانتهى بمقتل علي بن أبي طالب على يد الخارجي ابن ملجم هو ظهور الحزبية السياسية في المجتمع العربي الإسلامي والتي تمثلت أول الأمر بأنصار ومهاجرين، ثم ما لبثت أن ظهرت العثمانية والخوارج والذين اعتزلوا الفتنة وجماعة القدرية الذين يؤكدون حرية الارادة ومسؤولية البشر هذا فضلاً عن النزعات الإقليمية والتحركات القومية التي بدأت تباشيرها تتمثل ببعض تكتلات الموالي الذين سيظهر دورهم بشكل واضح في العصر الأموي. كما أن مقتل علي أدى إلى نشوء حركة التشيع التي بدأت حركة سياسية، ثم ما لبثت أن غدت حركة سياسية دينية فاعلة لعبت الدور الأساسي في العصر الأموي، وساهمت مع حركة الخوارج وتحركات الموالي في طبع فترة الحكم الجديدة بطابعها، وعملت في نفس الوقت على إسقاط هذا الحكم الأموي، وكان ذلك حين انتصرت الدعوة العباسية التي كانت للرضا من آل البيت دونما تفريق بين آل علي وآل العباس.

وهكذا تكونت التيارات وتبلورت الملامح، وانتهت مرحلة الأصول هذه بنصر مؤزر لآل العباس لتتطور الإتجاهات وجهة تتناسب وظروف الحكم الجديد. ◘



نجيب عازوري من خلال زمانه ومكانه

نجيب عازوري والقومية العربية

د. زاهية قدورة

(الحلقة الثانية)

استعرضت الدكتورة زاهية قدورة في الحلقة الأولى احوال الدولة العثمانية المتدهورة في اواخر ايامها حتى مؤتمر باريس سنة١٩١٣، وفصلت محاولات الاصلاح التي قام بها بعض السلاطين والتي لم تكن كافية لتنتشر العدل والاطمئنان، بخاصة في البلاد التابعة للدولة، وهكذا ظهرت فكرة القومية العربية بين اتجاهات سياسية متعددة، كفعل وردة فعل، وتألب حولها كل من اعتقدها شافية، وفي هذه الحلقة نطلع على هذه الاتجاهات السياسية وبخاصة فكرة القومية العربية ومساهمة عازوري في نشرها وتمكينها.



هذا هو الجو العام قبيل، وفي زمن نجيب عازوري، والذي تبلور في عدة اتجاهات سياسية. حركة إسلامية، وحركة عثمانية، وحركة قومية[1] (عربية). ونستطيع القول أن حركة أخرى أخذت بالظهور، وهي حركة قومية (عربية) متحفظة، تلك الحركة التي غرستها المدارس والمعاهد التبشيرية ورعتها الأدوات والأجهزة الاستعمارية المتعددة بحجة المد العربي «الاسلامي».

أما الجو الخاص الذي عاش فيه نجيب، وانطلق منه، فكان من بيئته الثقافية من مدرسة الفرير في بيروت، ثم انتقل إلى فرنسا لاتمام دراسته واطلاعه على حركات التحرر الغربية، وعلى فكرة القومية بالذات التي كانت سائدة آنذاك، ثم عاد إلى الوطن حيث تولى منصب نائب حاكم فلسطين من سنة ١٨٩٨ - ١٩٠٤، فأتاحت له هذه الوظيفة الاطلاع على الادارة التركية مباشرة، وعلى باكورة الهجرة اليهودية.

وقد اصطدم عازوري مع الحكومة التركية، فاستبعد من الوظيفة واتجه نحو مصر وفرنسا حيث واصل نشاطه وأسس حزباً قومياً عربياً أسماه حزب «جامعة الوطن العربي»[٢].

واصل العازوري نشاطه في الكتابة في الصحف الفرنسية بمقالات عن فكرته القومية في (L'echo de paris) و (Le Figaro) إبتداء من عام ١٩٠٥. وقد نشر كتاباً باللغة الفرنسية بعنوان «يقظة الأمة العربية في آسيا التركية Le réveil de la nation arabe dans l'asie-turque.) وفي مقدمة كتابه هذا ذكر العازوري أنه في صدد إصدار كتاب آخر متمم لكتابه المذكور بعنوان «الخطر اليهودي العالمي»[٣]. وفي عام ١٩٠٧ أصدر العازوري مجلة شهرية سياسية تاريخية أدبية اقتصادية (L'independance Arabe).

وبازدياد الآمال المعلقة على «الجامعة» بلغت نشاطاته ذروتها وبخاصة في فرع باريس الذي يلعب دور «حث لأوروبا للالتفات إلى شعب يناضل من أجل حريته»[٤].

وعلى أثر انقلاب ١٩٠٨، وسقوط السلطان عبد الحميد، تعاون عازوري مع تركيا الفتاة ونشر بياناً (٥) في مجلته «الاستقلال العربي» تلك المجلة التي أسسها للتعريف بالقضية العربية[٦]، وكان شعارها «بلاد العرب للعرب» وقد أسند رئاسة تحريرها إلى (Eugéne Gung) عاد بعد ذلك إلى فلسطين يحدوه الأمل للاشتراك في الانتخابات (مجلس المبعوثان) لكن ذلك لم يتحقق إذاستغل جماعة «تركيا الفتاة» حكماً سابقاً عليه بالسجن لمدة ١٥ سنة كان قد صدر بحقه من قبل حاكم القدس عام ١٩٠٢، فمنع من ترشيح نفسه بانتظار إعادة النظر بالحكم. وهرب إلى مصر، وواصل نشاطه السياسي والصحافي وشارك مع الأحرار الذين هاجروا إلى بلاد النيل، في إصدار المجلات والجرائد وتأسيس الجمعيات والأحزاب وإقامة العلاقات مع الدول الأجنبية عبر قناصلها. وقد ترأس في مصر تحرير جريدة يومية «مصر» (La quotidien d'egypt) كما أسس المحفل الماسوني في مصر، وظل يعمل في الصحافة وأيد ثورة الشريف حسين وساعد على تأمين السلاح إلى الثوار العرب عبر سيناً[٧]. وظل



الشريف حسين بن علي

عازوري يعمل جاهداً إلى أن شارك في تنظيم المؤتمر السوري العربي في باريس عام ١٩١٣. توفي العازوري في القاهرة على أثر نوبة قلبية عام ١٩١٦.

سبق القول بأن العازوري عاش في عصر تفتح القوميات، ولذا عالج موضوع الشعوب التابعة للسلطنة العثمانية على أساس قومي فقال: «منذ أن اغتصب الأتراك الخلافة أضاعت هذه الشعوب وعيها لقومياتها وسربلتها الجهالة في عبودية واحدة»[٨] ولذا طالب باستقلال هذه الشعوب على أساس قومي بعد أن استيقظت ووعت ذاتها «وهي تحلم بالاستقلال. يتهيأ الأرمن والأكراد والعرب معاً لخلع عبودية الأتراك المقوتة بغية تكوين ممالك حرة دستورية»[٩].

وما دامت فكرة القومية العربية[١٠] هي الفكرة التي يدعو إليها العازوري، بشكل عام فمن الطبيعي أن يكون له تصور لقوميته التي ينتمي إليها، ولذا فهو يرى «أن العرب الأسيويين أكثر شعوب العالم هدوءاً»[١١]، وهم مع أنهم

رزحوا تحت عبء التبعية إلا أنهم يظلون يتميزون ويحتفظون بفضائل سامية معينة فيقول «ومع أن العرب أعترتهم الأخطاء الملازمة للشعوب التي أفقرت وأرهقت بعبودية طويلة فأنهم ما زالوا يحتفظون ببقايا الفضائل السامية التي تميزهم منذ زمن هارون الرشيد وصلاح الدين»[١٢] ويتميز العرب بروحهم السمحة: «ودعت الأمة العربية ذاتها من دجلة إلى برزخ السويس ومن البحر المتوسط الى بحر عمان الى ثورة قومية تدهش العالم بسرعتها وبالروح السلمية التي تحركها»[١٣].

وقد أعلن العازوري رؤيته القومية في تحديد أهداف حزبه «حزب جامعة الوطن العربي» بالبيان الذي صدر عن المؤتمر العربي الأول في باريس عام ١٩٠٥، «أن امبراطورية عربية أو اتحاداً كونفدراليا للأقطار العربية سيضمن ازدهار الملايين وسعادتهم ويضع حداً للاضطهاد الذي يمارسه الموظفون الأتراك، وتسمح ببعث الحضارة القديمة التي ألّقت العربية في القرون الوسطى. نريد بوحدتنا أن نحكم أنفسنا بأنفسنا، بلغتنا، وحسب عاداتنا»[١٤].

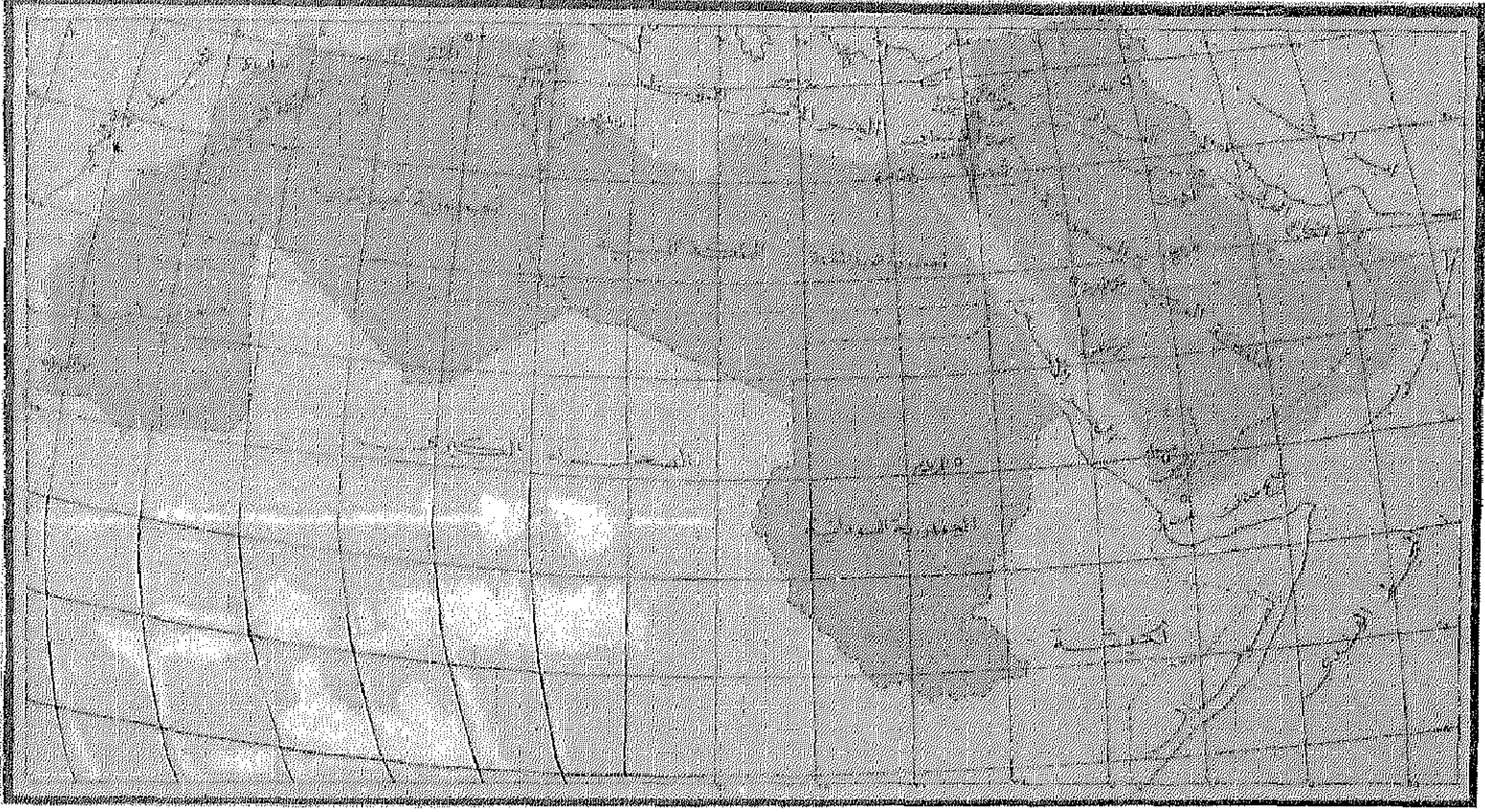
لقد تحدى العازوري الأتراك، بما تحدى به العرب الأتراك، فكان يردد على جمع من الأتراك: «النبي عربي والقرآن عربي، ولغة السماء عربية»[١٥].

وقد دعا العازوري إلى تعريب المذهب الكاثوليكي، وتأسيس بطريركية خاصة لهذه الكنيسة إذ كان العرب في كل الأقطار التي فتحوها وحكموها أجيالاً مثال التسامح والرحمة والانسانية مع أصحاب الأديان الأخرى. «لقد احتوى العرب الذين هاجموا آسيا وأفريقيا، كل الشعوب والعناصر ولم يجدوا صعوبة في فرض اللغة العربية على السوريين والكلدانيين الذين كانوا من جنسهم وتشبه لهجاتهم اللهجات العربية. واحترم الخلفاء العرب الطوائف المسيحية تمشيا مع الوضع الراهن ومع أنهم تعلموا العربية فقد استمروا على تأدية الصلاة بلغاتهم الأصلية واحتفظوا بالنظام الديني القديم»[١٦]... وأي ضير يتأتى من أن تصبح اللغة العربية — لغة القرآن والاسلام العالمي — لغة لمذهب كاثوليكي؟ وأن تؤسس بطريركية خاصة لهذه الكنيسة الجديدة تحتوي كل المذاهب الأخرى في سنوات معدودة، وتنضم الكنائس الأرثوذكسية تلقائياً أيضا لها لأنها ستكون مدفوعة بحركة الأمة الشاملة، ويتعاطف المسلمون مع المسيحيين أيضا لأنهم يقتربون منهم من أجل السلام والخير العميم للوطن المشترك، الوطن العربي»[١٧]. أن العرب المسلمين لم يعودوا غرباء في منطقة بلاد الشام وما بين النهرين لأن سكان البلاد الأصليين استقبلوهم بالترحاب، وتبنوا لغتهم، وتبنى كثير منهم دينهم. ولذا طالب باستعمال الاصلاح، وبانتظام البروتستانت كالكاثوليك وتوحيد نشاطهم «ويشكلوا مذهبا قوميا عربياً بنظام ديني وطني، ويبعدوا كل لغة أجنبية وسيحتوي هذا المذهب، بعد قليل من الزمن، كل الكنائس لا فرق بين كاثوليكية منها وأرثوذكسية...لقد تعبت الأمة العربية تماماً من الانقسامات التي انبعثت من مسائل مذهبية تافهة...»[١٨]

ويؤكد على فكرة القومي: «وليس من شيء أكثر توافقا من طموحات الأمة وأسهل من خلق مذهب قومي عربي تتلى بموجبه الصلوات كلها بالعربية لابعاد اليونانيين واللاتين والسريان والكلدان»[١٩].

وقد انطلق في نظرته تلك من واقع العرب عند الفتح الاسلامي في أن سياستهم كانت سياسة التحرير لا القهر فيقول: «ولا تكفي حدة الايمان الديني وقوة التضحية، وإنكار الذات لتفسير النجاح العربي الهائل، فلقد كان من جملة أسباب هذا النجاح أيضا حسن استقبال الشعوب لهم، فقد جذبوا ملايين الرجال وأظهروا، في مناطق متعددة، أنهم يريدون التحرير لا القهر، فقد بدوا أكثر إنصافا من الأسياد القدماء وأكثر حلماً رغم ضراوة اندفاعهم»[٢٠].

وأكّد رحابة الاسلام وتسامحه مؤكداً أنه لا وجود للتعصب الديني أبداً عند المسلمين ولكن الاستعمار يستغله للتجزئة والسيطرة فيقول: «رغم أن الأتراك يضطهدون المسلمين العرب أكثر من اضطهادهم المسيحيين إلا أنهم يحرضون أولئك على هؤلاء، وهم يستندون إلى الكهنة اليونان فيثيرون الأرثوذكس ضد الكاثوليك بهدف



إلهاء الشعوب، وتحويل انتباهها عن الطغيان. ولقد جانبت أوروبا، الحقيقة لاعتقادها بوجود التعصب الديني، في حين أنه لا وجود للتعصب الديني بين المسلمين، العكس بالعكس، لقد أمر محمد بالتسامح»(٢١).

ولقد تحدث عازوري أكثر من مرة، عن دولة عربية مستقلة، رسم حدودها وحدد نظامها على الشكل التالي:

«نود أن ننسلخ بتاتاً عن تركيا لتأسيس مملكة عربية تشتمل على جميع البلاد العربية في آسيا الداخلة في حدودها الطبيعية من وادي دجلة والفرات إلى قناة السويس ومن البحر المتوسط إلى خليج عمان، وستكون هيئة الحكومة عبارة عن سلطنة حرة دستورية بأوسع معانيها وحاكمنا عربي مسلم»(٢٢) وسترتكز حكومة هذه السلطنة الدستورية على حرية كافة المذاهب، ومساواة كافة المواطنين أمام القانون، وتحترم المعاهدات الدولية، كما تحترم الحكم الذاتي في لبنان واستقلال إمارات اليمن ونجد والعراق، على أن يكون إمبراطورها اميراً من العائلة الخديوية المصرية، أي من أسرة محمد علي الحاكمة في مصر، والتي كان لها تاريخ طويل في مكافحة السيطرة التركية في القرن التاسع عشر على أن تستبعد مصر عن الامبراطورية العربية، لأسباب واهية هشة، يتذرع بها عازوري، «لأن المصريين لا ينتمون إلى العرق العربي فهم من عائلة البرابرة الأفريقيين واللغة التي كانوا يتكلمونها قبل الاسلام لا تشبه العربية قط، أضف الى ذلك قيام حدود طبيعية بين مصر والامبراطورية العربية يتوجب احترامها حتى لا تدخل في الدولة الجديدة بذور التنافر والهدم. كما أن الخلفاء العرب لم ينجحوا في السيطرة طويلاً على هذين البلدين»(٢٣).

«يقدم الوطن العربي الخلافة الاسلامية الدينية العامة للشريف المتحدر عن الرسول والذي ينضم بصراحة إلى حزبه الذي يكرس نفسه لهذا العمل. وسيكون لهذا الخليفة الديني دولة سياسية، مستقلة تماماً تشمل ولاية الحجاز الحالية ومنطقة «المدينة المنورة» حتى العقبة. ويتمتع الخليفة الديني باحترام الملك ويملك سلطة روحية فعلية على كافة مسلمي الأرض»(٢٤) على أن يعم نفوذه العالم الاسلامي ويتمتع بهيبة روحية بلا منازع، لا ينتقد طوال حياته، وتبقى عظمته مستقلة. «أن خليفة نبي الله يجب أن يتمتع بنفوذ أو هيبة روحية بلا منازع، ويجب أن يبقى محترماً لا ينتقد طوال حياته، ولا يرتقى إلى سلطته ويجب أن تبقى عظمته مستقلة»(٢٥).

«هكذا تكون سلطته شاملة ويحكم من مقره حكماً روحيا لجميع مسلمي العالم الذين يخفون إلى مقامات محمد المقدسة لتأدية

(فريضة) الحج»[٢٦]. وهو يرى «أن التعصب الديني لا يوجد قط في الأعماق ولكن الشعور القومي هو الذي يوجه حركات الشعوب»[٢٧] وهذا الشعور بالذات هو الذي يربط بين العرب ولن يوقفه أي عائق. «لقد سبق السيف العزل ودعت الأمة العربية ذاتها من دجلة إلى برزخ السويس ومن البحر المتوسط إلى بحر عمان إلى ثورة قومية تدهش العالم بسرعتها، وبالروح السلمية التي تحركها»[٢٨].يحدد الدافع، ويحدد المكان بحدود البلاد العربية ويتوقع ثورة سلمية هادئة سريعة تحقق ذاتها وتتضامن البلاد العربية لتحقق تلك الوحدة، «يستيقظ أسد الصحراء وتردد جبال سوريا وسهول الفرات صدى زئيره، ولقد كنت أسمع دائما هذا الضجيج الأهم الذي يسبق قصف الرعد وكنت أرى البرق الذي يسبق كبرى العواصف»[٢٩]فأمله عظيم وثقته بأن الأمة كلها متجاوبة مع تطلعاته وبأن هذه الأمة سيكون لها علم قومي موحد تنضوي تحت لوائه «وفي اليوم الذي سيرتفع فيه العلم القومي العربي في دمشق وبغداد»[٣٠] ستتضافر الجهود والمقومات كلها لانتصار قوميته التي يراها حقيقة واقعة لا حلم خيال، كانت قومية العازوري فرنسية الهوى، متأثرة بنشأته الثقافية، وبموقف الفئات الفرنسية المثقفة في أواخر القرن التاسع عشر من اليسوعيين والبابا: «هكذا نجد بفضل نشاط فرنسا بيننا مثقفين واعين، وبتنا نعي قوميتنا»[٣١]. وكان العازوري معجبا بالثقافة الفرنسية التي «قامت بحملة إلى سوريا وخلقت الحكم الذاتي في جبل لبنان دون التمركز في البلاد كما كان يمكن لها أن تفعل»[٣٢].وأنها قدمت خدمات جليلة من تعليمية وغيرها، وحمت الارساليات: «أن الخدمات التي لا تحصى والتي أدتها على مر الأزمان لقضية الحضارة تعطيها الحق في أن تتمتع بمحبة كل الشرقيين وجميلهم دون تمييز في العرق أو في الدين»[٣٣].

فلا شك أن فهم عازوري لعلاقة المسلمين بالمسيحيين في الشرق، ولعلاقة لبنان بالمملكة العربية التي يقترحها نابع من إحساسه بوضعه الطائفي وخوفه على هذا الوضع، وهو مع إصراره على احترام الحكم الذاتي في لبنان، يرى أن على المسيحيين تقديم تنازلات فيما يتصل بالقضايا الدينية مقابل الحصول على وضع خاص في قلب المملكة العربية، ولا يخفف من هذا الاحساس دعوته إلى منح النجديين وضعاً مشابهاً للبنان، فلو كان الوضع الخاص سياسيا لأي منطقة آنذاك يبرر ذلك فلماذا لم يطلبه لمسيحيي فلسطين وهم لم يكونوا يقلون عدداً عن كاثوليك لبنان آنذاك؟ لكن إذا أمكن فهم تصوره لعلاقة الدين بالدولة، لعلاقة لبنان بالدولة في الاطار الذي حددناه، فكيف يمكن فهم موقفه من استقلال مصر عن أمته العربية الجديدة؟ لقد حدد أسسا لغوية ودينية وثقافية وجغرافية للأمة؟ وكلها تطبق على مصر، فهل كان صوت مصطفى كامل المنكر لعروبة مصر هو الذي دفعه إلى الحديث عن خلافات عرقية؟ لا شك أن فكرة استبعاد مصر عن الأمة العربية كانت ولا تزال من بنات فكر الاستعمار وتخطيطه، بغية إضعاف هذه الأمة، وتفكيك تلاحمها.

ونرى أنه يصعب وضع تصوره كله – بما في ذلك فهمه للصهيونية – خارج إطار الصراع الاستعماري على المنطقة، وعن الذي كان يدور بين فرنسا وإنجلترا منذ قرن من الزمان. لقد كانت الدولتان تتنازعان من أجل تقسيم تركة «الرجل المريض»[٣٤]. وكانت الصراعات بينهما في آسيا وأفريقيا تصل إلى حد إعلان الحرب، وقد وقعت الحرب العالمية أخيراً عام ١٩١٤ لأسباب كهذه. أما في الفترة التي كان نجيب عازوري يكتب كتابه (١٩٠٤ – ١٩٠٥) فكانت الدولتان قد أتفقتا مؤقتا بعد مواجهة (فاشودة) على تقسيم مناطق النفوذ. فاعترفت فرنسا بمصالح إنجلترا في بعض أقطار أفريقيا ومنها مصر، واعترفت إنجلترا بمصالح فرنسا في المغرب العربي وبعض أجزاء أفريقية الأخرى وسورية ولبنان، وكان النزاع ما يزال يجري على العراق وفلسطين وقد أظهرت وثائق وزارة الخارجية الفرنسية أن نجيب عازوري كان مرتبطا بالسياسة الفرنسية، ومن هنا يأتي ارتباطه بالمشروع الاستعماري الفرنسي، ومن هنا يأتي التناقض في موقفه. ففي الوقت الذي كان فيه شديد الحماس للقومية العربية وللأمة العربية، وكان يضع ذلك في مواجهة الترك، ويضع الترك في مؤازرة الصهاينة ويفصل مصر

عن العرب الشرقيين إذ لربما يفعل ذلك تناسقاً مع السياسة الفرنسية، رغم أنه أراد ملكاً للشام من مصر. ويبدو تردد وتأرجح العازوري واضحاً من خلال بعض المواقف والآراء. لقد أعلن في المؤتمر العربي الأول المنعقد في باريس عام ١٩٠٥، ملخصاً لمبادىء حزبه، حزب الوطن العربي، وهو الانفصال عن الأتراك، وإنشاء إمبراطورية عربية، أو اتحاداً كونفدراليا للأقطار العربية، ثم «نحكم أنفسنا بأنفسنا بلغتنا وحسب عاداتنا»(٣٥). ويصرح في وقت آخر «نحن لا نطلب من الدول الأوروبية أن تقدم أي تضحية في سبيلنا أو أن تتخذ خطوة عسكرية لصالحنا، فقط نرجو أن تتعاطف معنا أوروبة والولايات في أميركا الشمالية وذلك لصالح السلام العالمي، وخير الانسانية، وتدعم بالتشجيع الحركات الوطنية الانفصالية التي تحدثت عنها في هذا الكتاب وخصوصاً الحركة العربية، فهي أقوى الحركات وأضمنها نجاحاً، وفي الواقع لا يحتاج إثنا عشر مليون عربي إلى أكثر من اثنتي عشرة ساعة لطرد ألف ومائتي تركي يستغلونهم بتجزئتهم»(٣٦). ثم يصرح بوضوح: «لا يملك أحد الحق في أن يحكمنا غير فرنسا، ولن يُهتف بحرارة لأي دولة غيرها إذا نزلت في البلدان العربية يوم يتقرر تجزئة الامبراطورية التركية»(٣٧).

وإذا كانت الأمة العربية التي أشاد العازوري بخصائصها طويلاً ليست قادرة على حكم نفسها بنفسها، رغم أنه أكد ذلك - فما الحاجة إلى استقلالها عن الترك ووقوعها في يد الفرنسيين؟ لا شك أن نجيب عازوري كان مخلصاً في موقفه من الصهيونية، كما كان مخلصاً في إحساسه بوحدة العرب - الهلال الخصيب - لكن نرجح أن ارتباطه بالمشروع الفرنسي في الشرق كان من الأسباب التي أدخلت تناقضات على قضيته.

وهل صحيح أن العرب جميعاً كانوا يشاركونه عداءه للعثمانيين وكانوا يريدون الاستقلال عنهم، أنه فيما عدا عبد الرحمن الكواكبي الذي كان يريد خليفة عربياً، فانه علينا أن ننتظر حتى يتبلور اتجاه «اللامركزية» المعتدل. ورغم قيام جمعيات سياسية سرية



عبد الرحمن الكواكبي

عربية كثيرة، لم يكن هناك توجه عربي شامل ضد السيطرة العثمانية بصرف النظر عن الثورة العربية عام ١٩١٦ وملابساتها.

ولا شك أن جمعية الاتحاد والترقي، التي وصلت عام ١٩٠٩ إلى السلطة عجلت بسياستها في التتريك في بلورة رد فعل عربي لكن مشاريع الانفصال كان عليها أن تنتظر بعض الوقت كليا كي تستطيع الخطوة أن تنال تأييداً جماهيريا عربيا. هذا فان موقف عازوري من الترك هو موقف شخصي إلى حد كبير ومرتبط بالفرنسيين وسياستهم في المنطقة في آن. ويبدو أنه كان يراهن في موقفه من الصهيونية على الموقف الفرنسي المتعارض حتى ذلك الحين لارتباطها بالسياسة البريطانية في الشرق.

أن التناقض الداخلي الذي يسود أجزاء المشروع العربي العازوري وارتباطه بمصالح فرنسا في الشرق حال دون تجذره في داخل الشرق العربي. فحتى في المؤتمر العربي عام ١٩١٣ بباريس لم يلعب عازوري دوراً بارزاً،

ويرى جورج انطونيوس[٣٨] أن نشاطات عازوري في أوروبا أثارت شيئاً من الاهتمام لكنها لم تؤثر في داخل الشرق العربي لصدورها عن باريس وباللغة الفرنسية. وعندما عاد إلى يافا عام ١٩٠٨ لفترة قصيرة لترشيح نفسه للمبعوثان ناقض نفسه إذ لم يدع لمشروعه السالف الذكر بل ركز على قضايا الاصلاح العام[٣٩]. على أن «بورات» ينسب إليه تأثيراً في العالم العربي، لكنه يؤكد أنه لم يكن له أي أثر في فلسطين[٤٠]. ويرجع «هارتمان» ذلك إلى طبيعة شخصيته بالاضافة إلى مسيحيته وارتباطه بفرنسا[٤١]. هذا وإن كانت هذه الأفكار قابلة للبحث والمناقشة.

وكما أشاد العازوري بالعرب ولغتهم كذلك تفاخر بامكاناتهم وتفوقهم العلمي، وبحضارتهم العربية وقيمها الروحية والانسانية، من تحرر، وحرية، وعدالة ومساواة، وإنجازات فكرية وعلمية وفنية وعمرانية، ويعتقد عازوري أنه لو استمرت «الأمة العربية في تقدمها»... كان بامكانها أن تكون على قمة الحضارة العالمية[٤٢].

وكما آمن العازوري بالأمة العربية كذلك آمن بالانسان العربي وإمكاناته، «ففي أقل من قرن شيد العرب جامعي عمر والحمراء واكتشفوا علم الجبر، وطوروا الطب والكيمياء والهندسة وعلم الفلك والجغرافيا وترجموا كتب أرسطو والفلاسفة القدماء وشملت غزواتهم المناطق الواقعة بين الأطلسي إلى ما وراء الهندوس، وبين المتوسط والخط الاستوائي، فسيطروا على إسبانيا ونشروا لغتهم وحضارتهم حيث حلوا»[٤٣].

ويقول في مقولة أخرى: «أن العرب أعطوا دفعاً كبيراً للآداب والعلوم... وأنهم...» أبدعوا شعراء ومؤرخين وفلاسفة وعلماء كثيرين في سنوات معدودة...[٤٤]. وقد ردّد في هذا المجال كلمات إحدى الكاتبات الأجنبيات: أليزار لكوس: «برزت الطاقة المتراكمة من قرن إلى آخر في هذه القبائل المجهولة فجأة وبقوة تفوق قوة الاغريق حين غزو آسيا في ظل الاسكندر، وتفتقت كتفتق مغبر الصبر الذي يقضي أجيالاً ليظهر، ولكن تويجته التي تبرز فجأة تسحر بعظمتها»[٤٥].

ويرى عازوري أن العرب هم الذين حافظوا على تراث أوروبا والانسانية من الضياع، وهم حملة شعلة حضارية جديدة مبدعة: «لقد نقل العرب العلوم والفنون، وشجعوها، فاينع الميراث الذي تركه البيزنطيون ضائعاً. لقد أثار العرب شعلة جديدة في هذه الجمرات التي كادت تنطفيء بهدوء تحت رماد الأديرة الشرقية اليونانية، لقد ساهم العرب رغم انعزال وطنهم مساهمة فعالة في نتاج الانسانية المشترك واختصروا لأوروبا ليل العصور الوسطى الطويل»[٤٦].

■

هوامش

(١) نجيب عازوري، يقظة الأمة العربية، ص١٥.
(٢) المصدر نفسه، ص١٩، ص ١٩٧.
(٣) نجيب عازوري، يقظة الأمة العربية، ص٤ – ٤٣.
(٤) نجيب عازوري، يقظة الأمة العربية، ص١٩.
(٥) (Eugéne Gung, la révolte arabe, p. 23).
(٦) (Ibid: p. 19).
(٧) (Eugéne Gung, la révolte arabe).
(٨) نجيب عازوري، يقظة الأمة العربية، ص ١٩٨.
(٩) المصدر نفسه، ص ١١٢.
(١٠) المصدر نفسه، ص ١٧٦.
(١١) المصدر نفسه، ص ٧٦.
(١٢) المصدر نفسه، ص ٧٦.
(١٣) المصدر نفسه، ص ٩٩.
(١٤) المصدر نفسه، ص ١٩.
(١٥) المصدر نفسه، ص ١٩٧.
(١٦) نجيب عازوري، يقظة الأمة العربية، ص ١٧١.

→ (١٧) المصدر نفسه، ص ١٧٦.
(١٨) المصدر نفسه، ص ١٧٧.
(١٩) المصدر نفسه، ص ١٧٦.
(٢٠) نجيب عازوري، يقظة الأمة العربية، ص ٢١١.
(٢١) المصدر نفسه، ص ١٩٩.
(٢٢) من مجموعة وثائق وزارة الخارجية الفرنسية في معهد الانماء العربي، ١٥٩. تعريب النشرة الفرنساوية الصادرة باقرار اللجنة العربية العليا باريس في ٣ يناير، ١٩٠٥.
(٢٣) نجيب عازوري، يقظة الأمة العربية، ص ٢١٩ - ٢٢٠.
(٢٤) المصدر نفسه، ص ٢٢٠.
(٢٥) المصدر نفسه، ص ٢٢٠.
(٢٦) المصدر نفسه، ص ٢٢٠.
(٢٧) نجيب عازوري، يقظة الأمة العربية، ص ٩٨ - ٩٩.
(٢٨) المصدر نفسه، ص ٩٩.
(٢٩) المصدر نفسه، ص ٩٩.
(٣٠) المصدر نفسه، ص ٦٩.
(٣١) المصدر نفسه، ص ١٢٢.
(٣٢) المصدر نفسه، ص ١١٥.
(٣٣) المصدر نفسه، ص ١١٥.
(٣٤) (Ghohn marritt: the eastern question),p. 225-249.
(٣٥) نجيب عازوري، يقظة الأمة العربية، ص ١٩.
(٣٦) المصدر نفسه، ص ٢١٧.
(٣٧) المصدر نفسه، ص ٢٨.
(٣٨) يقظة العرب، ص ١٧٣.
(٣٩) (Mandel, turds, Arabes, p. 92).
(٤٠) (Porath: the political awchenng tinian, arabes, p/24, of the pales).
(٤١) الجمعيات السياسية العربية حتى الحرب الأولى لهارتمان (مجلة دراسات عربية/ عـ٩/ ١٩٧٨/ ص ٣٢ - ٣٤.
(٤٢) نجيب عازوري، يقظة الأمة العربية، ص ٢١٠.
(٤٣) المصدر نفسه، ص ٢١٠ - ٢١١.
(٤٤) المصدر نفسه، ص ١٩٨.
(٤٥) المصدر نفسه، ص ٢١١.
(٤٦) المصدر نفسه، ص ٢١١.



● **إن الجرائم التي ترتكبها اسرائيل ضد العرب، هي تكرار لجرائم هتلر ضد الشعوب الأوروبية.**

كازيميرز روزينيك
نائب وزير ثقافة بولندا

● **الحرب الفيتنامية جعلت من الولايات المتحدة دولة يحتقرها العالم.**

مارتن لوثر كنج

● **أنني أؤيد انشاء وطن قومي لليهود.. ولكن ألم تكن هناك طريقة أفضل لتحقيق ذلك؟**

ليستر بيرسون
رئيس كندا السابق

لبنان التجربة الديمقراطية

محاضرة ألقيت في المركز الثقافي الاسلامي في بيروت بتاريخ ٢٠/١١/١٩٨٠.

الرئيس الدكتور سليم الحص

الحلقة الثانية

تجربة لبنان مع الديمقراطية في عهدها القصير شهدت صراعاً حاداً بين النظرية والتطبيق، وفي ظل الأزمة الحالية التي يعاني منها الوطن لمسنا تعثّر التجربة واضحاً، فتساءل الرئيس الحص: «هل كان لبنان غير مهيّأ للممارسة الديمقراطية الصحيحة ام أن النظام الديمقراطي الذي فصّل له كان لزمن معين؟»

... وبعد ان استعرضت الحلقة الأولى من المحاضرة أسباب تعثّر التجربة هذه محدّدة الطائفية السياسية موطناً للداء في النظام اللبناني بعامة، تاتي الحلقة الثانية والأخيرة متابعة التحليل بموضوعية ومسؤولية.



لو عدنا إلى المراجع لوجدنا ان الديمقراطية تترادف مع معان مختلفة وإنما متكاملة: هي حكم الأكثرية يمارسه الشعب مباشرة. وهذا النمط من الحكم، المعروف بالديمقراطية المباشرة، انقرض مع انقراض الدولة – المدينة أيام الاغريق. أما النمط الشائع اليوم في العالم وهو الذي يأخذ به لبنان مبدئياً، فهو نمط الديمقراطية التمثيلية، ويجسد شكلاً للحكم يحتفظ فيه الشعب بالسلطة العليا ويمارسها من خلال نظام التمثيل وتفويض السلطة محوره البرلمان. وكلمة الديمقراطية تومىء أيضاً إلى المساواة السياسية والاجتماعية والاقتصادية وانتفاء الفوارق والامتيازات الوراثية أو الطبقية، وتعني أيضاً حالة في المجتمع تتميز بمراعاة حقوق الأقليات وحرية التفكير والمعتقد والتعبير، واحترام كرامة الانسان وقيمته، وتكافؤ الفرص بين الأفراد وحقهم في تحقيق ذاتهم وتنميتها في مجتمع منفتح. كل ذلك في إطار ضوابط دستورية واضحة.

أين لبنان من الممارسة الديمقراطية الصحيحة وهو لا يأخذ بحكم الأكثرية في شكل كامل، وفيه ما فيه من الفوارق الاجتماعية والوراثية، ومظاهر التمييز الطائفي، التي من شأنها ايهان مبدأ تكافؤ الفرص وركائز الديمقراطية الاجتماعية والاقتصادية.

كأني بالنظام اللبناني قد تطور الى ما يشبه الاتحاد بين الطوائف.

المشاركة:

أما موضوع المشاركة فكان عند نشوب الأحداث أحد أبرز مواضيع النزاع السياسي في لبنان. والمقصود المشاركة في الحكم بين رئيس الجمهورية ورئيس الحكومة. والموضوع كما سبقت الاشارة متداخل مع مسألة الطائفية السياسية. فلولا الطائفية السياسية لما كان خلاف حول هذا الموضوع، أو على الأقل لما اصطبغ الخلاف حول هذا الموضوع بالطابع الطائفي كما حصل في الواقع.

يقول الدكتور ادمون رباط (في مجموعة محاضرات حول القانون الدستوري اللبناني):

«من خصائص النظام البرلماني أن تتجسد فيه السلطة الاجرائية بعضوين مختلفين في وضعيتهما القانونية: عضو مستقر وهو رئيس الدولة، أكان ملكا أو رئيس جمهورية، وعضو جماعي هو الوزارة أو الحكومة، يتبدل بتبدل السياسة ويتجدد بتجدد الثقة التي لا بد من أن ينالها من البرلمان.

«والدستور اللبناني لم يتخلّ عن هذه الثنائية البرلمانية اذ أنه قد أناط السلطة الاجرائية برئيس الجمهورية من جهة وبالوزارة من جهة أخرى.»

«غير أن الظاهرة التي اتصف بها من هذه الناحية انما هي المركز الخاص الذي وضع فيه رئيس الجمهورية في البرلمانية اللبنانية، بجعله الدعامة الثابتة للسلطة الاجرائية، بل

سيد هذه السلطة الأولى، لدرجة أن الوزارة لا تستطيع ممارسة الحكم إلا وهي في دور دوران في فلكه، وان البرلمان لا يسعه البقاء إلا وهو في حالة من التجاوب الدقيق مع رغباته.

«وهذا التمركز للسلطة الاجرائية في شخص رئيس الجمهورية - الذي يبدو شاذا عن مألوف البرلمانية المعروفة - يرجع الى أسباب خاصة بالوضع اللبناني»... تعود الى أن الانتداب الفرنسي وجد في توطيد سلطان رئيس الجمهورية سبيلا سهلا لاجراء رقابته على أعمال الدولة والتدخل في شؤونها، كما تعود، حسب قول الدكتور رباط، إلى أن طبيعة العقلية اللبنانية لا تتقبل بسهولة ازدواج السلطات، كما وأن الطائفية كان لها فعلها في جعل رئيس الجمهورية حكما طبيعيا ولازما لاتجاهات لا يصونها من التناقض سوى هيبته العليا.

الصلاحيات في الدستور

إن موضوع المشاركة يقوم في جوهره على توزيع المسؤوليات والصلاحيات ضمن السلطة التنفيذية بين رئاسة الجمهورية ورئاسة الوزراء. وفي الحديث عن صلاحيات الرئاستين لابد من التمييز بين مفاهيم ثلاثة للصلاحيات: مفهومها حسب النصوص الدستورية، ومفهومها حسب العرف المتبع، ومفهومها من حيث الواقع العملي. وشتان ما بين المفهوم والآخر.

من ناحية النصوص الدستورية، لا وجود لصلاحيات محددة لرئيس الوزراء بصفته هذه. وأي صلاحيات يمارسها رئيس الوزراء فانما تنبع من كونه عضوا في الحكومة، والحكومة هي التي تشارك رئيس الجمهورية في اتخاذ القرار في مجالات محددة، أو انها تعود اليه بصفته وزيرا وذلك في تصريف شؤون الوزارات التي يتولاها أو في التوقيع مع رئيس الجمهورية على القرارات المتعلقة بتلك الوزارات بالذات. فالدستور اللبناني في الواقع لا يأتي على ذكر رئيس الوزراء إلا في مادتين اثنتين فقط: المادة ٥٣ التي تنص على أن «رئيس الجمهورية يعين الوزراء ويسمي منهم رئيسا...»، والمادة ٦٦ التي تقضي بأن «... يعد بيان خطة الحكومة ويعرض على المجلس (المجلس النيابي) بواسطة رئيس الوزراء أو وزير يقوم مقامه».

فيما عدا هذين الموضعين، فلا ذكر لرئيس الوزراء، وبالتالي لا نصوص تتعلق بصلاحيات ولا دور محددا له. فالدستور يسند السلطة الاجرائية الى رئيس الجمهورية صراحة وتحديدا.

فبموجب المادة ١٧: «تناط السلطة الاجرائية برئيس الجمهورية وهو يتولاها بمعاونة الوزراء وفقا لأحكام هذا الدستور».

وحسب المادة ٥٤: «مقررات رئيس الجمهورية يجب أن يشترك معه في التوقيع عليها الوزير أو الوزراء المختصون ما خلا تولية الوزراء واقالتهم قانونا».

فرئيس الجمهورية، حسب نص الدستور اللبناني، هو الذي يتولى السلطة الاجرائية بمعاونة الوزراء، وهو الذي يعين الوزراء ويسمي من بينهم رئيسا، وهو الذي يقيلهم، وهو الذي يولي الموظفين مناصب الدولة ما خلا تلك التي يحدد القانون شكل التعيين لها على وجه آخر، وهو الذي يدعو مجلس النواب الى عقود استثنائية، وهو الذي يتولى المفاوضة في عقد المعاهدات الدولية وابرامها، وهو الذي ينشر القوانين التي تتم الموافقة النهائية عليها، وله الحق أن يطلب اعادة النظر في القوانين، والى ما هنالك. ويوجب الدستور في أكثر الحالات أن يشترك الوزير المختص أو الوزراء المختصون مع رئيس الجمهورية في التوقيع على المقررات التي يتخذها. وفي كثير من الحالات يوجب الدستور أن يقترن القرار بموافقة مجلس الوزراء، ولكن هذا مع الملاحظة أن رئيس الجمهورية هو الذي يعين الوزراء، حسب الدستور، وهو الذي يقيلهم.

في مقابل ذلك: «لا تبعة على رئيس الجمهورية حال قيامه بوظيفته الا عند خرقه الدستور أو في حال الخيانة العظمى»، كما جاء في المادة ٦٠ من الدستور.

الصلاحيات حسب العرف:

هذا من حيث النصوص الدستورية. الا أن هناك عرفا متبعا مغايرا للنصوص الدستورية، وهو أقوى منها عمليا، وهو الذي

فرض حتى اليوم أولا وآخرا، في غياب أي نص دستوري صريح في هذا الشأن، طائفية الرئاسات الثلاث فأقطع رئاسة الجمهورية للموارنة ورئاسة المجلس النيابي للمسلمين الشيعة ورئاسة الحكومة للمسلمين السنة.

فحسب العرف المتبع، يتمتع رئيس الوزراء بصلاحيات واسعة يتراءى لمن يتفحصها أنها يجب أن تكون كافية ولو ظاهرا لتمكين رئيس الوزراء من ممارسة المشاركة الفعلية في الحكم مع رئيس الجمهورية.

في الواقع، وخلافا للنصوص الدستورية، فان رئيس الجمهورية يسمي رئيس الوزراء اولا، وبعد اجراء استشارات نيابية، يشترك رئيس الوزراء مع رئيس الجمهورية في اختيار الوزراء وتأليف الحكومة. ورئيس الوزراء يوقع مع رئيس الجمهورية والوزير المختص على جميع المراسيم التي تصدر. ولا ينفرد رئيس الجمهورية بالتوقيع الا على تعيين رئيس الوزراء وقبول استقالة الحكومة واقالتها. ولم يحدث أن أقيلت حكومة.

وهذا العرف القاضي باشتراك رئيس الوزراء في التوقيع على كل المراسيم مطبق في الواقع بدقة وأمانة. وفي هذا قوة لرئيس الوزراء في المشاركة في الحكم لا يمكن تجاهلها. فما من قرار يصدر على مستوى الحكم الا بموافقته، وبالتالي بمشاركته. فلا عذر له اذا وقع على قرارات لا يرضى عنها، ولا عذر له بقرارات لا يشارك في صنعها. وهكذا، من خلال قدرته على حجب الموافقة على أي قرار، فانه يتصرف بقوة سلبية واضحة. ومن واجب رئيس الوزراء أن يحول هذه القوة السلبية، وفي استطاعته أن يفعل، الى قوة ايجابية فاعلة. فلا يكتفي باستخدامها في الامتناع عن التوقيع حيث لا يلقى قرار منه قبولا، وانما يمكنه أن يمارس مسؤوليته في المبادرة الى صنع القرار أو المشاركة في صنعه. بعبارة أخرى أن المشاركة تتحقق إذا قدر رئيس الوزراء قيمة توقيعه، ووعي أهميته.

أما والأمر كذلك، فأين المشكلة؟ أي مشكلة في مشكلة المشاركة؟

حقيقة المشكلة:

ان المشكلة ليست في ضعف صلاحيات رئيس الوزراء وانما هي في ضعف مركزه وبالتالي في ضعف موقفه. ويصح هذا القول بشكل خاص إذا كان رئيس الوزراء من محترفي السياسة وهو ما يفترض في رئيس الوزراء أن يكون في الأحوال العادية. ومفهومنا للاحتراف السياسي عند المسؤول هو أنه، في جملة الاعتبارات والاهتمامات التي تحكم مواقفه، من سياسية ووطنية، يهمه البقاء في الحكم أو العودة اليه فيما بعد. ولا مثلبة في ذلك على الاطلاق. فهذا بديهي بالنسبة لمحترف وإلا ما كان محترفا بالمعنى البسيط والواضح للكلمة. ولا أعلم بنظام سياسي من غير محترفين للسياسة. ولكن سر الضعف في مركز رئيس الوزراء المحترف للعمل السياسي يكمن في عدم ثباته وعدم استقراره. فهو مهدد بالرحيل أو الترحيل منذ اللحظة التي يتسلم فيها سدة الرئاسة. ويترتب على هشاشة المركز هذه مضامين ذات أثر على الصعيدين السياسي والاداري تنعكس حتما على موقع رئيس الوزراء وتضعف قوته.

من حيث المضامين السياسية، لاشك أن استمرارية رئيس الجمهورية طيلة سنوات عهده تجعل منه نقطة استقطاب سياسية أقوى بكثير من رئيس الوزراء في موقعه المهدد والمهتز. فمن الطبيعي لمحترفي السياسة، سواء كانوا ممن ينافس رئيس الوزراء على منصبه أو ممن يطمح الى منصب وزاري، أن يجنحوا الى الالتفاف حول رئيس الجمهورية وهو باق، لا حول رئيس الوزراء وهو زائل، فيما لو ووجهوا بالاختيار بين الاثنين في موقف من المواقف. من هنا النفوذ العريض الذي يتمتع به رئيس الجمهورية عادة في الأوساط السياسية بالمقارنة مع رئيس الوزراء. وبديهي أن يولد هذا الواقع لدى رئيس الوزراء في كثير من الحالات الاحساس بأنه مدين لرئيس الجمهورية بمجيئه وبقائه واحتمالات عودته مستقبلا.

ومما يجعل رئيس الجمهورية في موقع الأقوى تجاه رئيس الوزراء ان الاثنين يشتركان في الصلاحيات، وفي الصلاحيات قوة، ولكنهما

لا يشتركان في التبعة السياسة التي تقع بكليتها على كاهل رئيس الوزراء والحكومة. أما رئيس الجمهورية فقد أحله الدستور منها صراحة. والمحاسبة التي يتعرض لها رئيس الوزراء دون رئيس الجمهورية في تحمله التبعة، مع ما يرافق أو يستتبع هذه المحاسبة في حالات كثيرة من انتقادات جارحة وحملات قاسية، من شأنها الابقاء على رئيس الوزراء في موقع المداراة للقوى السياسية وفي موقع الدفاع عن النفس وبالتالي في الموقع الأضعف.

أما في النطاق الاداري ولنفس السبب الى حد بعيد، أي بسبب عدم ثبات وعدم استقرار المركز، فيواجه رئيس الوزراء وضعا لا يساعد على تقوية موقعه في المشاركة في صنع القرار. ففي حال نشوء تعارض بين موقف رئيس الجمهورية وموقف رئيس الوزراء في مجال معين فان المسؤولين في الادارة يجنحون الى جانب الباقي لا الى جانب الراحل، وهذا من من طبيعة البشر في ولاءاتهم الشخصية. وتشغل بعض الأجهزة حيّزاً مؤثراً بشكل خاص على صعيد هذا الواقع ومنها تلك الأجهزة التي تعنى بالاستعلام والاعلام وتتصرف من أجل ذلك بامكانات بشرية ومادية كبيرة وصلاحيات واسعة. وأهم تلك الأجهزة شعبة المخابرات في الجيش ومديرية الأمن العام ومرافق الاعلام الرسمي. ولا يخفى ما قد يكون للمعلومات التي تضخها تلك الأجهزة باتجاه الحكم من أثر على صنع القرار كثيرا ما يكون حاسما، وما قد يكون للمعلومات التي تبثها باتجاه الجمهور للنشاطات التي تقوم بها على هامش المهام التي تتولاها أو حتى خارج اطارها من تأثير بالغ على علاقات أهل الحكم فيما بينهم وكذلك بين كل منهم وبين الجمهور. من الطبيعي أن تخص هذه الأجهزة رئيس البلاد بولائها من حيث أنه رمز للدولة. ولكن المشكلة في منطق المشاركة أن رئيس البلاد ليس فقط رمزا للدولة، وانما هو كذلك فريق في الحكم. وانحياز هذه الأجهزة وغيرها الى فريق في الحكم من شأنه بطبيعة الحال الاخلال بميزان المشاركة بين أهل الحكم.

ما كان كل هذا ليصح لو كانت الحياة السياسية في لبنان مرتكزة على النشاط الحزبي المنظم. فالحديث عن قوة مركز رئاسة الوزراء أو ضعفه يصبح في تلك الحال غير ذي موضوع. فمن الطبيعي، في ظل نظام تسوده الأحزاب، أن تكون مكانة رئيس الوزراء في الحكم مستمدة من مكانة حزبه في النسيج السياسي الذي يقوم عليه الحكم.

بتعبير آخر، لو كانت الممارسة السياسية في لبنان مبنية على العمل الحزبي المنظم لما كان رئيس الوزراء مجرد شخص يختاره رئيس الجمهورية بعد استشارات نيابية (كثيرا ما تكون شكلية) من بين نفر لا هوية مميزة لهم كمجموعة سوى الهوية الطائفية، وانما لكان اسما يعبر عن أهداف وقيم ومثل ومبادىء وأفكار وأساليب محددة، يتميز بها الحزب الحاكم ويعرف بها ويدعو لها. بذلك لا يكون رئيس الوزراء مدينا بمقدمه أو ببقائه إلا لحزبه ومن ثم لقاعدة حزبه الشعبية. وبذلك تكون قوة رئيس الوزراء بطبيعة الحال مستمدة من قوة حزبه، واستقرار مركزه مستمدا من متانة موقع حزبه في الساحة السياسية.

حينما نعطف المشكلة على غياب دور الأحزاب في الحياة السياسية العامة، أو على ضعف ذلك الدور على الأقل، فانما نقصد الأحزاب الوطنية اللاطائفية. أما الأحزاب الطائفية، سواء في منطلقاتها أو توجهاتها أو دوافعها أو تكوينها، فانها بدلا من أن تساعد على حل المشكلة تعمل على تعميقها. فبينما الحزب الوطني اللاطائفي يساعد بوجوده ونشاطه على تذويب الأحاسيس الطائفية وتغليب الأحاسيس الوطنية، فالحزب الطائفي الطابع من شأنه، اذ يترجم المنطلقات الطائفية الضيقة الى عمل حزبي منظم، اذكاء الخواطر الطائفية. فاذا ما جاء أحد الرئيسين، رئيس الجمهورية أو رئيس الوزراء من حزب طائفي معين، فمن الطبيعي أن يثير مجيئه مشكلة المشاركة الطائفية بين الرأسين بكل أبعادها، بدلا من اخمادها.

ثم اننا لو سلمنا بأن تنمية الحياة الحزبية المنظمة قد تكون هي المخرج الأصلح من مشكلة المشاركة، فان هذه الدعوة لا تستقيم أساسا مع الاحتفاظ بنظام الطائفية السياسية.



شارل دباس مع رئيس المجلس النيابي الشيخ محمد الجسر والمفوض السامي هنري بونسو في احد الاحتفالات الرسمية ببيروت عام ١٩٣١.

إذ كيف ندعو لقيام أحزاب وطنية لا طائفية ونتمسك باقطاع الرئاسات لطوائف معينة. فهذا يعني أننا ندعو الى تولية أشخاص لا طائفيي النزعة في مناصب مخصصة للطوائف. لذلك يبدو أن لا مفر من الاستنتاج أن تنمية الحياة الحزبية لا يمكن أن تغني عن الغاء الطائفية السياسية ان عاجلا أو آجلا. هذا مع الاقرار بأن تنمية الحياة الحزبية (وكذلك الحركات العمالية والنقابية) تساعد مع الزمن على خلق الأجواء المؤدية الى الغاء الطائفية السياسية، كما تساعد على التخفيف من غلواء الأحاسيس الطائفية في التحكم بالأوضاع السياسية العامة في البلاد إلى أن يلغى نظام الطائفية السياسية نهائيا.

ومن البديهي ان تنمية الحياة الحزبية المنظمة لا يمكن أن تشكل حلا جاهزا لمشكلة قائمة، هي مشكلة المشاركة كما هي مطروحة اليوم. فتنمية الحياة الحزبية عملية طويلة ومتشعبة تتطلب الكثير من الجهد والعمل والاعداد والتشجيع، مما يتعذر تحقيقه في فترة قصيرة من الزمن. وعملية التطوير هذه لا يمكن أن تتم بقانون أو باتفاق لتكون موضوعا من مواضيع الوفاق الوطني أساسا.

المشاركة والطائفية السياسية:

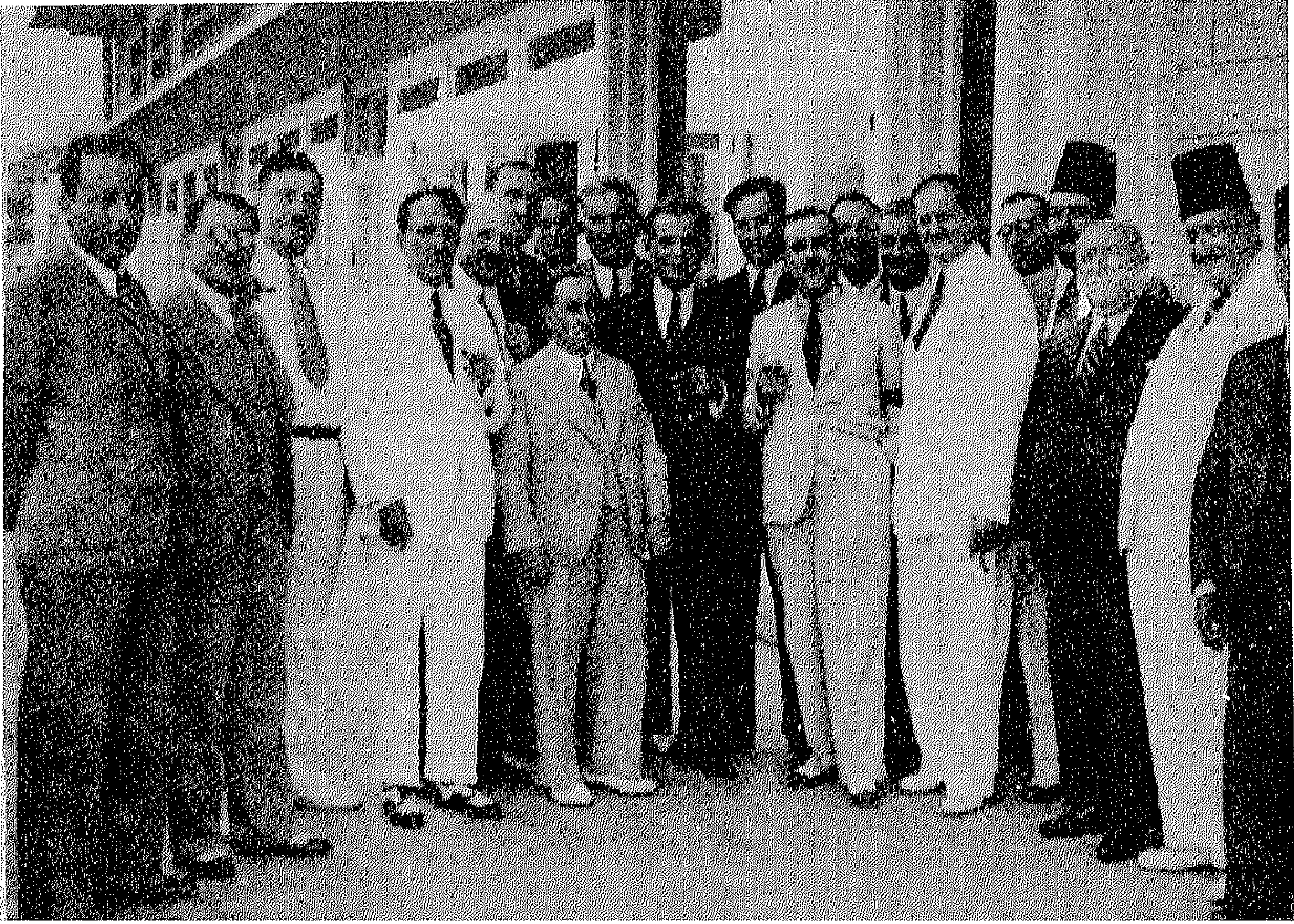
ما كانت المشاركة تشكل مطلبا، وبالتحديد مطلبا طائفيا، لولا الطائفية السياسية التي تطبع النظام المطبق. ومواجهة هذا المطلب ما كانت لتأخذ هذا المنحى الحاد الذي أخذته لولا التمسك بنظام الطائفية السياسية ورفض أي تراجع عنه. قد يكون الحل الأبسط والأسلم هو في تجاوز مشكلة المشاركة واعتماد النظام الرئاسي، وبالتالي تعزيز صلاحيات رئيس الجمهورية بدلا من تجيير بعض منها لمصلحة رئيس الوزراء. إلا أن مثل هذا الحل لا يمكن أن يكون مقبولا إذا كان هناك اصرار على وقف منصب رئاسة الجمهورية على طائفة معينة. فالمنطلق الطائفي لابد أن يؤدي بالحل الى تشعبات طائفية. فاذا ما اقتطع لأي طائفة نصيبها في الحكم، فمن البديهي ان ترتفع اصوات من سائر الطوائف تطالب بضمان أنصبتها في الحكم، وان تسعى الطوائف التي لا نصيب لها في الرئاسات الى المشاركة في الحكم من خارجه، ان صح التعبير، من خلال حركات كثيرا ما تكون متطرفة الاتجاهات. فلا عجب أن تكون زعامة أكثر الأحزاب والتيارات والحركات المتطرفة معقودة في الواقع لابناء الطوائف التي لا وصول لها الى الرئاسات الثلاث. لذلك لا حل أجدى من الطائفية السياسية.

أما إذا كان الغاء الطائفية السياسية مستبعدا، ولو الى حين، فلا مندوحة عن مواجهة مشكلة المشاركة على مستوى التسوية الطائفية. ومثل هذه التسوية لا تشكل حلا بالمعنى الصحيح. وهي أن أوجدت مخرجا آنيا للمشكلة ينزع عنها طابع الحدة الذي اكتسته، فانها لا تتضمن اقصاء المسألة عن ميدان التجاذب السياسي بشكل نهائي. فأي تسوية طائفية من شأنها تحويل الخطر الداهم الى خطر دفين. أما المعالجة الجذرية فلا تتحقق إلا بزوال الطائفية السياسية كأساس للنظام المطبق.

ان منطق المشاركة، مجردا من الاعتبارات الطائفية التي حدت الى المطالبة به، هو بلا ريب منطق عقيم. فهو يقضي باقامة نظام برأسين فاعلين: شراكة في الصلاحيات بين الرئيسين، رئيس الجمهورية ورئيس الوزراء. فلا تقطع شعرة على مستوى الحكم إلا برضى الرئيسين وتوافقهما. ومثل هذا النظام يكتنفه من المحاذير ما قد يجر الى نتائج لا تحمد عقباها. من ذلك خطر تعطيل عجلة الحكم، أي خطر تطور أي خلاف بين الرأسين أو أي تباين في وجهات النظر حول أمر مهم من الأمور على نحو يمنع مولد القرار في شأنه. وطالما أن الرئاستين مبنيتان على الانتماء الطائفي، فان أي قرار قد يكون له أي مدلول أو أي مفعول أو أي انعكاس طائفي من قريب أو بعيد، مرشح لأن يدفع الى تباين في المواقف بين الرئيسين ومن ثم تعطيل القرار. وهكذا، في الحالات التي تواجه فيها البلاد ظروفا تتسم بشيء من الحدة الطائفية، ولطالما نشأت مثل هذه الحالات في تاريخ لبنان الحديث، وكذلك في الحالات التي تواجه فيها البلاد مواقف حساسة وأساسية، فالحكم معرض للوقوع في حالة من الشلل لا يستطيع معها التحرك بسبب التعارض في المواقف بين الرئيسين. بذلك تعجز البلاد عن تخطي المشاكل التي قد تواجهها وتتفاقم المشاكل في كثير من الحالات الى حد تفجير أزمات حادة. وبذلك أيضا تعجز الدولة عن بناء مقوماتها وفعالياتها ومؤسساتها على أسس سليمة. وهكذا تفقد القيادة السياسية قبضتها على مجرى الأمور وتصبح مجرد أسيرة للاعتبارات الطائفية أو مرآة لها.

والأدهى من تعطيل عجلة الحكم هو أن يؤدي نظام الرأسين الى انقسامات طائفية عامة في البلاد بنتيجة أي تضارب في الرأي أو الموقف بين الرئيسين حول أمور ذات حساسية طائفية.

لذلك فان أي تسوية طائفية يمكن أن ينشأ عنها نظام برأسين لا تشكل في ذاتها حلا سليما. ولا حل أجدى من الغاء الطائفية السياسية. مع ذلك، والى أن يصبح الغاء الطائفية السياسية ممكنا، فالتسوية قد تكون المخرج الآني من المشكلة الى أن يحين أوان الغاء الطائفية السياسية نظاما وممارسة.



صورة تذكارية من عام ١٩٣٦. من اليمين: روكز ابو ناضر، خليل ابي اللمع، الأمير مجيد ارسلان، غبريال خباز، خالد شهاب، إميل اده، ايوب ثابت، كميل شمعون، هرام ليكيان، بشارة الخوري، بترو طراد، محمد العبود، حكمت جنبلاط، وحميد فرنجية.

خاتمة:

نوجز ما أردنا قوله بالنقاط التالية:

أولا: لن تكون في لبنان ممارسة ديمقراطية صحيحة ما دامت الطائفية تسيطر على الحياة السياسية نظاما وتطبيقا. والاصلاح السياسي لن يكون تاما وناجزا إلا بالغاء الطائفية في الحياة العامة، في السياسة كما في الادارة والقضاء والجيش. والغاء الطائفية لا يمكن أن يتم إلا مع اضمحلال العصبيات الطائفية. وهذا لا يتحقق إلا في السياق الطويل من خلال عمل منظم دائب يستهدف تنشئة المواطن تنشئة وطنية خالصة عن طريق نظام تربوي صالح وعن طريق خدمة العلم وسياسة اعلامية واعية هادفة، وكذلك عن طريق تنمية الحياة الحزبية والحركات النقابية والعمالية اللاطائفية.

ثانيا: لن تكون ديمقراطية صحيحة على المستوى السياسي ما لم تقترن بتوجه انمائي شامل يرسي أسسا راسخة لاصلاحات اجتماعية واقتصادية تتجلى فيها مبادىء العدالة والمساواة وتكافؤ الفرص والسلام الاجتماعي. فالحرية لا تتجزأ. والحرية السياسية لا تكتمل إلا مع الحرية الاجتماعية والاقتصادية.

ثالثا: ان تنمية النشاط الحزبي اللاطائفي وسائر الحركات النقابية اللاطائفية من عمالية وغيرها ليست فقط طريقا مجديا من طرق التغلب على الاحاسيس الطائفية ومن ثم تحطيم الحواجز الطائفية التي تحول دون الممارسة الديمقراطية الصحيحة، وانما هي كذلك سبيل من سبل تعطيل سلبيات النظام الطائفي، أو التخفيف من فعل سلبياته إلى أن يحين اوان الغائه. وهذا ما لا بد من تحقيقه في يوم من الأيام عندما تصبح الظروف مؤاتية لذلك. فلو سيطرت الحياة الحزبية اللاطائفية بحيث يؤول الحكم الى حزب الأكثرية أو تآلف أحزاب الأكثرية، فان المشاركة في الحكم تغدو أمرا راهنا. وهذا بمثابة الالغاء العملي للطائفية بانتظار اعلانه وتكريسه في أحكام الدستور والقوانين.

رابعا: ان ميثاق ١٩٤٣ بما هو تسوية طائفية أوجد صيغة للتعايش بين الطوائف،

وكأن ينبغي تطوير النظام مع الزمن وصولا الى صيغة للعيش المشترك عن طريق الغاء الطائفية. وشتان بين التعايش والعيش المشترك. فالنظام المستمد من ميثاق ١٩٤٣ رسم خطوط التمايز بين الطوائف فخلق وضعا هو أشبه بالاتحاد بين الطوائف، وكان المفروض لو أخذ بروح ميثاق ١٩٤٣ كما تبدت في البيان الوزاري لأول حكومة في عهد الاستقلال، أن تلغى الطائفية ويتحوّل النظام السياسي الى بوتقة وطنية تتغلب فيها روح المواطنية على روح الطائفية، والولاء للوطن على الولاء للطائفة، والتحسس الوطني على التحسس الطائفي. لقد ظل لبنان هذه السنوات الطوال منذ الاستقلال أسير نظام برز عقمه مع الزمن ولم يتطور كما يجب، كأنما تحول النظام مع الأيام الى شرنقة نسيجها مصالح مجذرة للطوائف والفئات المختلفة عطلت سير الديمقراطية الصحيحة.

خامسا: كثيرا ما نسمع آراءا تدعو الى ضرورة التوصل الى صيغة نهائية تدرأ عنا مغبة العودة الى حالات من التأزم كل بضع سنوات. وهذا طرح بعيد عن الواقعية. ومن اعتبر أن صيغة ١٩٤٣ كانت تلك الصيغة النهائية التي لا تقبل التغيير أو التطوير سرعان ما اكتشف عقم ما ذهب اليه. فليس من صيغة نهائية يمكن أن تبقى صالحة مع تبدل المعطيات والحاجات والتطلعات، فسنة التطور التي تحكم مصير الشعوب والأمم لا يستقيم معها تيبس في النظام وجمود في الصيغة وتحجّر في الرؤى. فأي صيغة يمكن التوصل اليها لابد أن تكون صيغة متغيّرة مرنة تطوي في ثناياها وسائل تطويرها وسبل تحديثها ومسالك تجاوبها مع مقتضيات الوضع المتجدد في المجتمع. وما أحرانا بذلك في لبنان خصوصا واننا ندعو الى صيغة تسوية انتقالية نعبر من خلالها الى صيغة حضارية أسمى تتجاوز الطائفية وأوزارها.

سادسا: لا حل بالمعنى الصحيح الا بالغاء الطائفية في السياسة والوظيفة، ولكن ريثما يتم ذلك لابد، صونا لاستقرار البلد سياسيا وبالتالي أمنيا واجتماعيا، من تسوية ترتكز على ادخال اصلاحات على النظام المعتمد بحيث يتأمن اكبر قدر ممكن من العدالة في ممارسة مختلف الطوائف حقها في المشاركة الفعلية في الحكم، وذلك على أسس واضحة لا تترك مجالا لأشكال أو للبس يمكن أن يكون سببا لتكرار الأزمات والانتكاسات. أما ماهية التعديلات المطلوبة والممكنة فلا مجال للخوض في بحثها بالتفصيل هنا. حسبنا التأكيد على عدم وجود صيغة فريدة لمثل هذه التسوية. هناك بدائل لابد من اختيار الأنسب من بينها بعد حوار موضوعي عقلاني هادىء. أما الوثيقة الدستورية التي اتفق عليها الرئيسان فرنجية وكرامي في شباط عام ١٩٧٦ فكانت صيغة من الصيغ المطروحة للتسوية الانتقالية ريثما يصبح من الممكن الغاء الطائفية. ولا مجال لمناقشتها بالتفصيل هنا.

وأضيف أخيرا أن الديمقراطية لاشك ستتعزّز فيما لو اعتمد نظام اللامركزية الادارية الموسعة في الدولة، على أن يراعى في تصميم مثل هذا النظام عدم تخطي النطاق السياسي.

يبقى السؤال الكبير: من هم أطراف الحوار الذي يجب أن يتم من أجل التوصل الى صيغة التسوية المنشودة، ومن هم ممثلوهم. ما كان السؤال ليطرح، وما كنا بحاجة الى الجواب أساسا، لو كان النظام الديمقراطي في لبنان اليوم صحيحا معافى. ولم يكن في مستطاع الحكم عندما كان في أوج مكانته أن يفرض نفسه بديلا عن الأطراف أو معبرا عنهم في طرح رؤية جديدة. فاذا بالبلد اليوم أمام خيارين ميسورهما أعسر: أما التسليم بزعامات فرضت وجودها بقوة السلاح لتتحدث باسم جماهير المسالمين في الحوار المطلوب، وما أدرانا بمدى تمثيلها لتلك الجماهير، أو تعليق الحوار الى أن تعود عجلة الديمقراطية الى الدوران ولو في حد أدنى لتتمكن الجماهير من اختيار ممثليها للحوار بحرية، وفي هذه الحال يبقى التعليق ساريا ما دامت الزعامات المسلحة قابضة على زمام الأمور وقادرة على الاحتفاظ بمواقعها. فهل تعود الكلمة في كلتا الحالتين لحملة السلاح.



الصور من كتاب وليد عوض: أصحاب الفخامة رؤساء لبنان، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، ٧٧.

المدنية الفينيقية

د. نقولا زيادة

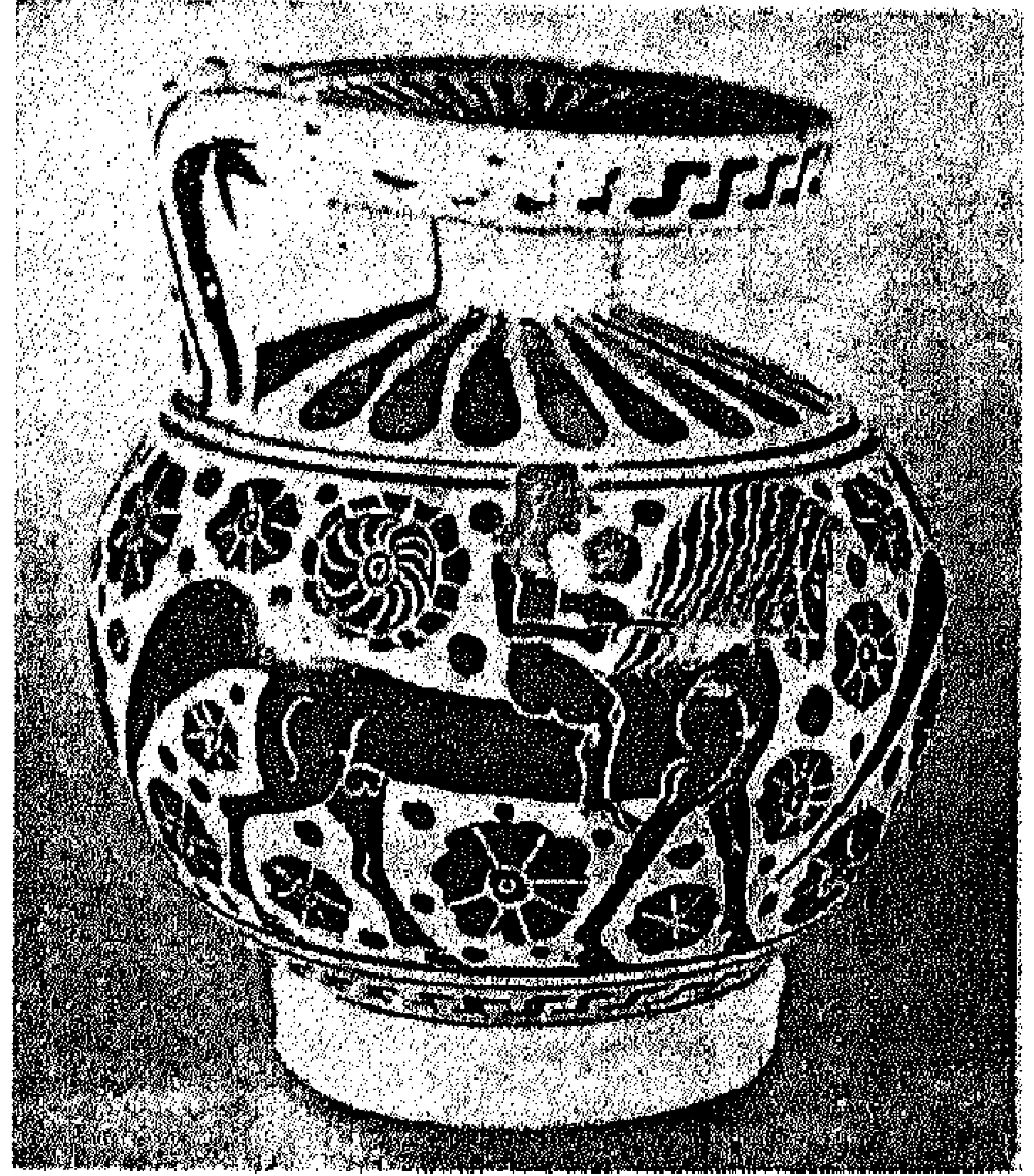


طوق ملكي يحمل رموزاً فرعونية.



الأخبار التي وصلتنا عن الفينيقيين عن طريق المدونات السياسية والتجارية كانت كثيرة، ولكن أكثرها لم يكن يتجاوز القرن الرابع عشر قبل الميلاد. وظل الأمر على ذلك إلى أن دخل الرفش والمعول، أي التنقيب الأثري، الميدان، وعندها عرفنا أن الشعب الفينيقي كان يقطن الشواطىء اللبنانية السورية الفلسطينية من رأس الشمرا إلى غزة منذ الألف الرابع قبل الميلاد، وان أهم مراكزه كانت صور وصيدا وجبيل وبيروت وعكا ورأس الشمرا.

وقد بدأت الدراسات الأثرية سنة ١٨٦٠ إذ قام رينان بمسح أثري للمنطقة الفينيقية في لبنان، ولكن هذا لم يزد عن أنه كان مسّاً رفيقاً للسطح في واقع الأمر. مع أن نواويس كثيرة عثر عليها في منطقة صيدا حتى قبل الحرب العالمية الأولى. فان التنقيب الأثري المنظم في العمق جاء أولاً في الفترة التي تلت تلك الحرب. ولست أنسى يوم زرنا مدينة جبيل لأول مرة سنة ١٩٢٥ حيث تفضل الأستاذ مونته، وكان يقوم بالحفر هناك منذ ١٩٢٠، فرافقنا في زيارة لأعماله. ومنذ سنة ١٩٢٦ تقوم إدارة



آنية إغريقية سوداء كورنثية الطراز عثر عليها في قرطاجة

الآثار اللبنانية بأعمال الحفر هناك. وفي سنة ١٩٢٩ بدأ الحفر في أوغاريت (رأس الشمرا) على الساحل السوري، ولا يزال العمل مستمراً إلى الآن (باستثناء فترة الحرب العالمية الثانية). وفي السنوات الأخيرة قامت إدارة الآثار في لبنان بحفر أثري واسع النطاق في بيروت وصيدا وخربة سلم، وقد حصلت على نتائج ممتازة.

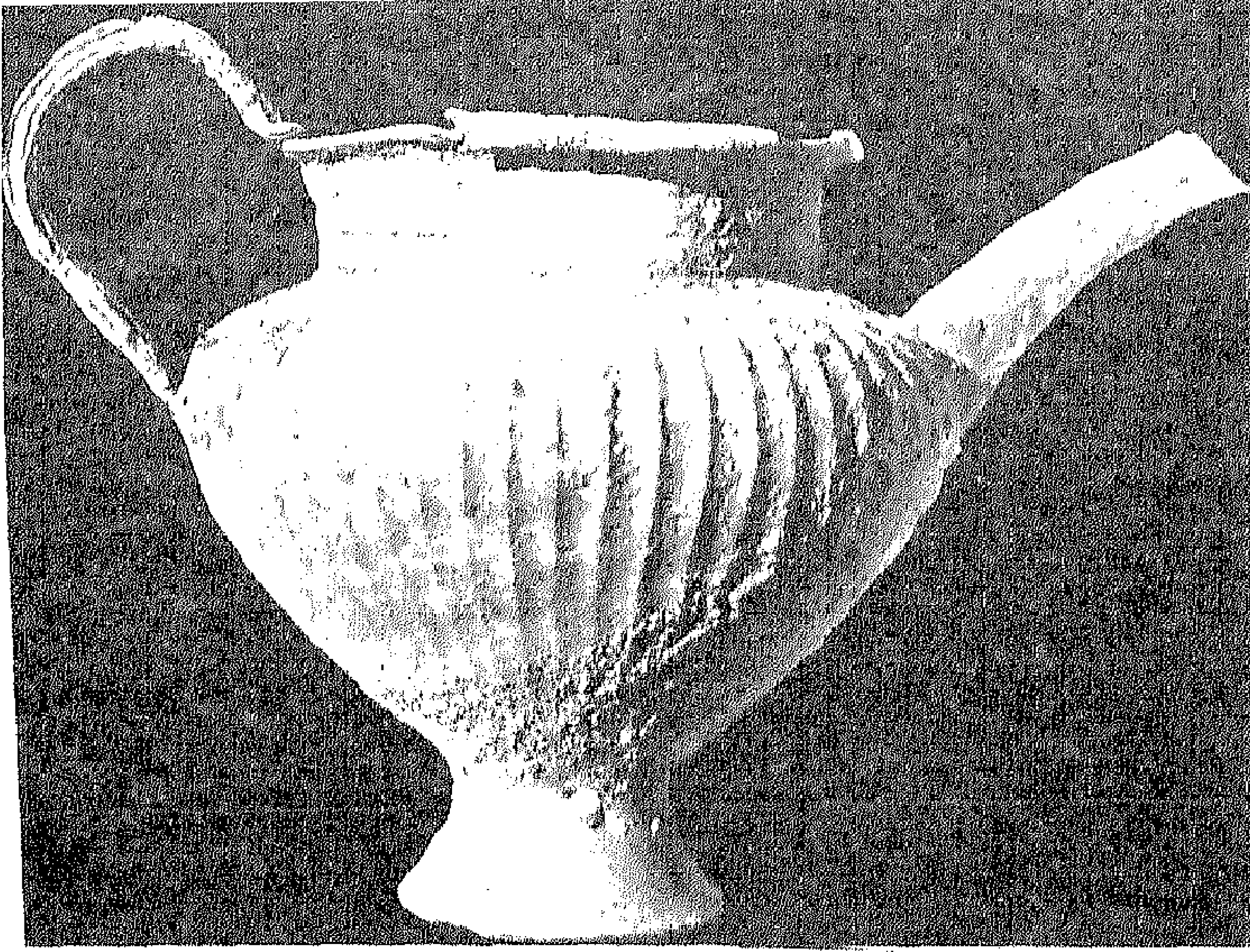
على أننا إذا تذكرنا أن الفينيقيين لم تقتصر سكناهم وآثار مدنيتهم على الساحل الشرقي للبحر المتوسط، بل أنهم انتشروا في شمال أفريقية بدءاً من طرابلس في ليبيا وانتهاء بطنجة في المغرب، وكانت قرطاجة أكبر مؤسساتهم وأغناها وأقواها. كما أنه كان لهم انتشار في قبرص ومالطة وصقلية وسردينية وإسبانية، أدركنا أن التعرف على المدنية الفينيقية وتطورها تعرفاً صحيحاً لا يتم إلا إذا أحطنا علماً باعمال الحفر في تلك الأصقاع النائية، ومن ثم فنستميح القارىء العذر إن نحن أشرنا إلى ما تم هناك في هذه الناحية.

ولعل أوسع نطاق للتنقيب الأثري كان هذا الذي تم في قرطاجة خلال العقود الماضية. فقد اتضحت معالم أبنية قديمة وهياكل وعُثر على تماثيل للآلهة وآثار صناعية وفنية هامة لا يتسع المقام حتى للاشارة إليها، بل تفصيلها. وفي صقلية تم الحفر في أماكن كثيرة لعل أهمها حفريات موتيه، فضلاً عن حفريات بلرمو وسولنتي. ويبدو أن المدنية الفينيقية كانت أوضح معالماً وأرسخ أبعاداً في سردينية منها في أي من الجزر تلك، على ما اتضح من حفريات سلسيس ومونته سراي ونورا. وقد دلت أعمال التنقيب الأثري في إسبانية، وخاصة في قادس وأبيزا، على أن حضارة الفينيقيين هناك كانت أوسع خطى وأبعد شوطاً في التقدم عما كانت عليه في صقلية وسردينية مثلاً. ومع أن التنقيب الأثري في الأماكن الفينيقية في مالطة لم يبدأ إلا في سنة ١٩٦٣، فما ظهر إلى الآن يدل على احتمال العثور على الكثير مما له قيمة.

أما وقد أشرنا إلى الأعمال الهامة فلنقدم نماذج مما عثر عليه من آثار توضح لنا معالم المدنية الفينيقية.

فقد عرفنا من الاكتشافات الأولى في جبيل أن أول استيطان للمكان بدأ في الألف الرابع قبل الميلاد...... ثم تُظْهِرُ الآثار أن سكان جبيل بعد ذلك بفترة قصيرة عرفوا البرونز ودولاب الخزاف وبناء الأسوار ذات الجدارين الحجريين. كما أن الهياكل أخرجت كنوزها وبينها هدايا من فراعنة مصر الذين عاشوا بين ٣٢٠٠ و ٢٢٠٠ق.م. أما الكنوز الأصلية التي وجدت فمنها فؤوس من الذهب الخالص وآنية من الفضة وتمثال للاله رشف مغطى بالذهب وجواهر ثمينة. وهذه من النصف الأول من الألف الثاني قبل الميلاد.

وأعمال الحفر التي تمت في أوغاريت أظهرت لنا شيئاً كثيراً غنياً. فقد كان القصر الملكي في أوغاريت يتكون من ٦٧ غرفة تحيط بخمسة صحون، وكان يشغل من الأرض مساحة تقدر بثمانية آلاف متر مربع. ولا شك أنه كان أكثر من مجرد مكان للاقامة الخاصة. إذ أن أربعة أقسام منه كانت مخصصة للأعمال والمحفوظات الرسمية، التي أمدتنا بالآف الوثائق الادارية والقانونية مدونة بالكتابة الأوغاريتية المحلية وبالكتابة الأسفينية الأكدية.



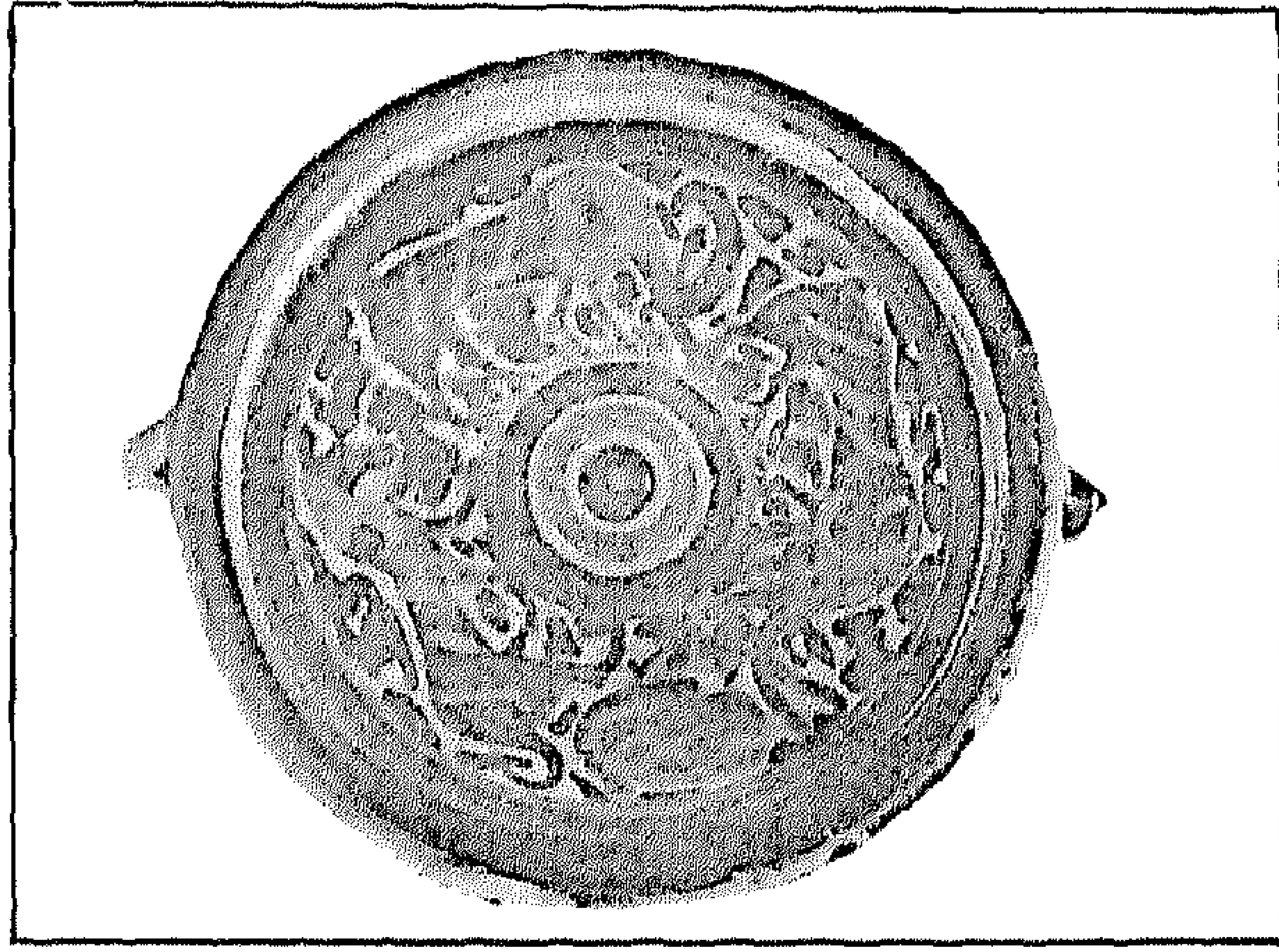
آنية.. من مقابر جبيل

وقد كشفت أعمال التنقيب عن صحون ثلاثة أخرى وثلاثة أجنحة كانت مخصصة للأعمال الادارية في القصر. وهناك جناح، كان يقع قرب المدخل الشمالي الشرقي للقصر، خصص على ما اتضح من المتون المكتشفة، للأعمال القانونية والمالية الخاصة بالمدينة وأرباضها، بالمقارنة بالمكاتب قرب المدخل الغربي التي كانت تهتم بالأعمال المتعلقة بالريف. وكانت أعمال الخاصة الملكية ينظر فيها في مكان ثالث، على مقربة من الصحن. والمتون هنا هي في غالبيتها قانونية متعلقة بالهدايا وانتقال الأملاك والتبني وما إلى ذلك. وكثير من هذه الوثائق كان ممهوراً بختم الملك. أما الأعمال الخارجية فكانت تتم في صحن داخلي، على ما يستنتج من الوثائق الأكدية التي عثر عليها هناك، وبعضها عليها أختام البيت المالك الحثي.

إن قصر أوغاريت، مع أن الباقي منه لا يتجاوز الهيكل الأساسي، يؤثر في الزائر. فإذا تصورنا، وقد ارتفع فوقه طابق ثان أو أكثر، على ما يتضح من الأحد عشر درجة الموجودة، وإذا أضفنا إلى ذلك أثاثه الرائع المصنوع من الخشب والمعادن، والزخرف الجداري من العاج المحفور، والحرس الملكي يحيط به والموظفين يقومون بأعمالهم ومبعوثي الملوك وأصحاب الأعمال يتخطون عتباته آتين وعائدين، والملك وأعوانه يخرجون ويدخلون في المركبة الملكية - إذا تذكرنا هذا استطعنا أن نتصور قصر أوغاريت في أيام عزها.

لم يعثر المنقبون على مثيل للقصر الملكي في أوغاريت في أي من المدن التي تم فيها الحفر والتنقيب في فلسطين أو سورية، ومن المرجح انه ليس له مثيل قط وحتى جبيل لم يكن لها مثل ذلك. ذلك بأن أوغاريت كانت لها منزلة خاصة وثراء خاص. فقد كانت تقع على ملتقى الطرق التجارية من بلاد ما بين النهرين وآسية الصغرى وكنعان وقبرص وكريت والعالم الأيجي ومصر. وكانت للمدينة قيمة خاصة في النزاع بين مصر وبلاد الحثيين. فهي سهلة المنال من مصر بحراً، ومن الامبراطورية الحثية براً، ولذلك حاول ملوك الفريقين التقرب منها لأنهم حسبوا أن الافادة منها تطوعاً أفضل لأي منهما من احتلالها. وكانت أوغاريت تستفيد من ذلك وتستغل الفريقين. وقد وفد إليها لاجئون فارون من العالم الايجي حول سنة ١٤٠٠ق.م. فزاد ذلك في ثرائها إذ حمل هؤلاء معهم الكثير من ثروتهم. وتدل الوثائق المكتشفة في المدينة على أن ملك أوغاريت كان من أمراء التجار.

والآن فلنلق نظرة سريعة على نواح أخرى



صحن أثيني
وجد في
مقابر قرطاجة.

من نواحي المدنية الفينيقية. وأول ما يلفت النظر اتساع المدى الذي بلغته التجارة الفينيقية. فتجارة الأخشاب كانت تصل إلى مصر وما بين النهرين. والصناعة الفينيقية الرئيسة كانت صناعة الأقمشة. فما أكثر ما ورد ذكرها في شعر هوميروس، وخاصة المصبوغة منها بالأرجوان. كما أن الفينيقيين اتقنوا صناعة الزجاج، واتقنوا النقش على العاج والمعدن.

وهذه الناحية الفنية المتصلة بحياة الفينيقيين يجب، كي نفهمها، أن نذكر أن المنطقة التي استقر فيها هؤلاء القوم كانت تتصل بالحضارات المختلفة. والمهم أن «الفينيقيين استطاعوا أن يحافظوا على التقليد الفني في الوقت الذي كان جيرانهم يدمرون الحضارة».

ولا بد من الاشارة إلى أمر على غاية الأهمية وهو تأثير الديانة الفينيقية على مصر وآلهتها. ويلخص الدكتور وليام ورد ذلك بما يلي: أولاً أن عناة وعشتار أصبحتا إبنتين للاله المصري رع. ثانيا أن رعمسيس الثاني كان يسمى نفسه رضيع عناة الالهة الفينيقية الكنعانية، جرياً على أنها كانت ترضع ملوك أوغاريت. ثالثاً أن الأساطير الدينية، مثل أسطورة عشتار، شاعت بين المصريين.

وبهذه المناسبة فان المكتبة الأوغاريتية الفينيقية الأسطورية هي مكتبة أدبية رائعة.

وأخيراً هل ثمة من ينسى أن الفينيقيين هم الذين زودوا العالم بالألفباء؟



- **إنك لا تستطيع أن تصيد السمك، وتفكر في شيء آخر في نفس الوقت.**

سير اليك دوجلاس هيوم

- **لم يكن «انطونيو» ذلك القائد الحاذق، ولكن خلد اسمه التاريخ لأن «كليوبترا» أحبته!**

أنيبال

- **الديموقراطية تعني أن يشبع الانسان.**

خروشوف



الموقف اللبناني والدولي من المؤتمر السوري العام ١٩٢٠

حسان حلاق



أثار مؤتمر فرساي الذي عقد في باريس في ١٨ كانون الثاني (يناير) ١٩١٩ العديد من من المشكلات عوضاً من ان ينهي مشكلات الحرب العالمية الأولى، لا سيما فيما يختص بالوضع اللبناني، ذلك ان ارسال وفود من جبل لبنان مدنية ودينية لعبت دوراً سلبياً في موضوع الوحدة اللبنانية خاصة وان تلك الوفود طلبت الحماية والوصاية الفرنسية الأمر الذي كان يرفضه العديد من اللبنانيين(١).

وبعد وضوح الاتجاهات السياسية المارونية الموالية لفرنسا اعتبر الوحدويون من سكان سوريا ولبنان (الداخل والساحل) ان الخطر الفرنسي والطائفي بدأ يتكرس في المنطقة السورية، ولذا فقد بدأ سكان الساحل اللبناني بعقد اجتماعات عديدة لبحث الأوضاع الجديدة الناجمة عن مؤتمر الصلح في فرساي ١٩١٩، فعقدوا في منتصف شهر حزيران (يونيه) ١٩١٩ اجتماعاً في منزل عارف النعماني ببيروت

حسان حلاق: محاضر في قسم التاريخ، كلية الآداب، جامعة بيروت العربية، له مؤلفات عدة في التاريخ المعاصر

لانتخاب مندوبين رسميين للمؤتمر السوري العام، وعقد اجتماع آخر في ٢تموز (يوليه) من العام نفسه في منزل سليم الطيارة – مستشار المعتمد العربي في بيروت جميل الألشي – وقد انتهى الاقتراع السري بانتخاب اربعة عشر مندوباً عن بيروت كأعضاء للمؤتمر السوري العام المزمع عقده في دمشق، وانتخاب اربعة عشر عضواً من مختلف الطوائف اللبنانية ومن مختلف المناطق اللبنانية[٢]. وكان عدد المندوبين المسيحيين المشتركين في المؤتمر يفوق في نسبة التمثيل عدد السكان المسيحيين في البلاد، وكان للمسيحيين الوحدويين القادمين من الجبل دور بارز، لا سيما وان خطبهم في المؤتمر طالبت بالوحدة العربية والاستقلال الوطني مما أعطى المؤتمر جواً وطنياً مليئاً بالأمل.

هذا وقد صدرت اول قرارات المؤتمر في دمشق في اوائل تموز (يوليو) ١٩١٩ اكد فيه على الاستقلال التام الناجز للبلاد السورية[٣]، كما اصدر المؤتمر في ٥آب (اغسطس) ١٩١٩ مذكرة احتجاج موجهة الى مؤتمر فرساي احتجاجاً على سفر البطريرك الماروني الياس حويك الى باريس وتحدثه باسم اللبنانيين ومطالبته «فصل لبنان فصلاً تاماً عن سورية». وقد جاء في مذكرة الاحتجاج «... أن الطائفة المارونية التي يزعم غبطة البطريرك انه يتكلم باسمها ليست الا الأقلية في لبنان الكبير المزعوم، وان قسماً كبيراً منها لا يوافق غبطته في رأيه، كما ان سائر الطوائف الممثلة في مؤتمرنا هذا ترفض بتاتاً فصل لبنان عن سورية». واضافت المذكرة بانه «لا حياة للبلاد السورية الا بوحدتها السياسية، فحياتها الاقتصادية تستلزم اتصال البلاد الداخلية بمرافىء الساحل، وتسهيل تجارة الساحل في الداخل...».

وفي ٧آذار (مارس) ١٩٢٠ عقد المؤتمر السوري العام اجتماعاً هاماً في دمشق ضم (٨٥) مندوباً من كافة البلاد السورية (سوريا، لبنان، فلسطين) واتخذوا قرارات هامة رداً على مواقف دول الحلفاء من القضية العربية ورداً على المتعاونين مع الفرنسيين، ومما جاء في احد القرارات «... فاعلنا باجماع الرأي استقلال بلادنا السورية بحدودها الطبيعية ومنها فلسطين استقلالاً تاماً لا شائبة فيه على الأساس المدني النيابي وحفظ حقوق الأقلية ورفض مزاعم الصهيونيين في جعل فلسطين وطناً قومياً لليهود او محل هجرة لهم» كما اتخذ المؤتمر قراراً باختيار الأمير فيصل ملكاً دستورياً على البلاد السورية، واعلان انتهاء الحكم العسكري الأجنبي، اما لبنان فقد حرص المؤتمر على اتخاذ قرار خاص به مؤداه «ان تراعى اماني اللبنانيين الوطنية في كيفية ادارة مقاطعتهم لبنان ضمن حدوده المعروفة قبل الحرب العامة بشرط ان يكون بمعزل عن كل تأثير اجنبي»[٤].

وفي ٩آذار (مارس) ١٩٢٠ تشكلت الحكومة العربية الأولى برئاسة رضا الركابي بتكليف من الملك فيصل، وقد حرص الملك على توزير رضا الصلح كوزير للداخلية في الحكومة الأولى، ذلك لأن اشتراك لبناني في الحكم في هذه المرحلة الدقيقة شأن له معناه الايجابي بالنسبة لأوضاع لبنان.

ومن الأهمية بمكان القول انه قبل صدور قرارات المؤتمر السوري العام كان وفد ماروني برئاسة المطران عبد الله خوري قد ابحر في اوائل آذار (مارس) ١٩٢٠ الى باريس للقيام بجهود حثيثة لتكريس فكرة انفصال لبنان عن سوريا. ويذكر بشارة الخوري نشاطه الدؤوب ضد الوحدة السورية، فقرر باعتباره الأمين العام لحكومة لبنان ارسال ذلك الوفد الى باريس ومما قاله: «فزرت البطريرك وطلبت اليه باسم الحاكم ان يجيز السفر للمطران عبد الله فقبل»[٥]. وقد تألف الوفد من المطران عبد الله خوري رئيساً ومن اميل اده والأمير توفيق ارسلان والشيخ يوسف الجميّل اعضاء. وكان الهدف من ترؤس رجل دين ماروني لهذا الوفد هو التصميم والتأكيد بان هذا الوفد بمطالبه واهدافه انما لا يزال يسير على خطى الوفدين السابقين لا سيما الوفد الثاني الذي ترأسه البطريرك الياس حويك.

وفي اثناء وجود الوفد في باريس تلقى نبأ قرارات المؤتمر السوري العام، فبدأ المطران خوري يسعى بكل جهوده مع رفاقه لدى وزارة الخارجية الفرنسية لابطال مفعول تلك القرارات. وفي ١٥آذار (مارس) ١٩٢٠ ارسل البطريرك

المعتمد العربي في بيروت
ضابط ارتباط الحكومة العربية في المقر العام

بيروت في ٢٩ / ١٠ / ١٩١٩

رقم ....

ثاني نسخة

حضرة الوطني الفاضل

بعد التحية، ابدي ان حضرة رئيس المؤتمر السوري قد كتب الينا ان نبلغ حضرتكم لزوم حضوركم الى دمشق، لان المؤتمر سيعقد جلسته للبحث في قانون البلاد الاساسي. فنرجوكم ان تأخذوا علماً بذلك وان تعرفونا ميعاد حضوركم.

تفضلوا بقبول الاحترام - واقبلوا فائق احتراماتي سيدي

المعتمد العربي

صورة دعوة لحضور المؤتمر السوري.

الماروني برقية الى «ميلران» رئيس الوزراء الفرنسي احتج فيها على اعلان فيصل ملكاً على لبنان[٦]. بينما ارسل المطران عبد الله خوري برقية الى البطريرك الماروني بواسطة الجنرال غورو اكد فيها «انه لم يطرأ اي تغيير في نوايا الحكومة الفرنسية بالنسبة الى لبنان منذ مغادرة غبطة البطريرك الحويك. ان التأكيدات التي اعطيت لغبطته لا تزال هي هي دون تغيير. ان الأحداث التي وقعت في دمشق ليس من شأنها ان تعدل شيئاً في السياسة التي تتبعها الحكومة الفرنسية حيال سوريا»[٧]. ولما وصلت البرقية الى الجنرال غورو، كتب بدوره رسالة ضمنها فحوى البرقية وارسلها الى البطريرك في ١٧آذار (مارس) ١٩٢٠، وذكر فيها سروره بعدم تغيير الموقف الفرنسي «وها اني ابعث بها شخصياً الى غبطتكم، وارغب في الوقت ذاته ان اعبر لكم عن عظيم سروري بان الحكومة الفرنسية جددت تصريحاتها القاطعة التي كان قد صرح بها السيد كليمنصو الى الشعب اللبناني».

اما فيما يختص بصدى قرارات المؤتمر السوري العام في لبنان فقد كانت صاعقة على القوى الرافضة للوحدة السورية، فجرت في مركز متصرفية جبل لبنان تظاهرة احتجاج كان على رأسها بعض المسؤولين وفي مقدمتهم بشارة الخوري الذي كانت مهمته ان يطمئن المتظاهرين بقوله: «ان هذا التغيير في سوريا لن يمس استقلال لبنان». كما وصلت عرائض الاحتجاج الى مقر البطريركية المارونية لا سيما من الطائفة المارونية، كما اتخذ مجلس ادارة جبل لبنان في ١٢آذار (مارس) ١٩٢٠ قراراً رفعه الى مؤتمر الصلح بواسطة الجنرال غورو احتج فيه على قرار المؤتمر السوري العام. ويبدو ان مجلس الادارة كان يتصرف وفق التطورات السياسية، ذلك انه بعد فترة سيتخذ قراراً بالتعاون مع



اعضاء المؤتمر السوري العام.

سوريا يعلن فيه استقلال لبنان احتجاجاً على مقررات مؤتمر سان ريمو.

وفي خضم هذه التطورات السياسية كانت المراسلات قائمة بين الحكومة الفيصلية والحكومة البريطانية وذلك منذ اليوم الأول لتولي رضا الركابي رئاسة الوزراء، ففي ١٨آذار (مارس) ١٩٢٠ ارسل الركابي رسالة الى رئيس الوزراء البريطاني الكولونيل «مينرتزغن» (Meinertzhagen) اوضح له فيها ثقة حكومته ببريطانيا واكد على الفائدة التي تحصل عليها من خلال توطيد العلاقات الموجودة بين الحكومتين والبلدين. ثم جدد الركابي برنامج حكومته السياسي «ونيتنا في المحافظة على مصالح كل اصدقائنا وخاصة مصالح شعبكم» واكد بانه تفادياً لأي سوء تفاهم في هذا الموضوع ومن اجل تسهيل مهمة مؤتمر السلام، فان الحكومة السورية مستعدة للدخول فوراً بالمحادثة مع حكومتكم على الأسس التالية:

١ - المحافظة على الاستقلال الداخلي والخارجي لسوريا والمحافظة على وحدة اراضيها.

٢ - المحافظة على مصالح انجلترا.

٣ - الافادة من مساعدة انجلترا ضمن

احدى رسائل رضا الركابي الى وزارة الخارجية البريطانية في ١٥ آذار (مارس) ١٩٢٠ (من ملفات وزارة الخارجية البريطانية F.o)

S.E.Mr le Premier Ministre   Damas, le 15/3/1920   138

LONDON.   N° 27.E.

92

Excellence,

J'ai l'honneur de vous rappeler que dans la note envoyée à Votre Excellence le 10/3/20 je vous ai assuré de la confiance que nous avons toujours eue dans votre grande Nation et de l'intérêt que nous avons à resserrer les liens existant entre nous.

Je l'avais terminée en disant que les relations qui se nouent entre nous sous de si bons augures ne pourraient que contribuer au développement et au progrès de nos deux Pays.

Dans une note précédente à celle-ci, j'ai eu l'avantage d'exposer à votre Excellence le programme politique de notre Gouvernement et de l'entretenir de notre désir de sauvegarder les intérêts de tous nos Alliés et particulièrement ceux de votre peuple.

En conséquence, je puis dès maintenant, assurer Votre Excellence que pour prévenir tout malentendu à ce sujet, ainsi que pour faciliter la tâche de la Conférence de la Paix, le Gouvernement syrien est prêt à entrer immédiatement en conversation avec votre Gouvernement sur les bases suivantes:

(I) Le maintien de l'indépendance intérieure et extérieure de la Syrie et de son unité territoriale.

(2) La sauvegarde des intérêts de l'Angleterre.

(3) Utilisation de l'aide de l'Angleterre dans les limites que permet notre indépendance.

Mon Gouvernement est assuré que, grâce aux principes humanitaires de votre grande Nation, et grâce à notre bonne volonté et notre désir de sauvegarder la Paix en Orient, il ne lui sera pas difficile de maintenir l'alliance, de conserver l'amitié existant entre nous, et d'arriver enfin à conclure une entente pouvant satisfaire les deux partis.

Veuillez agréer, Excellence, l'assurance de ma haute considération.

Le Président du Cabinet,

El-Rikaby

الحدود التي يسمح بها استقلالنا»[٨].

هذا وقد ارسل الركابي في التاريخ نفسه رسالة اخرى الى وزير الخارجية البريطانية اوضح له فيها ان الملك فيصل اعطى في اجتماعه الأول بمجلس الوزراء انطباعاته التي تكونت لديه من خلال اتصالاته برجال الدولة في انجلترا وفرنسا، وانه نتيجة لهذه الانطباعات فان الملك مقتنع كليا بصداقة انجلترا لسوريا. وبان الانجليز هم في افضل موضع ليس فحسب من اجل الاعتراف ومساعدة حرية هذا البلد، بل ايضا لتقديم مساعداتهم ضمن الحدود التي يسمح لهم بها هذا الاستقلال. واضاف الركابي قوله: «اننا سعداء بسماع هذه الانطباعات من فم سعادته لأن ذلك يرسخ ثقتنا بامتكم العظيمة وبتصريحاتكم الجبارة التي تخص سوريا والتي صرح بها رجال دولتكم ولديّ كل القناعة بان العلاقات التي تربطنا هي جيدة الى درجة انها لا تستطيع الا المساهمة في تقدم وتطور بلدينا»[٩].

والحقيقة ان هذه المراسلات انما تؤكد على نية الحكومة الفيصلية بالابقاء على علاقة مميزة مع الحكومة البريطانية دون ان يؤدي ذلك الى الاخلال بالوضع الاستقلالي لسوريا. غير ان بريطانيا لم تكن قادرة على السير قدما لتحقيق اماني الملك فيصل لا سيما ان فرنسا كانت لها بالمرصاد في مؤتمر الصلح، بالاضافة الى اتفاقيات سابقة بينهما ومنها اتفاقية سايكس - بيكو، ومما كان يعزز الموقف الفرنسي بعض اللبنانيين الرافضين لقرارات المؤتمر السوري العام.

ومن الأهمية بمكان القول ان مؤتمر

برقية الطائفة الاسرائيلية في طرابلس الى مؤتمر السلام في فرساي في آذار (مارس) ١٩٢٠ احتجاجا على قرارات المؤتمر العام.

31

28

TELEGRAMME

-:-:-:-:-:-:-:-:-:-:-:-:-

1609

20 MAR 1920

TRIPOLISYRIE 653 75 15

Congrès de la Paix,
Paris.

Nous apprenons que Congrès Damas vient de proclamer Emir Faysal Roi Syrie comme nous n'étions pas représentés dans ce Congrès et que proclamation ait lieu au nom de toute population Syrienne dont faisons partie nous venons protester contre cette proclamation que nous faisons Catégoriquement refusons aussi tout ce que ce Congrès décidera en notre nom et demandons pour Syrie un Gouvernement sous protection française

Communauté israëlite du Sandjak Tripoli.

الصلح في باريس تلقى العديد من البرقيات الاحتجاجية من بعض القوى المارونية والاسرائيلية على السواء، بل ومن بعض الشخصيات الاسلامية لا سيما من مدينة طرابلس وبينها برقيات ٢٤آذار (مارس) ١٩٢٠. وفي ٢٧آذار (مارس) سلّم مؤتمر الصلح في باريس بعض البرقيات الاحتجاجية الأخرى من بعض الهيئات اللبنانية والسورية الى المسؤولين البريطانيين، ومنها برقية مرسلة من «لجنة لبنان الكبير» في طرابلس التي اعتبرت ان حقوقها جرحت باعلان فيصل ملكاً على سوريا، ولذا فانها اعلنت احتجاجها على هذا القرار ورفضها كل السلطات الفيصلية الشريفية، مع التأكيد على ايجاد لبنان الكبير مع المساعدة الفرنسية. وقد وقع على هذه البرقية وبرقية مماثلة لها المطران الماروني انطوان عريضة - البطريرك فيما بعد - مطران طرابلس واللاذقية وحماه وحمص[١٠].

ولم تقتصر معارضة قرارات المؤتمر السوري العام على موارنة الداخل بل على بعض المغتربين منهم، فقد كتب يوسف السودا في ١٤آذار (مارس) ١٩٢٠ رسالة الى عبد الله صفير طلب منه ان يحتج - بوصفه رئيس جمعية الدفاع عن حقوق لبنان الكبير - على شائعة الرجوع الى فكرة الوحدة لافتا نظره الى انه سيكون لاحتجاجه الوقع المطلوب لا لشيء الا «لأن الانتداب لا يشك بمحبته واخلاصه». كما ارسل يوسف السودا رسالة اخرى الى داوود عمون في ١٦آذار (مارس) ١٩٢٠ عبر فيها عن خشيته عما نقلته الأخبار من مسألة الوحدة «وقلنا ان لم يكن الاستقلال خلواً من كل قيد وشرط فعلى الأقل هو استقلال تام عن الحكومات المجاورة يحفظ كياننا القومي وصيغتنا اللبنانية»[١١].

ويلاحظ بان يوسف السودا لم يمانع فرض القيود والشروط الفرنسية على استقلال لبنان، بينما اعتبر ان استقلال لبنان عن سوريا فيه حفظ للكيان القومي والصيغة اللبنانية. كما تخوف من ان تكون فرنسا هي صاحبة «نغمة الضم والوحدة» وعبر عن خشيته من ضياع (٤٠٠) الف مغترب في حال عدم الحاقهم بالاحصاء، فجاءه الرد من داوود عمون في ٢٤آذار (مارس) ١٩٢٠ طمأنه فيه على المسألتين: من ان الوحدة بين لبنان وسوريا لن تحدث، وبان المهاجرين سيدخلون في الاحصاء اذ عدل قانون الاحصاء باضافة مادة تقضي باحصائهم بواسطة قناصل فرنسا في الخارج. وفي الوقت نفسه وصلت الى مؤتمر الصلح برقيات احتجاج من «لجنة الاتحاد اللبناني» في بوينس أيرس في ٢٧آذار (مارس) ١٩٢٠ احتجاجاً على قرار المؤتمر السوري وقد وقعت باسم رئيس اللجنة «بو صادر» (Busader).

والجدير بالذكر ان الجنرال غورو (Gouraud) رأى صعوبة تحقيق قرارات المؤتمر السوري العام، فقد اوضح في برقية الى حكومته في ٢٥آذار (مارس) ١٩٢٠ «بأن قرارات مؤتمر دمشق اعتبرت فاشلة» وبأن الأمير فيصل - لم يقل الملك - نقل اليه نسخة عن الجواب الذي بلغه من الكولونيل اللنبي (Allenby) وان الأمير فيصل اوضح له «ان الأمة العربية ما تزال تشعر نحو الحكومتين الفرنسية والانجليزية شعور الصداقة والانصاف، وان هذه الأمة تتمنى من الحكومتين ان لا تأخذ بالقوة من عرب سوريا والعراق حق الاختيار الذاتي». واضاف غورو بان الأمير فيصل لن يذهب الى اوروبا الا بعد تحقيق شروطه، وانه سوف يقوم بعمل عدائي ضدنا للحصول على تلك الشروط. اما تلك الشروط والضمانات فهي «الاستقلال العربي في العراق وسوريا بما فيه فلسطين، والتخلي عن المشروعات الصهيونية والوعد بدرس دقيق لمسألة الوحدة السورية» واضاف غورو انه من الواضح ان الأمير فيصل يطلب ايضا «انسحابنا المقبل من المنطقة الغربية حسب تمنيات مؤتمر دمشق واعلن الأمير بان الشعب العربي سيحارب وانه لن يسمح بقيام دولة يهودية في فلسطين» ورأى اخيراً غورو «بأن الأمير وشعبه يميل للدخول في حرب قد تكون كارثة لا مفر منها لهم، ويجب ان يعمل على تلافيها، وبالتالي فان الأمير غير قادر على الدفاع عن مقررات المؤتمر»[١٢].

هذا وقد كشف تقرير صادر عن السفارة الفرنسية في لندن في ٧نيسان (ابريل) ١٩٢٠ من انه ليس هناك اي مجال للاعتراف بالأمير فيصل

برقية الجنرال غورو الى حكومته في آذار (مارس) ١٩٢٠ وفيها توضيحات حول موقف الأمير فيصل وشروطه.

138
72

Telegram communicated by the French Ambassador.

No. 700/6

Beyrouth, le 25 mars 1920 à 11 h,
reçu le 26 à 7 h. 15.

D'après les deux colonels, cette formule, volontairement imprécise, de l'Émir Faysal, signifie qu'avant toute décision concernant son voyage en France. Il veut obtenir de notre part, et de façon au moins officieuse, les assurances suivantes:

"Indépendance arabe en Mésopotamie et en Syrie, cette dernière englobant la Palestine, abandon des projets sionistes et promesse d'un examen bienveillant de la question (de l')(unité) syrienne."

Il est clair que, sans y insister, l'émir escompte aussi notre évacuation prochaine de la zone ouest, suivant le voeu du congres de Damas.

Par ailleurs, l'émir, affirmant que le peuple arabe combattra plutôt que de laisser installer un état juif en Palestine, craint d'être retenu comme otage en Europe, si des hostilités éclataient pendant son absence.

Il se préoccupe, enfin, de l'accueil qui lui sera fait en France au point de vue protocolaire.

J'ai répondu que l'émir ne pourrait avoir aucune crainte d'être retenu en Europe, quelles que soient les

circonstances

239

73

circonstances; que le Gouvernement lui rendrait, vraisemblablement, des honneurs qui ne seraient certainement pas royaux, mais ménageraient l'amour-propre du peuple syrien; qu'enfin, l'émir et son peuple, avant de se lancer dans une guerre qui serait inévitablement une catastrophe pour eux, devraient tout faire pour l'éviter, que, par suite, l'émir ne pouvait que déférer à l'invitation de la Conférence.

A suivre.

GOURAUD.

ملكا على سوريا الا عندما تصبح حالة الأمور الحاضرة في سوريا داخليا وخارجياً صالحة تمــامــا، وان السيــد ميلــران (Millerand) - رئيس الوزراء الفرنسي - يرى ان الحكومة الفرنسية تستطيع ان تعرض على الجنرال غورو كي يعرض بدوره على الأمير فيصل اعلاناً يخص سوريا يبدو بطبيعة الحال مرض للأمير وهذا الاعلان يتضمن «ان الحكومة الفرنسية استناداً الى تصريحاتها السابقة من ناحية واستناداً الى الأسس العامة لحرية الشعوب والتعاون الودي والمعلنة من قبل مؤتمر السلام من ناحية اخرى تعلن اعترافها بحق الشعوب الناطقــة باللغــة العربية الثابتة على الأرض السورية من جميع الأديان على ان تجتمع فيما بينها تحت عنوان: امة مستقلة».

ويلاحظ بان هذا التقرير الذي كشف عن امكانية اعتراف فرنسا باستقلال شعوب سوريا اشترط - مناقضا ما اكده - «ان يقبل الأمير فيصل الانتداب الذي سيؤمن عليه من قبـل عصبة الأمم والذي سيعطي شعبـه نصائحـه ومساعداته لتحقيق مبتغاهم شرعيا والسماح لهم ان يتحدوا في امة بعد ضيق طويل والخروج من حرب عطب البلاد بالخراب: ليس عنده طموح آخر. وسوف يضمن استقلالهم ضد اي اعتداء في الحدود التي يحددها مؤتمر السلام وللوقوف على ثلاث نقاط تؤخذ بعـين الاعتبار: قــومي، لغــوي، جغــرافي، ويؤخــذ بــالاعتبــار بعض الاستقلالية الضرورية»(١٣).

ومن خلال جميع هذه التقارير والمراسلات يلاحظ الاهتمام الشديد بمستقبل سوريا وما كان للمؤتمر السوري العام من وقع واثر ليس على الأوساط اللبنانية والعربية فحسب، وانما على الأوساط الدولية ايضا لا سيما فرنسا وانجلترا. كما يلاحظ بان فرنسا حتى هذه الفترة كانت لا تزال تريد ارضاء الملك فيصل وفي الوقت نفسه تحقيق تطلعاتها في المنطقــة، بينما يــلاحظ من تقارير الجنرال غورو انــه كان يحلـل الموقف الراهن من منظار عسكري وكان يتهم فيصل ورفاقه بانهم كانوا يعدون العدة لمقاتلة الجيش الفرنسي، اما فيما يختص بالموقف الماروني فقد

استمر بمجمله معارضا للقرارات الصادرة عن المؤتمر السوري، وكان قادة الموارنة لا سيما الروحيين منهم يأملون بـل ويشجعون الجيش الفرنسي على ضرب الجيش العربي الفيصلي لأنه في حال وقوع ذلك فانهم يصبحون بمأمن من الوحدة ومن التطلعات العربية، وهذا ما سيحدث فعلاً في ٢٤تموز (يوليه) ١٩٢٠.

◘

(١) للمزيد من التفصيلات انظر مقالنا في مجلة «تاريخ العرب والعالم» آب (اغسطس) ١٩٨٠، العدد٢٢.

(٢) كان الأعضاء اللبنانيون للمؤتمر السوري العام في دمشق هم: عن بيروت، محمد جميل بيهم، رضا الصلح، سليم علي سلام، د. فريد كساب، محمد اللبابيدي، احمد مختار بيهم (وقع الأختيار على ابنه امين بيهم بعد انسحاب والده) جرجي حرفوش، محمد الفاخوري، عارف النعماني، جان تويني عن طرابلس: توفيق البيسار، رشيد طليع. عن صيدا: رياض الصلح، عن صور: عفيف الصلح. عن بعلبك: سعيد حيدر، د. محمد بن علي حيدر، عن اقليم الخروب: ابراهيم الخطيب، عن الهرمل: تامر حماده، عن المتن: رشيد نفاع، عن الكورة: توفيق مفرج، عن راشيا: مراد غلمية، عن القنيطرة: الأمير محمود الفاعور، ثم التحق بالمؤتمر في دمشق الشيخ رشيد رضا والخوري اسطفان، الأول بصفته مندوبا عن بيروت والثاني بصفته مندوبا عن جبل لبنان.

(٣) أمين سعيد: الثورة العربية الكبرى، المجلد الثاني، ص٤٨، مصر (بدون تاريخ)، جورج انطونيوس: يقظة العرب، ص٥٩٦ – ٥٩٩، بيروت ١٩٦٦.

(٤) انظر: ساطع الحصري: يوم ميسلون، ص٢٦٤، بيروت ١٩٤٨، محمد جميل بيهم: سورية ولبنان ١٩١٨ – ١٩٢٢، ص١١٣ – ١١٩، بيروت ١٩٦٨، د. عبد العزيز نوار: وثائق اساسية من تاريخ لبنان الحديث ١٥١٧ – ١٩٢٠، ص٥٢٨ – ٥٤١، بيروت ١٩٧٤، وجيه علم الدين: العهود المتعلقة بالوطن العربي، ص١٧٤ – ١٧٧، بيروت ١٩٦٥.

(٥) بشارة الخوري: حقائق لبنانية، ج١، ص١٠٢، درعون – حريصا١٩٦٠.

(٦) زين زين: الصراع الدولي في الشرق الأوسط ص١٥٤، بيروت ١٩٧١.

(٧) هذه البرقية هي من بين ملفات البطريركية المارونية في بكركي.

(٨) Colonel Meinirtzhagen To Primer Minister, 18 March 1920, No. E2917, in F.O. 371/5034/44. (من وثائق وزارة الخارجية البريطانية وهي تنشر للمرة الأولى).

(٩) Col. Meinertzhagen to F.O. 18 March 1920 No. E2917/5034/44.

(١٠) هذه البرقيات كلها مرسلة من مؤتمر السلام في باريس الى سكرتير الوفد البريطاني في المؤتمر وهي من ضمن وثائق وزارة الخارجية البريطانية التي هي ضمن اوراقي الخاصة.

(١١) يوسف السودا: في سبيل الاستقلال، ج١، ١٩٠٦ – ١٩٢٢، بيروت ١٩٦٧.

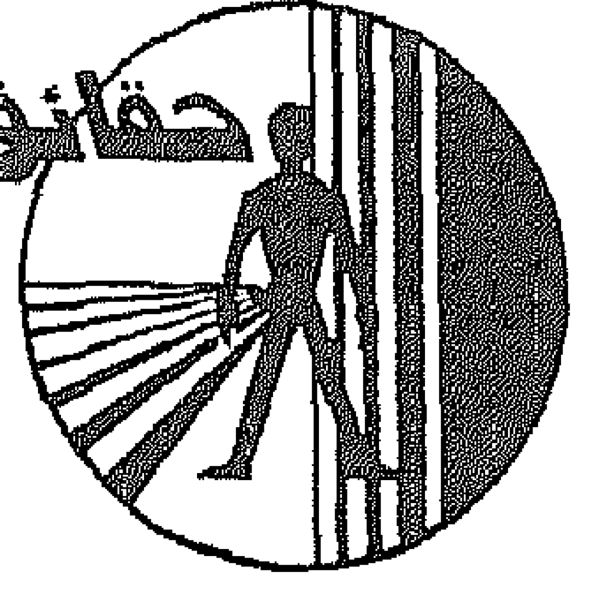
(١٢) General Gouraud to Quai d'Orsay, 25Mars (March) No.E 2846, in F.O. 371/5034/44.

(١٣) General Gouraud To Quai d'orsay, 3April (Avril) 1920, No.E 2846, in F.O. 371/5034/44. هناك العديد من التقارير بهذا الخصوص موقعة من قبل الجنرال غورو.



● واجبنا نحن الزعماء ان نبث في الشعب روح الأمل والتفاؤل، فإن الشعوب الضعيفة المقهورة لن تقوى ولن تنتصر ما بقيت يائسة متشائمة، ولكن لا سبيل إلى ذلك إلا إذا ضرب الزعماء الأمثال على انهم في المقدمة والطليعة، جراءة وتضحية واقداماً.

جواهرلال نهرو



حقائق... ام نسج خيال

ابحار الى الفردوس!

شذا عدرة



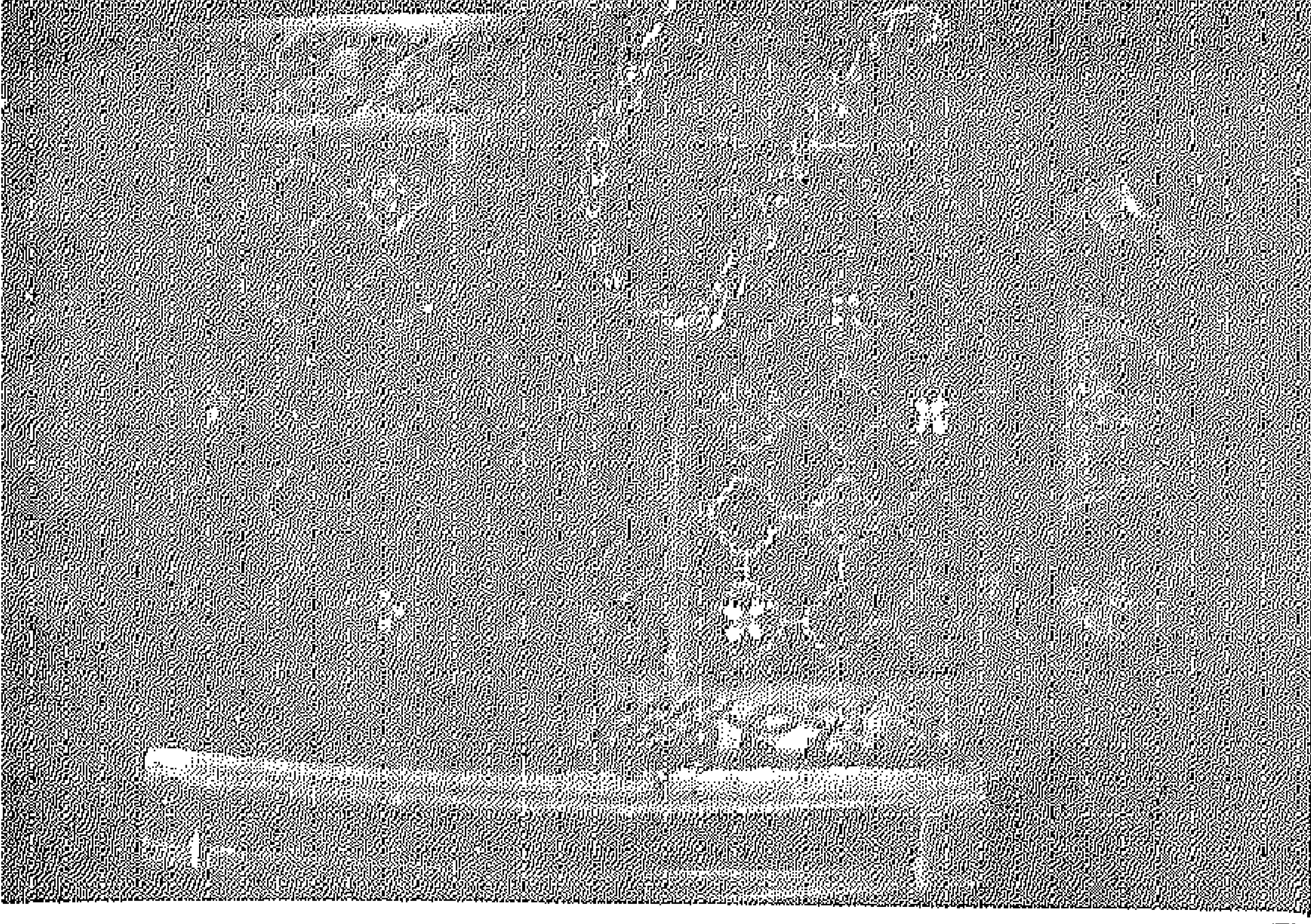
كانت السيدة اليزابيث بريتي (Eli-zabeth Pretty)، تستغرق في التفكير تسأل نفسها عن حقيقة الروابي الستة عشر الضخمة التي كانت تشاهدها كلما وقفت في غرفة استقبال منزلها الواقع في ساتون هوو (Sutton Hoo) في سَفْفُولك (Suffolk) والتي كانت تمتد على طول ارض رملية جرداء. فقد سمعت الكثير من القصص حولها وحول كنز مدفون في داخلها من اهالي القرى المجاورة لوود بريدج (Wood bridge). ولكن ذلك كان في عام ١٩٣٨ عندما ابتدأت تلوح في الأفق علامات الحرب العالمية الثانية حيث اصبحت اهتمامات الناس منصبة على اخبار الحرب اكثر من اي امر آخر.

ولكن في النهاية، اتصلت السيدة بريتي بمتحف ابسفيك (Ipswich) الذي ارسل عالم الآثار السيد باسيل براون (Basil Brown) لالقاء نظرة على تلك الروابي. وبعد اجراء الفحص الدقيق لثلاث منها، صرّح السيد براون بان تلك الروابي ليست سوى عبارة عن مدافن لنبلاء الأنجلو ساكسون، وبما ان لصوص المقابر قد سبقوهم اليها، لذا فهي لا تحتوي على الشيء الثمين. ولكن بعد اجراء الفحص على الرابية الرابعة، تبين للسيد براون بان الأمر هنا يختلف عما سبقه. فهي تبلغ الثلاثين متراً في الطول واربعاً وعشرين في العرض وثلاثة امتار في الارتفاع؛ ولم يتطلب امر اكتشاف ما في داخلها سوى بضع ضربات من معوله الصغير الذي ازاح الستار الرملي عن سفينة مدفونة تعود الى عهد الانجلو ساكسون.

كان يعلم السيد براون بان العادة قد جرت في العهود الوثنية ان يدفنوا كبار عظمائهم مع كامل ثرواتهم داخل سفن ووسط احتفالات تمارس خلالها الطقوس والشعائر الدينية؛ اعتقاداً منهم بان السفينة ستحمل البطل المتوفي الى العالم الأخر. وقد كان حجم السفينة يدل على مقام الزعيم المتوفي، فكلما كان مقامه ارفع قدراً ازداد حجم السفينة كثيراً وبالتالي تزداد قيمة الكنز المدفون معه. وهذه التي وجدت ذات غرفة تتسع لثماني وثلاثين مجذفاً، لذا كانت من الكبر بحيث لا يمكن ان تكون سوى لملك.

ابتدأ السيد براون يحفر في التلة وقلبه يغور في اعماقه من الخوف؛ لأن جميع الدلائل التي بَدَت لعينيه الخبيرتين كانت تشير على ان التلة قد تعرّضت للنهب والسلب من قبل لصوص المقابر ابان عهد الملكة اليزابيث الثانية. وهذا كان يعني بدوره بان آثار تلك السفينة ليست لها قيمة تذكر كبقية آثار التلال الأخرى.

ولكن هل من المعقول ان لا تكون التلة تحتوي على الشيء الثمين؟ هذا ما كان يتساءله السيد بروان الذي تبين له فجأة بأن اللصوص قد اخطأوا في تحديد نقطة الوسط الرئيسية

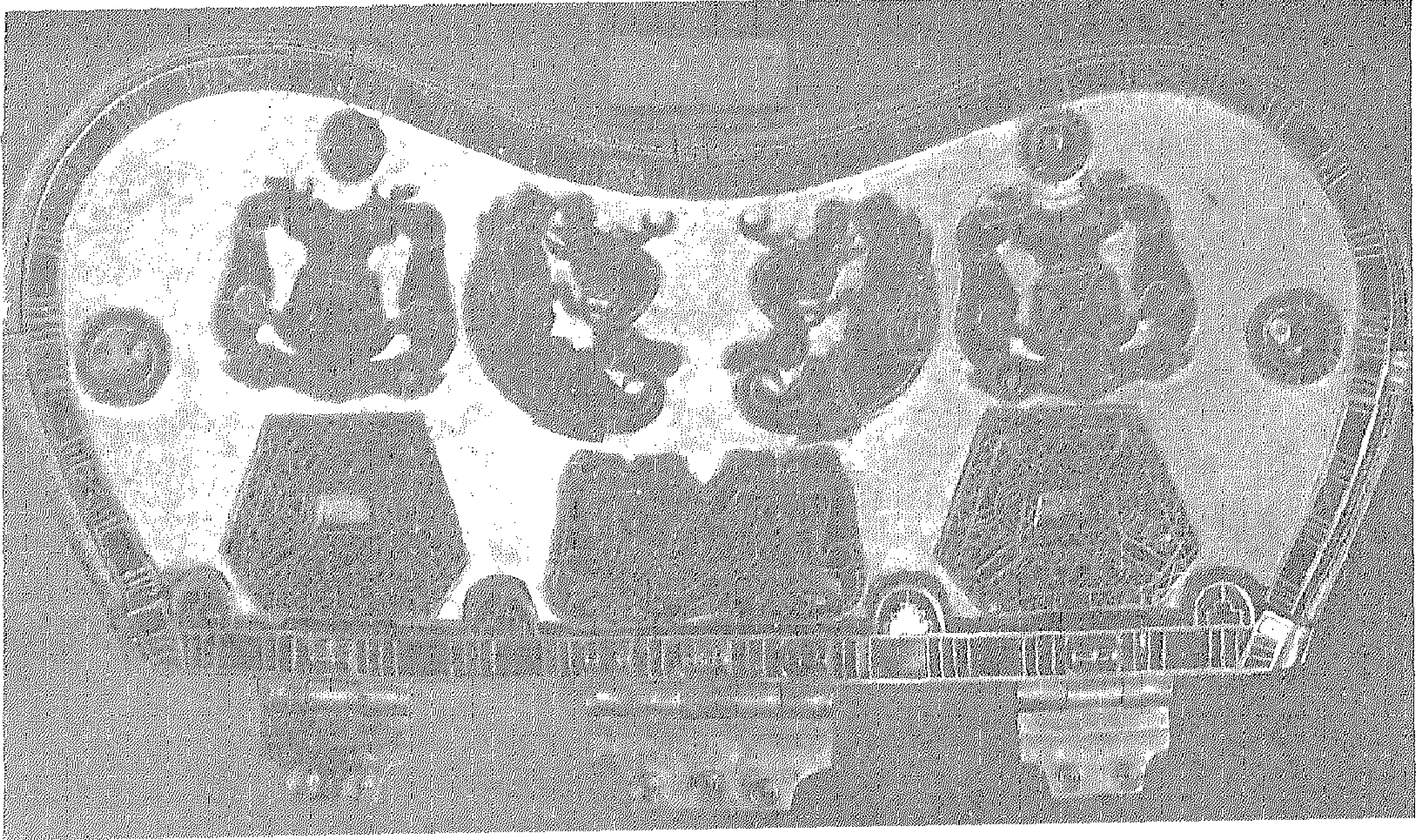


دبوس ذهبي للزينة.

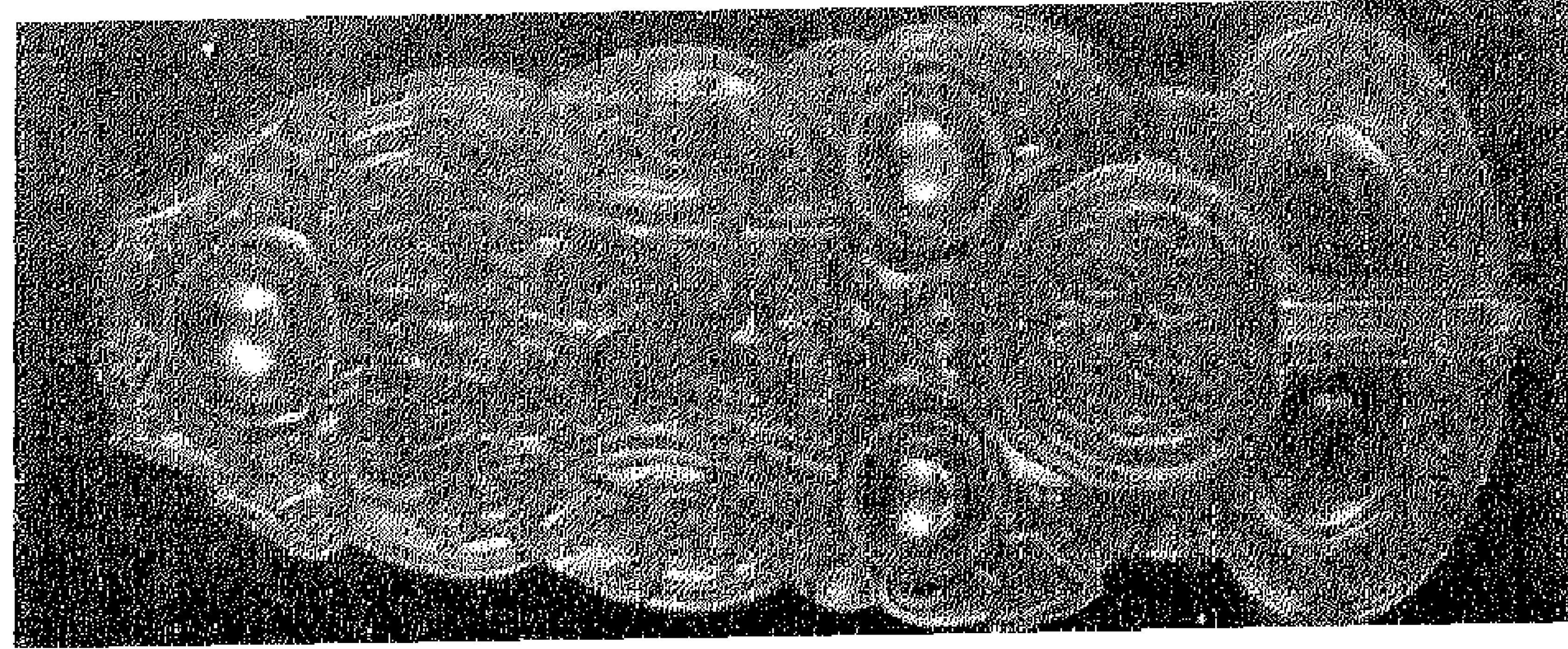
للسفينة حيث من الأرجح ان يكون الكنز قد وضع هناك. وهم قد اخطأوا بنظره، بسبب التغييرات الخارجية التي طرأت على التلة عبر السنين مما جعلهم يحفرون في غير المكان الصحيح.

استطاع السيد براون ان يحدد بمهارة وسط السفينة، حيث ابتدأ وفريقاً من علماء الآثار الذين كانوا قد استدعوا لمعاونته، ابتدأوا يحفرون بحماس شديد، وبعد عدة اسابيع من العمل المتواصل استطاعوا كشف النقاب عن هيكل السفينة واصبحوا على قيد انملة من غرفة الدفن. وبدقة متناهية، تمكنوا من استخراج كرة ذهبية ومن ثمّ... اخذت روائع الكنز تظهر على وجه الأرض واحدة تلو الأخرى. فهناك الأيل البرونزي والترس الغني الزخرفة وقطع خوذة منقوشة بحيث تمثل وجه محارب ووعاءان كبيران وسيف مذهب وغمد وانواع كثيرة من المجوهرات والحلى الجميلة.

كان رجال الحفر شديدي الانهماك بحيث لم يعبروا اية اهمية لكتلة من تراب ارجواني كانت اكبر قليلاً من رأس الرجل العادي فقد وضعوها جانباً واستمروا في عملهم، الا ان الدهشة غمرتهم عندما استخرجوا كتلة كبيرة أخرى تبين لهم فيما بعد بأنها عبارة عن طبق مقعر كبير مصنوع من الفضة يعود الى العهد البيزنطي. وقد استخرجوا بعد ذلك ستة اطباق



غطاء كيس دراهم مزين بـالعقيق الأحمر والزجاج الملون.



حزام ذهبي بلغ طوله احد عشر سنتيمترا.

فضية اخرى كانت جميعها مصنوعة باتقان رائع.

قدّر الخبراء الكنز بعد ان استخرجت جميع محتوياته بقيمة نصف مليون جنيه استرليني. غير ان قيمته التاريخية كانت لا تقدر بثمن لأنه قد القى اضواء كاشفة على حقبة جديدة من حقبات تاريخ الأنجلو ساكسون.

كانت هناك قطعة مفقودة تحولت فيما بعد الى لغز! وهو اين كانت الجثة؟ فهي الى جانب فقدانها، لم يكن هناك اي دليل يشير من قريب او بعيد لهوية صاحبها «الملك المتوفي».

ولكن استنتج فيما بعد، خبراء علم الآثار بان سفينة الدفن هذه، من المكن ان لا تكون سوى نصب تذكاري للملك ردوولد (Redwald) الذي كان اول ملك انجلياني يعتنق المسيحية وقد توفي حوالي عام ٦٢٥م.

اما رعيته، فيبدو بانها لم تكن مقتنعة تماما بتعاليم الديانة الجديدة، ورغبت عن طريق اقامة شعائر الدفن على الطريقتين الوثنية والمسيحية من ان تضاعف في تأكيدها على ان ملكها الأخير قد حظي حقا بمكانة في الفردوس.

◘

المصدر:

The World's Greatest Wonders. Encyclopedia of the World in Colour

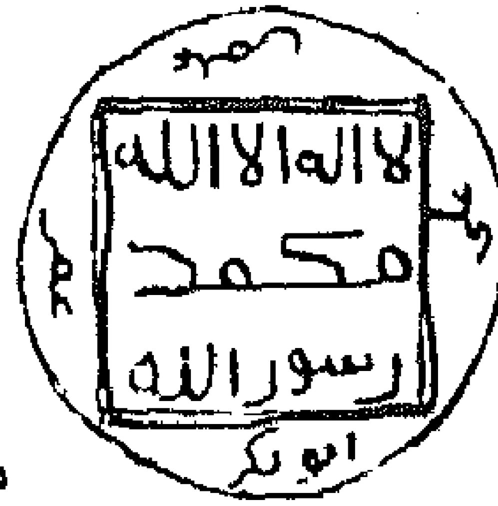
النقود العربية
سكّها عبد الملك بعد «حادثة دبلوماسيّة»

فكتور سحاب

في مطلع الفتوح العربية، عندما سقطت بلاد الشام في أيدي المسلمين على يد جيوش يزيد ومعاوية ابني ابي سفيان وشرحبيل بن حسنة وخالد بن الوليد وعمرو بن العاص وابي عبيدة بن الجراح، وغيرهم من القادة العسكريين الأفذاذ، لم يفكر الفاتحون مباشرة في تغيير النظم والترتيبات التي كانت قائمة في البلاد المفتوحة، الا ما تعلق منها بمهمات عملية لا مفر من مواجهتها.

وقد ابقى الفاتحون في الأمصار على الكثير مما خلفه البيزنطيون والفرس، خاصة ما تعلق بنظم الحكم والدواوين والنقود.

ولم يفكر الفاتحون بتغيير النقود الفارسية والبيزنطية الا بعد حادثة «دبلوماسية» وقعت بين الخليفة آنئذ عبد الملك بن



واحد من اقدم النقود العربية وقد نقش عليه: «لا اله الا الله محمد رسول الله» ثم اسماء الخلفاء الراشدين: ابو بكر وعمر وعثمان وعلي.

مروان، والامبراطور البيزنطي جوستينيان الثاني.

فالمعروف ان التجارة ظلت قائمة بين الدولة العربية الناشئة والامبراطورية البيزنطية التي تقلصت ممتلكاتها الى ما وراء حدود الشام الشمالية. وكان البيزنطيون مثلاً يستوردون من مصر العربية ورق البردي، الذي كان الوسيلة الوحيدة لكتابة المخطوطات في تلك الحقبة. وكان المسلمون يدمغون ورق البردي المعد للتصدير بخاتم الشهادة: لا اله الا الله محمد رسول الله.

فاشتكى جوستينيان من ان هذه الدمغة تزعجه وتزعج البيزنطيين، وطلب من عبد الملك ان يأمر بالغائها. فرفض عبد الملك ذلك. وكان جوستينيان يعلم ان العرب لم تكن لهم نقودهم الخاصة، وانهم كانوا يتعاملون بالنقود البيزنطية الذهبية، فهدد الامبراطور عبد الملك بأن يضرب على الدنانير البيزنطية كتابات تزعج العرب وتمس عقيدتهم وايمانهم. غير ان عبد الملك ارسل الى الامبراطور ما يفيد انه لن يعتمد بعد الآن على النقود البيزنطية. وهكذا بدأت الدولة العربية تسك نقودها العربية الخاصة.

ومع ان النقود أصبحت عربية من ذلك التاريخ، فان النقود والوحدات المتداولة حافظت على الأسماء التي كانت تطلق عليها في الفترات الماضية. فسميت العملة الذهبية ديناراً، اشتقاقاً من الكلمة الرومانية «ديناروس»، وهي تساوي

فيكتور سحاب: صحافي، مجاز في التاريخ.

عشرين درهماً. اما الدرهم، فهو بدوره سمي على اسم «الدراخما» اليونانية. وسمي النقد النحاسي فلساً، جمعه فلوس، من الكلمة الرومانية والبيزنطية «فوليس».

واما اشكال النقود العربية فكان واضحاً فيها تقليد الأشكال الساسانية الفارسية. ومع ان كلمة درهم يونانية الأصل، كما سبق، فان الدقة التي اتخذها الدرهم الفضي العربي في بداياته، كانت تذكر بالدرهم الساساني الفضي، ولو انه كان اخف وزناً بكثير. وقد اختلفت الأوزان عن الوحدات الأصلية، بسبب رغبة في توحيد المقاييس ذات المصادر المختلفة. فزيد وزن هذه الوحدة، وخفض وزن تلك، حتى توحدت العملة العربية واصبحت محددة الأثمان في المبادلات.

ومع ان الدنانير الذهبية الأموية كانت تضرب في دار او دارين للسكة على الأكثر، فان الدراهم الفضية، وهي اكثر تداولاً بطبيعة الحال، ولا بد إذن



درهم ضرب في واسط سنة خمس وتسعين، ايام الوليد بن عبد الملك.



احد الله
مد لم يلد
ولم يولد ولم
يكن له كفوءاً
احد» ضربت على
كل النقود الأموية.

من ضرب الكثير منها، كانت تضرب في دور متعددة. والواقع ان الدور كانت تتعدى الستين وهذا ما جعل الدراهم تختلف واحدها عن الآخر، مما يزيد من قيمة النقود لدى جامعيها.

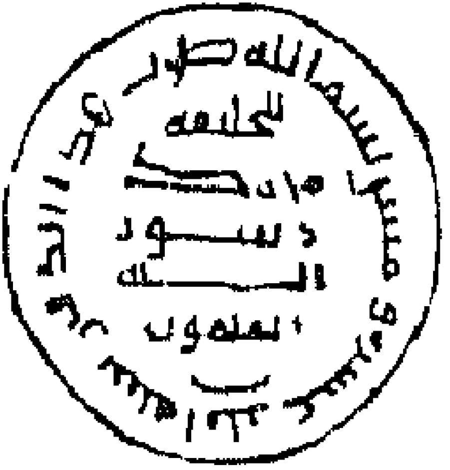
وكانت اول النصوص التي ضربت على الدراهم العربية «لا اله الا الله محمد رسول الله»، ثم نص آخر يقول في الاجمال: بسم الله ضرب هذا الدرهم بدمشق (او غيرها من عواصم الأمصار مثلاً) في سنة كذا وكذا. وكان الدرهم يحمل احياناً اسم المقاطعة بدلاً من اسم عاصمته.

واقدم النقود العربية الواردة في لائحة المتحف البريطاني، مصدره دار سكة دمشق وتاريخه سنة ٧٩ للهجرة. اما الدرهم المضروب في واسط (احد الأمصار في العراق) فتاريخه سنة ٩٥ للهجرة، ايام الخليفة الوليد الأول (ابن عبد الملك)، اي سنة ٧١٤ للميلاد. وقد ضرب في وسطه النص التالي: «لا اله الا الله وحده لا شريك له»، وذلك بكتابة كوفية غير معجمة الأحرف (اي ان النقط لم توضع على الأحرف، وتلك كانت طريقة الكتابة العربية اساساً، قبل ان يبدأ العرب وضع النقط على الحروف وهو ما يسمى التعجيم، لمساعدة الأعاجم في قراءة النصوص المقدسة من غير خطأ).

وحول هذا النص، ضرب في شكل دائري نص يقول: «بسم الله، ضرب هذا الدرهم بواسط في سنة خمس وتسعين»، كذلك بخط كوفي مهمل الحروف (اي غير منقطها).



في النقود العباسية حلت «محمد رسول الله» محل «الله احد الله الصمد».



اما الوجه الآخر للدرهم فقد ضرب عليه نصان من القرآن الكريم. ففي الوسط: «الله احد الله الصمد لم يلد ولم يولد

ولم يكن له كفواً أحد». وعلى المحيط «محمد رسول الله ارسله بالهدى...» الى آخر الآية الكريمة. والنص الأول اعتبر شعاراً لخلفاء بني امية، ليس في حكمهم في الشام فقط، بل في الأندلس ايضا، حتى نهاية عهد الخليفة عبد الرحمن الثالث الملقب بالناصر لدين الله. فهذه الكلمات «الله احد الله الصمد...» الى آخر السورة، نقشت على كل النقود الأموية بلا استثناء. فلما جاء العباسيون الى الحكم سنة ٧٥٠م، ابدلوا النقوش بغيرها، واستكملوا نص الوجه الأول «لا اله الا الله»، ونقشوا على الوجه الثاني «محمد رسول الله»، بدلاً من «الله احد الله الصمد».



الدينار الذهبي ايام الدولة الفاطمية.





ريال فضي من ايام صلاح الدين ضرب في دمشق.

وفي العصور المتقدمة نسبياً، اصبح اسم المصر الذي تضرب فيه النقود يسقط، اذا كان الضرب قد جرى في بغداد العاصمة، وهذا حال معظم النقود المتوافرة من العصر العباسي. ولكن اية نقود من تلك الحقبة تحمل اسم مصر من الأمصار مع اسم الحاكم المحلي، تكتسب في الحال قيمة اضافية، لندرتها. ولا ادل على ذلك من القطعة الشهيرة التي ضرب عليها «عز بعد فاقة الأمير علاقة». ولعل هذه الندرة اخذت تصبح كثرة مع تخلخل الحكم المركزي العباسي شيئاً فشيئاً ونشوء الدويلات في مصر والمغرب والأندلس والنواحي الأخرى على اطراف الامبراطورية العربية، حتى اخذت كل دولة تسعى الى سك عملتها الخاصة. فصدرت عملة اخشيدية واخرى فاطمية وثالثة غزنوية وهكذا.

ولما جاء عصر صلاح الدين الأيوبي، وهو الاسم الشائع والمختصر للرجل العظيم الذي كان اسمه الحقيقي والمعتمد آنذاك: «الملك الناصر صلاح الدنيا والدين يوسف بن نجم الدين ايوب»، يلاحظ ان انواع السكة تعددت الى حد كبير. فكان الدينار الذهبي بالخط الكوفي القديم، ثم الريال الفضي ذو النقش المربع في وسطه، ومعظمه ضرب في دمشق، والريال الفضي ذو النجمة المسدسة ومعظمه ضرب في مدينة حلب، وريال نحاسي منقوش عليه صورة اسد، وريال نحاسي آخر نقش عليه رسم صلاح الدين جالساً على العرش، بالاضافة الى ثلاثة انواع اخرى من الريالات النحاسية. ولقب ملك، كان عندئذ يستخدم عند العرب للمرة الأولى.

ومن اواخر النقود العربية المعروفة قبل الفتح العثماني الدينار الذهبي للملك الظاهر بيبرس الذي تم على ايامه القضاء على الدولة الصليبية وصد الغزو التتري بقيادة هولاكو عن الشام، في اواخر القرن الثالث عشر للميلاد. وقد ظل الحكم في مصر والشام في يد المماليك البحريين اولاً، ثم





ريال فضي من ايام صلاح الدين ضرب في حلب.





ريال ايوبي يظهر فيه صلاح الدين جالساً على العرش.





دينار ذهبي من ايام الملك الظاهر بيبرس.

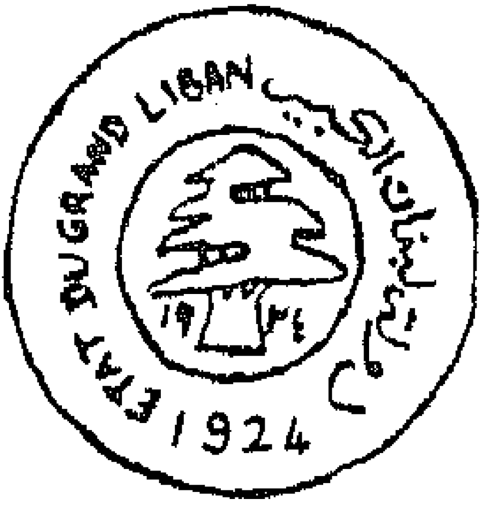
البرجيين، الى ان سقطت البلاد في يد السلطان سليم الفاتح.

وآخر النقود العربية التي تذكرنا بما جرى عليه العرف قديماً في النقود، هو ذلك الريال اليمني الشمالي المضروف في صنعاء في عهد الامام احمد حميد الدين الذي ازيح عن العرش سنة ١٩٦٢. وقد ضرب على الريال: «المملكة المتوكلية اليمنية، لا اله الا الله محمد رسول الله، ضرب بدار الخلافة صنعاء، سنة ١٣٦٧». وعلى الوجه الثاني: «الله نصرة، ١٣٦٧ احمد حميد الدين، امير المؤمنين الناصر لدين الله رب العالمين».





ريال يمني حديث شبيه بالنقود العربية القديمة.



نقد من سنة ١٩٢٤: دولة لبنان الكبير.

اما في لبنان، فان جزءاً طويلاً من تاريخ البلاد والنقود فيها، امتزج بما كان لمحيطها ايام الفتح العربي وما تلا ذلك من عصور، وما سك فيها من نقود ومداليات. ومن النقود التي تختص بالتاريخ اللبناني الحديث، واحد ضرب سنة ١٩٢٤، باسم دولة لبنان الكبير، وهو اسم لبنان عندما انتدبت فرنسا لحكم المنطقة، وجرى ضم بعض الأقضية الى الجبل، لتتخذ الحدود خطها الحالي. ◘

المراجع:
- فيلهاوزن، يوليوس: «تاريخ الدولة العربية».
- بلانت، ريتشارد: «المسكوكات العربية وكيف تقرأ».
- هانسون، ت.: «جمع المسكوكات».



● أنا أشرب الخمر كما أشرب الماء ولا أذكر أني سكرت إلا بخمرة النصر!

الاسكندر الكبير

عصر محمد علي في الملاكمة

د. يوسف شبل



يعرف بعض القراء الدكتور يوسف شبل كإقتصادي له مؤلفات ومقالات عديدة في حقل اختصاصه نشر بعضها في «تاريخ العرب والعالم». ولكن أغلب الظن أن أحداً من القراء لا يعرف أنه كاتب رياضي له إهتمامات واسعة في شؤون الرياضة.
ويسرنا أن نقدمه إلى القراء من خلال المقال الذي كتبه حول بطولة العالم في الملاكمة للوزن الثقيل.

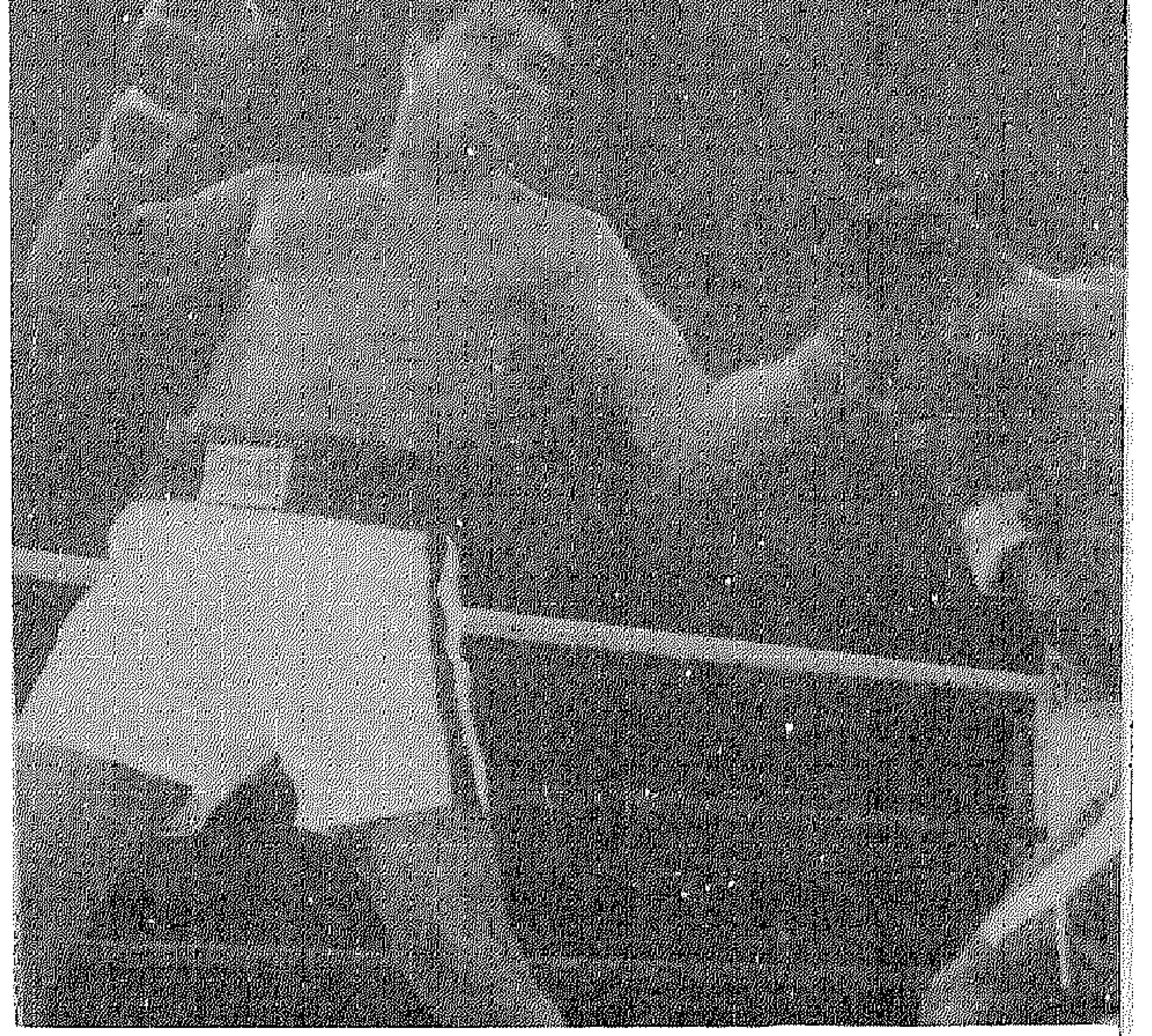
في أولمبياد روما الذي جرى في عام ١٩٦٠ فاز بطل أمريكي صغير السن بوزن خفيف الثقيل اسمه «كاسيوس مارسيللوس كلاي». وكما جرت العادة بين الملاكمين الهواة الذين يطمعون بأضواء وأمجاد الملاكمين المحترفين أعلن هذا البطل الأولمبي احترافه بعد عودته إلى مسقط رأسه في مدينة لويفيل في ولاية كانتيكي في الولايات المتحدة بعد أن انتقل إلى فئة الوزن الثقيل في الملاكمة. وكان ذلك في أيلول من عام ١٩٦٠. وقد لعب مباراته الأولى كمحترف ضد «هونساكر» (Hunsaker) في تشرين الأول من نفس العام حيث فاز في الجولة السادسة. وكان نصيبه من المباراة ٢٠٠٠ دولار فقط. ثم عاد وفاز في مباراة ثانية ضد ملاكم محترف آخر اسمه «سيلر» (Silre) وفاز عليه بالضربة القاضية في الجولة الرابعة. وفي هذه المباراة لم تزد حصة كلاي عن ٢٠٠ دولار!

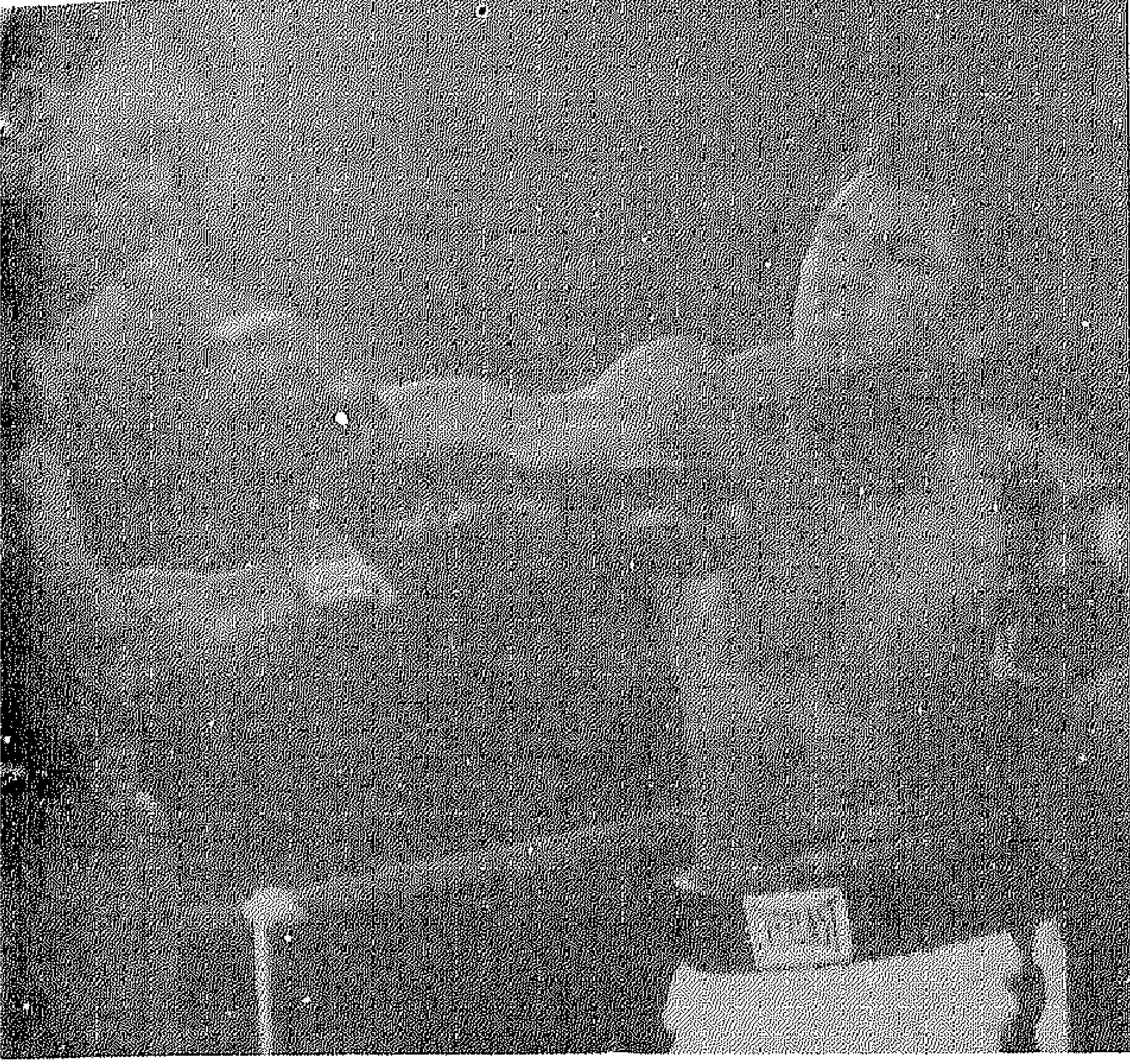
في عام ١٩٦١ لعب كلاي ثماني مباريات انتصر فيها جميعاً، ستة منها بالضربة القاضية واثنتان بالنقاط. وفي عام ١٩٦٢ بدأ اسم كلاي يلمع بسرعة خصوصاً عندما هزم البطل الكبير «آرشي مور» بطل العالم السابق في وزن خفيف الثقيل بالضربة القاضية في الجولة الرابعة في مباراة جميلة في مدينة لوس انجيلوس. وكان قد هزم خمسة ملاكمين اخر بالضربة القاضية. وقد لفت الأنظار إليه بسرعته الفائقة وذكائه الحاد على الحلبة ولياقته البدنية التي فاقت كل الحدود إلى جانب اتقان فن الكلام عن الخصم شعراً ونثراً! فقد كان كلاي يتحرك على الحلقة برشاقة وسرعة ملاكم من وزن الريشة رغم أنه يزن حوالي ٩٨ كيلو كما كان سريع الحركة سواء في اليدين أو القدمين أو مختلف أنحاء جسمه إلى جانب قدرته على التمويه وكان يملك سرعة خاطر كبيرة.


محمد علي عندما كان في الثانية عشرة من عمره.

وفي مطلع عام ١٩٦٣ كان «سوني ليستون» قد انتهى من سحق «فلويد باترسون» في مباراتهما التي جرت في أيلول من عام ١٩٦٢ في شيكاغو. والطريف أن معظم المحللين والنقاد كانوا يراهنون على أن «ليستون» سيحمل لقب بطولة العالم لمدة طويلة نظراً لقوته الخارقة وشراسته في انهاك خصومه من ناحية ولأنه كان قد فاز على جميع الملاكمين المصنّفين في لائحة البطولة دون استثناء.

في هذه الفترة بالذات بدأ «كاسيوس كلاي» يعدّ نفسه بهدوء وثقة لمباراته مع «ليستون». فلعب عام ١٩٦٣ ثلاث مباريات كبيرة ضد «شارلي باول» و «دوغ جونز» و «هنري كوبر» بطل بريطانيا وأوروبا في الوزن الثقيل. وقد استطاع أن يهزم الأول بسهولة كبيرة بالضربة القاضية في الجولة الثالثة. أما مباراته مع «جونز» فقد كانت من أصعب مبارياته طوال حياته. فقد فاز فيها بالنقاط بعد أن كاد «جونز» أن يلقي به أرضاً في منتصف المباراة غير انه كلاي تماسك وعاد


محمد علي بعد أن قضى على ليستون في الجولة الأولى في مباراة الثأر.

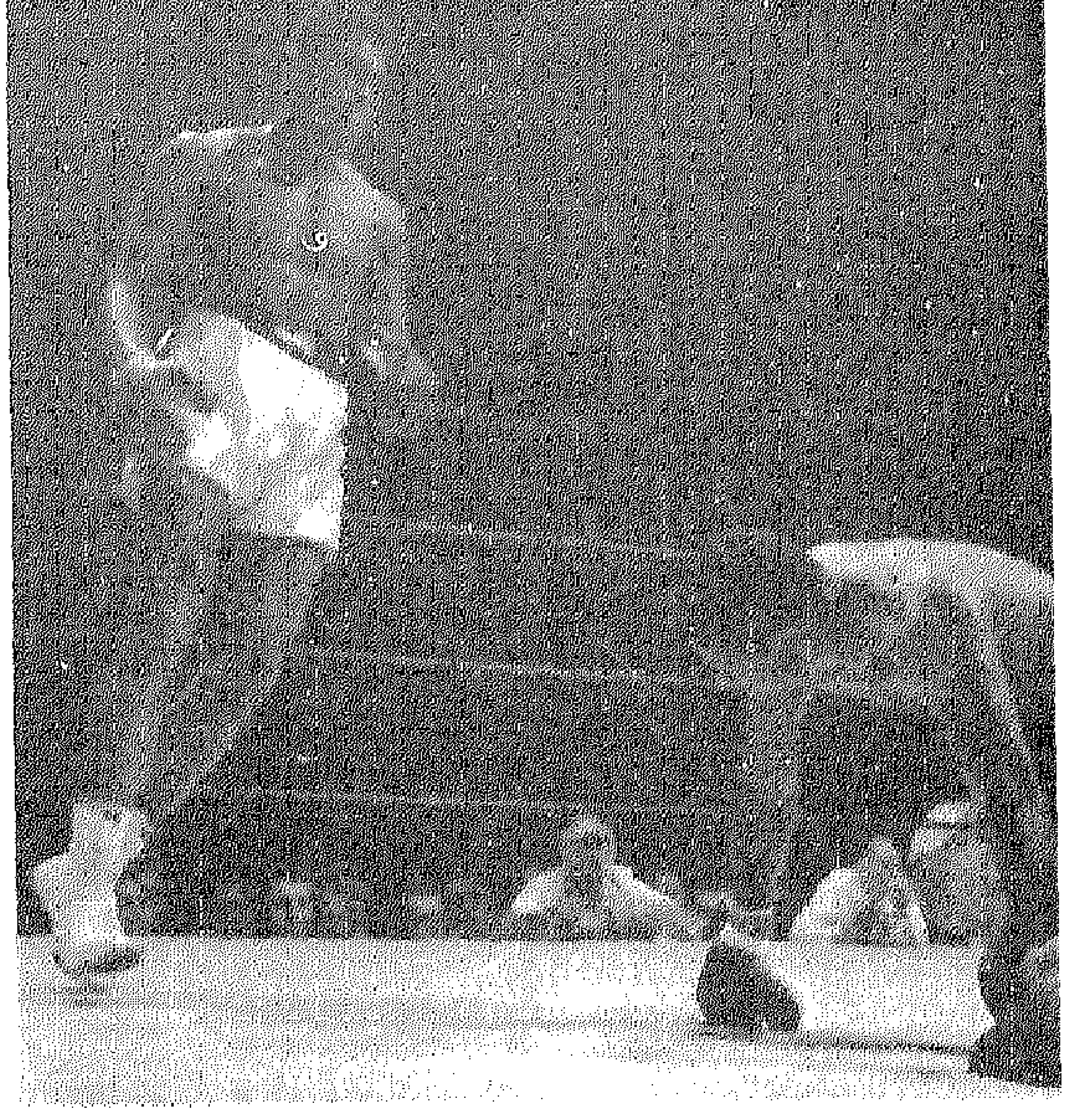

باترسون على ارض الحلبة قبل ان يوقف الحكم المباراة.

ليفوز بفارق ضئيل بالنقاط. وقد حاول عدد من النقاد التشكيك بقدرته وادعى البعض ان المباراة ربحها جونز فعلاً.

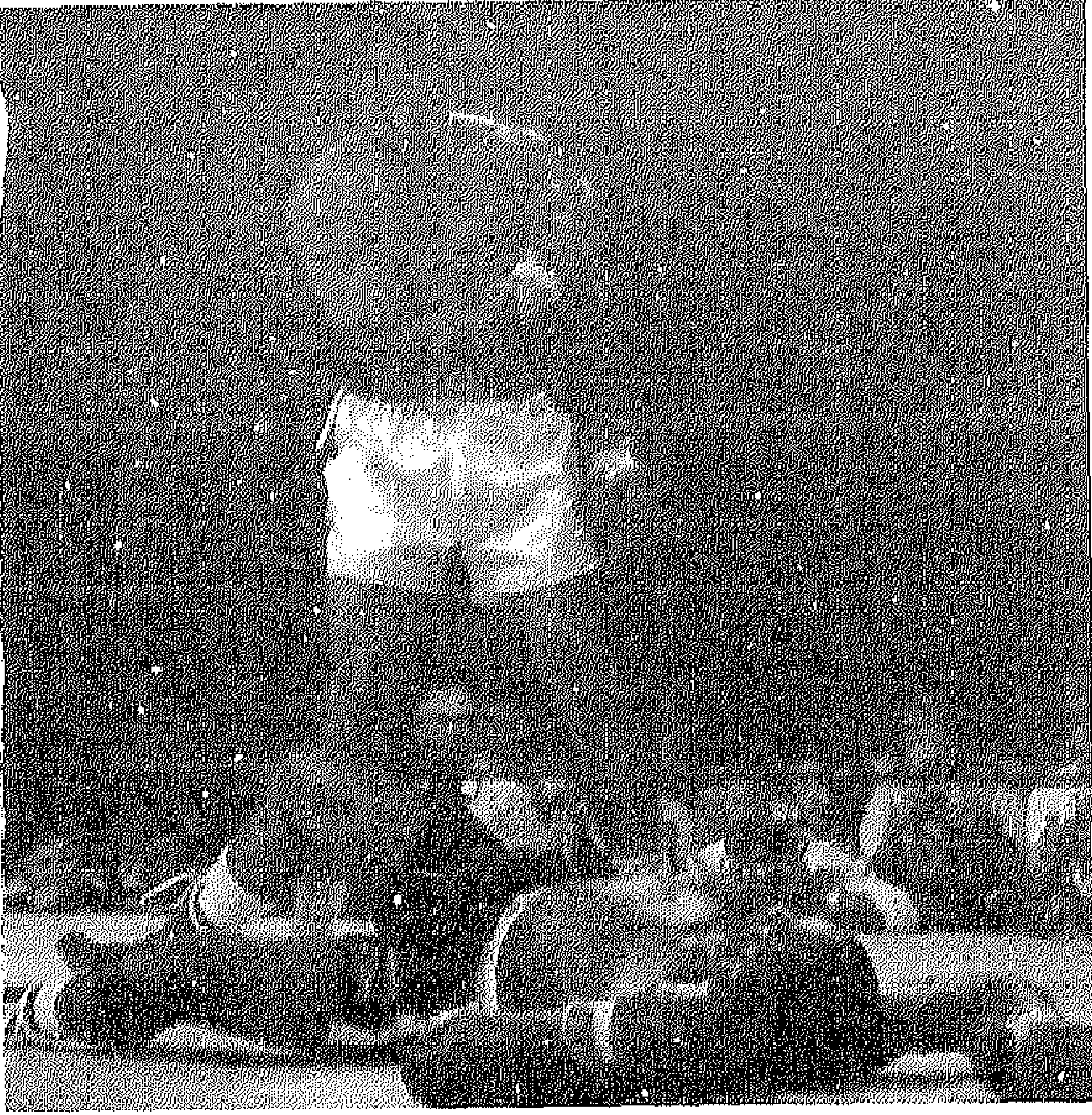
أما مباراته مع «كوبر» البريطاني فكانت تاريخية. فقد تنبأ كلاي قبل المباراة بأنه سيهزم خصمه في الجولة الخامسة. وعندما بدأت المباراة ظهر جلياً تفوق محمد علي فناً ولياقة وسرعة واستطاع أن يكسب الجولات الثلاث الأولى وان يفتح جرحاً عميقاً فوق حاجب «كوبر». وقبل نهاية الجولة الرابعة بلحظات ومن موقع اليائس سدّد «كوبر» لكمة خطافية «هوك» يسارية إلى فك كلاي الذي وقع على ظهره. وقبل أن يبدأ الحكم العد دق الجرس معلناً انتهاء الجولة. وهنا بادر «انجيلوا داندي» (Dundee) مدرب كلاي ومعاونوه إلى جره بسرعة إلى مقعده اعتقاداً منهم بأنه قد اصيب اصابة بالغة غير ان قدرة كلاي على تحمل اللكمات اتضحت جلية عندما نهض خلال لحظات من تلقيه الضربة القوية ووقف في ركنه قبل أن يضرب الجرس ايذاناً ببدء الجولة الخامسة.

وعندما بدأت الجولة الخامسة هاجم كلاي كوبر بسرعة مذهلة وكال له في دقيقة واحدة مجموعة من اللكمات المستقيمة والخطافية ما يساوي ٢٠ لكمة مما أحال وجه كوبر إلى كتلة من الدماء. فتدخل الحكم بعد أن بدأ الجمهور يطالب بوقف المجزرة وأعلن فوز كلاي بالضربة القاضية الفنية في الجولة الخامسة.

وما أن نزل كلاي من الطائرة في نيويورك عند عودته من لندن حتى أشار إلى حشد الصحافيين الذي كان بانتظاره بالرقم ٨. وكان يعني بذلك ان ليستون سيسقط في الجولة الثامنة وكان يعرف جيداً ان الرأي العام سيطالب «ليستون» باعطاء كلاي فرصة لمقابلته على اللقب. وخلال شهر من الزمن كانت الترتيبات قد تمت لإقامة المباراة المنتظرة في ٢١ شباط من عام ١٩٦٤ في مدينة ميامي في فلوريدا. والطريف في الأمر ان الترجيحات كان ٧ - ١ لصالح لستون!!. وكان أكثر المتفائلين في كلاي يراهن على انه لن يستطيع الوقوف أمام ليستون أكثر من ثلاث إلى أربع جولات على أبعد تقدير خصوصاً وان ليستون لم يتعود سماع جرس الجولة الثالثة منذ أكثر من ثلاث سنوات فقد هزم باترسون مرتين في الجولة الأولى وقبله بطل المانيا في الجولة الأولى.



محمد علي يسترجع لقبه بعد انتصاره على فورمان في زائير



وخلال الجولة الثانية القاضية على فريزر

وقد اتاحت الظروف لكاتب هذا المقال حضور المباراة مباشرة أثناء وجوده في الولايات المتحدة بإحدى الصالات المغلقة أثناء سير المباراة. خلال الجولة الأولى حاول ليستون القضاء على كلاي بسرعة كعادته بمطاردته غير ان سرعة كلاي المذهلة وتغير اتجاه جسده بسرعة البرق لم يمكن ليستون من اصابته وقد استمر الاثنان في التلاكم بعد أن قرع الجرس معلناً انتهاء هذه الجولة. في الجولة الثانية تابع ليستون مطاردة كلاي دون التمكن من اصابته فيما كان يكتفي كلاي باطلاق عدد وافر وسريع من ضرباته المستقيمة إلى وجه ليستون كي يخفف من اندفاعه وللتأثير على قدرته نفسياً. في منتصف الجولة الثالثة سدد كلاي خمس ضربات مستقيمة وهوك سريعة بسرعة مذهلة إلى وجه ليستون مما أدى إلى انتفاخ وجه الأخير كما بدأ اليأس يتسرّب إلى ليستون. واعتقد ان هذه الجولة اقنعت ليستون بانه لن يستطيع القضاء على هذا الملاكم المشاغب بسهولة. في الجولة الرابعة تابع ليستون المهاجمة ولكن ببطء شديد وعدم مثابرة. وكان كلاي يتكلم معه ويحاول النيل من عزيمته. غير انه بين الجولة الخامسة والسادسة حدث شيء غريب فبينما كان مدربه «دندي» يمسح وجهه باسفنجة شعر كلاي أن مادة غريبة دخلت عينه وانه لم يعد يرى. وهنا طلب من «دندي» ان يفك له قفاز الملاكمة لانه لا يستطيع المتابعة. غير ان «دندي» دفع به إلى منتصف الحلقة وصاح به أن يكمل المباراة والطريف انه نفس المدرب الذي أوقف مباراته ضد «هولمز» الأخيرة. وهذا يوضح دون شك أهمية المدرب القدير صاحب الخبرة في اتخاذ القرارات السليمة في الوقت الصحيح. المدرب الذي يعرف تماماً متى يكون البطل في مأزق حقيقي ومتى يكون في مأزق عابر.

في الجولة السادسة سيطر كلاي تماماً على المباراة وايقن ليستون ان النهاية باتت وشيكة فقد تورم وجه الأخير وخارت قواه تماماً. كما أصيب بتمزق في كتفه الأيسر مما أضطره إلى البقاء في ركنه وعدم البدء في الجولة السابعة وأعلن الحكم بذلك فوز كلاي ببطولة العالم بالضربة القاضية الفنية في الجولة السابعة.

بعد فوزه ببطولة العالم بقليل أعلن كاسيوس كلاي انه من أنصار حركة المسلمين السود وان اسمه أصبح «محمد علي» متبرئاً

بذلك من لقب كلاي (هنالك خطأ شائع في كثير من الصحف العربية عندما يشار إليه بـاسم محمد علي كلاي. فاسمه الجديد هو محمد علي فقط واضافة كلمة كلاي يلغي الهدف الذي قصد إليه هذا الملاكم من تغيير اسمه فهو يريد التخلي عن اسم عائلة كلاي وهي عائلة بيضاء اتسمت بالقسوة الشديدة في معاملة أهل محمد علي وليس التخلص فقط من اسمه الأول كاسيوس).

قامت ضجة إعلامية كبيرة ضد محمد علي ساهمت فيها بعض الأقلام الصهيونية. وفي عام ١٩٦٥ لعب مباراته الأولى للدفاع عن لقبه حيث فاز مرة أخرى على «سوني ليستون» بضـربة قاضية في مطلع الجولة الأولى حيث وجه لكمة يمينية قصيرة صاعقة إلى إذن ليستون بينما كان الأخير مندفعاً نحو محمد علي فسقط ليستون على الأرض. ولم يحاول القيام إلا بعد ان تجاوز حكم المباراة البطل السابق «جو ولكوت» العد العاشر. وقد اطلق محمد عـلي على هـذه اللكمة اسم «فانتوم».

وفي ٢٢ نوفمبر من عام ١٩٦٥ فاز محمد علي على فلويد باترسون في لاس فيغاس، البطل السابق،بالضربة القاضية الفنية في الجولة الثانية عشرة.وفي هذه المباراة حـاول المطرب فـرانك سينـاتـرا المعـروف بتعـاطفـه مـع الأوسـاط الاسرائيلية والصهيونية ان يجعل منها مباراة بين «الاسلام» و «الكنيسة الكاثـولوكيـة» على أساس ان محمد علي مسلم وباترسون كاثوليكي وان الأخير يريد إعادة اللقب إلى أمريكا على اعتبار ان محمد علي لم يعد امريكياً!! ولكن هذه الحركات لم تغير من نتيجة المباراة!.

وفي عام ١٩٦٦ دافع محمد علي بنجاح عن لقبه خمس مرات ضد الملاكمين الآتية اسماؤهم:

جورج شوفاللو - كندي - ربح محمد علي بالنقاط بعد ١٥ جولة.

هنري كوبر - انجليزي - ربح محمد علي بالضربة القاضية الفنية في الجولة السادسة.

بريان لوندون - انجليزي - ربح محمد علي بالضربة القاضية في الجولة الثالثة.

كارك ميلدبرغر - الماني - ربح محمد علي بالضربة القاضية الفنية في الجولة الثانية عشرة.

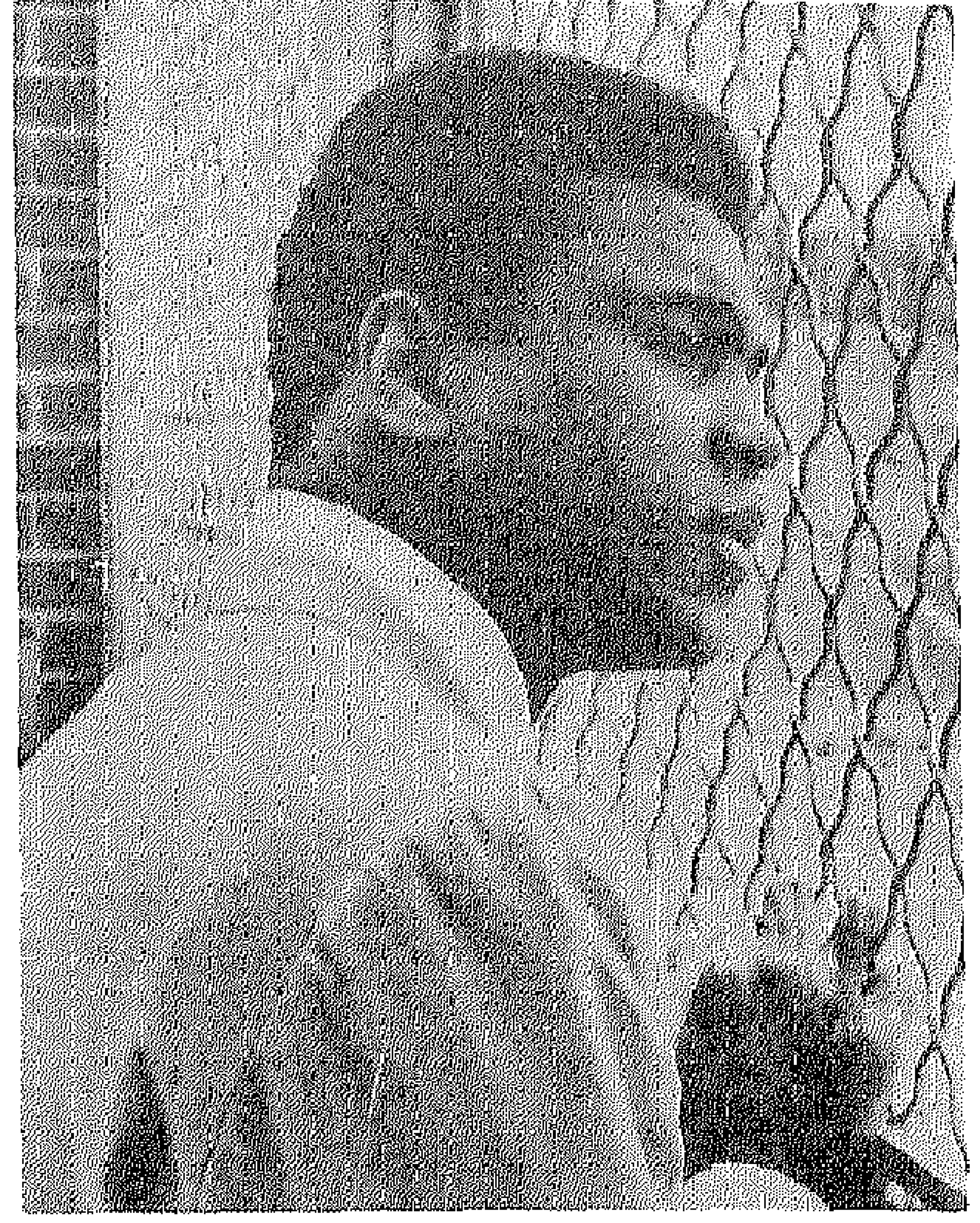
كليفـلاند وليـامز - امـريكي - ربح محمد علي بالضربة القاضية في الجولة الثالثة.

وفي عام ١٩٦٧ لعب محمد علي مباراتين: الأولى ضد الملاكم الزنجي «ايرني تيريل» وهزمه بالنقاط بعد ١٥ جولة ثم لعب ضد «زورا فوللي» وهزمه بضربة قاضية في الجولة السابعة.

كانت هذه آخر مباراة لمحمد علي قبل أن يُستدعى للانخراط في الجيش الامريكي. فقـد أستدعي للخدمة في ١٠ نيسان، ١٩٦٧. وعندما مثل أمام اللجنة العسكرية واصطف مع مواطنين آخرين رفض التقدم خطوة إلى الأمام كما تقضي الاعراف العسكرية بذلك للتدليل على قبوله دخول الجيش. فعاود العقيد النداء بقوله: محمد علي مرة وثانية ولكنه رفض أن يتحرك من مكانه. عندئذ طلب إليه اللحاق به إلى مكتبه حيث حاول أن يشرح له محاذير الرفض حيث تصل العقوبة إلى السجن لمدة عشرة أعوام وحاول اغراءه ثانية بأنه لن يُرسل إلى فيتنام بل سيُكلف بتدريب أفراد القوات المسلحة. ولكنه رفض تغيير موقفه مؤكداً أنه مدرك تماما لجميع الذيول المترتبة على رفضه الانخراط في سلك الجندية.

وقد انهالت الاتهامات على رأس محمد علي من جميع الجهات من سياسيين وصحفيين وكتاب ونقاد وملاكمين. وتراوحت الاتهامات بين «جبان» و «خـائن» و «شريـر» و «دجال» وصـدر أمر قضائي بمنعه من الملاكمة بعد أن سحبت منه رخصة ممارسة الملاكمة. ودخل محمد علي فترة معاناة قاسية طالت مدة ثلاثة أعوام قاسى منها الكثير. فقد انقطع مورد رزقه الأساسي وهجره الكثير من اصدقائه ومع ذلك بقي صامداً فيما يعتقد انه حق. وقد بلغ من مضايقة السلطات له انه أعتقل وادخل السجن لمدة ١٥ يـوماً لأن السلطات اكتشفت انه قد نسي ان يدفع غرامة سير عندما كان يقود سيارته. وحيث ان القانون يجيز للقاضي حبس المتهم أو الافراج عنه بكفالة فقد اختار القاضي الجزاء الأشد وبالفعل دخل محمـد علي السجن في ميـامي، فلوريـدا لمدة اسبوعين.

بعد أن صدر حكم قضائي بحبسه مدة عشرة أعوام لتهربه من الجندية استأنف محمد علي الحكم أمام المحكمة العليا الفيدرالية. وقد



محمد علي في محنته سنة (١٩٦٧)

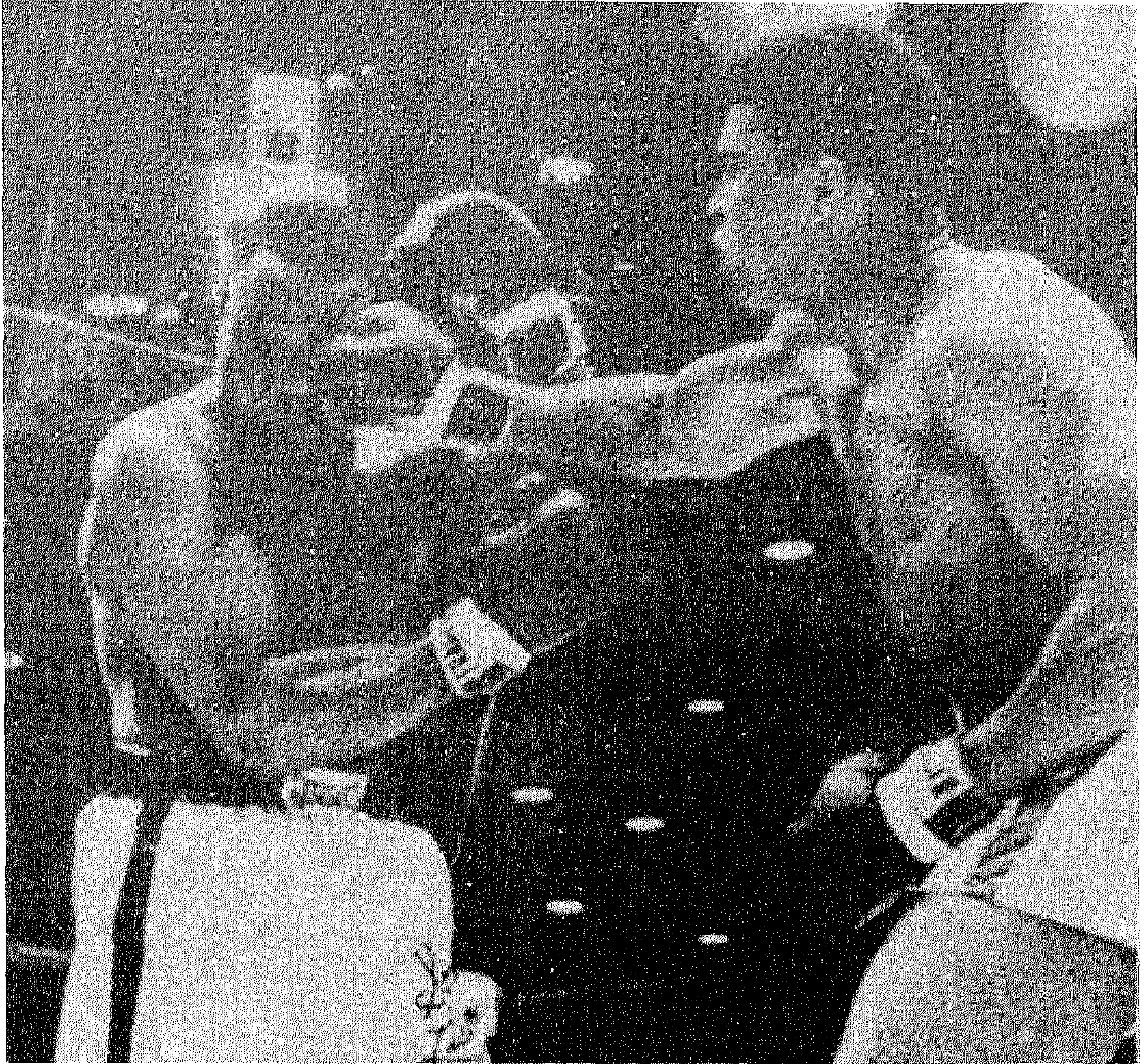
كلفه ذلك الكثير من المال بالاضافة إلى اعبائه العائلية والحزبية. وقد حاول مراراً الحصول على اذن للعودة إلى الملاكمة على أساس انه بريء حتى تثبت ادانته. غير ان محاولاته ذهبت ادراج الرياح وبلغت من محاربة السلطات ووسائل الاعلام له انه تبرع مرة لكي يلعب ضد ملاكم آخر مباراة استعراضية دون مقابل في أحد تجمعات الهنود الحمر السكنية في ولاية داكوتا ولكن طلبه رفض بفظاظة عجيبة. وهكذا حال امريكا مع ابنائها فإنها تغدق بلا حساب الشهرة والمجد والأضواء على الشخص الذي تحبه وتُعرض بقسوة عن الشخص الذي تبغضه.

خلال هذه الفترة وبعد أن شغر مكان محمد علي قام الاتحاد العالمي للملاكمة باجراء سلسلة من مبارايات التصفية انتهت إلى لقاء حاسم بين البطل الصاعد «جوفريزر» و«جيم اليس». والأخير صديق حميم لمحمد علي ورفيق الطفولة وقد تمرّن معه مرات عديدة كما انه كان مصنفاً بين الثلاثة ملاكمين الأول. وقد انتهت هذه المباراة التي جرت في منتصف شهر شباط من عام ١٩٧٠ إلى فوز «فريزر» بالضربة القاضية الفنية في الجولة الرابعة، واحتل بذلك مكان محمد علي كبطل العالم للوزن الثقيل.

بعد انتخاب الرئيس «نيكسون» في عام ١٩٦٨ بدأ الشعور في أمريكا تجاه الحرب الفيتنامية يتغير وأصبح الرأي العام يشير إليها على أنها حرب قذرة ليس لامريكا مصلحة فعلية من ورائها. وقد بدأ بعض الشباب يتفهم موقف محمد علي من هذه الحرب وشعر الكثير بأن الرجل قد حورب في رزقه أكثر مما يجب لذلك ظهرت مقالات عديدة تطالب باعطائه فرصة للعودة إلى الحلقة حتى تصدر المحكمة العليا قرارها النهائي حتى استطاع أخيراً الحصول على اذن من حاكم ولاية جورجيا لكي يخوض مباراة ضد البطل الأبيض «جيري كوّري» بعد احتجاجات وتهديدات عديدة من جمعية المحاربين القدماء وصلت إلى حد اطلاق الرصاص على المعسكر الذي كان يتدرب فيه محمد علي.

وفي تشرين الأول من عام ١٩٧٠ تم اللقاء المنتظر. وكان عرساً للملاكمة فقد تقاطر إلى مدينة «اتلانتا» عشرات الالوف من رجال الأعمال وأصحاب المهن وأفراد الشعب العامل وامتلأت صالات العرض المغلقة في مختلف انحاء الولايات المتحدة. وقد قدم محمد علي لمحات رائعة في فن الملاكمة اثارت حماس الجماهير واستطاع الفوز على «كوّري» بالضربة القاضية الفنية في الجولة الثالثة عندما فتح فوق عين الأخير جرحاً عميقاً. بعد هذا الفوز لعب ضد البطل الارجنتيني «اوسكار بونافينا» وفاز عليه بالضربة القاضية في الجولة الرابعة عشرة. وبعد هذا الفوز أصبح اللقاء بين محمد علي وبين جو فريزر حتمياً. وبعد مفاوضات تم الاتفاق على اللقاء في ٨ أذار من عام ١٩٧١ على حلبة «ماديسون سكوير غاردن» في نيويورك.

في هذه المباراة التاريخية ربح محمد علي الجولات الخمس الأولى وربح فريزر من الجولة السادسة حتى الحادية عشرة ثم عاد محمد علي وفاز في الجولة الثالثة عشرة في حين كانت الجولة الثانية عشرة والرابعة عشرة أقرب للتعادل. وفي الجولة الأخيرة استطاع فريزر بلكمة «هوك» يسارية اسقاط محمد علي على ظهره ولكنه استطاع القيام عند العدّ الثالث واكمل الجولة الخامسة عشرة وهو واقف على قدميه. وفي نهاية المباراة أعلن الحكام فوز فريزر بالنقاط باجماع



لكمة (هوك) يسددها محمد على عين ليستون في مباراة اللقب.

الآراء. ورغم فوز فريزر فقد بدا بعد المباراة متورم الوجه وبحالة اعياء شديد واعترف بقوة وفن محمد علي.

بعد خسارته أمام فريزر خاض محمد علي تسع مباريات خلال النصف الثاني من عام ١٩٧١ وعام ١٩٧٢ فاز بها جميعاً وكانت نتائجها كالتالي:

جيمي اليس – امريكي – فاز عليه بضربة قاضية فنية في الجولة ١٢.

تاسترمايثاس – امريكي – فاز عليه بالنقاط في الجولة ١٠.

بلين – الماني – ضربة قاضية في السابعة.

ماك فوستر – امريكي – بالنقاط في ١٥.

شوفالو – كندي – بالنقاط في ١٢.

كوري – امريكي – ضربة قاضية في السابعة.

آل لويس – امريكي – ضربة قاضية في ١١.

فلويد باترسون – امريكي – ضربة قاضية في ٧.

بوب فوستر - أمريكي - ضربة قاضية في ٨.

وفي عام ١٩٧٣ فاز محمد علي على البريطاني «جو بوغنر» وخسر أمام «كين نورتون» بعد أن كسر هذا الملاكم فك محمد علي في الجولة الأولى ولكنه استمر يلاكم بشجاعة هائلة حتى خسر بالنقاط. غير ان محمد علي عاد وربح على نورتون بالنقاط بعد ذلك بستة أشهر.

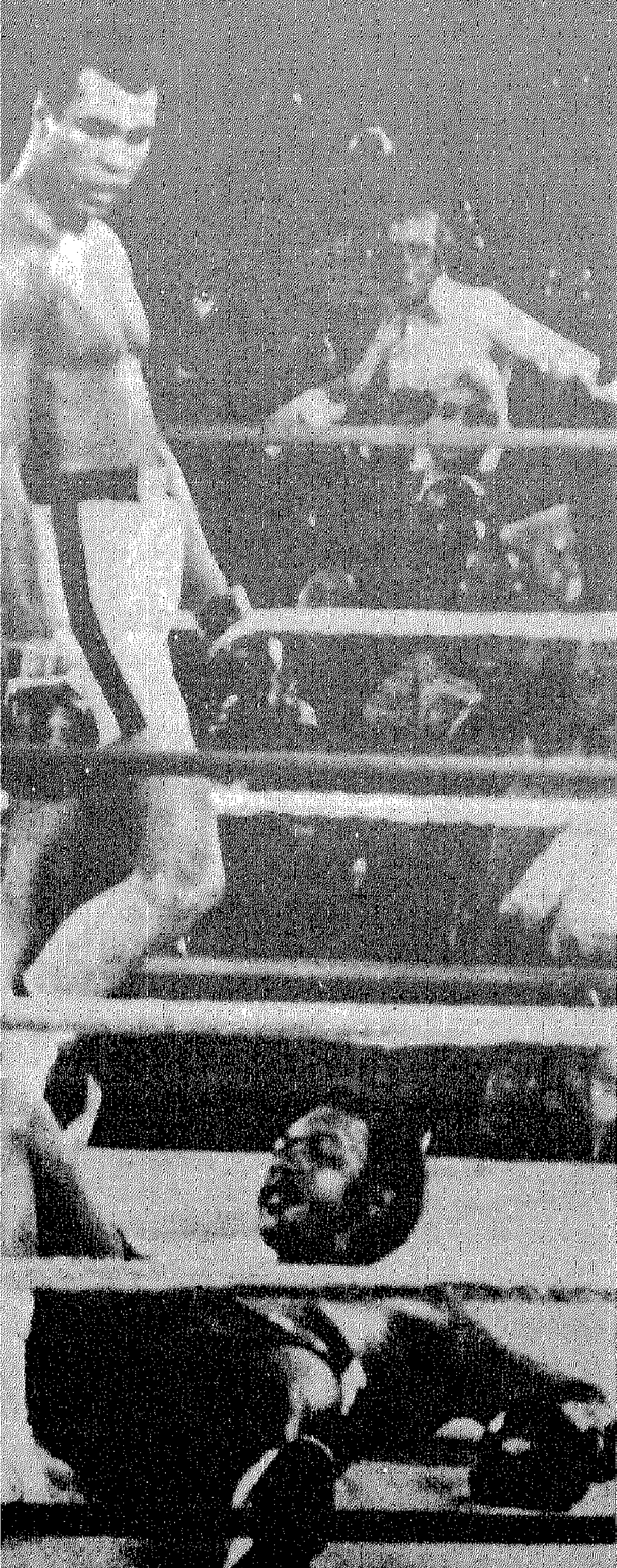
وبينما كان محمد علي يخوض هذه المباريات الطويلة المرهقة لمنازلة فريزر مرة أخرى خسر هذا الأخير لقبه أمام «جورج فورمان» في مباراة جرت في جزيرة «جامايكا» من مطلع العام ١٩٧٣. والواقع انها لم تكن مباراة بقدر ما كانت مجزرة خسر فيها فريزر لقبه وسمعته كملاكم كبير. فقد أوقعه فورمان ست مرات،ثلاث مرات في الجولة الأولى وثلاث مرات في الجولة الثانية. واضطر الحكم للتدخل وانهاء هذه المأساة بعد ان سالت الدماء من فم وعين فريزر.

عاد محمد علي لمنازلة فريزر مرة ثانية لتسديد الحساب القديم واستطاع ان يهزمه بالنقاط في ٢٨ يناير ١٩٧٤ بعد ١٢ جولة في مباراة كانت من طرف واحد وبذلك تهيأ اللقاء التاريخي بين علي وفورمان العملاق.

مباراة علي - فورمان:

تم الاتفاق على ان تجري المباراة في ٣٠ تشرين الأول من عام ١٩٧٤ في زائير. وكان فورمان في أوج سطوته. فبعد ان حطم فريزر سحق «كين نورتون» بضربة قاضية في الجولة الثانية. وكان رأي معظم النقاد وكبار الملاكمين وفي طليعتهم الملاكم العظيم «جو لويس» ان حظ محمد علي ضئيل في الفوز وانه يتوجب عليه عدم اللجوء إلى الحبال لأن في ذلك نهايته. كما يتوجب عليه عدم الالتحام جسدياً مع فورمان أثناء اللعب وإلّا فإن فورمان سيكسر له ظهره. وكانت الترجيحات ٣ - ١ لصالح فورمان قبل المباراة. وشاهد هذه المباراة مليار شخص بواسطة الأقمار الصناعية.

وقد استعد محمد علي لهذه المباراة استعداداً كبيراً فأقام معسكراً في جبال بنسلفانيا



جورج فورمان على الأرض بعد الضربة القاضية في الجولة الثامنة.

محمد علي في آخر مباراة، مع لاري هولمز



واستدعى الملاكم «لاري هولمز» الذي كان مصنفاً عاشراً ثم أصبح بطلاً للعالم حالياً للتمرين معه نظراً لتشابه بنيته مع فورمان. والغريب في الأمر ان الخطة التي رسمها «محمد علي» و «داندي» لمواجهة فورمان كانت عكس ما حذر منه جو لويس. فقد لجأ علي إلى الحبال معظم الوقت وترك لفورمان تسديد لكمات عديدة ولكن بعد أن غطى وجهه وجسده بقبضتيه، كما انه كان يلتحم بفورمان مرات عديدة لكي يوقف اندفاعه. ولا شك انها كانت مغامرة كبيرة من جانب محمد علي إذا كان يكفي فورمان ان يصيب محمد علي بلكمة ساحقة حتى يقضي عليه. غير ان محمد علي اثبت انه قادر على تحمل اللكمات القوية إلى جانب السرعة في التفكير والحركة وانهاك الخصم نفسياً عن طريق التحدث إليه أثناء المباراة.

في الجولة الأولى بادر محمد علي إلى اصابة فورمان بضربة يمينية اتبعها بيسارية في وجهه. وقد اندفع فورمان كالثور الهائج وهو يحاول قطع الطريق على محمد علي. وهنا القى محمد علي بظهره على الحبال وترك فورمان يسدد ما شاء من الضربات ولكن على ذراعي محمد علي. في الجولة الثانية تابع محمد علي خطته غير انه في نهاية الجولة سدد فورمان لكمة يسارية هائلة اصابت القسم الأعلى من رأس محمد علي الذي شعر كما قال بتيار كهربائي يصعقه من رأسه حتى قدميه. في الجولة الثالثة بدأ محمد علي يخرج إلى منتصف الحلقة حيث كان يسدد ضربات مستقيمة عديدة إلى وجه فورمان واستمر الحال في الجولة الرابعة أيضاً على نفس المنوال. في الجولة الخامسة بدأ التعب يتسرب إلى جسم ونفسية فورمان خصوصاً انه بعد ان حشر محمد علي مدة دقيقتين على الحبال، قام الأخير بعدها بدفع فورمان إلى منتصف الحلقة حيث سدد إليه مجموعة من الضربات المستقيمة والهوك والقاطعة بلغت حوالي ١٢ ضربة دون ان يتمكن فورمان من الرد عليها.

وابتداء من الجولة السادسة سيطر محمد علي على المباراة فنياً وتكتيكياً واصبحت النهاية

قريبة حتى جاءت الجولة الثامنة حيث وجه إليه ثلاث لكمات يسارية «هوك» اتبعها بضربة يمينية لولبية اوقعت فورمان على الأرض حيث بقي حتى العد العاشر. وبذلك استعاد محمد علي لقبه واصبح ثاني ملاكم في التاريخ بعد فلويد باترسون يستعيد لقبه. والواقع ان مقارنة باترسون بمحمد علي فيها اجحاف كبير بحق محمد علي. فالأول فاز بلقب بطولة العالم بعد تصفية شكلية لم يشترك فيها ملاكمون لهم مستوى في حين أن محمد علي انتزعه من سوني ليستون وهو ملاكم قوي وشرس. أضف إلى ذلك ان «باترسون» عندما استعاد لقبه كان ذلك من نفس الملاكم الذي ربح منه وبعد عام واحد لم يلعب خلالها باترسون أي مباراة في حين ان محمد علي قضى عشر سنوات تماماً وهو يلاكم أعظم المتحدين ويحارب السلطات التي جردته من لقبه بقرار إداري ولم يخسر بالتالي لقبه على الحلقة.

وعندما عاد إلى منزله في شيكاغو حيث يقطن حالياً كان عمدة المدينة في استقباله على



جمال عبدالناصر يستقبل محمد علي عام ١٩٦٦.

أرض المطار وجرى له استقبال رسمي. وقد قام هذا الملاكم العملاق بجولة واسعة قابل فيها رؤساء دول آسيوية وأفريقية وعربية عديدة بالاضافة إلى مقابلته الفريدة مع الرئيس «بريجنيف» وهو رئيس الدولة التي لا تعترف أصلاً بالاحتراف في الرياضة. لقد أصبح محمد علي رمزاً وقدوة لكثير من الشباب والرياضيين في العالم.

في عام ١٩٧٥ لعب مباريات خفيفة مع «ويبنر» و «بوغنر» و «رون ليل» استعداداً لمباراته الكبيرة الثالثة مع «فريزر» في الفيليبين التي شاهدها رئيس الجمهورية شخصياً. وقد فاز فيها «محمد علي» بالضربة القاضية الفنية في الجولة الرابعة عشرة بعد ان اغلق عين فريزر اليسرى تماماً. ولكن فريزر قدم مباراة رائعة وكاد ان يحقق مفاجأة في الجولة الحادية عشرة غير ان محمد علي تماسك وسيطر على المباراة تماماً بعد ذلك. وفي نهاية المباراة قال علي «لقد حملني جو فريزر إلى أبواب جهنم»! ويصف المراقبون هذه المباراة بأنها «سوبر».

في عام ١٩٧٦ لعب مباراة ضد «نورتون» فاز فيها بالنقاط بصعوبة شديدة. فقد بدأ السن يؤثر على سرعته وسرعة تفكيره، وفي عام ١٩٧٨ خسر أمام «ليو سبينكس» في لاس فيغاس بالنقاط رغم انه كان مرشحاً للفوز بنسبة ١٤ – ١! وفي نهاية عام ١٩٧٨ فاز محمد علي للمرة الثالثة بلقب بطولة العالم من سبينكس وكان بذلك أول ملاكم في تاريخ الملاكمة للوزن الثقيل يستعيد فيها بطل لقبه مرتين حيث فاز بالنقاط بعد مباراة مؤلفة من ١٥ جولة. والعجيب ان محمد علي ربح جميع الجولات دون استثناء ولقن سبينكس درساً بليغاً في الملاكمة.

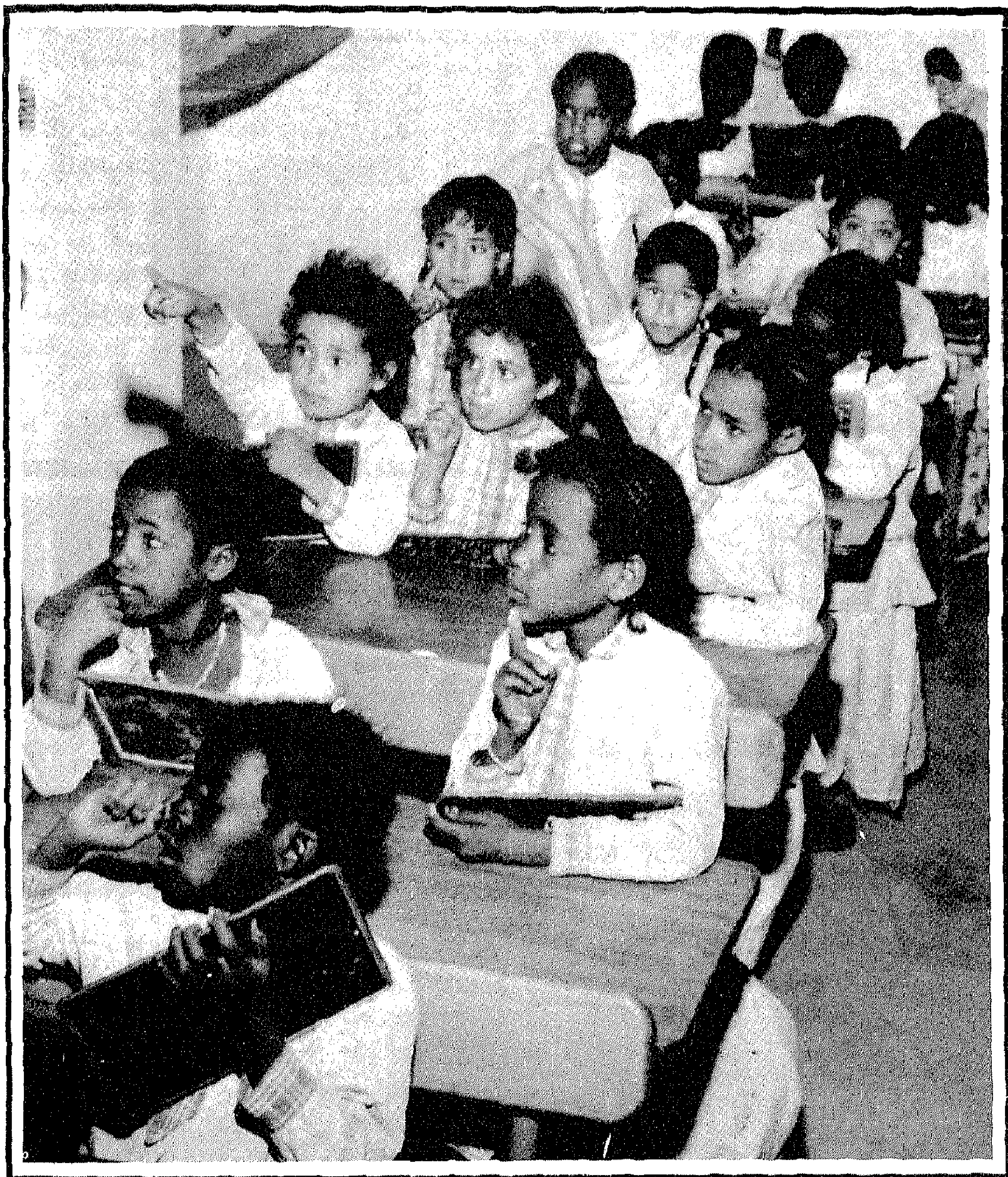
بعد هذه المباراة توقف محمد علي عن الملاكمة حيث اعلن اعتزاله إلى ان عاد وقابل «لاري هولمز» في ٢ تشرين الأول ١٩٨٠ حيث خسر بالضربة القاضية الفنية وبدا فيها مرهقاً وغير قادر على الحركة. وبذلك يمكن القول بأن عصر محمد علي في الملاكمة قد انتهى بعد ان ترك ذكريات وعبراً لا تنسى وبعد ان اثبت ان الملاكمة فن وذكاء وتخطيط ومثابرة وصمود ومواقف إنسانية وطرافة جعلته معبود الملايين من عشاق الرياضة في العالم. ورغم أن دخله الإجمالي من المباريات حسب الإحصاءات الرسمية فاق ٥٠ مليون دولار فإنه بعد أن سدد الضرائب المستحقة عليه تبرع بجزء كبير منها لبناء المدارس والمستوصفات والأعمال الخيرية الأخرى مثبتاً بذلك ان محمد علي الانسان لا يقل نبلاً وتفوقاً عن محمد علي الملاكم. ◘

انتشار اللغة العربيّة في افريقيا السوداء

الحلقة الثانية

عمار هلال

حالة اللغة العربية في غرب افريقيا بين ١٩٠٧ - ١٩٠٩



تعرفنا، في الحلقة الأولى، على تاريخ انتشار اللغة العربية في افريقيا، ودور الاستعمار في تقليص ذلك، وفي هذه الحلقة الثانية والأخيرة نستعرض، دراسة واحصاء، وضع اللغة العربية وعدد طلابها ومدارسها في بعض بلاد افريقيا الغربية، في مطلع هذا القرن.

لقد أعطينا سابقاً صورة وجيزة للغة العربية في السنغال وأشرنا إلى أن عدد تلاميذ اللغة العربية يفوق بكثير عدد تلاميذ المدارس الحكومية الفرنسية وذلك حتى سنة ١٩١٢ للميلاد. وسنحاول فيما يلي إعطاء صورة مبسطة عن حالة العربية في الأقطار الأخرى لغرب إفريقيا السوداء، وهي نيجيريا وغينيا. وساحل العاج والداهومي وموريتانيا.

علماً أن الوثائق الرسمية للإدارة الفرنسية والتي تتعلق بموضوع اللغة العربية في المناطق المذكورة قليلة جداً. بل تكاد تكون منعدمة تماماً. ومهما يكن من أمر فكل شيء يدل (الإحصائيات الرسمية للإدارة الفرنسية) على أن الأقطار المذكورة، قد شاهدت نشاطاً تعليمياً عربياً هاماً خاصة بين سنتي ١٩٠٧ - ١٩٠٩، وذلك على غرار مناطق السنغال التي سبق وذكرناها

نيجيريا:

أما عن حالة اللغة العربية في نيجيريا خلال الفترة المحددة سابقاً، فإن هذا البلد الأخير قد شاهد تطوراً ملحوظاً من حيث عدد المدارس العربية وتلاميذها فيما بين سنتي ١٩٠٧ - ١٩٠٩، بحيث قدر عدد تلاميذ المدارس العربية خلال السنة الأولى بـ ١٠.١٧٦ تلميذاً، ليقفز خلال السنة الثانية إلى ١٤.٤٢٥ تلميذ (١)، أي بزيادة حوالي ٤٠٪ في عدد تلاميذ اللغة العربية خلال سنتين دراسيتين فقط.

وإذا أخذنا بعين الإعتبار الوضعية السياسية للبلاد والإجتماعية والثقافية، فهذه الزيادة (٤٠٪) خلال سنتين فقط تعتبر هائلة، وخطوة عملاقة خطتها اللغة العربية في نيجيريا.

الداهومي:

تقدر الإحصائيات الرسمية للإدارة الفرنسية عدد المدارس العربية في نهاية سنة ١٩٠٩ في الداهومي بـ ١٣٤ مدرسةً. ويشرف على تدريس اللغة العربية في المدارس المذكورة حوالي ١٥٥ معلما. أما عن عدد تلاميذ المدارس المذكورة فقد قدرته الإدارة الفرنسية بـ ١.٥٥٨ تلميذاً خلال نفس السنة السابقة الذكر (٢)

ومما يلاحظ من خلال دراسة الوثائق الرسمية للإدارة الفرنسية المتعلقة بإحصائيات التعليم العربي في غرب إفريقيا، هو التضارب الصارخ فيما بينها، ذلك لأن مفتشي التعليم يعطون أرقاماً معينة لا تتطابق في أغلبها زيادة أو نقصانا كبيرين مع الأرقام التي تعطيها الإدارة الفرنسية المعنية بالأمر، وذلك طبعاً بعد إطلاعها على تقارير مفتشي التعليم المكلفين بإحصاء كل أنواع التعليم في كل آخر سنة دراسية. ولكن هذا لا يمنعنا من إستخلاص بعض الحقائق التاريخية التي تتعلق بموضوعنا هذا.

وعموما يتوزع عدد تلاميذ اللغة العربية الداهوميين عبر أربع مناطق هامة وهي (٣):

١ - بورتوفو: ويقدر عدد مدارسها بـ ٢٠ مدرسة، يلتحق بها حوالي ٢٠٠ تلميذاً.

٢ - زانبا ندو: وتقدر عدد مدارسها بحوالي ٤ مدارس يتعلم فيها حوالي ٣٥ تلميذاً.

٣ - بورفو: ويقدر عدد المدارس العربية في هذه الناحية بحوالي ٣٣ مدرسةً يتعلم فيها حوالي ٥٤١ تلميذاً.

٤ - داجوفو: وتقدر الإحصائيات الرسمية للإدارة الفرنسية عدد المدارس العربية في هذه الناحية بحوالي ٢٥ مدرسة تعلّم ما يقرب من ٣٥٠ تلميذاً.

وعموماً فمجموع تلاميذ اللغة العربية في الداهومي لم يسجل أي ارتفاع بين سنتي ١٩٠٧ - ١٩٠٩، بل بالعكس فلقد يلاحظ إنخفاض نسبي في عدد التلاميذ خلال السنة الأخيرة (٤). ولسنا نعلم إذا كان هذا الانخفاض حقيقي أم لا، ذلك لأن الإدارة الفرنسية كثيراً ما تعمد إلى تنقيص عدد تلاميذ اللغة العربية عمداً قصد التنقيص من إنتشار اللغة العربية في غرب إفريقيا، وبالتالي قصد الإستنقاص من أهميتها.

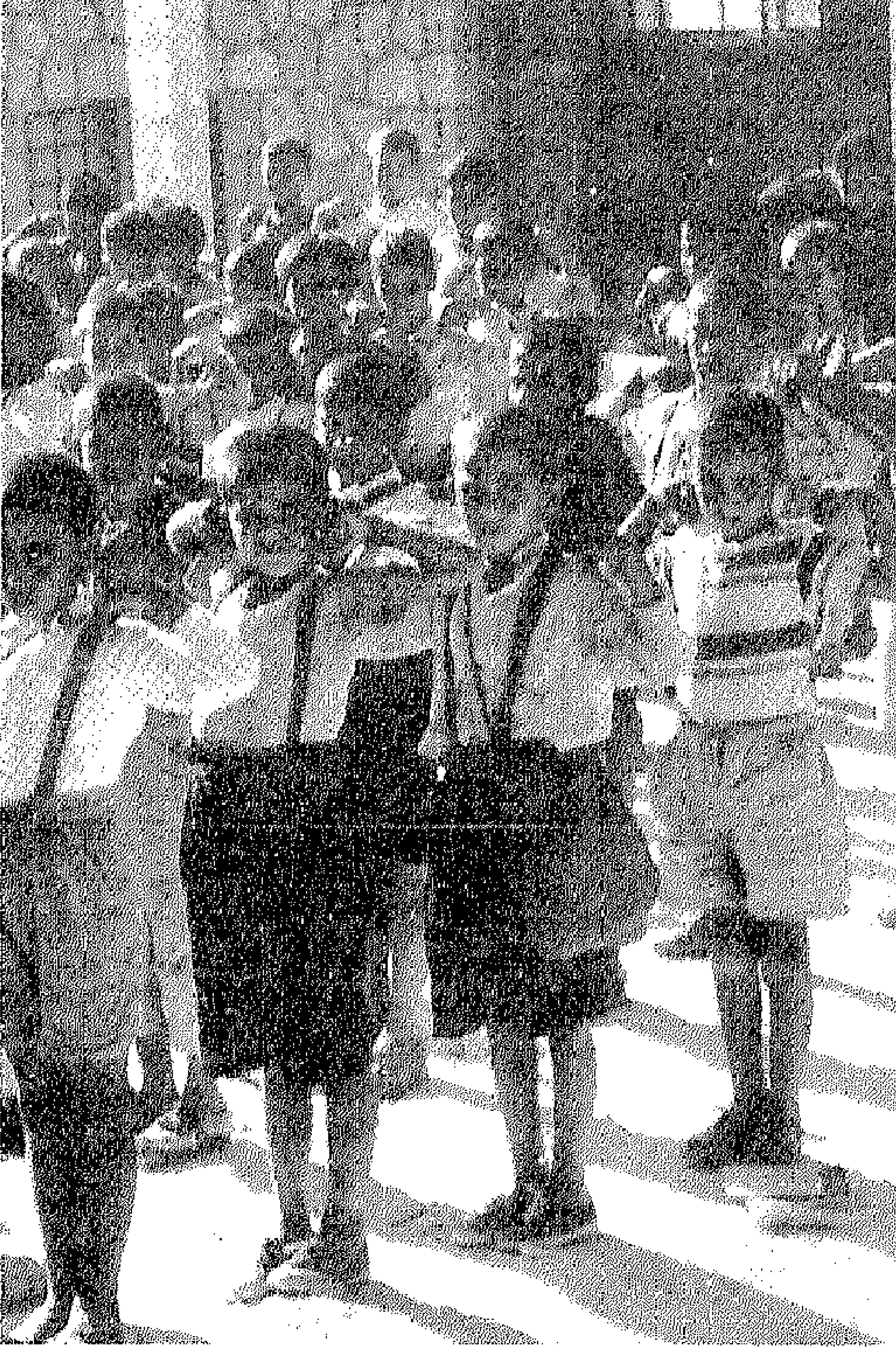
والمعلوم تاريخياً أن الإستعمار الفرنسي يفزع أمام أمرين أثنين من بين كل العوامل الحضارية الإسلامية، وهما الإسلام واللغة العربية ويعتبرهما على أشد الخطورة بالنسبة لوجوده في كامل مستعمراته الإسلامية السابقة، لذا فغالباً ما تعمد الإدارة الفرنسية إلى طرق لا تمت بأي صلة إلى المنهاج العلمي الإحصائي. فمثلاً بالنسبة لإحصاء المسلمين الأفارقة إستعملت الإدارة الفرنسية طريقة أقل ما نقول عنها، أنها فولكلورية وبعيدة كل البعد عن المنطق ومفاد هذه الطريقة هو أن الإدارة الفرنسية اعتبرت كل قرية يوجد بها مسجد أهلها كلهم مسلمين والعكس ففي القرى التي لا توجد بها مساجد فسكانها كلهم في نظرها وثنيون.

وتتضح من هذه الطريقة الإحصائية الفوضوية الأهداف المفرضة للإستعمار الفرنسي التي يرمي إليها للاستنقاص من شأن الإسلام بتقليص عدد اتباعه في غرب إفريقيا السوداء.

غينيا:

قدرت الإحصائيات الرسمية للإدارة الفرنسية عدد تلاميذ اللغة العربية في غينيا سنة ١٩٠٧ بما يقرب من ٢٨.٠٢٣ تلميذاً.

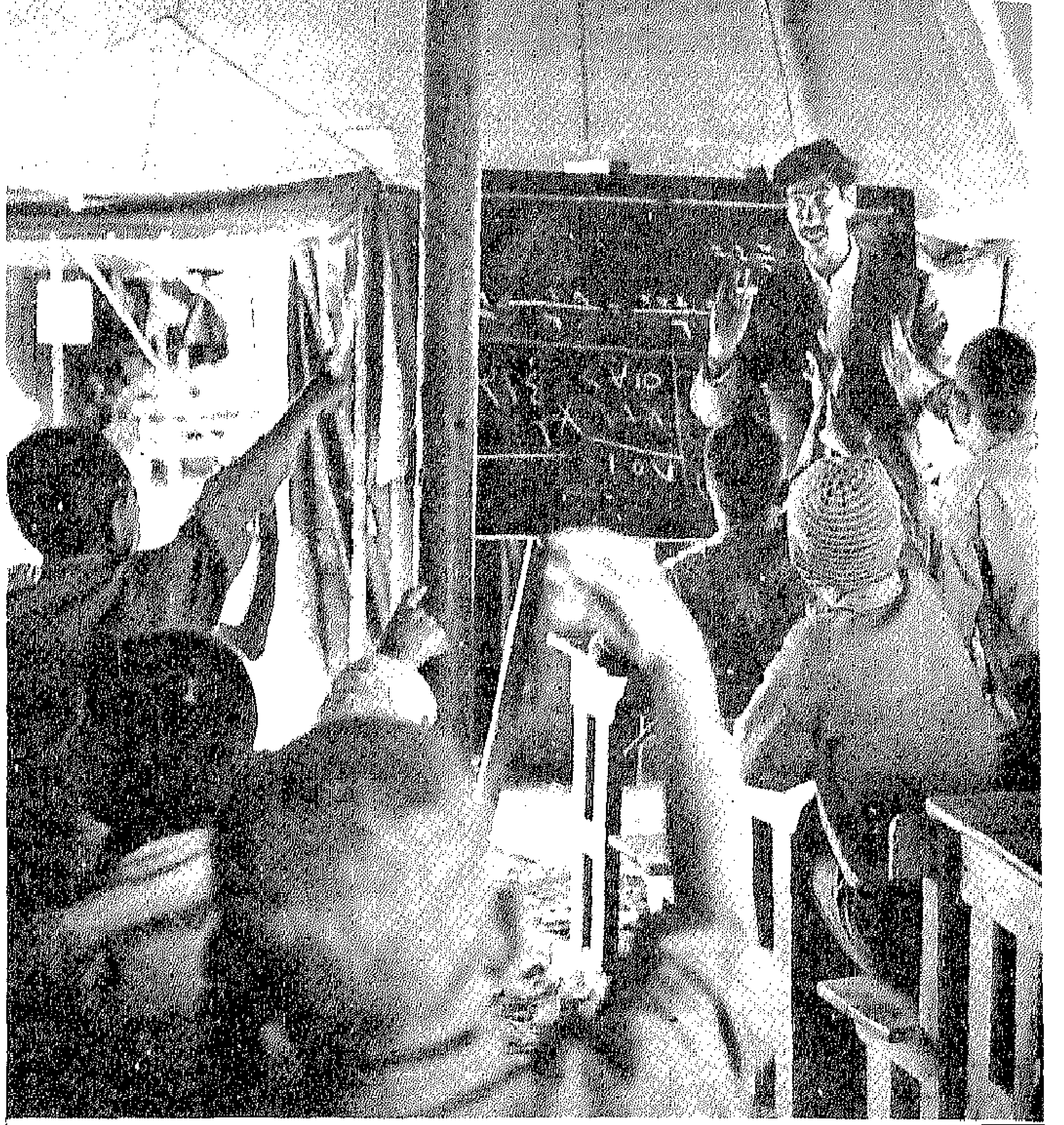
ويبدو من خلال الاحصائيات الرسمية للإدارة الفرنسية أن نسبة عدد تلاميذ اللغة العربية مرتفعة نسبيا في غينيا إذا قارنّاها بالمناطق الأخرى في إفريقيا الغربية وقد يرجع ذلك إلى الرغبة التي تحرك الغينيين لتعلّم اللغة العربية.



وتنفرد غينيا بوضعية ثقافية عربية خاصة بها، بل لا مثيل لها في بقية الأقطار الافريقية الأخرى، ذلك أن الاستعمار الفرنسي، ما فتىء منذ احتلالها، يعمل من أجل القضاء على اللغة العربية في البلاد وإحلال الفرنسية محلها وطمس معالم الحضارة العربية في هذا البلد، وذلك كله بقصد القضاء نهائياً على الشخصية الوطنية الغينية وادماجها في بوتقة الحضارة الفرنسية. ولكن تمسك الغينيين على كل المستويات بالعربية لغةً والإسلام ديناً حال دون تحقيق الأهداف الاستعمارية الفرنسية. وكما أشرنا سابقاً فغينيا تأتي في مقدمة الأقطار الافريقية من حيث نشر اللغة العربية والحرص على نقلها إلى الأجيال الصاعدة(٥).

ساحل العاج:

أما في ساحل العاج فقد قدرت الاحصائيات الرسمية للإدارة الفرنسية عدد تلاميذ اللغة العربية في نهاية سنة ١٩٠٧ للميلاد بـ ١.٥٤٤ تلميذاً.





ويلاحظ من خلال الوثائق الرسمية للإدارة الفرنسية بأن عدد تلاميذ اللغة العربية قد إزداد باضطراد سنة بعد أخرى. ففي سنة ١٩٠٨ وصل عدد تلاميذ اللغة العربية إلى ما يناهز الفين (٢.٠٠٠) تلميذ، ليقفز هذا العدد خلال السنة الموالية إلى ٢٠٣٩٧ تلميذاً. وحتى هذا التاريخ يبدو أن أهل البلاد قد قاوموا الثقافة الفرنسية مقاومة شديدة، وامتنعوا عن إرسال ابنائهم إلى المدارس الفرنسية واعتبروا اللغة الفرنسية عنصراً حضاريا دخيلاً عليهم ولا يمت إليهم بأية صلة (٦).

والملاحظ هو أن التعليم العربي حتى نهاية السنة المذكورة يكاد يقتصر على الذكور وحدهم، بحيث لم تسجل الإحصائيات الفرنسية خلال سنتي ١٩٠٧ – ١٩٠٨ ولا بنتا واحدة تلتحق بالمدارس العربية. وتشير هذه الاحصائيات الأخيرة إلى عدد ضئيل من البنات كنّ قد التحقن بالمدارس العربية في غينيا خلال سنة ١٩٠٩ للميلاد، وهم بالتحديد ١٣ فتاة فقط (٧). وقد يرجع ذلك إلى أن الغينيين حتى هذا التاريخ لا يعطون أية أهمية إلى تعليم البنات، بل نبذوا فكرة «تعليم الفتاة» من أساسها، وذلك حتى نهاية الحرب الكونية الأولى.

موريتانيا

لم تشاهد موريتانيا حركة تعليمية عربيةً دائبةً مماثلةً لتلك الحركة التعليمية التي شاهدتها أقطار إفريقيا الغربية الأخرى مثل غينيا أو نيجيريا أو السنغال أو غيرها.

وعموماً تشير الوثائق الرسمية للإدارة الفرنسية إلى أن عدد تلاميذ اللغة العربية يكون قد وصل سنة ١٩٠٧ إلى ما يقرب من ٢٣٥ تلميذاً. علما أن موريتانيا لا يتجاوز عدد سكانها خلال السنة المذكورة ٢٢٥.٠٠٠ ساكن.

أما عن تعليم البنات فهو منعدم تماماً في موريتانيا حتى هذا التاريخ المذكور. وأسباب ذلك قد تكون نفس الأسباب التي ذكرناها بالنسبة لغينيا. غير أنه يلاحظ بصفة خاصة إزدياد كبير في عدد تلاميذ اللغة العربية سنة ١٩٠٩، بحيث تشير المصادر إلى التحاق

ما يقرب من ١٠٢٩٧ تلميذاً موريتانيا بالمدارس العربية (٨).

خلاصة:

إحتلت اللغة العربية مكانة مرموقةً بين الجماهير الإفريقية في غرب القارة، وذلك منذ دحول الإسلام إلى ربوع تلك المناطق. وتماشى إنتشار اللغة العربية مع إنتشار الإسلام وتوطدت اركانها في الجزء الغربي لافريقيا السوداء بقدم الاسلام وسادت المنطقة وأضحت لغة العام والخاص على الأقل منذ القرن الثالث عشر الميلادي.

وقد أبدى الأفارقة عامة إستعداداً كبيراً وميلاً شديداً في تعلّم هذه اللغة باعتبارها لغة الدين الذي يدينون به وعنصراً هاماً من عناصر الحضارة العربية التي ينتمون إليها. وليس هناك ما ادلّ على ذلك، من التنافس الكبير الذي ساد الأوساط المثقفة الافريقية في التمكين لها، والإنتاج الادبي والثقافي الذي قاموا به بالعربية خلال القرن التاسع عشر الميلادي.

وعموماً فلقد كان إنتشار اللغة العربية كبيرا في غرب إفريقيا قبل العهد الإستعماري الفرنسي وحتى إبان الاحتلال الفرنسي لهذا الجزء من القارة الافريقية سادت اللغة العربية بين الجماهير الشعبية ونافست اللغة الفرنسية لمدة قرن من الزمن (١٨١٦ - ١٩١٨)، بل تفوقت عليها بعدد تلاميذها ومدارسها رغم كل ما بذلته الادارة الفرنسية من مساعي لتدعيم لغتها ونشرها بين الأوساط الافريقية، وذلك على حساب العربية خاصة والثقافة العربية عامة.

وإذا كان هذا هو وضع اللغة العربية في غرب إفريقيا فعلى أولي الأمر من المسلمين والعرب أن يتفطنوا إلى هذا الخطر المتربص بثقافتنا عامة وبلغتنا خاصةً في إفريقيا السوداء بالنظر إلى معالجة هذه المشكلة التي تعتبر من أعوص المشاكل بالنسبة للوجود الحضاري العربي في القارة.

ولحسن حظ العربية يبدو أن الوقت لم يفت لتدارك ما فاتنا من فرص لتدعيم العربية ونشرها في المستقبل في ربوع القارة السوداء، ذلك لأن الأفارقة عامة يبدون تمسكا ورغبةً شديدين في تعلّم العربية ليس ذلك فحسب من الجانب الديني ولكن كذلك للدخول في عالم حضاري وثقافي راقٍ.

إذن على الأسرة الكبيرة العربية أن تلبي هذه الرغبة الشديدة لاخواننا الافارقة، بإعطاء العربية اهتماما خاصا وتوفير الإمكانيات المادية والأدبية وغيرها لتعليم هذه اللغة ونشرها بين الجماعات الافريقية. ◘

ملحقات المقال

تعليق على الملحقات:

إن هذه الملحقات الخمس التي نقدّمها اليوم للنشر مأخوذة ومترجمة حرفيا عن الوثائق الرسمية للإدارة الفرنسية من اللغة الفرنسية إلى العربية وقد حرصت حرصاً شديداً على نقلها كما هي أصلاً إلى العربية دون تغيير أو زيادة. ولو لا كبر حجم أصول هذه الوثائق لقدمتها هي نفسها للنشر.

ورغم أنني عثرت على هذه الوثائق سنة ١٩٧٦ إحتفظت بها لاعتقادي في أهميتها التاريخية ولم أنشرها في أية مجلة. ولما طلبت مني مجلة تاريخ العرب والعالم نشرها وافقت على ذلك إعتقاداً مني أن هذه الوثائق تتعلق بجزء هام من تاريخ العرب في إفريقيا السوداء ولا يجب أن تنشر إلا في مجلة كهذه تهتم بتاريخ العرب خاصة وبتاريخ العالم عامةً.

واعتقادي هو أن هذه الوثائق ستساعد كثيراً المهتمين بتاريخ إفريقيا السوداء ولعلهم وجدوا فيها من الأفكار ما لم أجده أنا.

«

وزارة التعليم العمومي و الفنون الجميلة
مديرية التعليم الابتدائي
المكتب الثالث

ملحق رقم : 03

وضعية التعليم الابتدائي في المستعمرة الفرنسية بالداهومي في نهاية السنة الدراسية 1907/1906 (1)

اسم البلديات او المواقع التي تقع بها المدارس	المدارس الحكومية								المدارس الحرة								المجموع								
	عدد المدارس			عدد الاساتذة			عدد التلاميذ		عدد المدارس			عدد الاساتذة			عدد التلاميذ		عدد المدارس				عدد الاساتذة			عدد التلاميذ	
	بنين	بنات	مختلطة	معلمين	معلمات	المجموع	بنين	بنات	بنين	بنات	مختلطة	معلمين	معلمات	المجموع	بنين	بنات	بنين	بنات	مختلطة	المجموع	معلمين	معلمات	المجموع	بنين	بنات
بورتونوفو بنات	2	1	-	9	2	11	225	105	1	1	10	21	6	27	850	325	3	2	10	15	30	8	38	1075	430
دوقه											1	1		1	40	6			1	1	1		1	40	6
اكباه											1	1		1	50	11			1	1	1		1	50	11
ادجاره											1	1		1	20	12			1	1	1		1	20	12
ادجوهان											1	1		1	30	10			1	1	1		1	30	10
كوتونو / بنات									1		1	5		5	160	21	1		1	2	5		5	160	21
اح / بنات				4		4	192		7	1	9	9	5	14	334	190	8			9	13	5	18	525	49
راند بوبو / بنات	1			41		1	100		2			4		4	166		3			3	5		5	266	
اميمي									1			2		2	74		1			1	2		2	74	
اقويي									2	1		3	3	6	150	50	2	1		3	3	3	6	150	50
لوكوس			1	2		2	80	7	21			1		1	30		1			1	1		1	30	
اكومى / بنات			1	2		2	80	7	2			4		4	39		2	1		3	6		6	119	7
ينقل	4	1	1	16	2	18	597	112	17	3	15	54	14	65	1943	614	21	4	16	41	71	16	87	1639	595

(1) ARCHIVES : S.O.M. Paris - Dossier SENEGAL N°IO

ملحق رقم 03 مكرر

السداموى (تابع)

اسم البلديات او المواقع التى تقع بها المدارس	المدارس الحكومية								المدارس الحرة								المجموع							
	عدد المدارس			عدد الاساتذة			عدد التلاميذ		عدد المدارس			عدد الاساتذة			عدد التلاميذ		عدد المدارس				عدد الاساتذة			التلاميذ
	ذكور	اناث	مختلطة	معلمون	معلمات	المجموع	ذكور	اناث	ذكور	اناث	مختلطة	معلمون	معلمات	المجموع	ذكور	اناث	ذكور	اناث	مختلطة	المجموع	معلمون	معلمات	المجموع	ذكور
العدد المنقول	4	1	1	16	2	18	597	112	23	3	49	91	14	08	2379	712	27	4	50	81	110	16	26	2976
د-جوقو وانقارة									16			23		23	107		16			16	23		23	107
تواندى									1			3		3	25		1			1	3		3	25
شورى									1			1		1	4		1			1	1		1	4
سبيرى									1			1		1	24		1			1	1		1	24
اليدحسو									1			1		1	7		1			1	1		1	5
المجموع									43	3	49	123	14	137	12546	712	741	4	50	101	139	16	153	13143

حقق فى بورتوهوفو يوم 2 جويلية 1908

الكاتب العام

امضاء :

نظر : الحاكم بى (PIY)

ملحق ص رقم 12

مستعمرة السينغال الفرنسية ملحق رقم : 04

جدول رقم 2

احصائيات التعليم العمومي

التعليم في الكتاتيب القرآنية (1)

السنة 1909

الدائرة	مستعمرة أو بلدة	حكومي (مستعمرة أو بلديات): عدد المدارس – ذكور	عدد المدارس – اناث	عدد المدارس – مختلط	عدد الاساتذة – رجال	عدد الاساتذة – نساء	عدد التلاميذ – ذكور	عدد التلاميذ – اناث	التعليم الحر: عدد المدارس – ذكور	عدد المدارس – اناث	عدد الاساتذة	عدد التلاميذ – ذكور	عدد التلاميذ – اناث	المجموع	المجموع العام – مدارس	المجموع العام – اساتذة	المجموع العام – تلاميذ
ويداج	"	"	"	"	"	"	"	"	2	"	2	15	"	15	2	2	15
كيتو	"	"	"	"	"	"	"	"	1	"	1	6	"	6	1	1	6
اقونى	"	"	"	"	"	"	"	"	1	"	2	14	"	14	1	2	14
براكو ونواحيها	"	"	"	"	"	"	"	"	15	"	23	191	38	229	20	23	229
نيكى ز	"	"	"	"	"	"	"	"	21	"	25	300	12	312	23	25	312
نجوقو	"	"	"	"	"	"	"	"	6	"	8	86	"	86	6	8	86
ماتولو	"	"	"	"	"	"	"	"	8	"	10	96	"	98	8	10	96
بارابى	"	"	"	"	"	"	"	"	9	"	9	98	"	98	9	9	98
كواندى	"	"	"	"	"	"	"	"	4	"	5	52	"	52	4	5	52
بورتوهوفو	"	"	"	"	"	"	"	"	20	"	25	200	"	200	20	25	200
النيجر الاوسط	"	"	"	"	"	"	"	"	40	"	45	450	"	450	40	45	450
المجموع	"	"	"	"	"	"	"	"	123	"	155	1508	50	1;558	134	155	1.558

(1) ARCHIVES : S.O.M. Paris – Dossier SENEGAL N°IO

مستعمرة السنغال — ملحق رقم : 05

جدول رقم 2

احصائيات التعليم العمومي (1)

تعليم اللغة العربية والقرآن للتلاميذ السنغاليين

السنة 1907

الدائرة	حكومي (مستعمرة او بلديات)								التعليم الحر								
	مستعمرة او بلدية	عدد المدارس			عدد الاساتذة		عدد التلاميذ		عدد المدارس		عدد الاساتذة	عدد التلاميذ		المجموع	م/ع		
		ذكور	اناث	مختلطة	رجال	نساء	ذكور	اناث	ذكور	اناث		ذكور	اناث		مدارس	ألس	ت
سان لويس	مستعمرة	5			2		75		46	.	46	1·326	1160	1486	51	48	1561
دكار	*	1			1		26		27		27	415	12	427	28	28	453
تفوري	*	—	—	—	—	—	[illegible]		2		2	34	10	44	2	2	44
روفيسك	*	1			1		47		20		20	519	31	550	21	21	597
السكال	*	3			3		162		34		34	405	4	409	37	37	571
المناطق المحمية	*	—	—	—	—	—	—	—	1 262		1262	8204	283	8 487	1262	2621	8487
المجموع		10			7		310		1391		1391		500	11 403	1401	8931	31711

(1) ARCHIVES : S.O.M. Paris -Dossier SENEGAL N°IO

جدول عدد تلاميذ الكتاتيب القرآنية في أفريقيا الغربية(١)

المستعمرة	عدد التلاميذ			عدد البنات من بين المجموع		
السنة	١٩٠٧	١٩٠٨	١٩٠٩	١٩٠٧	١٩٠٨	١٩٠٩
السنغال	٩.٠٨٢	١٠.٧١٩	١٠.٩٣٣	٢١	٥٥٥	٣٥٤
نيجيريا	١٠.١٧٦	١٠.٦٢٢	١٤.٤٢٥	٥٥	٦١	٢٠٧
المناطق العسكرية	=	٣.٤١٣	=	=	=	=
غينيا	٢٨.٠٢٣	٢٣.٧٥٤	٢٣.٧٧٧	٧٩٩	٣١٢	٣١٢
ساحل العاج	١.٥٤٤	٢.٠٠٠	٢.٣٩٧	=	=	١٣
الداهومي	١.٧٠٥	١.٧٧٥	١,٥٥٨	١٥	٢٣	٥٠
موريتانيا	٢٣٥	٢٣٥	١.٢٩٧	=	=	=
المجموع العام	٥١.٢٧٥	٥٠.٥٣٦	٥٤.٣٨٦	٨٨٥	٩٥٠	٩٣٦

(1) D. BOUCHE: P.760 op., Cité.

الهوامش

(١) Denise Bonche: (Thése) L'Enseignement dans les Territoires FranÇais d l'A.O.F. — Paris — Lille- 1975 P.75.

(٢) Archives: S.O.R. — Paris — dossier Dohomey n° 10.

(٣) Archives: op., cité, même dossier.

(٤) أنظر جدول عدد تلاميذ المدارس العربية في غرب إفريقيا.

(٥) أنظر الجدول السابق الذكر، وقارن بين عدد تلاميذ اللغة العربية في أقطار إفريقيا الغربية.

(٦) D. Bonche: op., cité., P.754.

(٧) أنظر جدول عدد تلاميذ المدارس العربية في غرب إفريقيا، وقارن بين عدد الأطفال والبنات خلال السنوات المذكورة.

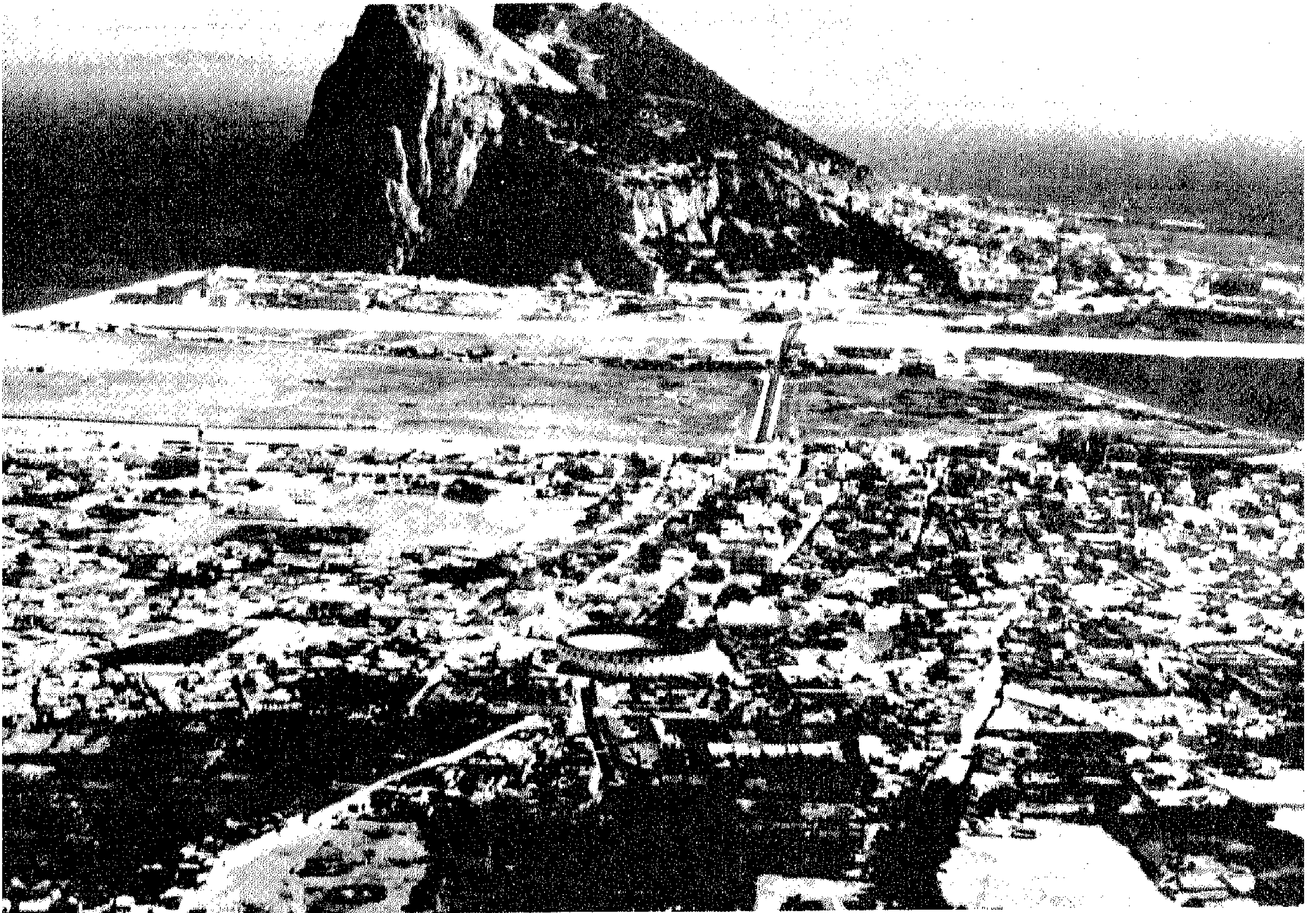
(٨) أنظر الجدول السابق نفسه.



من مغامرات التجسس في الحرب العالمية الثانية

الطوربيدات البشرية في

إحتل جبل طارق - ولا يزال يحتل- مركزاً هاماً جعل الجواسيس يحتشدون في المرافىء المجاورة له، واختار الايطاليون في الحرب الأخيرة حوض «الجزيرة» فأقاموا فيها قاعدة عسكرية سرية تقع مقابل صخرة جبل طارق ولا تبعد عن القنصلية البريطانية أكثر من بضعة مئات من الأمتار. ومن هذه القاعدة انطلقت أسوأ الغارات على البحرية الحليفة دون أن تخالج الريبة في مصدرها أحداً من الحلفاء أو الألمان أو الاسبان حتى أعلنت الهدنة الايطالية في عام ١٩٤٣ وانكشف أمر هذه القاعدة».



جبل طارق



حين دخلت إيطاليا الحرب في حزيران عام ١٩٤٠ كان هناك باخرة إيطالية تدعى «اولتيرا» لا تزال في حوض «الجزيرة» وخشي قبطانها أن يأسرها البريطانيون فعمد إلى حرقها وإغراقها في المياه الاسبانية حيث ظلت سنة ونصف السنة فحال لونها، وصدىء حديدها، وطغت المياه على أقسامها، وأصبحت نموذجاً للسفن المهجورة، ولم يبق على ظهرها إلا القبطان والميكانيكي الأول وحفنة من الملاحين ليؤكدوا ببقائهم أنهم يملكون السفينة بعد أن فقدوا كل أمل في إنقاذ السفينة والابحار بها من جديد.

أما في روما فقد أثارت «أولتيرا» اهتمام أركان حرب البحرية إذ كانت إيطاليا في حاجة شديدة للبواخر بعد أن دخلت الحرب بصورة مفاجئة حرمتها من ثلث بواخرها التجارية الذي ظل محبوساً في المرافيء المحايدة. ولم يكن هناك أي سبيل إلى استعادة «أولتيرا» فأضيفت إلى قائمة الخسائر.

وكانت إيطاليا تغير على جبل طارق معتمدة على الغواصة «سيره» التي تسللت عدة مرات إلى حوض «الجزيرة» لكن الصعوبات ازدادت في وجه هذه الغواصة يوماً بعد يوم لقرب «الجزيرة» من المرفأ وازدياد عدد زوارق المراقبة العدوة تدريجياً.

وحينئذ خطر لضابط إيطالي أن يستخدم «أولتيرا» كقاعدة لأسلحة الغارات، وبدت هذه الخطة في البدء مدهشة لولا ما يعترضها من الصعوبات الفائقة، فإلى جانب انتهاك حرمة الحياد الاسباني – وهو أمر قليل الأهمية في النزاع العالمي – فإنها خليقة أن تثير الشكوك سواء لدى الاسبان أم لدى الحلفاء إذ يقتضي تنفيذها أن ينقل الأفراد والعتاد عبر فرنسا وإسبانيا حتى الشاطىء بمنتهى الكتمان. وربما كان نجاح هذه الخطة راجعاً إلى جسارتها التي تبدو بعيدة عن التصديق.

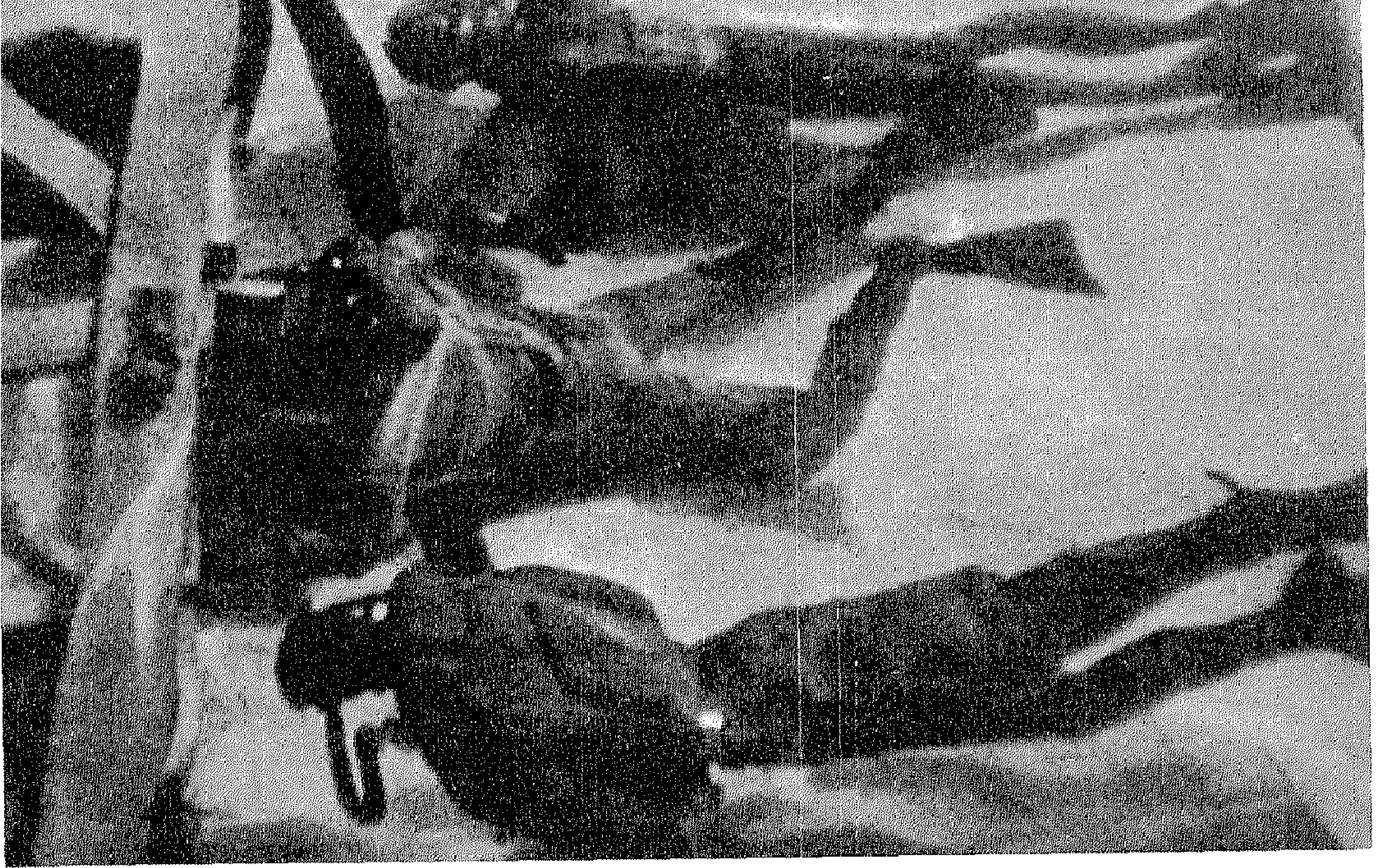
إستعدادات

بدأ تنفيذ الخطة ببراعة فذة إذ أعلن صاحب الباخرة أنه يرغب في تقديمها إلى شركة إسبانية وطلب من مؤسسة إسبانية تعويمها، فلم يسع الحكومة الاسبانية إلا الموافقة على طلبه. وقطرت الباخرة إلى «الجزيرة» وربطت إلى القسم الشمالي من الرصيف إلى جانب المضيق وهو موضع يلائم كلا من إيطاليا وإدارة المرفأ. وتكفل الأيطاليون حينئذ باصلاح الباخرة واستمرت هذه العملية بالطبع حتى تم استسلام إيطاليا وبذلك نجت السفينة من الانتقال إلى الشركات الاسبانية، هذا عدا عن أن عملية الاصلاح كفلت للسفينة مبرراً كافياً لاستقدام ما يلزمها من الرجال المدربين والأعتدة من إيطاليا. وهكذا استبدل الملاحون القدامى بآخرين جدد باستثناء القبطان والميكانيكي الأول اللذين حافظا على السر محافظة تامة.

أطلق على الملاحين الجدد إسم «سرب الدب الأكبر» ووضعوا تحت إمرة الملازم الأول البحري فيسينتيني وكانوا كلهم من أسطول (M.A.S.) (البواخر المضادة للغواصات) العاشر وبالرغم من الاسم الذي يحمله هذا الاسطول فانه كان يشرف في الحقيقة على إعداد الأفراد والعتاد اللازمة لمهاجمة سفن العدو بواسطة أسلحة الغارات ومن بينها غواصات الجيب والطوربيدات البشرية والزوارق المتفجرة والرجال الضفادع. ولقد سجل هذا الأسطول تاريخاً حافلاً بالبطولة.

براعة وتمويه

ثم جاء دور الخطوة التالية لايصال المواد اللازمة إلى الباخرة وهي أصعب من سابقتها، إذ يبلغ طول الطوربيد البشري بعد جمعه أكثر من



الغطاسون في التدريب على اجتياز العوائق.

سبعة أمتار، ولم يكن هناك من وسيلة أخرى غير إرسال المواد بصورة مجزأة، فاستخدمت لذلك أوعية المحروقات وأرضية السيارات وجميع الوسائل الأخرى الشيطانية. ومن الصعب أن نتبين من المعلومات التي لدينا كيف استطاع الايطاليون أن يخدعوا الجنود الاسبانيين الذين كانوا يراقبون الباخرة بصورة مستمرة، ولا بد أن صداقة هؤلاء للايطاليين بدأت تشتد يوماً بعد يوم، وحتى لو صح أنهم ارتابوا في شيء فانهم حتماً لم يهتموا به.

إحتاط الايطاليون لجميع الطوارىء فدربوا البحارة العسكريين في «جنوا» قبل إرسالهم إلى «أولتيرا» حتى اتقنوا لغة البحارة التجاريين وسلوكهم. واعتاد عليهم أهل الجزيرة شيئاً فشيئاً حتى أصبحوا بعيدين عن الشبهات والمراقبة.

أما في داخل «أولتيرا» فقد سار العمل بحماس فأنشىء مصنع لجمع الطربيدات البشرية وركبت المحركات لملء المدخرات،

ولما كان من المستحيل أن ترفع الطوربيدات سلفاً إلى سطح السفينة لتكون جاهزة للانطلاق عند اللزوم، فقد تعلل البحارة بحجة تنظيف السفينة وإعادة طلائها وأمالوها على جنبها، ونصبوا خياماً كانت في ظاهرها لحماية العمال من الشمس وفي حقيقتها لحمايتهم من أنظار الفاحصين، وشقوا بالحرارة، فتحة واسعة تصل قعر الباخرة بالبحر، وأتموا العمل بمهارة ثم قوموا وضع الباخرة كما كانت، وغطست الفتحة تحت المياه فلم يعد يرى لها أثر.

«الطوربيدات البشرية في أولتيرا» براعة وتمويه

إعتمد الايطاليون في غاراتهم من حوض «الجزيرة» على السباحين الحاملين للقذائف، وعلى الطوربيدات المقودة التي عرفت بـ «الطوربيدات البشرية».

ويلبس السباحون ملابس الغطس التي تشبه ملابس الرجال الضفادع ويحملون حول

أجسامهم شحنات متفجرة يطلق عليها إسم العلق أو البق وهي تلتصق بهيكل السفينة المراد مهاجمتها بواسطة وسادة مملوءة بالهواء فتبقى ساكنة حتى تنفجر في وقت معين بواسطة آلة تشبه حركتها حركة الساعة وبذلك يتاح للسباح وقت كاف لكي يبتعد عن الباخرة وينجو.

ويعتمد السباح على جهاز للتنفس يستطيع بواسطته أن يبقى تحت الماء ثلاثة أرباع الساعة وأن ينقل أربع أو خمس علقات.

كانت «أولتيرا» ترابط في «الجزيرة» على بعد ستة أو سبعة كيلو مترات من جبل طارق وهي مسافة ترهق سباحتها الرجال الضفادع. وفوق ذلك فقد حَسَّن البريطانيون وسائل دفاعهم على أثر الهجمات الأولى التي شنتها الغواصات وحصنوا مدخل المرفأ بالشباك المرصوصة الحلقات ووضعوا فوقها أوتاداً تجري مراقبتها باستمرار. وكانت الزوارق تطوف - بلا انقطاع - الحوض الخارجي الذي رست فيه البواخر التجارية. وعمد البريطانيون إلى استخدام وسيلة دفاعية برهنت على شديد فعاليتها وذلك أنهم كانوا يفجرون - بفترات لا تتجاوز بضع دقائق - بعض الرمانات بالقرب من مدخل المرفأ وفي الحوض.

ولما كانت المسافة التي يضطر السباحون إلى قطعها طويلة وكثيرة الأخطار، فقد فكر الايطاليون باستخدام محطة على الشاطىء بالقرب من المرسى الخارجي لجبل طارق. وكان أحد الضباط الايطاليين متزوجاً بفتاة إسبانية تدعى «كونشيتا رامغنينو» وكان من الطبيعي أن تشعر زوجته بالحنين إلى وطنها ولما كانت صحتها تحتاج إلى حمامات البحر فقد استأجرت مع زوجها«فيلا كارمنيلا» الواقعة على خليج «الجزيرة» مقابل مرسى البواخر التجارية الحليفة. وكان من السهل أن تراقب من هذه الفيلا حركات البواخر ومواقع رسوها ووسائط حمايتها. كما كان من السهل أيضاً الالمام بعادات رجال الجمرك الاسبان الذين اعتادوا على ابتسامات السنيورا كونشيتا وعلى زهورها



اختراق الشبكة تحت مياه المضيق.
لصق الطوربيد بجسم السفينة.
.. ثم الانسحاب

وطيورها، فقد كانت مواطنة لهم وتتكلم لغتهم، وكانوا يتبادلون معها حين يصادفونها الأحاديث الودية.

ومن الطبيعي أن تكثر السنيورا «كونشيتا» من استقبال رجال «أولتيرا» في فيلتها إذ كان ذلك ضرورياً لرفع معنوياتهم التي أرهقها بعدهم عن ديارهم لزمن غير محدود، ولم يكن في ذلك ما يثير الشبهة. إلا أن هؤلاء الرجال كانوا متى حل الليل ينقلون من «أولتيرا» إلى الفيلا ملابس الغطس والقنابل.

بعثتان لمهاجمة الانجليز

في تموز ١٩٤٢ رست قافلة كبيرة للحلفاء أمام جبل طارق. وفي الليلة الواقعة بين ١٢ و ١٣ تموز ذهب إثنا عشر رجلًا من «أولتيرا» إلى الفيلا بصورة متفرقة، وكانوا على درجة عالية من التدريب إذ يستطيعون أن يسبحوا بلا أدنى صوت ودون أن يتركوا وراءهم أي ثلم يشير إليهم، وأن يسبحوا بالقرب من الباخرة دون أن يستلفتوا أنظار المراقبين وأن يختفوا في الوقت المناسب قبل أن يكشفهم النور الكشاف.

وحين اشتد الظلام انطلق الرجال نحو الشاطىء وبقيت السنيورا «كونشيتا» وبعض الملاحين يراقبون وكان الليل حالكا والبحر ساكناً، وأفلح المهاجمون في الافلات من الرقابة البريطانية ووضعوا القنابل تحت الأهداف المعينة ثم عادوا إلى البر بعد أن تركوا ملابس الغطس التي كان من المفروض أن تغوص إلى أعماق المياه. وانجلى الموقف أخيراً عن جرح اثنين منهم أحدهما بمروحة إحدى زوارق المراقبة والآخر بانفجار رمانة على مقربة منه. وفي الصباح الباكر دوت أصوات الانفجارات وأصيبت أربع بواخر حليفة بأضرار جسيمة اقتضت قطرها إلى جبل طارق لاصلاحها.

ولم يمض زمن طويل حتى عثر على ملابس للغطس كانت عائمة على وجه المياه فأدركوا أن ما حل بهم كان من فعل الرجال الضفادع لكنهم ظنوا أنهم جاؤوا بواسطة إحدى الغواصات.

واستطاع عدد من السباحين أن يصل إلى «فيلا كارميلا» وقبض رجال الجمرك على عدد آخر منهم على الشاطىء الاسباني بالقرب من «لينيا» وكثيراً ما كان البحر يلفظ على الشاطىء الاسباني أنواعاً من الحطام معها بعض الغرقى الأموات أو الأحياء. وكثيراً ما كان بعض الايطاليين يظهرون في شوارع القرى وهم نصف عراة دون أن يثيروا كثيراً من الاستغراب.

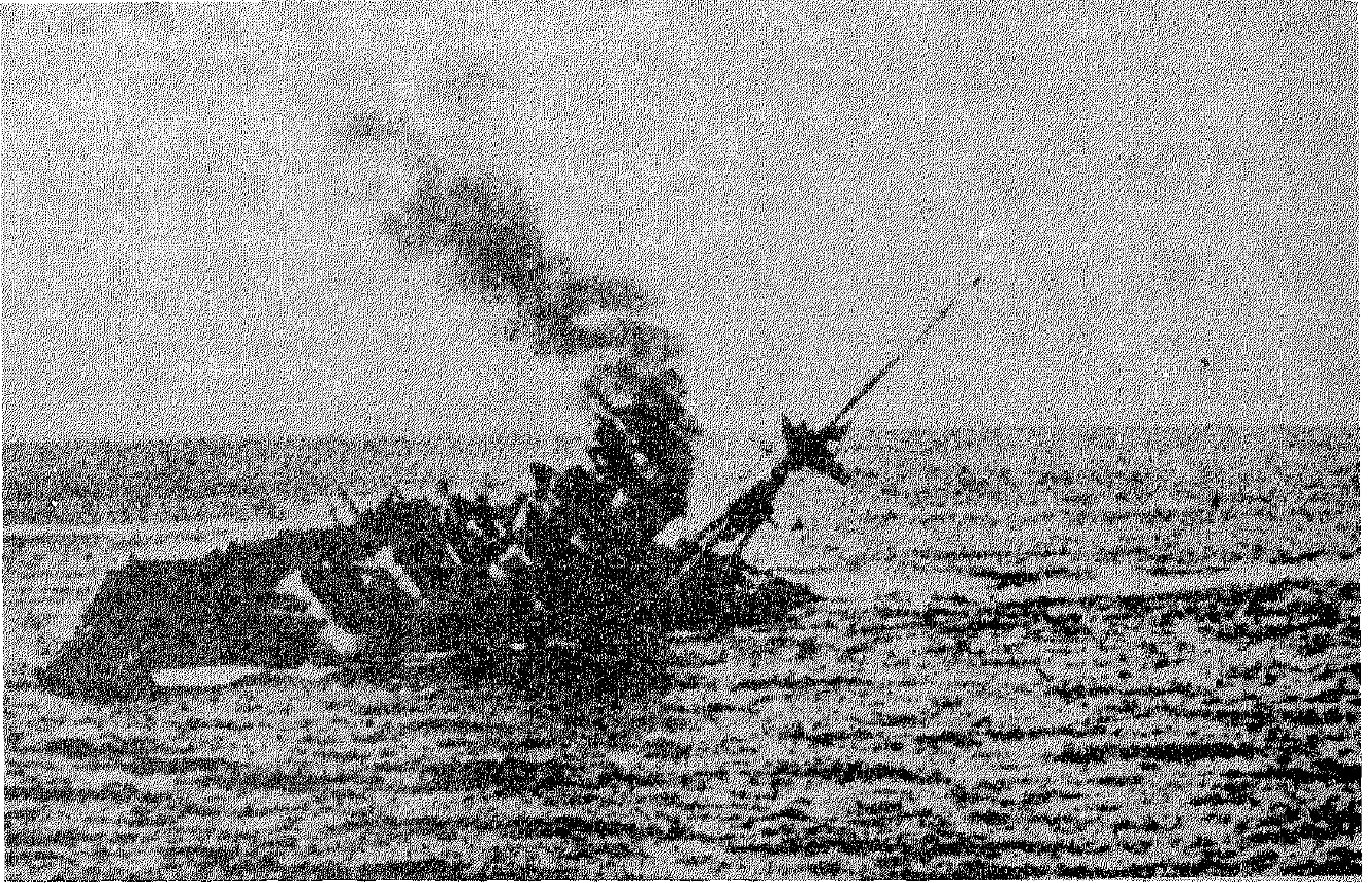
وكانت إسبانيا حينئذٍ تعج بالأجانب من جميع الأنواع ومنهم الغرقى أو الذين اجتازوا الحدود بصورة غير مشروعة ولم يكن فيها معسكرات تكفي لتوقيف كل هؤلاء، فكانت السلطات تكتفي بحجزهم مدة من الزمن ثم تتركهم بعد أن يتدخل قناصلهم واستطاع لذلك القنصل الايطالي في جبل طارق أن يستعيد الموقوفين من رجاله ويعيدهم إلى إيطاليا.

البطولة لا تغني دائماً

في ١٥ أيلول إستأنف الايطاليون أعمالهم، فانطلق ثلاثة من السباحين من «فيلا كارميلا» ووضعوا قنبلة تحت إحدى البواخر فانفجرت وغرقت في هذه المرة. واستطاع أحد الرجال الرجوع إلى «أولتيرا» أما الآخران فقد اضطرا للقيام برحلة لا تكاد تصدق عبر إسبانيا ثم توجها إلى برشلونة على ظهر سفينة تجارية.

وفي «الجزيرة» كان «فيسينتيني» منكبا على أعواد الطوربيدات البشرية وهو يمني النفس بنسف إحدى البواخر الحربية الكبيرة. ولم يكد يأتي الخامس من كانون أول عام ١٩٤٢ حتى رست في مرفأ جبل طارق كل من المدرعة «نلسون» وطراد القتال «رينون» وحاملتي الطائرات «فوريوس» و «فور ميدابل» وبضع بواخر أخرى للحراسة وبدأ رجال «أولتيرا» يتابعون حركات هذه البواخر بمناظيرهم وكان لديهم ثلاثة من الطوربيدات البشرية فقط، فقرر فيسينتيني أن يهاجم «نلسون» وحاملتي الطائرات.

وفي الساعة ٢٣ غادر «فيسينتيني» والغطاس «ماجرو» «أولتيرا» على أول طوربيد



احدى السفن المنسوفة.

وفي منتصف الليل انطلق الطوربيد الثاني وعليه المرشح«مانيسكو» والغطاس «فاريني» وبعد قليل انطلق الطوربيد الثالث وعليه الملازم «تشيلا» والغطاس «ليون» ولكن سرعان ما أصاب الطربيد الثالث عطب منعه من متابعة سيره حتى الساعة الواحدة وأربعين دقيقة.

كان البريطانيون يقظين أكثر من العادة. وحوالي الساعة الثانية والنصف شاهد أحد زوارق المراقبة شيئاً غير عادي بالقرب من شبكة المدخل ولم يكن هذا إلا «فيسينتيني» الذي كان يحاول اختراق الشبكة، فأعطيت إشارة الخطر وأسرعت جميع الأنوار الكشافة للعمل، وهبت زوارق المراقبة تمخر عباب المرفأ وأرجاء المضيق وتطلق عدداً كبيراً من الرمانات، فعمد «مانيسكو» الذي كان حينئذٍ على بعد مئات الأمتار من المدخل إلى الظهور جهرة على سطح المياه ليجتذب جميع اهتمام العدو ويتيح لفيسينتيني الفرصة كي يمر. وانقضت بضعة زوارق نحو «مانيسكو» فغطس ثانية لكن الطوربيد تعطل بفعل الانفجارات وتوقف عن السير فأسرع «مانيسكو» و «فاريني» إلى تفجيره والتجأ إلى سفينة للنقل كانت بجوارهما.

أما «تشيلا» فقد فوجىء بالخطر وهو في منتصف المسافة بين الجزيرة وجبل طارق وهاجمته زوارق المراقبة بالرمانات، وقذف الانفجار برفيقه «ليون» الذي اختفى نهائياً، وعاد «تشيلا» وحده إلى «أولتيرا».

أروع مغامرات التجسس في جبل طارق

لم يعرف شيء ثابت عن «فيسينتيني» و «مارجو» غير أن جثتيهما قد وجدتا بعد بضعة أيام داخل مرفأ جبل طارق (مما يحمل على الظن أنهما نجحا في عبور المضيق) فدفنتا باحتفال عسكري يليق ببطولتهما.

وبموت فيسينتيني انتهت حياة بطل من أعظم أبطال سلاح (M.A.S.) العاشر بعد

أن ترك في «أولتيرا» دفتر مذكرات يومية تحتفظ به البحرية الايطالية بفخار واعتزاز.

وهكذا انتهت البعثة الباسلة بفشل تام لكن رجال سرب «الدب الأكبر» لم يفقدوا بسالتهم رغم موت قائدهم بل تابعوا الكفاح.

أخذوا بثأر رئيسهم

أعيد تنظيم السرب وأرسل إليه من إيطاليا قائد جديد هو الرئيس البحري «نوتاري» وهو يشبه «فيسينتيني» بمواهبه ومزاياه، وأرسلت طوربيدات جديدة وصلت على شكل أجزاء منفصلة، وانقضى زمن طويل حتى انتهى جمعها وإعدادها في مطلع ايار ١٩٤٣ دون إثارة شكوك رجال الجمرك والبوليس الاسباني.

وكانت حالة إيطاليا وإلمانيا حينئذٍ قد تدهورت إلى حدٍ كبير، واستسلم أحسن جيش في إيطاليا بقيادة الجنرال «ميس» واضطرت البحرية الايطالية إلى التزام خطة الدفاع ولم يبق لديها ما تهاجم به إلا عدد قليل من الغواصات.

وفي ٨ ايار ١٩٤٣ سنحت ظروف ملائمة للقيام بالغارة، فقد رست كثير من البواخر التجارية الحليفة في حوض «الجزيرة» وكانت أحوال الطقس والرؤية حسنة، وهبت عاصفة عرقلت مراقبة زوارق الحماية، واشتدت أصوات الأمواج فشوشت السماع الميكروفوني.

وفي الساعة الثانية والعشرين والنصف مساء إنطلقت من «أولتيرا» ثلاثة طوربيدات بشرية. ولم يحاول الرئيس «نوتاري» أن يدخل مرفأ جبل طارق فقد كانت تجربة كانون الأول لا تزال ماثلة في ذهنه. واعترضت التيارات سبيل المهاجمين الذين بذلوا جهوداً كبيرة حتى استطاعوا أن يثبتوا قنابلهم تحت الأهداف المرسومة وقفلوا راجعين إلى «أولتيرا» وفي الصباح سمعوا أصوات ثلاثة إنفجارات أودت بثلاث بواخر إلى قاع المياه، فعم الفرح رجال «أولتيرا» لأنهم نجحوا دون أية خسائر ولأنهم أخذوا بثأر فيسينتيني الذي نال اعجابهم جميعا. وترك الايطاليون ملابس الغطس على الشاطيء ليوهموا ان المهاجمين من الرجال الضفادع.

آخر مأثرة قبيل الاستسلام

تعتبر الأسابيع التي تلت ذلك من أكبر المآسي في تاريخ إيطاليا. ففي ١٠ تموز اجتاح الحلفاء صقليا ولم تستطع القيادة العليا الايطالية استخدام الأسطول في الدفاع لبعد قاعدته وإمكان تعرضه لخطر طيران وبحرية العدو وهما أقوى بكثير، بل اكتفت باستخدام الغواصات التي تكبدت خسائر فادحة في سبيل المحافظة على الشرف العسكري. وفي ١٩ تموز قابل «موسوليني» «هتلر» في «فلتر» وطلب إليه إرسال النجدات، فلم يلق منه إلا النصائح والملامة، وعاد إلى «روما» يائساً محطما. وفي ١٦ تموز قذفت «ميلان» و «بولونيا» بالقنابل ففر أهلهما في جو من الفوضى والاضطراب. وفي ٢٥ تموز عزل الملك «موسوليني». وألف المارشال «بادوليو» حكومة جديدة قررت متابعة الحرب إلى جانب الالمان ولكن الشعب وكبار القواد العسكريين كانوا يريدون السلام بعد أن تأكدوا أنهم يخوضون حرباً لا فائدة منها.

ومع ذلك كله فقد ظل رجال «أولتيرا» يكافحون حتى النهاية. وفي ٤ آب انطلقت من «أولتيرا» ثلاثة طوربيدات أغرقت سفينتين وعطبت ثالثة، ورجع الرجال إلى سفينتهم ما عدا واحداً فقط علم فيما بعد أن زورقاً بريطانيا التقطه وهو على آخر نفس، وكان قد ظل بضع ساعات مختفياً خلف سفينة حليفة للنقل محاولاً بذلك أن يؤخر أسره حتى لا يعرقل نجاح المشروع.

وفي ٨ أيلول استسلمت إيطاليا واستولت الحكومة البريطانية على الباخرة «أولتيرا» وحينئذٍ فقط علم القنصل البريطاني أن هذه السفينة البالية التي كان يتأملها كل يوم تحت نوافذه كانت تعمل كقاعدة مخيفة للأعمال السرية.

□

كرومويل [١٥٩٩ - ١٦٥٨]

هو الزعيم السياسي العسكري أوليفر كرومويل، الذي قاد القوى البرلمانية إلى النصر في الحرب الأهلية في انجلترا، وهو الرجل المسؤول عن إرساء الديموقراطية البرلمانية على أنها شكل الحكم في انجلترا.

ولد كرومويل سنة ١٥٩٩ في هنتنجتون بانجلترا. وعندما كان شاباً كانت انجلترا ممزقة بالخلافات الدينية، ويحكمها ملك أراد أن يكون حاكماً مطلقاً، وكان كرومويل من أبناء الريف وكان شديد التدين، وفي سنة ١٦٢٨ انتخب عضواً بالبرلمان. وبقي فترة قصيرة، لأن الملك تشارلز الأول قرر حل البرلمان. وأن يحكم البلاد حكماً مطلقاً، ولم يشأ الملك أن يعيد البرلمان إلا في سنة ١٦٤٠ عندما إحتاج إلى مال لكي يشن حرباً ضد اسكتلندا، ولكن هذا البرلمان الجديد الذي كان كرومويل عضواً فيه، طالب الملك بألا يحكم البلاد حكماً دكتاتوريا، ولكن الملك يريد أن ينفرد بالسلطة، فنشبت الحرب بين القوى المؤيدة للملك والقوى التي تساند البرلمان والشرعية الدستورية.

واختار كرومويل أن يقف إلى جوار البرلمان ضد الملك، وعاد إلى قريته وشكل فيلقاً من الفرسان ليحارب الملك. وخلال أربع سنوات من القتال ظهرت براعته في القيادة العسكرية والسياسية، ولعب كرومويل الدور الرئيسي في موقعتين شهيرتين.. إحداهما في مارستون (٤ يوليو سنة ١٦٤٤) والثانية موقعة ناسبي (١٤ يونيو ١٦٤٥) وانتهت الحرب في سنة ١٦٤٦ ووقع الملك تشارلز الأول أسيراً، وأصبح كرومويل أنجح زعيم برلماني في إنجلترا.

ولكن السلام لم يتحقق، فسرعان ما تمزق البرلمان نفسه معسكرات وأحزاباً متصارعة، ولذلك رفض الملك أن يوافق على أية تسوية أو يذعن لما تقدم به كرومويل، وفي مدى سنة



عادت الحرب من جديد، وهرب الملك تشارلز الأول وحاول أن يجمع قواه، وقد أسفرت هذه الحرب عن إعدام الملك سنة ١٦٤٩ واستبعاد العناصر المعتدلة من البرلمان.

وأصبحت بريطانيا جمهورية يحكمها مجلس دولة على رأسه كومويل، ولكن سرعان ما تجمعت القوى المساندة للملكية في أيرلندا واسكتلندا، ووقفوا وراء ابن الملك تشارلز الأول، وكان من نتيجة ذلك.. أن قامت جيوش كرومويل بهزم كل هذه الجيوش في أيرلندا واسكتلندا. وهزم الملكيون هزيمة كاملة، وانتهت هذه الحروب المتوالية في سنة ١٦٥٢.

وبنهاية الحروب أتيحت الفرصة أمام كرومويل لإقامة الحكومة. ولكن بقيت أمامه مشكلة، هي مشكلة الشكل الدستوري للحكومة

التي يتخيلها، ولم تحل هذه المشكلة في حياة كرومويل، وعلى الرغم من النصر الذي حققه كرومويل، فإنه لم يستطع أن يحل النزاعات التي قامت بين مؤيديه على شكل الحكومة أو على الدستور، لأن هذه النزاعات قد اصطدمت بالمذاهب الدينية التي باعدت بين البروتستانت، وبين البروتستانت والكاثوليك.

وقد تشكل البرلمان، بسبب الخلافات العنيفة، ثلاث مرات، وقام كرومويل بحل البرلمان في كل مرة، واتخذ البرلمان دستورين، ولكن لم يفلح في تطبيق واحد منهما، وحكم كرومويل بمساندة من الجيش. وكان دكتاتوراً عسكرياً. وكان حرصه المستمر على بناء الديمقراطية، ورفضه أن يكون ملكاً، دليلاً على أنه لا يريد أن يكون حاكماً منفرداً، إنما هو يريد حكماً دستورياً.

ومن ١٦٥٣ حتى ١٦٥٨ كان كرومويل يحمل لقب اللورد حامي الدولة، وحكم انجلترا واسكتلندا وإيرلندا، واستطاع كرمويل خلال هذه السنوات الخمس أن يقيم نوعاً من الحكم والإدارة المعتدلة، وقام بتعديل كثير من القوانين، كما كان مسؤولاً عن نشر التعليم بعد تعديل برامجه، وكان يؤمن بالتسامح الديني، وقد سمح لليهود أن يعودوا إلى إنجلترا وأن يمارسوا طقوسهم الدينية، فقد طردهم الملك إدوار الأول قبل ذلك بثلاثة قرون!

وكانت له سياسة خارجية ناجحة، وتوفي في لندن سنة ١٦٥٨ بعد إصابته بالملاريا.

وقد خلفه في الحكم ابنه الأكبر ريتشارد كرومويل، ولكن لفترة قصيرة، وفي سنة ١٦٦٠ أعيد الملك تشارلز الثاني إلى العرش. وأخرج الملك رفات كرومويل وألقى بها في الزبالة، ولكن معركة الحكم المطلق للملك قد انتهت إلى غير عودة، وقد أدرك تشارلز الثاني ذلك بوضوح، فلم يحاول أن يتحدى البرلمان أو يتخطاه.

وعندما حاول من بعده الملك الثاني أن يكون حاكماً مطلقاً، أسقطه البرلمان في انقلاب هادئ سنة ١٦٨٨، والنتيجة هي بالضبط ما كان يريده كرومويل: ملكية دستورية يلتزم فيها الملك بالبرلمان وبالتسامح الديني.

وفي القرون الثلاثة الماضية لم يكف الباحثون عن إعادة الحكم في قضية الزعيم كرومويل، فاختلف النقاد في تقدير أهميته التاريخية، بعضهم قالوا: منافق وكذاب، فبينما كان يريد أن يجعل البرلمان هو الحاكم الفعلي للبلاد، جاء هو واستخدم الجيش لحكم البلاد وحل البرلمان!

وآخرون يؤكدون أنه كان مخلصاً في احترامه للبرلمان، ولكن الظروف هي التي أرغمته كثيراً على العدول عن ذلك، ثم إنه رفض العرش، وقد ظل معتدلاً متوازناً.

كيف نزن هذا الرجل؟..

من المؤكد أنه كان قائداً عسكرياً لامعاً، استطاع هزيمة الجيوش الملكية في الحرب الأهلية الانجليزية، وكانت انتصارات كرومويل هي انتصارات للحكم الدستوري في انجلترا.

ويجب أن ننظر إلى هذا الحدث الجليل على أنه ما كان يمكن أن يحدث في أوروبا، لأي سبب، فقد كانت أوروبا في القرن السابع عشر متجهة إلى الحكم المطلق، ولذلك كانت انتصار الديمقراطية في بريطانيا ضد التيار الأوروبي كله، وأصبح هذا الذي حدث في انجلترا نموذجاً ومثلاً يقتدى به في حركة «التنوير» في فرنسا وفي الثورة الفرنسية أيضاً، وقاعدة لقيام الحكومات الديمقراطية في أوروبا الغربية، ومن المؤكد أن الذي حدث في انجلترا كان له أثره الهائل في ديمقراطية الولايات المتحدة الأمريكية وفي المستعمرات الانجليزية مثل كندا وأستراليا، وعلى الرغم من أن انجلترا تمثل جزءاً ضئيلاً من العالم فإن موجة الديمقراطية قد اتجهت إلى مساحات أوسع.

وكان من الممكن أن يجيء كرومويل في مرتبة أعلى من ذلك في قائمة الخالدين.. لولا أن إرساء الديمقراطية في انجلترا يرجع الفضل فيه إلى فيلسوف اسمه جون لوك، ولذلك من الصعب أن نعرف بالضبط نصيب رجل الأعمال كرومويل ورجل الفكر جون لوك، وكان من نتيجة الجو الفكري الذي أشاعه جون لوك أن تظهر مواقف جريئة كالتي اتخذها كرومويل، وإذا لم يعش كرومويل في انجلترا، فإن المعارك البرلمانية في بريطانيا كانت ستفتقد مقاتلاً شجاعاً وقائداً مخلصاً.

◘



تاريخ طوابع الخليج العربي

ميشال اسطفان

في العدد السابق تحدثنا عن تاريخ طوابع الكويت والبحرين حتى إصدارات سنة ١٩٥٢. وهنا نكمل ما عقب ذلك من إصدارات البحرين.

ففي سنة ١٩٥٣ وحتى ٣١ كانون الأول/ديسمبر سنة ١٩٦٥، كانت إصدارات البحرين بادارة البريد البريطاني كالآتي:

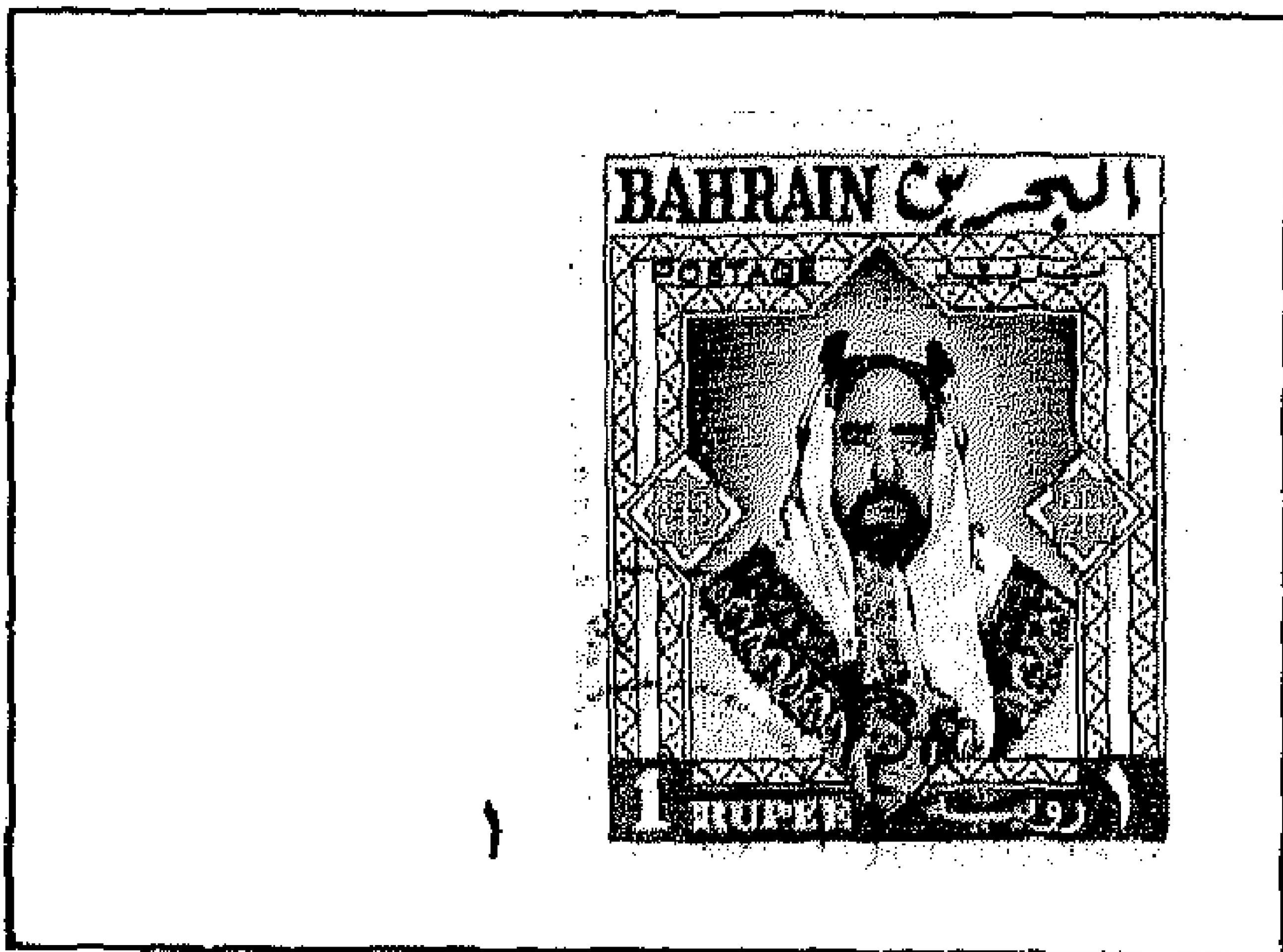
٣حزيران/يونيو سنة ١٩٥٣ مجموعة تذكارية لمناسبة تتويج الملكة اليزابت الانكليزية مؤلفة من ٤ طوابع من فئة ٢½ و١٢,٤ آنة وروبية واحدة.

٢٣ أيلول/سبتمبر سنة ١٩٥٥ صدرت ثلاثة طوابع موشحة ٢و٥و١٠ روبية صورة الملكة اليزابت، وقد جرى التوشيح ثلاث مرات في مطابع مختلفة أحدثت تغييرات طفيفة، جعل بعضاً منها مرتفع الثمن الآن.

أما آخر مجموعة بالآنة، فقد صدرت بتاريخ١٩٥٦مؤلفة من خمسة طوابع فقط من فئة ١/٢ آنة إلى روبية واحدة. وظهر خطأ في فئة الروبية وهو تكرار التوشيح وأصبح قيمة هذا الطابع اليوم ١٠٠ جنيه إسترليني.

وفي أول نيسان/إبريل سنة ١٩٥٧ إلى ٢٤أيار/مايو سنة ١٩٦٠، صدرت أول مجموعة بالعملة الجديدة مؤلفة من ٢١٢ طابعا من فئة نيابيزة واحدة إلى ٧٥ نيابيزة.

وفي أول آب/أغسطس سنة ١٩٥٧، صدرت مجموعة تذكارية لمناسبة اليوبيل العالمي للكشاف مؤلفة من ثلاثة طوابع من فئة ١٥ و٢٥ و٧٥ نيابيزة، موشحة على الطوابع الانكليزية للمناسبة ذاتها.

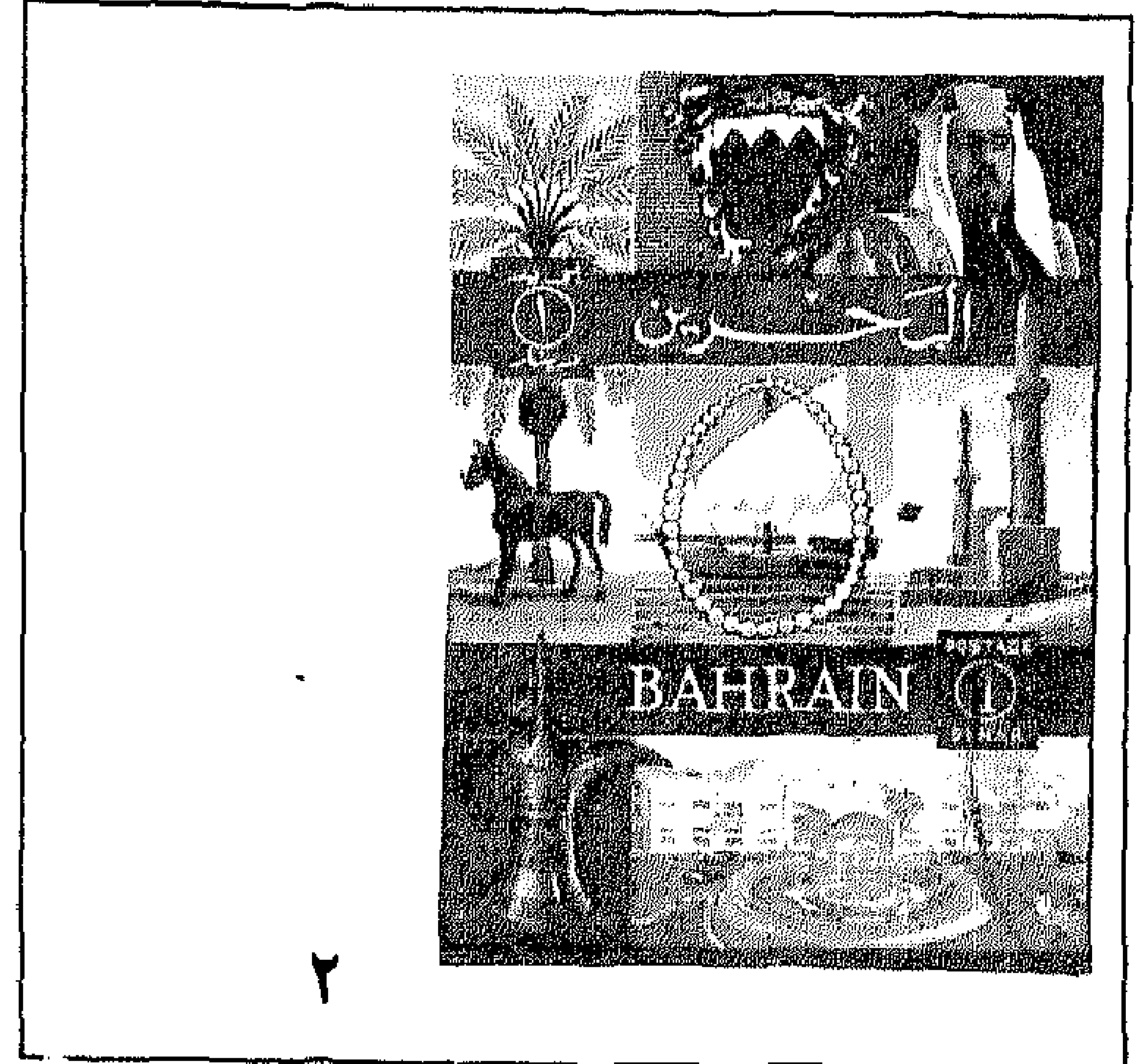


١

وفي أول تموز/يوليو سنة ١٩٦٠، صدرت أول مجموعة تحمل صورة حاكم البلاد الشيخ سلمان بن حمد آل خليفة، يحيط بها إطار جميل، مؤلفة من ١١ طابعا من فئة ٥ و١٥ و٢٠ و٣٠ و٤٠ و٥٠ و٧٥ نيابيزة وروبية واحدة و٢ و٥ و١٠ روبيات، (صورة١).

وفي ٢٢ شباط/فبراير سنة ١٩٦٤، صدرت مجموعة أخرى تحمل صورة الشيخ سلمان على الفئات الصغيرة السبعة لغاية ٧٥ نيابيزة، ومطار المحرّق لفئتي الروبية والروبيتان، والميناء لفئتي الخمس والعشر روبيات، وكلها عليها صورة الشيخ سلمان في اليمين الأعلى للطابع.

وهناك مجموعة من ثلاثة طوابع صدرت سنة ١٩٥٣ من فئة ١/٢ و١ و ١½ آنة ومجموعة أخرى من ثلاثة طوابع سنة ١٩٥٧ من فئة ٣و٦ و٩ نيابيزة، ومجموعة ثالثة من ستة طوابع صدرت سنة ١٩٦١ من فئة٥ إلى ٤٠ نيابيزة، كانت كلها تحمل صورة الشيخ سلمان،



٢

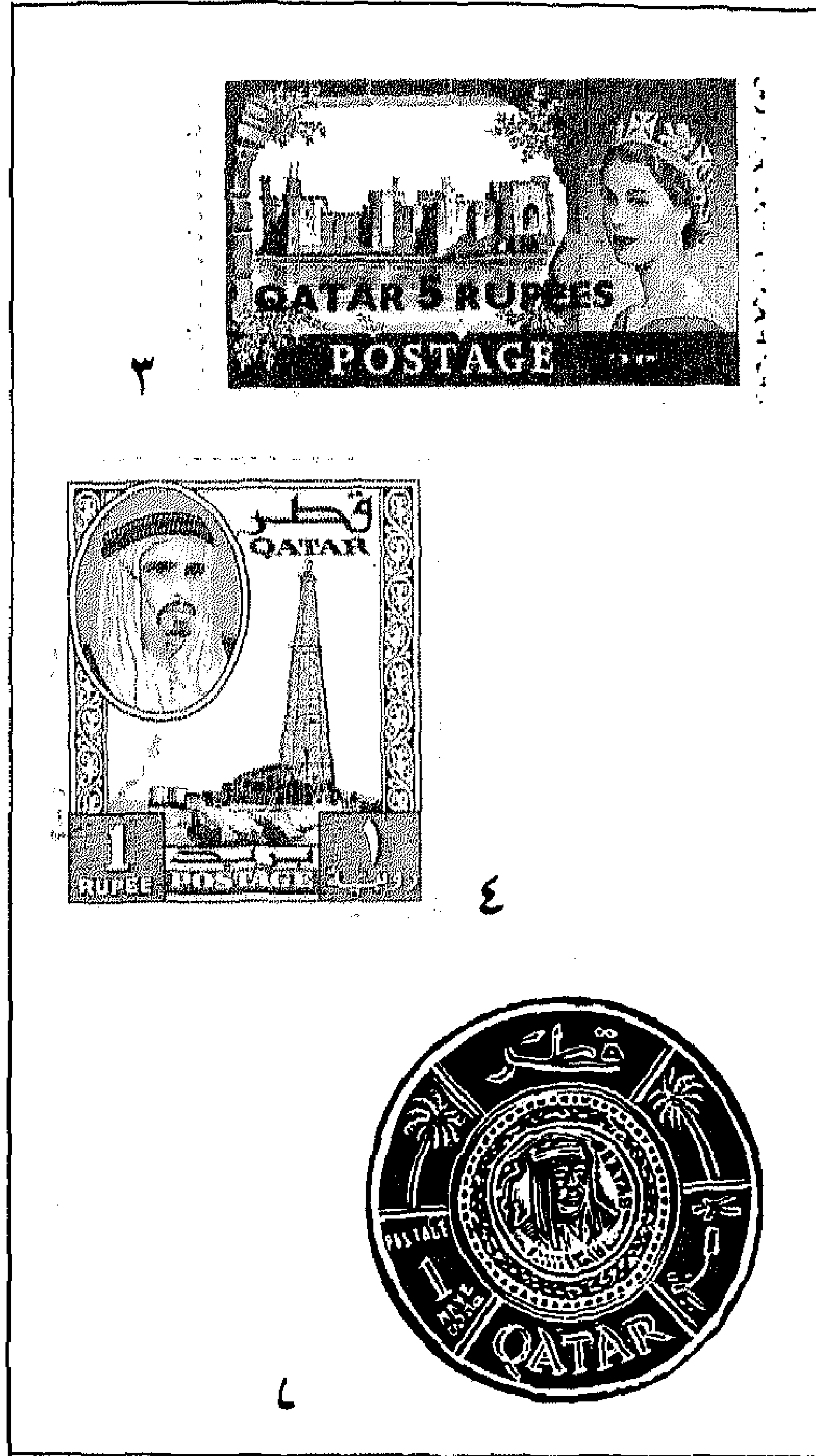
وكانت مخصصة للبريد الداخلي في البحرين، لكنها استعملت فيما بعد للبريد الخارجي أيضاً.

وبتاريخ أول كانون الثاني/يناير سنة ١٩٦٦ انتقلت الخدمات البريدية إلى دائرة البريد البحرانية، وأصدرت مجموعة جميلة مؤلفة من ١٢ طابعا من ٥فلوس إلى دينار واحد بالعملة الجديدة وبأربعة أحجام مختلفة، (صورة نموذج واحد رقم٢).

ثم تتابعت الاصدارات العادية والتذكارية للمناسبات الوطنية والعالمية وكلها رسمت وطبعت باتقان وروعة وبحسب الفن الحديث.

تاريخ طوابع قطر

بدأ مكتب بريد قطر أعماله باستعمال طوابع البحرين منذ شهر أيار/مايو سنة ١٩٥٠، إذ نشاهد تلك الطوابع الموشحة «البحرين» مختومة في الدوحة وأم سعيد ودخان لغاية سنة ١٩٥٧. ثم أصدرت إدارة البريد البريطانية في أول نيسان/إبريل سنة ١٩٥٧، مجموعة من ١٢ طابعاً من طوابع الملكة اليزابت الانكليزية، موشحة (QATAR) والفئة في أسفل الطابع، من فئة نيابيزة واحدة إلى روبية واحدة. وفي التاريخ ذاته أصدرت ثلاثة طوابع من فئة٢ و٥ و١٠ روبيات، (صورة٣)، إرتفعت أثمانها اليوم نسبيا، إنما أعيد طبع هذه الفئات الثلاث بتاريخ ١٨ أيلول/سبتمبر سنة ١٩٥٩ في مطبعة مختلفة أظهرت تغييراً طفيفا بحروفها وكانت كمياتها



٣

٤

٥

محدودة مما جعل ثمنها اليوم يزيد على ٤٠ جنيها إسترلينيا.

وفي أول آب/أغسطس سنة ١٩٥٧ صدرت مجموعة تذكارية من ثلاثة طوابع لمناسبة اليوبيل العالمي للكشاف موشحة على المجموعة الانكليزية للمناسبة ذاتها.

وآخر مجموعة موشحة على طوابع الملكة اليزابت، صدرت سنة ١٩٦٠، مؤلفة من ٧طوابع من٣ إلى ٤٠ نيابيزة تبعتها أول مجموعة تحمل صورة الشيخ أحمد بن علي آل ثاني، مؤلفة من ١١ طابعا من فئة٥ نيابيزة إلى ١٠روبيات، (صورة٤). وكانت هذه آخر مجموعة أصدرتها إدارة البريد البريطانية، إذ تسلمت دائرة بريد قطر الخدمات البريدية بتاريخ ٢٣ أيار/مايو سنة ١٩٦٣.

وفي سنة ١٩٦٤، صدرت مجموعتان تذكاريتان لذكرى وفاة الرئيس الأميركي الراحل

جون كندي ولذكرى الألعاب الأولمبية العالمية، كل منها مؤلفة من خمس فئـات، وكانت كميتهـا محدودة فأصبحت قيمة كل مجموعة منهما يزيد على ١٠ جنيهات إسترلينية.

ثم تتابعت الاصدارات العادية والتذكارية للمناسبات الوطنية والعالمية ليومنا هـذا. وقد طبعت في المطابع الأوروبية الحديثة وبالألـوان الزاهية البراقة، وقد جعلت إحداها لذكرى مؤتمر النقد للخليج، وكانت على شكل دائري ومن ضمن ألوانها الفضي والذهبي، ودائرة داخلية بشكل قطعة نقدية تحمل صورة علم البلاد، (صورة٥).

تاريخ طوابع أبو ظبي.

بدأ البريد في أبو ظبي بـادارة البريـد البـريطاني واستعمـل فيه الطـوابع المختلفـة الموشحة لحسـاب الوكـالة البـريطانيـة لشرق الجزيرة العربية المخصصة للكويت والبحـرين ومسقط، إبتداء من ٣٠ آذار/مارس سنة ١٩٦٣، ولا تميز الطوابع المذكورة إلا بالختم الذي يحمل إسم أبو ظبي وجزيرة داس.

وفي ٣٠ آذار/مارس سنة ١٩٦٤، صدرت أول مجموعة خاصة بـأبو ظبي والتي تحمـل صورة الشيخ شخبـوط بن سلطان، والغـزال العـربي وقصر الشيخ وجمـلين بقرب سـاري البترول، (صورة٦).



٦

أما المجموعة الثانيـة فكانت من ثـلاثة طوابع تحمل كل منها صورة يد مغلفة بالجلد والصقر الذي يستخدمونه للصيد، وقد صدرت بتاريخ ٣٠ آذار/مارس سنة ١٩٦٥.

وبمناسبة تغيير العملة المحلية إلى الفلس والدرهم، فقد وشحت مؤسسة الطباعة والنشر العربية في البحرين، مجموعة الشيخ شخبوط الأولى بالعملة الجديدة، من فئة ٥فلوس إلى درهم واحد، وصدرت للاستعمال بتاريخ أول تشرين الأول/أكتوبر سنة ١٩٦٦.

وفي ٣١ كانون الأول/ديسمبر سنة ١٩٦٦، إنتهت خدمات الادارة البريطانية للبريد. وفي أول كانون الثاني/يناير سنة ١٩٦٧، تسلمت دائرة البريد المحلية خدمات البريد، وأصدرت مجموعة من ١٢ طابعاً من فئة ٥فلوس إلى درهم واحد، تحمـل الأربعة طـوابـع الأولى صـورة العلم، والأربعة طوابع التالية تحمل صورة الأمير زايد ابن سلطان آل نهيان، وكل من الأربعة طوابع الأخيرة تحمل صورة الأمير عن اليمين، والغزال العربي، والصقر، وقصر الأمير على الطـابعين الأخيرين.

ثم تتابعت الاصدارات العادية والتذكارية للمنـاسبات الـوطنية والعـالميـة، ومن ضمنهـا مجموعة من طابعين لذكرى وفاة الزعيم الراحل جمـال عبـد النـاصر، صـدرت سنــة ١٩٧١، ومجموعة من ثلاثة طوابع تحمل صورة قبـة الصخرة المشرفة في القدس.

وبمناسبة اتحاد الامارات العربية صدرت مجموعة سنـة ١٩٧٢ مؤلفة من ١١ طـابعاً، موشحة في أعلى الطابع «دولة الامارات العربية المتحدة» وفي أسفله (UAE)أي (Unite Arab Emirates) وكانت هذه آخر مجموعة خاصة بالبلد.

تاريخ طوابع دبي.

بدأ مكتب بريد دبي أعماله سنة ١٩٠٩ بادارة البريد الهندي، وكان يستعمل الطوابع الهندية كما هي، أي بدون توشيح. ومن شهر تشـرين الأول/أكتـوبـر سنـة ١٩٤٧ وحتى آذار/مارس سنة ١٩٤٨، إنتقل إلى إدارة البريد الباكستاني، وكانت الطوابع الباكستانية تستعمل آنـذاك بدون تـوشيح أيضـا. وأخيراً تسلمت الخدمات البريدية في دبي، الادارة البريطانية للبريد، منذ أول نيسان/إبريل سنة١٩٤٨،وكانت تستعمل طوابع الوكالة البريطانية لشرق الجزيرة العربية، المخصصة للكويت والبحرين ومسقط.

وفي ٧كانون الثاني/ينايـر سنة ١٩٦١، أصدرت الوكالة مجموعة خاصة باسم (Trucial states) أي الامارات المتصالحة، وهي المؤلفة



من: أبو ظبي، دبي، الشارقة مع ملحقتها خورفكان، عجمان مع ملحقتها المنامة، أم القيويين، رأس الخيمة والفجيرة. ولكن هذه المجموعة استعملت في دبي فقط، وهي مؤلفة من ١١ طابعا من فئة ٥نيابيزة إلى ١٠ روبيات، (صورة٧).

وفي ١٤ حزيران/يونيو سنة ١٩٦٣، إنتقلت الخدمات البريدية إلى إدارة البريد المحلية في دبي. وفي ١٥ حزيران/يونيو سنة ١٩٦٣، صدرت ثلاث مجموعات للبريد العادي من فئة نيابيزة واحدة إلى ١٠ روبيات للبريد، وللبريد الجوي من فئة ٢٠ نيابيزة إلى روبية واحدة، وللأجور المستحقة من فئة نيابيزة واحدة إلى ٣٥ نيابيزة، فمجموعة البريد مؤلفة من ١٧ طابعا تحمل صورة أحياء البحر المختلفة وصورة لأربع قلاع قديمة، والفئة الأخيرة تحمل صورة حاكم البلاد الشيخ راشد بن سعيد المكتوم. والمجموعة الجوية مؤلفة من ٨طوابع، أربعة منها تحمل صورة الصقر العربي، والأربعة الأخرى صورة جسر محلي وفوقه نسر طائر. ومجموعة الأجور المستحقة مؤلفة من ٩طوابع تحمل صور لثلاث أصداف بحرية مختلفة، (صورة نموذج واحد ٨).

تاريخ طوابع دولة الامارات العربية المتحدة.

في أول كانون الثاني/يناير سنة ١٩٧٣، أصدرت دولة الامارات العربية المتحدة المؤلفة من سبع إمارات الخليج المعروفة، أول مجموعة خاصة بها تحمل إسم الدولة، مؤلفة من ١٢ طابعا من فئة ٥فلوس إلى ١٠دراهم بالصور التالية:

فئة ٥و١٠ف خريطة جنوب الخليج العربي مع علم الاتحاد، ١٥و٣٥ف الشعار الوطني، ٦٥ف جسر المقتى في أبو ظبي، ٧٥ف منظر عام لخورفكان التابع للشارقة، درهم واحد برج الساعة في دبي، ١¼ درهم قلعة بثنى في الفجيرة، ٢درهم قلعة الفلج في أم القيويين، ٣دراهم خور خوير في رأس الخيمة، ٥دراهم قصر الحاكم في عجمان و١٠ دراهم الشيخ زايد ابن سلطان آل نهيان رئيس دولة الامارات العربية المتحدة (صورة٩).

ثم تتابعت الاصدارات العادية والتذكارية للمناسبات الوطنية والعالمية، بكثير من الدقة والاتقان. ان الامارات الأخرى: الشارقة وملحقتها خورفكان، وعجمان وملحقتها المنامة وأم القيويين ورأس الخيمة والفجيرة. فهذه الامارات قبل دخولها في دولة الامارات العربية المتحدة، كانت قد لزمت طباعة وتسويق طوابعها إلى مؤسسات تجارية شرقية وغربية، فأصدرت العديد من المجموعات لكل منها حتى ١٩٧٢.

إن وضع هذه المجموعات ليس ثابتا حتى الآن، بالرغم من استعمالها في البريد المحلي لكل إمارة آنذاك، وذلك بسبب تنكر الدوائر الرسمية لها في كل من هذه الامارات.

فاتحاد البريد العربي عندما امتنع من ذكرها في مجلده الخاص المصور لطوابع البلاد العربية، عزا امتناعه إلى رغبة الامارات نفسها صاحبة العلاقة.

وفي كل حال، سوف نكتب عنها بكل تفصيل في مناسبة خاصة أخرى، عندما نحصل على تصريحات رسمية من الامارات صاحبة الشأن. ■



نكهة كاملة
مع القليل من القار والنيكوتين

التوصل إلى « النكهة الغنية » جعل سيجارة ميريت عملية اختراق في متعة التدخين

ميريت قد سجلت في الولايات المتحدة الاميركية أعظم نجاح لسيجارة القليل من القار والنيكوتين .

ميريت قد أصبحت في عداد اسرع الاصناف نموا في بلدان اخرى ايضا .

لان ميريت أول سيجارة مصنوعة من التبغ الممتاز المزوج خصيصا ليعطي نكهة كاملة بالنصف فقط من القار والنيكوتين الموجودة في السجاير العادية .

ميريت هي اختراق في متعة التدخين .

نجاحها يتكلم عنها .

اسأل أي شخص يدخن ميريت .

ميريت ذات النكهة الكاملة .. الاولى بمحتوى منخفض من القار والنيكوتين



استجابة لرغبة المجلة في تعريف العرب بتاريخهم، عبر دراسات علمية ومسؤولة، واستجابة لدعوتها الأساتذة والمؤرخين وطلاب الدراسات العليا لنشر موجز عن رسائلهم الجامعية، فقد وصلنا من الدكتور عبد الحليم عويس موجزان، الأول بعنوان «دولة بني حمّاد في الجزائر»، رسالته للماجستير، والثانية بعنوان «ابن حزم الاندلسي مؤرخاً» رسالته للدكتوراه. ونحن في فتحنا هذا الباب نتمنى ان نزيد من اطلاع قرائنا على نتاج باحثينا الشباب مؤملين سد ثغرة في مكتبتنا العربية وفهارسها المعتمدة، لما يفيد الجميع.

دولة بني حماد في الجزائر

د/ عبد الحليم عويس

ماجستير في التاريخ الاسلامي / جامعة القاهرة / كلية دار العلوم سنة ١٩٧٣



كان رحيل المعزّ لدين الله الفاطمي إلى مصر سنة ٣٦١هـ، واستخلافه (بلكين ابن زيرى) الصنهاجي والياً على المغرب الأوسط (الجزائر) وإفريقية (تونس) إيذاناً باستقلال البربر بحكم أنفسهم لأول مرة - في العهد الاسلامي - وإيذانا بسيادة صنهاجة - إحد القبائل البربرية الكبرى - على هذا الجزء الكبير من المغرب العربي، ولم يمض نصف قرن حتى كان أحد أبناء بلكين (حماد بن بلكين ابن زيرى) ينفرد بمعظم أرض الجزائر الحديثة، ويكوّن فيها دولة مستقلة يحكمها هو وأولاده من بعده، عرفت باسم الدولة الحمادية... وقد عاشت هذه الدولة ما يقرب من قرن ونصف القرن، وبرزت، منذ عهد أميرها الخامس الناصر بن علناس بن حماد (٤٥٤ - ٤٨١هـ) كدولة قوية متحضرة ذات علاقات خارجية متعددة، وأنشطة اقتصادية وعمرانية وفكرية واسعة. وقد ساعدها على ذلك سياستها الأقرب إلى الحكمة في مواجهة زحف القبائل العربية (٤٤٢هـ) تلك التي أطلق سيولها الخليفة المستنصر الفاطمي (٤٢٧ - ٤٨٧هـ) فأغرقت بني زيرى في تونس، وكادت تبلغ الجزائر، لولا حكمة الناصر الحمادي، وخلفائه... فكانت آثار الزحف الهلالي على الجزائر أقل بكثير من آثارها على تونس. وقد بقيت دولة الحماديين قوية مرهوبة في المغرب العربي إلى أيام آخر أمرائها «يحي بن العزيز الحمادي» (٥١٥ - ٥٤٧هـ) فكان انصرافه عن شؤون الدولة، وسياسته تجاه أبناء عمومته الزيريين، وسلوكه الشخصي من أبرز أسباب سقوط الدولة على يد عبد المؤمن بن علي الموحدي سنة (٥٤٧هـ). (١١٥٢م). وقد قسمت الدراسة إلى تمهيد وثلاثة أبواب:

وفي التمهيد:

عرضت لصورة العالم الاسلامي خلال عصر بروز الدولة، مركزا على الظواهر الكبرى التي مهدت لتفكك الخلافات الاسلامية الكبرى إلى وحدات سياسية مستقلة ثم تحدثت عن البربر، ومواطن قبائلهم، وخصائصهم. ثم أوجزت المرحلة التاريخية التي مرت بها الجزائر منذ الفتح الاسلامي، إلى أن وصلت الى الفترة التي أتيح للبربر فيها حكم أنفسهم بقيام دولة بني زيرى.

وفي الباب الأول: درست مرحلة تأسيس الدولة وانشقاقها عن دولة بني زيري وقد انقسم هذا الباب إلى فصلين:

الفصل الأول: وفيه درست المرحلة التاريخية التي قدَّم فيها حماد - مؤسس الدولة - خدمات كثيرة لبني زيرى، حتى ظفر بتنازل باديس بن المنصور - الأمير الزيري - عن حكم جزء كبير من أرض الجزائر الحالية. ثم درستُ مرحلة الصراع - بينهما - حين تراجع باديس عن تنازله حتى اعترف المعز بن باديس سنة ٤٠٨هـ باستقلال حماد، داخل إطار بني زيري، على الجزء نفسه - تقريبا - الذي كان باديس قد تنازل عنه.

وفي الفصل الثاني: درستُ الحدود الجغرافية للدولة في مراحلها المختلفة، وربطت ذلك بعواصم الدولة التي مثل كل منها مرحلة تاريخية وجغرافية ذات ملامح خاصة، وهذه العواصم هي: أشير، وقلعة بني حماد، وبجاية. وقد ختمت الباب بتقييم لهذا الدور الأساسي بالنسبة للدولة ومؤسسها «حماد بن بلكين».

أما الباب الثاني: فقد درست فيه «التاريخ السياسي للدولة»، منذ استقل بها حماد، الى حين سقوطها سنة ٥٤٧هـ (١١٥٢م) على يد الموحدين.

وقسمت هذا الباب إلى ثلاثة فصول:

الفصل الأول: وفيه تحدثت عن الأمراء التسعة الذين حكموا الدولة، ضمن بحث مراحل التطور السياسي المختلفة للدولة، بادئا بمرحلة الاستقلال المشوب بالاضطراب، إلى مرحلة الاستقرار النسبي، ثم مرحلة وقوف الدولة على حافة السقوط.

وفي الفصل الثاني: تحدثت عن علاقات الدولة بالدول المعاصرة لها: كالزيريين والفاطميين والزناتيين وبني خراسان والمرابطين والأندلس والمسيحيين في إيطاليا.

وفي الفصل الثالث: درست سقوط الدولة ومعاركها مع الموحدين، واستسلام آخر أمرائها، وعوامل سقوط الدولة.

وفي الباب الثالث: درستُ حضارة الدولة ونظمها، وقد انقسم هذا الباب إلى فصول أربعة:

الفصل الأول: وفيه درست النظام السياسي والاداري والمالي للدولة.

الفصل الثاني: وقد درست فيه الحياة الاقتصادية للمجتمع الحمادي، ومصادر الثروة، والمستوى الاقتصادي للمجتمع والدولة.

الفصل الثالث: وقمت فيه بدراسة خصائص الحياة الاجتماعية للمجتمع الحمادي والظواهر الاجتماعية المختلفة.

الفصل الرابع: وقد أفردت هذا الفصل لدراسة الحياة الثقافية للدولة، فتناولت فيه مكونات الثقافة الحمادية، ونظم التعليم، والمذاهب الفقهية، والنشاط العلمي في مجال العلوم النقلية والعقلية. ثم ختمت هذا الباب بتلخيص لأثر الحماديين في الحضارة الاسلامية والانسانية. ◘

ابن حزم الأندلسي مؤرخاً

د. عبد الحليم عويس

دكتوراه في التاريخ الاسلامي.

جامعة القاهرة

كلية دار العلوم سنة ١٩٧٧

اشرف عليها: د. احمد شلبي

د. ابراهيم العدوي و د. علي الخربوطلي

توطئة:



كان الجانب التاريخي في فكر أبي محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم (٣٨٤ - ٤٥٦هـ) واحداً من جوانب عبقريته الموسوعية والأساسية، التي تعرض للاهمال والاخفاء، بتأثير عدة عوامل أبرزها اشتهاره بالأصول والفقه والملل والنحل، وحدة

أسلوبه في نقد معارضيه، واتجاهه المذهبي الظاهري الذي لم يلق رواجاً في العالم الاسلامي، وفي الأندلس بخاصة.

ومع هذا الإهمال للجانب التاريخي في فكر ابن حزم، فان جمهرة دارسي فكره، فضلا عن تلامذته المباشرين، قد اعترفوا له بالبروز في هذا الجانب، لدرجة أن تلميذه أبا عبد الله الحميدي صاحب جذوة المقتبس، قد اقتبس منه في كتابه السابق اقتباسات توشك أن تطغى على شخصية الحميدي. ولدرجة أن العلامة عبد الرحمن بن خلدون يعتبره أمام النسابين والعلماء، ويعتمد عليه في مواطن كثيرة، سواء في النسب أو غيره من أبواب الدراسة التاريخية.

أما المحدثون فقد اعترف منهم ببروزه في هذا الجانب كثيرون أبرزهم المؤرخ محمد عبد الله عنان الذي اعتبر ابن حزم مؤرخا من «طراز نادر» والدكتور زكريا ابراهيم، والأستاذ عبد السلام هارون، والدكتور شوقي ضيف، والأستاذ سعيد الأفغاني، والدكتور ممدوح حقي، والدكتور احسان عباس... وغيرهم كثيرون بهرهم هذا الجانب في فكر ابن حزم، على الرغم من أنه لم يعرف به، ولم يدرس دراسة كافية.

محتويات الرسالة:

قد عالجت هذه الرسالة الجانب التاريخي عند ابن حزم الأندلسي في ثلاثة أبواب وخاتمة.

- وقد انقسم الباب الأول الى ثلاثة فصول، يتناول الأول منها «قرطبة» في عصر ابن حزم من النواحي السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية، كاشفا عن تطور هذه الأوضاع خلال الربع الأخير من القرن الرابع والنصف الأول من القرن الخامس للهجرة.

- ويتناول الفصل الثاني من هذا الباب

- حياة ابن حزم: أسرته ونشأته، ومولده، والقصر الذي عاش فيه بالزهراء، وتربيته الأولى والنكبات التي تعرض لها عائليا وسياسيا، وشيوخه، والوظائف التي شغلها، ورحلاته، ومعاصريه، وأخلاقه، ووفاته في قريته (منت ليشم) بالغرب الأندلسي.

- أما الفصل الثالث فيعرض لمنهج ابن حزم الفكري متحدثا عن ظاهريته وأسبابها ومجالات تطبيق ابن حزم لها، وجهوده في مجال الفكر الديني، وفي اللغة والأدب والفلسفة كما يقدم هذا الفصل قائمة بكتب ابن حزم، المخطوطة والمطبوعة، أو المفقودة التي صحت نسبتها إليه والمعالم الأساسية المستخلصة من هذا الانتاج.

ويعالج الباب الثاني من هذه الرسالة «الجانب التاريخي عند ابن حزم» وذلك في ثلاثة فصول، يتحدث الأول منها عن بعض قضايا الفكر التاريخي عنده، كمدلول التاريخ، وأقسامه، وفائدته، ومكانته بين العلوم والعوامل المؤثرة في حركة التاريخ كما تستخلص من فكر ابن حزم.

- أما الفصل الثاني فيعالج «منهج البحث التاريخي عند ابن حزم» مستهلاً ذلك بتوطئة عن مصادر ثقافته التاريخية سواء منها ما كان غير مباشر أو مباشرا. ثم يعرج على معالم منهج بحثه التاريخي كتطبيقه «الظاهرية» على التاريخ، واحتكامه الى «العقل» واستحداثه أصول «منهج النقد التاريخي» الذي أخذه عنه ابن خلدون بعد ذلك، «واحتفائه بالاحصاءات والغرائب» وجرأته على اطلاق «الأحكام العامة» ونصيبه من «الموضوعية العلمية».

وينتهي هذا الفصل بالحديث عن مدرسة ابن حزم التاريخية من ناحيتي ملامحها وخطوطها العامة، والتلاميذ الذين نهجوا نهجها بعد ذلك.

ويعالج الفصل الثالث من هذا الباب ما يتصل «باتجاهات البحث التاريخي عند ابن حزم» كجهوده في التراجم والطبقات، والأنساب والسيرة الذاتية، والتاريخ بالطريقة الموضوعية التي يندرج تحتها تاريخه للسيرة النبوية، وعصر الراشدين، والدولتين الأموية والعباسية في المشرق، والتاريخ الأندلسي الى عصره.

ويختتم هذا الباب بالحديث عن «أثر فكر ابن حزم في دولة الموحدين بالمغرب العربي».

أما الباب الثالث - والأخير - فقد ضم أربعة فصول تناول الأول منها آراء ابن حزم في بعض قضايا الفكر السياسي الاسلامي، كرأيه في شروط الحاكم، وواجباته، وامكانية عزله، ورأيه في

الخوارج وفي المفاضلة بين الصحابة وما يترتب على ذلك من قضايا سياسية.

كما تناول الفصل الثاني بعض آرائه في الفكر الاقتصادي، كاشفا بواعث اتجاهاته في هذا المجال واضافاته لهذا الجانب من الحضارة الاسلامية.

وقد تناول الفصل الثالث آراء ابن حزم في بعض قضايا الفكر الاجتماعي فعرض لمعالم رؤيته الاجتماعية وآرائه في التكافل الاجتماعي، وفي المرأة واتجاهاته التربوية.

أما الفصل الرابع فقد عرض لجهود ابن حزم في «الملل والنحل» مبينا دوره في أحياء علم مقارنة الأديان على أصول نقدية، ومنهجه في تناول الأديان، وثنية ويهودية ونصرانية، وكذلك منهجه في تناول قضايا الفرق الاسلامية، من سنة وخوارج ومعتزلة وشيعة أو غيرهم من الفرق التي خرجت عن دائرة الاسلام.

وقد انتهى البحث بخاتمة عن أثر فكر ابن حزم في (الحضارة الاسلامية) سواء في اتجاهات التجديد في الفكر الاسلامي أو في مجموعة المهتمين بابن حزم منذ ظهر وإلى عصرنا هذا.

كما تناولت هذه الخاتمة أثره في الحضارة الانسانية، وذلك من خلال النظريات التي قدمها في المعرفة وفي الحب العذري، وفي النقد التاريخي والعقلي للكتب المقدسة، ورأيه في كروية الأرض، وفي الجزء الذي يتجزأ الى ما لا نهاية.

إضافات الرسالة:

وقد قدمت هذه الرسالة بعض الاضافات الى الفكر الحضاري الاسلامي أبرزها:

إ

عالج البحث ظاهرية ابن حزم وأسبابها التي تتلخص في أنها كانت رد فعل للمذهبية المتعصبة الموغلة في البعد عن الكتاب والسنة. وهذه الظاهرية - كما بين البحث - كانت اتجاها مذهبيا، وليست حركة فكرية ضد الباطنية، كما ذهب الى ذلك البعض.

ثانياً:

كشف هذا البحث عن أن ظاهرية ابن حزم كانت اتجاها فكريا «منهجياً» طبقه ابن حزم على ألوان الحياة الفكرية المختلفة، ومنها اللغة والأدب والفلسفة والملل والنحل والتاريخ. ولم تكن الظاهرية عند ابن حزم قاصرة على مجال الفقه وحده.

ثالثاً:

وقد قدم هذا البحث قائمة بما عرف لابن حزم من كتب ورسائل لعلها أكبر قائمة عرفت حتى اليوم، كما سجل المعالم الكبرى التي تنتظم انتاج ابن حزم العلمي.

رابعاً:

قدم هذا البحث - بعض قضايا الفكر التاريخي عند ابن حزم ومن هذه القضايا مدلول التاريخ عنده وأقسامه، وفائدته، ومكانته بين العلوم، والعوامل المؤثرة في حركة التاريخ كما يراها ابن حزم.

خامساً:

كما قدم هذا البحث معالم المنهج التاريخي عند ابن حزم من تطبيق للظاهرية على التاريخ، ومن اعطاء للعقل دوراً في معالجة القضايا التاريخية، ومن تطبيق لأصول النقد التاريخي على الحقائق، ومن احتفاء بالاحصاءات والغرائب والأحكام القاطعة... كما قوم التزام ابن حزم بالموضوعية في تاريخة.

سادساً:

كشف هذا البحث عن قضية خطيرة، هي أن منهج النقد التاريخي القائم على أساس العقل والمنطق، وهو المنهج الذي عرف به ابن خلدون ، وذاع به صيته، انما سبقه اليه ابن حزم، وأن ابن خلدون قد أخذ عن ابن حزم أبعادا كثيرة من أبعاد منهجه في النقد التاريخي، بل انه أخذ عنه «أمثلته» أيضا. وقد قدم البحث نماذج «في المنهج والأمثلة» للتشابه بين المؤرخين الكبيرين.

سابعاً:

كشف هذا البحث عن معالم مدرسة تاريخية أندلسية ظهرت في عصر الفتنة الأندلسية، وكان من أقطاب هذه المدرسة ابن حزم وابن حيان وابن عبد البر وتبعهم تلاميذتهم: الحميدي وابن بسام وغيرهما.

وكانت هذه المدرسة تؤمن بالأندلسية وطنا، وبالأموية اتجاها سياسيا، وتتخذ من دراستها للتاريخ درعا تنقد به أوضاع الأندلس

المختلة، وتدعو الى اعادة مجد الأندلس.
ثامناً:

قدم هذا البحث جهود ابن حزم في مجال الدراسة التاريخية – لأول مرة – فعرض دراساته في التراجم والطبقات والأنساب والسيرة الذاتية، كما تناول مجالات دراساته في التراجم والطبقات والأنساب والسيرة الذاتية، كما تناول مجالات دراساته التاريخية الموضوعية، سواء في عصر السيرة النبوية، أو عصر الراشدين، أو الشرق الاسلامي الى عصره، أو التاريخ الأندلسي، ولاسيما عصر الفتنة والطوائف.
تاسعاً:

كشف هذا البحث عن أثر فكر ابن حزم في المغرب العربي وذلك في عصر الموحدين.
عاشراً:

قدم هذا البحث بعض آراء ابن حزم في الفكر السياسي الاسلامي، وبخاصة اراءه في الخلافة وما يتصل بها.
حادي عشر:

قدم هذا البحث بعض آراء ابن حزم في الفكر الاقتصادي الاسلامي وكشف عن تجديده في بعض الآراء، وانتماء هذه الآراء – مع تطورها – الى الفكر الاسلامي.
ثاني عشر:

قدم هذا البحث بعض آراء ابن حزم في الفكر الاجتماعي الاسلامي، فكشف عن خطوط عامة تنتظم نظراته الاجتماعية وكشف عن آرائه في التكافل الاجتماعي، وعن مكانة المرأة عنده، وعن آرائه التربوية.
ثالث عشر:

وضع هذا البحث ابن حزم في مكانه من علم مقارنة الأديان، وقدم أبرز جهوده في هذا العلم، سواء في الملل وثنية أو يهودية أو نصرانية، أو في الفرق الاسلامية المختلفة.
رابع عشر:

كشف هذا البحث – لأول مرة – عن تأثير ابن حزم في الحضارة الاسلامية كيفا، وعن طريق تأثيره في العقل الاسلامي ومناهج التجديد، وكما، عن طريق تلامذته والمشتغلين به الذين تتابعوا عبر العصور الى يومنا هذا وأثروا حركة الفكر الاسلامي.
خامس عشر:

وكشف هذا البحث عن أثر ابن حزم في الحضارة الانسانية عن طريق النظريات التي اشتهر بها، وعبرت الى أوروبا، كما أثبت البحث، ومنها نظريته في المعرفة، ونظريته في نقد الكتب المقدسة على أساس الدراسة النقدية والتاريخية المقارنة، ونظريته في الحب العذري التي أثرت في شعر «التروبادور» وغيره، ونظريته في كروية الأرض، وفي الجزء الذي لا يتجزأ أبدا وإلى ما لا نهاية. الى غيرها من نواحي الابداع التي عبرت إلى أوروبا، وظهرت بصماتها في الفكر الأوروبي. ◘



في القيادة...

● عندما ولي الخلافة عمر بن عبد العزيز دعا اليه سالم بن عبد الله ومحمد بن كعب القرظي ورجاء بن حيوَة.
فقال لهم: إني قد ابتليت بهذا البلاء – فعد الخلافة بلاء – فاشيروا عليّ.
فقال له سالم: إن أردت النجاة من عذاب الله فصُم الدنيا وليكن افطارك منها الموت.
وقال محمد بن كعب: إن أردت النجاة من عذاب الله فليكن كبير المؤمنين عندك أباً وأوسطهم عندك أخاً، وأصغرهم عندك ولداً، فوقّر أباك واكرم أخاك وتحنّن على ولدك.
وقال له رجاء: إن أردت النجاة غداً من عذاب الله فاحب للمسلمين ما تحب لنفسك واكره لهم ما تكره لنفسك ثم متّ اذا شئت.

مواعيد رحلات طيران الشرق الاوسط إلى

الخليج

الكويت : يومياً ما عدا السبت الإقلاع الساعة ١٨،٣٠

الظهران : يومياً ما عدا الثلاثاء الإقلاع الساعة ١٨،٢٠

*البحرين : يومياً الإقلاع الساعة ١٧،٥٥

*الدوحة : يومياً الإقلاع الساعة ١٧،٥٥

*دبي : يومياً الإقلاع الساعة ١٨،١٠

*ابوظبي : يومياً الإقلاع الساعة ١٧،٤٠

*مسقط : أيام الاثنين ـ الاربعاء والجمعة الإقلاع الساعة ١٨،١٠

*رأس الخيمة : يومي الثلاثاء والسبت الإقلاع الساعة ١٨،١٠

للاستعلامات والحجز راجعوا وكيلكم للسفر المعتمد لدى «اياتا» أو مكاتب الشركة :

مركز جفينور ت : ٣٦٨٠٠٠ صيدا ت : ٧٢١٤٦٠

مكتب المبيعات في الادارة العامة ت : ٣١٦٣١٦ طرابلس ت : ٦٢٧٢٧٥

أوتيل الكسندر ت : ٣٣٩٩٣٠ بحمدون ت : ٥٦٠٥٠٥

مكاتب الحجز تفتح ليلاً نهاراً ت : ٢٧٤٣٣٠ / ٢٩٢٢٢٠



*بالإشتراك مع طيران الخليج

قلعة الشقيف قلعة صمود وتحدّ

يشهد الجنوب اللبناني منذ سنوات معارك عنيفة مع العدو الصهيوني سببت تهجير قرى بكاملها مثل بلدة الخيام والعيشية وحانين وارنون عدا القرى الأخرى التي تتعرض يومياً للقصف.

كان الجنوب خارجاً عن نطاق جبل لبنان قبل الانتداب الفرنسي قرر أهاليه الانضمام إلى سورية في مؤتمر وادي الحجير الذي انعقد في ٢٤ نيسان سنة ١٩٢٠ ولكن فرنسا ضمته بالقوة لدولة لبنان الكبير في ١٨ أيار ١٩٢٠ وبعد الاحتلال الاسرائيلي لفلسطين ضمت إسرائيل عدة مزارع وقرى لبنانية منها المالكية وهونين وصلحة وابل القمح والمطلة والمنارة عدا الأراضي التي يملكها أهالي القرى الحدودية وأصبحت ضمن الأراضي الاسرائيلية.

ويعرف الجنوب اللبناني بجبل عامل وببلاد بشارة وكانت تقسم زمن الحكومات الاقطاعية الى قسمين: بلاد بشارة الجنوبية وبلاد بشارة الشمالية ويفصل بينهما نهر الليطاني ولا يزال القسم الجنوبي يعرف ببلاد بشارة وكان يتألف من أربع قطاعات: مقاطعة تبنين ومقاطعة هونين ومقاطعة قانا ومقاطعة معركة، أما في القسم الشمالي فلا تزال تعرف كل مقاطعة باسمها الخاص وهي: الشقيف والشومر والتفاح وجزين وتبلغ مساحة جبل عامل ثلاثة آلاف كيلو متر مربع يحده شمالا نهر الأولي وجنوبا الجليل الأعلى في فلسطين المحتلة وغربا البحر المتوسط وشرقا البقاع الغربي وجبل حرمون وأقرب نقطة بين نهر الليطاني والحدود الفلسطينية المحتلة هي عند سفح الجبل الذي تقع عليه قلعة الشقيف وهناك يغير إتجاهه نحو الغرب.

موقعهـــا:



تقع قلعة الشقيف على أعلى مرتفع في بلاد الشقيف، إذ ترتفع نحو ٧٠٠م تقريبا عن سطح البحر وهي تبعد عن بلدة النبطية قرابة ٧كلم في الشرق الجنوبي منها. يصعد إليها عبر طريق معبدة، من قرية أرنون المسماة باسمها، شقتها الدولة من بلدة كفرتبنيت حتى القلعة في عهد وزارة رياض الصلح. تطل من الشرق على قلعة بانياس وسهل مرجعيون وبحيرة طبريا وجبل حرمون وأعالي الجولان ومن الناحية الشمالية تطل على جبل الريحان وقلعة نيحا أو شقيف تيرون واقليم التفاح وقلعة جبيع وبلاد الشوف ومن الناحية الغربية على منطقة النبطية واقليم الشومر ومن الجنوب والجنوب الغربي على قلاع تبنين وهونين ومارون وبرج قلوية.

أهميتها التاريخية:

إن قلعة الشقيف هي اختزال بليغ لتاريخ المنطقة بل هي مكثّف للتاريخ العربي كله ويذكر فيليب حتي عن تاريخ القلعة: «أقيمت عندما حرص الصليبيون على أن يسيطروا على المضايق الاستراتيجية التي تربط الشاطىء الذي كان في حوزتهم بالمناطق الداخلية وأقاموا إلى جانب القلاع والحصون الساحلية سلسلة أخرى من القلاع على المرتفعات أو عند سفوح الجبال الغربية المشرفة على الساحل ولا شك أن أروعها كان قلعة الشقيف[١]». وهي بمثابة حارس يقوم على حراسة الممر الجنوبي الذي يربط الشاطىء صيدا وصور بالبقاع فدمشق كما تقوم قلعة حصن الأكراد على حراسة الممر الشمالي الذي يربط شاطىء طرابلس بسهول حمص وحماه. وأكثر الحصون والقلاع التي أقامها الصليبيون لم تكن سوى ترميمات أو إعادة بناء حصون وقلاع أقامها من سبقهم من الدول المتعاقبة وهذه القلاع ذاتها رممها المماليك وأعادوا بناءها في عصر تال، ذلك بأن مواقعها الاستراتيجية الممتازة تسترعي انتباه العسكريين [٢] ولا تزال حتى الآن ومنها قلعة الشقيف وخاصة في عصرنا الحاضر والظروف الصعبة التي يمر بها الجنوب، ولا بد لمن يمتلك الساحل الممتد من عكا إلى بيروت جنوباً وشمالاً وما يحاذيهما من الأعمال مضطر بحكم الدفاع عن بيضتها إلى امتلاك تلك القلعة المنيعة وتحصينها[٣].

تاريخها:

إن الملك فولك هو الذي بنى قلعة الشقيف عام ١١٣٥م على موقع كان الرومان قد أقاموا عليه حصنا وكانت تابعة لأعمال وادي التيم قبل الاحتلال الصليبي لها وأصبحت، بعد الاستيلاء الصليبي تابعة لأعمال صيدا، قاعدة جبل عامل عام ١١٧٢م/٥٨٦هـ وأعجزت هذه القلعة بما اجتمع فيها من خصائص التحصين الطبيعي والعمراني صلاح الدين وبقيت ممتنعة عليه عاما ولم تجنح إلى التسليم إلا بعد أن فقدت حاميتها الازواد والعتاد عام ٥٨٥هـ/١١٨٩م



وأعيدت القلعة للصليبيين باتفاق عقده معهم اسماعيل ملك دمشق بتسليمها لهم على أن يكونوا ظهيراً له على ابن أخيه الصالح أيوب سنة ٦٣٨هـ. أما في العهدين الصلاحي والصليبي فكانت تابعة لصيدا وفي عام ١٢٦٠م اشتراها الفرسان الهيكليون مع صيدا من صاحبها جوليان وبقيت بيد الفرسان الهيكليين إلى عام ١٢٦٨م/٦٦٧هـ وهو العام الذي استولى فيه عليها الظاهر بيبرس فكان أول من جعلها دار نيابة وبنى فيها جامعاً في أعلاها تهدم في القصف الاسرائيلي الذي تعرضت له في ١٩ آب ١٩٨٠. وبنى حماما خارج القلعة من الناحية الغربيةوبرجا وبقيت حتى سنة ١٤٠٠م/٨٠٣هـ ملجأ للهاربين[٤]. وفي عهد المماليك كانت تابعة لصفد مع قلاع تبنين وهونين ومدينة صور وكان الزعماء العامليون في أكثر الأوقات مؤيدين لنائب صفد في السلم والحرب.

روى الرحالة الانكليزي جورج ساندس في السنة ١٦١٠ ميلادية أن الأمير فخر الدين أخذها خدعة من صاحبها وحصنها تحصيناً قويا وجعلها مخبأ لخزنته[٥]. حاصرها الحافظ وقتا طويلا فلم يستطع الاستيلاء عليها فكانت أمنع من عقاب الجو فتبعت في عهد فخر الدين لأعمال صيدا وبيروت وجعلت مركز محافظة، فكانت مرة في محافظة حسين الطويل الذي

أرسل ناسا من السكمان ومن خدمه الذين يخدمونه لينهبوا من بلاد صيدا قرايا وينهبوا العرب المعتادين بالنزول في الحولة(٦)، ومرة أخرى في اقطاع الشيخ يزبك العماد وثالثة هي وشقيف تيرون تحت محافظة قائد خمسين سكبانيا من قبل الدولة العثمانية وتوفي فيها الشيخ جنبلاط جد العائلة الجنبلاطية في لبنان الذي أرسله الأمير فخر الدين للمحافظة عليها مع أربعين من الفرسان(٧)، وفي سنة ١٦٦٠م كانت تابعة لولاية صيدا التي كانت تضم جانبا كبيراًمن بلاد الشام البحرية بيروت وصيدا وصور وعكا وحيفا الى جانب المقاطعات لأمير جبل الدروز ومقاطعات جبل عامل وبلاد صفد والجليل وقيصرية في الوسط(٨).

وكان أصحاب القلاع والحصون كالذين منهم تولوا على قلاع الصليبيين في سوريا وأخذوها منهم من بعدهم وفرضوا من هذه القلاع سلطتهم على ما جاورها من البلاد(٩)، ولم يسمح المقاطعجية للباشا بالتدخل في شؤونهم الداخلية وإلا تمردوا في حصونهم وجبالهم التي كانوا يعيشون فيها بحرّية في ظل قوانين اقطاعية وكان مقاطعجية جبل عامل يرجعون بأمورهم الى شيخ مشايخ المتاولة ومنذ ما كانت تتسع سلطة الشيخ ظاهر العمر الزيداني وأعوانه مشايخ جبل عامل(١٠) وفي سنة ١١٦٩هـ في شهر رمضان ضربت بلاد الشقيف ومسك الشيخ عيسى فارس في قلعة الشقيف(١١) وهو من الأمراء الاقطاعيين العامليين ومن الأسرة الصعبية. استولى على القلعة الجزار سنة ١٧٨٠م بعدما هزم امير بلاد بشارة الشيخ ناصيف النصار وكان في القلعة الشيخ حيدر الفارس وبمقتل ناصيف النصار في معركة يارون في الجنوب انتهت الحكومة الاقطاعية الأولى والحكومة الاقطاعية الثانية بدأت من سنة ١٨٠٤م حتى ١٨٣٢ إذ ضم ابراهيم باشا البلاد إلى الأمير بشير الشهابي، وأما الحكومة الاقطاعية الثالثة فقد بدأت سنة ١٨٤١م حتى سنة ١٨٦٥ ومعها زال الحكم الاقطاعي عن جبل عامل(١٢)، وفي عهد الأمراء العامليين في القرن الثامن عشر كانت قاعدة الاتحاد العاملي الاقطاعي المؤلف من تبنين وهونين وساحل معركة وساحل قانا ومرجعيون والشقيف وجباع الحلاوه واقليم الشومر وحاكم الاتحاد من آل الصغير، زارها في عهد الجزار فولته الفرنسي وكان من زوارها السائح كيران في النصف الأول من القرن التاسع عشر وفي عهد الانتداب الفرنسي كانت المركز الأساسي لعصابة أدهم جنجر الذي كان ينتمي الى عائلة الدرويش الاقطاعية المعروفة في تاريخ الجنوب هذه العائلة من الأسر الصعبية التي منها آل الفضل في النبطية وكانت عصابته تضم العشرات من الرجال وميدان عملها في منطقة الشقيف(١٣) وقد نظفتها مصلحة النافعة في أوائل عهد الاستقلال وأصلحتها بعض الاصلاح من الجهة الجنوبية وأصبحت مقصدا للزوار والسائحين وأثناء الحرب التي دارت رحاها في الجنوب في السنوات الأربعة الأخيرة لم تسلم من قصف الطيران وخاصة الـ أف ١٥ والـ أف ١٦ في آذار ١٩٧٨ و١٩ آب ١٩٨٠ عدا عن المدفعية الثقيلة والصواريخ من أثر ذلك تهدم الجزء العلوي وبعض الجدران في الجبهة الغربية.

منعتها الطبيعية والعمرانية:

قلعة الشقيف ذلك الحصن المنيع (Beaufort) أو الحصن الجميل وأرنون التي تنسب اليها القلعة معناها الجرذون وهي تقع على سفح الجبل الذي تقع عليه القلعة، انها مبنية على صخر في الجبل وضع أساسها عليه حفر فيه أمكنة كثيرة وبنيت حيطانها فوق حيطان تلك الأمكنة فمكان القلعة محفور كله في الصخر والقول بأن لها طريقا الى النهر من شرقيها في نفق تحت الأرض ليس بصحيح. نعم لها باب صغير في تلك الجهة يسمى باب السر(١٤) وباب السر موجود في الجهة الشمالية الشرقية وليس في الجهة الشرقية كما قال العلامة الأمين في خططه وأما النفق في الجهة الشرقية الذي يصل إلى نهر الليطاني وينكره العلامة الأمين والشيخ سليمان ظاهر في تاريخ قلعة الشقيف أنه موجود فعلا. وحدثني والدي أنه مشى فيه أكثر من مئة متر ويؤكده أكثر سكان القرى المجاورة (يحمر وأرنون) مدخلها الأساسي من الجنوب وشكلها

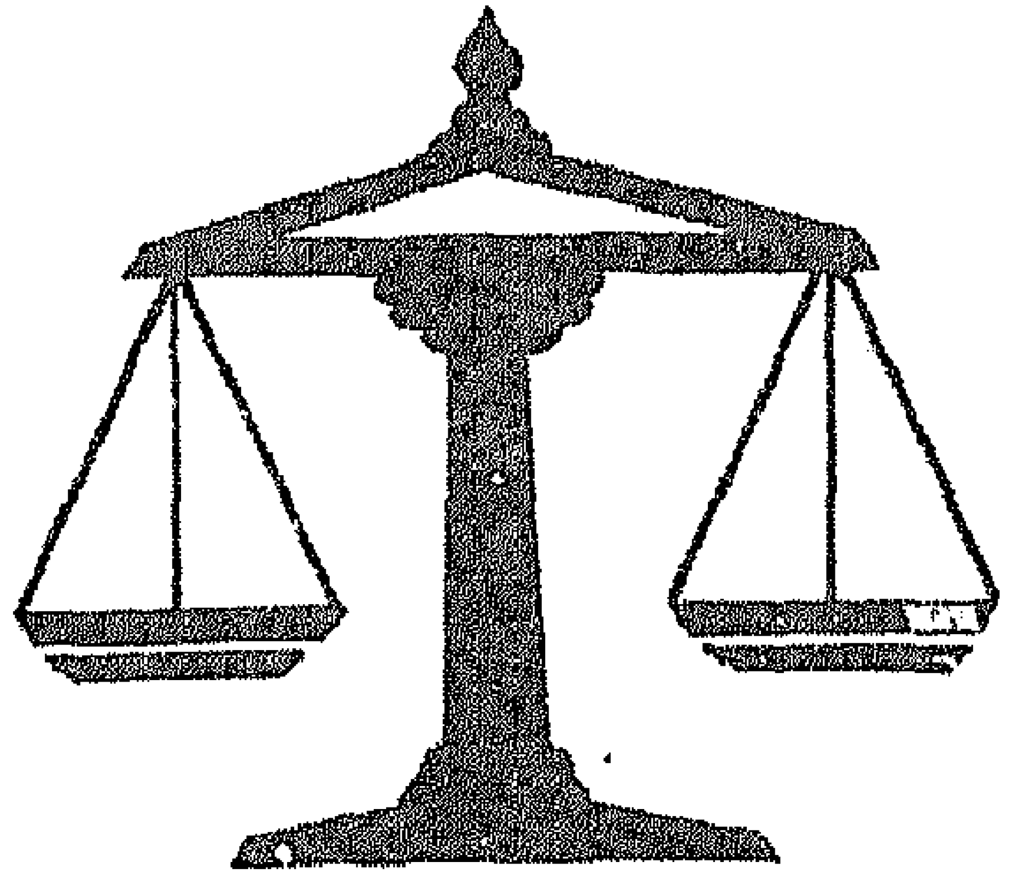
مثلث الزوايا وقياسها ١٦٠م طولا و١٠٠ عرضا تقريبا ويستطيع المرء الصعود اليها من الناحية الغربية ويحميها وادي نهر الليطاني الشديد الانحدار على مهوى سحيق يسمى المزحلق وفي الناحية الجنوبية منها يوجد آثار قرية دارسة تعود الى العهد الصليبي لأن الآبار المنحوتة في الصخر قرب هذه القرية تشبه الآبار الموجودة في الجهة الغربية من القلعة ويوجد جنوبي هذه القرية معصرتا عنب وشرقي القرية برج الظاهرية التابع للقلعة ويحيط بالقلعة خندق يبلغ عرضه نحو عشرين مترا وداخل هذا الخندق يوجد آثار لتجميع المياه والظاهر أن الصليبيين بنوا أكثر الجهة الشرقية منها ويرى في الوسط كنيسة لاتينية ذات سقف مؤلف من قناطر متقاطعة وبابها الصغير يدخل منه إلى الدار الداخلية وهناك آثار أبنية يظن أنها كانت اصطبلات أقامها الصليبيون[١٥] وهي تنقسم الى قسمين قسم منخفض يحده من الجهة الشرقية عقاب الليطاني وهي بعيدة المهوى صعبة المرتقى وقسم مرتفع مبني على قمة الصخر الملساء العليا ولا تزال أبراج من القديم تميل عمودياً الى الأودية المحدقة بها وفي القلعة أبهاء وحوانيت وغرف متلاصقة يفصل بينها ممر مسقوف بعقود والقسم المرتفع الممتد الى الجهة الغربية يظهر منه من الجهة الجنوبية بقايا برجين جميلين مستديرين والجهة الغربية عبارة عن جدار عال متناه في الغلظ ركائزه السفلى قائمة على الصخر منضدة من حجارة ضخمة غالبها منحوت أما أعاليها أنها فحديثة البناء وفيها درج منحوت في الصخر يصل بعضها ببعض ونحت في احجارها الكبيرة صورة مظلة وقبعة وعلى الباب العلوي من الناحية الجنوبية صورة طائر وفي الجهة الجنوبية خارج القلعة يوجد بقعة فسيحة من الأرض يظن أنها كانت ميدانا للعساكر وفي الجهة الشمالية خارجها يوجد بركة كبيرة جيدة البناء.

لقد اعتمد الصليبيون على أسلوب دفاعي يحفظ للقلعة مكانتها ببناء عدة أبراج كانت تدق ناقوس الخطر فيما لو تحرك الأعداء لمهاجمتها فبنوا بشكل مثلث برجا في سهل الميدنة يسمى برج الميدنة وبرجا في كفرصير، وهذان البرجان يشكلان قاعدة المثلث وبرجا بالقرب من قرية كفروه وهو قمة المثلث بحيث تكون قلعة الشقيف مواجهة لهذه الأبراج وكل تحرك معاد يحمل الأبراج على التحرك وإعطاء الاشارة اللازمة للقلعة بالتحرك للدفاع عن نفسها ولمهاجمة الأعداء[١٦] أن موقعها وتحصينها يجعلاها من أهم القلاع والحصون في لبنان ومن أدق المواقع العسكرية خطورة. ◘

هوامش البحث:

(١) مجلة العربي الكويتية - العدد ٢٤٥ نيسان ١٩٧٩، ص٧٣.
(٢) للبحث عن تاريخنا في لبنان - علي الزين - طبعة أولى ١٩٧٣ - ص١٨٤.
(٣) تاريخ قلعة الشقيف - سليمان ظاهر المكتبة العصرية - صيدا وبيروت، ص١٣.
(٤) تاريخ قلعة الشقيف (ص٣٨ - ٣٩ - ٤١).
(٥) للبحث عن تاريخنا في لبنان، ص٢٠٧، هامش رقم ٣، وص٢٢٩.
(٦) المصدر نفسه، ص٢٥٩.
(٧) خطط جبل عامل، السيد محسن الأمين، الجزء الاول، الطبعة الأولى ١٩٦١، ص٢٤٧.
(٨) مجلة تاريخ العرب والعالم العدد ١٧، آذار ١٩٨٠، ص٤٣.
(٩) مجلة تاريخ العرب والعالم، العدد ١٥، كانون الثاني ١٩٨٠، ص٢٧.
(١٠) مجلة تاريخ العرب والعالم، العدد ١٧، ص٤٤.
(١١) للبحث عن تاريخنا في لبنان، ص٤٨٢، عن يوميات الركيني.
(١٢) مجلة الفكر العربي المعاصر، العدد الثالث، تموز ١٩٨٠، ص١٠٣.
(١٣) مؤتمر وادي الحجير وآثاره، اعداد منذر جابر، رسالة لم تنشر، أعدت لنيل شهادة الكفاءة في التاريخ، بيروت ١٩٧٣، ص٢٥.
(١٤) خطط جبل عامل، ص٢٤٦.
(١٥) تاريخ قلعة الشقيف، ص١٥.
(١٦) الآثار الصليبية في جبل عامل، إعداد رضا السيد حسن، دراسة أعدت لنيل شهادة الكفاءة ١٩٧٨، بيروت ص٧٣.

النظام القضائي في الأندلس - نشوؤه



القضاء لغة إنقطاع الشيء وتمامه. يقال «قضى الحاكم» إذا فصل في الحكم، و«قضى دينه» أي قطع ما لغريمه قِبَلهُ بالاداء؛ و«قضيت الشيء» احكمت عملهُ؛ ومنه قوله تعالى «إذا قضى أمراً» أي أحكمه وأنفذهُ.

أما القضاء اصطلاحاً، فهو منصب الفصل بين الناس في الخصومات حسماً للتداعي وقطعاً للنزاع.

إن الاهتمام بتحقيق العدالة ورفع الحيف والظلم هو الأساس الذي قام عليه القضاء عند قديم الأمم وحديثها، والعرب كغيرهم من الأمم عرفوا القضاء وأصوله، وكان لطبيعتهم التي أثرت فيها البيئة الصحراوية والتي غرست في نفوسهم الميل إلى الحرية والإنطلاق وعدم قبول الظلم أثر في ذلك فعلى الرغم من عدم وجود سلطة تشريعية وقضائية رسمية للعرب قبل الإسلام تسن لهم القوانين وتعمل على تطبيقها، إلا إنه كانت هناك الاعراف والتقاليد التي يتمسك بها العربي ولا يستطيع الخروج عليها، وكان من جملة هذه الأعراف الاحتكام عند قيام الخصومات إلى العرافينَ والكهان والأشخاص الذين أعترفَ لهم برجاحة العقل والحكمة. وكانت أحكام هؤلاء القضاة غير ملزمة التنفيذ إلا بالقدر الذي يلتزم المتخاصمون بتنفيذ الحكم طواعية، وهذا هو الأغلب.

وهكذا وجدت نواة القضاء عند العرب قبل الإسلام، فكان ان جاء الاسلام عميقاً فرسخ مبادىء المساواة واشاعة العدل وإحقاق الحق ونصرة المظلوم. فكان الرسول صلى الله عليه وسلم أول قاض حكم بين الناس وكانت أحكامه نافذة بحكم الشريعة الإسلامية. ولما انتشر الإسلام وتوسعت رقعة الدولة الإسلامية شهد القضاء تطوراً سريعاً وملموساً كبقية الأنظمة السياسية والإدارية الأخرى، مما يدل على شيئين هامين: أولهما تطور وتعقد المجتمع الإسلامي مما أدى بالضرورة إلى نمو مؤسساته ومرافقه المختلفة ومنها القضاء، وثانيهما قدرة العقل العربي على الابداع ومواجهة التحديات الحضارية التي جابهت المجتمع الإسلامي ووضع الحلول لكل مشكلة، لهذا نرى توسع مهمة القضاء وتعدد وظائفه، بحسب الظرف الزماني والمكاني ابتداء من عهد الرسول (ص) وانتهاء بالفترات الإسلامية المختلفة.

أما في الأندلس التي انتقل إليها العرب بعد الفتح سنة ٩٢هـ ٧١١م/ونقلوا معهم نظمهم السياسية والإدارية التي سرعان ما نمت وتوسعت وتعقدت، وأخذت صبغة المجتمع الجديد، فإن النظام القضائي كان له مركز ممتاز وأهمية خاصة. فلم يبلغ القضاء من علو المكانة في بلد مثلما بلغهُ في الأندلس، وهذا راجع إلى المكانة الممتازة التي احتلّها رجال الدين من علماء وفقهاء وقضاة في نفسية المجتمع الأندلسي مما مهد لهؤلاء التأثير في الأحداث العامة في المجتمع ومنها السياسة، وفي التاريخ الأندلسي أحداث كثيرة لعب فيها الفقهاء والقضاة دوراً واسعاً وكبيراً كما حصل عند قيام ثورة الربض سنة (٢٠٢هـ/٨١٧م) ضد الحكم بن هشام الربضي والتي كانت بزعامة وتحريض الفقهاء. وفي زمن الخلافة كان هناك ثلاث شخصيات لا يقطع برأي في الشؤون المهمة دون استشارتها وهذه الشخصيات هي قائد الجيش في مدينة سرقسطة حاضرة الثغر الأعلى وذلك لأهمية موقعها باعتبارها ثغر الأندلس ومعقلها الأعظم؛ وقاضي

قرطبة حاضرة الخلافة ومركز العلماء، وذلك لأن الذي يرتفع إلى هذه الرتبة كان لا بد أن تتوافر فيه صفات الرقة وصفاء النفس ورسوخ المعارف والحكمة، وثالث الشخصيات قائد اسطول مدينة المرية لأن هذه المدينة كانت تضم دار الصناعة الرئيسية في الأندلس.

كان الأمير أو الخليفة في الأندلس هو الرئيس الأعلى للقضاء لتعلق هذه الوظيفة بالدين، كان هذا اسمياً، ولكن فعلياً كان الأمير أو الخليفة يعين قاضياً للقضاة كان يطلق عليه في بداية الفتح العربي للأندلس اسم قاضي الجند وهذا اللقب كان يطلق بشكل خاص على قاضي مدينة قرطبة على اعتبار ان المسلمين الذين فتحوا الأندلس يعتبرون جنداً مجاهدين، وكثيراً ما كان قاضي قرطبة ينوب عن الأمير في الحكم والقضاء في العاصمة عند خروجه للجهاد ثم أخذ يطلق على قاضي مدينة قرطبة قاضي القضاة أو قاضي الجماعة الذي كانت سلطته تخص مدينة قرطبة وحدها وينوب عنه قضاة آخرين في كل مدينة أندلسية يطلق على الواحد منهم «مُسددُ خاصة» وكثيراً ما كان يختار قاضي القضاة في قرطبة من أحد قضاة المدن الأندلسية.

وهذا يختلف عن مركز قاضي القضاة في الدولة العباسية الذي كانت سلطاته أوسع وأشمل، فهو رئيس الهيئة العليا للقضاء، ويكون بمثابة وزير العدل المسؤول عن القضاء والقضاة في الدولة الإسلامية برمتها.

وضع فقهاء المالكية وهو المذهب السائد في الأندلس شروطاً قاسية فيمن يتولى القضاء منها الإسلام والبلوغ وسلامة العقل وحواس السمع والبصر واللسان إضافة إلى النزاهة والاستعانة والتبحر في العلم والفقه، كما اشترط بعضهم أن يكون عربياً خالصاً، ولكن لم يطبق هذا الشرط في الواقع، فطالما تقلد القضاء رجال من الموالي والمولدين والبربر مثل القاضي يحيى بن يحيى الليثي الذي كان من أصل بربري وغيره كثير.

وكما يشار إلى الخليفة عمر بن الخطاب بأنه أول من سنَّ للقضاة دستوراً يسيرون على هديه في الأحكام وذلك عندما أرسل كتابه إلى أبي موسى الأشعري قاضيه على البصرة، والذي وضع له فيه القواعد التي اصبحت فيما بعد دستوراً عاماً للقضاة يستنبطون منه الأحكام، كذلك يشار في الأندلس إلى كتاب القاضي مهدي ابن مسلم على انه أصل من الأصول للعهد في القضاء. كان مهدي بن مسلم قد تولى القضاء في مدينة قرطبة في زمن والي الأندلس عقبه بن الحجاج السلولي (١١٦ - ١٢١ أو ١٢٣هـ) الذي يصفه الخشبي «بأنه صاحب جهاد ورباط وذا نجدة وبأس» وكان عقبة قد عرف ان مهدي ابن مسلم من أهل العلم والدين والورع فعمل على استخلافه في قرطبة وتوليته القضاء فيها. ولما كان مهدي بن مسلم مشهوراً بالبلاغة والبيان فقد طلب عقبة من كتابه عهد التولية بنفسه على لسان عقبة. وقد أجاد مهدي في كتابه ذلك العهد، فلم يترك فيه شاردة ولا واردة في واجبات القاضي إلا وذكرها، لهذا أصبح كتابه هذا بمثابة دستور للقضاة يرجع إليه الولاة والخلفاء فيما بعد عند توليتهم لقضاتهم.

وهذا الكتاب في مضمونه يشابه الأصول الواردة في نص كتاب عمر بن الخطاب الموجه إلى قاضيه أبي موسى الأشعري الذي أصبح دستوراً للقضاء بشكل عام كما أشرنا.

قرر مهدي بن مسلم في كتابه قواعد قضائية عديدة منها:

١ - وجوب مراعاة القاضي خوف الله وتقواه وايثار طاعته في السر والقلق.

٢ - أن يتخذ القاضي كتاب الله وسنة نبيه دستوراً ونبراساً له في كل قضيه يتعرض لها.

٣ - إن سبب اختيار القاضي لمهمة القضاء، التي تعد من أشرف المهمات هو النظر في مصالح الناس ورعاية حقوقهم، لذلك وجب عليه محاسبة نفسه في يومه وغده، وأن لا يطلب الثواب إلا من عند الله.

٤ - وعلى القاضي أن يواسي بين الخصوم بنظره واستفهامه ولطفه ولحظه واستماعه، وأن يفهم من كل واحد حجته وما يدلي به، وخاصة ممن لا يستطيع التعبير عن حجته بلغة واضحة، فمن واجب القاضي التحفظ والتيقظ لمعرفة الحق، ولا يَغرنهُ الكلام المنمق، فقد يكون بعض الخصوم ابلغ في منطقهِ واسرع في بلوغ المطلب والطف حيلة واحضر جواباً مما

يؤدي إلى كسبه قضية لا حق له فيها.

٥ - وكما يجب على القاضي التدقق في إختيار معاونيه ومشاوريه من أهل العلم والدين والاستقامة والأمانة لأن هؤلاء يكونون منسوبين إليه بأفعالهم.

٦ - وعلى القاضي أن يديم الجلوس والقصود لمن استرعاة الله أمره وقلده شأنه واسند الحكم له عليه، وعلى هذا فيجب أن يكون صبوراً جلداً متحملاً لعثرات الناس.

٧ - وعلى القاضي سماع شهادة الشهود على حقها وصدقها ويستقصيها حتى لأن يبقى عليه بشيء منها. ويكثر البحث والفحص، ولا يتعجل بإمضاء حكم حتى يصل إلى الحق والصواب.

٨ - وعلى القاضي زيادة المشورة من معاونيه ومن أهل العلم والدين والورع.

وبهذا أصبح كتاب مهدي بن مسلم الأساس الذي سار عليه القضاة في الأندلس في الفترات التالية مع إدخال الإضافات والتعديلات تبعاً لما يستجد من الحاجات في كل عصر من العصور.

وظهر قضاة أفذاذ لعل من أشهرهم قاضي القضاة في عهد الخليفة الناصر (٣٠٠ - ٣٥٠هـ) المنذر بن سعيد البلوطي.

◘

محمد عبد العزيز عثمان
مدرس ثانوية الحكمة

المراجع والمصادر:

١ - تاريخ قضاة الأندلس، المسمى «المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتى». أبو الحسن بن عبد الله بن الحسن النباهي المالقي - بيروت - بدون تاريخ.
٢ - قضاة قرطبة - الخشني - أبي عبد الله محمد بن حارث بن أسد القيرواني - القاهرة ١٩٦٦.
٣ - نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب - المقري أحمد بن محمد - تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد - بيروت بدون تاريخ.
٤ - النظم الإسلامية. د. حسن إبراهيم حسن ود. علي إبراهيم حسن - ط ٣ - القاهرة ١٩٦٢.
٥ - النظم السياسية في الأندلس - خطة القضاء - د. عبد العزيز سالم - دائرة معارف الشعب - كتاب الشعب العدد ٦٤ - القاهرة ١٩٥٩.
٦ - تاريخ مدينة المرية الإسلامية - قاعدة اسطول الأندلس - د. السيد عبد العزيز سالم - بيروت ١٩٦٩.
٧ - القضاء عند العرب - خير الله طلفاح - بغداد، ١٩٧٢.
٨ - فجر الأندلس - حسين مؤنس - القاهرة ١٩٥٩.

دمشق



عمد الأقدمون الذين سكنوا دمشق أن يحصنوها من عوارض الزمن ومن رجال البدو وسكان الجبال الغزاة ومن القوات البشرية. ومن أجل هذا جعلوا لدمشق لها أبواباً لتكون لها الحماية الواقية ومن داخل هذه الأبواب الأسواق التجارية وكافة متطلبات الحياة. هذا وقد جعلوا لها ثمانية أبواب - أربعة منها من جهة الشمال، وباب من الجنوب، وباب من الشرق، إلى جانب أبواب أخرى صغيرة، وقد زال معظم هذه الأبواب. ويقال أن هذه الأبواب القديمة صورت عليها الكواكب، فعلق على الباب الشرقي صورة الشمس، وعلى باب توما صورة الزهرة، وعلى باب الجابية صورة المشتري، وعلى باب الصغير صورة المريخ، وعلى باب كيسان صورة زحل، وعلى باب الجينيق صورة القمر. وإن حكماء اليونان قد وضعو على



الباب الشرقي - دمشق

باب الجابية صورة انسان مطرق الرأس كالمفكر، ومن أعماله أنه إذا دخل عدو يريد بدمشق أو لأهلها سوءا يصرخ هذا الانسان فيعلم به خدمة الباب فيقتلوه. وفي عهد السلطان نور الدين بنيت منائر على الأبواب القديمة، وجعل لكل باب باشورة (أي سوق) فيها الحوانيت مملوءة بالبضائع فاذا حصنت المدينة وقفلت الأبواب يبقى داخل كل باب مدينة بداخله من مساجد وحماميم وغيره.

أسماء أبواب دمشق التاريخية:

الباب الشرقي: يقع في الجهة الشرقية من دمشق وسمي بذلك نسبة لموقعه، وهو مبني في أوائل القرن الثالث الروماني في زمن (سبتيم سيفرو كاراكلا). دخل منه خالد بن الوليد عندما فتح دمشق ودخل منه أيضا عبد الله ابن علي العباسي يوم سقوط الأمويين، كما دخل منه نور الدين لما سقطت دمشق بيده. وقد جدده نور الدين في سنة ٥٥٩هـ - ١١٦٤م. وكان أمام هذا الباب هيكل روماني بقي حتى سنة ٦٠٢هـ. ثم طمست اثاره، ووراء هذا الباب مسجد صغير وفوقه مئذنة فازيل المسجد لتوسعة الطريق وبقية المئذنة حتى هذا التاريخ. ويبلغ ارتفاع الباب الصغير ٢٩٢ سنتيم وعرضه ٢٨٨سم.

باب توما: يقع في الجهة الشمالية من دمشق القديم قيل أنه ينتسب الى حكيم من حكماء الروم اسمه (توما) هذا كما ورد في بعض الكتب العربية (توماء) وقيل أنه ينسب الى قرية كانت ظاهر دمشق اسمها توما)، وكانت عليه كنيسة حولت الى مسجد. وأن الباب هو باب روماني ارتفاعه ٤٣٨ سم وعرضه ٣٢٢ سم. قيل أن عمرو بن العاص نزل عليه يوم فتح دمشق، وقيل يزيد بن أبي سفيان، وقد جدد بناءه الملك الناصر داوود سنة ٦٢٥هـ - ١٢٢٨م. ثم رممه تنكز سنة ٣٧٤هـ في أيام السلطان محمد قلاوون. كان بجانبه مسجد وفوقه مئذنة فازيل المسجد لتوسيع الطريق. ثم هدمت المئذنة.

باب السلام: يقع في الجبهة الشمالية من دمشق. ارتفاعه ٤١٤ سم وعرضه ٢٩٨سم وكان يدعى (باب السلامة) وسمي بذلك تفاؤلا لأن القتال من ناحيته كان غير ممكن لما تحيط به من أشجار وأنهار، وقيل سمي بذلك لأنه داخلي من دمشق ولقب بالسلام لأنهم يدخلون منه للسلام على الخلفاء الأمويين كما سمي أيضا (باب الشريف) لأن أحدثه نور الدين الزنكي وجدده الملك الصالح أيوب بن الملك الكامل سنة ٦٤١هـ.

وهو يعد أجمل أبواب مدينة دمشق.

الباب الصغير: يقع في الجهة الجنوبية من دمشق وسمي (باب الشاغور) لأنه أصغر أبواب دمشق وهو روماني قديم وقد نزل عليه يزيد بن أبي سفيان في حصار دمشق، كما دخل منه تيمورنك سنة ٨٠٢هـ وقام بتجديده أيضا نور الدين الزنكي، ثم الملك المعظم عيسى الأيوبي سنة ٦٢٣هـ ١٢٢٦م. وارتفاعه ٣٧٣ سم وعرضه ٢٥٠ سم. وقيل أنه كان يسمى (بباب الجابية الصغير) فحذفت مع مرور الزمن اسم الجابية وبقي على اسمه الحالي (باب الصغير).

باب الجابية : يقع في الجهة الغربية من دمشق وهو باب روماني أعيد بناؤه في أيام نور الدين الزنكي سنة ٥٦٠هـ، ثم جدده الملك داوود بن عيسى بن العادل الأيوبي، وهو ينسب الى قرية الجابية، وكان يمتد من هذا الباب أبواب ثلاثة ومنهم الباب الصغير ويقع بجوازه قبر السيدة جابية.

باب الفرج: يقع في الجهة الشمالية من دمشق وهو بين العصرونية والمناخلية، وكان يسمى (باب البوابجية) والآن يعرف (بباب المناخلية) أحدثه نور الدين الزنكي، واطلق عليه اسم (باب الفرج) لما وجد الناس على أيدي نور الدين الفرج والاستقرار وصار الناس يتفاءلون بالخير. وجدد في أيام سيف الدين أبي بكر بن أيوب سنة ٦٨٩هـ ويبلغ ارتفاعه ٣٨١ سم وعرضه ٣٠٥ سم، والخارجي باب ضخم مستطيل جدد بناؤه في القرن الخامس عشر. وهو يقوم على نهر بردى، وتمت عمارته سنة ٧٣٦هـ في عهد المماليك وكان إلى جانبه (مسجد باب الفرج) وقد سمي المسجد على اسم الباب.

باب العمارة: يقع في الجهة الشمالية من دمشق في سوق العمارة الممتد الى الجامع الأموي اسمه القديم (باب الفراديس) نسبة الى محلة كانت خارج البلد تسمى (الفراديس) وقيل (باب الكراديس) من تكوم الجثث قربه. وذكر أن الفراديس بلغة الروم أي (البساتين) ومن كثرة البساتين والفواكه التي كانت تحيط بهذه المنطقة كما تدل الكتابة التي تعلوا الباب. وان بناءه كان في سنة ٩٣٩هـ في أيام الملك الصالح اسماعيل. ويبلغ ارتفاع الباب ٤٣١ سم وعرضه ٣٥٠ سم.

باب كيسان: يقع في الجهة الجنوبية من دمشق، ينسب إلى (كيسان) مولى معاوية بن أبي سفيان لنزوله عليه. وقيل نسبة لكيسان مولى بشر بن عمارة بن حسان الكلبي، وقد ألغاه نور الدين الزنكي. ثم فتح سنة ٧٦٥هـ. وسمي (الباب القبلي) وكان على مقربة منه مسجد جدد بناءه سيف الدين مثكلي بغا نائب الشام كما أقيم عند مدخله سنة ١٩٣٩م. كنيسة القديس بولس اتخذ الباب مدخلا للكنيسة فاختفى منظره وكان النصاري يسمونه (باب بولس) لأن بولس الرسول دلى من نافذة فوق الباب يوم اضطهاده.

باب النصر: يقع في الجهة الغربية من دمشق عند مدخل سوق الحميدية، وقد أزيل سنة ١٢٨١هـ ١٨٦٣م. عندما بنى سوق الحمدية في عهد الوالي التركي (شرواني باشا) وكان يعرف باسم باب السرايا وباب الجنان، وباب السعادة، وسمي بباب الجنان لما كان يحيط به من الجنائن والبساتين.

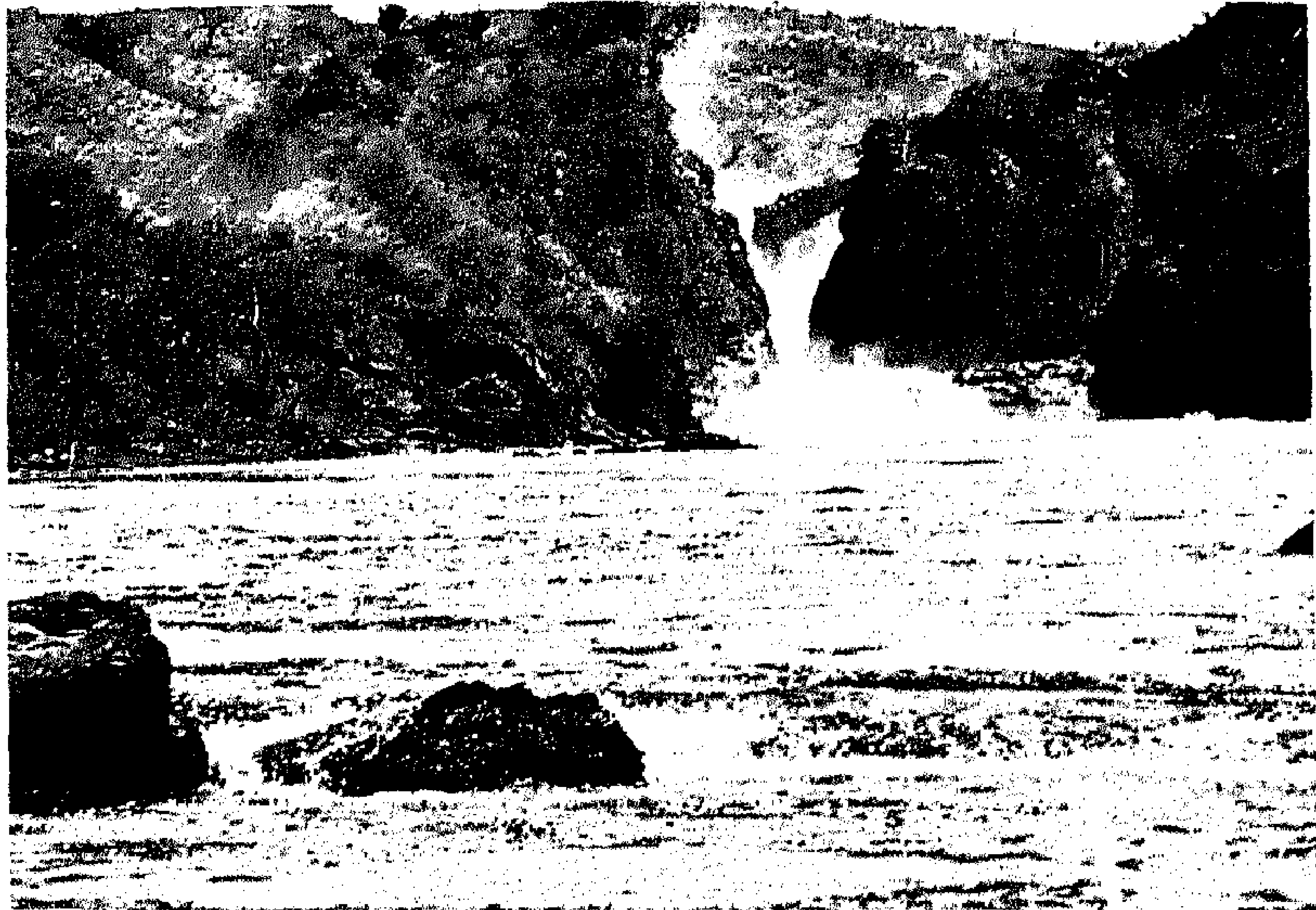
باب الجنيق: كان يقع هذا الباب في محلة بين باب السلام وباب توما (الذي تسمى الفرابين). وكان فيها كنيسة حولت الى مسجد، واستحال المسجد الى دور وقد سد الباب ولكن لا تزال آثاره ظاهرة في السور. وقيل ينسب الى حكيم رومي اسمه (الجنيق).

باب السر: أحدثه الأتراك وهو يفتح الى القلعة، وكان الحكام الأتراك ينزلون منه ويخرجون سراً ويمر الخارج منه على جسر من الخشب ومن تحته الخندق المحيط بالقلعة.

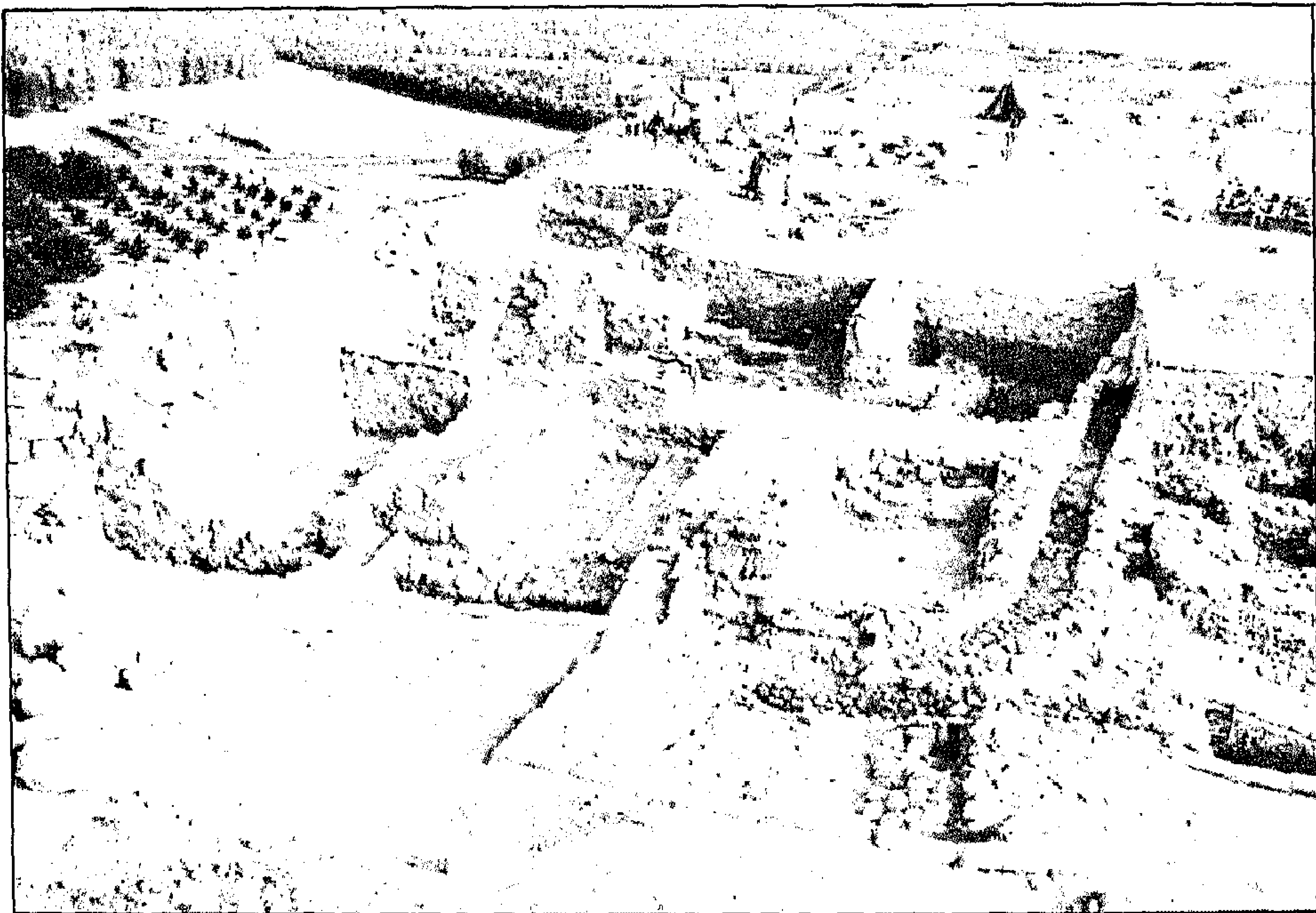
باب الحديد: هذا الباب خاص بالقلعة ويفتح اليها واصطنع هذا الباب في آخر أيام دولة ابن قلاوون ومن خصائص هذا الباب كان يفتح لمن يولى نيابة دمشق يصلي عند هذا الباب ركعتين ويقف الجند وأرباب الوظائف والأتراك في منازلهم حسب وظائفهم ودرجاتهم متمنطقين السلاح إلى أن يفرغ النائب من صلاته ودعائه. ويركب في موكب وتكون وجوه المدينة في خدمته إلى أن ينزل بدار العدل التي أنشأها نور الدين الزنكي.

محمد الفاكياني

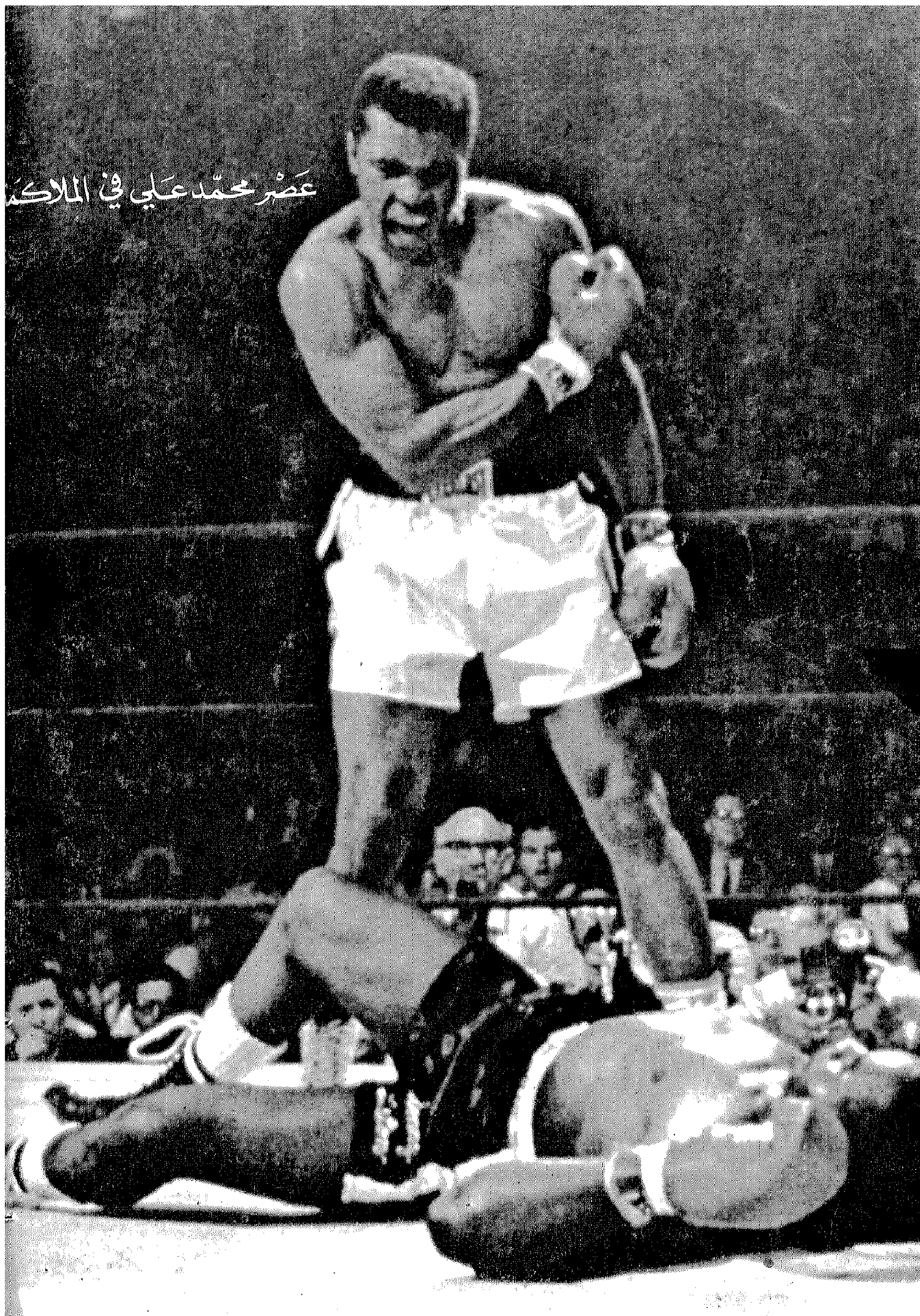
في العدد المقبل



النيل من
جبال القمر
إلى أقدام
كليوبترا



حفريات تل الدوير مدنية فلسطين


عَصْر محمّد عَلي في الملاكم

تاريخ العرب والعالم

مجلة شهرية مصورة تبحث في التاريخ العربي

السنة الثالثة - العدد الثامن والعشرون - شباط (فبراير) ١٩٨١ - الموافق ربيع الثاني ١٤٠١هـ



الماضي الذي سيأتي في عددنا المقبل



معركة ستالينغراد



لومومبا

تاريخ العرب والعالم

مجلة شهرية مصورة تبحث في التاريخ العربي

السنة الثالثة - العدد الثامن والعشرون - شباط (فبراير) ١٩٨١ - الموافق ربيع الثاني ١٤٠١هـ

تصدر عن دار النشر العربية في منتصف كل شهر

رئيس التحرير : فاروق البربير

المستشار : د. أنيس صايغ   المدير المسؤول : محمد مشموشي

الإنتاج : مطبعة المتوسط ش.م.ل. ● التوزيع : الشركة اللبنانية لتوزيع الصحف والمطبوعات

ثمن النسخة

لبنان : ٥ ل.ل.	سوريا : ٦ ل.س
العراق : ٨٠٠ فلس	تونس : ١ دينار
السعودية : ٨ ريال	الكويت : ٧٠٠ فلس
الاردن : ٥٠٠ فلس	أبوظبي : ٨ درهم
دبي : ٨ درهم	قطر : ٨ ريال
البحرين : ٨٠٠ فلس	عدن : ٨ شلنات
مسقط : ٨٠٠ بيزة	المغرب : ٦ درهم
فرنسا : ١٠ فرنكات	بريطانيا : جنيه استرليني
	أميركا : ٣ دولارات

الإشتراكات

(بما فيها أجور البريد الجوي)

في لبنان : للأفراد	٧٥ ل.ل.
للمؤسسات والدوائر الحكومية	٢٠٠ ل.ل.
في الوطن العربي : للأفراد	١٠٠ ل.ل.
للمؤسسات والدوائر الحكومية	٢٥٠ ل.ل.
خارج الوطن العربي : للأفراد	١٥٠ ل.ل.
للمؤسسات والدوائر الحكومية	٣٠٠ ل.ل.

تدفع قيمة الإشتراك مقدماً نقداً أو بحوالة مصرفية أو بريدية .

ص.ب : ٥٩٠٥ - بيروت، لبنان، بناية أبو هليل - شقة ١١ - شارع السادات - تلفون : ٨٠٠٧٨٣

HISTORY OF THE ARABS AND THE WORLD

EDITED BY FARUK BARBIR
A MONTHLY ILLUSTRATED
MAGAZINE PUBLISHED FROM
SADATE ST. ABOU HLEIL
BLG. P.O.B. 5905
TEL. 800783
BEIRUT, LEBANON

Vol.3. No. 28. Feb. 1981
ANNUAL SUBSCRIPTION
$ 75 (INCLUDING $ 25 FOR
ADDITIONAL AIR MAIL CHARGES)
MAIL ALL COMMUNICATIONS,
INCLUDING SUBSCRIPTIONS TO:
«HISTORY OF THE ARABS AND THE WORLD»

في هذا العدد



قصور الحمراء
(راجع المقالة ص٢٥).

■ المقالات الواردة توزَّع حسب التبويب الفني للمجلة. ولا علاقة لذلك بمكانة الكاتب. مع حفظ المكانة الإجتماعية للكتاب. تراعى في الألقاب الصفات العلمية فقط ■

الموضوع — الصفحة

■ السلم والحرب عبر التاريخ
من تجارب آرنولد تويبني .... «قسم التوثيق والأبحاث» ٣
■ المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام
يهود الجزائر وموقفهم من الحركة الصهيونية .... د. ناصر الدين سعيدوني ١٤
■ رجال وأفكار: عبدالرحمن الناصر .... د. سهيل زكار ٢٥
■ مدنية فلسطين .... د. نقولا زيادة ٢٧
■ الحركة الصهيونية
في عصر نجيب عازوري (الحلقة الثالثة) .... د. زاهية قدورة ٣٣
■ الجغرافيا عند العرب .... وجيه عضّاضة ٣٩
■ أضواء على بطولة العالم في الملاكمة للوزن الثقيل .... د. يوسف شبل ٤٨
■ حقائق أم نسج خيال: سور الصين العظيم .... شذا عدرة ٥٥
■ طب العيون عند العرب:
من خلال مخطوطة لابن النفيس .... د. مؤنس محمد غانم ٥٧
■ النيل من جبال القمر الى اقدام كليوبترا .... سامي زكي ٦٣
■ معركة عين جالوت .... حسن الأمين ٦٦
■ المقاومة الشعبية السرية ضد النازية .... ترجمة «تاريخ العرب والعالم» ٧٨
■ تاريخ الطوابع: الجزائر .... ميشال اسطفان ٨٤
■ رسائل الماجستير والدكتوراه:
التحف المعدنية المغولية .... عبدالحسين محمد الشمري ٨٨
مراجعات: دور جريدة «فتاة الجزيرة» ٩١
■ القراء يكتبون: بدء الحرب العالمية الثانية/ اشور/ المهراس ٩٤

● المقالات والدراسات تُرسَل باسم رئيس التحرير على عنوان المجلة: ص.ب ٥٩٠٥ في بيروت.
● المقالات والدراسات التي تُنشَر لا تعبِّر بالضرورة عن آراء المجلة.
● المواد الواردة إلى المجلة لا تُرَدّ إذا لم تُنشَر.



الحرب والسلم عبر التاريخ

من تجارب أرنولد توينبي

إعداد قسم التوثيق والأبحاث

الحياة مسرحية نشاهدها، ويلعب كل منا دوراً رئيسياً فيها.. فنحن نشهد ما يدور في معترك الحياة من احداث، ثم نجد انفسنا مدفوعين بدوافع مختلفة إلى ان نترك مقاعدنا المريحة وسط القاعة التي تعرض فيها المسرحية. لكي نتدخل فيما يجري امامنا من احداث على خشبة المسرح.



تعالج المسرحية عادة موضوع الصراع بين القوى المتناقضة في الحياة، فيجد الانسان نفسه وبدون وعي منه مندمجاً وبشكل ايجابي في داخل هذا الصراع، حتى يسهم في دفع الحياة إلى الامام، او السير بها إلى الخلف، حسب طبيعة شخصيته واهدافه، هذا لان كل انسان يشعر عادة بأنه يجب عليه ان يفي بالتزاماته وواجباته نحو غيره من البشر، الامر الذي يدفعه إلى محاولة مقاومة الخطر الذي قد يتعرض له اخوانه من ابناء الجنس البشري اينما كانوا.. وابسط مثال على ذلك مظاهرات الشباب التي قامت في مختلف دول القارة الاوروبية احتجاجاً على الحرب الامريكية العدوانية على شعب فيتنام. وذلك هو نفس الموقف الذي اتخذه توينبي بضمير حي ووعي كامل عندما ادان التدخل الامريكي من منطقة جنوب شرقي آسيا. وتوينبي بهذا يشهد مأساة البشر في هذه الحياة. ويلتزم بأن يكون صادقاً مع نفسه ومع الآخرين، بالوقوف إلى جانب الحق.. وبالوفاء بما

(*) مؤرخ انكليزي شهير ولد عام ١٨٨٩ مدرس اللغة البيزنطية والاغريقية، مدير قسم الصحافة والبحث الأجنبي، استاذ التاريخ العالمي في جامعة لندن.

عليه من التزامات نحو غيره سواء كانت هذه الالتزامات معنوية او مادية.

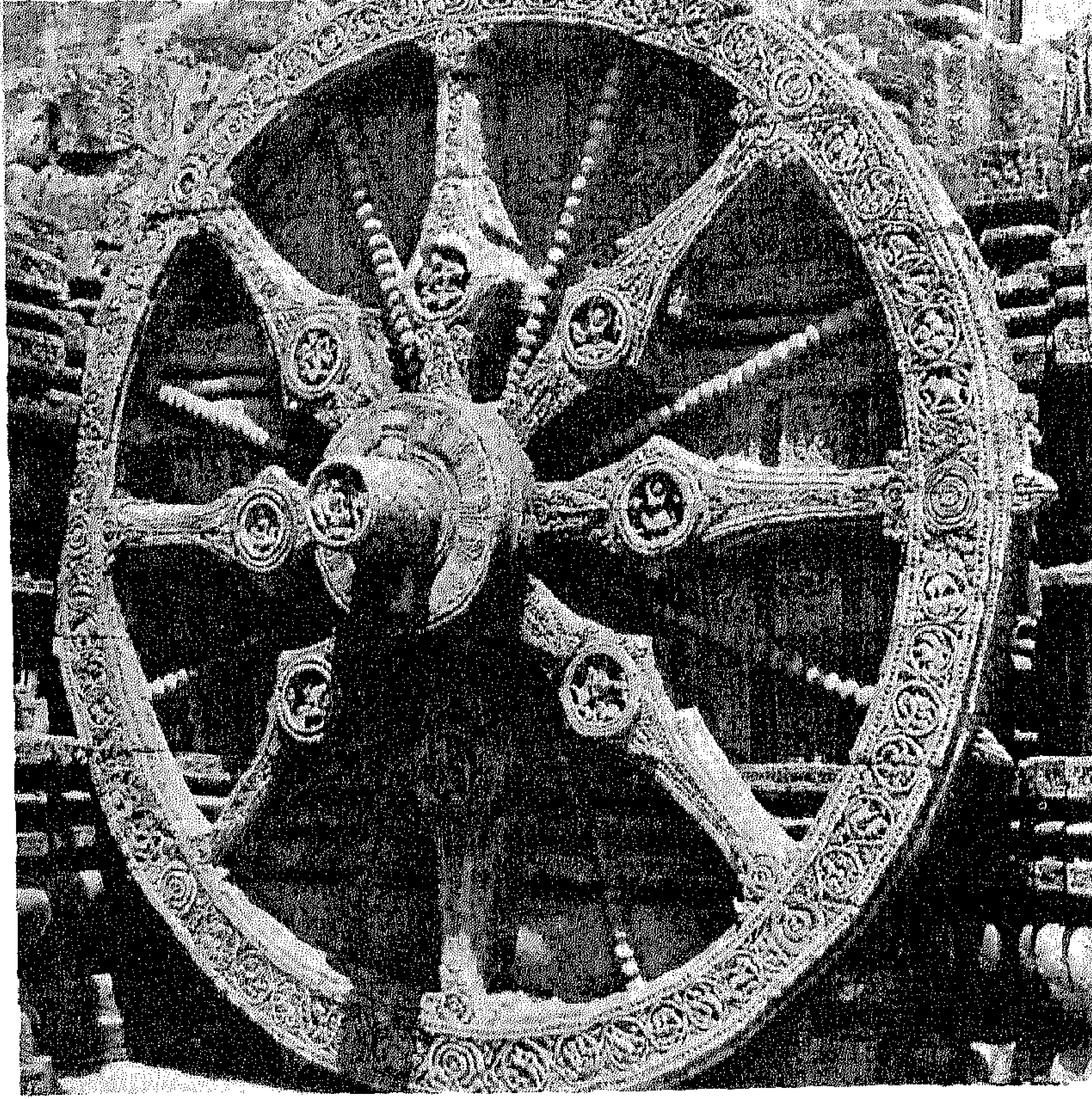
وتظهر مواقف توينبي الايجابية نحو الحياة بشكل واضح ومتكامل في آخر كتاب اصدره بمناسبة عيد ميلاده الثمانين بعنوان «تجارب» ويتسم هذا الكتاب باختلافه عن كتب آرنولد توينبي الاخرى فكلماته تقدم للقارىء معبرة عن تعاطف توينبي الانساني الرفيق، واحساسه بالخوف الشديد على مستقبل الجنس البشري. ونجد مثالاً لذلك في ترديد توينبي الدائم والمتكرر لما قاله الشاعر الروماني تيرانس «انني واحد من البشر.. ولذا فليس ثمة شيء انساني لا اشعر نحوه باهتمام بالغ». والطريف في هذا الكتاب ايضاً انه لا حدود للموضوعات التي يتحدث عنها الكاتب، لانه يتناول اموراً مطلقة لا يمكن تحديد بدايتها او نهايتها.. وتبدأ هذه الموضوعات بالحديث عن الحياة وظواهر الوجود من الميلاد حتى الموت.. وبعض هذه التجارب نعرفها، لكننا لا نمارسها او نتحكم فيها.. ولكنها تفرض علينا.. نحن لا نحدد تاريخ ميلادنا.. وبالمثل فاننا لا نعرف متى سينتهي وجودنا، ثم يصل توينبي في كتابه عن تجاربه في الحياة إلى حقيقة هامة لا سبيل امامنا إلى الفرار منها، بل من واجبنا مواجهتها والعمل على تغييرها.. وهي ان مستقبل البشرية ليس مستقبلاً يوحي بالامل او يدعو إلى التفاؤل، وان الانسان في سبيله إلى تدمير ذاته بيده، وبالوسائل التي يتوهم انها سوف تتيح له حياة افضل.. تلك الحقيقة تتمثل في ان ما حققه الانسان من انجازات تساعده على الحياة، قد استحالت في واقع الامر إلى وسائل تودي به إلى الفناء والهلاك.

خطأ على خريطة العالم:

يرى توينبي في بداية كتابه، انه من الغريب انه ما زال على قيد الحياة حتى الآن.. خاصة وانه يعتقد انه لا بد ان هناك خطأ ما على خريطة العالم جعله يعيش حتى الآن.. فليست حياته نتيجة طبيعية للاحداث التي شهدها العصر الذي عاش وما زال يعيش فيه.. بل هي نتيجة متناقضة مع هذه الاحداث. ولد توينبي في عام ١٨٨٩ في انجلترا ونشأ فيها.. وكادت ان تطحنه طاحونة الموت التي اقيمت في عام ١٩١٤ عندما نشبت الحرب العالمية الاولى، والتي التهمت نصف معاصريه في ذلك الوقت.. ولكنه لم يكن صالحاً لاداء الخدمة العسكرية لوجود عيب جسماني معين لديه. ولو كان توينبي قد شارك في القتال في الحرب العالمية الاولى لما ظل على قيد الحياة حتى الآن.. يقول توينبي انه كان من المحتمل ان يموت فيما بين عامي ١٩١٥ و ١٩١٦، إلا انه عاش في الواقع مدة تزيد عن نصف قرن بعد تلك السنين الرهيبة. ومن هنا فكلما تردد ذكر تاريخ «اغسطس» /آب/١٩١٤» يحدث له وقع مؤثر في النفوس.. ويشعر الكثيرون بالانفعال الشديد والعميق كلما لاحت امامهم ذكريات تلك الفترة من الزمن. ومن الغريب انه قد نشبت حرب عالمية ثانية بعد تلك الحرب الاولى، ومع هذا فان تلك الذكريات التي وقعت في بداية القرن العشرين كانت بمثابة صدمة ذات تأثير بالغ على كثير ممن عاصروا تلك الحرب. ويقول توينبي ان اندلاع الحرب العالمية الثانية في عام ١٩٣٩ لم يكن تجربة جديدة بالنسبة له وبالنسبة لمعاصريه. فمجرد تعرض المرء لتجربة الحرب العالمية الاولى جعله يتوقع ما سيتعرض له مرة ثانية. ولهذا فلم تكن الصدمة الثانية على نفس الدرجة من العنف، كما كانت الصدمة الاولى.

وهناك سبب آخر يجعل توينبي يشعر بالحزن لمجرد ذكر تاريخ «اغسطس/آب/ ١٩١٤»، وهو ان اندلاع الحرب العالمية الاولى، كان تغييراً له دلالته في تاريخ بريطانيا اكثر من اي دولة اخرى اشتركت في الحرب. ذلك ان بريطانيا لم تتعرض لخوض اي حرب كبيرة حتى عام ١٩١٤ ولمدة تربو على قرن من الزمان. فقد كانت معركة ووترلو في ١٨ يناير ك٢ ١٨١٥ آخر حرب اشتركت فيها بريطانيا.. لدرجة ان منهج دراسة التاريخ في المدارس الانجليزية كان ينتهي عند معركة ووترلو، مع ان بريطانيا اشتركت بالفعل في خلال هذه الفترة من الزمن في عدد من الحروب الصغيرة.

وشهد توينبي بعد نهاية كل من الحربين العالميتين الكبيرتين مؤتمري السلام اللذين عقدا



الدولاب:
رمز للخلق الدائم.

في باريس لتحقيق السلام بعد هاتين الحربين. ويثير هذان المؤتمران في نفس توينبي شعوراً يمتزج بالدهشة والاحباط واليأس.. وذلك لان هذه التجربة قلبت ما يؤمن به من نظريات رأساً على عقب.. فكل من يؤمن دينياً بالكتب السماوية، سواء كان مسلماً او مسيحياً او يهودياً، يؤمن بأن التاريخ يسير في خط مستقيم، وليس في حركة دائرية.. حيث ان التاريخ يبدأ منذ بدء الخليقة من نقطة انطلاق متجهاً نحو تحقيق هدف معين بذاته.. ويعطي هذا الهدف للحياة في هذا الكون معنى سامياً ويفعم النفس الانسانية بالامل دائماً.. إلا ان انعقاد مؤتمري السلام في باريس مرتين وبطريقة تكاد تكون واحدة ومتشابهة تجعل المرء يؤمن «بالنظرية الدائرية» في التاريخ.. تلك النظرية التي تتناقض بالفعل مع ما نؤمن به من نظريات ومعتقدات راسخة في نفوسنا بالفعل.. كما ان سير التاريخ في حركة دائرية يجعلنا نشعر باليأس والاخفاق في كثير من الاحيان، ويبدّد من النفس الشعور بالامل والتفاؤل.. وإذا كان وجود الهدف في الحياة يعطيها معنى سامياً ويفعم الاعماق بالامل في المستقبل، فان سير التاريخ في خط دائري يجعله يبدو لنا وكأنه يؤكد ما سبق ان قاله الشاعر الانجليزي الكبير وليام شكسبير: ان التاريخ «حكاية يحكيها شخص ابله، لا معنى لها او مغزى».

يا لها من نكتة مروعة:

كان آخر مؤتمر سلام حضره توينبي في باريس في عام ١٩٤٦ بعد نهاية الحرب العالمية الثانية، وكان قد حضر قبل ذلك مؤتمراً آخر للسلام في باريس في عام ١٩١٩.. وقد حضر هذين المؤتمرين بوصفه موظفاً في وزارة الخارجية البريطانية.. وبذا فان مؤتمر السلام الثاني عقد بعد مرور سبعة وعشرين عاماً على انعقاد المؤتمر الاول .. وهنا يتوقف

تـوينبي ليتساءل بشيء من الخوف والذعر على مصير الانسانية في المستقبل، وفي مواجهة مـا جلبه الانسـان على نفسه من ويلات الحرب. يتساءل ويقول: هـل يحتمل أن يعقـد هذا المؤتمـر كل سبعة وعشرين عاماً؟ وإذا كان هذا المؤتمر سيعقد بالفعل على هذا النحو، فهل سنشهد مؤتمراً آخر في باريس في عام ١٩٧٣؟. يا لها من فكرة مروعة!! ذلك لان انعقاد مؤتمر سلام ليس بالضرورة تعبيراً عن حب او رغبة الانسان في السلام، بل هو رمز لنهـاية حـرب عالميـة اخرى.. فهل سنشهد حرباً عالمية ثالثة، وهل سيقدر لنا ان نعيش حتى نشهد هذه الحرب؟.



من الواضح انه قد تنشب حرب عالمية اخرى.. واذا اندلعت هذه الحرب، فليس من المحتمل اننا سنعيش حتى نشهد نهايـة هذه الحرب. كما انه من المؤكد انه لن يعقد مؤتمر سلام آخر.. والدافع الذي يجعل المرء يؤكد بأنه لن يعقد مثل هذا المؤتمر، هو الواقع التكنولوجي الجديد في المجال العسكري بعد تطوير الاسلحة



«العنف» يُؤرخ له ويُفخر به منذ بدء التاريخ



النووية.. كما ان الحرب العالمية القادمة سوف تكون حرباً نووية.. حرباً تفني وتبيد.. حرباً لا تدعو إلى حياة او سلام.. ولهذا يقف توينبي موقفاً مناهضاً لجميع اشكال الحروب بين البشر، ويدعو إلى الغائها كفكرة ومؤسسة تعتبر وصمة عار في جبين الحضارة الانسانية..

فالحرب في تقديره كالعبودية تماماً، تمتهن الكرامة الانسانية.. المنتصر فيها كالمهزوم. كما هو الحال بالنسبة للسيد والعبد.. العبد اسير لسيده وخاضع لاوامره وارادته، والسيد هو الآخر أسير لنظرته الانسانية الضيقة ولانانيته المطلقة. الحرب في الواقع شر من الشرور الاجتماعية التي ابتلى بها المجتمع الانساني منذ بدأ الصراع بين الخير والشر على الارض.

لا يمكن السماح بشيء منها او التوصل إلى حل وسط بشأنها.. لا بد من الغائها تماماً.. ولا خلاص للبشر بدون ذلك. ولذلك لا يؤمن توينبي بالغاء الاسلحة النووية والاحتفاظ بالاسلحة التقليدية.. بل يؤمن توينبي بأنه من الضروري والحتمي الغاء الحرب كهدف ووسيلة، والقضاء على جميع انواع الاسلحة نووية كانت او تقليدية.. وتنبع عقيدته هذه من ايمان عميق بضرورة ان يعيش الانسان حياة حرة كريمة، ولهذا يسمح توينبي بشكل من اشكال الحروب، يعتقد البعض انه قد يتناقض بشكل غير مباشر مع رأيه في الحرب.. ولكنه في الواقع يتفق مع آرائه في الحرب التي يدعو إلى الغائها من اجل كرامة وانسانية الانسان. فهو يحبذ الحرب في حالة واحدة.. في حالة مقاومة العدوان.. ذلك لانه يعتقد انه ليس من الخير او الصواب عدم توفير المقاومة المسلحةضد عدوان مسلح يقوم به جماعة من العسكريين..

وعدم مقاومة العدوان المسلح يجعل العالم يقع في ايدي جماعة من الاشرار الذين تتوفر لديهم الوسائل العسكرية.. وتصبح الحرب في هذه الحالة حرباً مقدسة.. وعندما يتعمد الانسان ان يشعل هذه الحرب المقدسة.. ويشعلها من اجل القضاء على كل الحروب بعد ذلك، فان الانسان يستخدم «الشر» بذلك كمصل يقضي به على الشر ايضاً.

ايمان عميق بالدين:

يؤمن توينبي بالمسيحية ايماناً عميقاً راسخاً، ولكنه لا يقف من الدين موقف الرجل العادي الذي يقبل الامور كما هي بدون نقاش او جدال.. فهو يرى ان الدين ضرورة انسانية تخلق توازناً حقيقياً بين كل ما هو مطلق وبين كل ما هو محدود.. بين القيم الاخلاقية وبين الماديات التي صنعها الانسان. وفي كتابه هذا يبدأ توينبي بالحديث عن الدين بتقديم تعريف له، فيقول ان الدين يعني بالنسبة له انه يمثل علاقة الانسان بالحقيقة المطلقة الكامنة فيما وراء ظاهرة الوجود في الكون الذي وجدنا انفسنا نعيش فيه.. ويؤكد توينبي ان هذه المحاولة لتعريف الدين تثير الجدل.. إذ ان هناك من يعتقدون بأن الدين يمكن تعريفه بأنه وهم، حيث ان هؤلاء يؤمنون بأنه ليس هناك ثمة شيء اسمه الحقيقة المطلقة. وهؤلاء الذين يؤمنون بأن الدين نوع من الاوهام، بوسعهم ان يؤمنوا بأن الوهم امر واقع.. او انه اعتقاد يسري في اعماقهم لكي يخفف من آلام الحياة التي يشعر بها الانسان. وإذا آمن الانسان بأن الحقيقة المطلقة موجودة بالفعل، وان ذلك العنصر الروحي مرتبط بها، فان ذلك العنصر الروحي الكامن في الطبيعة البشرية سوف يكون المرشد الذي يدله على مفهومه المحدد للحقيقة المطلقة. والحقيقة المطلقة نفسها ما زالت افتراضاً غير محدد، على الرغم من ان هناك البعض ممن يعتقدون بأنهم مروا بهذه التجربة، وعرفوا ابعادها كما يعرفون انفسهم وكما عرفوا غيرهم من الرجال والنساء.

ويرى توينبي ان الغاية المنشودة من وراء الايمان بالدين بمختلف اشكاله ومظاهره، هي ايمان البشر بمزيد من الحب.. هذا لان توينبي يؤمن بالحب ايماناً عميقاً، وكان دافعه إلى هذا الايمان ما علمته له الكراهية والاحقاد من دروس في هذه الحياة.. والايمان بمزيد من الحب يؤدي إلى ان يسود السلام عالمنا المضطرب.. فالحب اقدس المشاعر الانسانية وانبلها.. والحب من ناحية اخرى وسيلة وغاية.. وسيلة تؤدي بنا إلى حياة افضل، وغاية تجعل



الموت «زينة»... من صور الحرب العالمية الثانية.

الانسان يشعر بأسمى حالات السمو والنقاء الذاتي.. وتسمى تلك الحالة «نرفانا» (Nervana). ويفرد توينبي جزءاً كبيراً من حديثه عن الدين للحديث عن الحب.. ويمكننا ان نلمس من تاريخ الحياة الانسانية ان الحب لم يكن اطول عمراً من الانانية. فالانانية شعور قديم قدم الحياة نفسها.. لكن الحب كان موجوداً على ظهر الارض قبل خلق آدم وحواء، وكانت مظاهر هذا الحب تتمثل في سلوك الطيور والثدييات التي لا تنتمي إلى الجنس البشري.. وعندما جاء البشر إلى الارض، جاء الحب معهم.. والاحقاد ايضاً.. ويختلف اسلوب الحب في التعامل معنا عن اسلوب الضمير.. فالضمير يأمرنا ويدفعنا إلى القيام بأشياء معينة. اما الحب فيلهمنا.. وكل ما نريد ان نفعله بدافع من الحب نقوم به لاننا نريد ذلك. وحقاً فان الحب نوع من الرغبة، ولكنه نوع من الرغبة التي تنتزعنا من انفسنا وتجعلنا نتجاوز الذات الانسانية التي تحيط بنا وبوجودنا. ويعني الحب مزيداً من الحرية للانسان، بينما يعني الضمير فرض القيود على الانسان.. وفي نفس الوقت نحن احرار في ان نرفض نداء الحب، كما ان لدينا نفس الحرية لكي نرفض ما يحاول الضمير ان يمليه علينا. ومع هذا يعتبر الحب والضمير من الحقائق الروحية او المعنوية في الحياة. وعندما نواجه تلك الحقائق نجد ان كلا منهما له قيمة داخلية مطلقة وقوة ذاتية بالنسبة لنا. وما زال جانب كبير من تلك الحقائق والامور غامضاً بالنسبة لنا ويصعب علينا تفسيره.. وقد نذهب إلى الاعتقاد بأن البشر سوف يواصلون

التفكير في هذه الامور طالما ظل الجنس البشري موجوداً على ظهر الارض.

ويلتقي الحب والحرمان في الحياة دائماً على هذا الكوكب بعلاقة غير مباشرة.. فكلما احب شخص رفيقاً له، شعر بحزن اعمق لدى فراقه.. ويكون الموت عادة هو السبب في هذا الفراق. لكن القيمة المطلقة للحب تتمثل في انه يجعل للحياة معنى، ويجعل ازمة الانسان في مواجهة الحياة الصعبة التي يعيشها تستحيل إلى موقف مقبول ومن الممكن احتماله. ومع ان الحب لن ينقذ الحياة من الموت والفناء، إلا انه يمكن ان يخلق للحياة هدفاً تسعى إلى تحقيقه. وبعبارة اخرى فانه عندما يتم تحقيق هذا الهدف من الحياة، فلن يستطيع الموت ان يقضي على ما تم انجازه بالفعل، حتى بعد ان يقضي الموت على جسم الانسان ويقتله، والحب بهذا المعنى اقوى من الموت.

الشـؤون الإنســانيــة.. والطبيــعــة الإنسانية:

اعود مرة اخرى فأكرر قولي بأن توينبي عاش حتى بلغ الثمانين من عمره، وبذا فان حياته تعتبر حياة طويلة بالفعل، وذلك بالمقارنة بمتوسط الاعمار في مختلف البلدان. وقد جاءت هذه الحياة الطويلة في جزء من العالم اكتسحه الموت والدمار اكثر من مرة، وفي وقت زاد فيه معدل سرعة التغير في الشؤون الانسانية. ويجب علينا ان نفرق بين «الشؤون الانسانية» و «الطبيعة الانسانية».. فالشؤون الانسانية تتغير تبعاً للظروف الاجتماعية والسياسية التي تطرأ على مجموعة من الناس في مجتمع انساني معين. اما الطبيعة الانسانية فمعدل التغير فيها بطيء نسبياً ولا يمكن ان نلمسه بسرعة. مثال ذلك ان الطبيعة الانسانية لم تتغير منذ ان تحولت حياة الانسان من الحالة البدائية إلى حياة اكثر تمدينا وتحضراً.. وهذا البطء في تغير الطبيعة الانسانية قد يدفعنا إلى القول بأن الطبيعة الانسانية تكاد تكون جامدة ومتوقفة عن الحركة نسبياً.

ويخضع تطور وتغير الشؤون الانسانية لعدة عوامل - اهمها تناقل اساليب التعليم والثقافة - من جيل إلى آخر.. ويختلف التعليم والثقافة عن الطبيعة وعن انجاب الاطفال، فتلك امور يمكن التحكم فيها بالوعي والارادة.. وبالتالي فان تناقل الثقافة والعلم من جيل إلى آخر لا يتم بطريقة تلقائية او وفقاً لمعايير مضبوطة، بل هي امور يتحكم فيها تلقي جيل من الاجيال لهذا النوع من التراث. الثقافة على درجة كبيرة من المرونة وعدم الاستقرار وذلك بخلاف الطبيعة. وحتى الاجيال التي تتلقاها وتتناقلها تتآمر للحفاظ على عدم تغيير ثقافة ذلك المجتمع، إلا ان الثقافة تتغير عادة من خلال عملية الانتقال، على الرغم من محاولة كل جيل تجميد ذلك التراث.

وإذا تركنا الطبيعة الانسانية جانباً لبطء معدل حركتها وتغيرها، والقينا نظرة على الشؤون الانسانية القابلة للتغير والتبدل بصفة مستمرة. لوجدنا ان العالم المتوتر الذي نعيش فيه اليوم يختلف بشكل مذهل عن العالم الذي نشأ فيه توينبي في بداية حياته. ولد توينبي في نهاية القرن التاسع عشر وفي عالم يسوده الامن والاستقرار. وافعمت نفوس الناس في ذلك الوقت بشيء من التفاؤل «الساذج» في المستقبل. وبدا في اعين معاصري ارنولد توينبي انهم سيعيشون حتى يشهدوا الامن والاستقرار وهما يسودان العالم كله وإلى الابد. وافترض البعض ايضاً ان الاطار الحضاري للعالم الجديد سيستند بشكل اساسي إلى الحضارة الغربية، وكان من المسلمات في نهاية القرن التاسع عشر ان الحضارة الغربية جاءت لتبقى ومن المستبعد اضمحلالها او انهيارها - وذلك بخلاف رأي اروالد شبنجلر الذي اكد في كتابه «اضمحلال الغرب» ان الحضارة الغربية في سبيلها إلى الانهيار.. ومن صلف سكان العالم الغربي انهم كانوا يعتقدون انه ليست هناك شعوب اخرى تعيش في العالم من دونهم.. فكانوا يصفون انفسهم بأنهم «متحضرون»، ومن كانوا من دونهم ليسوا سوى «وطنيين» او سكان اصليين لا اكثر ولا اقل، بمعنى انهم محرومون من الحقوق الانسانية. هذا بالرغم من ان اهل الغرب شهدوا حضارات اخرى تنهض ثم



«ناغازاكي» ضحية
حضارة القنبلة الذرية

تندثر.. وتأتي ثم تنقرض، ولكنهم لم يراودهم ادنى شك في ان حضارتهم ستظل باقية.

وعندما وقعت الكارثة في عام ١٩١٤ ونشبت الحرب العالمية الاولى لم يكن يتوقعها احد من قبل، انجرف العالم في تيارها بعد ذلك، وبدأ توينبي ومعاصروه يستيقظون بعد ان اصيبوا بصدمة عنيفة.. وتفتحت العيون على حقيقة الوجود الانساني المؤلمة. وتبدد بذلك الوهم الذي كان توينبي يعيش فيه من ان الامن والاستقرار سوف يسودان العالم الجديد.. ومنذ ذلك الوقت تدهورت الحالة السيئة التي تعرضت لها الشؤون الانسانية، واصبح المستقبل منذراً بكثير من الشر وقليل من الخير.. فلقد نشب القتال في الحرب العالمية الاولى بالاسلحة التقليدية، ولكنه منذ ذلك الوقت تم اختراع اسلحة اكثر فتكاً ودماراً من الاسلحة التقليدية العادية.. فتم اختراع انواع من القنابل ذات قدرة عالية على التدمير، منها قنابل النابالم، والقنابل الحارقة والقنابل الذرية.. وهناك ايضاً وسائل الحرب الكيماوية التي تعتبر من اسوأ المخترعات الحربية التي توصل الانسان إليها. واستخدمت الولايات المتحدة بالفعل في فيتنام كل ما لديها من ادوات القتل والتعذيب فيما عدا القنابل الذرية. ولذا يرى توينبي اننا نعيش

في عصر يشبه العصور المظلمة في العصور الوسطى، إذ تتعرض في عصرنا هذا شعوب كاملة لمختلف قوى القهر والعدوان، وذلك دون تفرقة بين النساء والاطفال والشيوخ. وفي عصرنا هذا نشهد بربرية فظيعة تعتبر مظهراً من مظاهر الظلم والتعصب الذي يعاني منه البشر بما في ايديهم من اسلحة ومخترعات فتاكة تجعلهم أسوأ حالاً مما كان عليه الجنس البشري في العصور الوسطى. وقد لمسنا هذا السوء الذي عانت منه الشؤون الانسانية فيما بين عامي ١٩١٤ و ١٩٦٩، حيث اصيب الانسان بعدد كبير من الصدمات والكوارث.

ومع هذا ولسوء الحظ فان الاتجاه إلى نبذ الحروب – وهو نبذ يجب ان يكون تاماً وشاملاً منذ ان دخل عالمنا الحديث العصر النووي – ما زال ضعيفاً ونحن في عام ١٩٦٩، ولم تلجأ اليه حتى الدول التي عانت من ويلات الحروب.

ويعود توينبي إلى تأكيد رأيه الذي تحدث عنه من قبل باقتناع وحماس شديدين، من انه يرى انه من الضروري بالنسبة للجنس البشري ان يبادر بالغاء الحرب، سواء كانت وسيلة او غاية في حد ذاتها، وذلك حتى يتحقق الامن والاستقرار على ظهر الارض. ويقدم توينبي مثلاً علمياً على صدق ما يقول من ان الحرب لا تحقق هدفاً ولا تجلب فائدة بقدر ما تجلب من دمار وفناء. فما حدث بالنسبة لالمانيا يعتبر موعظة على درجة كبيرة من الاهمية بالنسبة لغيرها من الدول ذات الميول العدوانية. فلقد كانت المانيا تؤمن بأن استمرار نجاحها في المجال العسكري من شأنه ان يحقق لها كل ما تصبو اليه من اهداف سياسية. ولم تفطن إلى حقيقة هامة تتمثل في ان الدولة التي تنجح في تحقيق انتصار عسكري على دولة اخرى وفي عدد من المعارك من الممكن ان تمثل تهديداً لغيرها من الدول.. ولنفسها ايضاً.. ولقد كانت نهاية المانيا التي غزت عدداً من الدول الاوروبية، والتي كانت تمثل تهديداً للعالم كله في ذلك الوقت، هو انها قضت على نفسها بنفسها.. ويسمى هذا «بالتدمير الذاتي».

وفي عام ١٩٦٩ يمكننا ان نجد دليلاً على صدق ما نقول، يتمثل فيما اصيبت به الولايات المتحدة واسرائيل من فشل واحباط بعد ان لجأت كل منهما إلى الحرب كوسيلة لتحقيق اهدافها.. لقد فشلت هاتان الدولتان في فرض السلام على اعدائهما حتى الآن.. فقد تتمكن اسرائيل من كسب اكثر من معركة وفي احتلال مزيد من الارض، ولكن العرب سيظلون صامدين في ميدان القتال.. حيث انهم لديهم مساحات شاسعة من الاراضي تمتد من المحيط إلى الخليج.. كذلك لن تحقق الولايات المتحدة الامريكية ما تصبو إليه في فيتنام مهما قاتلت حيث يتوفر لابناء فيتنام مساحات شاسعة من الارض تمتد من فيتنام الشمالية حتى الصين الشعبية، التي لن تحاول الولايات المتحدة ان تدخل في مواجهة مباشرة معها لانه من المؤكد انها لن تنتصر في مواجهة من هذا النوع. وعدم تحقيق السلام في فيتنام لا يهدد اراضي الولايات المتحدة تهديداً مباشراً، كما هو الحال بالنسبة لاسرائيل.. فاذا لم تتمكن اسرائيل من تحقيق السلام فلن يمكنها البقاء بعد ذلك في الشرق الاوسط.. ولا يستطيع العرب بدورهم ان يقبلوا وجود اسرائيل كجارة لهم نظراً لما الحقته بهم من اذى واضرار لا يمكن احتمالها.. ولن تبادر اسرائيل كذلك بأن تقدم للعرب ما يريدونه من تنازلات نظراً لان من العسير عادة على اي طرف ينتصر في حرب ان يتنازل عن النصر الذي جعله يشعر بالصلف والغرور... وانتصار اسرائيل هذا من الممكن ان يجعلها عمياء عن ادراك ان النصر العسكري الذي حققته لا يزيد عن كونه مجرد رصيد ضائع في عالمنا الذي نعيش فيه. وما حققته اسرائيل من نصر عسكري ادى إلى خلق حائل نفسي يحول دون تحقيقها ما ترجوه من اهداف.. ويبدو هذا الكلام متناقضاً، الا انه الحقيقة كاملة.

وقد اتهمت اسرائيل الحكومات العربية بأنها هي التي خلقت مشكلة اللاجئين الفلسطينيين، وانهم رفضوا توطين اللاجئين الفلسطينيين العرب في اراضيهم.. وهذه المزاعم مرفوضة من الاصل.. لان السبب الرئيسي لنزوح الفلسطينيين عن اراضيهم وديارهم، هو

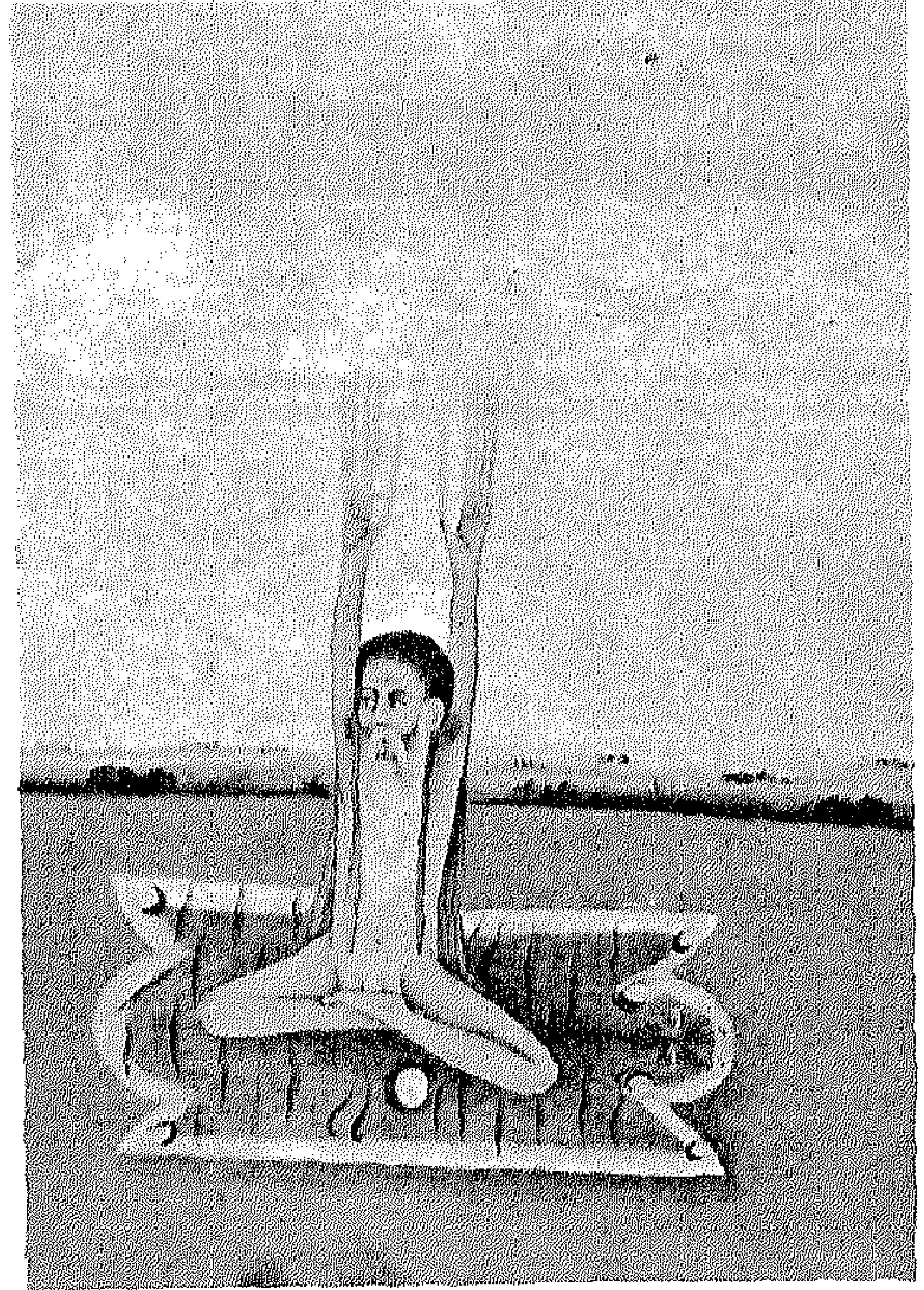
ما قامت به السلطات الاسرائيلية من ارهاب عنيف ضد الفلسطينيين العرب. ومن ابرز مظاهر هذا الارهاب مذبحة «دير ياسين» التي اقامتها القوات الاسرائيلية المسلحة في قرية عربية آمنة.. وكان هذا الارهاب يهدف إلى اجبار عرب شعب فلسطين على مغادرة دياره والنزوح عن اراضي فلسطين. ومنحت الدول العربية، وخاصة مصر والاردن، اللاجئين الفلسطينيين حقوقاً مدنية كاملة كمواطنين في داخل اراضيها، وفرص الاعاشة والتعليم في المدارس والجامعات المصرية والاردنية.. ولم يكن من الممكن فرض توطين الفلسطينيين رغماً عنهم وضد رغبتهم في اي من البلاد العربية، حيث انهم عازمون على تحمل الحياة «في المنفى» وفي المخيمات، على امل تحقيق امنيتهم في استعادة اراضيهم وديارهم. ويقول توينبي:

«يعتبر الاحتلال الاسرائيلي لفلسطين نقطة سوداء في التاريخ الحديث عامة وتاريخ الاستعمار الاستيطاني بأسره في العصر الحديث خاصة.. حيث اخذ الصهاينة الاوروبيون في ممارسة الاستعمار الاستيطاني في فلسطين في شكل سلب ونهب لممتلكات العرب، في الوقت الذي كانت فيه شعوب اوروبا الغربية تتخلى عن السيطرة على مقدرات الشعوب الاخرى في آسيا وافريقيا».

الانسان والتكنولوجيا:

من اكثر الامور اثارة للسخرية والناجمة عن الانجازات التي حققها الانسان من تقدم علمي وتكنولوجي يمثل ابرز مظاهر الحضارة الحديثة، ان نضال الانسان من اجل ان يصبح سيداً للموقف، بدلاً من ان يكون عبداً له، نجم عنه مجرد استبدال ذلك النوع من العبودية بنوع آخر من العبودية. وبعبارة اخرى، حاول اسلافنا في سعيهم للوصول إلى درجة ارقى من الانسانية والحضارة، ان يتخذوا الخطوة الاولى نحو تعديل وتغيير البيئة التي كانوا يعيشون فيها حتى تلائم واقعهم وحاجاتهم. واول دليل حي ملموس على اتخاذ هذه الخطوة هو الاحجار التي كانوا يقومون بنحتها لصناعة ادوات يمكن ان تخدمهم، اكثر مما كانت عليه هذه الاحجار في شكلها البدائي. وقد اعتبرت هذه المحاولة في حد ذاتها بمثابة انتصار من الانسان على الطبيعة. وتلك كانت محاولة للتحرر من استعباد الطبيعة للانسان. ولكن كان ثمن التحرر من تلك العبودية هو خضوع الانسان المعاصر لعبودية البيئة الصناعية التي خلقها بتطوير التكنولوجيا، التي حققها عن طريق غزوه للطبيعة في بداية الامر. ويتعرض الانسان في العصر الحديث لخطر حقيقي من انه قد يقضي عليه وحش مخيف - التكنولوجيا - خلقه الانسان بيده. ويهدد بالقضاء على مكونات شخصية الانسان في هذا العصر. ولعل هذا الخطر والشعور به هو السبب في قيام المظاهرات العنيفة والعارمة التي فجرها الشباب في جميع انحاء العالم في فرنسا في الغرب في الصين واليابان في اقصى الشرق. ولعل هذا السبب ايضاً في تزايد اهتمام المثقفين فان تزايد اهتمام المثقفين من الشباب بالفلسفة الوجودية التي تعتبر فلسفة تنطوي على قدر كبير من المشاعر، اكثر من كونها فلسفة عقلانية وتعبر كل هذه المشاعر بأشكال مختلفة عن الضيق ونفاذ الصبر، وعن الاعتقاد بأن العنف هو السبيل الوحيد للفت الانظار والاهتمام، لدى السلطات والمسؤولين الذين يتكونون من مجموعة من البشر تفتقر إلى الانسانية.

وفي ظل هذا الواقع المعقد، سوف تصبح الحرب العالمية الثالثة حرباً من نوع يختلف عن الحربين العالميتين الاخيرتين، وعن اي حرب سابقة نعرفها، سواء كانت حرباً عالمية او اهلية. ومن حسن الحظ ان هذه الحرب ستكون مختلفة عن غيرها من الحروب، لانه إذا ما نشبت حرب عالمية ثالثة، فسوف تكون حرباً نووية.. من المستحيل علينا التنبؤ بما ستجلبه علينا من دمار وهلاك، الا ان الحرب العالمية الراهنة ليست حرباً تدور بين جيوش بشرية متصارعة، بل هي حرب دائرة بين الطبيعة الانسانية ضد التكنولوجيا.. وهي ثورة عنيفة قام بها افراد الجنس البشري ضد التقدم العلمي الذي يحاول القضاء على شخصياتهم وقيمهم الانسانية.. ويمكن وصف هذه الثورة



هل سيتسلم السلام؟

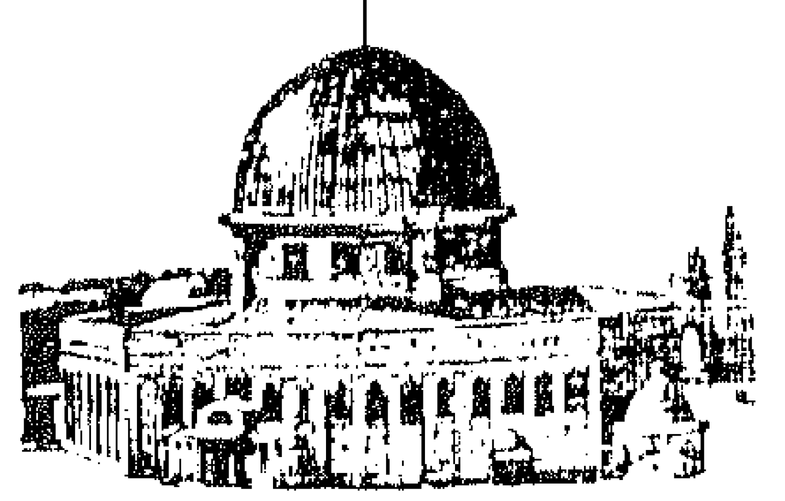
بأنها «حركة مقاومة» شرعية يقوم بها المناضلون من اجل الحرية، ضد ما وصفه الاديب الانجليزي المعروف الدوس هكسلي «بالعالم الجديد الشجاع».. ومع هذا فان هذه الحرب لا تخلو من العنف.. وتجري عمليات هذه الحرب على شكل مظاهرات تندلع في الشوارع، تتحدى ممثلي السلطة الرسمية في الدولة من رجال الشرطة وقوات الامن.. ويذهب بعض المتظاهرين إلى حد اقامة المتاريس في الشوارع والدروب، والقاء القنابل واطلاق النار على خصومهم. لكن الخسائر التي كانت تنجم عن هذه الاضطرابات، وعن هذا المظهر من مظاهر الحرب كانت طفيفة بالمقارنة بما ازهق من ارواح، وما فقد من ممتلكات في كل حرب من الحروب المحلية التي كان يستخدم فيها ما يسمى بالاسلحة التقليدية.

ونحن لا نستطيع التنبؤ بنتيجة الحرب العالمية الراهنة، وبنتيجة الصراع الدائر بين الانسان والتكنولوجيا! ويتساءل توينبي: هل يمكن للانسان ان يفرض ذاته ضد التكنولوجيا بدون ان يلجأ إلى تحطيم البيئة الصناعية التي قدمتها التكنولوجيا له؟ وهل سنعيش مزيداً من العمر عبيداً لهذا السيد الذي لا شخصية له؟ ان الاجابة على هذه التساؤلات في عام ١٩٦٩ ما زالت في علم الغيب.. لكن البشر في ايديهم ايضاً القدرة على فرض القيم الانسانية سواء بالانتصار على التكنولوجيا، او بالتعايش معها.. المهم هو ان يسود الحب والخير والحق.. وتلك قيم بسيطة في ظاهرها، ولكنها عسيرة المنال في حقيقة الامر. ◘



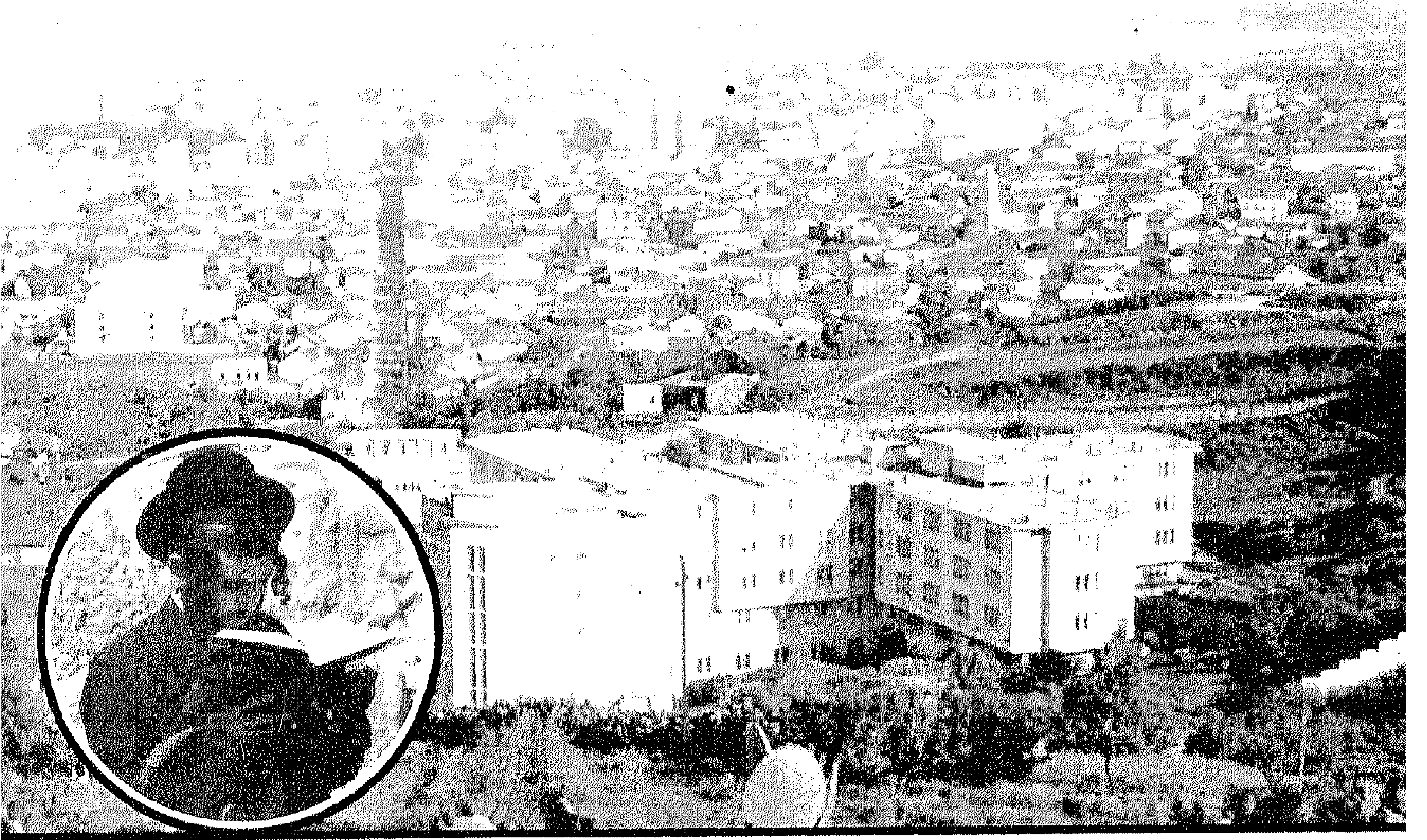
لفظ «خديوي»

«الخديوي» لفظ فارسي أصله «خديو» يلفظ «خديف» على الاصطلاح الفارسي، ومما يحسن ذكره أن هذا اللقب مشتق من أصل تشترك فيه اللغة الفارسية واللغات الجرمانية ويدل على اسم الجلالة فهو في الفارسية «خدا» وفي الانكليزية (God) وفي الالمانية (Gott) وفي الانكلوسكسونية (Gudh) وفي الدانماركية (Gud) وكلها تدل على اسم الجلالة وفيها معنى السيادة والسلطة فاختاروا لفظ «خديو» أو «خديوي» لقباً لأمير مصر تمييزاً له عن سائر ولاة الدولة العثمانية لأن مصر من الولايات الممتازة. وبالقياس على أعمال الدولة الاسلامية تعد مصر من «إمارات الاستيلاء» وهي أن يعقد الخليفة لأمير على إقليم اضطراراً بعد أن يستولي الأمير على ذلك الاقليم بالقوة. كذلك كانت الدولة الطولونية والدولة الأخشيدية بمصر منذ عشرة قرون. وأما صحة التلفظ بهذا الاسم فراجع للعادة.



يهود الجزائر

المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام «فلسطين» ١٩ - ٢٤ نيسان ١٩٨٠



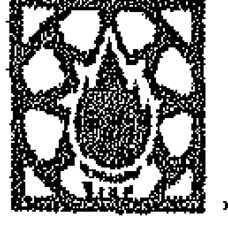
تقديراً من مجلة «تاريخ العرب والعالم» للمؤتمر الثالث لتاريخ الشام الذي عقد مؤخراً في عمان ما بين ١٩-٢٤ نيسان ١٩٨٠ الموافق ٤-٩ جمادي الثانية ١٤٠٠هـ. أعد «مركز التوثيق والأبحاث» في مجلة «تاريخ العرب والعالم» صورة ملخصة عن بعض البحوث التي قرئت في المؤتمر وكانت على جانب كبير من الأهمية والاثارة. على أن تنشر متتالية في المجلة والأولوية حسب أسبقية موافقة الكاتب.

وفي هذا المجال تود أن تؤكد أنها تقدر جميع البحوث المقدمة الى المؤتمر، كما أنها تقدر الجهود الكبيرة التي بذلتها جامعة عمان وجميع الجهات الرسمية وغير الرسمية التي عملت في سبيل انجاح هذا المؤتمر وتتمنى أن تستمر الجهود في جميع أنحاء الوطن العربي لدرس تاريخ العرب دراسة متعمقة مكثفة تضمن للعرب رؤية أوضح لتاريخهم وثقة أكبر بأن هذا التاريخ يكون ركيزة أصيلة لانطلاقهم في مجال بناء تاريخهم الحديث بناء سليماً ثابت البنيان.

كما تود أن تشكر جميع الباحثين والمؤرخين الذين أبدوا موافقتهم مشكورين على نشر أبحاثهم أو ملخصاً عنها في مجلة «تاريخ العرب والعالم».

ومَوقفهم من الحركة الصهيونيّة

د. ناصر الدين سعيدوني
جامعة الجزائر



ظلت الجزائر لمدة تزيد عن ألفي سنة من المواطن الرئيسية لاستقرار وتجمع اليهود، إذ تعود بداية انشاء المستعمرات اليهودية بالأرض الجزائرية الى العهد البونيقي الذي عرف قدوم مجموعات يهودية مهاجرة، استقرت في مستعمرات سكنية خاصة بها، ومنذ ذلك التاريخ المتقدم مرّ الوجود اليهودي بالجزائر بعدة مراحل متميزة، ارتبطت المرحلة الأولى بالفترة القديمة التي خضعت فيها الجزائر للحكم الروماني - الوندالي - البيزنطي، وقد لقي اليهود أثناءها معاملة حسنة من السكان الأصليين بعد أن رأوا فيهم عنصراً ساميا لا يختلف كثيرا عن الفينيقيين، وبعد أن لمسوا أن معاملة المستعمرين الرومان والبيزنطيين للطوائف اليهودية لا تختلف في شيء عن معاملتهم لباقي سكان البلاد.

ثم ابتدأت مرحلة ثانية في تاريخ اليهود بالجزائر مع الفتح العربي وانتشار الاسلام وقد وجد اليهود في المبادىء الاسلامية الداعية إلى المعاملة الحسنة لأهل الكتاب خير حافز على تدعيم نشاطهم التجاري والمهني فأصبحوا يحظون برعاية الأمراء الأغالبة والرستميين، ويتمتعون بعطف الخلفاء الفاطميين والملوك الحماديين وهذا ما دفع أحد الكتاب اليهود الى مقارنة حالة اليهود تحت الحكم الاسلامي بأوضاعهم السيئة في أغلب بلاد أوروبا، بهذه العبارة: «انهم كانوا أكثر سعادة في أرض الاسلام منهم في أغلب بلاد أوروبا حيث كانوا يتعرضون لأبشع الأحقاد».

أما المرحلة الثالثة للوجود اليهودي بالجزائر فتعود الى نهاية القرن الخامس عشر الذي عرف انهيار الأندلس الاسلامية وهجرة سكانها العرب بما فيهم اليهود إلى أقطار المغرب العربي. وكان عدد المهاجرين من اليهود يناهز مائة وخمسين ألفا، استقر قسم كبير منهم بالبلاد الجزائرية، وقد رأى فيهم الحكام الأتراك عنصرا حليفا في صراعهم مع الأسبان وعاملا اقتصاديا مهما لتنشيط التبادل التجاري مع موانىء المتوسط وتوفير بعض الصناعات الحرفية مثل ضرب العملة وأعمال الصياغة والنسيج. وهذا مما ساعد اليهود على أن يصبحوا منذ منتصف القرن الثامن عشر قوة اقتصادية كبيرة تحتكر جل المبادلات التجارية والأعمال المالية بالجزائر، وقد أدّى تزايد نفوذ اليهود الاقتصادي الى حدوث انتفاضات ضدهم منذ مطلع القرن التاسع عشر، وهذا ما زاد في عزلتهم وجعلهم موضع تشكك واشمئزاز من بقية السكان الذين رأوا في اليهود طائفة أجنبية لا تربطها بالبلاد سوى مصالحها الخاصة.

أما المرحلة الرابعة والأخيرة للوجود اليهودي بالجزائر فهي تربط بالاستعمار الفرنسي الذي وجد لدى اليهود تعاطفا مع سياسته التوسعية، واستعدادا للتعامل معه، وقد أدى ذلك الى حدوث أعمال عنف بين بعض الجزائريين واليهود الذين وضعوا أنفسهم في خدمة الجيش الفرنسي الغازي. وقد علق على ذلك أحد الكتاب اليهود بقوله: «كانت ميول اليهود الى جانب الجيوش الفرنسية الغازية. وهذا ما جعلهم يدفعون ثمن ذلك من دمهم».

هذا وسوف نركز في بحثنا على وضعية اليهود بالجزائر تحت السيادة الفرنسية، وما يترتب عنها من علاقة خاصة بالحركة الصهيونية وذلك من خلال التعرض للنقاط التالية بشكل مختصر ومركز:

١ - موقف فرنسا من يهود الجزائر.
٢ - موقف يهود الجزائر من السياسة الاستعمارية الفرنسية.
٣ - علاقة اليهود مع كل من المعمرين

الاوروبيين والمسلمين الجزائريين.
٤ - الاحتكاك بالحركة الصهيونية العالمية.
ومن ثم نهاية الوجود اليهودي بالجزائر بفعل تطور الحركة الوطنية الجزائرية وتراجع الاستعمار الفرنسي وتزايد نشاط الحركة الصهيونية في كل من الجزائر وفرنسا.

(أ) موقف فرنسا من يهود الجزائر:

سعت الادارة الفرنسية بالجزائر منذ السنوات الأولى للاحتلال الى ربط اليهود بالوجود الاستعماري ليكونوا عونا للجيوش الفرنسية، وأداة مساعدة في اخضاع السكان والتحكم في اقتصاديات البلاد، ولهذا سنت السلطات الفرنسية بالجزائر سلسلة من القرارات والمراسيم قصد ادماج اليهود في المجموعة الفرنسية.

كانت الخطوات التمهيدية لادماج يهود الجزائر في المجموعة الفرنسة، قد ابتدأت في اجراءات عملية لاعطائهم حق المواطنة الفرنسية، وكانت فاتحة هذه الاجراءات تلك التنظيمات التي سنها الملك لويس فيليب سنة ١٨٤٨، التي اخضعت يهود الجزائر لنفس التنظيمات التي كانت تنظم حياة اليهود بفرنسا. وأنشىء لهذا الغرض مجمع ديني لعموم يهود الجزائر. يتفرع الى ثلاثة مجامع دينية على مستوى الولايات الثلاث آنذاك، وهي قسنطينة والجزائر ووهران، كما أقرت هذه التنظيمات اجبارية اللغة الفرنسية بالمدارس الدينية الخاصة باليهود.

ثم سارت الامبراطورية الفرنسية الثانية في نفس هذا الاتجاه فمنحت المجامع الدينية اليهودية حقوق الأحوال المدنية، الأمر الذي ساعد على الغاء المجمع الديني لعموم يهود الجزائر، الذي أصبح تحت اشراف وتوجيه المجمع الديني المركزي لعموم يهود فرنسا وهذا ما أقره مرسوم ١٦ سبتمبر ١٨٦٧

بعد هذا بادر الوزير كريمو بتقديم قرار يمنح الجنسية الفرنسية لكافة يهود الجزائر فأقره مندوبو حكومة الدفاع الوطني بمدينة تور(Tour) في ٢٤ أكتوبر ١٨٧٠. وقد عرف هذا القرار الشهير بقرار كريميو وعلى كل فان قرار كريميو سوف ينتج عنه آثار بعيدة المدى على مستقبل يهود الجزائر، فهو قد قطعهم من جذورهم التاريخية وأبعدهم عن بقية أفراد الشعب الجزائري المسلم بدون مبرر، وعمق الشعور المعادي لهم بين الأهالي المضطهدين الذين رأوا في قرار التجنيس الجماعي لليهود اهانة بالغة واجراء مجحفا في حقهم.

(ب) موقف يهود الجزائر من السياسة الاستعمارية الفرنسية:

أما موقف يهود الجزائر من السياسة الاستعمارية الفرنسية الرامية إلى ادماجهم وتسخيرهم لخدمة الأهداف الاستعمارية. فهو يتلخص في أن اليهود أبدوا منذ تعرض الجزائر للاحتلال تعاطفا مع جيوش الاحتلال، واستعداداً للقيام بمهمة الوساطة بين الحكام الفرنسيين والأهالي الجزائريين، وقد شجعهم على ذلك اشتغالهم بالتجارة وتفطنهم الى الفوائد الجمة التي سوف تعود عليهم من جراء السياسة الاستعمارية التي تُصبغ الامتيازات، وتوفر الحماية لكل أقلية مستعدة للتعامل معها على حساب مصالح بقية السكان، وبفعل نظرة اليهود النفعية إلى الأشياء التحق الأطفال اليهود منذ السنوات الأولى للاحتلال بمدارس الرابطة الاسرائيلية العامة (L'alliance Israélite Universelle)، التي تأسست بمبادرة من يهود فرنسا بالمدن الجزائرية الكبرى. وقد تلقت فيها أجيال اليهود الناشئة الثقافة الفرنسية واكتسبت عن طريقها السلوك والعادات الأوروبية، مما أبعدهم عن بقية الشعب الجزائري ومكنهم من الاندماج بالجالية الأوروبية بالجزائر، وتستدل على ذلك بكثرة حالات الزواج المختلط بين اليهود والأوروبيين ففي سنة ١٩١١ سجلت ٣١٩ عقد زواج بين اليهود والأوربيين مقابل ٣٠٤ عقد زواج تم بين أفراد الجالية اليهودية.

وعلى كل فان تمكن اندماج اليهود في بوتقة الثقافية الفرنسية وتشربهم الحضارة الغربية في فترة قصيرة لم يمكن متيسرا لولا تلك القرارات المتعاقبة التي سنها الفرنسيون قصد ادماجهم وتمثلهم. وتلك الجهود المضنية التي بذلها يهود فرنسا بالتنسيق مع زعماء اليهود بالجزائر.

بتقديم المساعدات المالية والتطوع للتعليم في المدارس اليهودية، وهذا ما دفع أحد الكتاب اليهود الى أن يؤكد بأن «مدارس الرابطة الاسرائيلية العامة بالمدن الكبرى بالجزائر هي التي غرست في قلوب اليهود بالجزائر حب الحضارة الغربية والتعلق بها». وان اقتضت الظروف كان كبار يهود فرنسا يسعون لاقناع الحكومات الفرنسية المتعاقبة بضرورة رعاية اليهود في الجزائر ومنحهم الامتيازات التي تساعدهم على الاندماج في الوسط الفرنسي، وفي هذا الشأن نذكر أن رئيس وزراء فرنسا تيار اضطر أن يوقع قرار كريميو حتى يتمكن من الحصول على قرض قيمته خمسة ملايين فرنك من احد البنوك اليهودية الكبرى، وذلك حتى يسدد جزءاً من تعويضات الحرب التي فرضتها ألمانيا على فرنسا أثر الحرب السبعينية.

وعلى كل فان عملية دمج يهود الجزائر في المجموعة الفرنسية التي تحققت بفعل تضافر التشريعات الفرنسية والميول اليهودية التي رأت في الاستعمار الفرنسي خير وسيلة لتحقيق مصالحها، قد ارتبطت بأوضاع خاصة تمثلت بالخصوص في التطور الديمغرافي والنشاط الاقتصادي الذي كان يمارسه أفراد الطائفة اليهودية بالجزائر.

فبالنسبة للتطور الديمغرافي نلاحظ أن عدد اليهود قد تضاعف الى ما يقرب من ثلاث مرات في ظرف مائة سنة، فبعد أن كان يناهز ٣٠ ألف نسمة عام ١٨٣٠، أصبح يقدر سنة ١٩٣٠ بـ ٨٠ ألف نسمة. وكانت الزيادة الطبيعية أثناء هذه الفترة ١٨٪. ونسبة الخصوبة تتراوح ما بين ٣٧ إلى ٣٩٪. وفي إحصاء عام ١٩٣١ كان عدد اليهود الاجمالي بما فيهم يهود الصحراء يبلغ ١١٠,١٢٧ نسمة. مما يجعل نسبتهم ١,٦٨٪ من مجموع السكان المسلمين البالغ عددهم ٥,٥٩٣,٠٤٥ نسمة، والأوربيين الذين كانوا يناهزون ٨٥٠,٢٧٩ نسمة، وكان أغلب اليهود يتركزون بالمدن الكبرى وهي الجزائر ٢٣,٥٥٠ نسمة، وقسنطينة ١٣١١٠ نسمة، وتلمسان ٥٤٣٦ وصاحب هذا التطور الديمغرافي تزايد نفوذ اليهود الاقتصادي إذ أصبحوا في مطلع القرن العشرين يستحوذون



الرئيس غي موليه في الجزائر (٦شباط ١٩٥٦)

على جزء هام من المبادلات التجارية ويتحكمون في العديد من الوظائف الادارية والمهن الحرة، ونستدل على ذلك من احصاء يعود إلى أول جويلية ١٩٠٠، فمن مجموع ١٠٢٤ فرد يهودي أجرى عليه الاحصاء نجد أن هناك ٥١ من ذوي المهن الحرة و٥٢ من الموظفين و٣٤٥ تاجرا و٥٦٦ عاملا أو تاجرا صغيرا، كما أن الجالية اليهودية بمدينة تلمسان في نفس السنة، كان أفرادها العاملون يصنفون على الشكل التالي: ٤٦٥ عاملا وتاجرا صغيرا و٢٠٨ تاجرا و٢٠ موظفا أو مستخدما في الادارة المحلية.

(جـ) علاقة اليهود مع كل من المعمرين الفرنسيين والمسلمين الجزائريين:

لقد أدى النجاح الاقتصادي الذي حققه اليهود في ظل الحماية الاستعمارية الى اثارة مخاوف المعمرين الفرنسيين الذين كانوا يرون بأنهم وحدهم الجديرون بحكم الجزائر واستغلال

خيراتها، وقد أدى هذا التخوف الى ظهور نزعة معادية لليهود من جماعات المعمرين الذين لاحظوا أن الوضع الاجتماعي المميز والثقل السياسي الذي بدأ يمارسه بعض اليهود قد أضر بمكانتهم ونفوذهم، لاسيما وأن أحد الزعماء اليهود وهو سيمون كانويه (Simon Kanoui) كان يتبجح بقوله: «أن لا أحد يستطيع أن يتسلم مقاليد البلدية بدون أن أمنحه مفاتيحها».

هذا وقد اتخذت هذه النزعة المعادية لليهود طابعا قوميا وشعورا وطنيا لدى الأوساط اليمينية من المعمرين فتسببت في حدوث بعض التحرشات بين أفراد من اليهود وجماعات من الأوروبيين طيلة السنوات الممتدة من عام ١٨٦٥ الى ١٩٠٢. وقد اتخذت في بعض الأحيان شكل صراع عنيف كما حدث في سنوات ١٨٩٧ - ١٨٩٨ - ١٨٩٩

هذا وقد كانت المصاعب الاقتصادية التي واجهت الأوروبيين في الجزائر أواخر القرن الماضي من جراء التضخم المالي العالمي وهبوط أسعار الحبوب وأزمة الخمور حافزا على هذا التنافس بين اليهود والمعمرين وهذا ما عبر عنه الزعيم اليهودي المعروف ماكس نوردو (Max Nordau) بقوله «ان النزعة المعادية لليهود في الجزائر كانت نتيجة للوضع الممتاز الذي حصلوا عليه منذ عشرين سنة»، ويضاف الى هذا العامل الاقتصادي الذي أدى الى توتر العلاقة بين الأوروبيين واليهود ردود الفعل التي أحدثتها قضية درايفس المشهورة (L'affaire Dreyfus) التي كثر الجدل حولها وأحدثت هزة عنيفة في الرأي العام الفرنسي وفي أوساط المعمرين بالجزائر وهذا ما دفع المؤتمر الصهيوني الثاني المنعقد ببال أواخر آب ١٨٩٨، إلى مناقشة الآثار التي أحدثتها قضية درايفس على يهود الجزائر، وقد نعت هذه القضية الزعيم اليهودي نوردو «بأنها أصبحت تشكل خطرا داهما على يهود الجزائر».

ومع مطلع القرن العشرين هدأت الأوضاع وتوجهت اهتمامات المعمرين وجهود اليهود الى استغلال طاقات الشعب الجزائري فلم تظهر النزعة المعادية لليهود بين فرنسيي الجزائر إلا في مطلع العشرينات وأواسط الثلاثينات وعلى العكس من هذا الموقف المعادي لليهود الذي اتخذه المعمرون بالجزائر نجد أن الجزائريين المسلمين حاولوا جاهدين التعامل مع اليهود وخلق علاقات تتصف بحسن الجوار والتعامل الأخوي، ولكن بدون طائل، إذ اتخذ منهم اليهود موقفا معاديا بدافع الشعور بالتفوق واظهار الثقة بالنفس الى حد الغرور، وكانوا يرمون من وراء هذا الشعور بالتفوق والثقة التخلص من الاهانات التي يسلطها عليهم الفرنسيون ذوو الاتجاهات اليمينية المتطرفة، وهذا ما أثار المسلمين وجعلهم يقفون من اليهود موقف الحذر والتحفظ وقد عبر عن ذلك أحد الكتاب الجزائريين آنذاك بقوله: «إن الأهالي ليسوا معادين للسامية ولا يستطيعون أن يكونوا كذلك لأن تعاليم الرسول (ص) تنهاهم عن ذلك، ولكن التذمر العميق من اليهود تسبب فيه غطرسة اليهود الأثرياء الذين أصبحوا يشعرون بالتفوق منذ أن أصبحوا فرنسيين، ولهذا على اليهود الذين هم الآن في وضع ممتاز أن لا ينسوا أن العجلة تدور وأن تصرف بعض العناصر منهم يمكن أن يبعد عنهم روح التسامح والتعاطف».

وبالفعل أدى هذا الموقف المعادي الذي وقفه اليهود أزاء الشعب الجزائري الى حدوث قطيعة أبدية وعداء مستحكم بلغ أوجه أثناء حوادث قسنطينة التي تسبب فيها أحد الجنود اليهود من فرقة الزواف الذي لم يتورع على البول على حائط مسجد المدينة مساء يوم ٣ آب سنة ١٩٣٤، وبعد وقوع مشاغبات سارع شيخ مدينة قسنطينة والنائب بالبرلمان الفرنسي أميل مورينو الى الاستنجاد بفرقة من الجنود لحماية الحي اليهودي المهدد بأعمال العنف، التي لم تلبث أن تجددت أثر تحرش أحد اليهود باطلاق النار من احدى النوافذ على جموع المسلمين مما أثار السخط والهياج وتسبب في احداث دموية يوم ٥ آب، وكانت حصيلة هذا التصادم الذي كرس القطيعة بين اليهود والمسلمين بالقطر الجزائري، قتل ٢٥ شخصا وجرح ٦٠ آخرين، وحرق ٤ مساكن ونهب ٣٠٠ مغارة ومحل تجاري من جانب اليهود، وقتل ٤ من المسلمين وجرح العديد منهم وقد علق الامام الشيخ عبدالحميد ابن باديس على هذه الأحداث الطائفية ووصفها بأنها رغم كونها فاجعة إلا أنها تدخل في اطار

«مشبوهون»
تحت رحمة بنادق
فرنسية



غريزة الدفاع عن النفس التي حسب تعبيره نزعة فطرية في الانسان كما طالب بنزع السلاح من اليهود وأشاد بتعقل ورصانة وحكمة النواب المسلمين، ووصف ادعاءات ممثل اليهود لولوش بأنها تقوّل بالباطل ينم عن أمراض قلبية ويدل على قلة الأدب وافلاس السياسة.

(د) احتكاك يهود الجزائر بالحركة الصهيونية:

بعد هذه اللمحة الوجيزة عن تطور أوضاع اليهود تحت السيادة الفرنسية يجدر بنا أن نتناول العلاقات المتبادلة بين يهود الجزائر والحركة الصهيونية، محاولين اظهار طبيعة هذه العلاقات ونوعية التأثير الذي نتج عنها والانعكاسات التي تركتها على القضية الفلسطينية وعلى أوضاع الجزائر الداخلية، ونظرا لتطور هذه العلاقة وتداخل الأحداث التي تميزت بها، سوف نتعرض اليها من خلال فترتين أولاهما تعود الى ما قبل انشاء الكيان الصهيوني على الأرض العربية بفلسطين. وثانيهما تتصل بالفترة اللاحقة التي أصبحت فيها اسرائيل قوة عدوانية ذات تأثير مباشر على يهود العالم.

فبالنسبة الى **الفترة الأولى** التي تبتدىء بالمؤتمر الصهيوني الأول المنعقد ببال عام ١٨٩٧ وتنتهي بكارثة عام ١٩٤٨، نلاحظ أن دعاة الصهيونية العالمية عملوا جاهدين على استمالة يهود الجزائر الى الفكرة الصهيونية واقناعهم بضرورة التمسك بها، وتؤكد الوثائق أن الاتصال بين يهود الجزائر ودعاة الصهيونية كان مبكرا إذ حضر المؤتمر الأول الصهيوني أحد يهود قسنطينة وهو عتالي (E.Attali) كما أن المؤتمر الصهيوني الخامس المنعقد ببال عام ١٩٠١ أقر بوجود جماعات صهيونية بمدينتي قسنطينة والجزائر. وكانت خطة دعاة الصهيونية لاستمالة يهود الجزائر تقوم على استخدام الفدرالية الصهيونية بفرنسا (La Fédération Sioniste de France) باعتبارها همزة وصل بين طلائع الصهيونية والأوساط اليهودية بالجزائر، وقد تمكنوا بفضل هذه الخطة من جلب بعض اليهود الجزائريين، الذين أصبحوا أعضاء في الحركة الصهيونية وكان عددهم يقدر عام ١٩١٩

بـ ٢٤ في مدينة الجزائر و٣٠ في مستغانم و١٢٩ في تلمسان و١٩٧ في المدية، كما استطاعوا في هذه الظروف أن ينشئوا فرعا للاتحاد العام للشبيبة الصهيونية بناحية وهران تحت رئاسة أحد دعاة الصهاينة وهو هالبيران (Halpérin)، وفي نفس الوقت تمكن المندوب الصهيوني هايسود (Le Karen Hayssed) من جمع مبلغ مالي قدر بحوالي ١٦٥٠٠٠ فرنك لفائدة المنظمة الصهيونية العالمية.

وعلى كل فان هذه النتائج التي استطاعت الحركة الصهيونية تحقيقها بالجزائر، تعتبر ضئيلة بالمقارنة الى غنى الأقلية اليهودية بالجزائر، كما تعتبر هامشية نظرا لكونها ظلت منحصرة في مجموعات منعزلة عن الجماعة اليهودية، ومرد هذه الصعوبات التي واجهت الحركة الصهيونية في تحويل أنظار يهود الجزائر الى فلسطين يعود حسبما نرى الى عدة أسباب منها ما هو حضاري يتمثل في أن يهود الجزائر قد اكتسبوا منذ وقت مبكر الجنسية الفرنسية - كما أوضحنا ذلك سابقا - واندمجوا في بوتقة الحضارة الغربية، وهذا ما أكسبهم طابعا أوروبا وميولا فرنسية ليبرالية بخلاف الأقليات اليهودية الأخرى بباقي أقطار المغرب العربي، وبالتالي ضعف تأثير الدعاية الصهيونية عليهم، بل رأى الكثير منهم فيها فكرة غريبة عنهم تتعارض أساسا وأهداف الرابطة الاسرائيلة العالمية (L'alliance Israélite Universelle) التي انتشئت عام ١٨٦٠.

ومن هذه الأسباب أيضا ما هو **اقتصادي** نتج عن المكانة الممتازة التي حصل عليها اليهود في الجزائر، إذ أصبحوا يهيمنون على أهم المهن الحرة ويتحكمون في العديد من الأعمال التجارية والمصرفية، ويتصرفون في مختلف الوظائف الادارية، مما جعل الكثير منهم يرى في الدعوة الصهيونية خطرا قد ينجرّ عنه الحاق الضرر بمكاسبهم، لاسيما وأنهم كانوا يتمتعون بالأمن وينعمون بالحماية في اطار القانون الفرنسي، ولم تكن تخطر ببالهم أنهم سوف يتعرضون في المستقبل القريب أو البعيد إلى أي خطر من جانب الأوروبيين أو المسلمين على السواء، ومما زاد في تخوفهم من الدعوة الصهيونية تلك المقالات التي واظبت على نشرها بعض الجرائد الفرنسية مثل لوبوتي جرنال (Le petit Journal) التي ما فتئت تحذر الهود من مغبة الانزلاق وراء مخاطر الدعوة الصهيونية، وتدعوهم باستمرار الى التمتع بالحقوق التي يوفرها القانون لمجموع الأمة الفرنسية. ولا نفاجأ في مثل هذه الظروف الاقتصادية والحملات الصحفية أن نجد أن أحد زعماء الحركة الصهيونية وهو سيلفيان ليفي (Lévy Sélvian) يعارض جهارا مخطط دعاة الصهيونية في مؤتمر السلام المنعقد بباريس ١٩١٩ خوفا من خلق الولاء المزدوج لدى اليهود ولعدم امكانية فلسطين لاستقبال كافة اليهود، ونفورا من يهود روسيا ذوي الميول اليسارية الذين قد يساهمون في خلق بؤرة ثورية في فلسطين حسب استنتاجاته. كما يوجد سبب آخر ذو طابع **ديني** ساهم في اضعاف الحركة الصهيونية، بين يهود الجزائر، ومرده أن رجال الدين من اليهود ظلوا طيلة الفترة الاستعمارية يحرصون على تنظيم حياة الجماعة اليهودية بالجزائر وابقائها تحت رعايتهم واشرافهم، ولهذا سعوا الى تأسيس فدرالية خاصةبيهود الجزائر لا تخضع لتوجيهات المجمع الديني لعموم يهود فرنسا، هذا المجمع الذي كان يمارس نوعا من الهيمنة اعتبره بعض اليهود شكلا من أشكال التبعية والاستعمار. بدليل أن أحد الكتاب اليهود كتب ما يلي: «كما أن فرنسا استعمرت الجزائر فان اليهود الفرنسيين قد استعمروا بدورهم الجماعة اليهودية بالجزائر».

أما المرحلة **الثانية** لاتصال الحركة الصهيونية بيهود الجزائر فهي تبتدىء بانشاء الكيان الصهيوني بفلسطين، وتستمر الى ما بعد استقلال الجزائر، وأثناءها حققت الحركة الصهيونية نجاحا ملحوظا في أوساط يهود الجزائر فأنشئت عدة فروع تابعة لمنظمة الشباب الصهيوني انخرط فيها العديد من الشباب اليهود، كما تمكن الاتحاد النسائي الصهيوني (W.I.Z.O.) من تحقيق مكاسب ساعدته على جمع مبالغ مالية لفائدة دولة اسرائيل وهذا ما ساعد على حضور عدة وفود تمثل يهود الجزائر في المؤتمرات الصهيونية التي انعقدت بالقدس وهي المؤتمرات: الثالث والعشرون

مدينة وهران



(١٩٥١) الرابع والعشرون (١٩٥٦) والخامس والعشرون (١٩٦٠).

ولعل أهم نجاح حققته الحركة الصهيونية لدى يهود الجزائر، يتمثل في تشجيعها لكثير من اليهود على الهجرة الى اسرائيل، واستقبالها لجماعات اليهود المغاربة في طريقهم الى فلسطين، وقد انشئت لهذا الغرض معسكرت تجمع وتهيئة وتدريب قبل رحيلهم الى فلسطين عن طريق مرسيليا.

وهناك سبب آخر يعود الى تطور الكفاح الوطني الجزائري واتخاذه شكل نضال مسلح ضد الوجود الفرنسي وأعوانه بالجزائر وكان في طليعتهم اليهود الجزائريون رغم أن الثورة الجزائرية حاولت أن تبقي اليهود خارج صراعها مع الاستعمار. وتوجهت اليهم بعدة نداءات تناشدهم فيها بأن لا يربطوا مستقبلهم في الجزائر بالوجود الاستعماري.

كل هذه النداءات لم نستطع اقناع اليهود بضرورة مسايرة كفاح الشعب الجزائري والتجاوب مع مطامحه التحررية، فباستثناء أفراد قلائل من الأقلية اليهودية، أبدوا تفهما وتجاوبا مع الثورة الجزائرية، ظلت الغالبية الساحقة من اليهود الجزائريين تتفرج على النزاع المحتدم، بل انضّمت جماعات كثيرة من اليهود الى جهاز القمع الفرنسي المسلط على الشعب الجزائري، مثلما حدث بقسنطينة يوم ١٢/ايار/ عام ١٩٥٦ من مجازر وحْشية ضد السكان المدنيين العزل على يد المتطرفين من اليهود. كل هذه الأسباب شجعت الكثير من يهود الجزائر على الهجرة الى فلسطين، هذه الهجرة التي مرت بالمراحل التالية:

١ - المرحلة **الأولى** الممتدة من ١٩١٩ الى ١٩٤٨. لم يهاجر أثناءها إلا عدد ضئيل جدا من يهود الجزائر لضعف تأثير الحركة الصهيونية كما سبقت الاشارة الى ذلك، وكان هؤلاء المهاجرون يؤلفون أقلية ضئيلة ضمن بقية المهاجرين اليهود من أقطار المغرب العربي الذين كانوا يقدرون بـ ٤٩٤ يهوديا. أي بنسبة ٠,٧٪ الى مجموع المهاجرين اليهود الآخرين.



...نحو «أرض الميعاد»

٢ - المرحلة **الثانية** من ١٩٤٨ الى ١٩٥٤. تزايد فيها عدد المهاجرين من يهود الجزائر حتى بلغ ٢٦٠٠٠ مهاجر. مقابل ١٤٠٠٠ من تونس و٢٨٠٠٠ من المغرب الأقصى و٣٢٥٠ من ليبيا.

٣ - المرحلة **الثالثة** من ١٩٥٤ الى ١٩٦٢، هاجر أثناءها ما ينيف عن ١٨ ألف يهودي من الجزائر إلى فلسطين المحتلة من مجموع ١٤٠ ألفا كانوا يؤلفون الجماعة اليهودية بالجزائر.

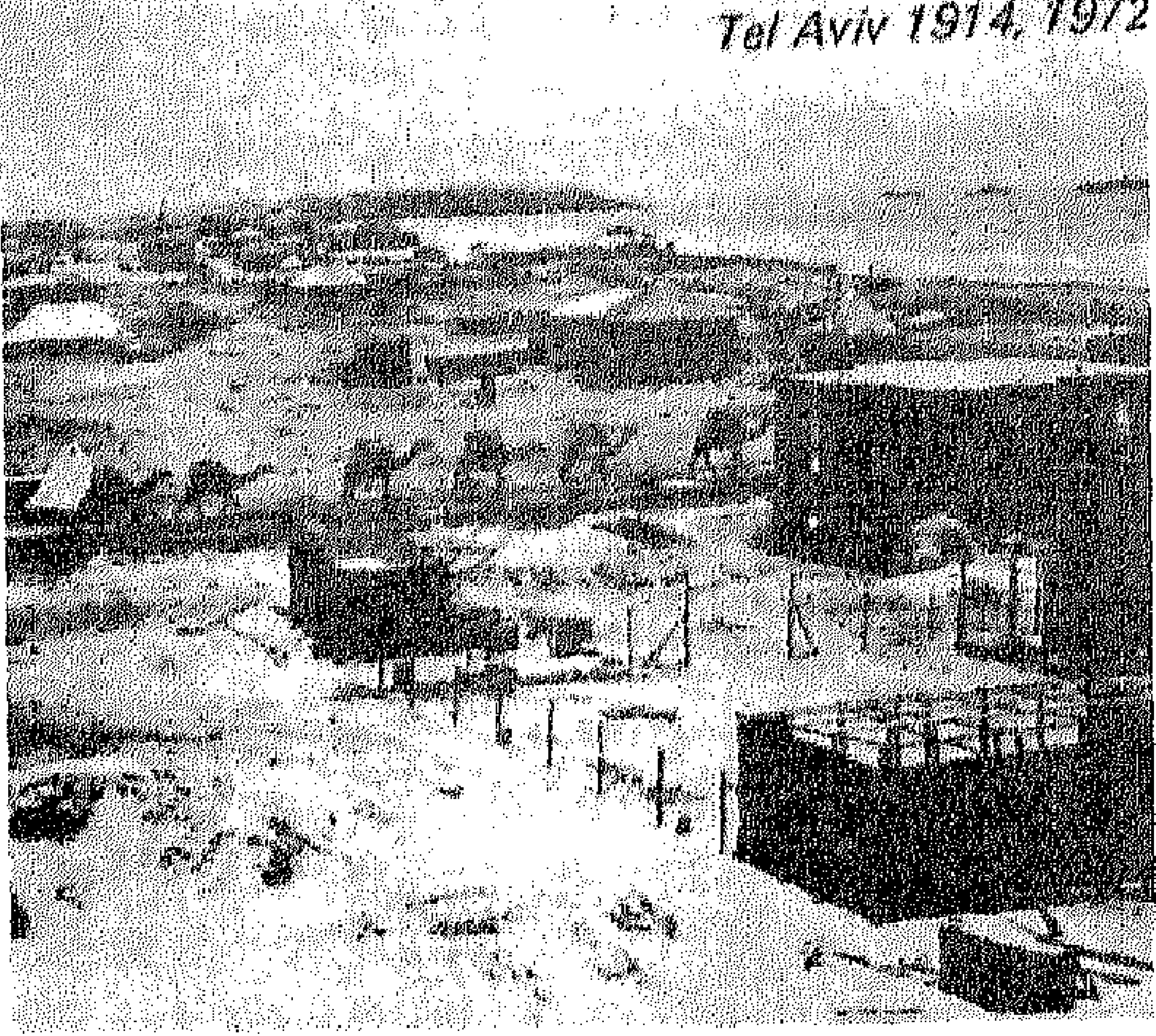
٤ - المرحلة **الرابعة** والأخيرة من ١٩٦٢ - ١٩٦٨، عرفت منذ بدايتها نزوحا جماعيا لليهود الجزائريين نحو فرنسا أو اسرائيل، إذ هاجر في عام ١٩٦٢ ما ينيف عن ٢١ ألف يهودي، واستمرت هذه الهجرة حتى لم يبق من اليهود بالجزائر عام ١٩٦٧/٦٦ سوى ٥٠٠٠ نسمة ثم تناقصوا الى حوالي ٢٠٠٠ نسمة عام ١٩٦٨، ولم يبق منهم أخيرا سوى ١٣٠٠ يهودي يقيم ٥٠٠ منهم بمدينة الجزائر و٧٠٠ بوهران، وهم الآن في حدود ألف نسمة، ظل مجملهم يحتفظ بالجنسية الفرنسية سوى ما يقرب من ٣٠ شخصا آثروا الحصول على الجنسية الجزائرية وأغلبهم من المسنين والشيوخ. ومما يلاحظ أن الثورة الجزائرية قد تركت اثاراً عميقة في نفسية اليهود الجزائريين وأشعرتهم بصدى الخطأ الذي ارتكبوه في حق الشعب الجزائري، كما أثارت القلق إذ أصبح الكثير منهم يتساءل عن مصيره وعن المعسكر الذي يمكن أن ينضم اليه. وتراءت لبعضهم امكانية ظهور النزعة المعادية لليهود في فرنسا من اجراء تصفية المسألة الجزائرية وتغير السياسة الفرنسية تبعا لذلك.

بعد هذا نتطرق أخيرا الى أهم النتائج التي أسفرت عنها **علاقة الحركة الصهيونية بيهود الجزائر**، والتي نلخصها في النقاط التالية:

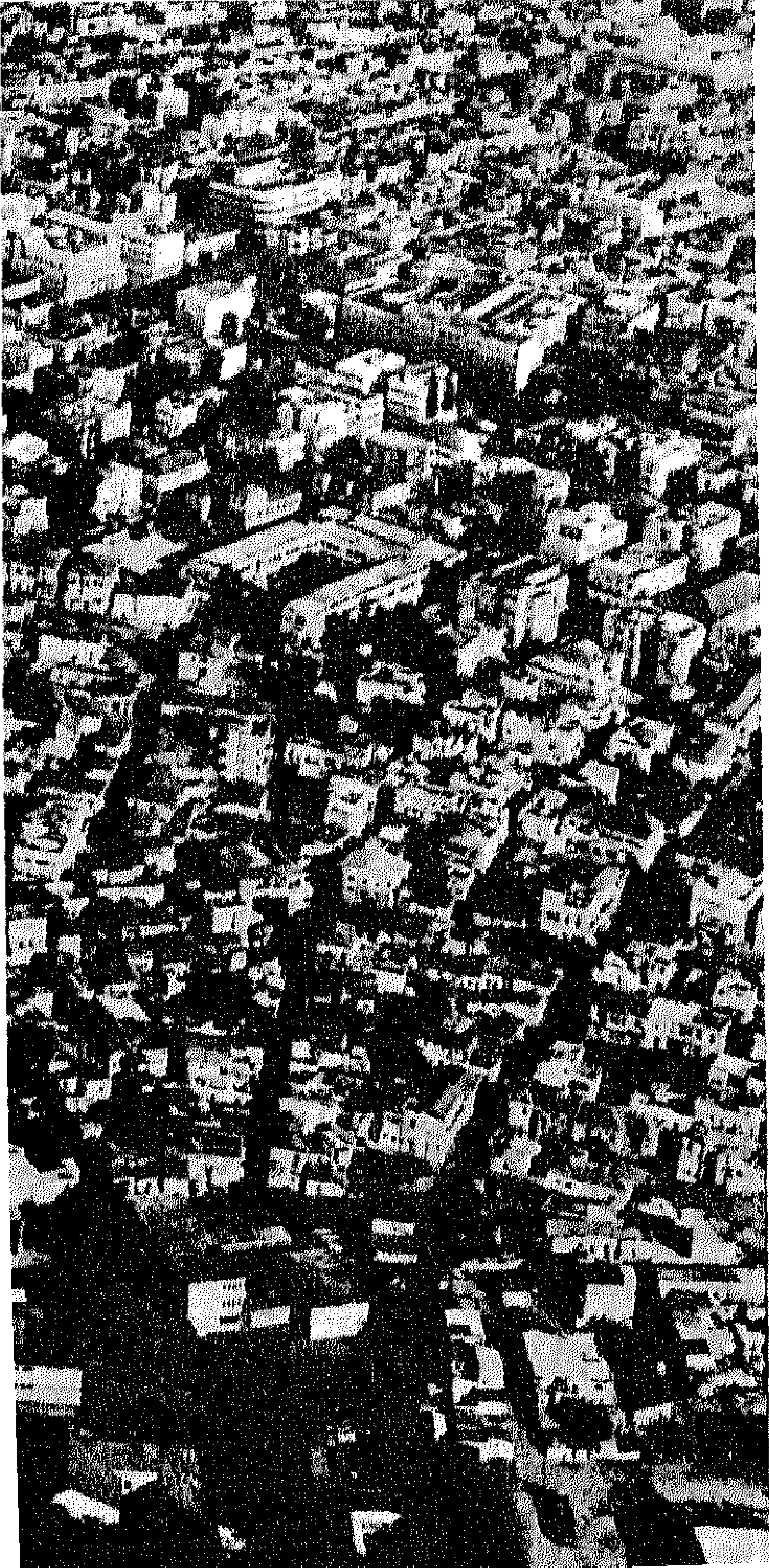
١ – يتميز يهود الجزائر عن باقي يهود المغرب العربي بأنهم أصبحوا بفعل الاندماج في البوتقة الفرنسية والمكانة المرموقة التي حصلوا عليها في ظل النظام الاستعماري بالجزائر، يعتبرون من اليهود الغربيين «الاشكنازيم» رغم أصولهم الشرقية «السفرديم» وذلك اعتمادا على طابعهم وميولهم التي اكتسبوها بفعل الثقافة الفرنسية والتي كانت سببا مباشرا في اضعاف الوازع الديني لفائدة الميول السياسية والمكاسب الاقتصادية، وهذا ما أضعف حماسهم للهجرة الى اسرائيل على أن هذا لا يعني مطلقا أنهم كانوا لا يتعاطفون مع سياسة اسرائيل ولا يتجاوبون مع مشاريعها التوسعية، بل أن غالبية يهود الجزائر رأوا في التحالف مع اسرائيل رجوعا الى ضميرهم واثباتا لهويتهم كيهود، وهم في هذا يماثلون اليهود الغربيين الذين يعتقدون أن مصيرهم مرتبط بمصير الدولة اليهودية بفلسطين.

٢ – لم يـر اليهود الجزائريون في الهجرة الى اسرائيل حلا لمشاكلهم، وضمانا لمستقبلهم، وهذا ما سبب خيبة أمل في اسرائيل، حيث فسر سلوك يهود الجزائر حتى من أكثر المعتدلين بأنه بمثابة فشل ذريع للأديولوجية الصهيونية التي لم تعمل على تهيئتهم للقدوم الى اسرائيل ولم تحرص على استقبالهم مستدلين على ذلك برسالة مؤرخة في ٣١ جوان ١٩٤٤، بعثتها الوكالة اليهودية الى رئيس فرع الحركة الصهيونية بالجزائر العاصمة: هالير (B. Haler)، تعلمه فيها بأن جهود الوكالة سوف تركز على تهجير اليهود من المناطق المعادية، وبالتالي لا تعطي الأسبقية ليهود المغرب العربي نظرا لتوفر الحماية الفرنسية لهم، وعلى كل فان اليهود الذين انتقلوا من الجزائر الى فرنسا بنية الهجرة الى اسرائيل عدلوا أخيرا عن قصدهم وأثروا الاقامة بفرنسا محتفظين بالجنسية الفرنسية بعد أن حصلوا على أعمال مناسبة ووجدوا تعاضد لدى اليهود الفرنسيين.

٣ – كانت فرنسا بمثابة منطقة جذب واستقطاب لليهود الجزائريين، الذين آثروا الاقامة بها على الانتقال الى اسرائيل، ففي هذا الصدد نلاحظ أن غالبية اليهود الذين هاجروا من



تل أبيب سنة ١٩١٤ وسنة ١٩٧٢



الجزائر بين ك١ ١٩٦١ وتموز ١٩٦٢ فضلوا الاستقرار بفرنسا، كما أن نسبة ٣,٧٪ من اليهود المهاجرين ما بين ١٩٤٨، ١٩٦١ من أقطار المغرب العربي ومن ضمنها الجزائر استقروا في كل من فرنسا وكندا وعاد البعض منهم الى مواطنهم الأولى بالمغرب العربي، ولهذا فلا نستغرب إذا عرفنا أن عدد اليهود الذين هاجروا الى اسرائيل ما بين ١٩٥٢ و١٩٦١ يماثل تقريبا عدد يهود المغرب العربي الذين غادروا اسرائيل متوجهين الى الأقطار الأوروبية وأميركا.

٤ - رغم النتائج التي حصلت عليها الحركة الصهيونية لدى يهود الجزائر والتي سبقت الاشارة اليها، إلا أنها في واقع الأمر ظلت تعتبر نتائج متواضعة إذا ما قارناها بالنجاحات التي حصلت عليها مع يهود المغرب وتونس وليبيا وكذلك إذا أخذنا بعين الاعتبار الجهود الضخمة والدعاية المكثفة والتسهيلات المتوفرة لاستقطاب اليهود وتوجيههم نحو فلسطين المحتلة، فكل ذلك لم يستطع أن يقنع غالبية اليهود الجزائريين بالتخلي عن الامتيازات الاقتصادية في كل من الجزائر وفرنسا، وتقبل الأوضاع باسرائيل وما تستلزمه من سلوك خاص وما تفرضه من تقشف وتضحية.

٥ - ان هجرة يهود الجزائر الى اسرائيل كانت تتم في أغلب الأحيان على مرحلتين، الأولى يتوجه أثناءها المهاجرون الى فرنسا حيث يجمعون في معسكرات تهيئة، وكان في طليعة هذه المعسكرات معسكر أروناس (Aronas) القريب من مرسيليا الذي وضعته السلطات الفرنسية تحت تصرف الوكالة اليهودية عام ١٩٤٥، وبعد أن أدخلت عليها اصلاحات تم تهجير ما ينيف عن ٢٥٧٠٠٠ مهاجر يهودي الى اسرائيل أغلبهم من أقطار المغرب العربي، وذلك طيلة السنوات الممتدة من ١٩٥٤ الى ١٩٦٥.

أما المرحلة الثانية فكانت تتم بالانتقال الى اسرائيل، وهنا نلاحظ أن غالبية المهاجرين الى اسرائيل كانوا من اليهود الفقراء أو الذين لم يألفوا العيش حسب الطريقة الغربية مثل يهود منطقة مزاب بالصحراء الجزائرية الذين هاجر أغلبهم الى اسرائيل ما بين ١٩٥٢ و١٩٥٦، وكذلك يهود النواحي القسنطينية، هذا بالاضافة الى اليهود الذين تأثروا ببعض الأزمات كالحروب الاسرائيلية العربية أعوام ١٩٤٨، ١٩٥٦، ١٩٦٧، أو انزعجوا من تدهور العلاقات الفرنسية الاسرائيلية في شهر أيار سنة ١٩٥٨.

٦ - نتج عن هجرة اليهود من الجزائر وباقي أقطار المغرب العربي تزايد عدد اليهود الشرقيين باسرائيل (السفارديم) الذين كانت نسبتهم عند قيام دولة اسرائيل ١٠٪ وبفعل هذه الزيادة أصبحوا يؤلفون حوالي نصف عدد السكان وربما يشكلون أغلبية السكان في المستقبل إذا استمرت المعدلات الحالية للولادة، وهذا ما قد يفقد اسرائيل صبغتها الغربية ويضعف روابطها مع المجموعات اليهودية بأوروبا الغربية وأمريكا مما يترك آثارا سلبية على علاقاتها بالعالم الرأسمالي.

٧ - حاولت الحركة الصهيونية أن تنتفع من تجارب الاستعمار الفرنسي في الجزائر، وأن تتعرف على نفسية العرب الفلسطينيين من خلال التعرف على واقع المجتمع العربي بالجزائر، وأن تدرس أعمال المعمرين وسلوكهم أزاء الجزائريين لتنتفع بها في تحقيق ما عجزت عنه فرنسا في الجزائر، في أرض فلسطين العربية وعلى حساب مصالح الشعب الفلسطيني.

وهكذا اختتم هذا البحث، متمنيا أن يدرس أخوتنا الفلسطينيون التجربة الجزائرية في مقاومة الاستعمار الفرنسي والتغلّب على مشاريعه الاستيطانية ليستفيدوا منها في استرجاع حقوقهم المشروعة في الأرض المغتصبة كما حاول الصهاينة في الماضي أن يتعرفوا على أساليب الاستعمار الفرنسي في الجزائر، وينتفعوا بمخططاته التوسعية، لاسيما وأن مصير الأمة العربية واحد سواء في الجزائر أو فلسطين أو في بقية الأقطار العربية الشقيقة. ◘



عبدالرحمن الناصر

(ت: ٣٥٠هـ / ٩٦١ م)

د. سهيل زكار

عاشت الأندلس في النصف الثاني للقرن التاسع فترة عصيبة من تاريخها، كادت فيها الفتن الداخلية والمخاطر الخارجية أن تعصف بالأسرة الأموية وتزيلها من الوجود، عندما وصلت الأمور إلى حافة الهاوية تسلم الإمارة شاب في بداية العقد الثالث من عمره، حمل نفس الإسم الذي حمله صقر قريش، فاستطاع ليس فقط أن يعيد الوحدة والإستقرار إلى الأندلس، وإنما حوّل الإمارة إلى خلافة والدولة الصغيرة إلى امبراطورية...

في سنة ٣٠٠هـ/٩١٣م توفي الأمير عبدالله، فخلفه حفيده عبدالرحمن، وكانت الفتنة قد طبقت آفاق الأندلس والخلاف غاش في كل ناحية منها، فاستقبل الملك بسعد لم يقابل به أحداً ممن خالفه أو خرج عليه إلا غلبه واستولى على ما في يديه، فافتتح الأندلس مدينة مدينة، وقتل حماتها، واستنزل رجالها، وهدم معاقلها،... حتى دانت له البلاد وانقاد له أهل العناد.

وعبدالرحمن هذا هو ابن محمد بن عبدالله، كان أبوه محمد قد قتله أخوه مطرف، فقتله أبوه عبدالله به، وقام الأمير عبدالله بضم حفيده إليه، وأخذ يعده منذ صباه لخلافته والحكم من بعده، فكان يجلسه في مجلسه، وكان يسكن قصره، وبعد وفاة جده بيع له بالإمارة.

لقد كان على عبدالرحمن عندما تسلم الإمارة ان يواجه المخاطر الداخلية التي مثل أعتاها ثورة ابن حفصون، كما كان عليه أن يتصدى للمشاكل الخارجية التي جاء أشدها من مملكة ليون، ومن إفريقية حيث قامت الخلافة الفاطمية، ومع ذلك فقد تمكّن عبد الرحمن بقوة شخصيته، ثم بطول المدة التي حكم فيها من إعادة الوحدة إلى دولته، وإبعاد الخطر الخارجي عنها، وإيصالها إلى ذروة المجد والرفاه والحضارة والقوة.

وفي سبيل إعادة الوحدة إلى الأندلس قاد عبدالرحمن في بداية حكمه عدداً من الحملات، ووجه عدداً آخر، فاستطاع تصفية ثورة ابن حفصون ثم استعاد عدداً من مدن الأندلس واحدة تلو الأخرى، وبعد ذلك قام سنة ٣١٦هـ/٩٢٨م بإعلان نفسه خليفة، وبعد عامين على هذا الإعلان أكمل مدّ سيطرته على باقي مدن الأندلس وثغوره فلقب نفسه بالناصر لدين الله.

ويلاحظ المرء أن عبدالرحمن صرف جهوده خلال العشرين سنة الأولى من حكمه لإعادة توحيد الأندلس، لكن رغم أن هذا استهلك جلّ نشاطه ووقته، نجده خلال ذلك كله لا يغفل الحرب ضد النصارى خاصة في مملكتي نافار وليون.

وكانت هذه الممالك قد انتابها الضعف إثر تفكك أوصال الإمبراطورية الكارلونجية، وفي البداية استطاع عبدالرحمن أن يوقف نشاط النصارى ضد الأندلس، ونقصد بمملكة ليون المملكة التي شملت منطقة أشتورش التي وقعت في أقصى الشمال الغربي لشبه الجزيرة الايبيرية، وكان ملك ليون منذ سنة ٩٣٢ وحتى سنة ٩٥٠ يعرف برذمير (Ramiro II). وتصدى رذمير هذا لحملات عبدالرحمن ضد مملكته، ويذكر أنه انتصر عليه انتصاراً ساحقاً سنة

د.سهيل زكار: استاذ التاريخ الاسلامي في جامعة دمشق.

٢٧٧هـ/ ٩٣٩م، مع أن جيش عبدالرحمن ضم آنذاك كما قيل، حوالي المائة ألف مقاتل، وعلى الرغم من هذا لم ينجم عن هزيمة عبدالرحمن هذه نتائج عسكرية خطيرة، فقد انشغل رذمير بمشاكل داخلية مما مكّن عبدالرحمن من استعادة قوته ونشاطه، وبعد وفاة رذمير سنة ٣٣٩هـ/ ٩٥٠م أضعفت الخلافات الداخلية الدولة النصرانية، فازداد نفوذ عبدالرحمن عليها، وتحول هذا النفوذ فيما بعد إلى اعتراف بالولاء، وقبول بالتحكم ودفع الجزية.

ويمكن القول إنه منذ منتصف القرن العاشر للميلاد، وحتى نهايته سيطر المسلمون لأول مرة تماما على شبه الجزيرة الأيبيرية كلها، ورغم ذلك لم يستطع المسلمون الاحتفاظ بما سيطروا عليه، فقد جاءت سيطرتهم على أطراف شبه الجزيرة قهرا وليس فتحا، ذلك أن المسلمين لم يستوطنوا أراضي الممالك النصرانية في الأطراف، وهكذا بقي حكام هذه الممالك تابعين لقرطبة ما دامت قوية، مستعدين للعمل ضدها عندما تسنح الفرصة، ولم يستقر العرب في الأراضي الشمالية لشبه الجزيرة الايبيرية، لعدم وجود الرغبة في سكنى المناطق القريبة من فرنسة ولصعوبة العيش في هذه الأراضي، ولعدم وجود المكاسب، ولطبيعة الأرض والمناخ الصعب، والعرب كما هو ملاحظ أحبوا سكنى المدن الكبيرة ذات المناخ المتوسطي، واستقر بعض البربر في هذه المناطق، لكن صعوبة الحياة الجبلية، ووجود الخطر الدائم دفعاهم إلى الإنسحاب نحو داخل شبه الجزيرة.

ولم يقتصر نشاط عبدالرحمن على الأندلس فقط، بل أخذ بالتوسع في المغرب، وذلك أنه من المقرر أن حكومات إسبانية القوية عندما تخفق في التوسع عبر البيرنيه داخل أوروبة، تدير وجهها للتوسع في الشمال الأفريقي، ويسهل دائماً إيجاد التعليلات المسوغة ذلك.

وعلى هذا نجد عبدالرحمن بعد ما حلّت به هزيمة سنة ٩٣٩م، ينحرف نحو المغرب فيتدخل بشؤونه الداخلية متذرعا حينا بالعمل ضد الفاطميين وبأسباب أخرى حينا آخر، وبالفعل نجح عبدالرحمن في احتلال سبتة وطنجة وأجزاء أخرى كانت تابعة للأدارسة، لكن الفاطميين تمكنوا في بداية حكم المعزّ لدين الله استعادة معظم أجزاء المغرب.

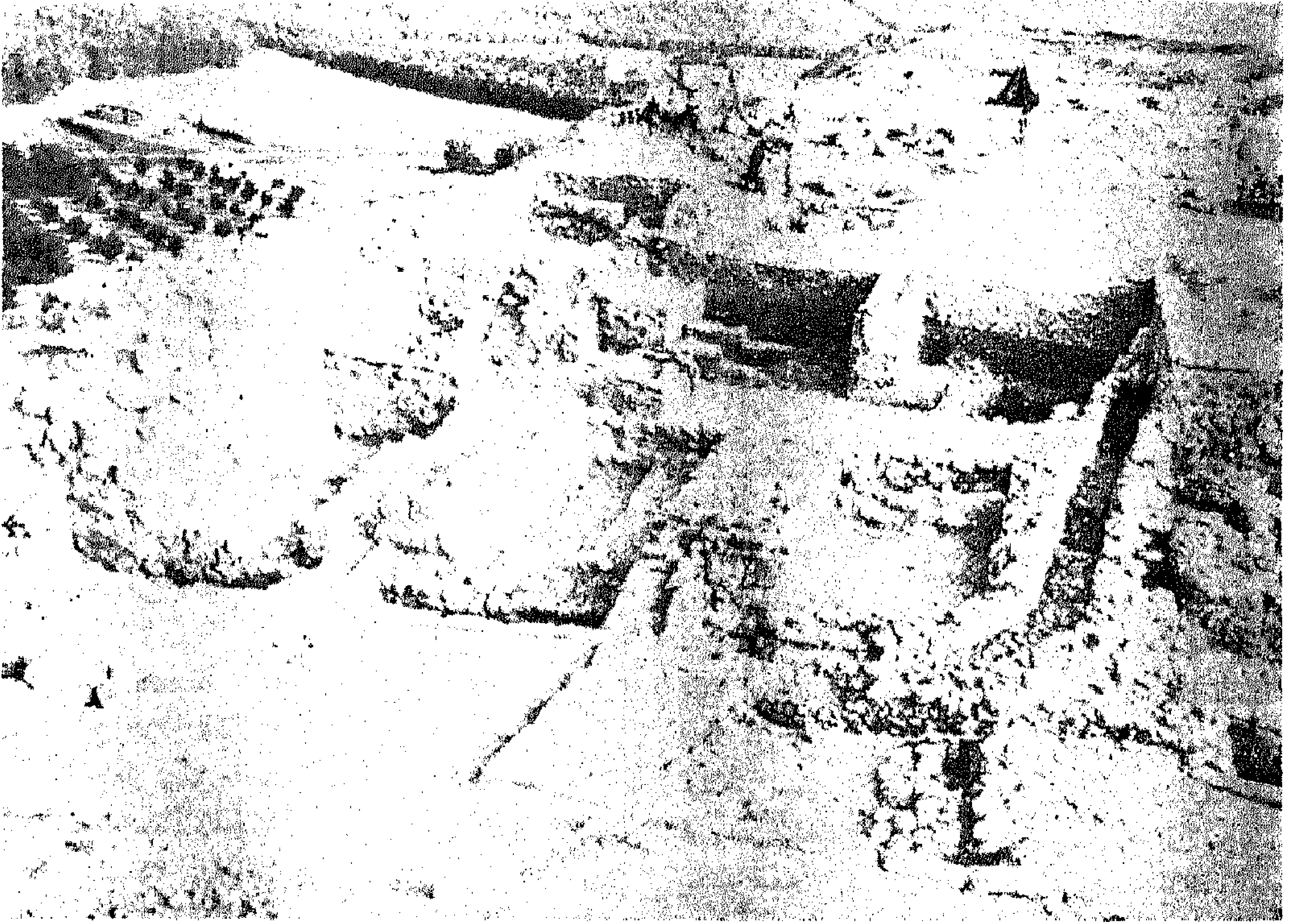
ومن الواضح أن اتخاذ عبدالرحمن للقب الخلافة وتسمية نفسه بالناصر لدين الله كان له علاقة مباشرة بظهور الفاطميين وكان له معاني الرد عليهم، لكن أهم من هذا كان للصراع مع الفاطميين على أرض المغرب آثاره البعيدة على هذه المنطقة وسكانها حضارياً وسياسياً واقتصادياً بحيث دفع إلى الأمام الجهود التي سببت ظهور شخصية دولة المغرب الأقصى المسلمة، وهي جهود بدأت مع أدريس الأول، ووضحت مع يوسف بن تاشفين ثم تجلت مع عبدالمؤمن بن علي فيما بعد...

وبصرف النظر عن كل هذا، فإن نجاحات عبدالرحمن وتوسعه الإمبراطوري، مع اتخاذه لقب الخلافة قد فرض عليه أوضاعاً جديدة، وقاده نحو الأبهة والأخذ بمظاهرها من بناء ورسوم، فالخليفة غير الأمير، صار عليه الإحتجاب والتعالي واتخاذ الحرس والسير بالمواكب الفخمة، وبنفس الوقت إيكال الأمور إلى رجال الإدارة وعدم مباشرة الأعمال بنفسه، وهنا ازدادت قوة الإدارة مع قوة الجيش المحترف، ذلك أن روح الجهاد كانت قد خبت منذ زمن، وحلّ محلّ المتطوعة جند من المرتزقة والعبيد، ومع ازدياد قوة الإدارة والجند تهيأت الفرصة لإضعاف قوة الخليفة، وانتقاص نفوذه، ثم حبسه في قصره والتحكم به، وحيث أن اتخاذ لقب الخلافة جاء متأخراً في الأندلس، وحيث أنه لم يقرن بدعاية دينية طويلة، مثلما حدث بالمشرق مع العباسيين، فإنه حينما مرت خلافة الأندلس بما مرت به خلافة بني العباس من التحكم والحجر على الخلفاء، نجد أنه سهل القضاء على الخلافة الأموية، وصعب إزالة الخلافة العباسية لأنها كانت قد نالت صفة القدسية والشرعية المرتبطة بالسماء.

قضى الناصر في الحكم نصف قرن من الزمن، وكان قبل موته سنة / ٥٣٠/هـ قد قطف بعض ثمار جهوده، فقد عاشت الأندلس ذروة مجدها أيامه ثم أيام ابنه الحكم من بعده، التي كانت امتداداً لأيام الناصر ونتيجة مباشرة لما تحقق فيها. ◘

مدنية فلسطين

د. نقولا زيادة



حفريات تل الدوير. B.C. the Archaeology of the Bible Land.



كان حظ فلسطين من أعمال الحفر الأثري، من حيث بدؤه واتساعه، لا يقل عن حظ مصر وأرض الرافدين. وليس ذلك غريبا على بلد ارتبط اسمه بالدراسات التوراتية من زمن طويل. وكان من الطبيعي أن يتجه علماء الآثار إلى القدس التي بدأ الحفر فيها سنة ١٨٧٤، وقد استمر في فترات مختلفة حتى أواسط القرن الحالي. لكن التنقيب الأثري في مدينة مثل القدس لم يكن يسيراً، لذلك فإن أكثر ما حفر كان خارج أسوار المدينة الحالية، وهي التي بناها السلطان سليمان العثماني سنة ١٥٤٣. وكانت أريحا المكان الثاني الذي بدأ الحفر فيه، وكان ذلك سنة ١٨٧٣. ومع أن العمل توقف بعد ذلك، فقد عاد معول الأثري الى هناك، وكان أهم ما تم بين سنتي ١٩٥٢ و ١٩٥٨. وقد اتضح من البحث أن المكان كان مأهولا بالسكان

بدءاً من الألف الثامن ق.م. وكان من حسن حظ التنقيب الأثري في فلسطين أن انتقل للعمل هناك فلندرزبتري سنة ١٨٩٠ إذ بدأ الحفر في تل الحسي الواقعة بين غزة والخليل. وقد وضع هذا العلامة خبرته التي اكتسبها من أعماله الطويلة في مصر في سبيل وضع القواعد الأساسية لأعمال الحفر في فلسطين. وقد حفر فيما بعد في تل العجول جنوبي غزة بين سنتين ١٩٣٢ و ١٩٣٥. وقد اتيح لكاتب هذه السطور أن يقضي ثلاثة أيام مع فلندرزبتري في ذلك المكان للاطلاع على الأساليب الأثرية العلمية اطلاعاً مباشراً.

والأماكن التي تم فيها الحفر الأثري في فلسطين إلى منتصف القرن الحالي، والمرتبطة بدراسة المدنية القديمة، هي نحو أربعين موقعاً، كان بينها ثلاثة أماكن عُثر فيها على آثار بشرية متحجرة هي كهف القفزة جنوبي الناصرة ومغارة الزطّية قرب طبريا ومغارة السخول قرب حيفا. وفي مغارتي الزطية والسغول عَثَرَ المنقبون على آثار بشريّة تشبه الانسان النيندرتالي.

ونحن في هذه الأحاديث لا نؤرخ للمدنية في كل قطر، ولكننا نتناول فترة معينة لتوضيح أهم ما تم على أيدي ذلك الشعب القديم فيها. والفترة التي نتناولها في حديثنا عن فلسطين الآن هي التي تمتد من حول سنة ٣٠٠٠ ق.م. إلى نحو سنة ١٢٠٠ ق.م.

وحريّ بالذكر أن أرض الرافدين ومصر شهدت في هذه القرون تقدما زراعيا وصناعيا كبيراً جعل من البلدين منطقتين مصدّرتين، كما أنهما احتاجتا الكثير من المواد الخام التي كانت توجد في ديار الشام. ومن هنا كان اهتمام حكام مصر بأن يكون لهم نفوذ في فلسطين لضمان طرق الاتصال مع الشمال. ومثل ذلك يقال عن اهتمام حكام بلاد الرافدين في السيطرة على مركز الطرق في سورية. والفريقان كانا شديدي العناية بمصدر الأخشاب الرئيسي، أي لبنان لحاجة سكان القطرين إلى خشب الأرز. ومعنى هذا أن فلسطين كانت تتأثر بما يصل إليها من حضارة ومدنية من الشرق والشمال والجنوب. فقامت في أوائل هذه الفترة، وهي الفترة التي كان الكنعانيون يسيطرون فيها على فلسطين، مدن تطورت عما كان من قبل قرى زراعية، على نحو ما تم في أرض الرافدين ومصر.

ورغبة منا في توضيح المدنية الكنعانية في فلسطين رأينا أن نقتصر الآن على المدينة الكنعانية.

بدأت السكنات الكنعانية في مطلع العصر البرونزي (حول ٣٠٠٠ ق.م.). وكان العامل الأساسي في اختيار مكان الاستيطان صلاحية ذلك المكان للدفاع ضد المهاجمين له. ومن هنا نجد أن التلال الناتئة في السهول أو المرتفعات المطرة على طريق ما والتي كانت قرى في أول الأمر أصبحت مدنا، واستمرت على ذلك حتى أواخر العصر الحديدي.

كان السكان يعتمدون على التحدرات الطبيعية للمكان المختار في سبيل اقامة وسائل للدفاع. لكن مع سير الزمن في الألف الثالث ق.م. نمت المدن وأخذ سكانها أنفسهم ببناء أسوار مكونة من حجارة غير مشذبة مختلفة الحجوم أو من آجر. وكانت الغاية من الأسوار أن تصد الغزوات المختلفة التي كانت المدن تتعرض لها خاصة من الشرق. ومثل هذا يظهر بوضوح في أريحا وعاي وتل الفارعة وبيسان - حيث تقع هذه عند مداخل الطرق الآتية من الشرق نحو فلسطين.

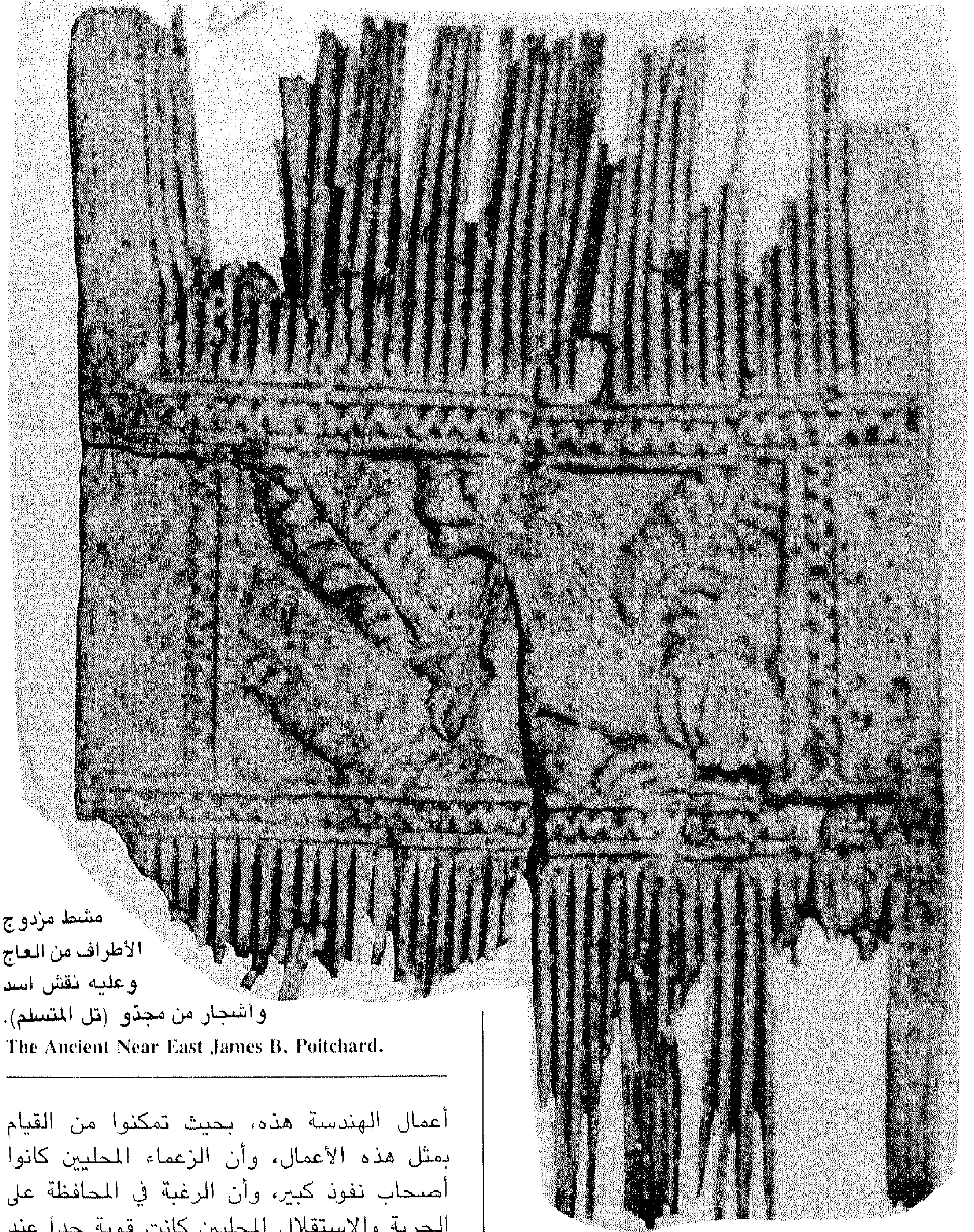
وكان ثمة عامل آخر هام يتعلق بالمدينة وهو الماء. وقد تؤمن حاجة المدينة من الماء من عين جارية مثل أريحا والقدس وتل الفارعة. وفي هذه الحالة كانت المياه تستعمل للري كما كانت تستعمل للشرب. إلا أن مصدر الماء كان معرضا للخطر بسبب وجوده خارج السور. وإذن فقد كان من الضروري أن يوسع نطاق السور بحيث يضم العين، إذا كان المستوى مناسبا لذلك. أما فيما عدا ذلك، أي إذا كان مستوى المدينة أعلى من مستوى العين بحيث يؤثر ذلك على وضع الأسوار ويقلل من أهمية التحصينات، فإن السكان كانوا يحفرون نفقا يوصل العين إلى داخل الأسوار مثل القدس. ففي هذه حفر النفق الذي أوصل مياه عين ام الدرج (شرقي المدينة) إلى داخل الأسوار. وعندها نُحت في الصخر درج منحدر الى نقطة حيث نقبت فتحة عامودية تصل الى الماء. أما العين فتسوّر وتخفى عن العيون. ومثل ذلك كانت الحال في جازر (أبو شوشة) في العصر البرونزي المتوسط.



مجدو (تل المتسلم) القنال المؤدي الى النبع الداخلي.

وفي مجدّو، بين حيفا وجنين، نجدّ الطريقة نفسها، ولكنها تعود إلى العصر الحديدي. فالنظام الذي اتبع كان يعتمد على نبع يقوم على المنحدر الجنوبي الغربي للتل. وقد حمل السكان الماء من هذا النبع عبر عصور التاريخ كلها. وقد كان السكان يقومون بتنظيف طريق الماء حتى وصلوا الى أول النبع الموجود في كهف صخري. على ان مصدر الماء ظل خارج السور، ومعنى هذا أنه لم تكن له قيمة البتة في حالة ضرب الحصار على المدينة. أما حول السنة ١٢٠٠ ق.م. فإننا نجد أن الوصول الى الماء من داخل الأسوار أصبح ممكنا. ويبدو أن الخطوات التي اتخذت حتى تمّ للسكان ذلك كانت على الاسلوب التالي.١ – كان السكان يصلون عن طريق ممر طويل منحدر تدريجاً مبني بالحجارة. ٢ – كانت الخطوة التالية أكثر طموحاً. فقد حفرت حفرة عامودية عمقها ٣٥ متراً من سطح الأرض في المدينة. وكان القسم الأعلى منها مبنيا، لكن الجزء الأسفل حفر في الصخر. عند نهاية هذه الحفرة نُقـرَ نفق يصلها بالنبع طوله ٦٣ متراً. وعندها ختم على النبع بالنسبة الى الخارج ببناء متين. أما الحفرة العامودية فاحيطت على جوانبها بدرج من فوق إلى أسفل. وعندها أصبح نساء مجدو يستطعن الانحدار على هذا المدرج ثم السير في النفق الى النبع، فيحملن الماء إلى البيوت، دون أن يكن معرضات للخطر أو دون أن يتمكن العدو من قطع الماء عن المدينة.

أما حيث لم يتوفر نبع أو عين تفي بالحاجة فقد كان المألوف أن تحفر بئر عميقة بحيث تصل الى مستوى المياه. والبئر بطبيعة الحال كانت تحفر داخل أسوار البلدة أو المدينة. والأمثلة على هذا كثيرة: تل بيت مرسيم وتل الصافي وبيت شمش. أما في جازر فبدل أن تحفر بئر فقط، حفر نفق ونقر فيه درج أوصل الناس الى الماء رأساً. ومثل



مشط مزدوج
الأطراف من العاج
وعليه نقش اسد
واشجار من مجدّو (تل المتسلم).
The Ancient Near East James B, Poitchard.

ذلك صنع في جبعون. وفي لخيش كان من الضروري أن يحفر البئر خارج المدينة، إذ لم يهتد إلى ماء داخلها. وقد كان عمق البئر نحو ٣٧ متراً.

والذي يمكن أن يستنتج من دراسة هذه الوسائل هو أن الكنعانيين كانوا ماهرين في أعمال الهندسة هذه، بحيث تمكنوا من القيام بمثل هذه الأعمال، وأن الزعماء المحليين كانوا أصحاب نفوذ كبير، وأن الرغبة في المحافظة على الحرية والاستقلال المحليين كانت قوية جداً عند امراء هذه الممالك — المدن.

في اوائل الألف الثاني ق.م. كان السكان قد أخذوا يبنون بيوتاً مستطيلة الشكل ويستخدمون الطين أو الآجر في البناء. ويربطون بين الآجرات بالمونة. أما الأساس فكان دوماً أما الصخر

أو قاعدة مبنية من الحجر. كانت البيوت صغيرة على العموم، إذ أن ذلك كان متوقفاً على طول الجوائز الخشبية التي أمكن الحصول عليها لتستعمل ركائز للسقف. والسقف كان من الأخشاب أو من التراب. وكانت البيوت تُقْصر بالطين من الخارج، كما أن السطح كان يدحل بمدحلة صغيرة لتتماسك أجزاؤه فتمنع الماء من التسرب خلاله في أيام المطر. ولما أمكن الحصول على المزيد من جوائز الخشب وضعت هذه في الجدران لتقويتها.

ونلاحظ أنه في عصر الهكسوس أخذت تظهر في هذه المدن بيوت أوسع قليلاً، لعلها كانت بيوت السادة. وكانت هذه البيوت تحيط غرفها بصحن، ويدور بها سور لمنع المارة من النظر الى الداخل، وكان يقوم في الصحن بئر لجمع مياه الأمطار من أسطحة الغرف المختلفة. وكانت هذه البيوت تحوي مخازن للحبوب وخوابي للزيت والخمر وغيرها ومعصرة وفرناً. بل وقد يكون فيه قسم خاص بالأسرة بالمقارنة مع القسم الذي يستقبل فيه الزوار وأصحاب المصالح. وقد أظهرت أعمال الحفر والتنقيب عن مثل من أمثلة هذه البيوت الكبيرة في عاي القريبة من رام الله (من الألف الثالث ق.م). وكثيراً ما كانت هذه البيوت تتألف من طابقين، وقد يستعمل الطابق الثاني للاستقبال في علية خاصة. وقد ورد أن عجلون ملك مؤاب كان يجلس على سريره في غرفة صيفية له وحده وفيها يستقبل زواره.

ولسنا بحاجة الى القول بأن البيوت اقيمت في أكثر هذه المدن كما اتفق، وأن شوارعها وأزقتها وممراتها كانت متعرجة ضيقة. وكانت المدن، بسبب ضيق مساحاتها، مزدحمة بالسكان. ومع ذلك فقد يجتمع أصحاب الصناعة الرئيسية في المدينة في ناحية واحدة منها كي لا يتسببوا في ازعاج السكان عامة. فقد كان المشتغلون بالأدوات المعدنية في مدينة بيت شمس يقيمون في الحي الشمال الشرقي من المدينة. وكان للتجار الغرباء أماكن خاصة بنزولهم في المدن الكنعانية.

ولم تكن لهذه المدن ساحات عامة. بل أن الأعمال واللقاء والبيع والشراء كانت تتم حول الباب الرئيسي للمدينة، أما خارجه أو داخله، على نحو ما نعرف عن تل الفارعة (من القرن التاسع عشر ق.م).

تتحدث رسائل تل العمارنة عن الملوك في بلاد الشام، فما هو نوع السكن الذي كانوا يقيمون فيه؟ هل كانت لهم قصور؟

اذا تذكرنا أن اللقب الذي استعملوه كان عاديا وأن المملكة قلما كان يتجاوز قطرها ٣٥ كيلو مترا، كان من الطبيعي أن لا ننتظر قصوراً بالمفهوم المرتبط بالملكية. فان أي بيت ذي طابقين عثر عليه في كل من أريحا وبيت ايل وتل بيت مرسيم وتل العجول وبيسان وحازور يمكن وصفه بأنه «قصر». وهذه بيوت من العصر البرونزي المتوسط. وقد عثر في مجدو على بناية (ترجع الى القرن الخامس عشر ق.م.) اقيمت حول بضعة صحون وتشغل نحو ١٢٠٠ من الأمتار المربعة. هي ولا شك «قصر» بالنسبة لا الى مساحتها واتساعها فحسب، ولكن بالنسبة الى ما عثر عليه فيها من الذهب والعاج واللازورد مطموراً تحت ارض احدى غرفها. الا أنه حري بالذكر أن مجدو كانت على طريق تجاري وحربي هام، وقد أفادت من موقعها بشكل غريب. وقد يقوم في القصر معبد أو أكثر على نحو ما نعرف من مدينة قطنا التي كان في قصر ملكها معبد للاله ننغال وهو الاله القمر.

ومما حفلت به المدينة الكنعانية هو «المكان القدس»، وهو أصلاً المكان الذي كانت القبيلة تدفن فيه موتاها وتحتفظ بذكراهم. هذه هي الأماكن المقدسة أو «الأماكن المرتفعة» التي ترد أخبارها في تاريخ الكنعانيين. ففي «المكان المرتفع» في جازر مثلاً تقوم ثمانية أحجار ضخمة تمتد نحو ٢٧ متراً على شكل هلال، ولعل الآلهة أشيرة كانت تعبد هناك.

على أن الجماعات التي استقرت وانشأت المدن أخذت، على توالي الأيام، تبني الهياكل المخصصة للعبادة، والتي كان معناها أن الاله موجود هناك، وذاك هو بيته. والهيكل كان فيه مذبح لتقديم الضحايا التي تنوعت بحيث كانت حيوانات صغيرة أو ثمار الأرض.

ويرى اولبرايت أن وجود بيوت قليلة ذات صحون متسعة وغرف متعددة في المدينة الكنعانية الى جانب البيوت الصغيرة الضيقة ذات الغرفة الواحدة تدل دلالة واضحة على أن المجتمع الكنعاني كان مجتمعا اقطاعيا. وقد يكون توزع أدوات الترف والزينة في المقابر والبيوت دليلاً آخر على هذا النوع من المجتمع. ويمكن اضافة اشارات اخرى متفرقة من رسائل تل العمارنة ومحفوظات ألالخ (أطشانا) واوغاريت. وفضلاً عن ذلك فان الأساطير المختلفة التي وصلت الينا من الألفين الثالث والثاني ق.م. تدل على الأمر نفسه.





نجيب عازوري

من خلال زمانه ومكانه

الحركة الصهيونية في عصر نجيب عازوري

د. زاهية قدورة

(الحلقة الثالثة)

بعد أن استعرضت الدكتورة زاهية قدورة أحوال الدولة العثمانية في أواخر أيامها وظهور فكرة القومية العربية ثم درست مساهمة نجيب عازوري في نشرها وتمكينها، أرادت أن تدرس أيضاً دوره في مواجهة الفكرة الصهيونية، وقبل هذه الخطوة رأت أن تمهد باطلاعنا على نشوء وتطور الفكرة الصهيونية ليتضح دور عازوري موضوعياً عبر زمانه ومكانه.



مرت الحركة الصهيونية بمرحلتين، مرحلة ما قبل ١٨٩٧، وهي مرحلة الصراع اليهودي مع نفسه ومجتمعه، ومرحلة ما بعد ١٨٩٧، وهي المرحلة التنظيمية، للحركة حيث اتخذت المسار العملي لتحقيق الهدف.

وتبدأ المرحلة الأولى من حياة اليهودي منذ سقوط اورشليم، وقضاء تيتوس على مملكة يهوذا حيث تنصرت جماعات منهم وأرسل الأقوياء إلى مصر ليعملوا في مناجمها وهرب ما تبقى من الأسر إلى بلاد ما بين النهرين أو الجزيرة العربية ومصر وبرقة(١). ولم يبق في فلسطين من اليهود سوى عدد قليل لا يتجاوز العشرة.

ومنذ ذلك الحين عاش اليهودي في مجتمع «يعتبر اليهودية» العدو الأول للمسيحية عقائدياً وسياسياً. فصدرت قوانين قسطنطين عام ٣٠٦ - ٣٣٧م، تشدد على اليهود، كما صدرت قوانين أخرى فيما بعد عام ٤٣٩م تحرمهم من المناصب والوظائف وحق المواطنية، وهكذا عاش

اليهودي في ظل الدولة الرومانية والبيزنطية حياة اضطهاد وذلّ وتعذيب في مجملها، ما عدا فترات قصيرة أصدرت الكنيسة فيها قرارات تستنكر استخدام القوة ضدهم، بهدف تنصيرهم. وأشهر وثيقة كانت خطاب الأمان للويس الأول (٨١٤ - ٨٤٠) حيث وضع اليهود تحت حمايته.

وقد اضطهد اليهود خلال الحروب الصليبية، فكان كلما مني الصليبيون بالفشل في حروبهم مع المسلمين كانوا ينقضون على اليهود حيث اضطروهم إلى الهجرة من فلسطين فلم يبق منهم سوى عدد قليل لا يتجاوز العشرة.

وكان لعظات الراهب «رودولف» Radulf (١١٤٦ - ١١٤٧م) أثرها البالغ عند المسيحيين «فألبت الشعوب المسيحية على اليهود»[٢].

وفي عام ١٢٩٠ أصدر الملك ادوارد الأول مرسوماً ملكياً يقضي بطرد اليهود من بريطانيا، كما طُردوا أيضاً من فرنسا زمن الملك فيليب لوبل عام ١٣٠٦، (Philipe Le Belle) فاتجه قسم منهم إلى اسبانيا كما توجه بعضهم الآخر إلى مناطق أوروبية أخرى، وإلى بعض البلاد العربية نظراً لما كان يلاقيه هؤلاء المهاجرون من راحة في المعاملة، حتى أن صلاح الدين الأيوبي بعد أن استرجع فلسطين من الصليبيين سمح لليهود بالعودة إليها، فرجعوا ورجع معهم يهود من فرنسا واسبانيا وبريطانيا وألمانيا، فلمس هؤلاء المهاجرون الفرق الشاسع بين معاملة الأوروبيين لهم وبين معاملة العرب سواء أكان ذلك في اسبانيا او في البلاد العربية. ويقول بن غوريون (Ben Gurion) إنهم (أي اليهود) لم يلاقوا مضايقات من العرب، وكانت حوافزهم الرئيسية للهجرة حينذاك اضطهادهم في المنفى[٣].

واستمر اضطهاد اليهود في أوروبا عامة إلى ما قبل القرن التاسع عشر بقليل وظلت المجتمعات المسيحية تضطهدهم لأسباب كثيرة: منها اتهامهم في عامي ١٣٤٨ و١٣٤٩ بأنهم سمّوا الآبار فانتشر الموت الأسود في اوروبا، فازدادت حملة القتل من قبل المسيحيين، بالرغم من محاولة البابا «كلمنس السادس» التخفيف من هذه الحملة والدفاع عنهم، كما طردوا من إقليمي الرين وبافاريا بمرسوم ملكي عام ١٤٠١ وفرض عليهم مجدداً ضرورة ارتداء ملابسهم الخاصة التي كان أن ابتدعها عام ١٢١٠ البابا انيوسنس الثالث، (Innozenz III). وظلت معاملة اليهود عرضة للطرد والاضطهاد والتشريد والقتل والحرق، نساء ورجالاً وظلت بين كرّ وفرّ سواء أكان ذلك في المجتمعات الكاثوليكية او البروتستانتية في أوروبا إلى أن تبدلت الحال في القرن التاسع عشر. بينما كان اليهودي خلال هذه الفترة في الجزيرة العربية وفي ظل الحكم العربي ينعم بمعاملة جيدة ويتمتع بالحقوق الاجتماعية التي كان يتمتع بها العربي، ويحقق انسانيته في المجتمع العربي المجتمع الوحيد الذي ساوى بين أتباعه في انسانية الانسان، فغدا سيد عشيرة ورئيس قبيلة بعدما كان مطروداً منبوذاً في غيره من المجتمعات، فعاش اليهودي في الجزيرة العربية في ظل الاسلام عيشة كريمة رغم ما أبداه اليهود من محاربة للاسلام ونبيه سراً وعلانية فتمتعوا بتسامح الاسلام والمسلمين، ثم امتزجوا في المجتمع العربي وأخذوا عن الاسلام والمسلمين كثيراً من العلوم كالصيدلة والطب والفلك والرياضيات وعلم الكلام الذي أخذوه عن المعتزلة وكان له أثره في المجتمع الاسرائيلي[٤]. ولم تظهر المشكلة اليهودية في المجتمع العربي إلا بعد ان تسيست الجماعات اليهودية وسيست عقيدتها، وأصبحت عميلة للاستعمار وسياسته بغية الوصول إلى أهدافها.

ظلت حالة اليهود بخير في المجتمع العربي، واستمرت كذلك إلى القرن السادس عشر عندما دخلت البلاد العربية حظيرة الامبراطورية العثمانية ١٥١٦ - ١٥١٧، وتمشياً مع تعاليم الاسلام السمحاء أحسن العثمانيون معاملة اهل الذمة ومنهم اليهود، وفتحوا أمامهم مجالات العمل في الوظائف الحكومية وفي المهن الحرة، كما منحتهم الدولة العثمانية حرية امتلاك الأراضي الزراعية والسكنية والتجارية والصناعية، وسمحت لهم بتشييد المعابد، كما سمحت لهم بناء على رغبتهم استيطان أحياء خاصة بهم، إلى جانب السماح لهم بالاختلاط والعمل مع يهود البلقان التي كانت ضمن الامبراطورية العثمانية، حيث أصبح لهم تجمعات في البلقان استطاعوا منها الزحف والتسلل إلى قلب اوروبا، ثم جاء

الدستور العثماني في ٢٣كانون الأول (ديسمبر) ١٨٧٦ فأكد مرة أخرى مبدأ المساواة في الحقوق، وهو المبدأ الذي كان مرعياً فيما سبق، ونص ذلك الدستور على قيام حكومة ومجلس نيابي منتخب، وتمثيل نسبي لجميع القوميات(٥).

هذا في ظل الحكم العثماني، بينما عاش اليهود في الغرب في ظل دولة اوروبية تعتبر المسيحية دينها الرسمي، وفي ظل حكم عزلهم عن الحياة العامة بحكم القانون إلى حد كبير، ولم يندمج اليهود في الدول الأوروبية التي عاشوا فيها، كما ان هذه الدول لم تمتصهم بل كانت تلفظهم من حين إلى آخر، واعتبرتهم حركة سياسية نتيجة لأسباب كثيرة، وللقرون الطويلة التي عاشها اليهودي غريباً(٦)، معزولاً في «أحياء مغلقة» «Ghetto System» فحرص على الاحتفاظ بلغته وتقاليده، وعدم الذوبان في المحيط الذي يعيش فيه مما ولد عنده نزعة الخوف، والشعور بالحقد ضد شتى الشعوب، وتأصلت فيه النزعة العنصرية الشديدة، وهذا النمط من الحياة وهذه العصبية الدينية والعنصرية التي تميز بها اليهودي، والعزلة الاجتماعية والاستغلال والسيطرة الاقتصادية، ولدت موجة من الشعور المعادي للسامية، وأصبحت هذه الموجة تعرف بحركة (اللاسامية) في أوروبا، ولعل من اسباب اضطهادهم في اوروبا تعاملهم بالربا واستغلالهم الناس بشكل لا يتصوره العقل، إذ زادت الفائدة التيفرضوها على ٦٠٠٪(٦).

كان اليهود أسعد حالاً في القارة الأميركية منهم في أوروبا إذ بينما حرم المجتمع الأوروبي اليهودي من حق المواطنية الكاملة، من خلال قوانين عزلته إلى حد كبير عن المجتمع الذي يعيش فيه، كحرمانه من الوظائف العامة أو تملك الأراضي وغير ذلك، فقد ضمن الدستور الأميركي المساواة، وكان ذلك للمرة الأولى في مجتمع غربي منذ سقوط الامبراطورية الرومانية، كما سمح له بالحرية التامة فيما يتعلق بمؤسساته الدينية من خلال إضافات الدستور الأميركي عام ١٧٨٩، وكان هذا مما حمل يهود شرق اوروبا على اللجوء الى الولايات المتحدة الأميركية.

وقد ساعدت الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩ وظهور عصر النهضة ونشوء فكرة القوميات،



هرتزل

والأفكار التي نادت بالحرية والمساواة وضمان حقوق الإنسان باشاعة الوعي بين المواطنين في أوروبا، وأدخلت تحولاً على المجتمع اليهودي، وحررته إلى حد كبير من عزلته «Ghetto»، وكذلك أدخلت تحولاً على المجتمعات الغربية في النظرة إلى اليهودي الذي أصبح يعتبر مواطناً يتمتع بالحقوق نفسها كغيره من المواطنين بصرف النظر عن معتقداته الدينية.

أما في روسيا فقد ظلت حركة «اللاسامية» قائمة، وأخذ اليهود يهربون منها إلى الغرب، بعد أن أصبح اليهودي في غرب أوروبا يتمتع بحقوق المواطنية، ويعيش حياة اندماج، في حين أنه كان في شرق أوروبا يعيش حياة عزلة(٧) عن محيطه غير اليهودي، ففرض العزلة على نفسه طواعية.

قويت فكرة الاندماج لدى المفكرين اليهود، لكن فكرة عدم الاندماج كانت أقوى لأنها اعتبرت الرد على «اللاسامية» «Anti Semitism»، فحاولت فئة من اليهود الخروج من العزلة التي فرضوها على أنفسهم، والاندماج في المحيط الذي



المهاجرون اليهود في طريقهم إلى فلسطين

يعيشون فيه، متخذين لذلك شتى الوسائل، فبعضهم تنصر في أوروبا كرئيس وزراء انكلترا دزرائيلي، أو تصاهر مع أسر مسيحية، وبعضهم الآخر أسلم إبان الدولة العثمانية، متسترين تحت شعار «الغاية تبرر الواسطة» وكانت ممارساتهم تنفيذاً لتعليمات تأتيهم من رجال الدين اليهودي، من ذلك مثلاً التعليمات التي أطلقها الحاخام «رايكون» «Raichon» عام ١٨٦٩ في خطاب ألقاه في براغ عاصمة تشيكوسلوفاكيا بمناسبة تأبينية، حث فيها يهود العالم على السيطرة على القوة المالية والاعلامية، والتستر بشعارات العدالة والمساواة، إلى أن تسمح الظروف بالقيام بانقلابات «تهدم الطبقات والأسر غير اليهودية، وعند ذلك يكون وعد «يهوا» للشعب اليهودي قد تحقق»(٨).

وقد ظهرت في القرن التاسع عشر أفكار كثيرة، منها فكرة التوفيق بين الدين اليهودي وروح العصر، أي على اليهودي أن يتكيف مع المحيط



ما ان وصل اليهود حتى تسلحوا وقاتلوا..

الذي يعيش فيه، ليستطيع أن يرد الإضطهاد عن نفسه، وهي فكرة مندلسولن ١٧٢٩ – ١٧٨٦ (Mendelssohn) التي تعارض التيار المتزمت الذي يعتبر اليهودية عقيدة دينية وظاهرة لغوية وعنصرية في آن معاً. وكان من الذين عارضوا رأي مندلسولن موسى هس (Moses Hess) ١٨١٢ – ١٨٧٥ الذي كان سياسياً اشتراكياً، لعب دوراً في ثورات ١٨٤٨ في أوروبا، والذي يعتبر من رواد الحركة الصهيونية في القرن التاسع عشر، فهاجم اندماج اليهود في المجتمعات الأوروبية، وذوبان الشخصية اليهودية، لأن ذلك لا يشكل حلاً عملياً للمشكلة اليهودية[9]، وإن كان لليهود دور في خلق مجتمع انساني مثالي، فإن ذلك لا يتحقق إلا بحرية اليهودي وحريته هذه لا تتحقق إلا في فلسطين، وهنا تبرز فكرة «القومية اليهودية» فكرة تحرير عن الطريق القومي، لأن زعيم هذه الفكرة كان متأثراً بنجاح فكرة القومية الايطالية التي كانت المنطلق لتوحيد إيطاليا، وقد ألف «هس» كتابه «روما والقدس» عام ١٨٦٢[10] معبراً عن أفكاره هذه. وقد طرح هذه الفكرة في وقت معاصر لهس رجال دين يهود إنما من منطلق ديني متعصب لليهودية أبرزهم الحاخام (Zrihirseh Kaliseher) ١٧٩٦ – ١٨٧٤ الذي رأى أن المشكلة اليهودية لا تحل بأنتظار قدوم «المخلص» فحسب، بل بالجهد البشري اليهودي والسعي لتحقيق ذلك، وقد عبر عن نظريته تلك بكتابة «السعي الصهيوني» الذي نشر عام ١٨٦٢ وفيه يصر أنه عن طريق هذا الجهد والسعي يأتي خلاص اليهود في بناء مجتمع يعتمد على ارتباط اليهودي بأرض يملكها ويزرعها وتكون بمثابة وطن قومي له «ولا يتم ذلك إلا في فلسطين»[11]. وقد قام كليشر بجهود عملية مستعيناً بأثرياء اليهود في العالم فأسس «جمعية استعمار أرض اسرائيل» عام ١٨٦٤، وعمل على تشجيع هجرة يهود شرقي أوروبا وألمانيا إلى فلسطين، وعلى إقامة مدارس زراعية تكون ميدان تدريب وعمل للمهاجرين الجدد، وتكوين حرس يهودي لحماية المستوطنات اليهودية، فأثمرت جهوده بسرعة عبر «جمعية استعمار اسرائيل» التي تعاونت مع «الأليانس الاسرائيلي العالمي» ومع البارون

ادموند روتشلد في إنشاء أول مدرسة زراعية يهودية في فلسطين عام١٨٧٠ عند مدخل مدينة يـافا عـرفت باسم «مـدرسة نيتـر» Charles Netter.

كان للأليانس الاسرائيلي العالمي الذي تأسس في فرنسا عام١٨٦٠ والذي تأسس في بريطانيا عام١٨٧٠، وفي ألمانيا عام١٨٧٣ أثر ملحوظ في تشجيع وتدعيم الهجرة والاستيطان في فلسطين، كما أسهم في تدعيم تلك الهجرة الصهيـونية مؤسسات يهودية أخرى، كالمحافـل اليهوديـة المـاسونيـة التي دخل فيهـا أكثريـة مسيحية برجوازية، وقلة من وجهاء المسلمين لأن مسلمي بيروت لم يتجاوبوا كثيراً مع هذه الاتجاهات. فأصبحت الماسونية فيما بعد وكراً للقضاء على الـدولـة العثمـانيـة، لأن المـاسـونيـة ابنـة الصهيونية سعت إلى السيطـرة على الطبقـات العليا في المجتمع، عن طريق خلخلة الايمان في الإنسان بقصد تجريده من مبـادئه وعقـائده ليصبح دون هوية«كوزموبوليتية» أي عالمياً. فينسلخ عن مبادئه وقيمه ويسهل انقياده وهكذا تسللت المـاسـونيـة إلى المجتمعـات، وفعلت المحـافـل الماسونية فعلها مع اليهود في إثارة السخط والمعارضة ضد السلطان عبد الحميد وعنـدما تنبهت الدولة العثمانية إلى خطر الماسونية حظرت الجمعيات السرية عام١٧٤٨، وتسرب الشك في نوايا المحافل الماسونية ونشاطاتها إلى المراجع السياسية. ويؤكد هذا الشك فيمـا صدر عن مؤتمر بازل ١٨٩٧ من اعتماد الصهيونية على الماسونية فجاء ما نصه.. «وإلى أن يأتي الوقت الذي تصل فيه الماسونية إلى السلطة سنحاول وننشىء ونضاعف خلايا الماسونيين الأحرار في جميع أنحاء العالم، وسنجذب إليها كل من يصير أو من يكون معروفاً بأنه ذو روح عامة، وهذه الخلايا ستكون الأماكن الرئيسية التي سنحصل منها على ما نريد»(١٢).

وكان من اليهود الذين سعوا للهجـرة إلى فلسطين، يهود ألمانيا، وقد تزعم هذه الحركة عام١٨٦٠ «هوفمان Hoffman» وهو يهودي من بلدة روتنبرغ بألمانيـا، فاتخـذ المظهر الـديني لتحقيق دعوته فأنشأ جمعية سماها «أتامبل» أي «جمعية محبي القدس الشريف»، ثم ذهب مع زميل آخر له عام١٨٦٨ وأستـأذنا السلطـان عبدالعزيز بالترخيص بتأسيس مستعمرة يهودية ألمانية في فلسطين يقطنها المهـاجرون اليهـود، فسمح لهم السكان. ومنذ عام ١٨٦٩ بـدأت أعداد كبيرة، من مهاجري «روتنبرغ» تصل إلى فلسطـين، وتستقر في حيفـا، ثم أسست هذه الأعداد قرية «أصارونه» على مقربة من يافا.

وكانت أوضاع اليهود بعامة قد تحسنت بعدما أن اعترف بسمارك بتحريرهم عام ١٨٧١(١٣)، كما كانت المسألة بحاجة إلى حل، وإلى تقرير موقف من ناحيـة اليهود واليهـودية في أرض الشتات، وإلى استيعاب اليهود في المجتمعات غير اليهودية التي ولدوا فيها(١٤). ◘

هوامـــش

(١) الدكتور فؤاد حسنين علي - المجتمع الاسرائيلي، ص٦.
(٢) المرجع نفسه، ص١٦.
(٣) The Jews in their land, P.215-217.
(٤) د. فؤاد حسنين علي، المرجع السابق، ص٢٠.
(٥) هنري كتن: فلسطين في ضوء الحق والعدل، ص٧.
(٦) Thauraud, L'erome et Jean; L'Histoire des Jwefs, P.29-39.
(٧) اسحق دوتيشر: دراسات في المسجلة اليهودية، ص٥٧.
(٨) ضياء أولاغور: جذور الصهيونية - ترجمة ابراهيم الداقوقي ص١٢٢ - ١٢٥.
(٩) أسعد عبد الرحمن، «المشكلة الصهيونية العالمية»، ص١٧.
(١٠) Jewes Pardhes, P.183.
(١١) N. Maudel: Jurhs, Arabs and Jewish Immigration into Palestine, P.79.
(١٢) محمد خليفة التونسي: الخطر اليهودي: بروتوكولات حكماء صهيون، البروتوكول الخامس عشر، ص١٧٣، ١٧٤.
(١٣) آلن تايلر: تاريخ الحركة الصهيونية ص١٢. ترجمة بسام أبو غزالة ص١٢.
(١٤) المرجع نفسه، ص١٢.



الجغرافيا عند العرب

وجيه عضاضة

يزخر القرنان الرابع والخامس للهجرة (العاشر والحادي عشر للميلاد) بكثير من المؤلفات الجغرافية وكتب الرحلات وبعض الأعمال الفلكية التي تتصل بالجغرافية من جانبها الرياضي. في هذين القرنين بلغت العناية بالجغرافيا والأقاليم درجة عالية. وقد نبغ فيهما عدد من الجغرافيين يمكن اعتبارهم أعلاماً في بحوثهم ودراساتهم. ومن حسن الحظ أن الكثير من آثارهم قد وصل إلينا. ومن تلك الأسماء اللامعة: المسعودي - الأصطخري - المقدسي - ابن حوقل - البلخي - البيروني - البكري.

ولا نستطيع بطبيعة الحال إعطاء معلومات عن هؤلاء جميعاً ودفعة واحدة، بل سنحاول التركيز على واحد منهم، وهو المسعودي بصفة خاصة، بالإضافة إلى أهم ما قدمه ابن حوقل من خرائط.

فالمسعودي رحالة وجغرافي ومؤرخ، رأى النور ببغداد في أواخر القرن الثالث للهجرة. وهو من أولئك الذين أحاطوا بالمعرفة إحاطة وافية وتمثلها تمثيلاً صحيحاً. كما أنه يتمتع بمخيلة واسعة تتسع في دفعة واحدة لموضوعات متعدّدة. أحب السفر منذ الطفولة. فزار عام ٣٠٠هـ (٩١٢م) ملتان والمنصورة وهما مدينتان في باكستان الآن، وبعدها بثلاث سنوات حملته رحلة إلى بلاد فارس. ثم زار سرانديب (سيلان) وسواحل بحر الخزر (قزوين) ثم سافر في بحر الملايو وزار مدغشقر وفلسطين ورجع إلى البصرة ثم جاء إلى مصر حتى استقر بالفسطاط وفيها توفي سنة ٩٥٦م. من مؤلفاته الشهيرة: مروج الذهب، التنبيه. وإليكم أولاً بعض مقتطفات مماجاء في كتابه: مروج الذهب.

١ - ذكر المبدأ وشأن الخليقة:

إتفق أهل العلم جميعاً من أهل الاسلام أن الله عز وجل خلق الأشياء على غير مثال، وابتدعها من غير أصل، وإن أول ما خلق الله الماء، وكان عرشه عليه، فلما أراد أن يخرج الخلق أخرج من الماء دخاناً فارتفع الدخان فوق الماء فسمَّاه السماء. ثم أيبس الماء فجعله أرضاً واحدة. ثم فتقها فجعلها سبع أرضين في يومي الأحد والاثنين. وخلق الأرض على حوت، والحوت في الماء والماء على الصفا والصفا على ظهر ملك، والملك على صخرة، والصخرة على الريح. فاضطرب الحوت فتزلزلت الأرض، فأرسى الله عليها الجبال فقرت الأرض وخلق أقوات أهلها وسخَّرها في يومي الثلاثاء والأربعاء. ثم فتق السماء فجعلها سبعاً في يومي الخميس والجمعة (وقد سمى الله الجمعة لأنه جمع فيها السموات والأرض).

أما ما وجد في التوراة فهو أن الله تعالى إبتدأ الخلق في يوم الاثنين وكان انتهاء الفراغ يوم

وجيه عضاضة: مدرس الاجتماعيات في المدارس التابعة لجمعية المقاصد الخيرية الاسلامية.

السبت، فاتخذ اليهود هذا اليوم عيداً. ثم شاء الله أن يخلق آدم (وقد سمى الله آدم لأنه خرج من أديم الأرض) وقد نفخ فيه الروح وكان ذلك في اليوم السادس من نيسان فخُلِقَت حواء منه وأسكنا الجنَّة لثلاث ساعات. فهبط آدم بالهند على جبل الراهون وحواء بجدَّة. إن آدم لما هبط من الجنة هو وحواء هبطا متفارقين فتعارفا بالموضع الذي يُسمى «عرفة» ولتعارفهما فيه سُمي بهذه التسمية. وإن آدم عليه السلام تاق إلى حواء فغشيها فاشتملت على ذكر سُمي قاين وأنثى سُميت لوبذاء. ثم عاود الغشيان فاشتملت حواء أيضاً على ذكر سُمي هابيل وأنثى سُميت إقليمياء. وذكر أهل الكتاب أن آدم زوَّج أخت هابيل لقاين وأخت قاين لهابيل. أما حواء فقد وضعت نسمة سمَّاه آدم شيت. وأعلمه أنه خليفته في الأرض، وأنه ثاني انتقال الذُرَّة الطاهرة والجرثومة الزاهرة.

وتوفي آدم عليه السلام يوم الجمعة لست خلون من نيسان في الساعة التي كان فيها خَلقُه وكان عمره تسعمائة وثلاثين سنة ومات تاركا أربعين ألفاً من ولده وولد ولده.

وتنازع الناس في قبره: فمنهم من زعم أن قبره بمنى في مسجد الخيف، ومنهم من رأى أنه في كهف في جبل أبي قبيس. والله أعلم بحقيقة الحال.

٢ - ذكر جمل من أخبار الهند وآرائها في عبادتها:

ذكر جماعة من أهل العلم والبحث الذين وصلوا الغاية بشأن هذا العلم وبدئه أن الهند كانت في القديم الفرقة التي فيها الاصلاح والحكمة. حاولت الهند أن تضم الملكة وتستولي فنُصبَ لها ملك هو البراهمن الأكبر.

اختلفت الآراء حول البراهمن: فمنهم من زعم أنه آدم عليه السلام وأنه رسول الله عز وجل إلى الهند.

ومنهم من يقول: إنه كان ملكاً على حسب ما ذكرنا وهذا أشهر.

وفي عهده ظهرت الحكمة وتقدمت العلماء وشيدت الهياكل. فأولاد البراهمن يعرفون بالبراهمة في الهند وهم أعلى أجناسهم وأشرفهم.

ففي ممالك الهند تباين وحروب. ولغاتهم مختلفة وآراؤهم غير متفقة والأكثر منهم تؤمن بالتناسخ وتنقل الأرواح.

فيقول المسعودي: «ورأيت في بلاد سرانديب (أي جزيرة سيلان) أن ملكاً من ملوكهم إذا مات صُيِّرَ على عجلة قريبة من الأرض صغيرة البكرة معدة لهذا المعنى. وشعره ينجر على الأرض. وامرأة بيدها مكنسة تحثو التراب على رأسه وتنادي: «أيها الناس هذا ملككم بالأمس وقد صار أمره إلى ما ترون من ترك الدنيا، وقبض روحه ملك الموت، وإلى القديم الذي لا يموت. فلا تغتروا بالحياة من بعده ثم يطاف به في شوارع المدينة ثم يفصل أربع قطع وقد هيء له الصندل والكافور فيحرق بالنار ويُذرى رماده في الرياح».

٣ - ذكر الأرض والبحار والأنهار والأقاليم السبعة:

قسمت الحكماء الأرض إلى جهة المشرق والمغرب والشمال والجنوب وقسموا ذلك إلى قسمين: مأهول وغير مأهول. وذكروا أن الأرض مستديرة ومركزها في وسط الفلك والهواء يحيط بها من جميع الجهات. وأنها عند ملك البروج بمنزلة النقطة قلّة. وأخذوا عمرانها من حدود جزر الخالدات (الكناري الآن، وهي في شرق المحيط الأطلسي) في بحر أقيانوس الغربي إلى أقصى عمران الصين. فوجدوا ذلك إثنتي عشرة ساعة. فعلموا أن الشمس إذا غابت في أقصى الصين كان طلوعها على الجزر العامرة في بحر أوقيانوس الغربي، وإذا كانت في هذه الجزر كان طلوعها في أقصى الصين وذلك نصف دائرة الأرض وهو طول العمران ومقداره من الأميال ثلاثة عشر ألفاً وخمسمائة ميل التي عملوا عليها في مساحة دورة الأرض. ثم نظروا إلى العمران في عروض العرض فوجدوا ذلك شمال خط الاستواء ينتهي عند جزيرة تولي في بريطانيا حيث يكون طول النهار الأطول عشرين ساعة.

أما ذكرهم عن الأقاليم السبع فقالوا: أرض بابل والعراق - الهند والسند - الحبشة والحجاز - مصر وأفريقية - الشام والروم - الترك والخزر - الديبل والصين.

صورة لبحر فارس (ابن حوقل)

ولكل من الأقاليم أبراجها ونجومها الخاصة سنذكرها بإذن الله في كتابنا الثاني «التنبيه والاشراف».

أما عن شكل البحار فأكثر الحكماء يذهبون إلى أن البر مستدير على مواضع الأرض واستدلوا على صحة ذلك بدلائل كثيرة منها: إذا لججت في البحر غابت عنك الأرض والجبال شيئاً فشيئاً. وإذا أقبلت نحو الساحل تظهر لك الجبال بالتدريج. فمن يكون في بحر الروم الذي هو بحر الشام ومصر يرى الجبل الأقرع العالي المطل على بلاد بحر الروم. ومن يكون في المراكب يغيب عن أبصارهم لانخفاضهم في المسير في البحر عن المواضع التي يُرى منها.

وقد تكلم الناس في بعد الأرض فذهب الأكثر إلى أن مركز الأرض إلى ما تنتهي إليه الهواء والنار مائة ألف وثمانية عشر ألف ميل. وأما القمر فإن الأرض أعظم منه بتسع وثلاثين مرّة والشمس أعظم من الأرض بمائة وسبعين مرة وربع وثُمن وأعظم من القمر بألف وستمائة وأربع وأربعين مرة. أما الأجرام السماوية فهي خمسة عشر كوكباً.

٤ - ذكر الأخبار عن انتقال البحار والأنهار الكبار:

ذكر صاحب المنطق أن البحار تنتقل على مرور الزمن لتصبح في مواضع مختلفة: فتارة موضع البحر يصبح براً وتارةً أخرى موضع البر يصبح بحراً. وسبب ذلك مجاري الأنهار ومصبها وانقطاعها عنها. وأن مجاري الأنهر والأعين واحد هو البحر العظيم وهو عذب وليس بحر أوقيانوس.

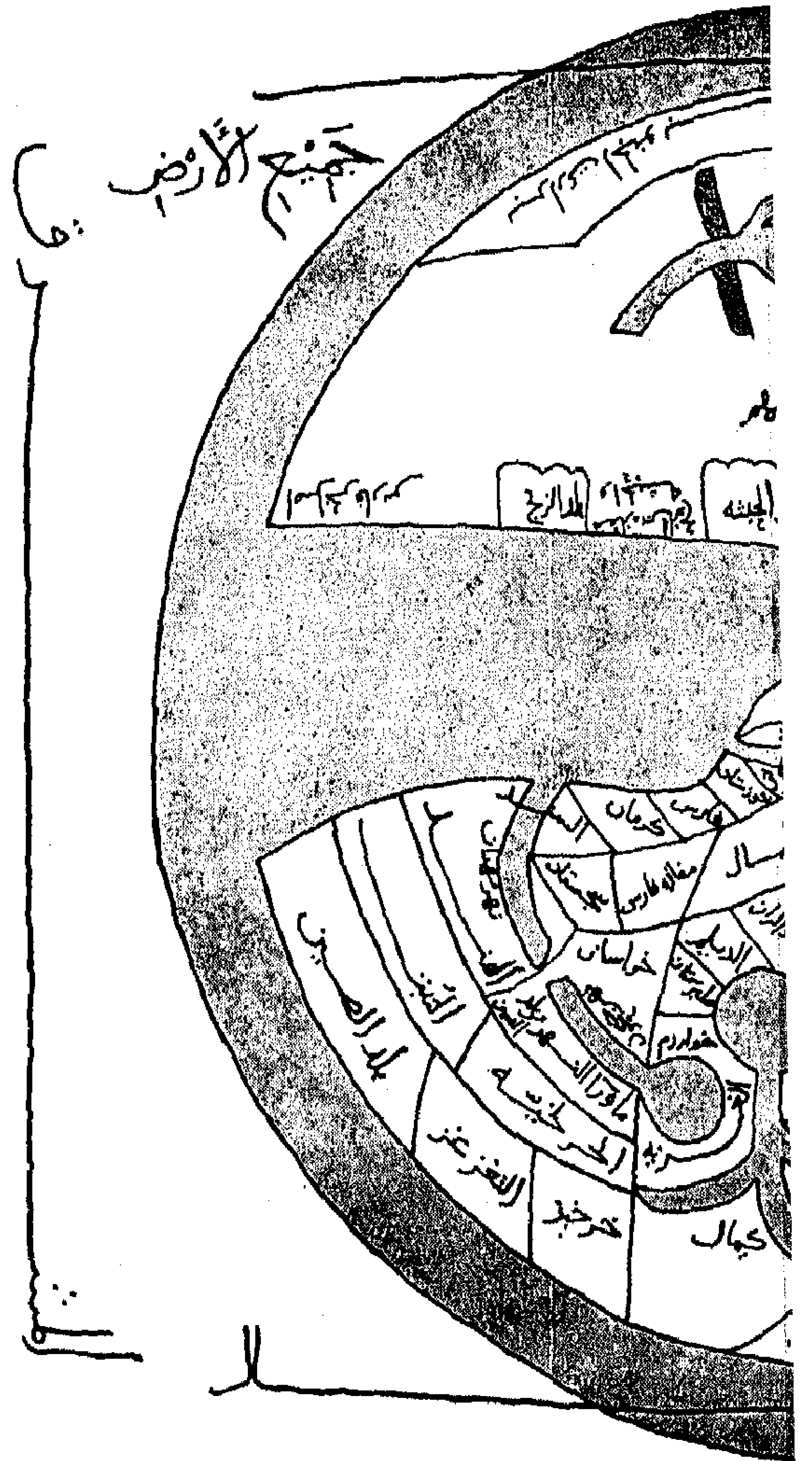
وقال آخرون: حق الماء أن يكون على السطح. فلما اختلفت الأرض فكان منها الهابط والعالي؛ انحاز الماء إلى أعماق الأرض فإذا انحصرت المياه في قعر الأرض طلبت التنفس حينئذ لِغلْظ الأرض وضغطها إياها إلى أسفل، فتنبثق من ذلك العيون والأنهار وربما تتولّد في باطن الأرض من الهواء الكائن هناك. وأن الماء متولد من عفونات الأرض وبحارها. أما عن الأنهار الكبرى فقد تحدث الناس كثيراً عنها وأخص بالذكر: النيل، دجلة والفرات. فمصدر النيل من تحت جبل



صورة الأرض (ابن حوقل).

القمر وراء خط الاستواء. ومنبعه ومبدأ ظهوره في إثنتي عشرة عيناً فتصب تلك المياه إلى بحيرتين هناك كالبطائح. ثم يجتمع الماء جارياً فيمر برمال هناك وجبال ويخترق أرض السودان فيشعب منه خليج إلى بحر الزنج، وهو بحر جزيرة قنبلو.

وقد ذكر الحكماء أنه يجري على وجه الأرض ألف فرسخ (الفرسخ يساوي ١٢ألفا ذراع، أو ٨,٢٨كيلومتر) حتى يصل أسوان والتي بقربها الجبال والأحجار ولا سبيل إلى جريان السفن هناك، يعرف هذا المكان بالجنادل. ثم



يأتي النيل الفسطاط وقد قطع الصعيد ومر بجبل الطيلمون وحجر اللاهون من بلاد الفيوم وهو المكان المعروف بالجزيرة التي اتخذها يوسف النبي وطناً، فيقطعه ثم يمضي جارياً فينقسم خلجانات إلى بلاد تنيس ودمياط ورشيد والاسكندرية، كل يصب إلى البحر الرومي وقد أحدث فيه الكثير من البحيرات في هذه المواضع.

٥ - ذكر تنازع الناس في المد والجزر:

المد: مضي الماء في فيحته وسبحته وسنن جريته. والجزر: رجوع الماء على ضد سنن مضيه وانعكاس ما مضى عليه في هيجه. فالبحار على ثلاثة أنواع: منها ما لا يكون فيها المد والجزر لوقوف الماء في البحر زمناً فيغلظ وترتفع ملوحته، ونوع ثان تبعد عن مدار القمر مسافات بعيدة فيمتنع منه المد والجزر. ونوع ثالث المياه التي تكون الغالب على أرضها التخلخل فتنفذ الماء منها وتتخلخل.

وقد تنازع الناس في المد والجزر: فمنهم من قال أن سببه القمر لأنه مجانس للماء وهو يسخنه فينبسط. ومنهم من قال أن الهواء المطل على البحر يستحيل دائماً، فإذا استحال عظم ماء البحر وفاض عند ذلك. وإذا فاض البحر فهو المد، فعند ذلك يستحيل ماؤه ويتنفس فيستحيل هواء فيعود إلى ما كان عليه وهو الجزر.

وقد ذهب كثير من أرباب المراكب كالسيرافيين (مدينة سيراف تقع على الخليج العربي) والعُمانيين الذين قطعوا البحار مرات عدة إلى أن المد والجزر لا يكون إلا مرتين في السنة: مرة يمد في شهور الصيف شرقاً بالشمال ستة أشهر، ومرة يمد في شهور الشتاء غرباً بالجنوب ستة أشهر أخرى.

٦ - بحر الروم:

أما بحر الروم فذُكِرَ أن طوله خمسة آلاف ميل (الميل البحري يساوي ١٨٥٣متراً) ويختلف عرضه من ستمائة ميل إلى ثمانمائة على حسب تداخل الرؤوس والخلجان. وقد ذهب قوم إلى أن هذا البحر أصل ماء سائر البحار ذلك أن ماء يجري من بحر أقيانوس إلى البحر الرومي يُحسّ بجريانه ويعلم بحركته. (المقصود هو التيار الذي يدخل إلى المتوسط من الأطلسي عبر مضيق جبل طارق) ويتشعب من بحر الروم والشام ومصر خليج من نحو خمسمائة ميل يتصل بمدينة الرومية. وعلى هذا الخليج من جانب المغرب قرية يقال لها سبتة ويقابلها من ناحية الأندلس الجبل المعروف بجبل طارق مولى موسى بن نصير. وفي بحر الروم جزر كثيرة منها: جزيرة قبرص - رودس - صقلية - أقريطش (كريت).

أما بحر نبطس (الأسود) فإنه يمتد من بلاد لاذقة إلى القسطنطينية وطوله ألف ومائة ميل

وعرضه ثلثمائة ميل. وفيه يصب النهر العظيم المعروف باطنابس. ومبدأ هذا البحر من الشمال وعليه الكثير من ولد يافث بن نوح. ويسير بحر نبطس حتى يصب في بحر نيطش (آزوف) الغني بالعقاقير والحشائش. ومن بحر نبطس يتفجر خليج القسطنطينية الذي يصب في بحر الروم.

* * *

المؤلف الثاني للمسعودي هو «التنبيه والاشراف» وقد تناول فيه كل ما يهم الباحثين في الفلك والأبراج والمعمور واللامعمور والأمم القديمة...

١ - ذكر الأفلاك وهيئاتها وتأثيراتها:

تحدث عن الفلك الذي نبهنا الله سبحانه عليه. وأشار في نص الكتاب إليه لما فيه من عجائب حكمته ولطائف قدرته وخصائص التدبير وبدائع التركيب التي تدل بعجائب نظمها وغرائب تأليفها على وجدانية مبدعها وأزلية منشئها. قال الله عز وجل (لا الشمسُ ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون) أي في دائرة منها يكونون.

إن اسم الفلك دل على الاستدارة في لغة العرب. والفلك السماء قال الله عز وجل(لَخلْقُ السموات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون).

وتحدث المسعودي عن فصول السنة فقسَّمها إلى الأزمنة الأربعة المعروفة اليوم:

٢ - قسمه الأزمنة وفصول السنة ومهاب الرياح:

فالزمان الأول وهو الربيع وهو طبيعة الدم حار رطب. مدته ثلاثة وتسعون يوماً وثلاث وعشرون ساعة، وربع ساعة. وذلك من عشر تبقى من آذار إلى ثلاثة وعشرين يوماً تخلو من حزيران وهو من نزول الشمس أول دقيقة من الحمل وهو الاستواء الربيعي إلى دخولها أول دقيقة من السرطان وهو المنقلب الصيفي. وإن مدة زمان الربيع مسير الشمس والزمان الثاني في ثلاثة أبراج وهي الحمل والثور والجوزاء. والزمان الثاني الصيف وهو حار يابس. سلطانه المرة الصفراء، مدته اثنان وتسعون يوماً وثلاث وعشرون ساعة وثلث ساعة وذلك من ثلاثة وعشرين يوماً تمضي من حزيران إلى أربعة وعشرين تمضي من أيلول وهو من دخول الشمس أول دقيقة من السرطان إلى دخولها أول دقيقة من الميزان. ومدة زمان الصيف مسير الشمس في ثلاثة أبراج وهي السرطان والأسد والسنبلة.

والزمان الثالث الخريف وهو بارد يابس، سلطانه المرة السوداء ومدته ثمانية وثمانون يوما وسبع عشرة ساعة وثلث خمس ساعة وذلك من أربعة وعشرين يوما تمضي من أيلول إلى اثنتين وعشرين يوماً تخلو من كانون الأول وذلك من نزول الشمس أول دقيقة من الميزان وهو الاستواء الخريفي إلى نزولها أول دقيقة من الجدي وهو المنقلب الشتوي. ومدة زمان الخريف مسير الشمس في ثلاثة أبراج وهي الميزان والعقرب والقوس.

والزمان الرابع الشتاء، وهو بارد رطب. سلطانه البلغم، مدته تسعة وثمانون يوماً وأربع عشرة ساعة من تسع تبقى من كانون الأول إلى أحد وعشرين يوماً تخلو من آذار وذلك من دخولها الشمس أول دقيقة من الجدي إلى نزولها أول دقيقة من الحمل. ومدة زمان الشتاء مسير الشمس في ثلاثة أبراج وهي الجدي والدلو والحوت.

فتأمل حكمة الباريء عز وجل في نظمه الاستقصات الأربعة في العالم السفلي أعني الأرض والهواء والماء والنار. فالزمان مقسوم بأربعة أقسام: قسم ربيعي دموي هوائي، وقسم صيفي صفراوي ناري، وقسم خريفي سوداوي أرضي، وقسم شتائي بلغمي مائي.

وتحدث عن الرياح ومهابها فكانت أربعة: الصبا من المشرق وهي القبول وهي ما حبَّ من مطلع الشمس. والدبور والتي تهب من الغرب. (من دبر من استقبل المشرق). والشمال التي تهب من تحت جدي الفرقدين (الفرقد هو موقع من بخارى، جنوبي روسيا). والجنوب التي تهب من تحت جدي سُهيل.

أما الريح التي تسمى ببلاد مصر «المريسِّية» فهي باردة تقطع الغيوم وتصفي الهواء وتقوِّي حرارة الأبدان. ويقع الوباء إذا دامت المريسية بمصر لأنها تهب في كانون الأول.

٣ - ذكر أقسام الأرض وتأثير المُناخ في سكانها:

فالعالم أربعة أرباع: ربع شرقي وهو ما تسافل عن خط الجنوب والشمال إلى المشرق فهو ربع مذكر يدل على طول الأعمار وعزة النفس وذلك لطبيعة الشمس وعلمهم الأخبار والتواريخ والنجوم.

وربع غربي وهو الغالب عليه التأنيث إلا ما استولت عليه الكواكب المذكرة، كما يغلب التذكير على المشرق إلا ما غلبته عليه الكواكب المؤنثة. وأهله أهل كتمان للسر وكثرة انقياد إلى الآراء.

أما أهل الربع الشمالي وهم الذين بعدت الشمس عن سمتهم من الواغلين في الشمال كالصقالبة والأفرنجة، فإن سلطان الشمس ضعف عندهم لبعدهم عنها فغلب على نواحيهم البرد والرطوبة وتوافرت الثلوج عندهم والجليد. فتلبَّدت آفاقهم وثقلت ألسنتهم وابيضت ألوانهم وازرقت أعينهم وسبطت شعورهم. فمن كان منهم أوغل في الشمال فالغالب عليه الغباوة والجفاء والبهائمية.

وأما أهل الربع الجنوبي، كالزنج والأحباش والذين كانوا تحت خط الاستواء وتحت مسامته الشمس، فإنهم بخلاف تلك الحال من التهاب الحرارة وقلة الرطوبة. فاسودت ألوانهم واحمرت أعينهم وتفلفلت شعورهم وتوحشت نفوسهم.

٤ - مساحة الأرض وشكلها:

وذكر من عني بمساحة الأرض وشكلها أن تدويرها يكون بالتقريب أربعة وعشرين ألف ميل وذلك تدويرها مع المياه والبحار. فإن المياه مستديرة مع الأرض وحدهما واحد؛ فكلما نقص من استدارة الأرض وطولها وعرضها شيء تمَّ باستدارة الماء وطوله وعرضه، وذلك أنهم نظروا إلى مدينتين في خط واحد إحداهما أقل عرضاً من الأخرى وهما الكوفة ومدينة السلام فأخذوا عرضيهما فنقَّصوا الأقل من الأكثر ثم قسَّموا ما بقي على عدد الأميال التي بينهما فكان نصيب الدرجة مما يحازيهما من أجزاء الأرض المستديرة ستة وستين ميلًا وثلثي ميل فإذا ضربوا ذلك في جميع درج الفلك التي هي ثلثمائة وستون ألف ذراع والذراع أربع وعشرون أصبعاً والأصبع ست شعيرات مضموم بعضها إلى بعض.

وفي معرض حديثه عن الأقاليم السبعة التي ذكرها المسعودي كما أشرنا في كتاب «مروج الذهب» يشير صاحبنا هنا إلى أن مساحة هذه الأقاليم في الطول ثمانية وثلاثون ألفاً وخمسمائة فرسخ في عرض ألف وسبعمائة وخمسة وسبعين فرسخاً. وقد قسموا هذه الأقاليم بين الكواكب السبعة على قدر تواليها وتتابعها في الفلك:

فالاقليم الأول لزحل وله من البروج الجدي والدلو.

والأقليم الثاني للمشتري وله من البروج القوس والحوت.

والأقليم الثالث للمريخ وله من البروج الحمل والعقرب.

والأقليم الرابع للشمس وله من البروج الأسد.

والأقليم الخامس للزهرة وله من البروج الثور والميزان.

والأقليم السادس لعطارد وله من البروج الجوزاء والسنبلة.

والأقليم السابع للقمر وله من البروج السرطان.

٥ - بحر أوقيانوس:

وهذا البحر أي المحيط الأطلسي فإنه يبتدىء من نهاية المعمورة في الشمال إلى نهاية المعمورة في الجنوب وليس له في غربيه ولا شماليه نهاية محدودة. في هذا البحر الجزر المسماة «بالخالدات». على هذا البحر جزيرة تعرف بقادس وهي عجيبة البنيان على أعاليها عمود عليه تمثال من النحاس ووراءه في هذا البحر

تماثيل عدّة التي تدعى «الهرقلية» التي بناها هرقل الملك الجبار وتنذر من رآها أن لا طريق وراءها ولا مذهب، بخطوط على صدورها بنية ظاهرة ببعض الأقلام وضروب من الاشارات بأيدي هذه التماثيل تنوب عن تلك الخطوط لمن لا يحسن قراءتها صلاحاً للعباد ومنعاً لهم في ذلك البحر من التغرير بأنفسهم.

٦ - ذكر الأمم السبع في سالف الزمان:

ذكر الأمم السبع القديمة وتميزهم بأشياء ثلاثة: سيمتهم الطبيعية - خلقهم الطبيعية - وألسنتهم:

فالفرس أمة حد بلادها الجبال من أذربيجان إلى ما يلي بلاد أرمينية والبلقان وما اتصل بذلك من أرض الأعاجم.

والأمة الثانية: الكلدانيون وهم السريانيون الذين في التوراة بقوله عز وجل لابراهيم «أنا الرب الذي انجبتك من نار الكلدانيين لاجعل هذه البلاد لك ميراثا».

وكانت دار مملكتهم مدينة كلواذي بأرض العراق وكانوا شعوبا وقبائل منهم النونويون والأشوريون والأرمن والجرامقة. وكانت بلادهم العراق وديار ربيعة والشام وبلاد العرب اليوم.

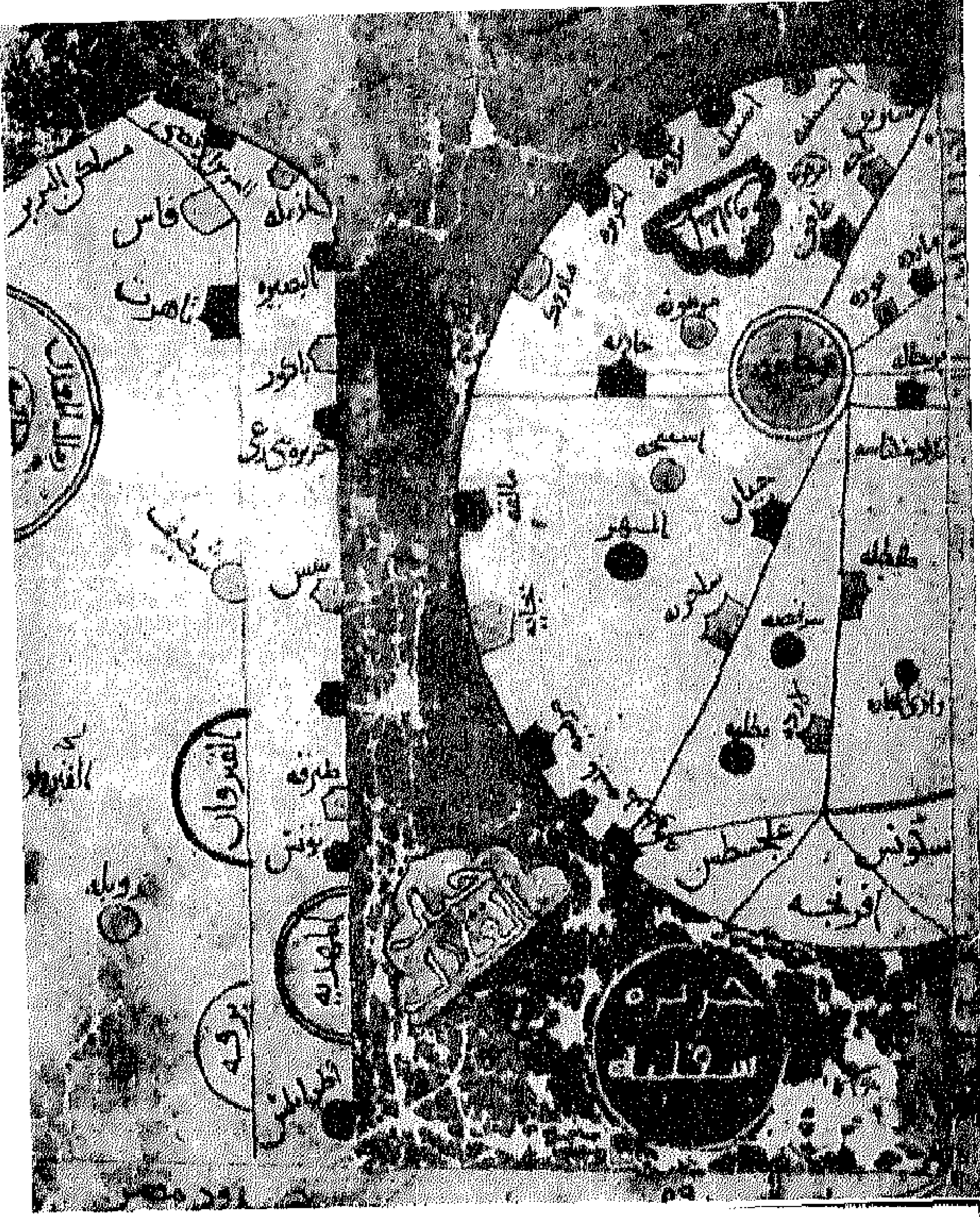
والأمة الثالثة: اليونانيون والروم والصقالبة والافرنجة.

والأمة الرابعة: لُوبية منها مصر وما اتصل بذلك من أرض المغرب إلى بحر أوقيانوس.

والأمة الخامسة: أجناس من الترك الخرلخّية والغز والخزر والطغزغز.

والأمة السادسة: أجناس الهند والسند.

والأمة السابعة: الصين وسيلي وما اتصل



من «كتاب البلدان» للاصطخري (الرابع الهجري)، خريطة تظهر اسبانيا وشمالي أفريقيا

بذلك من مساكن ولد عامور ابن يافث بن نوح.

هذه الشعوب جميعها لها لغة واحدة وملك واحد، وقد جمعهم عبادة الأصنام مثالًا لآلهتهم غير الآلهية التي كان يجل مثلها غيرهم من الأمم تمثيلًا بما علا من الجواهر العلوية والأجسام السماوية.

هذا أهم ما جاء في مؤلفات المسعودي من معلومات جغرافية وتاريخيّة وفلكيّة.

وقد استعنا ببعض خرائط لابن حوقل.

▪



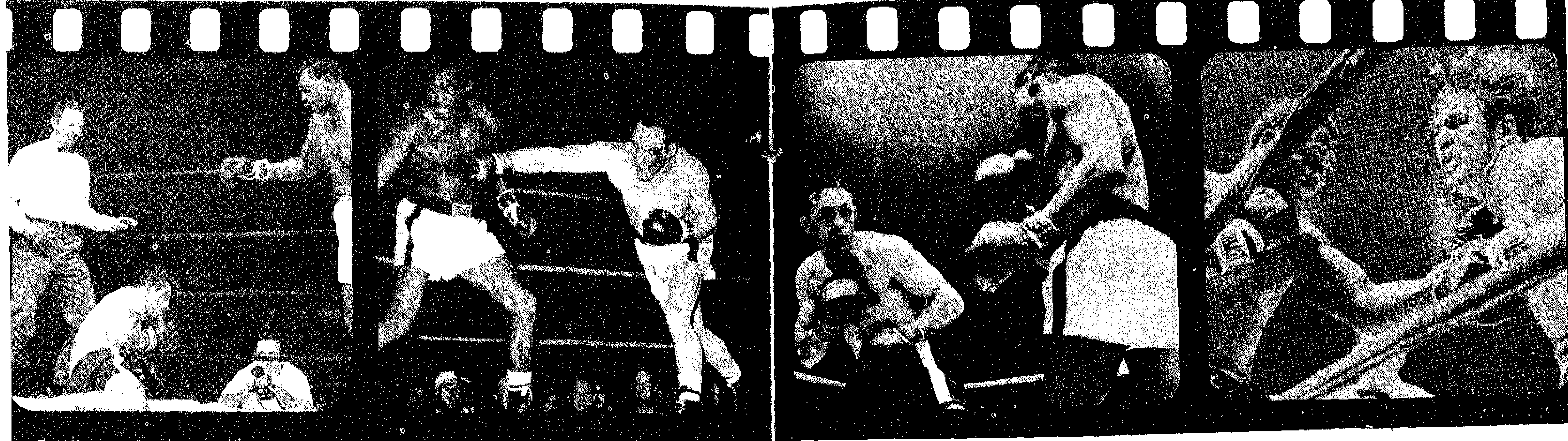


- من الصعب أن نتحدث عن حضارة غربية خالصة وحضارة مشرقية خالصة ففي كل من الحضارتين عناصر من الحضارة الأخرى.
- عندما تتم الوحدة العربية يصبح للعرب قوة دولية تكفل حل قضايا العالم العربي، وفي مقدمتها قضية فلسطين.

«توينبي»

وهذا موضوع ثانٍ للدكتور يوسف شبل بعد مقاله في العدد الماضي «عصر محمد علي»، يؤكد اهتمامه بشؤون الرياضة.

كانت خسارة محمد علي، بطل العالم السابق في الملاكمة ثلاث مرات، والرجل الاسطورة التي تعدت شهرته حلبة الملاكمة بحيث أصبح أشهر رياضي خلال هذا القرن أمام بطل العالم الحالي «لاري هولمز» نهاية لصفحة تاريخية حافلة وناصعة بالأمجاد. فقد انتشل محمد علي الملاكمة من الأدران التي لحقت بها بعد أن هبطت [illegible] خلال الفترة الواقعة ما بين عام ١٩٥٦ وعام ١٩٦٤.



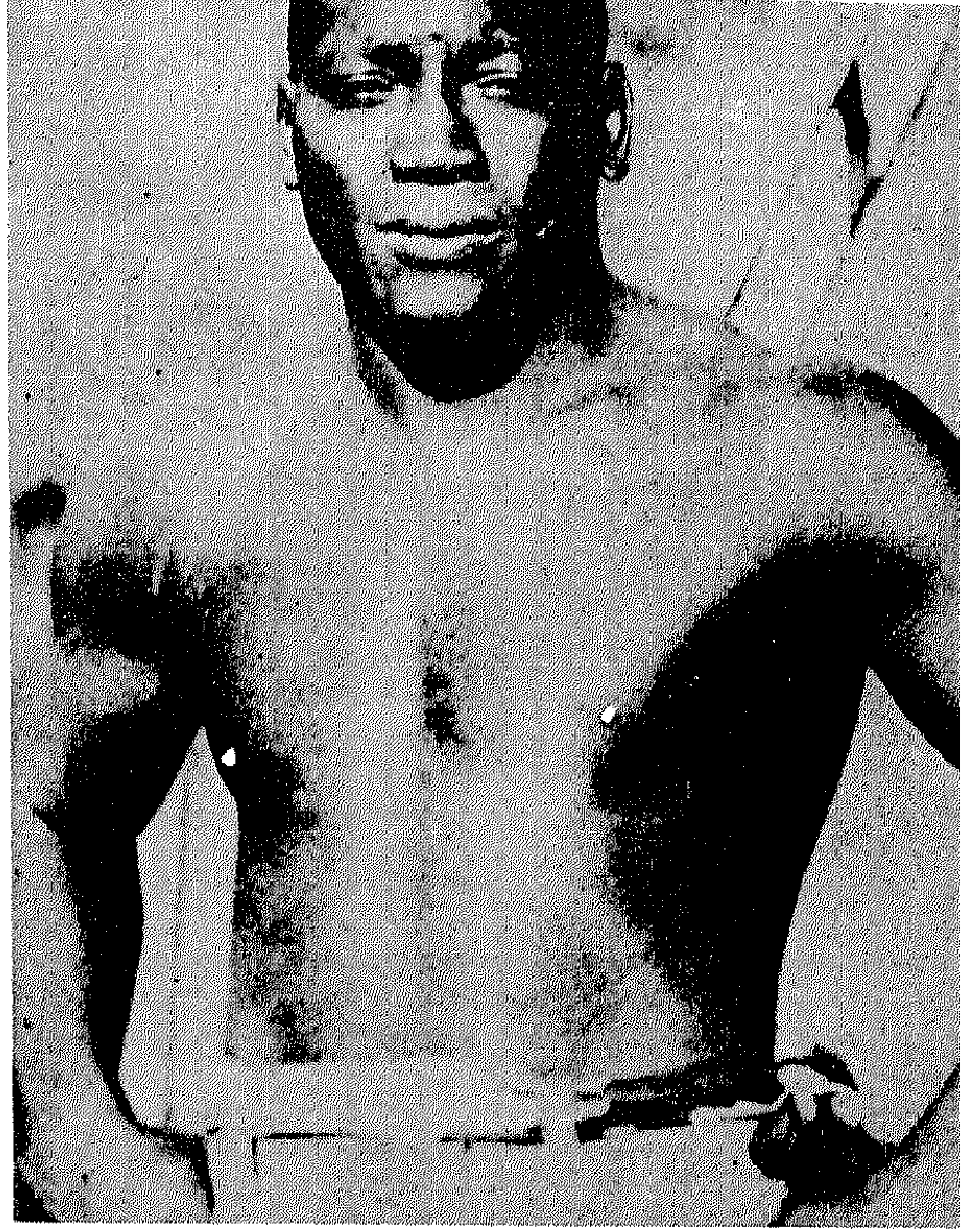
أضواء على بطولة العالم في الملاكمة للوزن الثقيل (١٨٨٢-١٩٦٤)

د. يوسف شبل

عندما اعتزل الملاكم الأمريكي المشهور والايطالي الأصل «روكي مارشيانو» حلبة الملاكمة في عام ١٩٥٤ بعد أن خاض ٤٩ مباراة ربحها جميعها، شغرت بطولة العالم مما دفع اتحاد الملاكمة العالمي الى اقامة مباريات تصفية انتهت الى لقاء بين بطل العالم للوزن خفيف الثقيل آنذاك، «أرشي مور» وبين بطل ناشيء كان قد فاز في عام ١٩٥٦ بدورة ملبورن الأولمبية اسمه «فلويد باترسون». أسفرت عن فوز «باترسون» بالضربة القاضية في الجولة الرابعة وكان عمره آنذاك ٢١ عاما وفوزه بلقب بطل العالم للملاكمة في الوزن الثقيل.

غير أن فوز «باترسون» كان بداية لعصر الانحطاط في تاريخ الملاكمة. فقد تجنب اللعب مع خيرة الملاكمين الذين كانوا في طليعة متحديه على اللقب من أمثال «كليفلاند وليامز» و «أيدي ماتشن» و «زورا فولي» كما كانت شخصيته غامضة ولم يكن لديه أي اطلالة مضيئة على النشء الصاعد أو على الرأي العام. وحتى عندما لعب ضد البطل السويدي «أنجيمار جوهانسون» للمرة الأولى في حزيران من عام ١٩٥٩ كان الأخير يحتل المرتبة السابعة في لائحة المتحدين له ومع ذلك خسر بضربة قاضية فنية في الجولة الثالثة حين تدخل حكم المباراة لانهائها بعد أن وقع باترسون ست مرات على أرض الحلبة. ورغم أن باترسون استعاد لقبه في تموز في عام ١٩٦٠ وأصبح بذلك أول بطل في الملاكمة للوزن الثقيل يستعيد لقبه ثم عاد وفاز مرة ثانية على جوهانسون عام ١٩٦١. فإنه عاد الى سيرته القديمة لملاكمة أبطال مغمورين مثل «توم ماكنيلي» مما دفع بالصحافة ووسائل الاعلام والنقاد الرياضيين في الولايات المتحدة وأوروبا الى مهاجمته بعنف واتهامه بالتهرب من الدفاع عن لقبه أمام متحدين لهم وزنهم ومصنفين على

د. يوسف الشبل: مستشار اقتصادي لدى وزارة المالية في السعودية واستاذ اقتصاد في الجامعة الأميركية ببيروت سابقاً. يشغل حاليا منصب كبير الاقتصاديين في دار الهندسة والتصميم في بيروت.



جاك جونسون الملاكم الحديدي الأول ملاكم أسود يفوز ببطولة العالم.

لائحة اتحاد الملاكمة العالمي.

وفي تلك الفترة كان ملاكم زنجي آخر وهو «سوني ليستون» يشق طريقه بسرعة نحو القمة اذ كان يتمتع بقوة جسدية هائلة وضربة خطافية (Hook) قاتلة حيث فاز على جميع الأبطال الذين تجنب «باترسون» لقاءهم. وقد حاول «باترسون» مرات عديدة التهرب من مقابلة «ليستون» بحجة أن الأخير له علاقة مشبوهة مع منظمة «المافيا» الى أن حدث حادث طريف في البيت الأبيض في واشنطن. فقد كان «فلويد باترسون» في عداد وفد زنجي للحقوق المدنية ذهب لمقابلة الرئيس الراحل «جون كنيدي» في مطلع عام ١٩٦٢. وفي خلال اللقاء سأل الرئيس «كينيدي» «باترسون» عن اسم الملاكم الذي سيتقابل معه في مباراته القادمة على اللقب. وهنا مال «باترسون» على اذن الرئيس كينيدي وهمس له باسم هذا الملاكم. وفي صبيحة اليوم التالي ظهرت الصحف الأمريكية «بمانشيت» عريض يقول: باترسون يقابل ليستون على اللقب بعد أن أحرجه الرئيس كينيدي!!

وهكذا كان وخسر «باترسون» أمام ليستون في شيكاغو في أيلول من ١٩٦٢ بضربة قاضية بعد مرور دقيقتين فقط على بدء المباراة! وقد بلغ من خجل «باترسون» من ادائه السيء أن غادر الحلقة واستقل فوراً سيارته الخاصة بعد أن تنكر بلحية وشاربين وساق بمفرده من شيكاغو الى نيويورك مسقط رأسه حتى لا يقابل الصحفيين والنقاد. وعندما تربع ليستون على عرش الملاكمة كانت قد أوصلها الى الحضيض من حيث سمعتها لدى الرأي العام.

والآن نعود الى استعراض موكب أبطال العالم للوزن الثقيل منذ عام ١٨٨٢ حتى يومنا هذا.

في عام ١٨٨٢ فاز «جون سوليفان» (Sulliven) باللقب بعد تغلبه على ملاكم اسمه «بادي ريان» واحتفظ باللقب حتى عام ١٨٩٢ حين خسر اللقب أمام «جيم كوربيت» وذلك بالضربة القاضية في الجولة الثانية.

وقد ساهم «كوربيت» في تطور فن الملاكمة عن طريق استخدام حركات القدمين برشاقة بدلاً من الوقوف جامداً وتبادل اللكمات دون حراك على أرض الحلقة كما كان الحال من قبل وقد احتفظ باللقب حتى عام ١٨٩٧ حين خسر اللقب امام ملاكم بريطاني صاعد اسمه «بوب فيتزمونس» (Fitzimmons) وذلك بالضربة القاضية في الجولة الرابعة عشرة وكان فيتزمونس يعمل حداداً في استراليا ثم هاجر الى الولايات المتحدة الأمريكية. وقد بلغ من قوته الجسدية أنه حين ألقى بكوربيت الى ارض الحلبة شعر الأخير وكأنه مشلول تماما حيث مكث على أرض الحلبة الى انهاء العد من قبل الحكم.

دامت سيادة فيتزمونس لبطولة العالم مدة عامين فقط حين خسر أمام «جيم جيفريز» (Jim Jeffries) بالضربة القاضية في الجولة الحادية عشرة. والطريف أن جيفريز كان عداءاً سريعاً اذ كان يقطع حوالي ١٠٠ ياردة بـ ٥ر ١٠ ثانية رغم أنه كان يزن ١٠٠ كيلو غراماً الأمر الذي أعطاه رشاقة وخفة حركة الى جانب قوة بدنية هائلة. وقد تقاعد في عام ١٩٠٥ غير مهزوم بعد أن ربح ٢٩ مباراة متتالية. إلّا انه ما لبث أن عاد لحلبات الملاكمة في عام ١٩١٠ لمنازلة الملاكم الزنجي الاسطورة «جاك جونسون» ولكنه خسر

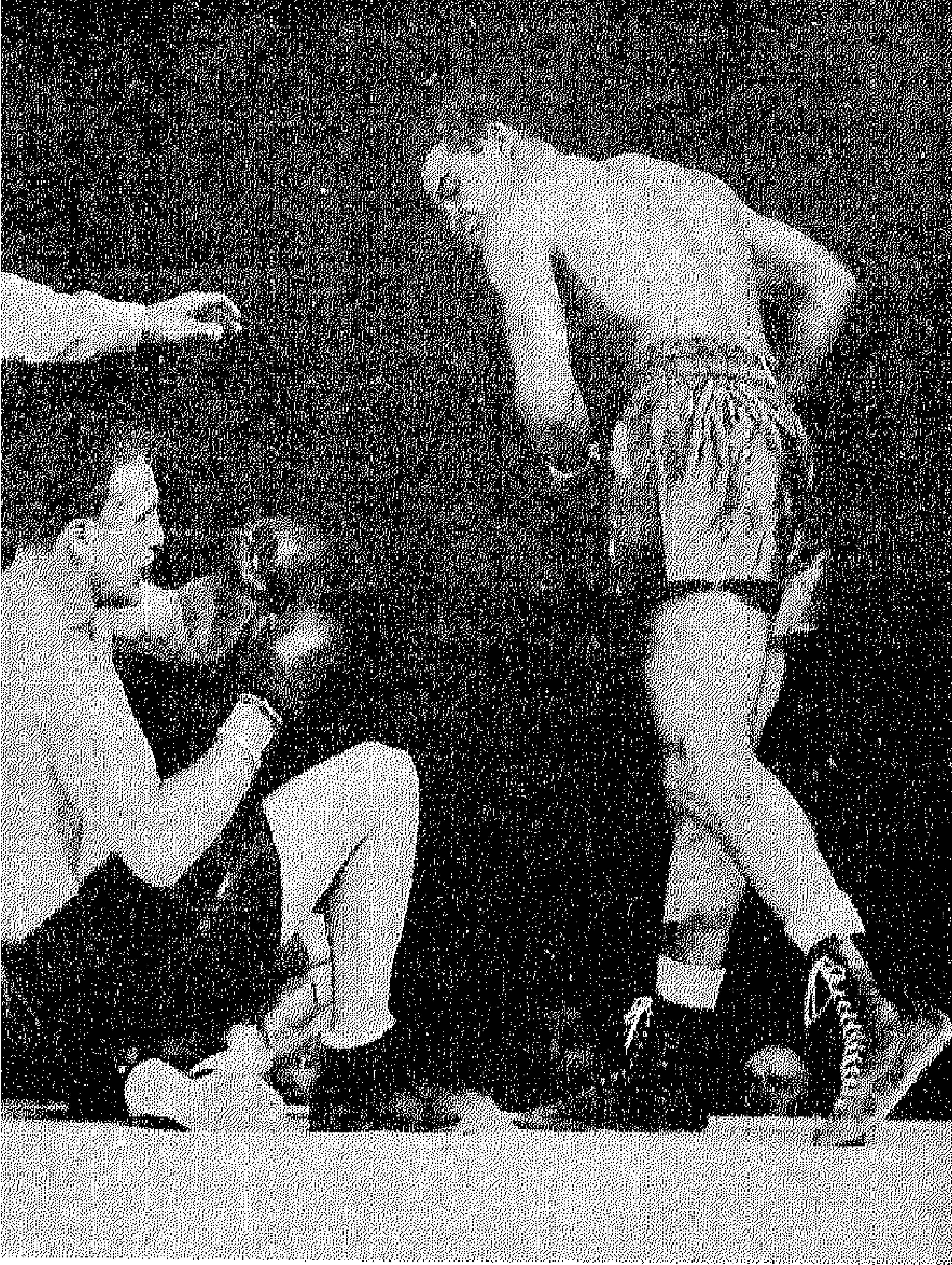
أمام جونسون بالضربة القاضية في الجولة الخامسة عشرة وكانت المرة الاولى التي يقع فيها على ظهره خلال حياته الطويلة كملاكم.

عندما اعتزل جيفريز عرش الملاكمة جرت تصفيات عديدة فاز فيها ملاكم مغمور اسمه مارفين «هارت» (Hart) ببطولة العالم غير أنه لم يستمر طويلاً فخسر امام ملاكم مغمور اسمه «تومي بيرنز» (Burns) وكان ذلك عام ١٩٠٦ غير أن الأخير لم يحتفظ باللقب سوى عامين حين خسر اللقب امام الملاكم الزنجي ذي القبضة الحديدية «جاك جونسون». وقد أدى فوز أول بطل زنجي ببطولة العالم في الملاكمة للوزن الثقيل الى حدوث شغب في عدد كبير من المباريات التي خاضها خصوصاً ضد الأبطال البيض حتى أن رجال الشرطة كانوا يتدخلون لانهاء المباريات على خير. فقد لعب ١٠٦ مباريات فاز في ٨٥ منها وتعادل في ١٤ مباراة وخسر ٧ مباريات فقط. ومن أصل الـ ٨٥ مباراة التي فاز بها استطاع أن يربح ٥١ مباراة منها بالضربة القاضية.

وقد تربع جونسون على عرش الملاكمة من عام ١٩٠٨ حتى عام ١٩١٥. وقد خسر لقبه أمام «جيس ويلارد» «Jess Willard» في الجولة السادسة والعشرين في مباراة تاريخية في هافانا عاصمة كوبا. وبعد هذه المباراة التاريخية قرر اتحاد الملاكمة تحديد مباريات البطولة بـ ١٥ جولة بعد أن كانت تستمر حتى يفوز أحد الطرفين وهذا القرار لا يزال ساري المفعول حتى الآن. واستمر جونسون في الملاكمة حتى عام ١٩٢٨ رغم خسارته اللقب. وتوفي في ١٠ حزيران من عام ١٩٤٦ بعد أن اصطدمت سيارته بعامود كهرباء وقتل فوراً.

لقد أدى فوز «جيس ويلارد» الى ظهور تعبير «الأمل الأبيض» في عالم الملاكمة في الولايات المتحدة. ويعني هذا التعبير الأمل في أن يسترد بطل أبيض بطولة العالم للوزن الثقيل من بطل أسود. ولا يزال هذا التعبير منتشراً خصوصاً في السنوات العشرين الأخيرة حيث احتكر «باترسون» «ولستون» و «محمد علي» و «فورمان» «وفريزر» بطولات هذا الوزن.

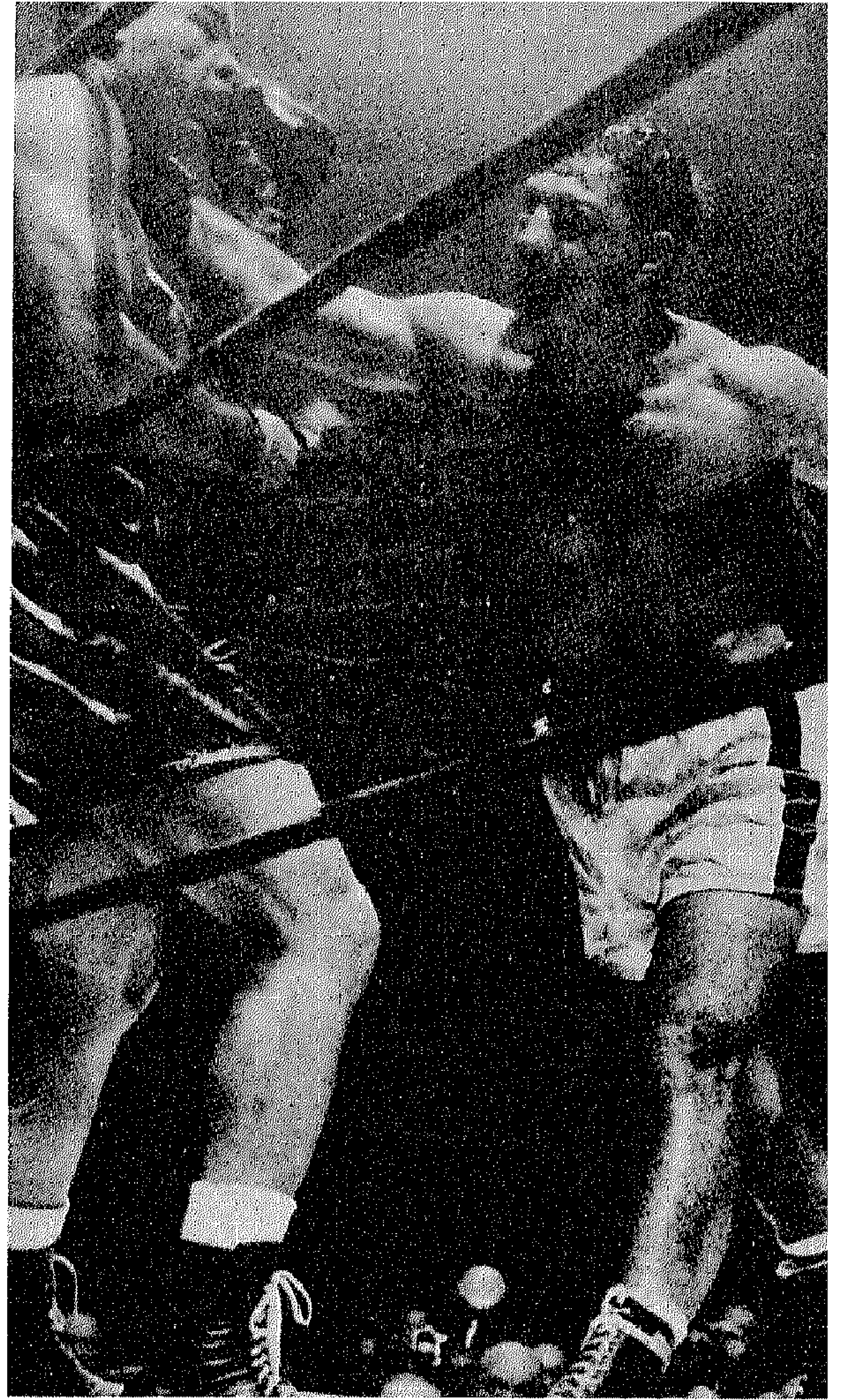
وفي عام ١٩١٩ تقابل جيس ويلارد مع بطل صاعد اسمه «جاك ديمبسي» «Jack Demosey»



جو لويس يسقط «بيلي كون» في الجولة الثامنة.

الذي أصبح فيما بعد واحداً من أشهر ثلاثة ملاكمين في تاريخ الملاكمة للوزن الثقيل وهم ديمبسي، وجو لويس ومحمد علي. فقد فاز «ديمبسي» على «ويلارد» بضربة قاضية في الجولة الثالثة ويعتبر في نظر كثير من النقاد الرياضيين أقوى ملاكم ظهر على الحلبة حتى الآن واحتفظ باللقب حتى عام ١٩٢٦ عندما خسر اللقب أمام «جين تاني» «Jane Tunney». وقد فاز ديمبسي بـ ٦٠ مباراة منها ٤٩ بالضربة القاضية وتعادل في ٨ مباريات وخسر ٧ مباريات خلال أطول فترة عاشها ملاكم حيث امتدت من عام ١٩١٦ - ١٩٤٠. ولا يزال «ديمبسي» على قيد الحياة وقد بلغ من العمل ٨٥ سنة ويتمتع بشعبية كبيرة في أوساط الملاكمة.

كانت شخصية «جين تاني» نقيض شخصية «ديمبسي». ففي حين نشأ الأخير في بيئة شعبية كان «تاني» تلميذاً جامعياً وميسور الحال وابن عائلة معروفة في المدينة التي نشأ فيها. وكان شاعراً وله صداقات عديدة مع الادباء ويتذوق زيارة المتاحف والآثار وهي خصائص ثقافية



لم تكن معروفة عند باقي الملاكمين الذين جاءوا قبله وحتى كثير من الذين جاءوا بعده.

وقد خاض مباريات عديدة بين عام ١٩١٥ و ١٩٢٨. وكان قد فاز باللقب عام ١٩٢٦ بالنقاط على «ديمبسي». وفي عام ١٩٢٨ اقيمت مباراة الثأر التي أثارت ضجة كبيرة نظراً لأن «ديمبسي» أوقع «تاني» في الجولة السابعة غير أن الحكم تباطأ في العد مما أتاح للأخير فرصة الوقوف على قدميه والفوز في نهاية المباراة بالنقاط. وقد اعتزل «تاني» الملاكمة عام ١٩٢٨ دون أن ينهزم بعد أن أصبح مليونيراً. وقد توفي «تاني» عام ١٩٧٩ عن عمر يناهز الثانية والثمانين.

بعدئذ اعتلى عرش الملاكمة الملاكم الالماني الشهير «ماكس شميلنخ» «Schmelling» وكان

روكي مارسيانو يسدد الضربة القاضية التي انهت اسطورة جو لويس.

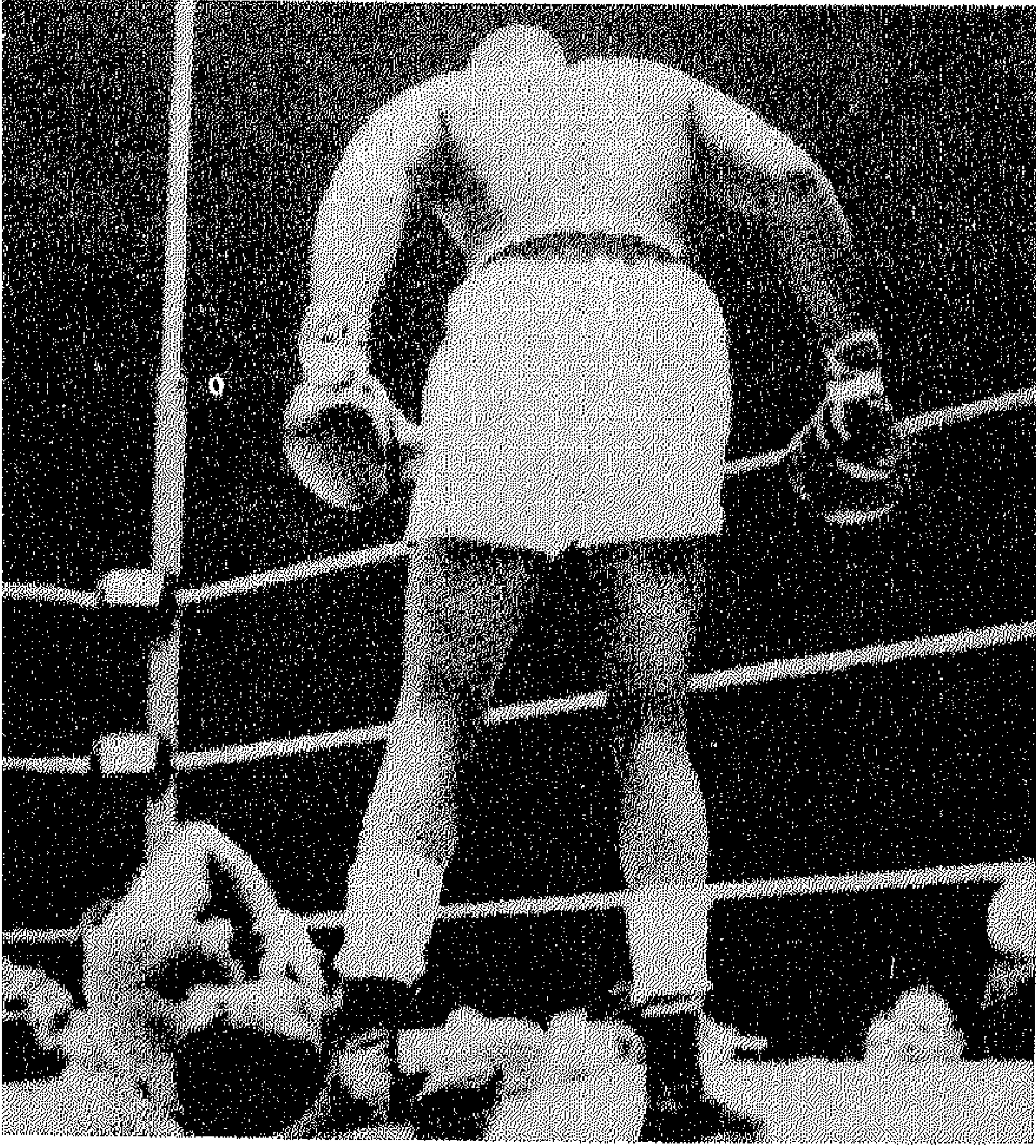
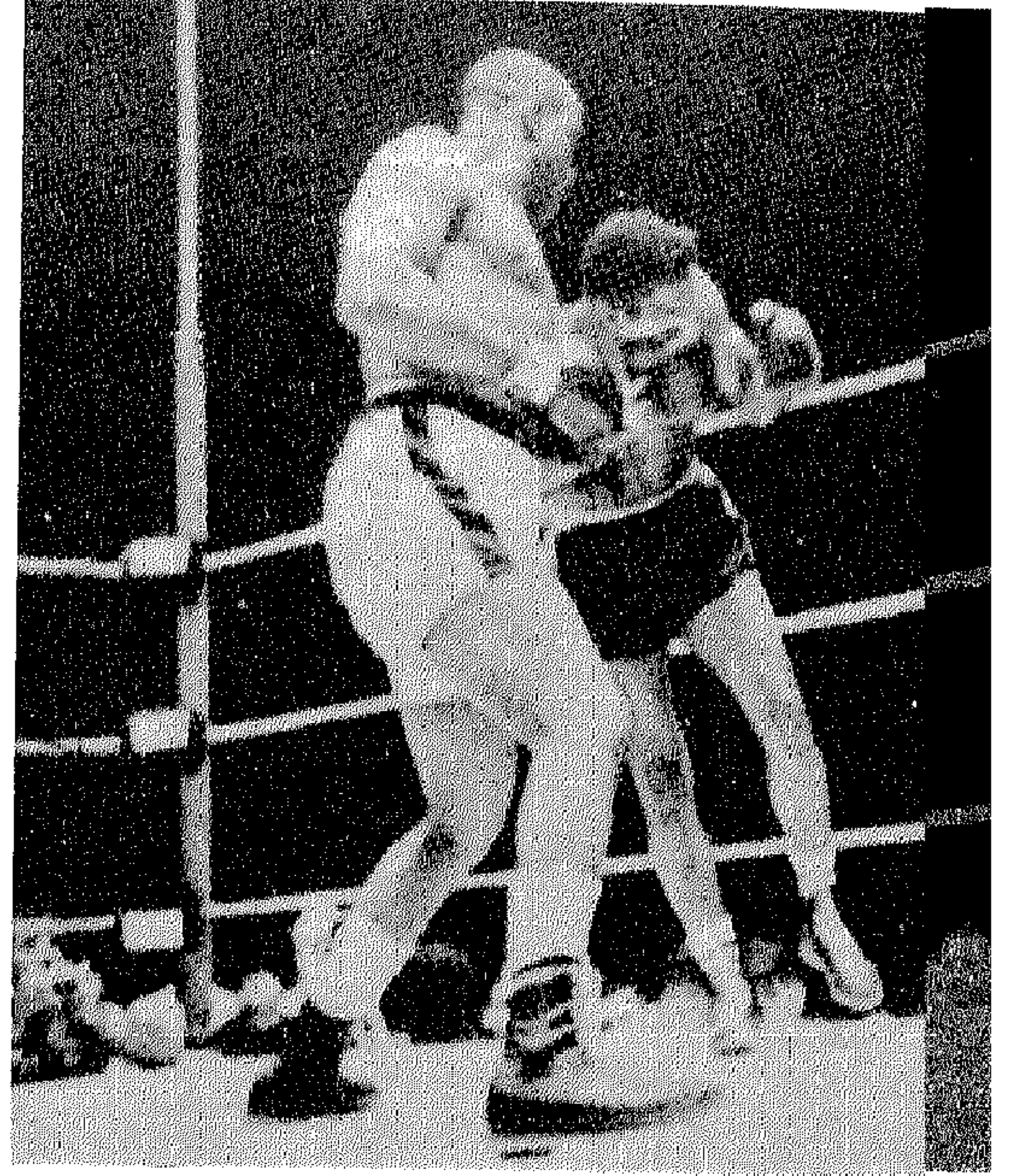
ذلك في عام ١٩٣٠ بعد تغلبه على «جاك شاركي». وقد أصبح بطلاً قومياً في المانيا خصوصاً بعد ظهور الفكرة النازية. وقد استغله «هملر» وزير الدعاية في الرايخ الثالث للتدليل على تفوق الشعب الآري. وكان شميلنغ يملك قبضة يمينية رهيبة ومن أهم انتصاراته فوزه على «جو لويس» في عام ١٩٣٦ قبل أن يصبح الأخير بطلاً للعالم. ولا يزال على قيد الحياة وهو على صداقة وثيقة مع «جو لويس».

عاد جاك شاركي وانتزع اللقب من شميلنغ عام ١٩٣٢ غير أنه ما لبث أن خسره أمام «بريمو كارنيرا» الايطالي الذي كان طوله ١٩٥ سنتيمترا ووزنه ١٢٠ كيلو وذلك بالضربة القاضية في الجولة السادسة. لم يستطع «كارنيرا» الحفاظ على لقبه أكثر من عام واحد رغم قوته الجسدية إذ خسر أمام الملاكم اليهودي الأمريكي «ماكس باير» «Bayer» بالضربة القاضية في الجولة الحادية عشرة كان «باير» مشهوراً بالتهريج على الحلقة رغم أنه قتل اثنين من الملاكمين وقد استمر يلاكم مدة ١٢ عاماً امتدت ما بين ١٩٢٩ - ١٩٤١ أي قبل حصوله على اللقب وبعد خسارته اللقب امام جيم برادوك «Braddock» والجدير بالذكر أنه عندما لعب ضد الأخير كان مرشحاً للفوز بنسبة ١٥ - ١.

أما برادوك فقد حافظ على لقبه مدة عامين من ١٩٣٥ - ١٩٣٧ حين خسر بالضربة القاضية في الجولة الثامنة. وكانت خسارته أمام أحد أعظم ملاكمي هذا القرن: «جولويس» المعروف باسم القاذفة السمراء «Brown Bomber».

جو لويس «القاذفة السمراء»

لا يزال جو لويس في نظر معظم خبراء الملاكمة أحسن ملاكم ظهر في تاريخ الحلبة خلقاً وفناً ومقدرة. وينظر اليه كثير من مشاهير الملاكمين بمن فيهم محمد علي على أنه المثال الذي

سوني ليتسون يطرح باترسون في الجولة الأولى ليكسب اللقب.

يُحتذى. «فالقاذفة السمراء» كان يتميز بخلق رياضي رفيع داخل الحلبة وخارجها الى جانب أنه يملك ضربة مستقيمة «Jab» من الدقة والقوة بحيث أنها «تقتلع شجرة كبيرة» على حد تعبير محمد علي بعد أن شاهد أفلام مباريات جو لويس. كما يملك ضربة خطافيه «Hook» قوية جداً الى جانب ضربة يمينية قاطعة «Uppercut» قاتلة. وكان يملك يدين سريعتين للغاية والبعض يعتبرهما بسرعة يدي محمد علي.

وخلال اثني عشر عاماً، بين فوزه في اللقب عام ١٩٣٧ بعد أن هزم برادوك بضربة قاضية في الجولة الثانية وتقاعده غير مهزوم عام ١٩٤٩ بعد أن هزم متحديه «جيرسي جو ولكون» بضربة قاضية في الجولة الحادية عشرة، سجل لويس تارخياً حافلاً. فقد هزم «باير»، «وشميلنغ» «ونوفا» و «كون» و «ولكوت» و «سافولد» و «شاركي» وغيرهم بحيث بلغ سجل انتصاراته ٦٨ منها ٥٤ بالضربة القاضية وهي نسبة تصل الى ٠٨٠/٠، وخلال حياته الحافلة بالأمجاد لم يخسر جو لويس سوى ثلاث مرات: مرة ضد ماكس شميلنغ وكان ذلك قبل فوزه ببطولة العالم ومرة ضد «ايزارد شارلز» بعد تقاعده في عام ١٩٥٠ وعودته الى الحلقة لأسباب مادية والمرة الأخيرة وهي التي اقنعته بالاعتزال الكامل عندما خسر بطريقة محزنة (ضربة قاضية في الجولة السابعة) أمام «روكي مرسيانو» الذي أصبح فيما بعد بطلاً للعالم في الوزن الثقيل وكان ذلك عام ١٩٥١.

كان وزن جو لويس في حدود ٩٠ كيلو وطوله ١٨٣ سنتيمتراً وهي مقاييس أقل من تلك السائدة الآن (محمد علي يزن ١٠٠ كيلو وطوله ١٩٠ سنتيمتراً). من أشهر مبارياته المباراة الثانية التي ثأر فيها من «شمنلغ» الملاكم الالماني الشهير حين هزمه بضربة قاضية في الجولة الاولى. يقول حكم المباراة أن جو لويس سدد ثلاث لكمات مستقيمة الى وجه شميلنغ اتبعها بضربة مميتة الى كليته فوقع على الأرض دون حراك لمدة طويلة من الزمن.

لقد مر «جو لويس» في فترة من الضيق المالي الشديد نظراً لأنه بدد أمواله كما تراكمت عليه الضرائب بحيث اضطر أن يلعب كمصارع محترف رغم مايحيط بهذه المباريات من شكوك وأقاويل. وخلال احدى مبارياته في المصارعة داس مصارعاً ضخم الجثة خطأ على صدره فأحدث له نزيفاً داخلياً في أحد شرايين صدره مما اضطره الى اعتزال المصارعة نهائياً. وفي مطلع الستينات كان يقوم

بزيارة القواعد الأمريكية في الخارج والتحدث الى الجنود الأمريكيين لقاء أتعاب لا تزيد عن ٦٠٠ دولار للرحلة الواحدة. وقد حدث أن التقى به بطل العالم السابق محمد علي في أحد شوارع «شيكاغو» وعلم منه أنه في طريقه الى فرانكفورت فتأثر كثيراً لحاله وأقنعه بعدم الذهاب بعد أن قدم له مبلغاً كبيراً من المال.

ومنذ مطلع السبعينات بدأ جو لويس في العمل كمضيف في فندق «سيزار بالاس» في لاس فيغاس نظراً لما يتمتع به من شعبية واسعة. وفي عام ١٩٧٩ دخل المستشفى وأجرى عملية في قلبه، كما اصيب لاحقاً بعارض صحي أثر على نطقه وحركته. ونظراً لتراكم نفقات المستشفى عليه فقد أقام عدد من أصدقائه الفنانين ورجال الأعمال حفلة كبيرة في لاس فيغاس تم على أثرها جمع ٧٠٠ ألف دولار لتغطية ديونه ومساعدته على مواجهة أعباء الحياة بعد أن أصبح شبه مقعد. ولا يزال جو لويس يعيش في لاس فيغاس حتى يومنا هذا.

بعد اعتزال «جو لويس» جرت تصفيات للفوز ببطولة العالم للوزن الثقيل أسفرت عن فوز «ايزارد تشارلس» «Charles» على جيرسي جو ولكوت بالنقاط في عام ١٩٥٠. ويؤكد خبراء الملاكمة بأن «تشارلز» على درجة عالية من الكفاءة والحرفنة وأنه يعتبر ملاكماً كلاسيكياً بمعنى أنه يتقن جميع الحركات واللكمات. وفي عام ١٩٥١ جرت مباراة ثانية بين «ولكوت» و «تشارلز» أسفرت عن فوز الأول بالضربة القاضية في الجولة الثامنة رغم أن تشارلز كان متفوقاً منذ بداية المباراة. و «جو ولكوت» ملاكم اشتهر بأنه من القلائل الذين أوقعوا الملاكم الاسطورة جو لويس مرتين خلال لقائهما رغم فوز لويس في النهاية في المباراتين.

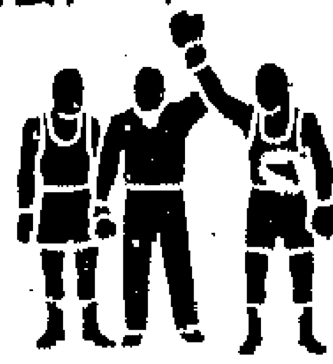
روكي مارسيانو: الصخرة

احتفظ «جو ولكوت» بلقب بطل العالم سنة واحدة فقط. ففي أول مباراة له مع متحديه الملاكم الأبيض والايطالي الأصل «روكي مارسيانو» فاز الأخير بالضربة القاضية في الجولة الرابعة عشرة وكان ذلك عام ١٩٥٢. والجدير بالذكر أن ولكوت استطاع في الجولة الرابعة ايقاع مارسيانو على أرض الحلبة غير أنه نهض بعد العد الخامس وأكمل المباراة ليفوز بها في الضربة القاضية. ويصف ولكوت شعوره لحظة تلقيه الضربة القاضية على النحو التالي:

«شعرت أن الأضواء في القاعة قد انطفأت فجأة. ثم شعرت أنني أحلق فوق السحب والغيوم، وتدريجيا بدأت استعيد وعي وأرى الأنوار في القاعة بشكل مهزوز الى أن أفقت نهائيا من حلمي لأجد أن الحكم قد تجاوز العد العاشر معلناً انتهاء المباراة».

حافظ روكي المقلب بالصخرة على لقبه حتى عام ١٩٥٤ بعد أن هزم جميع منافسيه دون استثناء مع ملاحظة أن الأبطال الذين خاض ضدهم مبارياته لم يكونوا على مستوى فني رفيع. فجو ولكوت كان قد بلغ ٣٧ سنة وايزارد تشارلز الذي لقن مارسيانو درساً في فن الملاكمة رغم أنه خسر المباراة بالنقاط بعد ١٥ جولة كان قد تجاوز الـ ٣٥ عاماً وباقي الذين هزمهم مارسيانو ومنهم «دون كوكيل» البريطاني «ولاسترزا» الأمريكي كانوا ملاكمين متواضعي المستوى.

وباعتزال «مارسيانو» الحلبة دخلت الملاكمة مرحلة متردية بعد فوز باترسون كما شرحنا بالتفصيل في بداية هذا المقال الى أن جاء عصر محمد علي في الملاكمة والذي فضلناه في العدد الماضي. ▪



نعتذر من القراء الأعزاء ومن الدكتور يوسف شبل عن الخطأ المطبعي الذي ورد في مقاله في العدد الماضي «عصر محمد علي ص٥٠ – ٥١» إذ رُكّبت الصور خطأ من اليمين إلى اليسار بدلاً من وضعها الصحيح من اليسار إلى اليمين – فعذراً.

سور الصين العظيم...



كان إمبراطور الصين تشي هوانغ – تي (Shi Hwang-ti)، شغوفاً بالأعمال البنائية. فقد كان قصره الرئيسي (من بين مائة وسبعين قصراً)، يضم عدداً كبيراً من الغرف. بحيث قيل أنه لو أراد أن يقضي ليلة واحدة في كل غرفة، لاحتاج من أجل إستعمالها جميعاً إلى ستة وثلاثين سنة.

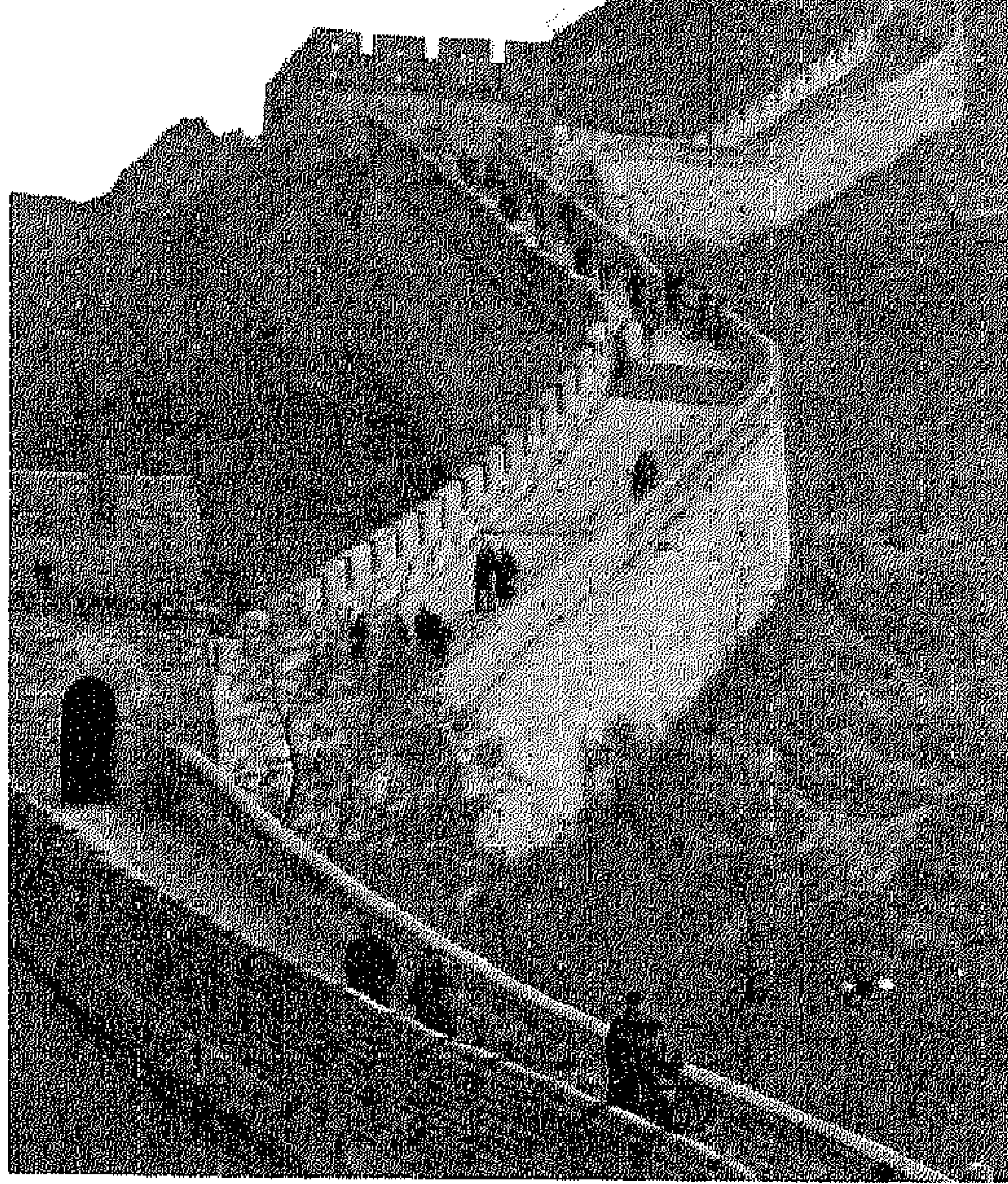
وتشي هوانغ – تي (Shi Hwang-ti)، الذي حكم بلاد الصين سنة ٢٠٠ قبل المسيح، كان يعيش مع مستشاريه في حالة رعب دائم من محاولة اغتيال قد يقوم بها ضده أحد أعدائه. لذا أشار عليه أولئك المستشارون بعدم قضاء ليلتين متتاليتين في نفس الغرفة. وهذا الأمر ما كان ليشكل لديه أية صعوبة بسبب مجموعة الغرف المتنوعة التي كانت متوفرة لديه.

لقد كان خوف تشي هوانغ – تي من أعدائه وشغفه بالأعمال البنائية، هما اللذان دفعاه إلى بناء «حائط العشرة آلاف ميل» على حدِّ قول أبناء الصين. أو «سور الصين العظيم»، على حدِّ قولنا. وكيفما يكون الأمر، فإنَّ أجزاء من السور قد وجدت لفترة طويلة قبل حكم «تشي هوانغ – تي (Shi Hwang-ti).

يبلغ طول الحائط ٢٤١٥ كيلومتراً، محدثاً ممراً ملتوياً أثناء امتداده على طول التلال والأودية. وقد كان الصينيون لعصور قبل المسيح يعيشون في هاجس الخوف من هجوم مفاجيء قد تشنّه عليهم قبائل الشمال العنيفة – الهانز والمغول – أولئك المحاربون الشماليون الذين كانوا – على ما يبدو – مستائين من أرضهم الجرداء المعزولة حيث الرياح القاسية كانت تهب طوال فصل الشتاء والتي لا تلبث أن تتحول إلى معتدلة فوق أراضي الصين الغنية والمحروثة حرثاً جيداً. لهذا لجأ الصينيون في محاولة لحماية مناطقهم، إلى بناء سلسلة من القلاع على طول حدودهم، وقد أصبح لدى كل ولاية صينية

شذا عدره: ماجستير في التاريخ الحديث.

سور الصين، اليوم، معلم سياحي هام.



في ذلك الزمان، عدد من القلاع الحدودية والجدران الواقية من هجمات الأعداء ولم تزل تلك المظاهر الدفاعية، إلّا عندما وحّد تشي هوانغ – تي (Shi Hwang-ti) جميع الولايات الصينية.

شنّت قبائل الهانز في بداية حكم تشي هوانغ – تي (Shi Hwang-ti)، هجوماً عنيفاً على حدود الصين الشمالية، فأرسل عندئذ الإمبراطور الصيني ٣٠٠,٠٠٠جندي لصدّهم؛ ولمّا كان النصر حليفه، إبتدأ في بناء جدار يصل بين جميع القلاع السابقة، وكان ذلك بمثابة حجر الأساس لسور الصين العظيم.

لم يكن تشي هوانغ – تي (Shi Hwang-ti)، من هواة «أنصاف الحلول»، فهو قد قرر بناء حصن ضخم على غرار ما فعل بقصوره معتمداً المغالاة في المقاييس البنائية. وكانت خطته ترمي إلى بناء سور يبلغ محيطه «١/٢٠من محيط الأرض». ولأجل تحقيق ما يصبو إليه، سخّر ثلث أبناء مملكته ممن كانوا يتمتعون بأجسام سليمة من شعراء وكتبة ومجرمين وأسرى حرب، عملوا جميعهم جنباً إلى جنب تحت ظروف مناخية قاسية، فالرياح السيبيرية القاسية كانت تلسع أجسادهم في أيام الشتاء وأشعة الشمس المحرقة تحرقها خلال أشهر الصيف.

تراوح عرض السور الذي بناه أولئك الصينيون بين أربعة وخمسة أمتار، أما ارتفاعه فقد تراوح بين ستة وسبعة أمتار، ولكنه بلغ عشرة أمتار عند ممر نانكوو (Nan-Kow)، وقد أقيم برج حصين عند مسافة كل مئة متر من السور.

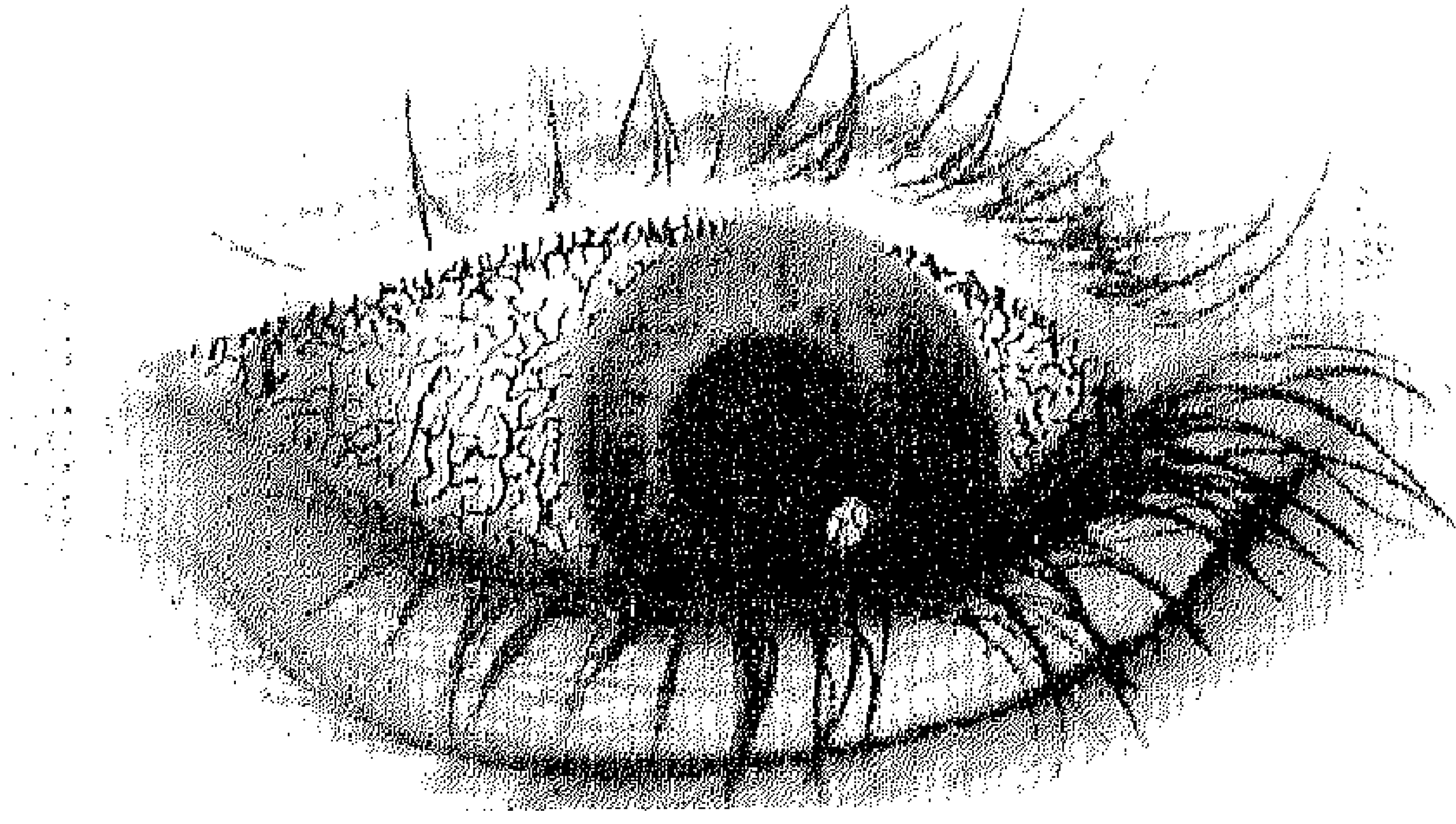
ولكن بالرغم من هذا الإنجاز الضخم، فإن السور العظيم لم يشكل عائقاً أو عقبة في وجه جنكيز خان زعيم المغول الذي استطاع فيما بعد أن يكتسح الصين كما استطاعت أيضاً حشود جيوشه اختراق ذلك الحاجز الحجري القرميدي الضخم الذي ما لبث أن امتلأت خنادقه بالدماء على حدّ ما جاء في مرثاة شاعر صيني.

لم يكتمل في عهد تشي هوانغ – تي (Shi Hwang-ti)، سوى بناء نصف السور، أمّا القسم الباقي منه والذي يتعرّج ويتلوى عبر تلال الجبل المهجور والصحاري الحارة، فقد اكتمل بناؤه خلال عهود الأباطرة اللاحقين لحكم الإمبراطور السابق ذكره.

توفي تشي هوانغ – تي (Shi Hwang-ti)، سنة ٢١٠قبل الميلاد. وهذا الأمر لم يكن في حسبان الإمبراطور الصيني، لأنه كان يظن نفسه خالداً لا يطالُه الموت. وقد أوعز بتلك الفكرة إلى أفراد حاشيته الذين اقتنعوا هم أيضاً بقول إمبراطورهم إلى درجة لم يستطيعوا معها تصديق نبأ وفاته. ولهذا نجدهم قد وضعوا جثته على محفة خشبية وأخذوا يطوفون بها أنحاء البلاد، ولم يكونوا ليتوقفوا إلّا ليتيحوا لجمهور المحتشدين فرصة مشاهدته.

إستمر هذا العرض مدة تسعة أشهر، إضطر بعدها الصينيون إلى دفن جثة حاكمهم بسبب رائحتها الكريهة التي كانت قد أخذت تطغى على كل رائحة أخرى.

وأخيراً، فإن سور تشي هوانغ – تي (Shi Hwang-ti) العظيم الذي عاش ألفي سنة لكي يصبح احدى عجائب الشرق الكبيرة، لا يزال حتى الآن يتمتع بشكل أفضل بكثير من السور المشهور، الذي بناه الإمبراطور هادريان (Hadrian) في شمالي إنجلترا. ■



طب العيون عند العرب من خلال المهذب في الكحل المجرب لابن النفيس

اعداد د. مؤنس محمد غانم

مخطوط لابن النفيس، توجد نسخة منه لم تنشر بعد وما تزال مخطوطة ومحفوظة في المكتبة الظاهرية بدمشق تحت رقم / ٨٤٣٥/ .

وصف المخطوط:

يحتوي على نمطين، يضم النمط الأول جملتين، ويضم النمط الثاني سبع جمل.

النمط الأول: الجملة الأولى:

تبحث هذه الجملة في الجزء النظري من قواعد صناعة الكحل، وهي تحتوي على أربعة أبواب.

الباب الأول يقسم بدوره إلى فنين، الفن الأول يحتوي على عشرة فصول، وهو يبحث في تشريح العين، والفن الثاني يحتوي على عشرة فصول أيضاً وهو يبحث في الأبصار (فعل العين).

الباب الثاني يبحث في أمراض العين.

الباب الثالث يحتوي على فصلين، وهو يبحث في أسباب أمراض العين.

الباب الرابع يحتوي على فصلين أيضاً، وهو يبحث في علاقات أحوال العين.

ابن النفيس توفي (٦٨٧هـ - ١٢٨٨م)

هو علي بن أبي الحزْم القرْشي، علاء الدين الملقب بابن النفيس، رجل فكر وعلم، يُعد أعلم أهل عصره بالطب، أصله من بلدة قرْش ومولده في دمشق، أما وفاته ففي مصر. له كتب كثيرة مطبوعة ومخطوطة منها: «الموجز» اختصر فيه قانون ابن سينا، وهو في الطب، «فاضل بن ناطق» في الفلسفة، «شرح الهداية لابن سينا» في المنطق، «المهذب» في الكحل، «الشامل» في الطب، ومخطوطات عدة في جامعة ستانفورد بكاليفورنيا والمكتبة الظاهرية بدمشق. وكانت طريقته في التأليف ان يكتب من حفظه وتجاربه ومشاهداته ومستنبطاته، وقلّ أن يراجع او ينقل. وقد خلف مالاً كثيراً ووقف كتبه وأملاكه على «البيمارستان المنصوري» في القاهرة، عندما مات كان في الثمانين من عمره.

الجملة الثانية:

تبحث هذه الجملة في قواعد الجزء العملي من صناعة الكحل، وهي تحتوي على بابين،

الباب الأول: كلام علي في حفظ صحة العين.

الباب الثاني: وفيه خمسة فصول، وهو يبحث في علاج أمراض العين.

النمط الثاني: وهو يحتوي على سبع جمل،

الجملة الأولى: تبحث في أدوية العين، وتحتوي على بابين،

الباب الأول: وفيه خمسة فصول، وهو يبحث في الأصول العملية في أمر هذه الأدوية،

الباب الثاني: وفيه فصلان، وهو يبحث في أحكام أدوية العين الجزئية.

الجملة الثانية: تبحث في أمراض الجزء الخارجي من العين، وتحتوي على بابين.

الباب الأول: يبحث في أمراض الجفن، ويحتوي على ثلاثين فصْلًا،

الباب الثاني: وهو يبحث في أمراض المؤق، وفيه ثلاثة فصول.

الجملة الثالثة: تبحث في أمراض الجزء المتوسط من العين، وتحتوي على أربعة أبواب.

الباب الأول: يبحث في أمراض الملتحمة ويحتوي ثلاثة عشر فصلًا،

الباب الثاني: يبحث في أمراض الطبقة القرنية، ويحتوي على سبعة فصول،

الباب الثالث: يبحث في الأمراض المنسوبة إلى الطبقة العينية ويحتوي على ثلاثة فصول.

الباب الرابع: وهو يبحث في الأمراض المنسوبة إلى الحدقة، وهو يحتوي على ثلاثة فصول،

الجملة الرابعة: تبحث في أمراض جملة المقلة، وتحتوي على ثلاثة أبواب:

الباب الأول: يبحث في الحول.

الباب الثاني: يبحث في الجحوظ.

الباب الثالث: يبحث في غؤور العين وضمورها.

الجملة الخامسة: تبحث في الأمراض المنسوبة إلى القوة الباصرة، وتحتوي على سبعة أبواب.

الباب الأول: وهو يبحث في ضعف البصر،

الباب الثاني: يبحث في العشا (الشبكرة).

الباب الثالث: وفيه بحث عن الجهر (الخفش).

الباب الرابع: يبحث في الغُمور (ضعف رؤية القريب).

الباب الخامس: يبحث في نقرة العين من الضياء.

الباب السادس: يبحث في بطلان البصر.

الباب السابع: يبحث في تشوش البصر.

الجملة السادسة: وهي تبحث في أحوال الرطوبات وأرواح المقلة، وتحتوي على أربعة أبواب،

الباب الأول: يبحث في أحوال عارضة للرطوبة البيضية.

الباب الثاني: يبحث في أحوال عارضة للرطوبة الجليدية.

الباب الثالث: يبحث في أحوال عارضة للرطوبة الزجاجية.

الباب الرابع: يبحث في أحوال عارضة لما في العين من الروح.

الجملة السابعة: وهي تبحث في الأمراض المنسوبة إلى باقي طبقات العين، وتحتوي على بابين.

الباب الأول: يبحث في الأمراض العارضة لباقي طبقات العين.

الباب الثاني: يبحث في الأمراض العارضة للعصب النوري.

النص الحرفي لبحث السبل عن (مخطوط المهذب في الكحل المجرب) لابن النفيس.

السبل يقع في الفصل الثامن من المخطوط. وهذا المخطوط توجد نسخة منه ما زالت مخطوطة لم تنشر بعد... في المكتبة الظاهرية بدمشق تحت رقم / ٨٤٣٥/.

السبل هو غشاوة يشاهد في العين ذات عروق محمرة، واختلف فيها فقيل أن جميع أجزائها طبيعية، لكنها في الصحة صغيرة خفية عن الحس، وإذا نمت وامتدت في الأقطار كلها وعظمت، ظهرت للحس وأضرت بالعين وبالبصر. وقيل أن جميع أجزائها مرضية فإنه لو كان شيء منها طبيعياً كان قطعة وخاصة إذا تكرر ضاراً بالعين، وللأولين أن يحتجوا بأن من تلك الأجزاء عروق وأجزاء عصبية وهذه لا يمكن حدوثها بفعل الطبيعة فكيف بالمرض؟.

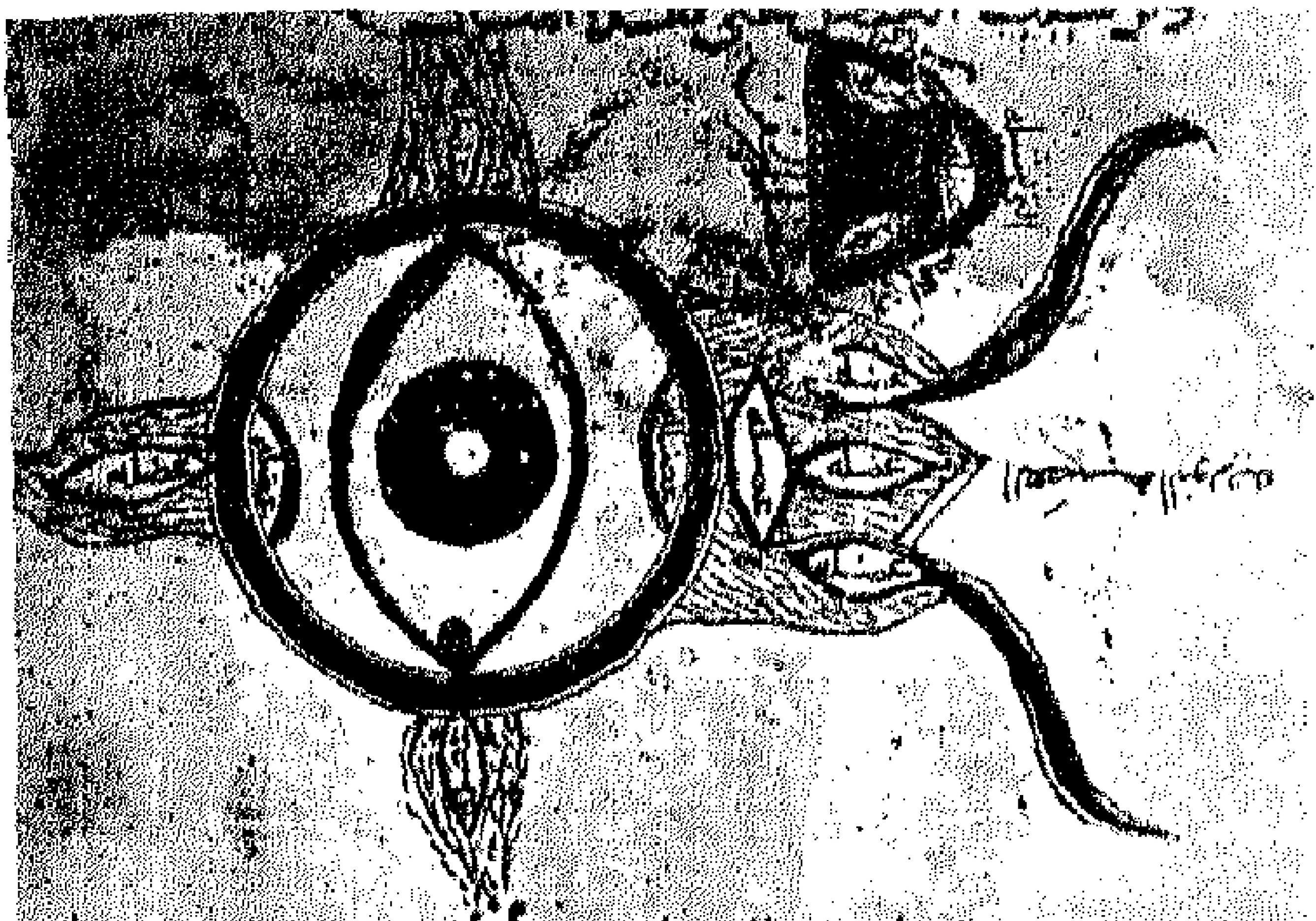
والحق أن هذا الغشاء ليس بطبيعي مطلقا وإلا لم يمكن تكونه واغتذاؤه، وكان إذا تكون يبلى على طول الزمان بذاته إذ لا قوة فيه تحيل الوارد إلى طبيعته بل هو طبيعي من جهة أنه حادث عن فعل الطبيعة، وغير طبيعي من جهة أنه إنما يحدث بحدوث حالة للعين غير طبيعية، وذلك لأن العين إذا ضعفت وكثرت فيها المواد أحالت الطبيعة تلك المواد الزائدة إلى ما هو للعين كالغطاء وكالجلد لتقيها من الآفات التي يتوقع حدوثها لها عند الضعف، وهذا كالظفرة، فإنما السبل إنما يخالف الظفرة لأنه في الأكثر يعم المقلة، ولا كذلك الظفرة، وإنما اختصت العين بذلك لما قلناه أولاً وهو أنها معراة من الجلد فيكون حالها كحال العضو. المسلوخ عنه جلده أو المتآكل جلده بقروح ونحوها.

وإنما لا تفعل الطبيعة في حال صحة العين لاستغناء العين حينئذ بقوتها عن زيادة التقوية على ما يحصل بالجفن، ولقائل أن يقول لو كان الأمر كما قلتم لوجب أن يتكون مثل هذا الغشاوة على الكمرة بعد قطع القلفة وجوابه أن الكمرة لا يكن عندها من المواد ما يتخلق فإنها كثيرة الرطوبة بجوهرها وبما ينتقل إليها من الدماغ فتكون المادة عند القوة متوفرة فلذلك أمكن أن يحدث عنها هذا الغشاء دون الكمرة على أن نقول أن الكمرة لا بد وأن يكون لها بعد قطع الكلفة تكاثف ينقص بسببه انفعالها عن الملاقيات فيجوز أن يكون عروض ذلك بحدوث شيء مثل هذا الغشاء لكن ما لم يظهر لذلك الحادث ضرر لم يجعل ذلك مرض ولم يعالج بالقطع ونحوه، بخلاف هذا الغشاء فإنه يضر بالإبصار بمقدار ما يستر من الحدقة فإن قيل لو كان هذا الغشاء من فعل الطبيعة لما لزمه ضرر وليس كذلك فإنه يضعف الإبصار حتى يصير كأنه من وراء ستار متغلغل، ويحدث الحكة والدمعة في العين ويهيئها لكثرة الرمد ونحوه من الأمراض الامتلائية، ويجعلها تنفر من ضوء الشمس وعن ضو السراج، وكثيراً ما تصغر له العين.

قلنا حدوث هذه المضار لا تنافي أن يكون هذا الغشاء بفعل الطبيعة أما أضراره بالبصر فظاهر فإنه قصد الطبيعة به زيادة الستارة للعين وذلك وإن نفع العين فهو يضر بالبصر، وذلك الإضرار لا ينافي المقصود، وأما الحكة والدمعة فلما يلزم هذا الغشاء من احتباس فضول العين تحته ولا ينافي ذلك نفعه بما هو ساتر .ويلزم هذا الفضول كثرة الأمراض المادية.

وأما النفرة من ضوء الشمس والسراج فلما يلزم كثرة الضوء من تحريك تلك الفضول وأما صغر العين فلما يضعف من هضمها بسبب كثرة الفضول وكما ينصرف من غذائها إلى غذاء هذا الغشاء على أن حدوث الضرر بالشيء لا ينافي أن يكون حدوث ذلك الشيء عن الطبيعة ولذلك فإن السمن الزائد لأخف في اضراره وبأنه من فعل الطبيعة، وكذلك العضو الزائد ونحو ذلك، على أن الجرم في هذا بعيد وقد يحدث من كثرة امتلاء العروق الغائرة التي في الملتحمة واحتباس المواد والفضول تحت صفاتها حالة تشبه السبل وتسمى أيضا سبلاً وأكثره من نزلات إلى العين عن طريق الحجب الداخلة ولذلك يكثر معه العطاس خاصة عند الضوء الشديد لتسخينه المواد وتهييجه لها ويكون معه خربان في قعر





تشريح العين، لوحتان من مخطوطة للطبيب العربي حنين بن اسحاق (القرن التاسع م.) دار الكتب – القاهرة.

العين لتمديد المواد عند نفوذها من هناك.

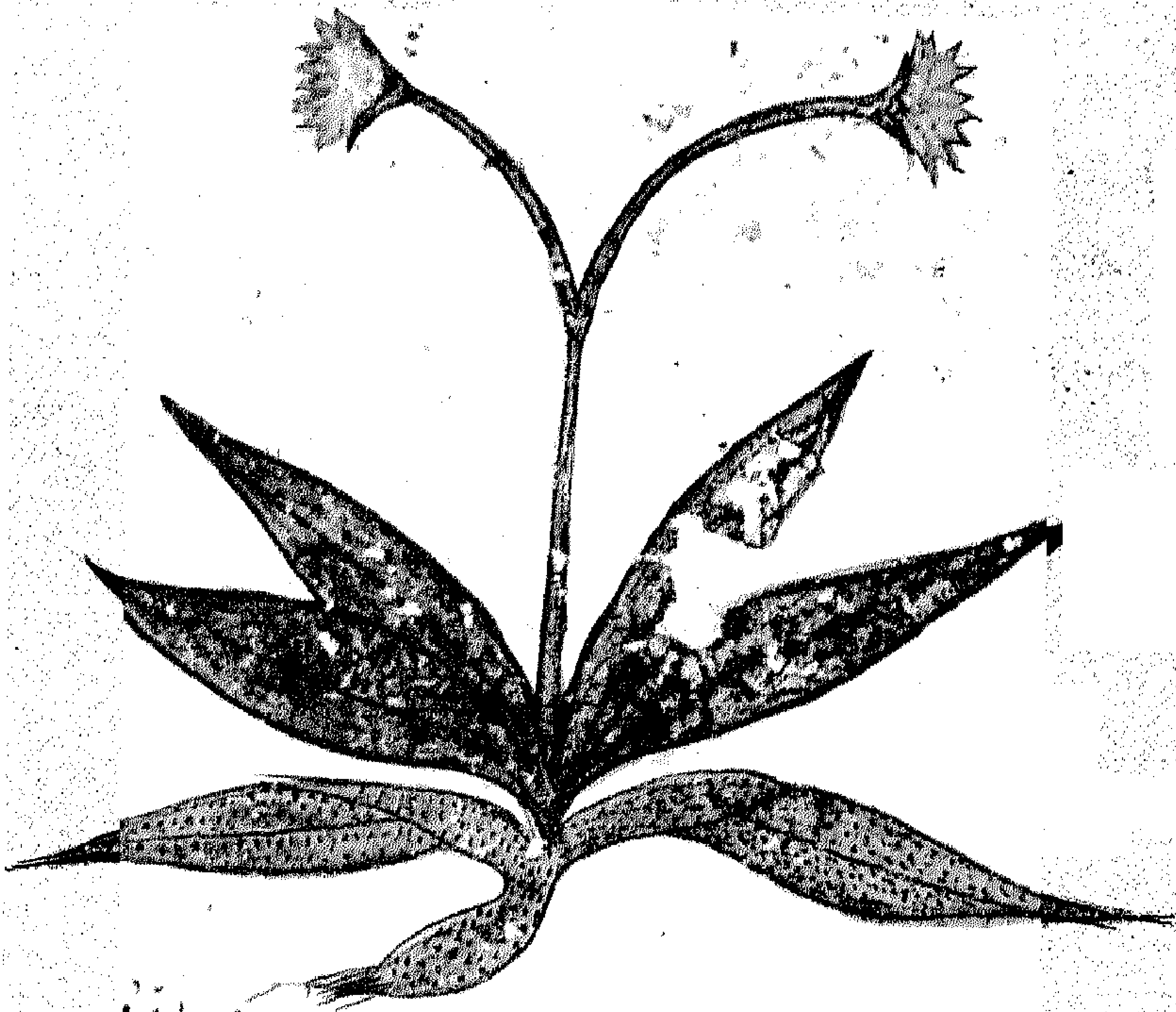
والسبل يكثر في الرطوبيين الأدمغة لكثرة مواد وسمم ويكثر في جربي الأعين لاضعافه للعين وجذب ألمه للمواد إليها، ويكثر بعد الرمد الحار إذا بولغ في التبريد فيقل معه التحلّل وتحتبس الفضول، ولذلك قد يكثر في البلاد والأزمان الباردة بل وفي الأبدان الباردة أيضاً لقلة انحلال فضولها. والسبل من الأمراض المعدية بسبب استنشاق الهواء المخالط لما يبخر منه فيحيل الدماغ ونواحيه إلى طبيعته فلذلك إذا ضاق المسكن كان عدده أشد. وهو مما يتوارث في النسل لأن ما ينفعل من عين صاحبه من المني يكون كثير الفضول فتكون العين المتولدة منه كذلك.

العلامات: أما السبل الحقيقي فيعرف بمشاهدة هذه الغشاوة الظاهرة من عروق فيها حمر ممتلئة أو حمرة في العين لأجل الوجع والحكة وكثرة الفضول وبوجود ما ذكرناه من الأعراض اللازمة له وغير اللازمة. وتحدث معه حمرة في الوجه لكثرة ما ينزل إليه من السمحاق ودرور في العروق كذلك، وخربان في الصدغين لمزاحمة المواد النازلة للشريان الذي هناك، وإذا جذب الجفن الأسفل يشاهد ارتفاع طرف هذا الغشاء من الملتحمة، وأما القرني فيشاهد عليه شيء كالدخان مع عروق محمرة وإذا كان هذا السبل حاراً جداً كثرت الحمرة في العين وكثرت الحكة، وسيلان الدمع. وأما الغائر فيعرف بما ذكرناه ومشاهدة شيء كالغمام تحت صفاق الملتحمة مع حمرة يسيرة.

العلاج:

يجب أن يبدأ أولاً بتنقية البدن والرأس ونواحيه وتلطيف الغذاء ووجب تدهين الرأس بالدهن واجتناب ما يبخر وبالجملة جميع ما ينبغي لصاحب النوازل اجتنابه، ولقصد المآقين نفع ظاهر ولا بد من الغراغر والسعوطات ونحوها مما ينقي الرأس والبدن، فإن كان السبل خفيفاً وغليظاً فلا بد من لقطه، وكيفية ذلك: أن

يستلقي العليل وتفتح عينه إما بالفتاحات أو بإبهامي الخادم، فإن انزلق الجفن لترطبه ونحو ذلك فاجعل بينه وبين الإبهام قطن أو قطعة من خرقة وليحذر في هذا الفتح من أن ينقلب الجفن فيحدث في الأكثر الإلتصاق، وكذلك ينبغي أن ترفع الأهداب لئلا يقطعها المقراض، ثم يبدأ الأسى فيعلق السبل أولاً من عند المآق الأكثر بصنارة وعند الأصغر بأخرى وعند وسط



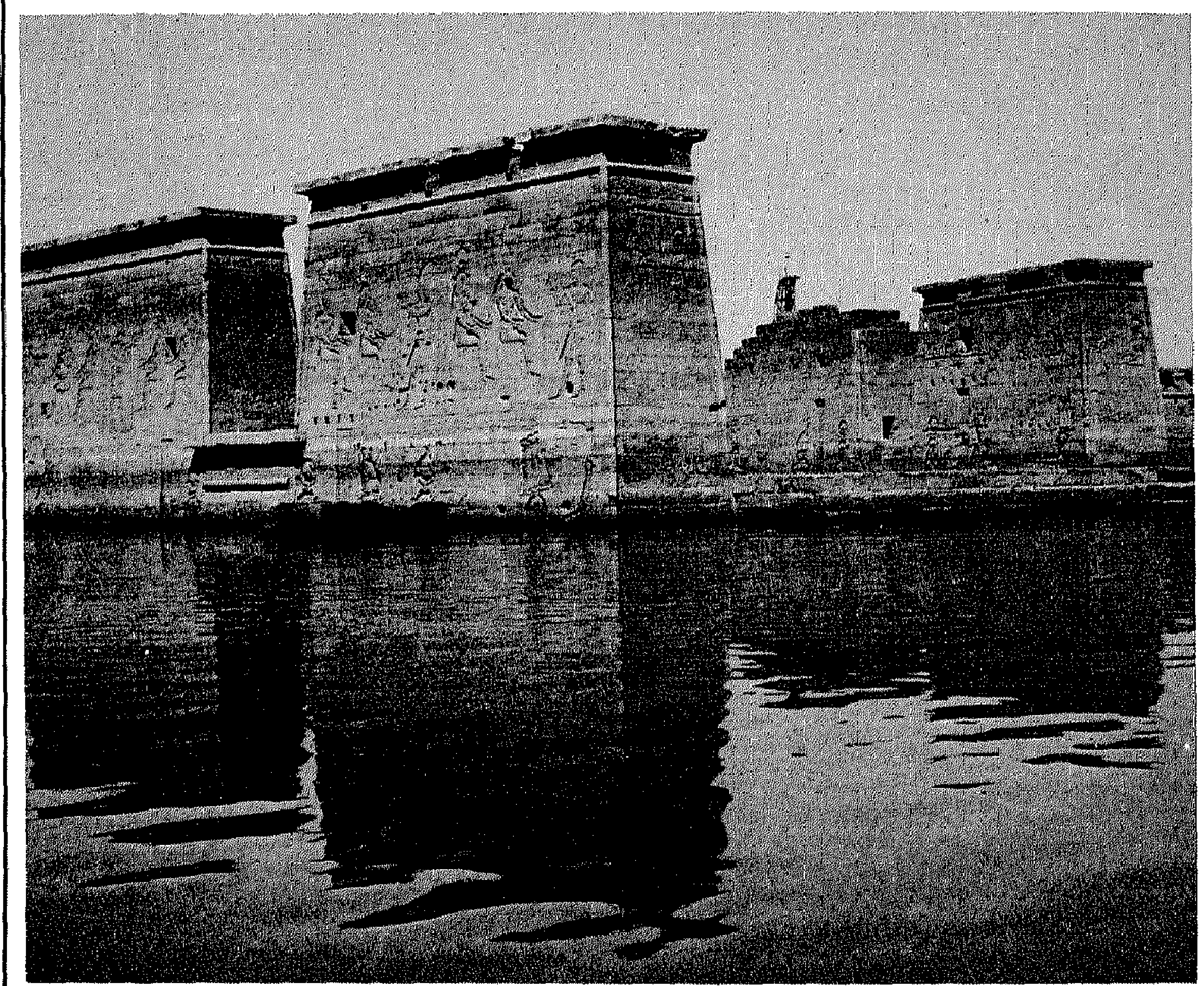
الملتحمة مما يلي أصل الجفن الأعلى باثنتين، وتفعل كذلك من جهة الجفن الأسفل ويقرض عند اللحاظ بقدر ما يدخل فيه المسلخ وتنفذ على الملتحمة إلى الموق الأكبر ثم تأخذ في القطع من اللحاظ مما يلي أصل الجفن الأعلى فإذا انتهى إلى الموق الأكبر قطع كذلك مما يلي أصل الجفن الأسفل، فإذا لم يبق تعلق إلا من ناحية القرني إجذب الصنانير قليلاً وحركها ليتم الكشاط مما هو على الإكليل ثم تقطعه من جهة اللحاظ إلى جهة الموق الأكبر وتخرج الجميع قطعة واحدة كالحلقة والفاصل من الانتباه يفعل ذلك بخفة وسرعة وتستأصل طبقات الغشاء كلها دفعة واحدة بحيث تنقى الملتحمة من غير معاودة للقطع والتعليق المؤلمين للمريض.

وقد لا يتهيأ ذلك فيقطع الجزء الذي يلي الأعلى أولاً ثم الذي يلي الجفن الأسفل، وقد يحتاج إلى معاودة التعليق والقطع إذا اتفق أن بقي بعض طبقات السبل وذلك بأن يكون تفويض الصنانير بحيث لا تنتهي إلى الملتحمة، ويعرف نقاء الملتحمة بإمرار المسلخ على ظاهرها فإن لم يتعلق شيء فقد نقيت، وكذلك ظهور بياضها وخلوها من شيء من أجزاء السبل. وإذا قطع عند المآق الأكبر فليحذر أن يقرض فتنتقص لحمة الموق ويعرض ما ذكرناه من المضار في موضعه، وإذا تم القطع وسال من الدم قدر الكفاية لف على طرف الميل قطنة ونقيت بها العين من بقايا الدم، ثم يبصق في العين لتسكين الوجع وغسل ما يحتبس فيها من الدم ثم يقطر فيها الريق المقصور من الكمون والملح المضوغين المصرورين في خرقة كتان صفيقة ثم بعد ذلك يقطر فيها دهن الورد المتخذ من الشيرج مضروبا بصفرة البيض وتغمد العين بقطنة مغموسة في دهن الورد وصفرة البيض، ويعاد تقطير ذلك في العين مراراً في ذلك اليوم وليلته مع كثرة تقليب المقلة والتحرز من النوم في تلك الليلة، ثم في أول النهار يغسل الوجه بماء طبخ فيه ورد، أو بماء خرج فيه ماء الورد، ثم تتأمل تحت الجفن بأن تدير تحته الميل الملفوف عليه القطن المغموس في دهن الورد، فإن وجدت فيه التصاقا فشقه بالمسلخ ثم تعاود تقطير الريق بعد مضغ الكمون والملح، وإلا فيعاد تقطير دهن الورد مع صفرة البيض وبعد ثلاثة أيام تستعمل هذه الذرور ثلاثة أيام أخرى وصفته: أترروت وسكر سليماني ونشا من كل واحد لصدر زبد البحر نصف درهم، زعفران، ربع درهم، صبر سوس درهم. فإن عرض في العين رمد عولج بعلاجه وإلا فيدخل الحمام ثم يكحل بالأكحال الجيدة وينبغي ترك اللحوم بعد اللقط ثلاثة أيام أو أربعة أيام مع الإجتهاد في تحريك العين لئلا يلتصق الجفن، هذا إذا كان السبل خفيفا وغليظا، أما الغايص والحقيقي الرقيق جدا فبعد التنقية وتقوية الدماغ بالروائح العطرة ولتكن محللة إلى حرارة لطيفة كالعنبر والند والغالية وكذلك الإشتمام من ماء الآس بقليل مسك. وهجر الأطعمة الغليظة كالكرنب والعدس واللبن والسمك والباقلي واللوبيا، والكثيرة التبخير وإن كانت حارة كالبصل والثوم، وتقبل على الأكحال الجلاءة المحللة كالروشنايا والباسليقون وكذلك أشيان الرازج والأشياف الأخضر وليكن الإكتحال بأن تقلب الجفن وتحك العين بالدواء وبعد سكون الحرقة تعاود الكحل. ثم بعد ذلك تكحل بالرمادي وماء البرود الهندي ونحوها. وقد يقارن السبل رمد فتكون العمدة على الإستفراغ والتنقية دون البردات والمخدرات ولا غبر حينئذ جيد، وإن كان مع السبل حرارة نفع منه شياف السماق ويتخذ من ماء السماق المنقوع المعقود بالصمغ والأترروت، وقد يتخذ من السماق وحده، وهو أيضا ينفع من الرمد المقارن للسبل ومما جرب للسبل الخفيف قشر البيض الطري في الخل ويجفف في الظل ويستعمل ناعما وأيضا المرقشيتا مع الرمادي، وأيضا برادة النحاس القبرصي بالبول وكذلك أشياف الأصطفطيقان والأحمر اللين والأحمر الحاد وطرخماطيقون ودوا مغناطيس، وفصد المآقين جيد للسبل وكذلك دوام اشتمام المرزنجوش، والتسعط بمثل هذا الدواء. وصفته: كندس يصدر مروانقان حضض ربع درهم، صبر أربعة دراهم دوانيق تعجن بماء المرزنجوش وتحبب كالعدس ويستعمل كل يوم حبة بلبن جارية، وكذلك الكندس وقصب الدريرة والورد أجزاء تدق وتنفخ في الأنف، والله تعالى أعلم.

النيل

من جبال القمر إلى أقدام كليوباترا

اعداد: سامي زكي





اعتبر المصريون أيام الفراعنة، نهر النيل إلهاً رهيباً صاحب نزوات. ومع ذلك فإن تمثاله الشهير والضخم في متحف الفاتيكان تظهره في مظهر أكثر وداً: فالتمثال يظهر النهر ممدداً بين القصب، يلف خصره الصيادون المحليون، وتعتلي رأسه باقة ورق بردي، وتحيط به من كل جانب مجموعة لا تحصى من الأولاد عند أقدامه، أو على صدره يحاولون أن يشدوا لحيته.

وبالنسبة للأوروبيين في العصر الحديث يعتبر النيل ذلك النهر المثير الذي أحضر نابليون لدراسته مجموعة من الجغرافيين وخبراء رسم الخرائط، فأعطيت لهم مرتبة الجنود في الحملة.

وكتب واحد من هؤلاء، وهو الرسام الشاعر



النيل الأزرق: سيولة الصاخبة مصدر الخصب

دومينيك فيفان – دينون: «**منذ هيرودوتس لم يجرؤ المسافرون على مغادرة مراكبهم والابتعاد عنها على هذه الضفة أو تلك من النهر**». في تلك المرة، عندما نزل القائد الفرنسي إلى البر العصري، كان الوضع مختلفاً. لأن العلماء انتهزوا فرص الهدنات لينزلوا إلى الضفاف ويبتعدوا ما أمكن عن النهر في عمليات إستكشاف، ويجمعوا من كل موقع أثري ما يحلو لهم حمله.

ويقول سونيرون في كتابه «المصرلوجيا» (علم تاريخ الفراعنة ومصر القديمة) أنه «**عندما كان الجيش يهم بالرحيل، كانت ترسل فرق لجمع العلماء من مواقعهم، التي تفرقوا فيها. هكذا حصل في الدلتا. وكان الجنود يرافقونهم لحمايتهم**».

وإلى جانب عمليات «النهب التاريخي» التي قامت بها بعثة نابليون، فإن القائد الفرنسي استطاع، بمن أحضرهم معه من الموظفين الأكفاء، أن يجهز هذه المناطق في مصر العليا والسفلى، وفي مدى أشهر قصيرة، بجهاز إداري مركزي شديد التماسك، مستعد لكل وسائل العمل المتاحة، من أجل تسخير نشاطات المصريين لخدمة فرنسا. ولم يمض طويل زمن حتى أخذ الاهتمام بالآثار المصرية يعم، وعمليات الإحصاء والحصر تتزايد. وبدأ قياس أهم الآثار: فبلغت مساحة قاعدة الهرم الأكبر ٥٢ألف متر مربع، فيما تبين أن عدد الكتل الصخرية التي استخدمت في بنائه بلغ مليونين ومائتين وخمسين ألف كتلة، كل منها يزن ٢٥٠٠ كيلوغرام. كذلك قيس اتساع عين أبي الهول: متران.

ومضت عملية الإستكشاف إلى أبعد من ذلك. فاتجه العلماء إلى ضرورة الكشف النهائي عن «سر النيل» للتأكد من حقيقة خرافة «جبال القمر»، التي قيل أن منبع النيل فيها، وهو النهر الذي كان معظم مجراه لا يزال حتى ذلك اليوم محاطاً بالغموض.

وصمم الجغرافيون على ضرورة إستكشاف طول النيل (٦٧٠٠ كيلومتر) باتجاه المستنقعات السودانية أولاً، حيث يتشعب تشعباً لا حد له مشكلاً نوعاً من الدلتا الداخلي، وحتى البحيرات الكبرى: بحيرة البرت، بحيرة كيوغو، وبحيرة فكتوريا التي لم تكتشف إلا في العام ١٨٦٣.

بعثات علمية أم تجارة

وكما يفترض أساساً من مقاصد هذه الحملات «العلمية»، أخذت تفقد شيئاً فشيئاً طابعها العلمي المتجرد. فتحولت سريعاً إلى سباق سرعة بين فريقي إستكشاف، **هدفهما تقاسم** السيطرة على مناطق النفوذ والاستعمار. وأصبح المبدأ في المعسكرين: «غرس العلم يعطي الحق في التملك الوطني». وفيما بدا الفرنسيون والإنجليز متواطئين على مصلحة أبناء البلاد، إذا بهم يتحولون إلى التنافس المسلح، فيبرز في الساحة نوع جديد من الإستكشاف. كذلك، بدأت الأمور مشرقة مع مبشرين من نوع ليفنغستون، ولكن لم يلبث أن ظهر في أثرهم مهربو العاج وتجار الرقيق. ومن الخرطوم المركز التجاري الأهم للنيل السوداني، أخذت تنطلق من كل الطرق المتاحة، قوافل تهريب خشب الأبنوس باتجاه عدن، على الشاطىء الآخر من البحر الأحمر. ومعروف أن «رامبو» الشاعر الفرنسي الشهير، الذي عرف بأنه مهرب سلاح على هذه الطرقات، إتهم أيضاً بأنه تاجر بالرقيق.

ففي رسالة للسويسري الفريغ إلغ، مستشار الإمبراطور الحبشي منليك، بتاريخ ٢٣آب (أغسطس) ١٨٩٠، قال المستشار لرامبو: «**أما العبيد، فاعذرني إن كنت لا أستطيع أن أهتم بهم. فأنا لم أشتر يوماً العبيد ولا أريد أن أبداً**».



مثوى الموت في «الأهرام» ومصدر الحياة في مياه النيل.

وهذه الرسالة التي تساق عادة كدليل مادي على متاجرة رامبو بالرقيق، تضاءلت صفتها الإتهامية بعض الشيء حين نشرت أخيراً (١٩٦٥) رسائل رامبو إلى الفريغ إلخ. وكان رامبو قد طلب من صديقه أن يؤمن له «للإستخدام الشخصي» بغلاً جميلاً جداً وولدين عبدين. وهذا يضعه في خانة شراة الرقيق، دون أن يثبت تهمة الإتجار.

لكن ثمة شيئاً يبقى أكيداً، وهو أن مسارعة المستعمرين إلى الاتجار بالرقيق من الخرطوم إلى عدن، مروراً بأديس أبابا، قادتهم بشكل غير مباشر إلى عمليات إستكشاف «للنيل الآخر»، النيل الأزرق، الذي تعتبر سيوله الصاخبة مصدر فيضان النيل، أي مصدر قوة النيل الإخصابية العظيمة.

مساواة على مستوى السلطة ولكن...

ولقد كان لمصر القديمة عنوانان للسحر: النيل، وكليوباترا. والواقع أن اسم كليوباترا ليس غير إسم واحدة من سبع ملكات مصريات عرفن به. وقد ملكن بلا منازع. تضاف إليهن الملكة الكبيرة حتشبسوت، التي خلفت تحوتمس الثاني. ولا بد للمناسبة من الإشارة إلى مدى تقدم الحضارة المصرية القديمة، التي منحت المرأة وضعاً قانونياً بارزاً في المجتمع، لم تبلغه لا قبل ولا بعد.

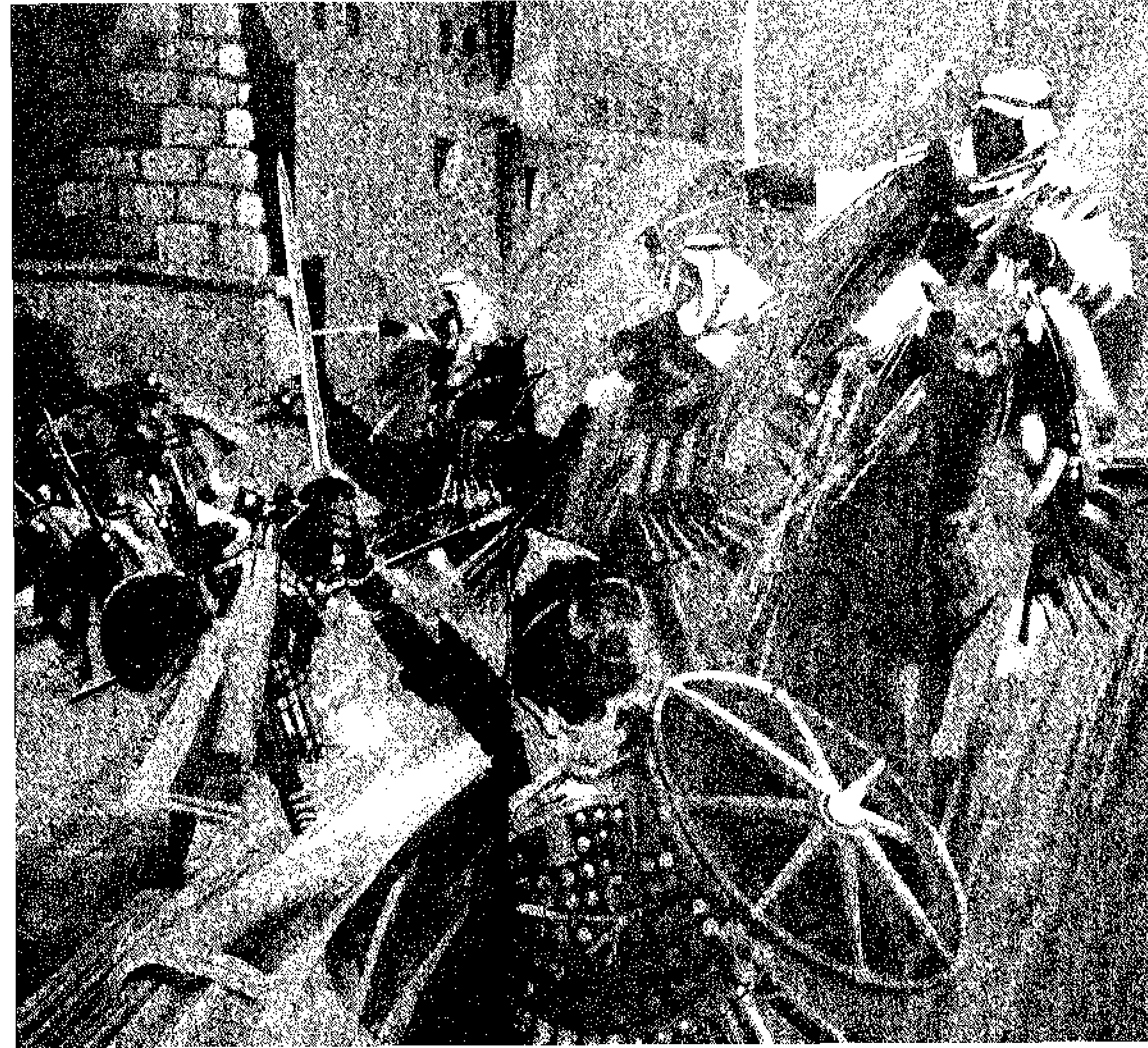
لم تكن الحال، كما يعتقد، أن سيطرة الرجال تخللتها بعض فترات سيطرت فيها النساء لصدفة معينة. بل كان الوضع المتوازن دائماً. فالرجل كان سيد الأسرة حقاً، لكن الميراث كان ينتقل عبر النساء.

لكن المساواة بين الجنسين لم تكن مماثلة لما يقابلها اجتماعياً. فالفلاح كان مقموعاً بشدة. ولم يكن راضياً كما يشاع اليوم عن الفلاح المصري. ففي أثناء عملية بناء الأهرام الكبرى، قامت إضرابات عظيمة عن العمل، حتى إن الكتابات الهيروغليفية، على عدد من الآثار، تحدثت عنها، منذ خمسة آلاف سنة.

إن في أوبرا «عايده» لفيردي، لحناً شهيراً اصطلح الموسيقيون على تسميته: «أغنية النيل العاطفية». ولعل هذا ما يجب أن تسمعه من النهر العظيم حين تقصده. ■

معركة عين جالوت

حسن الأمين



«جاء الصليبيون من بلادهم جياعاً وشبه عراة يقودهم أمراء مفاليس. وإقطاعيون من حملة الألقاب عجزوا في بلادهم عن كبح جماع الفقراء الذين كانوا يسخرونهم في أراضيهم بعد أن ظهرت حركات تمرد وعصيان في معظم الممالك الأوروبية وإقطاعاتها. وساعدهم اليهود والمتموّلون فموّلوا تلك الحملات الهمجية. فأثقلوا أعناق الأمراء والملوك بالديون والفوائد. واتخذوا من النعرات الدينية، وسيلة لتحريض شعوبهم وتحميسهم لاحتلال بلاد العرب والمسلمين بعد أن جاءتهم تقارير من الحجاج الأوروبيين، ومن بعض السكان المسيحيين في منطقة الشرق الأدنى عن الكنوز والثروات والذهب والفضة والحجارة الكريمة الموجودة في قصور ملوك العرب وحكامهم.

ويقال مثل ذلك عن المغول الذين خرجوا من بلادهم جياعاً عراة للانقضاض على بلاد العرب والمسلمين. بقصد احتلالها. فأحرقوا العواصم كبغداد ودمشق، ودمروا المدن وقتلوا مئات الألوف من السكان في وحشية لم يشهد لها التاريخ مثيلاً.

وتعتبر معركة «عين جالوت»، التي قادها ملك مصر المظفر قُطُز والأمير ركن الدين بيبرس قائد جيش الحملة وكلاهما من العنصر الشركسي، من أعظم معارك العرب والإسلام ونقطة تحول في التاريخ العربي إذ لولا انتصار العرب في هذه المعركة، لاحتل المغول سائر الأقطار العربية ولكانوا أبادوا الملايين من سكانها كما فعلوا في بغداد ودمشق.

عندما زحف المغول بقيادة هولاكو، بأعظم قوة عسكرية على الشرقين الأوسط والأدنى. كانت هذه البلاد ما تزال دماؤها تنزف لما أصابها من جروح ثخينة من جراء تلك السلسلة الجهنمية من الحروب الصليبية السبع المتشابكة الحلقات. والتي دامت ١٦٢ عاماً أي من عام ١٠٩٨ وهو تاريخ الحملة الصليبية الأولى إلى عام ١٢٦٠ وهو التاريخ الذي جرت فيه «معركة عين جالوت».

وكان العالم العربي تحكمه قُوّتان: السلجوقيون يحكمون شماله الشرقي أي خراسان «فارس» والعراق وأقسام من آسيا الصغرى، والفاطميون ومن بعدهم الأيوبيون ثم المماليك البحرية يحكمون جنوبه أي مصر وسوريا وفلسطين ولبنان.

الحملة الصليبية الأولى

زحفت الحملة الصليبية الأولى عام ١٠٩٨ بقيادة المحرض الراهب بطرس الناسك وغوتيه سان زافوار في مقدمة الجيش اللجب، ولكنها هلكت ولم تتمكن من إحتلال القسطنطينية، عندئذ زحفت المؤخرة بقيادة بودوين الأول، وغود فروا دي بويون، فانتزعت من السلجوقيين «إمارة الرها» وراء نهر الفرات، وأنطاكيا بعد قتال عنيف، وتمكنت من تثبيت أقدامها في شمال وادي العاصي، فاحتلت معرة النعمان، ولم تتمكن من احتلال طرابلس وبيروت وصيدا، فاتجهت شرقاً وزحفت على القدس لمحاربة الفاطميين فحاصرتها واستولت عليها وسلطت سيوفها على سكانها في مجزرة شنيعة عام ١٠٩٩. وحولتها إلى مملكة لاتينية، نصب غودفروا دي بويون نفسه أميرا عليها لسنة واحدة. وبعد موته خلفه أخوه بودوين، وحاول ريموند دي سان جيل احتلال طرابلس. فأخفق فأقام عليها الحصار سنة ١٠٩٩ ولكن ما لبث أن مات عام ١١٠٥ دون أن يتمكن من فتحها.

وزحف بودوين على المدن الشاطئية في فلسطين ولبنان وحاصر طرابلس بمساعدة أسطول

البندقية «جنوا» وتمكن من احتلالها عام ١١٠٩ وحرق مكتبتها الكبرى وكان فيها ١٠٠ ألف كتاب.. وهكذا استطاع الصليبيون أن ينشئوا في وطننا العربي ثلاث إمارات: الأولى في القدس والثانية في أنطاكية والثالثة في طرابلس.

وبعد انتصار الصليبيين في الأناضول على السلجوقيين، قام عماد الدين زنكي زعيم الأتابكة الأتراك، فاستولى على القسم الداخلي من البلاد رغماً عن أنه كان حليفاً للسلجوقيين – وأسس فيه سلطنة جديدة جعل قصبتها «الموصل» وعين أسد الدين شيركوه الأيوبي – وهو من تكريت – قائداً لجيوشه.

ولما توفي عماد الدين خلفه ابنه نور الدين زنكي، فهاجم مدينة الرها سنة ١١٤٤ وحاصرها بمساعدة الأمراء المعنيين «الأوائل» وغيرهم من العرب والمسلمين ثم انتزعها بالقوة وطرد منها الصليبيين.

الحملة الصليبية الثانية

بعد ثلاث سنوات من إسترداد إمارة الرها، ووصول أنباء سقوطها بأيدي العرب إلى أوروبا، تشكلت حملة صليبية ثانية بقيادة كونراد الثالث أمبراطور ألمانيا، ولويس السابع ملك فرنسا. وقد حاولت هاتان القوتان التغلب على قوات نور الدين زنكي ولكن عبثاً، وفشلت محاولتهما باسترداد الرها ومنيت بهزيمة مريرة، فعاد الملكان الى بلديهما خائبين.

وفي سنة ١١٦٨ زحف الصليبيون من فلسطين على مصر ليعوضوا خسائرهم بامارة الرها، فأوفد نور الدين زنكي قائد جيوشه أسد الدين شيركوه الأيوبي من دمشق لنصرة القاهرة، التي كانت ما تزال تحت حكم الفاطميين، واصطحب معه ابن أخيه الفارس صلاح الدين الأيوبي. فتقهقر الصليبيون، وتولى أسد الدين منصب الوزارة للخليفة الفاطمي العاضد، ولكن أسد الدين توفي بعد سنة، فحل صلاح الدين الأيوبي محله، وفي عام ١١٧١، ثم استتب لصلاح الدين الملك في مصر واستقل بها بعد وفاة نور الدين زنكي عام ١١٧٤.

وبعد سنتين هب صلاح الدين لتأديب الإسماعيليين «الحشاشين» فقهرهم في عكار وجبال العلويين.

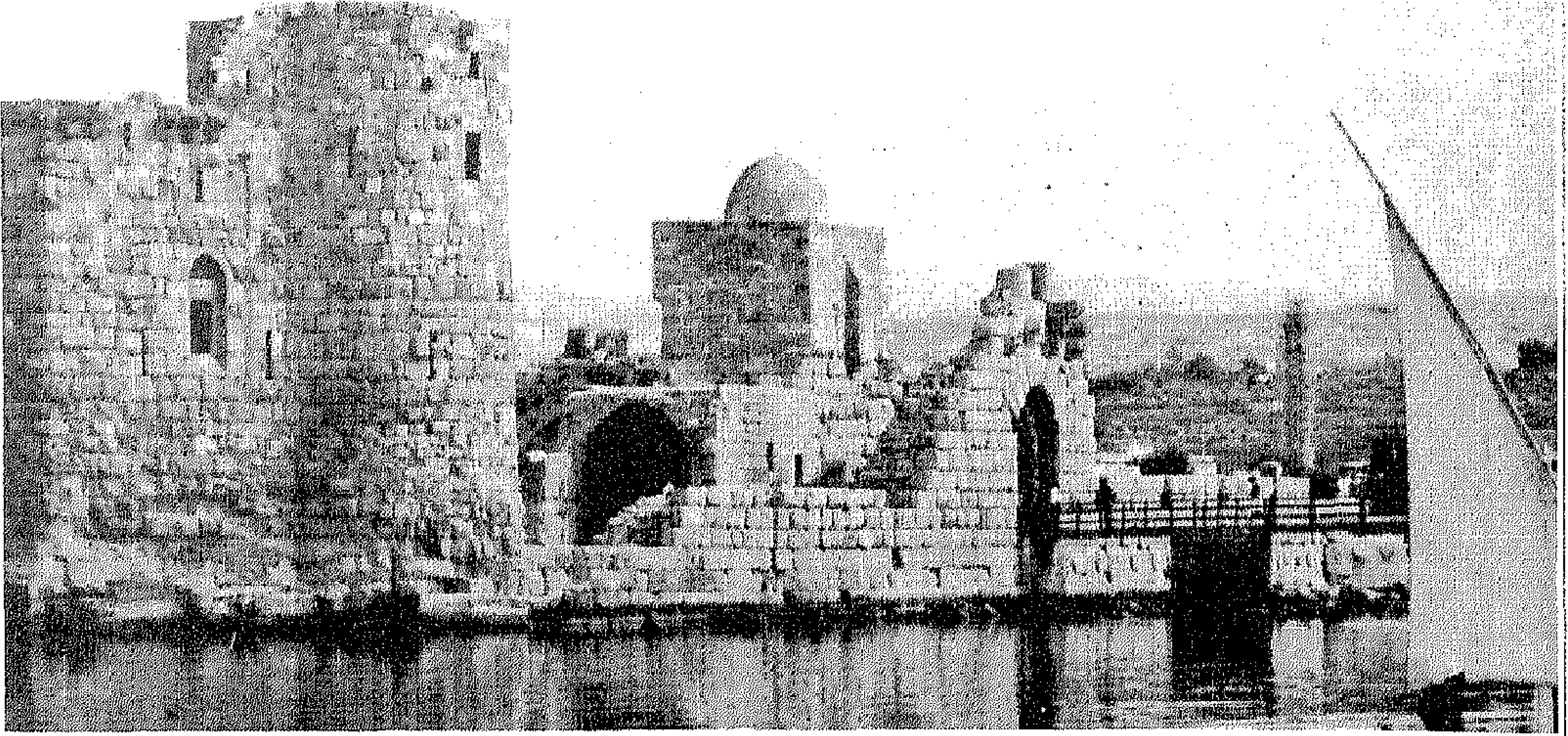
وعندئذ، انفسح أمامه المجال ليكرس نفسه لحرب الصليبيين، فأعد لهم ما إستطاع من القوة والرباط، وانضم إليه الأمراء الشهابيون في حوران، وبذلك تمكن من توحيد القوات المصرية والشامية، وشرعت كماشته من الشمال ومن الجنوب تضيق الخناق على الصليبيين المحصورين بين فكيها. وكانت تلك خطته الكبرى التي استطاع بها التغلب على الصليبيين. وهي خطة محكمة ما أحوجنا إليها في صراعنا الدامي مع الصهاينة.

وكانت فاتحة معارك في تلال حطين المشرفة على مدينة طبريا «فخاض غبارها وشرى وباعا» وهزم أعداءه واستولى على طبريا، ومن بعدها استرد عكا، وبذلك انكشفت القدس، فزحف إليها وقطع عنها الإمدادات وهو محاصر لها، وأخيراً طلب سكانها الصلح والتسليم، فسلموه مفاتيح المدينة، على أن يخرجوا منها آمنين بأموالهم وأولادهم لقاء الفدية.. واستسلم ملكها غي دي لوزنيان. ثم زحف صلاح الدين على المدن الشاطئية في فلسطين ولبنان فحرر معظمها، ولم يبق في أيدي خصومه سوى صور وطرابلس وأنطاكيا. وكان رائده في هذه الحملات التسامح والعفو عند المقدرة.

الحملة الصليبية الثالثة

ولما أراد صلاح الدين إطلاق سراح غي دي لوزينيان ملك القدس السابق، طلب إليه أن يخلد إلى السكينة وشرط عليه شروطاً بذلك. ولكن هذا غدر وخالف الشروط فزحف مع القوات التي تمكن من حشدها سراً على عكا، وأرسل إلى أوروبا في طلب نجدة عاجلة، فجاءت عام ١١٩٢، بقيادة فردريك أمبراطور ألمانيا الذي قاد القسم الأول من هذه الحملة فزحف وهو في طريقه إلى عكا على قيليقيا في جنوب آسيا الصغرى، ولكنه غرق مع العديد من رجاله في أحد أنهارها ورجع الباقون إلى أوروبا.

وقاد فيليب أوغيست ملك فرنسا القسم الثاني في هذه الحملة، فمخر بمراكبه البحر متوجها إلى عكا. وقاد ريكاردوس ملك الإنكليز، القسم الثالث في هذه الحملة، فأبحر بمراكبه إلى قبرص، وهناك



قلعة البحر في صيدا مبنية على أنقاض مباني معابد فينيقية قديمة كان يحتلها العرب تارة والصليبيون تارة أخرى ثم عادت إلى أهلها في النهاية.

وافاه دي لوزنيان وزحفا إلى عكا واندلع القتال من جديد مع صلاح الدين وقواته ودامت الحرب طويلاً، ثم انتهت بعقد هدنة لمدة ثلاث سنوات من شروطها أن تبقى المدن التي احتلها صلاح الدين في حوزته وترك قسماً من الساحل يمتد من صور إلى يافا بأيدي الصليبيين، وما بعد الساحل أي في داخل البلاد فهو لسكانها العرب.

وفي سنة ١١٩٣ كان مرض صلاح الدين بالحمى قد اشتد عليه فعاد إلى دمشق، وكان ذلك من أسباب عقده الهدنة المذكورة أعلاه، وهناك وافاه الأجل، عن عمر حافل بالمآثر والبطولات ومكارم الأخلاق، تاركاً مهام الحرب لورثته الأيوبيين.

الحملة الصليبية الرابعة

جاءت هذه الحملة بقيادة بودوين الرابع فأسس مملكة له في القسطنطينية من سنة ١٢٠٤ إلى سنة ١٢٦١.

الحملة الصليبية الخامسة

وصلت هذه الحملة إلى دمياط سنة ١٢٢١ في عهد الملك العادل شقيق صلاح الدين وكانت مؤلفة من الجرمانيين، فلم يستطع أن يحتمل الصدمة فقضى غير مأسوف عليه وكانت وصيته لابنه الملك الكامل: «عليك بإخراج الصليبيين من دمياط مهما كلف الأمر..» ونفذ الملك الكامل وصية أبيه فنازل المحتلين قرب المنصورة، وأغرق «عامداً» السفن المصرية في نهر النيل، فحال بذلك دون تقدم المحتلين، الذين وجدوا أنفسهم محصورين بين البر والنهر وأخيراً طلبوا الصلح وجلوا عن دمياط بعد أن احتلوها زهاء ٤٠ شهراً.

الحملة الصليبية السادسة

والغريب في الأمر أن الملك الكامل الذي لم يتخاذل أمام أعدائه في دمياط، تخاذل في فلسطين، عندما وصلت الحملة الصليبية بقيادة فردريك الثاني امبراطور ألمانيا، وإذا به يعقد معه صلحاً بأبخس ثمن مجللاً نفسه وسمعته بالخزي والعار، فتنازل للأمبراطور الجرماني عن القدس والمنطقة الساحلية الممتدة من صيدا إلى عكا، وأطلق سراح الأسرى من الصليبيين، مقابل تعهد من الأمبراطور الجرماني بالدفاع عنه ضد أعدائه أبناء صلاح الدين، فنشب صراع دام بينه وبينهم، وعلى الأخص من بينهم الملك المعظم حاكم دمشق. ثم اندلعت الحرب بين الفريقين فاستنجد الملك الكامل بالخوارزميين الذين زحفوا على البلاد العربية قادمين من بلاد التتر.. وبذلك

تمكن من محو العار الذي لحقه فاسترد القدس وبعض المدن الساحلية عام ١٢٤٤ وعاش بعدها تسع سنوات وأخيراً توفي عام ٦٣٥ هجرية. فتولى بعده الملك ابنه الأمير سيف الدين الملقب بالعادل وهو الأصغر في حين كان أخوه الأكبر الأمير نجم الدين الملقب بالصالح يحكم دمشق وبلاد الشام.

وعلى أثر موت الملك الكامل حدث إضطراب كبير في مصر فانقسم سكانها إلى طوائف متناحرة، بعضها يؤيد الملك العادل «الجديد» والبعض الآخر يطالب بتولية الإبن الأكبر وهو الأحق بالوراثة أي الأمير نجم الدين الملقب بالصالح. وكان من هذه الفئة المماليك الذين أصبحوا كتلة لا يستهان بها.

وكان الأمير نجم الدين حاكم دمشق متزوجا من فتاة شركسية مملوكة تدعى «شجرة الدر» وهي التي لعبت دوراً بارزاً في سياسة مصر.. فراحت تراسل المماليك أبناء جلدتها وتحرضهم على الملك العادل. فنجحت باستمالة قلوبهم إلى زوجها، ووصلتها منهم رسائل تشجع زوجها نجم الدين على دخول مصر ليكون له ما يريد.. ولما كاشفت زوجها بما فعلت أكبر همتها وشرعاً يُعدان العدّة للسفر خفية إلى القاهرة.

ووصل الأمير نجم الدين مع زوجته شجرة الدر ومماليكه وأعوانه إلى القاهرة، ونزل في ضيافة المماليك، فأعدوا مؤامرة للانقضاض خفية على قصر الملك العادل، ولكن الخطة اكتشفت على باب القصر، فوقع قتال عنيف بين أعوان الأخوين المتناحرين على الملك إنتهى بهروب الملك العادل من القصر إلى بلبيس، فاقتفى نجم الدين أثره وقبض عليه وعامله معاملة حسنة، وفرض عليه الإقامة الجبرية - وهكذا نصب نجم الدين ملكاً على مصر والشام باسم الملك الصالح سنة ٦٣٧ هجرية..

وانتشرت في عهده الفتن والمؤامرات في مصر فكان كلما تمكن من إخماد فتنة إشتعلت أخرى، ولما استتب له الأمر أخيراً، أصبحت بلاد الشام مسرحاً للفتن والمؤامرات. فسافر إلى دمشق وراح يعمل على إطفاء نيران الفتن واحدة بعد أخرى، حتى نُهك وأصيب بالعلل، فأطال مدة إقامته فيها حتى يُبل، وفي أحد الأيام تلقى رسالةً من زوجته شجرة الدر تخبره فيها أن الصليبيين يحتشدون في قبرص ويستعدون للانقضاض على مصر.. فأسرع بالعودة إلى القاهرة.

الحملة الصليبية السابعة

جاءت هذه الحملة بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا سنة ١٢٤٨. فنزل في قبرص ريثما يستعد، ثم أبحر منها إلى دمياط فاحتلها. وفيما كان الملك الصالح يعد العدة للهجوم على دمياط. أصيب بإعياء شديد وعاوده مرضه القديم فأدركته المنية قبل نشوب المعركة. فأستُدعي ابنه وولي عهده طوران شاه من حصن كيفا على شاطيء دجلة، للعودة إلى مصر، وتولت «شجرة الدر» مقاليد الحكم بالنيابة.

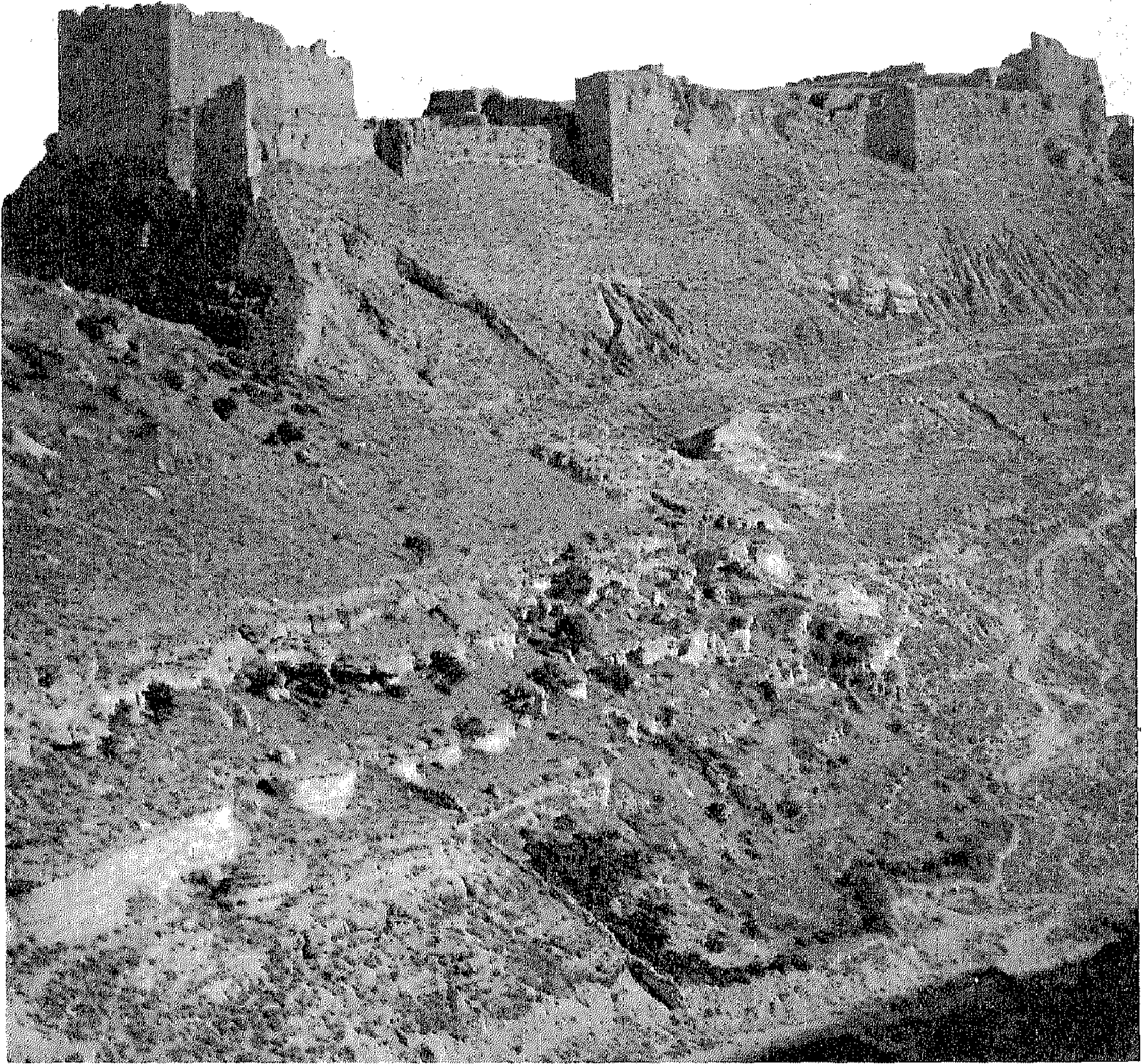
وكانت شجرة الدر قد أُخفت موت زوجها عن الشعب، ولم يكن يعلم به إلا المماليك. وفي هذه الأثناء زحف الملك لويس بقوّاته من دمياط على المنصورة، وفي أول المعركة التي قادها الأمير فخر الدين «وهو من المماليك» أبدى مقاومة باسلة وفنونا عجيبة في القتال إلى أن سقط شهيداً، فتولى زمام المعركة بعده ركن الدين بيبرس والذي سنشاهده عما قريب مع الملك سيف الدين قُطز يحارب المغول. فانتصر بيبرس على رأس المماليك ودحر الصليبيين الذين عادوا إلى دمياط وتحصنوا بها.

وما كاد طوران شاه يستلم الملك بعد أبيه حتى أخذ ينفذ وصيته بطرد العدو من بلاد العرب.

وبعد معارك طاحنة بين الفريقين انتصر المصريون، ووقع الملك لويس أسيراً فأحسنت معاملته ووضع، في دار القاضي فخر الدين بحراسة الطواشي لقمان وبعد فترة افتدى لويس نفسه بـ١٠٠ ألف دينار فعاد إلى جنوده ورحلوا جميعاً فاشلين إلى عكا سنة ١٢٥٠ ومنها انتقل إلى بلاده خائباً بعد أربع سنوات من القتال الشديد.

وبعد عشر سنوات زحف المغول على بلاد العرب حيث التقى الجيشان العربي والمغولي في «عين جالوت».

ولتكملة مسلسل الأحداث، فقد قتل طوران شاه وتولى الحكم عنه بالنيابة حسام الدين..



قلعة الكرك بناها الصليبيون في القرن الثاني عشر على أنقاض قلاع سابقة بنيت في عهد الأنباط. وفي القلعة متحف قديم يعد من أروع المتاحف المماثلة.

وبدأ القادة المماليك يفكرون فيمن يولونه بعد طوران شاه، ولم تطل مدة تفكيرهم فقرروا بالإجماع تولية «شجرة الدر» ملكة على مصر، فاحتلت القلعة المنيفة الرابضة على قمة جبل المقطم المطلة على القاهرة التي أقام فيها من قبل صلاح الدين والورثة والمغتصبون من بعده. ثم اضطرت أمام حملة التشكيك بها الى الزواج من الأمير عزالدين ايبك ونصبت الأمير الأشرف موسى الأيوبي وهو في السادسة من عمره شريكاً لها في الحكم. وبحكم زواجها من الأمير عزالدين أصبح حاكماً لمصر بإسم «المعز ايبك».

وبدأت تصل إلى مصر انباء تتحدث عن حشود المغول الزاحفة على إيران والعراق وهنا قرر المعز ايبك توحيد الأمة لتقف كلها صفاً واحداً أمام الخطر المحدق بالبلاد، فطرد الأمير الصغير موسى الأيوبي من الحكم، فأصبح بذلك الحاكم المطلق في مصر، وعقد صلحاً مع الناصر يوسف الأيوبي حاكم حلب وأخمد ثورة قام بها بعض الأعراب في أطراف مصر، ثم شرع يدبر مؤامرة لقتل زعيم المماليك فارس الدين أقطاي وكان رفيقه بالجهاد وتم تنفيذ المؤامرة في القلعة.

ولما علم المماليك بمقتل زعيمهم اجتمعوا سبعمائة فارس تحت أسوار القلعة بقيادة ركن الدين بيبرس وهموا باقتحام أبوابها، فرمى إليهم المعز برأس زعيمهم أقطاي فدهشوا ووقع الخلاف فيما بينهم، وأخيراً قرروا الهروب إلى حلب.. فسارع المعز وقبض على الباقين منهم فقتل بعضهم وسجن البعض الآخر.

ورحب الملك الناصر الأيوبي حاكم حلب بالمماليك الملتجئين إليه ومنحهم الأموال وخلع عليهم. وكانوا في الحقيقة فرساناً أشداء وهم الذين قضوا على حملة الملك لويس التاسع.

وبث الملك المعز عيونه وأرصاده على المماليك اللاجئين في حلب، فعلم أنهم يحرضون الملك الناصر على غزو مصر، فكتب إليه يحذره من المماليك، ولكن التحذير وصل بعد فوات الأوان، لأن الملك الناصر كان قد أعد جيشاً وزحف به لغزو مصر ومعه فرسان المماليك المغضوب عليهم.

والتقى الجيشان قرب العباسية في مصر، ولكن المعركة ما لبثت أن تحولت إلى عتاب ومصالحة، فعقد الملكان بينهما صلحاً من شروطه العفو عن المماليك وعدم ملاحقتهم بأي أذى.

وهكذا استطاعت المصلحة الوطنية التغلب على النزعات والأحقاد الشخصية تجاه الخطر المغولي الداهم الذي بدأ يتحرك من الشرق لا يترك بلداً إلا دمرها أو أرضاً معمورة إلا وفرقها وقتل من فيها ولا دياراً مسكونة إلا وأشعل فيها النيران، لقد خرجوا من عرائنهم كالأعاصير المدمرة، ليس لهم من أرب أو مقصد إلا تدمير الحضارة الإسلامية التي شيدها العرب في عدة أجيال بأيّام معدودة.

ووقع الخلاف بين «شجرة الدر» وزوجها المعز أيبك فهجرها، وفي لحظة من لحظات تغلب الشر على الخير أعدت له مؤامرة في القصر، وكانت قد استدعته وصالحته ولما دخل الحمام انقض عليه المماليك وفي أيديهم السيوف وقتلوه أمام عيني زوجته التي راحت تبكي بعد أن مس الندم شغاف قلبها. وفي نفس العام قُتلت «شجرة الدر» بيد ضرتها فدفنت داخل مقصورتها في المسجد المعروف باسمها بجوار السيدة نفيسة في القاهرة.

وبموتها زالت دولة الأيوبيين من مصر، الذين جاهدوا بأنفسهم وأموالهم في رد هجمة الصليبيين عن البلاد العربية، وبأُفول نجم الأيوبيين تألّق نجم المماليك الذين اشتراهم ملوك الأيوبيين من أسواق النخاسة. فعلموهم ودربوهم وأسلموهم قيادة جيوشهم، ويشاء الله أن يكون خلاص الأمة العربية من المغول البرابرة على أيدي سلاطين المماليك.

بعد الملك المعز ايبك تولى الحكم إبنه الملك المنصور علي، عام ٦٥٧ هجرية ، ثم جاء بعده الملك سيف الدين قطز وفي أيام هذا زحف المغول على بغداد ثم دمشق ونكلوا بهما شر تنكيل.

معركة عين جالوت

لا أحسب أن أمة نُكبت بمثل ما نكبت به هذه الأمة في الغزو المغولي الذي بدأه جنكيز خان وأكمله هولاكو. ولا أحسب أن شعبا إستهدف لمثل ما إستهدفت له الشعوب التي جاءت على طريقة هؤلاء الغزاة المرعبين الذين تجاوزوا كل حد في القتل والتدمير والغدر والإباحة، والذين أنسوا كل ما سطّره التاريخ من أهوال.

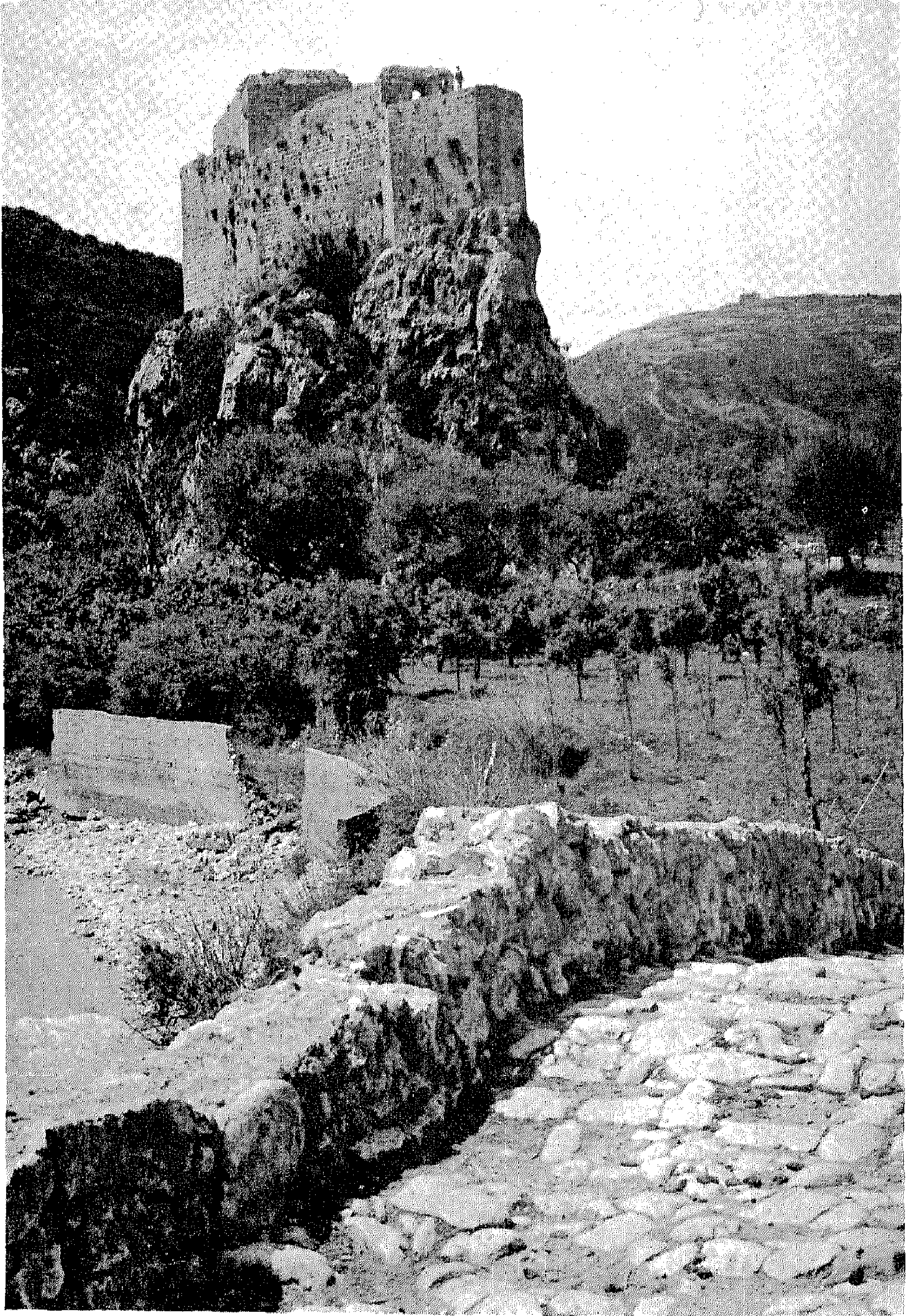
فلم تكن غايتهم توسيع ملك، وحكم شعوب، واحتلال بلاد مما يمكن أن يكون غاية كل فاتح مجتاح. ولا كان الدافع حسب السيطرة والتحكم والاغتناء فحسب، بل كان الدافع حقد الوثنية على التوحيد وكره الجهل والعماية للعلم والهدى.

ومن هنا لم ينفع الناس مقاومة ولا تسليم. ولم يجدهم أمان ولا إيمان، فالمدافعون المهزومون يبادون، والمصالحون المستأمنون يقتلون، ثم بعد كل ذلك إحراق للكتب واستئصال للعلماء.

ومضى هولاكو على هذا السبيل. فدمر إيران وقوض العراق، ثم نفذ إلى الشام مستهدفاً مصر لتعمّ كارثته وتطغي مصيبته.

وبينما كان يهم بالخطوة الجديدة، بلغه نعي أخيه ومليكه «منكوقاآن» وترامى إليه أن نزاعاً بين أهله يوشك أن يحل، فلم يشأ أن يستأثر غيره بسيادة الموقف الجديد، فآب إلى بلاده مخلفاً جيوشه الكثيفة على أهبتها لغزو مصر. بعد أن دكت صروح دمشق، بقيادة «كيتوبوقا» اشرس قواده.

وكان هولاكو قد أنفذ قبل رحيله نذيراً إلى حاكم مصر الملك المظفر سيف الدين قُطز مع



قلعة المسيلحة بالقرب من البترون، مبنية على مرتفع صخري وسط سهل صغير بناها صلاح الدين الأيوبي أثناء الحروب الصليبية في القرن الثاني عشر بعد معركة حطين الشهيرة سنة ١١٨٧.

واحد وأربعين رجلاً من رجاله الأشداء.

وكانت أنباء مجازره وانتصاراته قد عمت الدنيا وملأتها رعباً، وما كان ذلك إلا ليزيد جيوشه نشوةً ببأسها، وفظاعة بتمثيل جرائمها. وكانت الجماهير في كل مكان يوقنون بالفشل إن قاوموه بعد أن كسر في زحفه ما لا يكسر وفتح ما لا يفتح. وبعد أن تشرّدت شعوب جمة وهامت على وجوهها. فالناجون من إيران فروا من الموت إلى الهند والمفلتون من الويلات في العراق إتخذوا الطريق الصحراوي مفزعاً إلى الحجاز والذين نجوا من مذبحة دمشق هاموا على وجوههم متجهين شطر البلاد العربية إلى فلسطين ثم إلى مصر.

في ذلك الجو المشحون بالهزائم المفعم بالرعب والفزع والتخاذل مضى وفده يحمل إلى حاكم مصر ذلك الكتاب:

«إن الله تعالى قد رفع شأن جنكيز خان وأسرته ومنحنا ممالك الأرض برمتها، وكل من يتمرد علينا، ويعصي أوامرنا، يقضى عليه مع نسائه وأبنائه وأقاربه والمتصلين به وبلاده ورعاياه، كما بلغ ذلك أسماع الجميع، أما جيشنا الذي لا حصر له فقد بلغ الشهرة كقصة «رستم وأسفنديار» فإذا كنت مطيعا كخدم حضرتنا، فأرسل إلينا الجزية واقدم بنفسك وأطلب الأمان وإلا فكن مستعداً للقتال».

ذلك هو الإنذار المخيف الذي حمله رسله الواحد والأربعون مغولياً إلى سلطان مصر، وذلك هو التهديد المروع الذي داهم القاهرة - وكانت كل جملة في ذلك الكتاب صحيحة صادقة، فقد دانت لهم ممالك الأرض، وكل من تمرد عليهم أهلك وخربت بلاده. وكانت شهرة جيوشهم أعظم من أن يُنوّه بها وصار عظماء الدول وكبراؤها خدما في الحضرة المغولية.

وهبط الوفد مصر جباراً متكبراً، يزلزل بخشونته العزائم، ويوهي بمظاهره المتنمّرة الهمم هبط مصر وهبط معه تاريخ أسود من الإنتصارات الكاسحة وشهرة ترتعد من أهوالها الفرائص. وكان كل ذلك كافيا لا بل ومُحثًا على التسليم، لولا أنهم جوبهوا بحمية شماء، ورجولة أنوفة، وبطولة من أخص خصائصها الفداء، والحرص على الموت في ميدان القتال.

وكان قد سبق الوفد المغولي إلى مصر شراذم وجموع الناجين والمنهزمين من البلاد المنكوبة، التي أطاحت بها الضربات المغولية، فتساقطت بلداً بعد آخر، وتجمع العديد من الناجين في مصر - وهاهم المغول يلاحقونهم إلى القاهرة وينازلونهم على النيل.

وكان الأمر أخطر من أن يقطع به إنسان واحد، وكانت مصر آخر معقل فإذا هوت.. لم تقم بعدها للإسلام قائمة. لذلك لم يجرؤ رجل فرد مهما أوتي من سداد الرأي وقوة العزم أن ينفرد بالقرار، فجمع الحاكم المصري الملك المظفر قطز مؤتمر عسكريا، حضره فرسان المماليك وعلى رأسهم القائد الكبير ركن الدين بيبرس.

وكان المؤتمر العسكري في محاوراته ونقاشه في أرفع مستوى عرفه التاريخ من الإجتماعات العسكرية والمؤتمرات الحربية. وجرت فيه المداولة بصراحة كاملة إقتضتها خطورة الموقف.

قال المظفر سيف الدين قطز للمؤتمرين: «لقد توجه هولاكو من توران إلى إيران بجيش جرار، ولم يكن لأي مخلوق من الخلفاء والسلاطين والملوك طاقة على مقاومته واستولى على جميع البلاد، ثم جاء إلى دمشق ولو لم يبلغه نعي أخيه لألحق مصر بالبلاد الأخرى، ومع هذا فقد ترك في هذه النواحي كيتوبوقا. وهو كالأسد الهصور، والتنين المهول في الكمين، وإذا قصد مصر فلن يكون لأحد قدرة على مقاومته فيجب أن تتدبروا الأمر قبل فوات الفرصة».

ذلك هو البيان الموجز الذي أفتتح به الحاكم المصري الملك المظفر مؤتمره العسكري. لقد بسط الأمر على حقيقته لا يحاول أن يهول ولا أن يهوّن، وخير ما فيه هذه الشورى، أو إذا شئت بلسان العصر الحاضر، هذه الديمقراطية السليمة. فبالرغم من أن المتكلم هو الملك والجيوش جيوشه، والبلاد بلاده، وبالرغم من أنه مستطيع أن يفرض الرأي الذي يريده، فإما تسليم أو قتال، فإنه لم يشأ إلا أن يشرك وجهاء البلد ورجال الدين وفي مقدمتهم الشيخ عبد السلام الشاذلي وممثلي البلاد الذين لجأوا إلى مصر منهزمين أمام المغول وأن يستمع إليهم.

أصغى المؤتمرون إلى بيان الملك المظفر بتفهم وإستيعاب فكان أول المتكلمين ناصر الدين



مصيف صافيتا على الساحل السوري وهي مبنية على أنقاض البرج الأبيض للفرسان الهيكلية وقد إستردها السلطان بيبرس من الصليبيين سنة ١٢٧١ ميلادية، ويشاهد البرج العالي فوق القمة.

القيمري فقال من جملة كلام له: «أن البلاد الممتدة من تخوم الصين إلى مصر هي الآن، بقبضة هولاكو، فلو ذهبنا إليه بطلب الأمان، فليس في ذلك عيب وعار، ولكن تناول السم بخداع النفس واستقبال الموت أمران بعيدان عن حكم العقل، لأنه ليس بالإنسان الذي يُطمأن إليه، وهو لا يفي بعهده وميثاقه، فإنه قتل فجأة الخليفة العباسي المستعصم بالله وخورشاه، وحسام الدين، وصاحب أربيل بعد أن أعطاهم العهد والميثاق. فإذا أسرنا إليه فسيكون مصيرنا مصيرهم».

فرد الملك المظفر قائلاً: «أن بلاد ديار بكر وربيعة والشام كافة ممتلئة بالمناحات والفجائع، والبلاد من بغداد حتى الروم أصبحت خراباً يباباً، وقد قضي على معظم من كان فيها من حرث ونسل، فلو أننا تقدمنا لقتالهم فسوف تخرب مصر خراباً تاماً كغيرها وينبغي أن تختار واحداً من ثلاثة: الصلح أو القتال أو الجلاء عن الوطن. أما الجلاء عن الوطن فأمر متعذر وذلك لأنه لا يمكن أن نجد مقراً لنا إلا في بلاد الغرب وبيننا وبينه مسافات بعيدة».

وكان يبدو من لهجة الملك المظفر أنه ميال إلى المسالمة ولكن الحقيقة أن المسالمة لم تكن من رأيه – كما تبين فيما بعد – ولكن لم يشأ أن يفرض الحرب بل فضل أن تكون الحرب بقرار إجماعي أو أن يفوض الأمر إليه، وعندئذٍ يقررها «أي الحرب» اعتماداً على التفويض وهكذا كان..

فقد رد ناصر الدين القيمري قائلاً: «وليس هناك مصلحة أيضاً في مصالحتهم إذ أنه لا يوثق بعهودهم».

وهكذا أصبح الطريق ممهداً لإتخاذ قرار مشرف، فالمسؤول الأول في مصر يبرهن على استحالة الجلاء، والقميري يبرهن على استحالة المصالحة، ولكن بقي رأي آخر باستطاعته أن يبرهن على عقم المقاومة – على أنه بعد صدور الرأيين السابقين وما فيهما من وضوح. لم يعد باستطاعة أحد أن يصدر الرأي الثالث أو يلجلج به، لذلك رأينا بقية الحاضرين – وكان الكثير منهم قد ذاق مرارة الهزيمة أمام هولاكو فخمدت عزائمهم وضعفت هممهم ومالوا إلى التسليم، فيقولون للملك المظفر: «ليس لنا قدر ولا طاقة على مقاومتهم فَمُرْ بما يقتضيه رأيك» فقال الملك المظفر: «أن الرأي عندي هو أن نسير جميعاً إلى القتال فإذا ظفرنا وهذا هو المراد، وإلا فلن نكون ملومين أمام العباد».

وجاءت كلمته كالسيف حاسمة قاطعة، فقر الرأي على وجوب المقاومة ورأى بعضهم اعتماد المفاجأة واتخاذ ما يدل على الحزم والمضي في القتال دون هوادة، وبقطع الطريق على أي دعوة إنهزامية، فأشاروا بقتل رسل المغول، فاستصوب الملك هذا الرأي وأمر بصلب الرسل في الليل.

ورُبّ قائل يقول: «وما ذنب الرسل، وهم في كل الشرائع لا يقتلون.. ولكن المطالب بهذا ينسى أن المغول امتهنوا كل الشرائع، وغدروا بالرسل وخانوا المستأمنين ونقضوا الوعود وإن كل ما يمكن أن يرهب أولئك القوم هو حلال في كل شريعة صحيحة، وإن الأمر كما قال الإمام علي ابن أبي طالب: «الوفاء لأهل الغدر غدر عند الله، والغدر بأهل الغدر وفاء عند الله».

وكانت طلائع المغول قد شارفت غزة في جنوبي فلسطين. فعسكر فيها جيش المقدمة بقيادة القائد بايدر، الذي راح يعد العدة للهجوم على مصر. فلما أتاه خبر صلب الرسل، إرتاع وذعر وتردد محجماً عن التقدم. ورأى أن يراجع قائده الأعلى كيتوبوقا الذي كان يعسكر بالقرب من مدينة بعلبك، فاستشاط غيظاً وأمر بايدر بأن لا يتقدم قبل وصوله.

واستعدت مصر كلها للجهاد، وتوارد الناس من كل حدب وصوب، وجاءت القبائل العربية من الصعيد، وجمع رجال الدين والطرق الصوفية جموعهم وبرزوا إلى خارج مدينة القاهرة، حيث يحتشد الجيش بقيادة الملك المظفر والقائد ركن الدين بيبرس، وكان على رأس المشايخ الصوفية الشيخ عبد السلام الشاذلي الذي ترددت أصداء خطبه الحماسية الداعية للجهاد والدفاع عن حوزة الإسلام، وكنانة الله، في جميع أنحاء مصر والعالم العربي.

وارتفعت الأعلام حتى غطت ضواحي القاهرة، وكانت أعلام أصحاب المذاهب الصوفية بألوانها العديدة الزاهية الخفاقة، وطبولهم ودبادبهم وصنوجهم وطاراتهم منظراً مثيراً لا ينسى..

وكان المصريون قد تخلو عن مبدأ الدفاع، وعزموا على أن يكونوا المبادرين بالهجوم، فاقتحم جيشهم اللجب «غزّة» وطاردوا القائد المغولي بايدر وفلوله حتى نهر العاصي فزاد هذا التحدي من غضب كيتو بوقا فهرع بجيوشه المتعطشة لسفك الدماء كعادتها لتأديب المصريين واثقاً من نفسه ومطمئناً إلى شهرته في القمع والطغيان.

وأدرك المصريون بأن الشجاعة وحدها لا تحسم الموقف وأن الإستماتة لا تكفي لرد الأعداء، فلا بد من إعمال الرأي.. لأن جيش العدو القادم كثير العدد عظيم الخطر مرهوب الجانب، لذلك تعمد الملك المظفر وقادته المماليك اللجوء إلى الخدع الحربية والمماليك أسياد هذا المجال، فعبأ جيشه تعبئة محكمة وقسمه إلى أربعة جيوش، ثلاثة منها سيرً كل جيش منها في وجهةٍ لتكون ثلاثة كمائن تبرز فجأة من ثلاث جهات في الوقت المحدد، وخرج الملك المظفر ببضعة آلاف للقاء المغول وجهاً لوجه في «عين جالوت» الواقعة بين بيسان ونابلس في فلسطين. «وقد حدثت المعركة في رمضان سنة ٦٥٨ هجرية، ١٢٦٠ ميلادية»

وما إن أطل جيش العرب المسلمين بأعلامه الخفاقة وأصوات الفرسان والمحاربين تلعلع «بصيحة الحرب» الله أكبر.. الله أكبر.. حتى رشقهم المغول بسهامهم وكانوا من أبرع خلق الله برمي السهام. وانهالت سهام المغول على الجيش المصري كزخات المطر، وراحوا يكرون عليه كرّاتهم المغولية المعروفة لإخافة المحاربين.. فأشار الملك المظفر بالتراجع حسب الخطة الموضوعة، وهكذا راح يستدرجهم إلى المكان الذي أعده للمعركة الفاصلة، وتبعهم المغول وراحوا يتناوشونهم بسيوفهم، إلى أن سقطوا في الفخ ومنطقة الكمائن، وفجأة طلعت عليهم الكمائن الثلاثة بصيحات القتال: الله أكبر.. من ثلاث جهات، وصمد الملك المظفر بالقلب، وأعرب المماليك عن فروسيتهم المشهورة، وكان القائد ركن الدين بيبرس على رأس الجموع المحدقة بالمغول فصدموهم صدمة عنيفة زلزلوهم فيها عن مراكزهم.

ومع ذلك فقد إستنجد المغول بكل طاقاتهم وخبرتهم الحربية، ولكنّ عنصراً قيّماً من عناصر القتال كانوا قد فقدوه وهو حرية الصولان والجولان والكر والفر، لأن جيوش المصريين الثلاثة والجيش الذي قام مقام القلب في المعركة، أحاطت بهم وأفسدت عليهم طريقتهم المثلى المذكورة أعلاه بالقتال.

وبقيت المعركة من الفجر إلى منتصف النهار.، ومع ذلك إستقتل الفريقان. ولكن المفاجأة المصرية والخطة الشاملة. أثمرت ثمارها في زعزعة صفوف المغول، فلم تلبث أن لاحت تباشير النصر للمصريين ولم تلبث الجموع المغولية أن تفككت وأخذت بالتصدع والإنحلال، ومن ثمّ احاقت بهم الهزيمة.

وأبى القائد كيتوبوقا المغولي أن ينهزم وآثر الموت على الفرار وصمد يجالد بسيفه جلاداً عنيفاً، ولكن هيهات.. فالمماليك أرباب السيوف في المعارك، كما أن المغول أرباب الرمي بالسهام.. والمجال الآن للسيوف في ذلك الإلتحام الدموي.

وفي النهاية سقط كيتوبوقا أسيراً فسيق مكبلاً بالحديد إلى الملك المظفر سيف الدين قطز. فعنفه أشد تعنيف، وذكره بمجازره، التي ارتكبها بالسكان العزل وأعمال الذبح التي أجراها بالنساء والأطفال، وندد بعهوده وعهود مولاه هولاكو التي نكثاها.

فعاد المغولي يهدد ويتوعد قائلاً: «إن سنابك خيل المغول ستطأ الأرض الممتدة من أذربيجان إلى مصر وستحمل رمال مصر في مخالي خيولهم إلى بلادهم وإن لهولاكو ثلاثمائة ألف فارس مثل كيتوبوقا فأفرض أنه نقص واحداً»

ولكن هذا التبجح لم يفد كيتوبوقا الخاسر، ولا بد أن صيحة الحرب الأخيرة قد تردد صداها في تلك اللحظة: «الويل للمغلوب» ومع هذه الصيحة طاح رأس كيتوبوقا عن جسده، ومضى المصريون يطاردون المغول في الديار الشامية، ويطهرونها من أقدامهم النجسة حتى وطأت سنابل خيولهم شطئان الفرات.

ومضى تهديد كيتوبوقا في الهواء، ولم يكتب لسنابل خيل هولاكو أن تعود فتطأ تراب الشام ورمال مصر مرة أخرى.

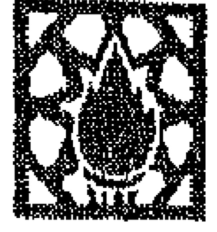
□

المقاومة الشعبية السرية ضد النازية

ترجمة:
تاريخ
العرب
والعالم



على طول سنوات الحرب العالمية الثانية، شهدت جميع دول أوروبا حركات المقاومة ضد العدوان النازي، وهي حركات لعبت أدوارا لا يمكن انكارها أو تجاهلها في التعجيل بيوم النصر النهائي، وانشأت تراثا غنيا في تاريخ الانسان المعاصر لأساليب ووسائل وقوف الشعوب للدفاع عن كيانها وحريتها، كما كشفت عن مختلف الأبعاد الوطنية و العقائدية و السياسية والاجتماعية والنفسية ذلك أن المقاومة هي - في وقت واحد - موقف وطني ونضال عقائدي وصراع سياسي. وهذه الحوافز الثلاثة للمقاومة تختلف في أهميتها باختلاف الزمان والمكان، وبالتالي فان أساليب المقاومة ووسائلها تختلف باختلاف هذه الأهمية. لكن المحك النهائي لنوعية المقاومة ومعناها يتوقف على موقف كل فرد وكل فئة وكل طبقة، اجتماعيا واقتصاديا وسياسيا وفكريا من العدو، كما يتوقف على نوع العدو ومدى قدراتها في كل مرحلة من مراحل النضال ضده.



وفي الواقع، فان أوروبا عرفت المقاومة قبل الحرب العالمية الثانية، في الحركات المعادية للفاشية في ايطاليا منذ عام ١٩٢٢، وفي الحركات المعادية للنازية في ألمانيا منذ عام ١٩٣٤، وفي النمسا منذ ضمها الى ألمانيا في عام ١٩٣٨، وفي تشيكوسلوفاكيا منذ مارس / اذار/١٩٣٩.

وعندما بدأ الغزو الهتلري لأوروبا في سنة ١٩٣٩، بدأت تشكل حركات مقاومة في الأراضي المحتلة، وهي تحمل أسماء مختلفة ولكنها تقوم بمهمة واحدة هي: رفض الاستسلام والمساومة مع المعتدين والعمل لانزال الهزيمة بهم، ومساعدة القوات المسلحة النظامية على النصر النهائي. وأصبح الاختيار المطروح أمام كل مواطن في أوروبا - بصفته الفردية أولا وبصفته الاجتماعية ثانيا - هو: المقاومة أم الهلاك؟

وفي البداية تقبل كثيرون من الناس في أوروبا هزيمتهم العسكرية أمام جحافل النازيين كأمر واقع. وظهر منهم من يدعو الى التعاون مع الغزاة أو الوصول معهم الى حلول وسط. وكان البعض لا يرى في الحرب التي تجري من حوله إلا مصدراً لبعض المضايقات، مثل نقص التموين وتوزيعه بالبطاقات، ومثل الافتقار الى بعض المواد المعتادة والكمالية، ومثل الاضطرار، بسبب الحرب، عن الانفصال عن الأبن أو الأب الذي في الميدان، أو عن الأقارب والأحباب.

وكان كثيرون يدعون بصراحة الى موقف الانتظار والتروي، بل وقد غرتهم في البداية أساليب التعقل والتأدب التي تظاهر بها العدو وقواته في معاملاته وتصرفاته، أو أثرت فيهم دعايات النازية عن قوة ألمانيا الهائلة، وحسن تدريب جنودها وضباطها، وحتمية انتصار أسلوب حياة «أوروبا الجديدة» في النهاية.

لكن ما إن مرت الأيام بعد الصدمة الأولى حتى تبين الكثيرون أبعاد المؤامرة النازية، وحتى أدركوا أن «أوروبا الجديدة» الهتلرية ليست سوى أوروبا المحرومة من الحرية، المحرومة من حق الوجود، ولم يكن أمامهم سوى أن يقاوموا العدوان الهتلري عليهم بجميع الوسائل المتاحة، وأن يطوروا مقاومتهم، حتى بلغت مبلغ التجربة التاريخية الشاملة التي يؤرخ لها المؤرخون حتى أيامنا هذه.

ويتضمن «تاريخ الحرب العالمية الثانية» الذي صدر في بريطانيا، فصولا كاملة من تاريخ المقاومة بمختلف أساليبها، نقدم منها



تخريب..

– هنا – تلخيصا جديرا بالدراسة والتفكير فيه والاستفادة منه.

السرية المطلقة

أول ما تلاحظه على حركات المقاومة الأوروبية، في ظل الاحتلال النازي، هو السرية، والسرية المطلقة.

وبعد ذلك نلاحظ أن المقاومة تبدأ بالكراهية السلبية للعدو، ثم تتطور الى العداء النشط المنظم، ثم تبلغ ذروتها في النضال اليومي الدائب لكل مواطن ولكل فئة ولكل جماعة.

والحد الأدنى من المقاومة هو المقاومة السلبية.

وتتخذ المقاومة السلبية شكل ردود فعل فردية سلبية، أو شكل ردود فعل جماعية. وميزتها هي أنها نوع من المقاومة المأمونة العواقب والتي يستطيعها كل فرد دون أن يتعرض لخطر جسيم.

وفي أوروبا، وفي بداية الغزو النازي، اتخذت المقاومة السلبية عدة أشكال منها ابطاء الموظفين عمدا في أداء مهام وظائفهم، ووقوع المهندسين والعمال عمداً في أخطاء وعيوب أثناء عملية الانتاج وبدون أن يصل الأمر الى حد التخريب، والتكاسل والبلادة أو الحماس الأجوف الزائد على الحد، أو مجرد الغياب عن العمل، أو الامتناع عن سماع دعايات العدو.

وإلى جانب المقاومة السلبية، توجد المقاومة النشيطة، أي المقاومة باستخدام جميع الأسلحة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والنفسية.

ومن أساليب المقاومة النشيطة التي عرفتها أوروبا في ظل الاحتلال النازي، توزيع المنشورات والصحف السرية، والاستماع الى الاذاعات المعادية للعدو، ونشر كلمة «المقاومة» وضرورتها بين الناس، وتجميع المعلومات عن تحركات العدو وأعماله، ومساعدة الفدائيين الذين يتسللون الى الأراضي المحتلة للقيام بعمليات التخريب والغارات المسلحة.

ولقد دلت تجربة المقاومة في أوروبا المحتلة على أن رجل المقاومة هو مثل الطيار: فكما أن الطيار يحتاج الى مساعدات أرضية متعددة، فان رجل المقاومة يحتاج الى كثيرين يساعدونه من وراء خط المقاومة.

على أن الهدف النهائي لجميع أشكال المقاومة السلبية والنشيطة كان دائما في أوروبا المحتلة هو الوصول الى مرحلة المقاومة المسلحة الشعبية واعداد الأرض لعمليات القوات المسلحة النظامية في جهودها لانزال الهزيمة العسكرية النهائية بالعدو.

تجارب هامة

وإذا استعرضنا على هذا الأساس العام أهم سمات حركات المقاومة في مختلف البلاد

الأوروبية فاننا نلاحظ:

في هولندا:

كانت المقاومة في البداية مقاومة فئات اجتماعية مختلفة: رجال الدين – الطلبة – الأطباء – اليهود – الشيوعيون. واتخذت المقاومة أساسا شكل الاضرابات العمالية، والمقاطعة الادارية، وأعمال المخابرات، وتوزيع المنشورات والصحف السرية، وذلك لصعوبة القيام بأعمال مقاومة مسلحة واسعة النطاق نتيجة ان هولندا بلد سهلي، والمواصلات بها عديدة، وكانت أبرز قوى المقاومة تتركز في صفوف الطبقة العاملة.

TRAVAILLEURS

sabotez la production de guerre allemande

Hitler après avoir fait travailler le peuple allemand depuis 8 ans, à un rythme épuisant pour sa guerre, n'a pu former assez d'armes pour la victoire.

Il compte maintenant sur le travail de l'Europe asservie pour soulager son peuple, reculer la défaite.

Chaque pièce sabotée, chaque minute de travail perdue sauvera une vie humaine

Suivez l'exemple de la zone occupée, de la Belgique, de la Hollande, des hommes au cœur libre. La production de votre usine que Vichy laisse partir pour l'Allemagne, SABOTEZ-LA, RALENTISSEZ-LA.

UN DÉFAUT DANS LA MACHINE-OUTIL. UN ÉCROU DESSÉRÉ. UN TROU D'ÉPINGLE DANS LA BOITE DE CONSERVE. HATERA LA DÉFAITE ALLEMANDE.

من المنشورات السرية الفرنسية الموجّهة الى العمال لتخريب وتعويق الانتاج

في فرنسا:

كانت شبكة المقاومة معقدة شديدة التعقيد بسبب وجود منطقة غير محتلة عرفت باسم منطقة حكومة فيشي الحرة، وكانت حكومة هذه المنطقة تساوم ضد المقاومة مستغلة بذلك سمعة الماريشال بيتان، أحد أبطال الحرب العالمية الأولى، كما كانت تستغل الكراهية التقليدية للفرنسيين تجاه الانجليز.

لكن معظم الفرنسيين كانوا غاضبين على الجمهورية الثالثة، واستجابوا على الفور لنداء الجنرال ديجول بالمقاومة الذي أذاعه من لندن في ١٨ يونيو (حزيران) ١٩٤٠ واشتركت في حركة المقاومة الفرنسية أحزاب سياسية مختلفة: ديجوليون، وشيوعيون، وراديكاليون، واشتراكيون، وجمهوريون ومستقلون.

وكان من أبرز القوى المشتركة في المقاومة الطلبة الذين نظموا الاضرابات المتتالية، والعمال وخاصة عمال السكك الحديدية الذين شنوا على العدو حربا خفيفة عرفت بعد ذلك باسم «حرب البيانات» حينما كانوا يقومون بوضع بيانات خاطئة على الصناديق الألمانية المشحونة بالقطار، فأحدثوا بلبلة وعرقلة ملموسة للمجهود الحربي الألماني. كما كانت فرق المقاومة المختلفة تقوم باغتيال الجنود الألمان واعدام من يتعاون معهم.

في بلجيكا:

أثرت سرعة الهزيمة العسكرية في مايو (أيار) ١٩٤٠ على البلجيكيين، فأصابت الكثيرين منهم بالبلبلة، كما تظاهر العدو بالتصرف المهذب تجاه الأهالي، ونجح في التأثير على عقول الكثيرين بزعمه أنه المنتصر.

وساعد على ذلك أيضا وجود خلافات قومية بين البلجيكيين أنفسهم، وبقاء الملك ليوبولد في البلاد وتعاونه مع الألمان.

ومع هذا، فقد استطاع الشيوعيون البلجيكيون أن يكونوا جيش تحرير من مجموعة صغيرة كرست نفسها للمقاومة، واستيقظت في قلوب البلجيكيين روح التقاليد الوطنية العميقة الجذور، ودخلت قوى وطنية عديدة في ميدان المقاومة، تخرب وتصدر الصحافة السرية وتقوم بأعمال المخابرات ضد العدو، كما ظهرت مقاومة مدنية في الجامعات والبيوت.

ونظراً لكل هذه الظروف، لم تنجح جميع الجهود التي بذلت في توحيد فرق ومجموعات المقاومة في بلجيكا حتى انتهاء الحرب.



شيوخ وشبان، معاً، لمقاومة الألمان



فلاحان يلغمان خط سكة الحديد.

في الدانمرك:

لم تعرف الدانمرك مقاومة للغزو النازي، إلا في شكل أعمال محدودة من أعمال المخابرات، وذلك بسبب نجاح الألمان في بلبلة الأفكار بحجج قانونية عن استقلال الدانمرك واستمرار نظامها الملكي.

في النرويج:

عرفت النرويج رئيسا للوزراء متعاملا وعميلا للألمان أصبح اسمه في التاريخ علما على كل خائن لوطنه وهو «كويسلنج» وقد قام كويسلنج هذا بضرب كل حركة مقاومة ظهرت، وبتحذير الشعب النرويجي لكي يتقبل نظام هتلر «الجديد».

ومع هذا، فقد نشأت حركة مقاومة نرويجية صغيرة وسرية جدا، ألفها - اساسا - العسكريون، وقررت أن تتجنب الدخول في أي صدام عسكري مع العدو قبل الأوان، لكنها ساعدت - سراً - الغارات التي كانت تقوم بها قوات «الكوماندو» البريطانية على مراكز العدو المتطرفة.

في تشيكوسلوفاكيا:

بدأت المقاومة عقب اتفاقية ميونيخ التي عقدت في سبتمبر (أيلول) ١٩٣٨. وتميزت بوحدة الأحزاب اليمينية والشيوعيين، تحت قيادة الرئيس بنيش الذي كان موجودا في لندن. كما تكونت حركة المقاومة من الضباط أساسا، وضمّت سياسيين ومثقفين وعمالا.

وكان أسلوب المقاومة في تشيكوسلوفاكيا هو أسلوب الاضرابات، والمنشورات والصحف السرية، واجتماعات التوعية الجماهيرية.

في ألبانيا واليونان:

اتخذت المقاومة في البانيا أسلوب التخريب، وعمليات «الأنصار» اللاجئين في الجبال.

أما في اليونان، فقد عانت المقاومة من الانقسام الشديد في الرأي العام الوطني، ومن استمرار حدة الصدام داخل صفوف المقاومة بين الاتجاهات السياسية والعقائدية المختلفة.

في يوغوسلافيا:

كانت المقاومة معقدة بسبب تعقد قضية القوميات اليوغوسلافية: العرب، والكروات، والسلافيون. والمونتجريون، والمقدونيون، وبسبب تعدد قوى الاحتلال: الألمان والايطاليون والبلغاريون والمجريون، وبسبب قيام حكومتين «مستقلتين» عميلتين في كرواتيا وصربيا - الأستاش والتشتنيك - وبسبب وقوف الفلاحين موقف سياسة الانتظار ومع هذا، فقد استطاعت حركة المقاومة، بقيادة جوزيف بروز،





ء خطوط الألمان

..يذهبون الى أعمالهم وبأيديهم «أسلحة»!

الذي أصبح معروفا باسم «تيتو» أن تنمو، وأن تخلص البلاد من الاحتلال الأجنبي.

في بولندا:

لم تضع بولندا وقتا في تنظيم المقاومة، إذ سرعان ما ظهرت فيها مقاومة تلقائية نشيطة جماعية لأن شعب بولندا قد اعتاد منذ قرون طويلة على النضال من أجل حريته، وتعتبر حركات المقاومة السرية احدى تقاليده الوطنية التليدة. ولم تكن هناك ضرورة لاستثارة أي حوافز في صفوف شعب بولندا لكي يهب للنضال عن كيانه وحريته.

وضمت المقاومة جميع الطبقات والفئات في وحدة رائعة. وساعد على النجاح ضعف المواصلات، وكثرة الغابات والمستنقعات، وانضمام المثقفين والموظفين الى حركة المقاومة، وعدم ظهور أي «كويلنج» أو خائن.

ولم تكن قوات المقاومة في أوروبا المحتلة تحمل اسما واحداً. فلقد كانت هناك حركات «الجويريللا» - وهو الاسم الذي أطلقته حركة المقاومة الاسبانية ضد غزو نابليون على نفسها. وكانت هناك فرق «البارتيزان»، أو الأنصار. وكانت هناك فرق «الماكي»، ثم كانت هناك فرق «الكوماندو».

وكانت فرق «الكوماندو» مجموعات صغيرة، لا يزيد عدد أفراد كل منها على مائة جندي نظامي، وجنودها مدربون.

وقد تميز جنود «الكوماندو» بالشجاعة، وشدة التحمل البدني، وروح المبادرة، ودقة الأحكام، والنشاط، والاعتماد على النفس، وروح الكراهية ضد العدو، والتخلص من كل خوف من الحرب أو الموت، والقدرة على العمل لساعات أطول وفي مهام أشق وبفترات راحة أقصر، مع خبرة واسعة في الاستطلاع من ملاحظة وتخف، والقدرة على الحركة فوق أي نوع من أنواع الأرض بالليل أو النهار.

وهكذا، فان حركات المقاومة، تحتل اليوم مكانة بارزة وجوهرية في تاريخ الشعوب في نضالها الدائب من أجل الدفاع عن كيانها وحريتها. وهي تمثل - على حد قول مؤرخي الحرب العالمية الثانية - أعظم مهمة يمكن أن يقوم بها المواطن والجندي، بدون روتين مكتبي، وبدون انتظار لعلاوة أو ترقية أو تبدل. والنجاح في عمليات المقاومة يعتمد فقط على النفس وعلى الذين يشاركون فيها.

وكما يقول الدكتور جان - ليون شارل، في تاريخه للمقاومة الأوروبية، فان المقاومة ضد العدوان الأجنبي هي ذروة الثورية في كل زمان ومكان. ◘

تاريخ الطوابع

تاريخ طوابع الجزائر

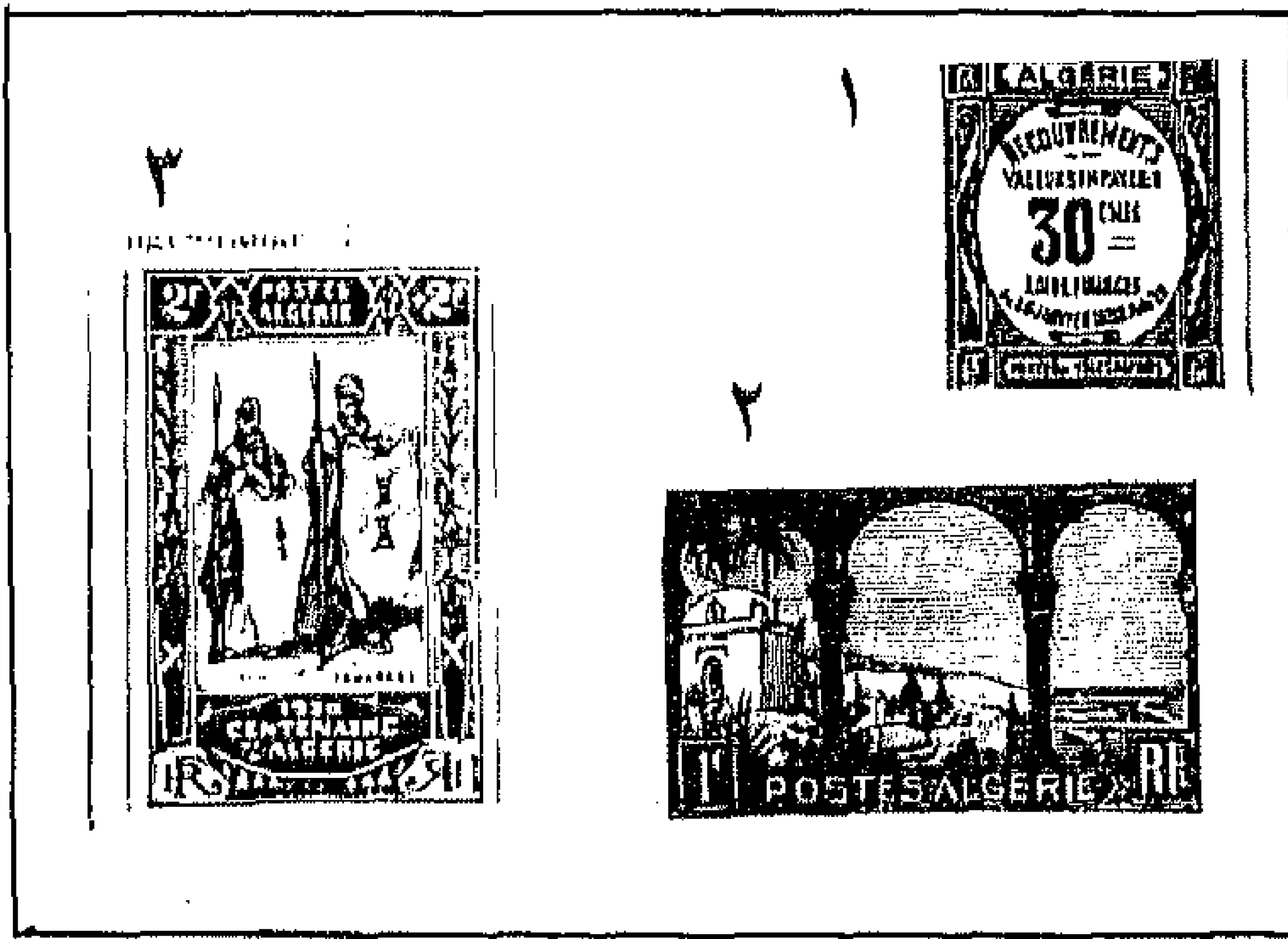
ميشال اسطفان

اجتاحت الجزائر سنة ١٨٣٠ حملة عسكرية فرنسية وانتهت إلى استسلام الباي حاكم البلاد في ٥تموز/يوليو ١٨٣٠، إلا أن المقاومة الداخلية بقيت مدة طويلة حتى استسلم أخيراً الزعيم عبدالقادر في ٢٣كانون الأول/ديسمبر سنة ١٨٤٧.

منذ ذلك التاريخ، وبالرغم من مناهضة لاحقة من الوطنيين، تمركز أوروبيون كثيرون في الجزائر.

أما الطوابع البريدية، فمنذ ظهور الطوابع الفرنسية ولغاية سنة ١٩٢٤، كانت تستعمل في الجزائر الطوابع الفرنسية بدون أدنى توشيح، إلى أن أصدرت السلطات الفرنسية بتاريخ ٨أيار/مايو سنة ١٩٢٤ أول مجموعة من الطوابع الفرنسية إصدار سنة ١٩٠٠/١٩٢٥ موشحة بكلمة: «ALGERIE»، وكانت مؤلفة من ٣٣طابعاً من فئة ½سنتيم إلى ٥فرنكات، حدث من بينها أربعة أخطاء بتوشيح مكرر أو مقلوب، أصبح قيمة كل منها ما بين ٢٥و١٥٠ جنيهاً استرلينياً.

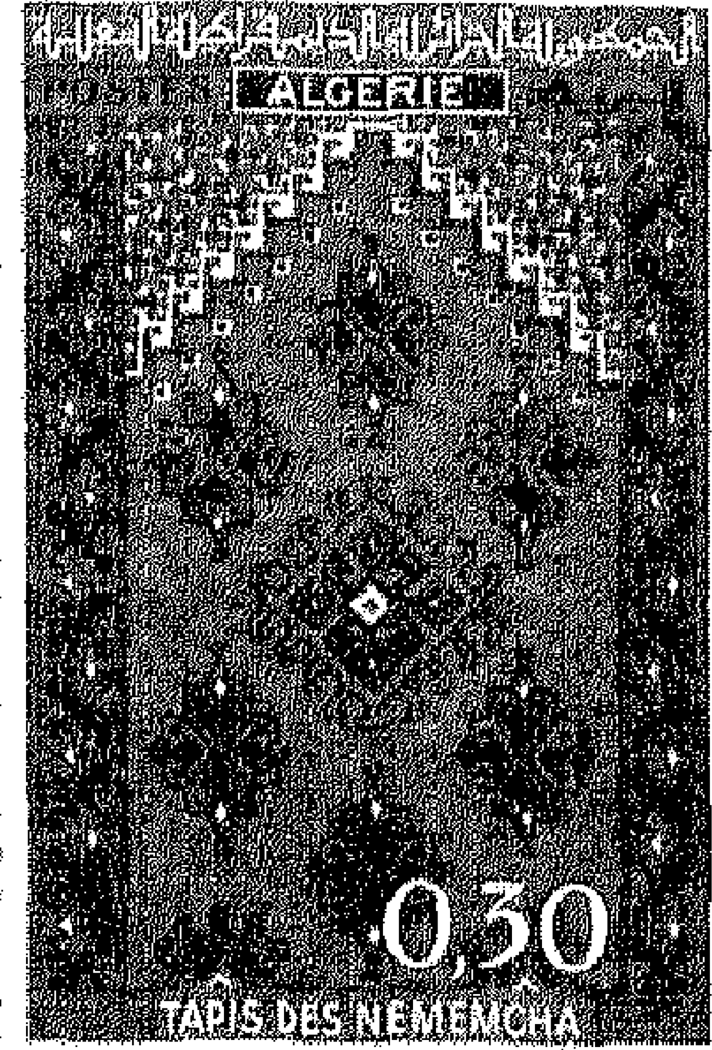
وفي أول أيار/مايو سنة ١٩٢٦ صدرت مجموعة للأجور المستحقة مؤلفة من ١١طابعاً من فئة ٥سنتيم إلى ٣فرنكات، والمعروف أن طوابع الأجور المستحقة تستعمل عادة على الرسائل الناقصة الأجرة لكي يُحصَّل النقص من المرسل إليه. لكن في التاريخ ذاته، أصدرت السلطات



مجموعة مؤلفة من ٦طوابع من فئة سنتيم واحد إلى ٢فرنك، وخُصِّصت لتغطية الأجور المستحقة المرفوضة الأداء من قبل المرسل إليه. وهكذا كانت هذه الطوابع تستعمل على تلك الرسائل ثم تحصَّل القيمة من المرسِل، عندما ترجع الرسالة إليه (صورة١).

وفي حزيران/يونيو سنة ١٩٢٦، صدرت مجموعة مصورة (صورة نموذج واحد٢) مؤلفة من ٣٦طابعاً من سنتيم واحد إلى ٢٠فرنكاً. قيمتها اليوم نحو ٣٥جنيهاً استرلينياً.

وهناك مجموعة أخرى كبيرة مؤلفة من ٣٣طابعاً مُصوراً صدرت سنة ١٩٣٦ (صورة نموذج واحد٣)، من فئة سنتيم واحد إلى ٢٠فرنكاً. وهكذا درجت الحال في الاصدارات المختلفة للمناسبات الوطنية حيناً والعالمية أحياناً، وخصوصاً المناسبات التابعة للبلد المستعمر، فصدرت مثلاً مجموعة لمعرض باريس الدولي سنة ١٩٣٧، وطابع للذكرى العشرين ليوم الهدنة سنة ١٩٣٨، ولمعرض نيويورك سنة ١٩٣٩،



سجاد وطني.



مناسبة مؤتمر الأطباء العرب في الجزائر سنة ١٩٦٣.



الدربكة والدف
(رسم محمد رسيم)

وللمارشال بيتان، وطابع لكل من الذكرى السابعة والثامنة لدعوة ديغول لحمل السلاح سنة ١٩٤٧و١٩٤٨، موشحاً بصليب اللورين المعروف والذكرى ١٦٠٠ لمولد القديس أوغسطينوس، وذكرى المارشال لوكلرك، الخ. وكان عدد الطوابع التي صدرت أثناء الإحتلال الفرنسي ٤٣٠طابعاً كان آخرها طابع من فئة ٢٠فرنك + ٥فرنكات لصندوق مؤسسة المارشال دي لاتر، صدر في ٢٠تموز/يوليو سنة ١٩٥٨. ومنذ ٢٢تموز/يوليو سنة ١٩٥٨ ولغاية حصول البلاد على استقلالها، استعملت في الجزائر الطوابع السارية في فرنسا أنذاك، وذلك بسبب الثورة المشهورة التي اندلعت منذ أول تشرين الثاني/نوفمبر سنة ١٩٥٤، ضد السلطات الفرنسية المستعمرة، والتي تدخل من أجلها الجنرال ديغول وتوصل إلى وقف إطلاق النار في ١٨آذار/مارس سنة ١٩٦٢، وكان ذلك بعد رحيل جميع الفرنسيين المقيمين والذي ألحق باستفتاء شعب الجزائر، الذي أتى لصالح الإستقلال، وتثبت بتاريخ ٣تموز/يوليو سنة ١٩٦٢.

وتجدر الاشارة هنا، أن منظمة الجيش السري الفرنسي أمرت بتوشيح ١٥طابعاً فرنسياً بثلاثة أسطر «ALGERIE/ FRANCAISE /13MAI 1958» ووضعت في التداول في أوران والبلدان المجاورة في شهر شباط/فبراير سنة ١٩٦٢. وقاومت بذلك الإستقلال الجزائري الذي كان في حينه مسيطراً أيضاً في أوران. وكانت هذه الطوابع تباع بضعف قيمتها، وأما الفرق فكان يعود لصندوق المنظمة. وهناك توشيحات مماثلة ظهرت بين الفترة ١٩٦١و١٩٦٢، ولكن ليس هنالك إثبات أنها استعملت فعلاً في تلك المنطقة، بعكس الـ ١٤ طابعاً من أصل الـ ١٥المذكورة آنفاً التي استعملت فعلاً على المراسلات البريدية.

تاريخ الطوابع في عهد الاستقلال:

صدرت الأوامر في ٢٧حزيران/يونيو سنة ١٩٦٢ إلى جميع مديري البريد في الجزائر، بأن يوشحوا خمسة طوابع بريد وخمسة أخرى للأجور المستحقة من الطوابع الفرنسية بحرفي «E.A.» أي «ETAT ALGERIEN»، وتشطيب كلمتي: «REPUBLIQUE FRANÇAISE»، وقد تم ذلك بواسطة ختم يدوي من المطاط في مكاتب كثيرة جداً من البلاد، وقد لوحظ أكثر من ٢٥٠نوعاً مختلفاً من هذا التوشيح، وقليل من المكاتب أظهر التوشيح بكامل حروفه: «ETAT ALGERIEN»، وقد نُفذت الأوامر في أمكنة، باستعمال القلم الجاف بدلاً من الختم، وقد حُدِّدت مدة استعمال هذه التواشيح بشكليه الآنفي الذكر لغاية ٣١تشرين

الأول/أكتوبر سنة ١٩٦٢. صدرت المجموعة البريدية في مدينة الجزائر، وصدرت مجموعة الأجور المستحقة في مدينة تيزي أوزو.

قلنا أنه صدرت أول مجموعة فرنسية في عهد الاستقلال موشحة كما ذكرنا أعلاه بحرفي «E.A.» توشيح باليد مؤلفة من خمسة طوابع فقط، قيمتها اليوم حوالي ٢٠جنيها استرلينياً، وكان ذلك في ٤تموز/يوليو سنة ١٩٦٢، وفي التاريخ ذاته صدرت مجموعة للأجور المستحقة الفرنسية، موشحة أيضاً كسابقتها مؤلفة من خمسة طوابع، ولكن قيمتها اليوم لا تتعدى السبعة جنيهات استرلينية.

وفي شهر آب/أغسطس سنة ١٩٦٢ أعيد توشيح الطوابع الفرنسية ذاتها بحرفي «E.A.» كالسابق، ولكن عن طريق المطبعة وصدرت في مدينة الجزائر قيمتها اليوم لا تزيد على خمس جنيهات استرلينية، وبالتاريخ ذاته أعيد توشيح مجموعة الأجور المستحقة الفرنسية بالتوشيح ذاته كالسابق، لكن عن طريق المطبعة وصدرت في مدينة تيزي أوزو، قيمتها اليوم حوالي ٢٠جنيهاً استرلينياً.

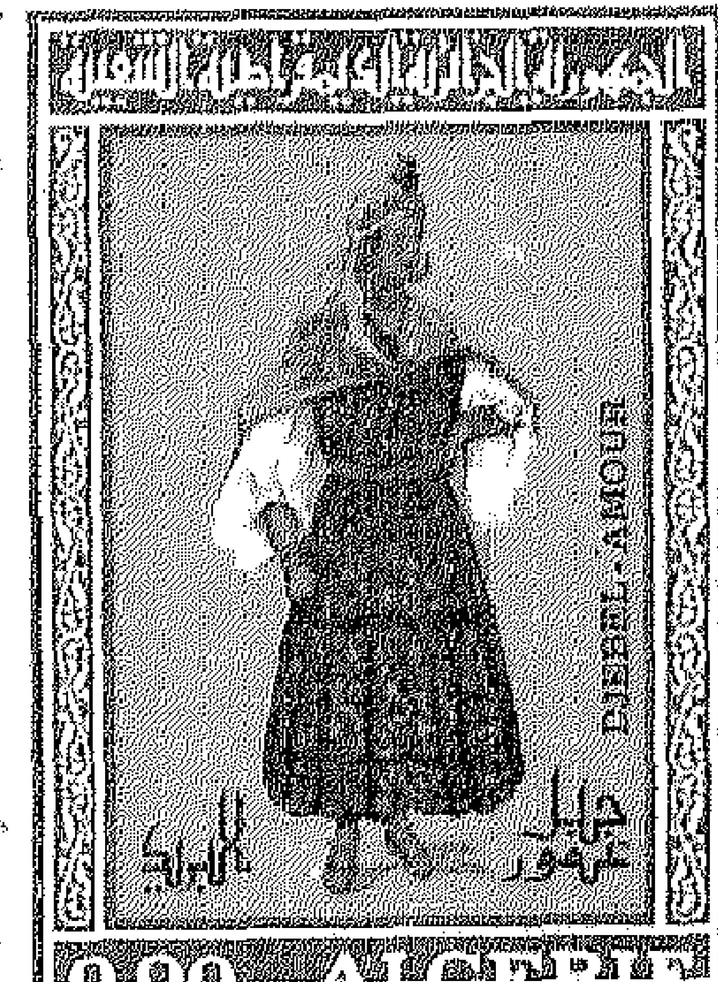
وهناك طابع واحد طبع محلياً وصدر بتاريخ أول تشرين الثاني/نوفمبر سنة ١٩٦٢، خصص ريعه لصندوق أيتام الحرب، وهو من فئة فرنك واحد كرسم للبريد + ٩فرنكات للصندوق، وقد أصبح قيمته اليوم يزيد على ٦٠جنيهاً استرلينياً.

ثم درجت المجموعات العادية والتذكارية للمناسبات الوطنية والعالمية، طبعت في المطابع الأوروبية العالية المستوى، وحملت رسوما فنية حديثة تعطي لمحات وألوانا شرقية جذابة كما في بعض الصور التالية:



لمناسبة حماية الأم والطفل





أزياء جزائرية للأجيال والنساء.



■ ليست الحياة كمالاً ولكنها سير نحو الكمال، والتعلق بدنيا الكمال عند المثاليين مراهقة واحترام الواقع عند الواقعيين قناعة.

حكمة ألمانية

مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية

تصدر عن جامعة الكويت

رئيس التحرير
الدكتور عبدالله الغنيم

مدير التحرير
عبدالعزيز السيد احمد

صدر العدد الاول في كانون ثاني (يناير) ١٩٧٥
تصل اعدادها الى ايدي نحو ٠٠٠ر١٠٠ قاريء

يحتوي كل عدد على حوالي ٢٥٠ صفحة من القطع الكبير تشتمل على :

- مجموعة من الابحاث تعالج الشؤون المختلفة للمنطقة بأقلام عدد من كبار الكتاب المتخصصين في هذه الشؤون .
- عدد من المراجعات لطائفة من أهم الكتب التي تبحث في المناحي المختلفة للمنطقة .
- ابواب ثابتة : تقارير — وثائق — يوميات — ببليوجرافيا
- ملخصات للابحاث باللغة الانجليزية

ثمن العدد : ٤٠٠ فلسا كويتيا أو ما يعادلها في الخارج .

الاشتراكات : للافراد سنويا ديناران كويتيان في الكويت ، ١٥ دولارا أمريكيا في الخارج « بالبريد الجوي » .

للشركات والمؤسسات والدوائر الرسمية : ١٢ دينارا كويتيا في الكويت ، ٥٠ دولارا امريكيا في الخارج (بالبريد الجوي) .

العنوان : جامعة الكويت — كلية الاداب والتربية — الشويخ — دولة الكويت

ص.ب : ١٧٠٧٣ (الخالدية)

هاتف : ٨١٦٨٠٧—٨١٦٧٩٩—٨١٦٨٢٤

جميع المراسلات توجه باسم رئيس التحرير



رسائل الماجستير والدكتوراه

استجابة لرغبة المجلة في تعريف العرب بتاريخهم، عبر دراسات علمية ومسؤولة، واستجابة لدعوتها الأساتذة والمؤرخين وطلاب الدراسات العليا لنشر موجز عن رسائلهم الجامعية، فقد وصلنا من الأخ عبدالحسن عبدالأمير محمد الشمري عرض موجز لرسالته الماجستير «التحف المعدنية المغولية»، تطلعنا على جانب مثير ومهم لم يشمل بدراسة وافية بعد. ونحن في فتحنا هذا الباب نتمنى ان نزيد من اطلاع قرائنا على نتاج باحثينا الشباب مؤملين سد ثغرة في مكتبتنا العربية وفهارسها المعتمدة، لما يفيد الجميع.

التحف المعدنية المغولية دراسة أثرية فنية

عبدالحسين عبدالأمير محمد الشمري.

ماجستير من كلية الآثار - جامعة القاهرة ١٩٧٦ - باشراف د. سعاد ماهر محمد

لمحة موجزة عن الموضوع:

تميّزت الأمة العربية الإسلامية عن بقية أمم الدنيا بما لها من تراث حضاري تفاخر به بقية الأمم. وتعد التحف المعدنية ميدان من الميادين الهامة في الفنون العربية الإسلامية التي لم تدرس دراسة كاملة، اللهم إلاّ تلك الدراسة التي ضمنها آرثر بوب (Arthur Popo) في موسوعته (A Survey of Persian Art). هذا فضلاً عن أن الكثير من التحف المعدنية التي تزخر بها متاحف العالم لم تحظ حتى الآن بأي نوع من الدراسة الوافية، إلاّ أن بعضاً من التحف المعدنية في شرق العالم الإسلامي والتي تعود لفترات معينة قد نالت اهتمام بعض الباحثين فقاموا بإعداد دراسات عنها.

لذلك وجدت من المفيد أن أتابع هذه الدراسة لأكشف قسماً منها هي: التحف المعدنية الإسلامية المصنوعة خلال العصر الأيلخاني في العراق وإيران والتي سبق القول أنها كثيرة ولم تدرس دراسة علمية جادة شاملة.

لقد وقع اختياري على هذا الموضوع بعد أن لمست أهميته الأثرية والفنية والتاريخية ومن ثم اختمرت في ذهني فكرة إعداد بحث يؤدي الغرض المطلوب، كما دفعتني إلى الكتابة فيه جدّة الموضوع وطرافته، وخلو المكتبة العربية من كتاب يبحث فيه حتى أن أمهات المراجع التي كتبها العلماء والخبراء في الفن الإسلامي تكاد تكون شاغرة في هذا المجال الهام.

لقد تمخضت الدراسة المذكورة عن حصر (ست وثلاثين) قطعة معدنية صنعت في تلك الفترة، منها (تسع عشرة) قطعة لم تدرس من قبل كما أن (ست عشرة قطعة) من هذه التحف تنشر لأول مرة.

لقد اشتملت الرسالة على مجلدين، احتوى المجلد الأول على مقدمة تاريخية وثلاثة أبواب مع وصف عام للتحف وخاتمة وقائمة للمراجع والرسوم والتخطيطات اليدوية. واحتوى المجلد الثاني الصور الفوتوغرافية.

تضمّنت المقدمة بعض جوانب العراق وإيران التاريخية خلال العهد المغولي الأيلخاني للتعرف

علـى تاريـخ المنطقة من النـاحية السيـاسيـة والإقتصادية والفنية.

وتضمّن الباب الأول التحف المعدنية المغولية الأيلخانية، وقد قسمته إلى فصلين:

الأول: التحف المعدنية المصنوعة قبل العصر الأيلخاني، وفي الفصل الثـاني قمت بدراسـة تفصيليـة (لخمس وثـلاثـين) قطعـة معـدنيـة إيلخانية مؤرخة وغير مؤرخة.

أما الباب الثاني: فقد خصصتـه لدراسـة الطرق الصناعية، وتضمن ثلاثة فصول: ففي الفصـل الأول تعرضت لطـريقة الطـرق، وفي الثـاني تكلمت عن طريقـة الحز، وفي الثـالث تحدثت عن طريقـة هامـة في صناعـة التحف المعدنية هي التطبيق.

أمـا البـاب الثـالث، فيضم بحثـا مفصـلاً للزخارف المنقوشة على تلك التحف المعدنية، وقد اشتمـل على أربعـة فصول، تتنـاول العنـاصر الزخرفية المختلفة، الفصل الأول منها يتنـاول الرسوم الأدمية والحيوانيـة، والفصل الثـاني يتناول الزخارف النباتية، والفصل الثالث يتناول الزخارف الهنـدسية والفصـل الرابـع والأخير يتناول الزخارف الكتابية.

وأفـردت بعد هـذا البـاب وصفـا تفصيليا للتحف الواردة قيد البحث حيث تطـرقت إلى أماكن تواجدها ومقاساتهـا ووصفها من حيث الشكل العام وطبيعة الزخارف وقراءة النصوص الكتابية، واستخدام الدراسة المقارنة لرد التحف المعدنية غير المؤرخة إلى أقرب عهد تعود إليه.

هذا وتضمّن البحث في نهايته على خـاتمة حَوت أهم النتائج التي توصلت إليها من خلال دراستي ومنها:

أولاً: عـلى الرغم ممـا امتازت بـه الفتـرة الأيلخانية في بداية عهـدها من ظلم وإرهـاب وتخريب للحضـارة العربية والإسلامية، لكننا في الوقت نفسه نجد الايلخانيـين يشجعون الفن والفنانين وبصـورة خاصـة بعد أن استقـرت دولتهم، فقد طغت المعارف الإسلامية العربية والفارسية، ووفد على البلاط في بغداد وتبـريز ومراغة وسلطانية رجـال الفن والحرفيـين من مختلف الجنسيات ومن شتىٰ الأقاليم، وإن ما وصل إلينا من آثار معمارية وتحف منقولة يشار إليها بالبنان، فمن كل ما تقدم تستطيع الكشف عن وجود فترة من الإنتعاش الفني في العراق وإيـران خـلال ذلـك العهـد (٦٥٦ - ٧٣٦هـ /١٢٥٨ - ١٣٣٦م)، في الـوقت الذي أطبقت المراجع التاريخية وأقلام الباحثين عن ذلك.

ثـانياً: إن التحف المعـدنيـة، تعـد وثـائق تاريخية هامة حيث أنها تمدنا بمعلومات هامة عن الفترة الأيلخانية، وكذلك تزودنا بمعلومات فنية هامة في ميدان الآثار والفنون الإسلامية في العراق وإيران خـلال العهد الأيلخـاني وذلك بدراسة ما عليها من نقوش كتابيـة وزخرفيـة تذكر أسماء وألقاب السلاطين والملوك والأمراء والولاة وسنوات حكمهم وكذلك تدلنا على المدن والأماكن الصناعية التي كانت مزدهرة في تلك الفترة، كما أنها تشير إلى الناحية الإقتصادية من خـلال استعمال معـادن الذهب والفضـة والنحاس والحديد وغيرهـا. كما ويمكننـا من خلالها التوصل إلى المستوى العلمي للفيزيـاء والكيمياء وذلك من خـلال التحليل المختبـري للمعدن المصنوع في تلك الفترة وطرق التركيب والخلط - كالتنزيـل في المعدن، وهـو استخدام خيوط للتطبيق على الرغم من أن أسلوبها في التطبيق يعتمد على وحـدات متعاقبـة كتزيـين الفولاذ بخطوط متموجة، كالتي تميز السيوف الدمشقية، أو استعمال مادة النيلو - وهي مادة مكوّنة من خليط فاحم اللون تملأ به خطـوط الرسوم المنقوشة على الصفائح المعدنية، والطلاء بالميناء والخلط، كاستخلاص البرونز من النحاس الأحمر والقصدير والنحاس الأصفر وذلك بخلط النحاس الأحمر والزنك... إلـخ. من كل ذلـك وجدت أن الطرق الصناعية في تلك الفترة كانت مختلفة ومعقدة، ذلك مما يدل على أن أدواتهم كانت كثيرة ومتنوعة، كما تثبت تمرسهم في علم الكيميـاء وفهمهـم التـام لخـواص المعـادن والفلزات.

ثالثاً: إن التحف المعدنية التي ظهـرت في إيران خلال الفترة الإسلامية الأولى كانت تطابق تمـامـا التقليـد السـاسـاني، والإقتبـاس عن الزخارف الساسانية وطرق الصنـاعة واضـح عليها وخاصة الأواني الفضية التي كانت كثيرا ما ينسب بعضها خطأ إلى العصر الساساني.

رابعاً: بدأت مرحلة جديدة في تطور صناعة التحف المعدنية وهي الإبتعاد شيئاً فشيئاً عن التقليد القديم، كما ونرى عليها ميلاً إلى الروح العربية الإسلامية، حيث بدىء في استخدام الكتابة العربية والزخرفة العربية (الأرابسك).

خامساً: ظهور مدرستان رئيسيتان لصناعة التحف المعدنية في العصر السلجوقي، مدرسة تنتج القطع البرونزية المصبوبة والمحفورة، والأخرى تنتج القطع المصنوعة من النحاس الأصفر المطبق بالنحاس الأحمر والفضة وأحيانا نادرة بالذهب.

سادساً: ومع ظهور الايلخانيين، حدث تغير تدريجي في إنتاج التحف المعدنية وأصبحت حياة البلاط متألقة وباهرة، واستبدل صغار الحرفيين النحاس الأحمر بالنحاس الأصفر المطبق بالذهب والفضة، حيث أخفق النحاس الأحمر في إشباع ذوق المغول الذي يميل إلى الفخفخة.

سابعاً: كان شك لدي بعض الباحثين في العلاقة والنفوذ المتبادل بين مدرسة الموصل في العراق ومدرسة إيران في إنتاج التحف المعدنية خلال القرن السابع الهجري (١٣م) من حيث، أي من المدرستين استعارت من الأخرى الأساليب الفنية على نطاق واسع؟.

وقد تبينّ من دراستي للتحف المصنوعة في هذه الفترة، بأن التحف التي تعود للفترة المبكرة للتسلل المغولي من الصعب أحيانا تمييزها عن التحف الموصلية المتأخرة، ولكن خلال القرن السابع الهجري (١٣م) يطل الخط الفاصل بين القطع الموصلية العراقية وبين القطع الإيرانية،فان سقوط العراق أو بالأحرى سقوط الموصل أمام جحافل المغول، شتت الفنانين الموصليين المشهورين الذين هاجروا إلى الأقطار المجاورة، ولعل بعض الحرفيين قد نقلهم المغول إلى عاصمتهم، وأن الأساليب العراقية والإيرانية بدأت تمتزج مع بعضها، وليس سبب ذلك هو أن الفنانين الفرس رحلوا في اتجاه الجنوب قبل الغزو المغولي، بل لأن المغول أنفسهم من مكان حكمهم استدعوا الفنانين من كل ممتلكاتهم ليعملوا في خدمتهم.

ثامناً: لا بد لي أن أشير إلى الخطأ الذي وقع فيه بعض الباحثين في قراءة تاريخ بعض التحف المعدنية الأيلخانية وقمت بتصحيحها.

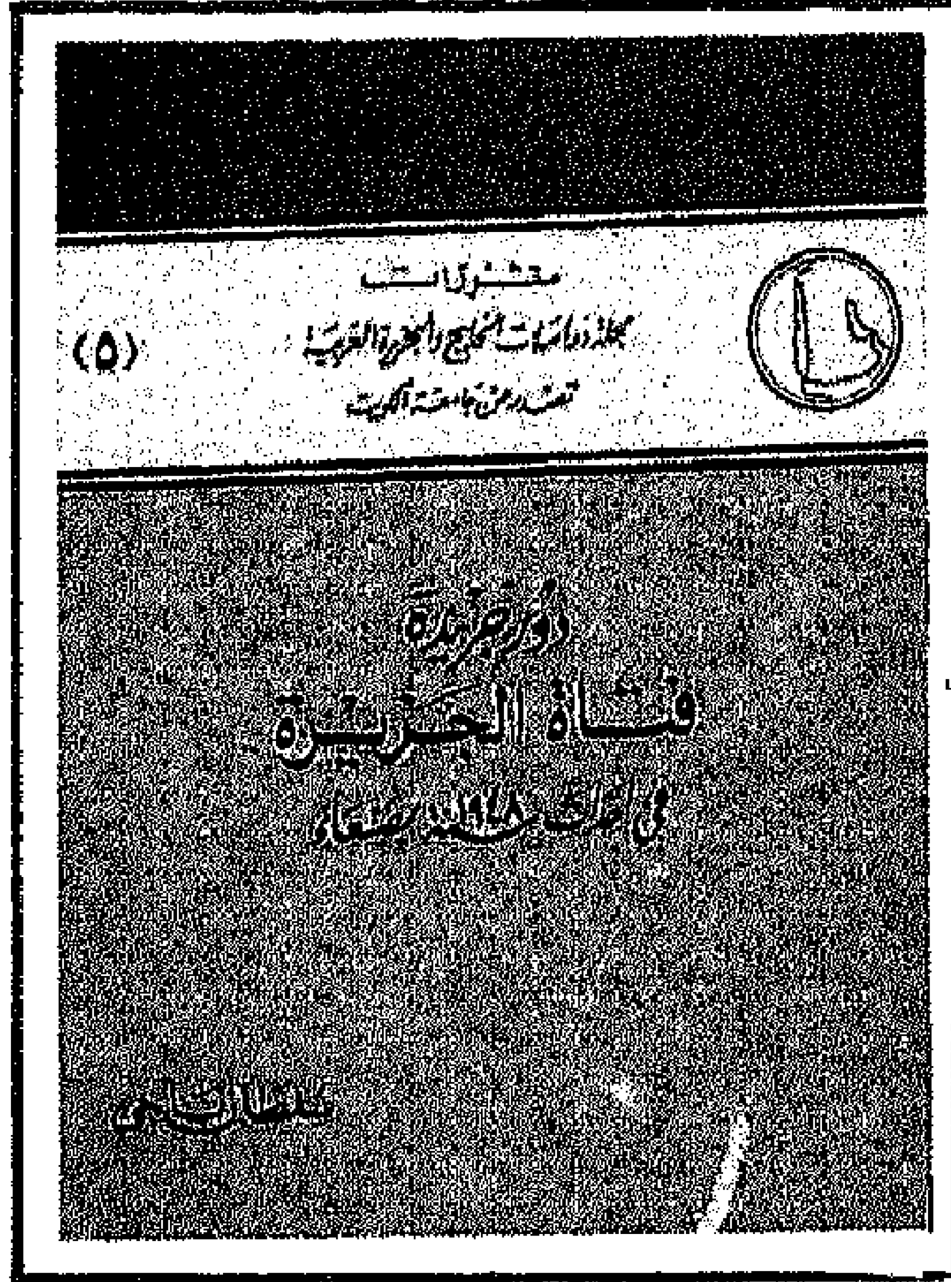
تاسعاً: قمت بتعريب كلمة «التكفيت»، الفارسية، التي كانت مستعملة ولا تزال تستعمل من قبل بعض الباحثين إلى كلمة «التطبيق» العربية التي كانت مستعملة في عصر العباسيين، وأن المقصود بهاتين الكلمتين، هو معنى واحد، وهو زخرفة المعدن الأصلي بمعدن آخر أغلى منه قيمة، ويختلف عنه في اللون، كتطبيق النحاس بالذهب أو الفضة أو بكلا المعدنين، أو تطبيق البرونز بالفضة أو النحاس الأحمر بالنحاس الأصفر وبالعكس.

عاشراً: استطعت أن أصحح بعض الآراء الخاطئة، والتي كونها بعض الباحثين بشأن تطبيق التحف المعدنية الأيلخانية، ومن تلك ما أشار إليه أحد الباحثين وهو الأستاذ هراري بقوله: أن النفوذ المغولي كان سبباً في التوقف التدريجي بالنسبة للتطبيق، كما ذكر باحث آخر وهو الأستاذ أرنست كونل: بأن التطبيق أصبح عابراً أو معدوماً في هذا العصر. ولكن ماذا يعني هؤلاء الباحثون بعد أن وجدنا على أغلب التحف المعدنية الأيلخانية تطبيقاً غزيراً بالذهب والفضة والنحاس.

وقد فندت تلك الآراء معتمداً في ذلك على الأمثلة التي وصلت إلينا من ذلك العصر والتي قمت بدراستها في هذا البحث.

أما بالنسبة للرسوم والتخطيطات اليدوية التي تضمنها المجلد الأول فقد بلغت مائة وخمسة عشر رسما، منها مائة وأحد عشر رسما ينشر لأول مرة، وقد جاءت الرسوم متنوعة وشاملة ودقيقة لكي تؤدي الغاية المرجوة منها، فبعض الرسوم كانت توضيحية، وكان البعض الآخر رسوما تحليلية وتفريغا للعناصر والوحدات الزخرفية كرسوم التصاوير الآدمية والحيوانية والزخارف النباتية والزخارف الهندسية، كما شملت تحليل بعض النصوص الكتابية وتفريغ حروفها.

أما المجلد الثاني من الرسالة، فقد تضمن سبعاً وثلاثين لوحة فوتوغرافية صورت من جميع الجهات كل قطعة على انفراد، منها تسع لوحات تنشر لأول مرة. ◘



دور جريدة فتاة الجزيرة

سلطان ناجي

تؤرخ هذه الدراسة الوثائقية لجانب من جوانب نشاط حزب الأحرار اليمنيين في عدن خلال الفترة (١٩٤٤ – ١٩٤٨) وهو جانب التهيئة والتوعية والدعاية والتحريض لثورة ١٩٤٨. وهو موضوع لم يسبق أن تطرق إليه أحد من قبل ويمكن تبرير كثرة المقتبسات – شبه الكاملة في بعض الأحيان – من نصوص هذه الأدبيات في متن البحث بأنه من أجل أن يستطيع أن الرجوع إليها من يشاء من الباحثين في أي جانب من الجوانب التي تطرقت إليها ويقتبس منها ما يريد وذلك لأن الرجوع إليها في مضامينها الأصلية الآن يكاد يكون مستحيلاً بسبب عدم وجود أرشيف لصحافة تلك الأيام في المكتبات العامة أو الخاصة ثم لأن تلك الصحف ذاتها قد توقفت عن الصدور منذ مدة.

نزوح طلائع الأحرار إلى عدن

بعد عدة أشهر من فشل ثورة ١٩٤٨ كتب الأستاذ محمد علي لقمان المحامي، رئيس تحرير صحيفة «فتاة الجزيرة» الأسبوعية التي احتضنت قضية الأحرار منذ البداية سلسلة مقالات (٧ حلقات) بعنوان «قصة الثورة في اليمن» ونقتطف هنا وصفه لوصول أول طلائع الأحرار إلى عدن، وهو المطيع دماج، وذلك يوم ١٤ أبريل ١٩٤٤م.

«هذا يوم ستذكره فتاة الجزيرة بخير كثير لأنه مطلع شعور اليمن بضرورة السير في موكب الحضارة الإنسانية. وصل في هذا اليوم المطيع دماج وكان حوالي الظهر في بيتي في حافة حسين، لم أسمع به من قبل ولم أعرفه ولم يأت إلي بتوصية من صديق.

وكان يلبس سترة بيضاء قصيرة وإزاراً يمانياً إلى الركبتين، وعلى رأسه عمامة وحذاء من الجلد الذي يلبسه البدوي عادة في الصحراء. وعندما وصل كان متحمساً، كثير الألم، بل كانت كلماته عنيفة حزينة. قال: جئنا إلى فتاة الجزيرة... نحن شعب مظلوم ونحن شعب ما لنا حق ولا حرية.

وبهرتني صراحة الشكوى... وسيعذرني القارىء إذا علم أنني إستمعت إليه دون أن أبدي رأياً. وهل تستطيع أيها الأخ أن تشرح لنا هذه المظالم؟ بلى كل يماني على وجه الأرض يستطيع

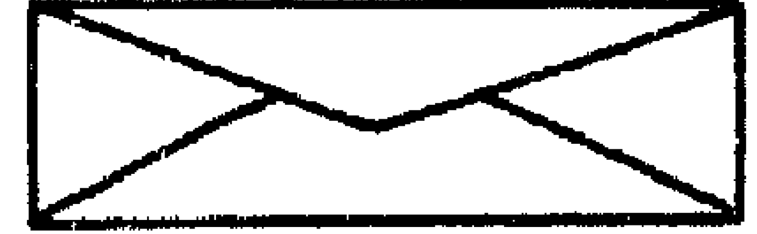
ذلك. ما أسهل شرح الظلم في اليمن إنني ضيق بالحالة التي وصلنا إليها في اليمن. إن الذي أغراني على السفر هو ما قرأت في صحيفتكم عن اليمن..

وأخذ المطيع دماج يشرح سوء الحال في اليمن.... وسألته إن كان يستطيع أن يكتب هذه الآلام باسمه الصريح. وكان الإيجاب من المطيع دماج. وظهرت فتاة الجزيرة تحوي مقالاً للمطيع دماج... لم يكن هذا المقال سهلاً كما يبدو للقارىء. أن الذي يعرف اليمن يدرك مدى هذا التصريح في جريدة سيارة باسم صريح، لصاحبه أقارب في اليمن نفسه.

ثم تناولت المقالات النقدية التي بدأت تظهر على صفحات «فتاة الجزيرة» وأخذت تتقاطر على عدن قوافل الأحرار.

إلا أنه ما كادت مثل هذه المقالات تظهر حتى انبرى المقربون إلى الحكومة الإمامية يدافعون عنها. وقد أفسحت «فتاة الجزيرة» المجال لأنصار الحكم الإمامي في أن يردوا على نقاد الحكم الامامي. إن الدور الذي لعبته جريدة «فتاة الجزيرة» في أحداث ١٩٤٨ بصنعاء دور هام ومثير يستحق منا الدراسة والمتابعة. ◘





بريد القراء

● **مازن حلباوي - دمشق - الجمهورية العربية السورية**

«أرسل اليكم أسمى عواطفي بمناسبة العام الجديد متمنياً لكم ولمجلتكم العزيزة على قلوبنا دوام التقدم لقد كانت حقاً نبرساً لشبابنا ينير لهم تاريخ أمتنا العربية، لقد صقلت معارفنا وجعلتنا نفضلها على مجلات علمية كثيرة لما فيها من توسع تاريخي ولأسلوبها الرفيع البديع وصورها وغلافها...»

■ نشكر للأخ مازن عواطفه، ونُعاهده، كما خططنا دائماً، أن نبقى أوفياء للعلم والحقيقة والفن.. ملبّين حاجة شبابنا الى المعرفة الحقة، وليوفقنا الله.

● **حيدر مجيد ياسين العزاوي - بغداد - العراق.**

■ نشكر الأخ حيدر على عواطفه النبيلة بمناسبة الأعياد ونتمنى له ولجميع القراء كل نجاح وتقدم وسعادة. كما نشكره على مساهمته التي أرسلها ونتمنى عليه وعلى جميع الذين يودون الكتابة أو المساهمة في المجلة طبع رسائلهم على الآلة الكاتبة.

فيصل محمد شقير - دمشق - سوريه

■ شكراً لعواطفك الطيبة تجاه المجلة ونأسف لعدم تمكننا من تلبية رغبتك بالنسبة للمقالات التي أرسلتها، بسبب مخالفتها للنظام المتبع في جميع المجلات الثقافية في جميع أنحاء العالم، كما ذكرتم بالفعل في رسالتكم. كما أننا نأسف مرة أخرى لعدم تمكنكم من استلام رسالتنا المضمونة والمعنونة باسم كريمتكم، ولعل السبب كما نوهت ابنتكم لنا في آخر رسالة لها، هو صغر سنها. على أي حال نحن غير مسؤولين في هذه الحالة عن عدم استلامكم الحوالة البريدية.

● **جرجيس عبدالله سليم - الموصل العراق**

■ استلمنا المواد التي أرسلتها ونشكرك على مساهمتك وعلى غيرتك على المجلة ونتمنى لك كل خير وسعادة ونجاح. سنحاول نشر ما أرسلته في الأعداد القادمة. ولكن نرجو منك في المستقبل أن ترسل المواد مطبوعة على الآلة الكاتبة حتى تصبح صالحة للنشر.

● **الاء محمود الحاج قاسم - الموصل - العراق**

■ نشكر الآنسة الاء على عواطفها الطيبة وعلى مساهمتها وعلى إعجابها بمجلة «تاريخ العرب والعالم» ونأمل أن نبقى عند حسن ظنها. وسننشر مساهمتها في أقرب فرصة ممكنة.

● **امزابي الحسين - مراكش - المملكة المغربية**

■ نشكر للأخ امزابي تقديره للمجلة ونشكره على مساهمته القيمة «سامرا في عهد الخليفة المعتصم وحرسه» وكنا نفضل أن تكون المقالة مطبوعة على الآلة الكاتبة لنستطيع نشرها في أقرب فرصة ممكنة. على كل ستحاول «فكّ» بعض كلماتها لتصبح صالحة للنشر.

● **صلاح زين الدين - بعقلين - لبنان**

■ نقدر عاطفتك نحو المجلة ونعتذر عن عدم تمكننا من نشر ما أرسلته لنا بسبب نشره في جريدة محلية.

● **سمية محمود الحاج قاسم - الموصل - العراق**

«في الوقت الذي أبدى اعجابي الشديد بمجلتكم القراء، أرجز الاكثار من المواضيع التي تبرز مساهمات العلماء العرب والمسلمين في مختلف العلوم العربية، حيث أنني اعتبر ذلك من الأمور الضرورية وخاصة والقرن الخامس عشر الهجري قد أطل على العالم الاسلامي فيكون ذلك مساهمة منكم في اعطاء أولئك العلماء حقهم وخدمة للجيل الصاعد من هذه الأمة الكريمة».

■ نشكر الآنسة الصديقة سمية على عواطفها الطيبة ونعدها بنشر المزيد من مساهمات العلماء العرب والمسلمين كما أننا نثمن مساهمتها وسوف ننشرها في أقرب فرصة ممكنة.

● **أمين محمد - بغداد - العراق**

■ نشكر للأخ أمين تقديره للمجلة والعاملين فيها. لقد درسنا ملاحظاتك وسوف نسعى لتنفيذ الممكن منها. أما بالنسبة للأسعار المطبوعة على الصفحة الثانية، فأننا ننشر أسماء الدول التي تدخل المجلة أسواقها فقط.

وبالنسبة لموريتانيا البلد العربي العريق، فان عدم وصول المجلة سببه، بكل أسف، تكاليف الشحن الباهظة. نأمل أن نستطيع في المستقبل القريب إيجاد حل لهذه المشكلة.

● **عماد محمد خشان - بعلبك - لبنان**

«أحر التهاني وأطيب التمنيات أرسلها اليكم والى القراء في عيد مجلتنا الثالث راجيا من الله أن تستمر وتستمر لتبقى دائماً وأبداً المجلة الأولى نوعا وقيمة في العالم العربي».

■ تحية خاصة للأخ عماد على تهنئته الحارة ونعاهده بأننا سنبقى على الخط الذي حافظنا عليه منذ العدد الأول. أما بالنسبة للموضوع الذي أرسلته فأن هيئة التحرير بصدد تقييمه. «وتاريخ العرب والعالم» تقدر مساهمتك وتتمنى لك دوام النجاح والتقدم.

● **محمد أحمد معبر القحطاني**

«لقد سعدت أيما سعادة عندما وجدت العدد الأخير من مجلة «تاريخ العرب والعالم» وأخذت التهم سطورها وصفحاتها لما تحتويه من ذخيرة تاريخية وكنز دفين عثرت عليه من تاريخ وطننا الاسلامي والعالم ككل.»

■ شكراً للأخ محمد على عواطفه النبيلة ونفتخر بانضمامه الى قائمة الأصدقاء.

□

بدء الحرب العالمية الثانية

كان فرانسيزك بارتوسك يؤدي واجبه في خندقه في ويستربلات ببولندة على البحر البلطيق وكان يفكر في وجبة الافطار عندما اندلعت الحرب العالمية الثانية في المنطقة الواقعة خلفه.

ومن بارجة المانيا تدعى شلسويك - هولستاين قبل أربعين عاماً، كان يبدو أن ويستربلات ستنقلب رأساً على عقب .. وبعد ست سنوات من بداية الحرب وعندما ساد السلام فأن الحضارة نفسها قد تغيرت، فقد مات الملايين وانقسمت أوروبا وأصاب الدمار آسيا، وزلزلت من الأساس الامبراطوريات العظمى كبريطانيا وفرنسا، والنتيجة ما زالت تلمس، لقد تحولت القوة من قلب أوروبا - المانيا وفرنسا وبريطانيا - إلى الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة، وبدأ عصر الذرة.

لقد بدأت الحرب العالمية الساعة الرابعة وخمس وأربعين دقيقة، يوم الجمعة ١ سبتمبر ١٩٣٩، وقد تلاشى ضباب الصباح، وكان اليوم الأول للحرب مشمساً ودافئاً. وقال بارتوسك: «كانوا يعتقدون أننا كنا نياما». وقد أصبح عمره الآن ٦٧ عاماً، وهو كابتن صيد متقاعد ولكنه كان في الحرب من ضمن ١٨٠ جندياً بولندياً في مركز الذخيرة البولندي المعزول.

لقد جاءت أولى قذائف الحرب العالمية الثانية من مدفعين عيار ٢٨٠ مم من البارجة الألمانية شلسويك - هولستاين، وهي بارجة تدريب عملاقة، وكانت كأنها في الظاهر تقوم بزيارة ودية لهذه المدينة التي بقيت لمدة عشرين عاماً «مدينة حرة» كانت تدعى «دانزيغ» وأسمها البولندي الآن هو «دانزيك» وتبعد ٤ أميال جنوب ويستربلات.

بعد خمس عشرة دقيقة من بدء القتال على منطقة الميناء في ويستربلات وهي على شكل شبه جزيرة، بدأت القوات الألمانية تندفع عبر الحدود البولندية. وقال بارتوسك: «لقد كانوا يعتقدون أنهم سيدمرون خطوط دفاع ويستربلات خلال خمس عشرة دقيقة، وكانوا يريدون أن يقدموها لهتلر كهدية على بدء الغزو» .. لقد صمدت الدفاعات لمدة سبعة أيام، ضد هجوم القوات الألمانية وسلاح المدفعية وشلسويك - هولستاين وقنابل شتوكا الغاطسة. «ولقد انتهى الطعام ولم تبق لدينا المؤونة». واستسلمت حامية ويستربلات بعد مقتل ١٥ جندياً وجرح ٦٠، وتقول المصادر البولندية أنه قد قتل ٢٦ ألمانيا وعدد لا يحصى من الجرحى، وأنه لم تكشف عدد الاصابات لا في المانيا الشرقية ولا في الغربية.

لقد أصبح الآن موقع القتال منتزهاً، ونمت الأزهار حول الدمار وبقايا الحطام لقيادة الحامية، وهناك دبابة من صنع روسي وضعت كعلامة على قبر يضم خمسة عشر جندياً بولندياً، ويزور المنتزه الآن حوالي ٣ آلاف زائر في اليوم، ويلاحظ القليل منهم أن قمم الأشجار القديمة قد طارت نتيجة القصف المدفعي قبل أربعين عاماً.

لقد كان بارتوسك يبلغ من العمر حينئذ ٢٧ عاماً وكان معاوناً بحرياً ثانياً في ويستربلات منذ خمسة عشر شهراً قبل إندلاع الحرب. وكانت دانزيغ المدينة الحرة قد احتفل بها المنتصرون بالحرب العالمية الأولى وكان لها ممر بولندي إلى بحر البلطيق، وقد أدارت بولندة محطة ويستربلات، وسكة الحديد ومحطة الاتصال والبريد وكانت بالمدينة مصلحة الجمارك .. وكان ٧٠٪ على الأقل من سكانها البالغ عددهم ٣٥٦,٠٠٠ كانوا ألماناً، ومع ذلك وفي عام ١٩٣٩

نعتذر من القراء الأعزاء ومن الأخ **محمد حسن عليق** عن سقوط اسمه، سهواً، من رأس مقاله «**قلعة الشقيف، قلعة صمود وتحدّ**» في العدد الماضي ٢٨/٢٧/ ص٨٨، فعذراً.

كان هناك رأي قوي لضم المدينة لما كان يدعى نازي الرايخ الثالث.

وكانت البارجة شلسويك - هولستاين قد حملت سراً بثلاث كتائب من الجنود في ٣١ أغسطس حسب المصادر البولندية .. وفي اليوم التالي ومن بعد ٤٠٠ ياردة أطلقت النار من قنال قرب ويستربلات، وكانت القذائف الأولى قد دمرت الجانب الجنوبي من المركز. وقال بارتوسك: «كنا في خندقنا، وعند بزوغ الفجر كنا نفكر بالذهاب لتناول وجبة الافطار ثم إلى فراشنا».

وقال البولنديون أن القوات الألمانية كانت قد أخذت مراكز استعداد لإطلاق النار على مباني المدينة حيث يمكنهم مشاهدة ويستربلات، وقال بارتوسك وقد أشار إلى كنيسة بعيدة: «كانوا قد نصبوا مدفعاً رشاشاً على تلك القلعة، وكانت هناك قلعتان، ولكننا أطلقنا النار على القلعة الثانية، وأعتقد أنه كان لدينا مدفع واحد من عيار ٧٥ مم، وقد أطلقنا منه ٢٨ قذيفة قبل أن يصاب ويدمر». وكذلك أصابت نيران الألمان الأولى بيت عامل محطة سكة الحديد (وجتك نايسارك). «لقد تحدثت معه ليلة واحدة قبل الغزو. ولقد جاء إلى مركز القيادة وأخبرته أنه من الأفضل له أن ينضم لنا». وبعد ساعات قتل نايسارك بينما كان يحاول النجاة من نافذة بيته. وأضاف بارتوسك: «وفي اليوم الثاني للمعركة وبعد أن دمرت وسائل الاتصال بالراديو سبحت إلى جدينا لمسافة ثلاثة عشر ميلاً طلباً للنجاة». وأردف قائلاً «ولم أكن قد أخذت أذنـاً» فأن القائد البولندي هنريك سشارسكي قد أخبر أنهم بحاجة لكل جندي في ويستربلات. وأحاطت المصادر الرسمية سشارسكي بعدم توفر الامداد العسكري. وعندما استسلمت حاميته كان القائد الألماني الجنرال فريدريش ايبرهارت قد أعاد السيف لسشارسكي وحياه. لقد مات سشارسكي في ايطاليا عام ١٩٤٦ وقد دفن حسب رغبته في ويستربلات.

لقد أمضى بارتوسك السنوات الثلاث التالية في ستالاك ١ - أ وهو معسكر اعتقال قرب ما كان يدعى مدينة كونيسبورج ببروسيا الشرقية وهي حاليا كالينجراد المدينة الروسية ... ويقول بارتوسك: «في عام ١٩٤٢ تمكنت من الهرب مع رجل آخر». ..«وقد سألت نفسي أنهم ربما سيشنقوني أو سيقتلوني .. ولكنني لن أظل معتقلاً أكثر من ذلك.».

لقد منح بارتوسك أعلى وسام عسكري وهو «جندي الشرف» لأنه كان من ضمن خمسين جنديا حيا في المعسكر البولندي حتى آخر لحظة. ولقد أخرجت البارجة الألمانية عن العمل في ١٨ سبتمبر ١٩٤٤ بواسطة طائرات الحلفاء الحربية في ميناء جدينا، كما أن القوات الألمانية المنسحبة قد دمرتها لمصلحتهم في ٢١ مارس من نفس السنة.

ترجمة: خليل عبد الكريم

المهراس أو المهاريس



مهراس - بالكسر ثم السكون، وآخره سين مهملة: ماء بجبل أحد قاله المبرد ومعنى مهراس أو المهراس يطلق على كل حجر منقور يمسك الماء: وهو معروف بأقصى شُعب أحد يجتمع من المطر، في نقر كبار وصغار هناك. والمهراس اسم لتلك النقرة أو النقر ورُوي أن النبي صلى الله عليه وسلم عطش يوم أحد فجاءه عليّ في درقته بماء من المهراس فوجد له ريحا فعافه وغسل به الدم عن وجهه وصب على رأسه. ونلاحظ عليه أنهما علاوة على المهاريس الصغيرة مهراسان لا مهراس واحد، أحدهما يقع بأقصى شعب أحد من الجهة الشرقية وطريقه يتصل بالطريق الصاعد إلى البناء المعروف اليوم بقبة هارون، الواقعة فوق قمة جبل أحد. والمهراس الثاني يقع في الناحية الغربية. وطريقه وعر يضطر راكبه لتسلق بعض الصخور

المرتفعة فيه ومن القصور تعريفات مؤرخينا القدماء ترانا لا ندري أي المهراسين الذي جيء للنبي صلى الله عليه وسلم بالماء منه. الشرقي أم الغربي؟ كما أننا نجهل أيهما الذي عناه ابن الزبعري في بيته الآتي:

فسل المهراس ما ساكنه
بين أفراس وهام كالحجل

والزبعري هو عبدالله بن الزبعري القرشي.

وكلا المهراسين مقيل للمتنزهين اليوم لوجود الماء العذب القراح فيهما وبخاصة في فصل الشتاء، لكثرة هطول الأمطار بالمدينة في هذا الفصل فتنساب المياه من أعالي هضاب الجبل إلى هذه النقر فتمتلىء وتفيض على المهاريس وغيرها وبذلك يتجدد ماؤها ويصفو فيصبح لذة للشاربين وإذا انقضى الشتاء، ومكث الماء بالمهراسين أمداً طويلاً أو تأخر نزول المطر عن وقته فإن ماءهما يتغير طعمه ولونه وريحه وتعلوه قشرة من الطحلب ويتوالد فيه حيوان الماء فلا يصلح للشرب ونستنتج من هذا البيان مما سبق ذكره من وجود النبي صلى الله عليه وسلم ريحاً بماء المهراس حين قدم له، في غزوة أحد، وهذه الغزوة إما أن تكون وقعت في موسم الصيف أو في وقت سبقه عدم نزول الأمطار بالمدينة لمدة مديدة. وإذا تأخر هطول المطر زمناً أطول غاض ماء المهراس كما شاهدناه مراراً. والطريق إلى المهراسين: من قبور شهداء أحد ويتجه إلى الشمال وبعد نحو ربع ساعة بسير الأقدام يفترق الطريق إلى شعبتين شعبة تذهب إلى الشرق الشمالي توصل إلى المهراس الشرقي وشعبة تتجه إلى الغرب الشمالي توصل إلى المهراس الغربي.

عبدالله علي التعربي،
مكة المكرمة - السعودية.

أشور



هي العاصمة المقدسة الأولى للأشوريين واسمها نسبة إلى كبير آلهتهم آشور - تقع على بعد ١١٠ كلم من الموصل قرب قضاء الشرقاط على الضفة اليمنى من نهر دجلة وبرز اسمها ومؤسسها الملك أشور أبلط سنة ١٣٦٢ق.م الذي أراد أن ينقذ مدينة آشور من النفوذ الأجنبي ويكون له مملكة واسعة عرفت بالامبراطورية الآشورية. وقد بدأت الحياة السياسية الأولى لفجر الامبراطورية الآشورية حيث انطلقت منها نحو الجنوب والشمال موسعة رقعتها. وبقيت آشور موضع عناية الملوك لكونها مقر الههم الأعلى آشور ولا يرجع ملك آشوري من غزوته إلا ويمر أولا بهذه المدينة المقدسة ويمنحها جزءاً من غنائمه، ثم يعرج الى عاصمته التي هي مقر لحكمه.

وقد نقبت البعثة الألمانية في هذه المدينة زقورتها والسور الترابي الأول والثاني، كما يلاحظ أبنية تمتد شرقي المدينة، ومن أشهر معابدها معبد آشور الى الغرب منه القصر الملكي وبقايا لمعابد ثلاثة صغيرة للآلهة سن وعشتار ونابو.

جرجيس عبدالله أشكيراني
الموصل-العراق



في العدد المقبل



البيروني



مدنية السند وعلم الآثار

مجلة شهرية مصورة تبحث في التاريخ العربي
السنة الثالثة، العدد التاسع والعشرون - آذار (مارس) ١٩٨١ - الموافق جماد الأول ١٤٠١هـ.



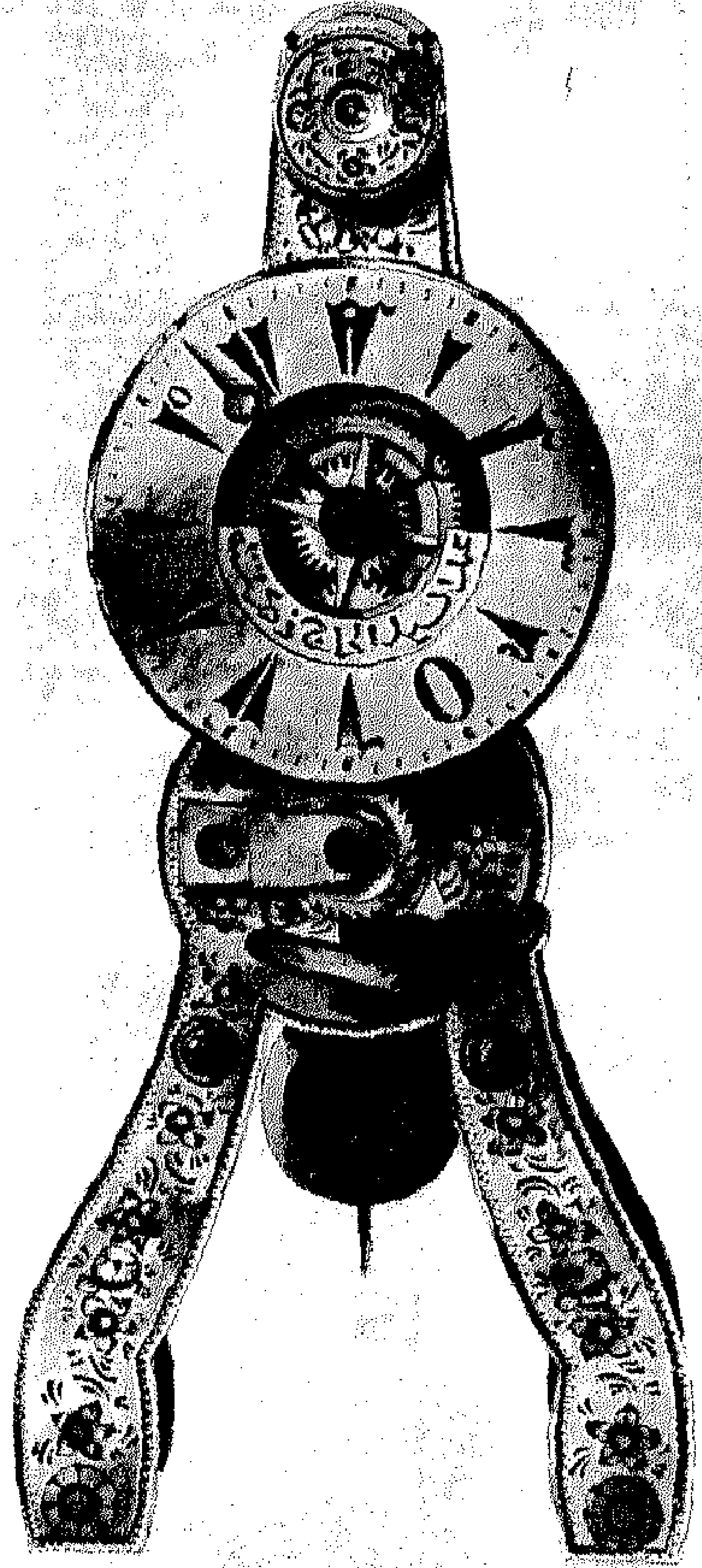
حدثنا الحرث بن همام قال رأيت من أعاجيب الزمان ان تقدم
خصمان إلى قاضي معرة النعمان أحدهما قد ذهب منه الأطيبان
والآخر كأنه قضيب البان فقال الشيخ



البيروني

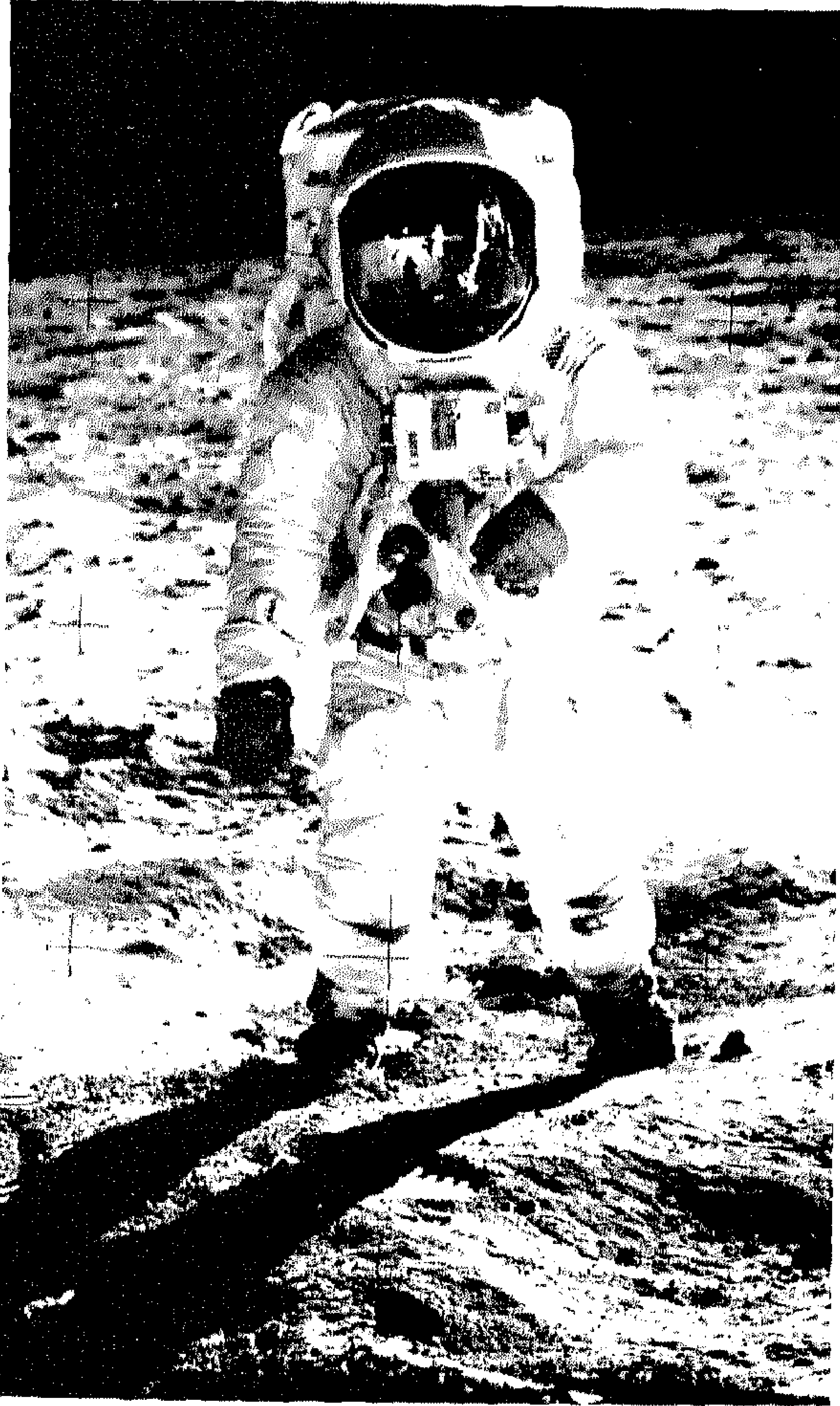
... ذكرياتي عن الزعيم رياض الصلح

الماضي الذي سيأتي في عددنا المقبل



الساعة
الميكانيكية

المـلاحـة بـين
الكـواكب السيارة



تاريخ العرب والعالم

مجلة شهرية مصورة تبحث في التاريخ العربي

السنة الثالثة، العدد التاسع والعشرون - آذار (مارس) ١٩٨١ - الموافق جماد الأول ١٤٠١هـ.

تصدر عن دار النشر العربية في منتصف كل شهر

رئيس التحرير: فاروق البربير

المستشار: د. أنيس صايغ

المدير المسؤول: محمد مشموشي

الإنتاج: مطبعة المتوسط ش.م.ل. ● التوزيع: الشركة اللبنانية لتوزيع الصحف والمطبوعات

ثمن النسخة

لبنان	٥ ل.ل.	سوريا	٦ ل.س
العراق	٨٠٠ فلس	تونس	١ دينار
السعودية	٨ ريال	الكويت	٧٠٠ فلس
الاردن	٥٠٠ فلس	أبوظبي	٨ درهم
دبي	٨ درهم	قطر	٨ ريال
البحرين	٨٠٠ فلس	عدن	٨ شلنات
مسقط	٨٠٠ بيزة	المغرب	٦ درهم
فرنسا	١٠ فرنكات	بريطانيا	جنيه استرليني
		أميركا	٣ دولارات

الإشتراكات

(بما فيها أجور البريد الجوي)

في لبنان: للأفراد	٧٥ ل.ل.
للمؤسسات والدوائر الحكومية	٢٠٠ ل.ل.
في الوطن العربي: للأفراد	١٠٠ ل.ل.
للمؤسسات والدوائر الحكومية	٢٥٠ ل.ل.
خارج الوطن العربي: للأفراد	١٥٠ ل.ل.
للمؤسسات والدوائر الحكومية	٣٠٠ ل.ل.

تدفع قيمة الاشتراك مقدماً نقداً أو حوالة مصرفية أو بريدية.

ص.ب: ٥٩٠٥ - بيروت، لبنان، بناية أبو هليل - شقة ١١، شارع السادات - تلفون: ٨٠٠٧٨٣

HISTORY OF THE ARABS AND THE WORLD

EDITED BY FARUK BARBIR
A MONTHLY ILLUSTRATED
MAGAZINE PUBLISHED FROM
SADATE ST. ABOU HLEIL
BLG. P.O.B. 5905
TEL. 800783
BEIRUT, LEBANON

Vol. 3, No. 29. MARS. 1981
ANNUAL SUBSCRIPTION
$ 75 (INCLUDING $ 25 FOR
ADDITIONAL AIR MAIL CHARGES)
MAIL ALL COMMUNICATIONS,
INCLUDING SUBSCRIPTIONS TO:
«HISTORY OF THE ARABS AND THE WORLD»

في هذا العدد



ألف ليلة وليلة: أصلها وانتماؤها (راجع المقالة ص ٧٠)

■ المقالات الواردة توزع حسب التبويب الفني للمجلة. ولا علاقة لذلك بمكانة الكاتب. مع حفظ المكانة الإجتماعية للكتاب. تراعى في الألقاب الصفات العلمية فقط ■

الموضوع — الصفحة

■ المؤابيون شعب ثار على الاحتلال .... د. فواز احمد طوقان ٣
■ البيروني (٩٧٣-١٠٥٠) تاريخه وصفاته من مصنفاته .... د. ابراهيم فريد الدر ٩
■ مدينة السند وعلم الآثار .... د. نقولا زيادة ١٩
■ الحركة الصهيونية في عصر نجيب عازوري (الحلقة الرابعة) د. زاهية قدورة ٣٣
■ لومومبا والقضية الافريقية .... محمد عيسى ٢٨
■ نزهة ندية مع مخطوطة أحدبية
من مخطوطات الشيخ ابراهيم الأحدب .... اعداد: د. زينب القاروط ٣٩
■ من ذكرياتي عن الزعيم رياض الصلح .... جان سرور ٤٣
■ معركة غيرت وجه الحرب العالمية الثانية
ستالينغراد (الحلقة الأولى) .... ترجمة: تاريخ العرب والعالم ٤٦
■ رجال وأفكار: اخناتون .... أحمد غسان سبانو ٥٦
■ الفن السلجوقي في الأناضول .... إعداد: قسم التوثيق والأبحاث ٦١
■ مراجعة كتاب: التاريخ العسكري للمقاطعات اللبنانية في عهد الإمارتين
الامارة المعنية (جـ١) للعقيد د. ياسين سويد .... اعداد: فاروق البربير ٦٦
■ ألف ليلة وليلة أصلها وانتماؤها .... فاروق خورشيد ٧٠
■ تاريخ الطوابع: الصومال .... ميشال اسطفان ٨٤
■ رسائل الماجستير والدكتوراه: تثقيف التعريف بالمصطلح الشريف للمحبي
تحقيق عبدالرحمن صادق .... عرض د. عمر عبدالسلام تدمري ٨٦
العرب والصين في القرون الوسطى .... فتحي سلطان ٨٨
■ مظاهر النجدة والحمية في تاريخ جبل عامل .... علي الزين ٩٠
■ القراء يكتبون ٩٤

● المقالات والدراسات تُرسَل باسم رئيس التحرير على عنوان المجلة: ص. ب ٥٩٠٥ في بيروت.
● المقالات والدراسات التي تُنشَر لا تعبِّر بالضرورة عن آراء المجلة.
● المواد الواردة إلى المجلة لا تُرَدّ إذا لم تُنشَر.

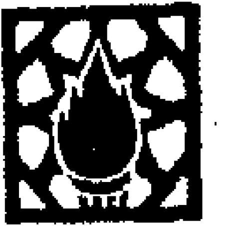
المؤابيون
شعب ثار على الاحتلال





د. فواز احمد طوقان

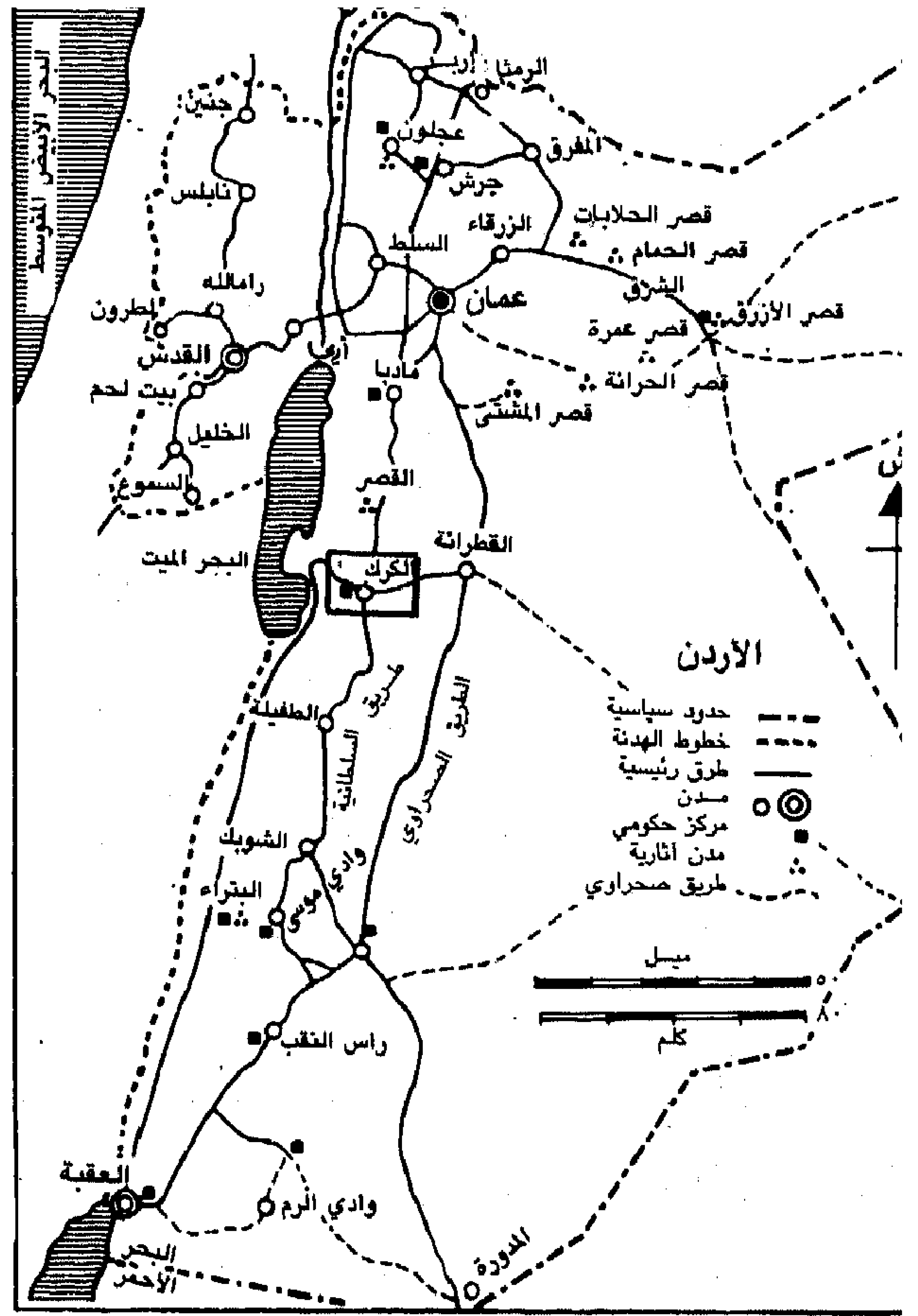
مؤاب منطقة تاريخية قديمة تقع جغرافياً في المملكة الأردنية الهاشمية وتشمل لواء الكرك على وجه التخصيص. أما الأسم «مؤاب» فمن المرجح أنه يعود إلى الشعب الذي سكن تلك الأرض، وقد يطلق على الأرض نفسها أو هو علم من الأعلام، قد يكون لإله قديم جداً عبده شعب مؤاب في غابر الأزمنة واكتسب اسمه منه.



كان المؤابيون قبائل رحّلاً قبل نزولهم أرض مؤاب. ولا نعرف على وجه التحقيق من أين أتى هذا الشعب العربي البدوي. انما الراجح أن المؤابيين تحدّروا من القبائل العربية التي كانت تقيم في البادية السورية حوالي القرن العشرين قبل الهجرة/القرن الرابع عشر قبل الميلاد، أي عاشوا هناك قبل ثلاثة آلاف وخمسمائة سنة. ومن الراجح أيضاً أنهم دخلوا المنطقة المسماة اليوم لواء الكرك في الأردن، على شكل موجات من القبائل البدوية المتحولة إلى الزراعة. فلواء الكرك في الأردن، بحسب تاريخ البيئة للمنطقة، كان منطقة زراعية خصيبة، فما تزال معالم ذاك الغنى الطبيعي ماثلة في احراش جبال الشراة التي ما فتىء السكان يفاجأون فيها حتى اليوم بظهور وحش كاسر من فصيلة الفهد أو النمر...

تنعم المنطقة التي سكنها المؤابيون بعدة

د. فواز احمد طوقان، دكتوراه دراسات شرقية من جامعة يال في الولايات المتحدة الاميريكة، استاذ الأدب العربي في الجامعة الأردنية - عمان.



أنهار كانت في الماضي حدوداً مائية زخّارة أهمها وادي الموجب ووادي الواله ووادي الحسا. أما عن مصادر المياه فان علماء تاريخ البيئة يفيدون بأن منطقة مؤاب كانت ذات موارد مائية جمّة. يضاف إلى ذلك مراعٍ خصبة واسعة، وأحراش كثيفة ملتفة.

***

يعتمد الدارس لتاريخ المؤابيين على ثلاثة مصادر: (١) التوراة وغيرها من كتابات الأمم الأخرى المعاصرة للمؤابيين، (٢) العادات الأثرية المؤابية، (٣) النقوش المؤابية.

. أما التوراة، فمصدر غير موثوق به تاريخيا، لأنها وثيقة حُرّفت في عصور تالية، كما أنها كتبت في عصور لاحقة جداً لفترة الاحتكاك الاسرائيلي المؤابي. أضف إليه أن التوراة بالنسبة للمؤابيين وثيقة مطعون في نزاهتها: فقد كان بين الشعبين حروب وإحَنٌ وتِرَاتٌ. ومن البدهي أن يلفق كُتّاب التوراة مطاعن كثيرة ضدّ ألدّ أعدائهم، ألا وهم المؤابيون.

واما كتابات الأمم الأخرى فغير قليلة. ورد في النقوش المسمارية اسم مؤاب تسع مرات، وهذا عدد وفير بالنسبة لمملكة صغيرة جداً بالقياس إلى امبراطوريات ما بين النهرين: آشور وبابل. فكم من الممالك الأخرى الكثيرة المعاصرة لمؤاب لم يرد ذكرها في تلك النقوش؟ ولكن في الهيروغليفية، فاننا لن نعثر على ذكر لمؤاب. ذلك لأن عصر سيادة مصر على سورية الطبيعية جاء سابقا للنهضة المؤابية بقرون عديدة.

يبقى لنا بعض الكتابات الأخرى عن المؤابيين وردت عند المؤرخ فلافيوس يوسيفوس اليهودي، وبعض المنحولات اليهودية الأخرى كسفر يوديث. بيد أن هذه الأخرى لا يعوّل عليها فيما ذكرت مؤاب فيه، والحكم في كتابات التوراة عنهم هو ذات الحكم في هذه المنحولات.

هذا لا يعني أننا نطّرح كل ما كتبه اليهود عن مؤاب. بل المؤرخ الذكي هو الذي ينقد نصوصه، يجرّحها ويعدّلها... يستفيد من الرواية التاريخية، مهما كانت وجهة نظر صاحبها، ينتقدها ويقومها. فمن المصادر اليهودية، أمكننا أن نعيد كتابة كثير من الوجود المؤابي وأن نتتبع احداث ثورتهم الوطنية الظاهرة ضد أعدائهم بني اسرائيل.

مع أن الموجودات الأثرية المؤابية لا تتجاوز بعض الأواني الفخارية والاختام وقليلاً من المخلفات الهندسية، الا ان هذه العاديات كافية لتمكين الباحث المتمرس من وضع الحضارة المؤابية ونوعيتها بإزاء مثيلاتها المتعاصرة معها. على أن خير ما يعطينا الثقة الموضوعية في أخبار المؤابيين، أو على الأقل في أخبار نهضتهم، هو النقوش المؤابية التي خلفوها لنا. وخير هذه هي مسلة الملك مشيع بن كموشيت الديباني ملك مؤاب الذي اعتلى على العرش ما بين سنة ١٥٣٧ قبل الهجرة وبين سنة ١٤٩٦/أي ٨٧٠ – ٨٣٠ قبل الميلاد.

كانت مملكة مؤاب في عهد الملك كموشيت، والد الملك العظيم مشيع، تقع على ضفتي نهر الموجب (نهر أرنون في النقوش المؤابية). ولعل ذلك يعني أن المؤابيين قبل زمن والد ملكهم العظيم كانوا يشكلون مملكة بالمعنى الحقيقي. بيد ان الأمر تطور معهم في ظل الملك مشيع،

فبلغوا بالنفوذ حتى جنوب مدينة عمان (شمالاً) والبحر الميت غرباً، ومن الجنوب بلغوا وادي الحسا، ومن الشرق لم تكن لهم حدود سوى البادية التي أنشأتهم...

من الممتع أن نقارن ما بين توسع نفوذ المؤابيين من منطقتهم إلى الشمال وبين شعوب أخرى أتت بعدهم. فالأدوميون العرب الذين ورثوا حكم مؤاب في القرن الثالث عشر قبل الهجرة/السابع قبل الميلاد نهضوا من ذات المنطقة، على نفس الشاكلة، ولم يتجاوزوا مدينة عمان شمالاً. وأما الانباط، الشعب العربي الثاني الذي ورث حكم المنطقة، فقد توسعوا شمالاً على فترات، فوصلوا أولاً إلى عمان، ثم إلى دمشق. وكذلك الغساسنة، فقد بدأوا في منطقة مؤاب وتخومها من البادية شرقاً، وامتد نفوذهم شمالاً حتى وصل إلى حوران والجولان ودمشق. وكذلك العرب المسلمون الفاتحون... لقد انطلقت جيوش الفتح الأولى زمن الرسول إلى مؤتة، بالقرب من الكرك، وهي رديفة الربة عاصمة المؤابيين. ثم لما انطلقت جيوش الفتح الثانية زمن ابي بكر وعمر رضي الله عنهما، سارت في أرض مؤاب أولاً، سارت القبائل العربية من لخم وجُذام، فانشطرت إلى شعبتين، واحدة يممت شطر فلسطين، والثانية شطر اليرموك. وبعد استقرار الفتح الاسلامي، اتخذ الامويون من مؤاب، وما جاورها من الاقاليم، البلقاء وحوران والبعادية الأردنية، مستقراً لهم، فأنشأوا فيها القصور الباذخة التي ما زالت آثارها ماثلة للعيان حتى اليوم. وكما الامويون، كذلك العباسيون. فلقد بدأت دعوتهم السرية في الحميمة، حيث كانوا يعيشون في اقطاعاتهم الزراعية. والحميمة بُلَيْدة في جنوب مؤاب كانت ملكاً علي بن عبدالله بن عباس!

نستشف مما ذكر أن منطقة مؤاب وما جاورها من الاقاليم كانت فارغة من السكان في القرن العشرين قبل الهجرة/الرابع عشر قبل الميلاد. دخلها العرب واستمروا حكمها حتى اليوم. وقد تعاقب على دخولها بغية السيطرة على سورية الطبيعية أمم كثيرة وحكومات عديدة، كالاخشيديين والفاطميين، والصليبيين، والايوبيين والمماليك... حتى عصابة الارغون.

ولقد جهد مؤرخو الصهيونية هذه الأيام في اثبات أن منطقة شرق الأردن، أي مؤاب والبلقاء إلى شمالها، كانت أرضاً خالية خربة حتى دخلها بنو اسرائيل تائهين، ثم محتلين زمن حكم بني اسرائيل لشمال فلسطين، ثم مقيمين زمن ثورة المكابيين. وهم بذلك يحاولون تمهيد الطريق أمام ابداء زعم جديد بأن أرض مؤاب والبلقاء لم تكن مأهولة من قبل وجودهم... وبالتالي فهي من ضمن أرض ميعادهم... ولكن هيهات.

فلقد دخل المؤابيون أرض مؤاب، وانتشروا فيها، واتسعوا إلى أرض البلقاء، قبل قرنين من السنين، قبل مائتي عام -من زعم بني اسرائيل أنهم مرّوا في مؤاب وأن نبيهم موسى وقف بقرب ماديا (جبل بنو) فتراءت له الأرض الموعودة...في هذه الفترة بالذات كان المؤابيون يحكمون كل البلاد، ولهم فيها دولة وكيان... فكيف لنا أن نصدّق ما تزعمه التوراة من أن بني اسرائيل التائهين مرّوا في بلاد مؤاب الخالية، مرّوا بجموعهم، بقبائلهم، بأسباطهم الاثني عشر... من دون أية مقاومة!!

لم تسلم مؤاب من مؤثرات حضارية خارجية، لأنها عاشت غير منعزلة عن بقية العالم القديم. فموقعها الجغرافي ضمن لها طرقاً تجارية أغنتها حضاريا وماديا. وهذه الطرق، استعملهامن بعد المؤابيين أقوام عديدون كالانباط وأهل مكة في العصر الجاهلي. اتصلت مؤاب، اذن، بالحضارة العربية الجنوبية، لكننا لا ندري مدى هذا الاتصال أو عمقه. فالزمن الذي لمع فيه نجم مؤاب، كان الزمن نفسه الذي نهضت فيه حضارة اليمن. وإلى الغرب من مؤاب، لم يقم البحر الميت حاجزاً يحول دون اتصال البلاد بالحضارات المصرية والفينيقية والقبرصية. بيد أن أكثر أتصال وأمتنه كان بين القطر المؤابي وبلاد الآراميين. فتأثير الحضارة الآرامية، والثقافة كذلك، في حضارة مؤاب، تأثير كبير.

يتضح من دراسة مخلفات المؤابيين الحضارية أنهم كانوا على جانب كبير من التحضرّ. فمثلاً، نرى سمات فنٍّ عريق يزيّن فخارهم... سمات إن دلت على شيء، فتدل على

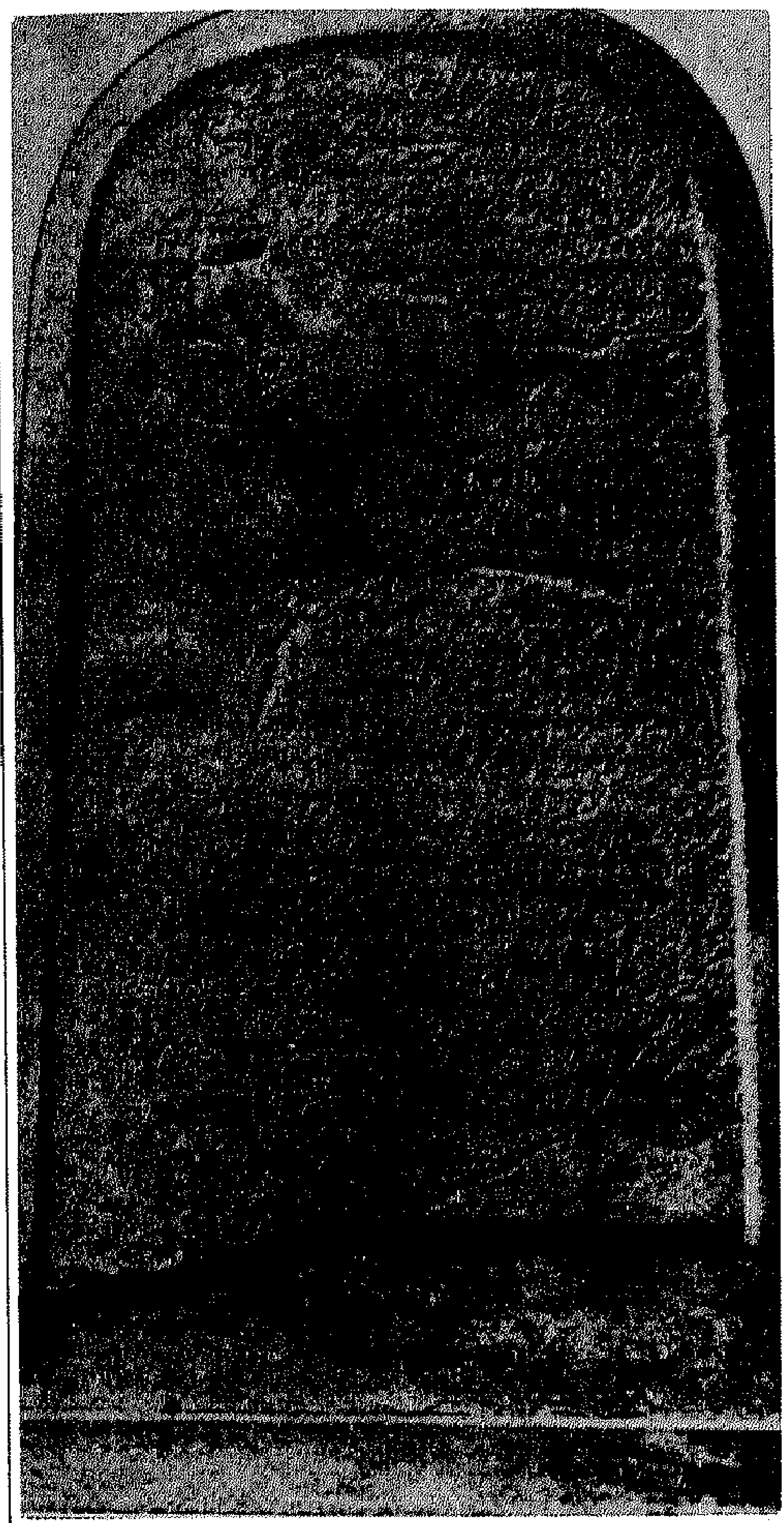
وجود فنانين وصناع وحرفيين ماهرين. أما نظام الكتابة المؤابية، فنظام متطور ينمّ عن تقدم حضاري رفيع.

واضح تماما، مما وصلنا من النقوش المؤابية، أن ابجديتهم كنعانية السمات، مع تغييرات طفيفة. إلّا أن كُتّاب المؤابيين أدخلوا تطويراً حاسماً على ما أخذوه. ففي مسلة الملك مشيع نرى الاحرف محفورة بدقة ورشاقة وبتناسق عجيب السمت، ونرى نقطة تفصل ما بين الكلمة والكلمة، ونرى كذلك خطاً عمودياً قصنيراً يفصل ما بين الجملة والجملة. هذا الطراز هو أفصح دليل على مدى تقدم المؤابيين الثقافي.

اختلف علماء اللغات السامية في تحديد هوية اللغة المؤابية. وجنح بعض العلماء المستشرقين إلى القول بأنها لهجة عبرية. بيد أن الحق غير ذلك. المؤابية، لغة عربية الأصل، آرامية اللهجة، تأثرت بما حولها من اللهجات السامية الأخرى، كالعبرية أو العمّونية...

في أوائل القرن الخامس عشر قبل الهجرة/التاسع قبل الميلاد، احتلت مملكة اسرائيل أرض مؤاب. وعبثاً حاول ملوك المؤابيين دفع هذا الاحتلال. ولعل أحكم ملك مؤابي كان كموشيت الذي رضي أن يستقل بالجزء الجنوبي من مملكته على الأقل مقابل دفع جزية... بلغت حداً باهظاً في آخر زمانه... مائة ألف رأس خروف ومائة ألف كبش بأصوافها.

بيد أن سياسة الاحتلال الاسرائيلي لمملكة مؤاب لم تتوقف عند فرض الجزية، بل تعدّتها إلى ما هو أفحش من ذلك. فلقد طفق الاسرائيليون (يستوطنون) في مدن مؤاب بعد طرد سكانها أو ذبحهم، أو ابتناء مستوطنات جديدة لهم... (ما أشبه الليلة بالبارحة!!) يقول الملك مشيع الديباني في مسلته: «... أما عُمْري ملك اسرائيل فقد اضطهد مؤاب طويلاً...» ويذكر الملك الثائر كذلك عدة مواقع مؤابية كان المحتلون قد سكنوها أو هدموها. أما التوراة نفسها، فتذكر في تفاصيل الحملة العسكرية التي جردتها مملكة اسرائيل لاعادة احتلال مؤاب، أن الأوامر صدرت للجند بتدمير الحقول



مسلة الملك مشيع بن كموشيت ملك مؤاب الديباني. موجودة في متحف اللوفر في باريس. طولها متر تقريباً. وهي من حجر البازلت/ الصوان الأسود. عثر عليها في ديبان عام ١٨٦٦ م في الأردن.

كذلك! فقد حمل كل جندي حجراً ليلقيه في أي حقل يرى مزروعاته يانعة. يضاف إلى ذلك تكتيك آخر استعملته القوات الغازية، الا وهو افساد مصادر المياه، طمر العيون وتغويرها، هدم البرك... إن مجموع الأعمال العسكرية الاسرائيلية في مؤاب كان بحقّ اضطهاداً...

تتلخص خطة استعادة البلاد من الاسرائيليين على يد الملك الثائر مشيع ابن كموشيت بثلاثة مبادىء: (١) اعداد الجبهتين الداخلية والخارجية، (٢) الزحف الخاطف المركز على أهم الموقع، (٣) اذلال العدو المحتل.

بدأ الملك الديباني مشيع ثورته برفض دفع الجزية، وتمركز في القسم الجنوبي من مملكته، وشرع في الاعداد للمعركة. كما أقام أحلافا مع جيرانه أعداء الاسرائيليين التقليديين: العمونيون والبلعاميون سكان مملكة الاغوار (وعاصمتها ديرعلا في وادي الأردن الشمالي).

لم يقف الاسرائيليون مكتوفي الايدي ازاء تمرّد مشيع عليهم. فجردوا حملة احتلال ثانية بعد أن وحّدوا صفوفهم المتفرقة. وساروا بعسكر مجرٍ متبعين خطة جهنمية. فبدل اجتياز نهر الأردن والهبوط على مؤاب من الشمال، قطعوا صحراء النقب وجاءوا إلى عقر دار مشيع، من «برية أدوم». فدخلوا مؤاب «وهم يضربون المؤابيين. وهدموا المدن وكان كل واحد يلقي حجره في كل حلقة جيدة حتى ملأوها، وطمّوا جميع عيون الماء وقطعوا كل شجرة طيبة»... [عن سفر الملوك الثاني، الاصحاح الثالث]. ما أشبه الليلة بالبارحة... ان المطلع على وثيقة كونيغ الصهيوني الداعي إلى «تهويد» منطقة الجليل، لا يرى فرقا ما بين احتلال مؤاب قبل ألفين وتسعمائة سنة، واعادة احتلال الجليل في فلسطين على يد الصهاينة.

أما الملك مشيع، العظيم، الذي عقد أحلافا مع جيرانه، فانه لم يركن إلّا إلى قوته الذاتية المستمدة من وحدة شعبه وتجمّعه. فانقض على الاسرائيليين وحلفائهم. واستمرت الحرب قرابة ثلاثين سنة... لنمضِ الآن مع الملك مشيع في مسلّته التاريخية ونرى كيف قضى هذا الملك الوطني على مغتصبي بلاده. يقول الملك مشيع في مسلته:

أنا مشيع بن كموشيت ملك مؤاب الديباني [نسبة إلى ديبان عاصمته]. أبي ملك على مؤاب ثلاثين سنة. وأنا ملكت بعد أبي. وأنشأت أهراما هنّ أدلاءِ، لكموّش [اله مؤاب الوحيد]، بقرحى [مدينتهم المقدسة]. ولقد بنيت ذلك بسرور، لأن كموّش اعانني على قهر كل الملوك، ولانه أشمتني بكل أعدائي المغتصبين. أما عُمري، ملك اسرائيل، فقد اضطهد مؤاب طويلاً، ذلك لأن كموّش أضحى مكروها في أرضه. وخلف عُمْري ابنه، فقال هو الآخر: «سأضطهد مؤاب». أجل لقد قال شيئا كهذا الكلام. ولكن كموّش جعلني أراه مهزوما من أمامي، هو وأهل بيته. بادت اسرائيل، بادت إلى الأبد. وكان عُمْري قد ورث أرض مادبا فأقام فيها مدة حكمه. كما أقام بها الاسرائيليون من بعده، مدة تبلغ نصف حكم أبناء عُمْري. فمجموع ما أقاموه بلغ أربعين سنة. وأرجع كموش مادبا في ايام حكمي. ولقد بنيت خربة معين، وحفرت فيها البركة. ولقد بنيت خربة القريات. أما شعب جاد [قبيلة اسرائيلية كبيرة] فقد كان يسكن خربة عطاروس منذ زمن. وكان ملك اسرائيل قد بنى لشعب جاد خربة عطروس. والتحمت بالمدينة وافتتحتها. وذبحت كل سكانها لأجل كموش ومؤاب (أي لأجل الاله والشعب). ورددت من هناك موقد ايل، اله ملك اسرائيل المحبوب (لاحظ أن الاسرائيليين كانوا يعبدون ايل الاله السامي الوثني القديم) وسحبته إلى بين يدي كموش بالمدينة. وأسكنت فيها شعب شران (قبيلة مؤبية كبيرة) وشعب محرت (قبيلة أخرى مؤابية). وقال لي كموش: «اذهب خذ نبو من اسرائيل». (نبو موقع جبلي حصين بقرب مادبا وقف فيه موسى ورأى فلسطين ولكن لم يدخلها. ومن هذا الموقع اليوم ترى في الليل أضواء مدينة القدس ومآذنها وقبابها بالعين المجردة). فذهبت في نفس تلك الليلة. واشتبكت بالمدينة (نبو) من وقت تبين الخيط الاسود من الابيض حتى الظهر. وافتتحتها. وذبحت كل سكانها وعددهم سبعة آلاف: رجالاً وصبيانا ونساءً وبناتا واماءً. ذلك لأنني ضحيتها لكموّش. كما أنني أخذت من هناك مواقد يهوه، وسحبتها جميعا حتى وضعتها بين يدي كموش. وكان ملك اسرائيل قد بنى عليان وقت محاربته اياي. ولكن كموّش طرده من أمامي. وأخذ من مؤاب مائتي رجل وهم قوام فرقتها العسكرية، ثم قدتهم ضد عليان وأفتتحتها مستردا اياها إلى مملكة ديبان. وأنا الذي بنى قرحى [مدينتهم المقدسة] والحمى [أي الحرم الذي فيها] وبنيت كذلك سور الاكروبولس فيها وأنا الذي بنى أبوابها وأسوارها. وبنيت كذلك موقع بيت الملك. وأنا الذي حفر كلا البركتين للماء بداخل المدينة. ذلك لأن المدينة كانت خالية من أي بئر. فقد



قلعة الكرك

قلتُ يومها للشعب: «ليحفر كل رجل منكم بئراً بداخل بيته». وأنا الذي قطع الاخشاب بأيدي الاسرى الاسرائيليين لقرحى. وقد بنيت عُراعر، وعبّدت الطرق في وادي الموجب. وأنا الذي بنى بيت بموت لأنها كانت مهدّمة تماماً. وأنا الذي بنى أم العمد (اضحت زمن الانباط عاصمة اقليمية مهمة) لأنها كانت قد أصيبت بسوء... وأنا ملكت على مائتي مدينة كنت قد استرددتها إلى ملكة ديبان. وبنيت مادبا من جديد، وخربة دليلة الشرقية وخربت معين وأطلقت هناك الاغنام ذوات الأرجل القصيرة، وضأن المملكة كله لكي ترعى الكلأ. وأما خربة الذباب فقد سكن فيها... (هنا نقص بسبب كسر في المسلة)... وقال لي كموش: «انزل والتحم بخربة الذباب». فنزلت والتجمت... (كسر آخر في المسلة)... وأعادها كموش في أيامي. وكان بقربها من الطرف البعيد عشر... (وهنا تتكسر المسلة ولا نعود نعرف تكملة القصة)...

هذه هي قصة ثورة الملك كموشيت وابنه الملك مشيع، وهي قصة الشعب العربي المؤابي... نقرأها ونقول بمرارة: ما اشبه الليلة بالبارحة.

يلاحظ دارس مسلة الملك مشيع أنها سجل حافل لملك وطني عظيم...

طرد الغزاة الاسرائيليين،

أوقع فيهم أفدح الخسائر،

حرر البلاد من اضطهاد المغتصبين،

استرد الأرض إلى حدود بلاده،

رمم المدن وحصنها،

أشاد المباني والمعاقل والمعابد،

ولم ينس الشعب، فخاطبه، ووجهه، حرص على مصلحته، وسهر على سلامته،

... وجلب إلى بني وطنه خيراً كثيراً...

هذا ما يقوله الملك مشيع في مسلته. افنصدقه فيما يذهب إليه؟

ولم لا! ألم تكتب لنا التوراة المتحيّزة للاسرائيليين عن مشيع وثورته وثورة أبيه؟ ألم تذكر لنا دحره أياهم واستقلاله بوطنه؟ ولم لا نأخذ بأقواله من مسلته، وعلماء التأريخ على الدوام يكتبون تاريخ الأمم القديمة نقلاً عن مسلاتهم ومن مدونات ملوكهم؟

يكفينا الآن أن نسلم مع الملك الوطني العظيم مشيع بن كموشيت بأنه طهر مملكته من الاسرائيليين الغزاة المحتلين، ووسعها، وأحدث فيها حركة عمرانية كبيرة. ولعمري، فإن هذه المنجزات لَحَرِيَّةٌ بكل افتخار... جديرة بكل تقدير.

واليوم الذي سنقول فيه مثل الملك مشيع: «بادت اسرائيل»... لن يكون بعيداً.

■






البيروني
٩٧٣ - ١٠٥٠
تاريخه وصفاته من مصنفاته

د. ابراهيم فريد الدر

شغل البيروني والانشغال به:

حين عزمت على معالجة البيروني، ظننت الأمر سهلاً. هو عبقري، فلم لا أغرف قليلاً مما عنده وأفرغ منه. فدخلت عالمه، ويا لبحر هائج مائج. تقف على شاطئه فلا تدرك مداه، وتغوص فيه فلا تسبر أغواره. يسحرك فلا تستطيع رجعة، وتستنجد بما كتب عنه فيدوخك التناقض في تواريخ أخباره. ثم تسمعه مؤنباً «...وقد عاينتني فدع السماعا».

وهكذا تصبح أسيره، لن تعرف أخباره، وصفاته وشخصيته وعبقريته ما لم تقرأه. تنتقي من مصنفاته ما تشاء فلا تضجر، فعنده لكل شربه: رياضيات، فلك، جغرافية، تاريخ، دين، لغة، فلسفة، جيولوجيا، وما في طبقات الأرض من معادن وجواهر، طب، نبات وزهر، أعاجيب المخلوقات، وطالعك في النجوم (حظك والأبراج!).

د. ابراهيم فريد الدر: استاذ الكيمياء الحياتية في كلية الطب في الجامعة الأميركية.



نعم، ثلاثة عشر ألف صفحة كبيرة مرصوصة بالحقائق المسبوكة سبكا علميا، إلى معلومات تقنية، ومعادلات رياضية هي خزانة البيروني، يروعك جوهرها، فتوقن عندئذ بعبقريته. ليست الحقائق مبعثرة بل موحدة ذات صورة كاملة. يدافع مثلاً عن الجغرافيا فيربطها إلى «تحديد المسافات بين مختلف الأماكن والقدرة على تعيين الاتجاهات للمسافرين براً، والدراية الكاملة لطبيعة الماء وقاع البحر للربابنة والمرشدين» ويقيم الدليل على أهميتها بذكره حوادث تاريخية منها توجه خالد بن الوليد إلى العراق، وكيف نجا بجيشه حين قطع الصحراء. وفي دفاعه عن القياس والوزن لا يجد فرقاً بين تحديد عروض البلاد والعروض والبلاغة فيقول «... وإذا كان الانسان ناطقا مع مخالفيه في أمور الدنيا والآخرة مجادلاً خصيماً، احتاج إلى ميزان لكلامه...» الكم والكيف والجدل أمور شغلته كثيرا.

صفاته:

صلب معتز بنفسه ايما إعتزاز، ملتزم بالحقيقة، متجرد من كل تعصب وهوى، فلا يقيم لرأي وزنا إلاّ إذا فلاّه. والذي أثار الاعجاب به والنفور منه معاً هو كونه على صواب غالباً. جريء في النقد، فسجل «ما استشنع على أرسطو»، وصحح أخطاء بطليموس، وشرح «لماذا خبر الحيات التي إذا رآها امرؤ أو سمع فحيحها مات، فقال «ليت شعري من أخبر بمكانها أو بأمرها إذا كان المطلع عليها ميتا»، وأنّب الرازي لاستخفافه بالهندسة، ولتفاهته على الرياسة، ولأنه «منخدع لكن ليس خادعاً».

يميز في نقده بين الشخص وقوله أو عمله. البيروني أحب الرازي مثلاً ونقده بشدة. أضنى نفسه في دراسة الهندسة وأحب أهلها، لكنه غضب لتخليطهم العلم بالخرافة، فقال: «إني أشبه ما في كتبهم من الحساب والتعاليم «..بدر ممزوج ببعر ... والجنسان عندهم سيان» وهو الذي وصف أرقامهم أحسن وصف.

نشاط خارق وحركة مستمرة. تراه على جبل تارة، وفي واد بعد قليل، يقيس ويرصد. إذا لم يجد آلة صنعها. أو جعل من ورقة مقياسا دقيقاً بعد إبتكار المعادلة الملائمة. ويعود متعبا، فيلومه صديق على كثرة إنشغاله، ويجيبه البيروني بكتاب يشرح فيه فوائد ذلك العمل، ويسأله صديق سؤالاً بسيطاً فيقدم له سفرا قيما. وهذا دأبه فلقد كرس حياته للعلم والتعليم. حتى على فراش موته يطلب من عالم جوابا، فيبكي هذا العالم: أعلى فراش الموت تطلب العلم، فيرد أبو الريحان «أخشى أن ألقى ربي جاهلاً».

أهمل ذكره ابن خلكان في الوفيات، وابن الأثير في تاريخه. لكن البيروني ليس بالرجل الذي يرضى أن يؤرخ له أحد، وهو الذي أرخ للأمم، وفي طبيعة عمله في الرصد بساعاته وتواريخه نعرف تحركاته. لم يخسر البيروني إذن، بل الخاسر من أهمل ذكره. تصور مؤرخاً لرجال القرن العشرين لا يذكر اينشتين، أو جريدة لا تذكر أخبار أعظم علماء عصرها! يجمع المستشرقون أن «تاريخ العلوم لا يكتمل إلاّ بذكره... وسيحتل مكانة رفيعة بين أي مجموعة من أكبر علماء الدنيا... فيه أمّ صفات العالِم... وهو قدوة لكل العصور...».

بقيت أكثر كتب البيروني متداولة حتى القرن الخامس عشر ثم انطوى ذكره وانطفأ نور العلم حين زلزلت أخيراً مراكز العلم من قواعدها وأخذ الظلام يلف الحضارة العربية.

لم يعرف الغرب بالبيروني إلاّ في القرن التاسع عشر، وما كان سهلاً اكتشافه، ذلك أن ترجمة أعماله تتطلب مقدرة لغوية وعلمية، ثم أن نظرياته المتقدمة ومعادلاته في الرياضيات كان سيعيا فهمها على أهل العصر. لذلك يقول أحد المستشرقين «... كان ذو نظرة شاملة لا تتقيد بزمن ... وكتبه من ألف سنة تسبق كثيراً من المناهج الفكرية التي نظنها حديثة...».

الغرب يبعثه:

كان المستشرق نيكولاس دي خانيكوف أول من نبه اوروبا إلى البيروني سنة ١٨٦٦. وسرعان ما تتدفق الكتب «حساب المثلثات عند البيروني، جغرافية البيروني..». من أعظم

اسطرلاب من
القرن التاسع

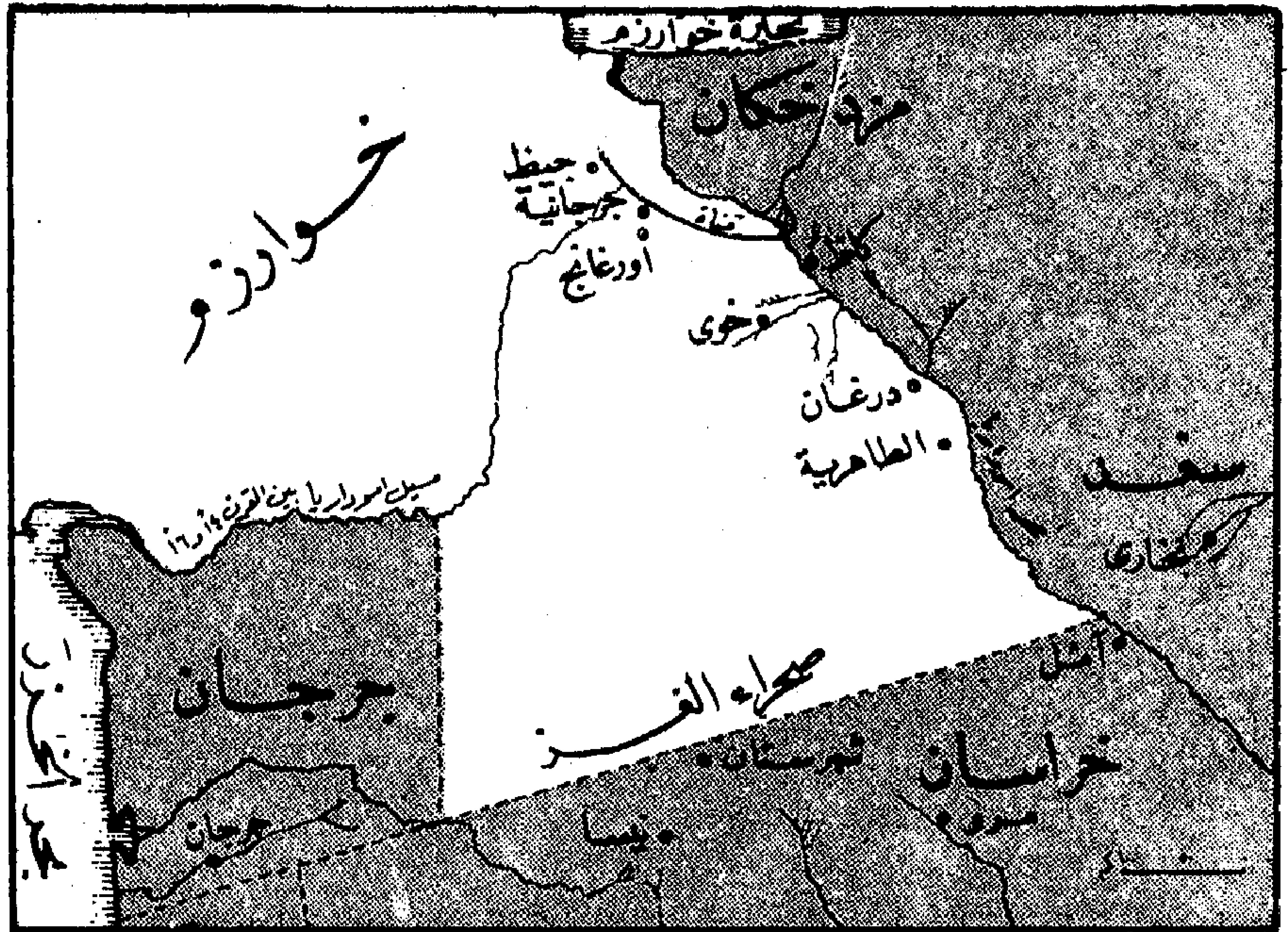


المحققين كان الألماني ساخاو الذي ترجم إلى الالمانية والانجليزية كتابين ضخمين (الآثار الباقية عن القرون الخالية، ١٨٧٩ وتاريخ الهندسة ١٨٨٨) ويقول ساخاو «... البيروني أعظم عقلية ظهرت في التاريخ ...» وبعد أن اطلع الخبراء على كتبه عن الهند قال أحدهم «... محاولة فريدة من رجل مؤمن يدرس بنزاهة وتجرد حضارة وثنية ... ومن جهة تاريخية جاءت هذه الدراسة أكبر ظاهرة علمية في تاريخ الاسلام ... وجميع ما كتب من قبل هو أشبه بألعاب أطفال...» لذلك اهتم الهنود بالبيروني، وفي ١٩١٣ قامت بعثة لتجميع آثاره، وكذلك الفرس. وما إن دخل النصف الثاني من القرن العشرين حتى كثرت المهرجانات والكتب، وأخذت الدول تتنازع شرف الانتماء إليه، فتحسبه من أبنائها.

روسيا تسمي جامعة ومدينة على اسمه، وتقيم له تمثالاً في جامعة موسكو. وتكرمه الهند وايران وافغانستان، وجامعات في اميركا والمانيا، واليونسكو تصدر فهرساً بالمآثر العربية، ومن بينها أعماله. حتى تركيا تريده، لأنها تظن أن البيروني سليل الأتراك الذين انتشروا بين بحري أرآل وقزوين.

ديننا والدولة عربيان:

أما البيروني فقال في آخر مصنفاته (الصيدنة في الطب): «ديننا والدولة عربيان ... وكم احتشد طوائف من التوابع ... في إلباس الدولة جلابيب العجمة فلم تنفق لهم في المراد سوق... حبل الاسلام غير منفصم وحصنه غير منثلم... وإلى لسان العرب نقلت العلوم فازدانت وحلت إلى الأفئدة، وسرت محاسن اللغة منها في



الشرايين والأوردة..» كان يتكلم الفارسية ولغات غيرها، إنما كتب بالعربية، وهو الذي يقول «الهجو بالعربية أحب إلي من المدح بالفارسية».

ليس مدار هذا القول تثبيت حق أمة في البيروني دون غيرها، فالبيروني نادى بوحدة الجذور الانسانية بين شعوب شتى في عالم واحد، لا تستهويه شؤون البشر الدنيوية، فتجرد من كل هوى وتعصب، وانزوى عن مباهج الدنيا ومفاتنها، فعاش زاهداً، يطلب من الغير إلتزاما إقامه على نفسه، وكأنه يهتدي بالفاروق في كثير من صفاته وتصرفاته ...« فإني لا، آبى قبول الحق من أي معدن وجدته...»».

أما الآن فسنترك آثاره العلمية وابتكاراته البديعة لمن يفهمها، لنسرد قليلاً من التاريخ المتعلق بعصره وبحياته وبالمناطق التي عاش فيها...

عصره:

عصر البيروني عصر مظلم لما اشتعلت فيه من فتن، إنما يذهل بما جمع من خالدين. هذا ابن يونس (متوفي ١٠٠٩) عبقري الفلك وحساب المثلثات يخترع الرقاص الكروي، ويستعمله مقياسا للزمن، وذاك ابن الهيثم (١٩٦٥– ١٠٣٩) نابغة الرياضيات والفيزياء يطور علم البصريات والعدسات، وهناك علي بن عيسى أشهر جراح ومصنف في حقل البصر والعيون. ولا ننسى الفيلسوف الطبيب ابن سينا. هؤلاء قلة من علماء المشرق، ونستميح العذر من علماء المغرب مثل ابن حزم (٩٩٤ – ١٠٦٤) إذ لم يتسع المجال لذكر أسمائهم. ويجود هذا الحين بنخبة من الأدباء مثل أبي العلاء المعري الذي ولد بعد البيروني بثلاثة أشهر، فلا عجب إذا كان هذا العصر هو عصر التأليف العلمي الخلاق في تاريخ الحضارة العربية، وفيه وصل الفكر ذروته في القرون الوسطى.

يقول المؤرخ سارطون الذي قوم حضارات الأمم وعدد منجزاتها في كتابه الضخم «المقدمة إلى تاريخ العلوم» إن النصف الأول للقرن الحادي عشر ينبغي أن يسمى «عصر البيروني» لأنه ملأ عصره، وفاق معاصريه إذ حلق فلم يلحق به أحد.

أما الناحية السياسية لعصر البيروني فكانت مرحلة الهوان والانحلال للخلافة العباسية، إذ طغى عبيد وعساكر على ولاتهم، فتبعثرت الخلافة دويلات تركية وفارسية من شيع وطوائف مختلفة، كانت أشبه بكبكوبة خيطان، يدوخ من يحاول فك عقدها. سنذكر بعض هذه

الدويلات حين نستعرض حياة البيروني.

خوارزم تدخل الحضارة العربية:

ترعرع البيروني في خوارزم، وسنذكر قليلاً من تاريخ هذه المنطقة وصفات أهلها.

حين استقر الحكم للأمويين أوعز الحجاج ابن يوسف سنة ٧٠٤ إلى والي خراسان المقيم في مرو، القائد قتيبة بن مسلم، أن يعبر نهر اموداريا (جيحون آنذاك) ويفتح بلاد ما وراء هذا النهر الذي توقفت عنده جيوش عثمان بن عفان. كان هذا النهر يفصل بين قوميات تتكلم الفارسية وأقوام تتكلم التركية (التركمان). بعد عمليات رائعة دامت ٨ سنوات أخضع قتيبة الأقاليم الشمالية الشرقية (بخاري، طشقند وسمرقند)، كما أخضع الأقليم الشمالي الغربي (خوارزم). ولقد دمر قتيبة كثيراً من الأصنام والمعابد، ولم يغفر البيروني لقتيبة تدميره بحضارة الخوارزميين. جاء هذا الفتح بعواقب محمودة إذ مهد لنمو مراكز علمية وثقافية عظيمة ساهمت في تقدم الحضارة العالمية الممثلة آنذاك بالعرب. لعل القارىء يذكر أن عباقرة مثل الزمخشري والخوارزمي ولدوا في خوارزم، وكذلك البيروني. وما بين بحر خوارزم (أرال) وبحر قزوين إلى الغرب عاش البيروني النصف الأول من حياته.

صفات أهله ووطنه:

اشتهرت في خوارزم آنذاك مدينتان: كات والجرجانية إلى الشمال. كلاهما على نهر آموداريا وتعرفان اليوم بأسمي كيفا (خيفا) وأورغنج، وهما في روسيا حالياً. يقول ياقوت عن خوارزم: ... أهلها علماء فقهاء أذكياء أغنياء، فهي لعمري بلاد طيبة .. فيهم جلد وقوة .. غالب عليهم الطول والضخامة ... وفي رؤوسهم عرض، ولهم جبهات واسعة ... مرنوا على القناعة بالشيء اليسير (والمترفون مثل الفقراء) ونستنتج أيضاً أنهم ذو تعلق شديد بوطنهم.

يقول لنا المقريزي: «أخبار البلاد وآثار العباد»: الجرجانية مدينة عجيبة إذ كل أهلها أجناد حتى البقال والقصاب والخباز والحائك... وأهلها أهل الصناعات الدقيقة ... يغلب عليهم ممارسة علم الكلام في الأسواق والدروب، يناظرون بلا تعصب، وينكرون من أحد ذلك قائلين: ليس لك إلّا الغلبة بالحجة...».

عاش البيروني أيضاً في جرجان (ايران) على بحر قزوين وهي (مدينة حسنة على واد عظيم ... سهلية جبلية بحرية .. أودية هائلة وجبال عالية ... إذا غدا القناص راح بما اشتهى. بها الثلج والنخيل .. وحرها ينضج الجلود ... وبها ثعابين تهول الناظر لكن لا ضرر لها... أما أهلها فيأخذون أنفسهم بالتأني والأخلاق المحمودة).

وقضى البيروني مدة كبيرة من حياته في غزنة (افغانستان) وسنذكرها بعدئذٍ.

نشأته:

ولد البيروني في ٤ أيلول ٩٧٣ قريبا من كيفا (كات)، ويقول أنه لا يعرف نسبته ولا أباه



ولا جده. أما كلمة «بيرون» الفارسية فتعني «الغريب أو الخارج»، مما يدل على أنه لم يكن من أفراد مجتمع مستقر. لربما كان ذلك من كثرة تجوال أهله كتجار، أو لأقامتهم خارج أسوار المدينة تجنباً لدفع الضرائب.

اشتغل من صغره كمساعد لعالم نبات يوناني، فكان يجمع الزهر، ويشاهد ترتيبها وفحصها. لا ريب أن هذا العمل أثّر فيه، لأنه

ترك لنا مصنفات في الزهر وخصائص أوراقها من ناحية عددها. غير أن حبه الأول والأخير هو للرياضيات، إذ فيها يرى القدح، ومن حسن حظه أن يكون استاذه الفلكي المشهور أبو نصر المنصور بن علي بن العراق (تلميذ أبي الوفاء). الذي تنبه إلى نبوغه، ودربه، ثم نشأت بينهما مودة وثقة عظيمتان. اشتغل بالارصاد الفلكية، ولم يتجاوز سنة ١٧ سنة حين صمم طوقا مقسماً إلى أنصاف درجات، ليرصد إرتفاع الأوج للشمس في كيفا، وليستخرج بذلك خط العرض لموقعها على الكرة الأرضية. وبعد أربع سنوات خطط لعمليات أوسع، وصمم الأدوات الضرورية وطوقا قطره ٨ أمتار تقريباً، لكنه قام برصد واحد في صيف ٩٩٥، لأن فتنة ضربت بلده. يقول في كتابه «تحديد الأماكن لتصحيح مسافات المساكن»:

«ولم أتمكن إلّا من رصد غاية الارتفاع بقرية على غربي جيحون وجنوب مدينة خوارزم ... وردف هذا اليوم من التشاويش بين كبيري خوارزم ما أحوج إلى تعطيل ذلك والتحصن ... ثم الاغتراب عن الوطن ... ولم يستقر بي بعدها القرار...».

تشرده:

لا ريب أن سبب تشرّده هو هربه من فتنة ضربت كات حين غزاها وحاصرها والي الجرجانية المدنية الثانية والكبيرة في غوارزم، لعل القارىء يذكر أن ذلك العصر شاهد تفتت أطراف الدولة العباسية، فأمست دويلات، في كل مدينة متمرد ثم سلطان. يذكر المقريزي أن محمداً بن فامون والي الجرجانية استولى على كات بعد أن قتل الخوارزم شاه أبا العباس (أو أبا عبد الله) عام ٩٩٥، وضم كات وما حونها إلى سلطانه. كان البيروني يناصر والي بلده، فهرب. يقول البيروني في كتابه (الآثار الباقية عن القرون الخالية) أنه لجأ إلى الري (القريبة من طهران وبحر قزوين)، وكان في بؤس وفقر مدقع مما أثار عليه سخرية أحد المنجمين، لكنهما تصاحبا بعد ذلك. ثم دعاه الأمير البويهي فخر الدولة، فبنى له مزولة كبيرة على جبل مشرف على الري، وسماها باسم الأمير. وفي هذه المدة عمل في مناطق كثيرة حول بحر قزوين، ولا سيما قريباً من مدينة مزدهرة آنذاك اسمها جرجان (جزء من طبرستان).

بعد ذلك يقول في كتابه «تحديد...» أنه عاد إلى كيفا حيث شاهد خسوف القمر ليلة ٢٤ أيار ٩٩٧، ويقول أنه كان قد اتصل بالفلكي أبي الوفاء في بغداد، وطلب منه رصد الخسوف وتقرير الوقت لمعرفة الفرق الزمني بين مشاهدة الخسوف في بغداد وكيفا. بادر البيروني إلى هذا العمل المشترك. وإذا تذكرنا مواصلات ذلك العصر، أدركنا أن البيروني كان يخطط ويرتب وينسق لمهمات وأعمال ينوي تنفيذها في المستقبل.

إلى بخارى وجرجان:

وفي هذا العام (٩٩٧) تولى الأمير الساماني الشاب منصور بن نوح الثاني الحكم في بخارى، فلجأ إليه البيروني، وعينه الأمير منجما في البلاط. ولعل القارىء يذكر أن نجم البلاط المتألق آنذاك كان الطبيب ابن سينا الذي حظي بمنزلة رفيعة لشفائه امير. ولربما كانت هذه الفرصة الأولى للقاء شخصي بين البيروني وابن سينا الذي كان يصغر البيروني بسبع سنين. يبدو أن البيروني لم يسر بجو البلاط، فقد وضع لنفسه أهدافاً أكبر ولا بعلمه، ولا بشخصية ابن سينا، فقرر أن يترك وهو الذي سنحت له الفرصة في عام ٩٩٨ حين زار في بخاري أمير الزياريين شمس المعالي قابوس الذي كان والياً على جرجان: عرف عن هذا الأمير ذكاؤه وحبه للعلم والعلماء، فاصطحب البيروني إلى جرجان. من حسن حظ البيروني أنه ترك بخارى، ذلك أن الفتن عصفت بالبلد، فخلع الأمير الشاب وسمل، وتطورت الأمور حتى دخل بخارى الأمير الغزنوي محمود. كان ابن سينا شاهداً على هذه الاضطرابات، وهرب من بخارى بعد أربع سنوات من رحيل البيروني، وتشرد وذاق ذلاً بعد عز.

أما البيروني فقد استقر في جرجان، وطلب منه قابوس أن يكون مستشاره فأبى، مفضلاً التفرغ إلى العلم، فكان له ذلك، وصنف كتابه

المشهور «الآثار..» وقدمه إلى الأمير سنة ١٠٠٠. يذكر في هذا الكتاب ما صنفه من كتب (سبعة مفقودة) غير أن وصفه يدل على أنه تثبت في العلوم، ووضع الأسس لما كان ينوي عمله بعدئذٍ. ويتحدث عن النظام العشري للحساب، وعمليات الرصد وغير ذلك من أمور، وكان عمره حينئذ ٢٧ سنة. وفي هذا الكتاب يشير إلى ابن سينا «بالشاب». يقول الدكتور كندي إن هذا الوصف من رجل ما زال في العشرينات يشير إلى تكبر البيروني على شاب نبغ مبكراً.

عودة إلى الوطن:

حين مات محمد بن مأمون الذي منه هرب البيروني، وخلفه ابنه علي، كانت الأحوال السياسية والحزازات الشخصية قد هدأت، فدعاه علي ليرجع إلى خوارزم، فرجع لما نعرفه عن البيروني من تعلق بمنطقته. ونعرف متى عاد من سجلاته للارصاد: فيقول أنه رصد كسوف القمر ليلة السبت، ١٩ شباط ١٠٠٣، وليلة الأحد، ١٤ آب ١٠٠٣ وهو في جرجان. أما الرصد الثالث فكان ليلة الأربعاء، ٤ حزيران ١٠٠٤ من الجرجانية عاصمة خوارزم (القانون، المقالة ٧، صفحة ٧٤٠ - ٧٤١). إذن قبل دعوة علي الذي ألحقه بحاشية أخيه الأمير ابن العباس مأمون. وبعد رحيل البيروني عن قابوس عصفت الفتن بجرجان وأودت بحياة قابوس خلال سنوات قليلة.

بعد وفاة علي حوالي ١٠٠٩ خلفه أبو العباس الذي زاد من أعباء البيروني إذ عينه مستشاراً سياسيا مقيما في القصر وسفيراً مفيداً لرجاحة عقله وطلاقة لسانه وقوة حججه في الاقناع. يتذمر البيروني لأن ارصاده تأثرت، وأعماله في مجلس العلوم خفت، فيقول في (تحديد...) «... فأكرهت من أحوال الدنيا على ما حسدني عليه الجاهل ... ثم تفرغت قليل التفرغ في أيام الشهيد أبي العباس..» لكن أشغاله لا تثنيه عن إنهاء ما بدأه سنة ٩٩٥ من قياسات لارتفاع الشمس، ولا سيما أن ولي نعمته وهبه مالاً لينشيء جهازاً يرصد به أوج الشمس، ويقوم بذلك ما بين ٧ حزيران و ٧ كانون الأول سنة ١٠١٦ وفي هذه الفترة المزدهرة يصمم «نصف كرة» قطرها ٥ أمتار، لتكون جهازاً يبين الحلول بالخطوط البيانية لمسائل تتعلق بعلم هيئة الأرض وقياس خواصها كالمساحة مثلاً.

الأسر:

وتأبى الأقدار إلاّ تخريب عمله فتهب فتنة يذهب مأمون ضحيتها، وكما يقول البيروني «... أسفر عقباها من أمن لا يتسع للعود إلى الحال الأولى، والاشتغال بما هو بمثلي أولى...». عندئذٍ يثأر محمود الغزنوي لصهره فيحتل خوارزم في ٣ تموز ١٧١٧، ويسوق من في البلاط أسرى بمن فيهم البيروني، في ربيع ١٠١٨. وهكذا ينتهي هذا العالم إلى غزنة، عاصمة محمود في افغانستان.

لكن البيروني ليس بالرجل الذي يهدأ، أو تعيقه المصائب عن مهماته، فيبدأ كتابة (تحديد..) وهو في طريقه إلى الأسر، ونقرأ له في بداية الفصل الثالث:

«إنني يوم كتابتي هذا الفصل، وهو يوم الثلاثاء غرة جمادي الآخرة سنة تسع وأربعمئة للهجرة (١٤ تشرين أول ١٠١٨) كنت بجيفور، قرية إلى جنب كابول.. وقد حملني شدة الحرص على رصد عروض هذه المواضع، وأنا ممتحن بما أظن أن نوحا ولوطا لم يمتحنا بمثله ... ولم أتمكن من آلة للارتفاع، واعوزني وجود شيء من المواد التي منها تهيأ، فخططت على ظهر تخت الحساب قوساً من دائرة...».

هو ويمين الدولة:

كانت العلاقة بين الأمير محمود والبيروني خليطاً من الحذر والتقدير، فالأمير أخذ على البيروني رفضه ترك بلاط خوارزم حين دعاه إلى غزنة من قبل، والأمير قاهر الأمصار ذو شخصية تختلف عن شخصية عالم منفتح على العلم بكل ما فيه، تأنف العنف والقهر. كلاهما حمل بعضهما بعضاً على بغض. لكن البيروني المغلوب على أمره لا يقصر في واجبه العلمي وإن قصر في ثنائه على الأمير. ومحمود لا يبخل على العالم بالمدد وإن ضيق عليه في حريته، فكان

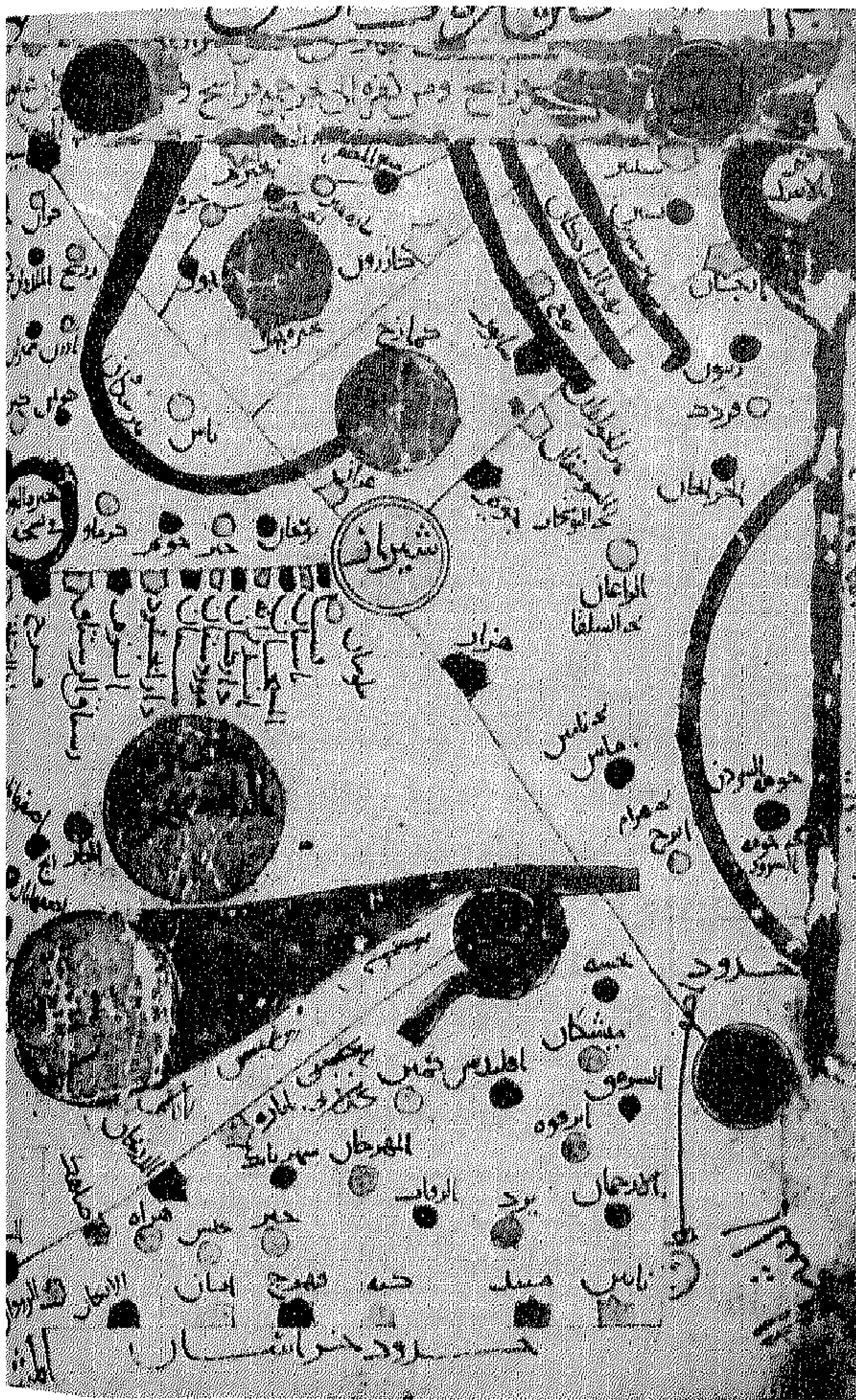
يأمن شره ويستفيد منه باصطحابه في غزواته للبنجاب، وقد رافقه ١٣ مرة خلال عشر سنين.

اشتغل البيروني في الجامعة العظيمة التي أنشأها محمود في غزنة، وأصبحت مركزاً علمياً وثقافياً ومده بالمال لإنشاء مركز ضخم لتحديد خط العرض للعاصمة ما بين ١٠١٨ – ١٠٢٠، والبيروني لا يبخس أحداً حتى أعداءه حقاً، فكان يشير إلى هذا المركز «باليميني» على لقب محمود الذي سماه الخليفة يمين الدولة. ويجدر بالاشارة أن التسمية مذكورة في كتب صنفها بعد وفاة محمود، ولم يقدم كتاباً له أبداً.

إذا تذمر البيروني من محمود، فرب ضارة نافعة، ذلك أن إصطحاب محمود للبيروني إلى الهند عام ١٠٢٢ كان كسباً جليلاً للحضارة والعالم، بما قدمه البيروني من دراسات كاملة وشاملة عن الهند، وسنفصلها في مكان آخر. المهم أن البيروني استقر في غزنة حتى وفاته حوالي ١٣ كانون الأول ١٠٥٠، أو بعد ذلك.

الأيام الهادئة:

بعد وفاة محمود في ١٠٣٠ خلفه ابنه مسعود الذي تغلب على أخيه، وتحسنت أحوال البيروني المادية، وزادت حريته فتمكن من زيارة بلده سنة ١٠٣٢ أو ١٠٣٤. وامتازت هذه الفترة بغزارة التصنيف في حقول مختلفة. كان يكتب مصنفه العظيم «القانون» وقد فرغ منه حين مات محمود. وانتظر البيروني نتيجة الصراع بين الأخوين قبل إصداره، وانتصر مسعود الذي سارع إلى إعطاء هذا العالم حريته فزار بلده، ووفر له الحياة الكريمة. عندئذ قدم البيروني مصنفه الرائع إلى مسعود وسماه (القانون المسعودي). في مقدمة هذا الكتاب لا يثني على محمود وهو المتوفي من عهد قريب، ولا يشير إليه إلّا «بالأمير رحمه الله» أو بلقبه «يمين الدولة»، ويخص مسعوداً بالثناء، وإن كان هذا الأمير سكيراً عربيداً، فهذا شأنه. ولم لا يمدحه بعد معاملته الطيبة للعلم بشخص أكبر عالم عنده. يقول في المقدمة «... فكيف وقد مكنني في صبابة عمري من الانبساط لخدمة العلم، إذ حلاّني وأسبل علي في ظله الظليل ستر الآمنة، ومطر بهو أطل النعمة، وشفع ذلك



من «كتاب البلدان» للاصطخري الفارسي (القرن العاشر)
خريطة تفصيلية لموقع «شيراز»

بتقريب وإيناس متتابع ... وشرَّف بتوقيعاته ... الخزاين والديوان...» إذن حصل البيروني على ما يشبه معاش التقاعد، وعلى مساعدين من الكتبة والفنيين ليتفرغ إلى عمله، ولينتقل بحرية بين البلاد.

عبقري يؤخذ بالأحلام والمنجمين:

يقول في «تاريخ الهند» الذي أصدره ١٠٣١ أنه بعد الخمسين من عمره مرض مرضاً شديداً مرات كثيرة، وفي ضيقه يسأل المنجمين عما يخبىء له القدر! ولم تتحسن صحته إلّا حين بلغ سن الستين (بالتاريخ القمري). ويروي أنه شاهد حلماً ظهر فيها هلال أخذ يختفي، وسمع صوتاً يقول له «سترى مثل هذا الهلال ١٧٠

آخـرين...». وصحت الأحـلام إذ نيّف عـلى الثمانين!.

إنقطاع أخباره:

في سنة ١٠٤٠ يثور قواد مسعود ويذبحون الأمير، ويخلفه ابنه مودود، الذي يقدم إليه آخر مصنفاته «الصيدنة في الطب» وفي هذا الكتاب يـذكر أنـه نيّف على الثمـانـين وخف سمعـه وبصـره؛ وتقل أخبـاره بعد ١٠٤٨ ذلـك أن الاضطرابات أنهت حكم مودود. تذكر المصادر العربية أن وفاته كانت سنة ١٠٤٨، لكن الثابت من أقواله في كتاب «الصيدنة في الطب» أنه كان حياً ذلك العام، ولربما توفي حوالي ١٠٥٠.

مصنفاته:

في سنة ١٠٣٦ ينهي «فهرساً» بأعماله حتى هذا التاريخ، فلا يشكّل على أحد، ويقول بلغة الواثق والمتيقن من أهمية أعماله:

«... ويجب عليك أن تعلم فيما عددته من كتبي بما عملته في حداثتي، وازدادت المعرفة بفنه بعد ذلك فلم أطرحه أو استرذله، فإنهـا جميعاً أبنائي، والأكثر بأبنه وشعره مفتون ...» ثم يذكر أسماء الكتب التي اتفق لي عملها سنة ٤٢٧ للهجرة. وقد تم من عمري ٦٥ سنة قمرية، و٦٣ سنة شمسية...» ونعرف أنه كتب ١٨٠ مصنفاً أو أكثر، نوجز الحديث عن بعض منها.

لا بد أن نعود إلى كتابه «تحديد الأمـاكن لتصحيح مسافات المساكن». ذكرنا هذا الكتاب حين سردنا تاريخ البيروني. فرغ تصنيفه في ٢٨ آب ١٠٢٥ والكتاب سفر قيم لقياس خطوط العـرض والطول، ومـوقع البلـدان على الكـرة الأرضية. وكان همه الأول تحديد موقع الكعبة الشريفة بالنسبة إلى غزنة وغيرها من بـلاد. ولقـد أنجز المهمـة بنجاح بـاهـر كمـا يقـول البـروفسور كنـدي. وفي الكتـاب بحث واسـع لتحركات الجبال والمحيطات وأثرها في تغير مركز الأرض. وبالتالي تغير الخطوط المذكورة.

وصلتنا مخطوطة واحدة تـرجمها الـدكتور جميل علي إلى الانجليـزية، وعلق عليهـا خبير



من الأطلس الكبير للادريسي (القرن الثاني عشر) خريطة العالم المعروف و«نهاياته»، تبدو آسيا واوروبا وشمال افريقيا.

البيروني الدكتور أدوار كندي الذي حول رموزها وأشكالها إلى المصطلحات الحديثة، وراجع حسابات البيروني مستعملاً الدماغ الالكتروني أحياناً، ولقد سجل إكباره للبيروني لدقة حساباته وابتكاراته. في هذا الكتاب يغير ويطور المعنى القديم لمصطلح «الميل إلى معناه الحديث، وهو إنحراف المسافة لشيء ما عن مستوى الشمس، ويبتكر الطرق الضرورية لتحديد قيمته».

أما «القانون المسعودي» الذي أشرنا إليه. فهو موسوعة ضخمة تلخص قواعد البيروني وابتكاراته. وفي الموسوعة خزانة كبيرة لتاريخ الأمم وتقاويمها من «يوم آدم» إلى يوم البيروني ... فليراجعه من يشاء...

لم يُصدر «القانون» فحسب بل كتابين ضخمين عن الهند ما بين سنتي ١٠٣٠ - ١٠٣١ (طريق الهند، وتاريخ الهند) إلى غيرهما من كتب علمية.

أما كتاب «تاريخ الهند» فهو «تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة». مرجع أساسي كامل للحضارة الهندية. لم يترك شيئاً إلّا وكتبه، ويقول المستشرق بيلر «كتبه .. وهو ينظر بعقل الفيلسوف والرياضي العارف بمناهج البحث عند أرسطو وأفلاطون وبطليموس وجالينوس...» ويعترف البيروني «... ولقد أعيتني المداخل فيه، مع حرصي الذي تفردت به في أيامي...» ولقد أراد البيروني الكتاب لكل مسلم راغب في مناقشة الهنود، أن يفعل ذلك فيكون حوار الند للند!

بعض مآثره:

كان له من العزم ما جعله يقوم بحسابات وحل معادلات لا تعالج اليوم إلّا بالأدمغة الالكترونية. اختار أصعب المسائل وحلها، وتسمى هذه المسائل الهندسية والرياضية «مسائل البيروني». وقدم طريقة بسيطة للرسم على الأوراق أشكالاً هندسية من ذوات البعد الثالث، كالأجسام الكروية. ومن أهم أعماله الفلكية ابتكاره نظرية خاصة لتقدير «النسبة التقريبية» الضرورية لحساب مساحات ومحيطات الدوائر، وتمكن من تقدير محيط الكرة الأرضية وقطرها. يجد البيروني قيمة النسبة التقريبية ٣,١٤١٧٤ والصحيحة هي ٣,١٤١٥٩. هو إذن مبتكر القاعدة المعروفة بقاعدة البيروني، وهي معادلة رياضية تستخدم في حساب نصف قطر الأرض استناداً إلى معرفة محيطها. المعادلة بسيطة، شأنها شأن القواعد الجليلة، ويقول نللينو «... معادلة البيروني لقياس محيط الأرض هي من الأعمال العلمية المجيدة والمأثورة...».

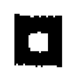
صمم جهازاً بسيطاً لقياس الوزن النوعي (الكثافة) لبعض المعادن والجواهر، ونتائجه تشهد عليه: الذهب: ١٩,٢٦، وهذه هي اليوم؛ ويقول أن الذهب سمي كذلك «لأنه سريع الذهاب بطيء الاياب على الأصحاب!». وهو أول من استعمل الوحدة (نسبة واحد) للنسب المعروفة في حساب المثلثات، وهذا الاستعمال قائم حتى الآن...

مصنفاته باستثناء القليل ذات أسلوب واضح، لا لبس فيه ولا إبهام، وإن كان غير سلس. يحب الايجاز فيقول أنه يكتب «... لمن له دراية واجتهاد، ومحب العلم ... ومن كان على غير هذه الصفة، فلست أبالي أفهم أم لم يفهم...».

بعض ما نأخذ عليه:

نأخذ عليه تقصيره في استقصاء مسائل حيوية أثارها هو بنفسه، كدوران الأرض حول الشمس، ودوران الاجرام في مدارات بيضية لا كروية، وهكذا يكون قد سبق كوبرنيكس وكبلر بستمئة سنة. ولم ينكر أراء أرسطو كليا وإن أنكر عليه كثيراً من أقواله. وبقي يعتقد أن الشمس ليست مصدر الحرارة، بل مصدرها احتكاك الأجرام.

لربما إنشغاله بإعادة تجاربه حتى استحوذت عليه دقة الأرقام بمنازلها الست، صرفه عن أمور كان ينبغي عليه أن يدرك أهميتها أكثر من أهمية فروق في النتائج. لا أعتقد أن البيروني سيغضب لهذا النقد إذ لم انخله كما نخل الناس!.



مدنية السند وعلم الآثار

د. نقولا زيادة



أختام من موهنجودارو

كان المتعارف عليه بين المؤرخين إلى أوائل القرن الحالي أن قوماً دخلوا حوض السند في أواسط الألف الثاني ق.م. من الجهة الشمالية الغربية، وإن هؤلاء هم الذين أوجدوا حضارة الهند التي حفظتها لنا الخرافات والأساطير وتحدث عنها الكتاب ووصفها الرّحالة وهي التي كانت السنسكريتية لغتها وآدابها.

ولكن في سنة ١٩٢١ كان بعض المسؤولين في تلك المنطقة يدورون بالمعبد البوذي القائم في مكان يسميه الناس «تل الموتى» (موهنجودارو) لتنظيف البناء، لما تبدَّت لهم آثار لا تمتّ إلى المعبد بصلة. فأخذوا يخدشون الأرض، ثم أخذوا يعمقون الجراح. وتولى أمر الحفر هناك السير جون مارشال، الذي كان مديراً لإدارة الآثار الهندية، فكان أن اتضح لعلماء الآثار، في غضون سنوات قصيرة، إن المكان الذي يسميه الناس «تل الموتى» كان، قبل أربعة الآف وخمسمئة سنة، مدينة تعج بالحياة بكل معنى الكلمة. وكان كل موسم يزيح نقابا عما خفي



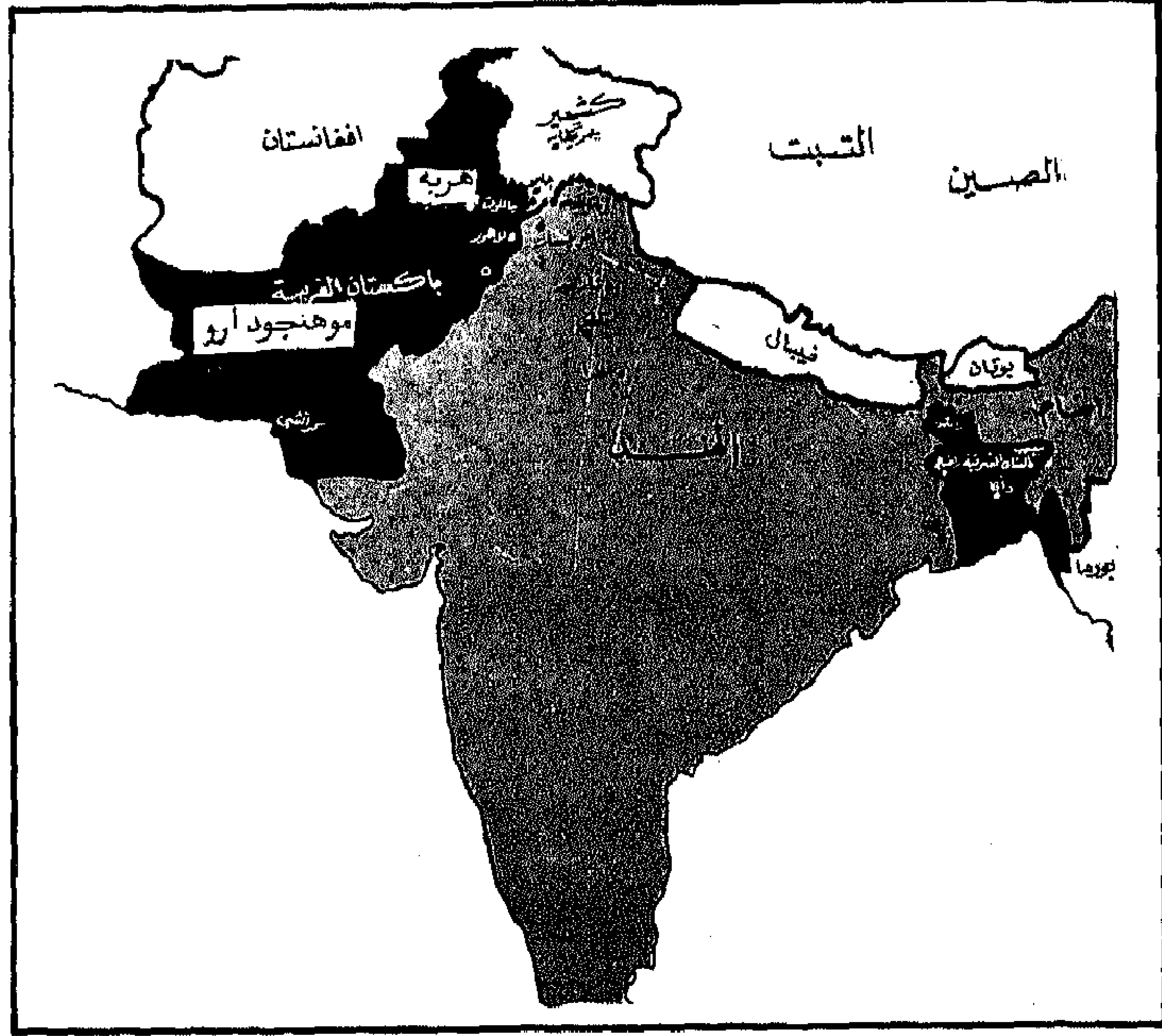
الصورة مأخوذة في موهنجودارو في شباط/ فبراير/ ١٩٥٩. المناسبة كانت حضور ندوة عقدت في كراتشي عن «الإسلام في العصر الحديث» ويبدو في الصورة الدكتور قسطنطين زريق والدكتور نقولا زيادة.

من قبل حتى كان كشف سنة ١٩٥٠ فاتضح أمر موهنجودارو. وإذا تذكرنا أن الحفر لم يقتصر على هذا المكان بل اتجه إلى «هَرَبة» وغيرها من الأماكن، عرفنا أن المنطقة التي كانت تزدهر فيها حضارة السند كانت تمتد نحواً من ألف وخمسمئة ميل من الشمال إلى الجنوب ونحو ثلث هذا شرقاً في غرب.

وسنقتصر في هذا الحديث على وصف موهنجودارو على ما رأيناها بأنفسنا في زيارتنا باعتبار أنها نموذج لمدينة السند.

تقع أنقاض موهنجودارو (تل الموتى) على مقربة من نهر السند، في منبسط من الأرض يتعرض لأن يغرقه النهر إذا خطر له أن يغير مجراه، وما أكثر ما كان يفعل ذلك. ومن أجل ذلك رفع أهل المدينة المصاطب ليبنوا مدينتهم في أمان من النهر وفيضانه وتغيير مجراه. وكانت الأرض المحيطة بتل الموتى تخترقها قنوات الري فتجعل منها، بدل التربة المهملة اليوم، أرضاً تنتج الخير الكثير لسكانها. فكان القمح والشعير والسمسم والقطاني والشوفان وبعض القطن مما تجود به الأرض. والأرض تعطي متى اعتني بها، وتفقر متى أهملت. أما المدينة التي كانت تقوم هناك حول ٢٠٠٠ق.م. فقد كانت مدينة كبيرة، وكانت حضارتها من النوع الذي عرفه العالم القديم في أحواض الأنهار الكبرى في العراق ووادي النيل وما إليهما. وكانت أنواع الخزف تعرض في أسواقها للبيع، كما يبدو أن سكانها اتقنوا صناعة الآجر المشوي الذي استعملوه للبناء الرسمي والعادي.

كانت المدينة تتألف من قسمين – الأعلى والأدنى. والأول كان يقع في الجهة الغربية من المدينة، وينتشر في مستطيل يبلغ طوله من الشمال إلى الجنوب نحو ٣٦٠ متراً، أما عرضه فنحو نصف ذلك. والجدير بالذكر أن هذا القسم كان في غاية التحصين. إذ فضلاً عن المصطبة الضخمة التي أقيمت لإرساء الأسس عليها ، نجد بقايا سور يبلغ سمكه في أسفله نحو ١٢ متراً ويدق قليلاً كلما ارتفع، ويتراوح ارتفاعه بين ١٠ و ١٢ من الأمتار. ومع أنَّ السور مبني من الآجر المجفف بالشمس أو من التراب ، فإن جداره الخارجي كان من الآجر المشوي بالنار وهذا كان يحميه من الأمطار



الموسمية الغزيرة. وكانت تقوم على مسافات متساوية فيه حصون مستطيلة بنيت بناء قوياً.

يدور هذا السور بأرض رفعت نحو عشرة أمتار عن المستوى الأصلي، بحيث تكون الأبنية المقامة عليها في مأمن من الفيضان. وقد أقيمت على هذه المصاطب البنايات العامة، سواء في ذلك الأبنية المدنية والدينية. ومن هذه خزان كبير للماء، وبيت لعله كان مقرّ حاكم المدينة، وبناء آخر لعله كان الديوان العام الذي يجتمع فيه أهل الشورى والادارة.

أما القسم الثاني – الأدنى – من المدينة فتتضح لنا معالمه إذا ارتقينا مكاناً عالياً في القسم الأول يشرف عليه. إنه الجزء الشرقي من «موهنجودارو». إن آثاره، من البيوت والحوانيت، تمتد كيلومتراً ونصف الكيلومتر في إتجاه نهر السند، حيث تقوم في آخر هذه المسافة، مصطبة ضخمة توضح للنهر المدى الذي يستطيع أن يصل إليه دون أن يؤذي المدينة أو سكانها. ولم يكن نهر السند ليرضى بهذه الحدود دوما، فما أكثر ما بلغت به سورة الغضب أن يتجاوز هذه المصطبة فيخرب ويحطم. لكنه لا يلبث ليعود إلى مجراه باسماً مسالما، وعندئذ ينشط القوم إلى البناء ثانية والاستمتاع بنعمة هذا النهر الكبيرة.

لقد رأينا، ونحن واقفون على أطراف تحصينات القلعة وهي القسم الأصلي الغربي من المدينة، شوارع متوازية ومتعامدة في عرض نحو عشرة أمتار، تمتد أمامنا، وتقسم المدينة أقساما متسقة متساوية تقريبا، كل منها نحو ٦٣٠ في ٢٠٠ من الأمتار المربعة. وهذا الأمر يدل دلالة قاطعة على أن المدينة لم تنمُ نمواً عادياً على مر السنين، بل كانت نتيجة تخطيط من صنع مهندس عليم بأمر تخطيط المدن. ولكل شارع مجاريه المنظمة المرتبة تحمل فضلات المياه بحيث تلقيها بعيداً. لكن هذه الشوارع كانت ترابية، أي أنها لم تغط بالحجارة قط.

ولعل مما يلفت النظر في هذه المدينة هو سيطرة النظام التام على أبنيتها التي تبدو متشابهة تماما، وانعدام أي أثر للزينة العامة في الشوارع أو الساحات العامة، وعدم وجود الأبواب أو النوافذ المطلة على الشوارع الرئيسية. ذلك أن البيوت كان يُدْخَلُ إليها من الأزقة الجانبية، كما كانت بسيطة الزخرف، بسيطة الأثاث. وفي ناحية نائية من هذا القسم من المدينة تقوم بقايا ١٦ كوخاً صغيراً لعلها كانت مساكن للعبيد أو ما شاكلهم ممن كانوا يعملون جماعات تحت أمرة المدينة.

ولم يعثر الباحثون بعد على ما يمكن أن

يعتبر هيكلاً أو معبداً. ولما كانت النقوش القليلة التي عثر عليها لم تحل رموزها بعد، فإن ما يمكن أن يقال عن دين هؤلاء السكان وعبادتهم هو أقرب إلى الحدس والتخمين منه إلى التقرير الواقعي العلمي. فالذي وجد هناك من تماثيل نسائية صغيرة إلى وجود نوع من عبادة «الآلهة الأم». وثمة ما يشير إلى قيام نوع من العبادة الجنسية التناسلية وعبادة الأشجار. فإذا صح هذا الاستنتاج فإن العبادة التي كانت تقام أسرارها في موهنجودارو وما إليها كانت عبادة أساسها الخصب والانتاج.

ويرى علماء الآثار الذين درسوا المدينة وما أظهره التنقيب عنها أن السكان كانوا يستعملون القليل من الثياب. لكن هذا الذي استعمل فيه تنوع من الألوان وفيه زركشة. والظاهر أن الكثيرين من رجال الدين كانوا يطلقون لحاهم. ومما لفت النظر تنوع السكان، مما يدل على أنّ عناصر من خارج المنطقة جاءتها متاجرة ومهاجرة ومستوطنة. وهذا لا يخرج عما يمكن أن يرى إلى الآن في منطقة السند.

ولعل أطرف ما كشفت عنه أعمال الحفر في موهنجودارو هو مخزن الحبوب العجيب. فقد رفعت أرض المخزن نحو ستة أمتار عن أرض المنطقة (في الجزء الشرقي من المدينة) في بناء أسُسُه من الآجر المشوي، في مساحة ستة عشر متراً طولاً في عرض ثمانية أمتار. وكان يعلو هذا الأساس المبني إطار من الخشب تُركَت فيه محار للهواء بحيث لا يتأذى المخزون من الحب من الرطوبة. وكان الحب يحمل في أكياس على عربات تجرها الثيران إلى مكان مرتفع يقع شمالي المخزن ذاته، ومن هذه العربات تنقل الأكياس إلى أماكن الخزن. وضخامة هذا المخزن تدل على أنه كان عاماً، ولعله كان للحكومة التي كانت تفكر بأمر الرعايا فتحتفظ لهم بكميات من الحبوب تغنيهم عن التذمر والألم فيما إذا فشل الموسم.

وأكثر الذين درسوا موهنجودارو يرون أنها لم تكن مدينة محصّنة، بمعنى أن السور والحصون لم تكن تدور بها جميعها كما كانت الحال في مدينة «هربة» التي تبعد عنها نحو خمسمئة كيلومتر. ولعل موهنجودارو كانت مدينة مفتوحة، باستثناء القلعة التي كانت تشغل جزءاً صغيراً من مساحة المدينة الكلية.

هذه المدينة الآمنة المطمئنة كان رزقها يأتيها رغداً من كل مكان، من زراعتها وصناعاتها وتجارتها. ولكن ذلك لم يدم. فحول سنة ١٥٠٠ق.م. أو نحو ذلك، على ما كشفته أعمال الحفر، تعرّضت هذه المدينة لهجوم عنيف، لم يكتف الذين قاموا به باحتلال المدينة، ولكنهم هدموها وأحرقوها. فالجثث الممثّل بها، والرماد الذي ظهر في طبقات المدينة، وآثار الحرائق الباقية إلى الآن، تدل على ذلك. وهكذا انتهت قصة موهنجودارو، المدينة المنظمة المرتبة الناجحة، إلى تدمير وتخريب.

وإذن فما كان الأدب التاريخي يعتبره بدءاً لحضارة تلك الديار، أثبت علم الآثار أنه كان نهاية لمدينة عظيمة.

والسؤال الذي يقلّبه الباحثون في مدينة السند هذه هو: كيف تم لتلك البلاد أن تنشأ فيها مثل هذه المدينة؟.

ليس الجواب يسيراً. فكل سؤال عن أصل مدينة ما سهل طرحه ولكن الاجابة عليه، صعبة. ولننقل خلاصة رأي مورتيمور هويلر حول هذه القضية. يقول إن الأحوال الجغرافية كانت تمكن الشعب من التقدم. لكن الشيء الذي يلفت النظر هو أن مدينة السند ليست نتيجة تطور تدريجي، إذ ليس لها أصول متطاولة في القدم. لكن يجب أن لا يغرب عن البال أنه كان ثمة مدنيتان قد سبقتاها وهما مدنية أرض الرافدين ومدنية وادي النيل. لكن يجب أن لا يتبادر إلى الذهن أن أيّا من هاتين المدنيتين يمكن أعتبارها أمّاً مباشرة لمدينة السند. ولكن الآراء تنتقل، والحافز لمدنية الهند جاء من الغرب — من أرض الرافدين من بلاد سومر. فالصلات البحرية، عن طريق الخليج العربي، كانت قوية.

أرض غنية زراعة، وقوم يشعرون بوجودهم وحافز يدفعهم. مدينة واسعة عميقة تنشأ وتموت، ويأتي الرفش والمعول فيكشفان عنها.

■



نجيب عازوري من خلال زمانه ومكانه

عازوري والصهيونية

د. زاهية قدورة

(الحلقة الأخيرة)

في هذه الحلقة الأخيرة، تتابع الدكتورة زاهية قدورة دراسة تطور الفكرة الصهيونية في زمن نجيب عازوري، ليس عبر منظريها فقط بل قصدت إبراز الاحداث الكبيرة التي ساهمت في بلورتها وذلك حتى تاريخ وعد بلفور.



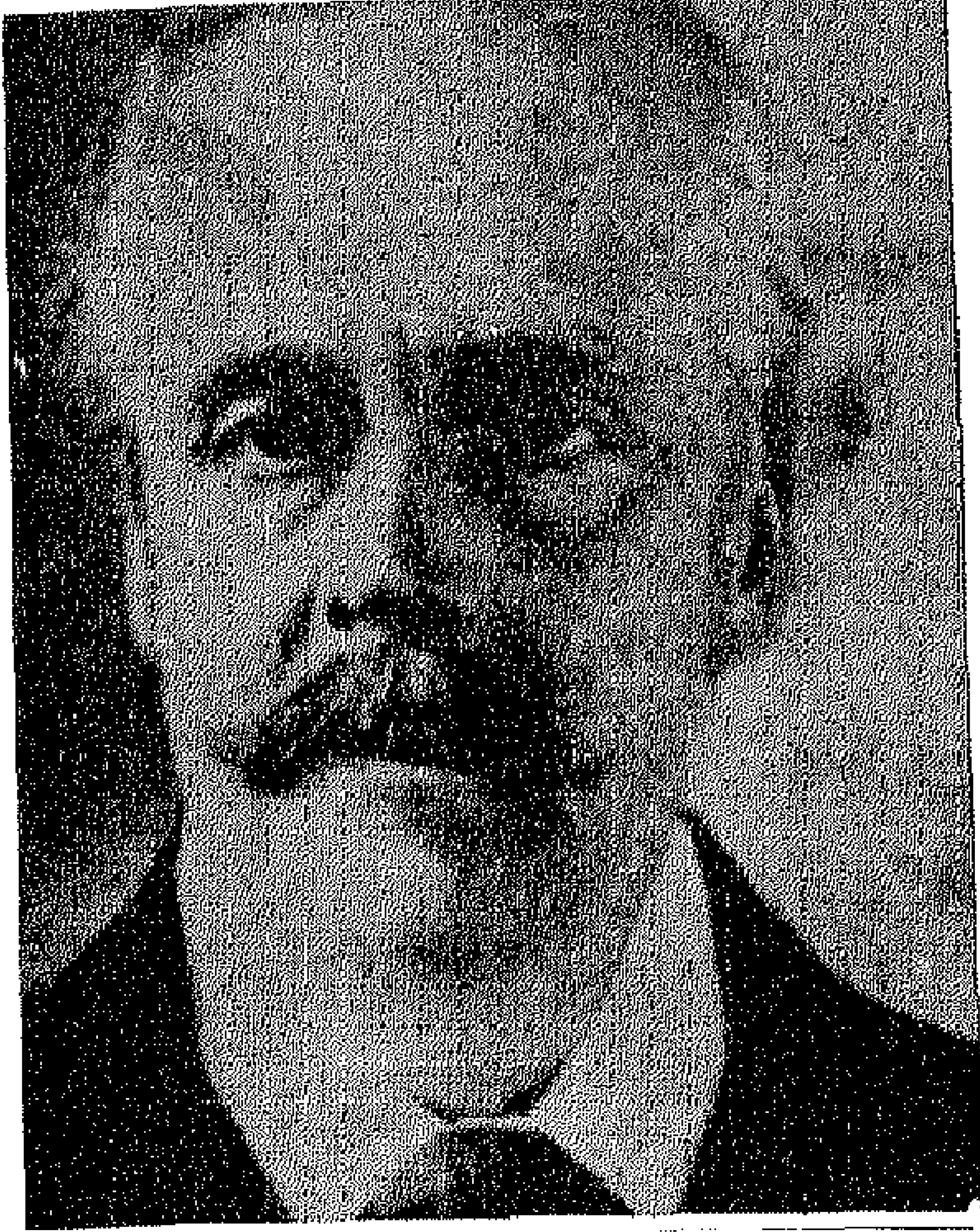
وكان من أشهر منظري الأفكار الصهيونية اليهودي الروسي «ل. بنسكر» (L. Pinsker) ١٨٢١ - ١٨٩١ الذي وجه نداء إلى يهود العالم في كتاب سماه «التحرر الذاتي» Auto-Emancipetions الذي نشر عام ١٨٨٢ مطالبا فيه بالحل القومي للمشكلة اليهودية اللاسامية Anti-Semition دون تحديد فلسطين بالذات، أي على اليهود الذين يعيشون مضطهدين في بلادهم أن يخرجوا إلى بلد آخر يعيشون فيه على أساس قومي يهودي، كأمة واحدة تجمع بينهم لغة واحدة، وعادات مشتركة، فيكون هذا البلد يهوديا مستقلاً(١). وقد أكد «بنسكر» على ضرورة أن يسكن اليهود «أرضا يمتلكونها» ويكون بذلك قد انطلق من فكرة «الاستيطان». ثم تطورت تطلعات «بنسكر» فيما بعد، وكان له أثر ملحوظ في فكرة استيطان اليهود في فلسطين إلّا أنه قد حدثت نكسة في مسار الحركة الصهيونية عام ١٨٨١ عندما اغتيل قيصر روسيا الاسكندر الثاني، وكان اليهود قد شاركوا في اغتياله فحصلت موجة من اضطهاد اليهود أدت إلى مذابح قاسية، ولم يكن سبب هذا الاضطهاد مقتل القيصر فحسب، بل كانت هناك أسباب أخرى عديدة منها الوسائل

الاقتصادية غير المشروعة التي كان يستخدمها المرابون والتجار اليهود والتي هددت الاقتصاد القومي الروسي، ومنها وسائل اجتماعية، انتهت إلى خلق شعور انفصالي عند اليهود، فهاجر كثير منهم من روسيا وتوطنوا في أوروبا الغربية وأميركا، بعد أن حظر عليهم التوطين في بولندا، وكان حوالى ثلاثة آلاف من الذين هاجروا قد اختاروا فلسطين، فأسسوا مستعمرة قرب يافا عام ١٨٨٢ سميت «رشون - لزيون» Richon-Le-Zion.

كما ظهرت حركة في روسيا في العام نفسه عرفت باسم «أحياء صهيون» Chubbalk Zion انتظمت في جمعيات «شوفيفي - زيون، وأحبّاء صهيون» عملت جميعها بجهد على تحقيق فكرة الاستيطان في فلسطين. وإحياء اللغة العبرية، وهكذا نبتت أولى بذور الصهيونية.

وفي عام ١٨٨٧ شرعت جمعية تأييد المزارعين وأصحاب الحرف اليدوية من اليهود التي انشئت في روسيا تؤيد فكرة الهجرة إلى فلسطين وبالاخص من بين يهود أوروبا الشرقية بتأييد من «بنسكر» أحد مؤسسي تلك الجمعية.

كما ظهرت أفكار عديدة كان لها أثر ملحوظ في تكوين الفكر الصهيوني، وكان لرجال الدين اليهود دور بارز، وكان من هؤلاء «صموئيل إيزاكس» Samuel Yzakess ١٨٢٥ - ١٩١٧ الذي يرى بأن لليهود الحق في اسرائيل الصغرى، واسرائيل الكبرى، وقد حاول تدعيم نظريته هذه باستنتاجات مستمدة من التوراة، تجعل لكل منهما حدوداً معينة. ويحدد «اسرائيل الصغرى» بالأراضي المقدسة، ثم يدخل فيها لبنان كله، وشمال غربي سوريا، وقسماً من جنوب تركيا، أما اسرائيل الكبرى فهي تشمل الأراضي التي منحها أله اسرائيل لبني اسرائيل، على أن تمتد اسرائيل الصغرى المعروفة بأرض كنعان إلى اسرائيل الكبرى المستقبلية والتي تشمل: فلسطين والأردن، وسوريا، ولبنان، والعراق حتى خليج البصرة (باستثناء القسم الشمالي من العراق) وسيناء والدلتا من الأراضي المصرية، وشمالي الحجاز: المدينة المنورة وما حولها من مناطق بين قريظة وبني النضير وخيبر وغيرها(٢).


بلفور

ومن الذين لعبوا دوراً فعالاً في مسار الحركة الصهيونية، اليهودي المجري (بودابست) «ماكس توردو» Max Tordeau ١٨٤٩ - ١٩٢٣ والذي استقر في باريس عام ١٨٨٠ ومارس الطب، وكانت له مؤلفات عدة تمثل الثقافة اليهودية الخالصة، وقد التقى في باريس «هرتزل» وتعاونا معاً وكان «هرتزل» يعول على انتماء «توردو» إلى الحركة الصهيونية، لأن ماكس توردو كان يحظى بتأييد اليهود الشباب المثقفين.

وفي المؤتمر الصهيوني الأول عام ١٨٩٧ ألقى «ماكس توردو» الخطاب الافتتاحي، وكان خطاباً ذكياً، استطاع أن يكسب أعضاء المؤتمر في أن يضعوا كل طاقاتهم في سبيل حل «المسألة اليهودية». ومما جاء فيه ... (يتوفر عند اليهود الغربيين الخبز، لكن ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان» وأكد على انتشار اللاسامية، وبالرغم من أن أوروبا حررتهم ومنحتهم حق المواطنية إلّا أن اللاسامية كانت ما تزال منتشرة ولا تزال لافتة «ممنوع دخول اليهود» تحارب اليهودي أينما حل(٣).

وإلى جانب فكرة الاستيطان القومي في فلسطين أو خارجها وجدت فكرة الصهيونية الثقافية والروحية، وهي فكرة متطورة للصهيونية الدينية. ويرى مؤسس هذه المدرسة الفكرية أن لا مانع من بقاء اليهودي في وطنه الأصلي على أن يكون مواطناً صالحاً في مقره وملكه، وفي الوقت نفسه يهودياً في روحه، ولا بأس من

هجرة من استطاع إلى الأراضي المقدسة ليتزود من الروح الثقافية اليهودية الأصلية، ولذلك دعا إلى ضرورة إيجاد مركز روحي ثقافي في فلسطين(٤).

وكان «أحد هاعام» Ahad Haam ١٨٥٦ – ١٩٢٧ مؤسس فكرة الصهيونية الثقافية والروحية، ويمكن القول: «إن «أحد هاعام» من الصهيونيين القلائل الذين تنبأوا بقيام معارضة وردود فعل عربية على الهجرة اليهودية إلى فلسطين(٥).

وقد تلاشت دعوة «أحد هاعام» بعد تأسيس المنظمة العالمية اليهودية.

وهنا تبدأ المرحلة العملية، أو المرحلة الثانية من الحركة الصهيونية التي بدأت بهرتزل وكتابه ١٨٨٢، الذي دعا فيه إلى استعمار اليهود لفلسطين بدعم من بريطانيا، فتصبح فلسطين دولة قومية يهودية. وقد استهل هرتزل عمله الموحد بمؤتمر بازل ١٨٩٧ – وتسمى هذه المرحلة بالمرحلة التنظيمية.

وقبل ان نبدأ بالحديث عن المرحلة الثانية من الحركة الصهيونية لا بد من ذكر نقطتين بايجاز هما: موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية، والصهيونية والاستعمار، وتلازم هاتين الحركتين منذ البدء.

لقد شغلت القضية الصهيونية جانبا مهماً من السياسة العثمانية، وقد ذكرنا سابقا شيئاً عن وضع اليهود في الدولة العثمانية وحسن معاملتهم لهم ومساواتهم بغيرهم من المواطنين، فكان اليهود يتمتعون بالحقوق والواجبات التي كان يتمتع بها غيرهم من أبناء الطوائف الأخرى. ولكن ذلك كان قبل قيام فكرة الهجرة والاستيطان. ولكن الحال تغيّر عندما تطورت الفكرة الصهيونية، وبدأ اليهود يهاجرون في قوافل منظمة منذ عام ١٨٦٨ بغية الاستيطان في فلسطين، وأخذت المؤسسات اليهودية من الأليانس الاسرائيلي العالمي وغيره تعمل على نشر أهدافها عبر الجمعيات الدينية اليهودية، وعبر الصحف والجمعيات الثقافية، ألا وهي: الهجرة والاستيطان في فلسطين، وفعلاً استوطن عدد كبير منهم في مناطق حيفا ويافا وطبريا والقدس ثم امتدوا إلى خارج هذه الرقعة...

شعر السلطان العثماني بتزايد الهجرة وامتداد رقعة الاستيطان فعارض طلب أحد كبار اليهود شراء مساحات في فلسطين عام ١٨٧٦. ولكن شعوره هذا جاء متأخرا، فلم يكن يدرك خطر الهجرة اليهودية في الفترة الأولى أي من عام ١٨٦٨ إلى عام ١٨٨١، معتبراً أنها ليست خطيرة نظراً لقلة عدد اليهود المهاجرين، لكن الدولة عادت وأدركت خطورة الهجرة واتخذت موقفاً واضحاً عام ١٨٨١ عندما صدر أول قرار عثماني ضد الهجرة اليهودية(٦) عندما هاجر اليهود الروس بأعداد كبيرة، بعد اغتيال القيصر الروسي عام ١٨٨١ وتوالت الهجرات المنظمة الكبيرة بدعم وتنظيم زعماء وقادة يهود بواسطة جمعيات منظمة، حاولت الاتصال بالحكومة العثمانية للحصول على اذن لها بواسطة قنصل تركيا في روسيا لكن القنصل رفض السماح لها تنفيذاً لأوامر حكومته.

ومنذ ذلك الحين أي عام ١٨٨٢ أصدرت الحكومة العثمانية قرارات خاصة بالهجرة اليهودية إلى الدولة العثمانية عامة، لكن الصهاينة لم يتوقفوا عن نشاطهم، واستمرت محاولاتهم، متخذين لذلك وسائل كثيرة لإقناع السلطان عبدالحميد الثاني بتغيير قانون الهجرة، وقد جرت محاولات كثيرة بواسطة قناصل وسفراء أوروبا وأميركا، وبواسطة مندوبين يهود توجهوا إلى القسطنطينية لمقابلة السلطان، لكن السلطان عبدالحميد أصر على موقفه وأفهم المبعوث اليهودي أن الدولة العثمانية، وان رحبت بالمضطهدين لكنها لا ترحب باقامة مملكة يهودية في فلسطين. وأخذت الحكومة العثمانية بين الحين والحين تصدر القوانين بمنع الاجانب من شراء الأرض أو الاستيطان، أو انشاء مستوطنات يهودية منها قوانين عام ١٨٥٧ وقانون ١٨٨٧، و١٨٩٢.

درس اليهود أوضاع الدولة العثمانية واطّلعوا على نقاط الضعف فيها، فاغدقوا على السلطان عبدالحميد الوعود والاغراءات، منها المساعدات المالية لتسوية أوضاع الدولة الاقتصادية، ومساندة السلطان في قضية الأرمن بالنسبة للرأي العام العالمي، وغير ذلك من



شارع يهودي للتسوّق – في الخمسينات –

طروحات. لكن ذلك لم يغير من موقف السلطان عبدالحميد الذي قال لهرتزل عند أول مقابلة له في ١٨٩٦/٦/١٩: قال هرتزل، لقد «استمع إلى الصدر الأعظم بكل هدوء، وسأل بعض الاسئلة منها: فلسطين كبيرة، في أي جزء منها تفكرون؟ فنقل اليه المترجم جوابي، إن ذلك يعتمد على مدى ما تقدمه من منافع، لنمضي بكمية أكبر لجزء أكبر من البلاد»[٧].

وكان رد السلطان التركي الحاسم بواسطة رفيق هرتزل نيولنسكي الذي نقل هذا الرد لهرتزل: (وقال السلطان لي: «إذا كان هرتزل صديقك بقدر ما انت صديقي فانصحه أن لا يسير أبداً في هذا الأمر، لا أقدر أن أبيع ولو قدماً واحداً من البلاد لأنها ليست لي بل لشعبي، قد حصل شعبي على هذه الامبراطورية باراقة دمائهم، وقد غذوها فيما بعد بدمائهم، وسوف نغطيها بدمائنا قبل أن نسمح لأحد باغتصابها منا. لقد حاربت كتيبتان من جيشنا في سورية وفي فلسطين، وقتل رجالنا الواحد بعد الآخر؟ لأن أحداً منهم لم يرض بالتسليم، ورفضوا إلا أن يموتوا في ساحة القتال. الامبراطورية التركية ليست لي وانما للشعب التركي، لا استطيع أبداً أن أعطي احداً أي جزء منها ليحتفظ اليهود بملايينهم، فاذا قسمت الامبراطورية، فقد يحصل اليهود على فلسطين بدون مقابل، انما لن تقسم إلّا على جثثنا، ولن اقبل بتشريحنا لأي غرض كان»[٨].)

وكان عبدالحميد يكره الصهيونية، وكانت القدس بالنسبة له مقدسة مثل مكة[٩].

وكان ردّ السلطان عبدالحميد إلى نيولنسكي، صديق هرتزل، الذي قال أن فلسطين مهد اليهود واليها يريدون ان يرجعوا: «ولكن فلسطين مهد الأديان»[١٠] وعلى هذا أجاب نيولنسكي: «إذا لم يستطع اليهود أخذ فلسطين فسوف يذهبون إلى الارجنتين»[١١].

على أن موقف الدولة العثمانية الرسمي والواضح لم يمنع بعض المسؤولين في الحكومة العثمانية من التصرف خلافاً لموقف الدولة. وكان ثمن ذلك الرشوة التي أنفقها اليهود بسخاء وشارك فيها الحكومات والقناصل الاجانب.

الحركة الصهيونية والاستعمار:

ارتبطت الفكرة الصهيونية بالاستعمار قبل أن تظهر الدولة الصهيونية إلى الوجود، وقبل أن يتحدد زمانها ومكانها. وكان نابليون سباقا إلى استغلال اليهود منطلقاً من تطلعاتهم واحلامهم بالعودة الى فلسطين. استغل نابليون هذه التطلعات من منطلقاتها الدينية، لأنه كان بحاجة إلى دعم مالي، ففكر بالحصول عليه، من يهود أوروبا ويهود الدولة العثمانية. وجه نابليون نداء في ٤ نيسان (ابريل) ١٧٩٩، جاء فيه، ان العناية الالهية وجهته نحو هذه البلاد «... وجعلت من القدس مقري العام وهي التي ستجعله بعد قليل في دمشق التي يضيرها جوارها بلد داوود... ثم تابع مخاطبا اليهود ... إلى ورثة فلسطين الشرعيين... (وقد طلب منهم)... لا العمل على احتلال وطنكم فحسب... بل لأجل ضمان ومؤازرة هذه الامة لتحفظوها مصونة من جميع الطامعين بكم لكي تصبحوا اسياد بلادكم الحقيقيين...»[١٢].

واستمر نابليون في تملقه لليهود فوجه نداءً إلى يهود اسيا وأفريقيا يحثهم فيه على الالتفاف

حوله، من أجل اعادة مملكة القدس القديمة، فالتحق بجيشه عدد لا بأس به من يهود مدينة حلب(١٣).

وكان من مظاهر تعاون نابليون واليهود، أنه من بين المخططات السرية في «حكومة الادارة» عام ١٧٩٨ أنه وعد اليهود بتأسيس كومنولث يهودي في فلسطين على أن يدعم اليهود الفرنسيين في الشرق.

غير أن الحال تغيرت بعد أن هزمت فرنسا بالمنطقة في القرن التاسع عشر على يد الإنجليز وقيام محمد علي الكبير في بناء دولته العتيدة بهمة وجدية، وامتداد حملاته التوسعية إلى بلاد الشام وضمّها إلى حكمه، ومنها فلسطين ١٨٣١ - ١٨٤١، وكانت هذه الخطوة من أسباب التعاون البريطاني اليهودي، فانتقلت اللعبة من فرنسا إلى بريطانيا التي قلقت على خطوط مواصلاتها إلى الهند، ففكرت في تحجيم نفوذ محمد علي أو إنهائه، وأن تضمن لنفسها شعباً بديلاً في فلسطين يكون عميلاً لها ويؤمن مصالحها، وهنا تكررت الرواية الاستعمارية فظهرت نداءات يهودية في بريطانيا في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر تطالب بوجوب عودة اليهود إلى فلسطين وتخلي الأتراك عن ذلك الجزء من ممالكهم الذي طرد منه اليهود، ويعيدونه إلى أصحابه الشرعيين...»(١٤).

وكان التعاون بين بريطانيا واليهود على مختلف المستويات، لقد استعمل البريطانيون اليهود، مثلاً، في اثارة الفتن الطائفية في بلاد الشام، وارتكبوا عشرات الحوادث من قتل وجرائم مختلفة، كما طالبوا بحماية بريطانية لهم، ثم تعددت الاقتراحات والتقارير والمساعدات البريطانية لليهود من أجل فلسطين، ولم يستثن لبنان من ذلك. واستغلت انكلترا الثروات اليهودية في سبيل تحقيق اهدافها، ويتضح ذلك في شرائها لأسهم قناة السويس باموال يهودية في ٢٥ تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٨٧١، حين حصلت هذه الصفقة زمن رئيس الوزراء البريطاني «دزرائيلي» وهو يهودي قلباً وقالباً. وقد وصف البارون اليهودي روتشلد هذه الصفقة بانها صفقة سياسية لا تجارية. وظل التعاون بين الطرفين اليهودي والبريطاني مستمراً إلى ان سقطت مصر في يد الانكليز عام ١٨٨٢، فاشتدت هذه العلاقة، واشتد تقرب اليهود من انكلترا بعد أن اصبحت ذات النفوذ القوي في المنطقة، وبالمقابل واصلت انكلترا مساعيها بكل نفوذها لدعم «الصهيونية» وتملكها لفلسطين وإقامة دولة فيها بواسطة ساستها في انكلترا وسفرائها في الخارج.

وظلت رعاية بريطانيا وغيرها من الدول الأوروبية مستمرة لليهود إلى أن كان وعد بلفور عام ١٩١٧ من قبل بريطانيا، بعد وفاة نجيب عازوري بعام واحد. هكذا كانت ولا تزال الصهيونية حجر الزاوية في المخططات الاستعمارية. ◘

هوامش

(١) Leo Pinker: Auto Emancipetion, p.20.

(٢) أسعد رزوق، اسرائيل الكبرى، ص٣١٨ - ٣٢٨.

(٣) أنيس الصايغ، ولطفي العابد، وآخرون، الفكرة الصهيونية - النصوص الأساسية، ص ١٢٩ - ١٣٤.

(٤) يوسف هيكل، فلسطين قبل وبعد، ص٩٤.

(٥) حسان حلّاق: موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية، ١٨٩٧ - ١٩٠٩، ص٢٨.

(٦) M. Mandel: Turk, Arabs, and Leursk Immigratien into Palestine, 1882-1914 Vol. p. 80.

(٧) يوميات هرتزل، ص ٣٧٥.

(٨) يوميات هرتزل، ص٣٧٨، ص٣٥.

(٩) يوميات هرتزل، ص١٧٢.

(١٠ + ١١) المصدر نفسه، ص٣٩٤.

(١٢) بطرس عوده: القضية الفلسطينية والواقع العربي، ص٢٤.

(١٣) شاهين مكاريوس: تاريخ الاسرائيليين، ص١٨٥.

(١٤) ملف وثائق فلسطين، ج١، ص٤١.

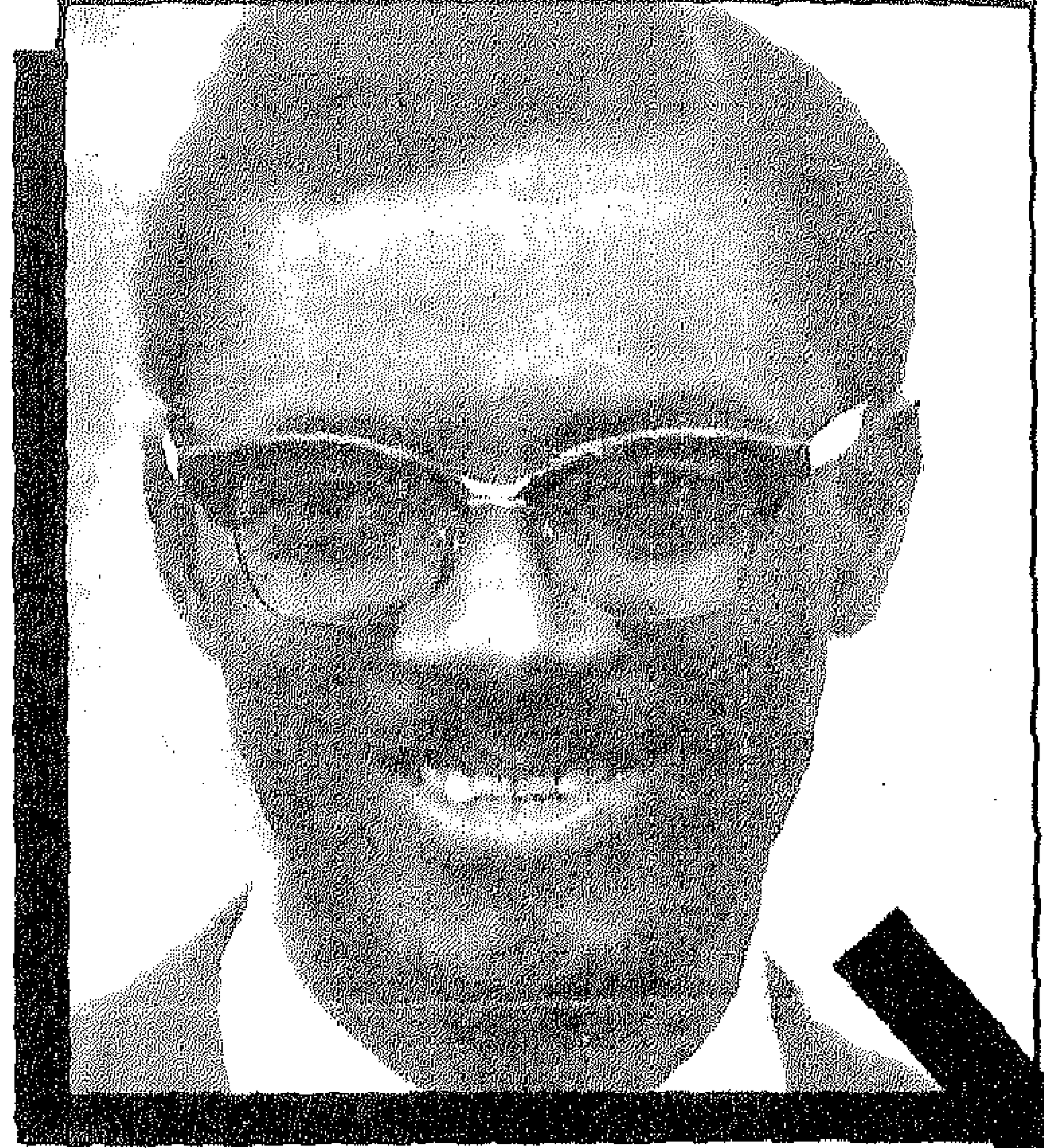
لومومبا والقضية الأفريقية

محمد عيسى



صورة تاريخية تمثل لومومبا ورفيقيه ساعة إلقاء القبض عليهم وهم مكبلون بالقيود.

إن الأحداث التي تشابكت وقائعها لتؤلف حياة باتريس لومومبا هي ذاتها الأحداث التي صاغت فكره، فمن خلال معاناة لومومبا الذاتية للواقع الموضوعي، ومعايشته له، تفتحت أمامه معالم أيديولوجيته السياسية. ذلك أن الفكر السياسي عند لومومبا قد مر بأطوار متباينة، بل ومتناقضة، حتى تحددت معالمه واكتملت مقوماته.



إذا أمعنا النظر في «حياة» لومومبا امكننا أن نتبين ثلاثة أطوار هامة في «فكره» السياسي:

- **الطور الأول: هو طور انفتاح للوعي الوطني عند لومومبا واكتشافه لأبعاد الحقيقة الاستعمارية.**
- **الطور الثاني: هو طور الصدام المروع بين وعي لومومبا الذي يسعى لتحرير الكونغو وتوحيده وبين الاستعمار وأعوانه من الخونة الكنغوليين.**
- **الطور الثالث: هو تلك اللحظة المهيبة التي اغتيل فيها لومومبا. ففي تلك اللحظة ماتت افريقية بأسرها لتبعث من جديد، على حد تعبير فرانز فانون.**

الوعي والحقيقة:

يعد الطور الأول لفكر باتريس لومومبا من أعسر أطوار حياته الفكرية مخاضاً، وأحفلها بعدم وضوح الرؤية نظراً لافتقاره الى الوعي بحقيقة الاستعمار. ويعد كتاب لومومبا «**الكونغو أرض المستقبل: هل هي مهددة؟**»، الذي كتبه عام ١٩٦٥، يعد أبلغ وثيقة تكشف لنا عن فكر لومومبا في هذا الطور. **فقد كان لومومبا، كما جاء في كتابه «يحلم» باقامة «مجتمع متكافيء للجميع بلجيكيين وكنغوليين» على أن يتحقق في اطاره الاندماج العنصري بين البيض والسود وخاصة بين النخبة السوداء التي نالت قسطاً من التعليم والثقافة، وأصبح يطلق عليها اسم «المتطورين»**. وكان لومومبا يطالب في ظل هذا المجتمع المنشود بتساوي البيض والسود في ميدان العمل وانفتاح جميع الوظائف للكنغوليين تبعاً لما يتمتعون به من كفاءات.

وقد عبر لومومبا عن هذا «الحلم» بقوله في عام ١٩٥٦: «**إننا نعتقد أنه سيكون ممكناً منح النخبة الكنغولية وبلجيكيي الكونغو في مستقبل قريب نسبياً حقوقا أساسية، وفق بعض المقاييس التي ستضعها الحكومة**».

غير أننا سنرى في الصفحات القادمة كيف اكتشف لومومبا خداع هذا الحلم وزيفه واستحالة تحقيقه... وكيف أصبح منذ اكتوبر عام ١٩٥٨ يناضل بلا هوادة من أجل تحقيق الاستقلال والوحدة الوطنية والوحدة الافريقية.

* * *

وكان عدم وضوح الرؤية الفكرية عند لومومبا، ينعكس انعكاساً حاداً على موقفه إزاء تقديره للاستعمار البلجيكي. وهو الموقف الذي يتضح بجلاء في كتابه الذي سلف ذكره. فقد كان لومومبا، على حد تعبير جان بول سارتر، كثيراً ما ينوه بالجوانب الايجابية للاستعمار البلجيكي في الكونغو. هذه الجوانب التي تتمثل

في زيادة قيمة الأرض والموارد المعدنية، وارسال الارساليات التعليمية، وتقديم المساعدات الطبية والصحية.

بيد أن هذا لم يحجب عن لومومبا رؤية الأوضاع المهينة التي يعيشها مواطنوه. فعندما كان في الثالثة والعشرين من عمره، أي في عام ١٩٤٨، كتب في احدى صحف الكونغو متسائلا:

«لماذا يعامل البيض كلابهم على نحو أفضل مما يعاملون خدمهم من الزنوج؟».

ومن ثم فقد كان لومومبا يفصح، في ذات الوقت، عن النظرة الأخرى للتناقض الذي يعيش في ذاته، وهو إدراكه لبشاعة الحكم الاستعماري. وقد بلغ هذا الادراك قمته في رد لومومبا الشهير على الملك بودوان ملك بلجيكا في ٣٠ يونيه ١٩٦٠، يوم استقلال الكونغو. لقد هاجم لومومبا الاستعمار البلجيكي بعنف وضراوة. وهاجم الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية المهينة التي كان الشعب الكنغولي يعيشها في ظل الادارة الاستعمارية. ثم وعد الشعب بالقضاء على هذه الأوضاع التي تتمثل في سخرة العمل، والتفرقة العنصرية، والنزاع القبلي، ثم يسجل لومومبا على جبين التاريخ هذه الكلمات المضيئة: **«لا يحق لأي كنغولي أن ينسى أننا حققنا استقلالنا بالدموع والنار والدم. إننا فخورون جد الفخر بنضالنا... لأنه كان نضالاً عادلاً ونبيلاً، وكان لا مناص منه لوضع نهاية لقيد الذل الذي فرض علينا طوال ثمانين عاماً من الحكم الاستعماري. إن جراحنا ما تزال دامية وهي تؤلمنا ألماً لا يجعلنا ننساها»**.

سر مرحلة التناقض:

والسؤال الآن: ما هو تفسير هذا الموقف الفكري الذي كان يتسم بالتناقض عند لومومبا؟

إن الاجابة على هذا السؤال من الأهمية بمكان. اذ انها تمثل طوراً هاماً من أطوار حياة لومومبا وفكره. وهنا يتعين علينا بادىء ذي بدء أن نقرر حقيقة موضوعية هامة وهي أن لومومبا في هذا الطور إنما كان ضحية لخداع التعليم والثقافة الاستعمارية، تلك الثقافة التي ترمي أول ما ترمي إلى القضاء على الذاتية الوطنية تحت شعار «سياسة الأبوة البلجيكية». وكان يكمن وراء هذه السياسة الاستعمارية قوتان هما - كما قال رولف اتاليباندر في كتابه «الزعماء الجدد في افريقية» - الرأسمالية والكنيسة الكاثوليكية. وكان الشعار الذي ترفعه هذه السياسة هو: «ما يفعله الأب دائماً حق». وطالما أن الاطفال صغار فهم يطيعون الاب او يتظاهرون بذلك. بيد انهم عندما يشبون عن الطوق يثورون وعندئذ تزول سلطة الأب.

ويصدق قول اتاليباندر هذا على لومومبا، فقد كانت مرحلة ما يمكن أن نطلق عليه الطفولة الفكرية في حياة لومومبا مرحلة تهيمن عليها «الأبوة» البلجيكية. غير أن لومومبا ما كاد يشب عن الطوق وتتفتح أمامه الحقائق القاسية التي يعيش الكنغوليون في ظلها حتى ثار على «الأبوة» البلجيكية. وعندئذ بدأت مرحلة الفكر الثوري عند لومومبا.

ولكي نجلو سر التناقض في فكر لومومبا لابد لنا من الوقوف على حياته. وتعد دراسة الفيلسوف الفرنسي جان بول سارتر عن «الفكر السياسي عند لومومبا» من أخصب الدراسات وأعمقها في هذا الصدد. إذ يحلل لنا سارتر حياة لومومبا كاشفاً عن سر هذا التناقض. وسوف نلتمس في دراسة سارتر هذه اجابة على السؤال الذي سلف طرحه، ويكون البدء بالوقوف على طفولة لومومبا:

ولد باتريس اميلي لومومبا في ٢ يوليو ١٩٢٥ في قرية أوناليو، بمقاطعة كاساء، بالكونغو. وكان والده فلاحاً كاثوليكياً. وقد اعتاد أن يصحب لومومبا منذ بلغ السادسة من عمره الى الحقول فقد كان يريد أن يجعل منه فلاحاً. غير أن «الآباء الكاثوليك» قرروا أن يذهب لومومبا الصغير الى المدرسة. فقد كانوا يريدون أن يجعلوا منه مدرساً للتعليم المسيحي. بيد أن الارسالية البروتستانتية تلقفت لومومبا عندما بلغ الثالثة عشرة من عمره وعلمته مهنة تتيح له: **«أن يترك الوضع الفلاحي الى وضع ذوي المرتبات»**.

وهكذا قضى لومومبا طفولته، كما يقول سارتر، في الريف الكنغولي، والبؤس المدقع للفلاحين والزنوج معروف، ولولا المنظمات

الدينية التي تعهدته لكان هذا البؤس نصيبه وأفقه الوحيد.

وهنا يتساءل سارتر «أتراه قد فهم على الفور أن الارساليات الدينية هي عملية الاستعمار؟» ويجب قائلا: «لا ، بلا ريب».

بل ان لومومبا لم يكن يدرك في تلك الفترة أن الحياة التعيسة الحافلة بالفقر والبؤس في الريف الكنغولي هي بصورة مباشرة أو غير مباشرة نتاج الاستغلال الاستعماري.

ويحيط سارتر اللثام عن سر عدم إدراك لومومبا لهذا الوضع حين يقول: «كان «الآباء» يمنحونه طموحاً ضارياً الى ان يعرف بؤسه بأسبابه، ومن ثم رغبته في أن يخضع له». وقد عبر لومومبا عن هذا التناقض، عندما تكشفت له الحقيقة الاستعمارية في قصيدة له فيما بعد.

وعندما أتم لومومبا تعليمه في الارسالية البروتستانتية، وكان يبلغ من العمر، آنذاك، ثمانية عشر عاما رحل الى «كندو» حيث عمل موظفاً باحدى الشركات. وقد أبدى لومومبا في عمله نشاطاً عظيماً، وتفوقاً لامعاً أصاب البيض بالدهشة. وفي هذه الفترة كان يراود لومومبا حلمه باقامة مجتمع بلجيكي - كنغولي يتحقق فيه الاندماج العنصري بين البيض والسود. غير أن لومومبا طرح هذا الحلم الذي اكتشف زيفه، جانباً عندما تبين له استحالة تحقيقه.

فكيف تسنى للومومبا أن يكتشف زيف فكرة الاندماج العنصري، ذلك الاكتشاف الخطير الذي كان نقطة تحول ثورية في حياته وفكره؟

حدث هذا عندما انتقل لومومبا من كندو الى ستانلي فيل ليعمل موظفاً بمكتب البريد. فقد كانت هذه الرحلة بمثابة «الرحيل الفكري» من مرحلة عدم وضوح الرؤية لحقيقة أوضاع بلاده في ظل الاستعمار الى مرحلة جديدة تماماً، هي المرحلة التي ظهر فيها لومومبا للعالم أجمع كمناضل افريقي يطالب بالاستقلال لبلاده والحرية والوحدة الافريقية.

لقد أدرك لومومبا من تجربة حياته في المدينة (ستانلي فيل ثم ليوبولدفيل) حقيقة النظام الاستعماري، وحقيقة الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية التي يعيشها أبناء البلاد. لقد أدرك أن المواطنين الكنغوليين يحكم حياتهم في المدينة قاعدتان استعماريتان هما:

- **التفرقة العنصرية.**
- **التفاوت الاقتصادي العنيف بين السود والبيض. فالأبيض يتقاضى ضعف ما يتقاضاه الأسود.**

الفرص الاقتصادية:

ولقد كانت التفرقة العنصرية والتفاوت الاقتصادي بين السود والبيض تجربة جديدة بالنسبة للومومبا. وهو لم يكن ليدركها لو عاش في الريف وذلك «بسبب انعدام الاتصال بين السود والبيض» وتظهر اجراءات التمييز في المدن، وهي تشكل، كما يقول سارتر، حياة أبناء البلاد اليومية.

ولقد تمخضت تجربة لومومبا في المدينة عن انفتاح الوعي عنده، وكان مفجر هذا الوعي ومحركه اكتشافه لحقيقة عميقة للغاية هي أن «المساواة» التي يروم تحقيقها بين البيض والسود إنما هي فكرة مستحيلة لا يقبلها الاستعمار والادارة الاستعمارية. لقد اكتشف، كما يقول سارتر، صلابة النظام الاستعماري الذي خلقه ليزداد استغلالا له، ذلك النظام الذي يتماسك بالقسر والاجبار ويزول حين يوافق على القيام بالتنازلات.

وكان هذا الاكتشاف الهام تصعيداً بموقف لومومبا وأيديولوجيته من طور ما يمكن أن نطلق عليه «الحل الوسط» الى طور «الحل الثوري» لمشاكل الشعب الكنغولي. وكان هذا الحل الثوري يتمثل في إيمان لومومبا بالانفصال عن بلجيكا والاستقلال. وكان ان أسس لومومبا حزب «الحركة الوطنية الكنغولية» في اكتوبر من عام ١٩٥٨.

وأعلن لومومبا أيديولوجيته هذه في مؤتمر أكرا للشعوب الافريقية الذي عقد في غانا في ديسمبر عام ١٩٥٨. فقد حضر لومومبا هذا المؤتمر ممثلاً لحركة الكفاح الكنغولي، وأصبح عضوا في اللجنة الدائمة للمؤتمر. ويرى الكاتب «رولف اتاليان‍در» «**أن مؤتمر أكرا كان نقطة تحول هامة في أفكار لومومبا، فقد تحول الى السياسة كلية. واستطاع أن يحظى بتاييد الشعوب الافريقية. ومن ثم أصبح زعيم**

الحركة الوطنية في الكونغو، بلا منازع، وكان ان توسعت حركته حتى أصبحت مكاتبها السياسية منتشرة في جميع أنحاء الكونغو.

وعند عودة لومومبا من أكرا كانت أحداث هامة تنتظره في ليوبولدفيل. فقد كان من المقرر أن يتحدث لومومبا في مؤتمر شعبي، في ٣ يناير ١٩٥٩، عن قرارات وتوصيات مؤتمر أكرا. وعلى الرغم من أن السلطات البلجيكية منعت عقد هذا المؤتمر، الا ان جماهير الشعب الكنغولي سارت الى مكان الاجتماع، فما كان من الجنود البلجيكيين الا ان استقبلت الجماهير بالرصاص. وكان هذا ايذاناً باندلاع ثورة شعبية استمرت ثلاثة أيام توقفت فيها الحياة في المدينة تماماً. وقد تمخضت هذه الثورة الشعبية، كما قال أحد المعلقين السياسيين عن تحول السخط التلقائي الى طلب اجماعي بالاستقلال العاجل.

وتحت ضغط الشعب الكنغولي وافقت بلجيكا في أواخر عام ١٩٥٩ على عقد مؤتمر مائدة مستديرة في بروكسل في يناير ١٩٦٠ للتفاوض مع الزعماء الكنغوليين على شروط الاستقلال. وعقد مؤتمر بروكسل في الفترة ما بين ٢٠ يناير و٢٠ فبراير عام ١٩٦٠. وصدر عن المؤتمر ٦٠ قراراً.. من بينها هذا القرار الهام:

«تصبح الكونغو دولة مستقلة تماماً منذ ٣٠ يونيه ١٩٦٠، وتتألف دولة الكونغو من ستة أقاليم بالحدود الجغرافية الراهنة».

رياح المؤامرة:

يبد أن الكونغو لم تكد تحصل على الاستقلال حتى هبت عليها رياح الصراعات الفكرية ومؤامرات الاستعمار الجديد. فبعد خمسة أيام فقط من الاستقلال وقع تمرد في الجيش بقصد اقصاء قائد الجيش البلجيكي اميل جانسن. وكان جانسن استعمارياً يحول دون «أفرقة» الجيش الكنغولي.

واحتلت قوات الجيش المتمردة ليوبو لدفيل، وعمّ التمرد البلاد بأسرها. بيد أن الحكومة تمكنت من التوصل الى اتفاق مع القوات العسكرية ثم اعفاء جانسن، ووعدت الحكومة بالعمل على «أفرقة» الجيش الكنغولي.

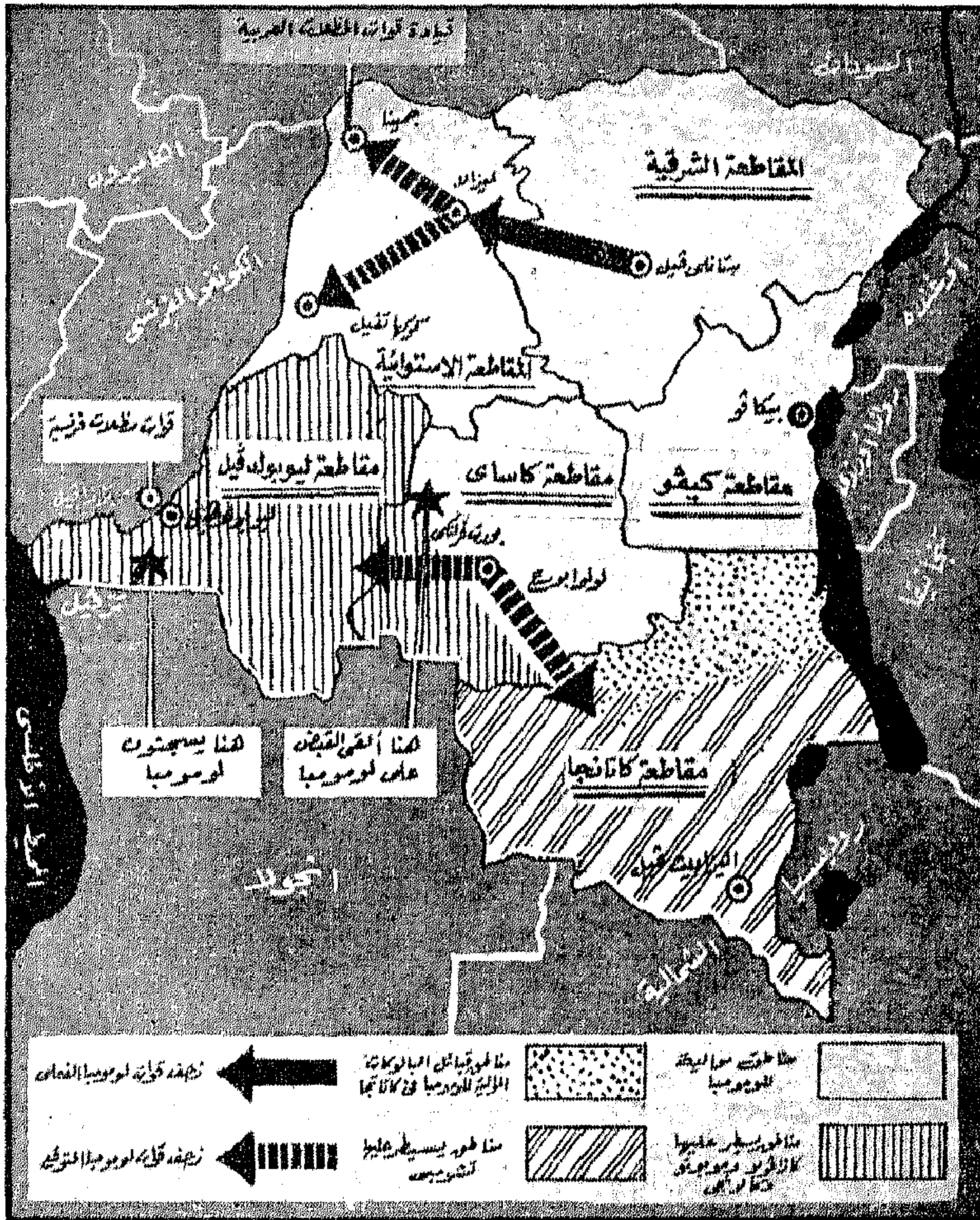
واذا كان قد أمكن التوصل الى اتفاق بشأن تمرد الجيش، إلا أن «قنبلة زمنية انفصالية» سرعان ما انفجرت في اقليم كاتنجا، بعد أحد عشر يوماً من الاستقلال، فاهتزت لها أركان الكونغو. وكان الرجل الذي فجر هذه «القنبلة الانفصالية» هو مويس تشومبي زعيم حزب الكانوكات وعميل «اتحاد المناجم» فقد أعلن تشومبي في ١١ يوليو ١٩٦٠ استقلال اقليم كاتنجا وانفصاله عن الحكومة المركزية. واتهم الحكومة باعتمادها على أغلبية برلمانية من المتطرفين الذين وصلوا الى الحكم بالخداع. وذهب الى أن هدف هذه الحكومة هو فيما يبدو «تفكيك الجهاز الاداري والعسكري وايجاد حكم ارهابي يطرد البلجيكيين الذين يعاونوننا». وكان احرى بتشومبي أن يقول: «الذين يستغلوننا»!

وناشد تشومبي روي ولنسكي الاستعماري البريطاني رئيس وزراء روديسيا أن يرسل قواته الى الكونغو ليعيد النظام اليه. وظن ولنسكي ان الساعة التي ظل ينتظرها قد حانت. ولكن ماكميلان رئيس وزراء بريطانيا آنذاك منعه من أن يرسل أية قوات الا بعد أن تسمح له بذلك الحكومة البريطانية في لندن، على نحو ما ذكر رولف اتالياندر.

ولكن الحكومة البلجيكية أرسلت قواتها على الفور الى كاتنجا. وهكذا كانت التجزئة المتمثلة في الكيان القبلي الانفصالي القائم في كاتنجا هي «القاعدة» التي أنشأها الاستعمار البلجيكي لتهبط عليها طائراته المحملة بجنود «البراشوت» لحماية مصالحه واحكام سيطرته واستغلاله لموارد كاتنجا: فهي تنتج ٦٠٪ من اليورانيوم الذي يستخدمه الغرب، و٨٠٪ من الماس الصناعي في العالم، و٧٣٪ من الكوبالت في العالم، و٨٪ من النحاس في العالم. كما تضم مواردها المعدنية: الذهب والزنك والمنجنيز.

والسؤال الآن: من الذي قرر مصير كاتنجا؟

يجيب سارتر، بوضوح مذهل، على هذا السؤال قائلاً: **لقد تقرر مصير كاتنجا بين البلجيكيين والانجليز والفرنسيين والامريكيين وحكام روديسيا وجنوب افريقية. ولئن بدا كل شيء مدبرا اليوم. ولئن عادت كاتنجا الى الكونغو فذلك لأن الولايات**



المتحدة الامريكية قد اتفقت مع البلجيكيين - ضد روديسيا واتحاد افريقية الجنوبية ومطامع الانجليز والفرنسيين - لتستغل استغلالا مشتركا الثروات الكنغولية عن طريق الشركات المختلطة.

ولقد اقتضى تنفيذ هذا المخطط الاستعماري ازاحة الكونغو من المفاوضات والمناقشات، وهذا يعني، كما يقول سارتر، القضاء على لومومبا. ذلك أن لومومبا كان يمثل الرفض الصارم للحل الاستعماري الجديد.

الصراعات الفكرية:

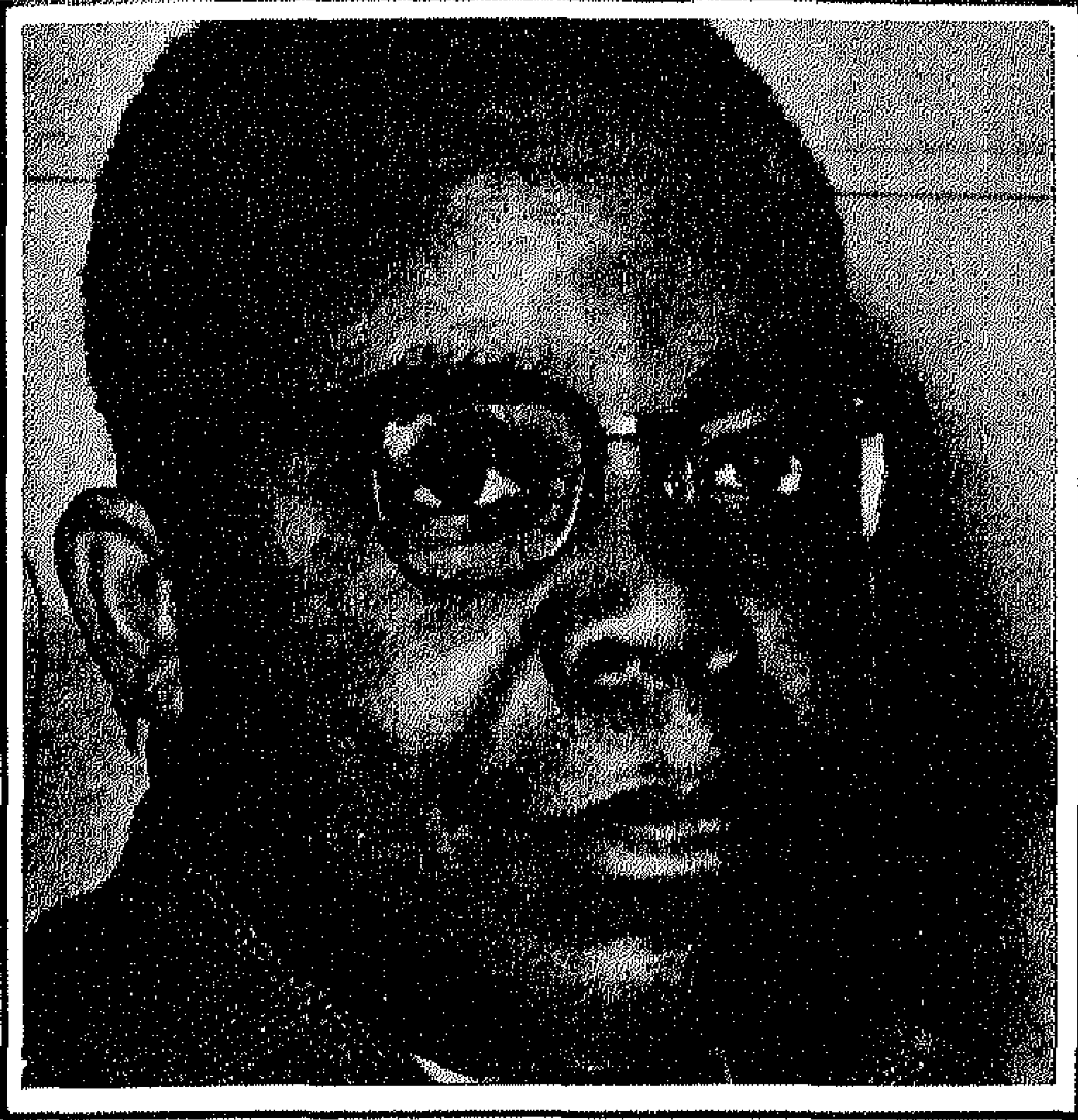
غير أن ما حدث في الكونغو، بعد الاستقلال، لم ينفجر فجأة، فقد كانت هناك مقدمات تشير الى امكانية وقوعه. فقد بدا واضحاً منذ مؤتمر بروكسل ١٩٦٠ ان ثمة خلافات فكرية حادة بين زعماء الكونغو. فقد كان كازافوبو رئيس حزب الأباكو يطالب بدستور فيدرالي. أما مويس تشومبي زعيم حزب الكوناكات فقد حاول الحصول على بند في اتفاق الاستقلال ينص على قيام «حكم ذاتي» في كاتنجا. الا ان لومومبا رفض، باصرار عنيد، هذه المحاولات الانفصالية التي تصدر عن نزعات قبلية، وتمسك بقيام دولة موحدة ذات حكومة مركزية في الكونغو.

وهنا نلمح الافتراق الأساسي بين أفكار باتريس لومومبا وافكار كازافوبو وتشومبي.

ففي حين أن الايمان بالكيانات القبلية الانفصالية هو المنطلق الفكري عند كازافوبو وتشومبي، فان الايمان بالوحدة الوطنية هو المنطلق الفكري عند لومومبا.



تشومبي



انطوان جيزنكا

وتعد الحركة السياسية الحزبية في الكونغو تعبيراً واقعياً عن هذه الصراعات الفكرية. وفي الامكان ادراك ذلك إذا ما تسنى للمرء أن يقف على أصول ومبادىء الأحزاب الرئيسية الثلاثة في الكونغو، وهي:

● حزب الأباكو: ويرأسه كازافوبو. وقد تأسس عام ١٩٥٠. وهو يمثل «تحالف قبائل الباكونجو»، كما يقول رونالد سيجال في كتابه «صور افريقية». ويهدف هذا «الحزب القبلي» الى انشاء دولة مستقلة في الكونغو الأدنى. ومن ثم فان كازافوبو كثيرا ما يتحدث، كما يقول رولف اتاليانذر، عن «مملكة باكونجو القديمة» التي ازدهرت فيما بين القرن الرابع عشر والسادس عشر.

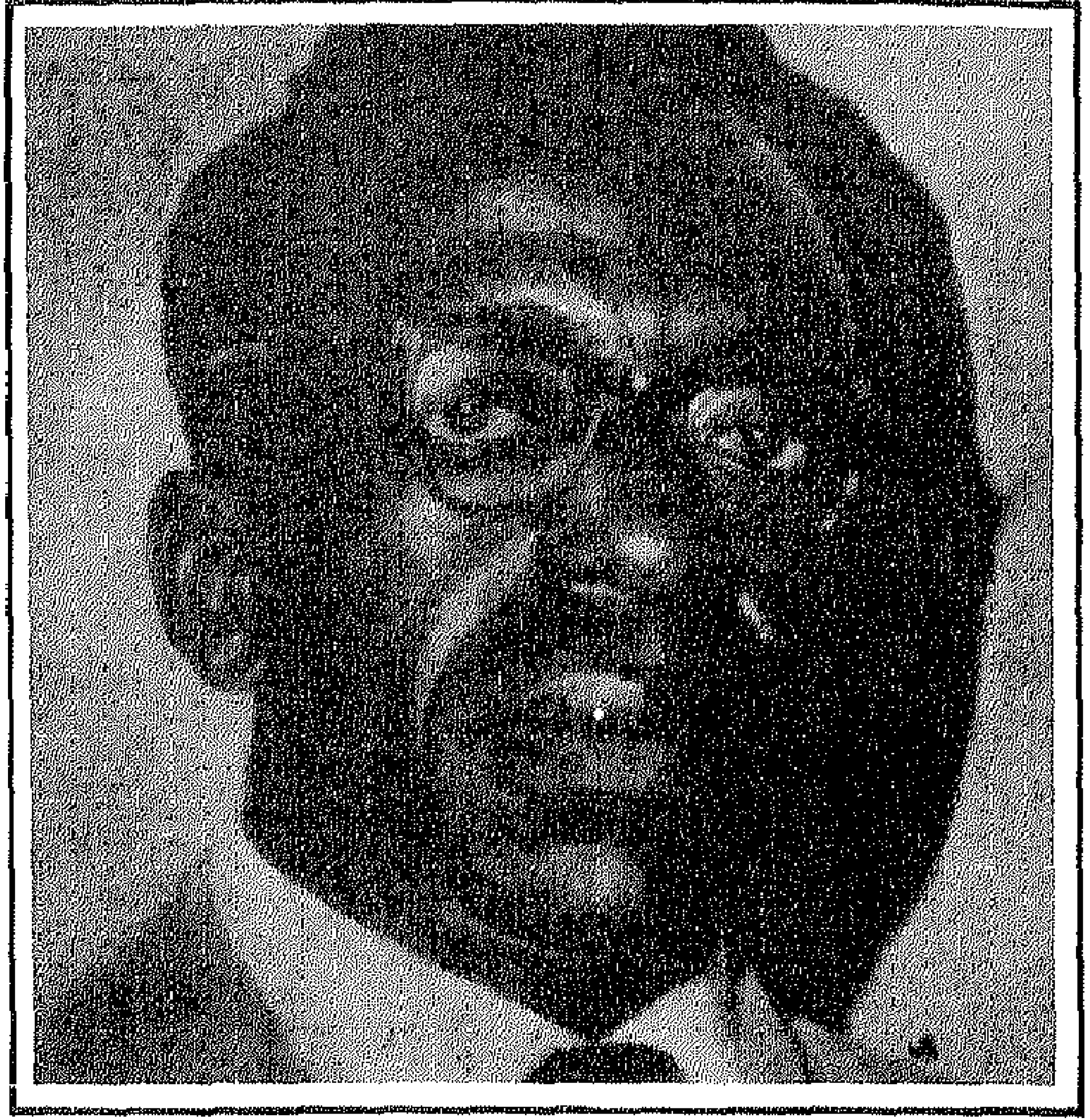
● حزب الكانوكات، ويرأسه مويس تشومبي. وقد تأسس في يوليو عام ١٩٥٩. ومقره اقليم كاتنجا. ويهدف هذا الحزب الى اقامة حكم ذاتي في كاتنجا. ويعتمد اعتماداً كبيراً، كما يقول رونالد سيجال، على قبيلة لوندا. ويستمد تأييده من بلجيكا ومن اتحاد المناجم، وهي الشركة التي تسيطر على أغنى مناجم النحاس في كاتنجا، ومن ثم فان حزب الكوناكات ليس قبلياً انفصالياً فحسب، وانما هو عميل أيضاً.

● حزب الحركة الوطنية الكنغولية: ويرأسه لومومبا. وقد تأسس هذا الحزب في ١٠ اكتوبر عام ١٩٥٨. ومن أهم مبادىء هذا الحزب تحقيق الوحدة الوطنية، واقامة دولة موحدة ذات حكومة مركزية قوية في الكونغو.

وهكذا يتضح لنا أنه لم يكن هناك سبيل الى التوفيق أو التوافق بين هذه الاتجاهات الفكرية المتصارعة. فالوحدة الوطنية نقيض القبلية والنزعات الانفصالية. وكان لومومبا يرى أن الوحدة الوطنية هي السبيل الوحيد لشجب الصراعات القبلية التي تفتت الوطن الكنغولي.

يبد أن سارتر يأخذ على لومومبا أنه لم يقرن دعوته الى المركزية والوحدة الوطنية وتكافؤ الفرص بالعدالة الاجتماعية ففي رأي سارتر أن المطلوب باسم الوحدة أن يضحي كل فريق اجتماعي بمصالحة من أجل المصلحة المشتركة.

ولكن من يتسنى له الاطلاع على بعض خطب لومومبا بعد الاستقلال يجد بين سطورها عبارات موحية تشير الى ادراكه ضرورة تغيير الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية المهينة التي يرزح فيها الشعب والتي خبرها لومومبا بنفسه. ففي يوم الاستقلال يختتم لومومبا خطبته بقوله: «**إنني أطلب من جميع المواطنين رجالا ونساء وأطفالا، أن يشرعوا في العمل على خلق اقتصاد وطني، أن يعملوا على ضمان استقلالنا الاقتصادي**». وفي مواضع اخرى من



كازافوبو

خطب لومومبا... نجده يؤكد ضرورة تحقيق «العدالة الاجتماعية» للمواطنين.

وأيا كان الأمر، فان من العسير للغاية تقويم هذا الوعي عند لومومبا نظرا لأنه لم يبق في الحكم إلا نحو ثمانية شهور واجه فيها أحداثا سياسية عاصفة ومؤامرات ودسائس لا حصر لها... أفضت الى اغتياله.

الوحدة الافريقية:

وإذا كان لومومبا قد خاض «حرباً مقدسة» من أجل تحقيق الوحدة الوطنية في الوطن الكنغولي، فانه كان يخوض هذه الحرب، في ذات الوقت، من أجل تحقيق الوحدة الأفريقية. **ذلك أن النظرة الشمولية الواعية عند لومومبا قد مكنته من الربط العضوي بين الوحدة الوطنية للكونغو المتحرر وبين الوحدة الأفريقية. ومن ثم فقد كان تحرير الكونغو عنده هو في ذات الوقت، تحريراً لافريقية. وان العوامل التي تحول دون تحقيق الوحدة الافريقية ولذا فان الامر يقتضي، كما قال في مؤتمر أكرا عام ١٩٥٨، النضال ضد العوامل الداخلية والخارجية التي تشكل عقبة في وجه تحرير بلادنا وتوحيد أفريقيا.**

بل ما هو أعمق من هذا أن لومومبا كان يدرك تمام الادراك أن مشكلات الكونغو، كما يقول سارتر، هي مشكلات افريقية كلها، بل ما هو أكثر من هذا أن بلده لن يجد القوة على أن يعيش بعد الاستقلال الا في اطار افريقية حرة، فقد كان الكونغو يبدو للومومبا موجزاً مكثفاً لجميع الفوارق التي تخلد نزعات الانفصال الافريقية، من حدود اقليمية، وصراعات قومية ودينية، وتميزات اقتصادية.

ولقد بدأ لومومبا منذ اللحظة الأولى التي حصل فيها الكونغو على الاستقلال يعمق أبعاد قضية الوحدة الافريقية. فقد أعلن للجماهير الكنغولية التي تحتفل بالاستقلال: «ان تحرير الكونغو يعد خطوة حاسمة نحو تحرير **القارة الافريقية بأسرها»**. وعندما اجتمع المؤتمر الثاني للشعوب الافريقية بليوبولد فيل أعرب لومومبا في الجلسة الافتتاحية، في ٢٥ أغسطس ١٩٦٠، عن ايمانه الحار العميق بالوحدة الافريقية. وقد طرح لومومبا ابعاد قضية الوحدة الافريقية على هذا النحو:

«**إن هدفنا المشترك هو تحرير افريقية، ولن يمكننا تحقيق هذا الهدف الا عن طريق التضامن والوحدة، بيد ان تضامننا لن يكون له معنى الا اذا كان تضامنا بلا حدود، ويكون ذلك بأن نؤمن جميعا بأن مصير افريقية لا يتجزأ**».

ولقد كان لومومبا يدرك العقبات التي تعترض طريق الوحدة الافريقية، وهي ما أطلق عليها عبارة «الاساليب الكلاسيكية» التي يستخدمها الاستعماريون لتجزئة القارة وتمزيق وحدتها هي: الاحتلال العسكري، والخلافات القبلية، وتحطيم المقاومة السياسية. وقد أشار لومومبا الى الاسلوب الجديد الذي يستخدم به الاستعمار شعاره التقليدي «فرق تسد»: «**لقد كان الاستعمار في الماضي يقسم الدول على اساس القبيلة أو العشيرة أو القرية، أما اليوم، وافريقية تحرر نفسها، فانه يسعى لتقسيمها على اساس خلق مجموعات من الدول الافريقية المتعادية**». ومن ثم فقد كان لومومبا يدعو لتوحيد جبهة مقاومة الأمم الافريقية الحرة ضد الدول الاستعمارية.

وفضلا عن هذا، فقد كان لومومبا يتطلع في ظل الوحدة الافريقية الى انشاء نظام جديد



مظاهرة نسائية تاييداً للومومبا

يتواءم مع متطلبات التطور الافريقي. وكان هذا يتطلب، في رأيه، «**أن نغير الاساليب التي فرضت علينا وان نكتشف انفسنا، ونحررها من الاتجاهات العقلية، وكافة العقد التي فرضها الاستعمار علينا طوال عدة قرون**». ومن ثم فقد كان لومومبا يؤمن بأن هدف الافريقيين الاحرار هو: بعث القيم الثقافية والفلسفية والاجتماعية والاخلاقية والافريقية.

بيد ان هذه الاحلام الرائعة لا يمكن أن تتحقق الا عن طريق الوحدة الافريقية... ومن هنا فقد قال لومومبا في الجلسة الختامية للمؤتمر الثاني للشعوب الافريقية الذي عقد في ليوبولدفيل:

«**انها الوحدة، أيها الاخوة الأعزاء في الكفاح... أيها الاخوة الاعزاء في الفقر، التي تشد أزرنا وتمكننا من التصدي لدسائس الاستعماريين ومؤامراتهم، عندما نتحد كأبناء أسرة واحدة سوف يكون في مقدورنا ان ندافع عن شرف افريقية وحريتها**». ثم ينطلق لومومبا ليحدد رسالة افريقية ازاء الحضارة الانسانية حين يقول: **أن افريقية المستقلة المتحدة سوف تقدم مساهمة إيجابية وعظيمة للسلام العالمي، وأنها سوف تلعب دوراً هاماً في خلق عالم أفضل، عالم تسوده الأخوة**

ولم يكن غريبا والأمر كذلك ان يثير ايمان لومومبا بقضية الوحدة الافريقية ثائرة الاستعمار وعداوة بعض رجاله الأشداء من حكام روديسيا وجنوب افريقية الذين اتفقت مصالحهم مع مصالح الخونة الانفصاليين القبليين في الداخل على القضاء على لومومبا... وبمعنى أوضح: القضاء على أفكار لومومبا.

الثائر... والثورة:

«**إن أفكار لومومبا التي تتمثل في الوحدة الوطنية والوحدة الافريقية، والدولة الموحدة**

مليون مناضل شهيد.

ومعنى هذا ان ما حدث في الجزائر كان ثورة شعبية، ومن شأن الثورة الشعبية ضد الاستعمار ان توحد، كما يقول سارتر، الجيش والشعب معا. ويقتضي هذا القضاء على القبلية والا غرقت الثورة في الدم. ويتم تصفية هذه الآثار بالاقناع والتعليم السياسي أو بالارهاب إذا لزم الأمر.

بيد أن ظروف الكونغو لم تتح قيام ثورة شعبية «يمتد فيها النضال الى أطراف البلاد فيوحدها». ومن هنا فقد ظلت القبلية في الكونغو محتفظة بكياناتها يغذيها الاستعمار تحقيقاً لمصالحه: ذلك أن القبلية تعنى الانفصالية. ومن المعروف أن مصالح الاستعمار لا تزدهر الا في ظل الانفصال والتطاحن بين أبناء البلد الواحد، طبقاً لسياسته: فرق تسد وهذه السياسة هي السلاح الذي يطعن به الاستعمار قلب الاستقلال الوطني، أي يطعن الوحدة الوطنية. فيبقى الاستقلال، ولكنه يكون جثة هامدة تنهش فيها المصالح الاستعمارية.

الخطـر:

وهذا هو الخطر الحقيقي الذي كشفته معركة الكونغو، والذي يتعين على الحركات القومية في افريقية خاصة، وفي آسيا وامريكا اللاتينية عامة ان تدركه: إن التجزئة - والقبلية احدى صورها - هي البذرة التي يزرعها الاستعمار في البلاد ليجني ابناؤه حصاد الفرقة والخلاف... ومن هنا يسهل على الاستعمار أن يحمي مصالحه.

ومن ثم كان العمل الأساسي لأي حركة قومية هو اقتلاع جذور التجزئة، والعمل على توحيد الأمة. إذ ان الوحدة الوطنية هي المعادل الموضوعي للاستقلال الحقيقي. وبدون وحدة وطنية يكون الاستقلال في خطر.

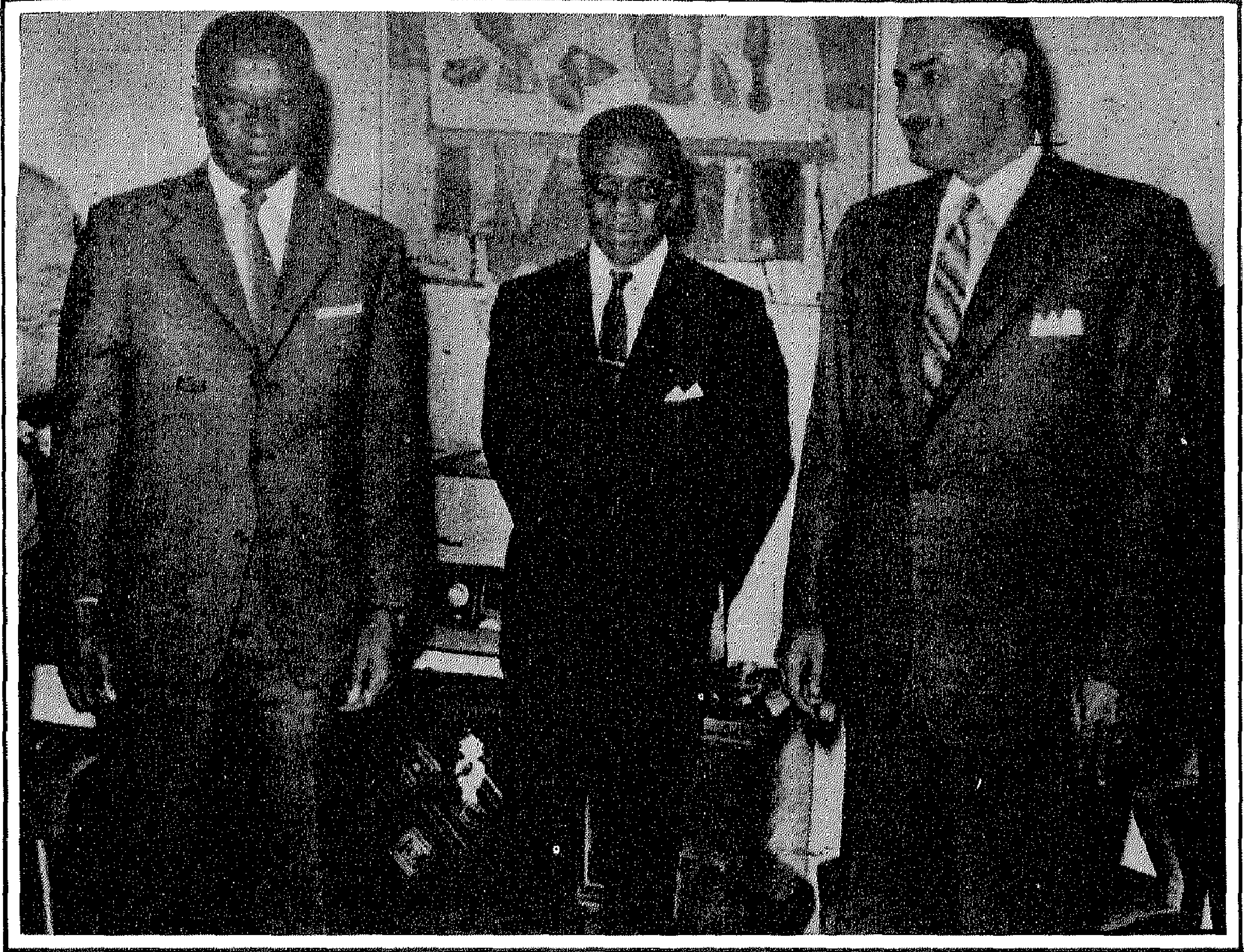
ولقد كان انفصال كاتنجا معركة انتصر فيها الاستعمار الجديد الذي استطاع بعد ذلك، بالمؤامرة، أن يحرك صنائعه من أمثال كازافوبو... وموبوتو الذي كان «يعمل في خدمة بلجيكا» من أن يختطف السلطة ويعتقل، في ظل



لومومبا محرّر الكونغو

ذات الحكومة المركزية بمثابة ثورة على الواقع القبلي الانفصالي في الكونغو، ومن ثم فقد كان لومومبا ثائراً... وهنا يتدخل سارتر ليقول: «ولكنه كان بلا ثورة». اذ ان ما حدث في الكونغو كان ثورة لم تقم

وتفسير ذلك عند سارتر أنه في الوقت الذي طالب فيه الشعب الكنغولي وقادته بالاستقلال العاجل بعد ثورة ٣ و٤ يناير ١٩٥٩. لم تعارض بلجيكا هذا المطلب، وحصل الشعب على الاستقلال يوم ٣٠ يونيه ١٩٦٠. وهكذا حصلت الكونغو كما يقول رولف تاليانذر، على استقلالها بأسرع مما حصلت عليه أي مستعمرة أخرى. وهذا على عكس ما حدث في الجزائر مثلا. فمنذ أعلنت جبهة التحرير الجزائرية بدء النضال المسلح، في أول نوفمبر عام ١٩٥٤، خاض الشعب الجزائري حرباً عنيفة ضد الجيش الفرنسي، وكان ان اضطرت فرنسا الى الجلاء عن الجزائر بعد أن ارتوت أرض الجزائر بدم



بلغراد: الرئيس عبدالناصر مع رئيس وزراء الكونغو الموحد سيريل ادولا

وجود الأمم المتحدة، لومومبا. ثم تبلغ المؤامرة ذروتها حين يسلم كازافوبو لومومبا الى تشومبي. ومن كاتنجا مقر الانفصال أذيع نبأ اغتيال لومومبا في ١٣ فبراير ١٩٦١.

والسؤال الآن: من الذي اغتال لومومبا؟

إن الذين اغتالوا لومومبا هم الذين «اغتالوا» وحدة الكونغو بتدبيرهم مؤامرة انفصال كاتنجا.

ويرى سارتر ان الذين اغتالوا لومومبا هم البلجيكيون والفرنسيون والانجليز والشركات الكبرى ومستر همرشولد. وقد اغتالوه بصنائعهم كازافوبو وموبوتو وتشومبي ومونجو.

ولكن لماذا اغتالوه؟ لأنه كان لابد أن يختفي فهو، كما يقول سارتر، كان يمثل وهو حي الرفض الصارم للحل الاستعماري الجديد.

* * *

وفي تلك اللحظة الرهيبة التي مات فيها لومومبا ماتت أفريقية بأسرها لتبعث من جديد، كما قال فرانز فانون. ويعمق سارتر هذا المعنى حين يقول: ان لومومبا قد مات يكفي أن يكون شخصاً ليصبح افريقية بأسرها... بارادتها الوحدوية، وتنوع أوضاعها، ومنازعاتها وقوتها وضعفها:

انه لم يكن، وما كان يستطيع أن يكون بطل الوحدة الافريقية فأصبح شهيدها.

ولقد كان موت لومومبا، كما قال فرانز فانون، تحذيراً لافريقية كلها. ذلك أن تاريخه، كما يرى سارتر، قد ألقى النور أمام الجميع على الرابطة العميقة للاستقلال والوحدة والنضال ضد سياسات الانفصال على صعيد القارة، والنضال ضد مؤامرات الاستعمار الجديد.

نزهة ندية مع مخطوطة أدبية

إعداد: د. زينب القاروط

من مخطوطات الشيخ ابراهيم الأحدب

قبل ان نورد احدى المقامات التي اخترناها من مخطوط الشيخ ابراهيم الاحدب، لا بد لنا من ان نلم بشكل سريع بترجمته. عاش الشيخ ابراهيم الاحدب في القرن الثالث عشر الهجري (التاسع عشر الميلادي) وكان يمثل مع الاسير والشدياق مثلث النهضة الادبية، إلّا أنه لم ينل ما ناله من الشهرة لانه «كان يتطلع دائماً إلى الجديد ولكن لم يدركه أهل زمانه لأنهم كانوا يدورون على قطب واحد من انفسهم».(١)

اختلف المؤرخون في سنة مولده وسنة وفاته، ولكنا اعتمدنا ما أورده بروكلمن في مؤلفه من انه عاش من ١٢٤٢ إلى ١٣٠٨هـ. أي ١٨٢٦ إلى ١٨٩١م.(٢)

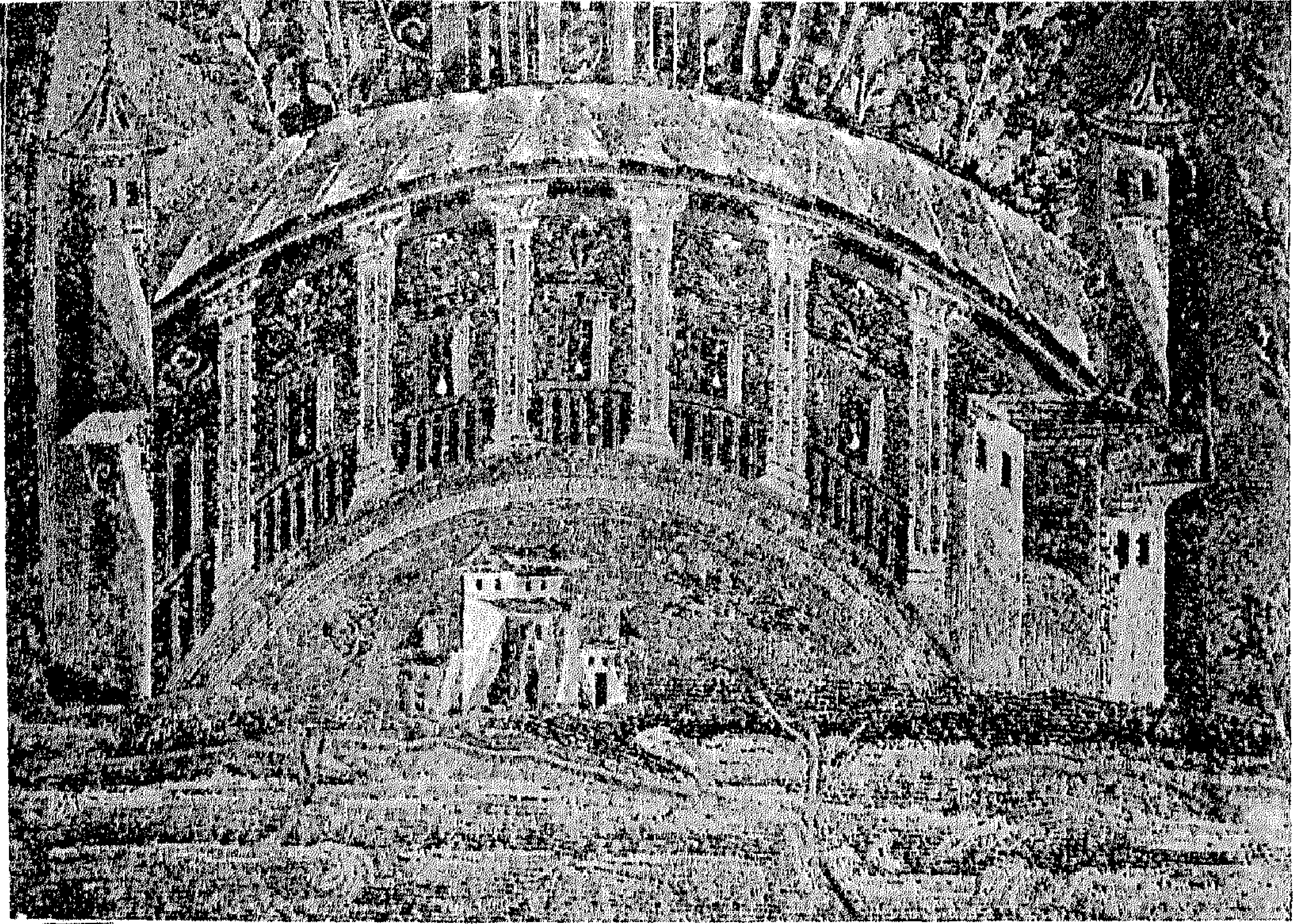
تلقى القرآن واتقن تجويده وهو ابن تسع سنين، قرأ معظم العلوم الشرعية في طرابلس الشام، وبرع في العلوم الأدبية والشرعية، وتقدم على اقرانه.(٣)

عكف على التدريس ونشر العلوم الأدبية عامة والسنّية خاصة، وانتفع من علومه الكثير من طلاب العلم في بيروت وطرابلس. انتشر صيت الشيخ ابراهيم بعد زيارته لدار الخلافة العثمانية فاستدعاه سعيد جنبلاط حاكم مقاطعة الشوف عام ١٢٦٨ (١٨٥٢) إلى مركزه في المختارة، واتخذه مستشاراً في الاحكام الشرعية ومعلما لأولاده على عادة ذلك الزمان، يقول الدكتور شاكر الخوري «احضرني والذي معه إلى المختارة... وكان سعيد بك (جنبلاط) قد أستحضر الشيخ ابراهيم الاحدب الطرابلسي العالم العلّامة والشاعر العظيم ليعلم ولديه نجيب... ونسيب... وكان يدرسنا ديوان ابن الفارض غيباً... وكذلك الفية ابن مالك، وقصيدة لامية العرب...(٤)»

بقي في مركزه هذا مدة تقارب الثماني سنوات عاد بعدها إلى طرابلس الشام وذلك بعد الفتنة الشهيرة عام ١٢٧٧هـ. ١٩٦٠م. ثم انتدبته حكومة بيروت التركية وعينته نائباً في المحكمة الشرعية، ثم صار رئيسا لكتّاب المحكمة الشرعية وبقي في ذلك المنصب مدة ثلاثين عاماً. وبعدها عين في شعبة مجلس معارف لواء بيروت وعند تشكيل الولاية انتخب عضواً في مجلس المعارف.

للشيخ بعض الكتب المطبوعة وعدد من المخطوطات في حوزة حفيده الاستاذ المهندس ابراهيم الاحدب الذي وضعها تحت تصرفي أخط منها ما شاء ولقد اخترت احدى المقامات، وهي المقامة الأولى وتعرف بالدمشقية، أنشأها على لسان ابي عمرو الدمشقي، وجعل راويتها ابا المحاسن حسّان الطرابلسي، وكلاهما كأبي الفتح الاسكندري وابي زيد السروجي، مجهول الأصل، على ما يذكر الشيخ ابراهيم في مقدمة مخطوطه.

د. زينب القاروط، كلية الآداب، الجامعة اللبنانية - الفرع الثالث.



لوحة منظر طبيعي لنهر وحلبة سباق، فسيفساء فوق الحائط الغربي لمدخل المسجد الاموي بدمشق.

«حدث أبو المحاسن حسّان قال: تقت إلى دمشق الشام، والتعرُّف إلىطيب وردها والبشام، فسرت إليها على عجل البريد، فوافيت بابه على قدم التجريد بشوق مزيد، فحللت بها وقد تصرم الشفق، وأنا استعيذ برب الفلق، من شر غاسق اذا وقب، وعاد على قدميه إذا وثب، وليس لي ولّي عارف آوي إليه، واعول في مبيتي عليه، فلجأت إلى خان ينزله الغريب، فالفيت في فنائه كهلاً رحب بي غاية الترحيب، وقال أظنك قدمت الآن، ولا معرفة لك بانسان فقلت اجل وقد كان قدومي على عجل، فقال انزل على الرحب والسعة، فما جئت دارا مضيعة، فلبيت اجابته وولجت حجرته، فالفيت جارية بسن البدر وسناه وغلاما تطلع الشمس من محيّاه، فابتدراني بالسلام، واقبلا على تقبيل يدي باحترام، فقال الكهل اطرح الحشمة من البيت، فلا رقيب عليك ولا عين، فهذه الجارية تسوم راغبا، وهذا الغلام لا يرى الناظر إليه حاجبا، وهما وان كان دون طلعتهما المشتري، عرضة للسوم فلا يلحقك باستخدامهما سبّة ولا لوم، فقلت نخّاس أديب، وظريف أريب، ثم قلت أسوم الجارية، وآخذها ولو بقرطي مارية وكانت تسارقني النظر بطرف يوحي سر الغرام على فترة وتبعث بفرعها وقد أرسلت منه فوق الكثيب وافر وفرة، فقال مالك رغبت عن الغلام وقد أطلع وجهه لك بدر التمام، فقلت لا حاجة لي بالحديث، وما يكون موضع الخبث فاني أقلد صريح الغواني، واحتوي ما لأبي نواس من المعاني، فقال اصبت الصواب، ولم يضع في ذكائك النصاب وان شاع في هذا الزمان تلك الفظائع، واتسع الخرق على الراقع، ثم افضنا في حديث كل فريق، وما كان في هذا العصر الجديد من الفعل الخليق، واتينا على ذكر عشّاق العرب، ممن كان لا يعرف الغلام موضع قضاء أرب، وما حدث بعدهم من عشق الاحداث،



لسان حال ابي عمرو الدمشقي «واصبحت افلس من ابني المدلق، وافقر من العريان، واحير من ضب بتوارد الهموم والاشجان. الصورتان من «التصوير الاسلامي» للدكتور ثروت عكاشة.

وبروز الغلمان بكل حلية للاناث، من فرق الشعر، وتصفيف الطرر، وغير ذلك مما يطول شرحه، ويصرح ببراعة الطلب إلى ما يدعو إليه صرحه فقال: تحاملنا عليك بالحديث، وان كنا ميزنا بين الطيب والخبيث، وقد اغفلناك من الطعام قبل ذلك، فلعل في حشاك ابا مالك، فقلت الهانا حسن الجارية عن الطعام، وان شب ابو عمرة في احشائي الضرام، فقال: في غد نتم لك سوم الجارية، والآن نطفيء لهب ناروارية، ثم التفت إلى الغلام وقال له: احضر لنا خبزاً حوارياً، ولحماً مشوياً، وعدد له ألواناً من الاطعمة الشهية، والفواكه الجنية، وأنواعاً من معمول الحلوى مما هو أحلى من المن ولا يجد الآكل عنه سلوى، فغاب وحضر باسرع من لمح البصر، وصفف أنواع ما جاء به على الاطباق وقابل بينها فراقت المقابلة بالطباق، فاعملنا الأيدي واللها والجارية بما اشتهى جارية، مشمرة عن سأق وهي ساقية حتى اطمعتني بنيلها، وان غضضت الطرف عما تحت ذيلها، فلما انهينا العمل ونلنا من الطعام الامل، اخذ يطرفنا باحاديث كانها قطع الرياض، ويتعرض إلى ذكر محاسن الشام بما لا يتوجه عليه اعتراض، وما زلنا نقطع الليل بوصل السمر حتى غاب القمر، وغلب الكرى على السهر، فأخذنا المضاجع وضرب الله على المسامع، فلم انتبه إلّا على ارتفاع الاصوات، وكثرة الضوضاء، باختلاف اللغات، ففتحت عيني فاذا الحجرة خالية، والنخاس فر مع الغلام والجارية وأخذوا ما لي من الاسباب، واتبعوه بخريطة الدراهم مما لم يكن في الحساب، واصبحت افلس من ابني المدلق وافقر من العريان، وأحير من ضب بتوارد الهموم والاشجان وعلمت اني قد خدعت وأن كان المعاني غير مخدوع، فبينما أعمل حركة الأفكار، التفت فاذا هو قد كتب على الجدار:

انـي أبـا عمـرو أمـام مـن ختـر
ثـم الـغـلام ابنـي عمـرو مـن قمـر
واختـه عمّـارة ذات الخفـر
ووجـه بـدر دونـه بـذل البـدر
مـن جـور دهـر جـاءنـا منـه ضـرر
ولا تفيـد الفلس مـن كـان شـعـر
لـذاك قمنـا في مقـام ذي خطـر
فـاعـذر فـذو الفضـل الكـريم من عـذر
فقـد تمتـعـت بتسـريـح النظـر
لمـا رأيـت طلـعـة الـوجـه الاغـر

وشيـخ اهـل الـعلـم بـدواً وحضر
بـالطـلـعـة الـغـرّا سنـا وجـهٍ الـعمـر
تلـك التـي سبـت بـدِلٍ وَحَـوْر
ابـرزتـهـا كـارهـة لَمـا بـدر
إذ صنـعـة الآداب ليسـت تـعتبـر
وعصبـة المـعـروف مـا لـهـا اثـر
وقـد ركبنـا خطـة لا تنتظـر
ولا تكـن تـأسى عـلى مـال غبـر
وسمـت وصـل المشتـري بـلا غـرر
وسلمـت نفسـك ممـا كـان مـر

ان تسلم الجلّة فالنيب هدر

قال الراوي، فسقط في يدي بما أدركت معناه، وتحققت ان شر ايام الديك يوم تغسل رجلاه، فاردت أن انملس من الخان، فنقلت قدمي وانا مضطرب الجنان، فبدرني الخاني ومعـه جريـدة الحساب، وقال ادّ اجرة المبيت وثمن ما أكلت قبل ان تزايل الباب، فغلطته بأن قلت أني نزلت ضيفاً على نخّاس كان هنا، الفيته في هذا الفنا، فقال أي نخّاس هو يا مغبون، ذاك ابو عمرو قيّم المحتالين ورئيس المغتالين، فاحمد الله انك افلت من كيده ولم تقع في حبالة صيده، قال فنقدته ديناراً أفلت من فنصة في الجيب، وخرجت احتسب عليه عالم الغيب وعجلت السفر من دمشق بخفي حنين، وأدرعت الليل جلباباً لئلا تقع على اثري عين».



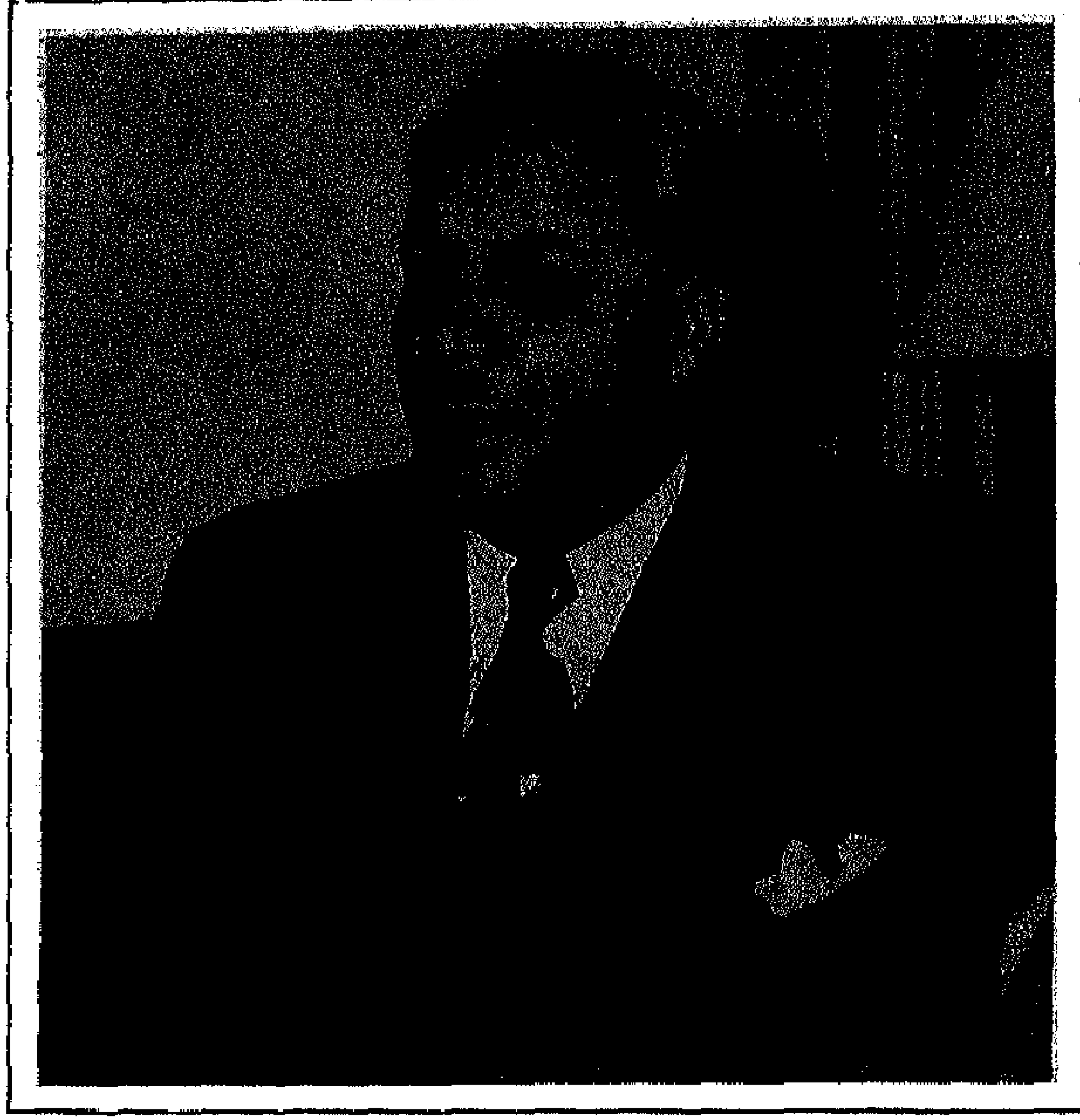
الهوامش

(١) مارون عبود، رواد النهضة، ص٧٢.
(٢) قارن الاعلام، الزركلي ج١، ص٤٨/معجم المؤلفين، عمر رضا كحالة ج١، ص٦١/تاريخ طرابلس، سميح وجيه الزين، ص٤٥٨/خزائن الكتب العربية، ص٢٦٠. G. A.L., C. Brockelman s II 760.
(٣) مقدمة فرائد اللآل ط الكاثوليكية/حلية البشر، ج١، ص٤٧ وما بعدها.
(٤) اسد رستم، بشير بين السلطان والعزيز ق٢، ص٢٢٣.

المصادر:

١ – بشير بين السلطان والعزيز، اسد رستم، منشورات الجامعة اللبنانية ١٩٦٦.
٢ – تاريخ الصحافة العربية، فيليب دى طرّازي بيروت ١٩١٣.
٣ – حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر، عبدالرزاق البيطار، دمشق ١٨٣٠هـ ١٩٦١م.
٤ – خزائن الكتب العربية في الخافقين، فيليب دى طرّازي، بيروت دون تاريخ.
٥ – رواد النهضة الحديثة، مارون عبود، بيروت ١٩٥٢.
٦ – الاعلام. خيرالدين الزركلي، الطبعة الثانية، دون تاريخ.
٧ – فرائد اللآل في مجمع الأمثال، المطبعة الكاثوليكية ١٣١٢هـ.
٨ – معجم المؤلفين، عمر رضا كحّالة، دمشق ١٣٧٦هـ ١٩٥٧م.
٩ – مقامات الشيخ ابراهيم الاحدب، مخطوط.
١٠ – Geschichte des Arabiscen Litteratur Von. C. Brockelmann. Ed. Leiden 1937.

من ذكرياتي عن الزعيم



جان سرور

رياض الصلح

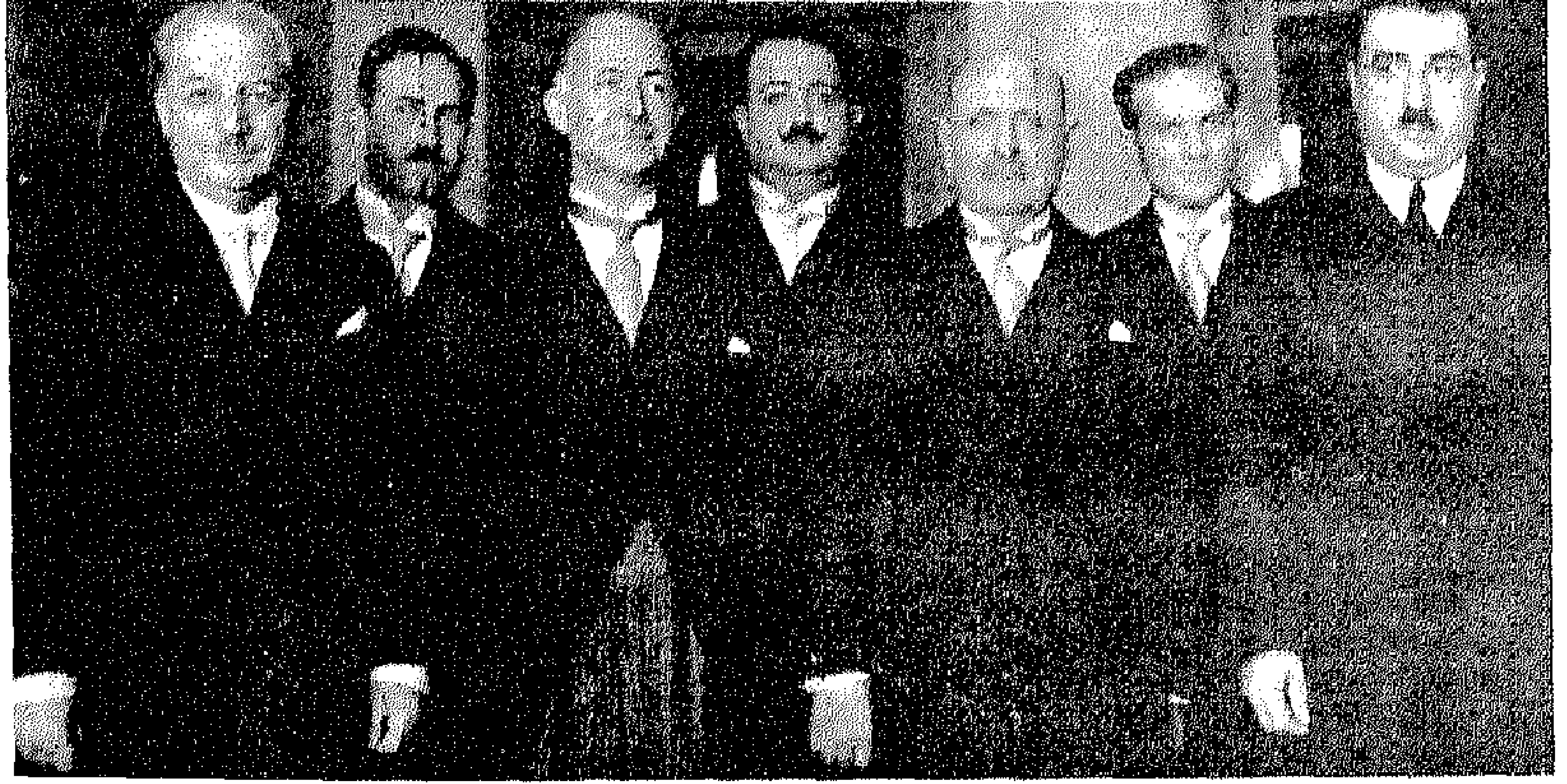
يتردد اسم الزعيم الخالد رياض الصلح على افواه اللبنانيين في كل مناسبة وطنية مجيدة كما يستفقده اليوم المواطنون في هذه المحنة التي يعانيها لبنان متسائلين: ترى لو بقي رياض حيّاً إلى هذا اليوم أكان أصاب البلد الجميل المتقدم ما اصابه من بلاء وشقاء؟



كيف لا يتردد اسم بطل الاستقلال على الشفاه ويحتلّ مكانه في ضمائر الناس مقدّرين ما كان له من فضل على مستقبل لبنان والانتقال به من حال الانتداب البغيض إلى حال التحرر والتخلص مما كان يعانيه من استغلال وقهر طيلة خمس وعشرين سنة مضت على الحكم الذي كان في واقعه لوناً من ألوان الاستعمار؟

على أن الزعيم رياض لم يكن زعيماً محلياً فحسب فهو من افراد الرعيل الأول الذي وقف رجاله في وجه الاستعمار التركي فاستشهد بعضهم على حبال المشانق ونفي البعض الآخر إلى مجاهل الأناضول وكان هو في عداد من حكموا بالنفي مع والده المغفور له رضا الصلح بالنسبة لصغره بحيث لم يكن قد بلغ سن الرشد بعد.

جان سرور. من مؤسسي جمعية التضامن الأدبي التي عملت على مناهضة الانتداب في الثلاثينات وكان أميناً عاماً لها. سُجن وشُرّد مرات.



(من كتاب وليد عوض:
اصحاب الفخامة
رؤساء لبنان،
الأهلية للنشر بيروت ٧٧)

سعد الله الجابري رئيس لوزارة السورية يهنىء رئيس الجمهورية اللبنانية وحكومته بعد «راشيا» ويظهر في الصورة صبري حمادة رئيس المجلس ورياض الصلح رئيس الوزراء، والوزراء عادل عسيران، مجيد ارسلان وكميل شمعون.

ونضال رياض الصلح عهد الانتداب على سوريا ولبنان يطول شرحه وقد عانى منه النفي والتشرد مراراً عدة وتحمّل من اضطهاد السلطات له ما ينوء به البشر وتقبّله بصبر وأناة يثيران العجب.

وقد ساهم في كفاح رجال سوريا المناضلين الذين كانت تتألف منهم (الكتلة الوطنية) بعد رحيل الملك فيصل عن دمشق كشكري القوتلي وفارس الخوري وهاشم الأتاسي وفخري البارودي وجميل مردم بك وابراهيم هنانو وسعدالله الجابري وادمون حمصي وغيرهم من كبار رجال السياسة والزعماء الابرار، الذين كانوا في صراع دائم مع الانتداب وعانوا في مقاومتهم له النفي مراراً عديدة والشقاء والهوان.

وكانوا أحياناً يتولون الحكم كأصحاب حق بارادة الشعب وأحياناً يبعدون ليحلّ محلهم من يختارهم الانتداب من اشخاص يسهل عليه التعاون معهم ضاربين عرض الحائط بالمجلس النيابي صاحب الحق باعطاء الثقة للحكومات أو حجبها عنها.

نفي رياض الصلح مع الزعماء السوريين إلى القامشلي

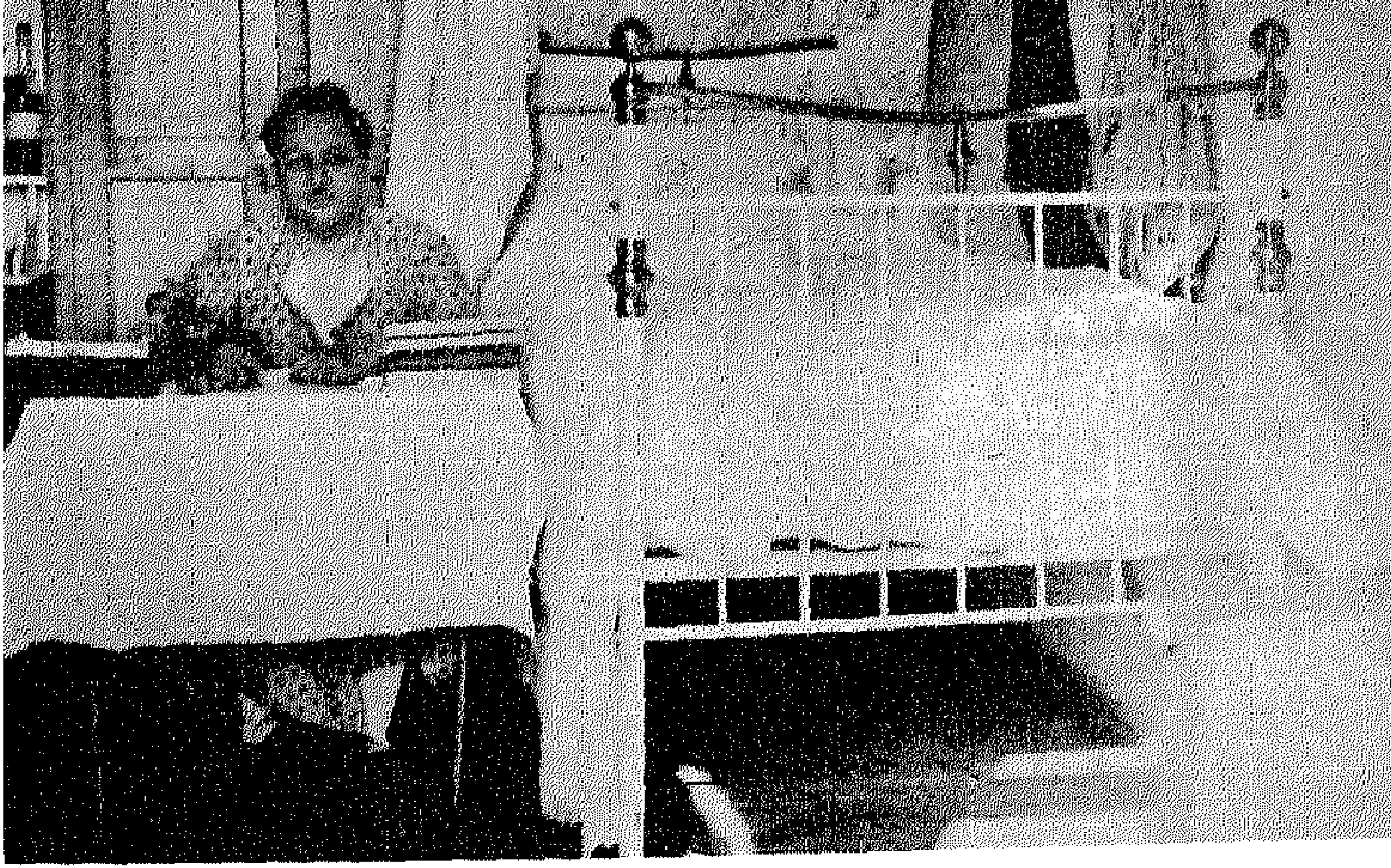
ولما كان رياض الصلح يشارك في سياسة الكتلة المناوئة للانتداب كما سبقت الاشارة، فقد كان عليه ان يتحمل معها النكبات التي تتعرّض لها كما حصل في العام ١٩٣٦ حيث صدر الأمر بنفيه مع الحكومة السورية القائمة في ذلك الحين، وكان النفي إلى القامشلي وهي منطقة نائية على الحدود الشمالية من سوريا.

وكان وقع نفي رياض مثيراً للرأي العام اللبناني غير ان الخشية من الجهر به حال دون ردّات الفعل التي كان من الطبيعي أن تظهر واقتصر الأمر على فئة من الشباب لا ترهبهم تدابير السلطة الغاشمة، كانوا يترددون على منزل الزعيم المنفي يستطلعون أخباره ويتباحثون فيما يمكن القيام به من مظاهر للتعبير عن نقمتهم.

أذكر هنا ان أحد المفوضين في الأمن العام كان يدّعي صداقتي والحرص عليّ، كان يأتي اليّ من وقت لآخر ليقول لي أنه وقف على تقارير تفيد اني اتردّد على بيت رياض الصلح الأمر الذي سوف يسبّب لي المتاعب والضرر وكان ينصح بدافع (غيرته) عليّ ان أمتنع عن ذلك.

والواقع ان الاهتمام بمعرفة الاشخاص الذين يترددون على بيت الزعيم كان الشغل الشاغل لأولي الأمر، والبيت كان دوماً مراقباً بدليل مشاهدتنا لرجال الأمن وعيونهم دائماً شاخصة إلى ممرّ البيت الواقع في محلة رأس النبع ودرجه المكشوف لكل من يريد معرفة زواره من الشباب الذين هم على لائحة المشبوهين.

وهكذا كان كل تحرك يجري في المدينة يشغل المنتدبين ويحسبون له ألف حساب.



رياض الصلح في منفاه في القامشلي

عودة رياض الصلح من المنفى

واخيراً عاد رياض من المنفى مع الزعماء السوريين بعد ان قضوا في القامشلي زهاء الستة أشهر.

وعند رجوعه استقبلته جموع غفيرة من اللبنانيين وغصّت داره بالمهنئين الذين كانت وفودهم لا تنقطع ايّاما طويلة كما اقيمت له حفلات تكريم كثيرة أغضبت بالطبع سلطات الانتداب دون ان تحاول منعها.

ورغبت بدوري ان أقيم له واحدة مثلها في بيتي الكائن في محلة الأشرفية بعدما شعرت أنه من غير اللائق أن يحتفي به ويكرّمه ابناء طائفته ويتخلّف عن هذا الشباب المسيحي وهو الرجل الذي تعلو وطنيته على كل مذهب ودين، وما ان شاع نبأ عزمي على احياء تلك الحفلة حتى زارني البعض من اصحاب النفوس المريضة بقصد اقناعي بالعدول عنها ولكني رفضت حيث لم تغب عني معرفة الجهات التي كانت وراء هذا المسعى وما يرمون إليه.

وكان في طليعة من راجعني بالأمر المفوض (الصديق) ايّاه وقد حذّرني من مغبّة تصرفي، إلّا ان تحذيرهم لم يلق مني أي اهتمام طبعاً.

وجرت الحفلة التي دعوت إليها جمهوراً من سكان الحي وبعض شخصيات الكتلة الوطنية وغيرهم من الشباب اللبناني المعروف بالوطنية. وقد اقيمت الزين على الشارع ومدخل البيت وأطلقت الأسهم النارية ابتهاجاً بالزائر الكريم، وخطب في الحفلة النائب ميشال زكور والمحامي نصري المعلوف، والوزير السوري جميل مردم بك، وكانت قد سبقتهم مفتتحة الحفلة فتاة صغيرة وقدمت طاقة من الزهور كما ألقت كلمة ترحيب حارّة قوبلت بعاصفة مدوية من التصفيق والحماس الشديد.

السفر إلى فرنسا

عندما اطلقت المفوضية العليا سراح الزعماء المعتقلين في القامشلي كان هذا بقصد عقد معاهدة بين سوريا وفرنسا كانت تهيء لها في وقت سابق للاعتقال كما بدا لمتتبعي السياسة إذ لم تلبث الكتلة الوطنية ان استجابت للأمر وألّفت وفداً سافر إلى باريس للمفاوضة والاتفاق على صيغة معاهدة تحل محل الانتداب القائم. وبالنظر لأهمية الموضوع وخطورته طلبت إلى رياض الصلح ان يصحب وفدها إلى العاصمة الفرنسية للافادة من حكمته والاستعانة بما له من صداقات بين كبار رجال السياسة الفرنسيين.

وغادر الزعيم رياض بيروت بعد ايام قليلة من اقامة الحفلة التي سبق الحديث عنها ولم تمض ايام على سفره حتى وصلتني منه رسالة يشكرني فيها على ما قمت به نحوه من تكريم ويكلفني بشكر كل من شارك في استقباله من اهل الحيّ دون ان أنسى تلك الملاك الصغير التي رحّبت به وقدّمت له الزهور.

اما المعاهدة المنشودة فقد تمّ الاتفاق على مضمونها بعد اجتماعات مطوّلة ومفاوضات مكثفة لكنها اخيراً لم تحظ بموافقة البرلمان الأفرنسي الذي لم ير فيها ما يحقق أماني فرنسا باخضاع سوريا الناشئة إلى سيطرتها ◘

ستا

معركة غيّرت وجه الحرب العالميّة الثانية

العقيد الكسندر . م . سامسونوف

ترجمة تاريخ العرب والعالم



لينغراد

الحلقة الأولى

بعد هدوء روعها من هزيمتها القاسية أمام موسكو قامت قيادة هتلر في صيف ١٩٤٢ بشن هجوم على الجناح الجنوبي من جبهتها الشرقية واستطاعت بذلك احتلال أراض سوفياتية جديدة (حوالي ٤٠٠ الف كيلو متر مربع). وفي الوقت الذي كانت فيه القوات الالمانية تصل الى ضواحي «فورتيف»، ومدينة ستالينغراد ودعائم القوقاز، اضطر الجيش السوفياتي الى مواجهة وضع عسكري خطير.

ومرة جديدة لم يذهب الالمانيون الى الحد الاقصى من خططهم فمجموعة الجيوش «ب» من القيادة والمؤلفة من/٨٥/فرقة موجهة ضد «فورونيف» وستالينغراد، لم تستطع قهر المقاومة التي واجهتها بها القوات السوفياتية واضطرت قوات الجيش الرابع المدرع والجيش السادس الى التوقف أمام ستالينغراد. اما مجموعة الجيوش «الف» المؤلفة من الجيش الاول المدرع والجيش الـ١٧ القوي بالفرقة ٢٥ فقد أوقفتها قوات جبهة «الترانسقوقازي». وكان وضع الالمانيين في القوقاز وفي ستالينغراد حساسا الى درجة دفعتهم الى اشراك كل احتياطهم في المعركة.

فوق ذلك كان الجيش السوفياتي يزعج العدو بهجماته المتتالية على مناطق اخرى من الجبهة واضعا بذلك قيادة الأركان الالمانية في وضع لا تستطيع معه اعادة توزيع قواتها.

في ١٣ تشرين الأول ١٩٤٢، اعطى هتلر اوامره بالبقاء في موقف الدفاع على طول الجبهة ما عدا امام ستالينغراد وبعض المراكز الثانوية مثل «توابي» على البحر الأسود ونالفيشيك في القوقاز. وكانت التعليمات تقضي بالبقاء في المراكز المأخوذة والاحتفاظ بها بأي ثمن. كان الالمان يعتقدون بان الشتاء سيعطيهم الوقت لتحضير هجومهم باتجاه الشرق في ١٩٤٣. ولادراكهم الظروف الضرورية لوقف كل عمليات الجبهة طوال الشتاء، فقد أظهروا اهتماما خاصا بالمنطقة الوسطى حيث كانت مجموعة جيوش متوقفة، وحيث كانوا يتوقعون هجوما سوفياتيا.

من جهتها، كانت القيادة السوفياتية العليا قد وضعت تقريرا واقعيا ليس فقط عن الوضع في خريف ١٩٤٢ ولكن ايضاً عن التوازن العام للقوات المتواجدة لدى الفريقين. واثبت التحليل ان الوقت الذي ستتغير فيه الظروف في نهاية القتال قد حان. ومن جهة نظر استراتيجية بدا ان الفائدة الكبرى يمكن تحقيقها بالقيام بضربة حاسمة ضد قوات العدو المدرعة الاكثر نشاطا والأكثر خطرا في الجنوب. وهكذا ظهرت فكرة محاصرة وتدمير العدو في ستالينغراد بتدمير كل الجناح الايمن للجيوش الالمانية.

وكما اثبتت الاحداث في ما بعد، كانت لتحقيق هذه الخطة آثار تاريخية كبيرة.

الستافكا تحضّر اورانوس:

منذ الأيام الأولى لشهر أيلول، تأكدت القيادة السوفياتية العليا بان الخطة الستراتيجية الالمانية قد تغيرت بصورة جدية خلال صيف ١٩٤٢. ورغم توجيهها ضربات اساسية لروسيا السوفياتية، فان قوة القيادة الالمانية الهجومية



هذا «المصنع» دخل التاريخ. لقد أراده الألمان هدية لهتلر في عيد الميلاد سنة ١٩٤٢ لكن الجنود الروس دافعوا عنه بضراوة.

قد ضعفت وأصبح احتياطها منهوك القوى. ولم يعد بمستطاع القيادة الالمانية العليا نقل الامدادات الكبيرة من المانيا او من باقي الجبهة الشرقية. وبما انه لم تعد لها أية قوة جاهزة، اذن فلا يوجد سبب لانتظار العودة الى هجوم موسع قبل صيف ١٩٤٣. كل هذه المعطيات اعطت الروس امكانية تركيز اهتمامهم على استعادة المبادرة من جهة ستالينغراد.

قام الجنرال جوكوف، القائد العام المساعد والجنرال فاسيليفسكي قائد الأركان العامة بدراسة هذه المواضيع مع الـ «ستافكا»، وخلال النصف الأول من ايلول، قاما بالاطلاع على أوضاع جبهة الفولغا للسبب نفسه.

عندما عاد جوكوف وفاسيليفسكي الى موسكو، حضرت الستافكا اجتماعا للأركان العامة. وخلال تبادل وجهات النظر، درس مبدأ الهجوم الستراتيجي المطروح، والوسائل اللازمة لتحقيقه، كذلك بحث في المحاور الرئيسية المعتمد عليها، والقوات والأسلحة اللازمة، والمناطق المهمة والبرنامج الأولي للتجمع. وتقرر قيام جبهتين منفصلتين (دون وستالينغراد) بدلا من الجبهات السابقة التي كانت تحت قيادة واحدة. ووضعت الجبهات الجديدة تحت الأوامر المباشرة للستافكا. كما تقرر ايضا انشاء جبهة جديدة في الجنوب الغربي على يمين الدون.

وبعد ان وافقت الستافكا على الخطوط العريضة للهجوم المضاد في نهاية ايلول، تركت للاختصاصيين في الاركان العامة أمر التفاصيل. وبدأ قادة كل سلاح العمل، وكلف «جوكوف» بتحضير جبهات «الدون» والجنوبية الغربية وفاسيليفيسكي بتحضير جبهة ستالينغراد.

وطوال شهر تشرين الأول، كانت قيادة الأركان العامة ومختلف المستشارين العسكريين والأركان العامة المحلية تتابع عملها لاخراج العملية التي أصبحت جاهزة في نهاية الشهر، لكن الستافكا رأت أنه من الضروري اجراء بعض التعديلات على الخطة الأساسية، وهي تعديلات لاعطاء العملية دفعا أكبر.

وفي صورتها النهائية، كانت خطة الهجوم المضاد «اورانوس» مثالاً في الدقة والجرأة.

وفي ٣ تشرين الثاني، عقد جوكوف مؤتمرا في الأركان العامة للجيش الخامس المدرع التابع للجبهة الجنوبية الغربية وذلك للتدقيق في كل شيء. وكان حاضرا كل الجنرالات قادة الجيوش والفرق التي كان عليها ان تشترك في الهجوم، حسب المحور الرئيسي للعملية، وكذلك أعضاء كل الأركان العامة. وتبعت ذلك مؤتمرات اخرى في الجيش الـ٢١ للجبهة الجنوبية الغربية بحضور المسؤول عن جبهة «الدون». وبعد عدة أيام، في ٩ و١٠ تشرين الثاني عقد مؤتمر آخر في القيادة العامة لجبهة ستالينغراد.

خطط القيادة الالمانية:

منذ الخريف أصبح واضحا حتى بالنسبة للقيادة الالمانية العليا ان الهجوم الالماني على ستالينغراد يراوح مكانه ولم يستطع الانتصار على المقاومة السوفياتيه، ولهذا السبب ارتفعت قيمة القوات الروسية وفعاليتها بنظر الالمانيين وسببت «قلقا بالغا» على مستوى الأركان العامة، كما كتب الجنرال «فون تيبلسكيرش» فيما بعد.

لكنه لم ينتج عن هذا التقدير للوضع أي قرار جديد. وكما قال الجنرالات الالمانيون فيما بعد، فان المأساة بالنسبة لهم ان هتلر لم ير على الاقل في الوقت المناسب، الخطر الذي يدق ابواب القوة الالمانية في ستالينغراد، بينما كانت قيادة الاركان العامة، كما قالوا، تنظر الى الوضع نظرة موضوعية.

واذا كانت القيادة الألمانية في ستالينغراد قد بدأت تراقب منذ خريف ١٩٤٢ بوادر الهجوم السوفياتي التي يحضر، فانه لم يكن باستطاعتها تكوين أدنى فكرة عن القوة التي

سيظهرها وعن التوقيت الذي سيعتمد للتنفيذ. ولبعدها عن ساحات القتال، فان القيادة العليا لم تكن لتستطيع تقدير مدى الخطر الحقيقي الذي يهدد قواتها امام ستالينغراد.

وكانت عملية الانتقال من الهجوم الى الدفاع في ستالينغراد، تجعل من الضروري اتخاذ تدابير من شأنها تحسين وضع الفرق التي كان عليها الصمود على الفولغا. وبسبب التطورات في المعركة، اضطر الالمانيون الى تجميع قواتهم الاكثر اهمية والاكثر كفاءة للقتال في الضواحي المباشرة لستالينغراد. بعد ذلك، ولكون جبهة القتال على محور ستالينغراد ذات امتداد كبير، فقد اضطروا كذلك الى تجريد أجنحة مجموعة الجيوش «ب» وتحضيرها لتحمل مخاطر اقتحام ستالينغراد بكل ثمن، ووضعوا الخطط المتوالية لمحاولة الوصول اليها، وهكذا، استنفذت القيادة الالمانية العليا كل احتياطها متخلية بذلك عن كل الآمال بتثبيت وضع فرقها.

وبسبب هذه الأوضاع بدأت مجموعة الجيوش «ب» سحب بعض الألوية لوضعها في الاحتياط، بهدف جمع الجيش الرابع المدرع والجيش السادس من أجل اقامة مفصل في العمق وحماية أجنحة «قوة الصدمة» التابعة لها. لكن ذلك جاء متأخرا جدا ودون جدوى، ولم يعط فائدة الا في اثبات التعب الشديد الذي كان يتملك القوات التي هاجمت ستالينغراد والقوقاز في الصيف الماضي، كما اثبت ان الالمانيين فوجئوا بالترتيبات السوفياتية للهجوم المضاد والتي لم يكتشفوها في الوقت اللازم.

موسم الطرقات السيئة:

لم تكن عملية جمع الفرق الروسية في ستالينغراد شيئا سهلا:

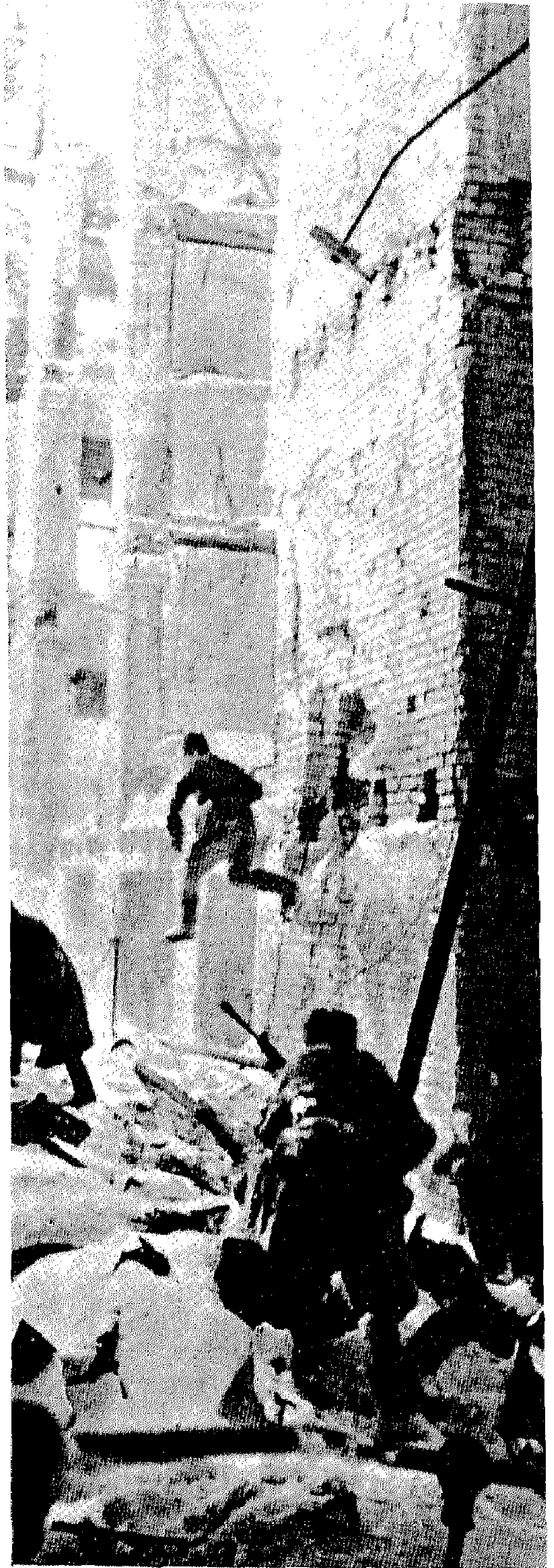
لم تكن السكك الحديدية على ضفتي الفولغا من السكك الحديثة. وفوق ذلك وبسبب القصف المدفعي والجوي للعدو ضد بحيرات الفولغا والسكك الحديدية التي تؤدي الى ستالينغراد كانت بعض الوحدات السوفياتية القادمة من اشراخان او من كاميشين تضطر الى ان تقطع سيرا على الاقدام، مسافات تبلغ ٤٠٠ كلم خلال الخريف (موسم الطرقات السيئة).

وكانت المهمة الجبارة في اعادة توزيع الفرق والاسلحة والعتاد تجري في سرية تامة. واعطيت تعليمات خاصة من قائد الأركان العامة بمنع كل المراسلات وكل المخابرات الهاتفية التي قد تكون لها علاقة بذلك. وسمح فقط باعطاء الأوامر الشفهية الى المعنيين بذلك شخصياً. ولم تنفذ عملية جمع الفرق في ستالينغراد واعادة توزيعها الا تحت ستار الظلام. وكان شهر تشرين الاول والاسابيع الأولى من تشرين الثاني كافية لاتمام كل ذلك. لكن بعض المواد استمر وصولها حتى ١٩ و٢٠ تشرين الثاني.

وقد اسند الهجوم الى قوات الجبهات الثلاث: الجنوبية الغربية (الجنرال فاتوتين) الدون (الجنرال روكوسوفسكي) وستالينغراد (الجنرال ياريمنكو). وكان الجنرال فاسيليفيسكفي قائد الأركان العامة مسؤولا عن التنسيق بين الجبهات الثلاثة. كانت القوات الروسية تضم: عشرة جيوش، جيشا مدرعا، ثلاثة جيوش جوية وعددا من وحدات فصائل الأسلحة الخاصة. كان مجموعها مليونا وخمسماية رجل/١٣٥٤١/مدفعا ومدفع هاون/٨٩٤/دبابة و/١١١٥/طائرة. مقابل ذلك كان تحت تصرف العدو/١,٠١١,٥٠٠/رجل،/١٠،٢٩٠/مدفعا ومدفع هاون،/٦٧٥/دبابة و/١٢١٦/طائرة: نتيجة لذلك كان من الجوهري الحصول على تفوق مضاعف على كل المحاور الرئيسية، وهذا ما تحقق. كان الدور الحاسم معقود اللواء للدبابات والألوية الآلية، فمنذ بداية العملية جرى تجميع أربع فرق مدرعة وفرقتين آليتين في المنطقة التي ستنطلق منها الضربة الأكثر أهمية وقد جرى الاهتمام، مقابل ذلك، بتقوية المدفعية والطيران بصورة خاصة. وقد توقعت الخطة عمليات من محاور متناسقة تهدف الى التطويق ثم الى التدمير الكلي للقسم الأكبر من القوات الالمانية في منطقة ستالينغراد.

طوفان حديدي مع الفجر:

ليل ١٨ - ١٩ تشرين الثاني اعطيت الجبهتان الجنوبية الغربية «والدون» الأمر بالهجوم، بينما تلقت جبهة ستالينغراد الامر في الليلة التالية.



الجيش الأحمر يسترجع المدينة بيتاً بيتاً، وشارعاً شارعاً، في اقسى «شتاء حربي».

صباح ١٩ تشرين الثاني ١٩٤٢، كان الطقس غائما ولم يستطع الطيران الخروج. في تمام الساعة السابعة والنصف فتحت/٣٥٠٠/مدفع ومدفع هاون نيرانها على القطاعات التي يجب فتح ثغرات فيها. رغم الضياع الذي سببته هذه القوة المدفعية الكبيرة في صفوفها الدفاعية، فان المقاومة الرومانية لم تتحطم على الفور. وكان تقدم ألوية المدفعية الروسية بطيئا في البداية. وقد لعبت المدرعات التابعة للجيشين الخامس المدرع والواحد والعشرين (الجبهة الجنوبية الغربية) دوراً اساسيا بشق طريق لها بين حزام العدو الدفاعي في أقوى مركز له، شمال ستالينغراد. وتقدمت الفرقة المدرعة الرابعة من الجيش الواحد والعشرين حوالي ثلاثين كيلومترا وسيطرت على «مانويلينو». ومنذ بداية العملية، سجلت نتائج ايجابية بفضل التنسيق بين الدبابات والمدفعية والمشاة، وقامت وحدات من الدبابات ومن الفرسان التابعين الى المجموعات الهجومية للجبهة الجنوبية الغربية بالاختراق، وبدأت بالتقدم جنوباً. أثناء ذلك كانت الوية المشاة القادمة في أثرها تطهر القرى وتأسر ما تبقى من الفرق العدوة.

وفي ١٩ تشرين الثاني أيضا بدأت جبهة «الدون» بالهجوم، وقد قامت مجموعات من الجيش الخامس والستين باطلاق الضربة الرئيسية.

فجر العشرين من تشرين الثاني، وصلت الفرقة الـ٢٦ من الجيش الخامس المدرع الى «بريلازوفشكي» وهي ضاحية كبرى وعقدة طرق ومواصلات، واقتحمتها مدمرة مركز القيادة العامة للفرقة الخامسة من الجيش الروماني، عندئذ قامت الفرقة المدرعة التابعة للجبهة الجنوبية الغربية بتوجيه ضربة حاسمة وجريئة الى القوات الاحتياطية الالمانية العاملة والتي تضم الفرقة المدرعة الـ٤٨ وحطمتها شر تحطيم. ووراء القوة المدرعة جاءت فصائل من الفرسان والمدفعية والمشاة من الدرجة الأولى لتثبيت الانتصارات المحققة.

في منطقة ستالينغراد تتابعت الاحداث بسرعة فخلال أليومين الأولين، تقدمت القوات



لتوفير الطاقة واختصار التحرك، كان الجنود الألمان يحملون امتعتهم وهم يحاربون في الخنادق...

المتحركة التابعة للجبهة الجنوبية الغربية حوالي ٣٠ الى ٤٠ كيلو مترا دافعة الهجمات المضادة لاحتياط العدة وموقعة في صفوفه خسائر فادحة، في نفس الوقت، كانت فصائل المدفعية للجيش المدرع الخامس والجيش الحادي والعشرين تجبر أجنحة فرقتي الجيش الروماني على الانتقال من الغرب الى الشرق بهدف تطويقها في منطقة «راسبوبينشكاي».

ووحدات الجناح الأيسر للجيش الـ ٢١ (الجبهة الجنوبية الغربية) وفرق الجيش الـ ٦٥ تقدمت بهجومها باتجاه الجنوب الشرقي وانقضت على الجناح الأيسر للجيش الالماني السادس.

أما جبهة ستالينغراد فقد بدأت الهجوم في العشرين من تشرين الثاني بالجيشين الـ ٦٤ والـ ٥٧ عن اليمين والجيش الـ ٥١ عن اليسار. وبسبب الضباب الذي كان يغطي ستالينغراد منذ الصباح فقد تأجل الهجوم ساعتين.

لقد جرى تحضير المدفعية بموجب خطة درست بعناية: سجلت رشقة من منافع الهاون الثقيلة م – ٣٠ التابعة للحرس معلنة بداية القصف الشامل من المدفعية ومن مدفعية الهاون والذي دام من ٤٠ الى ٧٥ دقيقة. وقام لواءان من الجيش الـ ٥٧ بشق طريقهما بين بحيرات «ساربا» و«نساغسا» مهاجمين جنوبا وجنوبا غربا. عندئذ قام الجيش بحركة دائرية باتجاه الشمال الغربي لتطويق العدو داخل جيب ستالينغراد.

من جهته، قام معظم الجيش الـ ٥١ التي كانت قاعدة انطلاقة قائمة بين بحيرتي «تشاشا» وبارمنشاك، بالهجوم باتجاه «سوفيتسكي». بعد ظهر ٢٠ تشرين الثاني، قامت المجموعات المتحركة وهي الفرقتان الاليتان الرابعة والـ ١٣ وفرقة الفرسان الرابعة بالولوج داخل الممرات التي حققتها قوة صدم جبهة ستالينغراد، وتوغلت بعمق داخل الجهاز الدفاعي للمحور.

السوفيات يقفلون الكماشة:

أقلق الهجوم على جبهة ستالينغراد الالمان، واذا كانت القيادة العامة للجيش السادس توقعت نوعا ما، الهجوم من الشمال فنستطيع القول أن الهجوم من الجنوب كان مفاجأة تامة لها.

في ٢١ تشرين الثاني كانت الفرقة المدرعة التابعة للجبهة الجنوبية الغربية تتبعها فصائل من المشاة ومن الفرسان، تواصل هجومها المتقدم الى الامام. وفور ان تلقت الفرقة المدرعة الـ ٢٦ مؤونتها من المحروقات ومن الذخيرة وبعد ان أحضرت الى المواقع قوات من المؤخرة، عادة الى الهجوم في الساعة الواحدة ظهراً. وعند حلول الليل كانت قد شقت طريقا لها حتى ضواحي «أوستروف» وضاحية «بليستوفسكي» ومنها تابعت هجومها.

على الجناح الأيسر للجيش الـ ٥١ كانت الفرقة المدرعة الرابعة تتحرك من منطقة «مانويلينو – مايوروفسكي» في مهمة للوصول الى الدون في ٢١ تشرين الثاني والسيطرة على ممرات النهر، وفي اليوم نفسه، حطمت مقاومة الفرقة الالمانية المدرعة الـ ١٤ ووصلت الى «غولونسكي». وتابع الجيش الـ ٢١ العدو، فرقة اثر فرقة، في مواقعه الدفاعية في منطقة (فيركيني قوميكنسكي – راسبوبينسكاي)، بينما كانت ألوية الشاة التي تسانده من اليمين مهتمة بتطويق وتدمير الفرقتين الرابعة والخامسة من الجيش الروماني في «راسبوبينسكاي».

قلب الهجوم السوفياتي الأوضاع تماما في جبهة ستالينغراد اذ أصبحت الدبابات الروسية الان على مقربة من مركز القيادة العامة للجيش السادس وكما أشار الجنرال «ميلينتهان» بقوله:

كانت القيادة العامة للجيش السادس على ضفة «الدون» على طريق الدبابات الروسية تماما، واجبرت على الانكفاء الى «تشير» غربي «الدون» لبعض الوقت. ولكن بعد بضعة أيام نقلت بالطائرة الى منطقة ستالينغراد وتمركزت بالغرب من «غومراك».

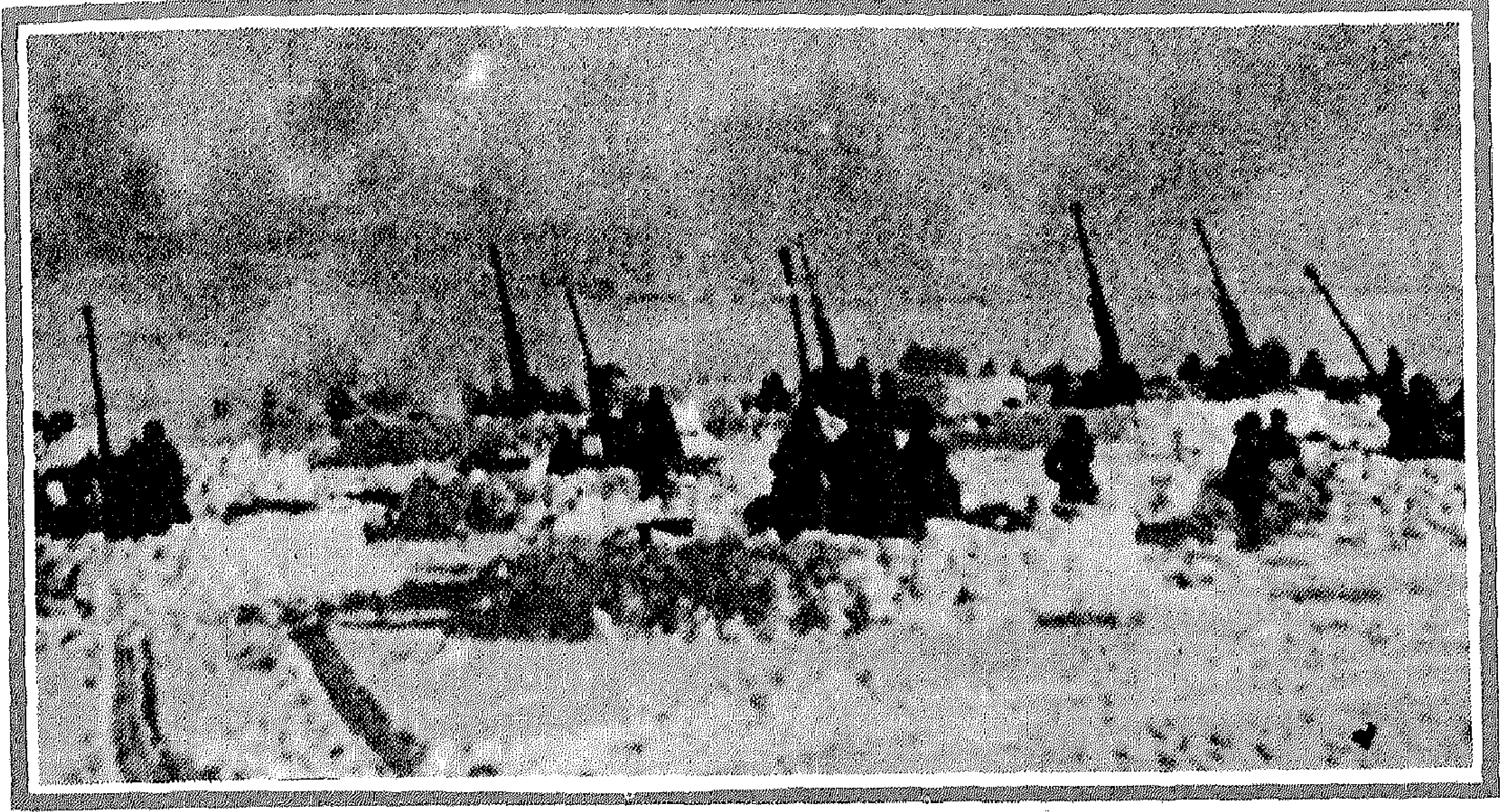
صباح ٢٢ تشرين الثاني وصلت الوحدات الأخيرة والاركان العامة للجيش السادس الى «نينجي تشيرسكاي». كان «باولوس» ورئيس أركانه الجنرال «شميدت» قد تمركزا وعندما قدم «أدم» نفسه كان «باولوس» قد تلقى برقية عاجلة من هتلر تأمره (بالطيران فورا من الفخ الذي يحضر ونقل القيادة العامة الى القرب من محطة «غومراك»).

هجوم الدبابات غير المجرى:

في هذا الوقت كان الهجوم الرئيسي الذي قامت به الجبهة الجنوبية الغربية يتابع تقدمه والقوات السوفياتية تتقدم من المكان المخصص للالتقاء برجال جبهة ستالينغراد بهدف تحقيق الحصار بصورة جيدة. في ٢٣ تشرين الثاني، قامت السرية الـ ١٩ من الفرقة المدرعة الـ ٢٦ بهجومها على الألمان في «كالانش». ومنذ الساعة العاشرة كانت الدبابات الروسية تدخل المدينة لكن المقاومة الالمانية كانت شديدة. وقد نجحت هذه، بقذائف الهاون المتتالية وبالرشاشات، في ايقاف المشاة السوفيات الذين كانوا يتقدمون الى المدينة من الناحية الشمالية الغربية. وفي الثانية بعد الظهر، وصلت الوحدات المساندة الصغيرة التابعة للفرقة المدرعة/١٥٧/بعد اجتيازها «الدون»، من ضفته اليمنى وهكذا اصبحت كالانش محررة.

كانت فرق الهجوم التابعة لجبهة ستالينغراد، قد أتمت، هي ايضا مهماتها بنجاح باهر. فبعد خرقها خطوط الجناح الايسر للجيش الروماني الرابع، كانت وحدات من المشاة تابعة للجيشين الـ ٥١ والـ ٥٧ تتابع تقدمها حسب الممرات التي تفتحها قواتها المتحركة.

مساء اليوم الأول، كانت فرق الجيش الـ ٥٧ قد تقدمت حتى خط «تيينكو نوفي – غاتشيك»، وفي محاولة لاعاقة هذا التقدم دفع الالمان الى المعركة بوحدات سحبت من الفرقة الـ ٢٩ المدرعة لكن جهودهم لاقفال الثغرات في خطوطهم والتي بدأت تتزايد، كانت دون جدوى، فجاء صباح ٢١ ليعلن سقوط «ناريمان» من جديد.



المدافع المضادة للطائرات «زرعت» في الثلوج حول ستالينغراد.

في مركز هجوم الجيش الـ٥١ قام الجنرال فولسكي ومعه الفرقة المدرعة الرابعة بالتواجد في مقدمة فرق الهجوم واستعاد «بلودوفيتوي» وهي أول قرية تقع على الخطوط الخلفية للعدو. وفجر ٢١ تشرين الثاني، سقطت محطة «ابكانيروفو» بعد معركة مفاجئة قامت بها مجموعة صغيرة من الدبابات تابعة للقيادة العامة للجبهة بينما في الوقت نفسه تقريبا، كانت وحدات اخرى تابعة للجنرال «فولسكي» تشق طريقا لها من محطة «تينفوت».

واطلقت فرقة الفرسان الرابعة في الثغرة وراء عناصر «فولسكي» فقامت بالسير اكثر من ستين كيلو مترا لقطع خط انسحاب العدو باتجاه «ابكانيروفو» وكان رجاله يتنقلون فوق أرض لا تساعد على التقدم الطبيعي، كونها مؤلفة من منحدرات، ومنحدرات مضادة ومقطوعة بالخنادق العميقة والوديان الوعرة، وكل ذلك كان مغطى بالثلوج. ورغم ذلك كانوا يسيرون دون توقف، الا لفترات قصيرة، تسمح باعادة تجميع طوابيرهم وفي ٢١ تشرين الثاني كانت قرية «ابكانيروفو» محتلة.

أما بالنسبة لقوات جبهة ستالينغراد فكانت تتابع تقدمها ليلا ونهارا محققة اهدافها. فخلال يومي ٢٠ و٢١ من تشرين الثاني كانت فرق الجيوش الـ٧١ والـ٤٥ والـ٦٠ قد أبادت ثلاثة ألوية مشاة رومانية والحقت خسائر فادحة في صفوف لواء رابع، وفي صفوف اللواء المدرّع الالماني الـ٢٩. وبعد يومين من المعارك، كانت وحدات من الجيش الـ٥٧ قد وصلت الى خط يؤدي من «ناريمان» الى المزرعة التعاونية. وتابع الجيش الـ١٣ المدرّع تقدمه باتجاه شمالي غربي مع اتصاله بقوات الجنرال «فولسكي».

من جهتهم، كانت وحدات من الفيلق الآلي الرابع تتابع تقدمها لتحقيق الالتقاء بقوات الفرقة الخامسة المدرعة التابعة للجنرال رومانتنكو القادمة من الشمال الشرقي وفي ٢٢ استولت على محطة «كريفوموزكينساي» وعلى مزارع «سوفيتسكي»، بينما كانت قوات اخرى، من جبهة ستالينغراد، وهي الجيش الـ٥١ وفيلق الفرسان الرابع دافعة بهجومها على الجناح الخارجي للحصار، تتقدم باتجاه «كوتينيكوفو».

حوالي عشرة كيلومترات اصبحت الان تفصل بين قوات جبهة ستالينغراد وقوات الجبهة الجنوبية الغربية. وقام الألمان عندئذ، وانطلاقا من ستالينغراد، باطلاق فرقتي دباباتهما الـ١٦ والـ٢٤ على «كالانش وسوفياتسكي» آملين الحؤول دون تحقيق

الوحدة بين الجبهتين الروسيتين.

في ٢٣ تشرين الثاني التقت وحدات من الفرقة الرابعة المدرعة التابعة للجبهة الجنوبية الغربية يقودها الجنرال «كرافنشكو»، بالوحدات من الفرقة الآلية الرابعة التابعة لجبهة ستالينغراد، يقودها الجنرال فولسكي، بالقرب من مجموعة مزارع «سوفياتسكي». وفي اليوم الخامس للهجوم المضاد، كانت قوات الجبهتين المدعومة بقوة من الجناح الأيمن لجبهة «الدون»، قد نجحت في اقفال الحلقة حول الالمان في ستالينغراد. في اليوم نفسه، كانت الفصائل المتقدمة من الوية المشاة التابعة للجبهة الجنوبية الغربية، قد اتمت هذا النجاح بوصولها الى «الدون» بالقرب من «كالاتش». وقامت عندئذ الفرقة الآلية الـ ١٣ ومشاة الجيشين الـ ٥٧ والـ ٦٤ التابعون لجبهة ستالينغراد باقامة خط دفاعي صلب على «تشير فلبنيا» قاطعين بذلك طريق الانسحاب باتجاه الجنوب.

وقد نفذت الجبهات الثلاث مهماتها بصورة جيدة. وداخل الطوق، كانت توجد قوة عدوة مهمة - الجيش السادس وقسم من الجيش الرابع المدرع - أي ٢٢ لواء تمثل حوالي /٣٣٠،٠٠٠/رجل وفوق ذلك، كان السوفيات قد هزموا الجيش الروماني الثالث وأسروا منه خمسة الوية والحقوا بالجيش الروماني الرابع هزيمة ساحقة.

اتخذت القيادة السوفياتية التدابير الضرورية لتأمين الحماية التامة لعملية الحصار، ولتحقيقها بصورة جيدة، كان ضروريا محاولة جعل الجبهة الخارجية تتقدم بأقصى سرعة ممكنة، كي يصار الى عزل القوات الالمانية المحاصرة بصورة اكيدة، ومن ثم تصفيتها، وفور اقفال الطوق بدأت عمليات الابادة من قبل قوات الجبهات الثلاث معاً وفي نفس الوقت، اتخذت التدابير الضرورية لعزل القسم الأكبر من التشكيلات الالمانية المتواجدة في جيب «الدون» الصغير عن باقي الفرق. عاود الجيش الـ ٢١ التابع للجبهة الجنوبية الغربية هجومه صباح ٢٤ تشرين الثاني، متجها الى الشرق. في السابع والعشرين، كان القسم الأكبر من قواته قد اجتاز «الدون» وتمركز على الضفة الشمالية. وكان الجيش الـ ٦٥ التابع لجبهة «الدون»، قد عاود هو ايضا الهجوم صباح الرابع والعشرين لتطويق التشكيلات العدوة المتواجدة على الضفة الثانية من «الدون» حتى «فيرتبياتشكي» و«بسكوفاتكا».

جرت عمليات الهجوم المضاد في تشرين الثاني بنجاح، ولكن ابادة الجيش الالماني المحاصر لم تكن لتتم بسهولة ابدا. ان مجرى الصراع الذي سيدور مستقبلا ضد المانيا النازية متعلق بنجاح هذه العملية.

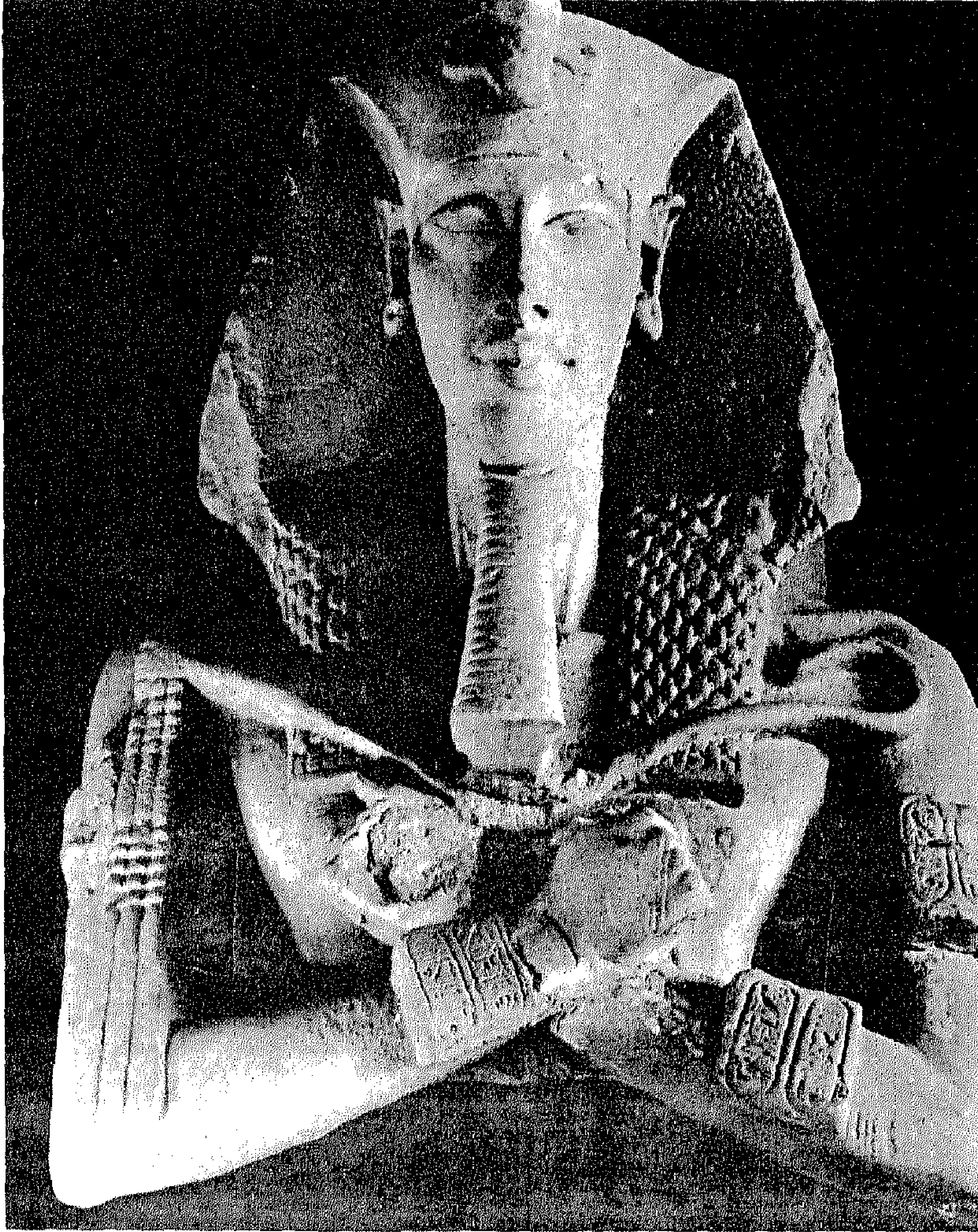
عندما علمت القيادة الالمانية العليا بان «باولوس» محاصر، قررت اصلاح الوضع في ستالينغراد باي ثمن، لأن جبهة «الفولغا» كانت الاساس في خطتها جاء هذا القرار من الادراك الستراتيجي العام لحرب روسيا، هذا الادراك الذي كان «الفوهرر» وأركانه العامِّين مقيدين به بعد التخلي عن «موسكو» كهدف رئيسي. وكان الألمان ما يزالون يؤمنون بتفوقهم على الاتحاد السوفياتي وعلى جيوشه. لقد قدموا تضحيات جسيمة لينجحوا في ايقاف كل تقدم جديد للسوفيات باتجاه الجنوب الغربي وجنوبي ستالينغراد، بينما جرى ايقاف تقهقر الناجين من الجيش الروماني الثالث على نهر «تشير». لقد أقاموا خطا دفاعيا في جيب «الدون» بين مجرى «التشير» ومحطة «فارشنسكاي» بالاشتراك مع الجيش الروماني الرابع ووحدات المانية مختلفة جرى تجميعها بسرعة.

والى هذه المنطقة وصلت الفرقة الـ ١٧ الجديدة بعد وقت قصير، وقامت بالتمركز على طول «التشير» و«كريفاي» في ضواحي «دوبوفسكوي» وما تبقى من الفرقة الـ ٤٨ المدرعة التي كانت وراء الجيش الروماني الثالث كاحتياط، دفعت في الثغرة بين هذا الجيش والفرقة الـ ١٧ وهكذا اقام الالمانيون خطا دفاعياً جديدا على طول «التشير» غير بعيد عن ستالينغراد. لقد نجحوا في الوقت نفسه بتجميد وضع فرقهم المحاصرة نوعا ما. ◘

المرجع:

Historia No. 47 — 1968

اخناتون



أحمد غسان سبانو



وهو عاشر فراعنة الأسرة الثامنة عشرة وثاني ابناء البيه امنحوتب الثالث (امنوفيس الثالث) وهو الملقب امنحوتب الرابع (امنوفيس الرابع) والذي يطلق عليه (تبخوريا) والدته الملكة تي. ولد في طيبة وتربى بقصر والده وأحيط بالعناية والرعاية الملكية وبقي ابوه مدة سبع وثلاثين سنة في الحكم أي أن اخناتون ولد وهو ابن ملك وبقي كذلك حتى استلم الحكم. أما قضية استلامه العرش فهنالك خلاف بين المؤرخين حول وقت استلامه العرش هل كان ذلك اثناء حياة والده أم بعد وفاة والده وهل شاركته بالحكم والدته في بدء الأمر. هناك رأي توفيقي مؤيد ببعض الوسائل التي تعود لتلك الفترة يقول بأن امنحوتب الثالث قد مرض في اواخر حكمه وأنه قد ساعدته زوجته في الحكم وساعده ابنه

غسان سبانو: محامي، مجاز في الحقوق والتاريخ

أيضاً والدليل على ذلك أن ملك بابل (توشراتا) قد ارسل إلى طيبة تمثال (عشتار نينوى) في سبيل شفاء امنحوتب الثالث. بينما يرى آخرون ان هذه المشاركة ان هي إلّا وهم من الأوهام.

تزوج اخناتون من اشهر واجمل امرأة في العالم تلك المرأة الميتانية الأصل التي خلد ذكرها إلى الأبد انها نفرتيتي (والبعض يعتبر أنها نفسها تادوخيا شقيقة ملك بابل (توشراتا). ويعتبر البعض ان نفرتيتي هي شقيقة اخناتون ويقول البعض الآخر انها كانت زوجة امنحوتب الثالث وهو والدها وبعد موته تزوجت شقيقها امنحوتب الرابع (اخناتون) على عادة الفراعنة في ذاك العصر.

تلك الصلات الأسرية المعقدة يرى بعض المؤرخين أنها نفس التركيب الجسماني الشاذ لاخناتون فوجهه النحيف إلى درجة الهزال وكتفاه الضيقان المنحدران وشفتاه الكبيرتان وكذلك بطنه بصورة لا تتناسب مع حجم جسمه. وقد يكون سبب هذا الشكل مرض لم يستطع العلماء تحديد نوعه. ويعزوا هؤلاء المؤرخين لهذا المرض سر احاطة اخناتون بالنساء والحريم في القصر أكثر من الرجال وفي ميادين الحرب والصيد من باقي الفراعنة.

ورغم ذلك فان مدة بقاء هذا الفرعون في الحكم هي بحسب بردية تورين تسع سنوات وثلاثة اشهر وسبعة وعشرين يوماً أما في المراجع الأخرى في سبعة عشر عاماً.

وقد عاش هذا الفرعون حياة عادية وعزي قصر قامته لامه الملكة تي. وقد جعل فنانو تلك الفترة شكل اخناتون طرازاً أظهروا به جميع الناس المحيطين به وذلك كي لايشعر الفرعون بشذوذه ولكي يبدو شكله أمراً عاديا مألوفا.

انجب امنحوتب الرابع (اخناتون) من زوجته نفرتيتي ست بنات ظهر رسمهن كاطفال في المناظر المنحوتة له ولعائلته وقد تسلمت بعض المهام في البلاط ابنته الأولى وهي ذات اثني عشر عاما وكان امنحوتب طبيعياً في علاقته باسرته مبتعداً عن تعقد الملوك من هذه الناحية وهو لم يقم بعزل امرأته وبناته عن الحياة العامة. وكان يظهر العطف والحنو على زوجته وأولاده بعكس سابقيه من الفراعنة حتى اعتبر البعض ان عصره يعتبر عصر مساواة في الحقوق بين الرجل والمرأة. ويظهر في رسومه وهو يسير بالشوارع مع زوجته ويقبلها في الشارع.

والمصادر التي امكنها تدوين بعض الصور والوقائع عن حياته وعهده استمدت مادتها من نقوش وجدت في جهات نائية فهناك نقش من قصة يشير إلى تسجيل ارتفاع النيل وهناك نقوش تعود إلى الأعوام الرابع والسادس والثامن والتاسع من حكمه وجدت في وادي مغارة وسراية الخادم تشير إلى استثمار المناجم، كذلك وجدت بعض القطع الأثرية التي تحمل اسمه. وخرائب تلك العمارة التي تعتبر المصور الرئيسي لاخناتون ومعبوده أتون. وهناك بعض برديات تعود إلى عصره واطلال معبد في طيبة، وله تمثال في أوقير يحتفظ به المتحف اليوناني الروماني بالاسكندرية وسبب قلة آثاره يعود للثورة التي قامت ضدّه وأزالت آثاره وذكراه من كل مكان.

تميّز عهده بهدوء سياسي خارجي فلم يذكر في عهده عن حرب كبيرة أو تطاحن سياسي ألّا ان ما يميز عهده عن سواه حصول الثورة الداخلية الدينية التي تميزت بايجاد تغييرات سريعة في الحالة الاجتماعية والدينية اسفرت عن تغييرات في المعتقدات والعادات والمظاهر. تلك الثورة الدينية التي تعتبر الأولى من نوعها في التاريخ برأي الكثير من العلماء والمؤرخين الا وهي ثورة التوحيد إذ يعتبروه رائد التوحيد في العالم.

إذ كانت الحياة الدينية في عصره والعصور التي سبقته تعتمد على الكثرة من الالهة فلكل مدينة اله يحميها ولكل مظهر من مظاهر الطبيعة اله فهناك اله للرعد واله للأرض واله للسماء وللنجوم وللزهرة وللمريخ بل وللخير وللشر وللنيل اله وللحرب اله وهكذا.

الا ان بعض الالهة تميز عن الاخرى بالحب أو الرهبة أو المكانة وفي اخناتون كان الاله المميز آمون الذي احتل المركز الأول في الأهمية وكان كهنته ومعابده على ثراء فاحش وسلطة ونفوذ وسيطرة ليس لها حدود.

وقد أظهر امنحوتب الرابع اشمئزازاً شديداً من الاله أمون ولكنه لم يستطع اظهار هذا الميل بسبب تأثير امه (على رأي بعض العلماء) وكان سنه أقل من ان يقف بوجه كهنة أمون. الا انه اتبع خطوات اوصلته إلى ثورته واستطاع بها صبغ مصر بالتوحيد الذي دعا اليه متمثلاً بعبادة الشمس التي رأى انها أعظم المظاهر الكونية.

وكانت اولها مظاهر دعوته هذه هي في زيارته إلى (جبال سيلسيلا) بعد ان سمح له بزيارتها لعبادة أمون وكان صغير السن نسبياً.

(... النبي الأول لـ (رع - حارانفست) المبتهج في الأفق باسمه من نور الشمس الذي هو آتون). وبعد عدة سنوات اخذ (الاله الأوحد) (أتون) الذي بدأت عبادته بالظهور في عهد امنحوتب الثالث (ويمثل بقرص الشمس الذي تنحدر منه الأشعة التي تصل إلى كل البشرية وكل انحاء العالم) تنتشر بسرعة وقد واجهت سيطرة هذا الاله مقاومة عنيفة من كهنة أمون الذين وجدوا في سيطرة أتون نذير خطر مدمر وبداية النهاية بالنسبة لهم فقام صراع عنيف بوجه امنحوتب الرابع الذي جعل اسمه بدلاً من «امينوحْين» أي (آمون هو راض) إلى اخناتون أي (في خدمة آتون) ورغم ذلك فانه اضطر لترك طيبة المعقل لاساسي لآمون خوفاً على حياته من مؤامرات الكهنة وسافر مع زوجته نفرتيتي قاصداً انشاء عاصمة جديدة له فكون مقراً لعبادة أتون فقام ببناء مدينة جديدة سماها (اخيتاتن) أي (افق القرص) وتعرف اليوم باسم تل العمارنة والتي لم يعد هناك فيها ما يستحق المشاهدة خارج جدران القرميد المغمورة بالرمل حتى منتصفها والتي تمثل اسس القصور والمباني الفخمة لآخناتون واسس القبور المنحوتة بجوارها في الصخور العالية الفخمة والتي تخربت وتشوهت بقساوة بفعل عناصر الثورة المضادة بعد ان تم القضاء على اخناتون وفكرة التوحيد التي جاء بها.

ويمكن استخلاص بعض ملامح هذه العقيدة بدراسة ما يسمى اليوم (نشيد اخناتون) الذي وجد في حفريات تل العمارنة إذ يبدوان الحياة تنطلق مع الاشراق الذي هو تجلي لآتون الحي



اخناتون وعائلته يتعبّدون الى قرص الشمس-«أتون»

وان آتون هو سر الخليقة وسببها في كل مظاهرها الانسانية والحيوانية والنباتية.

ويعطي اخناتون لآتون مظهر التوحيد والقدرة الفائقة ومظهر العالمية فهو الذي خلق وأوجد مصر وسائر البلدان الأخرى وفرقها وجعل لكل منها لغة خاصة به وجعل آتون لكل انسان مكاناً وأمن له قوته وغذاءه وحدد حياته.

من دراسة الآتونية يتبين أنها كانت تمتلك معطيات سياسية في سبيل ايجاد الهوية وديانة عالمية وهي المرة الأولى التي تظهر فيها مثل هذه الدعوات.

وقد مرت الآتونية بثلاث مراحل وهي:

الأولى - قبل ان يترك اخناتون طيبة وفيها شجع عبادة آتون بعد ان مهد لها اثناء حياة



في جلسة تعبّد...

والده ببنائه معبداً لآتون في طيبة.

الثانية – بعد انتقاله لمدينته الجديدة قام اخناتون بوضع خطة لتدمير كل آثار الآلهة السابقة دون استثناء حتى شملت آثار والده. رغم ان هذه الحملة لم تكن ناجحة تماماً ولم تدمر كل شيء كما خطط لها.

الثالثة – وهي مرحلة الردة وقد بدأت بالقضاء على اخناتون بتأثير كهنة آمون الذين نزعوا اسم الملك (الهرطقي) و(المجرم) كما يسمونه عن كل ما وقعت ابصارهم عليه.

أما لدى انتشار الأتونية فيبدو أنه كان ضعيفاً، ان اخناتون الغى الآلهة الأخرى وهدم معابدها واوقف عبادتها الا ان الناس ظلوا على ديانتهم القديمة ومعبوداتهم وقد تحولت من عبادة علنية إلى عبادة سرية حتى ان اخناتون بعد تركه طيبة لمدينته الجديدة دلت الحفريات الأثرية ان بطانته كانت من العمال والحرفيين والممالئين له وللدين الجديد وقد تبين ان هناك شخصاً واحداً فقط جاء مع اخناتون من طيبة أما الباقون فقد كان همهم التقاط عقود الذهب والمكاسب التي يلقيها الملك والملكة عند ظهورهم من شرفات قصرهم كما تمثلهم المنحوتات المكتشفة. كما وقد عثر بين بقايا قرية العمال في تل العمارنة على آثار متعددة للعبادة القديمة ومن بينها تماثيل للاله بس وللعين المقدسة لحوريس.

اما انتشار الأتونية في مصر وباقي العالم المعروف في حينها فقد كان ضئيلاً في مصر أما

خارجها فقد ساهم قلة اقدام اخناتون على الحروب في عدم انتشار الأتونية فلم يعثر على أي اثر لآتون في مصر وفلسطين ولبنان والمناطق المجاورة. في العام الثاني عشر حدث الانفصال بين اخناتون وزوجته نفرتيتي لاسباب مجهولة قال البعض انها تتعلق بالديانة الجديدة إذ ارادت نفرتيتي العودة للديانة القديمة فكان هذا سبب الفراق وآخرون يرون انها فضيحة في القصر كانت السبب.

وقد تأكد لعلماء الآثار ان اخناتون قد استبدل حبه لنفرتيتي بحبه لأخيه سمينخ كارع وسواء كان هذا الحب مشبوهاً ام لا. وآخر ما وصل الينا عن اخناتون يعودللعام السابع عشر من حكمه ويبدو أنه تزوج ابنته الصغرى وانجب منها غلاما.

وشارك سمينخ كارع شقيقه بالحكم وكان هو وأخوه الثاني توتفنخ آتون من اتباع الأتونية وبعد وفاة اخناتون انفض اتباع الأتونية عنها فكان أول من هجر مدينة أتون سمينخ كارع الذي عاد إلى طيبة ويبدو ان سمينخ كارع قد توفي في نفس العام الذي توفي فيه اخناتون واستلم الحكم توت غنج أتون الذي اعاد للمعابد القديمة حميتها واحيى الديانة القديمة وقد استبدل باسمه اسم توت عنج آمون وفي عهده بدأت الحملات المعاكسة على الأتونية وكانت ذروة هذه الحملات في عهد حورمحب.

إلّا ان اخناتون يبقى رمز التوحيد وقد وصف الأتونية عالم الآثار المتخصص غاردنر بقوله: «ان الأتونية لم تكن مجرد نظرية مادية وحسب بل كانت عملية توحيدية شرعية وصحيحة».

ووصفها البروفسور فيرمان بقوله: «ان مقدار ما كتب عن اخناتون باستطاعته ان يجعل منه مسيحيا قبل ظهور مسيح الكتاب المقدس ، ومن المستحسن أن نذكر بأن الأتونية لم تكن اسلوبا حياتيا معينا بل مجرد ممارسة لاهوتية.. انها مرحلة براقة ولكنها زائلة كمثل الفراشة الزاهية الألوان التي تحوم ثم تتوارى».

ويقول ليونارد كوتريل: «ان المنجزات الكثيرة التي حققها هذا الفرعون من الصعب استبعادها بهذا الشكل وما المجالات الحامية التي ما زالت بعد أكثر من ثلاثة آلاف سنة حول واقع اخناتون، الا شهادة على قوة شخصيته وشخصية الملكة نفرتيتي».

وقد اعتبر فرويد سيدنا موسى من المتأثرين بالأتونية واعتبره تلميذاً لأخناتون وقد جاء موسى عليه السلام الذي وجد قبل اخناتون ان وجد حوالى عام (١٨٥٠ق.م.) وقد أثار الهيلي تأثير نفرتيتي على اخناتون في قضية التوحيد إلّا ان نفرتيتي قد جاءت من بلاد الرافدين وقد سافر ابراهيم عليه السلام إلى مصر وأقام بها وقصته مع الفرعون معروفة واهداء الفرعون لزوجته خادمة اسمها هاجر وانجابه منها اسماعيل عليه السلام وقصة سفره معها ومع ابنه إلى مكة ارضاء لزوجته كل هذا يؤكد وجود سالفة توحيدية على اخناتون والآية الشريفة التالية وبتسلسل ما ذكر فيها يؤكد وجود هذه الصداقة «ألم تر إلى الذي حاج ابراهيم في ربه أن اتاه الله الملك إذ قال ابراهيم ربي الذي يحيي ويميت قال انا احيي واميت قال ابراهيم فان الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذي كفر والله لا يهدي القوم الظالمين» البقرة (٢٥٨).

إلا ان الموضوع بحاجة لدراسة أوسع مع استقرار للنصوص المكتشفة لتبيان تلك العلاقات.

لقد بقيت الأتونية واخناتون ذات تأثير كبير في العالم ودخلت في كيان بعض الأديان السماوية وعند الفلاسفة مثل افلوطين وحلّت أيضاً في صفوف الموحدين.



الفن السلجوقي في الاناضول

إعداد قسم التوثيق والأبحاث

■ تعتبر فنون السلاجقة في آسيا الصغرى من اروع الانتاجات الفنية الاسلامية قاطبة. فالسلاجقة الذين انتصروا عام ١٠٧١ على البيزنطيين واسسوا امبراطوريتهم في النصف الشرقي من الاناضول، استقدموا معهم قوى القبائل التركية التي لم تندحر. ويعتبر فنهم أكثر ضخامة إلى حد بعيد من فن المسلمين في ايران والهند والبلاد العربية. بوابات جبارة مطعمة بنقوش خلابة تزين المساجد والمدارس والمنازل المشيدة من كتل حجرية ضخمة، وعلى بعض الجدران تزدهر جنائن كاملة للازهار الحجرية بينما توجد على جدران اخرى نماذج جبارة للحيوانات: الطيور، وبالدرجة الأولى، الاسود التي تعتبر نموذجية بالنسبة لفن بلاد الاناضول منذ عصر الحثيين. ولم تشيد البيوت الدينية العديدة من قبل الحكام في عواصم الدولة - قونية وقيصرية وسيواس فحسب (كانت لقونية وحدها حوالى عام ١٢٥٠ مدارس لا يقل عددها

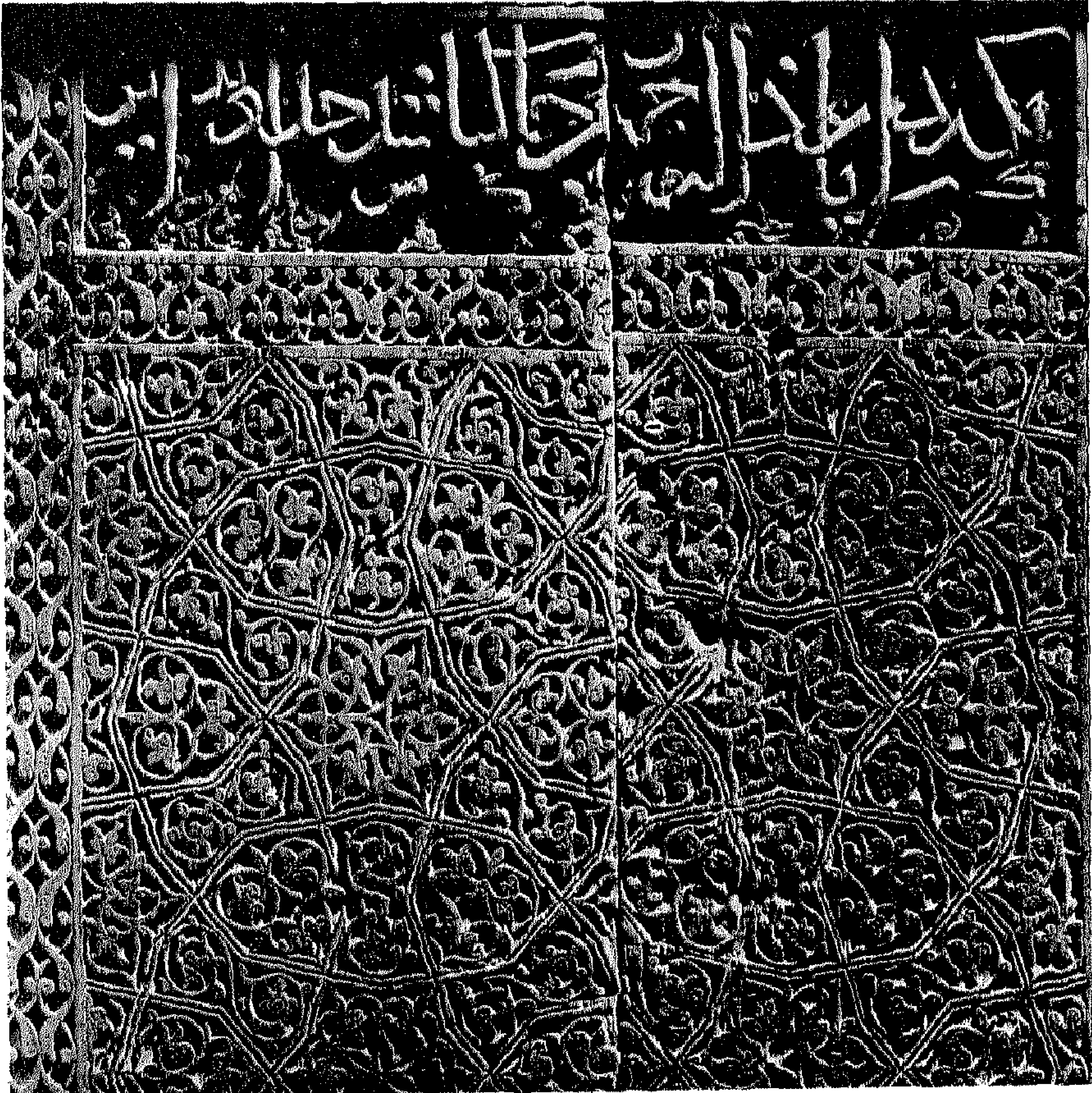


احد أبواب جامع مدينة دوريكي في الاناضول الشرقية، تم إنشاء هذا الجامع عام ١٢٢٨.

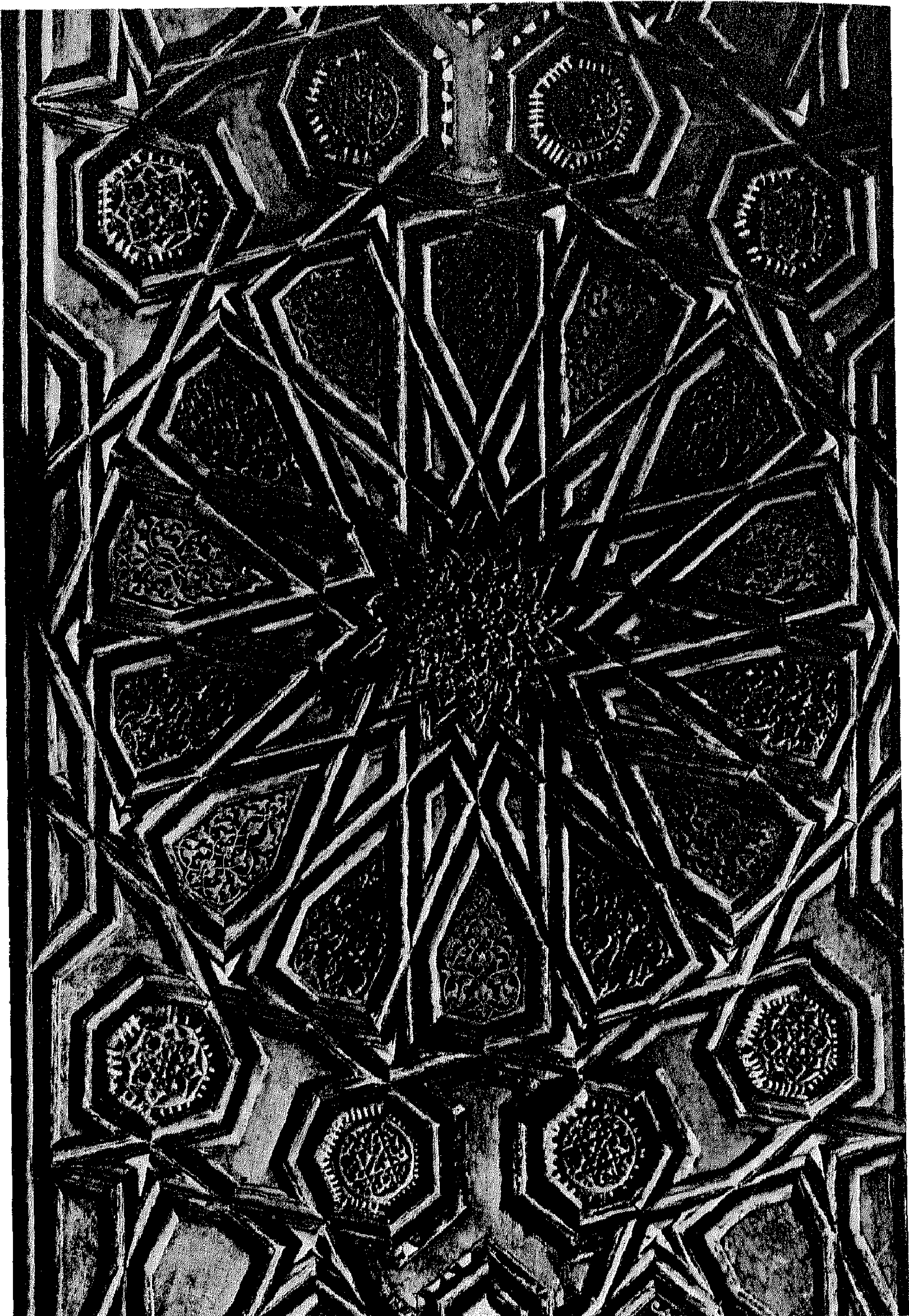
«الفن السلجوقي في الاناضول» من مجلة «فكر وفن» العدد ٢١ تاريخ شباط ١٩٧٣

عن الخمسين)، بل حتى في المدن الصغيرة المرتبطة اسمياً بالسلاجقة نجد أعمالاً رائعة في فن العمارة في القرن الثالث عشر. وتجدر الاشارة أيضاً بصورة خاصة إلى الطرق الممتازة والفنادق ونزل القوافل المنتشرة على الطرق التي تبعد عن بعضها حوالى ٣٠ كيلومتراً. وكما كان فن البناء بالحجر متطوراً إلى حد بعيد، فان أشغال الخشب كالمنابر والمحاريب والسبابيك والابواب تدل على التقدم في اعمال الزخرفة والحفر على الخشب وكانت القباب واجزاء من الجدران تزين بانواع من البلاط الممتاز النادر، فكما ازدهرت في كافة انحاء البلاد فنون الخط وخاصة الخط الكوفي المتميز بطابعه الخاص. ومن ناحية اخرى فحتى فنون الخط والنسخ تعود إلى هذه الفترة. ويجدر ان لا ننسى ان هذا الازدهار الذي بلغ القمة في الفنون التشكيلية كان يرافقه بلوغ التصوف الاسلامي ذروته. فاناضول السلاجقة هي تلك البلاد التي تواجد فيها العلماء الهاربون من حملة المغول في خراسان وأيران فكانت مأوى لهم، وأسماء لامعة مثل جلال الدين الرومي وصدرالدين القونوي ونجم الدين دايا الرازي تمثل العديدين من شيوخ الصوفية والفقه والشعر وفن الخط الذين التفوا حول دار السلاجقة. وقد استمر تأثير اندفاعات الفن السلجوقي الرفيع ظاهراً في القرون التي اعقبت هذه الفترة: وعند التمعن في اجود انتاجات الفن العثماني في القرون اللاحقة نشعر «بطاقة الاتراك الكبيرة غير المقيدة» كما عبر عنها بحق أحد علماء تاريخ الفن.

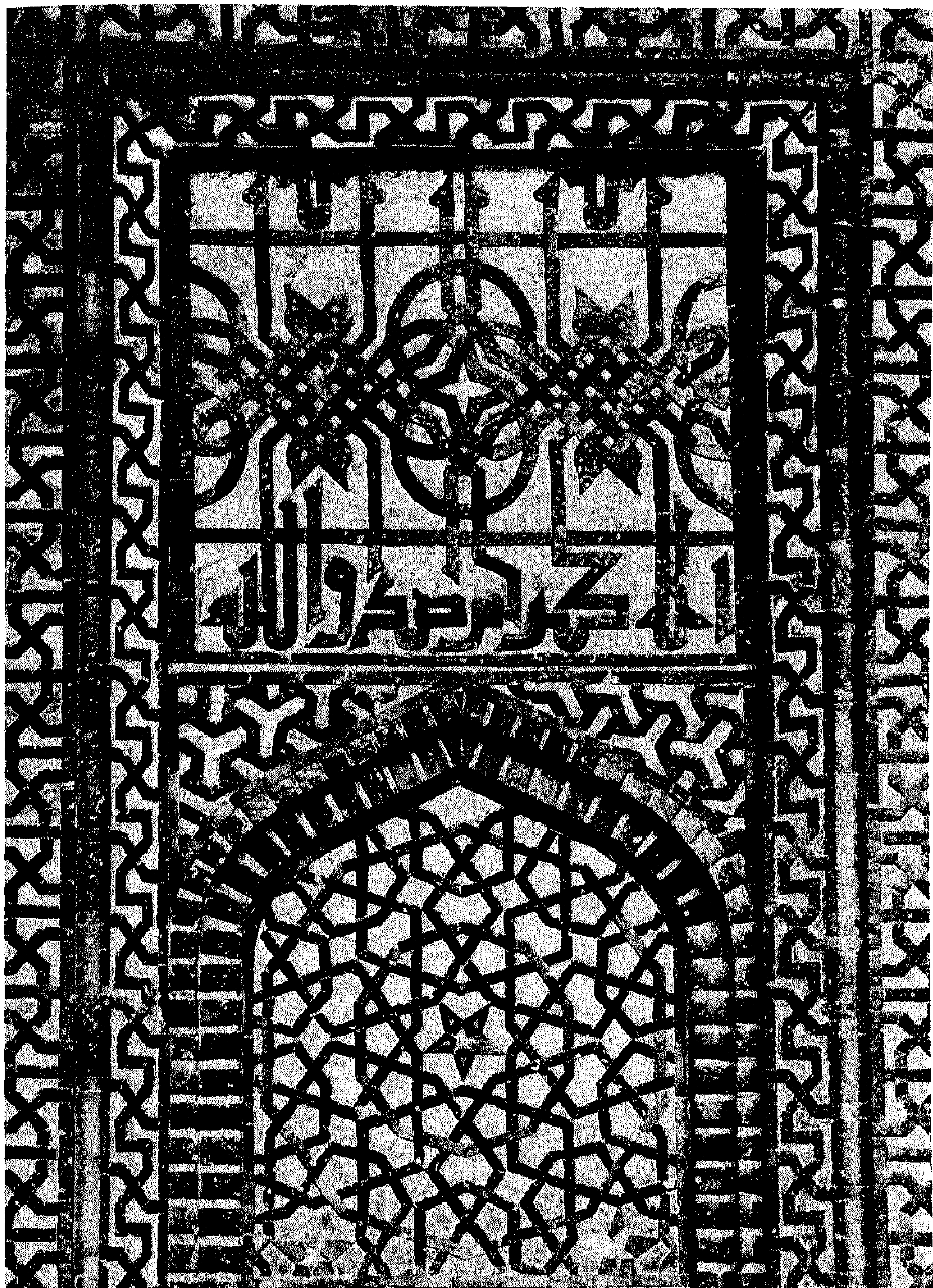
وتقدم الصفحات التالية بعض نماذج هذا الفن التقطتها عدسة احد المصورين السويسريين.



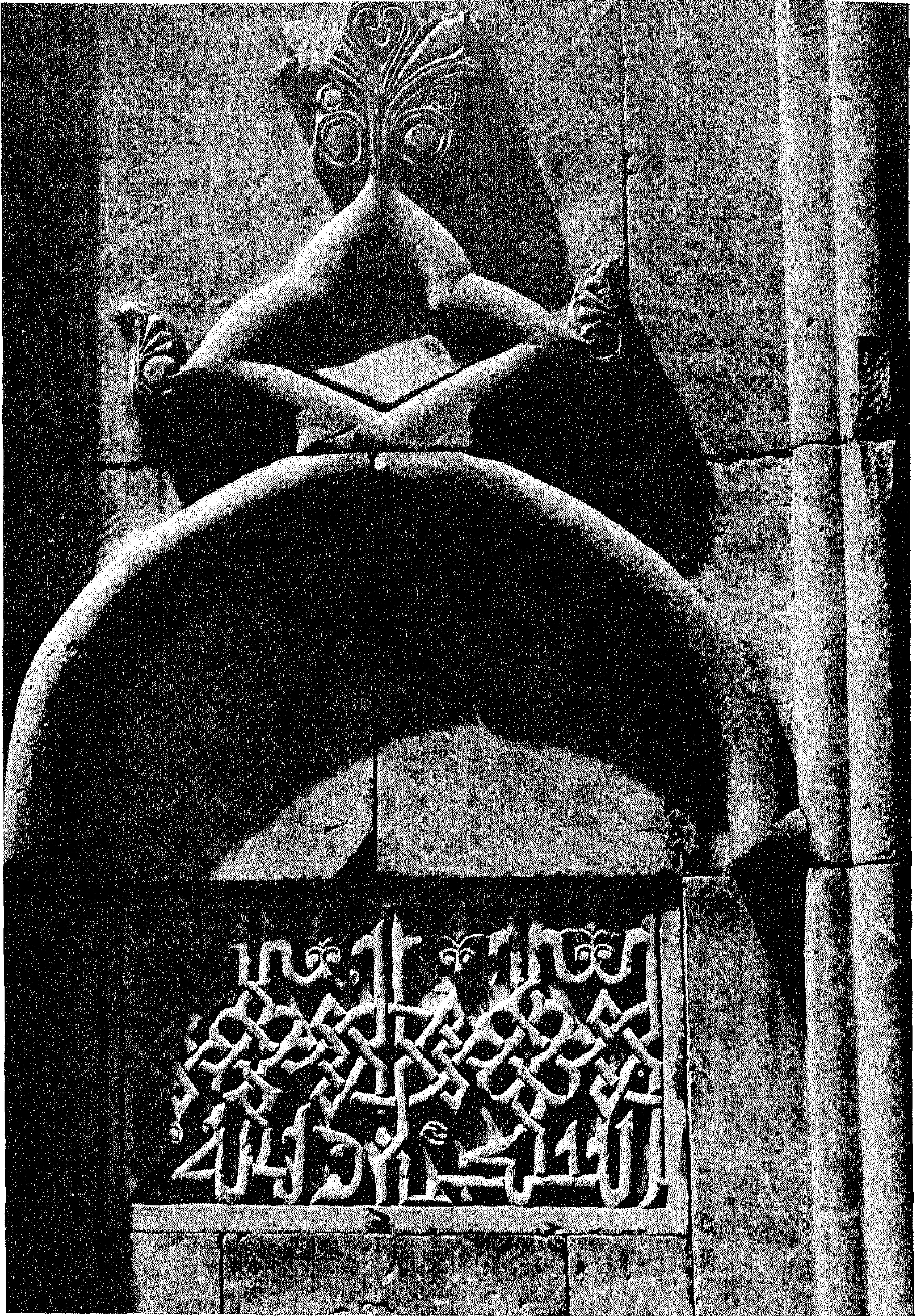
خشب الشباك من جامع (أشرف اوغل) في مدينة بيكشهر، الأناضول المركزية في أواخر القرن الثالث عشر.



خشب الشباك من الجامع الذي أنشأه السلطان العثماني بايزيد الثاني (المتوفي عام ١٥١٢) في مدينة آماسيا بالأناضول الشمالية.



كتابة كوفية «الأكرام صدق الله» بالقاشاني الفيروزي اللون تزين باباً من أبواب دار الشفاء في مدينة سيواس، الأناضول الشرقية، وتوجد على كل واحد من أبواب هذه الدار كتابة تحتوي على آيات قرآنية. تم انشاء دار الشفاء عام ١٢٧١.



كتابة كوفية «الشكر لله» على باب من أبواب المدرسة الزرقاء. (كوك مدرسة) في مدينة سيواس، الأناضول الشرقية وقد تم انشاء المدرسة عام ١٢٧١. الصور بعدسة «ادوار فيدمر» زيوريخ (Eduard Widmer, Zürich).



مراجعة كتاب

العقيد الركن د. ياسين سويد يفتح باب المناقشة الجدّية حول كتابة التاريخ اللبناني

العقيد الركن د. ياسين سويد

التاريخ العسكري للمقاطعات اللبنانية في عهد الإمارتين

الامارة المعنية

١٥١٦ - ١٦٩٧

إعداد: فاروق البربير

لم يكن التاريخ اللبناني المكتوب موضع تساؤل بقدر ما هو اليوم، ففي الظروف الأليمة التي انقسم من جرائها الشعب اللبناني حول مستقبله ومصيره، بدأ تساؤل جدي حول ما إذا كان هذا التاريخ قد كتب بروح التجرد والصدق أم إنه وُجِّه في كتابته، وجهة تركت حولها كثيرا من الشك وعلامات الاستفهام.

في خضم هذا التساؤل المقلق، جاء كتاب العقيد الركن د. ياسين سويد «التاريخ العسكري للمقاطعات اللبنانية في عهد الامارتين، الجزء الأول، الامارة المعنية» ؛ يفتح باب المناقشة الجدية حول كتابة هذا التاريخ، ويضع خطوطاً عريضة تحت أسطر كثيرة منه.

وليس لنا، في هذا البحث، أن نستعرض الكتاب برمته، فاستعراضه يتطلب العديد من الصفحات لا مجال لها هنا، وإنما سوف نحاول أن نحدد لمحات منه لابد وأن يتوقف قارىء الكتاب عندها.

يبدأ المؤلف كتابه باهداء شجاع، فهو يهديه إلى «المؤمنين بصدق، ان وطناً يبنى على التمايز الطائفي هو جرح قابل للنزف في كل حين، وان الوطن القادر القوي، هو الوطن الديمقراطي العلماني، الذي به نحلم وإليه نتطلع»، ثم يقرر، في مطلع المقدمة: «ان كتابة التاريخ إقرار وصناعته قرار، بمعنى أن كتابته تلزم المؤرخ بالاقرار الصادق والصريح بوقائع الماضي وحقائقه الثابتة... أما صناعة التاريخ فهي فعل اتخاذ القرار الذي يحدد السلوك المصيري لمجتمع أو لأمة، ويستطرد في المطلع نفسه فيقول «وكما تتطلب صناعة القرار التاريخي جرأة واقتحاما، يتطلب كذلك، الاقرار بالحقائق التاريخية، تجرداً ، وجرأة، وفي بعض الأحيان اقتحاما».

• ترى، ما الذي دعا المؤلف لأن يبدأ كتابه بهذا الشكل؟ فهو، بعد أن يعلن أنه ضد أي تمايز طائفي في وطنه الذي يريده «وطناً ديمقراطياً علمانياً» إذا به يدعو إلى الاقرار بالحقائق التاريخية الثابتة، معترفاً أن الاقرار بها يتطلب تجرداً وجرأة، «وفي بعض الأحيان اقتحاما»، كأنما أحس أنه في كتابته لتاريخ المقاطعات اللبنانية بالشكل الذي كتبه، مقدم على عمل يتطلب منه الاقتحام والجرأة، بالاضافة إلى التجرد، وقد كان كذلك، في كتابه، فعلا. وبدأ المؤلف كتابه بالشك، وبجملة من اللاءات، أحجم الكثير من المؤرخين اللبنانيين

المعاصرين عن طرحها تهيبا، لأنها تناقض، في نظرهم، الاتجاه العام الذي وضع تاريخ لبنان في مساره، عمداً، لذا، فإن معاكسة هذا الاتجاه ومناقشته يتطلبان، في المواقع، تجردا وجرأة، بل واقتحاما، وقد سلك العقيد الركن سويد هذا الاتجاه، فناقش وناقض، غير متهيب ولا وجل، ومن هنا، يستحق كتابه الدرس والتحليل والمناقشة، فهو لا يقر مثلا «الطرح الذي يجعل من فخرالدين الثاني أول مؤسس للبنان الموحد» (ص٩) وذلك انطلاقا من معطيات يتعرض لها في سياق البحث فيقول: «فخرالدين، ما هي حقيقة طموحه السياسي؟... أمر أثار كثيراً من الاجتهاد بل والابتزاز، عند العديد من المؤرخين اللبنانيين والأجانب، فقد قيل في طموح فخرالدين السياسي الكثير، وألبس فخرالدين أثواباً من المؤكد أنه لم يفكر بلبسها، وقوّل أقوالا من المؤكد أنه لم يقلها، فقيل عنه أنه أمير لبنان، وانه كان يرمي من وراء سياسته الداخلية والخارجية التوصل إلى بناء الوحدة اللبنانية... والحقيقة... ان أحداً لم يسمه، كما لم يسم هو نفسه، أمير لبنان، وذلك أمر طبيعي ومنطقي للغاية، فقد وجد فخرالدين قبل وجود فكرة الكيان اللبناني والدولة اللبنانية بقرنين ونصف القرن... وقبل تحقيق هذا الكيان وهذه الدولة بثلاثة قرون... ولم يكن للبنان قبل فخرالدين كيان أو دولة... فلا يعقل، والحالة هذه، أن يتنبأ فخرالدين، أو يرد في خاطره شيء من هذا القبيل (ص١٧٢)، وانطلاقاً من هذه البديهيات فالمؤلف لا يرتضي، ما ارتضاه معظم المؤرخين اللبنانيين، أن يرى «في العهد المعني، ومذ فخرالدين الثاني بالذات، أول عهد ظهرت فيه مسودة الكيان اللبناني الذي عرف النور في النصف الأول من القرن العشرين» (ص٩) رغم أنه لا ينكر «الموقع التاريخي المميز الذي استطاع الأمير المعني أن يتخذه في تلك الحقبة من الزمن، بفضل طموحه السياسي من جهة، وبفضل تسامحه الديني من جهة أخرى» (ص٩) حيث تمكن من أن يخلق، دون قصد منه ولا شك في امارته... أرضية مشتركة لحياة اجتماعية متسامحة بين الطوائف وهو ما عدّه المؤرخون نواة للوطن اللبناني فيما بعد» (ص١٠) ولكنه يعود فيستطرد:

«رغم أن الواقع المعاش حاليا في لبنان، والذي تكرر في سياق التاريخ منذ أكثر من قرن ونصف القرن من الزمن، شهد اهتزازات حادة، وذلك بفعل التغليب المستمر للشعور الطائفي على الشعور القومي عند أبناء هذه الطوائف، مما جعل الامر المعني مثار جدل تاريخي وسياسي تغذيه التناقضات الطائفية والمصالح المحلية المتوافقة حينا والمتضاربة حينا آخر» (ص١٠).

ولكل هذه الاسباب، اختار المؤلف عنوان كتابه «المقاطعة اللبنانية» أي «تلك المناطق التي كانت في ذلك الحين مقاطعات (أو امارات) من بلاد الشام، ثم كونت الوطن اللبناني فيما بعد، وهذه المناطق هي امارات الشوف والبقاع ووادي التيم ومقاطعة جبل عامل وسنجقية طرابلس بما فيها جبل لبنان (أي جبة بشري وكسروان)»، معتبرا أن في ذلك «من الدقة العلمية ما يغني عن التساؤل عن ماهية لبنان في العهد المعني جغرافياً ودستورياً» (ص١٠)، وتطبيقا لنظرته الجديدة هذه في التأريخ للبنان، درس المؤلف كل مقاطعة من هذه المقاطعات على حدة، مبتدئاً بالاطار التاريخي ثم الاجتماعي والعسكري لكل منها (الباب الاول)، كمدخل الى الموضوع الاساسي في الكتاب، وهو: التاريخ العسكري للمقاطعات اللبنانية في عهد فخرالدين المعني الثاني وحتى آخر العهد المعني (الباب الثاني)، وكانت دراسته في هذين البابين مستفيضة ومفصلة وزاخرة بتحليل الاحداث تحليلا مسندا بالوثائق، اضافة إلى ما تضمنه التحليل العسكري للمعارك من فكر عسكري رفيع المستوى.

وخلاصة القول في هذا المجال أن العقيد الركن سويد قد قدّم التاريخ اللبناني في العهد المعني بمنهجية جديدة لم يقدمه فيها مؤرخ قبله، فكان في تقديمه لهذا التاريخ منطقيا وواقعيا، يحلل الوقائع التاريخية باسلوب المؤرخ العلمي الرصين، فقد كان من البديهي، في نظره، أن تاريخ لبنان، في تلك الفترة، لم يكن تاريخ الاسرة المعنية فقط، ولم يكن تاريخ مقاطعة أو امارة من تلك المقاطعات والامارات التي كونت لبنان بعد ثلاثة قرون من العهد المعني، وإنما

كان تاريخ تلك المقاطعات كلها، وتاريخ الاسر التي حكمت تلك المقاطعات، فالسيفيون الذي حكموا باشوية طرابلس لم يكونوا أقل منزلة واهمية من الحرفوشيين الذين حكموا امارة البقاع أو من مشايخ جبل عامل أو من المعنيين الذين حكموا امارة الشوف، ناهيك عن امراء وادي التيم من الشهابيين، من هنا لم يجد المؤلف بدا من أن يعتبر، وهو على حق في ذلك، أن تاريخ لبنان هو تاريخ الشوف والبقاع ووادي التيم وجبل عامل وسنجقية طرابلس، ومن هنا جاءت دراسته تامة وشاملة لتاريخ هذه المقاطعات كلها. رغم ماشكا منه من افتقار المكتبة التاريخية اللبنانية «إلى المعلومات الواضحة والمفصلة عن أحوال المقاطعات التي تكونت منها الدولة اللبنانية في القرن العشرين» (ص٣٥٣) ممازاد في صعوبة البحث والتقميش، وصعوبة التحليل والاستنتاج.

وهناك حقيقة تاريخية ابرزها المؤلف بجلاء ووضوح لم يوفق اليها الكثير من المؤرخين اللبنانيين - مع عدم انكار فضل السبق للدكتور كمال الصليبي في هذا المجال - وهي أن حدود جبل لبنان، في العهد المعني، لم تكن لتتعدى حدود جبة بشري وبلاد البترون وجبيل وأحيانا كسروان (ص٤٥) وليكون واضحا أكثر، فقد قرر أن جبل الشوف، أوجبل الدروز «لم يكتسب اسم جبل لبنان إلا في النصف الاول من القرن التاسع عشر، وفي اواخر عهد الامارة الشهابية» (ص٤٥)، ومعنى ذلك أن المعنيين لم يعرفوا اطلاقا باسم امراء لبنان أو جبل لبنان وانما عرفوا بامراء الشوف أو امراء الدروز.

لقد أقدم المؤرخ العقيد سويد، في كتابته تاريخ لبنان بهذا الشكل، على خطوة بالغة الاهمية والخطورة، فهو نسف، إلى حد كبير، الاسس التقليدية التي قام عليها هذا التاريخ منذ مطلع عهد الانتداب الفرنسي حتى اليوم، وكان لديه من الجرأة ما بلغ حد «الاقتحام» حقا عندما أعلن رفضه لكل ما تعارف عليه المؤرخون المحدثون في هذا المجال، معززا رفضه هذا بالوثائق والبراهين الدامغة.

نكتفي بهذا القدر من العرض والمناقشة لكتاب العقيد الركن سويد، مع اعتقادنا أن في هذا الكتاب، من الحقائق الجديدة والمقنعة، ما يحتاج إلى أكثر من بحث أومقالة، فضلا عما تضمنه من وثائق لم يسبق أن نشرت من قبل، ومن تفاصيل دقيقة ومسهبة في التحليل العسكري لمختلف المعارك والتنظيمات العسكرية لم يسبق أن تناولها أي مؤرخ من مؤرخي العهد المعني ، ومن كثافة في المصادر والمراجع الموثوقة، ومما لاشك فيه أن كل ذلك سيجعل من كتاب العقيد الركن سويد واحدا من أهم المراجع التي لابد وان تغني مكتبتنا التاريخية، كما أنه سيجلو، بما اورده من حقائق ووثائق واسانيد، كثيرا من الشكوك التي أحاطت ولا تزال، بهذه الفترة الهامة من تاريخنا الحديث.

□



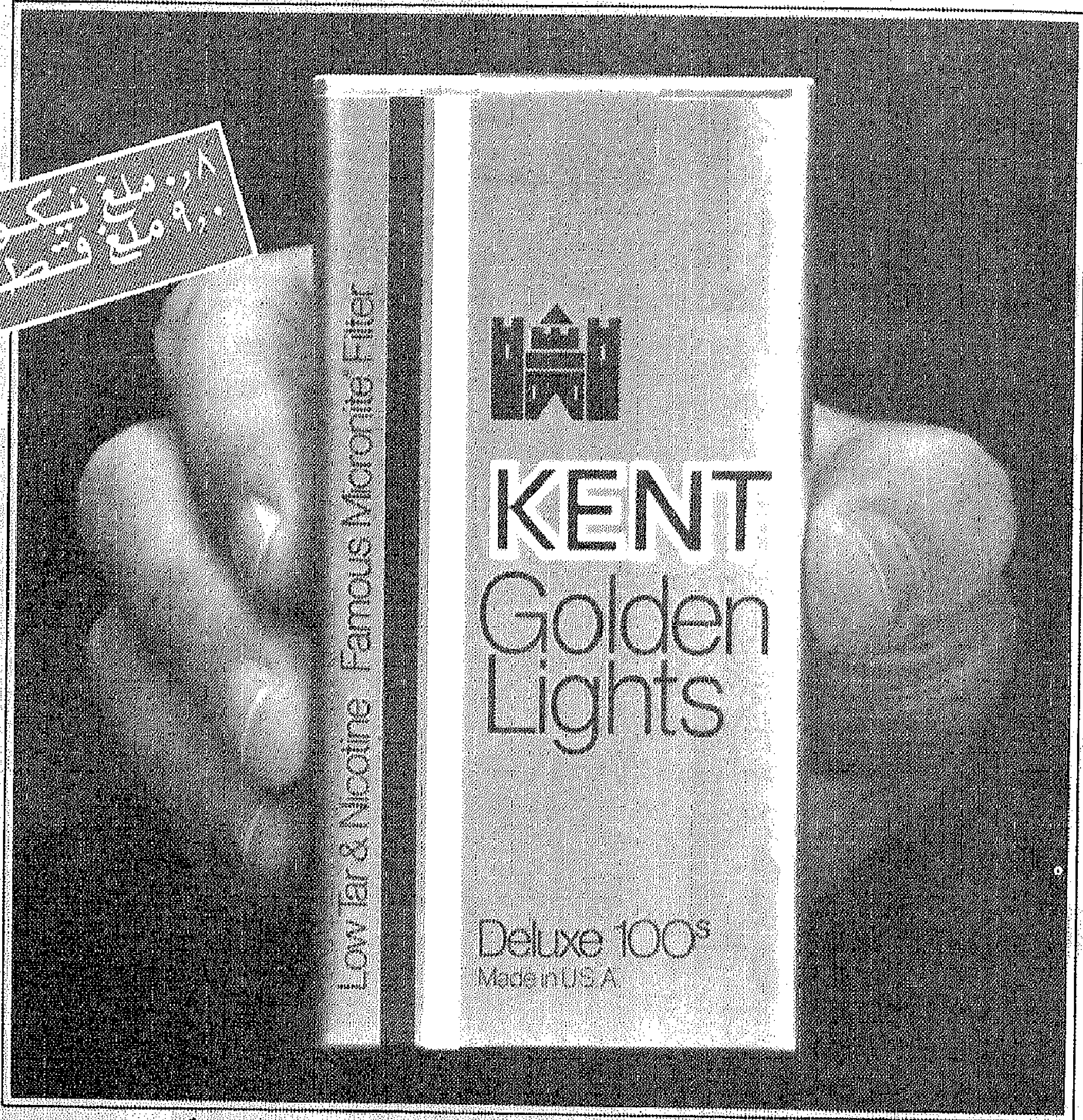
■ **ان الثقافة التي يغلب فيها الكم على الكيف هي ثقافة لا تدافع عن أية قيمة انسانية، وانما هي ثقافة تخدر حواس الانسان وتشل تفكيره.**

ل. ن.

■ **ليست الحياة كمالاً ولكنها سبر غور الكمال، والتعلق بدنيا الكمال عند المثاليين مراهقة واحترام الواقع عند الواقعيين قناعة.**

حكمة فرنسية

السّجائر العالميّة الخمس الأوسع إنتشارًا تحتوي على ٥٠٪ من النيكوتين والقطران أكثر من كنت غولدن لايتس.*



كنت غولدن لايتس تعدك بمحتوى أقل من النيكوتين والقطران مع نكهة حقيقية.

لا أحد يعرف كيف تصنع السجائر الملطّفة المشبعة كصانعي كنت.
ولهذا يتحوّل المزيد والمزيد من الناس الى كنت غولدن لايتس. لقد اكتشفوا السيجارة بالمحتوى القليل من النيكوتين والقطران مع النكهة التي يحبّون. هذه النكهة التي يؤمنها الانتقاء الأفضل لأجود أنواع التبغ الطبيعي. محتوى أقل من النيكوتين والقطران مع نكهة حقيقية...

هذا هو وعد كنت غولدن لايتس

* إن محتوى النيكوتين والقطران في أصناف السجائر العالمية الخمس الأوسع إنتشارًا في الشرق الأوسط بالاضافة الى كنت غولدن لايتس تقرر بناء على طريقة لجنة التجارة الفدرالية (F.T.C.) في الولايات المتحدة الاميركية.

ألف ليلة و ليلة

أصلها وانتماؤها

فاروق خورشيد



■ كتب الناشر ليونارد. س سمترز في مقدمته للطبعة التي قام بنشرها بالانجليزية لألف ليلةوليلة عام ١٨٨٥، كتب يقول: «في معالجتي لفصول كاملة من النص مع مراعاة العديد من ملاحظات المترجم الانترويولوجية، رسخ في ذهني أن هذا الكتاب ليس فقط كتاباً كلاسيكياً، بل هو كتاب علمي وانترويولوجي أيضاً، وأنه لا بد أن يحظى باهتمام أكبر من الاهتمام الذي تحظى به مجرد قصة تقرأ للمتعة».

والترجمة التي تحدث عنها الناشر هي ترجمة الكابتن سير بورتون التي تعد أضخم ترجمة ظهرت في الغرب رغم العديد من التراجم التي ظهرت لألف ليلة وليلة. فالترجمة في عشرة أجزاء يليها ملحق في سبعة أجزاء أخرى.

والحقيقة أن الملاحظات التي يتحدث عنها الناشر والتي ملأت الكتاب هي تعليقات مطولة تتناول بعض الظواهر الاجتماعية التي دلت عليها قصص الكتاب والتي تعكس واقعا اجتماعيا عاشته البلاد الاسلامية في فترات زمنية بذاتها. وهو ينهي الترجمة بفصل طويل عن الأدب العربي وعن المعلومات التي ظهرت عن الليالي من خلال دراسات المستشرقين الذين اهتموا بالكتاب قبله والمترجمين الذين تصدوا لتقديم الكتاب إلى اللغات الأوروبية المتعددة. فالواقع أن هذه الدراسات عرفت طريقها إلى الدراسات الفولكلورية والأدبية منذ عام ١٧٠٤م حين بدأ انطوان جالان في نشر ترجمته الفرنسية لألف ليلة وليلة على أجزاء تتخاطفها الأيدي في باريس فور طبعها حتى انتهى منها عام ١٧١٧م. فمنذ ظهرت هذه الترجمة الفرنسية في أوروبا والترجمات تتوالى الى كل اللغات الأوربية والناشرون يقبلون على نشر هذه الترجمات التي أعيد طبعها أكثر من مرة لما تلاقي من نجاح شعبي كبير في كل لغة نقلت إليها.

ومع هذا النجاح الذي لاقته ألف ليلة وليلة كعمل قصصي شعبي عالمي يجد صداه المدوي في الشرق والغرب على السواء، بدأت الدراسات والتحقيقات العلمية، وبدأت محاولات الوصول إلى أقدم المخطوطات للتعرف على الأصول الأولى للكتاب، كما بدأ البحث عن المصادر الحقيقية للقصص العديدة المختلفة المنهج والاتجاه في داخل الكتاب. وبرزت الى جوار اسم جالان أسماء غوتييه وبرسفال ودولاكروا مترجمين ومعقبين على ألف ليلة وليلة في نصها الفرنسي، كما برزت أسماء فون هامر ولويل وهانتخ وغريفه وليتمان في الألمانية. وليتمان هو صاحب الترجمة الألمانية الأمينة التي لم تعتمد على نسخة جالان الفرنسية، وانما اعتمدت على أصل عربي مطبوع في كلكتا.

أما في الانجليزية فتبرز أسماء سكوت وكورنر ولين وجون بين ثم أخيرا بورتون الذي وقفنا عند ترجمته في أول هذا المقال. والواقع أن وقوفنا على هذه الترجمة بالذات كان لما ساقه المترجم من تبرير لتعليقاته الانثروبولوجية الكثيرة التي ملأ بها ترجمته، إذ برّرها بأن الانجليز في أمس الحاجة الى معرفة الشرق في حياته الاجتماعية لتسهل عليهم مهمتهم فيه، ومهمة الانجليز في عام ١٨٨٥ في الشرق كما هو معروف مهمة استعمارية محضة.

فالمعرفة إذن ليست لذات المعرفة، والتعليقات العلمية والانثروبولوجية والأدبية التي شغلت حيزا كبيرا في هذه الطبعة الفخمة لم تكن لوجه العلم والمعرفة، وانما كانت خدمة لأهداف استعمارية لم يبخل عليها المترجم بكل الجهد والوقت والداب الذي تتطلبه أمثال هذه الدراسة.

ويقول الدكتور فؤاد حسنين علي ص١٥٥ من كتابه القيم (قصصنا الشعبي): «هناك نفر من العلماء الأجانب ما كاد يطلع على الترجمة التي نشرها انطوان جلند - يقصد ترجمة جالان - عام ١٧٠٤م حتى ذهب يفترض مختلف الفروض حول هذه القصص، وأخذ يشكك القراء في عبقرية العربي وخياله الخصب، وهذا ليس بمستبعد على الغربيين، فقد

كانوا في ذلك العصر خاصة يحملون كل ضغينة وحقد للعنصر السامي، وكانوا يهاجمونه بمختلف الوسائل، وشق عليهم أن تكون هذه الثروة القصصية في اللغة العربية وثمرة من ثمار الحضارة الاسلامية».

- أصل ألف ليلة وليلة:

والدراسات العديدة التي قام بها المستشرقون والتي عرضتها الدكتورة سهير القلماوي في كتابها القيم «ألف ليلة وليلة» والذي نالت عليه اجازة الدكتوراه، تؤيد هذا الاتجاه وتثبته بما لا يدع مجالا للشك. ويقول الدكتور فؤاد حسنين: «اتجه بعض علماء السنسكريتية من الأوروبيين في ذلك الوقت الى القول بأن ألف ليلة وليلة ترجمة لقصص هندية، والهنود آريون فهذه الثروة إذن آرية. وكان على رأس هذه الجماعة من العلماء شليغل ونجولد ميستر. ثم ظهرت جماعة أخرى من الأوروبيين أيضا ومن المهتمين بالدراسة الهندية أمثال فيبر وغراي وشربنتييه وانضم اليهم بعض علماء اللغات السامية أمثال مللر وادستربب وليتمان وقرروا رأيا وسطا وهو أن هذه القصص عربية فارسية أو بتعبير آخر سامية آرية».

والواقع أن أمانة المؤرخين العرب هي السبب الأصلي الذي استند اليه المستشرقون في محاولة اخراج ألف ليلة وليلة من الموروث الاسلامي الى موروثات الشعوب الأخرى التي ترتبط بسبب أو بآخر بالشعوب الأوروبية كالهند وفارس وهما من الأسرة الهند - أوروبية، أو بمعنى آخر من الشعوب الآرية التي تلتقي مع الشعوب الأوروبية في النسب في زعم من قسموا الشعوب طبقاً لأسطورة نوح وأولاده الثلاثة الذين انحدرت منهم أصول شعوب الأرض. فقد أورد المسعودي في مروج الذهب في الجزء الرابع أن كتاباً اسمه ألف ليلة وليلة ترجم منذ أيام المأمون أو المنصور عن الفارسية. وقد عثر المستشرق هامر النمسوي على هذا النص فأقام الدنيا وأقعدها عن الأصل الفارسي لألف ليلة وليلة، وتبعه غيره من المؤرخين والدارسين بحيث أصبح هذا الأصل مسلمة معترفا بها لا تناقش علميا، وانما الذي يناقش هو مدى تأثير هذا الأصل في الصورة الحالية للكتاب، ومدى ارتباط هذا الأصل الفارسي بغيره من القصص الهندية والفارسية.

هذا كله والأصل الفارسي المشار اليه لم يعثر عليه أحد، ولم يظهر لا عند الفرس ولا عند غير الفرس من الشعوب الأخرى. وانما الذي ظهر قصص متفرقة تتفق في روحها العام أو في بعض جزئياتها الأساسية أو الفرعية مع واحدة أو أكثر من قصص الليالي، أما ألف ليلة وليلة كاملة وكما هي، أو هزار افسانه كما قال عنها المسعودي فلم تظهر مخطوطة فارسية حتى الآن. بل أن المستشرق لين يذهب الى أن ألف ليلة وليلة التي بين أيدينا غير ألف ليلة وليلة أو هزار افسانه التي ذكرها المسعودي.

والواقع أن نص المسعودي لا يمكن فهمه إلا إذا رجعنا إلى نص آخر في كتاب عربي هام آخر هو الفهرست لابن النديم، فقد ذكر ابن اسحاق النديم ألف ليلة وليلة وذكر أيضا كتاب هزار افسانه. وقد انتبه المستشرقون الى نص ابن النديم ولكنهم لم يستفيدوا منه إلا من حيث كونه تعضيداً لنص المسعودي حول الأصل الفارسي لألف ليلة وليلة، رغم أن نص ابن النديم يوضح حقيقة الموقف بالنسبة للكتاب وصورته الفارسية. ثم بالنسبة لما تم حيال الكتاب في المراحل الأولى لدخوله الى العربية.

يقول محمد بن اسحاق النديم في صفحة ٤٢٢ من طبعة المطبعة التجارية وفي مستهل المقالة الثامنة من الجزء الثامن من كتابه: «أول من صنف الخرافات، وجعل لها كتبا، وأودعها الخزائن، وجعل بعض ذلك على السنة الحيوان، الفرس الأول، ثم أغرق في ذلك ملوك الأشغانية، وهم الطبقة الثالثة من ملوك الفرس، ثم زاد ذلك واتسع في أيام ملوك الساسانية، ونقلته العرب الى اللغة العربية، وتناوله الفصحاء والبلغاء فهذبوه ونمقوه. وصنفوا في معناه ما يشبهه، فأول كتاب عمل في هذا المعنى: كتاب هزار افسانه، ومعناه ألف خرافة».

ونص ابن النديم واضح في مصدر أدب الخرافات كأدب متكامل، ألفت فيه المؤلفات، ووضعت في الخزائن، واهتم بها الملوك، فعنده أن هذا المصدر هو الفرس، وأن هذا اللون من

الأدب انما عرفته الحضارة الاسلامية بشكله الواسع المنظم الذي يجعله أدبا قائما بذاته عن طريق دخول الفرس الى الاسلام، داخلين فيه بكل موروثاتهم الحضارية القديمة، وبكل مكونات هذه الحضارة العريقة من علم وفن وأدب. فحين دخل الفرس الاسلام أصبحوا جزءا منه يتفاعل مع العرب ليكونوا ما يسمى بالحضارة الاسلامية. وليس عجبا أن يتصارع العنصران على سيادة الدولة سياسيا وفكريا وفنيا منذ اللحظات الأولى، فتصبح قضية الشعوبية من أخطر القضايا التي واجهت الأمة الاسلامية وهي في مرحلة هضم مكوناتها لخلق البنيان الواحد، وليس عجبا أن تصبح قضية عرب وعجم، من القضايا التي واجهت الانسان المسلم منذ مطالع التكون الاسلامي الأول. فالعرب عرفوا الحضارة الفارسية قبل الاسلام، وأخذوا عنها واستفادوا منها وقلدوها وحاكوا العديد من نتائجها وخاصة في الميدان الاجتماعي والفني، فاذا ما جاء الاسلام اندمج الشعبان اندماجا كليا ليسهم كل منهما بنصيب في بناء الصرح الجديد المشترك. وليقدموا للعالم شيئا جديدا هو مزيج من جهدهما مع جهود الشعوب الأخرى التي دخلت الاسلام وكونت ما عرفه العالم باسم الحضارة الاسلامية.

منابع ثقافية متعددة:

إلا أن نص ابن النديم لا يعني أن العرب لم يعرفوا ألف ليلة وليلة أو هزار افسانه قبل الاسلام، فليس هناك ما يبرر هذه المسلمة التي أخذ بها المستشرقون دون الوقوف عندها وقفة المناقش المتفحص، كما أخذ بها الدارسون العرب دون تمهل أو امعان نظر. فالعرب أخذوا عن الفرس الكثير من ألفاظ الحضارة. ودخلت الألفاظ الفارسية ذات الاستعمال الاجتماعي والحضاري الى القاموس العربي، وتعربت واصبحت الفاظا عربية مستعملة وان عرف أصلها الفارسي ولم ينكر. والعرب عرفوا أيضا قبل الاسلام عن طريق الاحتكاك والتجارة بل والحروب الكثير من العادات الفارسية والأساطير الفارسية.

وهناك نص ذكره ابن هشام في الجزء الأول من السيرة النبوية (ص٣٠٠) من طبعة الحلبي يقول «وكان النضر بن الحارث من شياطين قريش، وممن كان يؤذي رسول الله صلى الله عليه وسلم، وينصب له العداوة، وكان قد قدم الحيرة، وتعلم بها أحاديث رستم واسفنديار، فكان إذا جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم مجلساً فذكر فيه بالله أو حذر قومه مما أصاب من قبلهم من الأمم من نقمة الله، خلفه في مجلسه إذا قام. ثم قال: أنا والله يا معشر قريش أحسن حديثاً منه، فهلم إلي، فأنا أحدثكم أحسن من حديثه، ثم يحدثهم عن ملوك فارس ورستم واسفنديار. ثم يقول بماذا محمد أحسن حديثاً مني؟»

وهذا النص الذي أوردناه من ابن هشام يؤيده نص آخر ذكره الهمداني في كتابه الوشي المرقوم يقول: «لم يصل الى أحد خبر من أخبار العرب والعجم إلا من العرب، وذلك لأن من سكن مكة أحاط بعلم العرب، العاربة وأخبار أهل الكتاب، وكانوا يدخلون البلاد للتجارات فيعرفون أخبار الناس. وكذلك من سكن الحيرة وجاور الأعاجم علم أخبارهم وأيام حمير وسيرها في البلاد. وكذلك من سكن الشام خبر باخبار الروم وبني اسرائيل واليونان. ومن وقع بالبحرين وعمان فعنه أتت أخبار السند وفارس. ومن سكن اليمن علم أخبار الأمم جميعاً لأنه كان في ظل الملوك السيارة».

بهذا النص يحدد الهمداني مصادر الثقافة العربية المتعددة، فالعرب لم يكونوا بمعزل عن الحياة الفكرية للشعوب التي جاورتهم، وبالتالي فان حكايات هذه الشعوب وأخبار ملوكها وأبطالها وقصص سمارها لم تكن بعيدة المنال عنهم. وجزء هام من مصادر الحكايات عن العرب كانت الحكايات الفارسية، وما دام العرب قد عرفوا قصص رستم واسفنديار، فهم قد عرفوا الأساطير الفارسية القديمة وكذلك موروثهم من حكايات وقصص. وليس من سبب يدعو إلى أن تتأخر معرفتهم بألف ليلة أو هزار افسانه إذا كان الاسمان يطلقان على كتاب واحد الى ما بعد الاسلام. النص الهمداني

وكذلك نص ابن هشام يرجحان معرفة العرب بقصص الفرس قبل الاسلام، أما نص ابن النديم فهو يورد عبارة «ونقلته العرب الى اللغة العربية، وتناوله الفصحاء والبلغاء فهذبوه ونمقوه، وصنفوا في معناه ما يشبهه» وهي عبارة صريحة في معرفة العرب القديمة بخرافات الفرس وفي محاكاتهم هذا النوع من الأدب ومن تدخلهم في صياغته تهذيبا وتنميقا، ثم في قدرتهم على هذا النوع من التأليف. ثم تأتي عبارته التي يقول فيها: «فأول كتاب عمل في هذا المعنى: «كتاب هزار افسانه» لتدل على سبق المعرفة القديمة بالكتاب وبالتالي سبق تناوله تهذيبا وتنميقا، وسبق التأليف في معناه وفيما يشبهه.

ونحن نريد أن ندلل بهذا على أن ترجمة الكتاب لم تتأخر حتى عصر المنصور أي في القرن الثامن الميلادي كما قال برتن وكما لاحظت الدكتورة سهير القلماوي في تعقيبها على ما قاله بقولها (ولعله يقصد عصر دخولها الى العربية) فنحن لا نوافق الأستاذ برتن كما لا نوافق الدكتورة سهير القلماوي في تأخر معرفة العرب بألف ليلة حتى عصر المنصور، وانما نحن نذهب الى أنه دخل المحفوظ العربي مما نقلوه عن الآخرين قبل هذا بزمن طويل جدا، وأنه عندما وصل عهد المنصور كان قد تم هضمه عربيا واسلاميا، بحيث أصبح جزءا من التراث العربي الفكري والوجداني، وبذلك جزءا من التراث الاسلامي الحضاري. فابن النديم ينص على أنه أول كتاب عرفه العرب من كتب الأسمار والخرافات ونقلوه عن الفرس، ثم هو حين نص على أن العرب نقلته الى اللغة العربية، لم يحدد زمنا معينا لهذا النقل، ثم أن الكتب القديمة نصت على أسماء مترجمي من عاصروهم وأسماء الكتب التي قاموا بترجمتها من غير العربية من اللغات، فقد نص أصحاب هذه الكتب على أن ابن المقفع ترجم كليلة ودمنة، بل أن ابن النديم يقول في أسماء الكتب التي ألفها الفرس ما نصه: «كتاب رستم واسفنديار ترجمه جبلة بن سالم، كتاب بهرام لويس، ترجمة جبلة بن سالم».. أما ألف ليلة، أو هزار افسانه الذي ذكره ابن النديم أو المسعودي فلم ينصّ أحد منهما على اسم مترجمه، وهنا يرجح أن الكتاب كان قد ترجم قبل عصريهما بزمن طويل. ويؤيد هذا قول ابن النديم ص٤٢٣ من الفهرست: «ويحتوي ألف ليلة على دون المائتي سمر، لأن السمر ربما حدث به في عدة ليال، وقد رأيته بتمامه دفعات. وهو في الحقيقة كتاب غث بارد الحديث»، فما دام ابن اسحاق النديم رآه كاملا وقرأه بل وحكم عليه من الحكم القاسي، فلا بد أن الكتاب كان قد اكتمل في صورة من صوره، وتم فيه ما تم في غيره من كتب الاسمار أي «نقلته العرب الى اللغة العربية، وتناوله الفصحاء والبلغاء فهذبوه ونمقوه». وأصبح الكتاب كاملا تتداوله الأيدي ومع هذا فليس أحد يعرف من صنعه ولا من ترجمه ولا من أضاف اليه أو نمقه. اذن فقد غدا كتابا شعبيا متداولا يدخل في عداد التراث الشعبي ويعبر عن الروح الشعبية وتنطبق عليه قواعد كتب الفولكلور المدونة من أنها مجهولة المؤلف ضائعة النسب ويحق عليها من حيث مستوى حكم رجال البلاغة والأدب وقواعد الكتابة قول ابن النديم «وهو بالحقيقة كتاب غث بارد الحديث».

فألف ليلة وليلة اذن يكاد يكون الكتاب الشعبي الأول الذي جمع محفوظات الشعب العربي من الاسمار والخرافات أو من القصص، وهذه المحفوظات جاءت أما مَن موروثهم القديم في العصر الجاهلي وما سبقه وأما من كل ما نقل اليهم من مأثورات الشعوب التي عرفوها واحتكوا بها كشعوب الهند وفارس واليونان ومصر وغيرها.

وهذا المنحى في الاستفادة من كل المأثور القصصي في بناء الأعمال القصصية الجديدة منحى مألوف ومفهوم فالقصة موروث انساني، يجد فيه الانسان نفسه وتجاربه وأشواقه أيا كان مؤلفها الأصلي أو أيا كان موطن تأليفها الأصلي، ولعلها بهذا اسرع الأعمال الفنيّة ذوبانا في ضمائر المتلقين، وأكثرها قدرة على أن تتلاءم في كل بيئة جديدة تغزوها مع طبيعة هذه البيئة وروحها، لتغدو معبرة عنها هي قدر ما عبرت عن بيئتها الأولى التي نشأت فيها.

وهذه الحقيقة أساس لعمل عالم الفولكلور،



أبو زيد يتناول طعاماً في بيت الحارث (المقامة الخامسة).


من المقامة الثانية والثلاثين «جارية وجمال».

فهو يحاول من خلال النص الموجود أمامه أن يستخرج آثار البيئات الاجتماعية والجغرافية والتاريخية التي تظهر في النص أو التي تركت بصماتها على النص.

استيعاب الموروث الحضاري:

وألف ليلة وليلة تحمل بصمات هندية وفارسية ويونانية وفرعونية وعربية قديمة، كما تحمل أيضا بصمات بيئات جديدة تكونت بعد الاسلام في مصر والعراق والشام، وذلك في الأجزاء التي يسميها المستشرقون بالأجزاء المصرية أو البغدادية.

فتأليف القصص اعتمادا على كل ما وصل القاص من مأثورات عمل طبيعي ومعروف، واعتماد الكاتب على كل ما سبقه من تراث شيء شائع لا يحتاج إلى كل هذا العناء في محاولة نسبة الكتاب مرة الى الهند ومرة الى فارس، ثم مرات عديدة الى غيرهما من الشعوب ليمكن لمستشرق أو لآخر أن ينزع الكتاب من مكانه في الموروث الحضاري العربي ليدخله في موروث شعب آخر.

والاستدلال على بعد الزمن بمعرفة العرب لألف ليلة وليلة والذي أقمناه على نص ابن النديم ينفي ما تواضع عليه المستشرقون من اعتبار الكتاب من نتاج العصر العباسي، وينفي أيضا القضية التي أقام عليها فون غروثيباوم أحكامه على ألف لية في كتابه حضارة الاسلام من ترجمة الأستاذ عبدالعزيز جازيد، حيث يقول في ص٣٧٢ «تطورت المجموعة الضخمة من الحكايات والخرافات المعروفة بألف ليلة وليلة في أصقاع مختلفة من العالم الناطق بالعربية بين قرابة ٩٠٠م و١٥٠٠م. وتطمس اللغة واللون المحلي معالم العنصر الأجنبي للشطر الأكبر من مادة الكتاب طمسا فعليا».

فالكتاب قد بدأت معرفة العرب له قبل هذا كما قلنا، كما أن العنصر الأجنبي امتص وتمثل وتم هضمه ولم يعد إلا مجرد اشارات لمصادره الأصلية وما في الكتاب خلق عربي جديد، امتلأ بالروح العربي وأصبح تعبيرا عن الوجود الحضاري العربي الذي امتدت له يد الاسلام بعد هذا فلونته بلونها ومنحته فلسفتها ورؤيتها. ولكن هذا التطور الفني والاجتماعي والتاريخي الطبيعي لا يرضي الأستاذ غرو ثيباوم فهو يستمر في حديثه عن الكتاب قائلا: «أن روح الاسلام راحت تشيع في حكايات يهودية الأصل أو بوذية أو هلينستية، وحلت النظم الاسلامية

والآداب الاسلامية والعلوم الاسلامية في هدوء محل الأوضاع الثقافية للمادة الأصلية، وأضافت على الكتاب تلك الوحدة في الجو التي هي من أبرز ما تتسم بـه الحضارة الاسـلاميـة من خصائص، والتي تمنح المشاهد لا محالة من أن يلحظ لأول وهلة ذلك التجميع المبرقش للعناصر غير المتجانسة التي تتركب منها تلك الحضارة».

وعلى الرغم مما في عبارة غروثيبادم من سم تقطر به الكلمـات والحروف إلا أن الحقـائق لا يمكن تغييرها أو انكارها. فماذا كانت تكون ألف ليلة وليلة أن لم يعمل فيها العقل العربي المبدع، والوجدان الاسلامي الخلاق؟ لا نحسب إلا أنها كانت ستصبح شيئا آخر غير ألف ليلة. شيئا نعرفه موجودا في البقايا الفولكلورية لبعض الشعـوب التي لـم تجـد من يحفظ المـعنى الانسـاني الشامـل فيها ليجعـل منهـا نقلـة حضارية واضحة.

ان المستشرق غروثيباوم يجهد نفسـه في فصل بعنوان «اليونان في ألف ليلة» ليثبت أن هنـاك الكثير من المؤثـرات الهلينستية فيهـا. والمجـهـود منصـف ومضـن. والحكـايـات الهلينستية يشارك فيهـا غيره من المـوروثات العلمية القديمة الأخرى، بل بلغ به الأمر حد اعتبار مجرد تشابه الفكرة دليلا عـلى الأصل الهليني للحكاية العربية المشابهة لها، فيقول عن رحلات السندباد في ص٣٧٨: «ان الفكرة مهما تكن كان أول ظهور أدبي لها في اللغة الأغريقية، ثم تناولهـا القاص الشـرقي فتوسع فيها وأعطاها شكلا غير الشكل الذي أعطاها إياه المؤلف الكلاسيكي».

والفكرة في السندباد هي الرحلة الى المجهول دائما، والغربة من رحلة الى رحلة، وهذه الفكرة ليست وقفـا على الاغـريق فقد سبقهم اليهـا المصـريون القـدماء وامتـلأت بهـا قصصهم. والـواقع أن التفـات الدارسـين الى الأصـول الفرعونية لألف ليلة وليلة التفات غير جاد، فلا نكاد نجد ألا نولدكه الذي يلتفت الى أن قصص الشطار والسحر فيها أصول فرعونية، رغم أن نظرة سريعة الى ما قدمه الأستاذ سليم حسن في كتـابه الأدب المصـري القديم من نمـاذج قصصية يؤكد وجود تأثيرات واضحة في ألف ليلة وليله بالكثير من الأفكار بل والحوادث التي وردت في هذه القصص. ولكن اصرار غروثيباوم وغيره من المستشرقين على البحث عن أصول أغريقية على ألف ليلة وليلة مرجعه في الحقيقة الى موقف يتخذونه من الحضارة الاسلامية كلها بوجه عام. وهذا الموقف يتلخص في عدة نقاط:

الأولى: ان الحضـارة الاسلاميـة لم تقدم جديدا للانسانية بل هي اقتصرت على القيام بدور الناقل للحضارات القـديمة دون اضـافة جوهرية، هناك تغيير في الشكل حقا ولكن هذا التغيير لا يعتبر اضافة حضارية، بل قد يعتبر معوقا حضاريا ويقـول غروثيبـاوم في تحديـد واضـح (ص٤٠٥) «اجتمعت عنـاصر هنـديـة وفارسية ويهودية ويونانيـة وبابليـة ومصريـة فضلا عن عناصر عربية أصيلة، فأصبحت كلا واحدا على أيدي أساتذة مجهولين يرجع اليهم الفضل في تلك الجزالة الهـائلة التي ينطـوي عليها مجموع ألف ليـلة وليلة. وراحت اللغـة العربية من حيث الظاهر، والروح الاسلامي من حيث الداخل توجد هذه الخطوط المتعددة وتتولى حبكها في بساط فاتن يخطف الأبصار. وأن ألف ليلة في تأليفهـا بين كـل ما هـو مختلف وكل ما هو متفـاوت لأشبه الأشيـاء بمثال مصغـر للحضـارة الاسلامية بوجه الاجمال».

المسألة اذن أن الجهود التي اتسمت بأنها جهود علمية مخلصة، انما هي تحاول عن طريق المنهج العلمي انكار كل الاضافات التي قدمتها الحضارة العربية والاسلامية الشامخة للبشرية عن طريق العطاء الفني والوجداني الذي يعبر عن الانسان بواسطة الكلمة. فاذا أضفنا الى هـذه القضية مجمـوع القضايـا التي أطلقها المستشرقون على الأدب العربي الرسمي والذي تجعل منه أدبا شكليا، يهتم بـالتفاصيـل ولا يستطيع النظرة الشمـولية التي هي الـوسيلة الأولى للابداع الحق اكتملت لنا صورة تـآمر علمي استمد أسبابـه من المواقف التعصبيـة العرقية والدينية على السواء.

والحقيقة أن كل الحضارات تقوم على هذه العناصر المتباينـة التي ترثهـا عن الحضارات المنهـارة التي سبقتها والتي تـأتي هي لتحل محلـهـا في قيـادة التقـدم البشـري، ولكن

الحضارات الجديرة بهذا الاسم لا تقوم بالتوفيق بين هذه العناصر، انما هي تقوم بهضم هذه العناصر وتمثلها وافرازها عطاء جديدا متميزا، يضيف اليها عنصر الزمن الجديد الذي هو امتداد لعمر الحضارات القديمة، كما تضيف اليها روح الانسان الجديد الذي تمكن من قهر الحضارات القديمة التي لم تعد البشرية تحتاجها والتي فضلت عليها بحكم عناصر الاختيار الطبيعي هذه الحضارة الجديدة الوافدة. إلا أن الموقف كما نقول موقف تعصبي لبس الثوب العلمي وهو يذكرنا بقول أرنولدتوينبي في كتابه الحضارة في الميزان (ص٢٩ من الترجمة العربية): «منذ قرون طويلة كان أسلافنا يرون في الاسلام خطرا مخيفا يتهددهم قبل أن يسمع الناس بالشيوعية. ففي القرن السادس عشر وهو الزمن القريب منا نسبيا، كان الاسلام يبعث في قلوب الغرب من الهوس ما تبعثه الشيوعية في القرن العشرين، وهذا يرجع في جوهره الى أسباب واحدة. ذلك أن الاسلام كان يعتبر كالشيوعية – حركة مناهضة للغرب وبدعة دينية مخالفة لديانة الغرب في الوقت نفسه. وكان الاسلام يستخدم – كالشيوعية – سلاحا روحيا لا يمكن مقاومته بالأسلحة المادية».

والثانية في هذه النقاط أن الانسان العربي – في زعم غروثيباوم غير قادر على الابداع وعلى هذا فكل ما هو ابداع من تراثه لا بد من إرجاعه الى عناصر أخرى تنتسب الى حضارات اقامتها أجناس أكثر امتيازاً. والواقع أن هذا الاتجاه قد رسب في أذهان المستشرقين وأقاموا دراساتهم وبحوثهم في الشعر والأدب على أساسه. وقد ساعدهم على هذا موقف رجال الدين المنغلق على ذاته والمسطح في نظرته الى الأمور، هذا الموقف الذي طبق المعايير الأخلاقية الصارمة على الفن فاستنكر وأنكر كل ما هو خروج على القواعد المناسبة للمعنى الخلقي الجامد الذي تصوروا أن الدين يفرضه، وهذا الموقف في الحقيقة تسبب في انهيار الحضارة الرومانية بعد دخولها المسيحية وبعد تمكن رجال الدين من فرض سيطرتهم الكهنوتية والكنسية على الفكر والفن، ولعله أيضا تسبب – حين بعدت الشقة الزمنية بظهور الاسلام وفهم روحه الأولى – في تحكم أصحاب العقليات الغبية غير الفاهمة أو القادرة على الخلق في عصور تخلّف الحضارة الاسلامية على السيطرة على الفكر والفن باسم الدين. وهذه العقلية هي التي أجازت كل ما هو مسطح من انتاج فني، وهي نفسها التي رفضت كل ما هو خلاق وابداعي في انتاج الفكر والعقل الاسلامي، فأدت لا إلى تغيير صورة الحضارة الاسلامية وحسب، بل أدت إلى أن أصبح الدين الاسلامي معوقا حضاريا بعد أن كان هو الدافع الحضاري الجديد والخطير الذي خرج به العرب من الجزيرة العربية ليقيموا أعظم حضارة شهدتها القرون الوسطى واستمرت الى مطالع ظهور الحضارة الغربية.

خلق وإعادة خلق:

هذه العقلية هي التي حكم بها المستشرقون على العقل العربي، رغم أن أصحابها ليسوا بالضرورة من العرب، بل ليسوا في الحقيقة ممثلين حقيقيين للعقلية الاسلامية التي امتصت ما سبقها من حضارات بصدر رحب واسع وأضافت اليها البعد الاسلامي الروحي الذي يتحدث عنه توينبي في الفقرة التي نقلناها عنه. وهذه العقلية وسيادتها فترة، وسيادة أحكامها على الفن، سهلت على المستشرقين أن يرجعوا كل اشراق الى غير العرب حتى ليقول نيتمان عن ألف ليلة فيما نقلته عنه الدكتورة سهير القلماوي (ص٧٣): «أن القصص التي يقل فيها السجع والشعر أصلها غير عربي على الأرجح، وإن يكن كثير من القصص الواضح أصله الهندي أو الفارسي قد حشد فيه شعر وسجع». وهكذا يصل الأمر الى حد الاعتماد على الصياغة في تقرير الأحكام عن هذا الكتاب العظيم، رغم أن ليتمان وغيره يعرفون تماما أن الصورة التي وصلتنا من ألف ليلة وليلة مرت بأكثر من صياغة في أكثر من مرحلة زمنية وأنها تمت بشكلها الحالي على الأرجح في القرن الحادي عشر. كما أن الباحثين يذهبون في استنتاجاتهم الى أن هذه الصياغة مصرية.



مقبرة سادة (المقامة الحادية عشرة).



أبو زيد خفير القافلة.

وقد رسبت هذه الأحكام في أذهان الدارسين العرب أنفسهم وأخذوها أخذ المسلمات حتى يخرجها الدكتور محمد غنيمي هلال في كتابه «الأدب المقارن» من عداد القصص العربي تماما فيقول (في ص٢٢٣ من الطبعة الثالثة لهذا الكتاب): «وقصص ألف ليلة وليلة مدينة قطعا في نشأتها الى أصول هندية وفارسية كما قلنا، فهي تدخل في عداد القصص المترجمة في الأصل».

والحقيقة أن ألف ليلة وليلة تعكس عكس كل الأحكام التي قيلت عن العقلية العربية فهي تثبت قدرة هذه العقلية على الابداع الفني

الكامل والرائع، كما تثبت قدرة هذه العقلية على الخلق وعلى اعادة الخلق من جديد. وما قيل من آثار للحضارات الأخرى انما هو دليل على أن الحضارة الاسلامية انما جاءت لتنقل البشرية نقلة جديدة الى أمام، فهي لم تبن من فراغ وانما هي احترمت عقل الانسانية وفكرها وابداعها، فاستغلت كل ما هو صالح من نتاجه لتضيف اليه روحها وفكرها ورسالتها الجديدة الى البشرية. واذا كان العالم ظل منذ ترجمة جالان لألف ليلة وحتى الآن يعيش في أحلام الانسان وأشواقه ومخاوفه من خلال قصصها وخيالها وحبكتها الفنية فهذا دين كبير على هذا العالم الجديد ولهذه الحضارة العربية الحديثة يجب أن يؤديه حبا واحتراما لأصحاب الفضل فيه.

إن وجود الآثار البابلية والفارسية والهندية والأغريقية والمصرية في هذه الموسوعة الفنية الضخمة لا يشكل باعتراف كل الدارسين إلا جزءا واحداً من أجزائها أما الجزء الآخر منها فأدب قصصي جديد كل الجدة يعبر عن مجتمعات اسلامية متأخرة أما عاشت في بغداد وأما عاشت في القاهرة، وقد التفت المستشرقون الى هذا الجزء الأخير ولكنه لم يحظ باهتمامهم أو دراساتهم واكتفوا بأن جنبونا بحوثهم المضنية عن الأصول التي أخذت منهاالحكايات. وتقول الدكتورة سهير القلماوي عن عمل المستشرقين في هذا الجزء (ص٢٧): «يذكر أولسيترب في صدد هذا الجزء الذي لا يجدي في درسه البحث عن مشابهاته في الآداب القديمة أن لين قد ذكر أنه كله مصري، ولكنه يرى، كما قد رأى نولدكه من قبل، أن هذه القصص تحمل ولا شك آثار الاخراج المصري أو التحسينات المصرية، ولكن بغداد موطن الرشيد نواة اجتمعت حولها الأصول لكثير من هذه القصص التي ما زال أثر هذا الأصل واضحا فيها. لذلك يقسم أوليسترب الجزء الباقي الى مجموعتين الأولى بغدادية والثانية مصرية كما فعل نولدكه من قبل وليتمان وغيره من بعده».

هذا موقف غريب ممن أجهدوا أنفسهم في البحث وراء كل شخصية وكل اسم وكل حرف في الجزء التاريخي من الليالي. فشيء من اثنين، أما أن هذا الجزء الواقعي من الليالي يرتبط بتراث الشعب أما المصري أو البغدادي أو الشعب العربي كله، فكان لا بد من البحث الماثل فيه عن مدى ارتباط بموروث هذا الشعب أو هذه الشعوب، وأما أنه خلق قصصي مبدع فكان لا بد من الوقوف عنده وتحليله ودراسة خصائصه والخروج منها بأحكام عن أصول القصة العربية الواقعية وعن ملامحها الفنية، إذ هي بهذا أقدر من القصص الغربية بكثير وأزهى بهذا وبما أحدثته من استهواء عند المتلقين الغربيين عن ظهورها أحد التيارات التي أثرت ولا شك في ابداعهم القصص الواقعي حين بدأوا يحاولون الابداع فيه.

ولكن هذا الاهمال المتعمد لهذا الجزء انما يوضح أن المستهدف من هذه الدراسات لا العلم الخالص وانما الطعم المغرض الذي كان بورتون أوضح منْ عبّر عن أهدافه فيما نقلنا عنه في صدر المقال. وقد لفتت هذه الظاهرة المتجنية عند كل المستشرقين الدكتورة سهير القلماوي لفتا قويا حتى تقول في شبه لوم (في صفحة ٢٦): «وأرى بهذه المناسبة أن ألاحظ شيئا على بحث كثير من المستشرقين في هذا الميدان وهو قولهم أن هذه ظاهرة لا تلائم الطبيعة العربية أو الأمة الاسلامية، فانهم، ولنأخذ المستشرق لين مثلا، قد أسرفوا في الحكم على الطبيعة العربية والأمة الاسلامية. لأنهم جعلوا أساس حكمهم الفكرة العامة التي أخذوها من كتب الأدب العرب وكتب الدين. وهذا الأساس للحكم غير كافٍ. فالذي لا شك فيه أن نواحي من ألصق ما تكون بهذا الموضوع، موضوع الأدب الشعبي، لم تصدر في كتب الأدب ولا في كتب الدين».

ولسنا نريد في الحقيقة إلا أن نضع هذا الكتاب في مكانه الحقيقي على قمة موروثنا في المكتبة القصصية العربية والعالمية معا، وإلا أن نلفت أنه رغم هذه المكانة الخطيرة فان الدراسات الفنية والنقدية والفولكلورية العربية ما زالت مقصرة في حقه تقصيراً مخجلاً ومخيفاً. □

تاريخ
الطوابع

ميشال اسطفان

طوابع الصومال

لمختلف أقسامها وأزمانها

تقع الصومال في الجهة الشرقية من افريقيا على البحر الأحمر، تبدأ حدودها بالسودان، ونزولاً إلى حدود كينيا والفاصل بينهما نهر جوبا، وقد كانت هذه البلاد هدفا لمطامع عدة دول اوروبية، فكان لكل من فرنسا وانكلترا وايطاليا نصيب منها قبل ان تحصل على استقلالها.

منطقة اوبوك:

في سنة ١٨٥٧ اشترت فرنسا عن طريق قنصل عدن، ميناء اوبوك مع المنطقة المحيطة بها في الصومال الشمالي.

ثم صدّقت الصفقة بمعاهدة مع زعماء الدناقيل المحليين سنة ١٨٦٢، وثبتت امتلاك المنطقة رسميا، بعدئذ في سنة ١٨٨٣.

وفي أول شباط/فبراير سنة ١٨٩٢ أصدرت السلطات الفرنسية أول مجموعة لمنطقة اوبك، بتوشيح مجموعة من الطوابع الفرنسية العمومية الخاصة بالمستعمرات اصدار سنة ١٨٨١، بكلمة اوبوك «OBOCK»، توشيح يدوي، مؤلفة من ١١ طابعا من فئة سنتيم واحد إلى فرنك واحد قيمتها اليوم أكثر من ٤٠٠ جنيه استرليني. ثم صدرت خلال ثلاث سنوات ولغاية ١٨٩٤، سبع مجموعات منها خمس للبريد العادي ومجموعتان للاجور المستحقة، منها مجموعة موشحة بفئات مختلفة عن الفئات الاصلية مؤلفة من ١١ طابعا قيمتها اليوم نحو ٤٠٠ جنيه استرليني. وظهر توشيح الفئة مقلوبا على جميع الفئات واصبحت قيمتها نحو ٣٠٠٠ جنيه استرليني، وحدثت أيضا خمسة أخطاء مختلفة. أخرى قيمتها اليوم نحو ٦٠٠٠ جنيه استرليني. وأما المجموعات الأخرى العادية والمستحقة فقد أصبحت قيمتها ما بين ٥٠ و ٥٠٠ جنيه استرليني..

وفي سنة ١٨٩٤ ألحقت اوبوك بالمنطقة الساحلية التي أطلق عليها اسم ساحل الصومال الفرنسي وقد أصبح محمية فرنسية، مع العلم ان طوابع اوبوك كانت مستعملة هناك منذ سنة ١٨٩٢.

وفي سنة ١٨٩٩ تحول مكتب بريد اوبوك إلى ميناء جيبوتي البلد الرئيسي للساحل الصومالي.

ساحل الصومال الفرنسي:

في سنة ١٨٩٤ أصدرت السلطات الفرنسية أول مجموعة لساحل الصومال الفرنسي، مؤلفة من ثلاثة طوابع موشحة على طوابع اوبوك. وقد ظهر في كل من الطوابع الثلاث أخطاء كثيرة في التوشيح أصبح قيمة كل منها نحو ٣٠ جنيها استرلينيا. ثم تبعتها في السنة ذاتها مجموعة أخرى موشحة على طابعين من طوابع اوبوك قيمتها اليوم نحو ١٠٠٠ جنيه استرليني، وحدث أخطاء في التوشيح أيضا قيمتها اليوم نحو ٢٠٠٠ جنيه استرليني أو أكثر. ثم تبعتها المجموعات المصورة باحجام مختلفة ومنها المثلث



انتداب إيطالي
إصدار ١٩٥٨



محمية بريطانية
إصدار ١٩٣٨



الساحل الفرنسي إصدار ١٩٤٢

△ والمعين ◊ ومجموعة أخرى موشحة بفئات مختلفة صدرت حسب الحاجة وكان مجموع ما صدر٣٦ طابعاً ما عدا الاخطاء المتعددة الغالية الثمن وكان معظمها يحمل اسم جيبوتي.

وفي سنة ١٩٠٢ أصبحت المنطقة مستعمرة فرنسية واصدرت مجموعات شتى جمعت (٢٩٢) طابعاً للبريد العادي و٥٥ للجوي و٥٣ للاجور المستحقة وبطاقة واحدة، أما الاخطاء فكانت محدودة جداً لعدم وجود توشيح يذكر في تلك الاصدارات وكان آخرها سنة ١٩٦٧.

وفي هذه السنة أخذت المنطقة اسماً جديداً وهو المنطقة الفرنسية لعفار وعيسى، وهذه اسماء القبائل الأكثر عدداً هناك. ثم باشرت باصدار المجموعات على نمط الطوابع الفرنسية وللمناسبات الفرنسية أيضاً، لغاية سنة ١٩٧٧ وكان عددها ١١٦ طابعاً للبريد العادي و٥٦ للجوي و٤ طوابع للاجور المستحقة. ثم استقلت هذه المنطقة وصار اسمها جمهورية جيبوتي وكان ذلك بموجب استفتاء عام.

وفي سنة ١٩٧٧ باشرت اصدار طوابعها بتوشيح طوابع عفار وعيسى الموجودة في البريد وقد جمعت ٧٤ طابعاً للبريد العادي و٣١ للجوي.

بنادير الساحل الجنوبي الذي يسمونه اليوم الصومال، كان معروفاً قديماً باسم «بنادير» الذي يعني الاماكن الصالحة للنزول: ما بين سنة ١٨٨٥ إلى سنة ١٨٨٩، وقعت ايطاليا معاهدات مع السلاطين المحليين للساحل الشمالي قبلت البلاد بموجبها الحماية الايطالية. وفي سنة ١٨٩٢، أجَّرَ سلطان زنجبار الحاكم الاسمي لبنادير، ايطاليا موانيء برافا ومركا وموغاديشو ويوارشيك لمدة خمسين عاماً.

وكانت ادارة المنظمة في باديء الأمر لشركة فيلوناردي ومن ثم في سنة ١٨٩٨ لشركة بنادير.

وفي ١٢ تشرين الأول/اكتوبر سنة ١٩٠٣ صدرت أول مجموعة لتلك المنطقة مؤلفة من فئة بيزة واحدة و٢ بيزة صورة الفيل الأفريقي، وفئة ١، ٢، ٢ ½، ٥ و١٠ آنات، صورة الأسد الصومالي، قيمتها اليوم نحو ٥٠ جنيهاً استرلينيا.

وفي ١٣ كانون الثاني/يناير سنة ١٩٠٥ تخلى سلطان زنجبار عن حقوق ملكية موانيء بنادير إلى ايطاليا بموجب اتفاقية مقابل مبلغ (١٤٤٠٠٠) جنيه استرليني. ثم أخذت ايطاليا على عاتقها حكم المنطقة المباشر في ١٩ آذار/مارس سنة١٩٠٥ وفي ١٦ ايار/مايو سنة ١٩٠٨ وقعت معاهدة مع الحبشة على حدود واسعة داخل المنطقة لتلك المستعمرة الايطالية مقابل مبلغ (١٢٠) جنيه استرليني.

وفي ٢٩ كانون الأول/ديسمبر سنة ١٩٠٥ كانت المنطقة تسمى بالصومال الايطالي وصدر

طابعان موشحان ١٥سنتيما والآخر ٤٠ سنتيما على طابع الأسد الصومالي، قيمتها اليوم نحو ١٥٠٠ جنيه استرليني.

ثم لحقت اصدارات كثيرة منها موشحة بفئات تختلف عن الأصلية منها موشحة بالأفرنجي «الصومال الايطالي» ومنها مصورة، عادية وتذكارية واكسبرس وللاجور المستحقة ابتداءً من سنة ١٩٠٦ إلى ١٩٣٦ وقد جمعت ٥٢ مجموعة منها ما ارتفع قيمته إلى نحو ٥٠٠ جنيه استرليني للمجموعة الواحدة، مع العلم ان فيها بعض الأخطاء، يراوح ثمن الطابع المغلوط فيه بين ٥٠ و٧٠٠ جنيه استرليني.

أراضي جوبا:

في ١٥ تموز/يوليو سنة ١٩٢٤ وبموجب اتفاقية انكليزية ايطالية، تخلّت بريطانيا لايطاليا عن قطعة طويلة ضيقة، عرضها ما بين ٥٠ و١٠٠ ميل من أراضي كينيا الموازية لنهر جوبا، إنجازاً لمعاهدة لندن السرية لسنة ١٩١٥.

في ٢٩ حزيران/يونيو سنة ١٩٢٥ وشحت ايطاليا مجموعة من الطوابع الايطالية بكلمتي «OLTRE JIUBA» مؤلفة من ١٥ طابعاً، تبعتها مجموعة عادية واحدة، وأخرى للطرود وأخرى للأجور المستحقة وللبريد المستعجل، أربع مجموعات تذكارية جميعها موشحة مثل المجموعة الأولى الآنفة الذكر ولكن باحرف تختلف الواحدة عن الأخرى، ما عدا مجموعة واحدة تذكارية لمناسبة السنة الأولى لاكتساب أراضي جوبا، (صورة خريطة المنطقة المسلوخة من كينيا)، وكان مجموع ما صدر ٦٨ طابعا وطابعين بتوشيح مغلوط. أصبح قيمة الطابع التذكاري المخرم ١٣ سم ، من فئة ٦٠ سنتيم لمناسبة اليوبيل الملكي، نحواً من ١٧٠٠ جنيه استرليني.

وفي ٣٠ حزيران/يونيو سنة ١٩٢٦ ألحقت أراضي جوبا بالصومال الايطالي.

وفي أول حزيران/يونيو سنة ١٩٣٦، انضم الصومال الايطالي إلى الأرتريا والحبشة ليشكلوا مستعمرة أفريقيا الشرقية الايطالية بموجب مرسوم صدر في ذلك التاريخ. وبعدها اصبحت تعرف رسميا باسم حكومة الصومال.

وما بين سنة ١٩٣٢ و١٩٣٤ كانت ايطاليا قد اصدرت ١٣ مجموعة تذكارية للبريد العادي والجوي والاكسبرس، مجموعها ٨٧ طابعاً خصصت كمجموعات عمومية للمستعمرات الايطالية وإستعملت طبعاً في الصومال الايطالي.

وما بين ١٩٣٨ و١٩٤٢ وبموجب مرسوم ضم الصومال الايطالي إلى الارتريا والحبشة كما ذكرنا لتشكل مستعمرة أفريقية الشرقية الايطالية، أصدرت ايطاليا ١١ مجموعة تذكارية للبريد العادي والجوي والاكسبرس وللاجور المستحقة، مجموعها ٧٦ طابعا. وفي ٢٠ ايار سنة ١٩٤١ استسلمت القوات الايطالية للجيش الانكليزي الأفريقي، لكنها أصدرت بعد ذلك وفي السنة نفسها مجموعة من ٩ طوابع بريدية وجوية لمناسبة حلف المحور تحمل صورة هتلر وموسوليني، ومجموعة أخرى للأجور المستحقة بتاريخ ١٣ آب/اغسطس سنة ١٩٤١ مؤلفة من ١٣ طابعاً ايطاليا للأجور المستحقة موشحة: «A.O.I.» ، لكن هاتين المجموعتين بيعتا في مكتب هواة الطوابع في روما ولم تستعمل في الصومال (أفريقية الشرقية الايطالية)، وقد سبق أن فعلت ايطاليا ذلك من قبل، ففي سنة ١٩٣٩ وشحت طابعاً إيطاليا من فئة ١٠ سنتيم بالأفرنجي «الصومال الايطالي» وكذلك سنة ١٩٤٢ ظهرت في الأسواق مجموعة الأجور المستحقة صورة خيال على ظهر الحصان تحمل الأحرف «A.O.I.»، مؤلفة من ١٢ طابعاً من فئة ٥ سنتيم إلى ١٠ لير ايطالي، ولكنهما لم يصدرا رسميا ولم يُستعملا في مكان ما.

ذكرنا آنفاً ان الجيوش الانكليزية والانكليزية الأفريقية والانكليزية لجنوب أفريقيا، احتلت الصومال الايطالي في سنة ١٩٤١ فوشحت طوابع انكليزية بالاحرف «MEF» وهي الأحرف الأولى من «قوات الشرق الأوسط» ووضعتها في الاستعمال هناك، من سنة ١٩٤٢ إلى ١٩٥٠، وكانت ٣ مجموعات للبريد العادي ومجموعة للأجور المستحقة، ثم مجموعة خاصة من الطوابع الانكليزية موشحة «E.A.F.» وهي الأحرف الأولى من «قوات أفريقيا الشرقية» ومجموعة سادسة من الطوابع الانكليزية موشحة «BMA/SOMALIA» وهي الأحرف



احتلال بريطاني
إصدار ١٩٤٢



جمهورية الصومال
إصدار ١٩٦٠



B. A.
SOMALIA

احتلال بريطاني إدارة
مدنية إصدار ١٩٥٠



B.M.A.
SOMALIA

احتلال بريطاني إدارة
عسكرية إصدار ١٩٤٨

الأولى من «ادارة عسكرية بريطانية». وأخيراً مجموعة سابعة من الطوابع الانكليزية أيضاً موشحة «BA/SOMALIA» هما الحرفان الأولان من «ادارة بريطانية» وكان مجموع لك ١٧ طابعاً، وقد صدرت مجموعتان بتوشيح اضافي «SPECIMEN» قيمتهما اليوم نحو ٥٠٠ جنيه استرليني.

وفي ٢٠ تشرين الثاني/نوفمبر سنة ١٩٤٩ وُضعت البلاد تحت وصاية هيئة الأمم، وكلفت ايطاليا الوصاية عليها على ان تهيئها للاستقلال خلال عشر سنوات، فعادت ادارة البريد مجدّداً إلى ايطاليا.

وما بين ١ و ٢٤ نيسان/ابريل سنة ١٩٥٠ صدرت أول مجموعة بالعملة الجديدة بالسنتيم الصومالي، تحمل صور مرافق البلاد التاريخية والاقتصادية مؤلفة من ١١ طابعاً، تبعتها ٤٥ مجموعة عادية وجوية وتذكارية وللبريد المستعجل والمستحق والطرود، آخرها بتاريخ ٧ نيسان/ابريل سنة ١٩٦٠ لمناسبة السنة العالمية للاجئين، وبلغ مجموع ذلك ٤٨ طابعاً وبطاقة واحدة لمناسبة الجمعية التشريعية للدستور.

وفي شهر ايار/مايو سنة ١٩٦٠، نظمت الحكومة البريطانية الوحدة فيما بين محمية الصومال البريطانية والمستعمرة الايطالية سابقاً. وفي ٢٦ حزيران/يونيو ١٩٦٠ استقلت الصومال البريطانية، ثم تم الاتحاد بين المنطقتين باسم جمهورية الصومال في الأول من تموز/يوليو سنة ١٩٦٠.

وفي ٢٦ حزيران/يونيو سنة ١٩٦٠ صدرت مجموعة لمناسبة الاستقلال موشحة بالافرنجي «استقلال الصومال ٢٦ حزيران ١٩٦٠» مؤلفة من طابع للبريد العادي وطابعين للجوي قيمتهما اليوم ٤٠ جنيها استرلينيا.

وفي أول تموز/يوليو سنة ١٩٦٠ صدرت مجموعة من اربعة طوابع تحمل صورة خريطة أفريقيا مع غزال في اعلى الصورة وأخرى علم هيئة الأمم وثالثة علم الصومال والرابعة قصر النواب في روما لمناسبة اعلان الاستقلال، ثم درجت الاصدارات العادية والتذكارية للمناسبات الوطنية والعالمية اسوة بباقي البلاد، وكان مجموعها لغاية أواسط سنة ١٩٧٩، ٢٩٠ طابعا و٨ بطاقات.





رسائل الماجستير والدكتوراه

استجابة لرغبة المجلة في تعريف العرب بتاريخهم، عبر دراسات علمية ومسؤولة، واستجابة لدعوتها الأساتذة والمؤرخين وطلاب الدراسات العليا لنشر موجز عن رسائلهم الجامعية، فقد وصلنا من الأخ د. عبدالسلام تدمري عرض موجز لرسالة ماجستير قدمها عبدالرحمن أمين صادق عن كتاب «تثقيف التعريف بالمصطلح الشريف لتقي الدين المحبيّ ومن الأخ فتحي سلطان موجز لرسالته الماجستير «العرب والصين في القرون الوسطى» نأمل أن يزيدا من اهتمام القرّاء ويشجّعا باحثينا على الانتاج العلمي المفيد.

تثقيف التعريف بالمصطلح الشريف لتقي الدين عبدالرحمن المحبي المتوفي ٧٨٦هـ/ ١٣٨٤م.

تحقيق: عبدالرحمن أمين صادق

رسالة ماجستير، جامعة الأزهر ١٩٧٩ - باشراف د.عبدالمقصود محمد نصار

عرض وتقديم

د. عمر عبدالسلام تدمري

● في موضوع الرسالة



حفل عصر سلاطين المماليك بنهضة علمية واسعة، نراها في كثرة المصنّفات التي أُلّفت في تلك الفترة، وظهور عدد كبير من العلماء النابهين في فروع متعددة من أنواع العلوم والمعرفة. وما زالت دُور الكتب في جميع أنحاء العالم تحتفظ بأعداد كبيرة من تلك المصنّفات في شكلها المخطوط. وذلك بخلاف الكتب التي فُقدت ولم نعرف عنها سوى أسمائها أو أسماء مؤلّفيها.

ومن انواع العلوم التي عنى بها علماء هذا العصر «علوم الكتابة»، وقد اسهم عدد كبير من العلماء - الذين عملوا بدواوين الإنشاء في فترات تاريخية متوالية - بالتصنيف في هذا النوع من أنواع العلوم، واختلفت مقاصدهم في ذلك، إذ اتجه فريق منهم بتصنيفه إلى ذِكْر النُظُم الخاصة بدواوين الإنشاء والمهام الموكولة إليها. وذِكر قواعد الكتابة وأدواتها من ثقافات وآداب. واتجه فريق آخر بتصنيف كتب تحوي الرسائل التي كُتبت في فترات سابقة، للاقتداء بها، والافادة منها.

وبفضل جهود علماء دولة المماليك البحرية أُضيف إلى علوم الكتابة فرع جديد هو: علم المصطَلح الشريف، وهو أهم الفروع بالنسبة لهذا النوع من أنواع العلوم. والتصنيف في هذا العلم، يتناول بالدراسة، أنواع المكاتبات ورُتَبها، وما يستتبع ذلك من معرفة لمقادير قطع الورق التي تُكتب فيها المكاتبات، وأنواع الأقلام المستعملة في كل قطع منها، والالقاب المناسبة وأنواعها وترتيبها في المكاتبات، وغير ذلك، مع

مراعاة أنواع الكتابة ورُتب المكتوب إليهم.

ولم تكن المصطلحات في ديوان الإنشاء قوالب جامدة، بل كانت تتطور باستمرار، متابعة في ذلك التغييرات السياسية والاجتماعية. ومن هنا كانت مصطلحات الكتابة في أي عصر من العصور، وثيقة تاريخية هامة. نستشف منها مظاهر الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية في ذلك العصر، بصورة أوضح مما في كتب التاريخ. إذ يمكن أن نستنتج منها مستويات العلاقات الدولية، ومدى قوة الدولة أو ضعفها خارجياً وداخلياً. كما تقدم لنا صورة للطبقات التي يتكوّن منها المجتمع، ومراكزها الاجتماعية، والمهام الموكولة إلى كل طبقة منها.

ومن ابرز الكتب التي وضعت بصماتها الواضحة في علم المصطلح الشريف في عصر دولة المماليك كتاب «التعريف بالمصطلح الشريف» لشهاب الدين أحمد بن فضل الله العمري، المتوفي سنة ٧٤٩هـ./١٣٤٨م.، ثم كتاب «تثقيف التعريف بالمصطلح الشريف» لتقي الدين المحبّي المتوفي ٧٨٦هـ./١٣٨٤م. وهو موضوع هذه الرسالة، والذي أصبح من المصادر الأساسية التي اعتمد عليها «القلقشندي» المتوفي سنة ٨٢١هـ./١٤١٨م. في الجزء الخاص بالمكاتبات من موسوعته «صُبح الأعشى في صناعة الإنشا».

ولقد عمل المحبّي مدة ثلاثين عاما بديوان الإنشاء بالديار المصرية، اكتسب خلالها خبرات مكّنته من تصنيف كتابه «التثقيف» واستوعب فيه المصطلحات الكتابية السائدة في الثلث الأخير من دولة المماليك البحرية، أي من أيام السلطان الناصر محمد بن قلاوون حتى عصر السلطان الأشرف شعبان بن حسين.

وأنواع المكاتبات الواردة في التثقيف، إما رسائل صادرة عن سلاطين مصر إلى حكام الدول الأجنبية ونوابهم ووزرائهم، وغيرهم ممن لهم أهمية خاصة للمكاتبة إليهم، أو إلى أرباب الوظائف العسكرية أو الديوانية أو الدينية وغيرهم في داخل البلاد المماليكية، وإما مكاتبات خاصة بالتعيينات (التقاليد والمراسيم والتواقيع) لأرباب الوظائف في الدولة، وإما مكاتبات خاصة بالمنح والإقطاعات (المنشورات)، وغير ذلك من نسخ العهود والأَيْمان والأمانات والهدن والمواصفات والمفاسخات، ثم أخيراً صيغ المكاتبات المتبادلة بين الأصدقاء. كما استوعب المحبّي في المكاتبات الخارجية، جميع أسماء القانات والملوك والحكام والأكابر وغيرهم، ممن كُتب إليهم عن سلاطين المماليك في هذه الفترة، ومن هو في مظنّة أن يُكتب له. فيعطينا بذلك فكرة واضحة عن العلاقات الخارجية في النصف الأخير من عصر دولة الممالك البحرية.

و«التثقيف» كتاب وثائقي، يضع النقط على الحروف لفترة تاريخية هامة من التاريخ الاسلامي، كما انه صورة مجسّمة للمظاهر الحضارية السائدة، في عصر المماليك البحرية، التي تظهر بوضوح من خلال العديد من المكاتبات المتنوعة الواردة فيه.

● في التحقيق والمنهج:

إلتزم المحقق «عبدالرحمن أمين صادق» مناهج التحقيق العلمية في تحقيق النص، وعمل على تقديمه سالما من الخطأ قدر إمكانه، وقام بترتيب فقراته، وترجم ما ورد به من أعلام الأشخاص، وتأكد من صحة الأماكن الواردة فيه، كما قام بتوضيح الألفاظ الاصطلاحية سواء ما يتعلق منها في داخل الدولة أو خارجها.

وقدّم على النص دراسة عن حياة المحبّي مؤلّف الكتاب، ثم عن عصره العلمي والعلاقات الخارجية في عصره من خلال كتابه. ثم اتبع ذلك بدراسة لكتاب التثقيف موضحا أهمّيته بين كتب المصطلح. ثم ختم ذلك بفصل خاص عن الرتب والألقاب السائدة في عصر المحبّي. وجاء ذلك في نيّف ومائة صفحة فولسكاب، من أصل (٣٥٥) صفحة هي مجموع حجم الرسالة - الدراسة، مع الخاتمة والفهرس والمصادر. وافتقرت الرسالة إلى فهرس للأعلام والبلدان والأماكن الواردة في التحقيق. غير أن هذا لا ينقص من قيمة البحث العلمي والجهد المبذول في التحقيق والذي اعتمد على مصادر كثيرة بين مخطوطة ومطبوعة، وقد بدا اجتهاد الباحث السيد «عبدالرحمن صادق» في استخدام المصادر الأصلية لكل اتجاهات الكتاب التي امتدت مكاتباته شرقا وغربا وشمالاً

وجنوباً، وغطّت فترة زمنية ليست بالقصيرة. ويظهر الجهد الواضح في الهوامش المحققة والتعليقات التي تناولت التعريف بالأعلام والأماكن والمصطلحات.

● في تقسيم البحث:

قسم السيد «صادق» بحثه إلى قسمين وخاتمة. خصّص القسم الأول منه للدراسة المتعلّقة بالبحث، والقسم الثاني لتحقيق نص الكتاب.

أما القسم الأول الخاص بالدراسة، فقد اشتمل على بابين:

الباب الأول: حياة تقي الدين المحبي وعصره.

الباب الثاني: دراسة كتاب تثقيف التعريف للمحبي.

وجاء كل باب من البابين في فصلين.

(أ) الفصل الأول من الباب الأول: حياة تقي الدين المحبي، مولده ونشأته، ونبذة عن حياة والده، وثقافته، وشيوخه، وأهم العلماء الذين أثّروا فيه من كُتّاب الإنشاء، والوظائف التي تولّاها. ووفاته.

(ب) الفصل الثاني، يتناول الحركة العلمية والعلاقات الخارجية في عصر المحبي من خلال كتابه التثقيف.

(ج) في الفصل الأول من الباب الثاني: تناول الباحث تطور ديوان الإنشاء وظهور كتب المصطلح وأهمية كتاب «التثقيف» بين كتب المصطلح، مع مقارنة بينه وبين كتاب «التعريف» لابن فضل الله العمري المتقدم عليه - وكذا بينه وبين كتاب «صبح الأعشى» اللاحق به للقلقشندي. وتحدّث عن محتويات الكتاب موضحاً أقسامه وأبوابه وفصوله في إيجاز.

(د) الفصل الثاني من الباب الثاني: تناول التعريف بالرتب والألقاب مبيّناً أهميتها في كتب المصطلحات، مع توضيح مقادير قطع الورق وأنواع الأقلام، والألقاب وأنواعها وأساليب ترتيبها وتنظيمها.

أما القسم الثاني من الرسالة فهو خاص بالتحقيق، حيث قدّم المحقق ذكر نُسخ الكتاب وأماكنها، ووصف النسخ التي اعتمد عليها، ثم أورد النص محققاً وهو العمدة في البحث والدراسة التي نال عليها السيد «عبدالرحمن أمين صادق» درجة الأمتياز في الماجستير.

□

العرب والصين في القرون الوسطى
(دراسة سياسيّة حضاريّة)
١-٧٦٩هـ / ٦٢٢-١٣٦٨م

فتحي سلطان

رسالة ماجستير - جامعة الموصل ١٩٨٠ - اشراف الدكتور عبدالمنعم رشاد محمد

نالت العلاقات العربية الصينية السياسية والتجارية عناية كبيرة وشغلت بعضاً من الباحثين، وترجع العلاقات العربية الصينية إلى فترة قديمة، قد ترجع إلى ما قبل الميلاد، لكن الاشارات لا تسعفنا حول هذا الموضوع إذ تشير أول اشارة مدونة لهذه العلاقات إلى سنة ٤١٤م، حيث الكثير من التجار السبائيين (Sa-Bo) في سيلان التي كانت تشكل احدى المراكز التجارية بين بلاد العرب وبلاد الصين. وقد تطورت العلاقات بين بلاد الصين وبلاد

العرب قبل الاسلام حيث انتشرت المراكز التجارية العربية كالابلة ودارين ومسقط وغيرها من الموانىء العربية، حتى لقد سميت الابلة بفرج الهند.

وعندما قام المسلمون بنشر الاسلام في البلاد المجاورة، كانت الصين هي الحدود الشرقية لهذا الانتشار، إذ وصلت إليها جيوش المسلمين بقيادة قتيبة بن مسلم الباهلي، وجرى تبادل الوفود بين المسلمين والصين، إذ تم عقد صلح بين الطرفين، وقد لزمت الصين بعد هذه الاتفاقية جانب السلم تجاه المسلمين، إذ أنها لم تستجب لنداءات وجهت إليها من قبل حكام سمرقند الاتراك لنجدتهم ضد المسلمين، ثم تتطور هذه العلاقات بين المسلمين وبلاد الصين إلى علاقات حربية في الفترة العباسية، حيث جرت موقعة تلاس سنة ١٣٣هـ / ٧٥١م، ودحر فيها الجيش الصيني، بعدها تحسنت العلاقات إلى علاقات صداقة وحسن جوار، عندما طلب امبراطور الصين النجدة من السكان المسلمين في مقاطعات التركستان من أجل اعادته إلى العرش.

تضمنت الرسالة خمسة فصول تناول الفصل الأول منها جغرافية الصين، فتضمن موقع بلاد الصين ومساحتها، مع التكلم على المناخ والتضاريس والموارد المائية والسكان والزراعة، بالاضافة إلى تناول الاقاليم الادارية وأهم المدن، وتأتي اهمية هذا الفصل لتوضيح الصورة للقارىء في التعرف على بلاد الصين، وفهم الاحداث السياسية والاقتصادية التي سيتناولها البحث، كما يبين هذا الفصل أيضاً مدى مساهمة الجغرافيين العرب في امدادنا بالمعلومات عن حياة شعب الصين السياسية والاقتصادية والاجتماعية.

أما الفصل الثاني فقد شمل الكيان السياسي وتناول الامبراطوريات التي حكمت بلاد الصين ابتداء بامبراطورية التانغ وانتهاء بطرد المغول من الصين مع اهم التكلم على اهم الأوضاع الداخلية.

أما الفصل الثالث فقد تناول الأوضاع الادارية في بلاد الصين، وتم تقسيم الفصل إلى فقرات عديدة منها البلاط وما يشمله كمركز للادارة الصينية، والادارة، والجيش، والدولة والحياة الاقتصادية، والرعاية الاجتماعية، والمدن، واهتمام الدولة بطرق المواصلات، فالنظام المالي.

اما الفصل الرابع فتناول العلاقات التجارية مشيراً إلى الطرق المؤدية إلى الصين مع العناية بالطرق التي تربطها بالبلاد الاسلامية البرية منها والبحرية، مروراً بالمراكز التجارية، ثم تناول أهم السلع المتبادلة بين البلاد الاسلامية وبلاد الصين، ثم دراسة للنشاط التجاري ومعوقات التجارة، ثم الضرائب التي كانت تفرض على السلع التجارية.

وتناول الفصل الخامس المسلمين في الصين ابتداء بالعلاقات السياسية العربية الصينية، ثم انتشار الاسلام في الصين فالحرية الدينية للمسلمين، ثم دراسة لأوضاع المسلمين في الصين ويبين هذا الفصل أهمية المسلمين في الصين، وتأثيرهم في مجرى بعض احداثها السياسية إضافة للاحداث الاقتصادية، حيث لعب المسلمون دوراً مهماً في تعزيز اقتصاد الصين. □



■ أما ان يقضي الانسان على الحرب، أو تقضي الحرب على الانسان نهائياً...»

كريشنا مينون

■ عندما تتم الوحدة العربية يصبح للعرب قوة دولية تكفل حل قضايا العالم العربي، وفي مقدمتها قضية فلسطين.

«توينبي»

مظاهر النجدة والحميّة

في تاريخ جبل عامل

علي الزين



إن توالي الحروب والوقائع الدامية بين العامليين وبين جيرانهم من مشايخ فلسطين وأمراء وادي التيم ولبنان أضرم في نفوسهم شعلة النجدة والحمية، وباتوا حذرين متحفزين لدفع كل ملمة حتى بلغ من شدة حذرهم في زمن الشيخ عباس المحمّد في أواسط القرن الثامن عشر، أن رجلاً منهم كان قائماً على مزرعة يحرسها من الوحوش، أطلق عياراً نارياً، فظن أهل القرى المجاورة أنه أطلقه مستغيثاً أو مخبراً بدخول العدو، فأجابوه بإطلاق الرصاص طلباً للنجدة وتبعهم في ذلك أهل القرى المجاورة حتى امتد الصوت – على ما قيل – من جباع الحلاوي في سفح جبل لبنان إلى قرية البصّة على حدود عكا، وما انجلى عمود الصبح حتى كانت الألوف من الرجال ترد وتحتشد والفرسان مهيئة للطعان[1]. ويؤكد هذا القول ما يرويه الريكيني – وهو من المعاصرين للحوادث – بقوله: «وفي ليلة هذا الاثنين، أعني ليلة العيد على ما شهدوا به: أنه أول شوّال قوصوا المدافع في مدينة صور في وقت العشاء بعد الغروب بساعتين، فظن الناس من القرى أنها كبست صور، فركبت الخيل والزلم. فظهر أن سبب ذلك أنها ما تحققت الشهادة (برؤية الهلال) إلا بعد العشاء فقوّصوا المدافع في غير وقت رؤية الهلال ولهذا ظن الناس أنها كبسة (أي غارة مفاجئة).

– واقعة جزّين سنة ٦١٣هـ –

ومن الحوادث التي توضح وتؤكد مظاهر النجدة والحمية في سجايا أبناء جبل عامل، ما يرويه البطريرك اسطفان الدويهي نقلاً عن الحريري إذ يقول: «وفي سنة ٦١٣هـ أقبل الفرنج بفارسهم وراجلهم من البحار وخرجوا الى عين جالوت ليأخذوا القدس، فخاف الملك العادل وعجز وتأخر وتهيأ أهل دمشق للحصار وتحصنوا واختبط الناس، وبعث الملك العادل يستحث عساكر البلد وتأخر الى مرج الصفر. وضجّ الخلق إلى الله. ثم تأخر الفرنج الى ناحية عكا بعد أن حاصروا الطور أياماً ثم أمر العادل بتخريب الطور، وسارت خمسماية من الفرنج ليأخذوا جزّين، وما حولها من القرى (– وهي يومئذ من أكبر المراكز العلمية والسياسية لشيعة جبل عامل –) ونزلوا إلى مرج العواميد وهو وادي تحت جزين فأخلاها أهلها، ثم تجمعت المسلمين من تلك البلده فكبسوا الفرنج وقتلوا أكثرهم وأسروا مقدمهم وفرقوهم وأبادوهم عن آخرهم. فلما بلغ ذلك صاحب عكا غضب وشن الغارات على جزين وما حولها فسار إليهم الملك المعظم عيسى بعساكر دمشق فتأخر الفرنج إلى عكا»[2].


من قرى جنوب لبنان... اليوم

- نوازع الحمية والأنفة -

ومن نوازع الحمية والأنفة عند العامليين ما يرويه الرحالة ابن جبير بقوله: «ان راحتنا مدة إقامتنا في صور كانت بمسجد بقي بأيدي المسلمين ولهم فيها مساجد أخر. فأعلمنا به أحد أشياخ صور من المسلمين، إنها أخذت منهم سنة ثماني عشرة وخمس مئة هجرية بعد محاصرة طويلة، وبعد استيلاء المسغبة عليهم، ذكر لنا أنهم إنتهوا منها لحال نعوذ بالله منها وأنهم حملتهم الأنفة على أن همّوا بركوب خطة عصمهم الله منها، وذلك أنهم عزموا على أن يجمعوا أهاليهم وأبنائهم في المسجد الجامع ويحملون السيف عليهم غيرة من تملك الأعداء لهم، ثم يخرجوا إلى عدوهم بعزمة نافذة ويصدموهم صدمة صادقة حتى يموتوا على دم واحد ويقضي الله قضاءه؛ فمنعهم من ذلك فقهاؤهم والمتورعون منهم وأجمعوا على دفع البلد والخروج منه بسلام، فكان ذلك وتفرقوا في بلاد المسلمين، ومنهم من استهواه حب الوطن فدعاه إلى الرجوع والسكنى بينهم بعد أمان كتب لهم بشروط اشترطوها(٣)».

ومنها واقعة عيناتا سنة ١٠٢٣ هجرية

إن الأمراء المعنيين لما اطمأنوا إلى مستقبلهم في الحكم أخذوا يفكرون في أساليب الانتقام ويهيئون الوسائل الجهنمية للتنكيل بالعامليين وشنّ الغارات على مراكز الحكم والقوة في

بلادهم، كما يستشف من قول الصفدي «وفي هذه الشتوية - شتوية سنة ١٠٢٣ هجرية - كان طويل حسين بلو كباشي سرداد قلعة الشقيف أرسل ناساً من السكمان ومن خدمه الذين يخدمونه لينهبوا من بلاد صيدا قرايا وينهبوا العرب المعتادين بالنزول في الحولة فيبيعوا نصف المكسب ويصرف في علف الطائفة السكمانية[٤] والنصف الآخر يتقاسمونه بينهم، فعند ذلك جعل للطائفة التي في قلعة بانياس الغيرة وقالوا لسردارهم حسين اليازجي أرسلنا نحن أيضاً إلى مكان يحصل لنا منه فائدة فعين من عنده ثلاثماية من الرجال وأرسلهم إلى طويل حسين بلوكباشي بقلعة الشقيف، فعين الطويل من عنده نحو مايتي رجل، فتوجه الجميع وكبسوا قرية عيناتا من بلاد بشارة وكان قد جاءهم النذير فجمعوا اليهم ناقلي العدد من القرايا القريبة منهم ووقع بينهم القتال، فقتل علي قول أوغلي سردار السكمانية فانكسروا وعادوا إلى مواضعهم فتبعهم أولاد شكر وجماعتهم إلى قرية عين الدقيقة من الحولة، وفقد منهم عشرون رجلاً وجرح منهم مجاريح، فعند ذلك عملت الطائفة التي في القلاع الميدان[٥] على البلوكباشية إلى حزين الواقعة وعدتهم ستة أنفس على وجه السرعة وطووا بيارقهم وأعادوهم إلى حزب النفر[٦].

* * *

ولدى التفكير برواية الصفدي - وهو كما يتضح من مقدمة كتابه لم يؤلف تاريخه هذا إلا تقرباً من الأمير فخر الدين وانقياداً لحكمه ومشيئته مما يفرض عليه أن يكيف الحوادث وأسبابها ومسبباتها بالصور التي ترضي الأمير ولا تمس كبرياء المعنيين أو تفضح دخائل سياستهم العارمة. ومع هذا يبدو لنا من خلال الرواية أن هذه الغارة التي شنَّها قادة المعنيين على آل شكر لم تكن وليدة الصدف أو من وحي الطمع بالنهب والسلب، وإنما كانت عن سابق تصميم ونتيجة مخابرات طويلة بين القادة، وبعد تفكير دقيق في وضع الخطط الجهنمية للغدر والفتك وإلا فمحاولة النهب وحدها لا تقتضي المعنيين أن ينظموا قوتهم ويوحدوا قيادتهم ويحشدوا مثل هذا العدد الكافي للإيقاع بجيش كبير منظم، كما قد أوقع علي الظاهر إبن الشيخ ظاهر العمر بجيش عثمان باشا الصادق وشتته واستولى على أسلحته وذخائره بمثل هذا العدد وبمثل هذه المباغتة التي حاولها رجال المعنيين يوم باغتوا الشكريين في قرية عيناتا على بعد المسافة بينها وبين قلعة الشقيف وقلعة بانياس، ومع وجود قرى أقرب وأخصب وأيسر تناولاً للنهب والسلب منها؟.

وابتداء المعنيين بآل شكر دون غيرهم من قادة العامليين بهذه الغارة الكبيرة وهذه المباغتة المنظمة للفتك والتنكيل والانتقام.. يشعرنا بما كان للشاكريين يومئذٍ من مزيد السطوة والنفوذ في عاملة، فلو لم يكونوا إذ ذاك نقطة الدائرة في سياسة البلاد أو أنهم هم القوة التي يخشى بأسها لما كانوا أول من يسعى المعنيون - الى كسر شوكتهم وتشتيت كلمتهم - بهذه الحملة المدمرة وهذا الأسلوب الغادر الذي يشف عن مدى الحقد والنقمة عليهم وعلى ساستهم ومدبريهم. كما يشعرنا بما كان ينطوي عليه آل شكر ورجالهم من شدة الحذر والنجدة والحمية في الملمات.

ومن الحوادث الدالة على مدى النجدة والحمية عند العامليين:

* * *

- واقعة تربيخا والدولاب -

يقول الركيني وهو من المعاصرين للحادثة: «وفي سنة ١١٨٠هـ في يوم الاثنين ثامن جماد الأول كبس ظاهر العمر قرية تربيخا وصار بينه وبين الشيخ ناصيف (النصار) وقعة عظيمة انكسر فيها الشيخ ظاهر كسرة عظيمة وقتل من عسكره مائة وخمسون رجلاً وأخذ من عسكره أيضاً مائة قليعة (أي مائة فرس قتل فارسها وبقيت معدة بسروجها للركوب) وقتل عشرون رجلاً من عسكر الشيخ ناصيف»

«لاحظ ص٦٢٨ من العرفان م٢٧.. ثم لاحظ بعد ذلك ص٢١ من العرفان م٥» حيث يروي عن مخطوطة الشيخ علي سبيتي ما نصه: «وسنة ألف ومائة وثمانين كانت وقعة تربيخا مع ظاهر العمر وانكسر ظاهر وقتل منه مائة قتيل ونهبت منه خيل ومن الجملة فرسه البرصاء».

«ثم لاحظ ص١١٢ - ٢٢٤ من مخطوطة خنجر بك الصعبي حفيد الشيخ علي الفارس ما يقوله الشيخ ابراهيم الحاريصي في مدح علي الفارس ورجاله من العامليين وفي تمجيد مواقفهم الباسلة في معركة تربيخا والدولاب مع الوصف الاجمالي لأهوالها.

له يوم تربيخا على الخصم غارة ... تكاد بها شم الجبال تفطّرُ
أحاط بها الأقوام من كل جانب ... وللحقد أبدوا والضغائن أظهروا
وداروا بها شرقاً وغرباً وأقبلوا ... بعسكر بغي لا يباديه عسكر
فلما دنا أن يأخذوها ولم يكن ... لسكانها شيء سوى الله ينصر
أتاهم علي في كماة أعدها ... ليوم الوغى كل على الموت يجسر
سباع إلى كسب المعالي تسابقوا ... محجلة أيامهم ليس تُنْكرُ
فمذ أبصر الأعدا بريق صفاحهم ... تولوا على أعقابهم ثم أدبروا
وعافوا هناك الخيل والبيض والقنا ... ولم يطلبوا إلّا النجاة فقصروا
وحاق بهم سوء العذاب فأصبحوا ... على الأرض صرعى منهم الدم يقطرُ
هم جردوا سيفاً من البغي قاطعاً ... فلم يُنْجهم منه دلاص ومخفر
سل الوعر عنهم كيف سالت دماءهم ... عليه وفي أكنافه كيف بعثروا
وكيف انثنوا والسيف يغري رقابهم ... وكيف عرتهم دهشة فتحيروا
فيا لك يوماً ظلت الخيل طوله ... صياماً تلوك اللجم والسيف مفطر
بدولابَ غادرْت الكماة على الثرى ... ومنهم جريح هاربٌ ومعفّرُ
وأيتمت أطفالاً وأيمت نسوة ... هناك ولولا الوعر لم ينج مخبرُ
وإبْتَ بحمد الله للحي سالماً ... تقود المذاكي هكذا كان عنتر

* * *

هذا ما يرويه لنا التاريخ عن ماضي الآباء والأجداد. فما عسى ان يرويه لمن بعدنا عن واقع الأبناء والأحفاد اليوم وقد غزاهم العدو الصهيوني في عقر دارهم وأباحها بمن فيها للقتل والنهب والتدمير، وهم لا يزالون منقسمين على أنفسهم يكفّر بعضهم بعضاً ليستحلّ قتله وسفك دمه بحجج لا تمت إلى منطق الدين والانسانية في شيء.

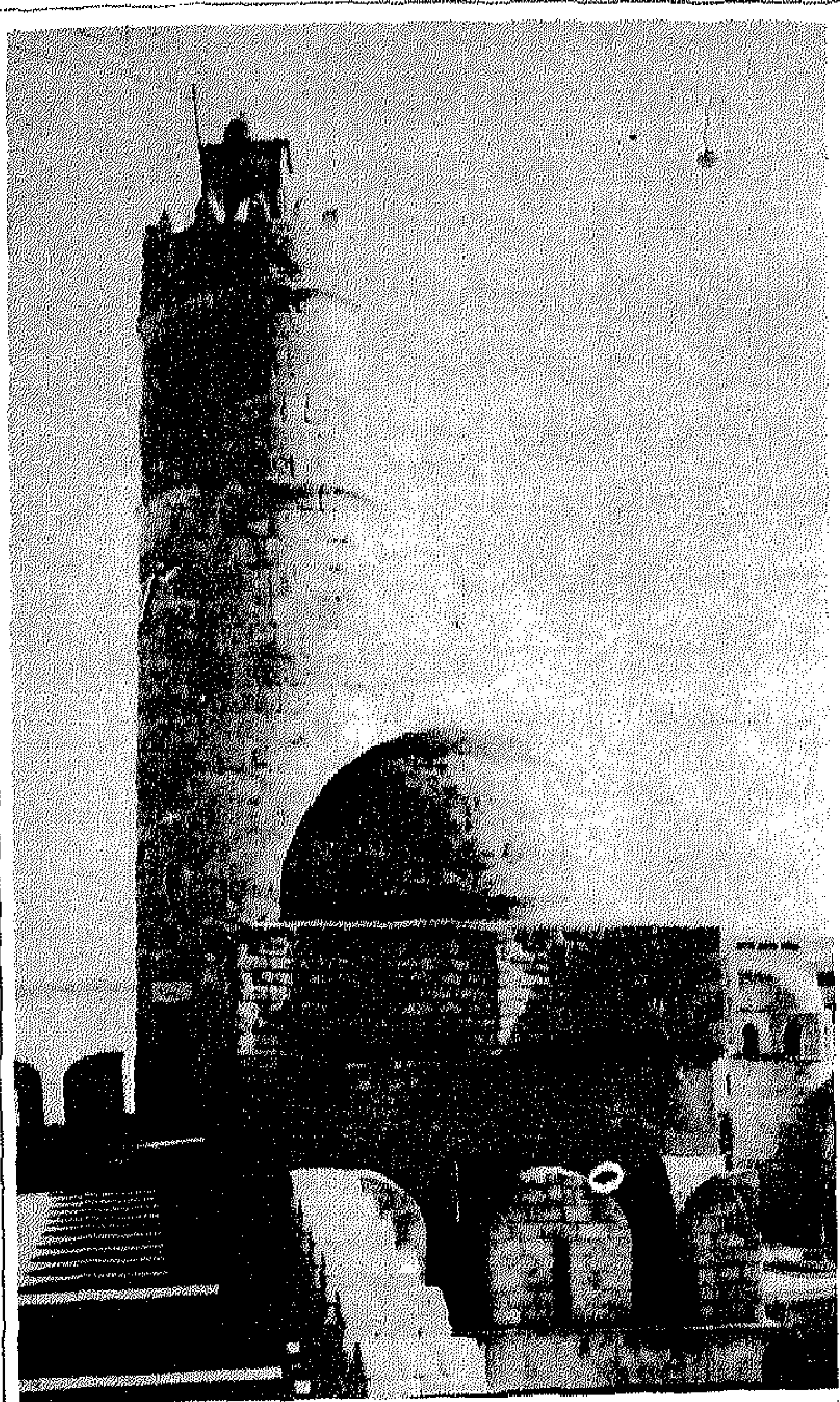
□

الهوامش

(١) «لاحظ ص٢٨٧ من مجلة العرفان مجلد٢ رواية الشيخ أحمد رضا.
(٢) (لاحظ ص١٠٤ من تاريخ الأزمنة للبطريرك اسطفان الدويهي طبع اليسوعية سنة ١٩٥٠).
(٣) لاحظ رحلة ابن جبير ص٢٧٩ طبع بيروت سنة ١٩٦٤.
(٤) لاحظ ص٣٩-٤٠ من تاريخ الأمير فخر الدين المعني للصفدي. ثم لاحظ ان المراد بالعلوفة هنا المعاش وبالطائفة: الجماعة؟ والسكمانية - بفتح السين - الجند الماجور.
(٥) والمراد بقوله (عملوا الميدان) عملوا المؤتمر أو عملوا الاجتماع للنظر في أمر هؤلاء القادة المنهزمين.
(٦) ومن قوله «وطووا بيارقهم وأعادوهم إلى حزب النفر». طووا رتبهم العسكرية، وأعادوا كلاً منهم إلى مستوى النفر، لأن البيارق والطبول كانت من شعارات الرتب العسكرية يومئذٍ.

سوسة

جَوْهَرةُ الساحل في تونس يرجع تاريخ المدينة إلى الألف الثانية قبل الميلاد. وتعتبر سوسة من أكبر مراكز السياحة في تونس العصرية. وتبعد سوسة حوالى ١٤٥ كلم عن العاصمة تونس. يبلغ تعدادها حوالى ٧٠ ألف نسمة، حسب الاحصاءات الأخيرة. مشارف سوسة منازل بيضاء صغيرة يحيط بها سوق قديم ضخم وفي وسطها قلعة أثرية ضخمة هي قصر الرباط المشهور الذي بناه الأمير الأغلبي زيادة الله الأول عام ٢٠٠هـ. ومن وسط قصر الرباط ترتفع المنارة الضخمة التي تعتبر من اقدم المنارات في العالم الإسلامي. تتميز مدينة سوسة بوجود مجموعة كبيرة من المباني الأثرية التي لا يوجد مثلها في المدن التونسية الأخرى والسبب في ذلك يرجع إلى تاريخ هذه المدينة القديم الذي يعود إلى القرن التاسع ق.م حين نزل الفينيقيون والكنعانيون Punics إلى أرض تونس حيث أسسوا مراكزهم التجارية على السواحل وكانت سوسة من أول المراكز التجارية التي اسسها هؤلاء الفينيقيون أو البونيقيون وأسموها هدروماتوم Hydrumetum أو كما يقول بعض المؤرخون «حضرموت» وأزدهرت المدينة اثناء الحرب البونيقية الثانية عام ٢٠٣ ق.م حينما جعل منها القائد القرطاجي الشهير هنيبعل Hynnibyl مقر أركان حربه الذي زحف إلى مدينة «جامة» حيث دارت معركة رهيبة بينه وبين قوات الرومان دارت فيها الدائرة على هنيبعل فأنسحب مرة أخرى إلى (سوسة) ولكن قرطاجنة فضلت الصلح. وهرب هنيبعل إلى المشرق وعندما قامت الحرب البونيقية الثالثة



منارة قصر الرباط

استولى الرومان على سوسة واعترفوا لها بالاستقلال الذاتي ولقبوها بالمدينة الحرة. وازدهرت المدينة في عهد يوليوس قيصر واستمر حكم الرومان لهذه المنطقة حتى جاء الفاندال واحتلوها في النصف الأول من القرن الخامس الميلادي واستمر احتلالهم لها ما يقرب من ٩٥ عاماً من (٤٣٩ م إلى ٥٣٤ م).

وفي عام ٥٣٤م احتل البيزنطيون سوسة ورحب أهل البلاد بالجيوش البيزنطية وقام الأهالي بتغيير اسم بلدهم من «حضرموت» إلى «جوستنيابوليس» نسبة إلى الأمبراطور جوستنيان كتعبير عن شعورهم بالامتنان له لتحرير بلدهم من حكم الفاندال.

وفي عام ٦٤٧م دارت معركة بين قوات الامبراطور قسطنطين والقوات العربية بقيادة

عبدالله بن الزبير في مدينة سوسة. واستطاعت الجيوش العربية الحاق الهزيمة بقوات قسطنطين ولكن عبدالله بن الزبير عاد إلى مقر الجيش العربي في ذلك الوقت بمدينة «جلولة» وترك سوسة ليدخلها عقبة بن نافع الذي جعل عليها حامية عربية. وبدأت سوسة تتقلب تحت عهود مختلفة من الحكام العرب. فأتى الأغالبة الذين أعادوا بناء سور المدينة والجامع الكبير وقصر الرباط وانطلقت قوات الأغالبة من ميناء سوسة بقيادة اسد بن الفرات إلى صقلية حيث فتحوها واصبحت سوسة في عهدهم قلعة من قلاع الجهاد ونشر المذهب السني الاسلامي وزالت دولة الأغالبة في نهاية القرن الثالث الهجري وحل محلهم الفاطميون تلاهم بنو زيري وأشهر من له فضل على سوسة منهم هو «المعز ابن باديس». ودام حكم بني زيري من عام ٣٦٢هـ. إلى ٥٥٥هـ. وتلاهم الموحدون ثم الحفصيون وفي عام ١٥٣٥م فتح الاسبان سوسة ولكن أهلها قاوموهم بشدة ووضعوا انفسهم تحت حماية درغوث باشا الذي اشتهر بأنه بحار تركي شديد المراس وله اسطول اقض مضاجع اوروبا به. ووقعت سوسة تحت حكم الاتراك الذي استمر من عام ١٥٧٤ حتى عام ١٨٨١م وسادته الفتن والثورات والدسائس وادى ذلك إلى زوال حكمهم واستيلاء فرنسا على تونس كلها واستمر الاستعمار الفرنسي لتونس حتى قام الشعب بثورته وحصل على استقلاله عام ١٩٥٥.

تنقسم سوسة إلى قسمين رئيسيين:

١ - الحي القديم ويحيط به السور ويقع في وسطه الرباط المشهور وبه الآثار العربية والرومانية القديمة.

٢ - الحي الحديث يمتد ٥ كلم على شاطىء البحر ويتميز بفنادقه، يوجد فيها ١٥ فندقا لكل فندق شاطئه الخاص وحمام سباحة وملاعب وملهى ليلي وحديقة جميلة.

ان سوسة اسم اطلقه العرب على المدينة أما اصله التاريخي فهو غير معروف وان كان البعض ينسبونه إلى وجود أشجار السوس في ذلك الوقت بهذه المنطقة، ولكن المؤرخين ينفون هذا تماما. ويبلغ عدد سكانها ٧٠ ألف نسمة.

وكانت «سوسة» قبل الحرب العالمية الثانية ثاني مدينة في تونس كلها بلا منازع فهي ميناء هام يتم تصدير الفوسفات منه. تم انشاء أول فندق سياحي بالمدينة عام ١٩٦٣ وأطلق عليه اسم (نزل بوجعفر) وهو عالم من علماء السنة مدفون بجوار الفندق.

وتم انشاء مطار في مدينة «المنستير» التي تقع على بعد حوالى ٢٠كلم من سوسة. وبلغ عدد السواح في السنة حوالي ٨٠ ألف سائح في مدينة سوسة وحدها.

وفي عام ١٩٦٦ تم انشاء مدرسة السياحة والفنادق في «سوسة» بالتعاون مع خبراء البلاستيك. سويسريين، ويوجد في المدينة:

١ - مصنع للبلاستيك ٢ - مصنع للآلات الميكانيكية ومصنع لتجميع السيارات عدا مصانع النسيج الآلي، التي تنتشر في القرى المحيطة «بسوسة» وأهمها «قصر هلال».

جرجيس اشكراني الموصل-العراق □

الجامع النوري الكبير ومنارته الحدباء



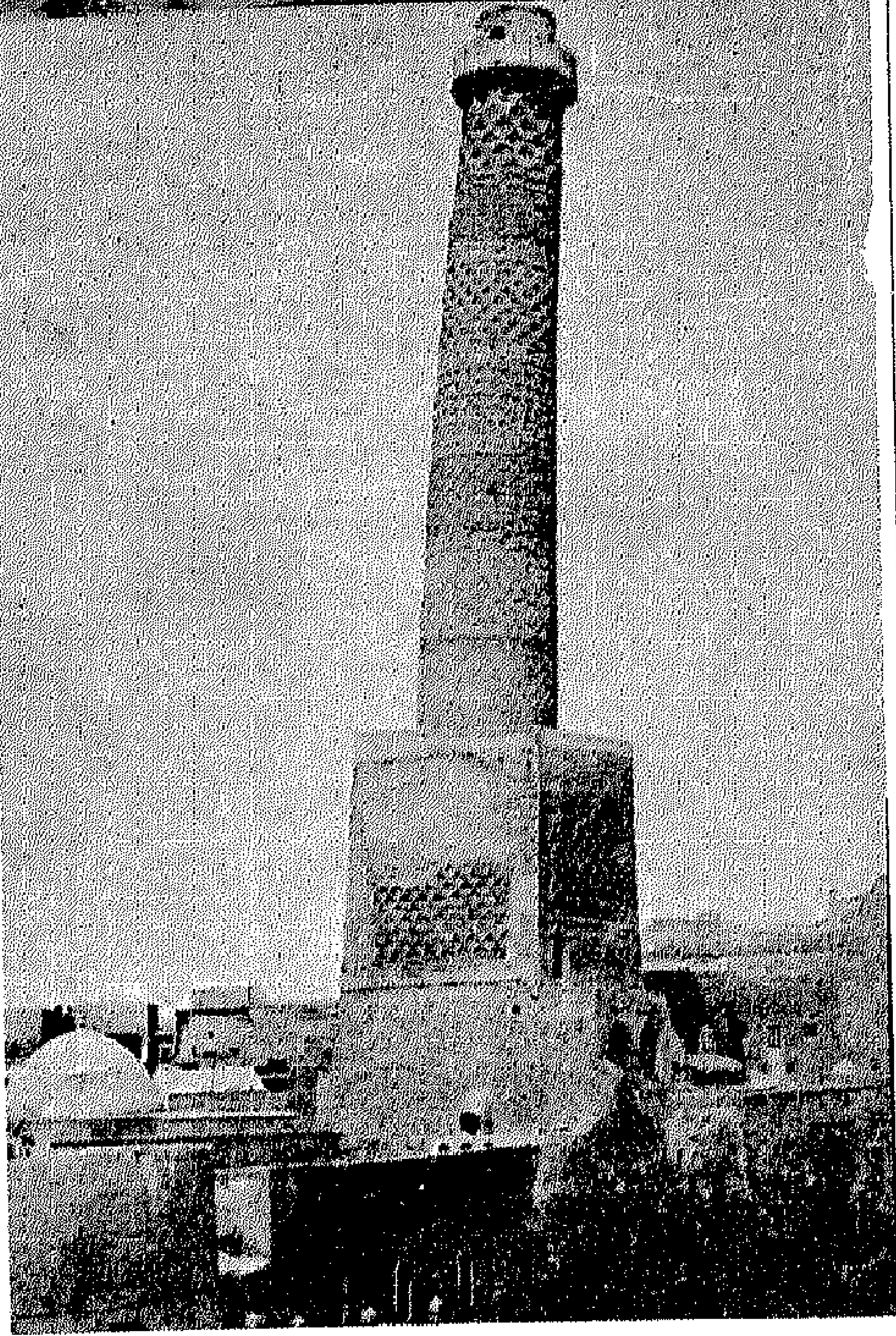
تعتبر مدينة الموصل من أعظم مدن العراق وأشهرها، تمتاز بموقعها على جانبي نهر دجلة. وفصل الخريف فيها يشبه فصل الربيع لذلك سميت بأم الربيعين.

من أشهر المعالم الموجودة فيها الجامع النوري الكبير الذي يمتاز بمنارته الحدباء التي أطلق اسمها على المدينة أيضاً يقع الجامع في وسط المدينة القديمة في المحلة المسماة باسمه. بناه نورالدين آل زنكي في الفترة بين (٥٦٦ - ٥٦٨هـ) وقد أهمل أمر الجامع في الفترات اللاحقة ثم تصدعت معظم أجزائه بفعل الاضطرابات التي عمت المدينة بعد سقوطها بيد

المغول. وقد جرت محاولات لترميمه في السنوات (٨٧١هـ، ١١٥١هـ، ١٢٨٦هـ) وبعدها جددت مديرية الأوقاف العراقية مصلاه وأعادت إليه أعمدته الأصلية إلا أن هذا التجديد ذهب بالقبة التي ترجع إلى عهد البناء الأول.

وعلى الرغم من مرور الجامع بأدوار معمارية متعددة ذهبت معظم معالمه الأصلية، إلا أنه لا زال يحتفظ بعناصر فنية ومعمارية ذات قيمة أثرية كبيرة بعضها يرجع إلى عهد البناء الأول والبعض الآخر يرجع إلى فترات سابقة وأخرى لاحقة فيها أعمدة مزدوجة ومضلعة ذات تيجان مشغولة وعدة محاريب مجوفة مزخرفة بزخارف التوريق العربية وبالكتابات المنفذة على مهاد زخرفي.

ولعل أبرز ما يميز الجامع من بين عناصر معمارية هي منارته المزخرفة بأفاريز من الزخارف الأجرية، علاوة على ارتفاعها الشاهق الذي يبلغ ٥٠ متراً وضخامتها وميلانها نحو الشرق واحتوائها على سلمين. هذا ويزين المتحف العراقي ببغداد تحفة من الزخارف الجبسية التي تمثل جزءاً من الواجهة المزخرفة بالكتابات والزخارف الجميلة العائد لهذه المنارة وفي السنوات الأخيرة خشي على المنارة من الانهيار حيث ظهر في بنائها بعض التصدعات مما حدى



المنارة الحدباء

بمديرية الآثار العراقية بتكليف إحدى الشركات العالمية بالتعاون مع الأيدي الفنية العراقية للقيام بترميمها على طريقة ترميم برج بيزا في إيطاليا والعمل قائم الآن بذلك على قدم وساق.

سمية محمود الحاج قاسم
الموصل-العراق الجمهورية العراقية

خورفكان
(عروسة الأمارات)



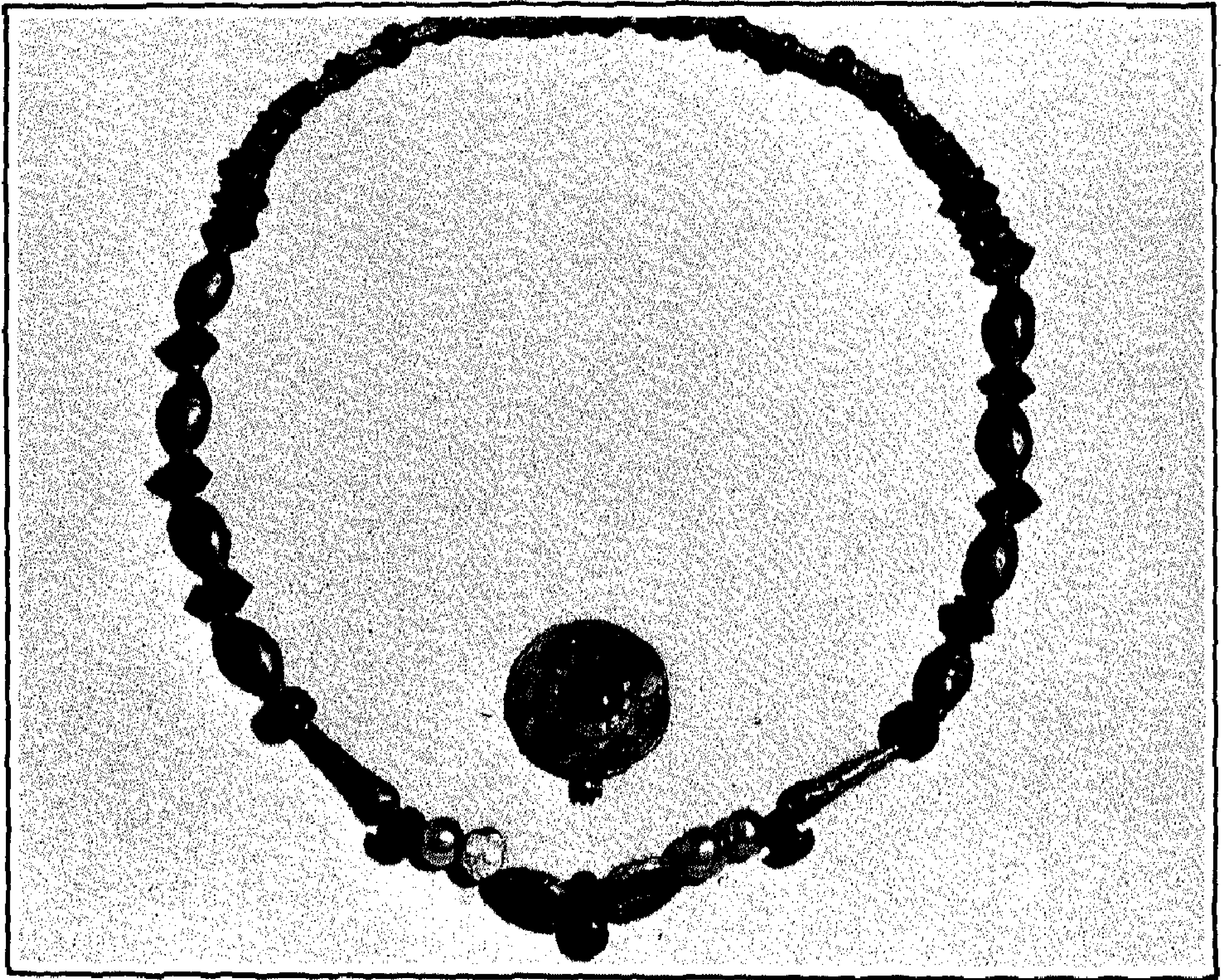
تقع خورفكان في المنطقة الشرقية من دولة الامارات العربية المتحدة على ساحل خليج عُمان، وتطل هذه المدينة على خور طبيعي محاط بالجبال وتعتبر من أجمل المصايف في العالم لنعومة ساحلها وصفاء مياهها... وقبل حوالى ٦٠٠ عام زار الرحالة ابن بطوطة منطقة خورفكان، فامتدح عذوبة مائها وجمال طبيعتها وقال عنها انها «فكان بينهما خور»... ومن مميزات خورفكان أنه على طول ساحلها تقع جبال رؤوسها داخل البحر، كانت مغاصات غنية باللؤلؤ... إلى جانب اشتهارها بوجود (الصفد) الذي يبلغ حجم بعضه أكثر من ١٠ سم مكعب على اشكال عديدة غاية في الروعة والجمال ولا يزال يُمارس عملية استخراج اللؤلؤ حيث أنه موجود بدءاً من ١٢ باع إلى أدنى عمق في هذا البحر وهو باع واحد، ومن اشهر هذه الرؤوس، رأس القلقي ورأس الرقة ورأس السعيدة ورأس العبسي ورأس الخرست ورأس الصفاح ورأس عقبة الصغيرة ورأس مسحاب المدفع ورأس الحريمة، ورأس البري وتمتاز خورفكان بوجود الابراج القديمة فيها واشهرها برج المنصوري الذي يقع على جبل المحيني ويرجع عهده إلى أكثر من ٣٠٠ سنة، وبرج الرابي ويرجع عمره إلى أكثر من قرن كامل.

عبدالكريم عبدان بغداد - العراق

في العدد المقبل



الجنوب اللبناني مأساة تتحدّى



علم الآثار



368000
First Class
MEA
MEA

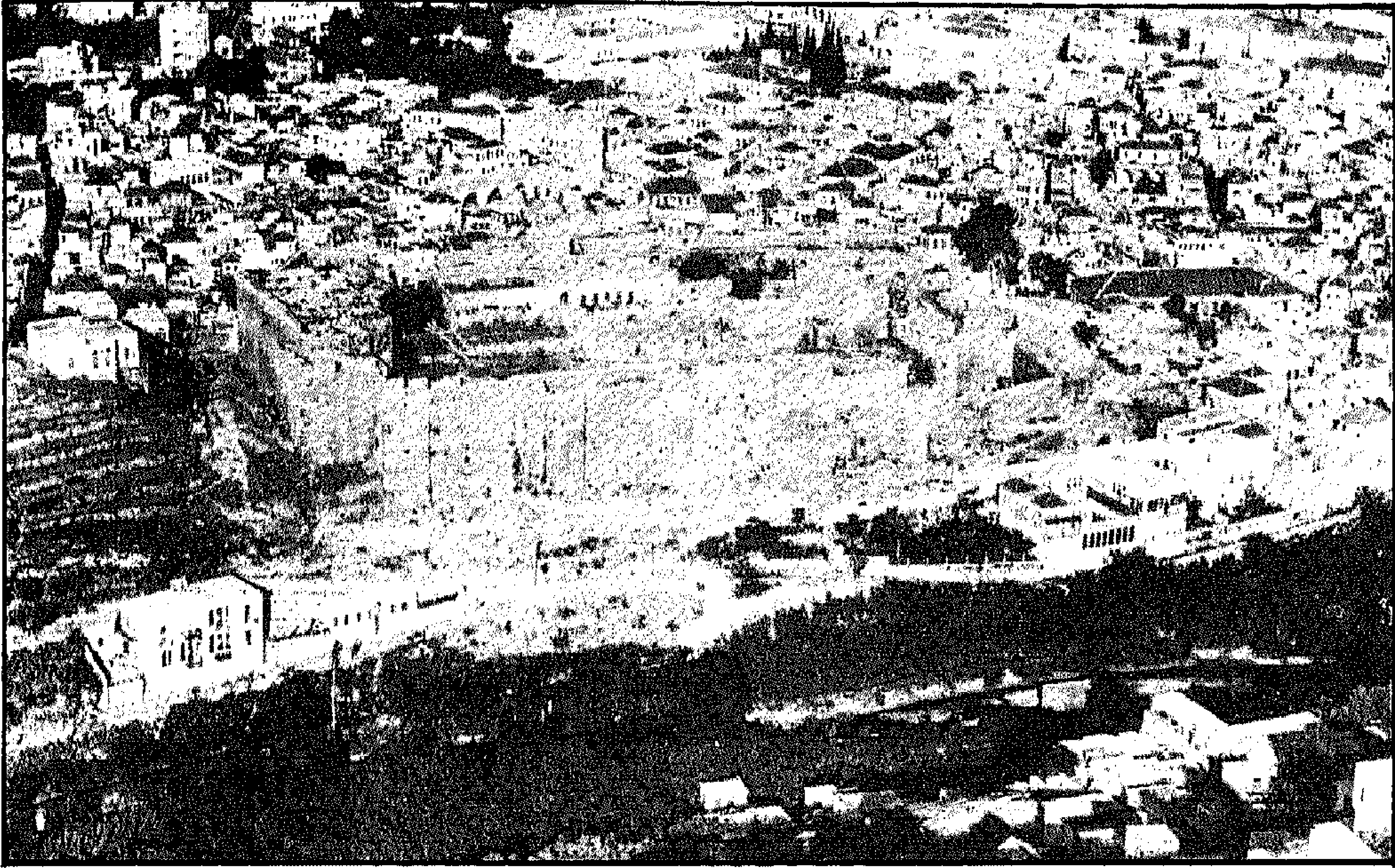
مجلة شهرية مصورة تبحث في التاريخ العربي

السنة الثالثة، العدد الثلاثون - نيسان (ابريل) ١٩٨١ الموافق جماد الثاني ١٤٠١هـ.

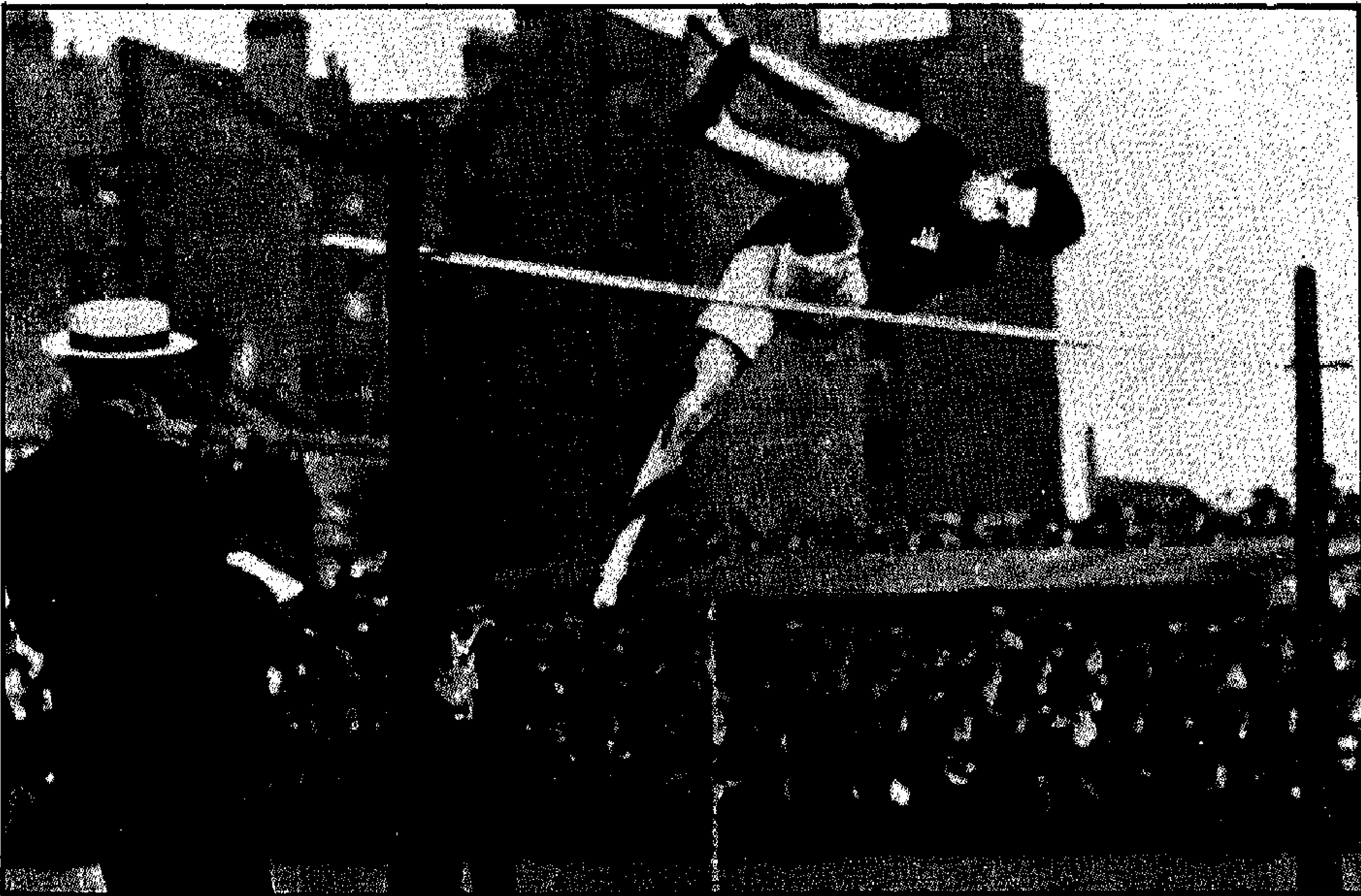
جنوب لبنان ..

صقلية الإسلامية

الماضي الذي سيأتي في عددنا المقبل



أسرة بني عمار في طرابلس (٢)



الألعاب الرياضية في الشعر والتاريخ

تاريخ العرب والعالم

مجلة شهرية مصورة تبحث في التاريخ العربي

السنة الثالثة ، العدد الثلاثون ـ نيسان (ابريل) ١٩٨١ الموافق جماد الثاني ١٤٠١ هـ .

تصدر عن دار النشر العربية في منتصف كل شهر

رئيس التحرير : فاروق البربير

المستشار : د . أنيس صايغ — المدير المسؤول : محمد مشموشي

الإنتاج : مطبعة المتوسط ش.م.ل. ● التوزيع : الشركة اللبنانية لتوزيع الصحف والمطبوعات

ثمن النسخة

لبنان :	٥ ل.ل.	سوريا :	٦ ل.س
العراق :	٨٠٠ فلس	تونس :	١ دينار
السعودية :	٨ ريال	الكويت :	٧٠٠ فلس
الاردن :	٥٠٠ فلس	أبوظبي :	٨ درهم
دبي :	٨ درهم	قطر :	٨ ريال
البحرين :	٨٠٠ فلس	عدن :	٨ شلنات
مسقط :	٨٠٠ بيزة	المغرب :	٦ درهم
فرنسا :	١٠ فرنكات	بريطانيا :	جنيه استرليني
		اميركا :	٣ دولارات

الإشتراكات

(بما فيها أجور البريد الجوي)

في لبنان : للأفراد	٧٥ ل.ل.
للمؤسسات والدوائر الحكومية	٢٠٠ ل.ل.
في الوطن العربي : للأفراد	١٠٠ ل.ل.
للمؤسسات والدوائر الحكومية	٢٥٠ ل.ل.
خارج الوطن العربي : للأفراد	١٥٠ ل.ل.
للمؤسسات والدوائر الحكومية	٣٠٠ ل.ل.

تدفع قيمة الإشتراك مقدماً نقداً أو حوالة مصرفية أو بريدية .

ص.ب : ٥٩٠٥ ـ بيروت ، لبنان ● بناية أبو هليل ـ شقة ١١ ● شارع السادات ـ تلفون : ٨٠٠٧٨٣

HISTORY OF THE ARABS AND THE WORLD

EDITED BY FARUK BARBIR
PERIODICAL ILLUSTRATED
MAGAZINE PUBLISHED FROM
SADATE ST. ABOU HLEIL
BLG. P.O.B. 5905
TEL. 800783
BEIRUT, LEBANON

Vol. 3, No. 30 April 1981
ANNUAL SUBSCRIPTION
$ 75 (INCLUDING $ 25 FOR
ADDITIONAL AIR MAIL CHARGES)
MAIL ALL COMMUNICATIONS,
INCLUDING SUBSCRIPTIONS TO:
«HISTORY OF THE ARABS AND THE WORLD»

في هذا العدد



صور: جنوب لبنان
(راجع المقالة ص٤٢)

■ المقالات الواردة توزع حسب التبويب الفني للمجلة. ولا علاقة لذلك بمكانة الكاتب. مع حفظ المكانة الإجتماعية للكتاب. تراعى في الألقاب الصفات العلمية فقط ■



قلعة سانت جيل طرابلس
(راجع المقالة ص٣).

الموضوع — الصفحة

■ من تاريخ الاسرات الحاكمة في لبنان:
اسرة بني عمار في طرابلس .... د. عمر عبدالسلام تدمري ٣
■ علم الآثار ومدنية الخليج القديمة .... د. نقولا زيادة ١١
■ صقلية الاسلامية على مفترق من التاريخ .... د. ابراهيم بيضون ١٦
■ ترسانة الخرطوم البحرية (١٨٢١ - ١٨٩٦) .... خديجة زروق ٢٢
■ الملاحة بين الكواكب السيارة .... نقولا شاهين ٣٢
■ أهمية التوثيق .... ليلى غندور قدورة ٣٩
■ جنوب لبنان: مأساة تتحدى .... اعداد: قسم التوثيق والأبحاث ٤٢
■ معركة غيرت وجه الحرب العالمية الثانية.
ستالنغراد (الحلقة الثانية) .... ترجمة: تاريخ العرب والعالم ٦٢
■ الدينكاس: عمالقة النيل الأبيض .... إعداد: قسم التوثيق والأبحاث ٧٠
■ الساعة الميكانيكية:
اخترعها العرب وطورها العثمانيون .... ترجمة: د. رياض العالي ٧٦
■ عندما قفز التاريخ!! .... فيكتور سحاب ٨١
■ مراجعة كتاب: رحلة في الظلام بحثاً عن النور
للدكتور عارف العارف .... تقديم د. زكي النقاش ٨٣
الجذور التاريخية للمسألة
الطائفية اللبنانية (١٦٩٧-١٨٦١) .... د.مسعود ضاهر ٨٦
■ هواية جمع الطوابع .... ميشال إسطفان ٨٨
■ القراء يكتبون: موقف السلطان عبدالحميد من الصهيونية ..... عبدالله السماري ٩٣
■ سامراء .... امزابي الحسين ٩٥

● المقالات والدراسات تُرسَل باسم رئيس التحرير على عنوان المجلة: ص. ب ٥٩٠٥ في بيروت.

● المقالات والدراسات التي تنشر لا تعبِّر بالضرورة عن آراء المجلة.

● المواد الواردة إلى المجلة لا تُردّ إذا لم تُنشَر.

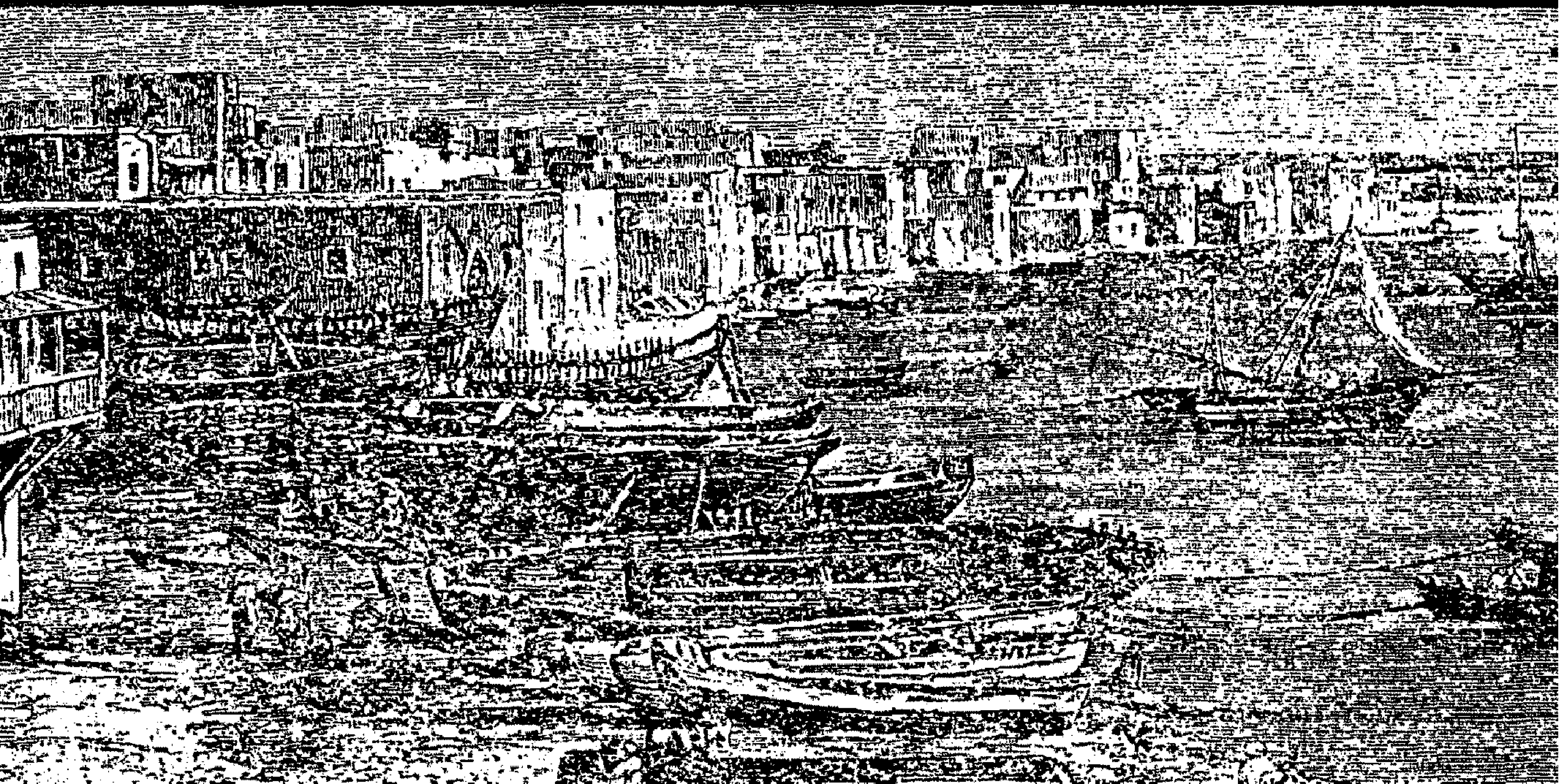
من تاريخ الأسرات الحاكمة في لبنان

أسرة بني عمار في طرابلس

وعلاقاتها بالسلاجقة والفاطميين والصليبيين

في القرن ٥ هـ = ١١م.

د. عمر عبد السلام تدمري



في عددين سابقين من المجلة(*) تناولنا بالبحث تاريخ «أسرة بني أبي عقيل في مدينة صور» و«أسرة عيسى بن الشيخ في صيدا وجنوب لبنان»، وفي هذا البحث نتعرف على أسرة ثالثة من الأسرات الحاكمة في تاريخ لبنان الوسيط، هي أسرة بني عمار التي أسست إمارة على ساحل الشام وجعلت طرابلس عاصمتها في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري= الحادي عشر الميلادي. وتعتبر من أهم الأسر الحاكمة في تاريخ لبنان بحضورها السياسي والثقافي، على طول الشريط الساحلي الممتد من جبلة شمالاً إلى جونية جنوباً.

(*) العدد ١٦ ص٩ والعدد ٢٣ ص٢٣.

د. عمر عبدالسلام تدمري أستاذ في قسم التاريخ كلية الآداب - فروع الشمال - الجامعة اللبنانية.

التعريف بأسرة بني عمار:



إن القول الفصل في تحقيق الأرومة التي انحدرت منها أسرة بني عمار لم يجزم بها حتى الآن، فقد ظهرت هذه الأسرة على مسرح الأحداث في طرابلس خلال القرن الخامس الهجري، إلا أن هناك أسرة أخرى تحمل الاسم نفسه، وكانت في بلاد المغرب بشمال افريقية، ونطالع أخبارها منذ بداية النصف الثاني من القرن الرابع الهجري. وتخلط المصادر التاريخية المعاصرة بين الأسرتين بشكل يعتقد معه الباحث أنهما أسرة واحدة، وذلك للتشابه الكبير في أسماء أفراد البيتين، إلا أن إرجاع أصل أحد هذين البيتين إلى أرومة عربية من بني طيء، والقول بأن شيخ البيت الآخر هو كبير قبيلة كتامة المغربية وشيخها وسيدها، يدعو إلى التأمل فعلاً فيما اذا كان بنو عمار الأفارقة يمتون بصلة القرابة لبني عمار الطرابلسيين. فسلسلة نسب بني عمار تنتهي عند «المقريزي» بأبي يوسف الطائي[1] والطائيون بطن من الدواسر، احدى قبائل بادية نجد، ويذكر «الألوسي» انهم من أشهر قبائل الزيدية في بلاد قعطبة بجنوبي شبه الجزيرة العربية، وأنهم فرقة من بني سعيد، إحدى عشائر سورية الشمالية[2].

وقد اعتنق بنو عمار في بلاد المغرب والشام المذهب الشيعي، وعندما قامت الدولة الفاطمية تولى شيوخ قبيلة كتامة مراكز قيادية في مصر والشام، فكان منهم «أمين الدولة أبو محمد الحسن بن عمار بن أبي الحسين»[3] الذي نطالع اسمه للمرة الأولى في حوادث سنة ٣٥١هـ. أثناء غزو المسلمين لجزيرة صقلية، حيث كان يقود جيش المعز لدين الله الفاطمي هناك، وظهر بشكل بارز على مسرح الأحداث في عهد «العزيز بالله» فكان من أجل كتّابه، ويلقب بأمين الدولة، وهو أول من لقب في دولة المغاربة[4] ولما أفضت الخلافة إلى «الحاكم بأمر الله» ردّ إليه الأمور والتدبير في سنة ٣٨٦هـ. وقال له: أنت أميني على دولتي، ولقبه وكناه، وكان الناس على اختلاف طبقاتهم يترجلون له. وهو الذي فتح الطريق لأبناء قبيلته لينتقلوا إلى الشام، حيث أرسل القائد «أبا تميم سليمان ابن جعفر بن فلاح الكتامي» إلى دمشق، فقام أبو تميم هذا بوضع أخيه «علي بن جعفر ابن فلاح» والياً على طرابلس سنة ٣٨٦هـ[5].

غير أن المصادر التاريخية التي بين أيدينا لا تتحدث عن تاريخ بني عمار في طرابلس الشام ولا عن كيفية مجيئهم إليها لأول مرة، إذ تنقطع أخبار الأسرة المغربية بعد قتل شيخها «الحسن بن عمار» سنة ٣٩٠هـ. ولا نقف على أخبار أسرة بني عمار الطرابلسية الا في الربع الأول من القرن الخامس الهجري، حيث نطالع اسم أحد أفراد هذه الأسرة: «الأمير الوزير رئيس الرؤساء خطير المُلْك أبي الحسن عمار ابن محمد»، وكان يتولى ديوان الانشاء في مصر، وقتل في سنة ٤١٢هـ[6].

ثم نطالع ذكراً لاثنين من أسرة بني عمار في طرابلس، هما: «أحمد بن محمد بن عمار» المعروف بأبي الكتائب، و«عبدالله بن محمد ابن عمار» المعروف بالقاضي الجليل أبي طالب. وقد صنف لهما «أبو الفتح الكراجكي» المتوفي بصور سنة ٤٤٩هـ. بعض الكتب في الفقه[7]. وجدير بالذكر أن الباحث المدقق يواجه عملاً مضنياً عند تتبع أسماء أفراد أسرة بني عمار حسب ترتيبهم لاضطراب تلك الأسماء واختلافها الواضح في المصادر، بحيث أن أية دراسة حول تسلسل أسمائهم ستظل محاطة بالغموض أو الشك، كما اختلف المؤرخون المحدثون في تحديد بداية حكم بني عمار في طرابلس! ونحن نرجع تاريخ ولايتهم إلى سنة ٤٢٤هـ. حيث كان «أمين الدولة أبو طالب عبدالله بن محمد بن عمار» يحكم المدينة من قبل الدولة الفاطمية على سبيل الولاية، فجمع بين منصبي: الوالي والقاضي، وفي ذلك يقول المقريزي: «إن الدولة قد حولت الثغر في أيدي بني عمار على سبيل الولاية، فلما جاءت الشدائد تغلبوا عليه، ثم جاءت الدولة الجيوشية فخافوا مما قدموه، فلم يرموا أيديهم في يده ولا وثقوا بما بذل لهم من الصفح عن ولائهم»[8].

وفي الواقع، ان استقلال بني عمار في حكم طرابلس عن الدولة الفاطمية لم يكن المحاولة

الأولى في تاريخ المدينة، بل ان محاولتين سبقتا إلى ذلك، ولكن لم يكتب لهما النجاح، إذ كانت الأولى على يد «مختار الدولة بن نزال» الذي كان يطمع في الاستقلال بطرابلس مدعوماً بالامبراطورية البيزنطية، ولقيت محاولته فشلاً ذريعاً حول سنة ٤٢٤هـ. وكانت المحاولة الثانية بتدبير أفراد أسرة عرفوا بأبناء أبي الفتح، وهي من الأسرات ذات التاريخ الغامض في طرابلس، وقد لعب «أمين الدولة بن عمار» دوراً أساسياً في إفشال حركتهم، وأبقى على ولاء المدينة للحكم الفاطمي إلى أن استقل هو بحكمها.

أبناء أبي الفتح:

وينفرد «سبط ابن الجوزي» من بين جميع المؤرخين المعاصرين بالحديث عن حركة أبناء أبي الفتح الانفصالية، فيقول انهم تغلبوا على طرابلس وخرجوا بها عن طاعة المستنصر بالله الفاطمي، في وقت غير محدد، فجاءها الأمير «حصن الدولة حيدرة بن منزو بن النعمان الكتامي»، لاعادتها إلى السيطرة الفاطمية في سنة ٤٥٧هـ. وعندما وصل إليها خرج إليه قاضيها أمين الدولة بن عمار – وكان في خدمة سلطان مصر – فأظهر الولاء له، وأطلعه على حقيقة الوضع داخل المدينة، واتفق معه على التخلص من بني أبي الفتح بطريقة لا تتعرض فيها طرابلس لخطر الحرب والدمار، وكان ابن عمار قد أشار على أبناء أبي الفتح أن يبعثوا معه أحدهم لمقابلة حصن الدولة، ويبدو أنهم استجابوا لذلك، وحين وصل أحد أبناء ابي الفتح إلى معسكر حصن الدولة أولاه الثناء الجميل على مبادرته بالخروج إليه، وكان يهدف خداعه بذلك وخداع إخوته ليخرجوا إليه، فيتاح له دخول طرابلس بدون قتال. غير ان ابن أبي الفتح لم يقع في الفخ، وظهر له أن القاضي ابن عمار خدعه بالخروج معه، وكتب إلى اخوته بذلك. وعمل حصن الدولة على استمالته وتطمينه بأن نادى به أميراً على طرابلس، وبعث إلى أخوته بما تطيب به نفوسهم، وسألهم الخروج اليه. وكان كتاب أخيهم قد وصل اليهم ووقفوا منه على حقيقة الأمر، فامتنعوا عن الخروج، وأخذوا أهبتهم للحرب.



كتابة كوفية من عصر بني عمار في طرابلس

س١: يا أيها النبي انا أر
س٢: سلناك شاهداً ومبشراً
س٣: ونذيراً وداعياً إلى الله
س٤: باذنه وسراجاً منيراً
س٥: وبشر المؤمنين
س٦: بان لهم من الله
س٧: فضلاً كبيراً

وهنا نرى القاضي ابن عمار يقوم بالدور الهام الذي سهل لحصن الدولة دخول طرابلس، فقد استطاع أن يتفق مع جماعة من أحداث البلد على الصلح، وان يستأمن ثمانية وعشرين رجلاً من قادة المقاتلة إلى جانبه. ولا يخفى على المهتمين بدراسة تاريخ بلاد الشام في العصر الوسيط الأهمية البالغة التي كانت لجماعات «الأحداث» ودورها الخطير في توجيه الأمور السياسية والعسكرية والاجتماعية في المدن الرئيسية، إذ كانت بمثابة الحرس الشعبي المسلح أو الميليشيات المسلحة المسؤولة على الأمن الداخلي في المدينة، وهذه ظاهرة انتشرت وبشكل واضح في دمشق وحلب وصور وطرابلس وغيرها من بلاد الشام في العصر الوسيط. ولذا فان انضمام «الأحداث» إلى جانب ابن عمار أضعف من قوة بني أبي الفتح، ووقع الخُلْفُ بين أهل البلد، وبادرت مجموعة إلى فتح الأبواب، ونادى الأهالي بشعار المستنصر بالله. وهكذا دخل حصن الدولة طرابلس، وقام على الفور باعتقال بني أبي الفتح، وقيدهم وبعث بهم إلى صور بعد أن عاملهم بالمكروه. ثم طلب

المال الكثير من أهل البلد، وفرض عليهم مائة ألف دينار عقاباً لهم على طاعتهم لبني أبي الفتح وخروجهم عن طاعة خليفة مصر. ومنع الذين استأمنوا إليه من أهل البلد ومقاتلتها من الاقامة بالمدينة، وأمرهم بالانسياح في الشام، ولما كانوا يطمعون في أن ينالوا أجراً لقاء موقفهم ومساعدتهم له على دخول المدينة، فقد طلبوا منه العطايا والخلع، فلم يبد حصن الدولة اعتراضاً على مطالبهم أول الأمر ووعدهم بجميع ما طلبوه، فركنوا إلى ذلك، وعندما حل الليل قبض عليهم وصلبهم مع الذين كانوا يعاونون بني أبي الفتح[٩]، وبذا استقر أمر طرابلس لفترة قصيرة من الولاء للفاطميين، ثم حكمها أمين الدولة عقيب سنة ٤٥٧هـ./١٠٦٦م. بشيء من الاستقلال الذاتي، ونستدل على ذلك من توسطه بين الخليفة المستنصر وبين محمود ابن نصر بن مرداس صاحب حلب في سنة ٤٥٩هـ. ونجاح وساطته بينهما[١٠]. ولو لم يكن أمين الدولة يتمتع بشخصية مرموقة، وباستقلال ذاتي في الحكم، لما أتيح له أن يقوم بدور الوسيط بين الخصمين.

وكان محمود بن نصر قد قصد طرابلس في سنة ٤٥٦هـ. وبصحبته ملك الغز «هرون ابن خان التركماني» ولم يفصح «ابن القلانسي» عن سبب توجه محمود وابن خان إليها، ولكن من الواضح أنهما مكثا هناك بعض الوقت قبل العودة إلى محاصرة حلب. فهل دخلا طرابلس وقاما بتجنيد جيش من الغز، حيث كان لابن خان والغز دور كبير في تمكين محمود من دخول حلب؟. إنه إذا صح ذلك ففيه اشارة ودليل إلى وجود تركمان آنذاك في منطقة طرابلس وشمالي لبنان. وهذا يعني أن بعض الغز كانوا قد دخلوا ساحل الشام قبل دخولهم حلب. ويرى بعضهم ان دخول محمود المرداسي مع ابن خان إلى طرابلس كان له علاقة بتسوية الأمور مع الخلافة الفاطمية عن طريق «ابن عمار» قاضي طرابلس، وبعقد قرض أو أخذ مبلغ من المال يؤمن طريق التجارة القادمة إلى ميناء طرابلس من شمالي الشام، والتي هدد الأتراك الغز الذين توغلوا في جنوبي حلب أمنها وطرقاتها





دينار فاطمي من الذهب ضرب في طرابلس سنة ٤٦٣هـ. ١٠٧١م.

وثرواتها، فجاء ابن خان يتعهد بحمايتها، وان هذا المسعى قد نجح بسرعة[١١]. ونحن نقول انه ليس هناك ما يقطع بالسبب المباشر والحقيقي لدخولهما طرابلس، ولكن يبدو أنهما ساعدا على خروجها من يد الحكم الفاطمي ووضعا عليها حكاماً من قبلهما أعلنوا عصيانهم على الدولة الفاطمية، ونرجح أنهم هم أبناء أبي الفتح الذين سبق الحديث عنهم.

ورغم أن أمين الدولة كان له الفضل في التوسط بين الخليفة الفاطمي ومحمود المرداسي، فان هذا الأخير قام بنفسه وحاصر طرابلس ٤٦٠هـ./١٠٦٨م. ولما لم يتحقق له دخول طرابلس فقد اكتفى بأخذ الأموال منها وعاد إلى حلب[١٢].





دينار فاطمي من الذهب ضرب في طرابلس سنة ٤٧٠هـ. ١٠٧٧م.

أمين الدولة مؤسس إمارة بني عمار:

شهدت مدن الشام وفلسطين أحداثاً متلاحقة حول منتصف القرن الخامس الهجري كان من جرائها إضعاف النفوذ الفاطمي وانحساره عن معظم المناطق، فقد حدث في سنة ٤٦٢هـ./١٠٧٠م أن استولى القفي مختص ابن أبي الجن على دمشق، وطرد منها أمير الجيوش بدراً الجمالي. وكان القاضي محمد بن أبي عقيل قد استولى على صور سنة ٤٥٥هـ. واستولى القاضي أمين الدولة بن عمار على طرابلس واستقل بها بعيد سنة ٤٥٧هـ. وخرج ناصر الدولة الحسن بن حمدان في جماعة من قواد الأتراك وأمراء مصر على المستنصر بالله وملك الرملة والساحل في سنة ٤٦٢هـ. ولم يبق لأمير الجيوش في الشام وفلسطين سوى عكا وصيدا. بل ان صيدا نفسها خضعت لفترة من الوقت لنفوذ قاضي صور عندما قام بالاستقلال عن الفاطميين، وقد استتاب على قضائها «ابن أبي العيش الجمحي الأطرابلسي» المتوفى سنة ٤٦٠هـ.(١٣)

وهكذا انحسر النفوذ الفاطمي عن معظم بلاد الشام، وأسقطت الخطبة للمستنصر من منابر دمشق وصور وطرابلس والرملة وغيرها. وبذلك كانت مدن الشام تعلن استقلالها عن الدولة الفاطمية. واستبد أمين الدولة بأمر طرابلس، وخلع طاعة أمير الجيوش، وتغلب على مدينة جبيل وضمها إلى نفوذه، ووضع بذلك النواة الأولى لقيام إمارة بني عمار المستقلة. وأعقب أمين الدولة حركته هذه بخطوة أخرى هي تقربه من السلاجقة الأتراك ليدعم موقفه في طرابلس، ولذا نرى السلطان السلجوقي «ألب أرسلان» يسيّر، وهو عند حلب في سنة ٤٦٣هـ.، بعض عساكره مع أحد كتابه «ابن جابر بن سقلاب الموصلي» إلى طرابلس لتقرير أمرها. وقد تخلف عن «ألب أرسلان» بعد رحيله عن حلب جماعة كبيرة من التركمان الذين عرفوا بـ «الناوكية» فنزلوا الشام، وأقام قسم منهم عند طرابلس(١٤). ولربما كان ذلك نتيجة اتفاق تم بين أمين الدولة والسلاجقة. وعندما تعرض محمود بن نصر للخطر البيزنطي أرسل يستنجد بهم، فهبوا لنجدته بقيادة مقدمهم «قرلو»، واستطاع بمساعدتهم صد البيزنطيين عن حلب.

وفي هذه الأثناء لجأ إلى طرابلس الأمير سديد الملك علي بن المقلد بن منقذ هارباً من محمود بن نصر، وأقام عند صاحبها أمين الدولة ابن عمار، فعرض محمود على أمين الدولة ثلاثة آلاف درهم ورقية من أجل القبض على ابن منقذ، فلم يظفر به(١٥).

ووسط هذه الأنواء الشديدة التي كانت تعصف ببلاد الشام، كان أمين الدولة يضع الخطوط العريضة لقيام إمارة طرابلس المستقلة بسياستها الحيادية بين الدولة الفاطمية والدولة السلجوقية. واستطاع أن يحافظ على حكم طرابلس رغم انفصاله عن الفاطميين وتعرضه لأطماع صاحب حلب. ومع ذلك لم يمنع إصدار

إمارة بني عمار
في أقصى اتساعها
خلال النصف الثاني
من القرن الخامس هـ.
الحادي عشر م.

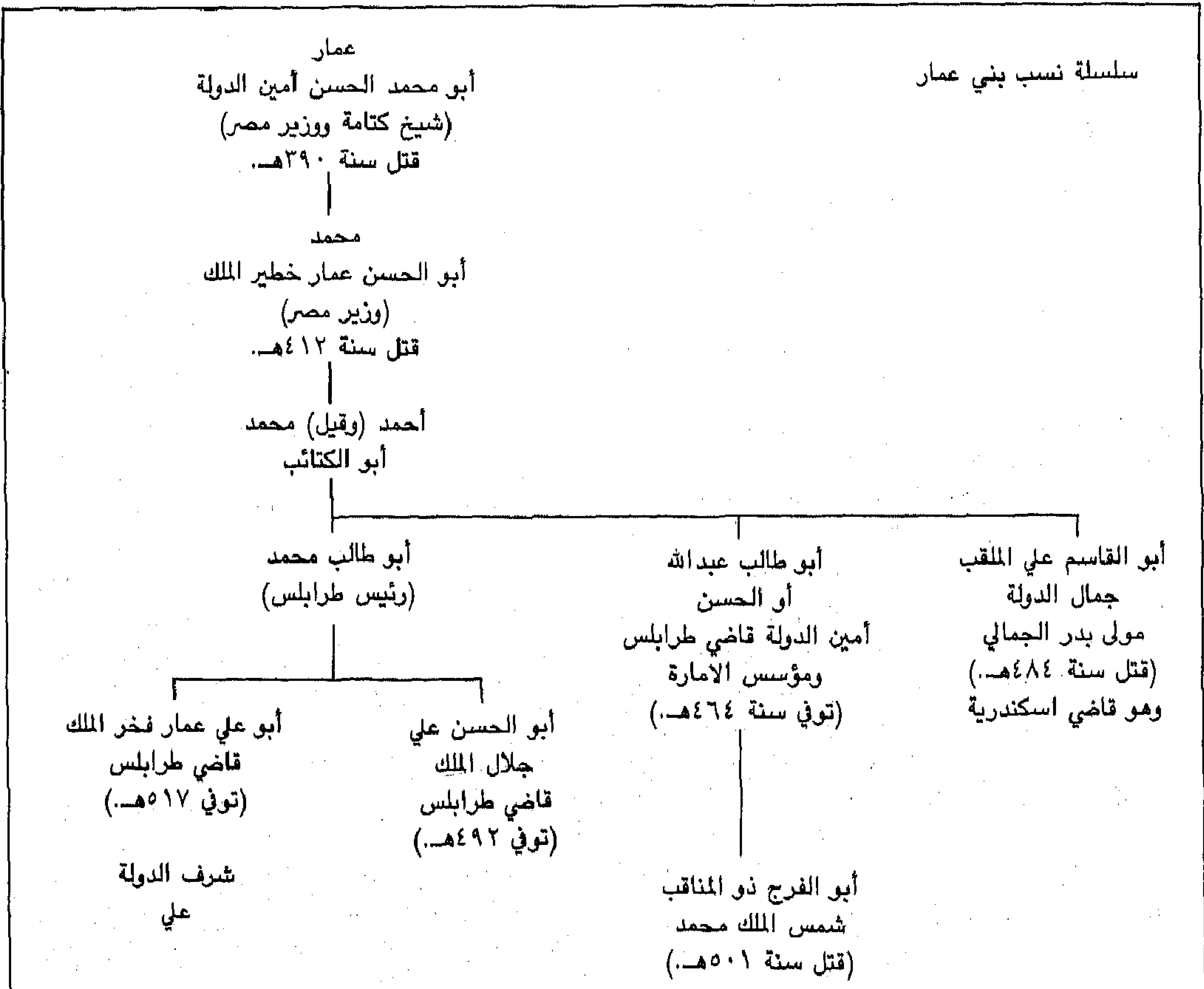
النقود التي كانت تضرب بطرابلس، وهي تحمل اسم الخليفة الفاطمي المستنصر بالله، فقد وصلنا دينار ذهبي ضرب في عهده بطرابلس سنة ٤٦١هـ. وآخر في سنة ٤٦٣هـ. كما استطاع أمين الدولة أن يحمي طرابلس من الغز والناوكية التركمان، حتى توفي في شهر رجب سنة ٤٦٤هـ.

أمين الدولة، القاضي الفقيه:

كان أمين الدولة رجلاً عاقلاً فقيهاً، سديد الرأي، ومن فقهاء الشيعة. كما كان كاتباً مجيداً، ألف كثيراً من الكتب النفيسة(١٦). ولم يصلنا من هذه المؤلفات شيء، سوى اسم كتاب واحد بعنوان: «ترويح الأرواح ومفتاح السرور

والأفراح» المنعوت «جراب الدولة». واسم هذا الكتاب ورد عند «ابن الفرات»، ونسبته إلى أمين الدولة تستدعي التأمل، فقد ورد اسم هذا الكتاب منسوباً إلى «أحمد بن محمد بن علوية السجزي» ويكنى أبا العباس، ويعرف بجراب الدولة، من أهل سجستان وكان طنبورياً ومن الظرفاء المتطايبين في أيام المقتدر بالله العباسي (٢٩٥ - ٣٢٠هـ) وأدرك دولة بني بويه، ويلقب بالريح، سمى نفسه جراب الدولة لأنهم كانوا يفتخرون بالتسمية في «الدولة». قال «ابن النديم»: له من الكتب كتاب «النوادر والمضاحك في سائر الفنون والنوادر»، وسمى هذا الكتاب «ترويح الأرواح ومفتاح السرور والأفراح» وجعله فنوناً، وهو كتاب كبير(١٧). وقال «ياقوت»: لم يصنف مثله اشتمالاً على فنون الهزل والمضاحك. وجاء في «كشف الظنون» كتاب بعنوان «مفتاح السرور والأفراح» غير منسوب لأحد. وذكر المرحوم الدكتور «سامي الدهان» انه لم يقع على ذكرى الكتاب منسوباً لابن عمار وانه وقع على كتاب بهذا الاسم في «ذيل تاريخ الأدب العربي» لكارل بروكلمان - ١/٥٥٩ - وينسب إلى «جراب الدولة» وهو مخطوط محفوظ في مكتبة باريس الأهلية برقم (٣٥٢٧).

وذكر «ابن خلدون» كتاباً بعنوان «جراب الدولة» نقل منه ما كان يحمل إلى بيت المال ببغداد أيام المأمون من جميع النواحي، وجد بخط «احمد بن محمد بن عبد الحميد»، وهو يعدد غلات السواد، مثل: كور دجلة وحلوان والأهواز وفارس وكرمان ومكران والسند وسجستان وخراسان وجرجان وهمذان وأذربيجان وأرمينية ودمشق والأردن وفلسطين ومصر وافريقية واليمن والحجاز، وغيرها من سكر وزيت وتمر وثياب وعسل، وغيره(١٨). وموضوع هذا الكتاب موضوع جليل ونافع يبحث في اقتصاديات الدولة العباسية، فأين هو من موضوع كتاب «جراب الدولة» في المضاحك



والنوادر الذي نسب إلى ابن عمار قاضي طرابلس الفقيه الجليل؟

إن من الغريب – كما يقول الدكتور مصطفى جواد – أن ينسب «ابن الفرات» كتاب «ترويح الأرواح» في الفكاهة والهزل والباطل إلى قاض وأمير ذي ديانة متينة، ولا شك ان هذه الرواية يعتريها الاضطراب ويشوبها النقص حيث جمعت بين اسم الكتاب ولقب مؤلفه وجعلتهما اسماً لكتاب القاضي ابن عمار، وهذا من أشنع الغلط(١٩).

ونحن نرجح ان اسم كتاب ابن عمار «جراب الدولة» ويبحث في اقتصاديات الدولة الاسلامية وارتفاع الواردات، وهذا يتناسب مع مكانة القاضي الجليل والأمير الفقيه. ومن جهة أخرى، اتخذ أمين الدولة دار علم له جمع فيها ما يزيد على مائة ألف كتاب وقفاً(٢٠). وكان يرسل المراسلات إلى أقطار البلاد ويبذل الأثمان الباهظة، ويجلب الكتب النادرة لهذه المكتبة، ويهتم بالعلم ويحنو على العلماء، ويستميل طلاب العلم إلى عاصمته. حتى توفي سنة ٤٦٤هـ. وأثنى عليه المؤرخون فقال سبط ابن الجوزي: «القاضي أمين الدولة الحاكم على طرابلس والمتولي عليها، كان عظيم الصدقة، كثير المراعاة للعلويين، تفرد بذلك في زمانه ولم يدانه أحد من أقرانه».

واقتفى كل من جلال الملك وفخر الملك آثار أمين الدولة في الحفاظ على استقلال إمارة بني عمار وحيادها بين الفاطميين والسلاجقة، لتتصدى فيما بعد للهجمة الصليبية التي اجتاحت ساحل الشام في العشر الأخير من القرن الخامس الهجري، وتتبوأ مدينة طرابلس المكانة العلمية الأولى في ذلك الوقت بفضل مكتبتها ودار علمها التي كانت أروع مكتبات الدنيا، حسب شهادة «ستيفن رنسيمان»(٢١). ■

هوامش

(١) إتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين-الخلفا – المقريزي – تحقيق د.جمال الدين الشيال – ج٢/٤٧ (الحاشية)، القاهرة ١٩٤٨.

(٢) عشائر الشام – وصفي زكريا – ج٢/٢١٢، نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب – القلقشندي – ص٤٠٥ – تحقيق ابراهيم الأبياري – طبعة مصر.

(٣) وفيات الأعيان – ابن خلكان – ج٢/٢٠١ – تحقيق د.إحسان عباس – طبعة بيروت، الاشارة إلى من نال الوزارة – ابن منجب الصيرفي – تحقيق عبدالله مخلص – ص٢٦ طبعة المعهد العلمي الفرنسي بالقاهرة ١٩٢٤.

(٤) ذيل تجارب الأمم – الروذراوري – نشره آمدروز – ج٣/٢٢٢.

(٥) ذيل تاريخ دمشق – ابن القلانسي – ص٥٦.

(٦) الدرة المضية في أخبار الدولة الفاطمية – ابن أيبك – تحقيق د.صلاح الدين المنجد – ص٣١٥ – القاهرة ١٩٦١.

(٧) الغدير في الكتاب والسنة والأدب – العاملي النجفي – ج١/١٥٥ – بيروت ١٩٦٧.

(٨) إتعاظ الحنفا – ج٣/٧٨ – القاهرة ١٩٧٣.

(٩) مرآة الزمان – سبط ابن الجوزي – ج١٢ق١/١٠٢ و١٠٣ (المخطوط).

(١٠) مرآة الزمان – ج١٢ق١/١٠٩، النجوم الزاهرة ٥/٧٩.

(١١) دخول الترك الغز إلى الشام – د.شاكر مصطفى – ص٢٤٣ (من المؤتمر الدولي لتاريخ بلاد الشام).

(١٢) الكامل في التاريخ – ابن الأثير – ج٩/٢٣٤.

(١٣) تاريخ دمشق – ابن عساكر – (المخطوط) – ج٣٩/١١.

(١٤) مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية – د.سهيل زكار – ص١٥٤.

(١٥) زبدة الحلب – ابن العديم الحلبي – ج٢/٣٥.

(١٦) الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة – ابن شداد – نشره د.سامي الدهان – ص١٠٨ – دمشق ١٩٦٢.

(١٧) الفهرست – ابن النديم – ص١٥٣ – نشره غوستاف جلوجن – بيروت ١٩٧٢.

(١٨) مقدمة ابن خلدون – ج١/١٧٩ و١٨٠ – طبعة دار إحياء التراث العربي ببيروت.

(١٩) مقالة بعنوان «دار العلم في طرابلس» للدكتور مصطفى جواد – نشرت في دائرة المعارف الاسلامية الشيعية ١٢/١٣٢.

(٢٠) تاريخ ابن الفرات – تحقيق د.قسطنطين زريق – ج٨/٧٧.

(٢١) تاريخ الحروب الصليبية – ستيفن رنسيمان – تعريب د.السيد الباز العريني – ج٢/٣٨٠ بيروت.

علم الآثار ومدنيّة الخليج القديمة

د. نقولا زيادة

كان أهل البلاد والرحالون عندما ينتقلون في أنحاء الخليج العربي ويزورون جزره يشاهدون الكثير من التلال الصناعية في تلك الأماكن. وقد عدّت هذه التلال بالآلاف. وكان الرأي السائد هو أن هذه هي «تلال مدافن». وقد قام اثنان من الأجانب، في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، بحفر سطحي لبعض هذه التلال في البحرين فثبت لهما أنها كانت مدافن. ولكن أين كان يسكن القوم الذين دفنوا موتاهم في هذه التلال؟

ليس في الروايات العربيّة ما يشير إلى شيء من ذلك، لأنّ اولئك «السكان» كان قد رأن عليهم صمت لمدة لا تقل عن ألفي سنة. والصمت لا يفسر الأحداث ولا يزوّد التاريخ بقصة. ولكن متى أخرجت الأرض كنوزها يعود الصوت، أو على الأقل الصدى، إلى المكان،

قطع من الجرار الفخارية تعود إلى الحقبة الثانية ٢٠٠٠ ق.م.




رأس ثور نحاسي وجد
في معبد بربر.

وعندها يمكن للتاريخ أن يتكلم. والتاريخ هنا كان لا بدّ أن يعتمد على ما يقوم به الرفش والمعول،وعلى حل رموز الكتابات.

وهذا ما حدث بالضبط. إذ أنه لّما خرجت الآجرات بالالاف من أرض الرافدين وحُلّت رموز الكتابة الاسفينية ظهرت أساطير دينية، مثل قصة غلغامش، ثم ظهرت آجرات عليها فواتير ومراسلات تجارية تذكر إسم «دلمون» و«ما كان» (أوما غان) وتعين المواد التجارية التي كانت تنقل من بعيد - من الجنوب - إلى أرض الرافدين. ففي سنة ١٨٨٠ كتب رولنصون يقول بأنه يجب أن نفهم جيّداً بأنّه في جميع الألواح الأشورية، من أقدم العصور إلى آخر عهد الدولة الأشورية، ثمّة إشارات تشير باستمرار إلى جزيرة تقع إلى جنوب أرض الرافدين وتسمى «نيدوكي» باللغة الأكديّة و«تلقون» أو «تلمون» باللغة الأشورية. وبنوع من الحس الباطني أضاف رولنصون إلى أنّ تلمون هذه قد تكون البحرين. ولما عرفت قصة غلغامش للعالم ظن البعض أن المكان الذي قصده البطل للحصول على العشبة المانحة الخلود هو البحرين أو ما حولها.

وعلى كل فقد عثر المنقبون على نقش يرجع إلى سنة ٢٥٢٠ ق. م. من أيام «أور - نانشي» ملك لاغاش مسجّل فيه أن سفن دلمون حملت إلى الملك خشباً من بلاد نائية. وهذه أقدم وثيقة عُثِرَ عليها إلى الان التي يظهر فيها إسم دلمون.

على أن الذي ظل ناقصاً هو الحفر والتنقيب في الخليج العربي، في شطآنه وجزره، لعل الرفش والمعول يخرجان معلومات جديدة. وهذا ما حدث منذ شتاء ١٩٥٣ وحتى ١٩٦٥. والقسم الأكبر من أعمال الحفر التي تمت إلى الأن قامت بها البعثة الدنمركية الأثرية. لكنّ إدارات الآثار في بعض الدول العربية هناك أخذت تشارك بعض المشاركة في العمل.

والأماكن التي قام فيها التنقيب أو المسح الأثري إلى الآن في الخليج العربي هي، من الشمال إلى الجنوب، جزيرة فيلكة والكويت نفسها، وفي البحرين في قلعة البحرين وقرية بربر، وفي سواحل المملكة العربية السعودية في تاورت وثج والعقير والظهران وأماكن أخرى متعددة، وفي قطر وفي أبوظبي في جزيرة أم النار ومدينة العين وفي دبة في شبه الجزيرة عند المنقلب إلى مسقط وعمان. وقد كان التنقيب والحفر في البحرين - في قلعة البحرين وقرية بربر - أوسع نطاقاً وأعمق. ولذلك فالصورة التي عندنا الآن عن حضارة البحرين ومدينتها أوفى من الصور المجتزأة الأخرى.

وقد اتضح من أعمال الحفر الأثرية في الخليج أمور كثيرة، لعله من الخير أن نضعها هنا ملخصة.

١ - ثبت للباحثين أن قلعة البحرين تمثل حضارة ومدنيّة امتدت من حول سنة ٣٠٠٠ ق. م. إلى نحو ٣٠٠ ق. م. وقد حفرت البعثة الدنمركية خمس مدن كانت تبني الواحدة منها على أنقاض الأخرى وفي مكانها على العموم.

وقد وضع جوفري بيبي جدولاً موقتاً لعصور هذه المدن الخمسة كالآتي:

(أ) المدينة الأولى - مجهولة تاريخ الإنشاء والأصل.

(ب) المدينة الثانية - أنشئت حول ٢٣٠٠ ق. م.

(ج) المدينة الثالثة - أنشئت حول سنة ١٧٥٠ ق. م. واستمرت إلى نحو ١٢٥٠ ق. م.

(د) المدينة الرابعة من حول ١٠٠٠ ق. م. إلى نحو ٥٠٠ ق. م.

(ه) المدينة الخامسة - بين ٥٠٠ ق. م. و ٢٥٠ ق. م.

٢ - إن حضارات مختلفة في درجاتها ومن حيث مصادر التأثير بها نشأت في فيلكة وتاروت (السعودية) وأم النار (أبوظبي) في الوقت نفسه، وأن لم تظهر أعمال الحفر الأولى بعد فيما إذا كانت جميعها قد استمرت إلى نحو ٣٠٠ ق.م.، لكن فيلكة وثج كان في كل منهما مدنيّة في القرن الثالث ق.م.



تمثال صغير وجد قرب مذبح معبد بربر

٣ - إن قيام الحضارة والمدنيّة في المناطق المشار إليها كانت تعاصر، على نحو ما ذكرنا من قبل، المدنيّة المتقدمة في سومر (جنوب العراق) وحوض السند.

٤ - إن بلاد «ماكان» (أوماغان) التي كانت تصدّر النحاس إلى أرض الرافدين قد تكون عمان وما إليها.

٥ - إن مملكة دلمون كانت ملء السمع التجاري لمدة تزيد عن ألفي سنة (٢٥٠٠ - ٥٠٠ ق.م.) كانت منطقة واسعة، ولعل مدينة دلمون كانت تقوم في البحرين، وإليها عزيت الرقعة أو المملكة بكاملها.

٦ - يبدو أن سكان جنوب العراق من السومريين والبابليين كانوا في فجر التاريخ يعتقدون أن الآلهة كانت تقضي الكثير من وقتها في دلمون حيث كانت تكثر المياه الحلوة والخضرة؛ وكان السكان لذلك يعتبرون دلمون أرضاً مقدسة.




آنية مزخرفة تعود إلى القرن التاسع ق.م. (حفريات معبد بربر).

٧ – كانت السفن، على ما يبدو، تحمل من بلاد السند الأخشاب والقطن والعاج والعقيق الأحمر واللازورد، كما كانت سفن «ماكان» (أوماغان) تحمل النحاس. وكل ذلك يمر بالبحرين وفيلكة في طريقه إلى بلاد الرافدين. ولعل كثيراً من هذه السفن كان في الواقع ملك أهل الخليج ومصنوعاً فيه.

يبدو من الدراسات المختلفة والمقارنة أن هذه التجارة العالمية (بين جنوب العراق والسند) أخذت بالتأخر بدءا من حول سنة ٢٠٠٠ ق. م. لكنها أصيبت بضربة قوية لما قضي على المدنيّة السندية (حول سنة ١٦٠٠ ق. م.) وانتهى أمرها بعد ذلك بنحو قرن. ومن هنا تعطلت السوق المورّدة إلى العراق، وتناقصت تجارة



نماذج من فخار العُبيد الملون، من موقع الدوسرية.

Saudi Arabian Antiquities Ministry of education

خمسة اختام وجدت في فيلكه.



الترانزيت عبر الخليج العربي، وضعف مركز دلمون (البحرين؟) التجاري. ومع أن المنطقة عاد إليها نشاطها فيما بعد إلّا أن السند لم تكن طرفاً فيه. بل كان الأمر مرتبطاً بالجزء الشمالي من الخليج العربي. وعلى كل فلم يكن النشاط التجاري على نحو ما كان عليه في العصور التي سبقت ذلك.

وفي أبان ازدهار دلمون ونشاطها كان لتجارها وكالات تجارية (حول سنة ٢٠٠٠ ق. م.) في مدن جنوب العراق مثل لاغيش واور.

* * * *

وهكذا فقد نُفِض الغبار عن بعض المواقع في الخليج العربي، فكان أن ظهرت حضارات الأقوام التي استوطنت أجزاءه من العصور الحجرية إلى قيام مدن ومدنيّة متقدمة نشيطة فعّالة.

وبذلك انتهى الوقت الذي كان الناس فيه يظنون أن أقطار الخليج العربي تاريخها ابن الأمس القريب. أن أصواتاً تسمع الآن واضحة،وصور الحياة أخذت تبين.

ومتى نشط الرفش والمعول والبحث — على أيدي أبناء البلاد أنفسهم في المستقبل القريب — ستتضح الصورة أكثر فأكثر، وتزداد الأصوات الآتية من الماضي البعيد قوة، وعندها يمكن أن يكتب التاريخ الصحيح.

إن الخطوة الأولى قد خطاها التاريخ وما تبقى فالوقت كفيل بانجاحه.

■

صقلية الاسلامية على مفترق من التاريخ

د. ابراهيم بيضون

كانت صقلية الميدان الأهم لعمليات الصراع الاسلامي - الأوروبي في القرن العاشر الميلادي. فهي بحكم موقعها الاستراتيجي الفريد، كانت تستأثر باهتمام الأطراف المتنافسة وتصيب مصالحها بصورة أساسية ومباشرة. ولذلك فان أبرز ملامح تلك المرحلة، حتى بعد استتسلام الجزيرة للسيادة الأغلبية، هي فقدان الاستقرار السياسي، الذي حال بينها وبين اتخاذ شخصيتها الاسلامية المستقلة، بالمقارنة مع الأندلس التي نعمت بفترات مديدة من الهدوء والاستقرار.

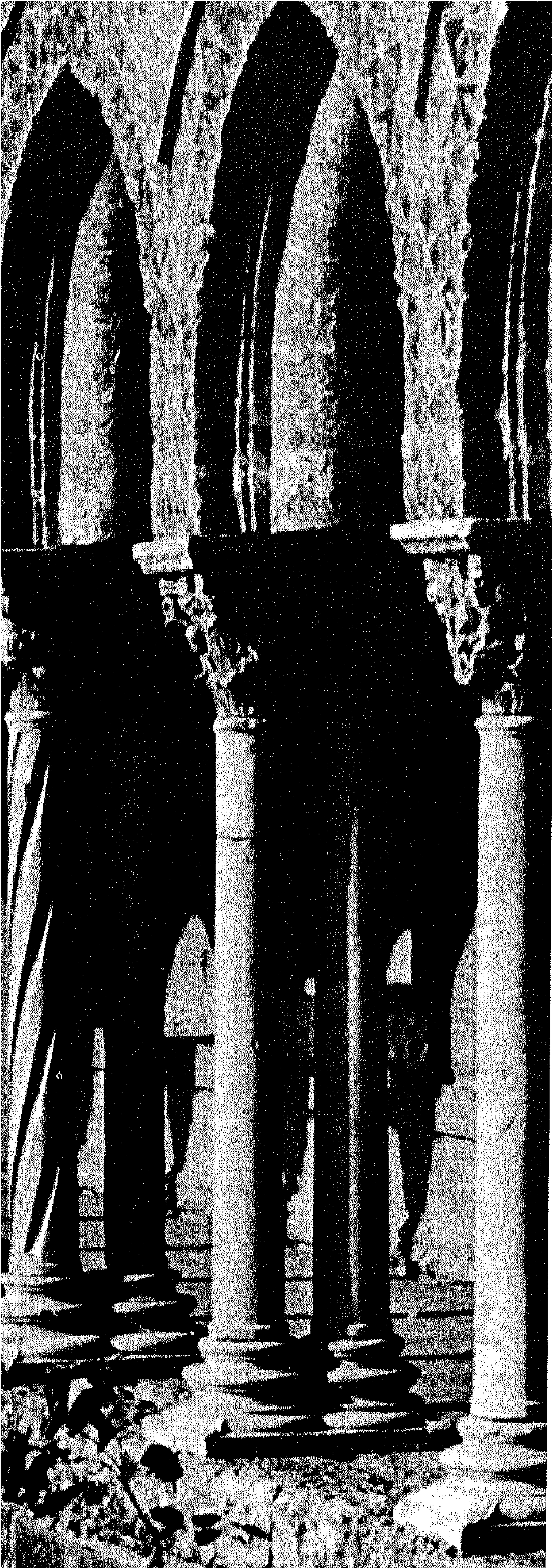


لم يستطع الفاطميون بما كان لديهم من قوة بحرية متطورة، أن يعوّضوا الفشل الأغلبي في تحقيق حكم مركزي في الجزيرة التي آلت السلطة الفعلية فيها إلى الأسرة الكبيرة بزعامة الحسن بن علي. غير ان الفاطميين لم يتخلوا عن دورهم الطليعي في التصدي للدولة البيزنطية وانتزاع المبادرة في الصراع على النفوذ في البحر المتوسط. وكانت صقلية في طليعة الأهداف التي تطلع إليها الفاطميون لخدمة استراتيجية الجهاد، الركن البارز في عقيدتهم السياسية والدينية، أو كما عبر عنه المستشرق ريزيتانو (١) بقوله: «انها الميدان الذي استطاع الفاطميون أن يؤدوا فيه حق الجهاد، حيث لم يتهيأ مثيل له في أيام دولتهم»(٢).

ولكن الفاطميين اجتذبتهم هموم الشرق الاسلامي، وسخونة المنطقة الشامية بصورة خاصة، المهددة بالاحتلال البيزنطي، في وقت كرست فيه الخلافة العباسية فشلها الذريع إزاء هذه الأخطار وحماية حدودها وثغورها المكشوفة. فكان انتقالهم إلى مصر، الخطوة العريضة في هذا الاتجاه الذي أغرقهم في شؤون المنطقة وذلك على حساب دورهم الذي أخذ في التقلص منذ ذلك الوقت في غربي البحر المتوسط.

وهكذا فان صقلية الاسلامية لم تستطع تثبيت اقدامها طويلاً والتغلب على التحديات التي جابهت صمودها واستمرارها، من متغيرات السياسة الفاطمية إلى مقاومة الأطراف المعنية على أرضها أو المحيطة بها. فقد وحد الشعور بالخوف، على مصير القارة الأوروبية المهددة مرة

د. ابراهيم بيضون أستاذ في قسم التاريخ كلية الآداب - الجامعة اللبنانية - بيروت.



أخرى من الجنوب، بين مواقف القوى التقليدية والمستجدة، ممثلة بالبيزنطيين في الشرق والكارولنجيين في الغرب «والجمهوريات» التجارية في ايطاليا التي وظفت مصالحها حيناً في ذلك الصراع، ولكنها كانت تعبث أخيراً في قناة التكتل الصليبي الأوروبي برعاية البابوية، التي شعرت بأن لها دوراً أكثر أهمية عليها أن تمارسه، وهو يتعدى التأثير على المؤمنين وتحريك عواطفهم إلى تكوين قوة ذاتية لها نفوذها السياسي إلى جانب تأثيرها الديني(٣).

لقد كان من العسير جداً الاحتفاظ بهذه الجزيرة المهمة في ظل سيادة من اللامركزية الاسلامية، يمثلها الفاطميون، خاصة بعد انشغالهم بحرب البيزنطيين على جبهة الشام وتقلص نفوذهم على سواحل المغرب، بما يمثله ذلك من أثر بالغ الخطورة على صقلية، التي فقدت الغطاء الدفاعي المتوفر لها على يد البحرية الفاطمية. فاضطرت إلى البحث عن مصادر جديدة للحماية، لم تكن على المستوى المطلوب. ولعلها وجدت أن آخر ورقة في يدها، هي اللجوء إلى امير افريقية القوي آنذاك، المعز ابن باديس، لانقاذها من خطر البحرية البيزنطية التي استعادت بعض تفوقها منذ النصف الأول من القرن الحادي عشر.

ولكن ابن باديس(٤) رغم نجاحه في الاحتفاظ بالجزيرة، الا أن ذلك لم يكن سوى تدبير مؤقت ومحاولة أخيرة للابقاء على هويتها الاسلامية. فسرعان ما عاودتها بعد غيابه(٥) هجمات البيزنطيين، واشتعلت فيها نيران الحرب الأهلية التي عجلت بدورها في عملية السقوط المرتقبة. ولم يكن ذلك على أيدي البيزنطيين كما يتبادر إلى الذهن، لأن قوة جديدة، ظهرت على ساحة الصراع في شبه الجزيرة الايطالية وامتد طموحها إلى صقلية، حيث كانت تراقب ما يجري على أرضها من اضطرابات. ذلك ان النورمان الذين استقروا حيناً في غرب فرنسا بعد تحولهم إلى المسيحية، راودتهم فكرة التوسع في هذه المنطقة والاسهام في متغيراتها الهامة.

ولم يظهر هؤلاء النورمان فجأة على المسرح السياسي في أوروبا. فهم أصلاً من قبائل الشمال

في هـذه القارة، حيث اتخـذوا من ذلـك أول أسمائهم وعرفوا بالشماليين (NORSMENS). ويبدو ان اسمهم الآخر الذي غلب عليهم وهو «النورمان» (NORMANDS)، مشتق من هذه الكلمة. وكان أول ما اشتهروا به هو احترافهم للبحـر ونزوعهم إلى المغـامـرة، حيث شهـدت سواحل انكلترا وفرنسا وكذلك اسبانيا العربية، اغـاراتهم الصاعقـة عـلى مـدى قـرنـين من الزمن[٦]. ويبدو أن النجاح أكثر ما حالفهم في فرنسا الكارولنجية، فاضطر الامبراطـور شارل الثالث إلى منحهم احدى الاقطاعات الغـربية، اتقـاء لهجماتهم العنيفـة[٧] وقد عـرفت هذه المنطقة حيث استقروا إلى الآن بـالاسم الذي يحملون وهو نـورمنديـاً (NORMANDIE). وكـان ذلـك القـرار في مصلحـة الامبـراطـور الكارولنجي الذي توسّل الافـادة من خبرتهم القتالية، لا سيما في البحر، وتطويعهم للدفاع عن بلاده تحت راية المسيحية. وما لبث هؤلاء أن أصبحـوا بعد وقت قصـير درع البابـوية القوي، فكانت تحرضهم بين الحين والآخر على مهـاجمـة السـواحـل الاسـلاميـة في المغـرب واسبانيا[٨].

غير أن النورمان الذين حافظوا عـلى روح المغـامـرة في نفـوسهم حتى بعـد اعتنـاقهم المسيحيـة، رفضوا الاستمـرار بعيداً في هـذا الدور، الذي يجعل منهم أداة في أيدي القوى الأوروبية الأخرى. فقد حرصوا على أن تظل لهم تلك الشخصية المتميزة والمستقلة، دون أن تسقط من ذلك اشتراكهم كجنود مرتزقة لحساب بعض المدن الايطالية، حيث أخذت شهرتهم في الحرب طريقها إلى الذيـوع في حوض البحـر المتوسط الغربي[٩].

وكان لاحتدام الصراع على شبه الجزيـرة الايطالية، لا سيما الأجزاء الجنوبية منها، قد جذب النورمان إلى اتخاذ مراكز نفوذ لهم في هذه المنطقة التي خبـروا عن كثب أوضاعهـا المضطربة. فهاجروا إليها في دفعات متواصلة وعملوا في خدمة أصحاب الطموح من الزعماء وكبار الاقطاعيين. ومع ازدياد عددهم ومن ثم تأثيرهم في موازين القوى المتنافسة على شبه الجزيرة، حققوا أول نجاحاتهم في اقامة منطقة

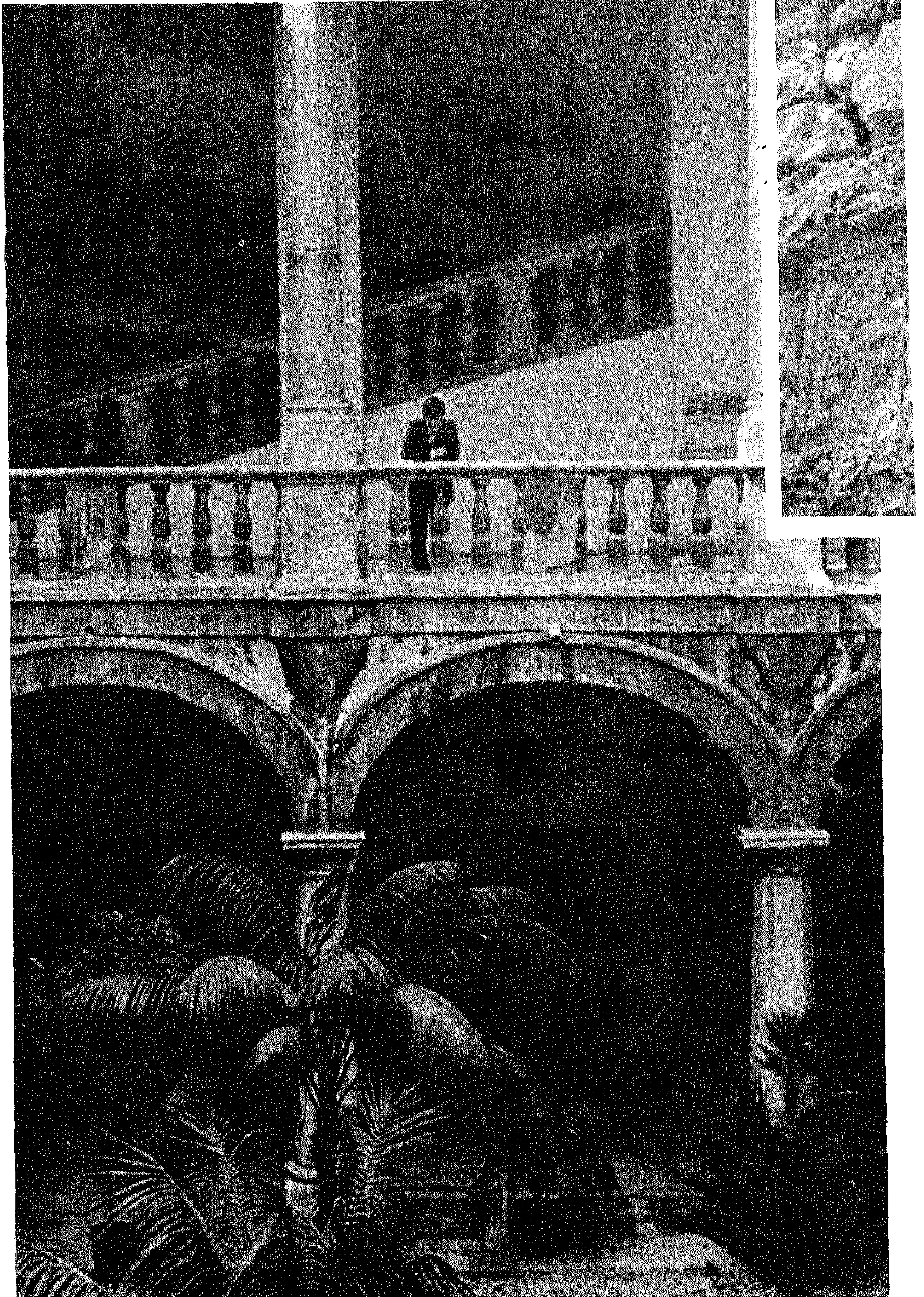


حـوافي لتزيـين الحمامـات «كـافـالا ديانا».

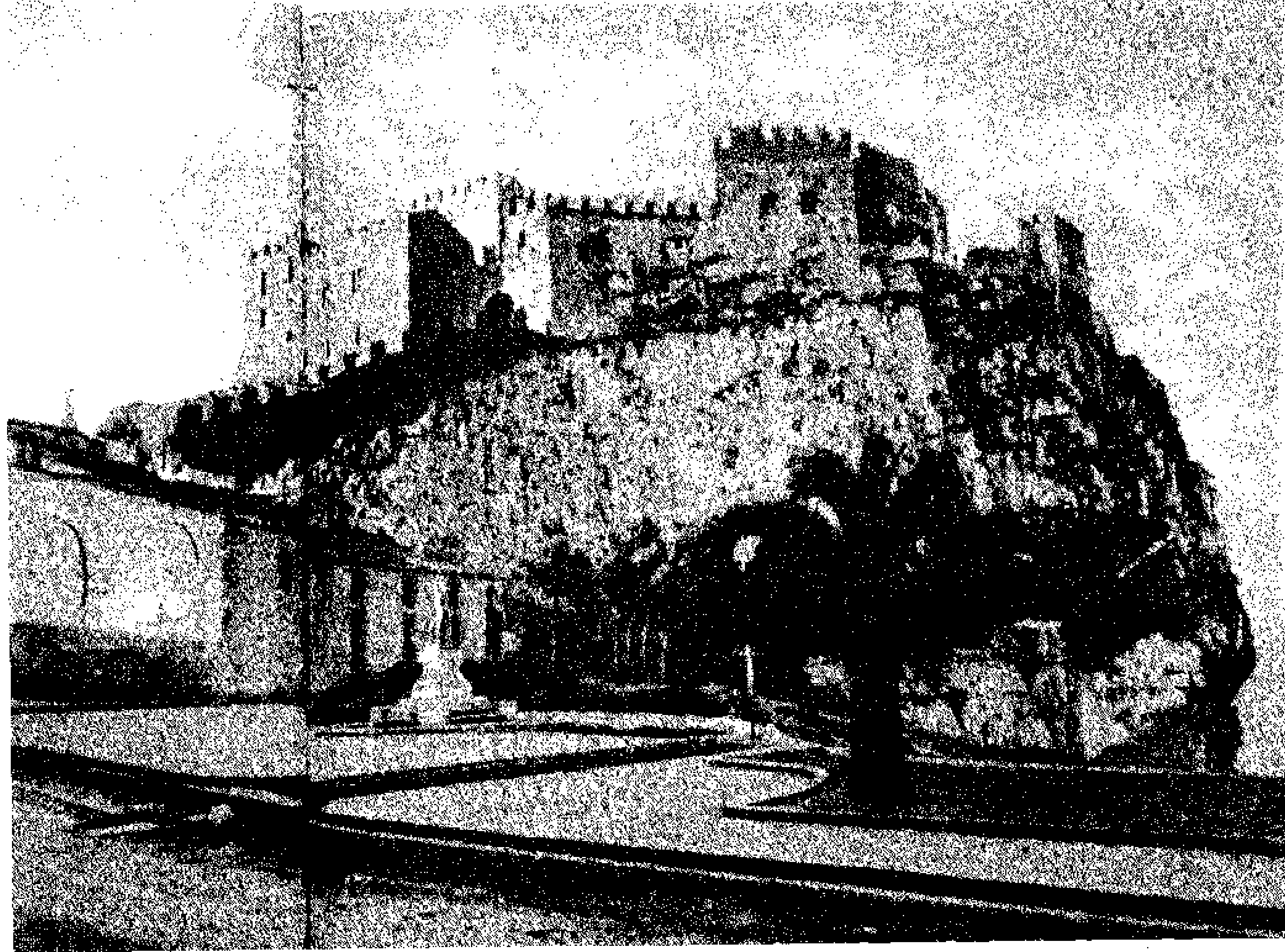
نفوذ لهم في مدينة أفرسا (AVERSA) وذلك في سنة ١٠٣٠م. ومن هناك أخذوا يتطلعون إلى صقلية القريبة التي كانت آنذاك موزعة الولاء بين عدة أطـراف دون أن يتمكن أحدهـا من حسم الأمور لمصلحته.

وفي تلك الأثناء ظهر زعيم النورمان روجار الأول (ROGERO1) متلهفاً لاجتياح الجزيرة ومنتظراً الفرصة المواتيـة لتحقيق هدف كـان هاجسه منـذ ان استقر بـه المقام في جنـوب ايطاليا. وكان على «صقلية الاسلامية» ان تنتظر مصيرها المحتوم بعد فشل المحاولات اليائسة لانقاذها، فتركت في النهاية وحيدة في وجه الغزو النـورماني المـدعـوم من البـابـويـة. ولم تؤد المسـاعدات العسكـرية التي قـدمتها الجبهـة الاسلامية المفككة على الساحل الافـريقي إلى انقاذ الموقف والحؤول دون انهيار المقاومة في الداخل.

لقد كان الخطر الذي أحدق بصقلية عظيماً حقاً، كما يصفه أحد المؤرخين المعاصرين[١٠]. ولكن صمودها في المقابل كان رائعاً ومقاومتها كانت بطولية. فقد تكتلت ضدها المدن الايطالية إلى جانب النورمـان، وحشدت قـوات بحريـة



أحد قصور بالرمو حيث تبدو الهندسة العربية في بنائه



قلعة كاكامو – باليرمو (صقلية)

ضخمة حول العاصمة (بالرمو)، التي قاومت بشراسة مدة خمسة شهور متواصلة[11]. كذلك كان شأن المدن الاخرى التي تطلبت الكثير من الجهد ومن الوقت قبل أن تستسلم الجزيرة نهائياً، بعد عشرين عاماً من القتال الصعب (١٠٧٢ – ١٠٩١م).

وعلى عكس ما كان يحدث عادة في أعقاب الاحتلال العسكري، فأن صقلية النورمانية لم تقطع صلتها بماضيها العربي الاسلامي، ولم تنجرف في تيار التعصب الديني الذي بدأ آنذاك يجتاح اسبانيا لبضعة قرون لاحقة. فقد أعجب النورمان إلى حد كبير، بالمستوى الحضاري الذي بلغه أسلافهم في صقلية وحرصوا على التعامل معهم بروح إيجابية وعقل مفتوح. وتميزت الفترة اللاحقة من تاريخ الجزيرة بالهدوء والاستقرار، متجلياً خلاله التعاون بين النورمان والعرب بصورة تثير الدهشة. ولم يقتصر ذلك في النطاق المحلي فقط، بل تعداه إلى خارج الجزيرة حيث قامت علاقات ودية بينهم وبين الفاطميين وغيرهم من القوى الفاطمية في المغرب[12]. وكان رائد هذه السياسة الانفتاحية روجار الثاني (ROGEROII) الذي كان متأثراً

بالاسلام ومتعطشاً للثقافة العربية[13]، مما أتاح لصقلية في عهده ان تأخذ دورها المتميز في اطار العلاقات الحضارية بين الشرق والغرب.

ولقد أثمرت جهود روجار ومن ثم ابنه غليام الثاني (GUILLAUME II) في خلق مجتمع متطور في صقلية يبيح حرية المعتقد والعبادات فكانت احدى المعابر الحضارية المهمة لانتقال الفكر العربي الاسلامي إلى أوروبا، حيث كان تأثيره شاملاً وجامعاً لكل معالم الحياة في الجزيرة، سواء في مجال الادارة أو الضرائب أو العادات الاجتماعية، فضلاً عن الثقافة.

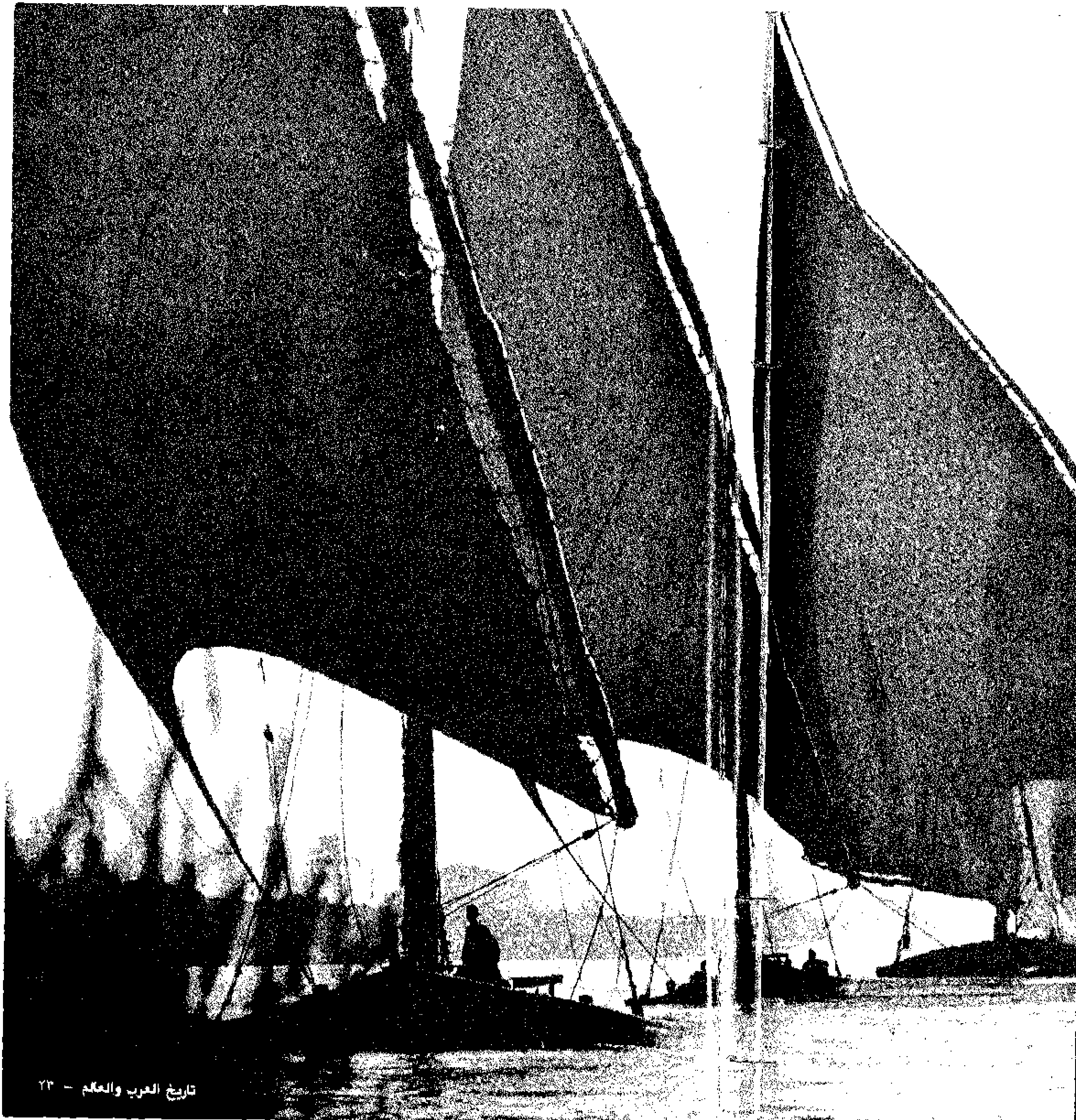
وكانت اللغة العربية احدى ثلاث لغات متداولة في ذلك العهد إلى جانب اليونانية واللاتينية.

ولكن ملوك النورمان لم يكونوا جميعاً متنورين ومنفتحين على ثقافة العرب شأن الثلاثة الاوائل إذ أن الرحلة التالية من تاريخ صقلية تأثرت بالموجة الصليبية التي اجتاحت أوروبا في ذلك الحين، وتمحورت بشكل خاص حول اسبانيا، المحطة الحضارية الاخرى التي أقامها العرب على تخوم القارة من الغرب. وكانت موجة مضادة تحت راية الموحدين في المغرب الاقصى فقد تزامنت مع خروج صقلية النورمانية إلى دائرة التطرف، والقيام بحملات اضطهادية استهدفت بقايا المسلمين في الجزيرة، فانتهوا من حياتها إلى الأبد. ولكنهم سيبقون في تاريخها تراثاً عظيماً مجذراً، أنار الظلمات في أوروبا وألحقها بركاب المد الحضاري الذي أدركته بعد لهاث طويل.

■

الهوامش

(١) أستاذ التاريخ الاسلامي في جامعة بالرمو.
(٢) من بحث ألقاه في المؤتمر التاريخي الأول في بيروت آذار ١٩٧٥.
(٣) د. عاشور: أوروبا العصور الوسطى ص٢٢٨.
(٤) راجع: مجلة الرسالة «المصرية» عدد ١٣٢ ص٤٨. (٦ – ١ – ١٩٣٦).
(٥) توفي المعز بن باديس سنة ٤٥٤هـ. النجوم الزاهرة ج٥ ص٧١.
(٦) مجلة الرسالة المصرية عدد ١٢٤ ص٤٨ (١٩٣٦/١/٦).
(٧) د. عبدالمنعم ماجد: العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى ص ١٢٠ – ١٢١.
(٨) أرنست باركر: الحروب الصليبية ص١٦. ترجمة د.السيد الباز العريني.
(٩) د. عاشور: أوروبا العصور الوسطى ص ٢٢٩.
(١٠) لويس: القوى البحرية والتجارية في البحر المتوسط ص ٢٧٣.
(١١) د. احسان عباس: العرب في صقلية ص ١٣١.
(١٢) ماجد: العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى ص ١٢٦.
(١٣) أماري (Amari): مكتبة صقلية العربية ص١٥.



ترسانة الخرطوم البحرية

(١٨٢١ - ١٨٩٦)

خديجة زروق

عثرت اثناء قراءتي لمجموعات الوثائق المحفوظة بدار الوثائق المركزية - وفي مجموعة المهدية بالذات - على أوراق خاصة بترسانة الخرطوم التي كنت قد قرأت عنها في كتاب (تاريخ الخرطوم) للدكتور أبوسليم فعمدت إلى تقليبها ووجدت أنها تعالج موضوعاً شيقاً وهاماً رغم ما يشوبها من نقص.. وقد اتضحت لي أهمية الموضوع أكثر عند مناقشتي للدكتور أبوسليم بشأنها إذا إتضحت أمامي رؤياً وتصور أوسع للموضوع.. فهو يرتبط بجوانب كثيرة هامة وحيويّة وأولها الجانب التجاري...

فالتجارة أرتبطت بالنقل النهري منذ أن بدأت البواخر تمخر عباب النيل، كما أنها إرتبطت، أيضاً، منذ بدايتها بعنصر الجلابة.. وكان لهذا الثنائي - التجارة والجلابة - اليد الطولى في نقل المؤثرات العربية والأسلامية إلى

الوثائق - العدد الخامس ١٩٧٥ - تصدرها دار الوثائق المركزية (السودان).

أقاصي البلاد.. بجانب هذا فان توسع التجارة قد ساعد كثيراً على انتشار الطرق الصوفية حتى ان أصحاب هذه الطرق أتخذوا مراكزهم على طريق القوافل التجّارية حيث يقدمون للتجار الطعام والحماية والبركة مقابل ما يحصلون عليه من هبات. كما أن التجّار في تنقلهم كانوا ينقلون أخبار هذه الطرق ومذاهبها المختلفة وأخبار أصحابها حتى أصبحوا بمثابة أجهزة دعاية وأعلام...

لا يعرف الشيء الكثير عن النقل النهري في السودان في العهود القديمة حتى سقوط مملكة سنار عام ١٨٢١..ولا يعني هذا أن حياة سكان السودان في تلك الفترة لم ترتبط بالنهر أو تتصل به في شيء لأن الأرتباط بالنهر بدأ منذ القدم خاصة عند سكان المناطق التي تقع على النيل.. ويذكر الطيب محمد الطيب كمثال، النوبة في شمال السودان حيث تعكس رسوماتهم ذلك بوضوح..كما يقول أيضاً أن الفرنج كانت لهم غزوات نهرية ضدّ بعض القبائل ويوضح أن الرحلات النهرية في البداية كانت ترتبط بالصيد حيث كانت الرحلة تستغرق أسبوعا كاملاً.. ثم دخلت جوانب اخرى منها نقل الركاب وبضائعهم كما يذكر أيضاً أنه كان للبحر آداب ونظم توضح العلاقة بين صاحب المركب والريّس والنوتية..[1].


ومن المرجّح أن النقل النهري في العهود القديمة أقتصر على المراكب الشراعية البدائية التي تكفي لعبور النهر من جانب إلى آخر دون أن تكون له أي أهمية تذكر في مجال التجارة وذلك نسبة لضعف الحركة التجارية في ذلك الوقت نتيجة لضعف التجارة نفسها..

وبدخول الأتراك المصريين إلى السودان في عام ١٨٢١ بدأ النقل النهري يدخل طوراً جديداً يمكن أن يقال عنه أنه ثورة إذا ما قورن بسابقه.. فقد أدخل الأتراك طرازاً جديداً من المراكب لم يعهده الأهالي من قبل كما أنهم أول من أدخل السفن البخارية في السودان وجلبوا منها اشكالاً وأحجاماً مختلفة للتجارة ونقل الركاب والاستكشاف. وقد كانت رغبتهم في التوسع هي أساس أهتمامهم بالنقل خاصة وأنه السبيل الوحيد الذي يمكن الاعتماد عليه في وقت كانت الدواب هي سبيل المواصلات....

وقد برز اهتمام الأتراك بالنهر في فرق الاستكشاف التي بعثوا بها ومن أشهرها بعثة صموئيل بيكر الى افريقيا في عام ١٨٦٩م. وبعثات سليم قبطان الثلاث في عام ١٨٣٩م، ١٨٤٠م، ١٨٤١م. ولقد نجح الأتراك في بسط نفوذهم في مناطق امتدت حتى حدود يوغندة.... ويمكن أن نلمس الاهتمام بالنهر منذ عام ١٨٢١م. حين حاول بعض مهندسي حملة الفتح عند غزو السودان، فتح مسار للسفن في الشلال الثاني[2] وبالرغم من فشل المحاولة إلّا أنها أثبتت إهتمامهم بالنقل لايجاد مناطق نفوذ جديدة. وبدأ الأتراك يتجهون إلى توسيع صناعة المراكب والسفن في الأماكن التي يتواجد بها شجر السنط بعد أن أثبت فعاليته في هذا الضرب من الصناعة فأقيمت مراكز في سنار والكاملين وبربر ودنقلا، وجلبوا لها العمال المهرة من المصريين ومن مختلف الجنسيات كما بدأ يفد إليها الكثير من السودانيين للعمل في صناعة المراكب وقد كان منهم والد الأمام المهدي...

وبعد أن أتسعت صناعة المراكب وأنتشرت أنشأ الأتراك قاعدة مركزية في الخرطوم عند المقرن على ضفةالنيل الأزرق بعد حوالي كيلو ونصف غرب الخرطوم وقد عرفت بترسانة الخرطوم البحرية وكان يعمل بها مهندسون وفنيون وعمال من جنسيات مختلفة كما أوضحت سابقاً... وقد كان مدرب الترسانة الأيطالي وتلامذته هم الذين اشتركوا في الدفاع عن الخرطوم عندما حاصرها المهدي وبعد سقوطها وانتصار المهدي أنضموا لخدمته.. أما مدير الترسانة فكان مصرياً ويدعى حسين بيه ظهران..

ولقد كانت أدارة المطبعة الحكومية ملحقة بالترسانة وهي تتكون من المطبعة ومخزن كبير للورق وورشة تجليد للكتب والدفاتر.. وقد طبع فيها الأتراك كل مستلزمات الحكومة من المطبوعات.. ويسكن عمال الترسانة ومعظمهم من السّود – منطقة تعرف بالمنجرة قرية من الترسانة وفي جانب منها تقوم صناعة مراكب الأهالي وقد ظلت المنطقة آهلة بسكانها حتى رحّلوا بعد الاستقلال.. ومن الملاحظ أن عمال



النقل بواسطة الزوارق

الترسانة المهَرة جلهم من المصريين.. وقد وصف Sandis في كتابه «Royal engineers in egypt & Sudan» عمال مركب (الناصر) عند حملات استرداد السودان وهي تخطي الشلال، بأنهم مصريون يرتدون الطربوش وقد كان تخطي الشلال في ذلك الوقت من أخطر التحديات التي تواجه البحارة..



ومن الواضح أن عملية صنع البواخر لم تكن من مهام عمال الترسانة في البداية فقد كانوا يستجلبون أجزاء الوابور عبر الصحراء من كورسكو وسواكن بالجمال ثم يقومون بتركيبها.. كما يعملون أيضاً على صيانة الوابور عندما يحدث بها عطب ويعتبر العبابدة والبشاريون العمال الأساس في تزويدهم بهذه الأجزاء نسبة لما عرفوا به من بأس وشدة تحمل (٣).. وقد كانت باخرة الأسماعيلية التي رافقت صمويل بيكر في رحلته، أول سفينة تصنع بالسودان وكان ذلك في كندكورو بالجنوب في عام ١٨٧٥.. وأهتم الأتراك كثيراً بتوسيع النقل النهري لربط أجزاء البلاد المختلفة وقاموا بمسح شامل لمعرفة المياه الصالحة للملاحة وخاصة على البحر الأحمر حيث ميناء سواكن وأن كان نشاطها قد اقتصر على نقل الحجاج من وإلى جدة نتيجة لضعف تجارة البحر الأحمر السودانية....

ويذكر هيل أن أول باخرة مخرت باب النيل أبحرت من ميناء الأسكندرية عام ١٨٢٨(٤) إلّا أننا لا نعرف بالضبط تاريخ أول باخرة سودانية ومن المرجح أن ذلك يرجع إلى عام ١٨٥٠ حين حاول تاجر من ساردينا إنشاء شركة بواخر ذكر أنه يريد بها تطوير منطقة جنوب السودان غير أن محاولته لم تر النور..

والبواخر النيلية لعبت دوراً هاماً في حصار الخرطوم فقد كانت الحمم التي ترسلها وهي في وسط الماء بعيداً عن متناول يد الأنصار السبب الأساسي في صمود المدينة وقد فطن الأنصار لأهميتها فاستولوا عليها مباشرة بعد سقوط الخرطوم.. ورغم الدمار الذي أصاب الخرطوم أثناء حروب الأنصار فقد ابقوا على الترسانة.. وقد نقلت من مكانها القديم على المقرن إلى مكان الكنيسة الكاثوليكية حيث أضيفت إلى بيت المال العمومي بالقرب من النهر وذلك لتسهيل عملية شحن وتفريغ البضائع.. وقد أوصلت بخط تلغرافي مع بيت الخليفة مما يوضح أهميتها بالنسبة للدولة... وقد كان خال الامام المهدي طه محمد أول من تولى إدارتها بعد فتح الخرطوم.

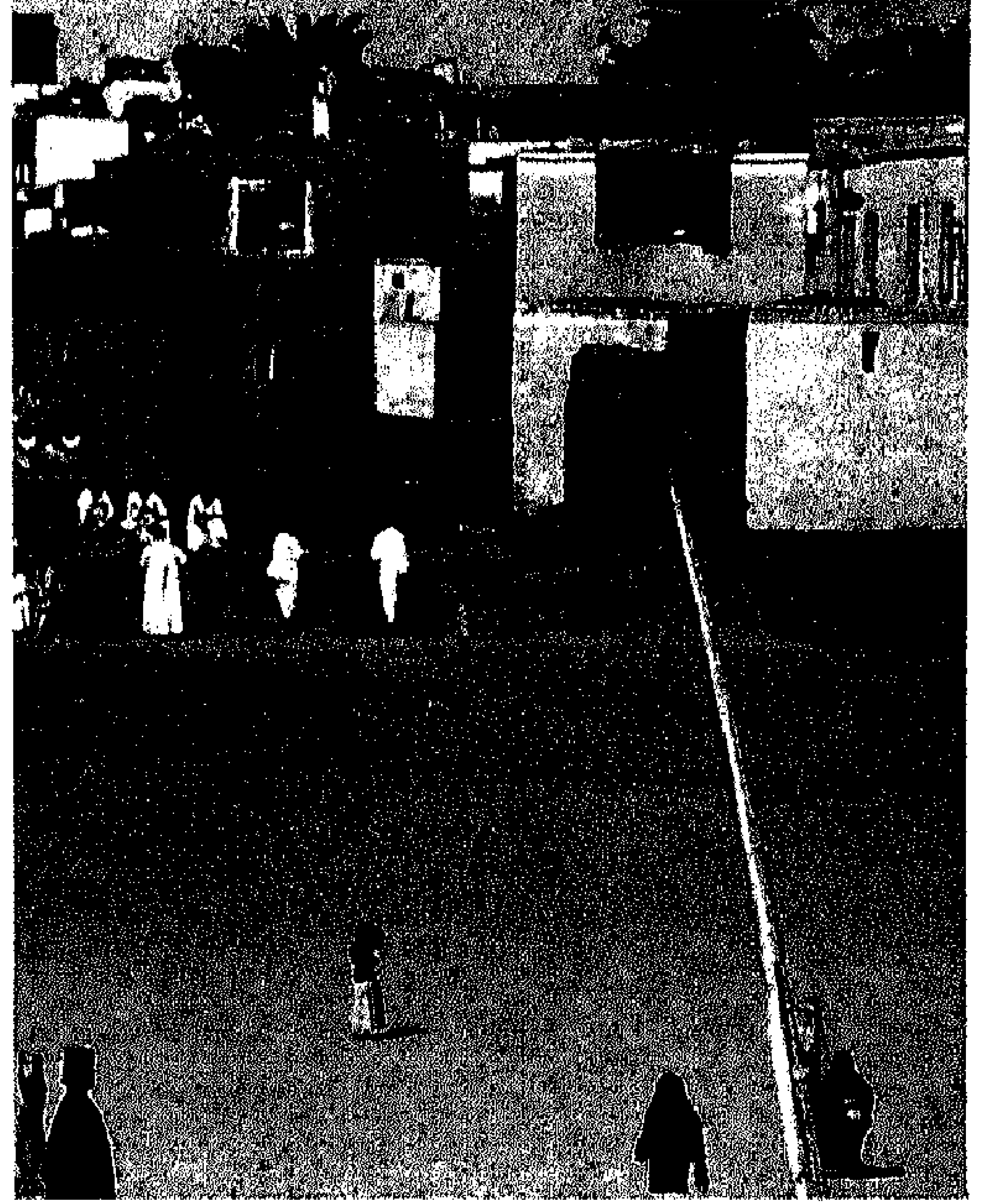
وتوضح المكاتبات الصادرة عن الترسانة



الزوارق الشائعة لاجتياز الترع والمياه الضحلة.

وتقاريرها عن سفريات البواخر أن اسماء الوابورات وبعض إصطلاحات الوظائف التركية قد أبقي عليها في المهدية رغم أن هذاالعهد كان يعير بعزم شديد كل النظم والاصطلاحات التركية.. ومن الوظائف التي ظلت سائدة: عنوان الوابورات النهرية، وعطشجي الوابور وباشيعطشجي وغيرها من الاصطلاحات.. ومن أسماء الوابورات: السلمية والتوفيقية والصافية.. ويدل هذا على أن موظفي الترسانة وعمالها الذين عملوا في التركية قد أعيدوا إلى الخدمة في هذا المرفق وسبق أن ذكرت في صفحة سابقة أن عساكر الترسانة الذين اشتركوا في مقاومة حصار الخرطوم قد أنضموا لخدمة المهدي بعد سقوط المدينة كغيرهم من الطابعين والمجلدين..

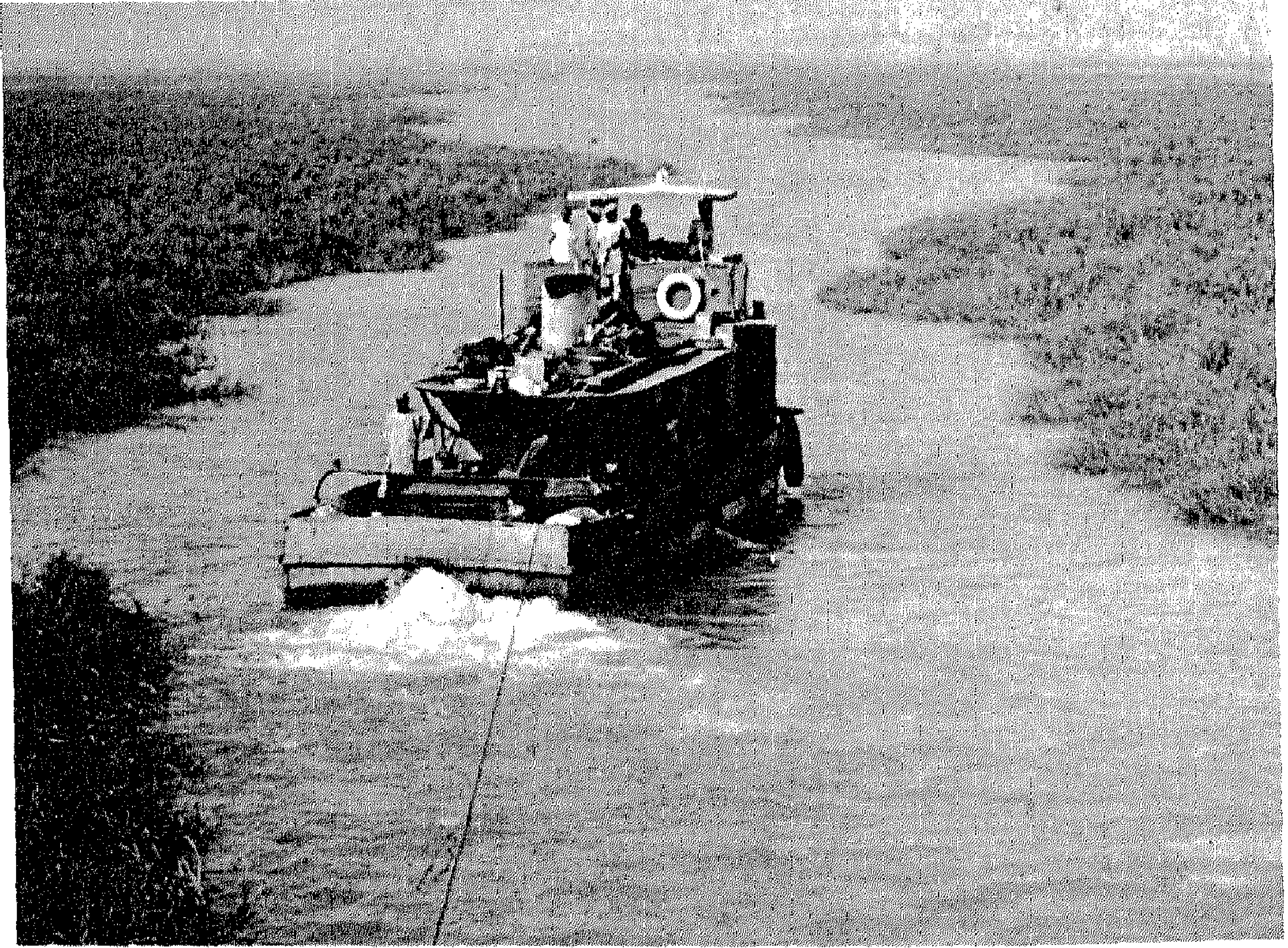
وقد كانت البواخر في رحلاتها المختلفة يتبعها عدد من المراكب والفلوكات وتستعمل المراكب لحمل المؤن من عيوش وغلال وغيره لتزويد المسافرين أو لنقله إلى المكان الذي تقصده الباخرة وفي بعض الأحيان كانت هذه المراكب تحمل عائلات الأنصار والجهادية المرافقة لهم في سفريتهم إلى الفلوكات فقد كانت تقوم بجلب الحطب المستعمل كوقود للوابور من الغلبات وذلك لأن حجم الفلوكة يساعدها على السير



داخل الغلبة لجمع الحطب... وكان العمال الذين يقومون بجمع حطب الوقود يعرفون بخدم الوابور وهم الذين يتولون أيضاً مهمة «توليع الوابور» كما ورد في أوراقهم[٥] وشحن وتفريغ المؤن وتوزيعها وذلك لأن الوابورات لا يمكنها أن ترسو في المياه الضحلة.. وقد لاحظت حسب الزمن المثبت في سجلات سفريات الوابورات أن الوابور بعد تزويدها بحطب الوقود تقف حوالي الساعتين ثم تبدأ في التحرك مما يوضح أن هذا هو الزمن الكافي لتسخين ماكيناتها.. ولا أدري أن كان هناك نوع خاص من الحطب يستعمل بهذه الوابورات قد وجدت في دفتر سفريات وأبور الصافية[٦] في المكان الخاص بالملاحظات أنه لم يوجد صنف الحطب مما أضطرهم لاستبداله بحطب الطندب الأخضر ولكنه لم يشر بوضوح إلى الصنف المقصود كما أنه لم يسمه.. لكنه على أي حال نوع من الحطب الثقيل..

أيضاً بجانب خدم الوابور أو العمال نجد في زمن المهدية ما يسمون بعسكر الوابور وهم مجموعة الجهادية والانصار الذين يرسلون في مهمة حربية، ثم السواري وهم مسؤولون عن حفظ الجبخانة وتوزيعها على المحاربين كما يوجد أجزجي خاص بالوابور وغالباً ما يقوم أيضاً بدور الطبيب من علاج ووصف للدواء وتوزيعه.. وهذا يوضح لنا جانباً من مهمة النقل النهري في عهد المهدية وهو الجانب الغالب والمهم - الجانب الحربي لمواجهة أعداءالمهدية ودحرهم ولتصفية نفوذ أعوانهم في عقر دارهم ولعل مراقبة عسكرية لمعرفة تحركات الأعداء وإفساد مخططاتهم.. كذلك نقل المؤن للمحاربين ونقل الجنود، وهي مهام كلها ترتبط بالحرب.. هذا بجانب نقل البريد وتوصيل رسالة شفوية هامة لأحد الأعيان.. ويعكس هذا بوضوح أن التجارة لم تكن من المهام الملحة للنقل النهري كما في العهد التركي حين كانت للخرطوم أهمية عظيمة في تحريك السفن التجارية والشراعية حاملة الأصناف المختلفة للتجارة لجميع مدن السودان وذلك لأن المجتمع المهدوي قد انصرف بكلياته إلى الدين والتقشف وزهد في ترف الحياة ثم أن التجارة نفسها أرتبطت بالاهواء السياسية ولذلك فكثيراً ما كان الخليفة عبد الله يقفل باب التجارة بين السودان ومصر... وهذا إلى جانب خطورة التجارة نفسها على أمن الدولة لارتباطها بالتجسّس وتهريب السلاح.. ومن الطريف أنه يوجد بالوابور حلاق خاص بها وهو في الغالب صاحب رتبة عسكرية.. وفي دفتر صادر الترسانة[٧] خطاب يطلب فيه تعيين حلاق آخر لأن الحلاق المرافق للوابور قد جُرح في أحد الأشتباكات.. ويوضح هذا أيضاً طول رحلة الوابور في كثير من الأحيان.. وطول الرحلة وقصرها مرتبط بعوامل خلاف الحرب وما يتبعها من مهام.. فهو يرتبط باعتدال الريح أو عدم حدوث عطب بالوابور، توفر صنف الحطب الصالح للوقود إذ أنه في كثير من الأحيان يكون البديل غير جاف مما يضطرهم إلى إنتظار وابور قادم للتزوّد منها.. كذلك ترتبط سرعة الوابور بالتيار.. فإن كانت الوابور تسير في إتجاه معاكس للتيّار نجد أن هذا يحدّ من سرعتها بعض الشيء هذا بجانب إعتراض سيرها بكمين للأعداء..

وقد حاولت تتبع سفرية أحدى الوابورات وهي وابور الصافية[٨] وكانت قد بدأت رحلتها من ميناء أمدرمان أو البقّعة[٩] كما كانت تسمى في ذلك الوقت إلى جهة فاشودة على النيل الأبيض وقد استغرقت هذه الرحلة حوالي الثلاثة أشهر ولم اتمكن من معرفة المدة



بالضبط نسبة لأن الأوراق التي تبين تاريخ إقلاع الوابور من ميناء أمدرمان ساقطة، وما وجدته يوضح تاريخ قيامها من ودّ الزاكي وهو ٤ محّرم سنة ١٣١٣(١٠) ووصولها إلى فشودة في ٢٩ ربيع الثاني سنة١٣١٣(١١) وهذا يعني أن زمن الرحلة من أمدرمان إلى ودّ الزاكي غير مثبت.. والجدير بالذكر أن مهمة رحلة هذه الوابور كانت لجلب الغلال والعيوش من تلك الجهة لتوزيعها على المحاربين... ويوضح تاريخ الرحلة أنها كانت أبان أحداث إعادة السودان..

وكانت الترسانة في العهد التركي من أكثر المصالح تنظيماً وذلك لأهتمام الأتراك وعنايتهم بمسألة النقل النهري وحين جاءت المهدية إحتفظت بمعظم عمالها وموظفيها ولذلك وجدت بعض الدفاتر المختومة من المديرية والتي ترصد وتسجل عليها تحركات الوابورات وسفرياتها كما يسجل بها إسم الوابور ورئيسها وزمن ومكان وتاريخ تحرك الوابور، كذلك المراسي التي ترسو بها وهي كثيرة ومن أشهرها أم درمان، الدويم، فاشودة، الكاملين، مدنى، سنجة وغيرها.. كذلك يسجل زمن وتاريخ إقلاعها من كلّ مرسى أو ميناء كما تكتب ملاحظات عن ما يحدث للوابور من عطب وتأخير للمؤن أو تفريغها أو إشتباك مع الأعداء حتى تنتهي الرحلة.. هناك أيضاً سجل خاص بعمال الوابور وهو بمثابة ملف الخدمة المعروف في المصالح المختلفة الآن غير أنه لا يوجد ملف منفصل لكل عامل أو موظف إنما هو ملف واحد شامل لهم جميعاً ويكتب فيه إسم الشخص وجنسيته أو القبيلة التي ينتمي لها والوظيفة سواء إن كان عطشجي أو باشعطشجي أو وكيل مهندس(١٢) كذلك يسجل إن كان قد نقل من وابور آخر أو نقل إلى وابور آخر ويتمّ أيضاً تسجيل أسماء العوائل المرافقة لهم.. وإجراءات التسجيل هذه تتم عند كلّ سفرية وذلك لمراجعة الكشف بعد نهاية الرحلة لمعرفة من هرب ومن ترك الخدمة.. وفي أعلى الصفحة الأولى من الدفتر يكتب إسم الوابور وإسم ريّسها وإن لم يكن لها ريّس

يثبت ذلك أيضاً.. بجانب هذا هناك سجل خاص بالرواتب الشهرية وصرفها من بيت المال العمومي الذي تتبع له الترسانة، والرواتب التي تصرف لهم عينية ونقدية ويحددها الطيب محمد الطيب بنسبة ريال للعامل وثلاث ريالات للخادم، أما الريّس فله نسبة من الربح العمومي، وكان ذلك في فترة التركية وحتى منتصف المهدية(١٣).

كذلك هناك سجل خاص بعساكر الوابور وعوائلهم لصرف المؤن وتوزيع السلاح لهم ومعرفة من يقتل أو يجرح منهم.. والطريف في الأمر أن من بين عمال الوابور بعض النساء العاملات وأسماؤهن مسجلة في دفاتر الخدمة وقد كتب أمامهن نفس الملاحظات التي تسجل أمام العاملين من الرجال. حتى التنقلات من وابور ألى الآخر وترك الخدمة والهروب.. وقد أثبتت بعض حالات الهروب وسط العاملات.. إلّا أنني لاحظت وجود كلمة «آدية» أمام جميع العاملات بدلاً من الجنس أو القبيلة وكنت أظن أن المقصود بها أنثى ولكنني وجدتها أمام بعض الرجال مما يرجح أن المقصود بها رقيق أو مملوك وأعتقد أنه، وإن كانت وظيفة هؤلاء النسوة غير مسجلة كالرجال في دفاتر الخدمة، إلّا أنه من الواضح أنها تقتصر على إعداد الطعام للذين على ظهر الوابور..

ولم تدخل الدولة المهدية تطوراً يذكر على النقل النهري حتى بدأت الاستعدادات لاستعادة السودان.. فبنيت وابورات عبارة عن مدرعات قوية أثناء الحملة على الخرطوم في سنة ١٨٩٨، متوسط سيرها حوالي ٦ أميال في الساعة وتسير على عمق قدمين من الماء منها «السلطان» «والملك» «والشيخ» وبعضها بُني عند الحملة على دنقلا في سنة ١٨٩٦ «كالظافر» و«الناصر» وسرعتها ١٠ أميال في الساعة. هذا بجانب الوابورات القديمة التي بنيت في العهد التركي والتي جدّدت أثناء حصار الخرطوم وبعضها عبارة عن وابورات صغيرة منها «التوفيقية» «والزبير» التي بناها غردون في حصار الخرطوم وبعد فتح المدينة ركبها الإمام المهدي وسماها «الظاهرة» ويذكر نعّوم شقير في كتابه «تاريخ وجغرافية السودان» أنه كان بالسودان حوالي عشرون وابور في العهد الثنائي إذ أن بعض الوابورات قد تعطلت في أحداث الثورة المهدية كما أن بعضها قد غرق في الشلالات كوابور «أمبابة» الذي غرق في شلال السبوقة، «والمنصورة» الذي أرسله غردون مع نصحى باشا لملاقاة الحملة الأنجليزية الآتية لأنقاذه وقد غرق من جهة شندي..

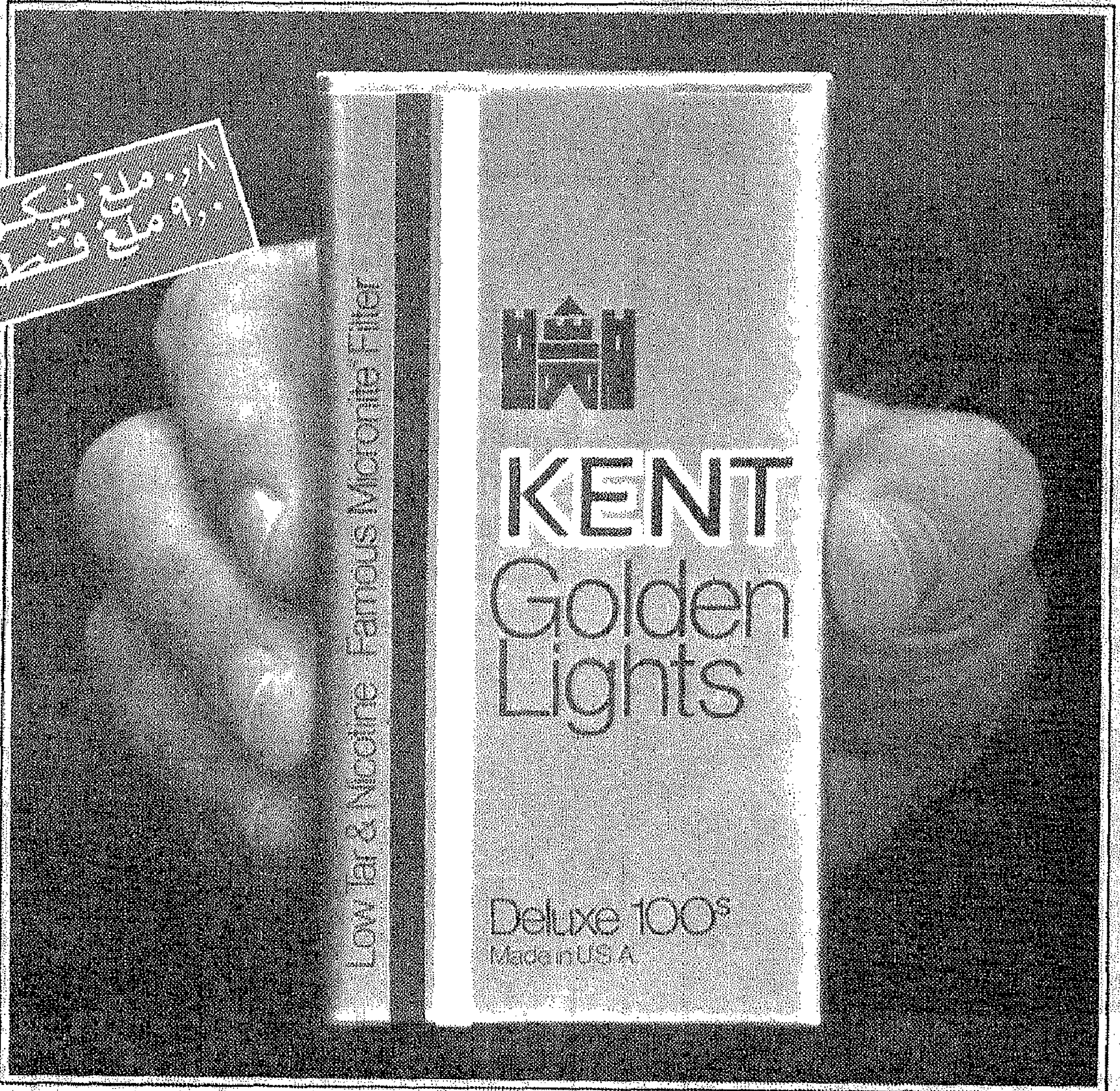
وهكذا فقد كان للنقل النهري سواء كان بالمراكب أو بالوابورات أهمية عُظمى في ذلك الوقت.. حتى بدأت سُبل المواصلات الحديثة وتطور النقل وبدأت أهمية المراكب والبواخر عامة تنحسر شيئاً فشيئاً حتى كادت أن تتوارى وتندثر.. ■



الهوامش

(١) الطيب محمد الطيب - (مقالات عن المراكب) - مجلة الحياة عام ١٩٦٨م.
(٢) ريتشارد هيل - (الموصلات في السودان) (Transport in Sudan)
(٣) المعروف أن طرق الصحراء في ذلك الوقت لم تكن مأمونة..
(٤) رتشارد هيل: «المواصلات في السودان» Transport in Sudan
(٥) مهدية / ٤ / ٣ أوراق ترسانة الخرطوم - دار الوثائق المركزية..
(٦) مهدية: ٤ / ٣ / ٣.
(٧) مهدية: ٤/ ٣/ ٢ - دار الوثائق.
(٨) مهدية: ٤/ ٣/ ١.
(٩) كانت منطقة ينزل بها المهدي تسمى بالبقعة كالجزيرة أبا مثلاً.
(١٠) يوافق ٢٧/ يونيو/ ١٨٩٥
(١١) يوافق ١٩ / أكتوبر / ١٨٩٥
(١٢) توضح هذه الوظائف إحتفاظ الدولة المهدية باصطلاح الوظائف التركية.
(١٣) أنظر مقالاته بمجلة الحياة.

السّجائر العالميّة الخمس الأوسع إنتشارًا تحتوي على ٥٠٪ من النيكوتين و القطران أكثر من كنت غولدن لايتس.*



كنت غولدن لايتس تعدك بمحتوى أقل من النيكوتين و القطران مع نكهة حقيقية.

لا أحد يعرف كيف تصنع السجائر الملطّفة المشبعة كصانعي كنت. ولهذا يتحوّل المزيد والمزيد من الناس إلى كنت غولدن لايتس. لقد اكتشفوا السيجارة بالمحتوى القليل من النيكوتين والقطران مع النكهة التي يحبّون. هذه النكهة التي يؤمنها الانتقاء الأفضل لأجوَد أنواع التبغ الطبيعي. محتوى أقل من النيكوتين والقطران مع نكهة حقيقية...

هذا هو وعد كنت غولدن لايتس

* إن محتوى النيكوتين والقطران في أصناف السجائر العالمية الخمس الأوسع إنتشارًا في الشرق الأوسط بالاضافة الى كنت غولدن لايتس تقرر بناء على طريقة لجنة التجارة الفدرالية (F.T.C.) في الولايات المتحدة الاميركية.

الملاحة بين الكواكب السيارة



نقولا شاهين

كان من بين النتائج التي أسفرت عنها الملاحة بين الكواكب السيارة تجديد النشاط في علم «الميكانيكا الفضائية» وهو فرع الفلك والفيزياء يعالج حركة الاجسام في مجال الجاذبية. ففي عام ١٦٨٧م، كان العالم «اسحق نيوتن» قد وضع المعادلات الكاملة للحركة في مجال الجاذبية، مبيناً أن القوانين التجريبية الثلاثة التي وضعها «كبلر» عن ظاهرة حركة الكواكب السيارة، مستخلصة من هذه المعادلات. وبالرغم من الأسماء العديدة التي رافقت تطور هذا الفرع من علم الفيزياء، فان هناك مسالة بقيت بعيدة عن حل نظري يعتمد عليه في تصميم القذائف، وهي حدس حركة جسم يتعرض لقوى جاذبية، ناشئة عن مجالين أو أكثر في الوقت نفسه.

وبعد مرور نحو قرن على دراسات «نيوتن»، قام العالم الفرنسي «جوزيف لويس لاكرانج» بتطوير طريقة تقريبية لمعالجة هذه المسألة. ففي حوالي عام ١٨٤٥م تم التوصل بهذه الطريقة إلى اكتشاف فرق مقداره واحد في المائة من الدرجة لكل قرن بين ما قررته الحسابات وما بينته التجارب في حركة الكوكب السيار «عطارد».

وكان من نتائج هذا الفرق البسيط أنه جاء بعد قرن تقريباً يثبت إلى حد ما نظرية النسبية العامة لـ «آينشتاين». وفي حال تطبيق نواميس «الميكانيكا الفضائية» وقواعدها على الملاحة بين الكواكب السيارة، فلا بد من اتخاذ إجراءات دقيقة للغاية، مع العلم ان العمليات الحسابية المعنية تقوم بها الأجهزة الحاسبة الالكترونية.

على أن النظريات التي ترافق تصميم مسار المركبات الفضائية التي تنطلق بين الكواكب السيارة، يمكن شرحها عن طريق وسائل أقرب كثيراً إلى الواقع الحقيقي، ولما كان من الصعب معالجة أكثر من مجال جاذبي في وقت واحد، لجأ العلماء إلى تقسيم النظام الشمسي إلى ثلاث مناطق، يتحكم في كل منها مجال جاذبي واحد. ففي المنطقة الاولى تتحكم جاذبية الارض وحدها بالمركبة، وفي المنطقة الثانية حيث تجتاز المركبة معظم مجال الجاذبية الأرضية، تتحكم فيها جاذبية الشمس وحدها، وفي المنطقة الثالثة تتحكم في المركبة جاذبية الكوكب المراد الوصول اليه.

وبموجب معادلات «نيوتن»، تتخذ المركبة الفضائية لدى انطلاقها ضمن أي من هذه المناطق، مساراً «هذلولياً» (Hyperbolic) اذا كان انطلاقها بسرعة تمكنها من الافلات ومغادرة منطقة ما، واهليلجيا (Elliptic) اذا كان الأمر خلاف ذلك، كما هي الحال في جميع الاقمار الاصطناعية التي تدور حول الارض، ولا تتمكن من مغادرة نطاق جاذبيتها، لأنها لا تملك الطاقة الكافية لذلك.

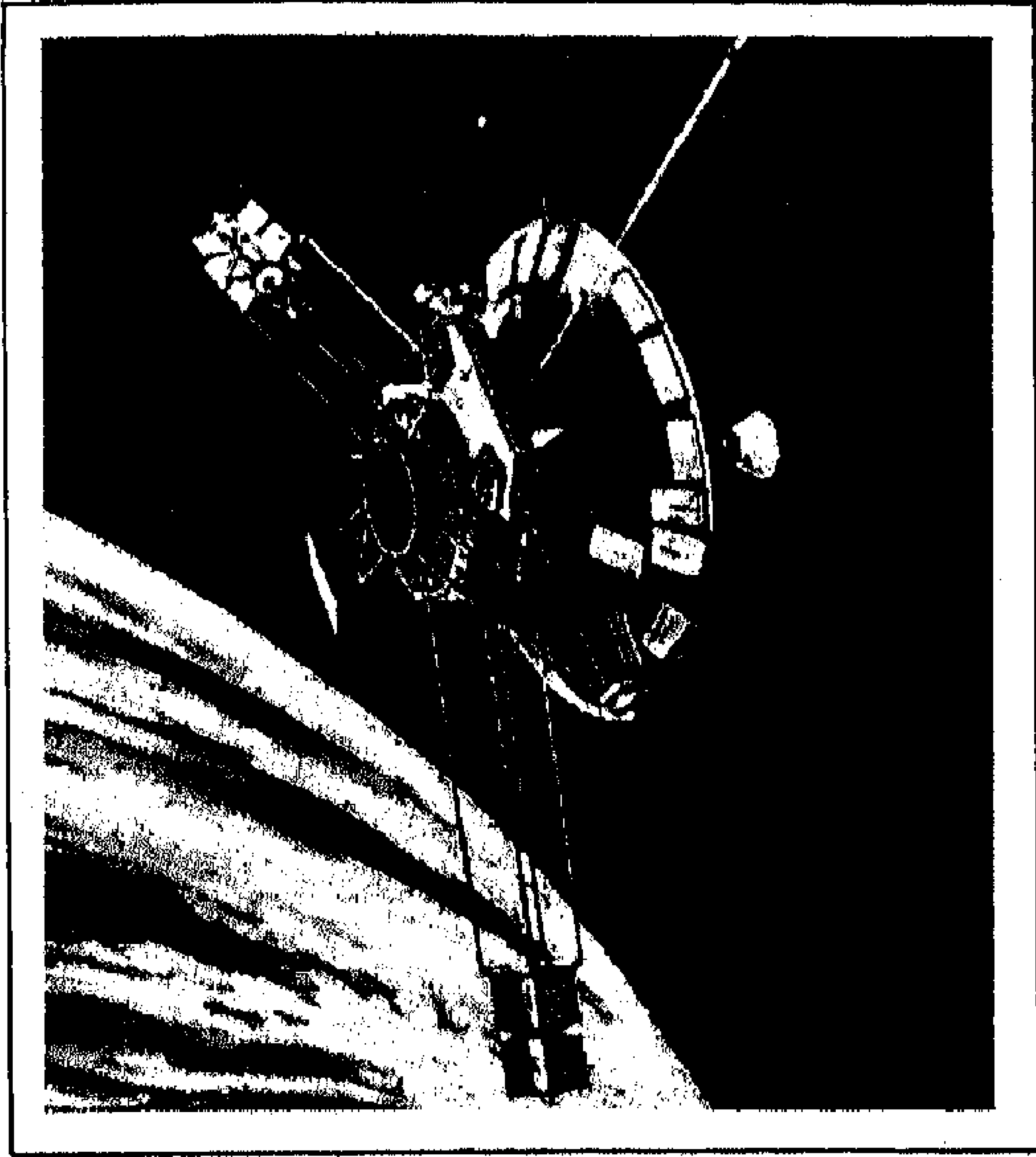
أما المركبة التي تنطلق إلى ما بين الكواكب السيارة، فانها تتمكن بفضل طاقتها العظيمة من التغلب على جاذبية الأرض فتتخذ مساراً هذلولياً، كما تشاهد من الأرض، ومساراً اهليلجياً (Elliptic) كما تشاهد من الشمس. واذا وقعت المركبة في نطاق جاذبية أحد الكواكب السيارة فانها تتخذ مساراً هذلولياً. وهي تنطلق حول الكوكب لتعود إلى مسار اهليلجي حول الشمس. وعند هذه النقطة يصبح

نقولا شاهين من مواليد ١٨٩٧ أستاذ في العلوم، الجامعة الاميركية في بيروت ومدير سابق لمرصدها.

بالامكان إشعال صواريخ ضابطة، لنزع جزء من طاقة المركبة ووضعها في مدار اهليلجي دائم حول الكوكب. أما إذا كان تصميم المسار قد هيأ المركبة للهبوط، فانها في هذه الحال تصطدم بالهدف وهي في مسارها الهذلولي.

وبعد النجاح الذي أحرزه العلماء في إطلاق مركبات فضائية تدور حول القمر وتبث أخباراً وصوراً عن طبيعة سطحه، وبعد انتصار العلماء في إنزال انسان على سطح القمر، فقد تبين أن الانسان يستطيع التغلب على جاذبية الأرض والخروج منها لكي يصل إلى جرم آخر حيث تتحكم فيه جاذبية ذلك الجرم بنسبة قوتها. وبالرغم من أنه لم يمض على اطلاق أول سفينة فضائية تحمل أول رجل إلى الفضاء إلا إثنان وعشرون عاماً فان رحلات الفضاء العديدة التي قام بها الانسان إلى القمر خلال هذه المدة قد شجعت على المضي في تحقيق الملاحة بين الكواكب السيارة. وقد أصبح شائعاً في الأوساط العلمية، أن السرعة المطلوبة للتغلب على جاذبية الأرض، هي ٤٠٠٠٠ كيلومتر في الساعة، وهي السرعة نفسها التي انطلقت بها مركبات «أبوللو» وغيرها من المركبات الفضائية إلى القمر.

ومن ناحية أخرى، أطلق العلماء السوفيات ثماني مركبات فضائية إلى كوكب الزهرة، خضع بعضها لجاذبية ذلك الكوكب فهبط على سطحه أو تحطم بعد أن أرسل معلومات مهمة خلال دوراته حول ذلك الكوكب، ومن بين هذه المجموعة من المركبات الفضائية المركبة «فينيرا – ٧» التي هبطت برفق على سطح كوكب الزهرة وظلت ترسل معلومات مدة ٢٣دقيقة، والمركبة «فينيرا – ٨» التي أطلقت في ٢٧ آذار/مارس ١٩٧٢، للقيام بسلسلة من القياسات العلمية، ولما كانت الحرارة على سطح الزهرة تبلغ نحو ٤٥٠ درجة مئوية فوق الصفر، أصبحت السفن الفضائية عرضة لظروف غير عادية مما حدا بالعلماء إلى تجهيز السفن الفضائية المرسلة إلى كوكب الزهرة بما يقيها وطأة هذه الحرارة الشديدة. والمعروف أن كوكب الزهرة يبعد عن الأرض مسافة تتراوح بين ٤٢و٢٥٠ مليون كيلومتر، حسب موقع الكوكبين

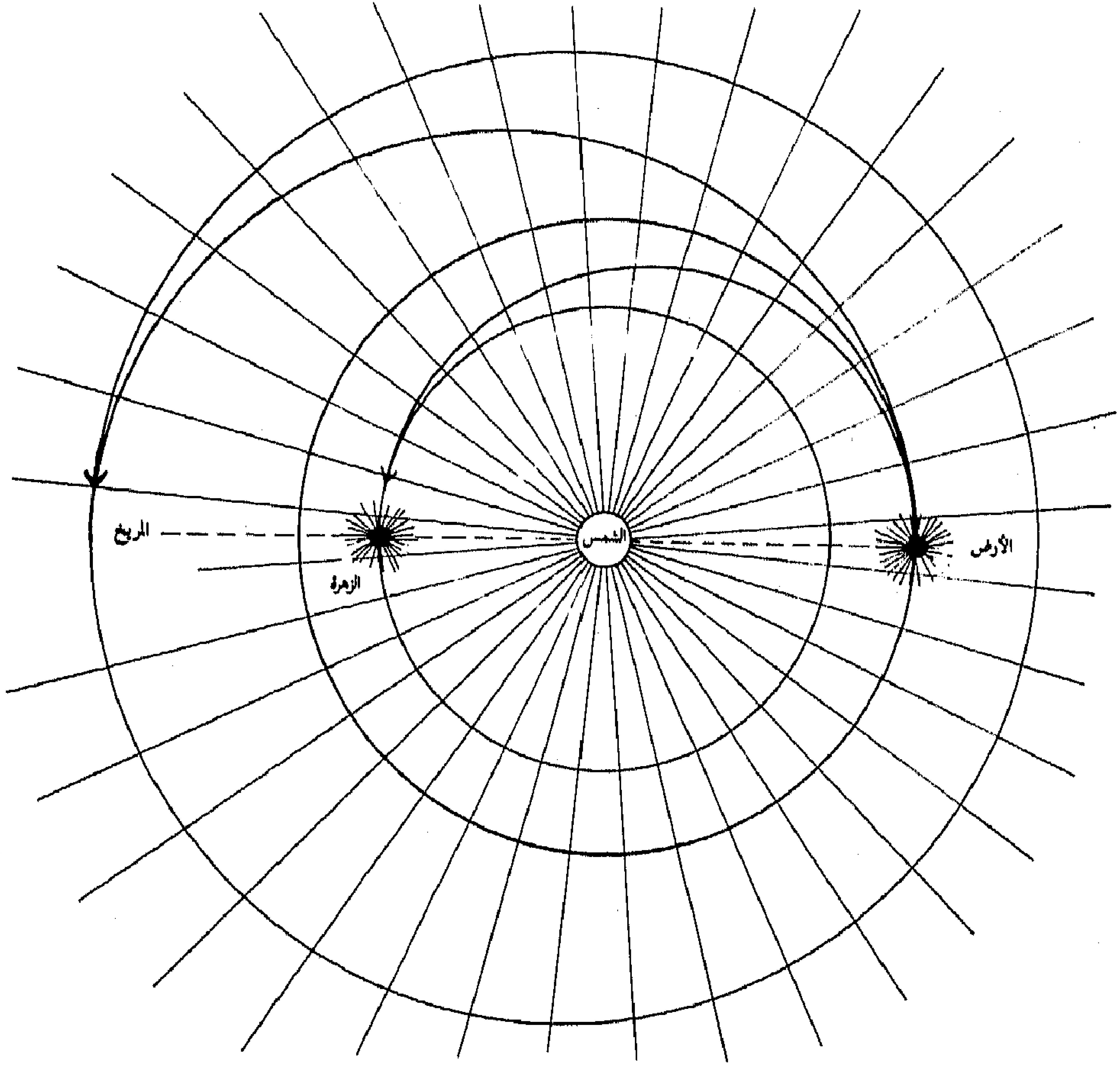


المركبة الفضائية (بايونير ١٠) التي أطلقت نحو المشتري سنة ١٩٧٢

في دوراتهما حول الشمس وعندما انطلقت مركبة «مارينر – ٩» نحو كوكب المريخ في ١٧ايار (مايو) عام ١٩٧١، كان ذلك استكمالاً لأبحاث تتعلق بمعرفة طبيعة سطح هذا الكوكب الأحمر الذي قال فيه أبو العلاء المعري:

ولنار المريخ من حدثان الدهر
مطف وان زهت باتقاد

وجدير بالذكر أنه سبق أن أطلقت مركبات أخرى من نوع «مارينر» نحو كوكب المريخ، والتقطت صوراً له وبثتها إلى الأرض دون أن تدور حوله. وقد جاءت هذه الصور بمعلومات تبين من خلالها أن سطح كوكب المريخ يتألف من فوهات البراكين، كما هي الحال بالنسبة لسطح القمر، وصحراء قاحلة تخلو من الفوهات والجبال، وصخور وأتربة تكونت بفعل انهيارات مع مرور الزمن. ووصلت هذه المركبة إلى نطاق جاذبية كوكب المريخ بعد رحلة دامت أكثر من خمسة أشهر قطعت خلالها مسافة ٤٠٠ مليون كيلومتر، بسرعة تبلغ نحو ١٨٠٠٠ كيلومتر في الساعة. وعندما وصلت المركبة الفضائية إلى منطقة جاذبية كوكب المريخ، تلقت أوامر من محطات المراقبة الأرضية، فأشعلت محركاً عاكساً، يعمل بالوقود السائل، مدة ١٥ دقيقة، فتدنت سرعتها إلى نحو ١٣٠٠٠ كيلومتر في



يمثل هذا الرسم مسارين لمركبتين فضائيتين احداهما تصل كوكب الزهرة والأخرى تصل كوكب المريخ وذلك عندما يكون بُعد موقع الهدف عند الأرض ١٨٠ درجة.

الساعة، وهنا أخذت المركبة الفضائية تدور حول كوكب المريخ مرتين كل يوم وتبث الصور من على بعد ١٢٢ مليون كيلومتر عن الأرض. وقد بلغ عدد الصور التي التقطتها المركبة الفضائية «مارينر» خلال الأشهر التي قضتها في الدوران حول كوكب المريخ أكثر من خمسة آلاف صورة.

وبعد بضعة أيام من اطلاق المركبة الأمريكية «مارينر – ٩»، أطلق العلماء السوفيات مركبتين فضائيتين هما «مارس – ٢» و«مارس – ٣» نحو كوكب المريخ في ١٩ و٢٨ ايار (مايو) ١٩٧١، وبلغ وزن كل من المركبتين أربعة أطنان ونصف الطن. وقد بدأت المركبة «مارس – ٢» بالدوران حول كوكب المريخ في ٢٧ تشرين الثاني (نوفمبر) عام ١٩٧١ فأنزلت على سطحه لوحة. أما المركبة «مارس – ٣» فقد هبطت على سطح المريخ برفق، وظلت تبث معلومات مدة ٢٠ ثانية تقريباً.

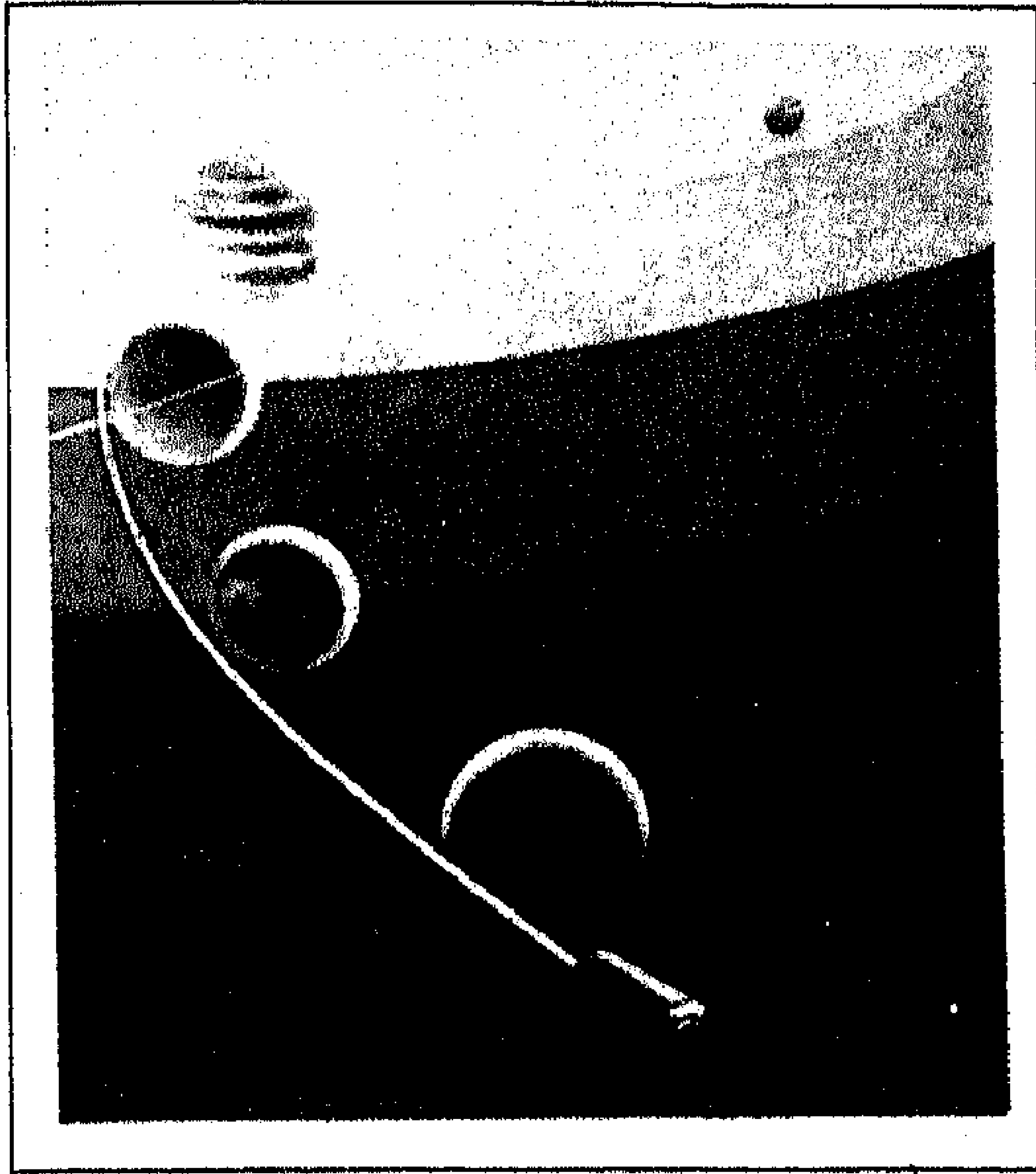
إلى المشتري وما وراءه:

هذا وما زال العلماء يتطلعون إلى القيام بمزيد من الرحلات الاستكشافية إلى كوكبي الزهرة والمريخ كلما كان هذان الكوكبان في وضع ملائم من الأرض، وهي ظاهرة تحدث ما بين خمس أو ست مرات كل عشر سنوات. ويقترح علماء الفضاء أنه بدلاً من استعمال مركبات فضائية معقدة التركيب وباهظة

التكاليف، كما هي الحال في «مارينر»، يقترحون استخدام مركبات من نوع «بايونير» التي أطلقت لأول مرة عام ١٩٥٨، وهي أصغر من مركبات «مارينر» حجماً، وتدور حول نفسها ٦٠ دورة كل دقيقة، كما يمكن حشوها بالأجهزة الحديثة الفريدة. وقد حملت أول مركبة من هذا النوع في داخلها نحو ٣٠٠٠٠٠ قطعة، ظلت تعمل بدقة مدة طويلة. وفي حال وضع مركبة فضائية من نوع «بايونير» في مدار حول أحد الكواكب السيارة، فان هذه المركبة الصغيرة يمكنها ارسال معلومات علمية مفصلة وافية، والتقاط صور بواسطة آلة تلفزيونية تعتمد على ترانزستورات يبلغ وزنها نحو أربعة كيلو غرامات،

وفي الثالث من شهر آذار (مارس) ١٩٧٢، أطلق العلماء الأميركيون مركبة «بايونير – ١٠» إلى الكوكب السيار «المشتري» في رحلة تستمر ٢١ شهراً تقطع خلالها نحو بليون كيلومتر بسرعة خمسين ألف كيلومتر في الساعة منتظرين أن تزداد سرعة هذه المركبة ازدياداً هائلاً في عام ١٩٧٣، وذلك عندما تقترب من كوكب «المشتري» بسبب قوة جاذبيته، فتصبح نحو ١٢٤٨٠٠ كيلومتر في الساعة، وتندفع نحو نهاية النظام الشمسي . وفي عام ١٩٨٣ أو ١٩٨٤ تفلت المركبة بما يبقى فيها من أجهزة من النظام الشمسي وتتيه في مجرتنا.

لقد أطلق علماء الفضاء العنان لتفكيرهم ودراساتهم، فجاءت النتائج شبيهة بالخيال العلمي، لكنها مشفوعة بالحقائق والأرقام الصحيحة. فمثلاً، تبين لهم أن أضخم الصواريخ المعروفة حتى اليوم، تتمكن بفضل زيادة مرحلة أخرى من مراحل الاطلاق، من حمل كمية زهيدة من الأجهزة نحو الكواكب السيارة البعيدة، ويستغرق هذا النوع من الصواريخ مدة لا تقل عن ست سنوات للوصول إلى الكوكب السيار «زحل» و١٦ سنة للوصول إلى الكوكب «أورانوس»، و٣١ سنة إلى الكوكب «نبتون». وبعد تفكير عميق اكتشفوا أن الجاذبية هي خير مصدر للقوة اللازمة للصواريخ الضخمة.



صاروخ نووي خاص بتجهيز المركبات الفضائية.

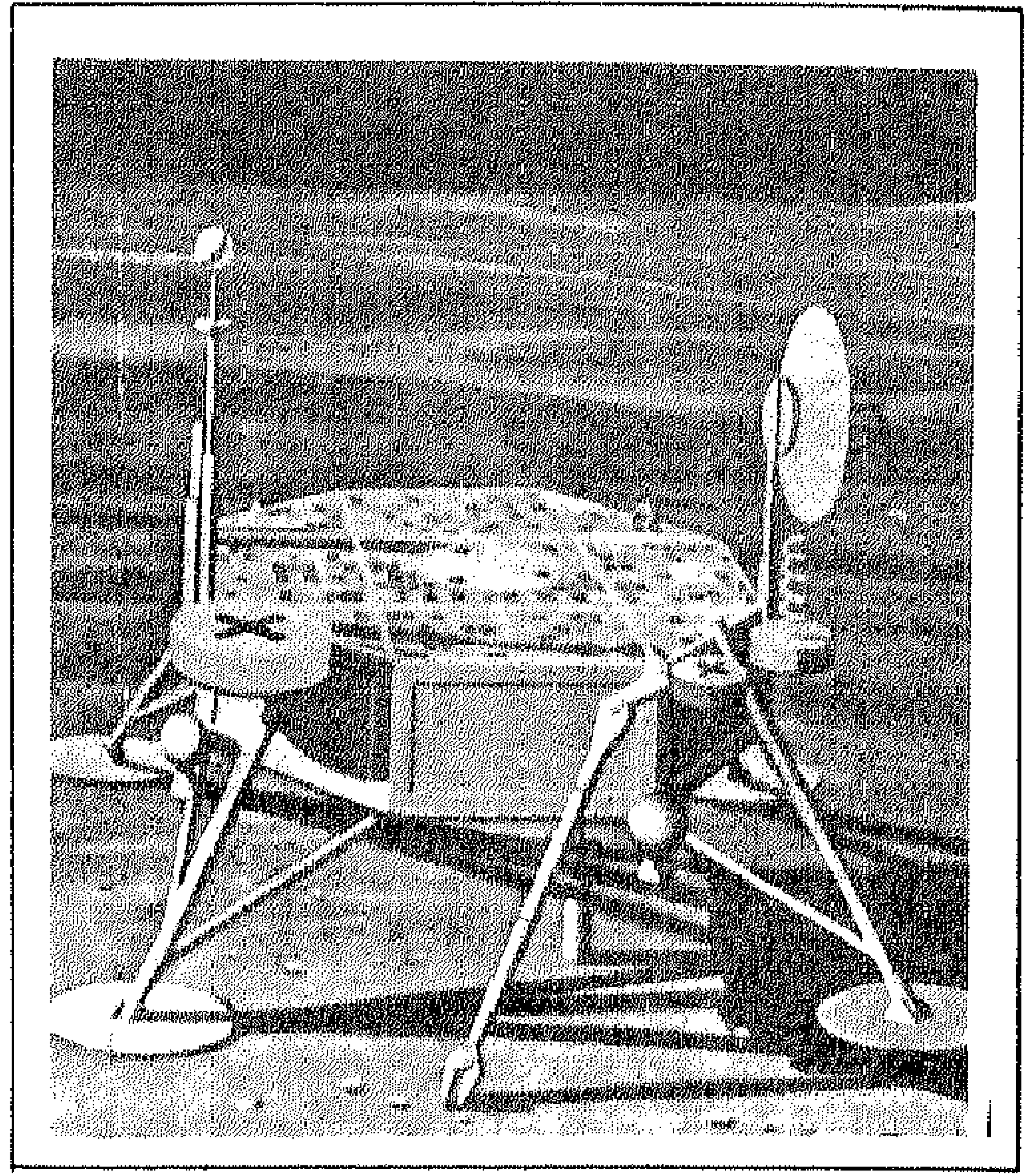
ويقول أصحاب هذا الرأي أن صاروخاً من نوع «ساتون – ٥» قد يصبح بامكانه اطلاق مركبة تكتسب عند مرورها بالقرب من كوكب «المشتري» سرعة تمكنها من الوصول إلى الكوكب السيار «زحل» في مدة ثلاث سنوات، وإلى الكوكب «أورانوس» في مدة ٦ سنوات. ومن جهة أخرى، وجد العلماء ان الكواكب السيارة تكون في وضع ملائم بالنسبة إلى الأرض في عام ١٩٧٨، بحيث يصبح في امكان مركبة فضائية اذا ما أطلقت في ٧تشرين الأول (اكتوبر) من تلك السنة، المرور بالمشتري فزحل، فأورانوس، فنبتون، مكتسبة دفعاً جاذبياً عند اقترابها من كل كوكب من هذه الكواكب السيارة.

دور الدماغ الالكتروني في الرحلات الفضائية:

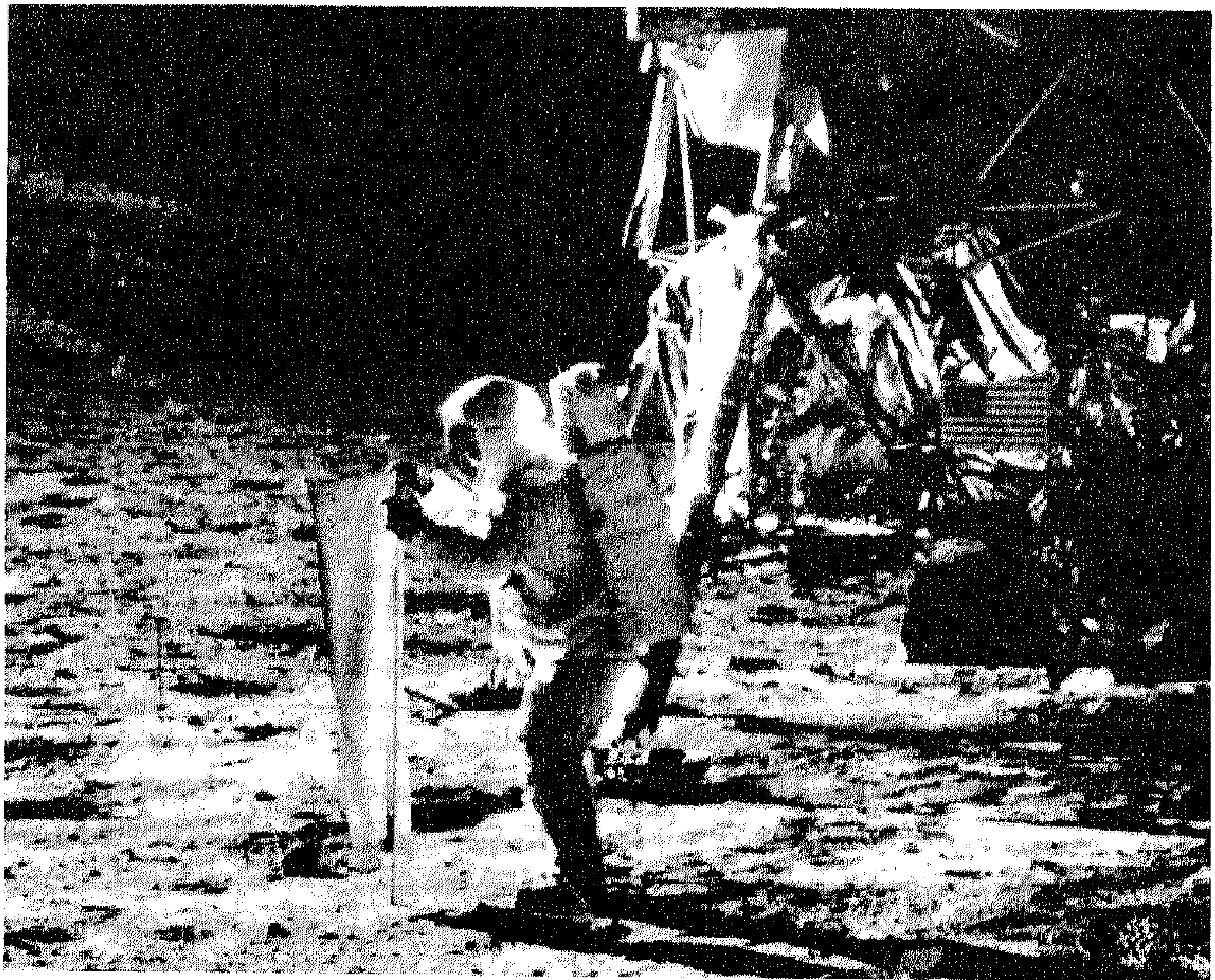
يعزي النجاح الذي حققته المركبة الفضائية «مارينر – ٩» في رحلتها إلى كوكب المريخ، إلى دماغ ألكتروني ثبت في المركبة الفضائية نفسها وكان يتحكم كلياً بتصرفاتها، وهكذا تم وضع أول قمر اصطناعي من صنع الانسان، يدور حول كوكب سيار غير الأرض. وقد أصبح

معروفاً أن كل مرحلة من المراحل التي تنطوي عليهـا الرحـلات الفضائيـة، تتطلب الاعتمـاد المتواصل على الحسابات الالكترونية سواء كان ذلـك في عمليـة التصميم أو أثنـاء مـراحـل الانطلاق.

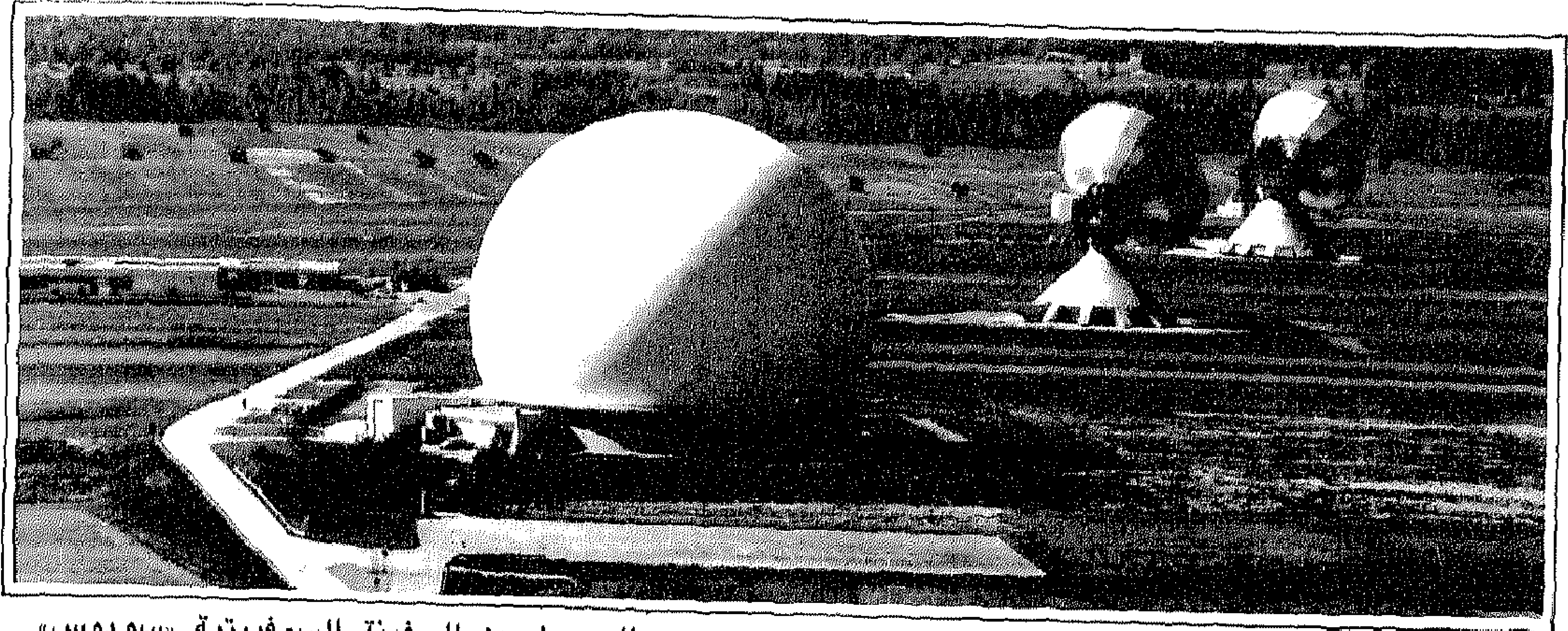
وفي عـام ١٩٦٨ أطلق العلماء السـوفيـات المركبة «كوسموس - ١٨٦» وبعد ثلاثة أيام من اطـلاقهـا، أطلقـوا جـرمـاً آخـر هـو «كوسموس - ١٨٨» في مدار «كوسمـوس - ١٨٦» وعلى بعد نحو ٢٤ كيلومتراً منه. وعند اطلاق «كوسموس - ١٨٨»، بدأت الحـاسبة الالكترونية الموجودة في «كـوسموس - ١٨٦» عملهـا، للالتحـام تلقائيـاً بـ «كـوسمـوس - ١٨٨»، فوجهت المركبتان أجزاءهما الالتحامية الواحدة نحو الأخرى، وهناك فوق احدى جزر الأطلنطي الجنوبي تم التحام المركبتين، وبقيتا معاً مدة ثلاث ساعات ونصف الساعة قامتا



مركبة فضائية من طراز «فايكنج» مجهزة بالسوابر جرى اطلاقها إلى كوكب المريخ، عام ١٩٧٣.



الرائد الفضائي «الدرن» فوق سطح القمر وتبدو المركبة «ابوللو» (١٩٦٩).



المحطة الفضائية الالمانية اللاسلكية «رسيتينج» التي لعبت دور الوسيط بين السفينة السوفييتية «سويوس» والاميركية «ابوللو».

خلالها بالمهمة العلمية المطلوبة، ثم انفصلتا وعادتا إلى الأرض برفق.

هذا نموذج لما تقوم به الأدمغة الألكترونية من مهام علمية في حقل الفضاء، وهناك الكثير من الأمور العلمية الأخرى التي تم إنجازها بفضل هذه الأجهزة كتوجيه مركبات «أبوللو» عند انطلاقها نحو القمر بدقة فائقة، والاتصالات بين المراكز الأرضية ورجال الفضاء على سطح القمر، وتتبع مسارات المركبة «لوناخود» التي ظلت تجوب بقعة قمرية لسنة أو أكثر.

وقد بدأ علماء الفضاء في سنة ١٩٧٠ في تصميم دماغ ألكتروني لتوجيه المركبات غير المأهولة في رحلاتها بين الكواكب السيارة. كما حصل عند اطلاق المركبة الفضائية «بايونير - ١٠» نحو الكوكب السيار «المشتري». وهكذا نرى أن الملاحة بين الكواكب السيارة تستند إلى درجة كبيرة على أدمغة ألكترونية حديثة تفوق الأجهزة السابقة من حيث الدقة وجودة الاداء.

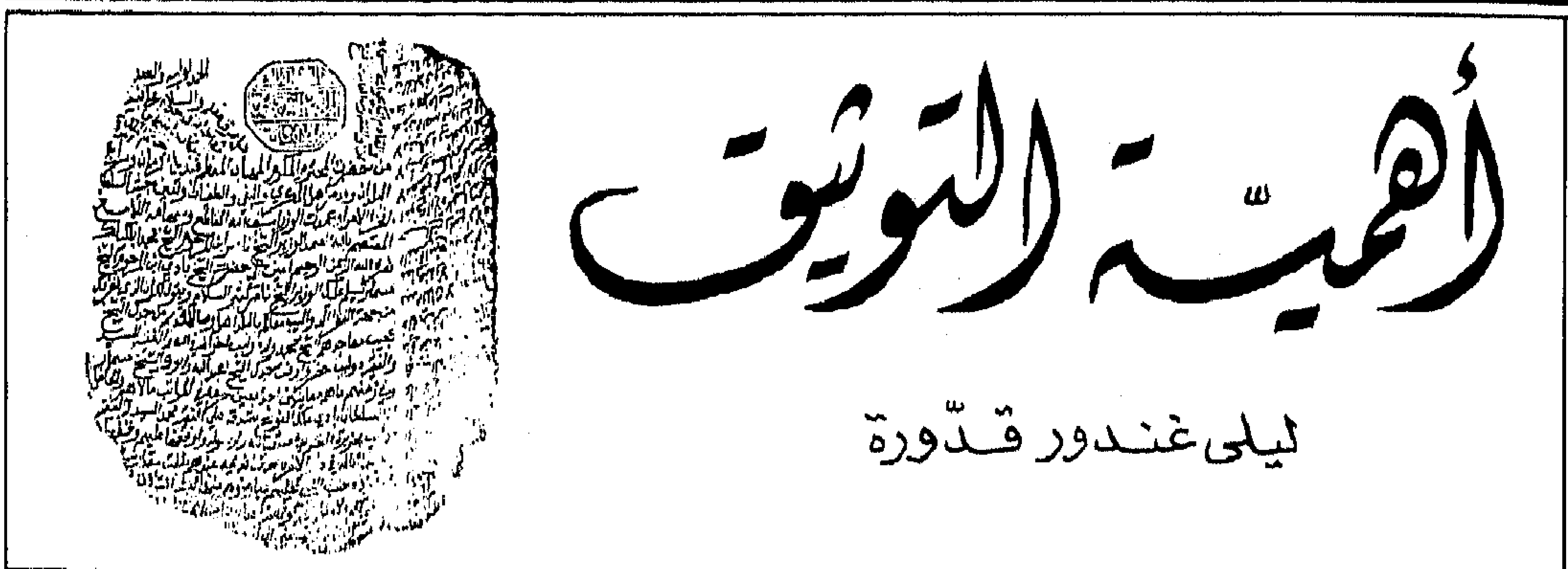
مصادر الطاقة في الملاحة الفضائية:

يقول بعض علماء الفضاء أن دفع المركبات بين الكواكب السيارة عن طريق قوى الجاذبية يساعد على تخفيض مدة الرحلة بشكل محسوس، لكنه لا يساعد على تخفيض كمية الوقود المستهلكة والدفع الأولي الهائل الذي تحتاج اليه المركبة عند اطلاقها إلى الفضاء. لكن هناك طريقة جديدة للدفع يجري العمل على تطويرها وهي المحرك الأيوني الذي يستمد قوته من أشعة الشمس. وقوام هذه العملية الطاقة الكهربائية المستمدة من الخلايا الشمسية.

ويختلف الأمر هنا عما هو عليه في الصواريخ الكيميائية، حيث يستهلك معظم الوقود في الدقائق الأولى القليلة، لأن المحركات الأيونية تستطيع العمل لأشهر وحتى لأعوام دونما توقف، وبمقدار زهيد من الوقود. وقد تمكن محرك أيوني من العمل المتواصل مدة ٣٤١ يوماً. وهكذا بعد أن يستنفد الصاروخ الكيميائي وقوده، ويدفع المركبة الفضائية إلى خارج نطاق جاذبية الأرض، يبدأ المحرك الأيوني عمله، وبصورة تدريجية تكتسب المركبة الفضائية السرعة المطلوبة لها خلال رحلتها التي تستغرق عادة أشهراً أو سنوات.

ويقول علماء الفضاء أن استخدام المحرك الأيوني مكان الوقود الكيميائي لزيادة سرعة المركبات عبر الفضاء السحيق، سيمكنهم من اطلاق سوابر إلى الكواكب السيارة الخارجية، عن طريق صواريخ ذات دفع قليل، أو من اطلاق حمل كبير عن طريق صاروخ من نوع «ساتورن - ٥». كما أن جاذبية الكواكب السيارة سيكون لها أثرها الفعال في أن يفسح المحرك الأيوني المجال أمام سوابر غير مأهولة لدراسة طبيعة الكواكب السيارة الخارجية والمناطق الواقعة خارج نطاق النظام الشمسي. ■

تزداد أهمية علم التوثيق مع تقدّم المجتمعات بعامة، وقد غزا في لبنان مجالات عمل مختلفة وخصصت له كلية الاعلام جانباً مهماً في فصولها الدراسية وأردفته إلى اسمها، وتعرّفنا هنا مديرة الفرع الأول لهذه الكلية على هذا العلم محدّدة دلالته واهميته، وهي الخبيرة والمسؤولة في هذا المجال.



أهمية التوثيق

ليلى غندور قدّورة

من أهم ماتتميز به المجتمعات المتطوّرة الحديثة اهتمامها لفنون حفظ الوثائق والمعلومات وتصنيفها واسترجاعها بحيث تكون هذه الوثائق والمعلومات بمتناول أيدي الباحثين والقائمين على السياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية وغيرها. فالمجتمعات المتطورة تعي تمام الوعي أن التخطيط العلمي لابد وأن يرتكز على الاحصاءات الدقيقة والبيانات السليمة. من هنا كانت أهمية موضوع التوثيق.

إن الدلالة الاصطلاحية التي تعنيها كلمة «توثيق» مأخوذة من الدلالة الاصطلاحية المقابلة لكلمة (Documentation) الغربية وهي تلك الدلالة الاصطلاحية المرتبطة بـ«المكتبات»: وبـ«علوم المكتبات»: والمكتبات كمهنة وعلوم المكتبات تعتمد على ثلاثة محاور رئيسية هي:

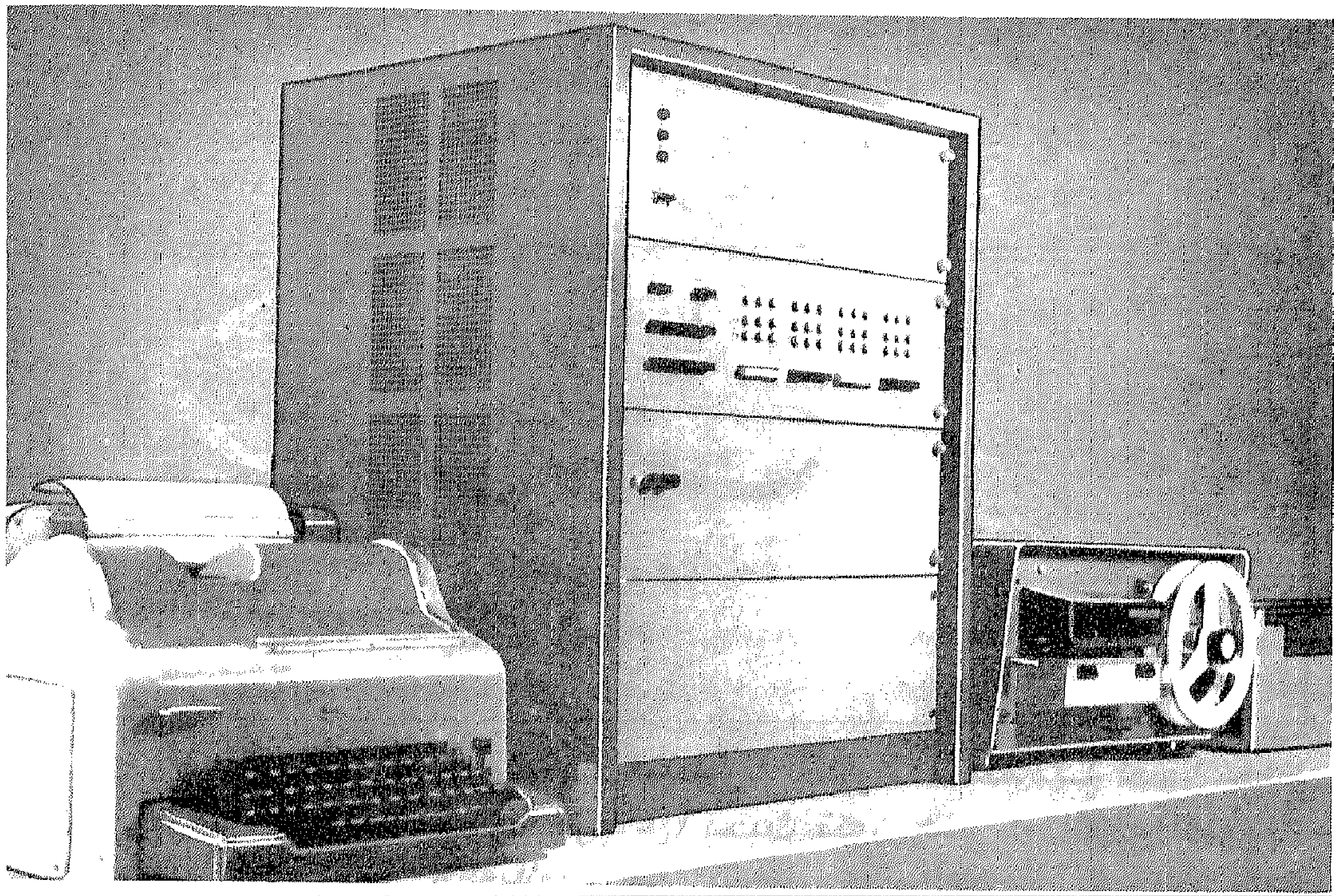
(أ) **إقتناء** مواد المعرفة من الكتب والدوريات والنشرات وغيرها من الأوعية الحديثة: كالشرائط الضوئية والمسجلات الصوتية على اختلاف الأنواع والأشكال في كل منها.

(ب) **وتنظيم** هذه المواد بما يتلاءم مع طبيعتها ومع تطلعات الباحثين والقراء حيث يتم تصنيفها وفهرستها طبقاً لنظام معين يحقق هذا التلاؤم المزدوج.

(ج) وإتاحة هذه المواد للقراء والباحثين على شكل **خدمات وظيفية** تستجيب لحاجاتهم الفعلية أو المتعلقة على اختلافها في النوع وتفاوتها في الدرجة.

وقد جاء تفسير (Documentation) بهذا المعنى الاصطلاحي في أكبر قواميس اللغة الانجليزية (Webster) وأحدثها وجعلها تعتمد على تلك المحاور الثلاثة وهي: الاقتناء، والتنظيم والخدمة. وقد كثر استخدامها بهذا المعنى الاصطلاحي في العربية خلال العقدين الأخيرين، حيث عقدت من أجلها المؤتمرات والندوات وقامت الحلقات والدراسات، كما أنشئت مؤسسات عديدة في كثير من البلاد العربية تقوم بهذه الوظائف الثلاثة بالنسبة للعلماء المتخصصين وكبار الباحثين، في مجالات العلوم والتكنولوجيا والتربية والتخطيط

ليلى غندور قدّورة، مديرة كلية الاعلام والتوثيق (الفرع الاول) الجامعة اللبنانية.



والاقتصاد وتسمى بأسماء تشتمل على هذه الكلمة مثل «مركز التوثيق التربوي أومركز التوثيق بمؤسسة الطاقة الذرية ومثل المركز القومي للأعلام والتوثيق حيث يضاف إليها مصطلح آخر (الاعلام أوالمعلومات) لأن كلمة (Documentation) الغربية نفسها بدأت تخلي مكانها لاصطلاح جديد هو Information) Science) الذي اختير له في العربية «علم الأعلام» أوالاعلام أوالمعلومات. على أن الأمر في العالم العربي مايزال حتى هذه اللحظة وكأنه يحتفظ لكلمة «توثيق» بالمنزلة الأولى لهذه الدلالة الاصطلاحية قبل كلمة «اعلام». وقد انتشر في الفترة الأخيرة استعمال كلمة «معلومات» التي قد تكون بديلاً لكلمة «توثيق».

بناء على هذا فالفكر الانساني يتخذ في وجوده دورة مستمرة يمر خلالها بمواقف متتالية من «**بحث**» لاحدى القضايا أوالمشكلات التي تواجه الانسان إلى «تكوين» فكرة جديدة عن القضية أوالمشكلة ثم **تحميل** هذه الفكرة من أحد الأوعية المألوفة لنقل الرصيد الفكري كتاباً مستقلاً أومقالة بإحدى الدوريات أوغيرها من وسائل التسجيل.

ثم يبدأ النصف الثاني من الرحلة حينما يجري **إقتناء** الأوعية التي تحمل تلك الفكرة من جانب إحدى المكتبات أومراكز التوثيق، حيث يتم **تنظيم** تلك المقتنيات بما يتلاءم مع طبيعتها الخاصة ومع تطلعات الباحثين والقراء وأخيراً لابد أن تظهر بعض المواقف التي تحتم «**استرجاع**» تلك الفكرة لكي يستعين بها أحد العلماء.

إلى هنا بدا فن حفظ المعلومات أي أسلوب حفظ المعلومات وتصنيفها والرجوع إليها وكأن الاستفادة منه وقف على العلماء والباحثين والمسؤولين غير أنه في البلدان المتقدمة بلغ من المرونة والاتقان والحيوية ماجعله يؤدي الخدمات المتنوعة لكافة الجماهير على حد سواء. هذا ماحدا بكثير من المؤسسات إلى إنشاء خدمة عامة للجمهور تتيح له فيها أن يوجّه إلى قسم المعلومات مايشاء من أسئلة مختلفة متنوعة، وكل ذلك عن طريق المراسلة أو التلفون.

وحتى أننا نجد دروساً في عدة مواضيع في أبحاث المراجع وفي الحسابات العلمية والهندسية وفي ترجمات المصطلحات الفنية والتقنية من لغة إلى اخرى وفي ألعاب كالشطرنج

والتشيكرز حين تستعمل في مواجهة كمبيوتر مبرمج باعتباره منافساً قديراً، كلها أمثلة عن الامكانيات العديدة المتاحة في شبكات المعلومات المجمعة في الدماغ الالكتروني.

إن كل هذه النجاحات التكنولوجية مجتمعة قد جعلت من المعلومات مصدر ثروة أساسياً جديداً يكمل مصادر الثروات الطبيعية الأخرى كالطاقة والثروات المعدنية.

إن التوثيق وهو التقنية يتطور كثيراً والتغيرات في ميدان العلوم الوثائقية يومية. والتقدم في هذا الميدان سيكون كما توحي به التطلعات والنزاعات الحالية متعدد الجوانب وسوف يحدث على كل المستويات: بنيويات جديدة في الأنظمة، وأشكال تشغيل جديدة تماماً للأدمغة الالكترونية ووسائل تلقيم مجددة أيضاً.

وإن ما سوف تصير عليه وسائل التوثيق غداً، هو أمر يجري درسه أوربما تطبيقه في بعض المراكز ذات الامكانات المتقدمة، أولعله قيد التجربة والاعداد في بعض مؤسسات الأبحاث. إن مراكز وثائقية كبرى متمتعة بوسائل وإمكانات عظيمة تبصر النور وسوف يزداد عددها في السنوات المقبلة ازدياداً عظيماً. وهذه الأنظمة الوثائقية تتخذ مكانها في إطار التقنيات والعلوم والمجالات المتخصصة كما تدل على ذلك الأجهزة التي تستخدم حتى الآن.

إن نشر المعلومات في أنظمة وأجهزة الغد سوف يستخدم معتمدات جديدة كالميكروفيلم والأشرطة المسجلة والمخططات اليدوية على حساب المعتمدات التقليدية التي تتخذ الورق قاعدة لها.

فالتوثيق إذا لا يخص أصحاب الرأي وحدهم أوأصحاب الخبر في الصحافة والاذاعة والتلفزيون فحسب بل هو يخص جماهير المواطنين جميعاً.

إن الأركان الثلاثة بهذا العلم وتأثيرها على أوسع القطاعات الشعبية القارئة والمشاهدة والمستمعة هي **السرعة والنظام والموضوعية**. فبالسرعة تتيسر المتابعة لا اليومية بل لحظة فلحظة وبالنظام نختصر الزمن في الحصول على المعلومات من مكانها المحدد دون تشويش أوفوضى وبالموضوعية نستطيع الحصول على مختلف ألوان الحقيقة دون تحيّز(٣).

وهناك وثائق عديدة قد نشرت حتى اليوم على الميكروفيلم، ومن الممكن اليوم أن يشترك المرء في عدد من المجلات على شكل نسخ مصغرة وسوف تقوى هذه الاتجاهات مع الزمن أمام مواجهة تخزين المعلومات بشكل ورقي وهي مشكلات لا تحل.

واستخدام المعلومات المنشورة على شكل أشرطة مغناطيسية مسجلة ظاهرة بدأ تطبيقها، فهناك مؤسسات وأجهزة عديدة اميركية بشكل خاص تنشر المعطيات والمعلومات التي جمعتها وعالجتها على أشرطة مسجلة ويتم هذا النشر على أساس قاعدة الاشتراك للحصول على نسخ أشرطة والاشتراكات باهظة الثمن في الوقت الحاضر إذ تتراوح بين عشرين ألف ومئة وخمسين ألف فرنك في السنة على أن هذه التكاليف ستخفض باضطراد كلما ازداد الطلب على هذه الأشرطة في السنوات المقبلة.

إن التطورات التكنولوجية في ميدان التقنيات الوثائقية ستصبح أكثر أهمية ولا يمكن التنبؤ بها اليوم إلّا بصعوبة. فالتطور في ميدان الاعلام وشؤون المعلومات تطور يومي ولا يستطيع أحد اليوم أن يتنبأ بما ستصير عليه وسائل معالجة المعلومات غداً. وهذا يطبق على وسائل معالجة المعلومات الوثائقية وشؤون التوثيق(٣).

■

المراجع

(١) الهجرس سعد محمد «التوثيق ودراسته في علوم المكتبات». **التوثيق والمكتبات**: ١٥٣ - ١٥٩.

(٢) عودة، أبو الفتوح حامد.
تنظيم المعلومات الصحفية. القاهرة: مكتبة الانجلو المصرية، ١٩٦٨.

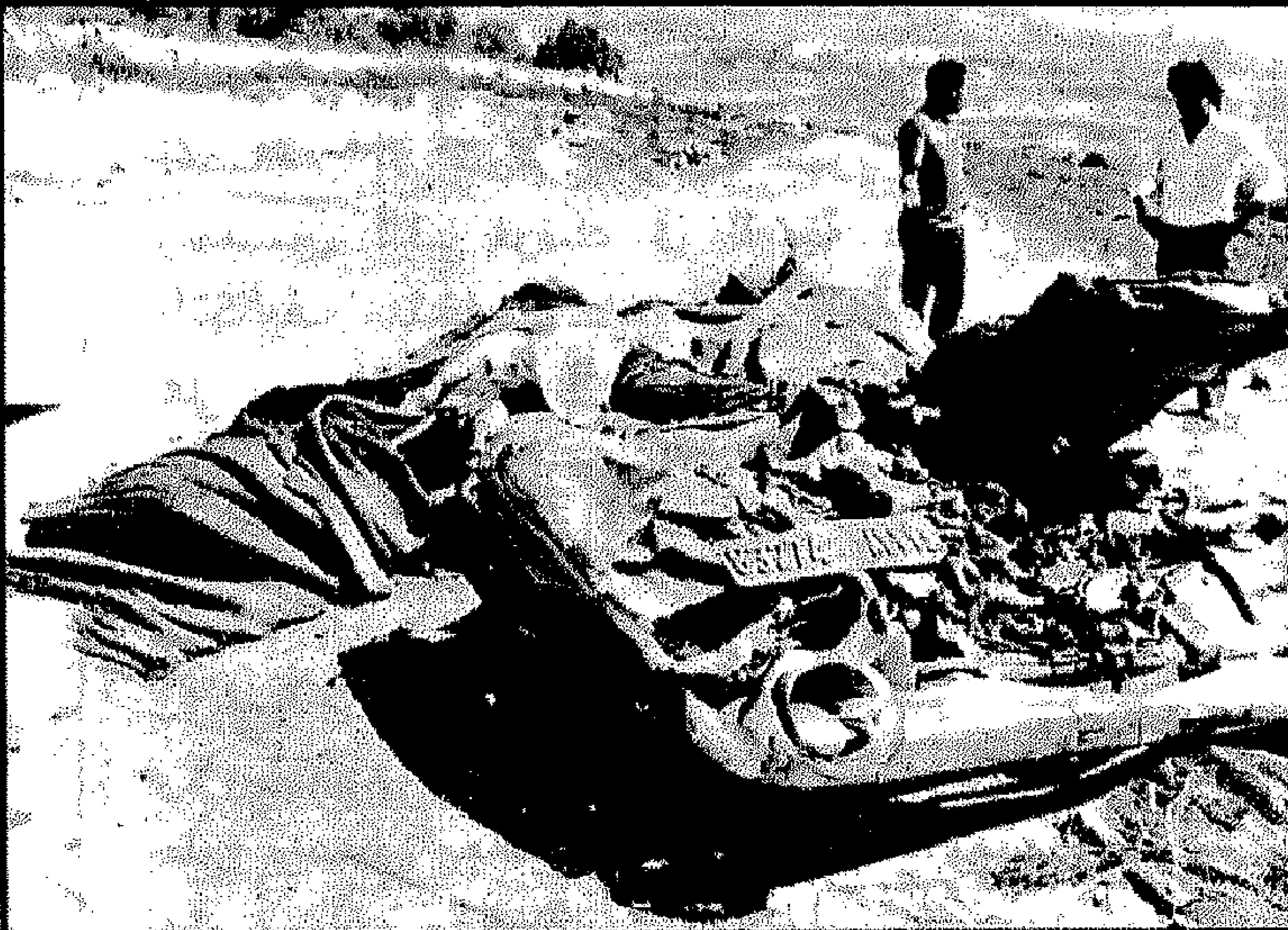
(٣) قبيسي محمد. **حضارة العرب في حفظ وثائقهم**. بيروت: منشورات دار الآفاق الجديدة، ١٩٧٩.






جنوب







يتفرد لبنان، وجنوبه خاصة، دون العالم أجمع، بوضع لا يكاد التاريخ، قديمه وحديثه، يذكر شبيهاً له. فهو يعاني من ظروف ليست من صنعه؛ أو ليس هو صانعها الوحيد، ويقاسي من عدم إمكان وضع حد لما يحدث، وبلوغ حل ينهي الظروف القائمة لخيره. ذلك أن الصراع على أرضه هو نتاج ما يحفل به الشرق الأوسط من عوامل التفجير، وما يكمن وراء ذلك من أهداف دولية.

إعداد قسم التوثيق والأبحاث

لبنان مأساة تتحدّى

وإذا اختير جنوب لبنان لتفجير هذا الصراع، فلأن موقعه الجغرافي، خاصة بعد قيام إسرائيل، من جهة، وأطماع العدو الاقتصادية والسياسية فيه، جعله ملائماً لتنازع الأطراف المختلفة، فإذا هو قضية لبنان الأساسية، في الوقت الذي يلخص فيه كل المشاكل العربية والدولية.

لهذا لم يكن ممكناً فصل قضية الجنوب عن القضايا العربية والدولية، وإذا صعب أن نأمل من الدول الأجنبية أن تحلّ، أو تسهم في حل قضيتنا، فإن من الطبيعي أن يأتي الحل عربياً، بتضافر لبناني عربي. من هنا حرص المسؤولون اللبنانيون على التشديد على قيمة المساهمة العربية في الحل، بعيداً عن تناقضاتها، وخلافاتها الخاصة.

الواقع أن مأساة الجنوب، وبالتالي لبنان، تفوق كل تصور. وإذا صعب تحديد ما لحق به من خسائر، وما قدم من تضحيات بشرية ومادية ومعنوية، فلا بد من إلقاء ضوء، علّنا نقدم صورة، ولو مجتزأة، عن الواقع المأساوي الخطير، الذي يجهل العالم تفاصيله حتى اليوم.

الموقع الجغرافي:

دعي بالجنوب لأنه يقع في الجنوب من خريطة لبنان: يحده جنوباً فلسطين، وشرقاً سوريا، وغرباً البحر الأبيض المتوسط، ويتكون من ثلاثة أقسام: السهل الساحلي، الهضاب، الجبال.

مساحته ٢٢٨٧ كلم^2 أي ٢٢٪ من مساحة لبنان /١٠٥٠٠/ كلم^2. وتخترقه عدة أنهار، تطمع إسرائيل في مياهها، وهي: الليطاني، والأولي، والحاصباني والوزاني. وفيه موانىء ثلاثة كانت زاهرة في الماضي: ميناء صيدا، ميناء صور (معطل بسبب القصف الإسرائيلي المستمر) ميناء الزهراني وفيه مصفاة البترول.

أشهر جباله: جبل الشيخ (٢٨١٤م)، جبل مراح البقرة (١٩٩٩م) جبل نيحا (١٦٧٠م)، جبل الريحان (١٣٧٠م) وجبل عامل (٧٦٣م).

● أعد هذا الملف في إطار الحملة الاعلامية لنصرة جنوب لبنان وفقاً لقرار مجلس وزراء الاعلام العرب لجامعة الدول العربية.

وأبرز مدنه: صيدا (١٤٠٠٠٠ نسمة)، صور (٥٣٠٠٠ نسمة)، النبطية (٤٨٠٠٠ نسمة)، جزين (١٥٠٠٠ نسمة)، مرجعيون (٢١٠٠٠ نسمة)، بنت جبيل (٣٥٠٠٠ نسمة)، حاصبيا (١٥٠٠٠ نسمة)، الخيام (٣٠٠٠٠ نسمة).

ويزخر الجنوب بالآثار القديمة والحديثة نسبياً. ويمكن القول إن معظم الآثار لم يتم الكشف عنها حتى اليوم، فقلما تعبر بقرية من جبل عامل، إلا ويحدثك أهلها عن مواقع اكتشفوا فيها آثاراً لنواويس، أو أعمدة، أو قصور راقدة تحت الركام. أما أشهر ما اكتشف من تلك الآثار، فهي تلك القائمة في صور، وتشهد على عراقتها، وقيمتها الإنسانية والتاريخية، وما كان لها من أثر على الحضارة في أوروبا نفسها. ويكفي للتدليل على ذلك أن اسم أوروبا مشتق من اسم ابنة ملكها أوروب.

ومن الآثار البارزة كذلك، ما تجده في صيدا والصرفند وقلعة الشقيف، وسرايا حاصبيا، وقلعة تبنين وغيرها.

سكان الجنوب:

كان الجنوب قبل الأحداث، والهجرة والنزوح، أكثر مناطق لبنان كثافة سكان فعدد سكانه (٨٥٠٠٠٠ نسمة) أي ما يوازي أكثر من ربع سكان لبنان. ونسبة الزيادة السكانية سنوياً، أعلى نسبة زيادة في العالم (٣,٥٪). ويتعايش فيه سكان ينتمون إلى كل الطوائف المعروفة في لبنان، يتعاونون على ظروف معيشية صعبة والأسباب اقتصادية واجتماعية.

لهذا عمد الجنوبي إلى الهجرة إلى القارتين الأمريكية والافريقية (الهجرة إلى افريقيا أكثف) ولن تجد عائلة جنوبية إلا ومنها عدد غير قليل (نسبياً) من المهاجرين. وقد هاجر عدد آخر منذ أواسط القرن العشرين إلى السعودية، والخليج العربي وليبيا واوستراليا.

وعمد الجنوبي كذلك إلى النزوح لسببين: السبب الاقتصادي، والسبب الحدثي، أي نتيجة الأحداث الأخيرة، وقد اتجه النزوح إلى المدن، وخاصة بيروت، حتى ضاقت بالنازحين إليها، مما شكل عقبة أمام تأمين الخدمات من مسكن وكهرباء وماء، وغير ذلك.

تاريخ الجنوب قديماً وحديثاً:

لا يجهل مؤرخو العالم القدماء والمحدثون دور الجنوب في التاريخ، وفي الحضارة. فهوميروس شاعر اليونان، (القرن التاسع ق.م.) يذكر صيدا وصور، وهيرودتس (القرن الخامس ق.م.) وديودورس الصقلي وسترابون وفلانيوس وبلوتارك (الأول ق.م.) يذكرون جنوب لبنان، وخاصة صور وصيدا، باعتبارهما مركزي الاتصال مع العالم الخارجي، ومصدرين تجاريين وحضاريين هامين، طوال عهود، لأهميتهما وتأثيرهما على الحضارة في أوروبا ذاتها، فقد كانت لهما اليد الطولى في نقل العلم من فلك ورياضيات، والفن في نشاطاته المختلفة. ولا يجهل أحد دور صور في بناء قرطاجة، وكثير من مدن جنوب إيطاليا وصقلية وإسبانيا.

كان لبنان، حسب كل المصادر التاريخية جزءاً من الدولة الكنعانية، الممتدة من شمال صيدا حتى جنوب أريحا. وينتسب أهله إلى الساميين، فقد هاجر إليه من الجزيرة العربية أقوام، أقبلوا إليه على شكل موجات، أولها الكنعانيون، ثم الفينيقيون، ثم الأنباط. وتلت ذلك هجرة كبيرة من قبائل قضاعية وقحطانية، تفرعت عنها قبيلة عاملة التي دعي الجنوب باسمها، فقيل جبل عاملة أو جبل عامل.

ولم يستقر أي عنصر غريب على أرضه، رغم الغزوات العسكرية، فقد كانت الغزوات تنحسر عنه دائماً، ويبقى محافظاً على ترابه وأصله. أما ادعاء العبرانيين بحقهم في الجنوب، فادعاء باطل لا يرتكز إلى حقيقة تاريخية أو علمية. فلم يكن لهم فيه موطىء حتى في عهد سليمان وأبيه داود، إذ كانت أرض مملكتهما إلى ما دون الجليل فحسب.

أما في العصر الحديث، أي بعد معاهدة سايكس بيكو، ولويد جورج - كليمنصو، فقد قسمت البلاد العربية، التي ظلت شبه موحدة في العهد العثماني، إلى دول منها سوريا ولبنان والعراق والأردن وفلسطين والسعودية، الخ... وكان الجنوب ضمن دولة لبنان الكبير الذي جعل هو وسوريا، تحت الانتداب الفرنسي.

وضع الجنوب الاقتصادي:

كان الجنوب، إقتصادياً، متخلفاً، حاله في ذلك حال الريف اللبناني، بل الريف العربي عامة، خاصة في عهد الاستعمار العثماني والانتداب الفرنسي. ولم يتطور كثيراً منذ الاستقلال ونزوح آخر جندي فرنسي (٣١ كانون الأول ١٩٤٦)، حتى ١٩٤٨ تاريخ قيام إسرائيل. إذ كانت الفترة قصيرة جداً (ثلاث سنوات). وفي هذا التاريخ عاد إلى لبنان عشرات الآلاف من أبناء الجنوب، ممن كانوا يعملون في فلسطين، ونزح إليه الآلاف من أبناء فلسطين، فضاعف ذلك من أزمة الجنوب الاقتصادية والاجتماعية.

ومنذ ١٩٤٨، كان للعدوان الاسرائيلي المتكرر، خاصة بعد عام ١٩٦٧، أثر واضح في عدم تنفيذ أية خطة تنمية للجنوب. وزاد الوضع سوءاً منذ بداية السبعينات حتى اليوم، وخاصة مع بداية الأحداث الأخيرة، إذ اضطر سكان قرى كاملة إلى النزوح صوب بيروت، وبعض المناطق الأخرى، بعد أن دمرت الغارات والغزوات الاسرائيلية، قراهم وممتلكاتهم ومزروعاتهم.

وإذا علمنا أن مورد جنوب لبنان الرئيسي زراعي (حمضيات، موز، فواكه، زيتون، تبغ) أدركنا مدى أثر سياسة «التهجير» على تعطيل الزراعة، والقضاء على التشجير، وبالتالي على الموارد الرئيسية. وهكذا تقلصت الأراضي المزروعة إلى أقصى حد عرفته منذ عصور طويلة.

وليس في جنوب لبنان قطاع صناعي، ما عدا مصفاة الزهراني، والأغذية المحفوظة. وكان يمكن أن تقوم في الجنوب صناعات عدة، ولكن، حال دونها العدوان الاسرائيلي المتكرر، والصناعة تحتاج إلى استقرار قبل كل شيء.

وكانت السلطات قد لحظت خطة لتنمية الخدمات الاجتماعية، فبدأت بانشاء أماكن سياحية من استراحات وفنادق ومطاعم ومسابح، بالاضافة إلى شق أوتوستراد يصل بيروت بأقصى الجنوب، ولكن الأحداث الأخيرة، واكتساح إسرائيل الجنوب أكثر من مرة، وضرب قرى الجنوب ومدنها، وقصفها، كل يوم تقريباً، عطلت كل خطة تنمية، بل جعلت شبه مستحيل السكن فيه.

الواقع التربوي والصحي:

كان الجنوب، طوال العهد العثماني، محروماً من المدارس والعلم. ولم يكن حظه في عهد الانتاب أوفر كثيراً. فلم تقم في الجنوب كله إلا مدارس قليلة، وفي المدن الرئيسية فحسب.

ولكن الدولة بعد الاستقلال، خصت الجنوب بسياسة تربوية، إن كانت بطيئة التنفيذ بعض الشيء، فإنها شاملة وواسعة، فبعد ان اقتصرت على المدارس الابتدائية، أصبح للجامعة اللبنانية فرع في صيدا، وافتتحت مدارس مهنية في النبطية وبنت جبيل وجزين وصيدا.

على أن قطاعاً كبيراً من الجهاز التربوي قد تعطل في الجنوب، بسبب العدوان الاسرائيلي المستمر.

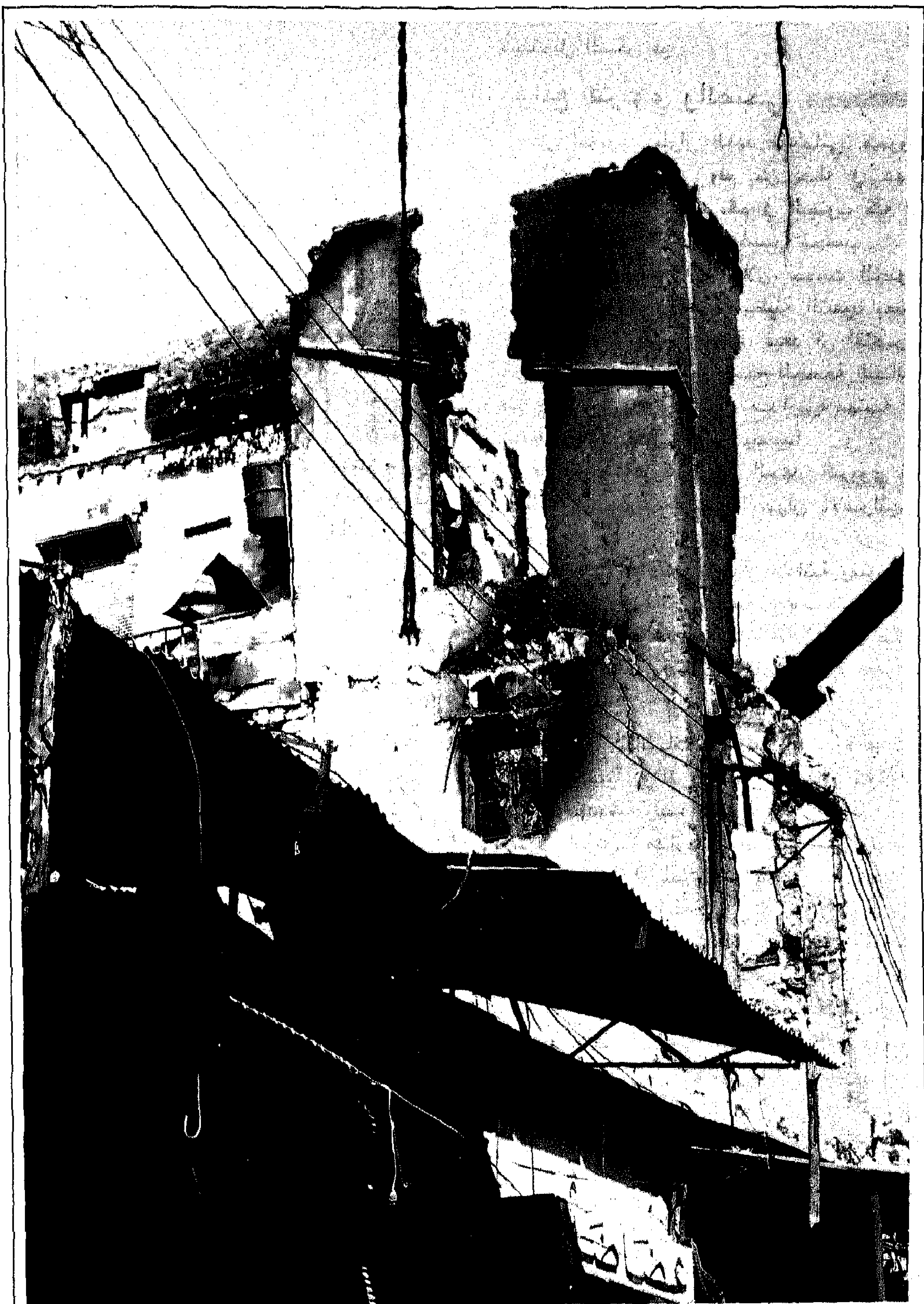
كان عدد المدارس ما بين ابتدائية ومتوسطة مائتين وإحدى وستين مدرسة، وعدد ما فيها من شعب ٢٦١١، وعدد طلابها ٦٣٥٨٢ بين طالبة وطالب. يقوم على التدريس فيها ٤١٠٩ معلمات ومعلمين.

هذا عدا الثانويات الرسمية المنتشرة في كل المدن الرئيسية، والمدن الصغيرة نسبياً، كالخيام وجويا ومغدوشة ولبعا وقانا وجزين وغيرها.

وفي الجنوب. مدارس خاصة كثيرة تتحمل عبئاً كبيراً من التعليم، وتساعدها السلطات على أداء مسؤولياتها كاملة.

ولكن العدوان الاسرائيلي اليومي، والقصف الجوي والبري والبحري، حرم قطاعاً كبيراً من الجنوب، مدارسه، على طول الحدود الجنوبية، وإلى مسافات غير قليلة نحو الداخل، فهذه صور الصامدة المكابرة، المصرة على استمرار فتح مدارسها، قد نقص عدد طلابها إلى أكثر من النصف، بسبب نزوح الكثيرين ممن دمرت بيوتهم، أو فقدوا مصادر عيشهم.

أما القطاع الصحي فقد عانى دائماً من عدم كفاية حاجة الجنوب. وإذا كانت الدولة قد أنشأت خمسة مستشفيات، وعدداً من المستوصفات، عدا المستشفيات الخاصة والعيادات والمستوصفات، فإن ذلك غير كاف



القنابل اصابت المدن، فدمّرت وأحرقت.

لعدد كثيف من السكان، يضارع أكثر من ربع سكان لبنان، مما يظهر الحاجة الماسة إلى الخدمات الصحية، في الحالات الطارئة، حين الهجمات الاسرائيلية، التي تعطل المستشفيات والمستوصفات، وتتسبب بمآس لا حد لها فتشتد الحاجة إلى الخدمات الصحية.

يقودنا ما سبق، وما فيه من تعبير عن الويلات التي تسببها الاعتداءات الاسرائيلية، غير المنقطعة منذ سنوات طويلة، رغم قرارات الهيئات الدولية، ورغم أن العالم أجمع أدانها، يقودنا ذلك إلى الحديث عن المطامع الصهيونية في لبنان، والأساليب غير الانسانية التي تستخدمها لبلوغ ما تهدف إلى تحقيقه.

المطامع الصهيونية تاريخياً:

تشير الوثائق الصهيونية، حتى السابقة على «وعد بلفور» الذي قطعه البريطانيون لزعماء الصهيونية بإنشاء وطن قومي ليهود العالم على أرض فلسطين، تشير إلى أن المطامع الصهيونية قديمة العهد، وإلى أن هذه المطامع لا تقتصر على فلسطين وحدها، ولا على جنوب لبنان وأرضه ومياهه، بل ترمي إلى أن تقيم «وطنها» وعلى مساحات شاسعة تمتد من «النيل إلى الفرات».

ترتكز هذه المطامع إلى إدعاءات باطلة علمياً وتاريخياً، يكذبها ما اكتشف من آثار حديثة، وما كتب من دراسات علمية حديثة موثقة عنها. ويكفي أن نذكر كتاب «الدكتور أحمد سوسة» «اليهود في فلسطين»، وكتبه ومقالاته الأخرى، خاصة ما اتصل منها بمكتشفات «إيبلا» و«نينوى» التي تدحض كل مزاعم الصهيونية.

واليهود، إضافة إلى ذلك، طارئون على فلسطين، جاؤوها غزاة بقوة السلاح، فقتلوا من أهلها من قتلوا، وشردوا من شردوا، وبينهم «الصابئة» الذين نزح من بقي منهم، عن جوار نهرهم المقدس «الأردن» إلى الفرات في العراق وشمال سوريا.

أما مزاعمهم حول حقهم في أرض لبنان فتتركز إلى ما يلي:

١ – أن سفر التكوين، وسفر الخروج، وسفر التثنية، وسفر يسوع، تعد اليهود بأرض تمتد من النيل إلى الفرات. ولذا فإن لهم «حقاً إلهياً» في هذه الأرض التي قطنها العرب منذ ما قبل «التاريخ» – حسب ما يحدده المؤرخون –

ولو أخذنا بهذه «النظرية» لكان من حق أصحاب الأديان أن يمتلكوا ما توصلوا إلى احتلاله في فترات زمنية معينة، أو ما تعدهم به أديانهم من أرض وملك. ولكان على البشرية أن تضرب عرض الحائط بكل الكيانات الدولية الحالية، وتعيد تخطيط جغرافية العالم من جديد.

ضمن هذا «الحق الالهي» يدخل لبنان في تخطيط حدود دولة الصهيونية، مع أن التاريخ يذكر بوضوح ان حدود دولة اليهود في التاريخ القديم لم تصل يوماً إلى الحدود اللبنانية.

٢ – والواقع أن هذا التبرير الديني،تكمن وراءه مطامع اقتصادية، أولها مياه الجنوب، ففلسطين تفتقر الى الثروات المائية، بينما الجنوب غني بالأنهر التي ذكرنا سابقاً.

٣ – من هنا نبلغ الحقيقة التالية: وهي أن الصهيونية تعمل بوحي المجال الحيوي، فهذا هرتزل يقول في مذكراته: «سنطلب من الأرض ما نحتاج إليه، وتزداد المساحة المطلوبة بازدياد المهاجرين». ذلك أن «حلم» الصهيونية هو استقدام يهود العالم إلى فلسطين، وأرضها لا تتسع لهم، ولا يمكن أن تكون مجالاً حيوياً كافياً، لذلك لا بد أن تتوسع على حساب غيرها. ولهذا طالب الصهيونيون في «مؤتمر السلام في فرساي» بالحاق ضفتي نهر الليطاني «بالوطن القومي اليهودي».

وقد حاول زعماء الصهيونية منذ أواخر القرن التاسع عشر ان يستولوا على الأرض بالمساومة مرة – ساوم هرتزل السلطان عبدالحميد على أرض الجليل وسنجق عكا مقابل قرض مالي ضخم – وبالشراء تارة فقد اشتروا من كبار ملاك الأراضي مساحات شاسعة، باغرائهم بأسعار تفوق الأسعار الحقيقية أضعافاً. بينما رفض صغار الملاك كل مساومة، وبرهنوا عن تشبثهم بالأرض، رغم الفقر أحياناً.

وقد ساعد الانتداب الفرنسي والبريطاني على تعديل حدود لبنان الجنوبي لمصلحة الصهاينة، في وقت لم يكن فيه اللبنانيون قادرين على دفع المأساة. وهكذا ألحقت بفلسطين عدة قرى منها: صلحا، هونين، المنصورة، وغيرها.

وحاولت الصهيونية مساومة الرئيس ألفريد نقاش (١٩٤١) على منحها امتياز استغلال مياه لبنان، ولكنه رفض المساومة.

ومع بداية الخمسينات، طرحت الصهيونية، بوساطة دول اخرى، مشاريع جديدة لاستغلال مياه الجنوب، ومنها مشروع جونستون، واللورد ملك (١٩٥٣) ومشروع كوتون (١٩٥٤). ولكن المحاولات باءت بالفشل. وحين حاول لبنان استغلال مياهه هددت اسرائيل بضربها، بل قامت باحتلال أقسام من الجنوب أكثر من مرة، وبذلك عطلت إمكان تحويل الجنوب إلى واحة غنّاء.

ولقد كان لبنان، من جهة ثانية، وبسبب الظروف التي نشأت بعد قيام إسرائيل، المجال الوحيد الذي أجمعت عليه الدول العربية، ليكون مركز تجارة الترانزيت بعد فرض المقاطعة العربية على إسرائيل. وهكذا حل مرفأ بيروت محل مرفأ حيفا، ومطار بيروت محل مطار اللد، وتحولت خطوط أنابيب النفط إلى لبنان عبر سوريا، بعد ان كانت تصل إلى مصفاة حيفا، ووسع المطار الدولي في بيروت، ليفي بحاجات النقل والترانزيت، بين البلدان العربية، وبلدان العالم. كما أقام لبنان نظام «الدروباك» الذي يعني إعادة التصدير، فأنشأ منطقة حرة لتكون مستودع التجارة العربية الضخم.

وهذا ما حدا بالصهاينة على العمل لضرب النموذج اللبناني، والقضاء على إقتصاده، والأسس التي يقوم عليها. ولا ريب ان احتلال الجنوب، أو الحيلولة دون أمنه واستقراره، جزء من الخطة.

وليست مطامع الصهيونية في لبنان إقتصادية فحسب، إنها استراتيجية كذلك. فاذا كانت حدود اسرائيل «من النيل إلى الفرات» فإن لبنان يدخل ضمن حدودها. ولا ريب أن غياب الرادع العربي جعل مطامع إسرائيل لا حدود لها، بل شجع الصهيونية على محاولة تنفيذ مخططاتها في التوسع، على حساب لبنان والدول العربية المجاورة، فاندفعت تقتطع أجزاء منها، بوسيلة أو بأخرى، وتستقدم اليهود من جميع مواطنهم الأصلية، شرقاً وغرباً، وتنشىء لهم المستوطنات على الأرض المحتلة، وفي الوقت ذاته تضاعف من قوتها العسكرية، لتنقض من جديد فتحتل أرضاً اخرى، تقيم عليها المستوطنات.

ولم تخف الصهيونية خططها، فقد أعلنتها في أكثر من مناسبة، ففي مؤتمر السلام في فرساي (١٩١٩) طالبت بحدود تمتد من العقبة إلى صيدا، فحدود معان وعمان ودرعا ودمشق، لتشرف على كل خطوط المواصلات وأنابيب البترول. وطالب هربرت صموئيل (١٩١٨) بأن تمتد الحدود إلى شمالي الليطاني.

ولئن رفض الانتداب الفرنسي التخلي عن شيء من أرض لبنان (قبل ١٩٢٣)، فقد انصاع في النهاية لالحاح البريطانيين، فضمت سبع عشرة قرية لبنانية إلى فلسطين، في اتفاقية (١٩٢٣)، وألحقت بها ثماني قرى أخرى عام (١٩٢٤).

وحين أقامت هيئة الأمم إسرائيل (١٩٤٨) على حساب شعب فلسطين، بدعم الدول الكبرى، كانت قد مهدت الصهيونية لذلك، في ظل الانتداب البريطاني، بضم عدد غير قليل من القرى اللبنانية الحدودية.

ومنذ قيام اسرائيل لم ينقطع العدوان الاسرائيلي على لبنان، وإن تفاقم منذ نهاية الستينات حتى اليوم، حتى تضاعف في السنوات الأربع الأخيرة، فالطيران الاسرائيلي في سماء لبنان يومياً، والقصف البري والبحري لا ينقطع يومياً أكثر من ساعات.

والواقع أن تاريخ هذه الاعتداءات طويل وقديم. ففي عام (١٩٤٨) احتلت عصابات الصهاينة جنوب لبنان حتى مشارف الليطاني، وارتكبت في قرية «حولا» مجزرة قتلت فيها سبعين من سكانها، ولم تجل عن القسم المحتل إلا بعد أكثر من ستة أشهر.

عام ١٩٤٩ وقعت اسرائيل مع لبنان ومصر والأردن وسوريا اتفاقيات هدنة، تعين الحدود وتفرض سحب الجيوش، إلا ما يضمن صيانة الهدنة، ولكن اسرائيل احتفظت، وإلى زمن، بعدد من القرى اللبنانية: (عديسة، رميش،

يـارون، عيترون، بليـدا، ميس الجبل، حـولا، كفركلا). وسيطرت بذلك على الليطاني وطريق بنت جبيل – مرجعيون.

توجه إسرائيل منذ ذلك التـاريخ ضـربات انتقامية، بحجة أو بأخرى، إلى لبنان، وخاصة بعد قيام حركة المقاومة الفلسطينية، التي غدت ذريعة اسرائيل الثابتة إلى العدوان.

بل تعمد إلى أكثر من ذلك، وهو أن تقيم دويلات طائفية مرتبطة بها ارتباطاً تبعياً، بقصد تحقيق المطـامع الصهيـونية في لبنـان والبلاد العربية، وتحويل كيان اسرائيل العنصري من الشـذوذ إلى النموذج، والهيمنـة على المنطقـة العربية بعد تفتيتها. يتضح ذلك من الرسائل التي تبادلها (١٩٥٤) بن غـوريون، ومـوشيه دايان، والياهو ساسون.

تفاقمت اعتداءات اسرائيل بعد ذلك. ففي حرب (١٩٦٧) تعرض لبنان لخسائر فادحة مع أنه لم يشترك في الحرب، ولم يسمح لأي جيش عربي بدخوله، فقد جعلت اسرائيل من أجواء لبنـان ممراً لبلـوغ الأجواء السـوريـة، هـذا بالاضافة إلى عمليات عسكـرية عبـر أراضيه تسببت في الكثـير من الأضرار، عـدا عشرات القتلى من بنيه. وقد استولت اسرائيل خلال ذلك على إحدى عشرة قرية، هدمت معظمهـا وعلى مساحات شـاسعة من جبـل الشيخ وهضـاب النقـار والشحـل والسـواقي، وجـورة العليق، وما تزال تقيم فوقها مواقع عسكرية ومرابض للمدافع البعيدة المدى التي توجه حممهـا الى القرى والمدن اللبنانية.

عام ١٩٧٠ (أيار) قامت اسرائيـل بهجوم واسع على الجنوب، احتلت فيه معظمه، بعد أن قتلت العشرات، ودمرت المساكن فوق أهلهـا. ولـم تبـال بقـرار مجلس الأمـن (٢٧٩) – ١٢/٥/١٩٧٠ القـاضي بانسحـابهـا الفـوري. فـاجتمع مجلس الأمن ثـانية وأصدر القرار (٢٨٠) مؤكداً ما جاء في قراره السابق.

وفي حـرب (١٩٧٣) استخدمت إسـرائيـل أجواء لبنان للعبـور إلى أجواء سـوريا، كمـا اخترقت دباباتها قرية «المارية» اللبنانية، لتهاجم من هناك الجيش السوري. وقد أصاب لبنان من ذلك أضرار كثيرة.

الخامس عشر من آذار ١٩٧٠ اجتاح ثلاثون ألف جندي إسرائيلي جنوب لبنان، وتقدموا على جبهاتطولها مائـة كيلومتـر، تدعمهم طـائرات ف – ١٥، ومـدافع بعيـدة المدى، وتتقـدمهم الدبابات والمصفحات، التي صبت آلاف أطنان القنابل (ومنها الصاروخية والانشطاريـة) على القرى والمدن الجنوبية، فـدمرت عـدداً كبيراً منها، وقتلت الكثيرين وشوهت الكثيرين. وقد دامت المعركة ستة أيام، وفي هذا الوقت كان مجلس الأمن قد اجتمع للنظر في شكوى لبنان ضد اسرائيل، فاتخـذ قراراً بـإدانة الهجـوم الاسرائيلي، وطلب الانسحاب الفوري، واحتـرام وحـدة اراضي لبنـان وسيـادتـه، واستقـلالـه السياسي. وقرر كذلك إرسال قوة طوارىء دولية من أجل تأكيد انسحاب القوات الاسرائيليـة، ومساعدة الحكومة اللبنانية في إعـادة سلطتها الفعلية في المنطقة.

غير أن إسرائيل لم تنسحب من كل الأراضي التي احتلتها في الجنوب، واستبقت قطاعاً تنطلق منه، مع جماعة لبنانيةتأتمر بأمرها، لضرب المدن والقرى اللبنانية، وقد بلـغ قصفها في الاشهر الماضية صيـدا نفسها التي تعـرضت لقنابـل المدافع البعيدة المدى مرات.

التاسع عشر من نيسان، ومن قرية «المطلة» الاسرائيلية، أعلن سعد حداد قيام «دولة لبنان الحـر» في الشريط الحـدودي الـذي اقتطعتـه اسرائيل إثر هجومها المعروف عام ١٩٧٨. وقد أصدرت السلطات اللبنانية نصاً قانونياً باعتبار سعـد حداد خـائناً تجب مـلاحقته واعتقـاله ومحاكمته.

لقد شاءت اسرائيل من قيام «دولة حداد» تغطية عدوانها المستمر على الجنوب، واحتفاظها بالشريط الحدودي، ومنع القوات الدوليـة من تنفيذ مهمتها، وبالتالي دخول الجيش اللبناني الى كل الأراضي اللبنانية حتى الحدود. وهذا ما يؤكده الأمين العام للأمم المتحدة إذ يقول: «إن السلطـات الاسرائيليـة استمرت في دعم قوات الأمر الواقع لأسباب ذكرت أنها تتعلق بأمنها القومي. وللأسباب نفسها قامت القوات الاسرائيلية في أكثر من مناسبة بالتوغل داخل الأراضي اللبنانية واحتفظت بعدد من المواقع في

الجيب الحدودي، وكان هذا مصدر قلق بالنسبة للقوة الدولية». ويقول في مكان آخر: «سجلت قوة الأمم المتحدة المؤقتة في لبنان بتاريخ ١٨/ آب/٨٠ تزايداً ملحوظاً في وجود القوات والمركبات التابعة للجيش الاسرائيلي في أنحاء المنطقة التي تسيطر عليها قوات الأمر الواقع».

لهذا قدم لبنان مذكرة الى مجلس الأمن الدولي يطلب فيها إعطاء القوة الدولية صلاحيات ردعية واسعة وإعادة النظر في تحديد منطقة عمليات القوة الدولية ووسائل انتشارها وتحركاتها في ضوء التطورات الناجمة عن تصعيد العنف الاسرائيلي، والأعمال العدوانية، والقتال خارج منطقة العمليات الأصلية.

يتحدث تقرير أمين عام هيئة الأمم المتحدة كورت فالدهايم، في هذه الفترة عن ازدياد نشاط القوات الاسرائيلية داخل منطقة عمليات قوات الأمم المتحدة، فهي تقيم المواقع، وتقتحم القرى، وتفاجىء السكان في بيوتهم فتخطف بعضهم، وتهدم البيوت أحياناً عليهم.

والواقع أن اسرائيل، كانت توقت هجماتها، أو اقتحامها القرى، مع قرارات مجلس الأمن، ففي ١٧ كانون الأول ١٩٨٠ اتخذ المجلس قراراً بالتمديد لقوات الأمم المتحدة ستة اشهر. وبعد ساعات من ذاك، هاجمت قوة اسرائيلية خمس قرى لبنانية في منطقة عمليات القوات الهولندية والغانية والايرلندية التابعة لقوات الأمم المتحدة. فقتلت ثلاثة، ونسفت تسعة منازل، عدا ما أحدثته من تخريب في المزروعات والمنشآت.

نقدم هنا إحصائيات سريعة:

يقول تقرير لمؤسسة الصليب الأحمر الدولي حول حرب ١٩٧٨ ما يلي: بلغ عدد القرى التي شملها الغزو الاسرائيلي ١٥٠ قرية. كانت أضرار ٨٢ منها بالغة بينما دمرت ست منها بلدة الخيام. وبلغ عدد القتلى ألفاً.

خلال عامي ١٩٧٥ - ١٩٧٦ وقع ٣٨ اعتداء على الجنوب كان من نتائجها مقتل ١٢٦ لبنانياً، وجرح أكثر من ثلاثمائة.

عام ١٩٧٧ قامت اسرائيل بـ ١٢٨ اعتداء، كانت حصيلتها ٥٦ قتيلاً واكثر من ١٧٠ جريحاً عدا المخطوفين.

وقامت اسرائيل خلال حرب ١٩٧٨ بمذابح جماعية نذكر ثلاثاً منها: ١ - مذبحة العباسية التي ذهب ضحيتها ٨١ لبنانياً تتراوح أعمارهم بين سنتين وثمانين سنة. ٢ - مذبحة الخيام التي قضى فيها الاسرائيليون على كل من بقي في البلدة، بعد هجرة أهلها من قبل (٣٠٠٠٠)، وكان أصغر الباقين لا يقل عن خمسين عاماً. ٣ - مذبحة كونين، التي قتل فيها ٢٩ أغلبيتهم من الأطفال.

هذا الأسلوب في «التعامل» مع القرى اللبنانية، إنما يهدف إلى «إفراغ» الجنوب من أهله، وبالتالي «اقتطاعه» وضمه إلى اسرائيل. وقد بلغ عدد المهجرين حتى نهاية ١٩٨٠، مائتين وستين ألف مهجر. وكان قسم من هؤلاء المهجرين يعود إلى قراه المرة بعد المرة، ثم يهاجر، ثم يعود، معبراً عن تشبثه بأرضه، وصموده رغم كل وسائل العنف والترويع. ولكن اسرائيل مستمرة في سياسة التهجير، وربما إلى زمن طويل جداً.

نقدم هنا مقارنة بين عدد سكان القرى والمدن الصغيرة الجنوبية، قبل التهجير، وبعده، وعدد الباقين فيها. ولنأخذ نموذجاً على ذلك أربعة أقضية: صور، بنت جبيل، مرجعيون، حاصبيا. قراها خمس وثمانون قرية. كان تعداد سكانها ٣٦٣١٠٠، بقي منهم ١٠٣٠٠٠ هاجر منهم ٢٥٩٠٠٠ تقريباً.

يتوافق مع ذلك كله اقتطاع أجزاء من أرض الجنوب اللبناني وضمها تدريجياً إلى اسرائيل - وهو ما يدعى بسياسة القضم - فقد اقتطعت أقساماً من بلدة علما الشعب، وعيتا الشعب، ومنطقة الوزاني. وشقت طريقاً بين كفرشوبا واسرائيل، وربطتها بشبكة طرقها، واقتطعت جزءاً كبيراً من أراضي العديسة وميس الجبل. وحولت مرج الخيام إلى حقل رماية بالذخيرة الحية، عدا إقامة مرابض المدفعية والدبابات. ويمكن القول إن اسرائيل احتلّت المراكز المشرفة على منطقة الجنوب كلها.

ولا يمكن أن ننسى إنشاء دولة «الأمر الواقع» التي ذكرناها سابقاً، فهي اليوم خاضعة للهيمنة الاسرائيلية! توجهها حسب مراميها، وتختفي وراءها في كل ما تقوم به من أعمال،



... يتامل في بقايا منزله المدمّر.

وليست في الحقيقة إلا وسيلة، أو جزءاً من سياستها، إن لم نقل جزءاً منها.

ولقد ذهب بيغن، في استغلال الواقع المفروض على الجنوب، إلى حد دعوة لبنان إلى توقيع معاهدة صلح مع إسرائيل. فكان رد الرئيس سركيس (١٢ أيار ١٩٧٩) رفض الدعوة، والتوكيد على أمور ثلاثة: أن حدود لبنان أمر لم يكن يوماً موضع نقاش، فهي حدود معترف بها دولياً. وأن النزاع مع اسرائيل هو أولاً وأساساً قضية حق وعدالة، والحق لا يتجزأ. ان اسرائيل تريد أن تفهم من مشكلة الجنوب أنها مشكلة حدود، والواقع أن المشكلة الأساسية هي رفض إسرائيل السماح للفلسطينيين بالعودة إلى بلادهم وإجبارهم على البقاء في لبنان، لتتخذ منهم وسيلة لتحقيق مراميها في الجنوب.

الواقع أن مأساة الجنوب اللبناني قل أن يكون لها نظير في العالم، فهو يعاني منذ ١٩٤٨، ولكن ما قاسى منذ السبعينات، وخاصة بعد أحداث لبنان يفوق كل تقدير. فعدا ما فقد من ذويه، وما هدم من بيوته، وما أحرق من مزروعاته، يعاني من نقص في البيوت، والخدمات العامة، والأمن، والطمأنينة، ويعيش في حالة رعب دائم، وإن يكن مصمماً على الصمود بأرضه، مهما كانت الظروف والنتائج.

ولمزيد من الوضوح نثبت هنا قائمة بأسماء المدن الصغيرة والقرى التي أبيدت عن آخرها، ولم توفر المساجد والكنائس، وقد هجّر جميع أهلها:

البلدة أو القرية	عدد سكانها
الخيام	٣٠٠٠٠
الوزانة	٦٠٠
عين عرب	٤٠٠
حانين	٢٠٠٠
رشاف	٣٠٠٠
يارين	٣٥٠٠
مارون الراس	٤٠٠٠
الزلوطية	٥٠٠
الضهيرة	٦٠٠
البستان	٥٠٠
أم التوت	٤٠٠
مروحين	٢٠٠٠
القنطرة	٣٥٠٠
الغندورية	٨٠٠
راشيا الفخار	٤٠٠٠
كفرشوبا	٥٠٠٠

هذا بالاضافة إلى عدد من القرى دمرت معظم مساكنها، ولم يبق فيها إلا القلة القليلة من أهلها، ومنها الطيبة والعباسية.

ويجدر التنويه بأن معظم المنشآت العامة قد لحقها التدمير، أو دمرت كاملة، وكلها ضروري للحياة اليومية، ومنها محطات تحويل الكهرباء، ومراكز ضخ مياه الشرب، وخاصة مركز الطيبة الذي كان يمون داخل الجنوب كله. هذا عدا المرافىء، ومراكب الصيد، خاصة في منطقة صور والتي تشكل مورداً رئيسياً من موارد حياة أبنائها.

جرت محاولات لاحصاء الخسائر المادية - لا البشرية - فإذا النتائج التقريبية - إذ لا يمكن إجراء أحصاء شامل، فالخسائر تتضاعف يومياً، بالاضافة إلى أن اسرائيل تمنع القيام بمسح حقيقي للأمكنة التي تحتلها - هذه النتائج تقدر بمئات ملايين الدولارات. فإذا علمنا ان إمكان الاصلاح مستحيل، وأن ذلك يترتب عليه المزيد من الخسائر، بسبب استمرار عدم الانتاج، أدركنا فداحة ما يفقده الجنوب سنوياً، بل يومياً، من أرباح كانت ممكنة لولا تواصل العدوان. ولنأخذ مثلاً الزيتون، وهو من أبرز المزروعات إنتاجاً في الجنوب. فلقد أحرق من شجر الزيتون عشرات الألوف، وما بقي منه لا يجنى محصوله، ولا تسمح اسرائيل لأصحابه بجنيه، فيذهب النتاج هدراً. وإذا علمنا أن زيتون الجنوب وزيته، من أغلى انواع، تبين لنا أن الخسائر مضاعفة. ومثل ذلك التبغ، فهو مورد رئيسي، تزرع منه مساحات شاسعة جداً، ويعيش من نتاجه مئات الألوف. ولكنه اليوم لا يشكل إلا مورداً ضئيلاً، بالاضافة الى أن مواسم تلفت بسبب الحرق والتخريب أو عدم القدرة على الرعاية الضرورية، بسبب الهجرة، والقصف الدائم، والترويع، وتوقع الهجوم كل لحظة، مما أفقد الجنوب اليد العاملة، التي كانت تعمل في الحقل الزراعي، والتي كانت تعتاش من عملها، ففقدت بذلك مورد عيشها.

قدرت الخسائر - خلال عام واحد - تقديراً أولياً بأكثر من مائة وخمسة وستين مليون ليرة لبنانية. فإذا حسبنا هذه الخسائر على مدى سنوات، وقدرنا ما يضاف إليها كل عام، كانت خسارة لبنان، كبلد صغير، تفوق كل ما يتوقع.

ولا بد من بعض التفاصيل: انحسرت زراعة التبغ في الجنوب الى أدنى حد فقد كانت المساحة المزروعة تبغاً في الجنوب تعادل سبعين إلى خمسة وسبعين بالمائة من مجمل المساحة المزروعة تبغاً في لبنان، وكان نتاجه يعادل النسبة ذاتها من النتاج اللبناني. ولكن هذه النسبة تدنت الى عشرين بالمائة عام ١٩٧٨، والى عشرة بالمائة تقريباً اليوم.

ليس الأمر بأقل ضخامة بالقياس الى الحمضيات - وهي المورد الرئيسي لسكان الشريط الساحلي، الممتد من الناقورة حتى صيدا - كان قطاع زراعة الحمضيات يستوعب عدداً كبيراً من العمال: من يعنون بفلاحة الأرض وتسميدها، من يزرعون النصوب، من يقلمون الأشجار، من يرشونها بالمبيدات، من يجنون المحصول ويوضبونه، من ينقلونه، من يرون الأرض الخ... هذا إلى النقليات، وما تحتاج من آليات وسائقين، والمخازن التي تبيع المحصول، والمؤسسات التي تصدره، الى

الكثيرين من المتعيشين من هذا المورد.

إذن، تشكل زراعة الحمضيات دورة إقتصادية كاملة، يعمل فيها آلاف العمال، وتفيد منها مئات العائلات، عدا المنافع العائدة للدولة والجنوب خاصة.

ولكن الاعتداءات الاسرائيلية، والقصف المستمر على البساتين، أحرق عشرات الألوف من شجر الحمضيات، عدا الفواكه الأخرى، وخاصة الموز، وهجر آلاف العمال، فعطل دورة العمل والحياة في هذا القطاع الحيوي، وبلغت الخسائر التقريبية، خلال عام واحد (١٩٧٨) خمسة وخمسين مليون ليرة.

كان الجنوب كذلك، يطور ثروته الحيوانية تطويراً سريعاً، رغم ما كان يتعرض له من اعتداءات، وظل حريصاً على تطويرها حتى بعد ١٩٧٣. فقد أنشئت فيه مزارع للأبقار، ومداجن، بالاضافة الى الأغنام والماعز. وكان عدد الأبقار خمسة وعشرين ألف بقرة، وعدد الأغنام ثلاثين ألفاً، والماعز خمسة وثمانين ألفاً، والدجاج أكثر من مليون. وكانت صادرات الجنوب إلى البلدان العربية من الدجاج والبيض خاصة كبيرة. هذا عدا انتاج الأبقار والغنم والماعز. ولكن الاعتداءات، وخاصة حرب ١٩٧٨، قضت قضاء شبه تام على هذه الثروة، فلم يبق منها إلا حوالي عشرين بالمائة. فتعطل بذلك مجال عمل يحتاج إلى آلاف العمال من أرباب العائلات، عدا الأرباح التي يوفرها كل عام.

ولئن كانت الصناعة في الجنوب فقيرة، فقد كانت تشغل عدداً معقولاً من العمال، وتعيش منها عائلات حرمت الآن من مورد رزقها. ومن أبرز الصناعات التي شلت شللاً تاماً، الصناعة الحرفية، على مختلف أنواعها وخاصة الفخارية، وأدوات المطبخ، وبعض المنسوجات اليدوية.

ويمكن القول إن اليد العاملة في الجنوب فقدت اكثر من ثلاثة أرباعها. ولكن هذه النسبة تزداد سنة بعد سنة، لأن مصادر العمل تنهار بسبب العدوان غير المنقطع، فيومياً قصف مدفعي أو جوي أو بحري، ويومياً تتعرض المؤسسات للتدمير، والعمال للموت. وإذا علمنا ان عدد المهاجرين إلى ديترويت في الولايات المتحدة يربو على ثلاثة آلاف، أدركنا فداحة الرقم الإجمالي للهجرة الى خارج لبنان، خاصة إلى البلاد العربية، وعلى نحو أخص السعودية والخليج العربي. غير ان بعض بلدان الاغتراب وضعت مؤخراً عراقيل في طريق من يرغبون في العمل من اللبنانيين فيها، لكفايتها من اليد العاملة. وهكذا تصبح المأساة مزدوجة، فلا مجال للعمل أو البقاء في الجنوب، ولا مجال عمل في مكان آخر.

ولا بد هنا من الإشارة الى أمر خطير، وهو ان معظم من يهاجرون للعمل من ذوي الأعمار الفتية، فاذا استقر هؤلاء في مهاجرهم، حرم لبنان من ثروته البشرية والاقتصادية معاً، حتى لو سويت قضيته، إذ لا بد له من البحث عن اليد العاملة (المفقودة) لاعادة تعميره.

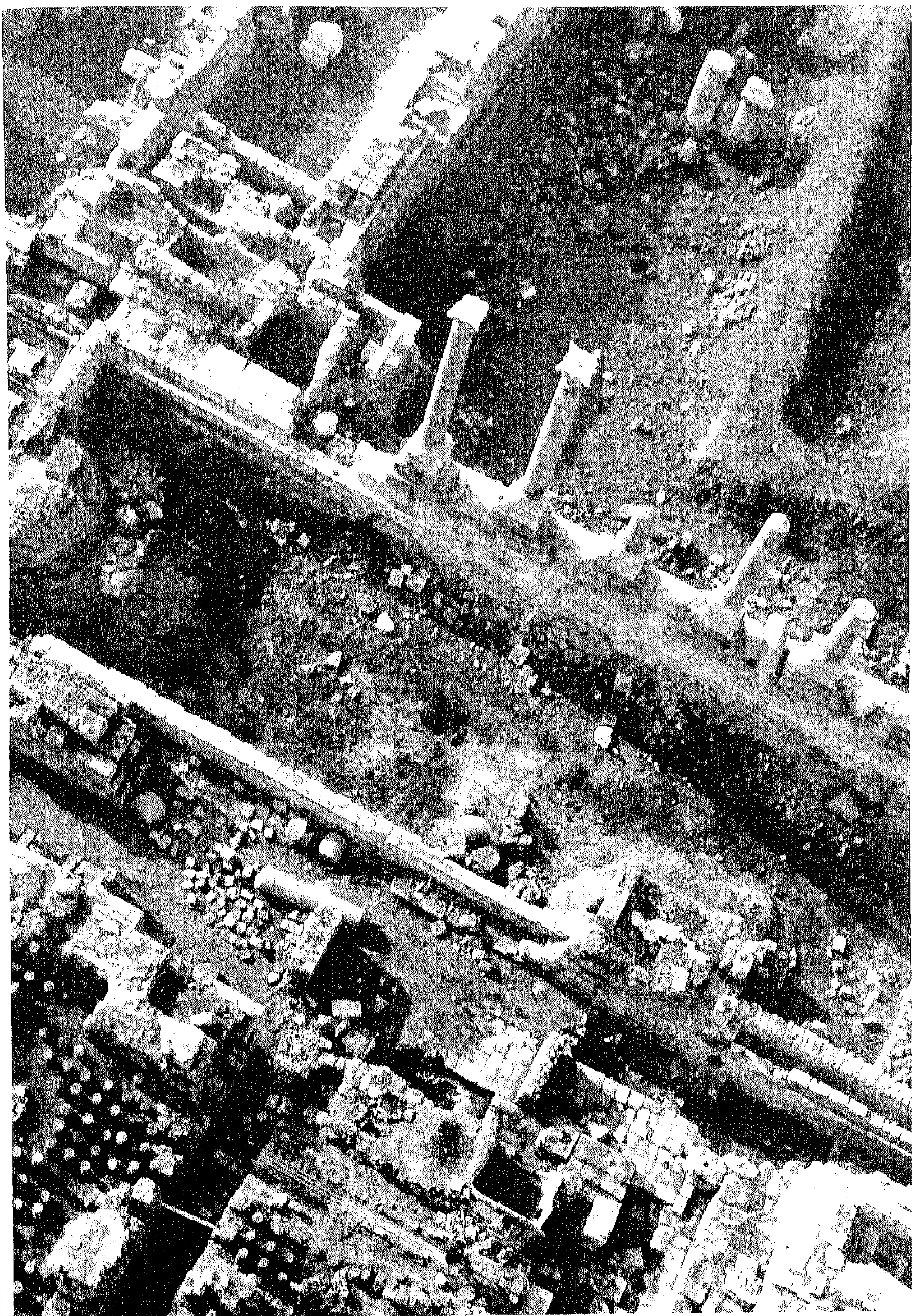
الموقف العالمي من الاعتداءات الاسرائيلية

هل يجب ان نقول إن مواقف دول العالم من الاعتداءات الاسرائيلية كان معظمها من نوع «تسجيل المواقف» وأن بعضها عارض اتخاذ أي موقف في المحافل الدولية وأن بعضها الآخر وقف إلى جانب اسرائيل، بحجج لا تنتمي بحال إلى منطق الحق والعدل والانسانيّة؟ ولكن، وقبل استعراض مواقف الدول الأجنبية، لنبدأ بمواقف الدول العربية، وما اتخذته من تدابير، منذ بدء المأساة حتى اليوم.

مواقف عربية

لبنان، قبل كل شيء، بلد مستقل، وعضو في الجامعة العربية، وفي هيئة الأمم المتحدة.

ولبنان مركز ثقافي وحضاري وتجاري، وطالما كان صلة الوصل، على جميع الأصعدة بين العالم العربي والعالم، بل بين الدول العربية ذاتها.



...حتى الآثار لم تسلم من الاعتداءات.

ولبنان إحدى الدول المضيفة التي استضافت النازحين الفلسطينيين منذ نزوحهم الأول.

ولبنان الدولة الوحيدة التي تحملت آثار ذلك – ولم تتنكر يوماً لواجبها تجاه القضية الفلسطينية – تحملته عدواناً واجتياحاً وتدميراً ونهباً، وما تزال.

ولبنان بلد الفكر الذي كان مجتمع معظم المفكرين العرب، فيه تطبع آثارهم، ومنه تصدر إلى مختلف الأقطار العربية.

وهو لذلك «مطبعة العرب» – إذا صح التعبير – فقد كانت الطباعة فيه، منذ زمن بعيد، مصدراً أساسياً لمطبوعات غالبية البلدان العربية، بالاضافة إلى كونه «مركز تدريب» الفعاليات الطباعية إلى كل الدول العربية.

كما ان لبنان كان دائماً «وسيطاً» متميزاً في الخلافات العربية، وإن كان بعضها على حسابه. فمواقف رجالاته مشهودة في كل المؤتمرات والمحافل العربية.

لذلك كله، ولغيره كثير، كان اهتمام الدول العربية بما جرى ويجري على الساحة اللبنانية، وخاصة الاعتداءات الاسرائيلية، كبيراً والأمل معقود ان يكون هذا الاهتمام على قدر المسؤولية.

وإنه ليصعب ذكر المواقف العربية تفصيلاً، لذلك نقتصر على أبرزها. وخاصة منذ عام ١٩٧٥، العام الذي بدأت فيه الأحداث اللبنانية.

اجتماع لبناني – سوري تليه اجتماعات عربية:

السابع من كانون الأول ١٩٧٥ قام الرئيس حافظ الأسد بزيارة لبنان، واجتمع الى الرئيس سليمان فرنجية في شتورة. صدر على أثر الاجتماع بيان مشترك يقضي بالتنسيق بين البلدين من أجل خيرهما.

وكان هذا اللقاء بداية لقاءات على مستوى القيادات، والمؤتمرات. ففي ٩ حزيران ١٩٧٦ اجتمع مجلس الجامعة العربية واتخذ قراراً بتشكيل قوة أمن عربية رمزية (سعودية – سودانية) لتوطيد الأمن في لبنان. وفي ١٨ تشرين الأول ١٩٧٦ انعقدت قمة سداسية في الرياض (مصر، سوريا، السعودية، الكويت، لبنان، والمقاومة الفلسطينية) تقرر فيها إنشاء قوة ردع عربية، توضع تحت تصرف رئيس الجمهورية اللبناني، من أجل وقف القتال في لبنان. وفي الخامس والعشرين من تشرين الأول عقدت قمة عربية في القاهرة وافقت على مقررات قمة الرياض. ومما اتخذته هذه القمة من مقررات: مساهمة الدول العربية في إعادة تعمير لبنان. تحديد المبالغ التي يجب أن تدفعها كل دولة من أجل ذلك.

في ١٥ تشرين الأول ١٩٧٨ انعقد مؤتمر وزراء خارجية الدول المشاركة في قوات الردع العربية برعاية الرئيس سركيس، في بيت الدين. ويمكن تلخيص مقرراته التي هدفت الى «معالجة الأزمة اللبنانية معالجة شاملة» بما يلي: وحدة لبنان واستقلاله وسيادته، وسلامة أراضيه، وممارسة الدولة سلطاتها على جميع الأراضي اللبنانية – انهاء المظاهر المسلحة، وجمع السلاح، وتحريم حمله خارج حدود القانون – تطبيق مقررات قمتي الرياض والقاهرة تطبيقاً كاملاً – وضع برنامج زمني لاعادة بناء الجيش على أسس وطنية متوازنة، تمكنه من القيام بدوره كاملاً – تحقيق الوفاق الوطني في سبيل ضمان وحدة لبنان – تطبيق القانون ضد الذين يتعاونون مع العدو الاسرائيلي – تأليف لجنة متابعة توضع تحت تصرف رئيس الجمهورية.

١٩٧٨/١١/٥ عقد مؤتمر القمة في بغداد الذي تبنى مقررات مؤتمر بيت الدين، واتخذ قراراً بمساعدة لبنان في إعادة بناء منشآته.

ويحسن هنا ذكر أبرز الأمور التي عالجها الرئيس سركيس في خطابه امام المؤتمرين، فقد جاءت كلمته لتوضح كثيراً من المسائل التي كانت مجال أخذ ورد، في المحافل الدولية، والتي حاولت أطراف دولية استغلالها لمصلحة اسرائيل، بتفسيرها على غير حقيقتها. فقد كرس الرئيس سركيس قضية فلسطين على أنها قضية العرب الأولى التي لا يختلف عليها اثنان. ولكنه أشار بأسف إلى استغلال انعكاسات هذه القضية على الأزمة اللبنانية، ومن ذلك الربط بين قضية لبنان والقضية الفلسطينية، بهدف

تمييع هذه، وتحويل الأنظار العالمية وحتى العربية عنها، وبقصد استنزاف الطاقات العربية عبر استثمار الأزمة اللبنانية. وعرض لمسألة التوطين التي أكد أن الغاية من طرحها تحويل الأنظار عن إقامة الدولة الفلسطينية على التراب الفلسطيني، وبالتالي طعن القضية الفلسطينية في الصميم. وأكد أنه لا يمكن حل هذه القضية، بخلق قضية لبنانية، أو أية قضية عربية اخرى.

ومما أصر عليه الرئيس سركيس في خطابه، ضرورة الاسراع بوضع حد للمأساة اللبنانية، وذلك باستعادة الدولة اللبنانية سيادتها كاملة على كل التراب اللبناني. ثم نبه إلى واقع الجنوب، وشدد على ضرورة احترام مقررات مؤتمري الرياض والقاهرة وتنفيذها تنفيذاً كاملاً.

مؤتمر تونس:

في ٢٣/١١/١٩٧٩ انعقد في تونس مؤتمر قمة عربي، دعا إليه لبنان، لدرس قضية الجنوب. وقد اتخذ المؤتمر مقررات عدة نثبتها هنا لأهميتها، ولأنها تلخص مجمل الموقف العربي من القضية اللبنانية، وخاصة قضية الجنوب. وقد جاء في تلك المقررات:

«حرصاً على سلامة لبنان وسيادته ووحدة اراضيه، وعلى استمرار الصمود اللبناني والفلسطيني في مواجهة العدو الصهيوني وانطلاقاً من الأيمان بأن مشكلة لبنان مسؤولية عربية بقدر ما هي مسؤولية لبنانية، وشعوراً بضورة مساعدة لبنان على تجاوز هذه الأزمة:

١ - يؤكد المؤتمر السيادة الكاملة للبنان على كل أراضيه والحفاظ على استقلاله ووحدته الوطنية، ويؤكد على ضرورة بسط سيادة الدولة اللبنانية على كل الجنوب اللبناني، خصوصاً عن طريق إعادة كل إدارات الدولة ومؤسساتها المدنية والعسكرية الى ممارسة سلطاتها وصلاحياتها في الجنوب.

٢ - يؤكد المؤتمر رفضه كل المحاولات تحت أية صورة وفي أي شكل، الرامية إلى بسط الهيمنة الصهيونية على الجنوب اللبناني، ويحمل العدو الصهيوني مسؤولية ما يعانيه سكان الجنوب.

٣ - أخذ المؤتمر علماً بما قامت به منظمة التحرير الفلسطينية من امتناع عن القيام بعمليات عسكرية عبر الحدود اللبنانية، وامتناع عن الاعلان من لبنان عن الأعمال التي تقوم بها المقاومة داخل الأرض المحتلة. ويؤكد المؤتمر على حق المقاومة في ممارسة نضالها من سائر الجبهات العربية.

٤ - يؤكد المؤتمر على ضرورة تنفيذ مقررات الرياض وبيت الدين واتخاذ الاجراءات اللازمة لذلك.

٥ - يقرر المؤتمر دعم الحكومة اللبنانية في جميع المجالات الدولية، وذلك لممارسة أقصى الضغوط على العدو الاسرائيلي من أجل وقف عدوانه على جنوب لبنان، ومن أجل تحقيق الانسحاب الاسرائيلي منه، كما يؤكد على ضرورة التنفيذ الكامل لمقررات مجلس الأمن الدولي المتعلقة بجنوب لبنان، وتمكين القوات الدولية من تنفيذ مهماتها، وعلى تنظيم الوجود الفلسطيني المسلح في المناطق الداخلة في نطاق عمل القوات الدولية، وذلك بموجب الاتفاق بين الدولة اللبنانية ومنظمة التحرير الفلسطينية قصد تسهيل مهمة هذه القوات.

٦ - يؤكد المؤتمر جهود الحكومة اللبنانية في نشر الجيش اللبناني في الجنوب، وذلك للقيام بمسؤولياته الوطنية، ويهيب بكل الأطراف أن يسهلوا هذه المهمة.

٧ - يؤكد المؤتمر على ضرورة استئناف لجنة المتابعة المنبثقة من مؤتمر بيت الدين مهمتها، وإضافة ممثل عن الأمانة العامة لجامعة الدول العربية، إلى عضوية هذه اللجنة لمتابعة هذه القرارات.

هذا، وقد خصص المؤتمر مبلغ ملياري دولار لمساعدة لبنان، على أن يكون نصفها مخصصاً للجنوب، لمساندته على الصمود وإعادة التعمير.

* * *

ولكن، ما الذي تبدل بعد كل هذه المؤتمرات؟ لقد حضر لبنان مؤخراً مؤتمر الدول الاسلامية الذي عقد في الطائف، وأعاد طرح

قضيته على المؤتمرين. وكان الرئيس سركيس واضحاً كل الوضوح في شرح القضية.

مع ذلك بقي وضع الجنوب على حاله. بل إن هذه الحال تزداد سوءاً يوماً بعد يوم، رغم كل المقررات العربية، والقرارات الدولية، خاصة التي اتخذت في هيئة الأمم المتحدة ومجلس الأمن الدولي.

لا ريب أن السبب الأول والأخير هو تعنت إسرائيل واستهتارها بالهيئات الدولية، وبالقرارات، والقوانين والأعراف. واستمرارها في عملية «إفراغ» الجنوب من أهله، وقضم أجزائه جزءاً بعد جزء، في غياب القوة القادرة على ردعها.

بيان نموذجي:

لعل من المفيد هنا، قبل عرض المواقف العالمية، والهيئات الدولية من قضية جنوب لبنان، أن نضع بين يدي القارىء نموذجاً عن البيانات التي صدرت، وتصدر، وقد تصدر، دون أن تغير من واقع الحال، بل تكاد تكون مسكّناً، أو غطاءً تستتر خلفه إسرائيل لتتابع اعتداءاتها، وتغتنم الشعور العام الدولي بأن القرارات لا تعني أكثر من إعلان موقف، وبالتالي تستغل ذلك الشعور لتقنع كل مؤمن بحقه، أن الحق للعنف والقوة، وما على الجنوبي إلا الرضوخ، والرحيل، والتخلي عن أرضه، أو التعاون مع اسرائيل.

هذا البيان «النموذج» هو قرار مجلس الأمن رقم (٤٥٠)، وقد سميناه بياناً لأن فيه «كشف حساب» لقرارات سابقة لم تنفذ، اللهم إلا من جانب واحد ليس إسرائيل. ووصفناه بالنموذجي، لأنه، في ما هو «كشف حساب» يعترف بقصور مجلس الأمن والهيئات الدولية عن ردع إسرائيل.

نص القرار ٤٥٠:

«إن مجلس الأمن»

إذ يذكر بقراراته ٤٢٥ و٤٢٦ و٤٢٧ و٤٣٤ (كلها عام ١٩٧٨) وببيان رئيس مجلس الأمن في تاريخ ٨ كانون الأول ١٩٧٨.

ويذكر أيضاً، وعلى الأخص، بالقرار ٤٤٤ (١٩٧٩) وببياني رئيس مجلس الأمن بتاريخ ٢٦ أيار ١٩٧٩ (س - ١٣٣٧٢) و١٥ أيار ١٩٧٩ (س - ٢١٤٤).

وبعدما درس تقرير الأمين العام بشأن قوة الأمم المتحدة المؤقتة في لبنان الذي تضمنته الوثيقة (س - ١٣٣٨٧).

يستجيب لطلب حكومة لبنان ويلحظ القضايا المرفوعة في رسائلها الموجهة إلى الأمين العام في تاريخ ٧ أيار ١٩٧٩ (س - ١٣٣٠١) و٣٠ أيار ١٩٧٩ (س - ١٣٣٦١) و١١ حزيران ١٩٧٩ (س - ١٣٣٨٧).

ويعود ويؤكد دعوته إلى الاحترام الشديد لسلامة أرض لبنان ووحدته وسيادته واستقلاله السياسي ضمن حدوده المعترف بها دولياً.

ويعرب عن قلقه لاستمرار العراقيل حيال المهمة التامة لقوات الأمم المتحدة في لبنان والتهديدات لأمن هذه القوة بالذات، وحريتها في التحرك وسلامة مقرها، الأمر الذي حال دون إنجاز برنامج نشاطها المقرر.

ويؤكد اقتناعه بأن للوضع الحالي عواقب خطيرة على السلام والأمن في الشرق الأوسط، وأنه يؤذي تحقيق سلام عادل وشامل ودائم في المنطقة.

١ - يأسف جداً لأعمال العنف ضد لبنان التي أدت إلى تهجير المدنيين وفي جملتهم الفلسطينيون وتسببت في الدمار وقتل الأبرياء.

٢ - يدعو إسرائيل إلى وقف أعمالها فوراً ضد سلامة أراضي لبنان ووحدته وسيادته واستقلاله السياسي، ولا سيما توغلاتها في لبنان ومساعداتها المستمرة لجماعات مسلحة غير مسؤولة.

٣ - يدعو كذلك جميع الأطراف المعنيين إلى الامتناع عن النشاطات المنافية لأهداف قوات الأمم المتحدة في لبنان، وإلى العمل المشترك لانجاز هذه الأهداف.

٤ - يعيد القول إن أهداف قوات الأمم المتحدة في لبنان كما هي محددة في القرارات ٤٢٥، و٤٢٦، و٤٤٤ يجب أن يتحقق بلوغها.

٥ - يوصي بشدة بانجاز مهمة قوات الأمم المتحدة في لبنان، ويكرر النصوص المختصة كما



هنا كانت عائلة تسكن الحب والطمانينة.

حددها تقرير الأمين العام في الوثيقة ١٢٦١١ بتاريخ ١٩ آذار ١٩٧٨، والتي صادق عليها مجلس الأمن بالقرار ٤٢٦ (١٩٧٨) خصوصاً أنه ينبغي للقوة أن تتمتع بحرية التحرك والاتصال وسوى ذلك من التسهيلات الضرورية لانجاز مهماتها، وأن تستمر في قدرتها على القيام بواجباتها طبقاً للنصوص المشار إليها، وفي جملتها حق الدفاع عن النفس.

٦ - يعود فيؤكد أن اتفاق الهدنة بين اسرائيل ولبنان ما يزال ساري المفعول وفقاً لقراراته المختصة بذلك، ويدعو الأطراف إلى اتخاذ الخطوات الضرورية لتجديد نشاط لجنة الهدنة المشتركة وضمان الاحترام التام لسلامة منظمة الأمم المتحدة المكلفة الاشراف على الهدنة وحريتها في العمل.

٧ - يستحث جميع الدول الأعضاء لممارسة نفوذها لدى أولئك المعنيين حتى تستطيع قوات الأمم المتحدة في لبنان القيام بمسؤولياتها قياماً تاماً ومن دون عراقيل.

٨ - يقرر تجديد مدة قوات الأمم المتحدة في لبنان ستة أشهر، أي حتى ١٩ كانون الأول ١٩٧٩.

٩ - يعود فيؤكد تصميمه في حال الاستمرار بعرقلة مهمة قوات الأمم المتحدة في لبنان على تقصي الطرق والوسائل العملية المطابقة للنصوص المختصة في ميثاق الأمم المتحدة لضمان تطبيق القرار ٤٢٥ (١٩٧٨).

١٠ - يقرر أن يبقى مهتماً بالقضية.

مواقف الأمم المتحدة:

يمكن القول ببساطة، إن أية قضية في العالم، لم تعرض على هيئة الأمم المتحدة، ومجلس الأمن الدولي، عدد المرات التي عرضت عليها قضية لبنان، أو قدمت شكاوى من أجلها. وما اتخذته الهيئتان من قرارات وتوصيات، يفوق الحصر. ومع ذلك لم يتبدل وضع الجنوب، بل وما زال، كما قلنا مرات، يتفاقم يوماً بعد يوم.

لا سبيل إلى عرض كل مواقف الهيئتين، وقراراتهما وتوصياتهما. لذلك لا بد من أن نجتزىء بالقليل القليل، المعبر على كل حال، عن التباين بين القرارات والتنفيذ، ثم عن مدى نكبة البشرية بوجود اسرائيل المستهترة بكل ما هو إنساني.

اتخذ مجلس الأمن قرارات كثيرة، وعلى مدى سنوات، وكلها يدين إسرائيل، أو يطالبها بالكف عن الاعتداءات، أو بسحب قواتها، الخ... من جملة هذه القرارات:

١٩٦٩/٨/٢٦ اتخذ المجلس قراراً يدين الاعتداء الجوي الاسرائيلي على قرى الجنوب اللبناني، ويؤكد أنه لا يمكنه «إحتمال» الأعمال العسكرية الانتقامية، والانتهاكات الخطيرة لوقف اطلاق النار.

١٩٧٠/٥/١٢ اتخذ مجلس الأمن قراراً بضرورة سحب اسرائيل قواتها المسلحة من الأراضي اللبنانية. وبعد أيام من هذا القرار (رقم ٢٧٩) شنت إسرائيل هجوماً واسعاً على الجنوب اللبناني، واتخذ مجلس الأمن القرار (٢٨٠) بتاريخ ١٩٧٠/٥/١٩، منددأ، ومطالباً بالانسحاب، وبدا أن قدرته على «الاحتمال» لم تنفذ.

كذلك اضطر مجلس الأمن إلى اتخاذ القرار (٢٨٥) بتاريخ ١٩٧١/٩/٥ يطالب اسرائيل بسحب قواتها كاملة من الأراضي اللبنانية، فوراً.

وتوالت الاعتداءات، وتوالى إصدار قرارات مجلس الأمن (٣١٣، ٣١٦، ٣٣٢) واسرائيل غير مبالية، مستهترة بمجلس الأمن ومن يمثل.

وكان آذار ١٩٧٨ حين اجتاحت الجيوش الاسرائيلية الجنوب اللبناني كله تقريباً. واستخدمت لذلك القوات الجوية والبرية والبحرية.

وكانت المعارك دائرة حين اجتمع مجلس الأمن يومي ١٧ و١٨ آذار ١٩٧٨، أي بعد ثلاثة أيام من بدء الغزو الاسرائيلي، واتخذ القرار ٤٢٥ التالي:

١ - يدعو مجلس الأمن إلى الاحترام الدقيق لسلامة أراضي لبنان وسيادته واستقلاله السياسي ضمن حدوده الدولية المعترف بها.

٢ - يدعو إسرائيل إلى أن توقف فوراً عملياتها العسكرية ضد أراضي لبنان، وأن تسحب فوراً قواتها من كل الأراضي اللبنانية.

٣ - يقرر في ضوء طلب الحكومة اللبنانية، أن تقيم فوراً تحت سلطتها قوة مؤقتة تابعة للأمم المتحدة في جنوب لبنان من أجل تأكيد انسحاب القوات الاسرائيلية، وتثبيت السلام والأمن الدوليين، ومساعدة حكومة لبنان على عودة سلطتها الفعلية في المنطقة، على أن تتألف هذه القوة من عناصر توفرها الدول الأعضاء في الأمم المتحدة.

٤ - يطلب من الأمين العام أن يبلغه خلال ٢٤ ساعة عن تنفيذ هذا القرار.

صدر بعد ذلك القرار ٤٢٦ الذي يوافق على تقرير الأمين العام للأمم المتحدة، وعلى إحداث قوة الأمم المتحدة لمدة ستة أشهر.

ثم صدر القرار ٤٢٧ الذي يوافق فيه على زيادة عدد قوات الأمم المتحدة، ويعلن أخذه علماً بالانسحاب الاسرائيلي الجزئي، ويدعو إسرائيل الى الانسحاب التام.

وقد تشكلت قوات الأمم المتحدة من فرنسا، وفيدجي، وإيرلندا، والنيبال، والنرويج، وهولندا ونيجيريا والسنغال وغانا وإيران (انسحبت القوات الايرانية فيما بعد).

ولكن هذه القوات لم تستطع - حتى اليوم - تنفيذ مهماتها، وقد اضطر مجلس الأمن إلى تمديد فترات بقاء قوات الأمم المتحدة، مرة بعد مرة. كما اضطر إلى إصدار قرارات إدانة إسرائيل. فكانت القرارات ٤٤٤، ٤٥٠، ٤٥٩.

ولعل من أبرز ما اتخذه المجلس من تدابير، ما ورد في تصريح رئيس المجلس آنذاك، دونالد ميلز، إثر صدور القرار ٤٤٤، ويقضي بوضع برنامج مرحلي تتألف مرحلته الأولى مما يلي:

١ - أن تزيد الحكومة اللبنانية من الوجود الاداري المدني اللبناني في الجنوب.

٢ - إرسال كتيبة من الجيش اللبناني إلى منطقة عمليات قوات الأمم المتحدة.

٣ - تثبيت وقف اطلاق النار في المنطقة ووقف المضايقات التي تسببها قوات الأمر الواقع لقوات الأمم المتحدة وللسكان المدنيين في منطقتها.

٤ - زيادة انتشار قوات الأمم المتحدة وسيطرتها في المنطقة الحدودية التي تسيطر عليها قوات الأمر الواقع، وذلك على أساس الاقتراحات التي قدمها قائد هذه القوات في تشرين الثاني ١٩٧٨ (س / ١٣٠٢٦، الفقرة ٢٢) .

حاول لبنان تنفيذ ما يخصه من تلك المراحل، بمساندة قوات الأمم المتحدة، وأرسل كتيبة قوامها خمسمائة جندي وضابط، ولكن إسرائيل وقوات الأمر الواقع منعت استكمال تنفيذ الخطة.

واجتمع مجلس الأمن مجدداً. وأصدر القرار ٤٥٠، الذي ذكر بكل القرارات السابقة، وندد بالعراقيل التي تضعها اسرائيل في طريق تنفيذ قرارات مجلس الأمن، ودعا اسرائيل إلى وقف عملياتها «فوراً». وأشار إلى الخطر على السلام في المنطقة وفي العالم، وذكر باتفاقات الهدنة السارية المفعول، الخ... وحذر من أنه سيتقصى «الطرق والوسائل العملية المطابقة للنصوص المختصة في ميثاق الأمم المتحدة لضمان التطبيق التام للقرار ٤٢٥ (١٩٧٨)».. ولكن...

اضطر مجلس الأمن الى الانعقاد مرة أخرى (٢٠/١١/١٩٧٩) وإلى اتخاذ قرار جديد (٤٥٩) يؤكد على القرارين ٤٢٥، و٤٥٠. ويشكر جهود الأمين العام للأمم المتحدة، ويسجل للحكومة اللبنانية تنفيذها برامج عمل بالتشاور مع الأمين العامم لاستعادة سلطتها المقررة في القرار ٤٢٥ ويذكر باتفاقيات الهدنة. ويمدد لقوات الأم المتحدة ستة أشهر أخرى. وينذر إسرائيل بدرس «الوسائل العملية» إذا استمرت في عرقلة مهمة قوة الأمم المتحدة!

«ورداً» على هذا الانذار - في ما يبدو - دخلت القوات الاسرائيلية الجنوب اللبناني لتقوم «بدوريات» حفاظاً على أمنها.

اجتمع المجلس واتخذ القرار ٤٦٧ الذي يذكر بكل القرارات «الهامة» السابقة، وبأن قوة الأمم المتحدة «لن تستخدم السلاح إلا في حال الدفاع عن النفس». وبتصميم المجلس على تنفيذ مقرراته السابقة «جميعاً». ويدين إسرائيل بالاجتياح، وأعمال العنف، ومساندة قوة «الأمر الواقع» وعرقلة قوة الأمم المتحدة ومنعها تنفيذ مهمتها، الخ...

يجدد مجلس الأمن لقوات الأمن الدولية بالقرار ٤٧٤، ويعيد إلى الأذهان ما انطوت عليه قراراته السابقة، ويذكر بالخطر على «السلام في العالم»، ويأخذ علماً بالجهود، ويقرر إبقاء يده على الموضوع!..

ولكن جواب اسرائيل على ذلك يختصره تقرير الأمين العام لهيئة الأمم المتحدة بما يلي وباختصار: استمرار اسرائيل في دعم قوات الأمر الواقع - توغل القوات الاسرائيلية في أكثر من مناسبة في الأراضي اللبنانية، واحتفاظها بعدد من المواقع، مما سبب «قلق» قوات الأمم المتحدة - تزايد القوات الاسرائيلية منذ ١٨ آب ١٩٨٠ ضمن الشريط الحدودي - قصف قلعة الشقيف ابتداء من الساعة ٢٠,١٥ وحتى الرابعة صباحاً - قصف مدفعي وجوي - قيام ٢٠٠ جندي اسرائيلي بعمليات في أرنون وكفرتبنيت، رغم أن القريتين تقعان خلف مواقع قوات الأمم المتحدة.

نختتم كل ذلك بعرض بعض المواقف الدولية. فللبنان صداقات، ولكن المواقف ظلت ضمن إطار التأييد مرة، والأسف مرة، والتنديد باسرائيل مرة. فيما استمر وضع الجنوب في التفاقم، وعدوان اسرائيل في التعاظم.

مندوب فرنسا يشجب كلياً عدوان آذار. ومندوب الولايات المتحدة يدعو إلى وقف دورة العنف، ومندوب ألمانيا يأسف، ومندوب الاتحاد السوفياتي يعتبر العدوان الاسرائيلي (آذار ١٩٧٨) حلقة في سلسلة الاعتداءات الاسرائيلية. ومندوب كندا يطالب باعطاء لبنان حق ممارسة سلطاته على أرضه، والمندوب البريطاني يحبذ إرسال قوات دولية إلى جنوب لبنان.

وفي هذا الوقت تنعقد مؤتمرات دولية، لمعالجة الوضع في لبنان الجنوبي، وتخرج بالنتائج نفسها، «رغم حسن النية».



لم توفر دبابات العدو سيارات الأبرياء بمن فيها.

(الصور من المجلس الوطني لإنماء السياحة).

اجتمعت الدول المشاركة في القوات الدولية العاملة في جنوب لبنان في مؤتمر أصدر بياناً يطالب اسرائيل بالضغط على قوات الميليشيات التي يقودها سعد حداد للكف عن عرقلة عمل قوات الأمم المتحدة، ذلك أن الدعم الذي يلقاه من اسرائيل عامل رئيسي في عرقلة عمل تلك القوات.

وانعقدت قمة البندقية في ١٣ حزيران ١٩٨٠، وأصدرت بياناً تعلن فيه تضامنها مع لبنان «البلد الصديق» الذي يتعرض فيه «التوازن!» لخطر جدي. وذكر بضرورة قيام القوات الدولية بمهماتها وعدم عرقلة سعيها.

وفي زحمة الأحداث، والقرارات المتكررة، والأسف والدعم الكلامي، أقيم يوم صور في باريس، ولعله كان أقدر على إيصال مأساة الجنوب الى العالم.

فقد عرضت في ذلك اليوم نماذج من آثار صور، وأقيمت حفلة كبرى في مقر اليونسكو، تكلم فيها عدد من الخطباء بينهم السفير باولو كارنيرو رئيس اللجنة الدولية للتاريخ الثقافي والعلمي للبشرية، ثم عرض فيلم للمواقع الأثرية في صور. وقد وجهت اللجنة الدولية نداء إلى الرأي العام العالمي من أجل الحفاظ على صور وآثارها.

وفي ١٦ حزيران ١٩٨٠ عقد في باريس المؤتمر العالمي للتضامن مع الشعب اللبناني الذي ضم ممثلين عن ستين دولة، ومندوبين من ١٥٠ مؤسسة سياسية وهيئة دولية وقد وجهت شخصيات بارزة عالمياً بياناً تضامنياً «مع وحدة لبنان أرضاً وشعباً، ومع كفاحه ضد العدوان الاسرائيلي».

ولكن، ماذا بعد كل هذا؟
هل انتهت محنة الجنوب؟
هل هي في طريق الحل؟

الجواب على الأسئلة قاس، ولكنه حقيقي!

لن يجدي كل الأسف والآمال العريضة والتمنيات القلبية، ولن تنفع كل الضمائر التي استيقظت على حقيقة اسرائيل، وعلى مأساة لبنان وجنوبه خاصة!

فالجنوب يدفع من وجوده ومن أبنائه ثمن غطرسة اسرائيل وتغاضي المجتمع الدولي. والجنوب مع ذلك ما يزال صامداً، وسيبقى كذلك إلى أن يفاجىء العربَ الخطرِ الكامن في الجنوب فيهدد مصير العرب جميعاً! ترى هل يكون بذلك الخلاص؟ ■

● راجع كتاب جنوب لبنان، مأساة وصمود الذي أصدرته اللجنة الخاصة باعداد الحملة الاعلامية لنصرة الجنوب وفقاً لقرار مجلس وزراء الأعلام العرب في جامعة الدول العربية.

ستا

مَعركة غيّرت وَجه الحرب العالميّة الثانية

العقيد الكسندر . م . سامسونوف

ترجمة تاريخ العرب والعالم



لينغراد

الحلقة الثانية

...معركة كبيرة أسهمت في تغيير وجهة الحرب وكان الاطلاع على تفاصيلها شيقاً لكل من تابعها، وفي هذه الحلقة الثانية والأخيرة نتابع سير المعارك الضخمة والشرسة التي أنتهت بتحرير ستالينغراد من القوات الألمانية بعد خسارتها ١٠٠ ألف مقاتل.

«ساتورن»:

جرى تأجيل العملية عدة مرات لإعطاء الفرصة للفرق لإتمام تجمعها. وأخيراً حدد الهجوم في ١٢ كانون الأول. كانت المهمة الرئيسية تقع على عاتق الفرقة المدرعة الـ ٥٧ بينما تلقى «باولوس» الأمر بالخروج من فخه دون أن يتخلى عن مواقعه في ستالينغراد.

وبينما كان الالمانيون يتخذون بسرعة كلية كل التدابير الضرورية لقلب الوضع على «الفولغا» بقي الروس من جهتهم يحتفظون بالمبادرة في ستالينغراد، كانت مهمة الجيش الأحمر هي ابادة القوات المطوقة، وفي الوقت نفسه القيام بهجوم مباشر باتجاه «روستوف».

كانت القيادة السوفياتية العليا تريد الانتهاء من عملية تدمير القوات المطوقة بسرعة واسندت هذه المهمة الى جبهة «الدون» والى القوات الرئيسية من جبهة ستالينغراد أي الجيوش الـ ٥٢ والـ ٥٧ والـ ٦٤. وبالفعل بدأ الهجوم في ٢٤ تشرين الثاني.

كانت المعارك ضارية وصمد الالمان بعناد واحيانا بهجمات مضادة. وفي مساء ٢٩ كانت المساحة التي يحتلها «باولوس» وفرقه قد تقلصت الى النصف. ولم تكن جبهتا «الدون» وستالينغراد تملكان الفرق الضرورية لمتابعة مهمتهما لتفريق القوات العدوّة وتدميرها منفردة. وكان هنالك أكثر من ٣٠٠,٠٠٠ الماني في هذه العزلة بينما كانت تقديرات الروس سيئة اذ انهم اعتقدوا ان هنالك ٩٠ الف جندي فقط في هذه العزلة وقللوا من أهمية الأسلحة والمعدات التي بحوزة المحاصرين.

في نهاية تشرين الثاني، جهز السوفياتيون عملية هجوم جديدة، كان اسمها الرمزي «ساتورن». في هذه العملية كان على الجبهة الجنوبية الغربية والجناح الايسر لجبهة «فورونوف» تحطيم الجيش الايطالي الثامن الذي يدافع عن «الدون» الأوسط بين «نوفاي كالينغا» و«فيرشنسكاي» وايضا تدمير القوات الالمانية المتمركزة «التشير» بمحاذاة «تورموسين» ثم التقدم بالهجوم باتجاه «ميليرنو» و«روستوف».

وفي الثامن من كانون الأول قررت «الستافكا» التخطيط بعناية اكثر، لابادة قوات «باولوس». وكان ذلك يقتضي اعادة تجميع الوحدات الروسية وتدعيمها من الاحتياطي وتزويدها بكميات لا تنضب من المحروقات والذخائر. ولتنفيذ ذلك وضع جيش الصدم الخامس (الجنرال بوبون) في التاسع من كانون الاول، بين الجيش الـ ٥١ من جبهة ستالينغراد والجيش المدرع الخامس من الجبهة الجنوبية الغربية. بعد ذلك بقليل وصل جيش الحرس

الثـاني (الجنـرال مـالينـوفسكي) الى منطقـة ستالينغراد. كان على الجميع أن يكونوا جاهزين في الثامن عشر من كانون الأول. مبدئيا كان في نية «الستافكا» استعمال جيش الحرس الثاني بالجبهة الجنوبية الغربية للقيام بهجوم ينطلق من منطقـة «كـالاتش» بـاتجـاه «روستـوف» و«تـاغانـروك» حسب خطة «سـاتـورن». لكن «الستافكا» قررت اخيرا استعمال جيش الحرس الثاني ضد مجموعة «هوت».

في الثـاني عشر من كـانـون الاول كـانت الاوضاع على الجبهة الخارجية كالتالي:

مواجهة مجموعة هـوت (ثلاثـة عشر لواء) وضع جيش الصدم الخامس والجيش الـ٢١ السـوفياتيـان: ثمانيـة ألـويـة مشـاة، بعض التحصينات، فرقتان آليتين، فرق فرسان، أربع فرق مدرعة، ثماني فصائل مـدفعية ومـدفعية هـاون اخذت من احتيـاطي القيـادة العليـا، وفصيلتان لاطلاق الصواريخ.

قبـل البدء بعمليـة الانقـاذ، كـان الالمـان يتقدمون قليلا في المنطقة التي قـرروا الهجوم عليهـا، وكانت القوات السوفيـاتية في وضـع متزعزع نوعا ما : لكن المعادلة الكبرى للقوات في جنـوب الجبهة الالمـانية الـروسية لم تكن لصالح الالمان أبداً وكل ما كان هؤلاء يأملونه هو الاتحاد مع الجيش السادس والسماح له بالعودة للاشتراك جزئيا في المعركة بشكل جذي. ومن المؤكـد انهم لو استطاعوا ذلـك لكـان السوفياتيون رأوا انفسهم في وضـع عسكـري صعب.

في براري «كالموكس»:

بدأت تحركات الجنرال «هوت» صباح ١٢ كانون الاول وانطلاقاً من «كوتيلينكوفو» باتجاه الشمال الشرقي. لقد قام الالمـانيون بتـوجيه قواهم الرئيسية باتجاه منطقة شاسعة تقع على طـول الخط الحـديـدي «كـوتيلينيكـوفـو – ستالينغراد» ومن هنا قام لواء الدبابات الـ٦ والـ٢٢ من الفرقة المـدرعة الـ٥٧ بـالهجوم وكانت أجنحتهما بحماية المشاة والفرسان. وقد كان هدف الالمان الالتقاء مع فرق «باولوس» في جنوب غربي محطة «تودوتوفو»، وفي مواجهتها



• معارك في إحياء المدينة... بين الانقاض

كان هناك لواء المشاة الـ/١٢٦/ والـ/٣٠٢/ من الجيش الـ٥١.

بعد تحضير مدفعي، انطلق الالمان على مراكز لواء المشاة الـ/٣٠٢/ ومحطة «كوريوبارسكي» الحديدية. صمد السـوفياتيـون بشراسـة لكن الالمان كانوا متفوقين كثيرا بدباباتهم وطائراتهم واستطاعوا هكذا الافادة من نجاحهم الرئيسي، اذ مع حلول المساء كانت مقدمة لواء الدبابات السـادس قـد وصلت الى الضفـة الجنـوبيـة «اكسـاي» من عدة نقـاط، بينمـا كـان لـواء الـدبـابـات الـ٢٣ قـد تـوغـل حتى شمـال «نابيكوفو».

وتكـرر الهجوم صبـاح الثالث عشر وكـان التحرك الرئيسي الالماني ما يزال يستهدف اللواء الـ٣٠٢ عندئذ اطلقت الفرقة المتحركة الـ١٣ لايقاف التقدم الالماني. وفي النهار قامت ثلاثون طائرة من نوع «ستورموفيك» ٢–١١ تـابعة للجيش الجوي الثامن بغـارتين جـويتين عـلى الدبابات الالمانية في هذا القطـاع. ولم يتمكن العدو من الوصول الى اللواء الـ/١٢٦/ ولكنه تابع ضغطه على فصائل اللواء الـ٣٠٢/ التي كانت تتقهقر باتجاه «اكساي»، في اليوم الثاني من الهجوم استولى لواء الدبابات السادس على رأس جسر قـائـم عـلى الـ«اكسـاي» في «زالينكسوى» وانطلقت منه فصائل سيطرت على مجموعة مـزارع «فيركني كـومسكي». ووصل اللواء المدرع الـ٢٣ هو ايضا الى النهر وأقام رأس جسر في «غروغليكوفو» حيث تمر الطريق والسكة الحديدية معا.

كـان وصول قـوات «هوت» الى «اكسـاي» يشكل خطرا حقيقيا لجبهة الحصار الخارجية ويهدد باختراقها. وبانتظار وصول جيش الحرس الثاني، كانت مسؤولية احتواء الهجوم الالماني تقع على عـاتق الجيش الـ٥١ ويتوقف سـير العمليات القائمة على صلابته. لقد تقرر عزل الدبابات الالمانية عن المشاة وفرق التموين ثم تدميرها كلاً على حدة، على طول خط «اكساي». واسندت هذه المهمـة الى مجموعـة صدم من الجيش الـ٥١ مؤلفة من الفرقتين الآليتين الـ٤ والـ١٣ ومن عدة وحدات مستقلة.

متابعة العملية غير ممكنة:

في ١٥ كانون الاول تمكنت الفـرقة الآليـة الرابعة مع الدعم، من اخراج الالمانيـين من «فيركني كومسكي» واعادتهم الى «اسكاي». وفي

اليوم التالي انشغل الطرفان بعمليات ثانوية وبالتحضير لمتابعة العمليات.

وحالت المقاومة العنيدة لجبهة ستالينغراد من اقتراب الالمانيين من «ميشكوف» ممكنة بذلك انتشار جيش الحرس الثاني. وكان على هذا الاخير ان ينهي عملية تجمعه شمال النهر مع الفرقة الالية الثانية التابعة للحرس في ١٧ كانون الأول واقامة خط دفاعي بين «نيجني كومسكي» و«كابكنسكي» بالدبابات والمشاة المنقولة يدعمها الطيران بهدف التحرك بين «اسكاي» و«ميشوفا» حيث كان لواء مشاةوفرقة آلية من جيش الحرس الثاني قد تمركزا الى الشمال منها ومنذ منتصف الليل كان لواء المشاة الـ٨٧ وفرقة الفرسان الرابعة والفرقة الالية الرابعة قد الحقت به.

في ١٨ كانون الاول دفع الالمانيون بلواء الدبابات الـ١٧ الى المعركة. فاقتحم الممر في اسفل «اسكاي» بالقرب من «فيرا لوفسكي» ووصل الى مجموعة «مزارع ٨ آذار» على بعد عشرة كيلومترات الى الغرب من «فيركني كومسكي» حيث كان اللواء المدرع السادس ما يزال يحاول اقتحامها.

كانت الفرقة الرابعة للجنرال «فولسكي» تتابع احتواء عمليات التقدم العدوة. وفي مساء ١٨ علم الجنرال ان وحدته قد رقيت الى «وحدة حرس» وأصبح اسمها «فرقة الحرس الالية الثالثة» وتابع رجاله صمودهم أمام هجمات لواءي الدبابات ولكن في مساء ١٩ اجبروا على التخلي عن «فيركني كومسكي».

لعبت هذه المقاومة دوراً رئيسيا وكان للمعارك التي قامت بها فرقها لتأخير الالمان، الفضل الكبير بوصول ١٥٠ قطاراً محملاً بالفرق وبالمعدات التابعة لجيش الحرس الثاني الى منطقة ستالينغراد، والتمركز على خط الدفاع القائم على الضفة الشمالية لـ«ميشكوفا».

ورفضت القيادة الالمانية الاعتراف بهزيمتها وتابعت بعناد عمليات الاخلاء حتى ٢٣ كانون الاول محاولة دون جدوى الوصول الى خط «ميشكوفا» وكانت مجموعة «هوت» قد اقتربت الى أقل من اربعين كيلو مترا من المحاصرين في ستالينغراد، لكن خسائرها في الأرواح والمعدات وصلت الى الحد الذي جعل قوتها الدفاعية تبلغ الصفر. واعترف «هوت» نفسه ومعه الجنرال «كريشنر» قائد اللواء المدرع الـ١٧ بأنه لا يمكن متابعة العملية الا في حال وصول فرق جديدة. كان وضع قوات «فانستين» حساسا بمجمله مما دفع الجبهة السوفياتية الجنوبية الغربية الى القيام بعملية حاسمة في شمال غرب ستالينغراد، رغم ان هجوم «هوت» كان شديد الاحتدام، كانت فرق الصدم لهذه الجبهة وللجناح الأيسر من جبهة «نورونيف» قد بدأت هجومها في ١٦ كانون الاول ضد الجيش الايطالي الثاني ومجموعة «هوليدت» وبقايا الجيش الروماني الثالث. وبعد ثلاثة أيام من القتال، سحق الالمان وبدأت القوات السوفياتية بالتقدم جنوبا وجنوبا غربا. وسيطرت الفرقة المدرعة الـ١٧ (الجنرال بولوبوياروف) على «كانتيميروفكا». في ١٩ كانون الأول وفي ٢٤ منه كانت الفرقة المدرعة الـ٢٤ (الجنرال بادانوف) قد استولت على «تانسينكاي».

ونتيجة لهزيمة الايطاليين والالمانيين في اواسط «الدون» تلقى «فون مانستين» الامر بان يحول الى مجموعة الجيوش «ب» كل التشكيلات التي كانت متجهة للالتقاء به. وبسبب ذلك اضطر لواء الدبابات الـ٢١ الذي كان يتجه الى «كوتيلينسكوفو» الى العودة الى «التشير» الاسفل حيث اتجه ايضا اللواء المدرع السادس باقصى سرعة. وقرر «مانستين» عندئذ، التزام الدفاع، منتظرا وصول اللواء المدرع «الفايكنغ» القادم من الجيش المدرع الاول الموجود في القوقاز. اما بالنسبة الى عملية «هوت» فقد انتهت بصورة جيدة والى الابد.

لم يبق الماني واحد:

في ٢٤ كانون الاول كانت كل الظروف المشجعة لاطلاق رصاصة الرحمة على قوات «هوت» متجمعة في جانب السوفيات وكان قد بدىءبهذهالعملية اثناء القتال فور تحوله لصالح الروس في «كونيلينكوفو» عندما أرسل جيش الحرس الثاني الى جبهة ستالينغراد وعندما تبعته الفرقتان المدرعتان السادسة والسابعة لمساندته. كانت نسبة تفوق الجيش الاحمر



القنابل التي أمطرت على ستالنغيراد مرة ١٤٣ يوماً كانت أحياناً... من النوافذ.

عندئذ تعادل اثنتين مقابل واحد في القوات العاملة و١،٦ مقابل ١ للمدفعية ولكن بقي الطيران الالماني متفوقاً بنسبة ١،٧ مقابل ١.

بدأ الجيش الثاني والجيش الـ ٢١ بهجومهما في ٢٤ وكان الاول مسؤولا عن التحرك الرئيسي، فتقهقر الالمانيون حتى «اسكاي» ولكن بعد قيامهم بعمليات تأخيرية ضارية. وقام الجنرال «رونميستبروف» على رأس الفرقة المدرعة السابعة باجتياز النهر في ليل ٢٥ واستولى على «فيرالوفسكي» عند الفجر. اما على اليسار وفي الوسط فكان الهجوم يتقدم ايضا بصورة جيدة. ففرق جيش الحرس الثاني تتقدم باتجاه «كوتيلينيكوفو» من الشمال وفرق الجيش الـ ٥١ من الشمال الشرقي وقام جيش الحرس الثالث والفرقة المدرعة الثالثة عشرة بالتوغل داخل الجيش الروماني الرابع وبدأت بحركة تطويقية كبرى للقوات العدوة في «كوتيلينكوفو». ظهر ٢٧ كانون الاول حاولت الفرقة المدرعة السابعة الوصول الى «كوتيليتيكوفو» في الشمال، لكنها فشلت وبدأت معركة كبيرة للسيطرة على المدينة التي تدافع عنها فرق المانية نخبة. ونتيجة لذلك قرر الجنرال «مالينوفسكي» القيام بعملية تطهير ضفة «الدون» الغربية، بعد الاستيلاء على رأس جسر منطقة «كراسنوارسكي - فيركيني - كوميارسكي» وقامت فرقة الحرس الآلية الثانية باجتياز النهر. وفي نفس اليوم عاودت الفرقة السابعة هجومها على «كونيلنيكوفو» مهاجمة بصورة محورية بمجموعتي دبابات وبمجموعة مشاة مؤللة وهكذا أصبح الالمانيون محاصرين من الغرب وأجنحتهم منعزلة عن المؤخرة كون كل الطرق المؤدية الى «كوتيلينكوفو» من الغرب ومن الجنوب الغربي اصبحت بأيدي الروس. كذلك موقع الطائرات مع خمس عشرة طائرة وثمانماية خزان للوقود وكمية كبيرة من القنابل عدا الطائرات التي حطت فيما بعد، معتقدة ان المنطقة ما زالت بأيديهم. وطهرت المدينة والمحطة تطهيرا كاملا ولم يبق الماني واحد في صباح ٢٩ كانون الاول.

وكان من شأن احتلال «كوتيلينكوفو» تسهيل عملية الفرقة الالية للجنرال «بوغدانوف» الذي كانت وحداته قد بدأت تتحرك باتجاه مجموعات «روتميستروف» ولخوفهم من عملية تطويق، قام الالمانيون بالانسحاب الى «روستوف» مخلفين وراءهم ثلاثة الاف قتيل وأسير وخمسة وستين مدفعا وكميات من الذخائر.

أصبحت الطريق الآن معبدة للانتهاء من الالمانيين في «تورموسين» وهم لم يكونوا بعيدين كثيرا عن قوات «باولوس» وكانوا بسبب ذلك يشكلون خطرا على الروس ولكن المعركة التي شنها عليهم جيش الصدم الخامس امتدت طولا مما دفع «الستافكا» على التأكيد على ضرورة تدمير هذا العائق بسرعة، وافهمت ذلك الى قائد جبهة ستالينغراد والى الجنرال «مالينوفسكي» وقام هذا الاخير بتحريك جناحه الايمن باتجاه «تورموسين» التي حررت في الواحد والثلاثين من كانون الاول مما حرم الالمان من مجموعة الطرق ومن المخازن الرئيسية لمجموعة جيوش «الدون» التي كانت تستعمل لتموين فرق «نورموسين» و«نيجني تشير سكاي».

في الواحد والثلاثين من كانون الاول وصلت قوات جبهة ستالينغراد الى خط «نيركني - رويجني - تورموسين - كلوبوكي» اثناء عملية «كوتيلنيكوفو» كان الجيش الروماني الرابع قد دمر كليا والجيش المدرع الرابع قد تقهقر حتى «زيمزفنيكي» على بعد ٢٥٠ كلم

تقريبا من ستالينغراد بعد اصابته بخسائر جسيمة. وكان الناجون من مجموعة جيوش «الدون» يتقهقرون جنوبا باتجاه «مانيتش» وكان هجومهم قد مني بالفشل التام.

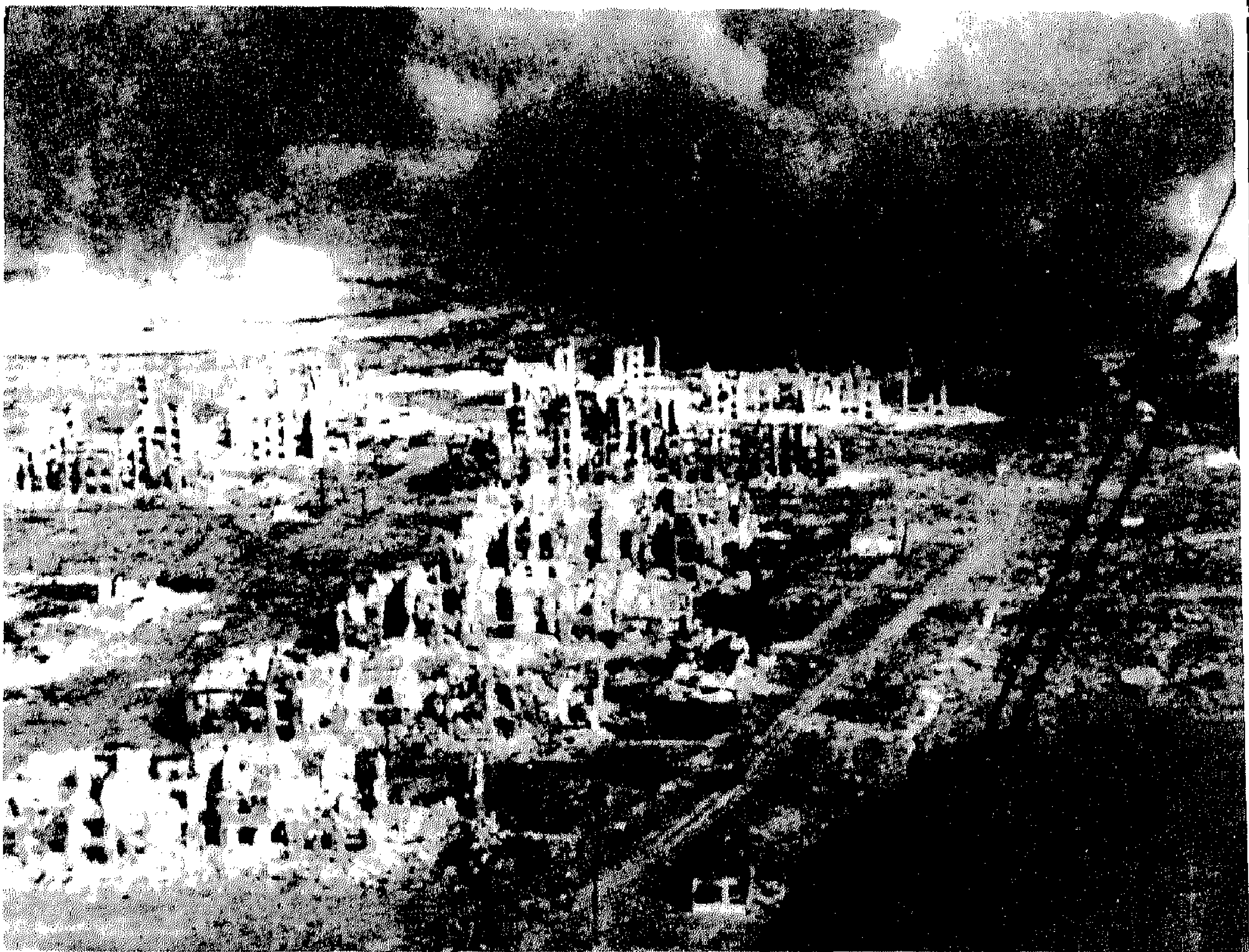
أوقعت العمليات الهجومية التي شنها السوفياتيون خلال شهر كانون الاول خسائر جسيمة في صفوف الالمان. فالجيش الايطالي الثامن دمر كليا وما تبقى من الجيشين الرومانيين الثالث والرابع ابيد، اما مجموعة «هوليدت» والجيش المدرع الرابع الجديد فقد هزم واصبح بامكان الجيش الأحمر الآن القيام بعمليات هجومية استراتيجية جديدة في كل المنطقة الجنوبية.

الانذار:

في نهاية كانون الأول كانت الجبهة الخارجية على بعد مئتي كيلومتر تقريبا من القوات الالمانية المحاصرة. وكانت هذه متجمعة الان فوق مساحة ١٥٠٠ كلم مربع تقريبا (٥٠ كلم من الشرق الى الغرب و٣٠ كلم من الشمال الى الجنوب) ولم يكن امامها الا ان تستسلم او ان تباد بالجيوش السوفياتية السبعة التي تحاصرها.

كان وضعهم يتدهور شيئا فشيئا فكل المساحة التي يحتلونها تقريبا تقصفها المدفعية السوفياتية وتجرفها. والذخائر والوقود في نقص مستمر والوضع التمويني في خطر. ولم يكن الطيران ليستطيع تلبية أدنى الحاجات بعد اسقاط مئات طائرات النقل في كانون الاول بالمطاردة وبالمواقع الروسية المضادة للطائرات. وخلال الشهر هذا توفي ثمانون الف رجل متأثرين بالجروح أو نتيجة الجوع والمرض. ولم يبق سوى مائتان وخمسون الفاً فقط.

ورغم كونهم في وضع ميؤوس منه، فان المحاصرين قاموا ببناء شبكة تحصينات قوية


اطلال ستالينغراد.. بعد المعارك

واستعدوا لمقاومة طويلة. وكانت القيادة الالمانية العليا تظهر حاجتها لتجميد القوات السوفياتيه في ستالينغراد للحؤول دون الانهيار النهائي للجناح الجنوبي للجبهة الشرقية.

دخلت المعركة مرحلتها الاخيرة واختارت «الستافكا» احد رجال المدفعية الجنرال «فوروتوف» وارسلته الى جبهة «الدون» حيث وصلها في التاسع عشر من كانون الاول مع مهمة الاسراع بتصفية الفرق المطوقة. وارسلت الامدادات الى جبهة الدون ووضعت الجيوش الثلاثة الـ٥٧، والـ٦٢، والـ٦٤ التابعة لجبهة ستالينغراد والمفصولة على الجبهة الداخلية بامرته ابتداء من اول كانون الثاني ١٩٤٣ وكان وحده المسؤول عن هذه العمليات.

وفي الرابع من كانون الثاني وافقت «الستافكا» على الخطة التي بموجبها ستجري هذه التصفية واسمتها «الطوق» وتقضي بالقصف المتواصل لكل الوحدات الالمانية في وقت واحد وبتدميرها كليا، وحدة اثر حدة، وتلقت القوات السوفياتية المتجمعة والجيش الخامس والستون المسؤولان عن الهجوم الرئيس امدادات ضخمة.

في الثامن من كانون الثاني عرض القائد السوفياتي على «باولوس» الاستسلام وكان هذا العرض موقعا في كل من يمثل «التسافكا»: الجنرال «فورونوف» ومن قائد جبهة «الدون» الجنرال «روكوسوفسكي» وكان نص العرض يؤكد على كون الالمانيين لم يعد لهم أي خط عملي للخروج من الطوق، ويضمن حياة وسلامة الجميع مع امكانية العودة اما الى المانيا أو أي بلد يختارونه بعد الحرب، هذا اذا توقفت المقاومة نهائيا. وحددت الساعة العاشرة (بتوقيت موسكو) من يوم التاسع من كانون الثاني لاعطاء الجواب النهائي مع التاكيد بأنه في حال الرفض ستعود عمليات التصفية الى عملها على الفور.

رفضت القيادة الالمانية الانذار، مما جعل الالمان يفقدون عدة آلاف آخرين من جنودهم، في نفس الليلة قامت جبهة «الدون» بتوجيه فرقها للهجوم الأخير. فتحت المدفعية نيرانها من مئات المدافع ومدافع الهاون في تمام الثامنة والدقيقة الخامسة من صباح اليوم التالي وفي نفس الوقت دخلت القاذفات والطائرات الهجومية التابعة للجيش الجوي السادس عشر في المعركة وفي تمام الساعة التاسعة شنت جبهة الدون هجومها.

الاختفاء في الكهوف:

كانت مقاومة الالمانيين مقاومة يائسة، بعد ثلاثة ايام فقط من القتال الدامي أصبح القسم الغربي للمقاومة معزولا. مساء الثالث عشر من كانون الثاني وصلت فصائل من الجيشين الـ ٦٥ والـ ٢١ الى الضفة الغربية «تروسوشكا» بينما في بقية المواقع الاخرى كانت الفرق السوفياتية تتابع التقدم فطهرت الضفة الشرقية «لتشيرفلينايا» وفي الرابع عشر من كانون الثاني سقط مطار «بيتومنيك» وهو موقع رئيسي للالمانيين وبعد اجتياز «الروسوشكا» تحررت قرى كثيرة، كذلك محطات «باسارمينو» «كاربوفسكاي وبروديوي». وبعد اسبوع من المعارك كان أكثر من ٨٠٠ كلم مربع قد استعيدت من اصل الألف والخمسماية التي كانت محتلة في الاساس.

وهكذا أصبحت قوات جبهة الدون على مقربة مباشرة من ستالينغراد مساء السابع عشر من كانون الثاني.

وفي الواحد والعشرين من كانون الثاني سقط آخر مطار بقي للالمانيين «غمراك» في اليوم التالي تواصل الهجوم على طول الجبهة وتحملت المدفعية والمشاة الجزء الأكبر منه. فعلى طول العشرين كيلو مترا التي تقف عليها الجيوش الـ ٢١ – ٥٧ – و٦٤ كان هنالك أربعة الاف ومائة مدفع ومدفع هاون. وبين الثاني والعشرين والخامس والعشرين من الشهر تقدمت القوات السوفياتية من عشرة الى اثني عشر كيلومتر وبلغت وسط ستالينغراد جاعلة المساحة التي يحتلها الالمانيون تتقلص الى اقل من مئة كيلو متر مربع. وبعد ستة عشر يوما من المعركة كان الالمانيون قد خسروا اكثر من مئة الف مقاتل بين قتيل وجريح وأسير.

واخيراً... انتهت معركة ستالينغراد... ■

المرجع:

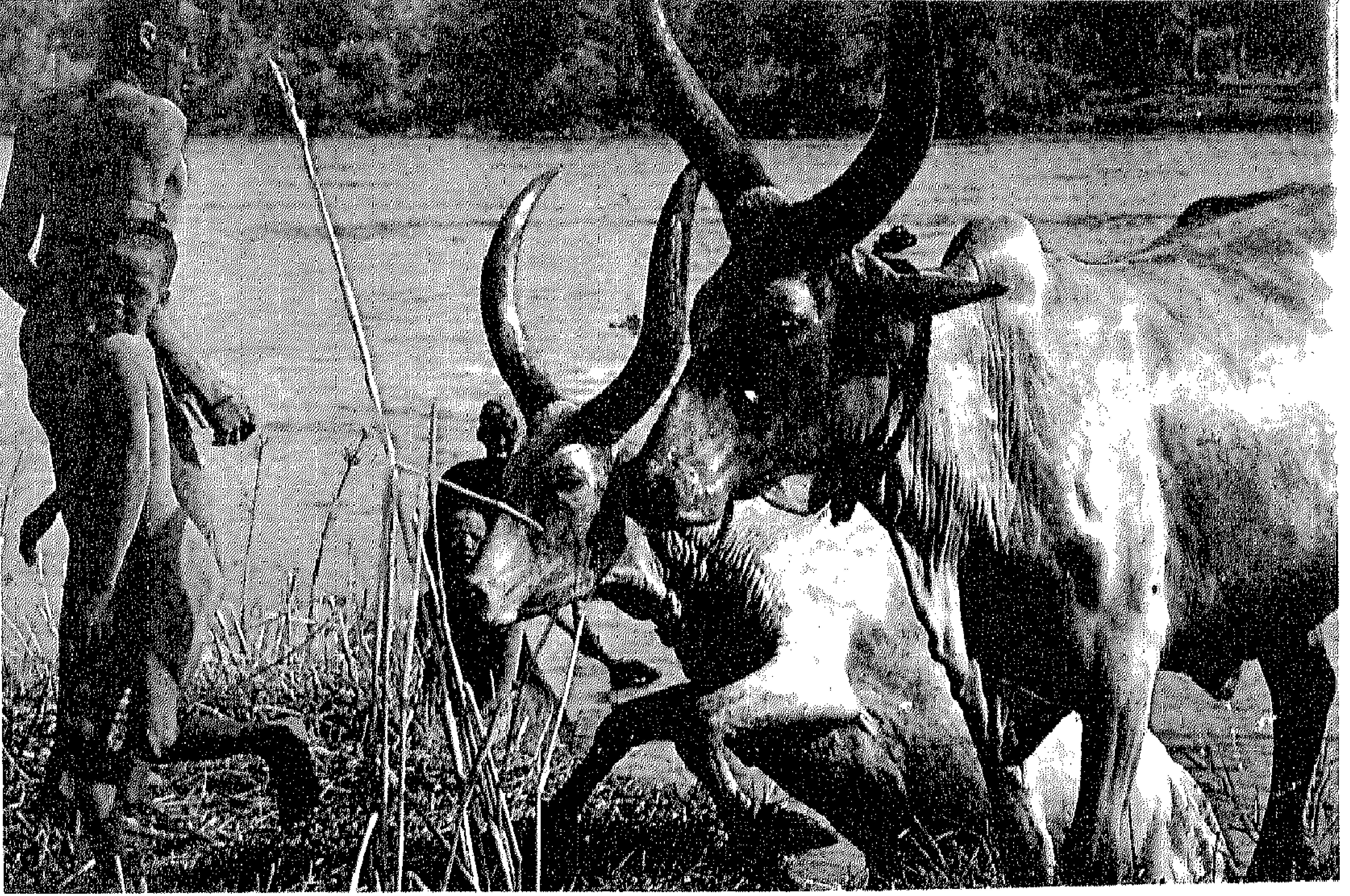
Historia No. 47 — 1968

الدينكاس
عمالقة النيل الأبيض

إعداد قسم التوثيق والأبحاث



فيما يلي صور سريعة من حياة قبيلة بدائية: الدينكاس. هذه القبيلة تقطن مستنقعات النيل الأبيض في جنوب السودان: وقد نقلها الصحفي والمصوّر «كلارك ستيد» لمجلة أطلس.



الماشية وهي لا تجد ما تحتاجه في السواقي فتتغذى على شواطىء النيل.



بعد أسبوع من الملاحة بلغت أراضي الدينكاس، ساكني مستنقعات النيل الأبيض، في جنوب السودان.

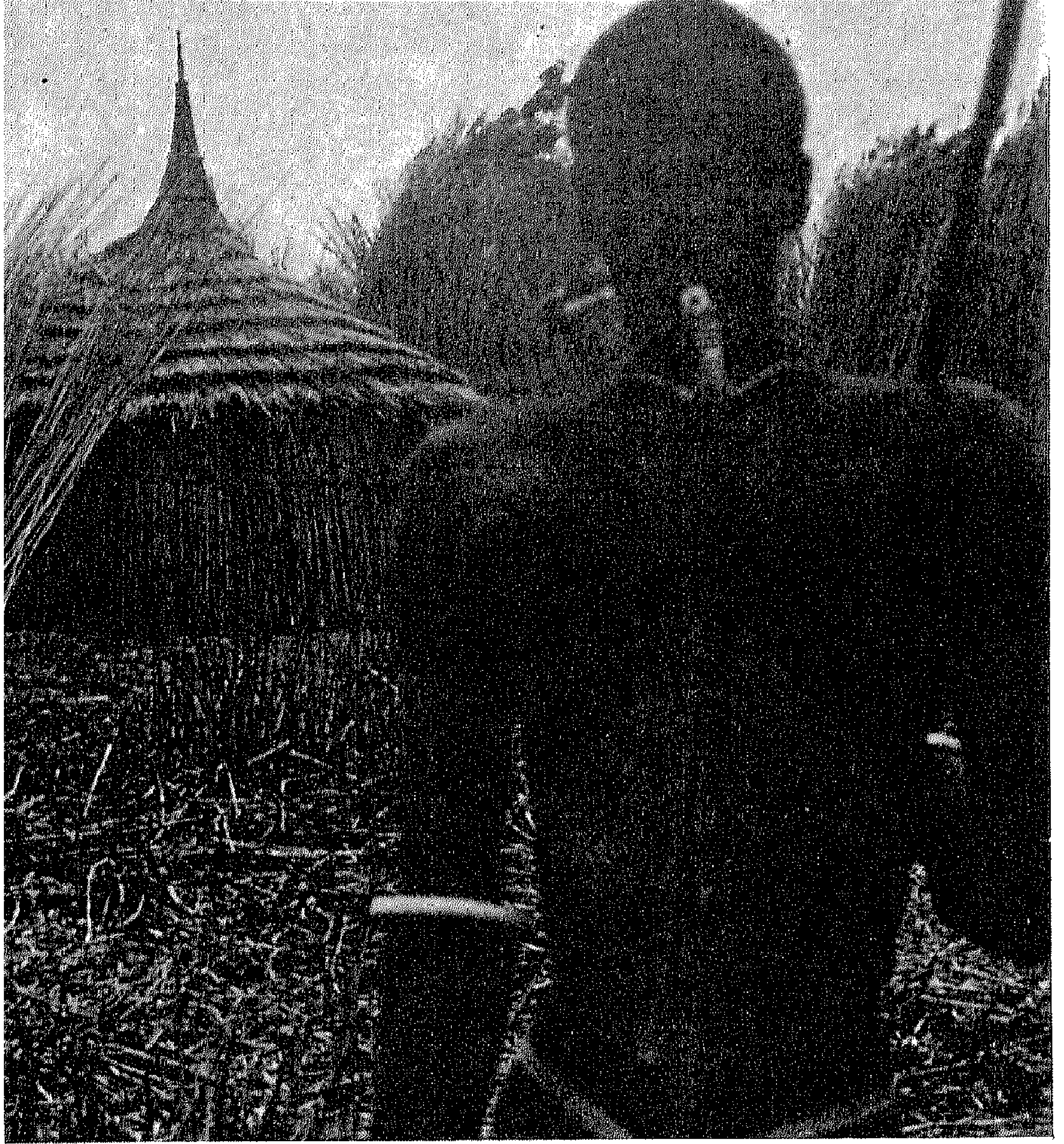
وينبغي هنا أن نميّز بين الـ ٩٠٠,٠٠٠ دينكاس الذين اتصلوا بالثقافة الغربية والذين يشغلون مساحة واسعة في البلاد المنخفضة، وبين أولئك الذين انقطعوا عن العالم بسبب صعوبة الوصول إلى أرضهم النائية. تلك الأرض المعزولة بين مستنقعات النيل ومصباته فلم ينجح المرسلون ولا حتى الديانة الاسلامية في النفاذ إلى هذه الأراضي. لهذا بقيت حياة الدينكاس البدائية كما هي منذ آلاف السنين.

إن رجال هذه المستنقعات عمالقة يبلغ طول الواحد المترين تقريباً، وهم بدو رحل يرعون البقر وينقلون معسكراتهم من مكان إلى آخر تبعاً لتغير فصول السنة. لقد كنت ضيفاً عليهم في معسكر صيفي. فكانت حرارة الصيف محرقة جداً تبلغ ٩٠٪ هيغرومتر. كما كانت الأنهار الداخلية قد جفت في ذلك الوقت مما أجبر الدينكاس في كل عام على مغادرة معسكرهم الشتوي كي يقيموا بالقرب من النيل ويسقوا مواشيهم منه.

إنهم يستيقظون باكراً جداً، ويطلقون العنان لأبقارهم، كما يرسلون حيواناتهم عبر الحقول، وفي الصباح يلتقط الأطفال والنساء براز الحيوانات ويجففونه تحت أشعة الشمس كما يجعلون منه أكواماً صغيرة تساعدهم في المساء على إشعال النار عندما يعود القطيع إلى المعسكر. أما رائحة الدخان الصادرة عنه فإنها تقتل آلاف البعوضات.



إن شعب الدينكاس مسالم لكن عزلته ذات طابع شرس.

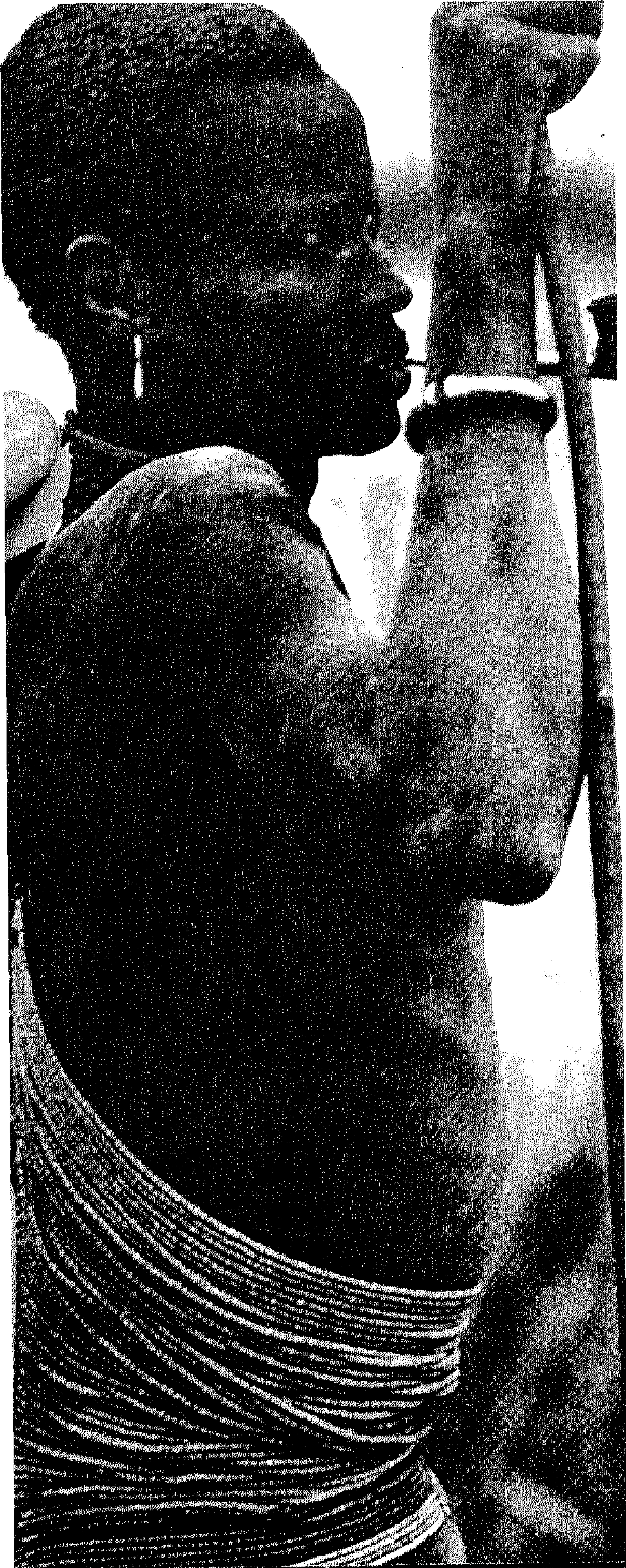


إن أهالي الدينكاس على انسجام تام مع المحيط والمناخ في وسط نباتي تحيط به المستنقعات. وبما أنهم يعايشون وسطاً قاسياً فهم مستعدون دائماً للدفاع عن أنفسهم.

لا يتناول الدينكاس الطعام خلال النهار، لأن الرجال ينشغلون بماشيتهم أما في المساء فتجتمع العائلة حول أطباق وافرة من الذرة البيضاء المزروعة خلال الشتاء، كما يأكلون ما يصطادونه من النيل، ويتغذون بالنباتات المائية المطبوخة والحشائش والخضار، ونادراً ما يأكلون اللحوم. أما وجبة الأطفال فتختلف قليلاً إذ أنهم يشربون الحليب أو اللبن الرائب.

خلال أيام قليلة ألفني أهالي الدينكاس ورافقني رجلان إلى كل أنحاء المنطقة وتحدثا لرئيس القبيلة عن حيويتي وحذاقتي. وهكذا استطعت أن أمتلك لب «بانغ» رئيسهم ذي الحربة.

لم يكن بانغ الوحيد المسؤول عن القبيلة التي تبلغ ١٣٠ شخصاً فإلى جانب بانغ هناك ساحر هو المسؤول عن الاحتفالات الدينية ويقوم بوظيفة الشافي، لكنه لا يملك سلطة القرارات إذ أن لبانغ وحده حق السلطة السياسية، فهو الذي يدعو القبيلة إلى الحرب ويحكم بين الخصومات ويفض النزاعات كما يختار المراعي من أجل القطيع.



محارب طلق الوجه، رابط الجاش، يرتاح مستنداً على رمحه.

ويكون اختيار الرؤساء عادة من قبل أعضاء القبيلة كلهم، حسب مؤهلاتهم في الذكاء والبراعة، والحياة داخل القبيلة مشتركة لا وجود هناك للملكية الفردية، تملك كل أسرة تقريباً من ثلاثين إلى أربعين رأساً من الماشية وبعض العنزات التي يستفاد من لحمها.

أما ما يملكه الدينكاس من أشياء خاصة فلا يتعدى بعض الأواني والحصر المصنوعة من القصب والأرماح وأوشحة للنساء.

وتتحدد وظيفة كل واحد منهم بشكل واضح. فالنساء مسؤولات عن إشعال النار والطبخ وعن الفلاحة والتقاط براز الحيوانات أما الرجال فيحرسون ماشيتهم ويصطادون الحيوانات والأسماك. والجميع يربون الأطفال ولا يملك أحد الحق في أن يضربهم.

لا يعرف الدينكاس المدرسة ولا الكتابة ولكنهم جميعاً يتعلمون الطهو. ويرافق الصبية في السادسة من عمرهم آباءهم إلى الحقول كي يتعلموا حراسة الحيوانات وحلب الأبقار إذ أن هذه القبيلة تعامل الأطفال بمثابة الراشدين.

إذا كان الدينكاس يربون الماعز من أجل الحصول على لحمها فليس الحال نفسها بالنسبة للأبقار المقدسة والمعتبرة هدية من الآلهة فقوة البقرة وصفاتها وتصرفاتها كل ذلك مقدس بالنسبة لهم فيقولون مثلاً «بقرة قوية» «بقرة سريعة» أو «إنك شبه بقرة» كلها تعابير مديح وليست تعابير ذم.

ترتكز ديانتهم بشكل أساسي على عبادة الاله نهيّليك والاله دينجيت. يرتلون الصلوات مباركين فيها الأبقار لأن حياتهم كلها تتعلق بها: فيرمز الحليب إلى الغذاء وهو ينبوع البروتين والفيتامين للأطفال والبالغين، أما براز البقر فيحرق ليقتل دخانه البعوض المنتشر هناك. كما يدهن بعض الرجال والنساء جسدهم برماده وهكذا يحمون أنفسهم من لسعات الحشرات التي تجتاح دائماً هذه الأراضي.

يؤمن الدينكاس بالحياة بعد الموت ويعتقدون أن أرواحهم تتخلد في أرواح أولادهم. ■

الساعة الميكانيكية

اخترعها العرب وطورها العثمانيون

جيمس لهورغن

ترجمة:
د. رياض العالي



الباحث في التاريخ جيمس هورغن الذي عمل سابقاً في قسم الأبحاث في شركة النفط الأميركية العربية «آرامكو» في السعودية يسرد في مقال نشرته مجلة «آرامكو» عدد تموز-آب (يوليو-اغسطس) ١٩٧٧، ص١٠-١٣، موجز تاريخ صنع الساعات في بلاد الفتح الاسلامي. وهو يشدد هنا على أهمية الساعات الأثرية الموجودة اليوم في قصر «توبكابي» في اسطنبول والتي بواسطتها استطاع المؤرخون اكتشاف جوانب جديدة من التاريخ المجهول لهذه الحرفة في الشرق.

في العام ١٩٢٣، عندما أصدر النظام الجمهوري التركي الجديد قراراً بتحويل جميع القصور العثمانية إلى متاحف عامة، دهش المسؤولون الجدد لمحتويات الغرف المغلقة داخل هذه القصور والتي كانت مليئة بمجموعات فنية رائعة وتحف وهدايا كان الحكام العثمانيون تلقوها سابقاً من أباطرة الشرق والغرب طلباً لرضى «الباب العالي» في ذلك الوقت. وهم وجدوا داخل قصر «توبكابي» الضخم تراثاً عثمانياً غير معروف. فمن بين مجموعة تضم أكثر من مائة ساعة انكليزية وفرنسية الصنع من القرن التاسع عشر، معظمها في حالة جيدة، عثروا على عدد من الساعات العثمانية صنعاً، تعود إلى القرن السادس عشر وكتب عليها أسماء صانعيها بخط عربي واضح.

ويبدو أن هذه الساعات صنعت في أوج ازدهار الامبراطورية العثمانية، إذ أن روعة إطاراتها الفخمة دلت على مدى الكلفة الكبيرة لصنعها وعلى مدى المهارة الفنية للحرفيين في ذلك الحين.

لكن بما أنه عرف عن العثمانيين انصرافهم إلى الشؤون العسكرية أكثر من اهتمامهم بالأمور «الفنية»، فكيف نفسر وجود مثل هذه الساعات الأثرية الرائعة تصميماً؟ صحيح أن الفن الذي يدرج تحت صفة «العثماني» كان ثمرة جهود العديد من فناني الأقليات المدينية (وخصوصاً الأرمنية منها) خلال الـ٤٠٠ سنة من الحكم العثماني في تركيا. إذن كيف استطاع العثمانيون اكتساب هذه الحرفة التي تتطلب خبرة طويلة؟ ولماذا ركزوا جهودهم على صنع معدات كانت تعتبر من الكماليات في معظم الدول الكبرى يومها؟



لا شك أن السبب الرئيسي كان حاجة المسلمين إلى معرفة الوقت الصحيح لأداء فريضة الصلاة اليومية.

ففي أول عهد الاسلام كان المؤمنون يجهلون مبدأ الساعة. لذلك نظموا أوقات صلواتهم اليومية هذه على الأسس التالية:

- الصلاة الأولى، «عندما يستطيع المرء رؤية جاره في الأفق المنظور».
- الصلاة الثانية في الظهيرة «فور بدء الشمس بإكمال نصف دورتها الثانية».
- الصلاة الثالثة في وسط فترة بعد الظهر.
- الصلاة الرابعة في المساء.
- والصلاة الخامسة «بعد مرور وقت قصير من الليل».

وبسبب صعوبة تحديد هذه الأوقات كانت مواعيد الصلاة غير موحدة في الغالب.

على أثر الفتح الاسلامي لفلسطين وسوريا، تعرّف العرب للمرة الأولى على بعض أنواع الساعات ومنها «المِزْوَلَة» (أو الساعة الشمسية) التي كانت معروفة في العالم القديم منذ عهد الأغريق. وبعدما عدّلوا في هذه الساعات لتناسب حاجاتهم، أصبحت أوقات الصلاة شبه موحّدة عند المسلمين. ومن ثمّ إدخالها تدريجياً إلى العديد من المساجد.

ظل المسلمون يستخدمون هذه الأنواع البدائية من الساعات حتى القرن السادس عشر الميلادي عندما اخترعت الساعات الميكانيكية.

كان العرب هم أول من وضع نظرية الساعة الميكانيكية وصنع نماذج منها. فهم اخترعوا آلة «الاسطر لاب» التي تقيس ارتفاع الشمس عن سطح الأرض وذلك بهدف تحديد أوقات الصلاة واتجاه مكة المكرمة. ومن أبرز هؤلاء العلماء العالم في الرياضيات الخوارزمي.

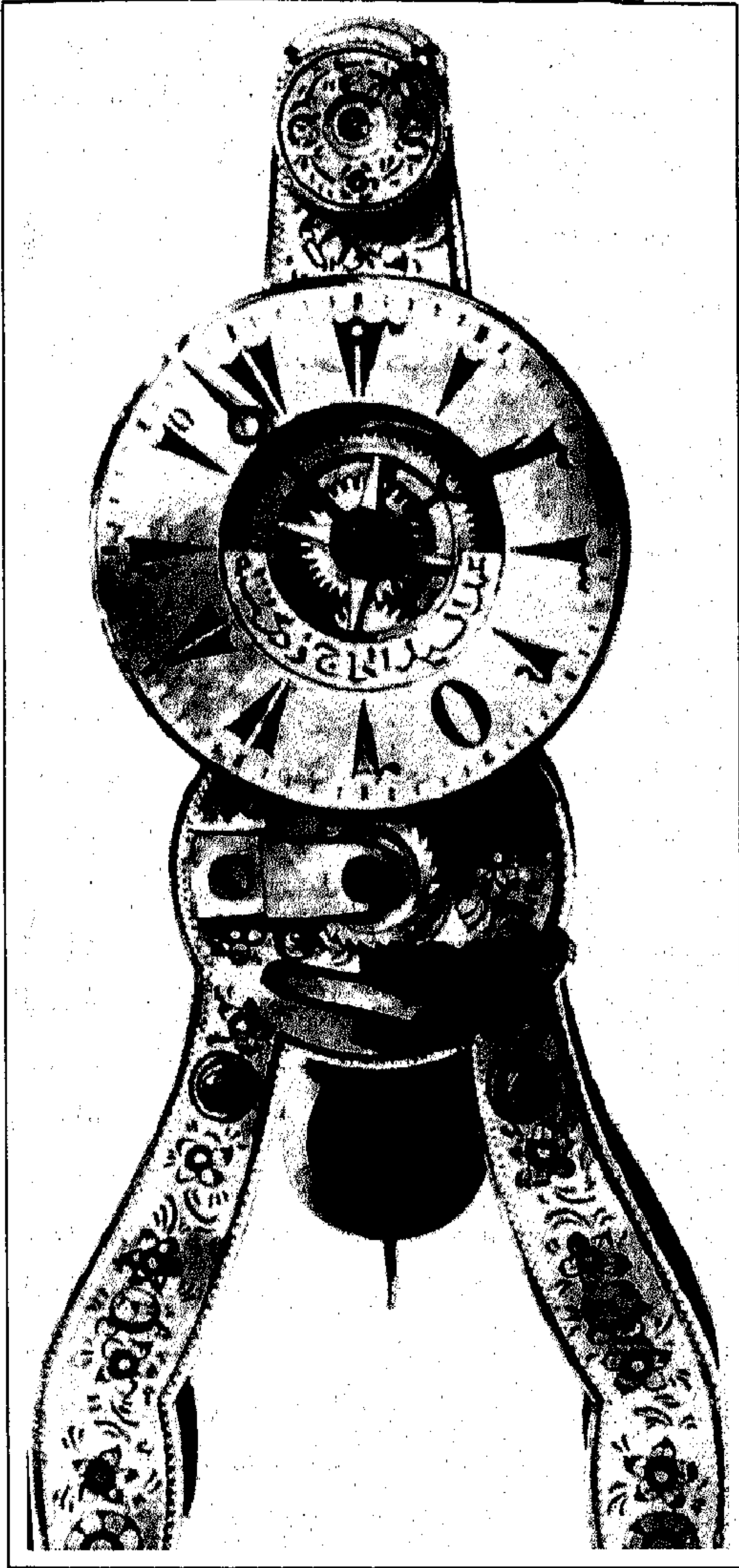
وفي بغداد العباسية كان ابن النديم أول من كتب في موضوع الوقت والساعات وذكر الموسوعي الجاحظ في القرن التاسع ميلادي بفخر: «... استخدم حكامنا وعلماؤنا الاسطرلاب أثناء النهار والساعات المائية خلال الليل لتحديد الأوقات، وهم استخدموا أيضاً بعض الأدوات الأخرى لقياس ظلال الشمس...».

أما ما قصده الجاحظ بقوله «بعض الأدوات الأخرى» فيبدو أنها نوع من الساعات ذات أسنان (Geared Clock).

ففي عهد هارون الرشيد يشير المؤرخون إلى ماسمّوه «ساعة تدق في أوقات محددة» كان الخليفة العباسي أرسلها إلى شارلمان. وفي رأي العديد من المؤرخين الأوروبيين فإن هذه الساعات التي «تدق في أوقات محددة» ربما كانت الأولى من نوعها في أوروبا.

منذ القرن السادس عشر، عندما صنعت أولى الساعات التركية، ظهرت كتب عديدة باللغتين العربية والفارسية حول موضوع الوقت، تحمل عناوين مثل «كيف نحدد وقت الصلاة واتجاه مكة المكرمة» و«كيف نُصلح المزولة»...

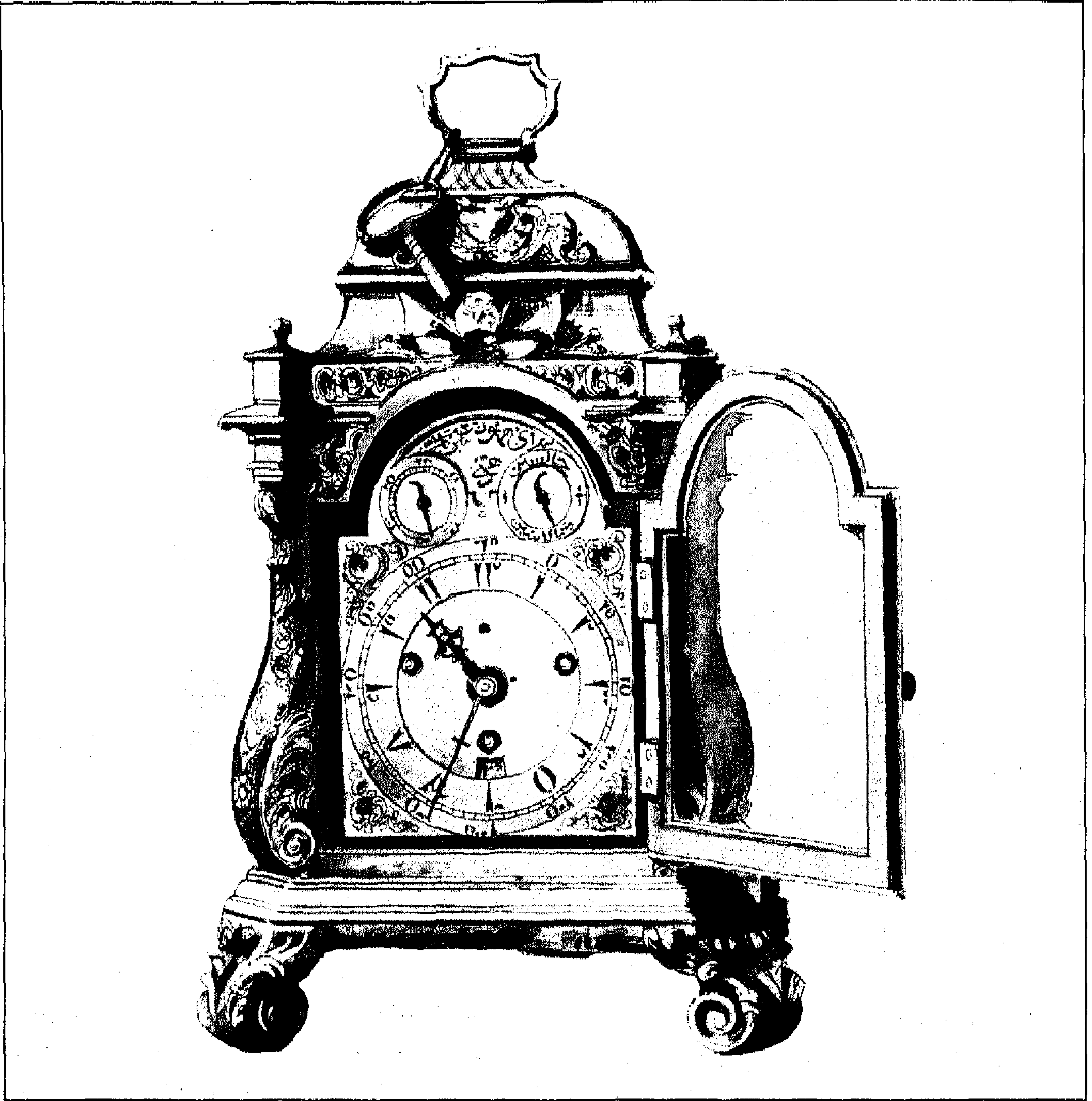
من المؤكد أن المرجعين الأساسيين اللذين استند عليهما الحرفيون الأتراك لصنع الساعات هما لعلماء عرب:



– الأول للجزري الذي عرض في «كتاب معرفة الاختراعات الميكانيكية» (ترجمة حرفية عن الانكليزية) أكثر من ٥٠ نموذجاً لمعدات ميكانيكية مع رسومها التوضيحية.

– والثاني لتقي الدين محمد بن معروف في كتابه المطبوع في اسطنبول (لا يذكر الباحث اسم الكتاب) حيث نجد وصفاً هندسياً للاسطرلاب وللمنظار الفلكي ولغيرها من آلات القياس. وكانت هذه المعدات تستعمل لتحديد الوقت «من غير أي حاجة لمراقبة الكواكب»، أي بمعنى آخر عندما يكون الجو ملبداً بالغيوم.

واستناداً على هذين المرجعين أخذ الحرفيون الأتراك، وخصوصاً من عرفوا باسم



«الدراويش» يصنعون الساعات، من أجل تحديد أوقات الصلاة في بادىء الأمر. وهذا ما يفسر سبب ظهور أول ساعة تركية في «التكيّات الدينية» في أنحاء مختلفة من تركيا.

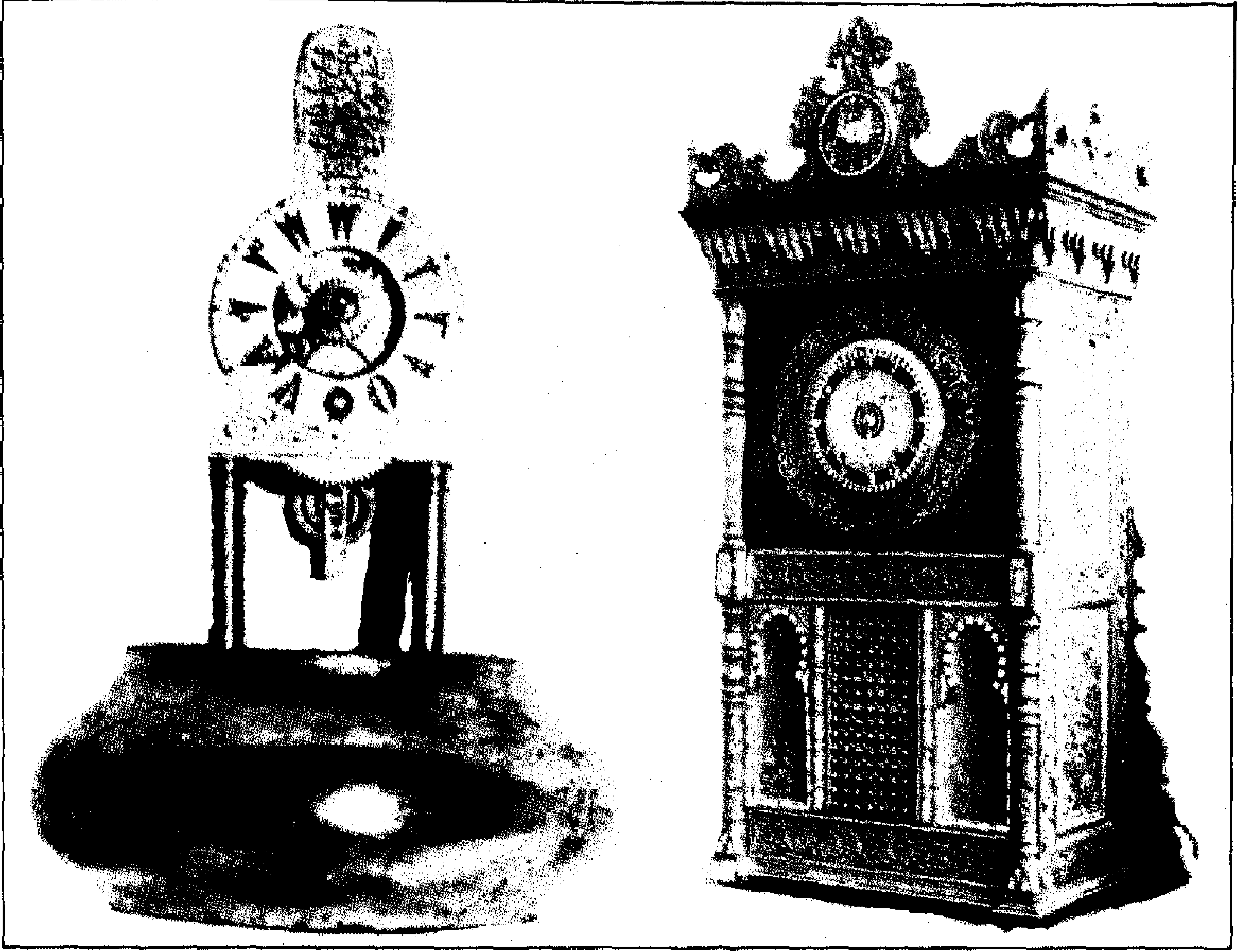
كان هؤلاء «الدراويش» من أكثر المتدينين الأتراك ثقافة، وكان معروفاً عنهم اهتمامهم بالموسيقى والفنون عموماً.

وبما أن صنع الساعات الدقيقة كان يتطلب مهارة كبيرة وعمليات حسابية معقّدة يومها، فإن الدراويش الحرفيين كانوا يمضون سنوات لإنتاج ساعة واحدة. ومن الطريف أن الغلاف الخارجي لهذه الساعات غالباً ماكان على شكل عمامة الدراويش نفسها.

إن أكثر الساعات التركية المثيرة للدهشة هي ساعة الحائط المدورة التي صنعها «شاهين» حوالي العام ١٦٥٠ الميلادي. فهي مرصّعة بالأحجار الكريمة والجواهر، وأرقامها «العربية» (أي الهندية) باللون الأبيض ومحاطة بآيات دينية مرسومة في شكل رائع.

وفي العام ١٧٠٢ صنع «مشهور شايه ديدي» ساعة جيب مرقمة بالدقائق حسب التقويم الغربي والعربي معاً، إضافة إلى أنها تضمنت لوحة للبروج.

وفي العام ١٨٥٣ صنع «محمد سوكورو» ساعة ذات خصائص تسمح لها بتحمّل كل التغييرات الحادة في الطقس.



وحوالي العام ١٨٦٥ صنع «أحمد ديدي» ساعة مماثلة لكنه أضاف إليها رقّاصاً.

إن هذه الساعات التركية - العثمانية على أنواعها موجودة اليوم في قصر «توبكابي» وهي كلها من صنع الدراويش الحرفيين الذين كانوا قدموها للسلطان عربون ولائهم له.

إضافة إلى هذه الساعات المحلية صنعاً كان السلاطين العثمانيون يتلقون العديد من الهدايا من وفود الدول الأوروبية التي كانت تزور الباب العالي تودداً وتقرباً.

وشيئاً فشيئاً كانت قصور السلاطين تتحول إلى متاحف للأشياء النادرة والثمينة. وكالعادة، استفاد التجار الأوروبيون من لهفة الحكام، الكبار منهم والصغار، إلى الساعات المتعددة أشكالاً، ففتحوا فروعاً لمكاتبهم في اسطنبول.

وازدهرت أعمالهم إلى درجة أنهم بدأوا منذ القرن الثامن عشر تصميم نماذج خاصة بالذوق التركي والاسلامي عموماً: فالأرقام كانت مكتوبة بالأحرف «العربية» وزخرفة إطار الساعة كانت شرقية - إسلامية.

وفي المقابل كان الحرفيون العثمانيون يقلّدون النماذج الأوروبية للساعات المستوردة مع إضفاء الطابع المحلي عليها.

هكذا تطورت تجارة الساعات وصناعتها في اسطنبول وأصبحت هذه السلعة ضرورية حيوية يومية للمسلمين في أعمالهم وحياتهم الاجتماعية والدينية.

وبعد إعلان الحكم الجمهوري في اسطنبول في العام ١٩٢٣، نفض الغبار عن محتويات قصر «توبكابي» التي لا تقدر بثمن، فتسلطت بذلك أضواء جديدة على خبايا تاريخية كانت مجهولة لدى العثمانيين.

■

الصور من مجلة الأرامكو (تموز - آب ١٩٧٧).



عندما قفز التاريخ!

فكتور سحاب

إذا استيقظت ذات يوم في الصباح، واتجهت كعادتك إلى الروزنامة لتنزع عنها ورقة الأمس، وعليها تاريخ اليوم الفائت: ٦ نيسان (ابريل) ١٩٧٩ مثلاً، فوجدت أن ورقة اليوم تحمل تاريخ ١٧ نيسان (ابريل) ١٩٧٩، فانك بلا شك ستفرك عينيك، وتمعن النظر لعلك تكتشف الخطأ.

الأمس كان سادس أيام الشهر، واليوم هو اليوم السابع عشر. هل يعقل ذلك؟.

مزيد من التدقيق: ستظن في البداية أنك نزعت عشر أوراق مرة واحدة. لكن في يدك ورقة واحدة. إذن فلابد أن يكون خطأ في صناعة الروزنامة اسقط عشر أوراق منها. لكنك تلاحظ شيئاً غريباً: ورقة الأمس مكتوب عليها: الجمعة ٦ نيسان (ابريل)، بينما ورقة اليوم تقول: السبت ١٧ نيسان (ابريل). فإذا كان السادس من الشهر يوم جمعة، فإن السابع عشر لا يمكن أن يكون يوم سبت.

وتزداد حيرتك، وتتحول إلى روزنامة في الغرفة الأخرى. وتجد الظاهرة ذاتها. وقائع لا معقولة، قد تظن أنها لا تحدث إلاّ في الخيال.

ومع ذلك فإن هذه الواقعة حدثت في التاريخ. ولم تكن خطأ. بل كانت على الأصح، إلغاء لخطأ.

حدثت هذه الواقعة عند بدء استخدام التقويم الجيورجي المستخدم الآن في كل أنحاء العالم. فما هي قصة هذا التقويم؟.

السنة في التقويم الجيورجي تعتمد على حساب الوقت الذي تستغرقه الأرض للعودة إلى المكان ذاته من الفضاء المحيط بالشمس. فالأرض حتى تعود إلى المكان ذاته تماماً، تمضي ٣٦٥,٢٤٢٥ يوم. أي أن السنة الفلكية للأرض ليست ٣٦٥ يوماً بالضبط. والكسور تشكل مع مرور السنوات فارقاً كبيراً، لا بد معه من عملية تصحيح في التقويم، بين آن وآخر. لذلك أضيف على شهر شباط (فبراير) من كل سنة كبيس (أي مرة كل أربع سنوات) يوم واحد، هو اليوم التاسع والعشرون، يزيل جزءاً كبيراً من هذه الكسور. ويبقى جزء يقارب سبعة أيام ونصف اليوم كل ألف سنة. ولتصحيح هذا الفارق، ألغى التقويم الجيورجي اليوم التاسع والعشرين من شباط في السنة الأولى من كل

(١) مجاز في التاريخ، صحافي.

قرن، لثلاثة قرون متوالية، وأبقاه في القرن الرابع الذي يلي.

فمثلاً شهر شباط (فبراير) سنة ٢٠٠٠ سيكون من ٢٩ يوماً، في حين أن الشهر ذاته سنوات ٢١٠٠ و٢٢٠٠ و٢٣٠٠ سيكون من ٢٨ يوماً فقط... وهكذا.

وهذا الالغاء لليوم التاسع والعشرين من شهر شباط، حسب التنظيم المذكور، هو التعديل الرئيسي الذي أحدثه التقويم الجيورجي على تقويم شبيه به إلى حد كبير، كان معتمداً قبله، وهو التقويم الجولياني.

والتقويم الجولياني (نسبة إلى يسوليوس قيصر) أقرّه هذا الامبراطور الروماني سنة ٤٦ قبل المسيح. وكان لايأخذ بعض الفروق المتراكمة بعين الاعتبار. صحيح أنه أضاف اليوم التاسع والعشرين من شباط كل أربعة أعوام. إلَّا أن هذه الزيادة كانت تفيض عن الحاجة في الواقع.

ومقدار الفائض في السنة الجوليانية، كما وضع نظامها فلكي مصري استقدمه الامبراطور لهذه المهمة، بلغ إحدى عشرة دقيقة وأربع عشرة ثانية. فالسنة الشمسية في الواقع ثلاثمائة وخمسة وستون يوماً وخمس ساعات وثمان وأربعون دقيقة.

وهذا الفائض الضئيل في الظاهر يصبح يوماً كاملاً من أربع وعشرين ساعة، كلما مرت مائة وتسعة وعشرون عاماً. أي أنه كان يجب حذف أحد أيام التاسع والعشرين من شباط بشكل دوري. وارتُئي أن تحذف ثلاثة أيام كل أربعة قرون، كما أسلفنا.

فلما أمر البابا غريغوار الثالث عشر باعتماد التقويم الجيورجي سنة ١٥٨٢، كان الفارق المتراكم منذ مجمع نيقية الأول (سنة ٣٢٥) وحتى ذلك التاريخ، قد بلغ عشرة أيام.

لذلك تقرر في روما أن يطلق على اليوم الذي يلي الخميس ٤ تشرين الأول (أكتوبر) ١٥٨٢ مباشرة، تاريخ الجمعة ١٥ (وليس ٥) تشرين الأول (أكتوبر) ١٥٨٢.

وهكذا سقطت عشرة أيام من الروزنامة دون أن يتغير ترتيب أيام الأسبوع.

واعتمد هذا التقويم في فرنسا في السنة ذاتها. فجاء العشرون من كانون الأول (ديسمبر) مباشرة بعد التاسع منه.

أما في بريطانيا فاعتمد التقويم الجيورجي بمرسوم برلماني سنة ١٧٥٢. وجاء الرابع عشر من أيلول (سبتمبر) مباشرة بعد الثاني منه. ويلاحظ أن القفزة هنا اختصرت أحد عشر يوماً، لا عشرة فقط. وسبب ذلك أن الكسور المتراكمة كانت قد بلغت أحد عشر يوماً، نظراً لتأخر بريطانيا في اعتماد التقويم الجديد.

ومن طرائف التقويم الجيورجي أيضاً أن السنة كانت تبدأ في الخامس والعشرين من آذار (مارس)، لا في أول كانون الثاني (يناير).

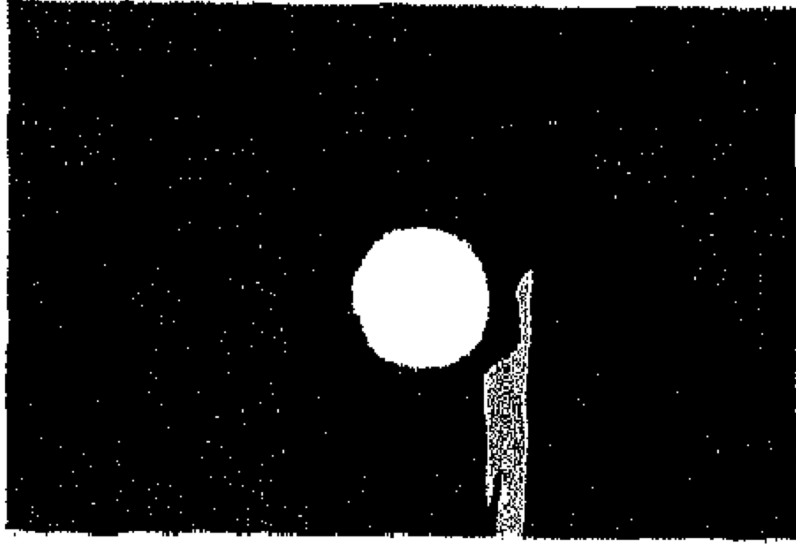
فبعد الحادي والثلاثين من كانون الأول (ديسمبر) ١٦٩٠ مثلاً، جاء اليوم الأول من كانون الثاني (يناير) ١٦٩٠، وليس ١٦٩١. وبعد الرابع والعشرين من شهر آذار (مارس) ١٦٩٠، جاء الخامس والعشرين من شهر آذار (مارس) ١٦٩١.

ولم يتخذ الأول من كانون الثاني (يناير) مطلعاً للسنة الجيورجية، إلَّا في سنة ١٧٥٢. وظلت الروزنامات سنوات طويلة تشير إلى التقويمين معاً، فيقال ١٥ كانون الثاني (يناير) ١٦٩٠ - ١٦٩١.

ولم يعتمد التقويم الجيورجي في روسيا، إلَّا بعد الثورة الشيوعية سنة ١٩١٨. أما اليونان فاعتمدته سنة ١٩٢٣.

وتحديد أول كانون الثاني (يناير) مطلعاً للسنة جرى بقرار امبراطوري روماني. ويلاحظ أن الأسماء الأوروبية للأشهر الأربعة الأخيرة من السنة (سبتمبر، أوكتوبر، نوفمبر، ديسمبر) تدل على أنها الأشهر السابع والثامن والتاسع والعاشر، خلافاً لترتيبها الآن. وهذا يعود إلى الزمن الذي كان فيه شهر آذار (مارس) هو الشهر الأول في السنة.

■

رحلة في الظلام بحثاً عن النور

للدكتور عارف العارف

مراجعة د. زكي النقاش

لئن حق لمعرة النعمان، أن تزهو على غيرها من المدن «بأبي علائها»، وللقاهرة أن تفخر «بطه حسينها» فإن بيروت من حقها أن تتباهى هي أيضاً «بعارف العارف».



فهذا الثلاثي، الذي جمعت بين أفراده آفة فقدان البصر في الطفولة، هو نفسه قد فاز في الوقت ذاته، بنعمة البصيرة النيِّرة، التي فقدها الكثيرون من المبصرين، الذين عنتهم الآية الكريمة، القائلة: «فإنها لا تعمي الأبصار، ولكن تعمي القلوب (اي البصائر) التي في الصدور (٢٢ – ٤٦).

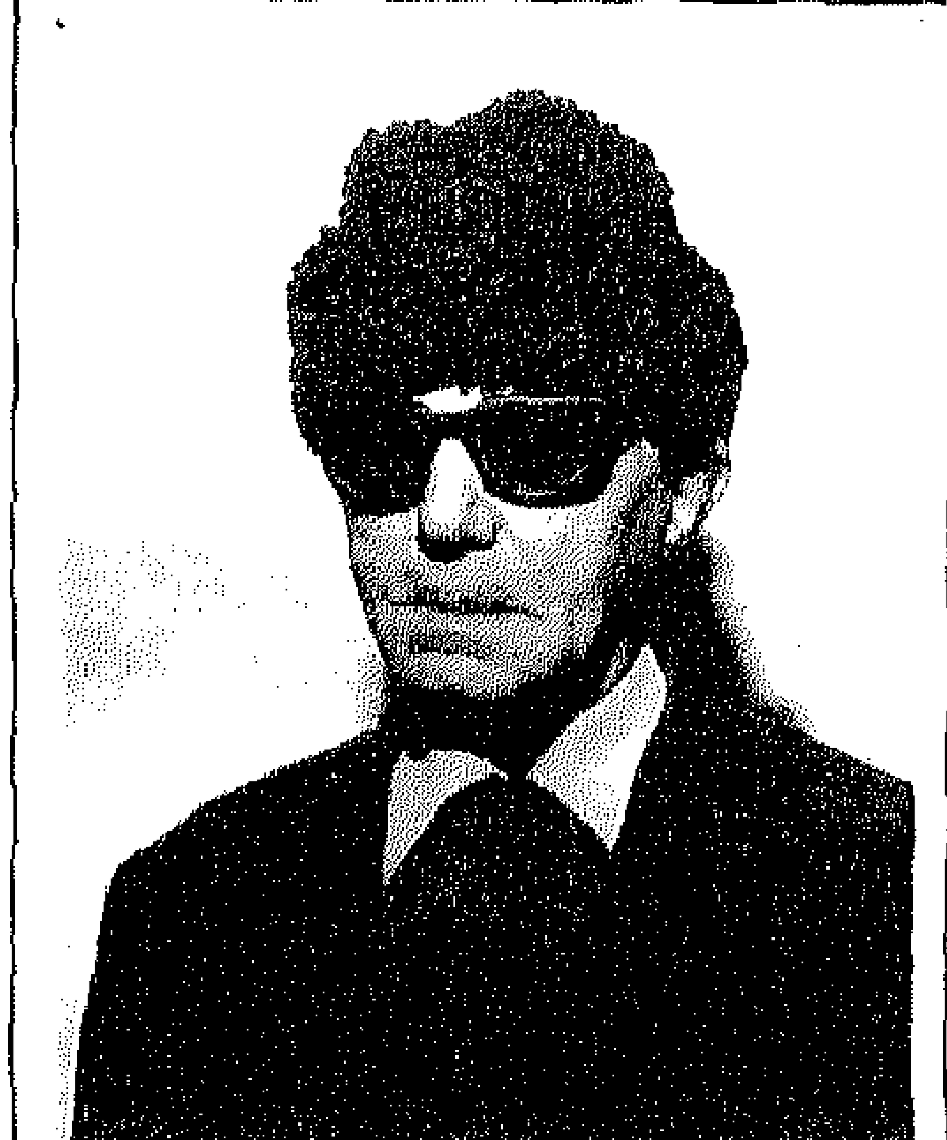
ثم لئن حدَّثنا أوَّلهم عن نفسه، فصوَّرها لنا في «اللزوميات» كما يفيدنا بذلك طه حسين في «ذكرى أبي العلاء»، ولئن أمتعنا ثانيهم بإحدى ثمراته اليانعات: «الأيام» التي وصف لنا فيها نفسه، فأن ثالثهم قد وفَّر علينا الجهد المضني في البحث عن سيرته بما قدَّمه لنا من صورة لنفسه، حين كتب سيرته الذاتية في السفر، الذي نحن بصدد التعريف به، وهو: «رحلة في الظلام، بحثاً عن النور».

فهذا كتاب انطوى على قصة حياة، يطلها «طريف»، الذي هو في الحقيقة والواقع، عارف العارف ذاته.

ومما يجمع بين الثلاثة، الأخذ بالعقلانية، والجدّ في طلب العلم، كوسيلة وغاية، إلَّا أنهم يختلفون في التوسُّل إلى ما يرغبون فيه، فالمعري، مثلاً، اتَّخذ الشعر، والفلسفة والدين مرتكزاً لآرائه وانتقاداته، مع التشدد في التشاؤم، أما ابن القاهرة فكانت وسيلته إلى ما يبتغيه من التحصيل، الأدب من بين مواضيع عديدة أخرى، وكان في حياته وسطاً بين التشاؤم والتفاؤل، غير أن البيروتي، رأيناه يتَّجه نحو العلوم الاجتماعية، كعلم النفس، وعلم الاجتماع فعلم الحقوق. هذا مع ابتعاده عن التشاؤم، فهو أبداً متفائل بالخير، وبطيب مستقبل الانسان في النتيجة.

لقد اعتاد المؤلفون لمثل «هذا الكتاب» وغيره أن يجزئوا مؤلَّفهم إلى: أبواب، وفصول، فضلاً عن الأقسام؛ إلَّا أن صاحب «رحلة في الظلام، بحثاً عن النور» قد شذَّ عن القاعدة، وقدَّم لنا فيه: صوراً، وإن شئت فقل: لوحاتٍ، أو «قطعات» كما جاء للمؤلف نفسه، هي من الفن والأدب في مكانة مرموقة؛ فجاءت كلها لتضع أمامنا، مشاهد عديدة، إن اختلفت فبعاملٍ من ظروف الحياة، ما بين معاناة، وتمتع أو فشلٍ ونجاح، وفق الأحوال التي مرَّ فيها صاحب السيرة، أما هذه «اللوحات»، أو تلك

رحلة في الظلام بحثاً عن النور



د. عارف العارف



د. طه حسين

«القطع» فبلغت، الأربعة عشر عداً. وقد سبقتها كلمة بعنوان «إهداء»، جاء فيها قوله: «إلى جميع مُعَلّميّ، وأساتذتي من« شيخ الكتاب في الزارة «مسقط رأسه»، وانتهاء «بدكاترة باريس».

و«إلى جميع أصدقائي من العرب وغير العرب، الذين كانوا لي أهلاً، يوم لم يكن لي أهل، وكانوا لي العينين المبصرتين في ليلي الطويل.

«إقراراً بفضلهم، وإعراباً عن شكري ومحبتي» اهـ.

والآن سأقصر كلامي واستشهادي على بعض ما جاء في الكتاب حتى لا أقع فيما يزهّد القارىء بالاقبال على قراءة الكتاب بنفسه، ليفوز بما فزت به أنا من متعة فكرية، بالوقوف على أبعاد حياة «طريف» الخُلُقية، والأدبية والعلمية، فأقول: ومما يدلنا على شفافية روح «طريف» وطيب مزاجه، أنَّ الكاتب يبدأ قصة حياته «بقطعة» شاملة يضع بها، أمامنا، صورةً تمثّله خيَر تمثيل، وقد جاءت بعنوان: «ليس الظلم من شيم النفوس». وفي هذا منه دليل: ١ - «على رفضه الرأي القائل: إن الانسان بطبيعته شرير؛ ٢ - «على أن أصحاب الرأي الخاطىء إنما يأخذون فيه عادة، بمبرر لأخطائهم، اصطلحوا على تسميته: «القضاء والقدر». ليلقوا بذلك عن عاتقهم اللوم كل اللوم عليه وعمّا اقترفوه من ذنوب وما اجترحوه من آثام، ويضعوه على عاتق الله، وهو سبحانه منه في الحقيقة براء، ودونك ما جاء لصاحب الكتاب في هذا الشأن، حيث يقول: «ولعل أوضح برهان» على ذلك «قول قائلهم في الشرق، وهو أمير المؤمنين« المستعصم بالله»، يوم غزا المغول بلاده: «تكفيني بغداد»، كلما قيل له: إن العدوّ على الأبواب، والبرهان الثاني قول قائلهم في الغرب، وهو أبو عبدالله محمد بن علّي الأحمر، عند تسليمه مفاتيح قصره لفرديناند الخامس: «أيها الملك... هكذا قضى الله!».

ولعله يحسن الاكتفاء بما علّق صاحب الكتاب على هاتين الحادثتين، فنضع أمامك ما ختم به «قطعته» قائلاً: «ما أشدَّ افتراء ابن الأحمر، وأمثاله من الحكام وغيرهم من الناس، على الله، باسم القضاء والقدر!».

أما في القطعة الثانية التي جاءت تحت عنوان «ألقاه في المجهول»، فيحدثنا عن طفولة «طريف» قائلاً: «حين حلَّ الربيع في «الزراة»، هاتيك القرية الوادعة بين الرُّبى، حمل إليها هداياه: سماء زرقاء صافية الأديم، وشمساً باسمة لطيفة، وطيوراً انطلقت تسبح في الفضاء، وتَتَنَقّل بين غصون الشجر، وتحط على سطوح المنازل، مزقزقة، فرحةً، وأعشاباً تغطي الأرض، وأزهاراً ونسيماً يدغدغ الوجوه، ويبعثر الشعر، وبضعة أطفالٍ كان بينهم طريف».

وبعد هذه الكلمات التي إن دلّت على شيء فعلى ما تتأثّر بـه نفس «طريف» من عناصر مكوِّنات الطبيعة، ينتقل بنا ليوقفنا على بعض معاناته من صروف الدهر، التي نغّصت عليه حياته، وكان أحدهـا وفاة الـوالد، ثم انتقـال الأسرة إلى قرية بعيدة عن «الزارة» حيث عاش بضعة شهور، نغّصت عليه الحياة فيها، وفاة الوالدة، ممّا حفزه عـلى الرجـوع إلى مسقط رأسـه، ودخـول «الكتـاب». وحفظـه القـرآن الكريم... ثم شاءت الأقدار أن ينتقل، بفضل شيـخ جليـل إلى طـرابلس، ويـدخـل إحـدى مدارسها، فكان له في بعض أساتذتها ومعلّميها «من قدروا ما فيه من نجابـة ونباهـة». وهنا يحدّثنا عن «معلم الدين واللغة العربية»، فيكشف لنـا عما يكـون عليه بعضُ من يتّخـذون من التعليم مهنةً، لتشرفهم، فيسيئـون إليها، وإلى مـا يعتدون عليـه من مواضيـع يـدرسـونهـا؛ ولا يفوته، هنا، أن يذكـر بالخـير آخرين من الشخصيات، التي كان لها في تكوين التفكـير عنده، الأثر البين، حتى كان منهم من وجّهه إلى بيروت ودخوله «الكلية الاسلامية»، التي كانت بإدارة المربِّي الفاضل الدكتور بشـير القصّار، والتي عقد فيها مع بعض الرفاق صداقاتٍ، كان له فيهم «إخوان صفاء»، وكم في حديثـه عن مجالس عقدوها معاً، تخلّلتها مساجلات أدبية، ومطارحات شعرية إن تكشفت عن شيء، فعمّا كان بين أولئك الرفاق من محبة وتوادد تربط بينها وشيجة الأدب شعراً ونثراً.

وهنا يطيب لنا أن نترك لمطالع الكتاب، أن يأخذ نفسـه بمتعة السـرد، وبراعـة الوصـف لما اختبره «طريف» في هذه المـرحلة من مـدة التحصيل، بفضل بعض الأخيار من الفرنسيين أعمـدة الانتداب الفـرنسي على البـلاد، بينهم المسيوبونور مستشار المعارف في لبنان وسورية عهد ذاك، والأب بوتارد رئيس معهد الحقوق في جامعة القديس يوسف، التي انتقـل منها إلى جامعة السوربون في بـاريس، حيث كانت لـه بعض مطارح الحب، وإن لم يكلّله النجاح.

وأخيراً لا يفوت المؤلف أن يحدّثنا عمّا عاناه من خبث بعض الشخصيـات الرسميـة وغـير الرسمية، بعد عودته من باريس، متشوِّقاً إلى بذل ما تقدِّره عليه روحه الطيِّبة في سبيل خدمة الوطن بتقديم بعض ما اكتسبه من علم ومعرفة وثقافة، تؤهله للقيام ببعض ما تتوق إليه نفسه. غير أن ما لاقاه من بعضهم جعله يتردد بين بعض العـواصم العربيـة حيث علّم في بعض المعاهد، ريثما فتحت أمامـه الظروف المؤاتيـة «فلبس الروب» وراح يبدع فيما أوكل إليه من قضايا حقوقية، نالت إعجاب بعض أصحـاب النفوس الطيِّبة، وخفّفت عنه بعض المنغّصات، التي سبقت من قلة التوفيق والنجاح.

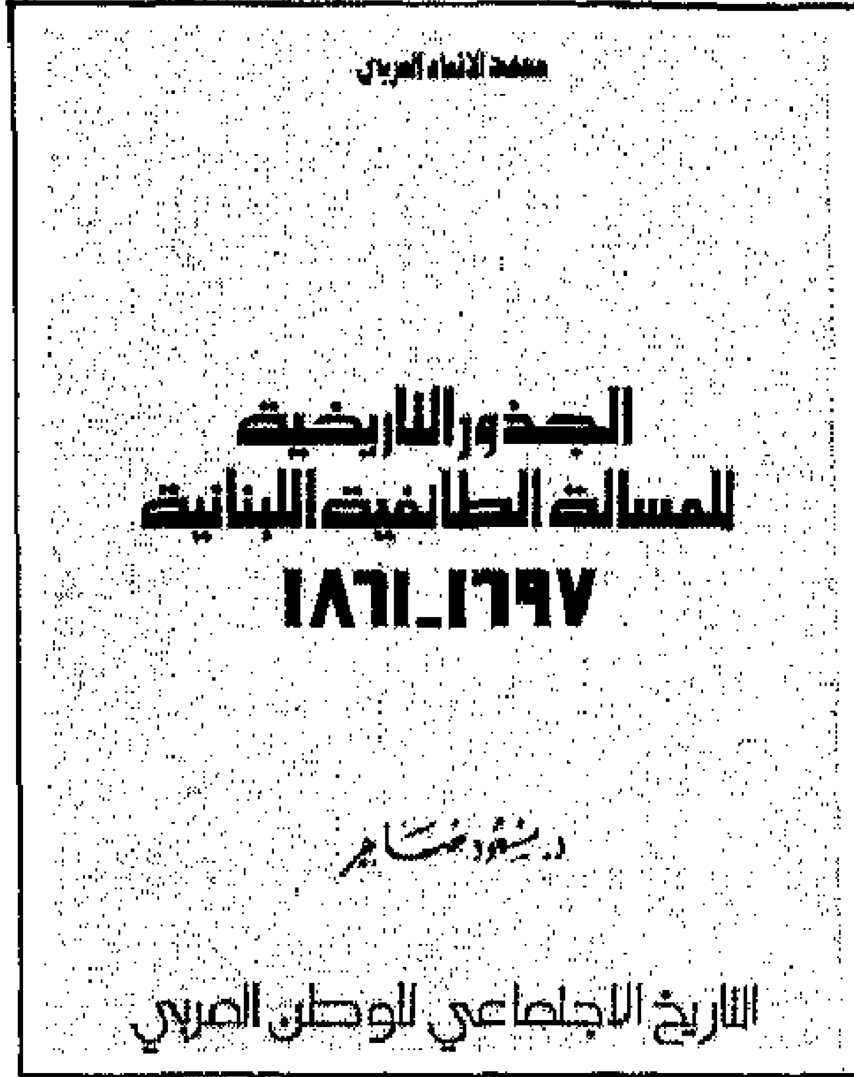
وأخيراً يطيب لي أن أزفّ هذا الكتاب إلى المثقفين من إخواني العرب عامةً واللبنانيين من بينهم خاصة داعياً إياهم إلى أن يقبلـوا على قراءة هذا الكتاب، ليقفوا منه بأنفسهم عـلى ما يستطيعه بعضُنـا مهما قست عليـه الأيام وبـاعدت بينـه وبين التـوفيق والنجاح – بعض ضعاف النفوس، ومرضى الضمائر – من التغلّب بفضل الجهد والجهاد والعمل الدؤوب في سبيل التحصيل، ووضع نتائجه في خدمة المجموع. ■

ورحم الله المتنبي حيث يقول:

«عـلى قـدر أهـل الـعـزم تـأتـي العزائم
وتأتي على قدر الكرام المكارم»

وشكراً للدكتور عارف العارف على ما قدَّم من نتاج له، فيه المتعة والعبرة...

الجذور التاريخية للمسألة الطائفية اللبنانية



د. مسعود ضاهر

كتبت هذه الدراسة في ظروف الحرب الأهلية التي دارت في لبنان. ولما كنا قد بدأنا بجمع موادها قبل الحرب، فإننا عجزنا في أثنائها عن الحصول على الكثير من الوثائق الهامة. لذا اعتمدنا بشكل أساسي على وثائق الأرشيف الفرنسي التي ينشر أجزاء منها الدكتور عادل اسماعيل، وأشرنا إليها في الحواشي بقولنا «الوثائق».

ونظراً لكثرتها كان لابدَّ من الاشارة إلى بعضها إشارات عابرة والاستناد إلى اخرى أثناء الدراسة. فهذه الوثائق تبلغ آلاف الصفحات ونعتبرها مدخلاً ضرورياً لفهم تطوّر المشرق العربي ككلّ، والمسألة الطائفية اللبنانية بشكل خاص، وهي تضم تحاليل بالغة الأهمية لموفدين فرنسيين رسموا آفاق المشروع السياسي الفرنسي بشكل يغاير أحياناً ماكانت تطرحه القنصليات الفرنسية من شعارات لاجتذاب الجماهير المارونية وتضليلها.

ونعتبر هذه الوثائق ضرورة علمية لفهم تطوّر هذه المرحلة. ويصعب الحكم على هذه الدراسة لمن يكتفي بموروثات تاريخية لقّنتنا إياها مؤلفات الآباء اليسوعيين، فهذه بحاجة لموقف نقدي يوضح الدسّ والتشويه اللذين لحقا بالكتابة التاريخية عن لبنان وقد تناولناها بالدراسة في مقالتنا «**الطائفية والمنهج في دراسة تاريخ لبنان الحديث والمعاصر**». أما وثائق الأرشيف الانكليزي والأرشيف الروسي فقد استندنا إلى بعضها عبر دراسات علمية جادة. وعززنا هذا الجانب ببعض المصادر الأصلية المنشورة حول هذه الحقبة.

ونعتبر هذه الدراسة مدخلاً علمياً لفهم المسألة الطائفية اللبنانية. وهي بحاجة لمزيد من التوسيع والتعليل لأن كل فصل يصلح لدراسة مستقلة ومطوّلة.

وقد اكتفينا بكتابة فصول متنوعة غنية تعطي من خلال طابعها الشمولي العام صورة كافية للتعريف بهذه المسألة التي دارت حولها مئات الأبحاث، ومابرحت بحاجة مع ذلك إلى عدة دراسات علمية، نظراً لتشابكها وتأزمها. ونأمل أن يكون هذا البحث حافزاً لمزيد من الأبحاث العلمية بعد أن بيّنا أن المسألة الطائفية اللبنانية قابلة للتعليل واستنباط النتائج ويمكن إخضاعها لمنهجية البحث التاريخي الاجتماعي، وهي المنهجية التي أثبتت صحتها في تحليل تطوّر كل المجتمعات على أساس تبني وجهة نظر القوى المنتجة في هذه المجتمعات. وهذه الدراسة تتبنى تماماً وجهة نظر هذه القوى المنتجة، وهي جماهير جميع الطوائف، أي الجماهير الطائفية - الطبقية المسحوقة التي مابرحت تناضل للتخلص من طائفيتها وطبقيتها ولإزالة المجتمع الطائفي - الطبقي، وبناء المجتمع الديمقراطي

العلماني الذي يفتح الطريق أمام إزالة استغلال الانسان للإنسان.

كما اننا نعتبر أن للدراسات الدائرة حول المسألة الطائفية فائدة نضالية مباشرة، نظراً لما تثيره من نقاش علمي يقدم إضافات منهجية وغنى وثائقياً ولأنها ليست مجرد اسقاطات لأفكار موروثة؛ فدراستنا للمسألة الطائفية اللبنانية لا تعني نظرة ضيقة إلى المجتمع اللبناني المعزول عن محيطه المشرقي العربي والانساني بشكل عام، بل ضرورة علمية لرصد هذه الظاهرة ورسم تطورها، وآفاق تفجرها، وبُناها التكوينية التي جعلت منها قاعدة لا تهدد اللبنانيين فحسب بل تهدد مجتمعات عربية اخرى.

والمسألة الطائفية اللبنانية سمة أساسية من سمات تجزئة المشرق العربي على قاعدة تفكيك بُنى السلطنة العثمانية واقتسام ولاياتها. وقد حللناها على هذا الأساس، وبينّا ذلك التفكيك على مستويات مختلفة. وشددنا خاصة على تلك التي لها علاقة مباشرة بالتفجُّر الطائفي على الساحة اللبنانية. ونعتبر هذا التشديد شرطاً علمياً ينبع من السير بالعملية التاريخية من العامّ إلى الخاصّ ثم العودة إلى العامّ للإستنتاج. فالعامّ هنا هو الضغط الاستعماري لتفكيك بُنى السلطنة العثمانية عبر الامتيازات الأجنبية والتجارة والارساليات وتفكيك نظام الملل والغزوات الأوروبية المباشرة والهزائم العسكرية التي اصيبت بها عساكر السلطنة ومحاولات تغريبها عبر الاصلاحات السياسية، وعصيان الولاة وتمردهم، ومحاولات بعضهم احتلال السلطنة للحلول محلها...

أما الخاصّ أو المحلي فيجد رموزه التاريخية في تنظيم الكنيسة المارونية، وازدياد أملاك الأوقاف ودور الرهبانيات، وتأثير المدبرين الموارنة، وتنصير بعض القادة الحاكمين، ودور الارساليات الأجنبية وجامعاتها ومدارسها وملحقاتها ولغاتها وثقافاتها، وأثر النزاع **المقاطعجي** في إضعاف القوى المسيطرة الاسلامية وبروز قوى مارونية مكانها، والتزايد السكاني المتفجر، والأوضاع الاجتماعية ذات الانغلاق الطائفي الواضح، وكثرة الضرائب وما رافقها من زيادة في حدة التأزم...

وإذا نظر إلى هذا الخاصّ المتفجر، مقروناً إلى العامّ القابل للتفكيك والخضوع للسيطرة في إطار المشاريع الاستعمارية لبناء أوطان طائفية تكون ركيزة للاستعمار في المنطقة، اتضحت الأسباب العميقة للتفجر الصدامي ذي الوجه الطائفي في القرن التاسع عشر، وما ترتب عليه من بدايات عملية لإقامة أوطان طائفية منذ أواسط ذلك القرن حتى أواسط القرن العشرين.

وعلى قاعدة هذه الخلفية النظرية رسمنا كثيراً من سمات تلك المرحلة التاريخية التي امتدت قرناً ونصف القرن من الزمن أي من قيام الامارة الشهابية حتى المتصرفية عام ١٨٦١.

لكن هذه الدراسة ليست تأريخاً لهذه المرحلة. فقد تتبعنا خلالها تطور المسألة الطائفية من مرحلة نظام الملل العثماني إلى مرحلة الطائفية المتفجرة إثر تفكيك هذا النظام بفعل عوامل داخلية وخارجية متشابكة.

ونعتبر دراستنا للمسألة الطائفية نموذجاً لدراسة بعض معيقات الوحدة العربية وانعكاسات السياسة الاستعمارية على كثير من مجتمعاتنا العربية بشكل عام، والمشرقية منها بشكل خاص. ولا بد لأية دراسة وحدوية علمية من محاولة التصدي لهذه المعيقات ولاسيما الاقليمية والطائفية والعرقية وغيرها، للإنطلاق نحو العمل العربي الوحدوي الجماهيري على ركائز ديموقراطية تعيد للجماهير العربية دورها الطليعي في صنع تاريخها الانساني وإسهامها في إغناء النضال البشري كله.

■

● **فتحت العالم كله بالسيف ولكن لم يبق لي منه إلا الحفرة الصغيرة التي دفنت فيها!**

الاسكندر الكبير



ميشال اسطفان

هواية جمع الطوابع

ألى اصدقائنا هواة جمع الطوابع.

وردتنا رسائل كثيرة يسأل فيها اصحابها امدادهم بالارشادات التي تساعدهم على السير في هواية جمع الطوابع البريدية بالطريقة المثلى التي تُجنّبهم الفوضى التي تتخبَّط فيها مجموعاتهم، والخسارة التي تصيبهم من سوء تدبّر الطوابع التي لديهم، والخيبة التي كثيراً ما تنتابهم لأنهم اقبلوا على هذه الهواية الآتية من الغرب، فباشروها على جهل بها، ومشوا اشواطاً بعيدة على غير هدى. وكثيراً ما يترك بعضهم هذه الهواية يأساً من بلوغ الغاية التي يرجوها منها.

لذلك، وبعد ان فرغنا من البحوث التاريخية المتعلقة، بالطوابع الاساسية في البلدان العربية، وجدنا من واجبنا ان نستجيب إلى رغبة اصدقائنا الهواة في العالم العربي، ابتداءً من هذا العدد.

ولنبدأ اليوم بالسؤال التالي:

- ما هي هواية جمع الطوابع؟
- كيف نشأت؛ ولماذا يجمع الناس الطوابع؟
- ما هي اصولها حتى يحصل الهاوي، إلى جانب المتعة، على اعلى نسبة من الاستفادة من هذه الهواية الرفيعة؟



هواية الشيء هي اكتشاف نواح جمالية في موضوع ما، فيُجذب المرءُ إليه ويميل بصورة عفوية إلى اقتنائه، دون ان يفكر موضوعياً بالغاية التي يرمي إليها من ذلك، لكنه يجد بعد حين، انه يحقق له شيئاً يبتغيه.

أما كيف بدأت هواية جمع الطوابع، فأنه جاء في بعض المنشورات القديمة، انه في نحو سنة ١٨٦٠، أي بعد عشرين عاماً من ظهور أول طابع في العالم، وهو الذي حمل صورة الملكة فكتوريا ملكة بريطانيا، قامت سيدة من عائلة انكليزية ثرية باحضار ما لديها من غلافات عليها طوابع بريدية، واعطتها لابنها المريض عصبياً، ليلهو بنزع الطوابع عنها والتسليّ بصفّها وترتيبها.

استهوت اللعبة الصبيّ المريض واصبح مولعاً بتلك الطوابع. وانتقلت العدوى إلى من زاره من اترابه، فانتشرت هذه الهواية في محيط

محدود اولاً في بريطانيا، ثم توسعت تدريجياً حتى شملت العالم.

لم تقتصر الهواية على الاولاد فحسب، بل تعدتها إلى الكبار أيضاً، لكن هؤلاء كانوا في البدء يخشون الجهر، لئلا يتهموا بالخفة والسخافة. فكانوا يجتمعون خفية كل مرة في بيت واحد منهم، ليتبادلوا الطوابع والآراء والاحاديث عنها، إلى أن اصبحت فيما بعد، هواية الملوك والامراء، والاغنياء والفقراء، وعادت لا تقف عند حدّ المتعة البسيطة فحسب، بل اصبحت بالاضافة إلى ذلك رياضة ذهنية وعقلية ونفسية وتربوية وتثقيفية، تحدو بصاحبها إلى الهدوء والتركيز الفكري وإلى النظافة والترتيب الذوقي وإلى الاستفادة المادية في آخر المطاف، لانها ولو بدأت بتجميع ضئيل أو محدود، بحسب امكانية الشخص، فانها ادِّخار بسيط قد يصبح استثماراً حقيقياً يكبر ويزيد مع الزمن، وهي الطريقة الوحيدة التي تُمكِّن الفقير وذا الدخل المتوسط من ان يحرز مدَّخرات تصبح مع الوقت ذات قيمة عالية، وخصوصاً اذا تمكن من المواظبة ودرس شؤون الطوابع في البلاد التي يجمع طوابعها، وقد يسعده الحظ يوماً، فيقع على قطع ثمينة أو قد تُستهلك الطوابع التي لديه منها، فترتفع قيمتها. وبالمثابرة المتواصلة والحرص على اكمال مجاميع البلد الذي يجمع طوابعه يحقق الفرص الاكيدة للربح.

ولنبحث الآن اصول هذه الهواية التي يكتسبها الانسان بالاطلاع المرحلي.

– عليه ان يجمع كل ما تقع يده عليه، وان يشتري من البريد كل مجموعة تصدر بلا استثناء، عادية كانت أم جوية أم تذكارية ومهما غلت قيمتها، فالمجموعة الثمينة اصلاً هي التي يستفيد منها الهاوي في المستقبل، لأن عدد الصادر منها اقل من غيرها، ولأنه ليس بمقدور كل الهواة شراؤها، وهذه المرحلة يجب ان تستمر بكل دقة، مع الانتباه عند الشراء لحالة كل طابع من حيث تخريمه ووضعه العام، وهذه المرحلة نسميها مرحلة التجميع.

– أما المرحلة الثانية فهي ان تحافظ على ما تشتريه بعيداً عن العطب والرطوبة، وعدم وضع المجلدات التي تحوي طوابعك أفقياً، فتلتصق الطوابع من الثقل، بل يجب وقف المجلد عمودياً مثل الكتب في المكتبات.

خلال هذه «البرهة» التي تستمر سنوات، يقوم بين المرء وطوابعه نوع من الالفة التي تجعله مع مرَّ الايام، يفضل بعضها على بعض، ويرتاح إلى بعضها أكثر من بعضها الآخر، وبما انها تكون قد اخذت تتكاثر عنده وتقتضيه زيادة من العناية والوقت والنفقات أيضاً، فيفكر عندئذ بان يتخصص بجمع نوع الطوابع التي يأنس بها أكثر من غيرها، فيصرف عناية إليها، ويوفر توظيفاته المالية فيها. اننا نسمي هذه المرحلة: مرحلة الاختبار، أي المرحلة التي سيختار فيها نوع الطوابع التي سيقتصر عليها في مجموعته، والغاية التي سيتوخّاها منها.

ليست عملية الاختيار بالامر الهيِّن، ونحن سنساعده على ذلك، فننصح له باديء ذي بدء بان يهتم في الدرجة الأولى بطوابع بلاده، وان يبذل لها ما يستطيع لكي يستكملها، وهذا يتطلب كثيراً من الجهد والبحث. واذا كانت امكانياته وفيرة، فينتقي طوابع احدى البلاد العربية الاخرى، التي تستهويه، من حيث الرسم الفني والالوان والموضوعات، إن كانت علمية أو فنية الخ. ولا ينسى أنَّ عليه ان يخصص مبلغاً من المال شهرياً وباستمرار، سعياً وراء استكمال مجموعات البلد الذي يجمع طوابعه، وخصوصاً مجموعات بلاده.

واذا كان يميل في هوايته إلى الناحية الجمالية، فبوسعه ان يجمع إلى جانب طوابع بلاده، مواضيع شتى من مختلف البلدان، كالشخصيات السياسية أو الملوك أو العلماء أو اللوحات العالمية أو الطيور أو الرياضة أو الازهار أو علوم الفضاء، أو القطارات والبواخر والطائرات. فهناك عشرات الموضوعات موجودة على الطوابع، فيجمع الموضوع الذي يهواه، واننا ننصح بالاقبال على طوابع البلدان العربية، وكلما ازداد عدد الهواة المتخصصين بالطوابع العربية، وهي المحدودة الكمية بالنسبة إلى الملايين وعشرات الملايين من الطوابع الاجنبية، يزداد عليها الطلب وترتفع قيمتها ككل سلعة او سهم تجاري أو حكومي، فعلينا ان

نشجع انتاج بلادنا أولاً لتكون الاستفادة بالنتيجة لنا.

— هنا تأتي المرحلة الثالثة والاخيرة، وهي مرحلة الهواية الرصينة، فتتناول الطوابع البريدية من عادية وبريد جوي ومستحق، وهي المجموعات «الستندار» أو المألوفة، اذ انها تكون موسّعة فتتناول البطاقات والطوابع غير المخرَّمة والاخطاء التي تمرّ في غفلة من المراقبة فتصير قيمتها ذات شأن، وهناك الاختام على الطوابع والغلافات القديمة، وهذا يقتضي في جمعه الاعتماد على القواميس العالمية للطوابع، لانه ويا للأسف لم تصدر قواميس عربية بعد، سوى قاموس زهيري عن الطوابع المصرية فقط، في حيِّز التفاصيل التي ذكرناها في حديثنا عن تاريخ الطوابع.

وهكذا عندما يتدرَّج الهاوي في جميع مراحل الهواية، وتتحسن امكانياته مع الممارسة بالشراء الصحيح والمبادلة مع الآخرين، يصير ركيزة قوية وعضواً عاملاً مفيداً ومستفيداً للمجتمع الطوابعي، وكلما كثرت تلك الركائز ازدهرت الطوابع العربية واصبحت مرفقاً من مرافق البلاد، وقوة اقتصادية يُعتمد عليها مثلها مثل طوابع البلاد الغربية المشهورة والمطلوبة عالمياً.

وقد تستغرب ايها الصديق الهاوي، عندما تعلم ان التقديرات لعدد الهواة الاجانب تشير إلى انهم يعدّون بالملايين، وان كلًّا منهم يجمع طوابع بلاده اولاً، وهكذا تزدهر طوابع البلد ويصير لها قيمة. وننقل هنا ما اوردته هيئة البريد المصرية في احدى نشراتها الخاصة، من انه في يونيو سنة ١٩٦٣ أنشىء مكتب خدمة هواة جمع الطوابع في ادارة البريد البريطانية، وخلال العشرة اشهر من تاريخ انشائه، تقدم إليه عشرة آلاف طلب لشراء الطوابع الانكليزية الصادرة آنذاك، بما قيمته ٨٠ ألف جنيه استرليني.

وان الاعضاء المشتركين في الاتحاد الاهلي لهواة جمع الطوابع في المجر، يزيد على ١٠٠ ألف مشترك، وللاتحاد مجلة تتكلم باسم الهواة، تُصدر ٧٥ ألف نسخة من الطبعة الواحدة.

ويُقدَّر عدد هواة جمع الطوابع في الولايات المتحدة بستة عشر مليوناً سنة ١٩٧٨، حسبما جاء في كتاب «طوابع وقصص» الذي نشرته شركة سكوت للنشر لحساب مؤسسة بريد الولايات المتحدة الاميركية. ويذكر نكتة عن امرأة شابة انها كتبت اعلاناً في «لندن تايمز» سنة ١٩٤١، تقول فيه انها مستعدة لشراء طوابع مستعملة تكفي لتغطية حائط غرفة نومها!

ويذكر الكتاب ايضاً، ان نوادي هواية جمع الطوابع تكاد لا تُعد في الولايات المتحدة، وهي منظمة بحيث تُعلِّم الهواية رسمياً لطلاب وطالبات المدارس كمادة رياضية، ويقول انه في نيسان ١٩٧٨، كان عدد الاعضاء في الـ ٢٤ ألف نادٍ مختلف في مدارس جنوب شرقي البلاد فقط، ٦٠٠ ألف طالبة وطالب، ويصل إلى ٧٥٠ ألف عضو في اواخر ١٩٧٨.

ويشير الكتاب إلى ان سرور الهاوي يتضاعف عندما يشارك شخصاً آخر في هذه الهواية ويتبادل واياه الطوابع والآراء بشأنها، ويتعلَّم منه كما يُفضي إليه بما يعلم.

لذلك لا بد ان يشجع كل هاو هذه التسلية المفيدة، التي تقي الشباب شر الأنحراف وتُنمِّي فيهم ملكة البحث والمثابرة، ويسعى إلى الدعاية لها ونشر معلوماته عنها وعن فوائدها على الصغار والكبار، وأن يشجع تأسيس نادٍ أو جمعية للهواة في المدارس أو المجتمعات الخاصة، فمثل هذه النوادي تخلق الصداقات بين الاشخاص مهما اختلفت معتقداتهم، وبين الشعوب العربية عن طريق المراسلات والمؤتمرات الدورية الخاصة بالهواية، التي قد تنشأ في كل بلد، مثل اشتراك النوادي الرياضية لكرة القدم وغيرها. أما للكبار، فانها أكبر تسلية تساعدهم على التمتُّع بوقت الفراغ وطول ليالي الشتاء، ويمكن ان نسمي هذه الهواية حقاً، هواية السعادة الفكرية والنفسية من المهد إلى اللحد.

واختم بحثي بحثِّ القراء والهواة على الّا يتأخروا عن ابداء رأيهم وارسال سؤالاتهم واقتراحاتهم وايضاً انتقاداتهم الينا، لنباشر معاً تأسيس علاقة واتصال مستمر عن طريق

المجلة، فنمشي معاً الطريق بطوله في بناء المبادلة الفكرية، ونحن مستعدون للاستمرار في نشر المواد لهذه الهواية، كما نؤكد استعدادنا، بمساعدة القراء وتأكيدهم لتأليف قاموس عن جميع الطوابع العربية، يُنشر تدريجياً شهراً بعد شهر، ليكون كاملاً بعد فترة معقولة، ويكون منطلقاً لمنارةٍ تُضيء للهواة العرب طريقهم التي طالما تخبَّطوا وضلُّوا فيها متعثرين في التجميع البدائي، وكانوا عرضةً كذلك لجشع الباعة غير المسؤولين هنا وفي الخارج، والذي يؤول بمعظمهم إلى نبذ الهواية نهائياً وخسارة ما انفقوا عليها من مال.

ومثل هذا القاموس، يكون الأول في اللغة العربية الشامل لجميع طوابع البلدان العربية، ولا يكلفهم المبالغ الباهظة التي يدفعونها ثمناً للقواميس الاجنبية. ■



اخبار الطوابع الحديثة

الجمهورية العربية السورية

نشكر المؤسسة العامة للبريد السوري التي لا تزال تواظب على ارسال نماذج الاصدارات الجديدة لطوابع سوريا، ونرجو لو تؤمن لنا تسلّم برنامج السنة الكاملة للاصدارات بجميع تفاصيلها مسبقاً، لكي نعلنه بدورنا إلى القراء والهواة، خدمة للمصلحة العامة.

كما نأمل لو تحذو المؤسسات البريدية للبلاد العربية الاخرى حذو سوريا، وتتحفنا مسبقاً بأخبار الطوابع لديها، حتى نصدرها في مجلتنا في حينه وبدون تأخير.

نسجل هنا اليوم اصدارات سوريا لسنة ١٩٨٠ مفصلة وبحسب تاريخ الصدور:

- ٦ طوابع ٢٥٥ قرشاً، معرض الزهور الدولي ١٩٨٠/١/٩.
- ٣ طوابع ١١٥٠ قرشاً، الندوة العالمية الثانية لتاريخ العلوم عند العرب ١٩٨٠/٣/١٥.
- طابع واحد ٤٠ قرشاً، الذكرى السابعة عشرة لثورة الثامن من آذار ١٩٨٠/٣/٢٥.
- طابعان ١٦٠ قرشاً، مكافحة التدخين ١٩٨٠/٦/٢٥.
- طابعان ١٠٠ قرش، العيد الرابع والثلاثون للجلاء ١٩٨٠/٦/٢٥.
- ٥ طوابع وبطاقة ٥٠٠ قرش، الاولمبياد الثاني والعشرون موسكو ١٩٨٠/٨/١٧.
- طابع واحد ٢٥ قرشاً، شهادة الاستثمار ١٩٨٠/١٠/١٤.
- طابع واحد ٣٥ قرشاً، القرن الهجري الخامس عشر ١٩٨٠/١١/٥.
- ٥ طوابع ٢٥٠ قرشاً، معرض الزهور الدولي ١٩٨٠/١١/٥.
- ٥ طوابع ٢٢٥ قرشاً، القصص الشعبي ١٩٨٠/١١/٥.
- طابع واحد ١٠٠ قرش، الحركة التصحيحية ١٩٨٠/١١/١٦.
- طابعان ١٤٠ قرشاً، عيد الام ١٩٨٠/١٢/٣٠.
- طابع واحد ٣٥ قرشاً، عيد العمال العالمي ١٩٨٠/١٢/٣٠.
- طابع واحد ٢٥ قرشاً، عيد الطفل العالمي ١٩٨٠/١٢/٣٠.
- ٥ طوابع ٢١٠ قروش، نماذج سيارات قديمة.

● مثل مَن باع بلاده وخان وطنه، مثل الذي يسرق من مال أبيه وأخيخ ليطعم اللصوص، فلا أبوه يسامحه ولا اللص يكافئه.

نابليون

موقف السلطان عبد الحميد الثاني من الحركة الصهيونية

لقد شيد الإسلام بمنهجه الحركي الرائع «قلعة شامخة في التعامل الانساني - والأخذ والعطاء قلعة تنشر النور والهداية على الكون كله. غير أن هذه القلعة كانت ولا تزال وستكون دوماً مستهدفة وعرضة للضربات والطعنات الموجهة من الأعداء لتشويه الصورة الجميلة وحجب النور والهواء عن كل إنسان. وأشد هذه الضربات «الضربة الصهيونية»!!.

فالاعلام الصهيوني حاول تشويه صورة بعض المراحل التاريخية الاسلامية في محاولة يائسة للتشكيك، وخاصة خلافة السلطان عبدالحميد الثاني (١٨٤٢ - ١٩١٨). ومن هنا تبرز أهمية هذا الموضوع. فلقد راودت هرتزل - زعيم الحركة الصهيونية - أفكاره الجهنمية بانشاء وطن قومي لليهود وكما تجدد في نفسه الأمل في سيطرة يهودية على العالم وهو يستعرض أفكاره تلك فاستنفر جهوده وطاقاته نحو تحقيق هذه الأفكار، ورأى أنه مطالب بالحرب في ثلاث جبهات وهي: جبهة اليهود أنفسهم وإقناعهم بضرورة إنشاء وطن قومي لليهود، وجبهة الدول الكبرى وخاصة الاستعمارية مثل فرنسا وبريطانيا والمانيا وروسيا وغيرها.

والجبهة الثالثة - وهي موضوعنا هنا - السلطان عبد الحميد خليفة المسلمين؟! وهذه الجبهة تتضح فيها المواجهة بين خليفة المسلمين وزعيم الصهيونية. ومن خلال ذلك يبرز لنا الموقف العظيم الذي وقفه السلطان في هذه المواجهة. فلقد أجمعت معظم المصادر التاريخية على أن نشاط هرتزل اليائس على الجبهتين السابقتين ومحاولاته مع البابوية والحكام الأوروبيين إنما كانت تهدف للحصول على ضمانة دولية وعلى ضغط أوروبي سياسي على السلطان العثماني لإقناعه بالمشروع الصهيوني [1] ولكي ندرك البعد الحقيقي لنشاط هرتزل فستقوم بمحاولة جادة للتتبع التاريخي لمحاولاته ومخططاته على النحو التالي: -

١ - **لماذا اختار هرتزل السلطان عبدالحميد؟**- لقد اختار هرتزل السلطان عبدالحميد في محاولاته لانشاء وطن قومي لليهود لأن فلسطين تقع ضمن ممتلكاته الأسيوية - والصهيونية ترى أن لها حقاً تاريخياً في فلسطين بصفتها «الأرض الموعودة» كما أنه استغل الوضع المتردي اقتصادياً وعسكرياً وسياسياً للدولة العثمانية.

٢ - **إتصالات هرتزل بالسلطان**: كان صديق هرتزل الصهيوني «لاندو» قد أوحى له منذ ٢٤ - ٩ - ١٨٩٦ بفكرة وصفها هرتزل بانها جيدة وهي ان يوسط مع السلطان صديقه نيولنسكي [2] ناشر بريد الشرق - كما أن صديقاً آخر لهرتزل «صموئيل مونتاجو» أوحى له بفكرة أخرى... وهي فكرة رشوة السلطان

بمليوني جنيه مقابل الحصول على فلسطين ويمكن الحصول على موقف السلطان عبدالحميد من الاتصال الأول بينه وبين هرتزل عن طريق نيولنسكي بما أوضحه هرتزل نفسه في مذكراته حين قال «جاء نيولنسكي ليزورني وكنت قد اتصلت به تلفونياً وأطلعته باختصار على تطورات القضية وأخبرني أنه قرأ كراستي قبل ذهابه إلى القسطنطينية وتحدث عنها إلى السلطان وان السلطان قال انه لن يتخلى أبداً عن القدس. بل يجب أن يبقى جامع عمر بيد المسلمين دائماً»(٣) كما ذكر هرتزل في مذكراته أيضاً رد السلطان عبدالحميد على العرض الذي قدمه هرتزل وهو رشوة السلطان وقال نقلاً عن صديقه نيولنسكي: «قال لي السلطان إذا كان هرتزل صديقك بقدر ما أنت صديقي فانصحه ان لا يسير أبداً في هذا الأمر. لا أقدر ان ابيع ولو قدماً واحداً من البلاد وانها ليست لي بل لشعبي لقد حصل شعبي على هذه الامبراطورية باراقة دمائهم وقد غذوها فيما بعد بدمائهم وسوف نغطيها بدمائنا قبل أن نسمح لأحد باغتصابها منا لأي غرض كان - »(٤) وقد عبر عن هذا الموقف السلطان عبدالحميد نفسه فقال: «لن يستطيع رئيس الصهاينة - هيرتزل - ان يقنعني بأفكاره وقد يكون قوله - ستحل المشكلة اليهودية يوم يقوم فيه اليهودي على قيادة محراثه بيده - صحيحاً في رأيه. انه يسعى لتأمين أرض لاخوانه اليهود لكنه ينسى ان الذكاء ليس كافياً لحل جميع المشاكل».(٥) واذا كان موقف السلطان عبدالحميد جديراً بالتسجيل والاشادة، فان هذه الاشارة وذلك التسجيل يسترعيان الانتباه أكثر اذا أخذنا في الاعتبار الضغوط الداخلية والخارجية على السلطان عبدالحميد. ورغم المحاولات الكثيرة من جانب هرتزل للوصول إلى السلطان عبدالحميد التي باءت بالفشل الا أنها لم تقض على الأمل المنتعش في نفس هرتزل. فلقد وصل هرتزل إلى اسطنبول في ١٩٠١/١٥/١٣ وقابل السلطان عبدالحميد وسجل هرتزل في مذكراته وصفاً لتلك المقابلة وما جرى فيها حيث بدأ لقائه والحاخام اليهودي موسى ليفي مع السلطان بمقدمات مقعمة بالرياء والخداع ثم حاول الوصول إلى أهدافه بعرض المشاكل التي تعاني منها الدولة العثمانية، ولكن السلطان عبدالحميد - كما ذكر هرتزل في مذكراته - رد على هرتزل قائلاً: «انني أحب تطبيق العدالة والمساواة على جميع المواطنين. لكن إقامة دولة يهودية في فلسطين التي فتحناها بدماء أجدادنا العظام فلا - وذكر السلطان ان لو علم بأن هذا الاجتماع سيدور حول فلسطين دون القضايا المالية لاضطر منذ البدء إلى إلغائه»(٦). وقد سجل هرتزل انطباعه عن السلطان عبدالحميد بما يلي: «انه رجل ضعيف وجبان ولكنه طيب القلب ولا أعتبره داهية ولا صارماً بل سجيناً تعيساً ترتكب بطانة طماعة رديئة باسمه أقبح رجس ولعل عار الارتشاء الذي يبدأ على بوابة القصر ولا ينتهي الا بعد قدم واحد فقط من العرش أسوأ ما في الأمر. فكل موظف لص»(٧) وإنصافاً لموقف السلطان عبدالحميد خلال هذه المقابلة فان الشعور بالانكسار والغضب الشديد الذي أخرج هرتزل عن طوره فسجل انفعالاته عن السلطان إنما هو في نفس الوقت اشادة بالسلطان. فهو ذلك السلطان الذي استطاع وسط جماعة من اللصوص وفي ظروف عصيبة أن يبحر بالسفينة إلى بر الأمان، وقد عبر هرتزل بنفسه عن هذه الحقيقة حين قال: «لقد تأثرت بأقوال السلطان التي تتسم بالحقيقة والفخر رغم أنها تضع في الوقت الحاضر نهاية لكل آمالي...» ولعله من العجيب لنا أن نتصور السلطان عبدالحميد كيف سيكون لو قبل المشروع الصهيوني انه لن يكون قطعاً - ويا للعجب - رجلاً ضعيفاً ولا جباناً بل سيكون داهية وصارماً على حد قناعة هرتزل وتصوراته الخاطئة.

ثم أصبح هرتزل يتخبط يمنة ويسرة بحثاً عن أي ثغرة يدخل منها إلى أهدافه الا أن موقف السلطان عبدالحميد كان حاذقاً ولم يستطع هرتزل ورغم الضغط المستمر منه ومن أعوانه المستعمرين أن يصل إلى تلك الثغرة غير أن هرتزل لم يكن متناسياً ولا ناسياً التفكير في إزاحة السلطان عبدالحميد عن طريق الانطلاقة الصهيونية... ومن خلال الاستقراء المتتبع للموقف الجاد الذي وقفه السلطان عبدالحميد

خلال مواجهة مع الصهيونية العالمية والاستعمار حيال استعمار فلسطين يمكن الوصول إلى أهم نتيجتين تركهما هذا الموقف: -

١ - تأخر الغزو الصهيوني لفلسطين. وهي نتيجة جديرة بالتسجيل ووسام شرف يمنح للسلطان عبدالحميد.

٢ - خلع السلطان عبدالحميد وإقصاؤه عن الحكم بعد أن عجزت الدول الاستعمارية والصهيونية مجتمعة أن تثنيه عن عزمه وبهذا حصلت المؤامرة التي انتهت بخلع السلطان وبالغاء الخلافة الاسلامية سنة ١٩٠٨. أما عبدالحميد فقد كان موقفه من عزله موقفاً شجاعاً أوضحه في رسالته إلى شيخ الطريقة الشاذلية حيث يقول: «هذا وحمدت المولى وأحمد. أنني لم أقبل أن ألطخ الدولة العثمانية والعالم الاسلامي بهذا العار الأبدي الناشيء عن تكاليفهم باقامة دولة يهودية في الأراضي المقدسة بفلسطين»(٨).

فهد عبدالله السماري

هوامش

(١) حسان حلاق - موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية - ص١١٢.

(٢) هو «فيليب مايكل نيولنسكي» (١٨٤١ - ١٨٩٩) صحفي نمساوي وعميل سياسي من أصل بولوني - عمل مسؤولاً في الادارة السياسية في السفارة النمساوية في القسطنطينية واصبح صديقاً للسلطان فيما بعد.

(٣) يوميات هرتزل - تعريب هيلدا صايغ أنظر ص (٣٥).

(٤) يوميات هرتزل - تعريب هيلدا صايغ أنظر ص (٣٥).

(٥) السلطان عبدالحميد - مذكراته - مؤسسة الرسالة ص٢٤.

(٦) يوميات هرتزل - تعريب هيلدا صايغ ص١٧٣ - ١٧٨.

(٧) يوميات هرتزل - تعريب هيلدا صايغ ص١٧٣-١٧٨.

(٨) مذكرات السلطان عبدالحميد - مؤسسة الرسالة - هامش ص٣٧.

سامرا في عهد الخليفة المعتصم وحرسه

السر في بناء سامرا:



عندما تولى الخليفة المعتصم الخلافة بعد أبيه المأمون سنة ٢١٨هـ، أهمل العنصر العربي والفارسي معاً، واعتمد على الأتراك الذين اتخذ لهم حرساً له، يشبهه بروكلمان بالحرس البريتودي الروماني فكان المعتصم بذلك أول خليفة عباسي يستعين بالأتراك. ولم يلبث هؤلاء الأتراك أن أصبحوا آفة على أهل بغداد الذين عانوا من ظلمهم وتعنتهم الشيء الكثير، وتعرض العامة لأحداث كثيرة أشار إليها المسعودي والطبري لعل أقلها أن فرسان الأتراك كانوا يقتلون الأطفال والنساء تحت أرجل خيولهم. واجتناباً لفوضى الأتراك في شوارع بغداد، عزم المعتصم على أن ينشيء سنة ٢٢١هـ مقراً جديداً له ولحرسه التركي في سامرا.

موقع سامرا:

سامرا أو (سرّ من رأى) تقع على الضفة الشرقية أي اليمنى من دجلة شمالي بغداد بحوالي مائة كيلو مترا.

الفن المعماري، وآثار سامرا:

لقد عهد المعتصم في بنائها إلى قائده «أشناس» التركي سنة ٢٢١هـ فأنشأ فيها قناتين متفرعتين من دجلة نحو الشرق، خلعتا على المدينة الجديدة بالاضافة الى النهر نفسه متعة الحصن البحري. ولقد شيد قصر الجوسق للمعتصم أولا حتى إذا ما جاء بعده خلفاؤه وكانوا سبعة حكموا طوال نصف قرن إزدان وسط المدينة بالقصور والمساجد الجديدة، وعلى الرغم من أنه

لم يبق لنا من هذه المنشآت الفخمة التي أقيمت خلال تلك الفترة القصيرة من الأزدهار إلا خرائب وأطلال. فالحق أنها تقدم لنا صورة عن فن العمارة في العصر العباسي تنبض بالحياة أكثر من تلك التي تقدمها لنا بغداد، حيث كشفت أيدي الأجيال المتأخرة عن آثارها. ولعل أهم العلماء الأثريين الذين كشفوا لنا عن فنون سامرا زارْ (Sarre)» و«هرتسفلد، Herzfeld)»، والواقع أن المعماريين المسلمين اعتمدوا في الشرق كما في الغرب الاسلامي على التقاليد المعمارية القديمة، فقصر الخليفة المتوكل المسمى «بلكوارا» وهو أهم بناء لا تزال أطلاله محفوظة لنا في سامرا، إنما شيد على طراز قصور المدائن الساسانية من حيث التخطيط العام وتصميم المساحات وشكل الواجهات، وهو مستطيل يبلغ طول كل من جانبيه ثلثي الميل تقريبا، وعلى الجهة الغربية المنحدرة نحو النهر كانت تقوم ثلاثة عقود من الآجر تؤدي الى القسم المخطط للسكن وقاعات الاستقبال العامة، وكانت هذه كلها ذات تخطيط متعاقد حول أروقة داخلية ثلاثة يحيط بها عدد من غرف الاستقبال والحمامات وغرف الخدم، والى الشرق كانت تحاذي القصر حديقة ذات نافورات والى الشمال كانت بركة الماء العظيمة تتوسط السراديب والآبار. وحول القصر تقوم مساكن الحاشية وثكنات الحرس الأتراك. أما مهندسو الجامع الكبير في سامرا، فقد تأثروا كما يؤكد بروكلمان باحدى الأبراج البابلية وهي «الزاقورة» ذلك بأنهم بنوا مئذنة هذا الجامع في سامرا بسلالم خارجية ملونة فوق قاعدة طولها ٢٨ ياردة (٢٥,٥ متراً). والحق أن الموارد العظيمة التي كانت لا تزال في متناول هؤلاء المعماريين على الرغم من أن الامبراطورية العباسية كانت في ذلك الوقت قد أخذت في الانحطاط لتظهر لنا أوضح ما يكون الظهور في ساحة هذا الجامع الهائلة حقا فهو بمثابة مستطيل يبلغ ٢٦٠ متراً طولاً و١٨٠ متراً عرضاً تقريباً، ويحتوي حصنه الداخلي المتوزع على ٢٥ بلاطة ٧٧ ألف متر مربع. ولا يخفى علينا ما للكشف عن أنقاض سامرا من أهمية في دراسة الفنون الاسلامية فإن المصادر التاريخية ولا سيما اليعقوبي ذكرت لنا كيف أحضر المعتصم أشهر الفنانين من أنحاء الامبراطورية الاسلامية ليجعل من عاصمته الجديدة أكبر منافس لبغداد. وقد كشفت حفريات البعثة الألمانية من أنقاض القصور الملكية وكثير من دور الخاصة، وكلها تسود فيها الأوضاع والتقاليد المعمارية الايرانية، وقد لعبت الزخارف الجصية دوراً كبيراً في قاعات الأبنية وردهاتها بسامرا، ولاسيما في الأجزاء السفلية من الجدران التي يطلق عليها اسم «الوزرات» (Dados) وقوام هذه الزخارف المحفورة في الحجر بعناية ودقة عناصر هندسية ونباتية وأوراق وفروع العنب وعناقيده والورد والمرواح النخلية، وقد عثر الأستاذ هرتزفلد (Herzfeld) بين أنقاض سامرا على بعض صور حائطية كان أغلبها في حالة سيئة، كما عثر على امضاءات أغريقية، فيحتمل أن يكون بين الفنانين الذين رسموا هذه الصور بعض النقاشين الاغريق.

امزابي الحسين
المملكة المغربية

المراجع

١ - «تاريخ الشعوب الاسلامية» بروكلمان.
٢ - «مروج الذهب ومعادن الجوهر» المسعودي.
٣ - «تاريخ الطبري» الطبري.
٤ - «البلدان» اليعقوبي.
٥ - Sarre herzfeld, archeologische reise in Euphrat und Tigris Gebiet, 4 vols Berlin 1911-1920.
٦ - Herzfeld, Der Wands chmuck der Banten von S'amarra und selne Ormamentik. Berlin 1923.



● واجبنا نحن الزعماء ان نبث في الشعب روح الأمل والتفاؤل، فإن الشعوب الضعيفة المقهورة لن تقوى ولن تنتصر ما بقيت يائسة متشائمة، ولكن لا سبيل إلى ذلك إلا إذا ضرب الزعماء الأمثال على انهم في المقدمة والطليعة، جراءة وتضحية واقداماً.

جواهرلال نهرو

الماضي الذي سيأتي في عددنا المقبل

LUNDI 13 SEPTEMBRE 1943

Le Petit Parisien

ÉDITION DE PARIS

5 heures

1 Franc

11, RUE D'ENGHIEN, 11 PARIS-X

LE DUCE EST LIBÉRÉ par des parachutistes allemands !

Berlin, 12 septembre. — Le quartier général du Führer publie le communiqué spécial suivant : Des parachutistes allemands, des hommes du service de sécurité et de la S. S. ont effectué dimanche un coup de main pour libérer le Duce, tenu en captivité par la clique de la trahison. Le coup de main a réussi : le Duce est en liberté. Ainsi, sa remise aux Anglo-Américains combinée par Badoglio se trouve déjouée.

Réflexions pour les Français à la lumière des événements italiens

LA RIPOSTE ALLEMANDE EN ITALIE FAIT ÉCHEC AUX PLANS ANGLO-AMÉRICAINS

Tandis que les troupes du maréchal Badoglio abandonnent partout la lutte, les forces d'invasion se heurtent, à Salerne et en Calabre, à une résistance renforcée

Le maintien de l'ordre intérieur et la protection de la population contre les bombardements

LA COTE DALMATE ET L'ILE DE RHODES sont entièrement sous le contrôle du Reich

LES ENDROITS STRATÉGIQUES SONT OCCUPÉS

LES CONDITIONS DE L'ARMISTICE

AU SUJET DU NOUVEAU SIGNAL D'ALERTE

UN DÉBARQUEMENT SOVIÉTIQUE DANS LA PARTIE OUEST DU PORT EST REPOUSSÉ A NOVOROSSIISK

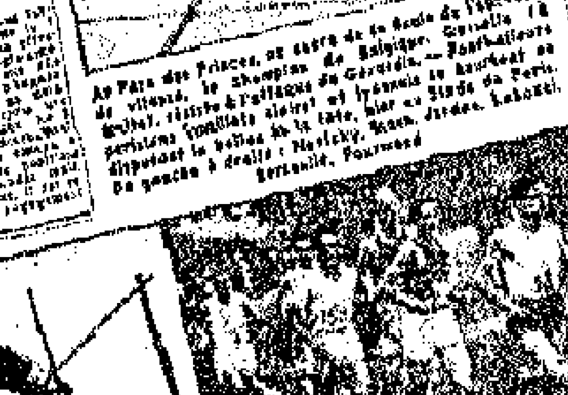
Des combats se poursuivent à l'est de la base

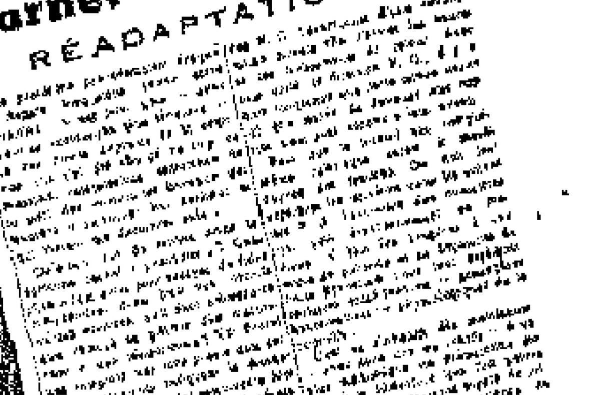
EN OCÉANIE

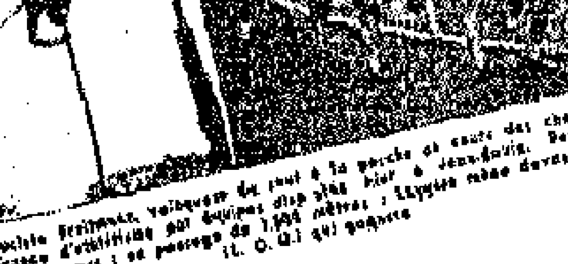
LES AMÉRICAINS TENTENT UN COUP DE MAIN DANS L'ILE D'ARUNDEL











Carnet du prisonnier

RÉADAPTATION

Des formations navales britanniques sont dispersées au large de Cherbourg

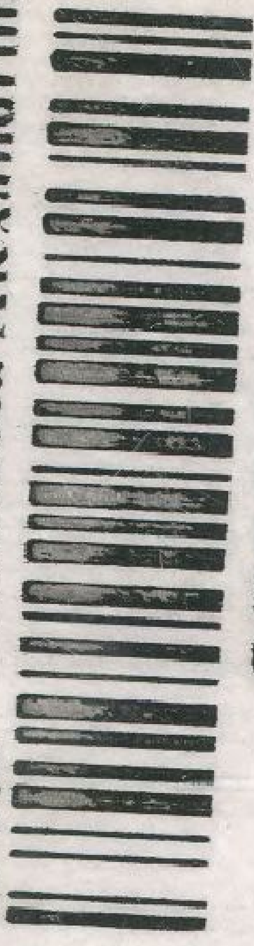
Les bombardements anglo-américains

AU PORTEL : 400 MORTS

LA VILLE EST ÉVACUÉE

كيف انقذ سكورزيني موسوليني ؟




Bibliotheca Alexandrina
0537074
